

التبيان في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الثامن

دار إحياء التراث العربي

سورة الشعراء

سورة النمل

سورة القصص

سورة العنكبوت

سورة الروم

سورة لقمان

سورة الم السجدة

سورة الاحزاب

سورة سبأ

سورة فاطر

سورة يس

سورة الصافات

سورة ص

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الثالث

دار إحياء التراث العربي

الآية: ١٤١ - ١٤٩

الآية: ١٥٠ - ١٥٩

الآية: ١٦٠ - ١٦٩

الآية: ١٧٠ - ١٧٩

الآية: ١٨٠ - ١٨٩

الآية: ١٩٠ - ٢٠٠

سورة النساء

الآية: ١ - ٩

الآية: ١٠ - ١٩

الآية: ٢٠ - ٢٩

الآية: ٣٠ - ٣٩

الآية: ٤٠ - ٤٩

الآية: ٥٠ - ٥٩

الآية: ٦٠ - ٦٩

الآية: ٧٠ - ٧٩

الآية: ٨٠ - ٨٩

الآية: ٩٠ - ٩٩

الآية: ١٠٠ - ١٠٩

الآية: ١١٠ - ١١٨

الآية: ١١٩ - ١٢٩

الآية: ١٣٠ - ١٣٩

الآية: ١٤٠ - ١٤٩

الآية: ١٥٠ - ١٥٩

الآية: ١٦٠ - ١٧٦

سورة المائدة

الآية: ١ - ٩

الآية: ١٠ - ١٩

الآية: ٢٠ - ٢٩

الآية: ٣٠ - ٣٩

الآية: ٤٠ - ٤٩

الآية: ٥٠ - ٥٩

الآية: ٦٠ - ٦٩

الآية: ٧٠ - ٨٢

(١)

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الثالث

دار إحياء التراث العربي

(٣)

قوله تعالى: (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) (١٤١) آية. المعنى، واللغة:

قيل: في معنى قوله: " وليمحص الله " أربعة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: ليبنتلي، " ويمحق الكافرين " بنقصهم في قول ابن عباس، وقال غيره يهلكهم، وقال الفراء: " معنى " وليمحص الله " يعني ذنوب المؤمنين، وقال الزجاج: يخلصهم من الذنوب وهذا قريب من قول الفراء: وقال الرماني معناه " وليمحص الله الذين آمنوا " ينجيهم من الذنوب بالابتلاء ويهلك الكافرين بالذنوب عند الابتلاء، وأصل التمحيص التخليص في قول أبي العباس تقول محصت الشيء أمحصه محصا: إذا خلصته. وقال الخليل: المحص الخلوص من العيب. محصته محصا أي خلصته من كل عيب، ومحص الجمل: إذا ذهب وبره يمحص. وجبل محص أي ملص، ومحص الظبي، يمحص إذا عدا عدوا شديدا محصا، ويستحب أن تمحص قوائم الفرس أي تخلص من الرهل. وتقول: اللهم

محص عنا ذنوبنا أي اذهبها عنا، لأنه تخليص الحسنات بتكفير السيئات. ويقال تمحص
الفرس:

إذا ذهب شحمه الرديء، وبقي لحمه، وقوته بالضمور. وأصل المحق فناء الشئ حالاً بعد حال،
ولهذا دخله معنى نقصان، وأمحق الشئ امحاقاً، والمحاق: آخر الشهر إذا أمحق الهلال، فلم
ير، لذهاب ضوئه حالاً بعد حال. وامتحق الشئ وتمحق:

إذا ذهبت بركته بنقصانها حالاً بعد حال. ومحقه تمحيقاً. وإنما قابل بين التمحيص، والمحق،
لان محص هؤلاء باهلاك ذنوبهم نظير محق أولئك باهلاك أنفسهم، وهذه مقابلة في المعنى.
وقيل في تمحيص المؤمنين بالمداولة قولان:

أحدهما - لما في تخليتهم مع تمكين الكافرين منهم من التعريض للصبر الذي يستحقون به
عظيم الاجر، ويحط كثيراً من الذنوب.

الثاني - لما في ذلك من اللطف الذي يعصم من اقتراف المعصية.

(٤)

قوله تعالى:

(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) (١٤٢) آية بلا
خلاف.

القراءة والمعنى واللغة:

قرأ الحسن " ويعلم الصابرين " بكسر الميم. الباقون بفتحها. ووجه قراءة الحسن أنه عطف
على، ولما يعلم الله كأنه قال، ولما يعلم الله ويعلم الصابرين. وقوله:
" أم حسبتم " معناه: أحسبتم " ان تدخلوا الجنة " وقيل معنى (أم) معنى بل على جهة الإنكار،
لان يحسبوا ذلك الحسبان، كما يقال: قد صممت على الخلاف أم تتوهم الإهمال، والفرق بين
لم ولما أن لما جواب، لقول القائل: قد فعل فلان يريد به الحال، فجوابه (لما فعل) وإذا قال:
فعل فجوابه (لم يفعل)، فلما كانت (لما) مؤكدة بحرف كانت جواباً لما هو مؤكد بحرف
وأيضاً، فإنه يجوز الوقف على (لما) في مثل أن يقول القائل: قد جاء فلان، فيجيبه آخر
فيقول:

لما أي لما يجيء، ولا يجوز ذلك في (لم). ومعنى " ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم " أي لما
يعلم الله جهادكم يعني أنهم لا يدخلون الجنة إلا بفعل الجهاد، لأنه من أعظم أركان الشرع.
وقوله: " ويعلم الصابرين " نصب على الصرف عن العطف إذ ليس المعنى على نفي الثاني،
والاول، وإنما هو على نفي اجتماع الثاني والاول، نحو قولهم: لا يسعني شئ ويعجز عنك.
وقال الشاعر:

لأنته عن خلق وتأتي مثله * عار عليك إذا فعلت عظيم (١)
وانما جاز " ولا يعلم الله الذين جاهدوا منكم) على معنى نفي الجهاد دون

" ١ " قائله أبوالاسود الدؤلي، ونسب للمتوكل الكناني معجم البلدان ٧: ٣٨٤، والاعاني ١١: ٣٩ طبعة بولاق،
والبيت من الابيات الحكمية المشهورة وقبله
ابداً بنفسك فاتهما عن غيرها * فاذا انتهت عنه فأنت حكيم

(٥)

العلم، لما فيه من الايجاز في انتفاء الجهاد، لانه لو كان لعلمه، وتقديره ولما يكن المعلوم من
الجهاد الذي أوجب عليكم، لان المعنى مفهوم لا يشتبه.
قوله تعالى:

(ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) (١٤٣) آية.
المعنى:

قال الحسن، ومجاهد، والربيع: وقتادة، والسدي: كانوا يتمنون الموت بالشهادة بعد بدر قبل
أحد، فلما رأوه يوم أحد أعرض كثير منهم عنه، فانهزموا فعاتبهم الله على ذلك. وقوله: " فقد
رأيتموه " فيه حذف ومعناه رأيتم أسباب الموت، لان الموت لا يرى كما قال الشاعر:
ومحلما يمشون تحت لوائه * والموت تحت لواء آل محلم

أي أسباب الموت. وقال البلخي: معنى " رأيتموه " أي علمتم، وأنتم تنظرون أسباب الموت من
غير أن يكون في الاول حذف. فان قيل هل يجوز أن يتمنى قتل المشركين لهم ليناوا منزلة
الشهادة؟ قلنا: لا، لان قتل المشركين لهم معصية، ولا يجوز تمني المعاصي، كما لا يجوز
إدارتها، ولا الامر بها. فاذا ثبت ذلك، فتمنيهم الشهادة بالصبر على الجهاد إلى أن يقتلوا، وقال
الجبائي: إنما تمنوا الموت دون القتل إذا كانوا مجاهدين قال الازهري قوله: " رأيتموه وأنتم
تنظرون " معناه وأعينكم صحيحة، كما يقول القائل رأيت كذا، وليس في عينك سوء. والفرق
بين التمني والارادة أن الارادة من أفعال القلوب، والتمني هو قول القائل: ليت كان كذا وليت
لم يكن كذا. وقوله: " وأنتم تنظرون " بعد، قوله
" فقد رأيتموه " يحتمل أمرين "

أحدهما - أن يكون تأكيداً للرؤية، كما تقول: رأيت عياناً ورأيت بعيني.

(٦)

وسمعه بأذني، لئلا يتوهم رؤية القلب، وسمع العلم.

والثاني - أن يكون معناه وأنتم تتأملون الحال في ذلك كيف هي، لان النظر هو تقليب الحدفة الصحيحة نحو المرئي طلبا لرؤيته، وليس معناه الرؤية على وجه الحقيقة.
قوله تعالى:

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) (١٤٤) آية بلا خلاف.
القصة، والنزول:

قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك، ومجاهد: إن سبب نزول هذه الآية انه لما ارجف بان النبي (صلى الله عليه وآله) قتل يوم أحد واشيع ذلك، قال ناس لو كان نبيا ما قتل. وقال آخرون نقاتل على ماقاتل عليه حتى نلحق به، وكان سبب انهزامهم وتضعفهم اخلال الرماة بمكانهم من فم الشعب، وكان النبي (صلى الله عليه وآله) نهاهم عن الاخلال به، وحذرهم من الانصراف عن الشعب مخافة أن يخرج منه كمين عليهم.

فلما انهزم المشركون في الجولة الاولى، فتبعوهم المسلمون وتواقعوا في غنائمهم فقال الموكلون بالشعب: يغنمون ولا نغنم. فقال لهم رئيسهم: الله لا تفعلوا فان النبي (صلى الله عليه وآله) أمرنا ألا نبرح، فلم يقبلوا منه وانصرفوا، وثبت رئيسهم مع إثني عشر رجلا، فقتلوا، خرج عليهم خالد بن الوليد في مأتي فارس من الشعب، وكان كامنا فيه، وكان ذلك سبب هزيمة المسلمين، وإصابة رباعية النبي (صلى الله عليه وآله) وجرحه، وكان الذي جرحه وكسر رباعيته عتبة بن أبي وقاص، وقيل إن عبدالله ابن قمية ضربه على حبل عاتقه، ومضى إلى المشركين، وقال قتلت محمدا وشاع ذلك فأنزل الله هذه الآية

(٧)

فان قيل: كيف دخل الاستفهام على الشرط، وإنما هو كغيره من الانقلاب والتقدير أنتقلبون إن مات أو قتل؟ قيل: لانه لما انعقد الشرط به صار جملة واحدة وخبرا واحدا بمنزلة تقدير الاسم قبل الفعل في الذكر إذا قيل أزيد قام، وكذلك تقديمه في القسم، والاكتفاء بجواب الشرط من جواب القسم، كما قال الشاعر: (١).

حلفت له إن تدلج الليل لا يزل * أمامك بيت من بيوتي سائر (٢)
أي حلفت له لا يزال امامك بيت وأجاز الفراء في مثله أفان مات أو قتل " تتقلبون بالرفع، والجزم ومعنى " انقلبتم على أعقابكم " أي ارتددتم كفارا بعد إيمانكم، لان الرجوع عن الحق إلى الباطل بمنزلة رجوع القهقري في القبح، والتتكيل (٣) بالنفس فجرى كالمثل في هذا المعنى، والالف في قوله " أفان " ألف انكار بصورة ألف استفهام، لان التقرير به يظهر ما فيه من المنكر، فلذلك أخرج مخرج الاستفهام مع أن معناه الانكار. ومثله أتختار الفساد على

الصالح والخطأ على الصواب. وقوله: (أفان مات أو قتل) يدل على أن الموت غير القتل لأنه لو كان هو إياه لما عطف به عليه، لأن الشيء لا يعطف على نفسه. والقتل هو نقض بنيه الحياة، والموت في الناس من قال: هو معنى يضاد الحياة وفيهم من قال: هو افساد البنية التي تحتاج الحياة إليها بفعل معان فيه تضاد المعاني التي تحتاج إليها الحياة. وقوله: "ومن ينقلب على عقبيه" أي من يرتد ويرجع عن الإسلام " فلن يضر الله شيئاً " لأنه لا يجوز عليه المضار بل مضرته عائدة عليه، لأنه يستحق العقاب الدائم. وقوله: " وسيجزى الله الشاكرين " معناه يثيب

" ١ " هو الراعي

" ٢ " معاني القرآن للفراء ١: ٦٩ - ٢٣٦ والمعاني الكبير: " ٨٠٥. وخزانة الادب ٤. ٤٥٠. ورواية المعاني الكبير (عائز) بدل (سائر) وقال: أي بيت هجاء عائز. من قولهم: عار الفرس: اذا ذهب وجاء مترددا ويقال: قصيدة عائزة أي سائرة في كل وجه. ادلج: سار في أول الليل. " ٣ " في المخطوطة (والسيل) والصحيح ما في المطبوعة

(٨)

الله الشاكرين على شكرهم لنعم الله واعترافهم بها. ووجه اتصال هذا بما قبله اتصال الوعد بالوعد، لأن قوله: " فلن يضر الله شيئاً " دليل على معنى الوعد، لأن معناه انما يضر نفسه باستحقاقه العقاب " وسيجزى الله الشاكرين " بما يستحقونه من الثواب. قوله تعالى: (وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين) (١٤٥) آية بلا خلاف. المعنى، والاعراب، واللغة:

قيل في السبب الذي اقتضى قوله: " وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله " قولان: أحدهما - التسلية عما يلحق النفس بموت النبي (صلى الله عليه وآله) من جهة أنه باذن الله عزوجل.

الثاني - للحض على الجهاد من حيث لا يموت أحد إلا باذن الله تعالى. وقوله: " إلا باذن الله " يحتمل أمرين " أحدهما - إلا بعلمه. والثاني إلا بأمره. وقال أبو علي: الآية تدل على أنه لا يقدر على الموت غير الله، كما لا يقدر على ضده من الحياة إلا الله، ولو كان من مقدور غيره لم يكن باذنه، لأنه عاص لله في فعله.

وقوله: " كتابا مؤجلا " نصب على المصدر بفعل محذوف دل عليه أول الكلام مع العلم بأن كلما يكون فقد كتبه الله، فتقديره كتب الله ذلك " كتابا مؤجلا ". ويجوز أن يدل على الفعل المحذوف مصدره المنتصب به. وقوله: " ومن

(٩)

يرد ثواب الدنيا نؤته منها " قيل في معناه ثلاثة أقوال:
أحدها - من عمل للدنيا لم نحرمه ما قسمنا له فيها من غير حظ في الآخرة - في قول ابن اسحاق - أي فلا يغتر بحاله في الدنيا.

(الثاني - - (١) من أراد بجهاده ثواب الدنيا أي النصيب من الغنيمة في قول أبي علي

(الجبائي)

الثالث - من يرد ثواب الدنيا بالتعرض له بعمل النوافل مع مواجهة الكبائر جوزي بها في الدنيا من غير حظ في الآخرة لاحتباط عمله بفسقه على مذهب من يقول بالاحتباط، ومن يرد بعمله ثواب الآخرة نؤته إياها. و (من) في قوله:

" منها " تكون زائدة. ويحتمل أن تكون للتبعيض، لأنه يستحق الثواب على قدر عمله. وإنما كرر قوله: " وسنجزى الشاكرين " ها هنا، وفي الآية الأولى، لامرين:

أحدهما - للتأكد ليتمكن المعنى في النفس.

الثاني - " وسنجزى الشاكرين " من الرزق في الدنيا، عن ابن اسحاق لئلا يتوهم ان الشاكر يحرم ما يعطاه الكافر مما قسم له في الدنيا. وقال الجبائي في الآية دلالة على أن اجل الانسان إنما هو أجل واحد. وهو الوقت الذي يموت فيه، لأنه لا يقتطع بالقتل عن الاجل الذي أخبر الله أنه اجل لموته، وقال ابن الاخشاذ:

لا دليل فيه على ذلك لان للانسان أجلين أجل يموت فيه لا محالة، وأجل هو موهبة من الله تعالى له، ومع ذلك فلن يموت إلا عند الاجل الذي جعله الله أجلا لموته والاقوى الاول، لان الاجل عبارة عن الوقت الذي يحدث فيه الموت أو القتل، وبالتقدير لا يكون الشئ أجلا كما لا يكون بالتقدير ملكا، وقد بينا في شرح الجمل ذلك مستوفى.

" ١ " في المطبوعة (الثاني) ساقطة.

(١٠)

قوله تعالى:

(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين)
(١٤٦) آية بلا خلاف.

القراءة واللغة:

قرأ ابن كثير " كايين " على وزن كاعن. الباقون " كأيين " مشددة على وزن كعين، ومعناها واحد، وهو بمعنى كما قال جرير:

وكائن بالاباطح من صديق * يراني لو اصببت هو المصابا (١)
وقال آخر:

وكائن رددنا عنكم من مدحج * يجيئ أمام الالف يردي مقنعا (٢)
ومثل المشدد قول الشاعر:

كايين في المعاشر من اناس * اخوهم فوقهم وهم كرام

وأصل كايين (أي) دخلت عليها كاف التشبيه، كما أن أصل (كذا) (ذا)

دخلت عليها كاف التشبيه. وانما غيرت في اللفظ لتغيرها في المعنى، لأنها نقلت إلى معنى (كم) في التكثر. ومن خفف فلكرهية التضعيف، كما خفف لا سيما. وقرأ أهل الكوفة، وابن عامر (قاتل) الباقون (قتل) فمن قرأ (قتل) نفى الوهن عن بقي. ومن قرأ (قاتل) نفاه عن ذكر.

المعنى، واللغة:

وقوله: (ربيون) قيل في معناه أقوال.

أحدها - قال ابن عباس، والحسن: علماء فقهاء، وقال مجاهد، وقتادة:

" ١ " ديوانه ١: ٩. " ٢ " الكامل للمبرد: ١٠٧٢.

(١١)

جموع كثيرة. وقال الاخفش: هم منسوبون إلى الرب. ومعناه المتمسكون بعبادة الله. وقال غيره: منسوبون إلى علم الرب. وقال الزجاج: الربو عشرة آلاف، وهو المروي عن أبي جعفر (ع)، وارتفاعه يحتمل أمرين:

أحدهما - على مذهب الحسن في أنه لم يقتل نبي قط في معركة فيرتفع بأنه لم يسم فاعله في (قتل) وعلى مذهب ابن اسحاق، وقتادة، والربيع، والسدي: رفع بالابتداء، فقدم عليه الخبر بمعنى قتل، ومعه ربيون كثير، فعلى هذا يكون النبي المقتول، والذين معه لا يهنون، وذلك أن يوم أحد كان أرجف بأن النبي (صلى الله عليه وآله) قتل، فبين الله تعالى أنه لو قتل لما أوجب

ذلك أن تهنوا وتضعفوا، كما لم يهن من كان مع الانبياء بقتلهم، وهو المروي عن أبي جعفر (ع).

والوهن هو الضعف وإنما قال: فما وهنوا، وما ضعفوا من حيث أن الوهن انكسار الجد بالخوف، ونحوه والضعف: نقصان القوة وقوله: " وما إستكانوا " معناه ما ظهروا الضعف، وقيل معناه ما خضعوا، لأنه يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريد، فلم يهنوا بالخوف، ولا ضعفوا بنقصان العدة، ولا استكانوا بالخضوع.

وقال ابن اسحاق: فما وهنوا بقتل نبيهم، ولا ضعفوا عن عدوهم. ولا استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن دينهم. وقال الزجاج معنى ما وهنوا ما فتروا، وما ضعفوا وما جنبوا عن قتال عدوهم، وما استكانوا ما خضعوا. وقال الأزهري: الاستكانة أصلها من الكنية، وهي الحالة السيئة يقال بات بكنية يعني بيته سوء، ومجيئة سوء أي بحال سوء وقوله: " والله يحب الصابرين " معناه يريد ثواب من صبر في جنبه في امتثال أمره، والقيام بواجباته التي من جملة الجهاد في سبيل الله. قوله تعالى:

(وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) (١٤٧) آية

(١٢)

المعنى واللغة:

هذا إخبار عن الربيبين الذين ذكرهم في الآية الأولى بأنهم كانوا يقولون في أكثر أحوالهم " ربنا اغفر لنا ذنوبنا " لأن من المعلوم أنهم قد كانوا يقولون أقوالا غير هذا، لكن لما كان هذا هو الأكثر لم يعتد بذلك. وقيل: معناه وما كان قولهم حين قتل نبيهم إلا هذا القول انقطاعا إلى الله وطلبا لمغفرته. وقوله:

" اغفر لنا ذنوبنا " أي استرها علينا بترك عقابنا، ومجازاتنا عليها " واسرافنا في امرنا " فالاسراف هو مجاوزة المقدار الذي تقتضيه الحكمة. والاسراف مذموم، كما أن الاقتار مذموم، كما قال تعالى: " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط " (١) وكما قال " والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما " (٢) والاسراف، والافراط بمعنى، وضدهما التقصير والتقتير. وقيل الاسراف مجاوزة الحق إلى الباطل بزيادة أو نقصان والاول أظهر. وأصل الاسراف مجاوزة الحد يقال: سرفت القوم إذا جاوزتهم، وأنت لا تعرف مكانهم وسرفت الشيء إذا نسيت له لأنك جاوزته إلى غيره بالسهو عنه. ويقال: أصنع من سرفة، وهي دويبة صغيرة تنقب الشجر، وتبني فيه بيتا.

إن قيل: كيف قوبل الذنوب والاسراف في الامر؟ قلنا: قال الضحاك: هو بمنزلة اغفر لنا الصغير والكبير من خطايانا.

الاعراب، والمعنى:

و " قولهم " نصب بأنه خبر (كل) والاسم (أن قالوا)، وانما اختير ذلك، لان ما بعد الايجاب معرفة، فهو أحق بأن يكون الاسم، كقول الشاعر:

وقد علم الاقوام ما كان داءها * بثهلان إلا الخزي ممن يقودها (٣)

" ١ " سورة الاسرى آية: ٢٩ " ٢ " سورة الفرقان آية: ٦٧.

" ٣ " سبويه ١: ٢٤ ولم ينسبه. يصف كتيبة منهزمة يقول: لم يكن سبب انهزامها الا جبن من يقودها، فجعل الخزي كناية عن الجبن.

(١٣)

ويجوز الرفع على أنه اسم (كان) وقد قرئ به في الشواذ. ومثله قوله:

" ماكان حجتهم إلا أن قالوا " (١) " وما كان جواب قومه إلا أن قالوا " (٢)

وقوله: " وثبت أقدامنا " أي أعنا وأطف لنا بما تثبت معه أقدامنا وإن كان ثبوت القدم من فعل العباد لكن لما كان بلطفه ومعونته جاز نسبته إليه مجازا.

قوله تعالى:

(فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) (١٤٨) آية.

المعنى، واللغة:

قوله: " فآتاهم الله " يعني من تقدم ذكره من الربيبين الذين وصفهم. وقال الجبائي: يعني به المسلمين الذين صفتهم ماتقدم ذكره أي أعطاهم الله ثواب الدنيا قال قتادة، والربيع: هو نصرهم على عدوهم حتى ظفروا بهم، وقهروهم. " وثواب الآخرة ": الجنة. وزاد ابن جريج الغنيمة، ويجوز أن يكون ما آتاهم الله في الدنيا من الظفر والنصر وأخذ الغنيمة ثوابا مستحقا لهم على طاعتهم، لان في ذلك تعظيما لهم وتجيلا، ولذلك تقول: إن المدح على أفعال الطاعة والتسمية بالاسماء الشريفة بعض الثواب، ويجوز أن يكون الله تعالى أعطاهم ذلك تفضلا منه تعالى، أو لما لهم فيه من اللطف، فتكون تسميته بأنه ثواب مجازا، وحد الثواب هو النفع الخالص المستحق الذي يقارنه تعظيم وتبجيل، والعوض هو النفع المستحق الخالي من التعظيم والتبجيل، والتفضل هو النفع الذي ليس بمستحق ولامعه تعظيم وتبجيل.

وانما جاز تأخير الثواب المستحق مع ثبوت الاستحقاق له عقيب الطاعة الامرين:

أحدهما - قال أبو علي: لأنه يوفر عليه ما يفوته في زمان التكليف إلى خير الثواب: وقال
الرماني: لأنه إذا أضر عظم ما يستحقه بالتأخر على ما كان

" ١ " سورة الجاثية آية: ٢٤ " ٢ " سورة الاعراف آية: ٨١

(١٤)

لو قدم، لأنه إذا استحق مثلاً مائة جزء عاجلاً، فإذا أضر استحق مائة وعشرة أو مائة وجزء،
وقيل في وجه حسن تأخيرها أنه لو كان عقيب الطاعة لآدى إلى أن يكون المكلف ملجأً إلى
فعل الطاعة، لأن المنافع الكثيرة تلجئ إلى الفعل كما أن دفع المضار العظيمة تلجئ إلى مثله،
وذلك ينافي التكليف، وقوله: " والله يحب المحسنين " أي يريد ثوابهم وتعظيمهم وتبجيلهم
والفرق بين الاحسان والانعام أن الاحسان قد يكون إنعاماً بأن يكون نفعاً للمنتفعين به، وقد
يكون احساناً بأن يكون فعلاً حسناً، ومن القسم الاخير يقال هو تعالى محسن بفعل العقاب، ولا
يقال محسن من القسم الاول، ويقال هو محسن بفعل الثواب على الوجهين معا (١).
قوله تعالى:

(يا ايها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتقلبوا خاسرين (١٤٩) بل
الله مولاكم وهو خير الناصرين) (١٥٠) آيتان بلا خلاف.
المعنى:

هذا خطاب للمؤمنين حذرهم الله من أن يطيعوا الكفار، وبين أنهم إن أطاعوهم ردوهم كافرين.
والمعنى ب " الذين كفروا " قيل فيهم قولان:
أحدهما - قال الحسن، وابن جريج إنهم اليهود، والناصري أي إن تستنصحوهم وتقبلوا رأيهم
يردوكم خاسرين، وقال السدي: أراد إن تطيعوا أبا سفيان وأصحابه يرجعوكم كافرين.
والطاعة موافقة الارادة المرغبة في الفعل، وبالترغيب ينفصل من الاجابة، وإن كان موافقة
الارادة حاصلة، وفي الناس من قال: الطاعة في موافقة الامر، والاول أصح، لأن من فعل
ما يقتضي العقل وجوبه أو حسنه يقال: إنه

" ١ " في المخطوطة باسقاط (معا).

(١٥)

مطيع لله، وإن لم يكن هناك أمر على أن من امتثل الامر إنما سمي مطيعاً لموافقة الارادة
المرغبة من حيث أن الامر لا يكون أمراً إلا بارادة المأمور به، والطاعة تكون بمتابعة الواجب
والندب معا، لأن الارادة تتناولها الاعراب، والحجة، واللغة، والمعنى:

وقوله: (إن تطيعوا) جزم بأنه شرط. وقوله: "يردوكم" جزم بأنه جواب الشرط. وقوله: "فتقلبوا" جزم بالعطف عليه. وقوله: "خاسرين" نصب على الحال. وقوله: "بل الله" فحقيقة (بل) الاضراب عن الاول إلى الثاني سواء كانا موجبين أو نفيين أو احدهما موجبا والآخر نفيًا قول: جاء زيد بل عمرو، وما جاء زيد بل عمرو لم يجئ، وما أتى زيد بل خالد.

فان قيل: كيف عطف ببل وهي لا تشرك الثاني مع الاول في المعنى؟ قلنا:

لان الاضراب عن الاول كالبدال، ولذلك وجب العطف بالاشراك في الاعراب كما يجب في البديل غير أن البديل لم يحتج إلى حرف، لان الثاني هو الاول أو في تقدير ما هو كالاول، و (لكن) للاستدراك أيضا، وهو يقتضي نفيًا إما متقدما أو متأخرا كقولك ما جاءني زيد، لكن عمرو، وجاء زيد لكن عمرو لم يأت، وبهذا فارقت بل. وقوله: "بل الله" كان يجوز النصب في (الله) قال الفراء:

على معنى أطيعوا الله مولاكم، لان قبله "إن تطيعوا" ثم أضرب عن الاول وأوجب الثاني بل أطيعوا الله (مولاكم). والرفع يحتمل أن يكون على الابتداء ومولاكم خبره، ويحتمل أن يكون مولاكم مبتدأ، و (الله) خبره، وقد قدم عليه. ومعنى مولاكم أي هو أولى بطاعتكم ونصرتكم. وقيل معناه وليكم بالنصرة بدلالة قوله: "هو خير الناصرين" والاصل فيه، ولي الشئ الشئ من غير فصل بينه وبينه، فالولاية إيلاء النصره، ويجوز لانه يتولى فعل النصره، وان لم يكله إلى غيره، لان من فعل شيئًا فقد تولى فعله. فان قيل: كيف قال "وهو خير الناصرين" مع أنه لا يعتد بنصر غير الله مع نصرته؟ قيل: معناه إنه إن اعتد بنصره غير الله فنصره

(١٦)

الله خير منها، لانه لا يجوز أن يغلب، وغيره يجوز أن يغلب، وان نصر فالثقة بنصره الله تحصل، ولا تحصل بنصره غيره.

قوله تعالى:

(سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين) (١٥١)

- آية بلا خلاف -:

ذكر ابن اسحاق أنه لما نال المسلمين ما نالهم يوم أحد بمخالفة الرماة أمر نبيهم (صلى الله عليه وآله) وكان من ظهور المشركين عليهم ما كان عرفهم الله عزوجل الحال في ذلك ثم وعدهم بالنصر لهم، والخذلان، لاعدائهم بالرعب، وذكر السدي: أن أبا سفيان وأصحابه هموا بالرجوع بعد أحد لاستئصال المسلمين عند أنفسهم، فالقى الله الرعب في قلوبهم حتى انقلبوا خائبين عقوبة على شركهم "بالله ما لم ينزل به سلطانا" يعني برهاننا.

اللغة، والحجة:

فالسلطان معناه هاهنا الحجة، والبرهان، وأصله القوة، فسلطان الملك قوته. والسلطان: البرهان لقوته على دفع الباطل. والسلطان: التوكيل على المطالبة بالحق، لانه تقوية عليه، والتسليط على الشئ: التقوية عليه مع الاغراء به.

والسلطة: حدة اللسان مع شدة الصخب للقوة على ذلك مع إثبات (١) فعله:

والسليط: الزيت لقوة اشتعاله بحدته. واللقاء حقيقته في الاعيان، كقوله:

" وألقى الالواح " (٢) واستعمل في الرعب مجازا، ومثل قوله: " وألقيت عليك محبة مني "

(٣) وقوله: " ومأواهم النار " أي مستقرهم وفي الآية دلالة على

" ١ " في المخطوطة (إيثار) " ٢ " سورة الاعراف آية: ١٤٩.

" ٣ " سورة طه آية: ٣٩.

(١٧)

فساد التقليد، لانه لا برهان مع صاحبه على صحة مذهبه، فكل من قال بمذهب لا برهان عليه، فمبطل بدلالة الآية، وقوله: " وبئس مثوى الظالمين " فالمثوى:

المنزل، وأصله الثواء، وهو طول الإقامة ثوى يثوي ثواء: إذا طال مقامه وأثواني فلان مثوي أي أنزلني منزلا وربية البيت: أم مثواه. والثوي: الضيف لانه مقيم مع القوم. وانما قيل لجهنم " بئس مثوى الظالمين " وبئس للذم، كما أن نعم للحمد لامرين:

أحدهما - إن الضرر تنفر منه النفس كما ينفر العقل من القبح فجرى التشبيه على وجه المجاز - هذا قول أبي علي - وقال البلخي: لان الذم يجري علي النقص كما يجري على القبح حقيقة فيهما، نحو قولهم: الاخلاق المحمودة والاخلاق المذمومة وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (نصرت بالرعب مسيرة شهر) وقد رعبته رعبا أي أفزعته، والاسم الرعب ورعبت الاناء إذاملاته فهو مرعوب.

قوله تعالى:

(ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم باذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) (١٥٢) آية.

المعنى، والقصة:

ذكر ابن عباس، والبراء بن عازب، والحسن، وقتادة، والسدي، والربيع، وابن اسحاق: أن الوعد المذكور كان يوم أحد، لان المسلمين كانوا يقتلون المشركين قتلا ذريعا حتى أخل الرماة

بمكانهم الذي أمرهم النبي (صلى الله عليه وآله) بملازمته، فحينئذ حمل خالد بن الوليد من وراء المسلمين، وتراجع المشركون، وقتل من المسلمين

(١٨)

سبعون رجلاً ثم هزموا، وقد نادى مناد قتل محمد ثم من الله على المسلمين، فرجعوا وقويت نفوسهم، ونزل الخذلان بعدوهم، حتى ولوا عنهم، ومعنى "تحسونهم" تقتلونهم.
اللغة:

والحس هو القتل على وجه الاستئصال قال جرير:

تحسهم السيوف كما تسامى * حريق النار في أجم الحصيد (١)

وأصله الاحساس ومنه قوله: "هل تحس منهم من أحد" (٢) وقوله:

"فلما أحس عيسى منهم الكفر" (٣) أي وجده من جهة الحاسة، وحسه يحسه:

إذا قتله، لانه أبطل حسه بالقتل، والتحسس طلب الاخبار، وفي التنزيل: "يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه" (٤) وذلك لانه طلب لهما بحاسة السمع.

والمحسة التي ينفض بها التراب عن الدابة، لانه يحس بها من جهة حكها لجلدها.

وقوله: "بأذنه" معناه بعلمه، ويجوز أن يكون المراد بلطفه، لان أصل الأذن الاطلاق في الفعل، فاللطف تيسر (٥) له، كما أن الأذن كذلك إلا أن اللطف تدبير يقع معه الفعل لا محالة اختياراً كما يقع في أصل الأذن اختياراً.

المعنى:

قال أبو علي قوله: "إذ تحسونهم" يعني يوم بدر "حتى إذا فشلتم" يوم أحد "من بعد ما أراكم ما تحبون" يوم بدر. والاولى أن يكون هذا حكاية عن يوم أحد على ما بيناه. وقوله: "حتى إذا فشلتم" معناه جبنتم عن عدوكم وكعتم

" ١ " ديوانه ١ : ٤٧ من قصيدة يمدح بها الحجاج.

" ٢ " سورة الكهف آية: ٩٩ " ٣ " سورة آل عمران آية: ٥٢.

" ٤ " سورة يوسف آية: ٨٧. " ٥ " في المخطوطة (تفسير).

(١٩)

"وتنازعتم" في الامر يعني اختلفتم "من بعد ما أراكم ما تحبون" معناه أنهم أعطوا النصر، فخالفوا في ما قيل لهم من لزوم فم الشعب. واختلفوا، فعوقبوا بأن ديل عليهم في قول الحسن، وقوله: "منكم من يريد الدنيا" أي منكم من قصده الغنيمة في حربكم "ومنكم من يريد الآخرة

" أي بثبوتها في موضعه بقصدته بجهاده إلى ما عند الله في قول ابن مسعود، وابن عباس، والربيع.

الاعراب. والمعنى:

فان قيل أين جواب " حتى إذا "؟ قلنا: فيه قولان:
أحدهما - إنه محذوف، وتقديره امتحنتم.

والآخر - على زيادة الواو والتقديم والتأخير، وتقديره حتى إذا تنازعتم في الأمر، فشلتكم - في قول الفراء -، كما قال (فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم) (١) ومعناه ناديناه، والواو زائدة. ومثله (حتى إذا فتحت يا جوج وما جوج... واقترب) (٢) ومعناه اقترب. ومثله قوله: (حتى إذا جاؤها وفتحت) (٣) وأنشد:

حتى إذا قملت بطونكم * ورأيتم ابناءكم شبوا

قلبتم ظهر المجن لنا * ان اللئيم العاجز الخب (٤)

والبصريون لا يجيزون زيادة الواو ويتأولون جميع ما استشهد به على الحذف لأنه أبلغ في الكلام، وأحسن من جهة الأيجاز. وقوله: (ثم صرفكم عنهم) قيل في إضافة انصرفهم إلى الله مع أنه معصية قولان:

(١) سورة الصافات: آية ١٠٣ - ١٠٥.

(٢) سورة الانبياء: آية ٧٦ - ٧٧.

(٣) سورة الزمر: آية ٧٣. (٤) قائلهما الاسود بن يعفر النهشلي وهو في أكثر الكتب غير منسوب معاني القرآن:
للبراء ١: ١٠٧، ٢٣٨ واللسان: (قمل) وتأويل مشكل القرآن ٢ ٣٨١. المعاني الكبير: ٥٣٣ واللسان: (وقب) قملت بطونكم: كثرت قبائلكم المجن: الترس. الخب: المخادع.

(٢٠)

أحدهما - إنهم كانوا فريقين منهم من عصى بانصرافه، ومنهم من لم يعص، لأنهم قلوبا بعد انهزام تلك الفرقة، فانصرفوا باذن الله بأن التجأوا إلى أحد، لان الله إنما أوجب ثبات المائة للمثنين فادا نقصوا، لا يجب عليهم ذلك. وجاز أن يذكر الفريقين في الجملة بأنه صرفهم، وبأنهم عفا عنهم، ويكون على ما بيناه في التفصيل هذا قول أبي علي. وقال البلخي (ثم صرفكم عنهم) معناه لم يأمركم بمعاودتهم من فورهم (ليبتليكم) بالمظاهرة في الانعام عليكم، والتخفيف عنكم. وقوله (ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين. إذ تصعدون) فاذا تصعدون متعلق بقوله: (ولقد عفا) في قول الزجاج. وقال الجبائي قوله: (ولقد عفا عنكم)

خاص لمن لم يعص بانصرافه، والاولى أن يكون عاما في جميعهم، لانه لايمتنع أن يكون الله عفا لهم عن هذه المعصية.

وقال البلخي: معناه (ولقد عفا عنكم) بتتبعهم بعد أن كان أمرهم بالتتبع لهم، فلما بلغوا حمراء الاسد أعفاهم من ذلك، ولايجوز أن يكون، صرفهم فعل الله، لانه قبيح والله تعالى لايفعل القبيح.

قوله تعالى:

(إذ تصعدون ولاتلون على أحد والرسول يدعوكم في اخراكم فاتابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولأما أصابكم والله خبير بما تعملون) (١٥٣) آية.
القراءة، والحجة، واللغة، والمعنى:

التقدير اذكروا (إذ تصعدون) ويجوز أن يكون متعلقا بقوله: (ولقد عفا عنكم.. إذ تصعدون)، والقراء كلهم على ضم التاء من الاصعاد. وقرأ الحسن بفتح التاء والعين من الصعود، وقيل: الاصعاد في مستوى الارض، والصعود في

(٢١)

ارتفاع يقال أصعدنا من مكة إذا ابتدأنا السفر منهاو كذلك أصعدنا من الكوفة إلى خراسان على قول الفراء، والمبرد، والزجاج. ووجه ذلك أن الاصعاد إبعاد في الارض كالإبعاد في الارتفاع، وعلى ذلك تأويل (تصعدون) أي أصعدوا في الوادي يوم أحد عن قتادة، والربيع. وقال ابن عباس والحسن انهم صعدوا في أحد في الجبل فرارا، فيجوز أن يكون ذلك بعد أن أصعدوا في الوادي. وقوله (ولاتلون على أحد) معناه لاتعرجون على أحد. وقوله: (والرسول يدعوكم في أخراكم) قال ابن عباس والسدي، والربيع: إن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يدعوهم، فيقول: ارجعوا أي عبادالله ارجعوا أنا رسول الله. وقوله: (فاتابكم غما بغم) في معناه قولان:

أحدهما - إنه إنما قيل في الغم ثواب، لان أصله ما يرجع من الجزاء على الفعل طاعة كان أو معصية ثم كثر في جزاء الطاعة كما قال الشاعر:

واراني طربا في إثرهم * طرب الواله أو كالمختبل

فعلى هذا يكون الغم عقوبة لهم على فعلهم، وهزيمتهم. والثاني - أن يكون وضع الشئ مكان غيره كماقال (فبشرهم بعذاب أليم) (١) أي ضعه موضع البشارة، كما قال الشاعر:

أخاف زيادا أن يكون عطاؤه * اداهم سودا او محدرجة سمرا (٢)

أراد بقوله سودا قيودا. وقيل في معنى قوله: (غما بغم) قولان:

أحدهما - غما على غم، كما يقال: نزلت ببني فلان وعلى بني فلان. وقال قتادة، والربيع:
الغم الاول: القتل والجراح. والثاني: الارجاج بقتل محمد (صلى الله عليه وآله).
والقول الثاني - غما بغم أي مع غم كما يقال: ما زلت يزيد حتى فعل أي

(١) سورة الانبياء: ٣، والتوبة آية: ٣٥، والانشقاق آية: ٢٤.

(٢) قائله الفرزدق. ديوانه: ٢٢٧، والنقائض: ٦١٨ وطبقات فحول الشعراء:

٢٥٦، وتاريخ الطبري ٦: ١٣٩، ومعاني القرآن للفراء ١: ٢٣٩. وروايته مختلفة. وفي أغلب المصادر وهكذا:
ولما خشيت أن يكون عطاؤه

(٢٢)

مع زيد. وقال الحسن غما يوم أحد بعد غم يعني يوم بدر. أي كله للاستصلاح وان اختلف
الحال. وقال الحسين بن علي المغربي: معنى (غما بغم) يعني غم المشركين بما ظهر من قوة
المسلمين على طلبهم على حمراء الاسد، فجعل هذا الغم عوض غم المسلمين بمائيل منهم.
وقوله: (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) معناه ما فاتكم من الغنيمة (ولاما أصابكم) من الهزيمة في
قول ابن زيد. واللام في قوله: (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) يحتمل أن يكون متعلقا بقوله:
(عفا عنكم) (لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) ويحتمل أن يتعلق ب (أثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا
على ما فاتكم)

من الغنيمة ولا ما أصابكم من الشدة في طاعة الله، لان ذلك يؤديكم إلى مضاعفة الغم عليكم.
وقوله: (والله خبير بما تعملون) فيه تجديد تحذير بأنه لا يخفى عليه شئ من أعمال العباد.
قوله تعالى:

(ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون
بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الامر من شئ قل إن الامر كله لله يخفون في
أنفسهم مالا يبيدون لك يقولون لو كان لنا من الامر شئ ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم
لبرز الذين كتب عليهم القتلى إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في
قلوبكم والله عليم بذات الصدور) (١٥٤) آية بلا خلاف.

القراءة والمعنى والحجة والاعراب والقصة:

قرأ حمزة، والكسائي: تغشى بالتاء الباقون بالياء. فمن قرأ بالتنكير أراد

(٢٣)

النعاس، ومن أنت أراد الامنة، ومثله (ألم يك نطفة من مني يمني) (١) (وان شجرة الزقوم
طعام الاثيم كالمهل يغلي) (٢) بالتاء، والياء. وقرأ أبو عمرو، وحده (إن الامر كله) بالرفع.

الباقون بالنصب، ووجه الرفع أنه على الابتداء، كما قال: (وكل اتوه داخرين) (٣) ويكون (الله) خبره، لأنه لما وقع الامر في الجواب ادبت صورته في الاسم ثم جاءت الفائدة في الخبر، ولأنه نقيض بعض، فكما يجوز الرفع في (بعض) يجوز في (كل) نحو إن الامر بعضه لزيد. والنصب على أنه تأكيد للامر (وامنة) منصوب، لأنه مفعول به، ونعاسا بدلا منه، والنعاس هو الامنة.

وهذه الامنة التي ذكرها الله في هذه الآية نزلت يوم أحد في قول عبدالرحمن ابن عوف وأبي طلحة، والزبير بن العوام، وقتادة، والربيع، وكان السبب في ذلك توعده المشركين لهم بالرجوع، فكانوا تحت الجحف متهيئين للقتال فأنزل الله تعالى الامنة على المؤمنين، فناموا دون المنافقين الذين أزعجهم الخوف بأن يرجع الكفار عليهم أو يغيروا على المدينة لسوء الظن، فطير عنهم النوم على ما ذكره ابن اسحاق وابن زيد، وقتادة، والربيع. وقوله: (يغشى طائفة منكم) يعني النعاس يغشى المؤمنين (وطائفة قد اهتمهم) القراء على الرفع. والواو واو الحال كأنه قال: يغشى النعاس طائفة في حال ما أهتم طائفة منهم أنفسهم. ورفع بالابتداء، والخبر يظنون، ويصلح أن يكون الخبر (قد اهتمهم أنفسهم) والجملة في موضع الحال. ولايجوز النصب على أن يجعل واو العطف كما تقول ضربت زيدا وعمرا كلمته. والتقدير وأهتم طائفة اهتمهم أنفسهم.

المعنى:

وقوله: (يقولون هل لنا من الامر من شيء) قيل في معناه قولان:

(١) سورة القيامة آية: ٢٧.

(٢) سورة الدخان: ٤٣ - ٤٥.

(٣) سورة النمل آية: ٨٧.

(٢٤)

أحدهما - قال الحسن أخرجنا كرها، ولو كان الامر إلينا ماخرجنا. وذلك من قبل عبدالله بن أبي بن سلول، ومعتب بن قشير على قول الزبير بن العوام، وابن جريج.

والآخر - أي ليس لنا من الظفر شيء كما وعدنا على وجه التكذيب بذلك (يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك) أي من الشك، والنفاق، وتكذيب الوعد بالاستعلاء على أهل الشرك ذكره الجبائي. وقوله: (وليبنتي الله ما في صدوركم)

يحتمل أمرين:

أحدهما - ليعاملكم معاملة المبتلى المختبر لكم مظهرة في العدل عليكم وإخراج مخرج كلام المختبر لهذه العلة، لانه تعالى عالم بالاشياء قبل كونها، فلا يبتلى ليستفيد علما. والثاني - ليبتلى أولياء الله ما في صدوركم إلا أنه اضيف الابتلاء إلى الله عزوجل تفخيما لشأنه. وقوله: (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) يحتمل أمرين: أحدهما - لوتحلتفتم لخرج منكم الذين كتب عليهم القتل ولم يكن لينجيه قعودكم - عن أبي علي -.

الثاني - لوتخلفتم لخرج المؤمنون، ولم يتخلفوا بتخلفكم ذكره البلخي، ولايوجب ذلك أن يكون المشركون غير قادرين على ترك القتال من حيث علم الله منهم ذلك، وكتبه، لانه كما علم أنهم لايتخارون ذلك بسوء اختيارهم علم انهم قادرون. ولو وجب ذلك لوجب أن لايكون تعالى قادرا على ما علم أنه لايفعله وذلك كفر بالله. قوله تعالى:

(إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم) (١٥٥) آية.

(٢٥)

المعنى، واللغة:

روي عن عمر بن الخطاب، وقتادة، والربيع: ان المعنى بالمتولي في هذه الآية هم الذين ولوا الدبر عن المشركين بأحد. وقال السدي: هم الذين هربوا إلى المدينة في وقت الهزيمة. وقوله: (إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا) قيل في الكسب الذي أداهم إلى الفرار الذي اقتترفوه قولان:

أحدهما - محبتهم للغنيمة مع حرصهم على تبقية الحياة، وفي ذلك الوجه عما يؤدي إلى الفتور فيما يلزم من الامور على قول الجبائي.

والثاني - ذكره الزجاج، استزلهم بذكر خطايا سلفت لهم، فكرهوا القتل قبل اخلاص التوبة منها، والخروج من المظلمة فيها. وقوله: (ولقد عفا الله عنهم) يحتمل أمرين:

أحدهما - قال ابن جريج، وابن زيد: حلم عنهم إذ لم يعاجلهم بالعقوبة به، ليدل على عظم تلك المعصية.

والآخر - عفا لهم تلك الحطيئة ليدل على أنهم قد أخلصوا التوبة. وقوله:

(إن الله غفور رحيم) فحلمه تعالى عنهم هو امهاله بطول المدة بترك الانتقام مع ما فعل بهم من ضروب الانعام.

وأصل الحلم الاناة، وهي ترك العجلة، فالامهال بفعل النعمة بدلان من النعمة كالاناة بترك العجلة. ومنه الحلم في النوم، لان حال السكون والدعة كحال الاناة. ومنه الحلمة: رأس الثدي، لخروج اللبن الذي يحلم الصبي.

وذكر البلخي أن الذين بقوا مع النبي (صلى الله عليه وآله) يوم أحد فلم ينهزموا ثلاثة عشر رجلاً: خمسة من المهاجرين: علي (ع) وأبو بكر، وطلحة، وعبدالرحمن ابن أبي عوف، وسعد بن أبي وقاص، والباقون من الانصار. فعلي وطلحة، لاخلاف فيهما. والباقون فيهم خلاف. وأما عمر، فروي عنه أنه قال: رأيتني

(٢٦)

أصعد في الجبل كأنني أروى (١). وعثمان انهزم، فلم يرجع إلا بعد ثلاثة - أيام - (٢) فقال له النبي (صلى الله عليه وآله): لقد ذهب في عريضة. وفي الآية دليل على فساد قول المجبرة: من أن المعاصي من الله، لانه تعالى نسب ذلك في الآية إلى استزلال الشيطان. قوله تعالى: (ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لآخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير) (١٥٦) آية. المعنى، واللغة، والاعراب:

هذا خطاب متوجه إلى المؤمنين الذين نهام الله أن يكونوا مثل الذين كفروا، وقالوا لآخوانهم، وهم عبدالله بن أبي بن سلول، وأصحابه - في قول السدي ومجاهد -: (إذا ضربوا في الأرض) أي سافروا فيها لتجارة أو طلب معيشة - في قول ابن اسحاق، والسدي -، فأصله الضرب باليد. وقيل الاصل في الضرب في الأرض الايغال في السير (أو كانوا غزى) أي جمع غاز كما قالوا: شاهد وشهد، وقائل وقول، قال رؤبة:

فاليوم قد نههني تنهني * وأول حلم ليس بالمسفه

وقول: الاداه فلاده (٣)

(١) اروى: ضأن الجبل. ج أروية - بضم الهمزة وكسرها -.

(٢) (ايام) ساقطة من المطبوعة (٣) ديوانه: ١٦٦ ومجاز القرآن لابي عبيدة ١: ١٠٦ واللسان: (قول)، (ده)

وخزانة الادب ٣: ٩٠ وغيرها وهو من قصيدة يذكر فيها شبابه. نههت فلانا عن الشيء -

(٢٧)

ويجوز فيه غزاة كقاض، وقضاة. وغزاء ممدود كمخارب وخراب، وكاتب وكتاب. ويجوز (قالوا لاخوانهم إذا ضربوا في الارض،) ولايجوز اكرمك إذا زرتي على أن توقع إذا موضع إذ، لامرين:

أحدهما لانه متصل ب (لاتكونوا) كهؤلاء إذا ضرب اخوانكم في الارض. الثاني - لان (الذي) إذا كان مبهما غير موقت يجري مجرى ما في الجزاء، فيقع الماضي فيه. وقع المستقبل، نحو (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله) (١) معناه يكفرون، ويصدون. ومثله (إلا من تاب وآمن) (٢) معناه إلامن يتوب. ومثله كثير. ويجوز لاکرم من الذي أكرمك إذا زرته، لابهام الذي، ولايجوز لاکرم من هذا الذي أكرمك إذا زرته، لتوقيت الذي من أجل الإشارة إليه بهذا ولانه دخله معنى كلما ضربوا في الارض، فلا يصح على هذا المعنى إلا باذا دون إذ قال الشاعر:

واني لاتيكم تشكر ما مضى * من الامر واستيجاب ما كان في غد (٣)
أي ما يكون في غد، وهذا قول الفراء واللام في قوله: (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) متعلقة ب (لاتكونوا) كهؤلاء الكفار في هذا القول منهم، (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) دونكم.

والثاني - قالوا ذلك ليحمله حسرة على لام العاقبة - وهذا قول أبي علي - والحسرة عليهم في ذلك من وجهين:

أحدهما - الخيبة فيما أملوا من الموافقة لهم من المؤمنين، فلما لم يقبلوا منهم،

فتنه زجرته فانزجر. والاول: الرجوع وقد اختلف في تفسير (الاده فلاده). قال أبو عبيدة: ان لم يكن هذا، فلا ذاق قال ابن قتيبة: ان لم يكن هذا الامر لم يكن غيره.

ويروي أهل العربية ان الدال مبدلة من ذال. قال بعضهم: هذا مثل يضرب للرجل يطلب شيئاً فاذا منعه، طلب غيره. وقال الاصمعي: لا أدري ما أصله. قال بعضهم: (ده) كلمة فارسية:

(١) سورة الحج: آية ٢٥.

(٢) سورة مريم: آية ٦٠.

(٣) انظر ١: ٣٥١.

(٢٨)

كان ذلك حسرة في قلوبهم.

والآخر - ما فاتهم من عز الظفر والغنيمة. وقوله: (والله يحيي ويميت) معناه ههنا الاحتجاج على من خالف أمر الله في الجهاد طلباً للحياة، وهرباً من الموت، لان الله تعالى إذا كان هو الذي يحيي ويميت لم ينفع (١) الهرب من أمره بذلك خوف الموت، وطلب

الحياة (والله بما يعملون بصير) أي مبصر. ويحتمل أن يكون بمعنى عليم. وفيه تهديد، لأن معناه أن الله يجازي كلا منهم بعمله ان خيرا فحيرا وان شرا فشرا.
قوله تعالى:

(ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) (١٥٧) آية.
المعنى، والاعراب:

إن قيل كيف قال: (المغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) مع تفاوت ما بينهما ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول الانسان للذرة (٢) خير من البعرة؟! قيل: إنما جاز ذلك لان الناس يؤثرون حال الدنيا على الآخرة حتى أنهم يتركون الجهاد في سبيل الله محبة للدنيا، والاستكثار منها، وما جمعوا فيها.

فان قيل أين جواب الجزاء ب (إن)؟ قيل: استغني عنه بجواب القسم في قوله: (المغفرة من الله ورحمة خير) وقد اجتمع شيئان كل واحد منهما يحتاج إلى جواب، فكان جواب القسم أولى بالذكر - لان له صدر الكلام - مما يذكر في حشوه.

فان قيل: لم شرط (المغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) وهو خير كيف

(١) في المخطوطة (لم يمنع).

(٢) في المخطوطة (الذرة).

(٢٩)

تصرفت الحال؟ قلنا: لانه لا يكون (المغفرة) بالتعرض للقتل في سبيل الله خيرا من غير أن يقع التعرض لذلك لاستحالة استحقاقها بما لم يكن منه، لانه لم يفعل.

فان قيل: لم جاز جواب القسم مع الماضي في الجزاء دون المستقبل في نحو قولهم لئن قتلتم لمغفرة خير؟ قلنا: لان حرف الجزاء إذا لم يعمل في الجواب لم يحسن أن يعمل في الشرط، لان إلغاءه من أحدهما يوجب إلغاءه من الآخر كما أن أعماله في أحدهما يوجب أعماله في الآخر لئلا يتنافر الكلام بالتفاوت.

فان قيل: لم أعملت (ان) ولم تعمل (لو) وكل واحدة منهما تعقد الفعل بالجواب؟ قلنا: لان (ان) تنتقل الفعل نقلين إلى (١) الاستقبال، والجزاء، وليس كذلك (لو) لانها لمامضى.

ان قيل: كيف وجب بالتعرض للقتل المغفرة وإنما تجب بالتوبة؟ قلنا: لانه يجب به تكفير الصغيرة مع أنه لطف في التوبة من الكبيرة. ومعنى الآية أن المنافقين كانوا يثبطون المؤمنين عن الجهاد، على ما تقدم شرحه في هذه السورة فيبين الله تعالى لو انكم إن قتلتم أو متم من غير أن تقتلوا (لمغفرة من الله ورحمة)

تتالونها (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا، والبقاء فيها، وانتفاعكم في هذه الدنيا، لان جميع ذلك إلى زوال.

قوله تعالى: (ولئن متم أو قتلتم لآلى الله تحشرون) (١٥٨) آية.

اللغة، والاعراب،، والمعنى:

اللام في قوله: (ولئن متم أو قتلتم) يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون خلفا من القسم، ويكون اللام في قوله: (لآلى الله)

جوابا كقولك: والله ان متم أو قتلتم لتحشرون إلى الله.

(١) في المطبوعة (في) بدل (إلى)

(٣٠)

والثاني - أن تكون مؤكدة لما بعدها، كمتأكد (ان) مابعدها، وتكون الثانية جوابا لقسم محذوف، والنون مع لام القسم في فعل المضارع لآبد منها، لان القسم أحق بالتأكيد من كلما تدخله النون من جهة أن ذكر القسم دليل أنه من مواضع التأكيد فاذا جازت في غيره من الامر، والنهي، والاستفهام، والعرض، والجزاء مع ما اذ كان ذكر القسم قد أنبأ أنه من مواضع التأكيد، لزمتم فيه، لانه أحق بها من غيره (١). والفرق بين لام القسم ولام الابتداء: أن لام الابتداء تصرف الاسم إليه، فلا يعمل فيه ما قبلها نحو (قد علمت لزيد خير منك)

(وقد علمت بأن زيدا ليقدم). وليس كذلك لام القسم، لانها لا تدخل على الاسم، ولا تكسر لها لام (إن) نحو قد علمت ان زيدا ليقوم، ويلزمها النون في المستقبل. والفرق بين (أو) و (أم) أن (أم) استفهام، وفيها معادلة الالف نحو (أزيد في الدار أم عمرو) وليس ذلك في (أو) ولهذا اختلفت الجواب فيهما، فكل في (أم) بالتعيين وفي (أو) ب (نعم) أو (لا)

ومعنى الآية الحث على الجهاد وترك التقاعد. ويقال أن الله يحشر العباد ليجزي كل واحد على ما يستحقه: المحسن على احسانه والمسئ على اساءته سواء قتل أو مات كيف تصرفت به الحال.

قوله تعالى:

(فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر فاذا عزمتم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) (١٥٩) آية.

(١) في المخطوطة (لم لان الاخر من تفسير) بدل (فيه لانه أحق بها من غير) وقد أثبتنا ما في المطبوعة لانه أوضح.

(٣١)

الاعراب والمعنى: قوله: (فبما رحمة من الله) معناه فبرحمة، وما زائدة باجماع المفسرين ذهب إليه قتادة، والزجاج، والفراء وجميع أهل التأويل. ومثله قوله: (عما قليل ليصبح نادمين) فجاءت (ما) مؤكدة للكلام وسبيل دخولها لحسن النظم، كدخولها لاتزان الشعر، وكل ذلك تأكيد ليتمكن المعنى في النفس، فجرى مجرى التكرير. قال الحسن بن علي المغربي عندي أن معنى (ما) أي وتقديره فبأي رحمة من الله، وهذا ضعيف. ورحمة مجرورة بالباء، ولو رفعت كان جائزا على تقدير فيما هو رحمة. والمعنى ان لينك لهم مما يوجب دخولهم في الدين، لانك تأتيهم بالحجج والبراهين مع لين خلق.

اللغة، والمعنى:

وقوله: (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) فالفظ الجافي، والغليظ القلب القاسي، يقال فيه فظظت تفظ فظاظة، فأنت فظ، وهو على وزن فعل إلا أنه ادغم كضب. وأصل الفظاظة الجفوة. ومنه الفظاظة. ومنه الفظاظ:

خشونة الكلام. والافتظاظ: شرب ماء الكرش لجفائه على الطباع.

وقوله: (فظا غليظ القلب) انما جمع بين الصفتين مع اتفاقهما في المعنى، لازالة التوهم أن الفظاظة في الكلام دون ما ينطوي عليه القلب من الحال، وهو وجه من وجوه التأكيد إذ يكون لازالة الغلط في التأويل، ولتمكين المعنى في النفس بالتكرير، وما يقوم مقامه.

وقوله: (وشاورهم في الامر) أمر من الله تعالى لنبيه أن يشاور أصحابه يقال شاورت الرجل مشاورة وشوارا وما يكون عن ذلك اسمه المشورة. وبعضهم يقول المشورة. وفلان حسن الشورة، والصورة أي حسن الهيئة واللباس وإنه لشير صير، وحسن الشارة، والشوار: متاع البيت. ومعنى شاورت فلانا أي

(٣٢)

أظهرت ما عندي في الرأي، وما عنده (١). وشرت الدابة أشورها: إذا امتحنتها فعرفت هيئتها في سيرها. وقيل في وجه مشاورة النبي (صلى الله عليه وآله) إياهم مع استغنائه بالوحي عن تعرف صواب الرأي من العباد ثلاثة أقوال:

أحدها - قال قتادة، والربيع، وابن اسحاق أن ذلك على وجه التطيب لنفوسهم، والتأليف لهم، والرفع من أقدارهم إذ كانوا ممن يوثق بقوله: (ويرجع إلى رأيه).

والثاني - قال سفيان بن عيينه: وجه ذلك لتقتدي به أمته في المشاورة ولا يرونها منزلة نقيصة كما مدحوا بأن أمرهم شورى بينهم.

الثالث قال الحسن، والضحاك: انه للامرين، لاجلال الصحابة واقتداء الامة به في ذلك. وأجاز أبو علي الجبائي: أن يستعين برأيهم في بعض أمور الدنيا.

وقال قوم: وجه ذلك أن يمتحنهم فيتميز الناصح في مشورته من الغاش النية.

وقوله: (فاذا عزمت فتوكل على الله) فالتوكل على الله هو تعويض الامر إليه للثقة بحسن تدبيره، وأصله الاتكال، وهو الاكتفاء في فعل ما يحتاج إليه بمن يسند إليه. ومنه الوكالة، لانها عقد على الكفاية بالنيابة والوكيل هو المتكل عليه بتقويض الامر إليه. وقوله: (إن الله يحب المتوكلين) معناه يريد ثوابهم على توكلهم واسنادهم أمورهم إلى الله تعالى.

قوله تعالى: (إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (١٦٠)

- آية بلاخلاف -.

المعنى: معنى هذه الآية الترغيب في طاعة الله التي يستحق بها النصر، والتحذير

(١) في المخطوطة ساقطة جملة (في الرأي وماعده).

(٣٣)

من معصيته التي يستحق بها خذلانه مع ايجاب التوكل عليه الذي يؤمن معه أن يكلمهم إلى أنفسهم فيهلكوا، ولانه إذا نصرهم الله فلا أحد يقدر على مغالبتة، وإذا خذلهم فلا أحد يقدر على نصرتهم بعده. و (من) في قوله: (فمن ذا الذي ينصركم من بعده) معناها التقرير بالنفي في صورة الاستفهام أي لا ينصركم أحد من بعده، كما تقول من يعد لك إن فسقك الامام. وإنما تضمن حرف الاستفهام معنى النفي، لان جوابه يجب أن يكون بالنفي، فصار ذكره يغني عن ذكر جوابه.

وكان أبلغ لتقرير المخاطب فيه. قال أبو علي الجبائي: وفي الآية دليل على أن من غلبه أعداء الله من الباغين لم ينصره الله، لانه لو نصره لما غلبوه، وذلك بحسب ما في المعلوم من مصالح العباد من تعريض المؤمنين لمنازل الابرار بالصبر على الجهاد مع خوف القتل من حيث لم يجعل على أمان من غلبة الفجار، وهذا إنما هو في النصر بالغلبة، فاما النصر بالحجة، فان الله تعالى نصر المؤمنين من حيث هداهم إلى طريق الحق بما نصب لهم من الأدلة الواضحة والبراهين النيرة، ولولا ذلك لما حسن التكليف. قال البخاري: المؤمنون منصورون أبداً إن غلبوا، فهم المنصورون بالغلبة، وإن غلبوا، فهم المنصورون بالحجة. قال

الجبائي: والنصر بالغلبة ثواب، لانه لايجوز أن ينصر الله الظالمين من حيث لايريد استعلاءهم بالظلم على غيرهم.

وقال ابن الاخشاد: ليس بثواب كيف تصرفت الحال، لان الله قد أمرنا أن ننصر الفئة المبغي عليها.

وقال البلخي لايجوز أن ينصر الله الكافر على وجه. فأما الخذلان فعقاب بلاخلاف. والخذلان هو الامتناع من المعونة على العدو في وقت الحاجة إليها، لانه لو امتنع إنسان من معونة بعض الملوك على عدوه مع استغناؤه عنها لم يكن خاذلاً، وكذلك سبيل المؤمن المغلوب في بعض الحروب ليس يحتاج إلى المعونة مع الاستفساد بها بدلا من الاستصلاح، فلذلك لم يكن ماوقع به على جهة الخذلان.

(٣٤)

قوله تعالى:

(وماكان لنبي أن يغفل ومن يغفل يأتي بما غل يوم القيامة ثم توفي كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون) (١٦١) - آية - .

القراءة، والمعنى، والحجة، والنزول، واللغة:

قرأ ابن كثير وابن عمرو، وعاصم (يغفل) بفتح الياء وضم الغين. الباقون بضم الياء وفتح الغين. فمن قرأ بفتح الياء وضم الغين، فمعناه ماكان لنبي أن يخون يقال من الغنيمة غل يغل: إذا خان فيها. ومن الخيانة أغل يغل قال النمر بن تولب:

جزى الله عنا حمزة ابنة نوفل * جزاء مغل بالامانة كاذب

بما سألت عني الوشاة ليكذبوا * علي وقد أوليتها في النوائب (١)

(ويقال من - (٢) الخيانة غل يغل، ومن قرأ بضم الياء وفتح الغين أراد، وماكان لنبي أن

يخون أي ينسب) إليه الخيانة. ويحتمل أن يكون أراد ما كان لنبي أن يخان بمعنى يسرق منه. ويكون تخصيص النبي بذلك تعظيماً للذنب. قال أبو علي الفارسي: لا يكاد يقال: ما كان لزيد أن

يضرب، فهذه حجة من قرأ بفتح الياء. وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير: سبب نزول هذه

الآية أن قطيفة حمراء فقدت يوم بدر من المغنم، فقال بعضهم لعل النبي (صلى الله عليه وآله)

أخذها. وقال الضحاك إنما لم يقسم للطلائع من المغنم، فعرفه الله الحكم. وروي عن الحسن

أنه قال: معنى يغل يخان. وقال بعضهم: هذا غلط، لانه لايجوز أن يخان أحد نبيا كان أو

غيره، فلا معنى للاختصاص. وهذا الطعن ليس بشئ لان وجه اختصاصه بالذكر لعظم خيانتته

على خيانة غيره، كماقال: (اجتنبوا الرجس من الاوثان) (٣)

وإن وجب اجتناب جميع الأرجاس، وقد يجوز أن يخص النبي بالذكر، لأنه القائم

(١) الصحاح للجوهري (غلل).

(٢) مابين القوسين ساقط من المطبوعة.

(٣) سورة الحج: آية ٣٠

(٣٥)

بأمر الغنائم، فيكون بمنزلة ماكان لاحد أن يغل. وأصل الغلول هو الغلل، وهو دخول الماء في خلل الشجر تقول: الغل الماء في أصول الشجر ينغل الغللا، فالغلول الخيانة، لأنها تجري في الملك على خفى من غير الوجه الذي يحل كالغلل، وانما خصت الخيانة بالصفة دون السرقة، لأنه يجري إليها بسهولة، لأنها مع عقد الامانة. ومنه الغل الحقد، لان العداوة تجري به في النفس كالغلل. ومنه الغل. ومنه الغليل، حرارة العطش. والغلة، لأنها تجري في الملك من جهات مختلفة، والغلالة، لأنها شعار تحت. البدن والغلالة مسمار الدرع. وقوله: (ومن يغلل يأت بماغل يوم القيامة) قيل في معناه قولان:

أحدهما - يأتي به حاملا له على ظهره، كما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه كان إذا غنم مغنمابعت مناديا ألا لا يغلن أحد مخيطا فما دونه، ألا لا يغلن أحد بعيرا فيأتي به على ظهره له رغاء، ألا لا يغلن أحد فرسا فيأتي به يوم القيامة على ظهره له حممة - في قول ابن عباس، وأبي هريرة وأبي حميد الساعدي، عبدالله بن انيس وابن عمر، وقتادة - وذلك ليفضح به على رؤوس الاشهاد. قال البلخي: يجوز أن يكون ما تضمنه الخبر على وجه المثل كأن الله تعالى إذا فضحه يوم القيامة جرى ذلك مجرى أن يكون حاملا له وله صوت.

الثاني - يأتي به يوم القيامة، لأنه لم يكفر عنه، كما تكفر الصغائر، فهو يعاقب عليه.

وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة: إن الله تعالى لو عذب الانبياء والمؤمنين لم يكن ظلما لهم، لأنه قد بين أنه لو لم يوفها ماكسبت، لكان ظلما لها.

قوله تعالى:

(أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) (١٦٢) - آية

بلاخلاف -.

(٣٦)

المعنى، والنزول:

قيل. في معنى الآية ثلاثة أقوال:

أحدها قال الحسن، والضحاك معناها، أفمن اتبع رضوان الله في ترك الغلول كمن باء بسخط من الله في فعل الغلول، وهو اختيار الطبري قال: لأنه أشبه بما تقدم.
الثاني - قال ابن اسحاق (أفمن اتبع رضوان الله) في العمل بطاعته على ماكره الناس (كمن باء بسخط من الله) في العمل بمعصيته على ما أحبوا.
الثالث - قال الزجاج، وأبو علي: (أفمن اتبع رضوان الله) بالجهد في سبيله (كمن باء بسخط من الله) بالفرار منه رغبة عنه.
وسبب نزولها أن النبي (صلى الله عليه وآله) لما أمر بالخروج إلى أحد قعد عنه جماعة من المنافقين، فأنزل الله فيهم هذه الآية.
اللغة:

(ورضوان الله) - بكسر الراء وضمها - لغتان، وقرأ بالضم حفص عن عاصم على ما حكيناه عنه، فالضم على وزن الكفران. والكسر على وزن حسابان.
وباء معناه رجع تقول: باء بذنبه يبيوء بوءا إذا رجع به. وبوأته منزلا أي هيأته، لأنه يرجع إليه، لأنه مأواه. والبواء قتل الجائي بمن قتله. والسخط من الله من هو إرادة العقاب بمستحقه، ولعنه وهو مخالف للغيب، لأن الغيب هو هيجان الطبع وانزعاج النفس، ولا يجوز إطلاقه على الله تعالى. والمصير: هو المرجع.
والفرق بينهما أن المرجع هو انقلاب الشيء إلى حال قد كان عليها. والمصير: انقلاب الشيء إلى خلاف الحال التي هو عليها نحو مصير الطين خزفا، ولم يرجع خزفا، لأنه لم يكن قبل ذلك خزفا، فأما مرجع الفضة خاتما فصحيح، لأنه قد كان قبل خاتما وأما مرجع العباد إلى الله، فلأنهم ينقلبون إلى حال لا يملكون فيها لانفسهم شيئا، كما كانوا قبل ما ملكوا.

(٣٧)

قوله تعالى: (هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) (١٦٣) - آية - المعنى:
قيل معنى قوله: (هم درجات عند الله) أن تقديره المؤمنون ذوا درجة رفيعة عند الله. والكفار ذوا درجة خسيصة. وقيل في معناه قولان:
أحدهما - اختلاف مراتب كل فريق من أهل الثواب، والعقاب، لأن النار أدراك لقوله: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) (١) والجنة طبقات بعضها أعلى من بعض، كما روي أن أهل الجنة ليرون أهل عليين (٢)، كما يرى النجم في أفق السماء.
والثاني - اختلاف مرتبتي أهل الثواب، والعقاب بالمهولاء من النعيم، والكرامة ولاولئك من العذاب والمهانة. وعبر عن ذلك بدرجات مجازا. فان قيل كيف قال: (هم درجات) وانما لهم درجات) وانما لهم درجات قيل، لأن اختلاف أعمالهم قد ميزهم بمنزلة المختلفي الذوات

كاختلاف مراتب الدرجات لتبعيدهم من استواء الاحوال، فجاء هذا على وجه التجوز، كما قال ابن هرمة انشده سيبويه -:

أنصب للمنية تعزيرهم * رجالي أم هم درج السيول (٣)

وقوله: (والله بصير بما يعملون) معناه عليم. وفيه تحذير من أن يتكل على الاسرار في الاعمال ظنا بأن ذلك يخفى على الله، لان أسرار العباد عند الله علانية. وفيه توثيق بأنه لا يضيع للعامل لربه شئ لانه لا يخفى عليه جميعه.

(١) سورة النساء: آية ١٤٤.

(٢) في المخطوطة (أ) كما روي أن أهل الجنة ليرون أهل النار يطعون عليهم فيرونهم كما يرى النجم في افق السماء. والاصح مافي المطبوعة.

(٣) سيبويه ١: ٢٠٦، واللسان (درج) ومجاز القرآن لابي عبيدة ١: ١٠٧ والخزانة ١: ٢٠٣ وقد رواه بعضهم: أرجما للمنون يكون قومي * لريب الدهر أم درج السيول

(٣٨)

اللغة، والحجة:

وأصل الدرجة الرتبة، فمنه الدرج، لانه يطوى رتبة بعد رتبة يقال:

أدرجه إدراجا. والدرجان مشي الصبي لتقارب الرتب، درج يدرج درجا ودرجانا.

والدرج معروف. والترقي في العلم درجة بعد درجة أي منزلة بعد منزلة كالدرجة المعروفة. فان قيل هلا كان القرآن كله حقيقة، ولم يكن فيه شئ من المجاز، فان الحقيقة أحسن من المجاز؟ قلنا: ليس الامر على ذلك فان المجاز في موضعه أولى، وأحسن من الحقيقة لما فيه من الايجاز من غير اخلال بمعنى، وهي المبالغة بالاستعارة التي لا تنوب منابها الحقيقة، لان قولهم إذ هو الشمس ضياء أبلغ في النفوس من قولهم هو كالشمس ضياء، كذلك الجزاء بالجزاء أحسن من الجزاء بالابتداء، لانه أدل على تقابل المعنى بتقابل اللفظ، فكذلك (هم درجات) أولى وأبلغ من هم أهل درجات، للايجاز من غير اخلال.

قوله تعالى:

(لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) (١٦٤) - آية -.

اللغة، والمعنى:

قوله: (لقد من الله) معناه أنعم الله. وأصل المن القطع. منه يمنه منا:

إذا قطعه. (ولهم أجر غير ممنون) (١) أي غير مقطوع. والمن النعمة، لأنه يقطع بها عن البلية. ويقول القائل: من علي بكذا أي استتقذني به مما أنا فيه. والمن تكدير النعمة، لأنه قطع لها عن وجوب الشكر عليها. والمنة القوة، لأنه

(١) سورة حم السجدة: آية ٨ وسورة الانشقاق: آية ٢٥.

(٣٩)

يقطع بها الاعمال. وفي تخصيص المؤمن بذكر هذه النعمة وإن كانت نعمة على جميع المكلفين قيل فيه من حيث أنها على المؤمنين أعظم منها على الكافرين، لأنها نعمة عليهم من حيث هي نفع في نفسها. وفيما يؤدي إليه من الايمان بها، والعمل بما توجبه أحكامها، فالمؤمن يستحق اضافتها إليه من وجهتين، لما بيناه من حالها، ونظائر ذلك قد بيناه مثل قوله: (هدى للمتقين) وغير ذلك وإنما أضافه إلى المتقين من حيث أنهم المنتفعون بها دون غيرهم. وقوله: (إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها من أنفسهم ليكون ذلك شرفا لهم، فيكون ذلك داعيا لهم إلى الايمان.

الثاني - من أنفسهم، لسهولة تعلم الحكمة عليهم، لأنه بلسانه.

الثالث - من أنفسهم، ليتيسر عليهم علم أحواله من الصدق والامانة والعفة والطهارة. وقال الزجاج: من عليهم إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم من الاميين، لا يتلو كتابا ولا يخط بيمينه، فنشأ بين قوم يخبرونه ويعرفونه بالصدق والامانة وأنه لم يقرأ كتابا ولا لقنه، فتلا عليهم أقاصيص الامم السالفة، فكان ذلك من أدل دليل على صدقة فيما أتى به. وقوله: (يتلو عليهم آياته) معناه يقرأ عليهم ما أنزله عليه من آيات القرآن (ويزكيهم) يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها - يشهد لهم بأنهم أزكيا في الدين، فيصيروا بهذه المنزلة الرفيعة في الخلق.

الثاني - يدعوهم إلى ما يكونون به زاكين سالكين سبيل المهتدين.

الثالث - قال الفراء يأخذ منهم الزكاة التي يطهرهم بها. وقوله: (ويعلمهم الكتاب والحكمة) يعني القرآن، وهو الحكمة. وإنما كرره بواو العطف لامرين:

أحدهما - قال قتادة: الكتاب القرآن، والحكمة السنة.

والثاني - لاختلاف فائدة الصفتين، وذلك أن الكتاب ذكر للبيان أنه مما يكتب ويخدا ليبقى على الدهر، والحكمة البيان عما يحتاج إليه من طريق المعرفة.

(٤٠)

وقوله: (وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) يعني أنهم كانوا كفارا. وكفرهم هو ضلالهم فأنقذهم الله بالنبى (صلى الله عليه وآله).

قوله تعالى: (أولما أصابنكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شئ قدير) (١٦٥) - آية واحده - المعنى: إنما دخلت الواو في (أولما أصابنكم) لعطف جملة على جملة إنه تقدمها ألف الاستفهام، لأن له صدر الكلام. وإنما اتصل الواو الثاني بالاول ليدل على تعلقه به في المعنى، وذلك أنه وصل التقريع على الخطيئة بالتذكير بالنعمة لفرقة واحدة. والمصيبة التي أصابت المسلمين هو ما أصابهم يوم أحد، فإنه قتل منهم سبعون رجلا وكانواهم أصابوا من المشركين يوم بدر مثليها، فانهم كانوا قتلوا من المشركين سبعين وأسروا منهم سبعين في - قول قتادة، والربيع، وعكرمة، والسدي - فقال الزجاج: لانهم أصابوا يوم أحد منهم مثلهم، ويوم بدر مثلهم، فقد أصابوا مثلهم. وهذا ضعيف، لانه خلاف لاهل السير، لانه لاخلاف أنه لم يقتل من المشركين مثل من قتل من المسلمين بل قتل منهم نفر يسير، فحمله على ما قاله ترك الظاهر. وقوله: حكاية عن المسلمين (أنى هذا) أي من أين هذا.

وقوله: (قل هو من عند أنفسكم) قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال قتادة، والربيع: لانهم اختلفوا في الخروج من المدينة للقتال يوم أحد وكان دعاهم النبي (صلى الله عليه وآله) إلى أن يتحصنوا بها ويدعوا المشركين إلى أن يقصدوهم فيها، فقالوا كنا نمتنع من ذلك في الجاهلية، ونحن في الاسلام، وأنت يارسول الله نبينا أحق بالامتناع وأعز.

والثاني - روي عن علي (ع) وعبيدة السلماني أن الحكم كان في أسرى بدر

(٤١)

القتل، فاخترأوا هم الفداء، وشرط عليهم أنكم إن قبلتم الفداء قتل منكم في القابل بعدتهم، فقالوا رضينا بذلك، فانا نأخذ الفداء وننتفع به. وإذا قتل منافيما بعد كنا شهداء. وهو المروي عن أبي جعفر (ع).

الثالث - لخلاف الرماة يوم أحد لما أمرهم به النبي (صلى الله عليه وآله) من ملازمة موضعهم. وقوله: (إن الله على كل شئ قدير) معناه ههنا أنه على كل شئ قدير يدبركم بأحسن التدبير من النصر مع طاعتكم وتركه مع المخالفة إلى ما وقع به النهي، وهذا جواب لقوله: (أنى هذا) وقد تقدم الوعد بالنصرة، وفي الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة: بان المعاصي كلها من فعل الله، لانه تعالى قال (قل هو من عند أنفسكم) ولولم يكن فعلوه، لما كان من عند أنفسهم كما أنه لو فعله الله، لكان من عنده.

قوله تعالى:

(وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين) (١٦٦) - آية -.

المعنى:

قوله: (وما أصابكم يوم التقى الجمعان) يعني يوم أحد وما دخل عليهم من المصيبة بقتل من قتل من المؤمنين. وقوله: (فباذن الله) قيل في معناه قولان:
أحدهما - بعلم الله. ومنه قوله: (فاذنوا بحرب من الله) (١) معناه اعلموا ومنه قوله: (وآذان من الله) (٢) أي إعلام. ومنه (أذناك ما منا من شهيد) (٣) يعني أعلمناك.
الثاني - أنه بتخليئة الله التي تقوم مقام الاطلاق في الفعل برفع الموانع،

(١) سورة البقرة: آية ٢٧٩.

(٢) سورة التوبة: آية ٣.

(٣) حم السجدة: آية ٤٧.

(٤٢)

والتمكين من الفعل الذي يصح معه التكليف. ولايجوز أن يكون المراد به بأمر الله، لانه خلاف الاجماع، لان أحدا لايقول: إن الله يأمر المشركين بقتل المؤمنين، ولانه يأمر بشئ من القبائح، ولان الامر بالقبيح قبيح، لايجوز أن يفعله الله تعالى. ويمكن أن يحمل مع تسليم أنه بأمر الله بأن يكون ذلك مصروفا إلى المنهزمين المعذورين بعد اخلال من أخل بالشعب، وضعفهم عن مقاومة عدوهم، وان حمل على الجميع أمكن أن يكون ذلك بعد تفرقهم وتبدد شملهم وانفساد نظامهم، لان عند ذلك أذن الله في الرجوع وألا يخاطروا بنفوسهم وقوله: (وليعلم المؤمنين) ليس معناه أن الله يعلم عند ذلك ما لم يكن عالما به، لانه تعالى عالم بالاشياء قبل كونها وإنما معناه، وليتميز المؤمنون من المنافقين إلا أنه أجرى على المعلوم لفظ العلم مجازا على المظاهرة في المجازاة بالقول على ما يظهر من الفعل من جهة أنه ليس يعاملهم بما في معلومه أنه يكون منهم إن بقوا، بل يعاملهم معاملة من كأنه لايعلم ما يكون منهم حتى يظهر. ليكونوا على غاية الثقة بأن الله إنما يجازي بحسب ما وقع من الاحسان أو الاساءة.

فان قيل: هل يجوز أن يقول القائل: المعاصي تقع باذن الله، كما قال:

(ما أصابكم) من ايقاع المشركين بكم (باذن الله)؟ قلنا: لايجوز ذلك لان الله تعالى إنما خاطبهم بذلك على وجه التسلية للمؤمنين، فدل ذلك على أن الاذن المراد به التمكين ليطمئئوا بظهور الطاعة منهم. وليس كذلك قولهم: المعاصي باذن الله، لانه لما عري من تلك القرينة صار بمعنى اباحة الله، والله تعالى لايبيح المعاصي، لانها قبيحة، ولان إباحتها تخرجها من معنى المعصية. والفاء انما دخلت في قوله:

(فبأذن الله) لان خبر (ما) التي بمعنى الذي يشبه جواب الجزاء، لانه معلق بالفعل في الصلة كتعليقه بالفعل في الشرط، كقولك الذي قام فمن أجل أنه كريم أي، لاجل قيامه صح أنه كريم. ومن أجل كرمه قام. وقد قيل أن (ما) هي بمعنى الجزاء، ولا يصح ههنا لان الفعل بمعنى المضي.

(٤٣)

قوله تعالى: (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون)

(١٦٧) - آية بلا خلاف -.

المعنى: قوله: (وليعلم الذين نافقوا) عطف على قوله: (وليعلم المؤمنين) وقيل في خبر ليعلم قولان:

أحدهما - أنه مكتف بالاسم، لانه بمعنى ليعرف المنافقين.

والثاني - أنه محذوف، وتقديره: وليعلم المنافقين متميزين من المؤمنين.

وقوله: (وقيل لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله) روي أن القائل لهم ذلك كان عبدالله بن عمرو بن خزام يذكرهم الله ويحذرهم أن يخذلوا نبيه عند حضور عدوه - في قول ابن اسحاق والسدي - وقوله: (أو ادفعوا) قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال السدي، وابن جريج: ادفعوا بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا معنا.

الثاني - قال ابن عون الانصاري: معناه رابطوا بالقيام على الخيل إن لم تقاتلوا معنا. وقوله: (قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم) قال ابن اسحاق، والسدي ان القائل لذلك عبدالله بن أبي بن سلول، انزل يوم أحد بثلاثمائة نفس، قال لهم علام نقتل أنفسنا ارجعوا بنا، وقالوا للمؤمنين لا يكون بينكم قتال، ولو علمنا أنه يكون قتال لخرجنا معكم وأضمرنا في باطنهم عداوة النبي (صلى الله عليه وآله)، والمؤمنين، فقال الله تعالى: (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان) لانهم بهذا الاظهار إلى الكفر أقرب منهم للايمان إذ كانوا قبل ذلك في ظاهر أحوالهم إلى الايمان أقرب

(٤٤)

حتى هتكوا أنفسهم عندهم كانت تخفى عليه حالهم من المؤمنين الذين كانوا يحسنون الظن بهم، وليس المراد أن بينهم وبين المؤمنين قربا يوجب دخول لفظة أفعل بينهم. وانما هو مثل قول القائل: - وهو صادق - لمن هو كاذب: أناأصدق منك، وإن لم يكن بينهما مقارنة في

الصدق. وقوله: (يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم) انما ذكر الافواه، وإن كان القول لا يكون إلا بالافواه لامرين:

أحدهما - للتأكيد من حيث يضاف القول إلى الانسان على جهة المجاز، فيقال: قد قال كذا: إذقاله غيره ورضي به، وكذلك (يكتبون الكتاب بأيديهم) (١) أي يتولونه على غير جهة الامر به.

والثاني - لانه فرق بذكر الافواه بين قول اللسان وقول الكتاب.

وقوله: (والله أعلم بما يكتُمون) يعني أعلم من الكافرين الذين قالوا:

لا يكون قتال، وما كتموه في نفوسهم من النفاق.

قوله تعالى: (الذين قالوا لآخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) (١٦٨) - آية - .

الاعراب:

موضع الذين يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب:

أحدها - أن يكون نصباعلى البدل من الذين نافقوا.

الثاني - الرفع على البدل من الضمير في يكتُمون.

الثالث - الرفع على خبر الابتداء، وتقديره: هم (الذين قالوا لآخوانهم)

(١) سورة البقرة: آية ٧٩.

(٤٥)

المعنى:

والمعنى بهذا الكلام والقائلون لهذا القول عبدالله بن أبي وأصحابه من المنافقين قالوه في قتلنى يوم أخدمن آخوانهم على قول جابر بن عبدالله، وقتادة، والسدي، والربيع - وقوله: (قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) معناه ادفعوا قال الشاعر:

تقول إذا درأت لها وضيئي * أهذا دينه أبدا وديني (١)

فان قيل كيف يلزمهم دفع الموت عن أنفسهم بقولهم أنهم لو لم يخرجوا لم يقتلوا؟ قيل لان من علم الغيب في السلامة من القتل يجب أن يمكنه أن يدفع عن نفسه الموت فليدفعه، فهو، أجدى عليه.

فان قيل: كيف كان هذا القول منهم كذبا مع أنه اخبار على ماجرت به العادة؟ قلنا: لانهم لا يدرون لعلمهم لو لم يخرجوا لدخل المشركون عليهم في ديارهم، فقتلوهم هذا قول أبي علي وقال غيره معنى (إن كنتم صادقين) أي محقين في تثبيطكم من الجهاد فرارا من القتل.

قوله تعالى:

(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) (١٦٩) - آية
بلاخلاف -.

المعنى:

ذكر ابن عباس، وابن مسعود، وجابر بن عبدالله عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال لما
أصيب أخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في حواصل طير خضر ترد انهار الجنة، وتأكل من
ثمارها. قال البلخي: وهذا ضعيف، لان الارواح جماد لاحياة فيها،

(١) انظر ٢: ١٤٨.

(٤٦)

ولو كانت حية لاحتاجت إلى أرواح أخر وأدى إلى مالا يتناهى فضعف الخبر من هذا الوجه. وفي الناس من قال: إن تأويل الآية اخبار عن صفة حال الشهداء في الجنة من حيث فسد القول بالرجعة، وهذا ليس بشئ لأنه خلاف الظاهر، ولأن أحدا من المؤمن لا يحسب أن الشهداء في الجنة أموات، وأيضا، فقد وصفهم الله بأنهم أحياء فرحون في الحال، لأن نصب فرحين هو على الحال.

وقوله: (لم يلحقوا بهم من خلفهم) يؤكد ذلك، لانهم في الآخرة قد لحقوا بهم، ومعنى الآية النهي عن أن يظن أحد أن المقتولين في سبيل الله أموات.

والخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله)، والمراد به جميع المكلفين، كما قال: (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) وأنه ينبغي أن يعتقد أنهم (أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله) وبهذا قال الحسن، وعمر بن عبيد، وواصل بن عطاء واختاره الجبائي، والرماني، وأكثر المفسرين. وقال بعضهم وذكره الزجاج: المعنى ولاتحسبنهم أمواتا في دينهم بل هو أحياء في دينهم، كما قال: (أو من كان ميتا فأحييناه)

الآية (١) وقال البلخي معناه: لاتحسبنهم كما يقول الكفار أنهم لا يبعثون بل يبعثون، وهم (أحياء عند ربهم يرزقون فرحين). وقال قوم: إن أرواحهم تسرح في الجنة وتلتذ بنعيمها، فهم (أحياء عند ربهم) وقوله: (عند ربهم) قيل في معناه قولان: أحدهما - أنهم بحيث لا يملك لهم أحنفعا ولاضرا إلا ربهم وليس المراد بذلك قرب المسافة لأن ذلك من صفة الاجسام وذلك مستحيل عليه تعالى.

والوجه الآخر عند ربهم أحياء من حيث يعلمهم كذلك دون الناس - ذكره أبو علي -
الاعراب:

وقوله: (بل أحياء) رفع على أنه خبر الابتداء، وتقديره بل هم أحياء، ولايجوز فيه النصب بحال، لأنه كان يصير المعنى بل احسبنهم أحياء، والمراد بل

(١) سورة الانعام: آية ١٢٢.

(٤٧)

اعلمهم احياء.

المعنى والحجة:

فان قيل لم لايجوز أن يكون المعنى بل أحياء على معنى أنهم بمنزلة الاحياء كما يقال لمن خلف خلفا صالحا أو ثناء جميلا: مامات فلان بل هو حي؟ قلنا:

لايجوز ذلك لانه انما جاز هذا بقريظة دلت عليه من حصول العلم بأنه ميت فانصرف الكلام إلى أنه بمنزلة الحي، وليس كذلك الآية لان إحياء الله لهم في البرزخ جائز مقدور والحكمة تجيزه.

فان قيل أليس في الناس من أنكر الحديث من حيث أن الروح عرض لايجوز أن يتعم؟ قيل: هذا ليس بصحيح، لان الروح جسم رقيق هوائي مأخوذ من الريح. والدليل على ذلك أن الروح تخرج من البدن وترد إليه وهي الحساسة الفعالة دون البدن، وليست من الحياة في شيء، لان ضد الحياة الموت وليس كذلك الروح - هذا قول الرمانى سؤاله وجوابه - . وفي الآية دليل على أن الرجعة إلى دار الدنيا جائزة لاقوام مخصوصين، لانه تعالى أخبر أن قوما ممن قتلوا في سبيل الله ردهم الله أحياء كما كانوا، فأما الرجعة التي يذهب إليها أهل التناسخ، ففاسدة، والقول بها باطل لما بيناه في غير موضع، وذكرنا جملة منه في شرح جمل العلم فمن أراد وقف عليه من هناك ان شاءالله. وقال أكثر المفسرين الآية مختصة بقتلى أحد. وقال أبو جعفر (ع)، وكثير من المفسرين: انها تتناول قتلى بدر وأحد معا. قوله تعالى:

(فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون)
(١٧٠) - آية - .

(٤٨)

الاعراب:

قوله: (فرحين) نصب على الحال من (يرزقون) وهو أولى من رفعه على بل أحياء لان النصب ينبئ عن اجتماع الرزق والفرح في حال واحدة، ولو رفع على الاستئناف لكان جائزا. وقال الفراء: يجوز نصبه على القطع عن الاول.

المعنى، واللغة:

وقوله: (بما آتاهم الله من فضله) معناه بما أعطاهم الله من ضروب نعمه، ومعنى يستبشرون أي يسرون بالبشارة وأصل الاستفعال طلب الفعل فالمستبشر بمنزلة من طلب السرور في البشارة، فوجده.

وأصل البشارة من البشرة وذلك لظهور السرور بها في بشرة الوجه. ومنه البشر لظهور بشرته. ومعنى قوله:

(ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم) أي هم بمنزلة من قد بشرفي صاحبه بما يسر به. ولاهل التأويل فيه قولان:

أحدهما - قال ابن جريج، وقتادة: يقولون: اخواننا يقتلون كما قتلنا فيصيبون من كرامة الله ما أصبنا.

والآخر - أنه يؤتى الشهيد بكتاب فيه ذكر من يقدم عليه من اخوانه يبشر ذلك فيستبشر كما يستبشر أهل الغائب بقدمه في الدنيا - ذكره السدي - وقال الزجاج: معناه أنهم لم يلحقوا بهم في الفعل إلا أن لهم فضلا عظيما بتصديقهم وإيمانهم.

ولحقت ذلك والحقت غيري، مثل علمت وأعلمت، وقيل لحقت وألحقت لغتان بمعنى واحد مثل بان وأبان، وعلى ذلك: إن عذابك بالكفار ملحق أي لاحق على هذا أكثر نقاد الحديث. وروى بعض النقات ملحق بنصب الحاء ذكره البلخي.

وقوله: (ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) قيل في موضع أن قولان:

أحدهما - انه خفض بالباء وتقديره بان لاخوف، هذا قول الخليل،

(٤٩)

والكسائي والزجاج.

الثاني ان يكون موضعه نصبا على أنه لما حذف حرف الجر نصب بالفعل كما قال الشاعر:

أمرتك الخير (١)

أي بالخير في قول غيرهم.

قوله تعالى: (يستبشرون بنعمة من الله وفضل وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين) (١٧١) - آية

-

القراءة:

قرأ الكسائي (وإن الله) - بكسر الالف - الباقون بفتحها على معنى وبأن الله، ورجح هذه

القراءة أبو علي الفارسي. والكسر على الاستئناف. وفي قراءة عبدالله (والله لا يضيع أجر

المؤمنين). وهو يقوي قراءة من قرأ بالكسر.

قوله: (يستبشرون).

المعنى:

يعني هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله الذين وصفهم بانهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من

فضله، وانهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، فوصفهم ههنا بانهم يستبشرون بنعمة

من الله وفضل. وفضل الله وان كان هو النعمة قيل في تكراره ههنا قولان:

أحدهما - لانها ليست نعمة مضيقية على قدر الكفاية من غير مضاعفة السرور واللذة.

(٥٠)

والآخر - للتأكيد لتمكين المعنى في النفس، والمبالغة. والنعمة هي المنفعة التي يستحق بها الشكر إذا كانت خالية من وجوه القبح، لأن المنفعة على ضربين: أحدهما - منفعة اغترار، وحيلة، و - الثاني - منفعة خالصة من شائب الاساءة. والنعمة: تعظيم بفعل غير المنعم، كنعمة الرسول على من دعاه إلى الاسلام فاستجاب له، لأن دعاءه له نفع من وجهين:

أحدهما - حسن النية في دعائه إلى الحق ليستجيب له.

والآخر - قصده الدعاء إلى حق من يعلم انه يستجيب له المدعو وانما يستدل بفعل غير المنعم على موضع النعمة في الجلالة وعظم المنزلة.

وقوله: (وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين) وان كانوا هم علموا ذلك فانما ذكر الله انهم يستبشرون بذلك، لأن ما يعلمونه في دار التكليف يعلمونه بدليل.

وما يعلمونه بعد الموت يعلمونه ضرورة. وبينهما فرق واضح، لأن مع العلم الضروري يتضاعف سرورهم، ويشتد اغتباطهم.

قوله تعالى:

(الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) (١٧٢) - آية واحدة -.

سبب النزول والقصة:

ذكر ابن عباس والسدي، وابن اسحاق، وابن جريج، وقتادة: ان سبب نزول هذه الآية ان أباسفيان: صخر بن حرب، وأصحابه لما انصرفوا عن أحد، ندموا. وقال بعضهم لبعض: لامحمدا قتلتم ولا الكواعب اردفتم فارجعوا غيروا على المدينة، واسبوا ذراريهم. وقيل: إن بعضهم قال لبعض: إنكم قتلتم عدوكم حتى إذالم يبق إلا الشريد تركتموهم. ارجعوا فاستأصلوهم. فرجعوا إلى حمراء الاسد وسمع بهم النبي (صلى الله عليه وآله) فدعا أصحابه إلى الخروج، وقال: لا يخرج معنا

(٥١)

إلا من حضرنا أمس للقتال، ومن تأخر عنا، فلا يخرج معنا. وروي أنه (صلى الله عليه وآله) أذن لجابر وحده في الخروج - . وكان خلفه أبوه على بناته يقوم بهن - فاعتل بعضهم بأن قال: بناجراح، وآلام فانزل الله تعالى (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) وقيل نزلت فيهم أيضا (ولاتهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله

مالا يرجون) (١) ثم استجابوا على ما بهم إلى اتباعهم وألقى الله الرعب في قلوب المشركين، فانهزموا من غير حرب.

وخرج المسلمون إلى حمراء الأسد. وهي على ثمانية أميال من المدينة. الاعراب، واللغة:

وموضع (الذين) يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب: الجر - على أن يكون لغتا للمؤمنين - والرفع - على الابتداء - وخبر الذين الجملة - والنصب - على المدح - وقوله: (من بعد ما أصابهم القرع) معناه من بعد ما نالهم الجراح وأصله الخلوص من الكدر. ومنه ماء قراح أي خالص. والقراح من الارض: ماخلص طينه من السبخ، وغيره. والقريحة خالص الطبيعة. واقترحت عليه كذا أي اشتهيته عليه لخلوصه على ماتتوق نفسه إليه، كأنه قال: استخلصته. وفرس قارح أي طلع نابه لخلوصه ببلوغ تلك الحال عن نقص الصغار، وكذلك ناقة قارح أي حامل. فالقراح الجراح، لخلوص المه إلى النفس.

وأجاب، واستجاب بمعنى واحد. وقال قوم: استجاب: طلب الاجابة.

واجاب: فعل الاجابة. وقوله: (للذين احسنوا) فالاحسان هو النفع الحسن.

والافضال النفع الزائد على أقل المقدار. وقوله: (واتقوا) معناه اتقوا معاصي الله (أجر عظيم) معناه ههنا الذين فعلوا الحسن الجميل من طاعة النبي (صلى الله عليه وآله)، والانتهاه إلى قوله. وقوله (منهم) معناه تبين الصفة لا التبعض.

(١) سورة النساء: آية ١٠٣.

(٥٢)

قوله تعالى:

(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) (١٧٣) - آية بلاخلاف - المعنى:

وقيل في المعنى بقوله: (الناس) الاول ثلاثة أقوال:

أولها - قال ابن عباس، وابن اسحاق: انهم ركب دسهم أبوسفیان إلى المسلمين ليجبنوهم عند منصرفهم من أحد لما أرادوا الرجوع إليهم وقال السدي:

هو اعرابي ضمن له جعل على ذلك. وقال الواقدي هو نعيم بن مسعود الاشجعي وهو قول أبي جعفر وأبي عبدالله (ع). وقوله: (إن الناس قد جمعوا لكم)

المعنى به أبوسفيان و أصحابه - في قول أكثر المفسرين - وقال مجاهد: انما كان ذلك في بدر الصغرى وهي سنة أربع وكانت أحد في سنة ثلاث من الهجرة. وإنما عبر بلفظ الجميع عن الواحد في قوله: (قال لهم الناس) لأميرين:

أحدهما - ان تقديره جاء القول من قبل الناس، فوضع كلام موضع كلام - ذكره الرماني - . والثاني - إن الواحد يقوم مقام الناس، لأن (الانسان) إذا انتظر قوما فجاء واحد منهم، فديقال: جاء الناس إما لتفخيم الشأن، وأما لابتداء الاتيان.

وقوله: (فاخشوهم) حكاية عن قول نعيم بن مسعود للمسلمين. يعني اخشوا أباسفيان، وأصحابه فبين الله تعالى ان ذلك القول زادهم ايمانا وثباتا على دينهم، واقامة على نصرته نبيهم. وقالوا عند ذلك (حسبنا الله ونعم الوكيل) ومعناه كافينا الله.

اللغة، والقصة:

وأصله من الحساب، لان الكفاية بحسب الحاجة، وبحساب الحاجة. ومنه

(٥٣)

الحسبان وهو الظن. والوكيل: الحفيظ. وقيل: هو الولي. وأصله القيام بالتدبير. المتولى للشئ قائم بتدبيره، والحافظ له يرجع إلى هذا المعنى. ومعنى الوكيل في صفات الله المتولى للقيام بتدبير خلقه، لانه مالكمهم رحيم بهم. والوكيل في صفة غيره: انما يعقد بالتوكيل. وقال قوم من المفسرين: إن هذا التخويف من المشركين كان في السنة المقبلة، لان أباسفيان، لما انصرف يوم أحد، قال موعدكم البدر في العام المقبل. فقال النبي (صلى الله عليه وآله) لمن حضره: قولوا نعم. فلما كان العام المقبل خرج النبي (صلى الله عليه وآله) بأصحابه، وكان أبوسفيان كره الخروج، فذس من يخوف النبي (صلى الله عليه وآله) وأصحابه لم يسمعوا منهم، وخرجوا إلى بدر فلما لم يحضر أحد من المشركين، رجعوا، وكانوا صادفوا هناك تجارة اشتروها فربحوا فيها، وكان

ذلك نعمة من الله. وروى ذلك أبو الجارود عن أبي جعفر (ع).
قوله تعالى:

(فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم)
(١٧٤) - آية بلاخلاف - .

المعنى، واللغة، والاعراب:

الانقلاب، والرجوع، والمصير واحد. وقد فرق بينهما بأن الانقلاب هو المصير إلى ضد ما كان قبل ذلك كانقلاب الطين خزفا. ولم يكن قبل ذلك خزفا والرجوع هو المصير إلى ما كان قبل ذلك وقوله: (بنعمة من الله وفضل)) قيل في معناه قولان:

أحدهما - ان النعمة العافية. والفضل: التجارة. والسوء: القتل - في قول السدي، ومجاهد - وقال الزجاج: النعمة ههنا الثبوت على الايمان في طاعة الله وفضل الربح في تجارتهم، لانه روي أنهم اقاموا في الموضع ثلاثة أيام فاشترؤا أدمًا وزبيبا ربحوا فيه: وقال قوم: إن أقل ما يفعله الله بالخلق فهو نعمة، وما زاد عليه

(٥٤)

فهو الموصوف بأنه فضل. والفرق بين النعمة والمنفعة أن النعمة لا تكون نعمة إلا إذا كانت حسنة، لانه يستحق بها الشكر ولايستحق الشكر بالقبيح. والمنفعة قد تكون حسنة وقد تكون قبيحة مثل ان يغضب ما لاينتفع به - وإن كان قبيحا - وقوله: (لم يمسههم سوء) موضعه نصب على الحال. وتقديره: فانقلبوا بنعمة من الله وفضل سالمين. والعامل فيه (فانقلبوا) والمعنى بالآية الذين أمرهم الله تعالى بتتبع المشركين إلى حمراء الاسد، فلما بلغوا إليها وكان المشركون أسرعوا في المضي إلى مكة رجع المسلمون من هناك من غير أن يمسههم قتل ولاجراح غانمين سالمين، وقد امتثلوا ما أمرهم الله تعالى به. واتبعوا رضوانه (والله ذو فضل عظيم)

أي ذو إحسان عظيم على عباده ديني ودنيوي.

قوله تعالى:

(إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) (١٧٥) - آية - .
معنى الآية انما ذلك التخويف الذي كان من نعيم بن مسعود من فعل الشيطان، وباغوائه، وتسويله. يخوف أولياءه المؤمنين. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: يخوف المؤمنين بالكافرين. وقال الزجاج، وأبو علي الفارسي، وغيرهما من أهل العربية: إن تقديره يخوفكم أولياءه. أي من أوليائه بدلالة قوله: (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) أي إن كنتم مصدقين بالله فقد أعلمتكم أنني انصركم عليهم، فقد سقط عنكم الخوف. ومثله قوله: (لينذر باسا شديدا من لدنه) (١) ومعناه لينذرکم بأسا والتقدير لينذرکم ببأس شديد، فلما حذف الجار نصبه. وقيل: إن (يخوف) يتعدى إلى مفعولين، لانك تقول: خفت زيدا وخوفت زيدا عمرا. ويكون في الآية حذف أحد المفعولين، كماقلناه في

(١) سورة الكهف: آية ٢.

(٥٥)

قولهم: فلان يعطي الدراهم ويكسو الثياب. وقال بعضهم: هذا لايشبه الآية، لانه انما أجازوا حذف المفعول الثاني في أعطى الدراهم، لانه لايشبهه أن الدراهم هي التي اعطيت. وفي الآية

تشبته الحال في من المخوف ومن المخوف وقال قوم: (يخوف اولياءه) أي انما خاف المنافقون ومن لاحقية لايمانهم. وقال الحسن، والسدي:

يخوف اولياءه المنافقين، ليقعدوا عن قتال المشركين ويخوف يتعدى إلى مفعولين كما يتعدى، يعطي لان أصله خاف زيد القتال وخوفته القتال. كما تقول عرف زيد أخاك وعرفته أخاك. فان قيل: كيف يكون الاولياء على المفعول الثاني وانما التخويف من الاولياء لغيرهم؟ قيل: ليس التقدير هكذا. وانما هو على (خاف المؤمنون اولياء الشيطان). وهو خوفهم اولياءه. قال الرماني: وغلط من قدر التقدير الاول. وقوله: (فلا تخافوهم) يعني لاتخافوا المشركين. وانما قال:

(ذلك) وهي انما يشاربها إلى ما هو بعيد لانه أراد ذلك القول تقدم من المخوف لهم من قوله: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم).

قوله تعالى: (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم) (١٧٦) - آية بلاخلاف - .
القراءة:

قرأ نافع في جميع القرآن (يحزنك) - بضم الياء - إلا قوله: (لا يحزنهم الفرع الاكبر) (١).
الباقون بفتح الياء في جميع القرآن. وقرأ أبو جعفر عكس ماقرأ نافع. فانه فتح في جميع القرآن إلا قوله (لا يحزنهم) فانه ضم الياء

(١) سورة الانبياء: آية ١٠٣.

(٥٦)

وحكى البلخي عن ابن أبي محييص الضم في الجميع.
اللغة:

قال سيبويه: تقول: فتن الرجل، وفتنته. وحزن، وحزنته. وزعم الخليل أنك حيث قلت فتنته، وحزنته، لم ترد أن تقول: جعلته حزينا وجعلته فاتنا.
كما أنك حين قلت: أدخلته جعلته داخلا، ولكن أردت أن تقول: جعلت فيه حزنا، وفتنة. فقلت فتنته كما قلت كحلته أي جعلت فيه كحلا. ودهنته جعلت فيه دهنا. فجئت بفعلته - على حده - ولم ترد بفعلته ههنا نفس قولك حزن وفتن ولو أردت ذلك لقلت أحزنته وأفتنته. وفتن من فتنته مثل حزن من حزنته قال:

وقال بعض العرب: أفتنت الرجل وأحزنته إذا جعلته حزينا، وفانتا، فغيره إلى أفل - هذاحاه أبو علي الفارسي حجة لنافع - وقال قوله: (لايحزنهم) إنما ضم على خلاف أصله لعله اتبع أثرا أو أحب الاخذ بالوجهين: المعنى:

والمعنى بقوله: (الذين يسارعون في الكفر) - على قول مجاهد - وابن اسحاق - المنافقون. وفي قول أبي علي الجبائي: قوم من العرب ارتدوا عن الاسلام. فان قيل: كيف قال: (يريد الله أن لايجعل لهم حظا في الآخرة) والارادة لاتتعلق بالأليكون الشئ وإنما تتعلق بما يصح حدوثه؟ قلنا: عنه جوابان: أحدهما - قال ابن اسحاق: (يريد الله) أن يحبط أعمالهم بما استحقوه من المعاصي والكبائر. والثاني - ان الله يريد أن يحكم بحرمان ثوابهم الذي عرضوا له بتكليفهم، وهو الذي يليق بمذهبنا، لان الاحباط عندنا ليس بصحيح فان قيل كيف قال: (يريد الله) وهذا إخبار عن كونه مريدا في حال الاخبار، وإرادة الله تعالى لعقابهم تكون يوم القيامة، وتقديمها على وجه يكون عزما وتوطينا للنفس

(٥٧)

لا (١) يجوز عليه تعالى؟ قلنا: عنه جوابان: أحدهما - قال أبو علي: معناه أنه سيريد في الآخرة حرمانهم الثواب، لكفرهم الذي ارتكبوه. والثاني - أن الارادة متعلقة بالحكم بذلك، وذلك حاصل في حال الخطاب. وقال الحسن: يريد بذلك فيما حكم من عدله. وقوله: (يسارعون في الكفر) أي يبادرون إليه. والسرعة وإن كانت محمودة في كثير من المواضع، فانها مذمومة في الكفر. والعجلة مذمومة على كل حال إلا في المبادرة إلى الطاعات. وقيل: إن العجلة هي تقديم الشئ قبل وقته، وهي مذمومة على كل حال، والسرعة فعل لم يتأخر فيه شئ عن وقته، ولا يقدم قبله، ثم بين تعالى أنهم لمسارعتهم إلى الكفر لا يضررون الله شيئا، لان الضرر يستحيل عليه تعالى. وانما يضررون أنفسهم بأن يفوتوا نفوسهم الثواب، ويستحقوا العظيم من العقاب، ففي الآية تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) عما يناله من الغم باسراع قوم إلى الكفر بأن وبال ذلك عائد عليهم، ولا يضررون الله شيئا. قوله تعالى:

(إن الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضرروا الله شيئا ولهم عذاب اليم) (١٧٧) - آية - . المعنى: استأنف الله تعالى بهذه الآية الاخبار بأن من اشترى الكفر بالايمان بمعنى استبدل الكفر بالايمان. وقد بينا فيما مضى أن تسمية ذلك شراء مجاز لكن لما فعلوا الكفر بدلا من

الايمان شبه ذلك بشراء السلعه بالثمن وبين أن من فعل ذلك لا يضر الله شيئاً، لان مضرتة عائدة عليه على ما بيناه. وانما كرر (لن يضرُوا)

(١) في المطبوعة (ولا).

(٥٨)

الله في هذه الآية، لانه ذكر في الآية الا ولى - على طريقة العلة - لما يجب من التسلية عن المسارعة إلى الضلالة، وذكر في هذه الآية على وجه العلة لاختصاص المضرة للعاصي دون المعصى.

اللغة:

والفرق بين المضرة والاساءة أن الاساءة لاتكون إلا قبيحة، والمضرة قد تكون حسنة إذا كانت لطفاً، أو مستحقة أو فيها نفع يوفي عليها أو دفع ضرر أعظم منها كفعل العقاب، وضرب الصبي للتأديب، وغير ذلك.

الاعراب:

وقوله: (شيئاً) نصب على أنه وقع موقع المصدر، وتقديره (لن يضرُوا الله شيئاً) من الضرر. ويحتمل أن يكون نصباً بحذف الباء كأنه قال بشئ مما يضره، كما يقول القائل: ما ضررت زيدا شيئاً من نقص مال، ولا غيره.

قوله تعالى:

(ولا يحسبن الذين كفروا أنمانملي لهم خير لانفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين) (١٧٨) - آية واحدة بلاخلاف -.

القراءة، والاعراب:

قرأ حمزه (ولاتحسبن) بالتاء وفتح السين. الباقرن بالياء، وهو الأقوى، لان حسبت يتعدى إلى مفعولين (وأن) على تقدير مفعولين، لان قوله: (أنما نملي لهم خير لانفسهم) سدمسد المفعولين لانه لا يعمل في (أنما) إلا ما يتعدى إلى مفعولين: نحو حسبت وظننت واخواتهما. وحسبت يتعدى إلى مفعولين أو مفعول

(٥٩)

يسدمسد المفعولين نحو حسبت أن زيدا منطلق وحسبت أن يقوم عمرو. فقوله:

(أنما نملي لهم خير لانفسهم، سد مسد المفعولين اللذين يقتضيهما (يحسبن)

وكسر (إن) مع القراءة بالياء ضعيف وقرئ به. ووجه ذلك قال أبو علي الفارسي (إن) يتلقى بها القسم كما يتلقى بلام الابتداء، ويدخل كل واحد منهما على الابتداء والخبر فكسر (إن) بعد

(يحسبن) وعلق عنها الحسينان، كما يعلق باللام، فكأنه قال: لايحسبن الذين كفروا للاخرة خير لهم. ومن قرأ بالتاء فعلى البدل، كقوله: (هل ينظرون إلا الساعة ان تأتيهم بغتة) (١) وكما قال الشاعر:

فما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدما (٢)
وقال الفراء: يجوز أن يكون عمل فيه (يحسبن) مقدره تدل عليها الاولى.
وتقديره: ولاتحسبن الذين كفروا يحسبون انما نملي لهم وهكذا في قوله:
(هل ينظرون) ويجوز كسر (انما) مع التاء في (يحسبن) وهو وجه الكلام، لتكون الجملة في موضع الخبر: نحو حسبت زيدا انه كريم. غير انه لم يقرأ به أحد من السبعة. وقوله: (إنما نملي لهم ليزدادوا إثما) معنى اللام ههنا للعاقبة وليست بلام الغرض. كأنه قال: إن عاقبة أمرهم ازدياد الاثم كما قال: (فالتقطه آل فرعون

(١) سورة الزخرف: آية ٦٦. (٢) قائله عبدة بن الطبيب أمالي السيد المرتضى ١: ١١٤، والاغاني ١٢: ١٤٨ والحماسة شرح التبريزي ٢: ٢٨٥، ٢٨٦ وغيرها وهو من أبيات قالها في قيس بن عاصم ومطلعها:
عليك سلام الله قيس بن عاصم * ورحمته ماشاء أن يترحما
وقيس بن عاصم رجل حليم شريف في قومه، وكان الاحنف بن قيس يقول: انما تعلمت الحلم من قيس بن عاصم. وقال ابن الاعرابي: قيل ليس بماذا؟ دت؟ فقال: بثلاث: بذل الندى وكف الاذى، ونصر المولى. قال التبريزي في شرحه لهذا المبت: يروى (هلك) بالنصب وبالرفع، فاذا نصبته كان (هلكه) في موضع البدل من (قيس) و (هلك) ينتصب على أنه خبر (كان) كأنه قال: فما كل هلك قيس هلك واحد من الناس بل مات لموته حق كثير. واذا رفعته كان (هلكه) في موضع المبتدأ (وهلك واحد) في موضع الخبر. والجملة في موضع النصب على انها خبر كان.

(٦٠)

ليكون لهم عدوا وحرنا) (١) وكما قال: (وجعل الله أندادا ليضل عن سبيله) (وكقوله: (لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لآخوانهم إذا ضربوا في الارض..))
إلى قوله: (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) (٣) وما قالوا ذلك ليكون حسرة وإنما كان عاقبته كذلك وقال الشاعر:

وأم سماك فلا تجزعي * فللموت ماتلد الوالده (٤)

وقال آخر:

أموالنا لذوي الميراث تجمعها * ودورنا لخراب الدهر نبنينا
وقال:

وللمنايا تربى كل مرضعة * وللخراب يجد الناس بنيانا

وقال آخر:

لدوا للموت وابنوا للخراب * — فلكم يصير إلى ذهاب —

ويقول القائل: ما تزيدك موعظتي الاشرأ، وما أراها عليك إلابالالا. ولا يجوز أن يحمل ذلك على لام الغرض والارادة، لوجهين:

أحدهما - ان ارادة القبيح قبيحة ولاتجوز ذلك عليه تعالى.

والثاني - لوكانت اللام لام الارادة لكان الكفار مطيعين لله من حيث فعلوا ما اراده الله وذلك خلاف الاجماع. وقد قال الله تعالى: (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) (ه وقال: (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله) (٦)

وقال أبو الحسن الاخفش والاسكافي: في الآية تقديم وتأخير. وتقديره ولاتحسن الذين كفروا إنما نملي لهم ليزدادوا إثما إنما نملي لهم خير لانفسهم. وهذا ضعيف،

(١) سورة القصص: آية ٨. (٢) سورة الزمر: آية ٨.

(٣) سورة آل عمران: آية ١٥٦.

(٤) العجز في الذيل من سمط الآلي: ٩٢ وهو مثل سائر ينسب لشتيم بن خويلد الفزاري ولسماك بن عمرو الباهلي.

(٥) سورة الذاريات: آية ٥٦. (٦) سورة النساء: آية ٦٣.

(٦١)

لانه كان يجب لوكان على التقديم، والتأخير أن تكون انما الاخيرة مفتوحة الهمزة لانها معمول تحسبن - على هذا القول - وأن تكون الاولى مكسورة، لانها مبتدأة في اللفظ والتقديم والتأخير لايجوز الاعراب عن استحقاقه وذلك خلاف ما عليه جميع القراء، فانهم أجمعوا على كسر الثانية. والاكثر على فتح الاولى. ويمكن أن يقال: - نصره لابي الحسن - أن يكون التقدير ولاتحسن الذين كفروا قائلين:

إنما نملي لهم ليزدادوا إثما، بل فليعلموا إنما نملي لهم خير لانفسهم. فيكون الحسابان قد علق، ولم يعمل. وتكون إنما الثانية كسرت، لانها بعد القول. وتكون في موضع نصب بالقول المقدر وتكون إنما الاولى منصوبة بالعلم المقدر الذي بيناه.

وعلى هذا يجوز أن يكون الوعد عاما، ويكون الوعيد المذكور مشروطا بالمقام على الكفر. وعلى الوجه الاول الذي حملنا اللام على العاقبة لابد من تخصيصها بمن علم منه انه لا يؤمن، لانه لو كان فيهم من يؤمن لما توجه إليهم هذا الوعيد المخصوص وقال البلخي: معناه لاتحسن الذين كفروا ان املاءنا لهم رضاء بافعالهم، وقبول لها بل هو شر لهم، لانا نملي لهم وهم يزدادون إثما يستحقون به عذابا أليما.

ومثله: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس) (١) أي ذرأنا كثيرا من الخلق سيصيرون

إلى جهنم بسوء فعالهم و (ما) في قوله: (إنما) تحتل أمرين:

أحدهما - أن تكون بمعنى الذي والتقدير: إن الذي نمليه خير لانفسهم.

والآخر - أن يكون ما نملي بمنزلة الاملاء فتكون مصدرا. وإذا كانت كذلك فلاتحتاج إلى عائد يعود إليها. والاملاء: طول المدة. (فنملي لهم))
معناه نطول أعمارهم. ومنه قوله: (واهجرني مليا) (٢) أي حينا طويلا. ومنه قوله: عشت طويلا، وتمليت حينا. والملا: الدهر والملوان: الليل والنهار، لطول تعاقبهما. واملاء الكتاب وانما أنكرتعالى أن يكون الاملاء خير لهم - وان

(١) سورة الاعراف: آية ١٧٨. (٢) سورة مريم: آية ٤٦.

(٦٢)

كانت نعمة دنيوية - من وجهين:
أحدهما - قال الجبائي: أراد خير من القتل في سبيل الله، كشهداء أحد الثاني - قال البلخي:
لاتحسبن ان ذلك خير استحقوه بفعلهم، أي لاتغتروا بذلك فتظنوا انه لمنزلة لهم، لانهم كانوا يقولون: إنه تعالى لو لم يرد ما هم عليه، لم يمهلهم.
قوله تعالى:

(ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وماكان انه ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فأمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم) (١٧٩) - آية بلاخلاف -.

قرأ حمزة والكسائي (يميز) - بالتشديد - الباقون بالتخفيف. يقال: مازه يميزه، وميزه يميزه - لغتان -.

ومعنى الآية لم يكن الله ليدع المؤمنين على ماأنتم عليه، فلا يميز المؤمن من المنافق، والكافر (حتى يميز الخبيث من الطيب). وقيل في معنى الخبيث ههنا:
قولان:

أحدهما قال مجاهد، وابن اسحاق، وابن جريج: هو المنافق. قالوا: كما ميز المؤمن من المنافق يوم أحد. بالامتحان على ماضى شرحه.

الثاني - قال قتادة، والسدي: حتى يميز المؤمن من الكافر.

وسبب نزول الآية ماقاله السدي: إن المشركين قالوا: إن كان محمد صادقا فليخبرنا من يؤمن منا، ومن يكفر، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال قوم: إن كان يعلم المنافقين، فما حاجته إلى اختبارهم؟ فأنزل الله تعالى انه يميزهم. وذلك يكون: تارة باختبارهم، وتارة بتعيينهم.

والتمييز بين الكافر وبين المؤمن أو المنافق والمؤمن بالامتحان والاختبار في

(٦٣)

تكليف الجهاد، ونحوه: مما يظهر به حالهم، وتتكشف ضمائرهم وقيل: بالدلالات، والعلامات التي يستدل بها عليهم من غير نص اعلام لهم فان قيل: هل اطلع نبيه (صلى الله عليه وآله) على الغيب؟ قلنا: عن ذلك جوابان:

أحدهما - قال السدي: لا، ولكنه اجتباها، فجعله رسولا وقال ابن اسحاق: ولكن الله اجتبي رسوله باعلامه كثيرا من الغايبات. وهذا هو الاليق بالآية. وقال الزجاج قوله: (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) سببه أن قوما قالوا:

هلا جعلنا الله أنبياء؟ فأخبر الله تعالى أنه (يجتبي من رسله من يشاء) و (من) في الآية لتبيين الصفة لا للتبويض، لان الانبياء كلهم مجتبون. قوله تعالى:

(ولاتحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السماوات والارض والله بما تعملون خبير) (١٨٠). قرأ حمزة (ولاتحسبن) بالتاء المعجمة من فوق الباقون بالياء، وهو الاقوى، لان عليه أكثر القراء، فمن قرأ بالتاء، فالتقدير على قراءته و لاتحسبن بخل الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم. وجاز حذف البخل مع الفصل لدلالة يبخلون عليه، كما يقال من كذب كان شرا له. والمعنى كان الكذب شرا له. قال الشاعر:

إذا نهي السفية جرى إليه * وخالف والسفيه إلى خلاف (١)

ومعناه خالف إلى السفه. قال الزجاج: إنما تكون هو، وهما، وهم، وأنا وأنت، ونحن فصولا مع الافعال التي تحتاج إلى اسم وخبر، ولم يذكر سيبويه الفصل مع الابتداء، والخبر. قال: ولو تأول متأول قوله الفصل هاهنا أنه يدل

(١) معاني القرآن للقراء ١: ١٠٤ - ٢٤٩. أمالي ابن الشجري ١: ٦٨ - ١١٣ - ٣٠٥ و ٢: ١٣٢ - ٢٠٩ والانصاف: ٦٣ والخزانة: ٣٨٣.

(٦٤)

على أنه جائز في المبتدأ والخبر كان جائزا. قال: والقراءة بالياء عندي هو الاجود ويكون الاسم محذوفا، قال: والقراءة بالتاء لاتمتنع مثل قوله: (واسأل القرية) (١) وتقديره و لاتحسبن بخل الباخلين خيرا.

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها ما قاله السدي: إن المعنى بخلوا أن ينفقوا في سبيل الله كما بخلوا بمنع الزكاة. وقيل إنها نزلت في أهل الكتاب بخلوا أن يبينوه للناس - على قول ابن

عباس - والوجه الاول أظهر لان أكثر المفسرين على أنها نزلت في مانعي الزكاة، وهو قول أبي جعفر (ع) وقوله: (هو خير لهم)

فلفظة (هو) فصل، بين الاسم، والخبر على تقدير ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله البخل هو خيرا لهم فيمن قرأ بالياء وقوله: (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) قيل في معناه قولان:

أحدهما - رواه ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه شجاع أقرع يطوقونه، وهو المروي عن أبي جعفر (ع). وقال ابراهيم النخعي: انهم يطوقون طوقا من نار. وقال أبو علي: هو كقوله: (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم) (٢) وقال البلخي معناه سيجازون كأنهم طوقوا. وقوله: (ولله ميراث السموات والارض) معناه أنه يبطل ملك كل شئ إلا ملك الله، فيصير كالميراث لصحة الملك الثاني بعد زوال الاول وإن لم يكن في صفات الله على جهة الانتقال، لانه لم يزل مالكا (عزوجل) والبخل هو منع الواجب لانه تعالى ذم به وتوعد عليه، وأصله في اللغة مشقة الاعطاء، وإنما يمنع الواجب لمشقة الاعطاء.

قوله تعالى:

(لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء

(١) سورة يوسف: آية ٨٢.

(٢) سورة التوبة: آية ٣٦.

(٦٥)

سنكتب ما قالوا وقتلهم الانبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق) (١٨١) - آية بلاخلاف .-

قرأ حمزة وحده (سيكتب) بضم الياء. الباقيون بالنون. ذكر الحسن وقتادة: أن الذين نسبوا الله تعالى إلى الفقر وأنفسهم إلى الغناء هم قوم من اليهود لما نزل قوله: (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) (١) قالوا إنما يستقرض الفقير من الاغنياء، فهو فقير ونحن أغنياء، والقائل لذلك حي بن أخطب وفنحاص اليهودي.

وقال أبو علي الجبائي: هم قوم من اليهود، وإنما قالوا ذلك من جهة ضيق الرزق. وقيل: انهم قالوا ذلك تمويها على ضعفائهم لأنهم اعتقدوا أن الله فقير على الحقيقة. وقيل: انهم عنوا بذلك إله محمد الذي يدعي أنه رسوله دون من يعتقدون هم أنه على الحقيقة.

فان قيل: كيف الحكاية عنهم بأنهم قالوا ذلك، وإنما قالوه على جهة الالزام دون الاعتقاد؟ قلنا: لأنه إلزام باطل من حيث لا يوجبها الاصل الذي الزموا عليه، لأنه إنما قال تعالى: (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً) على وجه التلطف في الاستدعاء إلى الطاعة، وحقيقته أن منزلة ما ينفقون في وجوه البر كمنزلة القرض الذي يرجع إليكم ويضاعف به الاجر لكم مع أنهم أخرجوا ذلك مخرج الاخبار عن الاعتقاد.

وفي الآية دلالة على أن الرضا بقبيح الفعل يجري مجراه في عظم الجرم، لان اليهود الذين وصفوا بقتل الانبياء لم يتولوا ذلك في الحقيقة، وإنما ذموا به، لانهم بمنزلة من تولاه في عظم الاثم. وقوله: (سنكتب ما قالوا) قيل في معناه قولان:

أحدهما - انه يكتب في صحائف أعمالهم، لأنه أظهر في الحجة عليهم وأجرى ان يستحيوا من قراءة ما أثبت من فضائحهم - على قول الجبائي -.

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٤ وسورة الحديد: آية ١١.

(٦٦)

الثاني - قال البلخي سيحفظ ما قالوا حتى يجازوا به أي هو بمنزلة ما قد كتب في أنه لا يضيع منه شيء. والاول أظهر. وقوله: (وذوقوا عذاب الحريق) يعني المحرق، والفائدة فيه ان يعلم أنه غذاب بالنار التي تحرق، وهي الملتهبة، لان مالم يلهب لا يسمى حريقاً، وقد يكون العذاب بغير النار. وقوله: (ذوقوا) يفيد أنكم لا تتخلصون من ذلك كما يقول القائل: ذق هذا البلاء يعني انك لست بناج منه. قوله تعالى:

(ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد) (١٨٢) - آية -.

المعنى:

قوله: (ذلك) اشارة إلى ماتقدم ذكره من قوله: (ونقول ذوقوا عذاب الحريق). ذلك بما قدمت أيديكم) ومعناه بما جنيتموه على أنفسكم، فان الله لا يظلم أحداً من عبده، ولا يخسهم حقهم. وفيها دلالة على بطلان مذهب المجبرة، لانها تدل على أنه لو وقع العقاب من غير جرم سلف من العبد، لكان ظلماً وذلك بخلاف ما يذهبون إليه من أن الله تعالى يعذب الاطفال من غير جرم. فان قيل: لم نفي كثرة الظلم على وجه لا يدخل فيه القليل، وهلانفي على وجه العموم كقوله: (لا يظلم مثقال ذرة) (١)

وكقوله: (لا يظلم الناس شيئاً) (٢) وقوله: (ولا يظلمون فتيلاً) (٣)

و (نفيراً)؟ قيل: لأنه خرج مخرج الجواب لمن توهم مذهب المجبرة فدل على أنه لو كان على ما يذهبون إليه، لكان ظلماً للعبيد، وما هو بظلام لهم. فان قيل: لم

(١) سورة النساء: آية ٣٩. (٢) سورة يونس: آية ٤٤.

(٣) سورة النساء: آية ٤٨ وسورة الاسرى: آية ٧١.

(٦٧)

أضيف التقديم إلى أيديهم وإنما هولهم في الحقيقة؟ قيل: لأنه إذا أضيف على هذه الطريقة كان أبعد من توهم الفساد في معنى الاضافة إذ قد يضاف الفعل إلى الانسان على معنى أنه أمر به ودعا إليه. كما قال: (يذبح أبناءهم) (١) وإذا ذكرت اليد دل على تولي الفعل نحو قوله (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاماً) (٢). الاعراب:

(وان الله) انما فتح ان لانه معطوف على ما عملت فيه الباء، وتقديره وبأن الله ليس بظلام للعبيد أي ذلك العذاب بما سلف من الاجرام وبامتناع ظلم الله للعباد، فموضع أن جر وموضع الباء في قوله: (مما) رفع، لانها في موضع خبر ذلك وهي متصلة بالاستقرار كأنه قيل ذلك مستقر بما قدمت أيديكم، كما يقول القائل: عقابك مما كسبت يداك.

قوله تعالى: (الذين قالوا إن الله عهد إلينا الأنؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين) (١٨٣) - آية - .
المعنى بقوله: ((الذين قالوا) هم الذين وصفهم الله بقوله: (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير. الذين قالوا إن الله عهد إلينا).

الاعراب والمعنى:

والذين في موضع خفض ردا على قوله: (الذين قالوا إن الله فقير) ومعنى قولهم (إن الله عهد إلينا) أي أوصانا في كتبه، وعلى ألسن أنبيائه ألتصدق

(١) سورة القصص: آية ٤. (٢) سورة يس: آية ٧١.

(٦٨)

لرسول فيما يقوله: من أنه جاء به من عند الله من أمر ونهي، وغير ذلك، فالعهد: العقد الذي يتقدم به للتوثق، وهو كالوصية. وقوله: (حتى يأتينا بقربان تأكله النار) معناه حتى يجيئنا بما يقرب به العبد إلى الله من صدقة وبر. وقربان مصدر على وزن عدوان، وخسران تقول قربت قربانا. وأما قوله: (تأكله النار)

فلان أكل النار ما قربه أحدهم لله في ذلك الزمان كان دليلاً على قبول الله له، ودلالة على صدق المقرب فيما ادعى أنه حق فيما نوزع فيه - في قول ابن عباس، والضحاك -، فقال الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) قل لهم يامعشر من يزعم أن الله عهد إليه ألا يؤمن لرسول حتى يأتيه بقربان تأكله النار، قل: قد جاءكم رسل من الله من قبل. المعنى جاء أسلافكم بالبينات يعني بالحجج الدالة على صدق نبوتهم، وحقيقة قولهم: وقد ادعيتم أنه يدل على تصديق من أتى به والاقرار بنبوته من أكل النار قربانه، فلم قتلتموه إن كنتم صادقين؟ يعني قتلتموه وأنتم مقرون بأن الذين جاءوكم به من ذلك حجة لهم عليكم إن كنتم صادقين فيما عهد إليكم مما ادعيتموه وأضاف القتل إليهم وإن كان أسلافهم تولوه لأنهم رضوا بأفعالهم فنسب ذلك إليهم كما بيناه فيما تقدم في قوله تعالى: (ويقتلون النبيين بغير الحق) (١) فاراد الله أن يعلم المؤمنين أن هؤلاء معاندون متعنتون، وإلا فهم عالمون بصفات النبي (صلى الله عليه وآله) وما ذكره الله تعالى في التوراة وأنه صادق فيما يدعيه، وإنما لم ينزل الله ما طلبوه لأن المعجزات تابعة للمصالح وليست على الاقتراحات والتعنت. فان قيل هلا قطع الله عذرهم بالذي سألوا من القربان الذي تأكله النار؟ قيل: له لا يجب ذلك لأن ذلك اقتراح في الأدلة على الله والذي يلزم من ذلك أن يزيح عنهم بنصب الأدلة على ما دعاهم إلى معرفته.

قوله تعالى:

(فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤا بالبينات

(١) سورة البقرة: آية ٦١.

(٦٩)

والزبر والكتاب المنير) (١٨٤) - آية واحدة -.

القراءة، والحجة:

قرأ ابن عامر وحده وبالزبر وكذلك هو في مصاحف أهل الشام. الباؤون بحذف الباء، فمن حذف فلان واو العطف أغنت عن تكرار العامل ومن أثبتتها فانما كرر العامل تأكيدا، وكلاهما جيدان.

اللغة، والمعنى:

وهذه الآية فيها تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) عما كان يصيبه من الأذى من اليهود وأهل الشرك بتكذيبهم إياه بأن قال فقد كذب أسلافهم من رسل الله من جاءهم بالبينات والحجج القاطعة، والأدلة الواضحة. والزبر جمع زبور وهو البينات وكل كتاب فيه حكمة زبور. ومنه قول امرئ القيس:

لمن طلل ابصرته فشجاني * كخط زبور في عسيب يمان (١)
ويقال زبرت الكتاب إذا كتبتة، فهو مزبور وزبرت الرجل أزيره: إذا زجرته والزبرة: القطعة
العظيمة من الحديد، ومنه قوله: (أتوني زبر الحديد) (٢)
والزبير: الحماة. والزبرة مجتمع الشعر على كتف الأسد. وزبرت البئر إذا أحكمت طيها
بالحجارة، فهو مزبور وما لفلان زبر أي عقل، والكتاب المراد به التوراة والانجيل، لان
اليهود كذبت عيسى، وما جاء به من الانجيل وحرقت ما جاء به موسى من صفة النبي (صلى الله
عليه وآله)، وبدلت عهده إليهم فيه. والنصارى أيضا جددت ما في الانجيل من نعتة وغيرت ما
أمرهم فيه به. وقوله: (المنير) معناه الذي ينير، فينير الحق لمن اشتبه عليه، وهو حجة له.
وإنما هو من النور، والاضاءة يقال: قد أنار لك هذا الامر بمعنى أضاء لك وينير انارة فهو منير،
وهذا قول

(١) ديوانه: ٢١٠ وروايته (الزبور في العسيب اليماني). الزبور الكتاب المزبور أي المكتوب بالمزير وهو القلم.
العسيب اليماني: سعف النخل.
(٢) سورة الكهف: آية ٩٧.

(٧٠)

الحسن وابن جريج والضحاك، وأكثر المفسرين. فان قيل: لم جمع بين الزبر والكتاب
ومعناهما واحد؟ قلنا: لان أصلهما مختلف، فهو زبور لما فيه من الزجر عن خلاف الحق، وهو
كتاب، لانه ضم الحروف بعضها إلى بعض، وسمي زبور داود لكثرة ما فيه من المواعظ
والزواجر. فان قيل: كيف قال (فان كذبوك، فقد كذب رسل من قبلك) وهم وان لم يكذبوه
أيضا، فقد كذب رسل من قبله؟ قلنا: لان المعنى فقد جروا على عادة من قبلهم في تكذيب
أنبيائهم إلا أنه ورد على وجه الايجاز كما تقول: إن أحسنت إلي فقد طالما أحسنت.
قوله تعالى:

(كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار ودخل الجنة فقد
فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) (١٨٥) - آية بلاخلاف -.

لايجوز أن يجعل (ما) في (إنما) بمعنى الذي وترفع أجوركم، لان يوم القيامة يصير من صلة
توفون وتوفون من صلة الذين فلا يأتي ما في الصلة بعد أجوركم. وأجوركم خبر، ومعنى
الآية إن مصير هؤلاء المفترين على الله من اليهود المكذبين برسوله الذين وصفهم، ومصير
غيرهم من جميع الخلق إليه تعالى من حيث حتم الموت على جميعهم، فقال لنبيه (صلى الله عليه
وآله) لا يحزنك قولهم وتكذيبهم وافتراء من افتري منهم على الله وعليك، وتكذيب من تقدمك من

الرسول. فان مرجعهم إلي وأوفي كل نفس منهم جزاء عمله، فقال: توفون أجوركم يعني أجور أعمالكم إن خيرا فخييرا وثوابا. وإن شرا فشرا وعقابا، وهو نصب على أنه مفعول به. وقوله: (فمن زحزح عن النار) معناه نحي عن النار، وأبعد منها (وادخل الجنة فقد فاز) أي نجا وظفر بعظيم الكرامة. وكل من لقي ما يغتبط به فقد فاز، ومعنى (فاز) تباعد من المكروه، ولقي ما يحب. والمفازة: مهلكة. وإنما سموها مفازة

(٧١)

أي منجاة كما سموا اللديغ سليما، والاعمى بصيرا. وظاهر الآية يدل على أن كل نفس تذوق الموت، وإن كانت مقتولة - على قول الرماني - ونحن وإن قلنا: إن الموت غير القتل، فلا بد أن نقول: إن المقتول يختار الله أن يفعل فيه الموت إذا كان في فعله مصلحة. وقوله: (وما الحياة الدنيا إلا متعة متعموها الغرور، والخداع:

المضمحل الذي لاحقيقة له عند الاختبار والامتحان، لانكم تلتذون بما يمتعكم الغرور من دنياكم، ثم هو عائد عليكم بالفجائع والمصائب، فلا تركنوا إليه، ولا تسكنوا، فانما هي غرور وإنما أنتم منها في غرور. وقال عكرمة: متاع الغرور، القوارير، وهي في الاصل كل متاع لابقاء له، وإنما وصفت الحياة الدنيا بأنها متاع الغرور مع كشفها عن حالها، لانها بمنزلة من يغتر بالمحبوب ويبذل ما فيه الفرح والسرور، ليوقع في بلية تؤدي إلى هلكة، مبالغة في التحذير منها - على منا بيناه - وفي الآية دلالة على أن أقل نعيم من الآخرة خير من نعيم الدنيا بأسره ولذلك قال (صلى الله عليه وآله): (موضع سوط في الجنة خير من الدنيا، وما فيها) واستدل بهذه الآية على أن القتل هو الموت على الحقيقة. ومنهم من قال في المقتول: موت، وقتل وللمخالف أن يقول: يمكن أن تكون الآية مخصوصة بمن يموت، ولا يقتل كما قال: (كل نفس بما كسبت رهينة) (١) وهي مختصة بالعقلاء البالغين، ويمكن أن يكون المراد كل نفس تعدم الحياة، فيكون ذلك على وجه الاستعارة. ذكره البلخي. وقوله: (ذائقة الموت) مجاز، لان الموت لا يذاق في الحقيقة، لان ذلك مشهور في كلامهم يقولون: ذاق الموت، وشرب بكأس المنون، لانه بمنزلة ما يذاق بذوق شدائده. والفرق بين الذوق وإدراك الطعم أن الذوق تقريب جسم المذوق إلى حاسة الذوق، والادراك للطعم هو وجدانه (٢)

وإن لم يكن هناك احساس، ولذلك يوصف تعالى بأنه مدرك للطعم ولا يوصف

(١) سورة المدثر: آية ٣٨. (٢) في المخطوطة: (هو وجدك به..)

(٧٢)

بأنه ذائق له. ويقولون: ذقته فلم أجد له طعما أي لابس في فلم أحس له طعما.

قوله تعالى:

(لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الامور) (١٨٦) - آية - .

قوله: (لتبلون) معناه لتختبرن أي توقع عليكم المحن، وتلحقكم الشدائد في أنفسكم، وأموالكم من قبل الكفار نحو ما نالهم من الشدائد في أنفسهم يوم أحد، ونحو ما كان الله يفعل بهم من الفقر وشدة العسر، وانما فعله ليصبروا وسماء بلوى مجازا، لان حقيقته لاتجوز عليه تعالى، لانها التجربة في اللغة. ويتعالى الله عن ذلك، لانه عالم بالاشياء قبل كونها. وإنما فعله ليتميز المحق منكم من غيره - هذا قول أبي علي الجبائي - وقال البلخي: معناه لتبلون بالعبادات في أنفسكم كالصلاة والصيام وغيرهما. وفي أموالكم من الانفاق في سبيل الله والزكوات، ليتميز المطيع من العاصي. واللام لام القسم. والنون دخلت مؤكدة، وضمت الواو لسكونها، وسكون النون. ولم تنصب لانها واو الجمع فرقا بينها وبين واو الاعراب. ويقال للواحد، لتبلى يارجل وللاثنتين لتبليان. ويفتح الياء في لتبلى في الواحد عند سيويه لسكونها وسكون النون. وفي قول غيره تبني على الفتح لضم النون إليها.

كما بينى ما قبل هاء التأنيث. وللمرأة لتبلى وللمرأتين لتبليان وللنساء لتبليان.

زيدت الالف لاجتماع النونات وقوله: (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) يعني ما سمعوه من اليهود ومن كفار مكة وغيرهم من تكذيب النبي (صلى الله عليه وآله) ومن الكلام الذي يغمهم ويكرههم ثم بين تعالى بقوله:

(وإن تصبروا وتتقوا) إنكم ان صبرتم على ذلك وتمسكنم بالطاعة ولم تجزعوا عنده جزعا يبلغ الاثم، (فان ذلك من عزم الامور) ومعناه من جزم الامور، أي

(٧٣)

ما بان رشده وصوابه. ووجب على العاقل العزم عليه. وأذى مقصور. ويكتب بالياء يقال أذى يأذى أذى: إذاسمع مايسوءه وقد آذاني فلان يؤذيني إيذاء وتأذيت به تأذيا. وقال عكرمة وغيره: إن هذه الآيات كلها نزلت في فحاص اليهودى سيد بني قينقاع حين كتب النبي (صلى الله عليه وآله) إليه يستمده، فقال فنحاس: قد احتاج ربكم أن نمده. وهو القائل: (إن الله فقير ونحن اعنياء) (١) ونزلت فيه أيضا (لاتحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شرلهم) (٢)

وقال الزهري: الآية نزلت في كعب بن الاشراف، وكان يهجو النبي (صلى الله عليه وآله)، والمؤمنين ويحرض المشركين عليهم حتى قتله محمد بن مسلمة غيلة. والبلوى التي ابتلوا بها،

قال الحسن: هي فرائض الدين من الجهاد في سبيل الله، والنفقة في طاعة الله، والتمسك بما يجب لله في كل ما أمر به ودعا إليه.

قوله تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون) (١٨٧) - آية بلا خلاف -
القراءة والحجة:

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ((ليبيننه للناس ولا يكتمونه))
بالياء فيهما. الباقيون بالتاء فيهما، فمن قرأ بالياء، فلانهم غيب. ومن قرأ بالتاء حكى المخاطبة التي كانت في وقت أخذ الميثاق (ولتبيننه) لجماعة الرجال وللواحد تفتح النون.

(١) سورة آل عمران: آية ١٨١.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٨٠.

(٧٤)

المعنى:

والمعنى به اذكروا (إذا أخذ الله) منهم الميثاق ليبينن أمر نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) ولا يكتمونه (فنبذوه وراء ظهورهم) أي رموا به في قول ابن عباس، ولم يعملوا به وإن كانوا مقرين به. ويقال لمن يطرح الشيء ولا يعيابه رميته بظهر، قال الفرزدق:

تميم بن قيس لا تكونن حاجتي * بظهر ولا يعيالي جوابها (١)

أي لا تتركنها، لاتعبأ بها، فاخبر الله تعالى عما حمل اليهود الذين كانوا رؤساء على كتمان أمر النبي (صلى الله عليه وآله)، فقال: (واشتروا به ثمنا قليلا) أي قبلوا على ذلك الرشا، وقامت لهم بذلك رئاسة اكتسبوها فذلك حملهم على الكفر بما يخفونه، ثم ذم تعالى أفعالهم بقوله: (فبئس ما يشترون) لان ما يكون عاقبته الهلاك والعقاب الدائم، وان كان نفعاً عاجلاً، فهو بئس الشيء. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وابن جريج ان المعنى بهذه الآية فخاص اليهودي، وأصحابه الذين كتموا أمر النبي (صلى الله عليه وآله) وما بينه الله في التوراة. وقال قتادة وكعب وعبدالله بن مسعود هذا ميثاق أخذ الله على أهل العلم كافة، فمن علم شيئاً فليعلمه وإياكم وكتمان العلم، فان كتمان العلم، وقال الجبائي: المعنى بالآية اليهود والنصارى. وقال الحسن (لتبيننه ولا تكتمونه) معناه لتكلمن بالحق ولتصدقنه بالعمل. والميثاق الذي ذكره الله في الآية هو الايمان التي أخذها عليهم أنبياءهم ليبينن ما في كتبهم من الاخبار والآيات الدالة على نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) ولا يكتمونه.

والهاء في (ليبيننه) عائدة على محمد (صلى الله عليه وآله) في قول سعيد بن جبير والسدي، فيعود

(١) ديوانه ١ : ٩٥ وروايته:

عم بن زيد لاتهونن حاجتي * لديك ولايعيا علي جوابها
وفي اللسان وفي الاغاني الصدر كما في الديوان والعجز هكذا: (بظهر فلا يخفى علي جوابها)
ومعناه أي لاتجبنى بجواب لأدري ماهو.

(٧٥)

على معلوم غير مذكور. وقال الحسن وقتادة: قي عائدة على الكتاب فيدخل فيه بيان أمر النبي
(صلى الله عليه وآله) لانه في الكتاب.
قوله تعالى:

(لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من
العذاب ولهم عذاب أليم) (١٨٨)
آية - بلاخلاف - .

القراءة والحجة والاعراب:

قرأ أهل الكوفة ويعقوب (لاتحسبن) بالتاء وفتح الباء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء، وضم
الباء.

الباقون بالياء وفتح الباء.

(وتحسبنهم) الاخير بالتاء بلاخلاف. قال أبو علي من قرأ بالياء، لم يوقع يحسبن على شئ،
(والذين) رفع بأنه فاعل (لاتحسبن) قال: ووجه قراءة ابن كثير وأبي عمرو في أن لم يعديا
(حسبت) إلى مفعوليه ان (يحسب) في قوله:

(فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) لما جعل بدلا من الاول وعدي إلى مفعوليه استغنى بها في
تعدي الاول إليهما كما استغنى في قوله الشاعر:

بأي كتاب أم بأية سنة * ترى حبهم عارا علي وتحسب

فاكتفى بتعدي أحد الفعلين إلى المفعولين عن تعدي الآخر إليها. فان قال قائل: كيف يستقيم
تقدير البديل، وقد دخل الفاء بينهما، ولا يدخل بين البديل والمبديل منه الفاء؟ والجواب أن الفاء
زائدة، يدل ذلك على أنها لايجوز أن تكون التي تدخل على الخبر، لان ما قبل الفاء ليس
بمبتدأ، فتكون الفاء خبره، ولاتكون العاطفة، لان المعنى (لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا)
ويحبون أنفسهم " بمفازة من العذاب " فاذا كان ذلك لم يجز تقدير العطف، لان الكلام

(٧٦)

لم يستقل بعد فيستقيم فيه تقدير العطف. وأما قوله: " فلا تحسبنهم " فان فعل الفاعل الذي هو يحسبون تعدى إلى ضميره، وحذفت واو الضمير لدخول النون الثقيلة. وقوله: (بمفازة من العذاب) في موضع المفعول الثاني، وفيه ذكر المفعول الاول. وفعل الفاعل في هذا الباب يتعدى إلى ضمير نفسه نحو ظننتني أخاه، لان هذه الافعال لما كانت تدخل على الابتداء والخبر أشبهت (إن) واخواتها في دخولهن على الابتداء والخبر كدخول هذه الافعال عليهما، وذلك نحو قولك:

ظننتني ذاهبا، كما تقول: إني ذاهب، ولو قلت أظن نفسي تفعل، لم يجز كما يجوز أظننتني فاعلا. وقال أبو سعيد الخدري، وأبو وهب، والزجاج: المعنى بهذه الآية قوم من أهل الكتاب دخلوا على النبي (صلى الله عليه وآله) وخرجوا من عنده، فذكروا لمن كان رأيهم في ذلك الوقت أن النبي (صلى الله عليه وآله) قد أتاهم بأشياء قد عرفوها، فحمدهم من شاهدتهم من المسلمين على ذلك، وأظهروا خلاف ما أبطنوا، وأقاموا فيما بعد على الكفر، فأعلم الله تعالى نبيه أنهم ليسوا بمفازة أي ليسوا ببعد من العذاب.

وقيل معناه ليسوا بمنجاة من العذاب، ووقعت، " فلا تحسبنهم " مكررة لطول القصة كما يقولون: لا تظن زيدا إذا جاءك كلمك بكذا وكذا، فلا تظننه صادقا، فيعيد فلا تظننه توكيدا، واعلاما ان ذلك يتعلق بالاول، ولو لم يكرر كان جائزا، لكن مع التأكيد أوضح. وقوله: " وحبون أن يحمدا بمالم يفعلوا " قال البلخي: إنهم قالوا: " نحن أبناء الله وأحباؤه " (١) وأهل الصوم والصلاة وليسوا بأولياء الله، ولأحباؤه، ولأهل الصلاة والصيام، ولكنهم أهل شرك ونفاق. وهو المروي عن أبي جعفر (ع). وقال قوم: " يحبون أن يحمدا " على أنهم أبطلوا أمر محمد (صلى الله عليه وآله)، وكذبوا ما أبطلوه، ولالهم قدرة على ذلك. النزول، والمعنى:

وروي عن ابن عباس، وسعيد أن الآية نزلت في اليهود حيث كانوا يفرحون

(١) سورة المائدة: آية ٢٠.

(٧٧)

باجلال الناس لهم ونسبهم إياهم إلى العلم. وقال الضحاك، والسدي: نزلت في اليهود حيث فرحوا بما أثبتوا من تكذيب النبي (صلى الله عليه وآله). وقال سعيد بن جبير: فرحوا بما أتى الله آل ابراهيم. وقال ابن عباس: إن النبي (صلى الله عليه وآله) سألهم عن شيء، فكنتموه ففرحوا بكتمانهم، وأقوى هذه الأقوال أن يكون قوله: " لاتحسبن الذين يفرحون " يعني بها من أخبر الله عنهم أنه أخذ ميثاقهم ليبيّن للناس أمر محمد (صلى الله عليه وآله)، ولا يكتمونونه، لان قوله: "

لاتحسبن الذين يفرحون " في سياق الخبر عنهم وشبيهه بقصتهم مع أن أكثر أهل التأويل عليه. وقال الجبائي: الآية في المنافقين، لأنهم كانوا يعطون المؤمنين شيئاً يستعينون به على الجهاد لا على وجه القرية إلى الله بل على وجه الرياء ويفرحون بذلك، ويريدون مع ذلك أن يحمدا على ذلك ويعتقد أنهم فعلوه لوجه القرية، فقال: " لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا " بمنزلة المؤمنين الذين يفعلون الأفعال لله على وجه القرية إليه. وقال: " فلا تحسبنهم " مع ذلك بمنجاة " من العذاب " بل " لهم عذاب أليم " يعني مؤلم فحسبان الثاني متعلق بغير ماتعلق به الاول، فذلك كرر. فان قيل: أين خبر " لاتحسبن " الاولى؟ قلنا: عنه جوابان:

أحدهما - " بمغازة من العذاب "، لأنها مكررة لطول الكلام. وقيل: الفاء زائدة على هذا، وهو قول الزجاج.

والثاني - ان الخبر محذوف، كأنه قال ناجين، ودل الخبر الاخير عليه. فان قيل: كيف يجوز أن يذم بالفرح وليس من فعل الانسان؟ قلنا ذم بالتعرض له على جهة الاشر والبطر كما قال: " لا يحب الفرحين ".

قوله تعالى:

(والله ملك السماوات والارض والله على كل شئ قدير)
(١٨٩) - آية بلا خلاف -.

(٧٨)

معنى الآية الاخبار من الله تعالى بأنه مالك مافي السماوات، ومافي الارض بمعنى أنه يملك تدبيرهما، وتصريفهما على ما شاء من جميع الوجوه ليس لغيره الاعتراض عليه في ذلك وانه المقتدر على جميع ذلك " وهو على كل شئ قدير "، وفي الآية تكذيب لمن قال: " إن الله فقير ونحن أغنياء " (١) لان من ملك مافي السماوات والارض لا يكون فقيراً. وفي قوله: (والله على كل شئ قدير)

تنبه على أنه قادر على إهلاك من يقول هذا القول جهلاً منه وعناداً، لكنه يحلم عنه ويؤخر عذابه لضرب من المصلحة وقوله: " على كل شئ قدير " خرج مخرج المبالغة، وهو أخص من قوله: " بكل شئ عليم " لان أفعال العباد لا توصف بالقدرة عليها، وفرق الرماني بين أن يقال هو قادر على أفعال العباد، وبين قادر على فعلهم، فقال قادر عليها يحتمل مالا يحتمل قادر على فعلهم، لانه يفيد أنه قادر على تصرفه كما يقولون فلان قادر على هذا الحجر أي قادر على رفعه، ووضع، وفلان قادر على نفسه أي قادر على ضبطها، ومنعها مما تتنازع

إليه، فعلي هذا جائز أن يقال انه قادر على أفعال العباد بمعنى أنه قادر على المنع منها،
والتمكن منها دون ما يستحيل من القدرة على ايجادها.
قوله تعالى:

(إن في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الاباب) (١٩٠) - آية -
.-

في هذه الآية دلالة على وجوب النظر والفكر، والاعتبار بما يشاهد من الخلق والاستدلال على
الله تعالى، ومدح لمن كانت صفته هذه، ورد على من أنكر وجوب ذلك، وزعم أن الايمان
لا يكون إلا تقليدا وبالخبر، لانه تعالى أخبر عما في خلق السماوات والارض، واختلاف الليل
والنهار من الدلالات عليه

(١) سورة آل عمران: آية ١٨١.

(٧٩)

وعلى وحدانيته، لان من فكر في السماوات وعظمتها وعجائب ما فيها من النجوم والاقلاك،
ومسير ذلك على التقدير الذي تسير عليه، وفكر في الارض وما فيها من ضروب المنافع، وفي
اختلاف الليل والنهار ومجيئهما بالاوقات والازمنة التي فيها المصالح، واتساق ذلك وانتظام
بعضها إلى بعض، وحاجة بعضها إلى بعض حتى لو عدم شئ منه لم يقد ماسواه (مقامه) (١)
علم أن ذلك لا يكون إلا من مدبر قادر عليم حكيم واحد، لانه لو كان قادرا، ولم يكن عالما
بالعواقب لما أغنت القدرة شيئا، ولو كان عالما غير حكيم في فعله لما أغنى العلم شيئا، ولو كانا
اثنين ما انتظم تدبير، ولاتم خلق، ولعلا بعضهم على بعض، كما قال تعالى: " لو كان فيهما
آلهة إلا الله لفسدتا " (٢) فكيف ينسب إلى الفقر من كان جميع ما في السماوات والارض بيده، أم
كيف يكون غنيا من كان رزقه بيد غيره إذ شاء رزقه وإذا شاء حرمه، ويدل على أن خالق
الجسم لا يشبهه، لانه لو أشبهه لكان محدثا مثله، ويدل على أنه قديم، لانه لو كان محدثا لاحتاج
إلى محدث ولأدى ذلك إلى ما لا ينتهي ويدل أيضا على أنه قادر على جميع الاجناس، لانه من
قدر على الجسم يقدر على سائر الاجناس، ووجه الدلالة من خلق السماوات والارض على الله
هو ان الانسان إذا فكر ورأى عظمتها، وثقل الارض ووقوفها على غير عمد يقلها، وحركة
السماوات حولها لأعلى شئ يدعمها، علم أن الممسك لذلك هو الذي لا يشبه الاجسام ولا
المحدثات، لانه لو اجتمع جميع الخلق على أن يمسكوا جسما خفيف المقدار، ويقلوه في الجو
من غير أن يدعموه لما قدروا عليه، فعلم حينئذ ان الذي يقدر عليه مخالف لجميع الاشياء وعلم
أيضا أنها لو كانت السماوات والارض معتمدة على غيرها لكان ذلك الغير يحتاج إلى ما يعتمد

عليه وفي ذلك اثبات ما لا يتناهى من الاجسام، وذلك محال فهذا أحد وجوه دلالة السماوات والارض، وهو أحد

(١) هكذا في المخطوطة (أ) وفي المطبوعة ما بين القوسين ساقط، والمخطوطة (ب) ناقصة في هذا المكان أوراقا كثيرة.
(٢) سورة الانبياء: آية ٢٢.

(٨٠)

ماقال (إن في ذلك لآيات لاولي الالباب) ووجه الدلالة من اختلاف الليل والنهار هو أن جميع الخلق لو اجتمعوا على أن يأتوا بالليل بدلا من النهار، أو النهار بدلا من الليل أو ينقصوا، أو يزدوا من أحدهما في الآخر لما قدروا عليه، كما قال:

(قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون. ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) الآية (١) وقوله: ((لاولي الالباب) معناه لذوي (٢) العقول. واللب: العقل سمي به لانه خير مافي الانسان واللب من كل شئ خيره، وخالصة. فان قيل: فما وجه الاحتجاج بخلق السماوات - والارض - (٣) على الله ولم يثبت بعد انها مخلوقة قيل عند ثلاثة أجوبة: أولها - على تقدير اثبات كونها مخلوقة قبل الاستدلال به لان الحجة به قامت عليه من حيث أنها لم تنفك من المعاني المحدثه.

الثاني - أن الغرض ذكر ما يوجب صحة الذي تقدم ثم يترقى من ذلك إلى تصحيح ما يقتضيه على مراتبه، كالسؤال عن الدلالة على النبوة فيقع الجواب بذكر المعجزة دون ما قبلها من الرتبة.

الثالث - أن تعاقب الضياء والظلام يدل على حدوث الاجسام.
قوله تعالى: (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ففنا عذاب النار) (١٩١) - آية بلاخلاف -

(١) سورة القصص: آية ٧١ - ٧٢.
(٢) في المخطوطة زيادة (والفكر) في هذا الموضع.
(٣)
في المطبوعة ما بين القوسين ساقط.

(٨١)

موضع (الذين) خفض، لانه نعت (لاولي الالباب) أي فهو لاء يستدلون على توحيد الله بخلقه السماوات والارض، وأنهم يذكرون الله في جميع أحوالهم قياما وعودا، وهو نصب على الحال. وقوله (وعلى جنوبهم) أي ومضطجعين، وانما عطف على قياما وعودا، لان معناه يدل على الحال، لان الظرف يكون حالا للمعرفة كما يكون نعتا للنكرة، لانه من الاستقرار (كما تقول: مررت برجل على الحائط أي مستقرا على الحائط، ومررت برجل في الدار مثله، كما نقول أنا أصير إلى فلان ماشيا، وعلى الخيل، ومعناه وراكبا، كما (١) قال: (إذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما) (٢) ومعناه مضطجعا أو قائما أو قاعدا فبين تعالى أن هؤلاء المستدلين على حقيقة توحيد الله يذكرون الله في سائر الاحوال. وقال قوم: (يذكرون الله قياما وعودا وعلى جنوبهم) أي يصلون على قدر إمكانهم في صحتهم وسقمهم، وهو المروي في أخبارنا، ولاتتافي بين التأويلين، لانه لايمتنع أن يصفهم بأنهم يفكرون في خلق السماوات والارض في هذه الاحوال ومع ذلك يصلون على هذه الاحوال في أوقات الصلوات، وهو قول ابن جريج وقتادة. وقوله: (ربنا ما خلقت هذا باطلا) انما قال هذا ولم يقل هذه ولا هؤلاء، لانه أراد به الخلق كأنه قال ما خلقت هذا الخلق باطلا (٣) أي يقولون (ربنا ما خلقت هذا باطلا) بل خلقتة دليلا على وحدانيتك وعلى صدق ما أتت به أنبياءك، لانهم يأتون بما يعجز عنه جميع الخلق. وقوله: (سبحانك)

معناه براءة لك من السوء وتزيها لك من أن تكون خلقتها باطلا قال الشاعر:
أقول - لما جاغني فخره - * سبحان من علقمة الفاخر (٤)

(١) ما بين القوسين ساقط من المخطوطة (أ).

(٢) سورة يونس: آية ١٢.

(٣) في المخطوطة نقص سطر في هذا الموضع. (٤) قائله اعشى بني تغلب. ديوان الاعشى الكبير: ١٤٣، القصيدة ١٨، واللسان (سبح).

(٨٢)

وقال آخر:

سبحانه ثم سبحانا يعود له * وقبلنا سبح الجودي والجمد (١)
وقوله: (فقنا عذاب النار) أي فقد صدقنا رسلك بأن لك جنة ونارا فقنا عذاب النار. ووجه اتصال قوله (فقنا عذاب النار) بما قبله قيل فيه قولان:
أحدهما - كأنه قال: (ما خلقت هذا باطلا) بل تعريضا للثواب بدلا من العقاب (فقنا عذاب النار) بلطفك الذي نتمسك معه بطاعتك.

الثاني - اتصال الدعاء الذي هو طاعة الله بالاعتراف الذي هو طاعة له. وفي الآية دلالة على أن الكفر والضلال وجميع القبائح ليست خلقا لله، لأن هذه الأشياء كلها باطلة بلاخلاف. وقد نفى الله تعالى بحكايته عن أولي الالباب الذين رضي أقوالهم بأنه لا باطل فيما خلقه، فيجب بذلك القطع على أن القبائح كلها من فعل غيره، وأنه لا يجوز اضافتها إليه تعالى.

قوله تعالى:

(ربنا إنك من تدخل النار فقد أجزيتنا وما للظالمين من أنصار) (١٩٢) - آية - . وهذه أيضا حكاية عن أولي الالباب الذين وصفهم بانهم أيضا يقولون (ربنا إنك من تدخل النار فقد أجزيتنا) أي من ناله عذاب النار وما فيها من الذل والمهانة فهو المخزي. وقال ابن جريج، وقتادة، وأنس بن مالك، وسعيد بن المسيب: الأجزاء يكون بالتأييد فيها. وقال جابر بن عبد الله: إن الخزي يكون بالدخول فيها. وروى عنه عمرو بن دينار وعطاء أنه قال: وما أخزاه من أحرقه بالنار إن دون ذا لخزيا، وهذا هو الأقوى، لأن الخزي إنما هو هتك المخزي، وفضيحتته، ومن عاقبه الله على ذنوبه، فقد فضحه وذلك هو

(١) اللسان: (سبح) نسبه لامية.

(٨٣)

الخزي، ولا ينافي ذلك ما نذهب إليه من جواز العفو عن المذنبين، لأنه تعالى إذا عفا عن العاصي لا يكون أخزاه وإن أدخله النار ثم أخرجها منها بعد استيفاء العقاب، فعلى قول من قال: الخزي يكون بالدوام لا يكون أخزاه، ومن قال يكون بنفس الدخول، له أن يقول: إن ذلك وإن كان خزيا، فليس مثل خزي الكفار، وما يفعل بهم من دوام العقاب، وعلى هذا يحمل قوله تعالى: (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه) (١) وقوله: (وما للظالمين من أنصار) معناه ليس للظالمين من يدفع عنهم على وجه المغالبة والقهر، لأن الناصر هو الذي يدفع عن المنصور على وجه المغالبة ولا ينافي ذلك الشفاعة في أهل الكبائر لأن الشفاعة هي مسألة وخضوع وضرع إلى الله تعالى، وليست من النصرة في شيء وقوله (صلى الله عليه وآله) (يخرجون من النار بعد ما يصيرون حمما وفحما) صريح بوقوع العفو عن مرتكبي الكبائر وتأول الرماني الخبر تأويلين:

أحدهما - أنه لولا الشفاعة، لواقعوا كبيرة يستوجبون بها الدخول فيها، فيخرجون بالشفاعة على هذا الوجه، كما يقال أخرجتني من السلعة إذا كان لولا مشورته، لدخل فيها بابتياعه إياها.

الثاني - لولا الشفاعة، لدخلوها بما معهم من الصغيرة ثم أخرجوا عنها إلى الجنة. والاول فاسد، لانه مجاز. والثاني - ليس بمذهب لاحد من القائلين بالوعيد لان الصغيرة تقع مكفرة لاعقاب عليها فكيف يدخل بها النار.

قوله تعالى: (ربنا إنا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار) (١٩٣) - آية بلاخلاف -.

(١) سورة التحريم: آية ٨.

(٨٤)

في هذه الآية أيضا حكاية عن تقدم وصفهم بأنهم أولوا الاباب وغير ذلك من الاوصاف التي مضت بأنهم يقولون: (ربنا إنا سمعنا مناديا ينادي للإيمان) واختلفوا فيمن المنادي ههنا، فقال محمد بن كعب القرظي وقتادة: هو القرآن. وقال ابن جريج وابن زيد: هو رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وهو الذي اختاره الجبائي، واختار الطبري الاول قال: لانه ليس كل أحد سمع قول النبي (صلى الله عليه وآله) ولا رآه ولا عينه وسمع دعاءه إلى الله تعالى. والقرآن سمعه من رآه ومن لم يره كما قال تعالى مخبرا عن الجن انهم قالوا: (سمعنا قرآنا عجا يهدي إلى الرشد) وهذا الذي ذكره ليس بطعن، لانه إذا بلغه دعوة النبي (صلى الله عليه وآله) جاز أن يقول (سمعنا مناديا) وإن كان فيه ضرب من التجوز، وقال قتادة سمعوا دعوة من الله فأجابوها وأحسنوا فيها وصبروا عليها. وقوله: (سمعنا مناديا) يعني نداء مناد لان المنادي لا يسمع وقوله: (للإيمان) معناه إلى الإيمان، كما قال: (الحمد لله الذي هدانا لهذا) (١) ومعناه إلى هذا قال الراجز:

أوحى لها القرار فاستقرت * وشدها بالراسيات الثابت (٢)

يعني أوحى إليها. ومنه قوله: (بأن ربك أوحى لها) (٣) أي إليها، فمعنى الآية (ربنا اننا سمعنا) داعيا يدعو إلى الإيمان والتصديق بك، والاقرار بوحدانيتك، واتباع رسوك واتباع أمره ونهيه، فصدقنا بذلك يا (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) ومعناه استرها علينا، ولا تفضحنا بها في القيامة على رؤوس الأشهاد بعقوبتك، لكن كفرها عنا (وكفر عنا سيئاتنا) معناه امحها بفضلك ورحمتك ايانا (وتوفنا مع الأبرار) معناه واقبضنا إليك إذا قبضتتنا في جملة الأبرار، واحشرنا معهم.

(١) سورة الاعراف: آية ٤٢. (٢) انظر ٢: ٥٩ تعليقة. ١ (٣) سورة الزلزال: آية ٥.

(٨٥)

اللغة، والمعنى:

والابرار جمع بر، وهم الذين بروا الله بطاعتهم إياه حتى أرضوه، فرضي عنهم. وقال الحسن: هم الذين لا يؤذون الذر وأصل البر الاتساع، فالبر الواسع من الأرض خلاف البحر والبرصلة الرحم والبر:

العمل الصالح. والبر: الحنطة والابرار على الخصم الزيادة عليه. وابتر من أصحابه إذا انفرد منهم.

فان قيل: إذا كان النداء إنما هو تنبيه المنادى ليقبل بوجهه على المكلم له، فما معنى ربنا؟ قلنا: الاصل في النداء تنبيه المنادى ثم استعمل في استفتاح الدعاء اقتضاءً للجواب واعترافاً بالفضل، ولا يجوز فتح (أن) بعد ربنا بإيقاع النداء عليه، لان بعده لا يكون إلا جملة ولا يقع فيه مفرد، لانه لا يجوز ربنا ادخالك النار من أخزيتته، لانه ابتداء لاخبر له. فان قيل: ما معنى قوله: " وكفرنا " وقد أغني عنه قوله: " فاغفر لنا " قلنا: جوابان:

أحدهما - اغفر لنا ذنوبنا ابتداءً بالتوبة، وكفرنا إن تبنا.

والثاني - اغفر لنا بالتوبة ذنوبنا، وكفرنا باجتتاب الكبائر السيئات، لان الغفران قد يكون ابتداءً ومن سبب والتكفير لا يكون إلا عند فعل من العبد وقوله: " ان آمنوا " تحتمل ان أمرين:

أحدهما - أن تكون بمعنى أي على ما ذكره الرماني.

والثاني - أن تكون الناصبة للفعل، لانه لا يقع في مثله دخول الباء نحو بأن آمنوا.

قوله تعالى:

(ربنا آتتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد) (١٩٤) - آية بلاخلاف -.

فهذه أيضا حكاية عن تقدم وصفهم بأنهم يقولون أعطنا ما وعدتنا على

(٨٦)

لسان رسلك من الثواب ولا تخزنا. والمخزي في اللغة المذل، المحقور بأمر قد لزمه بحجة تقول أخزيتته أي ألزمته حجة أدلته معها، والخزي والانقماح والارتداع متقاربة المعنى، والخزاية شدة الاستحياء. وقوله (إنك لاتخلف الميعاد)

استئناف كلام ولذلك كسرت (إن) والمعنى انك وعدت الجنة لمن آمن بك، وإنك لا تخلف الميعاد. فان قيل: ماوجه مسألتهم لله أن يؤتيهم ما وعدهم، والمعلوم أن الله ينجز وعده، ولايجوز عليه الخلف في الميعاد؟ قيل عن ذلك أجوبة:

أحدها - ما اختاره الجبائي، والرماني ان ذلك على وجه الانقطاع إليه والتضرع له والتعبد له كما قال: (رب احكم بالحق) (١) وقوله: (لاتحملنا ما لا طاقة لنا به) (٢) وأمثال ذلك كثيرة. والثاني - قال قوم إن ذلك خرج مخرج المسألة ومعناه الخبر، وتقدير الكلام ربنا إنما سمعنا مناديا ينادي لليمان أن آمنوا بربكم فأمناربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، لتوفينا ما وعدتنا به على رسلك ولا تحزنا يوم القيامة لانهم علموا ان ما وعده الله به فلا بد من أن ينجزه والثالث - قال قوم: معناه المسألة والدعاء بأن يجعلهم ممن آتاهم ما وعدهم من الكرامة على ألسن رسله، لأنهم كانوا قد استحقوا منزلة الكرامة عندالله في أنفسهم ثم سألوه أن يؤتيهم ما وعدهم بعد علمهم باستحقاقهم عند أنفسهم، لانه لو كان كذا، لكانوا زكوا أنفسهم وشهدوا لها أنهم ممن قد استوجب كرامة الله، وثوابه، ولا يليق ذلك بصفة أهل الفضل من المؤمنين.

والرابع - قال قوم إنما سألوا ذلك على وجه الرغبة منهم إليه تعالى أن يؤتيهم ما وعدهم من النصر على أعدائهم من أهل الكفر وإعلاء كلمة الحق على الباطل فيجعل ذلك لهم لانه لايجوز أن يكونوا مع ما وصفهم الله به غير واثقين ولاعلى غير يقين ان الله لا يخلف الميعاد فرغبوا إليه في تعجيل ذلك، ولكنهم

(١) سورة الانبياء: آية ١١٢. (٢) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

(٨٧)

كانوا وعدوا النصر ولم يوقت لهم في ذلك وقت فرغبوا إليه تعالى في تعجيل ذلك لهم لما لهم فيه من السرور بالظفر وهو اختيار الطبري. وقال الآية مختصة بمن هاجر من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) من وطنه وأهله مفارقا لاهل الشرك بالله إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وغيرهم من تباع رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذين رغبوا إليه تعالى في تعجيل نصرهم علي أعدائهم و علموا انه لا يخلف الميعاد ذلك غير أنهم سألوه تعجيله وقالوا لا صبر لنا على اناتك وحلمك وقوى ذلك بما بعد هذه الآية من قوله: " فاستجاب لهم ربهم أني لأضيق عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا... " الآيات بعدها وذلك

لايليق إلا بما ذكره، ولايليق بالاقاويل الباقية وإلى هذا أوماً البلخي، لانه قال في الآية الاخري: انها والتي بعدها في الذين هاجروا إلى النبي (صلى الله عليه وآله). وفي الآية دلالة على أنه يجوز أن يدعو العبد بما يعلم أنه يفعله مثل أن يقول رب احكم بالحق. وقوله: " فاغفر لنا ذنوبنا " خلاف ما يقوله المجبرة، ولايلزم على ذلك جواز التعبد بأن يدعو بما يعلم أنه لا يكون مثل أن يقول لا يظلم، لان في ذلك تحكما على فاعله وتجبرا عليه في تدبيره، ولوسوى بينهما كان جائزا كما قلنا في قوله: (لاتحملنا مالاطاقة لنا به) (١) على أحد الوجهين وقوله: " انك لاتخلف الميعاد " فيه اعتراف بأنه لا يخلف الميعاد بعد الدعاء بالايجاز لئلا ينوهم عليهم تجويز الخلف على الله تعالى. وقوله تعالى:

(فاستجاب لهم ربهم أني لأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم واو نوا في سبيلي وقتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم

(١) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

(٨٨)

جنات تجري من تحتها الانهار ثوبا من عند الله والله عنده حسن الثواب) (١٩٥) - آية بلاخلاف -.

قرأ حمزة والكسائي وخلف " وقتلوا وقتلوا " بتقديم المفعولين على الفاعلين الباقون " قاتلوا وقتلوا " بتقديم الفاعلين على المفعولين، وشدد التاء من (قتلوا) ابن كثير وابن عامر. وقرأ عمر بن عبدالعزيز " وقتلوا " بلال " وقتلوا " وقال الطبري القراءة بتقديم المفعولين لاتجوز، وهذا خطأ ظاهر، لان من اختار اسم الفاعلين على المفعولين، وجه قراءته أن القتال قبل القتل. ومن قدم المفعولين على الفاعلين وجه قراءته يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون المعطوف بالواو ويجوز أن يكون أولا في المعنى. وان كان مؤخرا في اللفظ، لان الواو، لا يوجب الترتيب وهي تخالف الفاء في هذا المعنى، وهكذا خلافهم في سورة التوبة.

والثاني - أن يكون لما قتل منهم قاتلوا ولم يهنوا ولم يضعفوا لمكان من قتل منهم كما قال تعالى (فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) (١) وقوله: (فاستجاب لهم ربهم أني) أي بأنني وحذف الباء، ولو قرئ بكسر الهمزة كان جائزا

على تقدير: قال لهم " إني لأضيع عمل عامل منكم " ومعنى قوله: " فاستجاب " أجابهم ربهم يعني الداعين بما تقدم وصف الله إياهم وأجاب واستجاب بمعنى قال الشاعر:
وداع دعا يامن يجيب إلى الندى * فلم يستجبه عند ذلك مجيب (٢)
أي لم يجبه. " بأني لأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى " من زائدة كما يقال كان من الحديث ومن الامر ومن القصة. ومن ههنا أحسن، لأن حرف

(١) سورة آل عمران: آية ١٤٦.

(٢) قاله كعب بن سعد الغنوي الاصمعيات: ٩٨ والقصيدة مشهورة، يرثي بها أخاه أبا المغوار مر منها أبيات متفرقة. وقدمر هذا البيت في ١: ٨٤.

(٨٩)

النفي قد دخل في قوله: " لأضيع " من ههنا ليست زائدة، لأنها دخلت لمعنى ولا يصلح الكلام الإبهام، لأنها للترجمة والتفسير عن قوله: " منكم " بمعنى لأضيع عمل عامل منكم من الذكور والاناث، قالوا ولا تكون من زائدة إلا في موضع جدد. وقوله: (لأضيع عمل عامل منكم) لم يدركه الجدد لأنك لا تقول لأضرب غلام رجل في الدار، ولا في البيت، فيدخل ولا، لأنه لم ينله الجدد ولكن (من) مفسرة. وقوله: " لا كفرن عنهم سيئاتهم " معناه لا ذهبنا واسقط عقابها، وهذه الآية، والتي قبلها - في قول البلخي - نزلت في المتبعين للنبي (صلى الله عليه وآله) والمهاجرين معه ثم هي في جميع من سلك سبيلهم واتبع آثارهم من المسلمين. وقوله: " لا كفرن عنهم سيئاتهم " أي لا غطينها وأمحونها وأطننا عنهم بما ينالهم من ألم الهجرة والجهاد واحتمال تلك الشدائد في جنب الله. وحمل السيئات على الصغائر. وقوله: " ثوابا من عند الله " نصب على المصدر ذكر على وجه التأكيد، لأن معنى " ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار " (١) لاثنين، ومثله " كتاب الله عليكم " لأن قوله: " حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم " (٢) معناه كتب الله عليكم (وكتاب الله عليكم) مؤكدا ومثل ذلك " صنع الله الذي " (٣) لأن قوله: " وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب " (٤) قد علم منه أن ذلك صنع الله. وقوله: " من ذكر أو أنثى " روي أنه قيل لرسول الله (صلى الله عليه وآله): مابال الرجال يذكرون، ولا تذكر النساء في الهجرة، فأنزل الله هذه الآية روي ذلك عن مجاهد، وعمرو بن دينار، ويقال ان القائل لرسول الله (صلى الله عليه وآله) كانت أم سلمة (رض). وقوله: " بعضكم من بعض " قال أبو علي: يحتمل أمرين: أحدهما - أن يريد بقوله: " بعضكم " العاملين " من بعض " يعني بعض العمل الذي أمرتم به.

(١) سورة المائدة: آية ١٣. (٢) سورة النساء: آية ٢٢.

(٣، ٤) سورة النمل: ٨٨.

(٩٠)

والثاني - أن يكون عنى بقوله: " بعضكم من بعض " أن ذكور المؤمنين وأنثاهم مستوون في أن لا يضيع الله لاحد منهم عملا، وان يجازيهم على طاعاتهم، فأناث المؤمنين بعض المؤمنين، وكذلك ذكورهم، فبعضهم كبعض في هذا الباب.

وقال الطبري " بعضكم " يعني الذين يذكرونني " قياما وقيودا وعلى جنوبهم " من بعض في النصره، والملة، والدين، وحكم جميعكم فيما أفعل بكم حكم أحدكم في " أني لأضيع عمل عامل " ذكر منكم ولأنثى. والاضاعة: الاهلاك. ضاع الشئ يضيع: إذا هلك. وأضاعه اضاعه وضيعه تضييعا، ومنه الضيعة: القرية.

وقوله: (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم) يعني الذين هاجروا عن قومهم من أهل الكفر في الله إلى اخوانهم المؤمنين " وأخرجوا من ديارهم " هم المهاجرون الذين أخرجهم المشركون من مكة " وأوذوا في سبيلي " بمعنى أوذوا في طاعتي وعبادتي، وديني. وذلك هو سبيل الله " وقاتلوا " يعني في سبيل الله " وقتلوا " فيها " لاكفرن عنهم سيئاتهم " يعني لامحونها عنهم، ولا تفضلن عليهم بعفوي ورحمتي، ولا غفرنا لهم. وذلك يدل على أن إسقاط العقاب تفضل على كل حال.

" ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا " يعني جزاء لهم على أعمالهم " والله عنده حسن الثواب " معناه أن عنده من حسن الجزاء على الاعمال مالا يبلغه وصف واصف مما لآعين رأت ولا خطر على قلب بشر.

قوله تعالى: (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد (١٩٦) متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) (١٩٧) - آيتان بلاخلاف.

المعنى:

هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله). وقيل في معناه قولان:

أحدهما - ان ذلك على وجه التأديب والتحذير، لان النبي لاتجوز عليه

(٩١)

المعاصي لمكان التحذير من الله والتخويف، كما قال (لئن أشركت ليحبطن عملك) (١) الثاني - ان الخطاب وان توجه إليه، فالمراد به جميع المؤمنين، وتقديره لا يغرنكم أيها المؤمنون ما ترون ان قوما من الكفار كانوا يتجرون ويربحون في الاسفار التي كانوا

يسافرونها، ويسلمون فيها لكونهم في الحرم، فأعلم الله تعالى أن ذلك مما لا ينبغي أن يغبطوا به، لأن مأواهم ومصيرهم بكفرهم إلى النار، ولا

خير بخير بعده النار. وقوله: "متاع قليل" معناه ذلك الكسب، والربح الذي يربحونه متاع قليل وسماه متاعاً، لأنهم متعوا به في الدنيا، والمتاع النفع الذي تتعجل به اللذة أما بوجود اللذة أو بما يكون به اللذة نحو المال الجليل، والملك، وغير ذلك من الأولاد والاخوان. ووصفه بالقللة لسرعة زواله وانقطاعه، وذلك قليل بالاضافة إلى نعيم الآخرة.

والمهاد الموضع الذي يسكن فيه الانسان ويفترشه.

ووصفه بأنه بئس المهاد على ضرب من المجاز، لمافيه من أنواع العذاب، لأن الذم انما هو على الاساءة كقولك: بئس الرجل - هذا قول أبي علي الجبائي - وقال البلخي: هو حقيقة لأنه على وجهين:

أحدهما - من جهة النقص.

والآخر - من جهة الاساءة، وهو معنى قول السدي، وقتادة، وأكثر المفسرين. والغرور ايهام حال السرور فيما الامر بخلافه في المعلوم، وليس كل ايهام غرورا، لأنه قد يتوهمه مخوفا فيحذر منه، فلا يقال غره. والفرق بين الغرر والخطر ان الغرر قبيح، لأنه ترك الحزم فيما يمكن أن يتوثق منه، والخطر قد يحسن على بعض الوجوه، لأنه من العظم من قولهم: رجل خطير أي عظيم، وبني المضارع مع النون الشديدة، لأنه بمنزلة ضم اسم إلى اسم للتأكيد. قوله تعالى:

(لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها

(١) سورة العنكبوت: آية ٦٥.

(٩٢)

الانهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للابرار)

(١٩٨) - آية - .

قرأ أبو جعفر (لكن) بتشديد النون وفتحها - ههنا وفي (الزمر) - وقرأ أبو عمرو والكسائي، وحمزة في أكثر الروايات (الاشرار، والابرار، والقرار) بالامالة. الباقون - بالتفخيم - والامالة في فتحة الراء حسنة، لأن الراء المكسورة تغلب المفتوحة كما غلبت المستعلي في قولهم: قارب وطارد، وقادر فيمن أمالهن، فاذا غلبت المستعلي، فان تغلب الراء المفتوحة أولى، لأنه لا استعلاء في الراء، وإنما هو حرف من مخرج اللام فيه تكرير. ومن لم يمل، فلان كثيرا من الناس لا يميل شيئا من ذلك.

لما أخبر الله تعالى عما للكفار من سوء العاقبة وأنواع العذاب بشر المؤمنين بما أعد لهم من الجزاء عند الله وجزيل الثواب، فقال: (لكن الذين اتقوا ربهم) بفعل الطاعات، وترك المعاصي (لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله) يعني ثوابا من عند الله، وهو نصب على المصدر على وجه التأكيد، لان خلودهم فيه أنزلهم فيها، كأنه قال: نزلوها نزلا، وهو بمعنى أنزلوها أنزالا. ويحتمل أن يكون نصبا على التفسير، كقولك: هو لك هبة. وواحد الأبرار بار: مثل صاحب، وأصحاب. و. يجوز أن يكون بر وأبرار - على فعل وأفعال - تقول: بررت والدي، فأنابر. وأصله بررلكن ادغمت الراء للتضعيف. وقوله: " وما عند الله خير " يعني من الحبا والكرامة، وحسن المآب خير للأبرار مما يتقلب فيه الذين كفروا، لان ما يتقلبون فيه زائل فان قليل، وما عند الله دائم غير زائل. وقد بينا معنى (لكن) فيما مضى، وانها للاستدراك بها خلاف المعنى المتقدم من اثبات بعد نفي أو نفي بعد اثبات. فقوله: (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد) يتضمن معنى فما لهم كبير نفع، فجاء على ذلك، (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات) وقوله: (تجري من تحتها الأنهار) معناه تجري من تحت شجرها.

(٩٣)

ويقال انها تجري معلقة من غير أ حدود لها. روي ذلك عن عبدالله بن مسعود، ثم قال: ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها (١)، وقوله في الفاجرة: إن الموت خير لها يعني إذا كانت تدوم على فجورها. قوله تعالى:

(وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) (١٩٩) - آية بلاخلاف - .
النزول:

اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، فقال جابر بن عبدالله، وسعيد بن المسيب، وقتادة، وابن جريج إن النبي (صلى الله عليه وآله) لما بلغه موت النجاشي، دعا له واستغفر له، وصلى عليه، وقال للمؤمنين: صلوا عليه، فقالوا نصلي على رجل ليس بمسلم؟ وقال قوم منافقون: نصلي على علق بنجران؟ فنزلت هذه الآية، فالصفات التي فيها صفات النجاشي. وقال ابن زيد وفي رواية عن ابن جريج وابن اسحاق إنها نزلت في جماعة من اليهود وكانوا أسلموا، منهم: عبدالله بن سلام، ومن معه. وقال مجاهد: إنها نزلت في كل من أسلم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وهو أولى، لانه عموم الآية، ولادلل يقطع به على ما قالوه على انها لو نزلت في

النجاشي أو من ذكر، لم يمنع ذلك من حملها على عمومها، في كل من أسلم من أهل الكتاب، لان الآية قد تنزل على سبب وتكون عامة في كل من تتناوله.
المعنى: وإنما خصوا بالوعيد، ليبين ان جزاء أعمالهم موفر عليهم، لا يضرهم كفر

(١) في المطبوعة: (فيها).

(٩٤)

من كفر منهم فتأويل الآية " وان من أهل الكتاب " : التوراة والانجيل " لمن يؤمن بالله " أي يصدق بالله ويقر بوحدانيته، " وما أنزل إليكم " أيها المؤمنون من كتابه ووحيه على لسان نبيه محمد (صلى الله عليه وآله)، " وما أنزل إليهم " يعني إلى أهل الكتاب من الكتب " خاشعين " يعني خاضعين بالطاعة مستكينين له بها متذللين قال ابن زيد:

الخاشع: المتذلل الخائف. " لا يشترطون بآيات الله ثمنا قليلا " معناه لا يحرفون ما أنزل الله في كتبه من أوصاف محمد (صلى الله عليه وآله) فيبدلونه، ولا غير ذلك من أحكامه، وحججه لغرض من الدنيا خسيس يعطونه على التبديل، وابتغاء الرئاسة على الجاهل، كما فعله غيرهم ممن: صفة بقوله تعالى: " أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى " (١) وقال: " أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة " (٢) لكن ينفقون للحق، ويعملون بمأمرهم الله به مما أنزل إليهم، وينتهون عما نهاهم عنه ثم قال: " أولئك " يعني هؤلاء الذين يؤمنون " بالله. وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم... لهم أجرهم عند ربهم " يعني لهم عوض أعمالهم وثواب طاعتهم فيما يطيعونه فيها مذخور عند ربهم حتى يوفيهم يوم القيامة " إن الله سريع الحساب " وصفه بالسرعة لانه لا يؤخر الجزاء عن يستحقه لطول الحساب، لانه لا يخفى عليه شئ من أعمالهم قبل أن يعملوها وبعد أن عملوها، فلاحاجة به إلى احصاء، عدد فيقع في الاحصاء ابطاء وقال الجبائي: لانه قادر على أن يكلمهم في حال واحدة كل واحد بكلام يخصه. لانه قادر لنفسه و " خاشعين " نصب على الحال، ويمكن أن يكون حالا من الضمير في " يؤمن " وهو عائد إلى قوله: " لمن يؤمن بالله " ويمكن أن يكون حالا من قوله: (إليهم) وقال الحسن: الخشوع: الخوف اللازم للقلب من الله. وأصل الخشوع: السهولة: والخشعة، سهولة الرمل كالرطوبة. والخاشع من الارض: الذي لا يهتدى له، لان الرمل يعفي اثاره.

(١) سورة البقرة: آية ١٦. (٢) سورة البقرة: آية ٨٦.

(٩٥)

ومنه قوله: " خاشعة أبصارهم " (١) " وخشعت الاصوات للرحمن " (٢)
والخاشع: الخاضع ببصره. والخشوع: التذلل خلاف التصعب.
قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) (٢٠٠) -
آية بلاخلاف -.

اختلفوا في تأويل هذه الآية، فقال قوم: معنى اصبروا اثبتوا على دينكم وصابروا الكفار
ورابطوهم يعني في سبيل الله ذهب إليه الحسن، وقتادة، وابن جريج، والضحاك وقال آخرون:
معناها " اصبروا " على دينكم " وصابروا " الوعد الذي وعدتكم به " ورابطوا " عدوي
وعدوكم ذهب إليه محمد بن كعب القرظي. وقال آخرون " اصبروا " على الجهاد " وصابروا
عدوكم ورابطوا " الخيل عليه ذهب إليه زيد بن أسلم. وقال آخرون: رابطوا الصلوات أي
انتظروها واحدة بعد واحدة، لان المرابطة لم تكن حينئذ وهذا مروى عن علي (ع) ذهب (٣)
إليه أبو سلمة بن عبدالرحمن، وجابر بن عبدالله وأبو هريرة والاولى أن تحمل الآية على
عمومها في الصبر على كل ما هو من الدين، فعلا كان أوتركا.
وأصل الرباط ارتباط الخيل للعدو، والربط الشد، ومنه قولهم: ربط الله على قلبه بالصبر، ثم
استعمل في كل مقيم في ثغر يدفع عن وراء من أرادهم بسوء وينبغي (٤) أن يحمل قوله
رابطوا أيضا على المرابطة لما عند الله لانه العرف في استعمال الخبر، وعلى انتظار الصلاة
واحدة بعد أخرى. وقوله: " واتقوا الله " معناه اتقوا ان تخالفوه فيما يأمركم به لكي تفلحوا -
وتفوزوا - (٥) بنعيم الابد وتتجحوا بطاعتكم من الثواب الدائم.

(١) سورة القلم: آية ٤٣. (٢) سورة طه: آية ١٠٨.

(٣) في المخطوطة (وذهب). (٤) في المطبوعة (ينبغي) باسقاط الواو.

(٥) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة

(٩٦)

وروي عن أبي جعفر (ع) انه قال اصبروا على المصائب، وصابروا على عدوكم، ورابطوا
عدوكم. وانما جمع بين " اصبروا وصابروا " من أن المصابرة من الصبر، للبيان عن تفصيل
(١) الصبر الذي يعني به في الذكر لان المصابرة صبر على جهاد العدو يقابل صبره لان
المفاعلة بين اثنين.

وإنما وصف (أي) بالموصول ولم يوصف بالمضاف، لان (الذي) يجري مجرى الجنس، لان
فيه الالف واللام بمنزلة قوله يا أيها المؤمنون، ولا يجوز يا أيها أخو زيد، لانه لا يصح فيه
الجنس.

(١) في المطبوعة (تفضيل).

(٩٧)

سورة النساء مائة وسبعون آية كوفي. وخمس وسبعون بصري وهي مدينة كلها وقد روي عن بعضهم أنه قال: كلما في القرآن من قوله: (ياأيها الناس)

نزل بمكة، والاول قول قتادة، ومجاهد، وعبدالله بن عباس بن أبي ربيعه، وقال بعضهم: ان جميعها نزلت بالمدينة إلا آية واحدة وهي قوله: (إن الله يامرکم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها) (١) فأنها نزلت بمكة حين أراد النبي (صلى الله عليه وآله) أن يأخذ مفاتيح الكعبة من عثمان بن طلحة ويسلمها إلى عمه العباس بسم الله الرحمن الرحيم قوله تعالى:

(ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام إن الله كان عليكم رقيبا) (١) - آية بلاخلاف -.

القراءة والحجة:

قرأ أهل الكوفة (تساءلون به) بتخفيف السين، الباقون بتشديدها، وقرأ حمزة وحده " والارحام " بجر الميم، الباقون بفتحها. فمن قرأ من أهل الكوفة

(١) سورة النساء: آية ٥٧.

(٩٨)

" تساءلون به " بالتخفيف فوجهه ان أصله تتساءلون، فحذف احدى التاءين وهي الاصلية: لان الاخرى للمضارعة، وانما حذفوها لاستتقالهم اياها في اللفظ فحذفت لان الكلام غير ملتبس. ومن شدد أدغم احدى التاءين في السين، لقرب مكان هذه من هذه. المعنى:

ومعنى " تساءلون به " تطالبون حقوقكم به " والارحام " القراءة المختارة عند النحويين النصب في الارحام على تقدير: واتقوا الارحام. وتكون (١) معطوفة على موضع " به " ذكره أبو علي الفارسي، فأما الخفض فلايجوز عندهم إلا في ضرورة الشعر كما قال الشاعر أنشده سيبويه:

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا * فاذهب فما بك والايام من عجب

فجروا الايام عطفاً على موضع الكاف في " بك " وقال آخر:

نعلق في مثل السواري سيوفنا * وما بينها والكعب غوط نغانف (٢)

فعطف الكعب على الهاء والالف في (بينها) وهو ظاهر على مكنى وقال آخر:

وان الله يعلمني ووهبا * وانا سوف نلقاه سوانا

فعطف وهبا على الياء في يعلمني، ومثل ذلك لايجوز في القرآن والكلام.

قال المازني: لان الثاني في العطف شريك للاول، فان كان الاول يصلح أن يكون شريكا للثاني جاز وإن لم يصلح أن يكون الثاني شريكا له لم يجز، قال: فكما لا تقول: مررت بزید وذاك (٣) لاتقول مررت بك وزید. وقال أبو علي الفارسي: لان المخفوض حرف متصل غير منفصل فكأنه كالتتوين في الاسم فقبح أن يعطف باسم

في المطبوعة: (أويكون).

(٢) قائله مسكين الدارمي معاني القرآن للقراء ١: ٢٥٣، والانصاف: ١٩٣ والخزانة ٣٣٨٢. السواري جمع سارية وهي الاسطوانة والغوط: المظمن من الارض. والنفائف جمع نفنف وهو الهواء بين الشئين * والبيت كناية عن طول قامتهم (٣) في النسخ المخطوطة والمطبوعة (كذلك) والظاهر ما ذكرنا.

(٩٩)

يقوم بنفسه على اسم لايقوم بنفسه. ويفسد من جهة المعنى من حيث ان اليمين بالرحم لايجوز، لان النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (لاتحلفوا بأبائكم) فكيف تساءلون به وبالرحم على هذا وقال اسماعيل بن اسحاق: الحلف بغير الله أمر عظيم، وان ذلك خاص لله تعالى، وهو المروي في أخبارنا. وقال ابراهيم النخعي وغيره: انه من قولهم: نشدتك بالله وبالرحم. وقال ابن عباس، والسدي، وعكرمة، والحسن، والربيع، والضحاك، وابن جريج، وابن زيد، وقتادة: المعنى والارحام فصلوها.

وهذه الآية خطاب لجميع المكلفين من البشر.

وقوله: (وانقوا ربكم) فيه وعظ بان يتقى عصيانه بترك (١) ما أمر به وارتكاب مانهى عنه. وحذر من قطع الارحام لما أراد من الوصية بالاولاد والنساء والضعفاء، فأعلمهم انهم جميعا من نفس واحدة، فيكون ذلك داعيا لهم إلى لزوم أمره وحدوده في وراثتهم ومن يخلفون بعدهم، وفي النساء والايتام عطا لهم عليهم. ثم اخبر تعالى انه خلق الخلق من نفس واحدة فقال: " الذي خلقكم من نفس واحدة " والمراد بالنفس ههنا آدم عند جميع المفسرين: السدي وقتادة ومجاهد وغيرهم. وقوله: (وخلق منها زوجها) يعني حواء. روي انها خلقت من ضلع من أضلاع آدم، ذهب إليه أكثر المفسرين. وقال أبو جعفر (ع): خلقها من فضل الطينة التي خلق منها آدم، ولفظ النفس مؤنث بالصيغة، ومعناه التذكير ههنا، ولو قيل نفس واحد لجاز. المعنى، واللغة:

وقوله: (وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) معنى بث نشر، يقال: بث الله الخلق.

ومنه قوله: " كالفراس المبوث " (٢) وذلك يدل على بث. وبعض العرب يقول أبث الله الخلق، ويقال بثنتك سري، وابثنتك سري لغتان.

وقوله: (إن الله كان عليكم رقيبا) أي حافظا تقول رقب يرقب رقبا وانما

(١) في المطبوعة: (بقول). (٢) سورة القارعة: آية ٤.

(١٠٠)

قال: " كان عليكم " ولفظ كان يفيد الماضي لانه أراد أنه كان حفيظا على من تقدم زمانه من عهد آدم وولده إلى زمان المخاطبين، وانه كان عالما بما صدر منهم، لم يخف عليه منه شيء. والرقيب الحافظ في قول مجاهد. وقال ابن زيد: الرقيب العالم، والمعنى متقارب، يقال: رقب يرقب رقوبا ورقبا ورقبة. قال أبو داود:

كمقاعد الرقباء للضرباء أيديهم نواهد (١)

وقيل في معنى " الذي تسألون به " قولان:

أحدهما - قال الحسن ومجاهد وإبراهيم: هو من قولهم: أسألك بالله والرحم، فعلى هذا يكون عطا على موضع به كأنه قال: وتذكرون الارحام في التساؤل.

الثاني - قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك والربيع وابن زيد وهو المروي عن أبي جعفر (ع): واتقوا الارحام أن تقطعوها، فعلى هذا يكون معطوفا على اسم الله تعالى، ووجه النعمة في الخلق من نفس واحدة انه أقرب إلى أن يتعطفوا ويأمن بعضهم بعضا ويحامي بعضهم عن بعض، ولايأنف بعضهم عن بعض، لما بينهم من القرابة والرجوع إلى نفس واحدة، لان النفس الواحدة ههنا آدم (ع) باجماع المفسرين: الحسن وقتادة والسدي ومجاهد. وجاز من نفس واحدة لان حواء من آدم على ما بيناه، فرجع الجميع آدم وانما أنث النفس والمراد بها آدم لان لفظ النفس مؤنثة، وان عني بها مذكر كما قال الشاعر:

أبوك خليفة ولدته أخرى * وأنت خليفة ذاك الكمال (٢)

فانث على اللفظ، وقد حكينا عن أكثر المفسرين: ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدي وابن اسحاق: ان حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم.

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال: (المرأة خلقت من ضلع، وانك ان أردت أن تقيمها كسرتها وان تركتها وفيها عوج استمعت بها). وروي عن أبي جعفر (ع)

(١) مجاز القرآن لابي عبيدة ١: ١١٣، واللسان (رقب) وهو من أبيات في نعت النور الابيض. الرقباء جمع رقيب وهو أمين أصحاب الميسر يحفظ ضربهم بالقداح.

والضرباء جمع ضريب وهو: الضارب بالقداح. وقيل أن الضمير في (أيديهم) يعود إلى الضرباء.

وقيل انه يعود إلى الرقباء، وهو الاصح.

(٢) انظر ٢: ٤٤٩ تعليقة. ٣

(١٠١)

أن حواء خلقت من فضل طينة آدم (ع).
قوله تعالى: (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم
إنه كان حوبا كبيرا) (٢) - آية بلاخلاف -
المعنى:

هذا خطاب لأوصياء اليتامى، أمرهم الله بأن يعطوا اليتامى أموالهم إذا بلغوا الحلم وأونس منه
الرشد، وسماهم يتامى بعد البلوغ، وإيناس الرشد مجازا، لان النبي (صلى الله عليه وآله) قال:
(لا يتم بعد احتلام) كما قالوا في النبي (صلى الله عليه وآله) إنه يتيم أبي طالب بعد كبره يعنون انه
رباه. وقوله: (ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب)

معناه: لا تستبدلوا ما حرمه الله عليكم من أموال اليتامى بما أحله الله لكم من أموالكم، واختلفوا
في صفة التبديل فقال بعضهم كان أوصياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم والرفيع منه
ويجعلون مكانه الرديء الخسيس، ذهب إليه ابراهيم النخعي، والسدي، وابن المسيب،
والزهري، والضحاك، وقال قوم: معناه " ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب " بأن تتعجلوا الحرام قبل
أن يأتيكم الرزق الحلال الذي قدر لكم. ذهب إليه أبو صالح، ومجاهد. وقال ابن زيد: معناه ما
كان أهل الجاهلية يفعلونه، من أنهم لم يكونوا يرزقون النساء ولا الصغار بل يأخذة الكبار.
وأقوى الوجوه الوجه الاول، لانه ذكر عقيب مال اليتامى وإن حمل على عموم النهي عن
التبديل بكل مال حرام كان قويا. وقوله: (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم)
يعني أموال اليتامى مع أموالكم والتقدير: ولا تضيفوا أموالهم إلى أموالكم فتأكلوهما جميعا، فأما
خط مال اليتيم بمال نفسه إذا لم يظلمه فلا بأس به بلاخلاف

(١٠٢)

قال الحسن لما نزلت هذه الآية كرهوا مخالطة اليتامى، فشق ذلك عليهم، فشكوا ذلك إلى
رسول الله، فأنزل الله تعالى: (ويستأونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وإن تخالطوهم
فأخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح) (١) وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع).
وقوله: (انه كان حوبا كبيرا) يعني إن أكلكم أموال اليتامى مع أموالكم حوب كبير، أي اثم
كبير في قول ابن عباس ومجاهد.

والهاء في قوله: " انه " دالة على اسم الفعل الذي هو الاكل. والحوب الاثم، يقال: حاب يحوب
حوبا وحبابة والاسم الحوب. وقرأ الحسن حوبا: ذهب إلى المصدر. ويقال:

تحوب فلان من كذا إذا تخرج منه. ويقال نزلنا بحوبة من الارض وبحيب من الارض يعني بموضع سوء. وحكى الفراء عن بني أسد ان الحائب القاتل. وقال الشاعر:

أيها تطيع ابن عبس انها رحم * حبتم بها فانا ختم بحجاج (٢)

أي أئتمتم والحوبة الحزن، والتحوب التحزن، والتحوب التأثم، والتحوب الهياح الشديد، والحوباء الروح والكبير العظيم قوله تعالى:

(وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيما نكحتم ذلك أدنى ألا تعولوا (٣) وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً)

(٤) - آيتان - .

(١) سورة آل عمران: آية ٢٢٠. (٢) اللسان (حوب) نسبه إلى النابغة وفي (جع) نسبه إلى نهكية الفزاري ورواية البيت فيهما:

صبرا بغيض بن ريث انها رحم...

(١٠٣)

النزول، والمعنى:

واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية على ستة أقوال:

أولها - ماروي عن عائشة انها قالت: نزلت في اليتيمة التي تكون في حجر وليها فيرغب في مالها وجمالها، ويريد أن ينكحها بدون صداق مثلها، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لها صداق مهر مثلها، وأمروا أن ينكحوا ما طاب مما سواهن من النساء إلى الرابع " فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة " من سواهن

" أو ما ملكت أيما نكحتم " ومثل هذا ذكر في تفسير أصحابنا. وقالوا: انها متصلة بقوله:

(ويستفتونك في النساء قل الله يفتنكم فيهن وما يتلى في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون ان تنكحوهن) (١) (فان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء) الآية وبه قال الحسن والجبائي والميرد.

والثاني - قال ابن عباس وعكرمة: ان الرجل منهم كان يتزوج الاربع والخمس والست والعشر ويقول ما يمنعني أن أتزوج كما تزوج فلان فاذا فنى ماله مال على مال اليتيم فانفقته، فنهاهم الله تعالى عن أن يتجاوزوا بالاربع إن خافوا على مال اليتيم وإن خافوا من الاربع أيضا أن يقتصروا على واحدة.

والثالث - قال سعيد بن جبير والسدي وقتادة والربيع والضحاك. وفي احدى الروايات عن ابن عباس قالوا: كانوا يشددون في أمر اليتامى ولا يشددون في النساء، ينكح أحدهم النسوة فلا يعدل بينهن، فقال الله تعالى كما تخافون ألا تعدلوا في اليتامى فخافوا في النساء، فانكحوا واحدة إلى الاربع، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة.

والرابع - قال مجاهد: ان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى معناه: ان تخرجتم

(١) سورة النساء: آية ١٢٦.

(١٠٤)

من ولاية اليتامى وأكل أموالهم إيماناً وتصديقاً فكذلك تخرجوا من الزنا، وانكحوا النكاح المباح من واحدة إلى أربع، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة.

والخامس - قال الحسن: ان خفتم ألا تقسطوا في اليتيمة المرباة في حجركم فانكحوا ما طاب لكم من النساء مما أحل لكم من يتامى قراباتكم مثني وثلاث ورباع، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة، أو ما ملكت إيمانكم. وبه قال الجبائي وقال:

الخطاب متوجه إلى أولياء اليتيمة إذا أراد أن يتزوجها إذا كان هو وليها كان له أن يزوجه قبل البلوغ وله أن يتزوجها.

والسادس - قال الفراء: المعنى ان كنتم تتخرجون من مؤاكلة اليتامى فاحرجوا من جمعكم بين اليتامى، ثم لاتعدلون بينهن. وقوله: (فانكحوا ما طاب لكم) جواب لقوله: (وان خفتم ألا تقسطوا) على قول من قال مارويناه أولاً عن عائشة وأبي جعفر (ع). ومن قال: تقديره: ان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا في النساء الجواب قوله: " فانكحوا ما طاب لكم من النساء " والتقدير: فان خفتم ألا تقسطوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها فكذلك فخافوا ألا تقسطوا في حقوق النساء، فلا تتزوجوا منهن إلا من تأمنون معه الجور، مثني وثلاث ورباع، وان خفتم أيضاً من ذلك فواحدة، فان خفتم من الواحدة فما ملكت إيمانكم، فترك ذكر قوله فكذلك فخافوا ألا تقسطوا في حقوق النساء لدلالة الكلام عليه وهو قوله: (فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت إيمانكم)

ومعنى " ألا تقسطوا " أي لاتعدلوا ولاتتصفوا، فالاقساط هو العدل والانصاف والقسط هو الجور. ومنه قوله: (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً) (١) وقد بيناه فيما مضى. واليتامى جمع لذكران اليتامى واناثهم في هذا المعنى.

المعنى، واللغة، والاعراب وقال الحسين بن علي المغربي: معنى ما طاب أي بلغ من النساء كما يقال:

طابت الثمرة إذا بلغت، قال: والمراد المنع من تزويج اليتيمة قبل البلوغ لئلا يجري

(١) سورة الجن: آية ١٥.

(١٠٥)

عليها الظلم، فان البالغة تختار لنفسها، وقيل: معنى " ما طاب لكم من النساء " من أحل لكم منهن دون من حرم عليكم، وانما قال: " ما طاب " ولم يقل: من طاب وان كان من لما يعقل وما لما لا يعقل لان المعنى: انكحوا الطيب أي الحلال هذه العدة، لانه ليس كل النساء حلالا، لان الله حرم كثيرا منهن بقوله:

" حرمت عليكم أمهاتكم " (١) الآية. هذا قول الفراء. وقال مجاهد: فانكحوا النساء نكاحا طيبا. وقال المبرد: " ما " ههنا للجنس كقول القائل: ما عندك؟ فنقول: رجل أو امرأة، فالمعنى بقوله: ما طاب الفعل دون اعيان النساء واشخاصهن، لان الاعيان لاتحرم ولاتحلل، وإنما يتناول التحريم والتحليل التصرف فيها، وجرى ذلك مجرى قول القائل: خذ من رقيقى ما أردت: إذا أراد خذ منهم ارادتك ولو أراد خذ الذي تريد لم يجز إلا أن يقول خذ من رقيقى من أردت وكذلك قوله:

" أو ما ملكت ايمانكم " معناه أو ملك ايمانكم، ومعنى " فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثى ثلاث ورباع " فلينكح كل واحد منكم مثى وثلاث ورباع، كما قال: " والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة " (٢)

معناه: فاجلدوا كل واحد منهم ثمانين جلدة. وقوله: (مثى وثلاث ورباع)

بدل من (ماطاب) وموضعه النصب وتقديره: اثنين اثنين، وثلاثا وثلاثا، واربعاً اربعا، إلا انه لاينصرف لعنتين، احدهما: انه معدول عن اثنين اثنين وثلاث ثلاث في قول الزجاج، وقال غيره: لانه معدول ولانه نكرة، والنكرة أصل للاشياء، وقال غيرهم: هو معرفة، وهذا فاسد عند البصريين، لانه صفة للنكرة في قوله: " اولي اجنحة مثى وثلاث ورباع " (٣) والمعنى اولي اجنحة ثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة. وقال الفراء لانه معدول، لانه يقع على الذكر والانثى، ولانه مضاف إلى ما يضاف إليه الثلاث، فكأن لامتناعه من الاضافة كان فيه الالف واللام. قال الشاعر:

(١) سورة النساء: آية ٢٢٠. (٢) سورة النور: آية ٤.

(٣) سورة فاطر: آية ١٢.

(١٠٦)

ولكنما اهلي بواد أنيسه * ذئاب تبغى الناس مثنى وموحدا (١)
ومن قال: انه اسم للعدد معرفة استدل بقول تميم بن أبي مقبل:
ترى النعرات الزرق تحت لبانه * احاد ومثنى أصعقتها صواهله (٢)
فرد احاد ومثنى على النعرات وهي معرفة، وقد يجئ منكرها مصروفا كما قال الشاعر:
قتلنا به من بين مثنى وموحدا * باربعة منكم وآخرخامس (٣)
وترك الصرف أكثر قال صخر الغي:
منت لك أن تلاقيني المنيا * احاد احاد في شهر حلال (٤)
وقد تقع هذه الالفاظ على الذكر والانثى، فوقعها على الانثى مثل الآية التي نحن في
تفسيرها، ووقعها على الذكر قوله: " اولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع " لان المراد به الجناح
وهو مذكر، ويقال: احاد وموحدا وثنى ومثنى، وثلاث ومثلث، ورباع ومربع، ولم يسمع في
ما زاد عليه مثل خماس ولاالمخمس ولاالسداس والسباع إلا بيت للكميته فانه يروى في العشره
عشار، وهو قوله:

(١) قائله ساعدة بن جوية الهذلي. اللسان (بغى) وروايته (سباع) بدل (ذئاب).
(٢) معاني القرآن ١: ٢٥٥، ٣٤٥، واللسان (نعر)، (صعق)، (قرد)، (ثنى) وروايته في (فرد) فراد، بدل، احاد.
وأضعقتها، بدل أصعقتها وفي (نعر)
و (صعق) الحضر، بدل، الزرق.
النعرات جمع نكرة وهي ذبابة تسقط على الدواب فتؤذيها وأضعقتها صواهله أي قتلتها صهيله (٣) معاني القرآن
للفراء ١: ٢٥٤ وروايته:
وان الغلام المستهام بذكره * قتلنا به من بين مثنى وموحدا
باربعة منكم وآخر خامس * وساد مع الاظلام في رمح معبد
ولم يعرف لهما قائل. والبيت في المتن كما ترى ملفق منهما. وساد - بالتثوين - بمعنى سادس (٤) نسبة محمود
محمد شاكرفي تفسير الطبري ٧: ٥٤٥ إلى عمرو ذي الكلب وخطأ من نسبه إلى غيره، وهذا خطأ منه لامحالة لان
رواية القدماء أكثرها اذالم تكن جميعها تنسبه إلى صخر الغي. وقد اعترف هو أن الطبري روايته كذلك. وفي بعض
الروايات (في شهر حلال) منت لك: أي قدرت لك نيتك أن تلقاني في شهر حلال، أو حرام على اختلاف الرواية.

(١٠٧)

فلم يستريثوك حتى رميت فوق الرجال خصالا عشارا (١)
يريد عشارا. وقال صخر السلمي في ثناوموحدا:
ولقد قتلكتم ثناء وموحدا * وتركت مرة مثل امس الدابر (٢)

ولم يرد أنه قتل الثلاثة، وإنما أراد أنه قتل نفرا كثيرا منهم واحدا بعد واحد واثنين بعد اثنين، وقوله: " فواحدة " نصب على انه مفعول به، والتقدير:

فان خفتي ألتعدلوا فيما زاد على الواحدة فانكحوا واحدة، ولو رفع كان جازا، وقد قرأه أبو جعفر المدني، وتقديره: فواحدة كافية، أو فواحدة مجزية، كما قال: (فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان) (٣) ومن استدل بهذه الآية على أن نكاح التسع، جائز فقد اخطأ، لان ذلك خلاف الاجماع، وأيضا فالمعنى:

فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى ان امنتم الجور وإماتلاث ان لم تخافوا ذلك أو رباع ان امنتم ذلك فيهن، بدلالة قوله: " فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة " لان معناه فان خفتم في الثنتين فانكحوا واحدة، ثم قال: فان خفتم أيضا في الواحدة فما ملكت ايمانكم. على أن مثنى لا يصح إلا لاثنتين اثنتين، أو اثنتين اثنتين على التفريق في قول الزجاج، فتقدير الآية " فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث " — فتلاث — (٤) بدلا من مثنى ورباع بدلا من ثلاث، ولو قيل ب (أو)

لظن أنه ليس لصاحب مثنى ثلاث، ولالصاحب الثلاث رباع. ومن استدل بقوله: " فانكحوا " على وجوب التزويج من حيث أن الامر يقتضي الايجاب، فقد اخطأ، لان ظاهر الامر وإن اقتضى الايجاب، فقد ينصرف عنه بدليل، وقد قام الدليل على أن التزويج ليس بواجب على أن الغرض بالآية النهي عن العقد

" ١ " مجاز القرآن ١: ١١٦، والاغاني ٣: ١٣٩ واللسان (عشر) استرأه: استبطأه، وعشار أي عشا عشا.

(٢) مجاز القرآن ١: ١١٥، والاغاني ١٣: ١٣٩. وروايته فيهما (المدير) بدل (الدابر).

" ٣ " سورة البقرة: آية ٢٨٢. (٤) اثبتنا ما بين القوسين لعدم استقامة المعنى بدونه.

(١٠٨)

على من يخاف ألا يعدل بينهن، والتقدير: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، فخرجتم فيهم، فكذلك فخرجوا في النساء، فلا تتكحوا إلا ما أمنتم الجور فيه (١) منهن، مما أحلته لكم منهن، من الواحدة إلى الرابع، وقد يراد.

بصورة الامر ما يراد بالنهي (٢) أو التهديد كقوله: " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " (٣) وقال: " ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون " (٤)

والمراد بذلك كله التهديد والزجر، فكذلك معنى الآية النهي، وتقديرها: فلا تتكحوا إلا ما طاب لكم من النساء على ما بيناه.

وقوله: (ذلك ادنى ألا تعولوا) إشارة إلى العقد على الواحدة مع الخوف من الجور فيما زاد عليها، أو الاقتصار على ما ملكت أيما نكح، ومعنى " أدنى " أقرب " ألا تعولوا " وقيل في معنى " ألا تعولوا " ثلاثة أقوال:

أحدها - وهو الأقوى والأصح = أن معناه: ألا تجوروا، ولا تميلوا يقال منه: عال الرجل يعول عولا وعيالة إذا مال وجار، ومنه عول الفرائض، لأن سهامها إذا زادت دخلها النقص، قال أبوطالب:

بميزان قسط وزنه غير عائل (٥)

وقال أبوطالب أيضا:

بميزان قسط لا يخيس شعيرة * له شاهد من نفسه غير عائل (٦)

وروي: لا يضل شعيرة، وبهذا قال إبراهيم، وعكرمة، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وأبومالك، والربيع بن أنس، والسدي، وابن عباس، واختاره الطبري، والجبائي. وقال قوم: معناه: ألا تفتقروا، وهذا خطأ، لأن - العول - (٧)

الحاجة، يقال منه: عال الرجل يعيل عيلة إذا احتاج، كما قال الشاعر:

(١) في المطبوعة: (الا ماأمنتم به الجور فيه.).

(٢) في المطبوعة: (مايراد به النهي.) وفي المخطوطة: (مايراد به النهي.).

(٣) سورة الكهف: آية ٢٩.

(٤) سورة النحل: آية ٥٥، وسورة الروم: آية ٣٤.

(٥ - ٦) سيرة ابن هشام ١: ٢٩٦. وفي البيت رواية أخرى هي (بميزان صدق).

(٧) أثبتنا ما بين القوسين لعدم تمامية المعنى الاليه.

(١٠٩)

وما يدري الفقير متى غناه * وما يدري الغني متى يعيل (١)

أي: متى يفتقر. وقال ابن زيد: معناه: ألا تكثر عيالكم، وهذا أيضا خطأ، لأن المراد لو كان ذلك لما أباح الواحدة، وما شاء من مالك الايمان، لأن اباحة كل ما ملكت اليمين أزيد في العيال من أربع حرائر، على أن من كثرة العيال يقال: أعال يعيل فهو معيل، إذا كثر عياله وعال العيال: إذا مانهم، ومنه قوله: ابدأ بمن تعول. وحكي الكسائي، قال: سمعت كثيرا من العرب يقول:

عال الرجل يعول إذا كثر عياله. وقوله: " وآتوا النساء صدقاتهن نحلة " فصدقاتهن:

جمع صدقة، يقال: هو صدق المرأة، وصدقة المرأة، وصدقة المرأة، وصدق المرأة، والفتح اقلها. ومن قال: صدقة المرأة قال: صدقاتهن، كما تقول: غرفة وغرفات، ويجوز صدقاتهن،

بضم الصاد وفتح الدال، وصدقاتهن، ذكره الزجاج. ولا يقرأ من هذه إلا بما قرئ به صدقاتهن، لان القراءة سنة متبعة. وقوله: " نحلة " نصب على المصدر، ومعناه، قال بعضهم: فريضة، وقال بعضهم ديانة، كما يقال: فلان ينتحل كذا وكذا، أي يدين به، ذكره الزجاج، وابن خالويه. قال بعضهم: هي نحلة من الله لهن، أن جعل على الرجل الصداق ولم يجعل على المرأة شيئاً من الغرم، وذلك نحلة من الله تعالى للنساء. ويقال: نحلت الرجل: إذا وهبت له نحلة ونحلا، ونحل جسمه ونحل: إذا دق، وسمي النحل نحلا لان الله نحل الناس منها العسل الذي يخرج من بطونها، والنحلة عطية عليك على غير جهة المثامنة، والنحلة الديانة، والمنحول من الشعر مالميس له، واختلفوا في المعنى بقوله " وآتوا النساء " فقال ابن عباس، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد، واختاره الطبري، والجبائي، والرماني، والزجاج: المراد به الأزواج، أمرهم الله تعالى باعطاء المهر إذا دخل بها كاملا، إذا سمى لها، فأما غير المدخول بها إذا طلقت فان لها نصف المسمى، وإن لم يكن سمي،

(١) قائله أحیحة بن الجلاح الاوسي. معاني القرآن للفراء ١: ٢٥٥، والكامل لابن الاثير ١: ٢٧٨، واللسان (عبل) من قصيدة قالها في حرب بين قومه وبين الخزرج، وفي معاني القرآن بدل (وما) في الموضعين (ولا).

(١١٠)

فلها المتعة على ما بيناه فيما مضى. وقال أبو صالح: هذا خطاب للاولياء، لان الرجل منهم كان إذا زوج أیمة أخذ صداقها دونها، فنهاهم الله عن ذلك، وأنزل هذه الآية. وروى هذا أبو الجارود، عن أبي جعفر (ع)، وذكر المعمر بن سليمان، عن أبيه، قال: زعم حضرمي ان اناسا كانوا يعطي هذا الرجل أخته، ويأخذ أخت الرجل، ولا يأخذون كثيرمهر، فنهى الله عن ذلك، وأمر باعطاء صداقهن، وأول الاقوال أقوى، لان الله تعالى ابتدأ ذكر هذه الآية بخطاب الناكحين للنساء، ونهاهم عن ظلمهن والجور عليهن، ولا ينبغي أن يترك الظاهر من غير حجة ولادلالة، وقوله: (فان طبن لكم عن شيء منه نفسا) اختلفوا فيمن المخاطب به، فقال عكرمة، وابراهيم، وعلقمة، وقتادة، وابن عباس، وابن جريج، وابن زيد: الخطاب متوجه إلى الأزواج، لان أناسا كانوا يتأثمون أن يرجع أحدهم في شيء مما ساق إلى امرأته، فانزل الله هذه الآية. وقال أبو صالح:، المعنى به الاولياء، لانه حمل أول الآية أيضا عليهم، على ما حكيناه عنه، والاول هو الاولى، لانابينا أن الخطاب متوجه إلى الأزواج الناكحين، فكذلك آخر الآية. ومعنى " فان طبن لكم عن شيء منه نفسا " إن طابت لكم أنفسهن بشيء، ونصبه على

التمييز، كما يقولون: ضقت بهذا الامر ذرعا، وقررت به عينا، والمعنى ضاق به ذرعي وقرت به عيني، كما قال الشاعر:

إذا التياز ذو العضلات قلنا * " اليك اليك " ضاق بها ذراعا (١)

وإنما هو على ذرعا وذراعا، لان المصدر والاسم يدلان على معنى واحد، فنقل صفة الذراع إلى رب الذراع، ثم أخرج الذراع مفسرة لموقع الفعل، ولذلك وحد النفس لما كانت مفسرة لموقع الخبر، والنفس المراد به الجنس، يقع على الواحد

(١) قائله القطامي، ديوانه: ٤٤. واللسان (تيز) ومعاني القرآن ١: ٢٥٦. والتياز: الكثير اللحم. وقوله (اليك اليك) أي: خذها.

(١١١)

والجمع، كما قال الشاعر:

بها جيف الحسرى فأما عظامها * فيبيض وأما جلدها فصليب (١)

ولم يقل: فجلودها، ولو قال: (فان طين لكم عن شئ منه) أنفسا لمجاز، وكذلك ضقت به أذرعا وذراعا. فأما قوله: (بالاخسرين أعمالا) (٢) إنما جمع لثلا يوهم أنه عمل يضاف إلى الجميع، كما يضاف القتل إلى جماعة إذا رضوا به، ومالوا عليه. ومثل الآية: أنت حسن وجهها، فالفعل للوجه، فلما نقل إلى صاحب الوجه، نصب الوجه على التمييز. وقوله: (فكلوه هنيئا مريئا) فهنيئا مأخوذ من هنأت البعير بالقطران، وذلك إذا جرب فعولج به، كما قال الشاعر:

متبذلا تبذو محاسنه * يضع الهناء مواضع النقب (٣)

فالهني شفاء من المرض، كما أن الهناء شفاء من الجرب. ومعنى (فكلوه هنيئا مريئا) أي دواء شافيا، يقال منه: هنأني الطعام ومرأني: إذا صار لي دواء وعلاجا شافيا، وهنيئي ومريئي بالكسر، وهي قليلة، ومن قال: هنأني يقول في المستقبل: يهنأني، ويمرأني، ومن يقول: هنأني، يقول يهنئني، ويمرئني، فاذا أفردوا قالوا:

قد أمراني هذا الطعام، ولايقولون: أهنأني، والمصدر منه هنا، مرا، وقد مرؤ هذا الطعام مرا، ويقال: هنأت القوم إذا علتهم، وهنأت فلانا المال إذا وهبته له، أهنؤه هنا، ومنه قولهم: انما سميت هانيا لتهنا، أي: لتعطي، ومعنى قوله: (فان طين لكم عن شئ منه) يعني من المهر، و " من ههنا ليست للتبعيض وانما معناه لتبيين الجنس، كما قال (فاجتنبوا الرجس من الاوثان) (٥)

(١) قائله علقمة بن عبدة (علقمة الفحل) ديوانه: ٢٧، وشرح المفضليات: ٧٧٧، وسيبويه ١: ١٠٧ من قصيدة في الحارث بن جبلة بن أبي شمر الغساني حين أسر أخاه شأسا، فرحل اليه علقمة يطلب فكه. وقوله: (بها حيف الحسرى) الضمير راجع إلى المطلوب في البيت السابق، وهي آثار الطريق، والصليب الودك الذي يسيل من جلودها بعد موتها.

(٢) سورة الكهف: آية ١٠٤. (٣) قائله دريد بن الصمة. اللسان (نقب) والاعاني ١٠: ٢٢، والشعر والشعراء ٣٠٢. والنقب - بضم النون وسكون القاف وفتحها - جمع نقبه، أول الجرب حين يبدو.
(٤) سورة الحج: آية ٣٠.

(١١٢)

ولو وهبت له المهر كله لجاز، وكان حالاً بلاخلاف. واستدل أبو علي بهذه الآية على أن لولي اليتيمة الذي هو غير الاب أن يزوج اليتيمة، أو يتزوجها قبل أن تحيض، أو يكمل عقلها، بأن (١) قال الخطاب في قوله: (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى) متوجه إلى الاولياء الذين كانوا يتخرجون من العقد على اليتامى اللاتي لهم عليهن ولاية، خوفاً من الجور، فقال الله لهم: ان خفتك من العقد على أربع فعلى ثلاث، أو اثنتين، أو واحدة، أو ما ملكت أيمانكم من سوهن، ثم أمرهم باعطائهن المهر، ثم قال: (فان طبن لكم) يعني الأزواج الذين هم الاولياء، " عن شئ " من ذلك، " فكلوه هنيئاً مريئاً " وهذا الذي قاله ليس بصحيح، لانه لا يسلم له أولاً أنه خطاب للاولياء، فما الدليل على ذلك ثم إن عندنا وعند الشافعي ليس لاحد من الاولياء أن يزوج الصغيرة إلا الاب (٢)

خاصة فكيف يسلم له ما قاله؟ ومن قال: يجوز ذلك، قال: يكون العقد موقوفاً على بلوغها ورضاها، فان لم ترض كان لها الفسخ، فعلى كل حال لا يصح ما قاله.
قوله تعالى:

(ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفاً) (٥) - آية - .

القرأة، والمعنى:

قرأنافع، وابن عباس، قيمانغير الف. اختلف أهل التأويل فيمن المراد بالسفهاء المذكورين في الآية، فقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، والسدي، والضحاك، ومجاهد، وقتادة، وأبو مالك: إنهم النساء والصبيان، وهو الذي رواه أبو الجارود، عن أبي جعفر (ع) وقال سعيد بن جبير، والحسن

(١) في المطبوعة: فان، وقد صححنا على المخطوطة.

(٢) في المطبوعة: إلى الاب، وهو تحريف.

(١١٣)

وقتادة، في رواية أخرى عنهم: أنهم الصبيان الذين لم يبلغوا فحسب، وقال أبو مالك، معناه: لاتعط ولدك السفية مالك فيفسده الذي هو قيامك وقال ابن عباس في رواية أخرى: إنها نزلت في السفهاء وليس لليتامى في ذلك شيء، وبه قال ابن زيد، وقال أبو موسى الأشعري ثلاثة يدعون فلا يستجيب الله لهم:

رجل كانت له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، وقال: اللهم خلصني منها، ورجل أعطى مالا سفيةا، وقد قال الله: " ولاتؤتوا السفهاء أموالكم "، ورجل له على غيره مال فلم يشهد عليه. وقد روي عن أبي عبد الله (ع) ان السفية شارب الخمر، ومن جرى مجراه، وقال المعتمر بن سليمان، عن أبيه، قال: زعم حضرمي أن المراد به النساء خاصة، وروي ذلك عن مجاهد، والضحاك، وابن عمر، والاولى حمل الآية على عمومها في المنع من اعطاء المال السفية، سواء كان رجلا أو امرأة بالغاً أو غير بالغ.

والسفيه هو الذي يستحق الحجر عليه، لتضييعه ماله، ووضعه في غير موضعه، لان الله تعالى قال عقيب هذه الاوصاف: " وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح، فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم " فامر الاولياء بدفع الاموال إلى اليتامى إذا بلغوا، وأونس منهم رشدا، وقد يدخل في اليتامى الذكور والاناث، فوجب حملها على عمومها.
اللغة:

فأما من حمل الآية على النساء خاصة، فقوله ليس بصحيح، لان فعيلة لا يجمع فعلاء، وانما يجمع فعائل وفعيلات، كغريبة وغرايب وغريبات، وقد جاء: فقيرة وفقراء، ذكره الرماني. فأما الغرباء فجمع غريب المعنى:
وقوله: " أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم "

(١١٤)

اختلفوا في معناه. فقال ابن عباس، وأبو موسى الأشعري، والحسن، وقتادة، ومجاهد، وحضرمي. معناه: لاتؤتوا يأيها الرشد السفهاء من النساء والصبيان - على ما ذكرنا من اختلافهم - " أموالكم التي جعل الله لكم " يعني أموالكم التي تملكونها، فتسلطوهم عليها، فيفسدوها، ويضيعوها، ولكن " ارزقوهم فيها " إن كانوا ممن يلزمكم نفقته، واكسوهم " وقولوا لهم قولا معروفا ". وقال السدي:

معناه: لاتعط امرأتك وولدك مالك، فيكونوا هم الذين ينفقون ويقومون عليك، واطعمهم من مالك، واكسهم. وبه قال ابن عباس، وابن زيد. وقال سعيد ابن جبير: يعني ب " أموالكم " أموالهم، كما قال: " ولاتقتلوا أنفسكم " (١) قال:

واليتامى لاتؤتوهم أموالهم، " و ارزقوهم فيها واكسوهم ". والاولى حمل الآية على الامرين، لان عمومه يقتضي ذلك، فلايجوز أن يعطى السفية الذي يفسد المال، ولااليتيم الذي لم يبلغ، ولاالذي بلغ ولم يؤنس منه الرشد، ولا أن يوصى إلى سفية، ولا يختص ببعض دون بعض، وإنما يكون اضافة مال اليتيم إلى من له القيام بأمرهم، على ضرب من المجاز، أو لانه أراد: لا تعطوا الاولياء ما يخصهم لمن هو سفية (٢) ويجري ذلك مجرى قول القائل لواحد: يا فلان أكلتم أموالكم بالباطل، فيخاطب الواحد بخطاب الجميع، ويريد به أنك وأصحابك أو قومك أكلتم، ويكون التقدير في الآية: " ولاتؤتوا السفهاء أموالكم " التي بعضها لكم، وبعضها لهم، فيضيعوها.

اللغة: وقوله: " التي جعل الله لكم قياما " معناه: ماجعله قوام معاشكم ومعاش سفهائكم، التي بها تقومون قياما، وقيما، وقواما، بمعنى واحد. وأصل القيام: القوام، فقلبت الواو ياء للكسرة التي قبلها، كما قالوا: صمت صياما، وحلت

(١) سورة النساء: آية ٢٨.

(٢) هكذا في المطبوعة والمخطوطة، وهي كما ترى

(١١٥)

حيالا، ومنه: فلان قوام أهله، وقيام أهله. ومنه: قوام الامر وملاكه، وهو اسم. والقيام مصدر. المعنى: وبهذا التأويل قال أبومالك، والسدي، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن زيد. وقوله: (وارزقوهم فيها واكسوهم) اختلفوا في تأويله، فمن قال: عنى بقوله: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) يعني أموال أولياء السفهاء، فانهم قالوا: معناه: وارزقوا أيها الناس سفهاءكم، من نسائكم وأولادكم من أموالكم، طعامهم، وما لا بد لهم منه. ذهب إليه مجاهد، والسدي، وغيرهما ممن تقدم ذكره. ومن قال: إن الخطاب للاولياء، بأن لا يؤتوا السفهاء أموالهم، يعني أموال السفهاء، حمل قوله: " وارزقوهم فيها واكسوهم " على أنه من أموال السفهاء، يعني ما لا بد منه من مؤنهم، وكسوتهم، وإذا حملنا الآية على عمومها، على ما بيناه، فالتقدير: وارزقوا أيها الرشد من خاص أموالكم من يلزمكم النفقة عليه، مما لا بد منه من مؤنة وكسوة، ولاتسلموا إليه إذا كان سفيةا، فيفسد المال. ويا أيها الاولياء، أنفقوا على السفهاء من أموالهم، التي لكم الولاية عليها، قدر ما يحتاجون إليه من النفقة والكسوة. وقوله: (وقولوا لهم قولا معروفا) قال مجاهد، وابن جريج. قولوا لهم، يعني للنساء والصبيان، وهم السفهاء، " قولا معروفا " في البر والصلة. وقال ابن زيد: ان كان السفية ليس من ولدك، ولايجب عليك نفقته، فقل له قولا معروفا، مثل:

عافانا الله وإياك، بارك الله فيك. وقال ابن جريج: معناه: يامعاشر ولالة السفهاء، قولوا قولوا
معروفا للسفهاء، وهو: إن صلحتم ورشدتم، سلمنا إليكم أموالكم، وخلينا بينكم وبينها، فاتقوا الله
في أنفسكم وأموالكم، وما أشبه ذلك، مما هو واجب عليكم، ويحتكم على الطاعة، وينهاكم عن
المعصية. وقال الزجاج: معناه:
علموهم مع إطعامكم إياهم وكسوتكم إياهم، أمر دينهم.

(١١٦)

وفي الآية دلالة على جواز الحجر على اليتيم إذا بلغ، ولم يؤنس منه الرشد، لان الله تعالى
منع من دفع المال إلى السفهاء، وقد بينا أن المراد به أموالهم على بعض الاحوال.
وفي الآية دلالة على وجوب الوصية، إذا كان الورثة سفهاء، لان ترك الوصية بمنزلة إعطاء
المال في حال الحياة إلى من هو سفيه، وإنما سمي الناقص العقل سفيها (١)، وان لم يكن
عاصيا، لان السفه هو خفة الحلم، ولذلك سمي الفاسق سفيها، لانه لا وزن له عند أهل الدين
(٢)، والعلم فتقل الوزن وخفته، ككبر القدر وصغره.
قوله تعالى: (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم
ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل
بالمعروف فاذا دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا) (٦) - آية بلا خلاف -
المعنى:

هذا خطاب لأولياء اليتامى، أمر الله تعالى بأن يختبروا عقول اليتامى في أفهامهم، وصلاحهم
في أديانهم، وإصلاحهم أموالهم. وهو قول قتادة، والحسن، والسدي، ومجاهد، وابن عباس،
وابن زيد. وقد بينا أن الابتلاء معناه الاختبار فيما مضى. وقوله: " حتى إذا بلغوا النكاح "
معناه: حتى يبلغوا الحد الذي يقدر على مجامعة النساء وينزل، وليس المراد الاحتلام، لان
في الناس من

(١) (سفيها) ساقطة من المطبوعة.

(٢) عند (أهل الدين) ساقطة من المطبوعة.

(١١٧)

لايحتلم، أو يتأخر احتلامه، وهو قول أكثر المفسرين: مجاهد، والسدي، وابن عباس، وابن زيد.
ومنهم من قال: إذا كمل عقله، واونس منه الرشد، سلم إليه ماله، وهو الاقوى. ومنهم من قال:
لايسلم إليه حتى يكمل له خمس عشرة سنة، وإن كان عاقلا، لان هذا حكم شرعي، وبكمال
العقل تلزمه المعارف لاغير، وقال أصحابنا: حد البلوغ إما بلوغ النكاح، أو الانبات في العانة،

أوكمال خمس عشرة سنة. وقوله: " فان أنستم منهم رشدا " معناه: فان وجدتم منهم رشدا وعرفتموه، وهو قول ابن عباس.

اللغة: تقول: أنست من فلان خيرا إيناسا وأنست به أنسا: إذا ألفتة. وفي قراءة عبدالله: فان أحسيتم يعني أحسستم، أي وجدتم، والاصل فيه: أبصرتم. ومنه قوله: " أنس من جانب الطور نارا " (١) أي أبصر، ومنه أخذ انسان العين، وهو حدقتها التي يبصر بها.

المعنى:

واختلفوا في معنى الرشد (٢)، فقال السدي، وقتادة: معناه عقلا ودينا وصلاحا. وقال الحسن (٣)، وابن عباس: معناه: صلاحا في الدين، وإصلاحا للمال. وقال مجاهد، والشعبي: معناه العقل. قال: لا يدفع إلى اليتيم ماله، وإن أخذ بلحيته، وإن كان شيخا، حتى يؤنس منه رشده: العقل. وقال ابن جريج:

صلاحا، وعلمما بما يصلحه.

والاقوى أن يحمل على أن المراد به العقل، وإصلاح المال، على ما قال ابن عباس، والحسن، وهو المروي عن أبي جعفر (ع)، للاجماع على أن من يكون كذلك لا يجوز الحجر في ماله، وإن كان فاجرا في دينه، فاذا كان ذلك اجماعا " (هامش) " (١) سورة القصص: آية ٢٩.

(٢) (واختلفوا في معنى الرشد) ساقطة من المطبوعة.

(٣) (الحسن) ساقط من المطبوعة.

(١١٨)

فكذلك إذا بلغ، وله مال في يدوصي أبيه أو في يد حاكم قد ولي ماله، وجب عليه أن يسلم إليه ماله، إذا كان عاقلا، مصلحا لما له، وإن كان فاسقا في دينه. وفي الآية دلالة على جواز الحجر على العاقل، إذا كان مفسدا في ماله، من حيث أنه إذا كان عند البلوغ يجوز منعه المال إذا كان مفسدا له، فكذلك في حال كمال العقل إذا صار بحيث يفسد المال، جاز الحجر عليه، وهو المشهور في أخبارنا.

ومن الناس من قال: لا يجوز الحجر على العاقل، ذكرناه في الخلاف.

وقوله: (فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا) فهو خطاب لأولياء اليتيم، أمرهم الله تعالى إذا بلغ اليتيم، وأونس منه الرشد، على ما فسرناه، أن يسلم إليه ماله، ولا يحبس عنه. وقوله: (ولا تأكلوها إسرافا) معناه بغير ما أباحه الله لكم. وقال الحسن، والسدي: الإسراف في الأكل. وأصل الإسراف تجاوز الحد المباح إلى ما لم يبيح، وربما كان ذلك في الإفراط، وربما

كان في التقصير غير أنه إذا كان في الإفراط يقال منه: أسرف يسرف إسرافاً، وإذا كان في التقصير يقال: سرف يسرف سرفاً، يقال: مررت بكم فسرفتكم، يريد: فسهوت عنكم، واخطأتكم، كما قال الشاعر:

اعطوا هنيذة يحدوها ثمانية * ما في عطائهم من ولا سرف (١)

يعني لاخطأفيه، يريد أنهم يصيبون مواضع العطاء فلا يخطونها. وقوله:

" وداراً أن يكبروا " فالبدار والمبادرة مصدران، فهى الله تعالى أولياء اليتامى أن يأكلوا أموالهم اسرافاً بغير ما أباح الله لهم أكله، ولا مبادرة منكم بلوغهم، وإيناس الرشد منهم، حذراً أن يبلغوا، فيلزمكم تسليمه إليهم، وبه قال ابن عباس، وقتادة، والحسن، والسدي، وابن زيد.

(١) قائله جرير ديوانه ٢: ١٥ واللسان (هند) و (سرف) وهومن قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك، ويهجو آل المهلب. قوله: (هنيذة) اسم لكل مئة من الأبل، و (هنيذ) لا يصرف ولا يدخل عليه الألف واللام ولا يجمع وليس له واحد من جنسه. و (ثمانية) أي ثمانية من العبيد: وكان في المخطوطة والمطبوعة (عطاءكم) وهو مناسب في المعنى ولكن لم أجد أحد يرويه إلا (عطائهم).

(١١٩)

وأصل البدار الامتلاء. ومنه البدر القمر، لامتلائه نورا، والبدرة:

لامتلائها بالمال، والبيدر: لامتلائه بالطعام، وموضع " أن " نصب بالمبادرة، والمعنى:

لأتأكلوها مبادرة كبرهم. وقوله: (ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف " يعني: من كان غنيا من ولاية أموال اليتامى فليستعفف بماله عن أكلها، وبه قال ابن عباس، وإبراهيم. وقوله: (ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) قال عبيدة: معناه القرض، وهو المروي عن أبي جعفر (ع)، ألا ترى أنه قال: (فاذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم)

" ومن كان فقيرا " فاختلفوا في الوجه الذي يجوز له أكل مال اليتيم به إذا كان فقيرا، وهو المعروف، فقال سعيد بن جبيرة، وعبيدة السلماني، وأبو العالية، وأبو وائل، والشعبي، ومجاهد، وعمر بن الخطاب: هو أن يأخذه قرضا على نفسه فيما لا بد له منه، ثم يقضيه، وبيننا أنه المروي عن أبي جعفر (ع). وقال الحسن، وإبراهيم، ومكحول، وعطاء بن أبي رباح: يأخذ ماسد الجوعة، ووارى العورة، ولا قضاء عليه، ولم يوجبوا أجره المثل، لأن أجره المثل ربما كانت أكثر من قدر الحاجة. والظاهر في أخبارنا أن له أجره المثل، سواء كان قدر كفايته، أو لم يكن. وسئل ابن عباس عن ولي يتيم له إيل هل له أن يصيب من ألبانها؟ فقال: إن كنت تلوط حوضها، وتهنأ جرباها، فأصبت من رسلها، غير مضر بغسل ولانهاكه في الحلب.

معنى تلوط حوضها: تطينه، وتهناً جرباها، معناه: تظليها بالهناء، وهو الخضخاض، ذكره الازهري، والرسل اللين، والنهك: المبالغة في الحلب. واختلفوا في هل للفقير من ولي اليتيم أن يأكل من ماله هو وعياله، فقال عمرو بن عبيد: ليس له ذلك، لقوله: " فليأكل بالمعروف " فخصه بالاكل، وقال الجبائي: له ذلك لان قوله: " بالمعروف " يقتضي أن يأكل هو وعياله، على ما جرت به العادة في أمثاله، وقال إن كان المال واسعا كان له أن يأخذ قدر كفايته، له ولمن يلزمه نفقته من غير اسراف، وإن كان قليلا كان له أجره المثل

(١٢٠)

لاغير، وإنما لم يجعل له أجره المثل إذا كان المال كثيرا، لانه ربما كان أجره المثل أكثر من نفقته بالمعروف، وعلى ما قلناه من أن له أجره المثل سقط هذا الاعتبار وقوله: (فاذا دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا عليهم) خطاب لاولياء اليتامى، إذا دفعوا أموال اليتامى إليهم، أن يحتاطوا لانفسهم بالاشهاد عليهم، لئلا يقع منهم جحود، ويكونوا أبعد من التهمة، وسواء كان ذلك في أيديهم، أو استقرضوه ديناعلى نفوسهم، فان الاشهاد يقتضيه الاحتياط، وليس بواجب. وقوله:

(كفى بالله حسيبا) معناه: كفى الله، والباء زائدة، وقال السدي: معناه: شهيدا ههنا، وقيل: معناه: وكفى بالله كافيا من الشهود، ولان أحسبني معناه: كفاي، والمعنى: وكفى بالله شهيدا في الثقة بايصال الحق إلى صاحبه والمحسب من الرجال المرتفع النسب. والمحسب، المكفى. وولي اليتيم الأمور بابتلائه، وهو الذي جعل إليه القيام به، من وصي، أو حاكم، أو أمين،، ينصبه الحاكم. وأجاز أصحابنا الاستقراض من مال اليتيم إذا كان مليا، وفيه خلاف.

قوله تعالى: (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا)

(٧) - آية بلاخلاف -.

النزول:

اختلفوا في سبب نزول هذه الآية، فقال قتادة، وابن جريج، وابن زيد: إن أهل الجاهلية كانوا يورثون الذكور دون الاناث، فنزلت هذه الآية ردا لقولهم. وقال الزجاج: كانت العرب لاتورث إلا من طاعن بالرماح، وذاد عن الحریم والمال، فنزلت هذه الآية ردا عليهم، وبين أن للرجال نصيبا مما ترك الوالدان والاقربون، " وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون، مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا " يعني حظا مفروضا، قال الزجاج: مفروضا. نصب على الحال،

(١٢١)

وقال غيره: هو اسم في موضع المصدر، كقولك قسما واجبا، وفرضا لازما، ولو كان اسما ليس فيه معنى المصدر، لم يجوز قولك: عندي حق درهما، ويجوز: لك عندي درهم هبة مفترضة (١) وأصل الفرض الثبوت، والفرض: الحز في سية القوس حيث يثبت الوتر، والفرض: ما أثبتته على نفسك من هبة أو صلة، والفرض: إيجاب الله عزوجل على العبد ما يلزمه فعله لاثباته عليه، والفرض:

جند يفترضون، والفرض: ما أعطيت من غير قرص، لثبوت تملكه، والفرض: ضرب من التمر. والفارض المسنة، والفرضة: حيث ترمي (٢) السفن من النهر وكل ضخم فارض، والفرق بين الفرض والوجوب أن الفرض هو الايجاب، غير أن الفرض يقتضي فارضا فرضه، وليس كذلك الواجب لأنه قد يجب الشيء في نفسه من غير إيجاب موجب، ولذلك صح وجوب الثواب والعوض على الله تعالى، ولم يجوز فرضه عليه. وأصل الوجوب الوقوع، يقال: وجب الحائط وجوبا فهو واجب، إذا وقع، وسمعت وجبة أي وقعة كالهدة، ومنه " وجبت جنوبها " (٣)

أي وقعت لجنوبها، ووجب الحق وجوبا، إذا وقع سببه، كوجوب رد الوديعة، وقضاء الدين، ووجوب شكر المنعم، ووجوب الاجر، وإنجاز الوعد، ووجب القلب وجيبا إذا خفق من فزع وقعة كالهدة.

وفي الآية دليل على بطلان القول بالعصبة، لان الله تعالى فرض الميراث للرجال والنساء، فلو جاز أن يقال: النساء لا يرثن في موضع، لجاز لآخرين أن يقولوا: والرجال لا يرثون، والخبر المدعى في العصبة خبر واحد، لا يترك له عموم القرآن، لانه معلوم، والخبر مظنون، وقد بينا ضعف الخبر في كتاب تهذيب الاحكام، فمن أراد وقف عليه من هناك.

وفي الآية أيضا دلالة على أن الانبياء يورثون، لانه تعالى عم الميراث للرجال والنساء، ولم يخص، نبيا من غيره، وكما لا يجوز أن يقال: النبي لا يرث،

(١) في المطبوعة: مقبوضة. (٢) في المطبوعة: ترقا.

(٣) سورة الحج: آية ٣٦.

(١٢٢)

لانه خلاف الآية، فكذلك لا يجوز أن يقال: لا يرث، لانه خلافها، والخبر الذي يروون أنه قال: نحن معاشر الانبياء لانورث، ماتركناه صدقة، خبر واحد، وقد بينا مافيه، في غير موضع، وتأولناه، بعد تسليمه.

قوله تعالى:

(وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا)
(٨) - آية بلاخلاف - .

المعنى:

هذه الآية عندنا محكمة، وليست منسوخة، وهو قول ابن عباس، وسعيد ابن جبير، والحسن، وإبراهيم، ومجاهد، والشعبي، والزهري، ويحيى بن يعمر، والسدي، والبلخي، والجبائي، والزجاج، وأكثر المفسرين والفقهاء. وقال سعيد ابن المسيب، وأبو مالك، والضحاك، هي منسوخة، وإرزاك من حضر قسمة الميراث من هذه الاصناف، ليس بواجب، بل هو مندوب إليه، وهو الذي اختاره الجبائي، والبلخي، والرماني، وجعفر بن مبشر، وأكثر الفقهاء والمفسرين. وقال مجاهد: هو واجب، وحق لازم ما طابت به أنفس الورثة. وكل من ذهب إلى أنها منسوخة قال: إن الرزق ليس بواجب، وكذلك من قال أنها في الوصية.

واختلفوا فيمن المخاطب بقوله: "فارزقوهم" فقال أكثر المفسرين: إن المخاطب بذلك الورثة، أمروا بأن يرزقوا المذكورين، إذا كانوا لاسهم لهم في الميراث، وقال آخرون إنها تتوجه إلى من حضرته الوفاة، وأراد الوصية، فانه ينبغي له أن يوصي لمن لا يرثه من هؤلاء المذكورين، بشئ من ماله. وروي هذا القول الاخير عن ابن عباس، وعبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر، وسعيد ابن المسيب، واختار الطبري هذا الوجه، والوجه الاول روي عن ابن عباس، وعبدالله بن الزبير، وأبي موسى الاشعري، وابن سيرين، والحسن، وسعيد بن جبير. قال سعيد بن جبير: إن كان الميت أوصى لهم بشئ أنفذت وصيته، وإن

(١٢٣)

كان الورثة كبارا أرضخوا لهم، وإن كانوا صغارا قال وليهم: إني لست أملك هذا المال، وليس لي، إنما هو للصغار، فذلك قوله: (وقولوا لهم قولا معروفا)

وبه قال السدي، وابن عباس. واختلفوا فيمن المأمور - بقول - (١) المعروف، فقال سعيد بن جبير: أمر الله يقول الولي الذي لا يرث، للمذكورين قولا معروفا، ويقول: إن هذا لقوم غيب أو يتامى صغار، ولكم فيه حق، ولسنا نملك أن نعطيكم منه. وقال قوم: المأمور بذلك الرجل الذي يوصي في ماله، والقول المعروف: أن يدعو لهم بالرزق والغنى، وما أشبه ذلك. وروي عن ابن عباس، وسعيد بن المسيب، وابن زيد: أن الآية في الوصية، على أن يوصوا للقرابة، ويقولوا لغيرهم قولا معروفا. ومن قال إنها على الوجوب، قال: لا يعطي من مال اليتيم شيئا، ويقول قولا معروفا، ذهب إليه ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، والسدي. وروي ابن علي، عن عبيدة، أنه ذبح شاة من مال اليتيم، وقسمه بينهم، وقال: كنت أحب أن يكون من

مالي لولا هذه الآية. وعمل ابن سيرين في مال اليتيم ماعمل عبيدة، وأقوى الاقوال أن يكون الخطاب متوجها إلى الوراث البالغين، لان فيه أمرا بالرزق لمن حضر، ولم يخاطب الله من لايمك أن يخرج من مال غيره شيئا، فكأن الله تعالى حث هؤلاء، ورجبهم في أن يجعلوا للحاضرين شيئا مما يحقهم (٢)، ويقولوا لهم قولا، معروفا، فيصير ردا جميلا، من غير تأفف، ولا تضجر، وكذلك لو قلنا إنها متوجهة إلى الموصي، لكان محمولا على أنه يستحب له أن يوصي لهؤلاء بشئ من ماله، مالم يزد على الثلث، فان لم يختر ذلك قال لهم قولا جميلا، لا يتألمون منه، ولا يغتمون به.

وفي الآية حجة على المجبرة، لانه تعالى قال: " فارزقوهم " وفيه دلالة على أن الانسان يرزق غيره على معنى التمليك، وأن الله لايرزق حراما، لانه لو رزقه لخرج برزقه إياه من أن يكون حراما، ومثله قوله: " وهو خير الرازقين ".

-
- (١) في المطبوعة: لقوله المعروف، وفي المخطوطة: لقوله بالمعروف، وكلاهما تحريف.
(٢) هكذا في المطبوعة والمخطوطة والاولى: مما يلحقهم.

(١٢٤)

قوله تعالى:

(وليشخ الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا)
(٩) - آية بلاخلاف -.

المعنى: قيل في معنى الآية أربعة أقوال:

أحدها - النهي عن الوصية بمايجحف بالورثة، ويضر بهم، هذا قول ابن عباس، في بعض الروايات، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، والضحاك، ومجاهد.
الثاني - قال الحسن: كان الرجل يكون عند الميت فيقول: أوص بأكثر من الثلث من مالك، فنهاء الله عن ذلك.

الثالث - روي عن ابن عباس: أنه خطاب لولي مال اليتيم، يأمره بأداء الامانة فيه، والقيام بحفظه، كما لو خاف على مخلفيه، إذاكانوا ضعافا، وأحب أن يفعل بهم.

الرابع - قال مقسم: هي في حرمان نوي القربى أن يوصي لهم، بأن يقول الحاضر للوصية: لاتوص لاقاربك، ووفر على ورتنتك.

اللغة:

والذرية: على وزن فعلية، منسوبة إلى الذر، ويجوز أن يكون أصلها ذرورة، لكن الرأ أبدلت ياء، وأدغمت الواو فيها، وهي بضم الذا، ويجوز فيها كسرهما، وقد قرئ به في الشواذ، ومن

كسر الذال فلكسرة الراء، كما قالوا في عنى عتي، وعصي، وضعاف: جمع ضعيف وضعيفة، كقولك: ظريف وظريفة وظراف، وخبيث وخباث، ويجمع أيضا ضعفاء. وأصل الضعاف من الضعف، وهو النقص في القوة، ومنه المضاعف، لأنه ينفي الضعف، ومنه الضعف. وقوله: (فليتقوا الله) يعني: فليتقوا معاصيه، (وليقولوا قولا سديدا)

(١٢٥)

وهو السليم من خلل الفساد، وذلك الحق بالدعاء إلى العدل في القسم بما لا يجحف بالورثة، ولا يحرم ذوي القربي، وأصل السديمن سد الخلل، تقول: سدته أسده سدا، والسداد: الصواب، والسداد - بكسر السين - من قولهم: فيه سداد من عوز، وسدد السهم: إذا قومه، والسد الردم، والسدة في الانف.

المعنى:

ومعنى الآية، أنه ينبغي للمؤمن الذي لو ترك ذرية ضعافا بعد موته، خاف عليهم الفقر والضياع، أن يخشى على ورثة غيره من الفقر والضياع، ولا يقول لمن يحضر وصيته أن يوصي بما يضر بورثته، وليتق الله في ذلك، وليتق الأضرار بورثة المؤمن، وليقل قولا سديدا، ولذلك نهى النبي (صلى الله عليه وآله) أن يوصى بأكثر من الثلث، وقال: " والثلث كثير " وقال لسعد " لان تدع ورثتك أغنياء أحب الي من أن تدعهم عالة يتكفون الناس بأيديهم ".
قوله تعالى:

(إن الذين يأكلون أموال اليتامي ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا)
(١٠) - آية - .

القراءة والحجة:

قرأ ابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم: وسيصلون - بضم الياء - الباقون، بفتحها، والفتح أقوى، لقوله: " لا يصلها إلا الأشقى " (١) وقوله: " إلا من هو صال الجحيم " (٢) ومن ضم الياء ذهب إلى أصلاه الله إذا أحرقه بالنار.
المعنى:

وإنما علق الله تعالى الوعيد في الآية لمن يأكل أموال اليتامى ظلما، لأنه قد

(١) سورة الليل: آية ١٥. (٢) سورة الصافات: آية ١٦٣.

(١٢٦)

يأكله على وجه الاستحقاق، بأن يأخذ منه أجره المثل، على ما قلناه. أو يأكل منه بالمعروف على ما فسرناه، أو يأخذه قرضا على نفسه، فان قيل: إذا أخذه قرضا على نفسه، أو أجره

المثل، فلا يكون أكل مال اليتيم، وإنما أكل مال نفسه. قلنا: ليس الأمر على ذلك، لأنه يكون أكل مال اليتيم، لكنه على وجه التزم عوضه في ذمته، أو استحققه بالعمل في ماله، فلم يخرج بذلك من استحقاق الاسم بانه مال اليتيم، ولو سلم ذلك، لجاز أن يكون المراد بذلك ضرباً من التأكيد وبيانا، لأنه لا يكون أكل مال اليتيم إلا ظلماً. ونصب ظلماً على المصدر، وتقديره: إن من أكل مال اليتيم فانه يظلمه ظلماً. وقوله: (إنما يأكلون في بطونهم نارا) قيل في معناه وجهان:

أحدهما - ماقاله السدي من أن من أكل مال اليتيم ظلماً يبعث يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه، ومن مسامعه، ومن أذنيه وأنفه وعينه، يعرفه من رآه. بأكل مال اليتيم. الثاني - أنه على وجه المثل، من حيث أن فعل ذلك يصير إلى جهنم، فتمتلئ بالنار أجوافهم، عقاباً على ذلك الأكل منهم، كما قال الشاعر:

وان الذي اصبحتم تحلبونه * دم غير أن اللون ليس باحمر
يصف أقواماً أخذوا الأبل في الدية، يقول: فالذي تحلبون من ألبانها ليس لبناً، إنما هو دم القتيل.
اللغة:

وقوله: (وسيصلون سعيراً) فالصلا لزوم النار، للاحراق، أو التسخن، أو الانضاج، يقال: صلي بالنار يصلى صلا بالقصر، قال العجاج:
وصاليات للصلا صلي (١)
ويقال الصلا بالكسر والمد، قال الفرزدق:

(١) ديوانه: ٦٧ من أرجوزته المشهورة.

(١٢٧)

وقاتل كلب الحي عن نار أهله * ليربض فيها والصلا متكنف (١)
واصطلى صلى بالنار اصطلاء، وأصليته النار اصطلاء، إذا القيته فيها. وفي التنزيل: " فسوف نصليه نارا " (٢) والصالي بالشر الواقع فيه قال الشاعر:
لم اكن من جناتها علم الله * واني بحرها اليوم صالي (٣)
ومنه شاة مصلية، أي مشوية. والسعير بمعنى مسعورة، مثل كف خضيب، بمعنى مخضوبة، والسعر اشعال النار تقول سعرتها أسعرها سعرا. ومنه قوله:
" وإذا الجحيم سعرت " (٤) واستعرت النار في الحطب استعارا، واستعرت الحرب والشر استعارا، ومنه سعر السوق، لاستعارها به في النفاق.

المعنى:

وأكل مال اليتيم على وجه الظلم، وغصبه متساويان في توجه الوعيد إليه، ولا يدل على مثل ذلك في غير مال اليتيم، لأن الزواجر عن مال اليتيم أعظم. وقال الجبائي: هماسواء، ومن غصب من مال اليتيم خمسة دراهم فإن الوعيد يتوجه إليه وقال الرماني: لا يتوجه إليه، لأن أقل المال متناذرهم. وقال الجبائي: يلزمه كما يلزم مانع الزكاة. وقال الرماني: هذا ليس بصحيح، لأنه يجوز أن يكون منع الزكاة أعظم، وما قلناه أولاً أولى بعموم الآية. وقوله: لا يسمى المال إلا متناذرهم دعوى محضنة، لا برهان عليها.

قوله تعالى:

(يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن

(١) ديوانه: ٥٦ والنقائض ٥٦١ واللسان (صلا) والمعنى: إن الكلب يزاحم أهل الحي على النار وهم متجمعون - متكفون - عليها من شدة البرد.

(٢) سورة النساء: آية ٢٩.

(٣) قاتله الحارث بن عباد البكري الاصمعيات ٦٧ القصيدة ١٧، وحماسة البحتري ٣٣ والكامل لابن الأثير ١: ٢٢٠ وخزانة الادب ١: ٢٢٥ وغيرها. وقد مر البيت في ١: ١٩٥ من هذا الكتاب.

(٤) سورة التكوير: آية ١٢.

(١٢٨)

كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين أبائكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة من الله إن الله كان عليماً حكيماً (١١) - آية بلاخلاف - .
القراءة والحجة:

قرأ ابن عامر، وابن كثير، وأبو بكر، عن عاصم: يوصى - بفتح الصاد - الباؤون بكسرهما، وهو الاقوى، لقوله: "مما ترك إن كان له ولد" فتقدم ذكر الميت، وذكر المفروض مما ترك (١)، ومن فتحها فلأنه ليس لميت معين، وإنما هو شائع في الجميع.

سبب النزول والقصة:

وقيل في سبب نزول هذه الآية قولان:

أحدهما - قال السدي، وابن عباس: إن سبب نزولها، أن القوم لم يكونوا يورثون النساء والبنات والبنين الصغار، ولم يورثوا إلا من قاتل وطاعن، فأنزل الله الآية، وأعلمهم كيفية

الميراث. وقال عطاء، عن ابن عباس، وابن جريج، عن مجاهد، عن ابن عباس، إنهم كانوا يورثون الولد، وللوالدين الوصية، فنسخ الله ذلك. وقال محمد بن المنكدر، عن جابر، قال: كنت عليلاً مدنفاً، فعاده النبي (صلى الله عليه وآله)، ونضح الماء على وجهه فأفاق، وقال: يارسول الله، كيف أعمل

(١) في المطبوعة (ماترك)

(١٢٩)

في مالي: فأنزل الله الآية. وروي عن ابن عباس قال: كان المال للولد، والوصية للوالدين والاقربين، فنسخ (١) ذلك بهذه الآية.
المعنى:

وهذه الآية عامة في كل ولد يتركه الميت، وإن المال بينهم للذكر مثل حظ الانثيين، وكذلك حكم البنت والبنيتين. والبنت (٢) لها النصف، ولهما الثلثان على كل حال، إلا من خصه الدليل من الرق، والكفر، والقتل، فإنه لاخلاف أن الكافر، والمملوك، والقاتل عمداً، لا يرثون، وإن كان القاتل خطأً، فقيه الخلاف وعندنا يرث من المال دون الدية. فأما المسلم فإنه عندنا يرث الكافر، وفيه خلاف، ذكرناه في مسائل الخلاف، والعبد لا يرث لأنه لا يملك شيئاً، والمرث لا يرث وميراثه لورثته المسلمين، وهذا قول علي (ع). وقال سعيد بن المسيب: نرثهم ولا يرثونا وبه قال معاوية، والحسن، وعبدالله بن معقل، ومسروق وقوله (صلى الله عليه وآله)

" لا يوارث أهل ملتين " معناه: لا يرث كل واحد منهما صاحبه، فإنا نقول: المسلم يرث الكافر، والكافر لا يرث المسلم، فلم تثبت حقيقة التوارث بينهما.

ومعنى: " يوصيكم الله " فرض عليكم، لأن الوصية من الله فرض، كما قال: " ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به " (٣) يعني فرض، عليكم، ذكره الزجاج، وإنما لم يعد قوله: " يوصيكم " إلى (مثل) فينصبه، لأنه كالقول في حكاية الجملة بعده، والتقدير: قال الله: " في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين " ولأن الغرض بالآية الفرق بين الموصى به والموصى له، في نحو أوصيت زيدا بعمره.

وقوله: (فإن كن نساء فوق اثنتين) فالظاهر يقتضي أن الثنتين لا يستحقان الثلثين، وإنما يستحق الثلثان إذا كن فوق اثنتين، لكن أجمعت الأمة أن حكم البنيتين حكم من زاد عليهما من البنات، فتركنا له الظاهر. وقال أبو العباس المبرد،

(١) في المطبوعة (فمنسخ بهذه الآية) باسقاط ذلك.

(٢) (والبنت) ساقطة من المطبوعة.

(١٣٠)

واختاره إسماعيل بن اسحاق القاضي: إن في الآية دليلا على أن للبنتين الثلثين، لانه إذاقال: (للذكر مثل حظ الانثيين) وكان أول العدد ذكرا وأنثى، للذكر الثلثان وللانثى الثلث علم من ذلك أن للبنتين الثلثين، وأعلم الله أن مافوق البنتين لهن، الثلثان. وحكى الزجاج عن قال: ذلك معلوم، بقوله تعالى: (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك) (١)

فجعل للاخت النصف، كما جعل للبنت النصف، ثم قال: (فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان) (٢) فأعطيت البنتان الثلثين (٣)، كما أعطيت الاختان الثلثين وأعطيت جملة الاخوات الثلثين، فكذلك جملة البنات. وذكر عن ابن عباس: أن البنتين بمنزلة البنت، وإنما استحق الثلثين الثلاث بنات فصاعدا. وحكى النظام، في كتاب النكت، عن ابن عباس: أن للبنتين نصفا وقيراطا، قال: لان للبنت الواحدة النصف، وللثلاث بنات الثلثين، فينبغي أن يكون للبنتين ما بينهما، ثم يشتركان في النصف وقيراط بالسوية. وقوله: (وإن كانت واحدة فلها النصف " يدل على أن فاطمة (ع) كانت مستحقة للميراث، لانه عام في كل بنت، والخبر المدعي في أن الانبياء لا يورثون خبر واحد، لا يترك له عموم الآية لانه معلوم لا يترك بمظنون. وقوله:

(ولابويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد) ليس في ذلك خلاف، وكذلك إن كان واحد من الابوين مع الولد، كان له السدس بالتسمية، بلاخلاف، ثم ينظر، فإن كان الولد ذكرا، كان الباقي للولد واحدا كان أو أكثر، بلا خلاف، وكذلك إن كانوا ذكورا واناثا فالمال بينهم، " للذكر مثل حظ الانثيين " وإن كانت بنتا كان لها النصف، ولاحد الابوين السدس، والباقي عندنا يرد على البنت وأحد الابوين على قدر سهامهما، أيهما كان، لان قرابتهما سواء، ومن خالفنا يقول: إن كان أحد الابوين اباكان الباقي له، لانه عصبية وإن كانت أما ففيهم من يقول بالرد على البنت وعلى الام ومنهم من يقول: الباقي لبنت المال،

(١، ٢) سورة النساء: آية ١٧٥.

(٣) في المخطوطة والمطبوعة (اعطيت البنتين الثلثان) وهو؟.

(١٣١)

وإنما رددنا عليهما لقوله: (وألوا الارحام بعضهم أولى ببعض) (١) وههنا هما متساويان، لان البنت تتقرب بنفسها إلى الميت، فكذلك أحد الابوين، والخبر المدعي في أن ماأبقت الفرائض فلاولي عصبية ذكر، خبر ضعيف، بينا وجهه في تهذيب الاحكام، لا يخص به عموم القرآن.

وقوله (فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلامه الثلث) فمفهومه أن الباقي للاب وليس فيه خلاف، فان كان في الفريضة زوج كان له النصف، ولام الثلث بالظاهر، وما بقي فلاب.
ومن قال: للام ثلث ما يبقي، فقد ترك الظاهر، وبمثل ماقلناه قال ابن عباس، فان كان بدل الزوج زوجة، كان الامر مثل ذلك، للزوجة الربع، ولام الثلث، والباقي للاب، وبه قال ابن عباس، وابن سيرين.

قوله: (فان كان له إخوة فلامه السدس) ففي أصحابنا من يقول: إنما يكون لها السدس إذا كان هناك أب لان التقدير: فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلامه الثلث، فان كان له إخوة وورثه أبواه فلامه السدس، ومنهم من قال: إن لها السدس مع وجود الاخوة، سواء كان هناك أب أو لم يكن، وبه قال جميع الفقهاء، غير أنا نقول: إن كان هناك أب، كان الباقي للاب، وإن لم يكن أب كان الباقي ردا على الام، ولايرث - أحد من الاخوة والاخوات مع الام شيئا، سواء كانوا من قبل أب وأم أو من قبل أب، أو من قبل أم - على حال، لان الام أقرب منهم بدرجة، ولا يحجب عندنا من الاخوة إلا من كان من قبل الاب والام، أو من قبل الاب، فأما من كان من قبل الام فحسب، فانه لا يحجب على حال، ولا يحجب أقل من أخوين، أو أخ وأختين، أو أربع أخوات، فأما الاختان فلا يحجبان على حال، وخالفنا جميع الفقهاء في ذلك فأما الاخوان (٢)

فلا خلاف أنه تحجب بهما الام عن الثلث إلى السدس، إلا ما قال ابن عباس: أنه لا يحجب بأقل من ثلاثة، لقوله: " إخوة " والثلاثة أقل الجمع، وحكي عن

(١) سورة الانفال: آية ٧٥.

(٢) في المطبوعة (الاخوات).

(١٣٢)

ابن عباس أيضا: أن ما يحجبه الاخوة من سهم الام من الثلث إلى السدس، يأخذه الاخوة دون الاب، وذلك خلاف ما أجمعت الامة عليه، لانه لاخلاف أن أحدا من الاخوة لا يستحق مع الابوين شيئا، وإنما قلنا إن اخوة بمعنى أخوين للاجماع من أهل العصر على ذلك، وأيضا فانه يجوز وضع لفظ الجمع في موضع التنبيه إذا اقترنت به دلالة، كما قال: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) (١)

ويقول القائل: ضربت الرجلين رؤسهما، ومن أخويك ظهورهما.

فان قيل: لم حجب الاخوة الام من غير أن يرثوا مع الاب؟ قلنا: قال قتادة: معونة للاب، لانه يقوم بنفقتهم، ونكاحهم، دون الام، وهذا بعينه رواه أصحابنا، وهو دال على أن الاخوة من الام

لا يحببون، لان الاب لا يلزمه نفقتهم على حال، وقوله: (أباؤكم وأبناؤكم لا تدرنون أيهم أقرب لكم نفعا) معناه: لا تعلمون أيهم أقرب لكم نفعا في الدين والدنيا، والله يعلمه، فاقسموه على ما بينه من يعلم المصلحة فيه. وقال بعضهم: الاب يجب عليه نفقة الابن إذا احتاج إليها، وكذلك الابن يجب عليه نفقة الاب مع الحاجة، فهما في النفع في هذا الباب سواء، لا تدرنون أيهم أقرب نفعا. وقيل: لا تدرنون أيكم يموت قبل صاحبه، فينتفع الآخر بماله.

فان قيل: كيف قدم الوصية على الدين في هذه الآية وفي التي بعدها، مع أن الدين يتقدم عليها بلا خلاف؟ قلنا: لان (أو) لا توجب الترتيب، وإنما هي لاحد الشئيين، فكأنه قال: من بعد أحد هذين، مفردا أو مضموما إلى الآخر كقولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين، أي جالس أحدهما مفردا أو مضموما إلى الآخر ويجب البداية بالدين، لانه مثل رد الوديعة التي يجب ردها على صاحبها، فكذلك حال الدين، وجب رده أولا، ثم يكون بعده (٢) الوصية، ثم الميراث. وما قلنا اختاره الجبائي، والطبري، وهو المعتمد عليه في تأويل الآية. وقوله:

(١) سورة التحريم: آية ٤.

(٢) في المطبوعة (هذه) بدل (بعده)

(١٣٣)

(فريضة من الله) نصب على الحال من قوله: (لا يويه) وتقديره: فلهؤلاء الورثة ما ذكرناه مفروضا، ف " فريضة " مؤكدة لقوله: " يوصيكم الله " هذا قول الزجاج، وقال غيره: هو نصب على المصدر من قوله: (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين) فرضا مفروضا. وقال غيره: يجوز أن يكون نصبا على التمييز من قوله: (فلامه السدس) فريضة، كما تقول: هولك صدقة، أو هبة.

والثلث، والرابع، والسدس، يجوز فيه التخفيف والتنقيح، فالتخفيف لنقل الضمة، وقال قوم: الاصل فيها التخفيف، وإنما نقل للاتباع، قال الزجاج: هذا خطأ لان الكلام وضع على الايجاز بالتخفيف عن التنقيح.

وقوله: (إن الله كان عليما حكيما) قيل (١) في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال سيبويه: كان القوم شاهدوا علما: وحكمة، ومغفرة، وتفضلا، فقيل لهم: (إن الله كان عليما حكيما) لم يزل على ما شاهدتم عليه (٢).

والثاني - قال الحسن: كان الله عليما بالاشياء قبل حدوثها، حكيما فيما يقدره ويدبره منها.

الثالث - قال بعضهم: الخبر عن هذه الاشياء بالمضي، كالخبر بالاستقبال والحال، لان الاشياء عند الله على كل حال فيما مضى وما يستقبل.

وإنما قال في تنحية الاب والام: أبوان تغليبا للفظ الاب، ويقال أيضا للام أبة، ولايلزم على ذلك أن يقال: في ابن وابنة: إبنان، لانه يوهم، فان لم يوهم جاز ذلك ذكره الزجاج. قوله تعالى:

(ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو

(١) المطبوعة (فيدخل) بدل (قيل).

(٢) هكذا في المخطوطة والمطبوعة والعبارة فيها ما ترى.

(١٣٤)

دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حلیم (١٢) - آية بلاخلاف -.

قوله: (ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد) لاخلاف أن للزوج نصف ماتترك الزوجة إذا لم يكن لها ولد، فان كان لها ولد فله الربع أيضا بلاخلاف سواء كان الولد منه أو من غيره، وإن كان ولد لايرث لكونه مملوكا، أو كافرا، أو قاتلا، فلا يحجب الزوج من النصف إلى الربع، ووجوه كعدمه.

وكذلك حكم الزوجة، لهاالربع إذا لم يكن المزوج ولد، على ما قلناه في الزوجة سواء، فان كان له ولد، كان لها الثمن، وما تستحقه الزوجة إن كانت واحدة فهو لها، وإن كن اثنتين أو ثلاثا أو أربعا لم يكن لهن أكثر من ذلك بلاخلاف، ولا يستحق الزوج أقل من الربع في حال من الاحوال، ولا الزوجة أقل من الثمن على وجه من الوجوه، ولايدخل عليهما النقصان، وكذلك الابوان لاينقصان في حال من الاحوال من السدسين، لان العول عندنا باطل على مابيناه في مسائل الخلاف. وكل من ذكر الله له فرضا، فانما يستحقه إذاخرج من التركة الكفن، والدين، والوصية، فان استغرق الدين المال لم تنفذ الوصية، ولا ميراث، وإن بقي نفذت الوصية، مالم تزدد على ثلث ما يبقي بعد الدين، فان زادت ردت إلى الثلث.

وقوله: (وإن كان رجل يورث كلاله أو امرأة وله أخ أو أخت) يعني من الام، بلاخلاف.

(١٣٥)

الاعراب:

" وكلاتة " نصبه يحتمل أمرين:

أحدهما - على أنه مصدر وقع موقع الحال، وتكون كان تامة، وتقديره: يورث متكلم النسب كاللة.

والثاني - بأن يكون خبركان، ذكره الرماني، والبلخي، وتقديره " فان كان " (رجل) إسم كان ويورث: صفته. وكلالة خبره. والاول هو الوجه، لان (يورث) هو الذي اقتضى ذكر الكلالة، كما تقول: يورث هذا الرجل كاللة، بخلاف من يورث ميراث الصلب، ويورث كاللة عصابة وغير عصابة.

المعنى:

واختلفوا في معنى الكلالة، فقال أبوبكر وعمر، وابن عباس، وابن زيد، وقتادة، والزهرري، وابن اسحاق: هوماعدا الوالد والولد (١). وروي عن ابن عباس في رواية أخرى، أن الكلالة ما عدا الولد (٢)، وورث الاخوة من الام السدس مع الابوين، وهذاخلاف إجماع أهل الاعصار. وقال ابن زيد:

الميت يسمى كاللة. وقال جابر، وابن زيد: من عدا الوالد والولد من الورثة يسمى كاللة، فعلى هذا يسمى الزوج والزوجة كاللة، وقال قوم: الكلالة هوالميت الذي لاولدله، ولاوالد. وعندنا أن الكلالة هم الاخوة والاخوات، فمن ذكر في هذه الآية هومن كان من قبل الام، ومن ذكر في آخر السورة فهو من قبل الاب والام، أو من قبل الاب. اللغة:

وأصل الكلالة: الاحاطة، فمنه الاكليل، لاحاطته بالرأس، ومنه الكل

(١، ٢) في المخطوطة (ماعدا الولد) في الموضوعين.

(١٣٦)

لاحاطته بالعدد، والكلالة لاحاطتها بأصل النسب الذي هو الولد والوالد، ومنه الكلال، لانه تعب قد أحاط.

وقال أبو مسلم: أصلها من كل إذا أعياء، فكأنه تناول الميراث من بعد على كلال وإعياء. وقال الحسين بن علي المغربي: أصله عندي ما تركه الانسان وراء ظهره، مأخوذا من الكلالة، وهي مصدر الاكل، وهو الظهر، وقال: قرأت على أبي أسامة في كتاب الجيم، لابي عمرو الشيباني: تقول العرب: ولاني فلان أكله على وزن أظله، أي: ولاني ظهره، قال وهذا الاسم تعرفه العرب، وتخبر به عن جملة النسب والوراثة، قال عامر بن الطفيل:

وأني وان كنت ابن فارس عامر * وفي السر منها والصريح المهذب

فما سودتني عامر عن كاللة * أبي الله ان أسمو بأم ولأب (١)

هكذا أنشده الرازي في كتابه، وينشد عن وراثته. وقال زياد بن زيد العذري:
ولم أرث المجد التليد كاللة * ولم يأن مني فترة لعقيب
والكل الثقل، ويقولون لابن الاخ ومن يجري مجراه، ممن يعال على وجه التبرع: هذاكلي،
ومن قال: إن الاب لايدخل في الكلالة استدل بقول الشاعر:
فان أبا المرء أحمى له * ومولى الكلالة لا يغضب (٢)
فأفرد الاب من الكلالة. ولاخلاف أن الاخوة والاخوات من الام يتساوون في الميراث.
الاعراب:
وقوله: " وصية " نصب على المصدر بقوله: " يوصيكم الله " وصية وقال الفراء: نصب
بقوله:

" فلكل واحد منها السدس " وصية كما نقول: لك درهمان نفقة إني أهلك، والاول

(١) اللسان (كال). (٢) اللسان (كل).

(١٣٧)

أعم فائدة، وأولى. وقوله: " والله عليم حليم " معناه ههنا: عليم بمصالح خلقه، حليم بامهال من يعصيه، فلا يغتر مغتر بامهاله. وقوله: " وإن كان رجلا يورث كاللة أو امرأة " ثم قال: " وله أخ أو أخت " ولم يقل: لهما، كما نقول: من كان له أخ أو أخت فليصله، ويجوز: فليصلها، ويجوز: فليصلهما، فالاول يرد الكناية إلى الاخ، والثاني على الاخت، والثالث عليهما، كل ذلك حسن. وقوله: " غير مضار " نصب على الحال، يعني: يوصي بذلك غير مضار. وقال الزجاج: يجوز أن يكون نصبا على أنه مفعول به. وحكى البلخي عن أبي عبيدة، وذكره الزجاج:

" يورث " بكسر الراء، قال: ومعناه من ليس بولد ولا والد، ومن نصب الراء أراد المصدر.
المعنى:

ومسائل المواريث وفروعها بسطناها في النهاية والمبسوط، وأجزناها في الايجاز، في الفرائض، لانطول بذكرها في الكتاب، غير أننا نعقد ههنا جملة تدل على المذهب فنقول:
الميراث يستحق بشيئين: نسب وسبب، فالسبب الزوجية، والولاء، والولاء على ثلاثة أقسام:
ولاء العتق، وولاء تضمن الجريرة، وولاء الامامة، ولايستحق الميراث بالولاء إلا مع عدم ذوي الانساب. والميراث بالزوجية ثابت مع جميع الوراث، سواء ورثوا بالفرض أو بالقربة، ولاينقص الزوج عن الربع في حال، ولايزاد على النصف، والزوج لايزاد على الربع، ولاينقص من الثمن على وجه.

والميراث بالنسب يستحق على وجهين: بالفرض، والقرباة، فالميراث بالفرض لا يجتمع فيه إلا من كانت قريبه واحدة إلى الميت، مثل البنت أو البنات مع الوالدين أو أحدهما، فانه متى انفرد واحدمنهم أخذ المال كله، بعضه بالفرض، والباقي بالرد، وإذا اجتمعا أخذ كل واحد منهم ماسمي له، والباقي يرد عليهم، إن

(١٣٨)

فضل. على قدر سهامهم، وإن نقص، لمزاحمة الزوج أو الزوجة لهم، كان النقص داخلا على البنت أو البنات، دون الابوين، أو أحدهما، ودون الزوج والزوجة. ولا يجتمع مع الاولاد، ولا مع الوالدين، ولا مع أحدهما أحدمن يتقرب لهما، كالكلالتين فانهما لا يجتمعان مع الاولاد، ذكورا كانوا أو إناثا، ولا مع الوالدين، ولا مع أحدهما أبأكان أو أما، بل تجتمع كلاله الاب وكلاله الام، فكلاله الام إن كان واحدا كان له السدس، وإن كانا إثنين فصاعدا كان لهم الثلث، لا ينقصون منه، والباقي لكلاله الاب، فإن زاحمهم الزوج أو الزوجة دخل النقص على كلاله الاب دون كلاله الام، ولا تجتمع كلاله الاب والام مع كلاله الاب خاصة، فإن اجتمعا كان المال لكلاله الاب والام، دون كلاله الاب، ذكرا كان أو أنثى، أو ذكورا، أو أناثا، أو ذكورا وأناثا (١) ومن يورث بالقرباة دون الفرض لا يجتمع إلا — مع — (٢) من كانت قريبه واحدة، وأسبابه ودرجته متساوية، فعلى هذا لا يجتمع مع الولد للصلب ولد الولد، ذكرا كان ولد الصلب أو أنثى، لانه أقرب بدرجة، وكذلك لا يجتمع مع الابوين ولا مع أحدهما من يتقرب بهما من الاخوة والاخوات، والجد والجدة على حال، ولا يجتمع الجد والجدة مع الولد للصلب، ولا مع ولد الولد وإن نزلوا، ويجتمع الابوان مع ولد الولد وإن نزلوا، لانهم بمنزلة الولد للصلب، إذا لم يكن ولد الصلب، والجد والجدة يجتمعان مع الاخوة والاخوات، لانهم في درجة واحدة (٣) والجد من قبل الاب بمنزلة الاخ من قبله، والجدة من قبله بمنزلة الاخ من قبله، والجد من قبل الام بمنزلة الاخ من قبلها، والجدة من قبلها بمنزلة الاخ من قبلها، وأولاد الاخوة والاخوات يقاسمون الجد والجدة، لانهم بمنزلة آبائهم، ولا يجتمع مع الجد والجدة من يتقرب بهما من العم والعمة، والخال والخالة، والجد الأعلى،

(١) (أو ذكورا وأناثا) ساقطة من المطبوعة.

(٢) (مع) ساقطة من المطبوعة.

(٣) في المطبوعة (دج والجد) باسقاط واحدة والتأنيث من درجة.

(١٣٩)

والالجنة العليا، وعلى هذا تجري جملة المواريث، فان فروعها لا تنحصر، وفيما ذكرناه تنبيهه على ما لم نذكره.

وأما المسائل التي اختلف قول الصحابة فيها، فقد ذكرناها في خلاف الفقهاء، فلاوجه لذكرها ههنا، لانه يطول به الكتاب.

قوله تعالى: (تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم (١٣) ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) (١٤) - آيتان بلاخلاف -.

القراءة، والحجة:

قرأ نافع، وابن عامر: ندخله بالنون في الموضعين، الباقيون بالياء، فمن قرأ بالياء فلان ماتقدم لفظ الغائب ومن قرأ بالنون عدل عن خطاب الغائب إلى الاخبار عن الله بنون العظمة، كما قال: " بل الله مولاكم " (١) وقال بعده:

" سنلقي " فعدل عن الغائب.

المعنى، والاعراب:

قال الفراء، والزجاج: معنى " تلك " هذه، كأنه قال هذه حدود الله واختلفوا في معنى الحدود، فقال السدي: تلك شروط الله، وقال ابن عباس: تلك طاعة الله، وقال قوم: تلك فرائض الله وأمره، وقال قوم: تلك تفصيلات الله لفرائضه، وهو الأقوى، لان أصل الحد هو الفصل، مأخوذاً من حدود الدار التي تفصلها من غيرها، فمعنى الآية: هذه القسمة التي قسمها الله لكم، والفرائض التي فرضها لحياتكم من

سورة آل عمران: آية ١٥٠.

(١٤٠)

أمواتكم حدود الله، يعني فصول بين طاعة الله ومعصيته على ما قال ابن عباس، والمعنى تلك حدود طاعة الله، وانما اختص لوضوح المعنى للمخاطبين.

فان قيل: إذا كان ما تقدم ذكره دل على أنها حدود الله، فما الفائدة في هذا القول؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - للتأكيد، والثاني - أن الوجه في إعادته ما علق به من الوعد والوعيد الصريح.

فان قيل: لم خصت الطاعة في قسمة الميراث بالوعد، مع أنه واحب في كل طاعة إذا فعلت لوجه الوجوب؟ قلنا: للبيان عن عظم موقع هذه الطاعة، مع التذكير بما يستحق عليها ترغيباً

فيها بوعد مقطوع. وقوله: (يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) نصب على الحال. قال الزجاج والتقدير:

يدخلهم مقدرين الخلود فيها، والحال يستقبل فيها، كما تقول: مررت برجل معه باز، صائدا به غدا، أي يقدر الصيد به غدا. وقوله: (وذلك الفوز العظيم)

معناه الفلاح العظيم، فوصفه بأنه عظيم ولم يبين بالاضافة إلى ماذا، لأن المراد به أنه عظيم بالاضافة إلى منفعة الخيانة في التركة، من حيث كان أمر الدنيا حقيرا بالاضافة إلى أمر الآخرة. وقوله: (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده)

معناه يعصي الله فيما بينه من الفرائض، وأموال اليتامى، " ويتعد " معناه:

يتجاوز ما بين له، " يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين " وخالدا نصب على أحد وجهين: أحدهما - أن يكون حالا من الهاء في يدخله.

والآخر - أن يكون صفة لنار في قول الزجاج، كقولك: زيد مررت بدار ساكن فيها، على حذف الضمير، والتقدير: ساكن هو فيها، لأن اسم الفاعل إذا جرى على غير من هولته لم يتضمن الضمير كما يتضمنه الفعل لو قلت: يسكن فيها.

واستدللت المعتزلة بهذه الآية على أن فاسق أهل الصلاة مخلد في النار، ومعاقب لامحالة، وهذا للدلالة لهم فيه من وجوه، لأن قوله: " ويتعد حدوده " إشارة

(١٤١)

إلى من يتعدى جميع حدود الله، ومن كان كذلك فعندنا يكون كافرا، وأيضا فلاخلاف أن الآية مخصوصة بصاحب الصغيرة، وإن كان فعل المعصية، وتعدى حدا فانه خارج منها، فان جاز لهم إخراج الصغيرة منها لدليل، جازلنا أن.

نخرج من يفضل الله عليه بالعفو، أو يشفع فيه النبي (صلى الله عليه وآله). وأيضا فان التائب لا بد من إخرجه من هذه الآية لقيام الدلالة على وجوب قبول التوبة، فكذلك يجب أن يشترط من يفضل الله باسقاط عقابه، فان قالوا: قبول التوبة واجب، والعفو ليس بواجب، قلنا: قبول التوبة واجب إذا حصلت، وكذلك سقوط العقاب واجب إذا حصل العفو، فان قالوا: يجوز أن لا يختار الله العفو، قلنا:

وكذلك يجوز ألا يختار العاصي التوبة، فان جعلوا الآية دالة على أن الله لا يختار العفو، جاز لغيرهم أن يجعل الآية دالة على أن العاصي لا يختار التوبة، على أن هذه الآية معارضة بآيات كثيرة، في وقوع العفو، كقوله: " ويغفر مادون ذلك لمن يشاء " (١) على ماسنبيه فيما بعد. وقوله: " إن الله يغفر الذنوب جميعا " (٢) وقوله: " وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم " (٣) فان شرطوا في آياتنا التوبة، شرطنا في آياتهم إرتفاع العفو، والكلام في ذلك مستقصى

في الوعيد، لانطول بذكره هذا الكتاب. ويمكن - مع تسليم ذلك - أن تحمل الآية على من يتعدى الحدود مستحلاً لها، فإنه يكون كافراً، ويتناوله الوعيد، على أن عند كثير من المرجئة العموم لاصيغة له، فمن أين ان " من " يفيد جميع العصاة؟ وما المنكر أن تكون الآية مختصة بالكفار.

قوله تعالى:

(واللآتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت

(١) سورة النساء: آية ٤٧، ١١٥. (٢) سورة الزمر: آية ٥٣.

(٣) سورة الرعد: آية ٧.

(١٤٢)

أو يجعل الله لهن سبيلاً) (١٥) - آية بلاخلاف -
المعنى:

قال أكثر المفسرين، كالضحاك، وابن زيد، والجبائي، والبلخي، والزجاج، ومجاهد، وابن عباس، وقتادة، والسدي: إن هذه الآية منسوخة، لانه كان الفرض الاول أن المرأة إذا زنت وقامت عليها البينة بذلك، أربعة شهود، أن تحبس في البيت أبداً حتى تموت، ثم نسخ ذلك بالرجم في المحصنين، والجلد في البكرين.

واللاتي جمع التي، وكذلك اللواتي، قال الشاعر:

من اللواتي والتي واللاتي * زعن أن كبرت لداتي (١)

ويجمع اللاتي باثبات الياء ويحذفها، قال الشاعر:

من اللات لم يحججن يبغين حسبة * ولكن ليقتلن البرئ المغفلا (٢)

وقوله: (أو يجعل الله لهن سبيلاً) قيل في معنى السبيل ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس، وعبدالله بن كثير، أنه الجلد للبكر مائة، وللثيب المحصن الرجم، وإذا جلد البكر فإنه ينفي سنة عندنا، وبه قال الحسن، وقتادة، وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف.

و - الثاني - قال الجبائي: النفي يجوز من طريق اجتهاد الامام، وأما من وجب عليه الرجم فإنه يجلد أو لاثم يرجم عند أكثر أصحابنا، وبه قال الحسن، وقتادة، وعبادة بن الصامت، وجماعة ذكرناهم في الخلاف. وفي أصحابنا من يقول: ذلك يختص الشيخ والشيخة، فإذا لم يكونا كذلك فليس عليهما غير الرجم، وأكثر الفقهاء على أنهما لا يجتمعان، وثبوت الرجم معلوم

من جهة التواتر على وجه لا يخلج فيه شك، وعليه اجماع الطائفة، بل اجماع الامة، ولم يخالف فيه إلا الخوارج، وهم لا يعتد بخلافهم. وقوله: " يأتين الفاحشة " يعني بالفاحشة،

(١) اللسان (لتا) والصاح، والتاج. ومجاز القرآن ١: ١١٩ وخزانة الادب وغيرها ولم يعرف قائله.

(٢) نسبه أبو عبيدة إلى عمر بن أبي ربيعة ولم نجد في ديوانه، ونسب إلى الحارث بن خلد في بعض النسخ. مجاز القرآن ١: ١٢٠.

(١٤٣)

وحذف الباء كما يقولون: أتيت أمرا عظيما، أي: بأمر عظيم، وتكلمت كلاما قبيحا، أي بكلام قبيح. وقال أبو مسلم: " واللاتي يأتين الفاحشة " قال: هما المرأة تخلوا بالمرأة في الفاحشة المذكورة عنهن: " أو يجعل الله لهن سبيلا " فالتزويج والاستغناء بالحلال، وهذا قول مخالف للاجماع، ولما عليه المفسرون، فانهم لا يختلفون أن الفاحشة المذكورة في الآية الزنا، وأن هذا الحكم منسوخ، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) وأبي عبدالله (ع). ولما نزل قوله: " الزانية والزاني " (١) قال النبي (صلى الله عليه وآله): قد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر، جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب الجلد ثم الرجم. قوله تعالى:

(واللذان يأتيانها منكم فآذو هما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيمًا) (١٦) - آية بالاخلاف.

القراءة، واللغة:

قرأ ابن كثير: " واللذان " بتشديد النون، وكذلك: " هذان " " فذانك "، ووافقه أبو عمرو في: فذانك. الباوق بالتخفيف، قال أبو علي: من شدد النون فوجهه أنه عوض من الحذف الذي لحق الكلمة، لان قولهم: (ذا) قد حذف لامها، وقد حذف الياء من اللذان في التنثية، لان أصله اللذان، فعوض عن ذلك التشديد، وفي العرب من يقول: اللذ بلإياء، وفي التنثية اللذا، وفي الجمع اللذوا، وللمرأة اللت، واللتا، واللات، بلإياء، وطى تقول مكان الذي: ذو، ومكان التي: ذات.

المعنى:

والمعنى بقوله: " اللذان " فيه ثلاثة أقوال:

سورة النور: آية ٢.

(١٤٤)

أولها - قال الحسن، وعطا: الرجل والمرأة، وقال السدي وابن زيد:

هما البكران من الرجل والنساء، وقال مجاهد: هما الرجلان الزانيان، قال الرماني: قول مجاهد لا يصح، لأنه لو كان كذلك لم يكن للثنائية معنى، لانه إنما يجئ الوعد والوعيد بلفظ الجمع، لانه لكل واحد منهم، أو بلفظ الواحد لدلالته على الجنس الذي يعم جميعهم، وأما التثنية فلا فائدة فيها، قال: والاول أظهر. قال أبو مسلم:

هما الرجلان يخلوان بالفاحشة بينهما، وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: السحاق زناء النساء بينهن، ومباشرة الرجل للرجل زناء، ومباشرة المرأة للمرأة زناء، قال: ولا يعرف في كلام العرب جمع بين الذكر والانثى في لفظ التذكير إلا إذا تقدمه ما يدل عليه، كقوله: " إن المسلمين والمسلمات "، ثم قال: " أعد الله لهم " (١)

وإلى هذا التأويل في معنى الرجلين ذهب أهل العراق، فلا يحدون للوطي، وهذا قول بعيد، والذي عليه جمهور المفسرين أن الفاحشة الزنا، وأن الحكم المذكور في الآية منسوخ بالحد المفروض في سورة النور، ذهب إليه الحسن، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، والضحاك، والبلخي، والجبائي، والطبري، والزجاج، وغيرهم. وبعضهم قال: نسخها الحدود بالرجم أو الجلد.

وقوله: " فأذوهما " قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال ابن عباس: هو التعبير باللسان، والضرب بالنعال. وقال قتادة، والسدي، ومجاهد: هو التعبير والتوبيخ، فان قيل: كيف ذكر الاذى بعد الحبس؟ قلنا: فيه ثلاثة أوجه: أحدها - قال الحسن إن هذه الآية نزلت أولاً، ثم أمر بأن توضع في التلاوة بعد، فكان الاذى أولاً، ثم الحبس، بعد ذلك، ثم (٢) نسخ الحبس بالجلد أو بالرجم. الثاني - قال السدي: انه في البكرين خاصة، دون الثيبين، والاولى في

(١) سورة الاحزاب: آية ٣٥.

(٢) (ثم) ساقطة من المطبوعة.

(١٤٥)

الثيبين دون البكرين.

والثالث - قال الفراء: هذه الآية نسخت الاولى، قال أبو علي الجبائي:

في الآية دلالة على نسخ القرآن بالسنة، لانها نسخت بالرجم أو الجلد، والرجم ثبت بالسنة، ومن خالف في ذلك قول: هذه الآية نسخت بالجلد في الزنا، وأضيف إليه الرجم زيادة لانسخا، فلم يثبت نسخ القرآن بالسنة. فأما الاذى المذكور في الآية، فليس بمنسوخ، فان الزاني يؤذى

ويعنف، ويوبخ على فعله، ويذم. وإنما لا يقتصر عليه، فزيد في الأذى إقامة الحد عليه، وإنما نسخ الإقتصار عليه.

قوله تعالى: (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما (١٧) - آية واحدة - .

المعنى:

التوبة هي الندم على القبيح مع العزم على ألا يعود إلى مثله في القبح، وفي الناس من قال: يكفي الندم على ما مضى من القبيح، والعزم على ألا يعود إلى مثله، والاول أقوى، لاجماع الامة على أنها إذا حصلت على ذلك الوجه أسقطت العقاب، وإذا حصلت على الوجه الثاني ففي سقوط العقاب عنها خلاف، وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية أن التوبة إنما يقبلها ممن يعمل السوء بجهالة، وقيل في معنى بجهالة أربعة أقوال:

أحدها - قال مجاهد، وقتادة، وابن عباس، وعطاء، وابن زيد: هو أن يفعلوها على جهه المعصية لله تعالى، لان كل معصية لها جهالة، لانه يدعو اليها الجهل، ويزينها للعبد، وإن كانت عمدا.

الثاني - بجهالة، أي بحال كحال الجهالة، التي لا يعلم صاحبها ما عليه في

(١٤٦)

مثلها من المضرة.

الثالث - قال الفراء: معنى " بجهالة " أي لا يعلمون كنه ما فيه من العقوبة، كما يعلم الشيء ضرورة.

الرابع - " بجهالة " أي وهم يجهلون أنها ذنوب ومعاصي، اختاره الجبائي، قال: يفعلونها بجهالة إما بتأويل يخطون فيه. أو بان يفرطوا في الاستدلال على قبحها، قال الرمانى: هذا ضعيف، لانه تأويل بخلاف ما أجمع عليه المفسرون، قال أبو العالية: إن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فبجهالة، وقال قتادة:

أجمع أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) على ذلك، وأيضا فانه يوجب أن من علم أنها ذنوب أن لا يكون له توبة، لان قوله: " انما التوبة " يفيد أنها لهؤلاء دون غيرهم، وظاهر الآية يدل على أن الله يقبل التوبة من جميع المعاصي كفرا كان أو قتلا أو غيرهما من المعاصي، ويقربه أيضا قوله: " والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق .. " إلى قوله: " إلا من تاب " (١)

فاستثنى من القتل، كما استثنى من الزنا والشرك، وحكي عن الحسن أنه قال: لا يقبل الله توبة القاتل. وروي أنه إنما قال ذلك لرجل كان عزم على قتل رجل على أن يتوب فيما بعد، فأراد صده عن ذلك. وقوله " فأولئك يتوب الله عليهم " بعد قوله " ثم يتوبون من قريب " معناه إن الله يقبل توبتهم إذا تابوا وأنابوا، وقوله: " من قريب " حث على أن التوبة يجب أن تكون عقيب المعصية، خوفا من الاخترام، وليس المراد بذلك أنها لو تأخرت لما قبلت. وقال الزجاج: معناه ثم يتوبون قبل الموت، لأن ما بين الإنسان وبين الموت قريب، والتوبة مقبولة قبل اليقين بالموت. وقال الحسن، والضحاك، وابن عمر: القريب ما لم يعاين الموت.

وقال علي (ع)، وقد قيل له: فان عاد؟ يغفر الله له ويتوب، مرارا، قيل:

إلى متى؟ قال: حتى يكون الشيطان هو المحسور. وقال السدي، وابن عباس:

في حال الصحة قبل الموت. وقوله: " وكان الله عليما حكيما " معناه ههنا: وكان الله

(١) سورة الفرقان: آية ٦٨ - ٧٠. (*)

(١٤٧)

عليما بتوبتهم إن تابوا، وإصرارهم إن أصروا، حكيما في مؤاخذتهم إن لم يتوبوا. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: لما هبط إبليس قال: وعزتك وعظمتك، لأفارق ابن آدم حتى تفارق روحه جسده، فقال الله: وعزتي وعظمتي لأحجب التوبة عن عبدي حتى يغرغو.

قوله تعالى:

(وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك اعتدنا لهم عذابا أليما) (١٨) - آية واحدة -.

المعنى: أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يقبل التوبة من الذي يعمل المعاصي حتى إذا حضره الموت قال: إني تبت الآن، وأجمع أهل التأويل على أن الآية تناولت عصاة أهل الصلاة، إلا ما حكي عن الربيع أنه قال: إنها في المنافقين، وهذا غلط لأن المنافقين كفار، وقد بين الله الكفار بقوله: (ولا الذين يموتون وهم كفار)

وقال الربيع أيضا: إن الآية منسوخة بقوله: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (١). وهذا خطأ لأن النسخ لا يدخل في الخبر الذي يجري هذا المجرى، ومن جوز العفو بالتوبة يمكنه أن يقول: إن التوبة التي وعد الله بأسقاط العقاب عندها قطعا متى حصلت في هذا الوقت لا يسقط العقاب، ولا يمنع ذلك من أن يتفضل الله بأسقاط العقاب ابتداء بالتوبة، كما لو خرج من دار الدنيا من غير توبة أصلا، لم يمنع ذلك من جواز العفو عنه، فليس في

الآية ماينافي القول بجواز العفو من غير توبة. وقال جميع المفسرين، كابن عباس، وابن عمر، وإبراهيم، وابن زيد، وغيرهم: إن الذين يحتضرون لانتقبل لهم توبة، غير إن الذين يحضرون الميت لايعرفون تلك الحال معرفة يمكن

(١) سورة النساء: آية ٤٧. (*)

(١٤٨)

بها الاشارة إليها. فان قيل: فلم لم تقبل التوبة في الآخرة؟ قيل: لرفع التكليف، وحصول الاجاء إلى فعل الحسن دون القبيح، والملجأ لايستحق بفعله ثوابا ولا عقابا، لانه يجري مجرى الاضطرار. وحكي الرماني عن قوم أنهم قالوا بتكليف أهل الآخرة، وان التوبة إنالم يجب قبولها، لان صاحبها هناك في مثل حال المتعوذ بها، لاالمخلص فيها، وهذا خطأ، لان الله تعالى يعلم أسرارهم كما يعلم إعلانهم. وقوله: (أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما) معناه أعددنا، وقال قوم:

التاء بدل من الدال، وقال آخرون هو أفلنا من العتاد، ومعناه اعددنا، وعتاد الرجل: عدته، وهو الاصل. والشئ العتيد هوالمعد، والعتيدة: طلبة معدة للطيب، ومعنى إعداد العذاب لهم، إنما هو بخلق النار التي هي مصيرهم. والاليم بمعنى المؤلم. وليس في الآية مايمنع من جواز العفو عن مرتكبي الكبائر بلا توبة، لان قوله: (أولئك) يحتمل أن يكون راجعا إلى الكفار لانه جرى ذكر الكفار وهم أقرب إلى أولئك من ذكر الفساق، ويحتمل أن يكون التقدير: أعتدنا لهم عذابا، إن لم نشأ العفو عنهم، وتكون الفائدة فيه إعلامهم ما يستحقونه من العذاب، وألا يأمنوا أن يفعل بهم ذلك، وإن كان تعالى يعلم هل يعفو أو لايعفو. قوله تعالى:

(ياأيها الذين آمنوا لايلح لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) (١٩) - آية بلاخلاف - .
القراءة واللغة:

قرأ (بفاحشة مبينة) بفتح الياء، ابن كثير، وأبو بكر، عن عاصم.
الباقون بالكسر، وهو الاقوى، لانه لايقصد إلى إظهارها. وقرأحمزة والكسائي

(١٤٩)

" كرها " بضم الكاف هنا وفي التوبة والاحقاف، وافقهما في الاحقاف عاصم، وابن عامر، إلا الحلواني، ويعقوب.

الكره والكره لغتان، مثل الشهد والشهد، والضعف والضعف، والفقير والفقير.
المعنى:

هذا الخطاب متوجه إلى المؤمنين، نهاهم الله أن يرثوا النساء كرها، واختلفوا في معنى ذلك، فقال الزهري، والجبائي، وغيرهما، وروي ذلك عن أبي جعفر (ع):
هو أن يحبس الرجل المرأة عنده، لأحاجة له إليها، وينتظر موتها حتى يرثها، فنهى الله (تعالى) عن ذلك. وقال الحسن، ومجاهد: معناه ما كان يعمله أهل الجاهلية، من أن الرجل إذا مات، وترك امرأته قال وليه: ورثت امرأته، كما ورثت ماله، فإن شاء تزوجها بالصداق الأول، ولا يعطيها شيئا، وإن شاء زوجها وأخذ صداقها، وروي ذلك أبو الجارود، عن أبي جعفر (ع). وقال مجاهد: إذا لم يكن الولي ابنها قال أبو مجلز: وكان أولى بالميراث أولى بها من ولي نفسها. وقوله:

(ولا تعضلوهن) قيل فيمن عني بهذا النهي أربعة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس، وقتادة، والسدي، والضحاك: هو الزوج أمره الله بتخلية السبيل إذا لم يكن له فيها حاجة، ولا يمسكها إضرارا بها، حتى تفتدي ببعض مالها.

والثاني - قال الحسن: هو الوارث، نهى عن منع المرأة من التزويج، كما يفعل أهل الجاهلية على ما بيناه.

والثالث قال مجاهد: المراد الولي.

الرابع - قال ابن زيد: المطلق يمنعها من التزويج، كما كانت تفعل قريش في الجاهلية، ينكح الرجل منهم المرأة الشريفة، فإذا لم توافقه فارقها، على أن لا تتزوج إلا بأذنه، فيشهد عليها بذلك، ويكتب كتابا، فإذا خطبها خاطب، فإن أعطته

(١٥٠)

وأرضته، أذن لها وإن لم تعطه عضلها، فنهى الله عن ذلك. والاول أظهر الاقويل.
اللغة:

والعضل هو التصبيق بالمنع من التزويج، وأصله الامتناع، يقال: عضلت الدجاجة ببيضتها: إذا عسرت عليها، ومنه العضلة: لصلابتها، ومنه الداء العضال إذا لم يبرء، وعضل الفضا بالجيش الكثير إذا لم يمكن سلوكه لضيقه.
المعنى:

وقوله: (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) قيل فيه قولان: أحدهما - قال الحسن، وأبو قلابه، والسدي: يعني الزنا، وقالوا إذا أطلع منها على زنية فله أخذ الفدية.

والثاني - قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة: هو النشوز، والاولى حمل الآية على كل معصية، لان العموم يقتضي ذلك، وهو المروي عن أبي جعفر (ع) واختاره الطبري. وقوله: (وعاشروهن بالمعروف) قال السدي: معناه خالطوهن، وخالقوهن، من العشرة التي هي المصاحبة بما أمركم الله به من المصاحبة، بأداء حقوقهن التي أوجبها على الرجال، أو تسريح باحسان. وقوله: (فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) يعني في إمساكنهن على كره منكم " خيرا كثيرا " من ولد يرزقكم، أو عطفكم عليهن بعد الكراهية، وبه قال ابن عباس، ومجاهد.
الاعراب:

والهاء في فيه، يحتمل أن ترجع إلى الشيء في قوله: (أن تكرهوا شيئا) ويحتمل أن تكون راجعة إلى الذي يكرهونه. وقوله: (ولاتعضلوهن) يحتمل أن يكون جزمًا بالنهي، ويحتمل أن يكون نصبا بالعطف على قوله: (لايحل لكم

(١٥١)

أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن) وفي قراءة عبدالله: (ولا أن تعضلوهن) باثبات أن.

النزول:

وقيل في سبب نزول هذه الآية أن أباقيس بن الاسلت لما مات عن زوجته كبشة بنت معن بن عاصم، أراد ابنه أن يتزوجها، فجاءت إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقالت: يانبي الله: لأنا ورثت زوجي، ولا أنا تركت فأنكح، فنزلت هذه الآية، ذكره أبو جعفر (عليه السلام)، وغيره.

قوله تعالى:

(وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً) (٢٠) - آية - .

المعنى:

أخذ مال المرأة، وإن كان محرماً على كل حال من غير أمرها، فانما خص الله تعالى الاستبدال بالنهي، لأن مع الاستبدال قد يتوهم جواز الاسترجاع، من حيث أن الثانية تقوم مقام الأولى، فيكون لها ما أعطيته الأولى، فبين الله تعالى أن ذلك لا يجوز. والمعنى: إن أردتم تخليئة المرأة سواء استبدل مكانها أولم يستبدل. وقوله: (وآتيتم إحداهن قنطاراً) معناه: ليس ما آتيتموهن موقوفاً على التمسك بهن، دون تخليتهن، فيكون إذا أردتم الاستبدال جاز لكم أخذه، بل هو تمليك صحيح، لا يجوز الرجوع فيه. والمراد بذلك ما أعطى المرأة مهراً لها، ويكون دخل بها، فأما إذا لم يدخل بها، وطلقها، جاز له أن يسترجع نصف ما أعطاهها، فأما ما أعطاهها على وجه الهبة، فظاهر الآية يقتضي أنه لا يجوز له الرجوع في شيء منه. لكن علمنا بالسنة أن ذلك سائغ له، وإن كان مكروهاً.

(١٥٢)

اللغة:

والقنطار المال الكثير، واختلفوا في مقداره، فقال بعضهم هو ملء جلد ثور ذهباً، وقال آخرون: هودية الإنسان، وغير ذلك من الأقوال التي قدمنا ذكرها فيما مضى. وأصل ذلك مأخوذ من القنطرة، ومنه القنطر الداهية، لأنها كالقنطرة في عظم الصورة، وإحكام البنية. ويقال: قنطر في الأمر يقنطر إذا عظمه، بتكثير الكلام فيه، من غير حاجة إليه. وقوله: "أتأخذونه بهتاناً" قيل في معناه قولان:

أحدهما - يعني بهتاناً ظلماً كالظلم بالبهتان، وقيل بطلاناً كبطلان البهتان.

الثاني - بهتاناً أي بأن تبهتوا أنكم ملكتموه فتسترجعوه (١) وأصل البهتان الكذب الذي يواجه به صاحبه على وجه المكابرة، وأصله التحير، ومنه قوله: "فبهت الذي كفر" (٢) أي تحير عند انقطاع حجته، فالبهتان كذب يحير صاحبه. ونصب بهتاناً على أنه حال في موضع المصدر، والمعنى أتأخذونه مباهتين وآثمين. وقوله "مبيناً" أي ظاهراً لا شك فيه.

قوله تعالى:

(وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) (٢١) - آية -
بلاخلاف - .

المعنى:

قيل في نسخ هذه الآية، والتي قبلها، ثلاثة أقوال:
أحدها - أنها محكمة ليست منسوخة، لكن للزوج ان يأخذ الفدية من المختلعة، لان النشوز
منها، فالزوج في حكم المكره لا المختار للاستبدال، ولا

في المطبوعة (لتستوجبوه).

(٢) سورة البقرة: آية ٢٥٨. (*)

(١٥٣)

يتنافى حكم الآيتين، فلا يحتاج إلى نسخ احدهما بالآخرى.
الثاني - قال بكرين عبدالله المري: هي محكمة، وليس للزوج لاجل ظاهرها أن يأخذ من
المختلعة شيئاً، ولا من غيرها.

الثالث - قال ابن زيد، والسدي: هي منسوخة بقوله: (إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فان خفتم
ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) (١)
وقيل في معنى الافضاء قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: هو كناية عن الجماع.
الثاني - انه الخلوة، وإن لم يجامع، فليس له أن يسترجع نصف المهر، وإنما يجوز ذلك فيمن
لم يدخل بها بالخلوة معها. وكلاهما قد رواه أصحابنا، واختلفوا فيه، والاول هو الاقوى.
اللغة والمعنى:

والافضاء إلى الشيء هو الوصول إليه بالملابسة له، قال الشاعر:
بلى وثاي أفضى إلى كل كئبة * بدا سيرها من ظاهر بعد باطن (٢)
أي وصل البلى والفساد إلى الحرز، والفضاء السعة، فضا يفضو فضوا وفضاء إذا تسع،
ومنه: تمر فضا، مقصور أي مختلط، وقوله: (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) قيل في معناه أربعة
أقوال:

أحدهما - قال الحسن، وابن سيرين، والضحاك، وقتادة، والسدي، والفراء، وهو المروي عن
أبي جعفر (ع) أنه قوله: (إمساك بمعروف أو تسريح باحسان) (٣) وقال مجاهد، وابن زيد،
هو كلمة نكاح، التي يستحل بها الفرج.

الثالث - قول النبي (صلى الله عليه وآله): (أخذ تموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن

(١) سورة البقرة: آية ٢٢٩.

(٢) لم يعرف قائله. وقو في تفسير الطبري، ٨ - ١٢٤ مشوه محرف ولم نجده في مصادرنا.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٢٩.

بكلمة الله).

الرابع - قال قتادة. كان يقال للناكح في الاسلام الله عليك لتمكن بمعروف أو لتسرحن باحسان، وهذا الكلام وإن كان ظاهره للاستفهام، فالمراد به التوبيخ، والتهديد، كما يقول القائل لغيره: كيف تفعل هذا وأنا غير راض به، على وجه التهذله.
قوله تعالى:

(ولاتتکحوا ما نکح آباؤکم من النساء إلا ماقد سلف إنه کان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) (٢٢) - آية -

المعنى:

قبل في معنى الآية قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، وقتادة، وعطاء، وعكرمة: إنه حرم عليهم ما كان أهل الجاهلية يفعلونه من نكاح امرأة الاب.

والثاني - أن يكون " ما نکح " بمنزلة المصدر، والتقدير: ولاتتکحوا نکاح آباؤکم، أي مثل نکاح آباؤکم، فعلى هذا يدخل فيه النهي عن حلائل الاباء، وكل نکاح کان لهم فاسدا، وهو اختيار الطبري وقال: إن هذا الوجه أجود، لأنه لو أراد حلائل الآباء لقال:

لاتتکحوا من نکح آباؤکم، وهذا ليس بطعن، لأنه ذهب به مذهب الجنس، كما يقول القائل: لاتأخذ مأخذ أبوک من الاماء، فيذهب به مذهب الجنس ثم يفسره.

ب (من). وقوله: (إلا ماقد سلف) معنى إلا لکن، وكذلك كل استثناء منقطع، كقول القائل: لاتتبع من متاعي إلا ما بعت، أي لکن ما بعت فلا جناح عليك فيه، وقيل في معنى الآية قولان: أحدهما - " إلا ماقد سلف " فانکم لاتؤخذون به.

الثاني - حكاه بعضهم: " إلا ماقدسلف " فدعوه، فهو جائز لکم، قال

البلخي: وهذا لايجوز بالاجماع. والهاء في قوله: " إنه كان فاحشة " يحتمل أن تكون عائدة إلى النكاح بعد النهي، ويحتمل أن تكون عائدة على النكاح الذي كان عليه أهل الجاهلية قبل، ولا يكون ذلك إلا وقد قامت عليهم الحجة بتحريمه، من جهة الرسل، فالاول اختاره الجبائي، وهو الاقوى، وتكون " إلا ماقد سلف " فالسلامة منه الاقلاع عنه بالتوبة والانابة، قال البلخي: وليس كل نکاح حرمه الله زنا، لان الزنا هو فعل مخصوص، لايجري على طريقة لازمة،

وسنة جارية، ولذلك لا يقال للمشركين في الجاهلية: أولاد زنا، ولا أولاد أهل الذمة والمعاهدين: أولاد زنا، إذا كان ذلك عقدا بينهم يتعارفونه.

اللغة، والاعراب، والمعنى:

والمقت، هو بغض عن أمر قبيح ركبه صاحبه، وهو مقيت، وقد مقت إلى الناس مقاتة، ومقته الناس مقتا، فهو ممقوت. وقيل إن ولد الرجل من امرأة أبيه كان يسمى المقتي، قال المبرد: كان زائدة، والتقدير: إنه فاحشة. وقال الزجاج: هذا ليس بصحيح، لأنها لو كانت زائدة مل تعمل، كما قال الشاعر:

فكيف إذحللت ديار قوم * وجيران لنا كانوا كرام

لما كانت زائدة لم تعمل في الخبر. قال الرماني: هي كقوله " وكان الله غفورا رحيمًا " فدخلت كان لتدل على أنه قبل تلك الحال كذا، وقال الجبائي:

معناه أنه كان فيما مضى أيضا فاحشة ومقتا، وكان قد قامت الحجة عليهم بذلك. وكل من عقد عليها الاب من النساء تحرم على الابن، دخل بها الاب، أولم يدخل، بلاخلاف، فان دخل بها الاب على وجه السفاح فهل تحرم على الابن ففيه خلاف، وعموم الآية يقضي بأنها تحرم عليه، لان النكاح يعبر به عن الوطي، كما يعبر به عن العقد، فيجب أن يحمل عليهما، وأمرأة الاب وإن علا تحرم على الابن وإن نزل، بلاخلاف. وقوله: " وساء سييلا " أي قبح ذلك السبيل الذي سلوه سييلا، وهو نصب على التمييز.

(١٥٦)

قوله تعالى:

(حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الاختين إلا ما قد سلف إن الله غفورا رحيمًا) (٢٣) - آية بلاخلاف -.

المعنى:

في الناس من اعتقد أن هذه الآية وما يجري مجراها، كقوله: " حرمت عليكم الميتة " (١) مجملة لا يمكن التعلق بظاهرها في تحريم شيء، وإنما يحتاج إلى بيان قالوا: لان الاعيان لاتحرم ولا تحل، وإنما يحرم التصرف فيها، والتصرف يختلف، فيحتاج إلى بيان التصرف المحرم، دون التصرف المباح، والاقوى أنها ليست مجملة، لان المجمل هو مالا يفهم المراد بعينه بظاهره، وليست هذه الآية كذلك لان المفهوم من ظاهرها تحريم العقد عليهن، والوطي،

دون غيرهما من أنواع الفعل، فلا يحتاج إلى البيان مع ذلك، وكذلك قوله: " حرمت عليكم الميتة " المفهوم الاكل، والبيع، دون النظر إليها، وأورميتها، وما جرى مجراها كيف وقد تقدم هذه الآية ما يكشف عن أن المراد ما بيناه من قوله: " ولا تتكحوا ما نكح آبؤكم " فلما قال بعده: " حرمت عليكم أمهاتكم " كان المفهوم

(١) سورة المائدة: آية ٤. (*)

(١٥٧)

أيضا تحريم نكاحهن، وقد استوفينا ذلك في العدة في أصول الفقه، فلا نطول بذكره ههنا. قال ابن عباس: حرم الله في هذه الآية سبعا بالنسب، وسبعا بالسبب، فالمحرمات من النسب الامهات، ويدخل في ذلك أمهات الامهات وإن علون، وأمهات الآباء مثل ذلك، والبنات، ويدخل في ذلك بنات الاولاد وأولاد البنين وأولاد البنات وإن نزلن، والاخوات، سواء كن لآب وأم أو لآب أو لام، وبنات الاخ، وبنات الاخت وإن نزلن. والمحرمات بالسبب الامهات من الرضاعة، والاخوات أيضا من الرضاعة، وكل من يحرم بالسبب يحرم مثله بالرضاع، لقوله (صلى الله عليه وآله): " يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب " وأمهات النساء يحرم بنفس العقد، وإن لم يدخل بالبنات، على قول أكثر الفقهاء، وبه قال ابن عباس، والحسن، وعطاء، وقالوا: هي مبهمة، وخصوا التقييد بقوله: " وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن " ورووا عن علي (ع)، وزيد بن ثابت، أنه يجوز العقد على الام مالم يدخل بالبنات، وجعلوا قوله: " من نسائكم اللاتي دخلتم بهن " راجعا إلى جميع من تقدم من أمهات النساء، والربائب. اللغة:

والربائب: جمع ربيبة، وهي بنت الزوجة من غيره، ويدخل فيه أولادها وإن نزلن، وسميت بذلك لتربيته إياها، ومعناها مربوبة، نحو قتيلة في موضع: مقتولة، ويجوز أن تسمى ربيبة سواء تولى تربيتها وكانت في حجره، أو لم تكن، لأنه إذا تزوج بأماها سمي هو رابها، وهي ربيبتها، والعرب تسمي الفاعلين والمفعولين بما يقع بهم، ويوقعونه، يقولون: هذا مقتول، وهذا ذبيح، وإن لم يقتل بعد ولم يذبح، إذا كان يراد قتله أو ذبحه، وكذلك يقولون: هذه

(١٥٨)

أضحية لما أعد للتضحية، وكذلك: هذه قتبوة، وحلوبة، أي مما يقتب، ويحلب فمن قال: إنه لا تحرم بنت الزوجة إلا إذا تربت في حجره فقد أخطأ على ما قلناه ويقال لزواج المرأة: ربيب

ابن امرأته، يعنى به، رابه، نحو: شهيد، بمعنى شاهد، وخبير، بمعنى خابر، وعليم، بمعنى عالم.

الاعراب:

وقوله: (من نسائكم اللاتي دخلتم بهن) قال المبرد: " اللاتي دخلتم بهن " نعت للنساء اللواتي من أمهات الربائب لاغير قال: لاجماع الناس على أن الربيبة تحل إذا لم يدخل بامها، وإن من أجاز أن يكون قوله: (من نسائكم اللاتي دخلتم بهن)

هو لامهات نسائكم فيكون معناه: أمهات نسائكم اللاتي دخلتم بهن، فيخرج أن يكون اللاتي دخلتم بهن لامهات الربائب، قال الزجاج: لان الخبرين إذا اختلفا لم يكن نعتهما واحدا، لايجز النحويون: مررت بنسائك، وهربت من نساء زيد الظريفات، على أن يكون (الظريفات) نعتا لهؤلاء النساء، وهؤلاء النساء. وقال:

من اعتبر الدخول بالنساء، لتحريم أمهاتهن يحتاج أن يقدر: أعني، فيكون التقدير: وأمهات نسائكم أعني اللاتي دخلتم بهن، وليس بناإلى ذلك حاجة.
المعنى:

والدخول المذكور في الآية قيل فيه قولان:

أحدهما - قال ابن عباس: هو الجماع، واختاره الطبري.

الثاني - قال عطاء: وما جرى مجراه من المسيس، وهو مذهبا، وفيه خلاف بين الفقهاء. وقوله: " وحلائل أبناءكم الذين من أصلابكم " يعني نساء البنين للصلب، دخل بهن البنون أولم يدخلوا، ويدخل في ذلك أولاد الاولاد من البنين والبنات، وإنما قال " من أصلابكم " لئلا يظن أن امرأة من يتبنى به تحرم عليه.

وقال عطاء: نزلت الآية حين نكح النبي (صلى الله عليه وآله) امرأة زيد بن حارثة، فقال

(١٥٩)

المشركون في ذلك، فنزلت: " وحلائل أبناءكم الذين من أصلابكم " وقال: " وما جعل أديانكم أبناءكم " (١) وقال: " ماكان محمد أبا أحد من رجالكم " (٢) فأما حلائل الابناء من الرضاة فمحرمات بقوله (صلى الله عليه وآله): " يحرم من الرضاة ما يحرم من النسب ".

وإنما سميت المرأة حليلة لامرين:

أحدهما - لأنها تحل معه في فراش.

الثاني - لانه يحل له وطؤها. وقوله: " وأن تجمعوا بين الاختين " فيه تحريم الجمع بينهما في عقد واحد، وتحريم الجمع بينهما في الوطي بملك المين، فاذا وطأ إحداهما لم تحل له الاخرى

حتى يخرج تلك من ملكه، وهو قول الحسن، وأكثر المفسرين والفقهاء. وروي عن ابن عباس أنه أجاز الجمع بينهما بملك اليمين، وتوقف فيهما علي وعثمان، وباقي الصحابة حرّموا الجمع بينهما. وروي عن علي (ع) أنه قال:

حرمتهما آية، وأحلتهما أخرى، وأنا أنهى عنهما نفسي، وولدي، فغلب التحريم. ومن أجاز الجمع بينهما في الوطي بملك اليمين - على ما يذهب إليه داود وقوم من أهل الظاهر - فقد أخطأ في الاختين، وكذلك في الربيبة وأم الزوجة، لأن قوله: "وأمهات نسائكم" يدخل فيه المملوكة، والمعقود عليها، وكذلك قوله: "من نسائكم اللاتي دخلتم بهن" يتناول الجميع، وكذلك قوله: "وأن تجمعوا بين الاختين" عام في الجميع على كل حال، في العقد والوطي، وإنما أخرجنا جواز ملكهما بدلالة الاجماع، ولا يعارض ذلك قوله: "أوما ملكت أيمانكم" لأن الغرض بهذه الآية مدح من حفظ فرجه إلا عن الأزواج، أو ملك الأيمان، فاما كيفية ذلك فليس فيه، ويمكن الجمع بينهما بأن يقال: "أو ماملكت أيمانكم" إلا على وجه الجمع بين الام والبنات، أو الاختين والسابعة قوله: (ولاتكحوا ما نكح آبؤكم) وهي امرأة الاب، سواء

سورة الاحزاب: آية ٤. (٢) سورة الاحزاب: آية ٤٠. (*)

(١٦٠)

دخل بها أو لم يدخل، ويدخل في ذلك نساء الاجداد وإن علوا، من قبل الاب والام بلاخلاف. وقوله: "إلا ما قد سلف" استثناء منقطع، وتقديره: لكن ما سلف لا يؤخذكم الله به، وليس المراد أن ما سلف حال النهي تجوز استدামته، بلاخلاف. وقيل إن إلا بمعنى سوى. وقوله: "وأن تجمعوا" (أن) في موضع الرفع، والتقدير: حرمت عليكم هذه الاشياء، والجمع بين الاختين، وكل من حرمه الله في هذه الآية فانما هو على وجه التأييد، مجتمعات ومنفردات، إلا الاختين فانهما حرمان على وجه الجمع دون الانفراد. ويمكن أن يستدل بهذه الآية على أنه لا يصح أن يملك واحدة من ذوات الانساب المحرمات، لأن التحريم عام، وبقوله (صلى الله عليه وآله) "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب" على أنه لا يصح ملكهن من جهة الرضاع، وإن كان فيه خلاف. وأما المرأة التي وطؤها بلاتزويج، ولاملك، فليس في الآية ما يدل على أنه يحرم وطئ أمها وبناتها، ولأن قوله: "وأمهات نسائكم" وقوله: "من نسائكم اللاتي دخلتم بهن" يتضمن إضافة الملك، إما بالعقد أو بملك المين، فلا يدخل فيه من وطأ من لا يملك وطأها، غير أن قوما من أصحابنا ألحقوا ذلك بالموطوءة بالعقد والملك بالسنة والاحبار المروية في ذلك، وفيه خلاف بين الفقهاء.

وأما الرضاع فلا يحرم عندنا إلا ما كان خمس عشرة رضة متواليات، لا يفصل بينهن برضاع امرأة أخرى، أو رضاع يوم وليلة، أو ما أنبت اللحم وشد العظم. وفي أصحابنا من حرم بعشر رضعات. ومتى دخل بين الرضاع رضاع امرأة أخرى، بطل حكم ما تقدم. وحرم الشافعي بخمس رضعات، ولم يعتبر التوالي. وحرم أبو حنيفة بقليله وكثيره، وهو اختيار البلخي. وفي أصحابنا من ذهب إليه. واللبن عندنا للفحل، ومعناه إذا أرضعت امرأة بلبن فحل لها صبيانا كثيرين، من أمهات شتى، فانهم جميعهم يصيرون أولاد الفحل، ويحرمون على جميع أولاده الذين ينتسبون إليه ولادة ورضاعا، ويحرمون على أولاد المرضعة الذين ولدتهم، فأما

(١٦١)

من أرضعته بلبن غير هذا الفحل، فانهم لا يحرمون عليهم، وكذلك إن كان للرجل امرأتان، فأرضعتا صبيين لأجنبيين، حرم التناكح بين الصبيين، وخالف في هذه ابن علي. ولا يحرم من الرضاع عندنا إلا ما وصل إلى الجوف من الثدي من المجرى المعتاد الذي هو الفم، فاما ما يوجر به، أو يسعط، أو ينشق، أو يحقن به، أو يحلب في عينه، فلا يحرم بحال. ولبن الميتة لأحرمة له في التحريم، وفي جميع ذلك خلاف. ولا يحرم من الرضاع إلا ما كان في مدة الحولين، فاما ما كان بعده فلا يحرم بحال.

فاما الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها فحرم بالسنة، ويجوز عندنا نكاح العممة والخالة على المرأة، ونكاح المرأة على العممة والخالة لا يجوز إلا برضاء العممة والخالة، وخالف فيه جميع الفقهاء. والمحرمات بالنسب ومن يحرم بالسبب على وجه التأييد يسمون مبهمات، لأنه يحرم من جميع الجهات، ماخوذ من البهيم الذي لا يخالط معظم لونه لون آخر، يقال: فرس بهيم لاشية فيه، وبقرة بهيم، والجمع بهم.

وقوله: (إن الله كان عفورا رحيمًا) اخبار أنه كان عفورا حيث لم يؤأخذهم بما فعلوه من نكاح المحرمات، وأنه عفى لهم عما سلف، ولا يدل على أنه ليس بغفور فيما بعد، لان ذلك معلوم بدلالة أخرى، وفي الناس من قال: كان زائدة، وقد بينا أن هذا ضعيف، لانها تكون عبثا ولغوا، وذلك لا يجوز.

قوله تعالى:

(والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيما نكح كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم

(١٦٢)

فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما (٢٤)

- آية بلاخلاف -.

القراءة:

قرأ الكسائي: " المحصنات " (ومحصنات)، بكسر الصاد حيث وقع، إلا قوله: " والمحصنات من النساء " ههنا فانه فتح الصاد. وقرأ أهل الكوفة إلا أبوبكر، وأبوجعفر: " وأحل لكم " - بضم الهمزة، وكسر الحاء - الباقيون:

بفتحها. وقرأ أهل الكوفة لإحفاصا: " أحسن " بفتح الهمزة والصاد، الباقيون بضم الهمزة وكسر الصاد.

المعنى:

قيل في معنى قوله: " والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيماكم " ثلاثة أقوال: أحدها - وهو الأقوى - ما قاله علي (ع)، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو قلابة، وابن زيد، عن أبيه، ومكحول، والزهرى، والجبائي: أن المراد به نوات الأزواج إلا ما ملكت أيماكم، من سبي من كان لهزوج. وقال بعضهم، مستدلا على ذلك بخبر أبي سعيد الخدري، أن الآية نزلت في سبي أوطاس، ومن خالفهم ضعف هذا الخبر بأن سبي أوطاس كانوا عبدة الاوثان، دخلوا في الاسلام.

الثاني - قال أبي بن كعب، وجابر بن عبدالله، وأنس بن مالك، وابن مسعود - في رواية أخرى عنه - وسعيد بن المسيب، والحسن، وابراهيم: إن المراد به نوات الأزواج إلا ما ملكت أيماكم ممن قد كان لها زوج، لان بيعها طلاقها.

وقال ابن عباس: طلاق الامة ست: سببها طلاقها، وبيعها، وعتقها، وهبتها، وميراثها، وطلاقها. وحكي عن علي (ع)، وعمر، وعبدالرحمن بن عوف: أن السبي خاصة طلاقها، قالوا لان النبي (صلى الله عليه وآله) خير بريرة بعد أن أعتقها عائشة،

(١٦٣)

ولو بانث بالعتق لماصح. وزعم هؤلاء أن طلاقها كطلاق الحرة.

الثالث - قال أبو العالية. وعبيدة، وسعيد بن جبير، وعطاء، واختاره الطبري: ان المحصنات العفائف، إلا ما ملكت أيماكم بالنكاح، أو بالثمن ملك استمتاع بالمهر والبينة، أو ملك استخدام بئمن الامة.

اللغة والاعراب:

وأصل الاحصان المنع. وسمي الحصن حصنا لمنعه من أراده من أعدائه، والدرع الحصينة أي المنيعة، والحصان الفحل من الإفراس لمنعه صاحبه من الهلاك، والحصان العفيفة من النساء، لمنعها فرجها من الفساد. ومنه قوله: " التي أحصنت فرجها " (١) وكذلك أحصنها الزوج، وبناء حصين ممتنع، وحصنت المرأة تحصن حصانة، والحاصن: العفيفة، قال العجاج:

وحاصن من حاصنات ملس * من الأذى ومن قراف الوقس (٢)

وقال أبو علي الفارسي، قال سيبويه: حصنت المرأة حصنا وهي حصان، مثل: جنبنت جنبنا فهي جبان، وقالوا حصنا، كما قالوا: علما قال الأزهري: يقال للرجل إذا تزوج: أحصن فهو محصن، كقولهم: أفلج فهو ملفج إذا أعدم وافتقر، وأسهب فهو مسهب، إذا أكثر الكلام. وكلام العرب كله على أفعال فهو مفعّل، بكسر العين، مثل أسمع فهو مسمع، وأعرب فهو معرب، وأفصح فهو مفصح، إلا ما ذكرناه والاحصان على أربعة أقسام: أحدها - يكون بالزوجة، كقوله: " والمحصنات من النساء ". والثاني - بالاسلام، كقوله: " فاذا أحصن فان أتيت بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات " (٣).

(١) سورة التحريم: آية / ١٢ (٢) ديوانه ٧٨، واللسان (قنس)، (وقس)، (حصن) ومجاز القرآن ١: ١٢٢ ورواية اللسان (عن) بدل (من) في العجز في الموضوعين.
(٣) سورة النساء: آية ٢٥.

(١٦٤)

والثالث - بالعفة كقوله: " والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء " (١). الرابع - يكون بالحرية، كقوله: " والمصنات من الذين أتوا الكتاب من قبلكم " (٢) وقوله: " كتاب الله عليكم " يحتمل نصبه وجهين:

أحدهما - أن يكون مصدرا جرى على غير فعله وفيه معناه، كأنه قال:

حرم الله ذلك كتابا من الله، أو كتب كتابا، كما قال: " صنع الله الذي أتقن كل شيء " (٣) فنصبه بقوله: " وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب " (٤) فكان ذلك دلالة على أنه قد صنعها فنصب على أنه مصدر، وقال الشاعر:

ورضت فذلت صعبة أي اذلال (٥)

لأن معنى رضت أذلت، قال الزجاج: ويجوز أن يكون منصوبا على جهة الامر، ويكون " عليكم " مفسرا، والمعنى: الزموا كتاب الله.

الثاني - على الاغراء، والعامل محذوف، لان عليكم لايعمل فيما قبله:
وأنشد:

يأيتها المائح دلوى دونكا * إني رأيت الناس يحمدونكا (٦)
والمعنى هذا دلوي دونكا، وهو معنى قول الزجاج.
المعنى:

وقوله: (وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا باموالكم) قيل في معناه أربعة أقوال:

(١) سورة النور: آية ٤. (٢) سورة المائدة: آية ٦.

(٣، ٤) سورة النمل: آية ٨٨.

(٥) قائله امرؤ القيس. ديوانه: ١٦١. وصدده:

وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا (٦) البيت لجاهلي من بني أسيد بن عمر بن تميم. معاني القرآن ١: ٢٦٠، وخزانة
الادب ٣: ١٧.

(١٦٥)

أحدها - قال عبيدة السلماني، والسدي: أحل لكم مادون الخمس، أن تبتغوا باموالكم على وجه
النكاح.

الثاني - قال عطاء أحل لكم ماوراء ذوات المحارم من أقاربكم.

الثالث - قال قتادة: (ماوراء ذلكم) مما ملكت أيماكم.

الرابع - ماوراء ذوات المحارم إلى الرابع، أن تبتغوا باموالكم نكاحا، أو بملك يمين، وهذا
الوجه أولى، لانه حمل الآية على عمومها في جميع ماذكر الله، ولاتتافي بين هذه الاقوال.

ومن فتح الهمزة حمله على أقرب المذكورين في قوله: (كتاب الله عليكم)

ومن ضم حمله على (حرمت) وموضع (أن تبتغوا) نصب، ويحتمل نصبه على وجهين:

أحدهما - على البذل من ما.

والثاني - على حذف اللام من " لان تبتغوا "، ومن قرأ بالضم جاز عنده الرفع والنصب،

وقوله: " محصنين " أي عاقدين التزويج، غير مسافحين: عاقين للفروج، فال مجاهد، والسدي:

معناه غير زانين وأصله: صب الماء، تقول:

سفع الدمع إذا صبه، وسفع الجبل أسفله، لانه مصب الماء منه، وسافح إذا زنا نصبه الماء

باطلا. وقال الزجاج: المسافح والمسافحة الزانيان غير ممتنعين من أحد، فاذا كانت تزني

بواحد فهي ذات خدن، فحرم الله الزنا على كل حال، على السفاح واتخاذ الصديق. وقوله: (فما

استمتعتم به منهن) قال الحسن، ومجاهد، وابن زيد:

هو النكاح، وقال ابن عباس، والسدي: هو المتعة إلى أجل مسمى، وهو مذهبنا، لان لفظ الاستمتاع إذا أطلق لا يستفاد به في الشرع إلا العقد المؤجل، ألا ترى أنهم يقولون: فلان يقول بالمتعة، وفلان لا يقول بها، ولا يريدون إلا العقد المخصوص، ولا ينافي ذلك قوله: " والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم " (١) لانا نقول: إن هذه زوجة، ولا يلزم أن يلحقها

(١) سورة المؤمنون: آية ٥ - ٦ وسورة المعارج آية ٢٩ - ٣.

(١٦٦)

جميع أحكام الزوجات، من الميراث، والطلاق، والايلاء، والظهار، واللعان، لان احكام الزوجات تختلف، ألا ترى أن المرتدة تبين بغير طلاق، وكذلك المرتد عندنا، والكتابية لا ترث، وأما العدة فانها تلحقها عندنا، ويلحق بها أيضا الولد، فلا شناعة بذلك، ولولم تكن زوجة لجاز أن يضم ما ذكر في هذه السورة إلى ما في تلك الآية، لانه لا تنافي بينهما، ويكون التقدير: إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم أو ما استمتعتم به منهن وقد استقام الكلام. وروي عن ابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب وسعيد بن جبیر: أنهم قرأوا " فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى " وذلك صريح بما قلناه، على أنه لو كان المراد به عقد النكاح الدائم لوجب لها جميع المهر بنفس العقد، لانه قال: (فأتوهن أجورهن) يعني مهورهن، عند أكثر المفسرين، وذلك غير واجب بلاخلاف، وإنما يجب الاجر بكماله في عقد المتعة. وفي أصحابنا من قال: قوله: (أجورهن) يدل على أنه أراد المتعة، لان المهر لا يسمى أجرا، بل سماه الله صدقة ونحلة، وهذا ضعيف، لان الله سمي المهر أجرا في قوله (فانكحوهن باذن أهلهن وآتوهن أجورهن) (١)

وقال: (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتوهن أجورهن) (٢)

ومن حمل ذلك كله على المتعة كان مرتكبا لما يعلم خلافه، ومن حمل لفظ الاستمتاع على الانتفاع فقد أبعد، لانه لو كان كذلك لوجب أن لا يلزم من لا ينتفع بها شيء من المهر، وقد علمنا أنه لو طلقها قبل الدخول لزمه نصف المهر، وإن خلا بها خلوة تامة لزمه جميع المهر عند كثير من الفقهاء، وإن لم يلتذ ولم ينتفع.

وأما الخبر الذي يروونه أن النبي (صلى الله عليه وآله) نهى عن المتعة، فهو خبر واحد لا يترك له ظاهر القرآن، ومع ذلك يختلف لفظه وروايته فتارة يروون أنه نهى عنها في عام خيبر، وتارة يروون أنه نهى عنها في عام الفتح، وقد طعن أيضا في طريقه بما هو معروف، وأدل دليل

على ضعفه قول عمر: (متعنتان كانتا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما) فاخبر أن هذه المتعة كانت على

(١) سورة النساء: آية ٢٥. (٢) سورة المائدة: آية ٦. (*)

(١٦٧)

عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأنه الذي نهى عنهما، لضرب من الرأي. فان قالوا. إنما نهى لان النبي (صلى الله عليه وآله) كان نهى عنهما، قلنا: لو كان كذلك لكان يقول: متعتان كانتا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فنهى عنهما، وأنا أنهى عنهما أيضا، فكان يكون أكد في باب المنع، فلما لم يقل ذلك دل على أن التحريم لم يكن صدر عن النبي (صلى الله عليه وآله)، وصح ماقلناه. وقال الحكم بن عتيبة، قال علي (ع) لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنا إلا شقي. وذكر البلخي، عن وكيع، عن اسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن عبدالله بن مسعود: قال كنا مع النبي (صلى الله عليه وآله) ونحن شباب، فقلنا يارسول الله ألا نستخصي، قال: لا، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب، إلى أجل. وقوله: (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) قال الحسن، وابن زيد: أي تراضيتم به من حط بعض الصداق أو تأخيرها، أو هبة جميعه. وقال السدي وقوم من أصحابنا: معناه: لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من استئناف عقد آخر بعد انقضاء المدة التي تراضيتم عليها، فتزويدها في الاجر وتزويدك في المدة. وفي الآية دلالة على جواز نكاح المرأة على عمتها وخالتها، لان قوله: (وأحل لكم ما وراء ذلكم) عام في جميعهن، ومن ادعى نسخه فعلية الدلالة، وما يروى من قوله (صلى الله عليه وآله): (لا تنكح المرأة على عمتها ولا خالتها) خبر واحد لا ينسخ به القرآن، ولو كان معلوما لما جاز أن ينسخ به القرآن عند أكثر الفقهاء، لان نسخ القرآن لا يجوز عندهم بالسنة، وادعائهم الاجماع على الخبر غير مسلم، لانا نخالف فيه. وقوله: (إن الله كان عليما حكيما) معناه عليما بما يصلح أمر الخلق، حكيما فيما فرض لهم من عقد النكاح الذي به حفظت الاموال، والانساب. قال البلخي: والآية دالة على أن نكاح المشركين ليس بزنا. لان قوله: (والمحصنات من النساء) المراد به ذوات الازواج من أهل الحرب، بدلالة قوله: (إلا ما ملكت أيمانكم) بسببهن ولاخلاف أنه لايجوز وطى المسبية إلا بعد استبرائها بحيضة.

(١٦٨)

قوله تعالى:

(ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن باذن أهلهن وآتوهن أجورهن

بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخذان فاذا أحسن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم) (٢٥)

- آية بلاخلاف -

القرءة، واللغة:

قرأ أهل الكوفة إلا حفصا (فاذا أحسن) - بضم الهمزة وكسر الصاد - الباقون بفتحهما، وقرأ " المحصنات " - بكسر الصاد - الكسائي وحده، قوله: (ومن لم يستطع منكم طولا) معناه: من لم يجد منكم طولا وقيل في معنى الطول قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد: هو الغنى، وهو المروي عن أبي جعفر (ع).

والثاني - قال ربيعة، وجابر، وعطاء، وإبراهيم: أنه الهوى، قال: إذا هوي الأمة فله أن يتزوجها وإن كان ذا يسار. وقال الحسن، والشعبي: لا يجوز ذلك، والقول الأول هو الصحيح، وعليه أكثر الفقهاء. والطول الغنى، وهو ماخوذ من الطول خلاف القصر، فشبه الغنى به، لأنه ينال به معالي الأمور، وقولهم ليس فيه طائل. أي: لا ينال به شيء من الفوائد، والتطول الافضال

(١٦٩)

بالمال، والتطول على الناس الترفع عليهم، وكذلك الاستطالة، وتقول: طلا فلان طولا، أي كأنه فضل عليه في القدرة، وقد طالت طولك وطيلك أي طالت مدتك، قال الشاعر:

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل * وإن بليت وإن طالت بك الطيل (١)

والطول الحبل.

المعنى:

وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز نكاح الأمة الكتابية، لأنه قيد جواز العقد على الاماء إذا كن مؤمنات، وهو قول مالك بن أنس، ومجاهد، وسعيد بن عبدالعزيز، وأبي بكر بن عبدالله بن أبي مريم، والحسن، والطبري، وقال أبو ميسرة، وأبو حنيفة، وأصحابه: يجوز ذلك، لان التقيد هو على جهة الندب دون التحريم، والاول أقوى، لأنه الظاهر، وما قالوه عدول عنه. ومنهم من قال:

لان التأويل: من فتياتكم المؤمنات دون المشركات من عبدة الاوثان، بدلالة الآية التي في المائدة، وهي قوله تعالى: " والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم " (٢) وهذا ليس بشيء، لان الكتابية لاتسمى مؤمنة. ومن أجاز العقد على الكتابية له أن يقول: آية المائدة

مخصوصة بالحرائر منهن دون الاماء، وظاهر الآية يقتضي أن من وجد الطول من مهر الحرة ونفقتها، ولا يخاف من العنت. وهو مذهب الشافعي، غير أن أكثر أصحابنا قالوا: ذلك على وجه الافضل، لا أنه لو عقد عليها وهو غني كان العقد باطلا، وبه قال أبو حنيفة، وقووا ذلك بقوله:

" ولامة مؤمنة خير من مشركة " (٣) إلا أن من شرط صحة العقد على الامة عند أكثر الفقهاء، أن لا تكون عنده حرة، وهكذا عندنا، إلا أن ترضى الحرة

(١) قائله القطامي ديوانه: ٣٢ وجمهرة الاشعار: ٣١٣ والطيل جمع طيلة وهي الدهر.

(٢) سورة المائدة: آية ٦. (٣) سورة البقرة: آية ٢٢١.

(١٧٠)

بأن يتزوج عليها أمة، فإن أذنت كان العقد صحيحا عندنا، ومتى عقد عليها بغير إذن الحرة كان العقد على الامة باطلا. وروى أصحابنا أن الحرة تكون بالخيار بين أن تفسخ عقد الامة، أو تفسخ عقد نفسها، والاول أظهر، لانه إذا كان العقد باطلا لا يحتاج إلى فسخه، فاما تزويج الحرة على الامة، فجائز، وبه قال الجبائي. وفي الفقهاء من منع منه، غير أن عندنا لا يجوز ذلك إلا باذن الحرة، فان لم تعلم الحرة بذلك كان لها أن تفسخ نكاحها، أو نكاح الامة، وفي الناس من قال: في عقده على الحرة طلاق الامة. وقوله: " من فتياكم المؤمنات " فالفتى الشاب، والفتاة الشابة، والفتاة الامة، وإن كانت عجوزا لانها كالصغيرة في أنها لاتوقر توقير الكبيرة، والفتوة حال الحداثة، ومنه الفتيا، تقول: أفتى الفقيه. يفتي لانه يسأله مسألة في حادثة. وقوله: " والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض " قيل في معناه قولان:

أحدهما - كلكم ولد آدم.

والثاني - كلكم على الايمان. ويجوز أن تكون الامة أفضل من الحرة، وأكثر ثوابا عندالله، وفي ذلك تسلية لمن يعقد على الامة، إذا جوز أن تكون أكثر ثوابا عندالله، مع اشتراكهم بأنهم ولد آدم، وفي ذلك صرف عن التغاير بالانساب. ومن كره نكاح الامة قال: لان الولد عندنا يلحق بالحرية في كلا الطرفين.

وقوله: " فانكوهن باذن أهلهن " أي اعدوا عليهن باذن أهلهن، وفيه دلالة واضحة على أنه لايجوز نكاح الامة بغير اذن وليها الذي هو مالكها.

وقوله: " وآتوهن أجورهن " معناه: اعطوا مالكنهن مهورهن، لان مهر الامة لسيدها، " بالمعروف " وهو ما وقع عليه العقد وتراضي. وقوله:

" محصنات غير مسافحات " يعني بالعقد عليهن، دون السفاح معهن، " ولامتخذات أخدان " وقد بينا الفرق بين الخدن والسفاح فيما مضى، والخذن هو الصديق يكون للمرأة، بزني بها سرا، كذا كان في الجاهلية، والسفاح ماظهر منه، وكان

(١٧١)

فيهم من يحرم ما ظهر من الزنا، ولايحرم ماخفي منه، ذكر ذلك ابن عباس، وغيره من المفسرين. وخذن الرجل وخذينه صديقه.

وقوله: (فاذا أحصن) من قرأ بالضم، قال: معناه تزوجن، ذكر ذلك ابن عباس، وسعيد بن جببر، ومجاهد، وقتادة. ومن فتح الهمزة قال: معناه أسلمن، روي ذلك عن عمر، وابن مسعود، والشعبي، وابراهيم، والسدي. وقال الحسن: يحصنها الزوج، ويحصنها الاسلام، وهو الاولى، لانه لاخلاف أنه يجب عليها نصف الحد إذا زنت، وإن لم تكن ذات زوج، كما أن عليها ذلك وان كان لها زوج، لانه وإن كان لها زوج لايجب عليها الرجم، لانه لايتبعض، فكان عليها نصف الحد خمسين جلدة. على أن قوله: " فعليهن نصف ما على المحصنات " يعني نصف ما على الحرائر، وليس المراد به ذوات الأزواج، فالاحصان المذكور للامة التزويج، والمذكور للمحصنات الحرية، وبيننا أنه يعبر به عن الامرين.

وقال بعضهم: إذا زنت الامة قبل أن تتزوج، فلا حد عليها، وإنما عليها نصف الحد إذا تزوجت بظاهر الآية.

وقوله: (ذلك لمن خشي العنت منكم)، فالعنت معناه ههنا الزنا في قول ابن عباس، وسعيد بن جببر، وعطية العوفي، والضحاك، وابن زيد. وقال قوم:

هو الضرر الشديد في الدين أو الدنيا، مأخوذ من قوله: " ودوا ما عنتم " (١) والاول أقوى، وقوله: " وإن تصبروا خير لكم " يعني: عن نكاح الاماء، في قول ابن عباس، وسعيد بن جببر، ومجاهد، وقتادة، وعطية. وأكمة عنوت صعبة المرتقى. ومتى اجتمع عند الرجل حرة وأمة كان للحره يومان وللامة يوم، وعندنا أن بيع الامة طلاقها، إلا أن يشاء المشتري إمضاء العقد، وكذلك الهبة، وكل ماينتقل به الملك من الميراث، والسبي، وغيره. فاما عتقها فانه يثبت به لها الخيار، كما ثبت لبريره، ومتى كانت تحت الزوج الحر أو عبد لغيره، لم يكن للمولى التفرقة بينهما، فان كانا جميعا له كان التفرقة إلى المولى.

(١) سورة آل عمران: ١١٨. (*)

(١٧٢)

واستدلّت الخوارج على بطلان الرجم بهذه الآية، قالوا: لما قال الله تعالى: (فعلّيهن نصف ما على المحصنات من العذاب)، وكان الرجم لا يمكن تبغيضه، دل على أنه لأصل له، وعلى ما بيناه من أن المراد فعلّيهن نصف ما على الحرائر، دون نوات الأزواج، يسقط هذا السؤال. ويدل على أن الاحصان يعبر به عن الحرية زائداً على ما تقدم، قوله في أول الآية: (ومن لم يستطع منكم طويلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيما نكح) ولا شك أنه أراد الحرة أو العفائف، لأن التي لها زوج لا يمكن العقد عليها، وجد طولها أولم يجد، وقوله:

(والذين يرمون المحصنات) يدل عليه أيضاً، لأن المراد به المسلمة الحرة، سواء كانت ذات زوج أولم تكن، بلا خلاف. والرجم معلوم من دين المسلمين بالتواتر فإنهم لا يختلفون أنه (صلى الله عليه وآله) رجم معاذ بن مالك الأسلمي، ورجم يهودياً ويهودية، وعليه جميع الفقهاء من عهد الصحابة إلى يومنا هذا، فخلاف الخوارج لا يلتفت إليه. وفي الناس من قال: إن قوله: " أن ينكح المحصنات " المراد به الحرائر دون أن نكون مختصاً بالعفائف، لأنه لو كان مختصاً بالعفائف لما جاز العقد على من ليس كذلك، لأن قوله: " الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة " إلى قوله: " وحرّم ذلك على المؤمنين " (١) منسوخ بالاجماع، وبقوله: " فانكحوا ما طاب " (٢)

وبقوله: " وانكحوا الأيامى " (٣) ويمكن أن يخص بالعفائف على الأفضل دون الوجوب، وقوله: " فعلّيهن " معناه لازم لهن نصف ما يلزم المحصنات، دون أن يكون ذلك واجباً عليهن، وقوله: " وان تصبروا " في موضع رفع، والتقدير والصبر عن نكاح الأمة خير لكم. وفي الآية تقديم وتأخير، لأن التقدير: " ومن لم يستطع منكم طويلاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيما نكح " أي فلينكح مما ملكت أيما نكح (من فتياتكم المؤمنات بعضكم من بعض والله أعلم بأيما نكح) ذكره الطبري وهو جيد مليح.

(١) سورة النور: آية ٣. (٢) سورة النساء: آية ٣. (٣) سورة النور: آية ٣.

(١٧٣)

قوله تعالى: (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) (٢٦) - آية بلاخلاف.

الاعراب:

اللام في قوله: (ليبين لكم) للنحويين فيه ثلاثة أقوال:

أولها - قال الكسائي، والفراء، والكوفيون: إن معناها (أن)، وإنما لايجوز ذلك في أردت وأمرت لأنها تطلب الاستقبال، لايجوز أردت أن قمت، ولا أمرت أن قمت فلما كانت (أن) في سائر الافعال تطلب الاستقبال، استوثقوا له باللام، وربما جمعوا بين اللام وكي لتأكيد الاستقبال، قال الشاعر:

أردت لكيما لاترى لي عثرة * ومن ذا الذي يعطى الكمال فيكمل (١)
وقال الفراء: ربما جاء مع غير الارادة والامر، أنشدني بن الجراح:
أحاول إنا اتي بما قال أم رجا * ليضحك مني أو ليضحك صاحبه (٢)
ومعناه: رجا أن يضحك، ومثله: (وأمرنا لنسلم) (٣) وفي موضع آخر. (أمرت أن أكون أول من أسلم) (٤) وربما جمعوا بين اللام وكي وأن، قال الشاعر:
أردت لكيما أن تطير بقربتي * ففتركها شنا ببببب ببلقع (٥)

(١) معاني القرآن ١: ٢٦٢ أنشده أبوتروان. وفي شواهد الهمع ٢: ٥ روايته (تراني عشيرتي) بدل (تري لي عثرة).

(٢) معاني القرآن ١: ٢٦٢ قائله أبو الجراح الانفي من بني انف الناقية. وكان في المخطوطة والمطبوعة هكذا
أحاول اعدائي بما قال أم رجا * فيضحك مني أو ليضحك صاحبه
(٣) سورة الانعام: آية ٧١ (٤) سورة الانعام: آية ١٤.
(٥) لم يعرف قائله. معاني القرآن ١: ٢٦٢ والانصاف: ٢٤٢ والخزانة ٣: ٥٨٥.
والعيني (هامش الخزانة) ٤: ٤٠٥، وحاشية الصبان ٣: ٢٨٠. قوله (أن تطير) كناية عن الهرب، والشن: الخلق البالي، والبببب: المغازة المهلكة، والبلقع: الارض الفقراء.

(١٧٤)

ولايجوز في الظن أن تقع اللام بمعنى أن، لان الظن يصلح معه الماضي والمستقبل، نحو: ظننت أن قمت، وظننت أن تقوم، ولايجوز: ظننت لتقوم بمعنى: ظننت أن تقوم.
الثاني - قال الزجاج لايجوز أن تقع اللام بمعنى أن، واستشهد بقول الشاعر:
أردت لكيما يعلم الناس إنها * سراويل سعد والوفود شهود
فلو كانت بمعنى أن لم تدخل على كي، كما لا تدخل أن على كي، قال: الرماني:
ولقائل أن يقول: إن هذه لام الاضافة مردودة إلى أصلها، فلا يجب وقوع أن موقعها، ومذهب سيبويه وأصحابه أن اللام دخلت في هذا على تقدير المصدر، أي: ارادة للبيان لكم، نحو قوله:
(إن كنتم للرؤيا تعبرون) (١) (وردف لكم بعض الذي تستعجلون) (٢) ومعناه: إن كنتم تعبرون الرؤيا، قال كثير:

أريد لانسى ذكرها فكأنما * تمثل لي ليلي بكل سبيل

أي: إرادتي لهذا.

الثالث - ضعف هذين الوجهين بعض النحويين، بأن جعل اللام بمعنى (أن) لم تقم به حجة قاطعة، وحمله على المصدر يقتضي جواز ضربت لزيد بمعنى ضربت زيدا، وهذا لا يجوز، ولكن يجوز في التقديم، نحو لزيد ضربت وللرؤيا تعبرون، لان عمل الفعل في التقديم يضعف، كعمل المصدر في التأخير، ولذلك لم يجز إلا في المتصرف، فاما " ردف لكم " فعلى تأويل: ردف ما ردف لكم، وعلى ذلك يريد ما يريد لكم، وكذلك قوله: " وأمرنا لنسلم " (٣) أي أمرنا بما أمرنا لنسلم، فهي تجري بهذا على أصولها، وقياس بابها. وقال قوم معناه: يريد الله هذا من أجل أن يبين لكم، كما قال: " وأمرت لأعدل بينكم " (٤) معناه: وأمرت بهذا من أجل ذلك، وإنما لم يجز أن يراد الماضي لامرين: أحدهما - أن الإرادة لاستدعاء الفعل، ومحال أن يستدعي ما قد فعل، كما

(١) سورة يوسف: آية ٤٣. (٢) سورة النمل: آية ٧٢.

(٣) سورة الانعام: آية ٧١. (٤) سورة الشورى: ١٥.

(١٧٥)

أنه محال أن يؤمر بما قد وقع، لانه لا يحسن أن يقول: إفعل أمس، أو أريد أمس. والثاني - أن بالارادة يقع الفعل على وجه دون وجه، من حسن أو قبح، أو طاعة أو معصية، وذلك محال فيما مضى.

المعنى:

وقوله: " ويهديكم سنن الذين من قبلكم " قيل فيه قولان:

أحدهما - " يهديكم سنن الذين من قبلكم " من أهل الحق، لتكونوا على الاقتداء بهم في اتباعه لما لكم فيه من المصلحة.

الثاني - (سنن الذين من قبلكم) من أهل الحق، لتكونوا على بصيرة فيما تفعلون أو تجتنبون من طرائقهم، وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة، لان الله تعالى بين أنه يريد أن يتوب على العباد، وهم يزعمون أنه يريد منهم الاصرار على المعاصي. وقال أبو علي الجبائي: في الآية دلالة على أن ما ذكر في الآيتين من تحريم النكاح أو تحليله، قد كان على من قبلنا من الامم، لقوله تعالى: " ويهديكم سنن الذين من قبلكم " أي في الحلال والحرام. قال الرماني:

لا يدل ذلك على اتفاق الشريعة، وإن كنا على طريقتهم في الحلال والحرام، كما لا يدل عليه وإن كنا على طريقتهم في الاسلام، وهذا هو الاقوى.

قوله تعالى:

(والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما (٢٧) - آية - .
المعنى:

معنى الآية الاخبار من الله تعالى أنه يريد من المواجهين بها، أن يتوب

(١٧٦)

عليهم، بمعنى أن يقبل توبتهم، عما سلف من آثامهم، ويتجاوز عما كان منهم في الجاهلية، من استحلالهم ما هو حرام عليهم من حلائل الآباء والابناء، وغير ذلك مما كانوا يستحلونه، وهو حرام عليهم. إن قيل: لم كرر قوله: " والله يريد أن يتوب عليكم "؟ مع ما تقدم من قوله: " يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم " قلنا عنه جوابان: أحدهما - أنه لما في الاول، وتقديره: يريد الله ليتوب عليكم أنى في الثاني ب (أن) ليزول الإيهام أنه يريد ليتوب، ولا يريد (٣) أن يتوب علينا. والآخر - أن يبين أن إرادته منا خلاف إرادة أصحاب الأهواء لنا، لنكون على بصيرة من أمرنا، وجاء الثاني على التقابل، بأن الله يريد شيئا ويريدون خلافه. والمعنى: بقوله: " ويريد الذين يتبعون الشهوات " قيل فيه أربعة أقوال: الاول - قال ابن زيد: كل مبطل، لانه يتبع شهوة نفسه في باطله. الثاني - قال مجاهد: يعني به: الزناة. الثالث - قال السدي: هم اليهود والنصارى.

الرابع - اليهود خاصة، لانهم يحلون نكاح الاخت من الاب، والاول أقوى، لانه أعم فائدة، وأوفق لظاهر اللفظ. وقوله: " أن تميلوا ميلا عظيما " معناه أن تعدلوا عن الاستقامة بالاستكثار من المعصية، وذلك أن الاستقامة هي المؤدية إلى الثواب، والفوز بالسلامة من العقاب، وأما الميل عن الاستقامة فيؤدي إلى الهلاك واستحقاق العقاب. فان قيل: ما معنى إرادتهم الميل بهم؟ قيل قد يكون ذلك لعداوتهم، وقد يكون لتمام الانس بهم في المعصية، فبين الله أن إرادته لهم خلاف إرادتهم منهم، وليس في الآية ما يدل على أنه لايجوز اتباع داعي الشهوة في شئ البتة، لانه لاخلاف أن اتباع الشهوة فيما أباحه الله تعالى جائز، وإنما المحذور من

(١) في المخطوطة (ولانه يريد) بدل (ولا يريد).

(١٧٧)

ذلك ما يدعو إلى ما حرمه، لكن لا يطلق - على - (١) صاحبه بانه متبع للشهوة، لان إطلاقه يفيد اتباع الشهوة فيما حرم عليه.

قوله تعالى:

(يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا) (٢٨)

- آية بلاخلاف -.

المعنى واللغة:

معنى قوله: " يريد الله أن يخفف عنكم " ههنا أي في نكاح الاماء، لان الانسان خلق ضعيفا في أمر النساء، هذا قول مجاهد، وطاووس، وزيد. وأصل التخفيف خفة الوزن، والتخفيف على النفس بالتييسير، كخفة الحمل بخفة الوزن، ومنه الخفافة النعامة السريعة، لانها تسرع أسراع الخفيف الحركة، والخفوف السرعة، ومنه الخف الملبوس لانه يخف به التصرف، ومنه خف البعير. والمراد بالتخفيف ههنا تسهل التكليف، بخلاف التصعب فيه، فتحليل نكاح الاماء تيسير بدلا من تصعيب، وكذلك جميع ما يسره الله لنا إحسانا منه إلينا، ولطفا بنا.

فان قيل: هل يجوز التثقيل في التكليف، مع خلق الانسان ضعيفا عن القيام به بدلا من التخفيف؟ قيل: نعم إذا أمكنه القيام به، وإن كان فيه مشقة، كما ثقل التكليف على بني اسرائيل في قتل أنفسهم، غير أن الله لطف بنا فكلما ما يقع به صلاحنا، بدلا من فسادنا. وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة: ان الله يكلف عباده ما لا يطيقون، لان ذلك مناف لارادة التخفيف عنهم في التكليف، من حيث أنه غاية التثقيل. وقوله: " وخلق الانسان ضعيفا " أي يستميله هو اه.

قوله تعالى:

(ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا

(١) في المخطوطة والمطبوعة (لصاحبه) يدل (على صاحبه).

(١٧٨)

أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا) (٢٩) - آية واحدة بلاخلاف -.

القراءة، والاعراب:

قرأ أهل الكوفة: " تجارة " نصبا، الباقيون: بالرفع، فمن رفع ذهب إلى أن معناه: إلا أن تقع تجارة، ومن نصب فمعناه: إلا أن تكون الاموال تجارة، أو أموال تجارة، وحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، ويكون الاستثناء منقطعاً، ويجوز أن يكون التقدير: إلا أن تكون التجارة تجارة، كما قال الشاعر:

إذا كان يوما ذا كواكب أشنعا (١)

وتقديره: إذا كان اليوم يوما ذا كواكب، ذكره أبو علي النحوي. وقال الرماني التقدير: إلا أن تكون الاموال تجارة، ولم يبين. والقول ما قال أبو علي، لان الاموال ليست تجارة. ومن شأن خبر كان أن يكون هو إسمها في المعنى.

وقيل: الرفع إقوى، لانه أدل في الاستثناء على الانقطاع، فان التحريم لاكل المال بالباطل على الاطلاق. وفي الناس من زعم أن نصبه على قول الشاعر:

إذا كان طعنا بينهم وعناقا (٢)

أي إذا كان الطعن طعنا. قال الرماني: وهذا ليس بقوي، لان الاضمار قبل الذكر ليس يكثر في مثل هذا، وإن كان جائزا، فالرفع يغني عن الاضمار فيه. المعنى:

وفي معنى قوله: " لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل " قولان:

أحدهما - قال السدي: بالربا، والقمار، والبخس، والظلم، وهو المروي عن

(١) لم يعرف قائله معاني القرآن للفراء ١: ١٨٦ وسيبويه ١: ٢٢ وصدده:

ولله قومي أي قوم لحره (٢) لم يعرف قائله معاني القرآن ١: ١٨٦ وصدده: أعيني هلا تبيكان عفاقا. وعفاق: اسم رجل.

(١٧٩)

أبي جعفر (ع).

الثاني - قال الحسن: بغير استحقاق من طريق الاعواض. وكان الرجل يتخرج أن يأكل عند أحد من الناس بعد ما نزلت هذه الآية، إلى أن نسخ ذلك بقوله في سورة النور: " ولاعلى أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم.. " إلى قوله: " جميعا أو أشتاتا " (١) والاول أقوى، لان ما أكل على وجه مكارم الاخلاق فليس هو أكل بالباطل. وقيل: معناه التخاون، ولذلك قال: " بينكم " .

وقوله: " إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم " فيه دلالة على بطلان قول من حرم المكاسب، لانه تعالى حرم أكل الاموال بالباطل، وأحله بالتجارة على طريق المكاسب. ومثل قوله: " وأحل الله البيع وحرم الربا " (٢) وقيل في معنى التراضي بالتجارة قولان:

أحدهما - إمضاء البيع بالتفرق، أو بالتخاير بعد العقد في قول شريح، وابن سيرين، والشعبي، لقوله (صلى الله عليه وآله): البيعان بالخيار مالم يتفرقا أو يكون بيع خيار. وربما قالوا: أو يقول أحدهما للآخر اختر، وهو مذهبنا.

الثاني - إمضاء البيع بالعقد - على قول مالك بن أنس، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، - ومحمد - بعله رده إلى عقد النكاح، ولاخلاف أنه لاخيار فيه بعد الافتراق، وقيل: معناه إذا تغابنوا فيه مع التراضي فانه جائز.

وقوله: " ولا تقتلوا أنفسكم " قيل فيه: ثلاثة أقوال:
أحدها - قال عطاء، والسدي، وأبو علي الجبائي، والزجاج: لا يقتل بعضهم بعضا من حيث كانوا أهل دين واحد، فهم كالنفس الواحدة، كما يقول القائل: قتلنا ورب الكعبة، ومعناه قتل بعضنا، لأنه صار كالقتل لهم، ومثله قوله: " فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم " (٣).
الثاني - قال البلخي: فيه نهي عن قتل نفسه في حال غضب، أو زجر، (١) سورة النور: آية ٦١. (٢) سورة البقرة: آية ٢٧٥.
(٣) سورة النور: آية ٦١.

(١٨٠)

والاول أقوى، لأنه أكثر وأغلب، وأيضا فإنه إذا حرم عليه قتل غيره من أهل دينه، لأنه بمنزلة قتل نفسه، فقد حرم عليه قتل نفسه.
الثالث - قال قوم: معناه: لا تقتلوا أنفسكم، بان تهلكوها بارتكاب الآثام، والعدوان في أكل المال بالباطل، وغيره من ارتكاب المعاصي، التي تستحقون بها العقاب. وروي عن أبي عبد الله (ع): أن معناه لاتخاطروا بنفوسكم في القتال، فتقاتلون من لاتطيقونه.
وقوله: " إن الله كان بكم رحيمًا " قال ابن عباس: كان صلة، والمعنى إن الله غفور رحيم، ويحتمل أن يكون المراد: " إن الله كان بكم رحيمًا " حيث كلفكم الامتناع من أكل المال بالباطل الذي يؤدي إلى العقاب، وحرم عليكم قتل نفوسكم التي حرمها عليكم، ويعلم انه رحيم فيما بعد بدليل آخر.
قوله تعالى:
(ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا) (٣٠) - آية
بلاخلاف -
المعنى:

قيل في تعليق الوعيد والاشارة بقوله: " ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما... " الآية، أربعة أقوال:
أولها - وهو أقواها - انه على أكل الاموال بالباطل، وقتل النفس بغير حق، والوعيد بكل واحدة من الخصلتين، لان الوعيد ذكر عقيب ذكر النهي عن الامرين، وهو اختيار الطبري.
الثاني - قال عطاء: هو على قتل النفس المحرمة خاصة.
الثالث - على فعل كلما نهى الله عنه، من أول السورة.
الرابع - أنه راجع إلى قوله: " يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا

(١٨١)

النساء كرها " (١) لان ما قبله مقرون بالوعيد.
وقوله: (وكان ذلك على الله يسيرا) معناه: أنه قادر على إنجاز الوعيد، لا يمكن صاحبه الامتناع منه، ولا الهرب منه، فيتعذر الايقاع به، فيجب أن تنزلوا الوعيد منزلته، وتكونوا على بصيرة فيه، غير مغترين بأمر يصرف عنه، وإنما قيد قوله: " ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما " لان من وقع منه قتل النفس على وجه السهو والخطأ في خلاف المراد، لم يتناوله الوعيد، وكذلك إذا أكل من أموال الناس على وجه مباح، لم يتوجه إليه الوعيد. والعدوان تجاوز ما أمر الله به، والظلم أن يأخذه على غير وجه الاستحقاق، وأصله وضع الشيء في غير موضعه، وفي المرجئة من قال: إنما قيد بذلك لان المراد من استحل أكل المال بالباطل، واستحل أيضا قتل النفوس، وذلك لا يكون إلا كافرا، فلذلك هدده بالوعيد المخصوص، فأما إذا فعل ذلك محرما له، فإنه يجوز أن يعفو الله عفو، فلا يتناوله الوعيد قطعا على كمال حال، ولو لم تحمل الآية على المستحلين، لامكننا أن نخص الآية بمن لا يعفو الله عنه، كما أنهم لابد لهم أن يخصوها بمن لم يتب من ذلك ولا تكون معصية صغيرة، فليس في الآية ما يمنع من القول بجواز العفو.

وإنما قال: (وكان ذلك على الله يسيرا) وإن كان يسيرا عليه الآن وفي مستقبل الاوقات، ليعلم أن الاوقات متساوية في ذلك على كل حال، ولا يجوز أن يقال قياسا على ذلك وكان الله قديما، لان قولنا قديم أغنى عن كان، إذ لم يختص بالحال بل أفاد الوجود في الازل، فلا معنى لادخال كان فيه. واليسير السهل، يقال: يسر الشيء إذا سهل فهو يسير، وعسر فهو عسير، إذا لم يتسهل.

قوله تعالى:

(إن تجتربوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) (٣١) - آية -.

(١) سورة النساء: آية ١٩. (*)

(١٨٢)

القراءة، والحجة:

قرأ نافع، وأبو بكر، عن عاصم: مدخلا - بفتح الميم - الباقون بضمها، وهو الأقوى، لانه من ادخلوا والآخر جائز، لان فيه معنى: فيدخلون، وليس كقول الشاعر:

الحمد لله ممسانا ومصبحنا * بالخير صبحنا ربي ومسانا (١)

ويروى بفتح الميم فيهما، أنشده البلخي في البيت، لأنه ليس فيه فعل، ولكن قد حكي بالفتح على التشبيه بالاول، ويحتمل أن يكون من قرأ بفتح الميم أراد: مكانا كريما، كما قال: " ومقام كريم " (٢) وقرأ المفضل، عن عاصم " يكفر " " ويدخلكم " بالياء فيهما، الباقر بالنون، وهو الاجود، لأنه وعد على وجه الاستئناف، فالاحسن ألا يعلق بالاول من جهة ضمير الغائب، واختاره الاخفش، ومن قرأ بالياء رده إلى ذكر الله في قوله: " إن الله كان بكم رحيمًا ".
المعنى:

والمعاصي وإن كانت كلها عندنا كبائر، من حيث كانت معصية الله تعالى، فإنا نقول: إن بعضها أكبر من بعض، ففيها إذا كبير بالإضافة إلى ما هو أصغر منه. وقال ابن عباس: كلما نهى الله عنه فهو كبير. وقال سعيد بن جبیر: كلما أوعد الله عليه النار فهو كبير، ومثله قال أبو العالية، ومجاهد، والضحاك. وعند المعتزلة أن كل معصية تؤعد الله تعالى عليها بالعقاب، أو ثبت ذلك عن النبي (صلى الله عليه وآله) أو كان بمنزلة ذلك، أو أكبر منه، فهو كبير، وما ليس ذلك حكمه فإنه يجوز أن يكون صغيرا، ويجوز أن يكون كبيرا، ولا يجوز أن يعين الله الصغائر، لأن في تعيينها الاغراء بفعالها، فمن المعاصي المقطوع على كونها كبائر: قذف المحصنات:

-
- (١) قائله أمية بن أبي الصلت. ديوانه: ٦٢ ومعاني القرآن للقراء ١: ٢٦٤ والخزائفة ١: ١٢٠، واللسان (إمسي).
(٢) سورة الشعراء: آية ٥٩. وسورة الدخان: آية ٢٦

(١٨٣)

وقتل النفس التي حرم الله، والزنا، والربا، والفرار من الزحف في قول ابن عباس، وسعيد بن جبیر، والحسن، والضحاك، ومثله عن أبي عبد الله (ع)، وزاد: وعقوق الوالدين، والشرك، وإنكار الولاية. وقال ابن مسعود: كلما نهى الله عنه، من أول السورة إلى رأس الثلاثين، فهو كبير. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: عقوق الوالدين، وشهادة الزور، كبير.

فعلى مذهب المعتزلة: من اجتنب الكبائر، وواقع الصغائر، فإن الله يكفر الصغائر عنه، ولا يحسن مع اجتناب الكبائر عندهم المؤأخذة بالصغائر، ومتى أخذ بها كان ظالما. وعندنا أنه يحسن من الله تعالى ان يؤأخذ العاصي بأي معصية فعلها، ولا يجب عليه إسقاط عقاب معصية لمكان اجتناب ما هو أكبر منها، غير أننا نقول: إنه تعالى وعد تفضلا منه أن من اجتنب الكبائر فإنه يكفر عنه ماسواها، بان يسقط عقابها عنه تفضلا، ولو أخذ بها لم يكن ظالما، ولم يعين

الكبائر التي إذا اجتنبها كفر ما عداها، لانه لو فعل ذلك لكان فيه إغراء بما عداها، وذلك لايجوز في حكمته تعالى. وقوله: " إن تجتنبوا كبائر " معناه من تركها جانبا والمدخل الكريم: هو الطيب الحسن المكرم بنفي الآفات والعاهات عنه. وقوله تعالى:

(ولاتتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شئ عليما) (٣٢) - آية بلاخلاف - . القراءة: قرأ ابن كثير، والكسائي " وسلوا " بغير همزة، وكذلك كلما كان أمر للمواجه في جميع القرآن، الباقرن بالهمزة، ولم يختلفوا في: " وليسألوا ما انفقوا " (١)

(١) سورة الممتحنة: آية ١٠. (*)

(١٨٤)

لانه أمر لغائب. قال أبو علي الفارسي. كلاهما جيد، إن ترك الهمزة واثباتها. النزول:

وقيل في سبب نزول هذه الآية أن أم سلمة قالت: (يارسول الله لانغزو مع الرجال، ولنا نصف الميراث، ياليت كنا رجالا، فكنا نقاتل معهم) فنزلت هذه الآية، في قول مجاهد. وقال الزجاج: قال الرجال: ليتنا كنا فضلنا في الآخرة على النساء، كما فضلنا عليهن في الدنيا، وبه قال السدي.

اللغة:

والتمني هو قول القائل: ليت كان كذا لم يكن، وليت لم يكن كذا لما كان. وفي الناس من قال: هو معنى في القلب. وقال الرماني: هو ما يجب على جهة الاستمتاع به، ومن قال: هو معنى في القلب قال: ليس هو من قبيل الشهوة، ولا من قبيل الإرادة، لان الإرادة لاتتعلق إلا بما يصح حدوثه، والتمني قد يتعلق بما مضى، والشهوة أيضا كالإرادة في أنها لاتتعلق بما مضى.

المعنى:

وظاهر الخطاب يقتضي تحريم تمنى ما فضل الله به بعضنا على بعض وقال الفراء: هو على جهة الندب والاستحباب، والاول هو حقيقة التمني، والذي قلناه هو قول أكثر المفسرين، ووجه تحريم ذلك أنه يدعو إلى الحسد، وأيضا فهو من دنايا الاخلاق، وأيضا فان تمنى الانسان لحال غيره قد يؤدي إلى تسخط ما قسم الله له، ولايجوز لاحد أن يقول ليت مال فلان لي، وإنما يحسن أن يقول: ليت مثله لي.

وقال البلخي: لايجوز للرجل أن يتمنى أن كان امرأة، وللمرأة أن تتمنى لو كانت رجلا، بخلاف ما فعل الله، لان الله لايفعل من الاشياء إلا ما هو أصلح، فيكون قد تمنى ما ليس بأصلح، أو ما يكون مفسدة. ويمكن أن يقال: إن ذلك يحسن بشرط أن لا يكون مفسدة، كما يقول في حسن السؤال سواء.

(١٨٥)

وقوله: (وللرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) قيل في معناه أقوال: أحدها - أن لكل واحد حظا من الثواب على حسب ما كلفه الله من الطاعات بحسن تدبيره، فمتى فعل ذلك استحق به علو المنزلة، فلاتتمنوا خلاف هذا التدبير، لما فيه من حرمان الحظ الجزيل.

الثاني - أن كل أحد إنما له جزء ما اكتسب، فلا يضيعه بتمني ما لغيره، مما يؤدي إلى إبطال عمله، فكأنه قيل: لاتضيع ما هو لك، بتمني ما لغيرك.

والثالث - أن لكل فريق من الرجال والنساء نصيبا مما اكتسب من نعيم الدنيا، بالتجارات والزراعات وغير ذلك من أنواع المكاسب، فينبغي أن يقنع ويرضى بما قسم له. وروي عن ابن عباس أنه قال: ذلك في الميراث، للرجال نصيب منه، وللنساء نصيب منه. والاجوبة الاولى أقرب، لان الميراث ليس مما يكتسبه الرجال والنساء، وإنما هو شئ يورثهم الله تعالى، والآية تضمنت أن لهم نصيبا مما اكتسبوا، وذلك لايليق إلا بما تقدم.

وقوله: (واسألوا الله من فضله) معناه: إن احتجتم إلى ما لغيركم، فاسألوا الله أن يعطيكم مثل ذلك من فضله، بشرط أن لا يكون فيه مفسدة لكم ولا لغيركم، لان المسألة لاتحسن إلا كذلك، وقال سعيد بن جبير: واسألوا الله العباد، وبه قال السدي،، ومجاهد.

وقوله: (إن الله كان بكل شئ عليما) معناه: إنه قسم الارزاق على ما علمه من الصلاح للعباد، بدلا من الفساد، فينبغي أن ترضوا بما قسمه، وتسألوه من فضله، غير منافسين لغيركم في عطيته.

قوله تعالى:

(ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والا قربون والذين

(١٨٦)

عقدت أيمانكم فاتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شئ شهيدا)

(٣٣) - آية بلاخلاف - .

القراءة، والاعراب، والحجة قرأ أهل الكوفة " عقدت " بغير ألف، الباقون بألف، فمن قرأ باثبات الالف، قال: لان المعاقدة تدل على عقد الحلف باليمين من الفريقين، وقال بعضهم إنه يعني عن ذلك جميع الايمان، قال الرماني: هذا خطأ، لانها قد تجمع لردّها على أحد الفريقين الحالف بها، قال أبو علي الفارسي: الذكر الذي يعود من الصلة إلى الموصول ينبغي أن يكون منصوباً، فالتقدير: والذين عاقدتم أيمانكم، فجعل الايمان في اللفظ هي المعاقدة، والمعنى على الحالفين الذين هم أصحاب الايمان، فالمعنى: والذين عاقدت حلفهم أيمانكم، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، فعاقدت أشبه بهذا المعنى، لان لكل نفس من المعاقدين يمينا على المحالفة. ومن قال: " عقدت أيمانكم " كل المعنى: عقدت حلفهم أيمانكم، فحذف الحلف، وأقام المضاف إليه مقامه، والاولون حملوا الكلام على المعنى، حيث كان من كل واحد من الفريقين يمين، ومن قال: " عقدت " حمل على اللفظ، لفظ الايمان، لان الفعل لم يسند إلى أصحاب الايمان في اللفظ، وإنما أسند إلى الايمان.

المعنى واللغة:

ومعنى الآية جعلنا الميراث لكل من هو مولى الميت، والموالي المذكورون في الآية، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: هم العصابة، وقال السدي: هم الورثة: وهو أقواها، والتقدير ولكلكم جعلنا ورثة مما ترك الوالدان والاقربون، ثم استأنف: والذين وأصل المولى من ولي الشيء يليه ولاية، وهو الاتصال للشيء بالشيء، من غير فاصل، والمولى على وجوه: فالمولى المعتق، والمولى المعتق، والمولى العصابة،

(١٨٧)

والمولى ابن العم، والمولى الحليف، والمولى الولي، والمولى الاولي بالشيء واللاحق. فالمعتق مولى النعمة بالعنق، والمعتق لانه مولى النعمة، والمولى الورثة، لانهم أولى بالميراث، والمولى الحليف، لانه يلي المحالف أمره بعقد اليمين، والمولى ابن العم، لانه يلي النصره لتلك القرابة، والمولى الولي، لانه يلي بالنصرة. وفي التنزيل: (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لامولى لهم) (١) أي لاناصرلهم، وهو ناصر المؤمنين، والمولى السيد. لانه أولى بمن يسوده. قال الاخطل:

فاصبحت مولاها من الناس كلهم * وأحرى قريش أن تهاب وتحمدا
والمولى الاولى واللاحق، ومنه قوله (ع): (أيما امرأة نكحت بغير إذن مولاها فنكاحها باطل)
أي بغير إذن من هو أولى بها وأحق. وقال الفضل ابن العباس في المولى بمعنى ابن العم:

مهلا بني عمنا مهلا موالينا * لاتظهرون لنا ما كان مدفونا (٢)

والمراد بقوله: (والذين عاقدت أيمانكم) قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال سعيد بن جبير، وقتادة، وعامر، والضحاك: إنهم الحلفاء.
الثاني - قال الحسن، وسعيد بن المسيب: هم رجال كانوا يتبنون، على عادة الجاهلية. ليجعل لهم نصيب من الوصية، ثم هلكوا، فذهب نصيبهم بهلاكهم.
الثالث - في رواية أخرى عن ابن عباس، وابن زيد أنهم قوم آخى بينهم رسول الله (صلى الله عليه وآله). والاول أقوى وأظهر في أقوال المفسرين.
وقال أبو مسلم: أراد بذلك عقد المصاهرة والمناكحة. وقال أبو علي:
الحليف لم يؤمر له بشئ أصلاً، لأنه عطف على قوله "ترك الوالدان والاقربون" أي: وترك الذين عاقدت أيمانكم، فأتوا كلا نصيبه من الميراث. وهذا ضعيف لأنه

(١) سورة محمد: آية ١١.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ١٢٥ والكامل للمبرد ٢: ٢٧٩ والحامسة للبحري ١: ١٢١ واللسان (ولي) وقد روي:

لا تبتشوا بيننا ما كان مدفونا

(١٨٨)

يفيد التكرار، لان قوله: "الوالدان والاقربون" عام في كل أحد. وعلى ما قال المفسرون، يكون قوله: (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان) إذا كانوا مناسبين له، ثم استأنف حكم الحلفاء، فقال: "فأتوهم نصيبهم". فان قيل: بم يتصل قوله:
"مما ترك الوالدان" وما العامل فيه؟ قيل فيه قولان:
أحدهما - يتصل ب (موالى) على جهة الصفة، والعامل الاستقرار، كأنه قال:
موالى مما خلف الوالدان والاقربون، والذين عاقدت أيمانكم من الورثة.
الثاني - يتصل بمحذوف، والتقدير: موالى يعطون مما ترك الوالدان والاقربون، والذين عاقدت أيمانكم من الميراث. وقال أبو علي الجبائي تقديره:
ولكل شئ مما ترك الوالدان والاقربون وارث من الميراث. قال الرمانى: وهذا لا يجوز، لأنه فصل بين الصفة والموصوف بما عمل في الموصوف، نحو: لكل رجل - جعلت درهما - فقير.

والنصيب الذي أمر به للحليف قيل فيه قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، وعامر، والضحاك: انه نصيب على ما كانوا يتوارثون بالحلف في الجاهلية، ثم نسخ ذلك بقوله: "وألوا الارحام بعضهم أولى ببعض".

الثاني - في رواية أخرى عن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، والسدي: انه النصيب من النصره والنصيحة دون الموارثه، فعلى هذا الآية غير منسوخة.
وروي عنه أنه قال: لالحلف في الاسلام، فأما ما كان في الجاهلية فلم يزد الاسلام إلا شدة.
وقوله: (إن الله كان على كل شئ شهيدا) أي: شاهدا، وذلك دال على أنه عالم به، لانه لا يشهد إلا بما علم.
قوله تعالى:

(الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع

(١٨٩)

واضربوهن فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا) (٣٤) - آية بلاخلاف -.

القراءة والنزول:

قرأ أبو جعفر المدني: " بما حفظ الله " - بالنصب - ومعناه: بالذي حفظ الله، ويحتمل أن يكون معناه: بحفظ الله وهو ضعيف، لانه يكون حذف الفاعل وهو ضعيف.
وسبب نزول هذه الآية ما قاله الحسن، وقتادة، وابن جريج، والسدي:
أن رجلا لطم امرأته فجاءت إلى النبي (صلى الله عليه وآله) تلتمس القصاص، فنزلت الآية:
" الرجال قوامون على النساء " .

المعنى واللغة:

والمعنى: (الرجال قوامون على النساء) بالتأديب والتدبير لما " فضل الله " الرجال على النساء في العقل والرأي. وكان الزهري يقول: ليس بين الرجل وامرأته قصاص فيما دون النفس.
ويقال: رجل قيم، وقوام، وقيام. ومعناه:

إنهم يقومون بأمر المرأة بالطاعة لله ولهم. وقوله: (فالصالحات قانتات) قال قتادة: وسفيان: معنى (قانتات) مطيعات لله ولازواجهن. وأصل القنوت دوام الطاعة، ومنه القنوت في الوتر لطول القيام. وقوله: " حافظات للغيب بما حفظ الله " معناه، قال قتادة، وعطاء، وسفيان: حافظات لما غاب عنه أزواجهن من ماله، وما يجب من رعايته وحاله، وما يلزم من صيانتها نفسها له، " وبما حفظ الله " قال عطاء، والزجاج: أي بما حفظهن الله في مهورهن، وألزم الزوج النفقة عليهن. وقال بعضهم: معناه، والله أعلم: بالشئ الذي يحفظ أمر الله، ودين الله.
وقوله: " واللاتي تخافون " قيل فيه قولان:

أحدهما - تعلمون، لان خوف النشز للعلم بموقعه، فذلك جاز أن توضع

(١٩٠)

مكان تعلم، كما قال الشاعر:

ولاتفني بالفلاة فاني * أخاف إذامت ألا أدوقها (١)

وقال آخر:

أتاني كلام عن نصيب يقوله * وماخفت ياسلام انك عائي (٢)

وقال الفراء: معناه: ماظنت، ومنه قوله (صلى الله عليه وآله): أمرت بالسواك حتى خفت أن أورد.

الثاني - الخوف الذي هو خلاف الامن، كأنه قال: تخافون نشوزهن لعلمكم بالاحوال المؤذنة به، ذكره محمد بن كعب. ومعنى النشوز ههنا: قال ابن عباس، والسدي، وعطاء، وابن زيد: انه معصية الزوج، وأصله الترفع على الزوج بخلافه، مأخوذاً من قولهم: هو على نشز من الارض، أي ارتفاع، يقال:

نشزت المرأة تنتشر وتنتشر، قرئ بهما: " وإذا قيل انشزوا فانشزوا " (٣) فالنشوز يكون من قبل المرأة خاصة، والشقاق منهما. وقوله: " فهظوهن " أي خوفوهن بالله، فان رجعن وإلا فاهجروهن في المضاجع. وقيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك، والسدي: هجر الكلام.

وقال سعيد بن جبير: هو هجر الجماع. وقال مجاهد، والشعبي، وابراهيم: هو هجر المضاجعة، وهو قول أبي جعفر (ع). وقال: يحول ظهره إليها. وقال بعضهم:

" اهجروهن " اربطوهن بالهजार، من قولهم: هجر الرجل البعير إذا ربطه بالهजार، وقال امرؤ القيس:

رأت هلكا بنجاف الغبيط * فكادت تجد لذاك الهجارا (٤)

(١) انظر ٢: تعليقة ٢.

(٢) انظر ٢: ١٨٩، ٢٤٤.

(٣) سورة المجادلة: آية ١١.

(٤) ديوانه: ١١١ واللسان (هلك). الهلك الفراغ. نجاف الغبيط: مدرعة البرذعة.

الهجار: حبل يسوى له عروتان في طرفيه ثم تشد احدهما في رسغ رجل الفرس وتزر وكذلك الاخرى.

(١٩١)

وهذا تعسف في التأويل، ويضعفه قوله: " في المضاجع " ولا يكون الرباط في المضجع. وأما الضرب فإنه غير مبرح بلاخلاف قال أبو جعفر (ع):

هو بالسواك. والمضاجع جمع مضجع، وأصله الاستلقاء، يقال: ضجع ضجوعا واضطجع اضطجاعا إذا استلقى للنوم، وأضجعتة إذا وضعت جنبه بالارض، فكل شئ أملتة فقد أضجعتة. وقوله: (فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن) أي لاتطلبوا، تقول: بغيت الضالة إذا طلبتها، قال الشاعر يصف الموت:

بغاك وما تبغيه حتى وجدته * كأنك قد واعدته أمس موعدا (١)

وأصل الهجر الترك عن قلى، تقول: هجرت فلانا أي تركت كلامه عن قلى، والهجر القبيح من الكلام، لأنه مهجور، والهجار حبل يشد به البعير، لأنه يهجر به التصرف، والهجرة نصف النهار، لأنه وقت يهجر فيه العمل. وقوله:

" إن الله كان عليا كبيرا " أي متعاليا عن أن يكلف إلا بالحق، ومقدار الطاقة، وقد قيل: معناه إنه قادر عليه، قاهر له، وليس المراد به علو المكان، لان ذلك يستحيل عليه تعالى. والكبير السيد، يقال: لسيد القوم كبيرهم، والمعنى: فان استقمتم لكم فلاتطلبوا العلل في ضربهن، وسوء معاشرتهن، فان الله تعالى قادر على الانتصاف لهن. قوله تعالى:

(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا)

(٣٥) - آية بلاخلاف - .

المعنى واللغة قوله: (وإن خفتم) في معناه قولان:

(١) قائله سحيم بن الحساس ديوانه: ٤١ وروايته (الا وجدته) بدل (حتى وجدته). (*)

(١٩٢)

أحدهما - إن علمتم.

الثاني - الخوف الذي هو خلاف الامن، وهو الاصح، لانه لو علم الشقاق يقينا لم يحتج إلى الحكمين، فان أريد به الظن كان قريبا مما قلناه. والشقاق الخلاف، والعداوة، واشتقاقه من الشق، وهو الجزء البائن، ومنه إسم المتشاقين، لان كل واحد منهما في شق أي في ناحية، ومنه المشقة في الامر، لانه يشق على النفس، فأمر الله متى خيف ذلك بين الزوجين أن يبعثوا حكما من أهله وحكامن أهلها، والحكم القيم بما يسند إليه.

والمأمور ببعث الحكمين قيل فيه قولان:

أحدهما - قال سعيد بن جبیر، والضحاك، وأكثر الفقهاء، وهو الظاهر في اخبارنا: انه السلطان الذي يترافعان إليه.

والثاني - قال السدي: انه الرجل والمرأة، وقيل: أيهما كان ناب عن الآخر، وهو اختيار الطبري. واختلف الفقهاء في الحكمين هل هما وكيلان، أو هما حكمان، فعندنا أنهما حكمان، وقال قوم: هما وكيلان، واختلفوا هل للحكمين أن يفرقا بالطلاق إن رأياه أم لا؟ فعندنا ليس لهما ذلك إلا بعد أن يستأمرهما، أو كان اذن لهما في الاصل في ذلك، وبه قال الحسن، وقتادة، وابن زيد، عن أبيه. ومن قال: هما وكيلان، قال: لهما ذلك، ذهب إليه سعيد بن جبیر، والشعبي، والسدي، وابراهيم، وشريح، ورووه عن علي (ع).

وقوله: (إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما) معناه يوفق الله بينهما، والضمير في بينهما عائداً على الحكمين، والمعنى: إن أرادا إصلاحاً في أمر الزوجين يوفق الله بينهما. وبه قال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، والسدي. وأصل التوفيق الموافقة، وهي المساواة في أمر من الامور. والتوفيق هو اللطف الذي يتفق عنده فعل الطاعة، والتوفيق بين نفسيين هو الاصلاح بينهما، والاتفاق في الجنس والمذهب المساواة بينهما، والاتفاق في الوقوع كريمة من غير رام لمساواتهما نادراً.

وقوله: (إن الله كان عليماً خبيراً) يعني بما يريد الحكمان من الاصلاح.

(١٩٣)

أو الافساد. وقيل معناه أنه عالم بما تعبدكم به، لعلمه بما فيه صلاحكم ودينكم وديناكم. " وشقاق بينهما " إنما أضافه إلى البين لان البين قد يكون اسماً كما قال: " لقد تقطع بينكم " (١) ممن قرأ بالرفع. قوله تعالى:

(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) (٣٦) - آية - . المعنى:

هذا خطاب لجميع المكلفين، أمرهم الله بأن يعبدوه وحده، ولا يشركوا بعبادته شيئاً سواه " وبالوالدين إحساناً " نصب على المصدر، وتقديره: وأحسنوا إلى الوالدين إحساناً، ويحتمل أن يكون نصبا على تقدير: واستوصوا بالوالدين إحساناً، لان قوله: " اعبدوا الله " بمنزلة استوصوا بعبادة الله، وأن تحسنوا إلى ذي قرباكم، وإلى اليتامى الذين لأب لهم، والمساكين وهم الفقراء، والجار ذي القربى، يعني الجار القريب.

اللغة:

وأصل الجار العدول، جاوره مجاورة وجوارا، فهو مجاور له وجارله، لعدوله إلى ناحيته في مسكنه، والجور الظلم، لانه عدول عن الحق، ومنه جار السهم إذا عدل عن قصده، وجار عن الطريق إذا عدل عنه، واستجار بالله، لانه

(١) سورة الانعام: آية ٩٤. (*)

(١٩٤)

يسأله العدول به عن النار، وجواز الذمة، لانه عدول بها إلى ناحية صاحبها. " والجار الجنب " أصل الجنب التحية، جنبت فلانا عن كذا فتجنب أي نحيت، ومنه قوله: " واجنبي وبني أن نعبد الاصنام " (١) والجانبان الناحيتان، لتحي كل واحدة عن الاخرى، ومنه جنب الانسان وكل حيوان، والاجتنب الترك للشئ، والجار الجنب معناه الغريب الاجنبي، لتحيه عن القرابة، قال علقمة بن عبدة:

فلاتحرمني نائلا عن جنابة * فاني امرؤ وسط القباب غريب (٢)

أي عن غربة. وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد:

الجار ذي القربى القريب في النسب، والجار الجنب: الغريب، أي عن غربة.

وروي عن النبي (ص) أنه قال: الجيران ثلاثة، جارله ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق القرابة، وحق الاسلام. وجار له حقان: حق الجوار، وحق الاسلام.

وجار له حق الجوار، المشرك من أهل الكتاب.

المعنى واللغة:

" والصاحب بالجنب " قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسدي، والضحاك: هو الرفيق.

الثاني - قال عبدالله بن مسعود، وعلي (ع) وابراهيم، وابن أبي ليلى: الزوجة.

الثالث - قال ابن زيد، وابن عباس،، في رواية أخرى عنه: إنه المنقطع اليك رجاء رفقك. وقيل إنه جميع هؤلاء، وهو أعم فائدة.

وقال الزجاج. الجار ذي القربى الذي يقاربك ويعرفك وتعرفه، والجار

(١) سورة ابراهيم: آية ٣٥.

(٢) ديوانه: ١٠٧ والمفضليات ٧٨٩ والكامل للمبرد ٤٣٧، واللسان (جنب). (*)

(١٩٥)

الجنب البعيد. وروي أن حد الجوار إلى أربعين داراً. وروي إلى أربعين ذراعاً.

(وابن السبيل) معناه صاحب الطريق، وقيل في المراد به ههنا قولان:

أحدهما - قال مجاهد، والربيع: إنه المسافر.

الثاني - قال قتادة، والضحاك: انه الضيف، وقال أصحابنا: يدخل فيه الفريقان. " وماملكت

أيمانكم " يعني المماليك من العبيد والاماء، أمر الله بالاحسان إلى هؤلاء أجمع. وقوله: " إن الله

لا يحب من كان مختالاً " فالمختال الصلف التياه، والاختيال هو التطاول، وإنما ذكره الله ههنا

وذمه، لانه أراد بذلك من يختال فيأنف من قراباته وجيرانه إذا كانوا فقراء، لكبره وتطاوله،

فأما الاختيال في الحرب فمدوح، لان في ذلك تطاولاً على العدو واستخفافاً به.

وأصل المختال من التخيل، وهو التصور، فالمختال لانه يتخيل بحاله مرح البطر، ومنه

الخيال، لانها تختال في مشيها، إي تتبختر، والخيال، لانه يتخيل به صاحبه، والاخليل الشقراق،

لانه يتخيل في لونه الخضرة من غير خلوصها، والخول الحشم، وخلته راكبا خيلانا أي

تخيلته، والخال المختال، والخال أخ الام، " والفخور " هو الذي يعدد مناقبه كبرا وتطاولاً، وأما

الذي يعددها اعترافاً بالنعم فيها فهو شكور غير فخور. وروي عن المفضل عن عاصم أنه

قرأ:

" والجار جنب " - بفتح الجيم - قال أبو الحسن: هولغة في الجنب، قال الراجز:

الناس جنب والامير جنب يعني ناحية: قال أبو علي الفارسي: يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يريد الناحية، والتقدير: ذي الجنب، فحذف المضاف، لان المعنى مفهوم، لان

الناحية لا تكون هي الجار.

والثاني - أن يكون وصفاً، مثل: ضرب وندب وفسل، فهذا وصف جرى على موصوف.

قوله تعالى:

(الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم

(١٩٦)

الله من فضله واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً) (٣٧) - آية -.

القرآءة:

قرأ حمزة، والكسائي ههنا وفي الحديد: " بالبخل " بفتح الباء والحاء.

الباقون بضم الباء وتسكين الخاء. فمن نصب قال: لانه مصدر بخل يبخل بخلا، الباب كله هكذا، ومن اختار الضم وتسكين الخاء فلانه نقيض الجود فحمل على وزنه، فهما لغتان. وحكي لغة ثالثة " بالبخل " - بفتح الباء وسكون الخاء. الاعراب:

وقوله: " الذين " يحتمل أن يكون موضعه نصبا من وجهين، ورفعاً من وجهين، فأحد وجهي النصب أن يكون بدلا من " من " في قوله: " لا يجب من كان ". والثاني - على النزم. وأحد وجهي الرفع - على الاستئناف بالذم، ويكون خبره " إن الله لا يظلم " (١) والآية الثانية عفا عليها. والوجه الثاني على البذل من الضمير في " فخور ". والبذل أصله مشقة الاعطاء. المعنى واللغة:

وقالوا في معناه ههنا قولان:

أحدهما - أنه منع الواجب، لانه اسم ذم لا يطلق إلا على مرتكب كبيرة. والثاني - هو منع ما لا ينفع منعه، ولا يضر بذله، ومثله الشح، وضده الجود، والاول أليق بالآية، لانه تعالى نفى محبته عن كان بهذه الصفة، وذلك لا يليق إلا بمنع الواجب. قال الرماني: معناه منع الاحسان لمشقة الطباع، ونقيضه الجود وهو بذل الاحسان لانتفاء مشقة الطباع، وقال ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وابن زيد: إن الآية نزلت في اليهود، إذ بخلوا باظهار ما علموه وكتموه من صفة محمد (ص). وقال الجبائي، والبلخي: الآية في كل من كان بهذه الصفة،

(١) سورة النساء: آية ٤. (*)

(١٩٧)

وإنما ذكروا بالكفر لكتمانهم نعمة الله عليهم. والأمر بالبخل يتناوله الوعيد، كما أن من فعل البخل يتناوله الوعيد. وقيل: معنى " يكتمون ما آتاهم الله من فضله " يجحدون اليسار والثروة اعتذارا في البخل، وقوله: " وأعتدنا " قدفسرناه فيما مضى وهو أن معناه أعددناه، وجعلناه ثابتا لهم " وللكافرين " يعني الجاحدين ما أنعم الله عليهم " عذابا مهينا " أي يهينهم ويذلهم. قوله تعالى:

(والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) (٣٨)

- آية بلاخلاف -.

الاعراب:

قوله: " والذين " عطف على " الذين " في الآية الاولى. واعرابه يحتمل ما قلناه في الآية الاولى سواء. وقال الزجاج وغيره: المعني بهذه الآية المنافقون.
وقال مجاهد: المعني بها اليهود، والاول اقوى وأظهر، لان الرياء ضرب من النفاق ووو العطف يقوي ذلك، لانه لو أراد الموصوفين في الآية الاولى لقال:
" الذين ينفقون أموالهم رياء الناس "، مع أنه قد ورد عطف الصفات بالواو لموصوف واحد على ما بيناه فيما مضى، غير أن الاجود ما قلناه.
المعنى واللغة:

فدم الله تعالى بهذه الآية من ينفق ماله رياء الناس دون أن ينفقه لوجهه وطلب رضاه، ولا يؤمن بالله أي لا يصدق به، " ولا باليوم الآخر " الذي فيه الثواب والعقاب. ثم قال: " ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا " معناه من قبل من الشيطان، وأطاعه فيما يدعوه إليه فبئس القرين قرينه. والقرين أصله

(١٩٨)

الاقتران، ومنه قرن الثور لاقتران بعض ببعض، والقرن أهل العصر من الناس، وقرنة الشيء حرفه، والقرن المقاوم في الحرب، " وما كنا له مقرنين " (١) أي مطيقين، والقرين صاحب المؤلف. قال عدي بن زيد:

عن المرء لاتسأل وأبصر قرينه * فان القرين بالمقارن يقتدي (٢)

ويمكن الانسان الانفكاك من مقارنة الشيطان بالمخالفة له، فلا يعتد بالمقارنة.

وقال أبو علي: لا يمكن ذلك، لانه يقرن به الشيطان في النار فلا يمكنه الانفكاك منه، وقوله: " فساء قرينا " نصب على التفسير، كقوله: " ساء مثلاً " وتقديره:

ساء مثلاً مثل الذين، وتقول: نعم رجلاً، وتقديره نعم الرجل رجلاً.

قوله تعالى:

(وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وانفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً) (٣٩) -
آية واحدة بلاخلاف -.

المعنى والاعراب:

معنى قوله: " وماذا عليهم. " الآية الاحتجاج على المتخلفين عن الايمان بالله واليوم الآخر بما عليهم فيه ولهم، وذلك أنه يجب على الانسان أن يحاسب نفسه فيما عليه وله، فاذا ظهر له ما عليه في فعل المعصية من استحقاق العقاب اجتنابها، وماله في تركها من استحقاق الثواب عمل في ذلك من الاختيار له، أو الانصراف عنه. وفي ذلك دلالة على بطلان قول المجبرة في أن الكافر لا يقدر على الايمان، لان الآية نزلت على أنه لا عذر للكفار في ترك الايمان، ولو كانوا غير قادرين لكان فيه أوضح العذر لهم، ولما جاز أن يقال: " وماذا عليهم لو آمنوا بالله " لانهم لا يقدرون عليه، كما لا يجوز أن يقال لاهل النار: ماذا عليهم لو خرجوا منها

(١) سورة الزخرف: آية ١٣.

(٢) ديوانه في شعراء الجاهلية: ٤٦٦، وقد شاعت روايته على ألسن الناس:

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه * فكل قرين بالمقارن يقتدي

(١٩٩)

إلى الجنة، من حيث لا يقدرون عليه، ولا يجدون السبيل إليه، ولذلك لا يجوز أن يقال للعاجز: ماذا عليه لو كان صحيحاً، ولا للفقير: ماذا عليه لو كان غنياً.

وموضع " ذا " يحتمل من الاعراب وجهين:

أحدهما - أن يكون رفعا، لانه في موضع الذي، وتقديره: ما الذي عليهم لو آمنوا.

الثاني - لاموضع له، لانه مع (ما) بمنزلة اسم واحد، وتقديره: وأي شئ عليهم لو آمنوا بالله، ففي الآية تفرير على ترك الايمان بالله واليوم الآخر، وتوبيخ على الانفاق مما رزقهم الله في غير أبواب البر وسبيل الخير على وجه الاخلاص، دون الرياء. وقوله: (وكان الله بهم عليما) معناه ههنا ان الله بهم عليم، يجازيهم بما يسرون من قليل أو كثير، فلا ينفعم ما ينفقونه على جهة الرياء.

قوله تعالى:

(إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) (٤٠) - آية بلاخلاف -.

القراءة، والحجة، والاعراب:

قرأ: (وإن تك حسنة) بالرفع ابن كثير، ونافع. الباقون بالنصب، فمن نصب معناه: وإن تك زنة الذرة حسنة، أو: وإن فعلته حسنة، ومن رفع ذهب إلى أن كان تامة، وتقديره: وإن تحدث حسنة. وأصل (تك) تكون، فحذفت الضمة للجزم، والواو لسكونها وسكون النون، لكثرة الاستعمال، وقد ورد القرآن بآبائها، قال الله تعالى: (إن يكن غنيا أو فقيرا) (١) فاجتمع في النون أنها ساكنة وأنها تشبه حروف اللين، فحذفت لكثرة الاستعمال، كما قالوا لا أدر، ولم ابل، والاجود: لم أبال، ولا أدري " ويؤت " بغير ياء، سقطت الياء

(١) سورة النساء: ١٣٤. (*)

(٢٠٠)

للجزم بالعطف على (يضاعفها). ولدن في موضع خفض. وفيها لغات، يقال:

لد ولدن ولدا ولدا، والمعنى واحد، ومعناه من قبله، ولدن لما يليك، وعند يكون لما يليك ولما بعد منك، تقول: عندي مال وإن كان بينك وبينه بعد، فاذا أضفته إلى نفسك فقلت: من لدني ومن لدنا زدت فيها نونا أخرى، وأدغموا الأولى منهما ليسلم سكون النون ومثله قالوا في (من)، إذا أضافوه قالوا: مني ومنا. وقرأ ابن كثير، وابن عامر: (يضعفها) مشدده، الباقون: (يضاعفها)

من المضاعفة. والظلم هو الالم الذي لانفع فيه يوفي عليه، ولادفع مضرة أعظم منه عاجلا ولاأجلا، ولاهو مستحق، ولا هو واقع على وجه المدافعة.

اللغة: وأصله وضع الشئ في غير موضعه، وقيل: أصله الانتقاص، من قوله:

(ولم تظلم منه شيئا) (١) أي لم ينقص. والظلم انتقاص الحق، والظلمة انتقاص النور بذهابه، والظلم الثلج، لانتقاصه بالجمود، وشبه به ماء الاسنان، وفي المثل (من أشبه أباه فما ظلم)،

وسقاء مظلوم إذا شرب منه قيل أن يدرك، والظلم ذكر النعام، لأنه يضع الشيء في غير موضعه من حيث (٢) يحضن غير بيضه. وأصل المتقال الثقل، فالمتقال مقدار الشيء في الثقل، والثقل ماثقل من متاع السفر، والمتقل الذي أثقله المرض، والثقل البطيء في عمله (فمتقال ذرة): مقدار ذرة في الزنة. والذرة النملة الحمراء في قول ابن عباس، وابن زيد، وهي أصغر النمل، وهي من ذررت الشيء أنه ذرا إذابددته سحوقا.

المعنى:

وفي الآية دلالة على أن منع الثواب ظلم لأنه لو لم يكن ذلك ظلما لما كان لهذا الكلام معنى على هذا الترتيب. وفيه أيضا دلالة على أنه قادر على الظلم، لأنها

(١) سورة الكهف: آية ٣٢.

(٢) (من حيث) ساقطة من المطبوعة. (*)

(٢٠١)

صفة تعظيم وتنزيه عن فعل ما يقدر عليه من الظلم، ولو لم يكن قادر عليه لما كان فيه مدحة، غير أنه وإن كان قادرا عليه فإنه لا يفعل له علمه بقبحه، وبأنه غني عنه، ولأنه لو فعل لكان ظالما، لأن الاشتقاق يوجب ذلك وذلك منزه عنه تعالى.

قوله تعالى:

(فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) (٤١) - آية - .

الاعراب:

" كيف " لفظها لفظ الاستفهام، ومعناها ههنا التوبيخ، والتقدير فكيف يكون حال هؤلاء يوم القيامة، وحذف لدلالة الكلام عليه. والعامل في " كيف " الابتداء المحذوف، لأن التقدير: كيف حالهم، على ما بيناه. وإنما جاز خروج كيف عن الاستفهام إلى التوبيخ لأنه يقتضي إقرار العبد على نفسه بما كان من قبيل عمله، كما يقتضي الجواب في الاستفهام، ولا يجوز أن يكون العامل في

" كيف " " جئنا " لاضافة " إذا " إليه والمضاف إليه لا يعمل فيما قبله كما لاتعمل الصلة فيما قبل الموصول، لأنه من تمام الاسم.

المعنى:

والشهادة تقع يوم القيامة من كل نبي بأنه بلغ قومه ما تقوم به عليهم الحجة، وأنه أدى ما تقوم به الحجة عليها من مراد الله، هذا قول عبدالله، وابن جريج، والسدي. وقال الجبائي: يشهد عليهم بأعمالهم. وقال الزجاج، والطبري: يشهد لهم وعليهم بما عملوه، ووجه حسن الشهادة ما

في ذلك من اقامة الحجة عليهم، فيستجيبون عندتصور تلك الحال من خزي ذلك المقام، وفي ذلك أكبر الاعتاظ.

وروي عن ابن مسعود أنه قرأ على النبي (صلى الله عليه وآله) سورة النساء فلما بلغ " فكيف

(٢٠٢)

إذا جننا من كل أمة بشهيد وجننا بك على هؤلاء شهيدا " فاضت عيناه وقوله:

" وجننا بك " يعني محمدا (صلى الله عليه وآله) " على هؤلاء " يعني على أمته. وقال السدي:

إن أمة نبينا تشهد للانبياء بالاداء والتبليغ، ويشهد النبي لامته بتصديقهم في تلك الشهادة، كما قال: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) (١). قوله تعالى:

(يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لوتسوى بهم الارض ولايكتمون الله حديثا) (٤٢) - آية بلاخلاف -.

القراءة، والحجة:

قرأ حمزة، والكسائي: " تسوى " مفتوحة التاء خفيفة السين. وقرأ نافع وابن عامر - بفتح التاء وتشديد السين - الباقون بضم التاء وتخفيف السين. وقال الطبري: الاختيار فتح التاء، لموافقته لقوله: " ياليتني كنت ترابا " (٢) ولم يقل: كونت. وقال الرماني هذا ليس بشئ، لان التمني فيه معنى الفعل، وبضم التاء أبين وليس كذلك الآخر، لانه بمنزلة التمني لان يكون معدوما لم يوجد قط.

قال أبو علي: من قرأ بضم التاء أراد: لوجعل هووالارض سواء، ومن فتح التاء أراد: تتسوى، وإنما أدغم التاء في السين، قال: وفي هذا تجوز، لان الفعل مسند إلى الارض وليس ذلك المراد، لانه لافائدة لهم أن تصير الارض مثلهم. وإنما ودوا أن يتستوا وهم بما لايتسوى بهم، ومن فتح التاء وخفض السين أراد هذا، غير أنه حذف إحدى التائين وهي الاصلية دون التي للمضارعة.

المعنى:

ومعنى الآية الاخبار من الله تعالى أن الكفار يوم القيامة يودون - لعلمهم

(١) سورة البقرة: آية ١٤٣. (٢) سورة النبا: آية ٤٠. (*)

(٢٠٣)

بما يصيرون إليه من العذاب والخلود في النار - أنهم لن يبعثوا أو أنهم كانوا والارض سواء. وروي في التفسير أن البهائم يوم القيامة تصير ترابا، فيتمنى عند ذلك الكفار أنهم صاروا

كذلك ترابا، وهذا لايجيزه إلا من قال: إن العوض منقطع، فأما من قال: هو دائم لم يصح هذا الخبر. وقوله: " وعصوا الرسول " ضموا الواو لأنها واو الجمع، وحركت لالتقاء الساكنين. وقوله: " لو استطعنا " كسرت على أصل الحركة، لالتقاء الساكنين. وإنما وجب لو او الجمع الضم لأنها لما منعت مالها من ضم ما قبلها، جعلت الضمة عند الحاجة إلى حركتها فيها. والعامل في

" يومئذ " (يود الذين) وإنما عمل في (يومئذ) مابعد (إذا) ولم يجز مثل ذلك في (إذا جئنا من كل أمة) لأنه لما أضيف (يوم) إلى (إذ) بطلت إضافته إلى الجملة، وجاء التنوين ليبدل على تمام الاسم. يبين ذلك قوله: (من عذاب يومئذ بينيه) (١).

وقوله: (ولايكتمون الله حديثا) لاينافي قوله: (والله ربنا ما كنا مشركين) (٢) لأنه قيل في معنى الآية سبعة أقوال:

أحدها - قال الحسن إن الآخرة مواطن، فمواطن (لاتسمع إلا همسا) (٣)

أي صوتا خفيا، ومواطن يكذبون فيقولون: (ما كنا نعمل من سوء) (٤)

(والله ربنا ما كنا مشركين) ومواطن يعترفون بالخطأ بأن يسألوا الله أن يردهم إلى دار الدنيا.

الثاني - قال ابن عباس: إن قوله: (ولايكتمون الله حديثا) داخل في التمني بعد ما نطقت جوارحهم بفضيحتهم، فكأنهم لمارأوا المؤمنين دخلوا الجنة كتموا فقالوا: (والله ربنا ما كنا مشركين) فحتم الله أفواههم، وأنطق جوارحهم بما فعلوه، فحينئذ تمنوا أن يكونوا (تسوى بهم الارض ولايكتمون الله حديثا) فتمنوا الامرين وقال الفراء: تقديره: (يومئذ يود الذين كفروا

(١) سورة المعارج: آية ١٢. (٢) سورة الانعام: آية ٢٣.

(٣) سورة طه: آية ١٠٨. (٤) سورة النمل: آية ٢٨. (*)

(٢٠٤)

وعصوا الرسول لوتسوى بهم الارض) ويودون لايكتمون حديثا.

الثالث - قال أبو علي: انه لايعتد بكتمانهم، لانه ظاهر عندالله لا يخفى عليه شئ منه.

الرابع - لم يقصدوا الكتمان، لانهم إنما أخبروا على ماتوهموا، ولايخرجهم من أن يكونوا كذبا.

والخامس - قال بعضهم: إن قوله: (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) (١)

انما معناه: أوجبوا العذاب بمثل حال الكاذب في الاقرار، كما يقال: كذب عليك الحج، قال الشاعر:

كذب العتيق وماء شن بارد * إن كنت سائلتي غبوقا فاذهبي

وقال الرماني: هذا التأويل ضعيف، لأنه يجري مجرى اللغز.
والسادس: قال الحسين بن علي المغربي: تمنوا أن يكونوا عدما، وتم الكلام ثم استأنف فقال:
(ولا يكتمون الله حديثا) أي لا تكتمه جوارحهم وإن كتموه هم.
السابع - قال البلخي: (ولا يكتمون الله حديثا) على ظاهره لا يكتمون الله شيئا، لانهم ملجأون
إلى ترك القبائح والكذب. وقوله: (ما كنا مشركين)
أي عند أنفسنا، لانهم كانوا يظنون في الدنيا أن ذلك ليس بشرك من حيث يقربهم إلى الله
تعالى.
قوله تعالى:

(ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولاجنبا إلا عابري
سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم
النساء

(١) سورة الانعام: ٢٤. (*)

(٢٠٥)

فلم تجدوا ماء فتييموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفوا غفورا (٤٣)
- آية بلاخلاف -

القراءة والمعنى:

قرأ حمزة، والكسائي: " أو لمستم النساء " بغير ألف، الباقون " لامستم " بالف، فمن قرأ "
لامستم " بالف قال: معناه الجماع: وهو قول علي (ع)، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة،
وأبو علي الجبائي، واختاره أبوحنيفة. ومن قرأ بلا الف أراد اللمس باليد وغيرها بما دون
الجماع، ذهب إليه ابن مسعود، وعبيدة، وابن عمر، والشعبي، وإبراهيم، وعطاء، واختاره
الشافعي. والصحيح عندنا هو الاول، وهو اختيار الجبائي، والبلخي، والطبري، وغيرهم.
واللامسة واللمس معناهما واحد، لأنه لايلمسها إلا وهي تلمسه، وقيل: ان الملامسة بمعنى
اللمس، كما قيل: عافاه الله، وعاقبت اللص.

النزول:

وقيل في سبب نزول هذه الآية قولان:

أحدهما - قال إبراهيم: إنها نزلت في قوم من الصحابة أصابهم جراح.

والثاني - قالت عائشة نزلت في قوم من الصحابة أعوزهم الماء.

المعنى واللغة:

وظاهر الخطاب متوجه إلى المؤمنين كلهم بأن لايقربوا الصلاة وهم سكارى، يعني في حال سكرهم، يقال: قرب يقرب متعد، وقرب يقرب لازم، وقرب الماء يقربه إذا ورد. وقيل في معنى السكر المذكور في الآية قولان: أحدهما - قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وإبراهيم: إنه السكر من الشراب، وقال مجاهد، والحسن، وقتادة نسخها تحريم الخمر.

(٢٠٦)

الثاني - قال الضحاك هوسكر النوم خاصة. وأصل السكر من السكر، وهو سد مجرى الماء يقال سكره يسكره، وإسم الموضع السكر والسكر، لانسداد طريق المعرفة به. سكر يسكر سكرًا وأسكره إسكارًا، وسكرة الموت غشيته. فان قيل: كيف يجوز نهي السكران في حال سكره مع زوال عقله، وكونه بمنزلة الصبي والمجنون؟ قلنا عنه جوابان: أحدهما - إنه قد يكون سكران من غير أن يخرج من نقص العقل إلى ما لا يحتمل الأمر والنهي.

الثاني - إيمانها عن التعرض للسكر مع أن عليهم صلاة يجب أن يؤديها في حال الصحو. وقال أبوعلي: فيه جواب ثالث وهو أن النهي إنمادل على أن عليهم أن يعيدوها إن صلوا في حال السكر.

فان قيل: كيف يسوغ تاويل من ذهب إلى أن السكران مكلف أن ينتهي عن الصلاة في حال سكره؟ مع أن عمل المسلمين على خلافه، لان من كان مكلفا تلزمه الصلاة، قلنا عنه جوابان: أحدهما - أنه منسوخ.

والآخر - إنه نهي عن الصلاة مع الرسول (صلى الله عليه وآله) في جماعة. وقوله: (ولاجنبا إلا عابري سبيل) يقال: رجل جنب إذا أجنب، ورجل جنب أي غريب، ولايشئ ولايجمع، ويجمع أجنبًا أي غرباء، وإنما نصب لانه عطف على قوله: " وأنتم سكارى " وهي جملة في موضع الحال. وقيل في معناه قولان.

أحدهما - قال علي (ع)، وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والحكم، وابن كثير، وابن زيد: إلا مسافرين فلكم أن تتيمموا.

الثاني - قال ابن عباس في رواية أخرى، وجابر، والحسن، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، والزهرى، وعطاء، والجبائي: ان معناه لاتقربوا مواضع الصلاة من المساجد إلا مجتازين، وهو قول أبي جعفر (ع)، وحذف لدلالة الكلام عليه،

(٢٠٧)

وهو الأقوى، لأنه تعالى بين حكم الجنب في آخر هذه الآية إذا عدم الماء، فلو حملناه على ذلك لكان تكراراً، وإنما أراد أن يبين حكم الجنب في دخول المساجد في أول الآية، وحكمه إذا أراد الصلاة مع عدم الماء في آخرها.

وقوله: (وإن كنتم مرضى أو على سفر) فالمرض الذي يجوز معه التيمم مرض الجراح، والكسير، وصاحب القروح، إذا خاف من مس الماء في قول ابن مسعود، والضحاك، والسدي، وإبراهيم، ومجاهد وقتادة. وقال الحسن، وابن جبير: هو المرض الذي لا يستطيع معه تناول الماء، ولا يكون هناك من يناوله. وكان الحسن لا يرخص للجريح التيمم، والمروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) جواز التيمم عند جميع ذلك. وقوله: "أعلى سفر أو جاء أحد منكم من الغائط" يعني الحدث المخصوص، وأصله المطمئن من الأرض، يقال:

غائط وغيطان، والتغوط كناية عن الحدث في الغائط، والغوطة موضع كثير الماء والشجر بدمشق، وقوله: "أو لامستم النساء" قد فسرناه، وعندنا المراد به الجماع. وقوله: "فتيمموا صعيدا طيبا" فالتيمم التعمد، ومثله التأمم قال الاعشى:

تيممت قيسا وكم دونه * من الأرض من مهمه ذي شزن (١)

يعني تعمدت، وقال سفيان: معنى تيمموا تعمدوا وتحروا، والصعيد وجه الأرض من غير نبات ولا شجر، في قول ابن زيد قال ذو الرمة:

كأنه بالضحى ترمي الصعيد به * دبابة في عظام الراس خرطوم (٢)

ومنه قوله: (فتصبح صعيدا زلقا) (٣) فبين أن الصعيد قد يكون زلقا. والصعدات الطرقات، قال الزجاج: لأعلم خلافا بين أهل اللغة بأن الصعيد وجه الأرض، سواء كان عليه تراب أو لم يكن، وهذا يدل على ما نقوله من أن التيمم يجوز بالحجارة سواء كان عليها تراب أو لم يكن (وطيبا) أي طاهرا،

(١) ديوانه: ١٩ القصيدة: ٢. (٢) ديوانه: ٥٧١.

(٣) (سورة الكهف آية ٤١). (*)

(٢٠٨)

وقال سفيان: يعني حلالا. وأصل الصعيد من الصعود، وهو ما تصعد على وجه الأرض من ترابها، والأصعاد في الماء بخلاف الانحدار، والصعود عقبه يشق صعودها، ومنه قوله: "سأرهبه صعودا" (١) وقيل: انه جبل في النار يؤخذ بصعوده، والصعدة هي القناة التي نبتت مستوية، لأنها تصعد في نباتها على استقامة، والصعداء تنفس بتوجع.

وقوله: (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) قيل في صفة التيمم ثلاثة أقوال: أحدها - ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين، ذهب إليه بن عمر، والحسن، والشعبي، والجبائي، وأكثر الفقهاء، وبه قال قوم من أصحابنا. الثاني - ضربة للوجه وضربة لليدين إلى الزندين، ذهب إليه عمار بن ياسر، ومكحول، واختاره الطبري، وهو مذهبنا إذا كان التيمم بدلا من الجنابة، وإن كان بدلا من الوضوء فيكفيه ضربة واحدة يمسح بها الوجه إلى طرف أنفه واليدين إلى الزندين. الثالث - قال أبو اليقظان، والزهري: انه إلى الابطين، وقال قوم انه جائز أن يضرب بيديه على الرمل فيمسح بهما وجهه، وإن لم يعلق بهما شيء، وبه نقول. ويجوز للجنب أن يتيمم عندنا، وعند أكثر الفقهاء وأهل العلم. وبه قال عمار بن ياسر ورواه عن النبي (صلى الله عليه وآله). وروي عن عمر، وابن مسعود، وإبراهيم: أنه لا يجوز للجنب أن يتيمم، لقوله: (ولا جنبا إلا عابري سبيل) وقدينا نحن أن المراد بذلك النهي عن دخول المساجد، فكأنه قال: ولا تقربوا المساجد للصلاة وأنتم سكارى " ولا جنبا إلا عابري سبيل " لان من لم يكن له طريق غير المسجد، أو أصابه الاحتلام في المسجد جاز له أن يجتاز فيه، ولا يلبث فيه. والسكران الذي زال عقله لاتصح صلاته، ويجب عليه قضاؤها، ولا يصح منه شيء من العقود ولارفعها، كالنكاح، والطلاق، والعتق، والبيع، والشراء، وغير ذلك. وقضاء الصلاة يلزمه إجماعا، وأما ما يلزم به الحدود والقصاص فعندنا أن

(١) سورة المدثر: آية ١٧.

(٢٠٩)

جميع ذلك يلزمه، إن سرق قطع، وإن قذف جلد، وإن زنا حد، وغير ذلك، لاجتماع الفرقة المحقة على ذلك، ولعموم الآية المتأولة لذلك، ولا يلزم على ذلك تكليف من قطع رجل نفسه الصلاة قائما، لان ذلك تكليف مالا يطاق، وإيجاب قضاء الصلاة على السكران ليس كذلك، وكذلك إقامة الحدود، لان ذلك تابع للشرع، وفيه خلاف. ويجوز إن يصلي صلوات الليل والنهار عندنا بتيمم واحد، وهو كوا وضوء في هذا الباب، ما لم يحدث، أو يتمكن من استعمال الماء، وبه قال الحسن، وعطاء، وأبو حنيفة وأصحابه، وقال ابن عمر، والشعبي، وقتادة، وإبراهيم، والشافعي يجب التيمم لكل صلاة، ورووا ذلك عن علي (ع)، وذلك عندنا محمول على الاستحباب.

ولايجوز التيمم عندنا إلا عند تضيق الوقت، والخوف من فوته، واختار ذلك البخاري. وقال الشافعي: لايجوز إلا بعد دخول الوقت، وقال أبو حنيفة: يتيمم أي وقت شاء، وإن كان قبل الوقت فهو كالوضوء. ومسائل التيمم استوفيناها في المبسوط، والنهاية، ولا نطول بذكرها هنا. وقوله: (إن الله عفوا غفورا) أي يقبل منكم العفو، ويغفر لكم، لأن قبوله التيمم بدلا من الوضوء تسهيل علينا. وقيل: يعفو بمعنى يصفح عنكم الذنوب، ويغفرها أي يسترها عليكم. قوله تعالى:

(ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل (٤٤) والله أعلم باعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) (٤٥) - آيتان -.

(٢١٠)

القراءة والنزول:

في الكوفي جعلوا (السبيل) آخر الاولي، وآية واحدة في غير الكوفي. ذكر ابن عباس، وقتادة، وعكرمة: أن الآية نزلت في قوم من اليهود، وكانوا يستبدلون الضلالة بالهدى، لتكذيبهم بالنبي (صلى الله عليه وآله) بدلا من التصديق به، مع قيام الحجة عليهم بما ثبت من صفته عندهم، فكأنهم اشتروا الضلالة بالهدى. وقال أبو علي الجبائي، وغيره: كانت اليهود تعطي أحبارها كثيرا من أموالهم على ما كانوا يصفونه لهم، فجعل ذلك اشتراء منهم. وقال الزجاج: كانوا يأخذون الرشا. المعنى:

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها التأكيد للاحكام التي يجب العمل بها، بالتحذير ممن يدعوا إلى خلافها، ويكذب بها. وقوله: (ألم تر) قال الزجاج، معناه: ألم تخبر في جميع القرآن؟ وقال غيره: ألم تعلم؟ وقال الرماني، معناه: رؤية البصر، والمرئي هو الدين، وإنما دخلت (إلى)، لأن الكلام يتضمن معنى التعجب، كقولك: ألم تر إلى زيد ما أكرمه؟ تقديره: ألم تر عجبا بانتهاء رؤيتك إلى زيد؟ ثم بين ذلك بقوله: ما أكرمه، ومثله قوله: (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل) (١).

كأنه قال: ألم تر عجبا بانتهاء رؤيتك إلى تدبير ربك كيف مد الظل؟ قال: ومن فسره على: ألم تخبر، ألم تعلم، فانما ذهب إلى ما يؤول المعنى إليه، لأن الخبر والعلم لا يصلح فيهما (إلى) كما يصلح مع الرؤية. وقوله: (ويريدون أن تضلوا السبيل)

معناه: يريد هؤلاء اليهود أن تضلوا، معشر المؤمنين، أي تزلوا عن قصد الطريق، ومحجة الحق، فتكذبوا بمحمد فتكونون ضلالا، وفي ذلك تحذير للمؤمنين أن يستنصحو أخدامن أعداء الاسلام في شئ من أمورهم لدينهم ودنياهم، ثم

(١) سورة الفرقان: آية ٤٥. (*)

(٢١١)

بين تعالى أنه أعلم منكم بعبادة اليهود لكم أيها المؤمنون، فانتهاوا إلى طاعتي، وامتنال أوامري فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم، فاني أعلم بباطنهم منكم، وماهم عليه من الغش، والحسد، والعداوة. وقيل معناه: والله يجازيهم على عداوتهم، كقولك: إني أعلم ما تفعل أي اجازيك عليه.

وقوله: (وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا) معناه: إن ولاية الله لكم، ونصرته إياكم، تغنيكم عن غيره من هؤلاء اليهود ومن جرى مجراهم، ممن تطمعون في نصرته. ودخلت الباء في قوله: " بالله " لآحد أمرين:

أحدهما - للتأكيد، لان الاسم في " كفى الله " كان يتصل اتصال الفاعل، فلما دخلت الباء صار يتصل اتصال المضاف واتصال الفاعل، ليعلم أن الكفاية منه ليست كالكفاية من غيره في المرتبة، وعظم المنزلة، فضوعف لفظها لمضاعفة معناها.

الثاني - لانه دخله معنى: اكتفوا بالله، ذكره الزجاج، وموضعه رفع بلاخلاف.
اللغة:

والعداوة الابعاد من حال النصره، وضدها الولاية، وهي التقرب من حال النصره، وأما البغض فهو إرادة الاستخفاف والاهانة، وضده المحبة وهي إرادة الاعظام والكرامة. والكفاية بلوغ الغاية في مقدار الحاجة، كفى يكفي كفاية فهو كاف، والاكنتفاء الاجتزاء بشئ دون شئ، ومثله الاستغناء، والنصرة الزيادة في القوة للغلبة، ومثلها المعونة، وضدها الخذلان، ولا يكون ذلك إلا عقوبة، لان منع المعونة مع الحاجة عقوبة.
قوله تعالى:

(من الذين هادوا يجرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بالسنتهم وطعنا في الدين

(٢١٢)

ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلابؤمنون إلا قليلا) (٤٦) - آية.

بلاخلاف - .

المعنى والاعراب:

قيل في معنى قوله: (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه)
قولان:

أحدهما - قال الفراء، والزجاج، والرماني: ان يكون تبيينا للذين " أوتوا نصيبا من الكتاب " ويكون العامل فيه " أوتوا " وهو في صلة الذين، ويجوز ألا يكون في الصلة، كما تقول: انظر إلى نفر من قومك ما صنعوا.

الثاني - أن يكون على الاستئناف، والتقدير: " من الذين هادوا " فريق (يحرفون الكلم) كما قال ذو الرمة:

فضلوا ومنهم دمعه سابق له * وآخر يثني دمعة العين بالمهل (١)
وأنشد سيبويه:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما * أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح
وقال آخر:

لو قلت ما في قومها لم تيثم * يفضلها في حسب وميسم (٢)
أي أحد يفضلها وقال النابغة:

كانك من جمال بني أقيش * يققع خلف رجليه بشن (٣) يريد كأنك جمل من جمال بني أقيش.

(١) ديوانه: ٤٨٥، وروايته (عبرة) بدل (دمعة). (بالهمل) بدل (بالمهل).

(٢) قاتله حكيم بن معية انظر الخزاعة ٢: ٣١١.

(٣) ديوانه: ٥٨، وسيبويه ١: ٣٧٥، ومجاز القرآن ١: ١٠١. الشن: القرية البالية. (*)

(٢١٣)

قال الفراء: المحذوف (من) والتقدير: من الذين هادوا من يحرفون الكلم كما يقولون: منا يقول ذلك ومنا لايقوله، قال: والعرب تضم (من) في مبتدأ الكلام بمن، لان من بعض لما هي منه، كما قال: (ومامنا إلا له مقام معلوم) (١) وقال: (وان منكم إلا واردها) (٢) وأنشد بيت ذي الرمة الذي قدمناه، قال: ولايجوز إضمار (من) في شئ من الصفات على هذا المعنى إلا في من لما قلناه، وضعف البيت الذي أنشدناه: (لو قلت ما في قومها لم تيثم) وهي لغة هوازن، وتأثم رواية أخرى. وقال انما جاز في (في) لانك تجد (في) تضارع معنى (من) لانه بعض ما أضيف، لانك تقول: فينا الصالحون وفينادون ذلك، كأنك قلت: منا، ولايجوز: في الدار يقول

ذلك، وتريد: من يقول ذلك، لانه إنما يجوز إذا أضفت (في) إلى جنس المتروك. وقال أبو العباس، والزجاج ما قاله الفراء لا يجوز، لان (من) تحتاج إلى صلة أو صفة تقوم مقام الصلة، فلا يحسن حذف الموصول مع بقاء الصلة، كما لا يحسن حذف بعض الكلمة، وإنما قال:

(من الذين هادوا) لانه ليس جميع اليهود حرفوا، وإنما حرف أحبارهم وعلماؤهم. وقوله: (يحرّفون الكلم عن مواضعه) يعني يغيرونها عن تأويلها، والكلم جمع كلمة. وقال مجاهد: يعني بالكلم التوراة.

وقوله: (سمعنا وعصينا) يعني اليهود يقولون: سمعنا قولك يا محمد، ويقولون سرا عصينا. وقوله: (واسمع غير مسمع) اخبار من الله تعالى عن اليهود الذين كانوا حوالي المدينة في عصره، لانهم كانوا يسبون رسول الله (صلى الله عليه وآله) ويؤذونه بالقبيح من القول، ويقولون له: اسمع منا غير مسمع، كما يقول القائل لغيره إذا سبه بالقبيح: اسمع لا أسمعك الله، ذكره ابن عباس، وابن زيد. وقال مجاهد، والحسن: ان تأويل ذلك اسمع غير مقبول منك، أي غير مجاب.

(١) سورة الصافات: آية ١٦٤. (١) سورة مريم: آية: ٧١. (*)

(٢١٤)

وقوله: (وراعنا ليا بالسنتهم) قيل فيه ثلاثة أقوال: أحدها - أن هذه اللفظة كانت سبا في لغتهم، فاعلم الله نبيه ذلك ونهاهم عنها. الثاني - انها كانت تجري منهم على وجه الاستهزاء والسخرية. الثالث - انها كانت تجري منهم على حد الكبر، كما يقول القائل: انصت لكلامنا، وتفهم عنا. وإنما راعنا من المراعاة التي هي المراقبة. وقوله: " ليا بالسنتهم " يعني تحريكا منهم ألسنتهم بتحريف منهم لمعناه إلى المكروه. اللغة:

وأصل اللي القتل، تقول: لويت العود ألويه ليا، ولويت الغريم إذا مطلته، واللوى من الرمل - مقصور - مسترقه، ولواء الجيش ممدود، واللوية ما تتحف به المرأة ضيفها لتلوي بقلبه إليها، وألوى بهم الدهر إذا أفناهم، ولوي البقل إذا اصفر ولم يستحكم بيبسه. واللسان آلة الكلام، واللسان اللغة، ومنه قوله: " وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه " (١) ولسن فلان فلانا بلسنه إذا أخذه بلسانه، ورجل لسن:

بين اللسان. ولسان الميزان، ولسان القوم: متكلمهم، وشئ ملسن إذا كان طرفه كطرف اللسان. وقوله: " وطعنا في الدين " فالاصل الطعن بالرمح ونحوه.

والطعن باللسان كالطعن بالرمح. ومنه تطاعنوا في الحرب. وأطعنوا مطاعنة وطعانا، وطعن يطعن ويطعن طعنا. وقوله: " ولو أنهم قالوا " يعني هؤلاء اليهود " سمعنا " يامحمد قولك " وأطعنا " أمرك، وقبلنا ما جئتنا به " واسمع " منا " وانظرنا " بمعنى انتظرنا نفهم عنك ما تقول لنا " لكان خيرا لهم وأقوم " يعني أعدل وأصوب في القول، مأخوذا من الاستقامة، ومنه قوله: " وأقوم قبيلا " (٢)

بمعنى وأصوب. وقوله: " ولكن لعنهم الله بكفرهم " يعني أبعدهم الله من ثوابه. ثم أخبر تعالى، فقال: " فلا يؤمنون " في المستقبل " إلا قليلا " منهم فانهم آمنوا.

سورة ابراهيم: آية ٤. (٢) سورة المزل: آية ٦.

(٢١٥)

وقال البلخي: معناه لا يؤمنون إلا ايمانا قليلا كما قال الشاعر:

فالفية غير مستعتب * ولا ذاك الله إلا قليلا (١)

يريد إلا ذكر قليلا. وسقط التتوين من ذاك لاجتماع الساكنين. وقال أبوورق: إلا قليلا ايمانهم قولهم: الله خالقنا ورازقنا، وليس لعن الله لهم بمانع لهم من الايمان، وقدرتهم عليه، لانه إنما لعنهم الله لما كفروا فاستحقوا ذلك، ولو تركوا الكفر وآمنوا، لزال عنهم استحقاق اللعن. قوله تعالى:

(يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أولعناهم كمالعنا أصحاب السبت وكان امر الله مفعولا) (٤٧) - آية - . المعنى:

هذه الآية خطاب لاهل الكتاب: اليهود، والنصارى أمرهم الله بان يؤمنوا بالنبى (صلى الله عليه وآله) وما أنزل عليه من القرآن، وغيره من الاحكام مصدقا لما معهم من التوراة والانجيل اللذين تضمننا صفة النبى (صلى الله عليه وآله) وصحة ما جاء به. وقوله:

(من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها) قيل في معناه أربعة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس وعطية العوفي وقتادة: معناه نمحو آثارها حتى تصير كالقفا. ونجعل عيونها في قفاها، فتمشي القهقري.

الثاني - قال الحسن، ومجاهد، والضحاك، وابن أبي نجيح، والسدي، ورواه أبو الجارود عن أبي جعفر (ع): أن معناه نظمها عن الهدى، فرددتها على أدبارها في ضلالتها ذما لها (٢) بأنها لاتصلح أبدا، وهم وإن كانوا في

(١) انظر ٢، ٧٦ تعليقة ٢، ٣.

(٢) في المخطوطة (ومآبها).

(٢١٦)

الضلالة في الحال فتوعدهم بأنهم متى لم يؤمنوا بالنبى (صلى الله عليه وآله) ازدادوا بذلك ضلالا إلى ضلالتهم وإياسالهم أن يؤمنوا فيما بعد.

الثالث - قال الفراء، واختاره البلخي، والحسين بن علي المغربي: إن معناه نجعل في وجوههم الشعر كوجه القروء.

الرابع - قال قوم: معناه أن يردهم إلى الشام من الحجاز الذي هو مسكنهم، وهو أضعف الوجوه، لأنه ترك للظاهر، وخلاف أقوال المفسرين: والادبار: جمع دير.

فان قيل: كيف يجوز تاويل من قال نجعلها كالاقفاء وهذا لم يجز على ماتوعد به؟ قيل عنه جوابان:

أحدهما - لأنه آمن جماعة من أولئك الكفار كعبدالله بن سلام وثعلبة بن شعبة وأسد بن ربيعة، وأسد بن عبيد، ومخبرق (١)، وغيرهم. وأسلم كعب في أيام عمر حين سمع هذه الآية، فاما من لم يؤمن منهم فانه يفعل به ذلك في الآخرة على أنه تعالى قال: أو نلعنهم، والمعنى أنه يفعل أحدهما، ولقد لعنهم الله بذلك. وقوله: " كما لعنا أصحاب السبت " يعني المسخ الذي جرى عليهم، ذكره البلخي.

والجواب الثاني - أن الوعيد يقع بهم في الآخرة، لان الله تعالى لم يذكر أنه يفعل بهم ذلك في الدنيا تعجيلا للعقوبة ذكره البلخي ايضا، والجبائي.

اللغة:

والطمس هو الدثر، وهو عفو الاثر، والطماس، والدائر، والدارس بمعنى واحد. وطمست أعلام الطريق تطمس طموسا: إذا دثرت، قال كعب بن زهير:

من كل نضاحة الذفرى إذا غرق عرضتها طامس الاعلام مجهول (٢)

(١) في المطبوعة: (وثعلبة بن سعنه)، (وأحد بن عبيد)، (ومخبريق).

(٢) ديوانه: ٩ نضح الرجل العرق سال منه. الذفرى: الموضوع الذي يعرق من البعير خلف الاذن، والاعلام: أعلام الطريق.

(٢١٧)

والعين التي هي الجارحة عبارة عن الشق بين الجفنين. والادبار جمع دبر، وأصله من الدبر يقولون دببره يدبره دببرا فهو دابر: إذا صار خلفه. والدبر: خلاف القبل. والدابر: التابع. ومنه قوله: "والليل إذا أدبر" (١) أي تبع النهار. فاما أدبر فمعناه ولى. والدبور: الريح، لأنها تدبر الكعبة إلى جهة المشرق. والدبار الهلاك. ودابرة الطائر: الاصبغ التي من خلف. والدبر: النحل. والدبر: المال الكثير، والتدبير، لأنه احكام ادبار الامور، وهي عواقبها. المعنى:

وقوله: (أو نلنهم كما لعنا أصحاب السبت) قال السدي، وقتادة، والحسن: معناه نمسخهم قرده وإنما كنى عنهم بقوله: "أو نلنهم" بعد أن خاطبهم بقوله: "ياأيها الذين لا امرين: أحدهما - التصرف في الخطاب، والانتقال من مواجهة إلى كناية كما قال: "حتى إذا كنتم في الفلك" فخاطب ثم قال: "وجرين بهم" (٢) فكنى.

والثاني - أن يعود الضمير على أصحاب الوجوه، لأنه بمنزلة المذكور. وقوله: "وكان أمر الله مفعولا" قيل في معناه قولان: أحدهما - ان كل أمر من أمور الله من وعد أو وعيد أو مخبر خبر فانه يكون على ما أخبر به، ذكره الجبائي.

والثاني - ان معناه "وكان أمر الله مفعولا" أي الذين يأمر به بقوله: "كن" وذلك يدل على أن كلامه محدث. وقال البلخي: معناه أنه إذا أراد شيئاً من طريق الاجبار. والاضطرار كان واقعا لامحالة. لا يدفعه دافع، كقبض الارواح، وقلب الارض وارسال الحجارة، والمسح وغير ذلك، فاما ما يأمر به على وجه الاختيار، فقد يقع، وقد لا يقع. ولا يكون في ذلك مغالبة له لأنه تعالى لو أراد إلقاءه إلى ما أمره به لقدّر عليه.

(١) سورة المدثر: آية ٣٣. (٢) سورة يونس: آية ٢٢. (*)

(٢١٨)

قوله تعالى:

(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) (٤٨)

- آية واحدة بلاخلاف -.

قال الفراء قوله: " أن يشرك " في موضع نصب، وتقديره " إن الله لا يغفر " الشرك قال: ويحتمل أن يكون موضعه الجر وتقديره لا يغفر الذنب مع الشرك. وقال قوم: الفرق بين قوله: " إن الله لا يغفر أن يشرك به "، وبين قوله: " إن الله لا يغفر " الشرك به من وجهين: أحدهما - أن (أن) تدل على الاستقبال.

والآخر - ذكره الرماني أنه تدل على وجه الفعل في الإرادة، ونحوها. إذ كان قد يريد الإنسان الكفر مع ظنه أنه إيمان، كما يريد النصارى عبادة المسيح.

ولا يجوز ارادته أن يكفر مع التوهم انه إيمان وكذلك لا يريد الضرمع التوهم أنه نفع، ولا يجوز ارادته أن يضر مع التوهم أنه نفع، وكذلك أمره بالخطأ مع التوهم أنه صواب، ولا يجوز أمره أن يخطئ مع التوهم أنه صواب، وهذا عندي ليس بصحيح، لأن الشرك مذموم على كل حال سواء علمه فاعله كذلك، أو لم يعلم. ألا ترى أن النصارى يستحقون اللعنة والبراءة على ما يعتقدونه من التثليث وإن اعتقدوا هم صحته، فالفرق الأول هو الجيد وظاهر الآية يدل على أن الله تعالى لا يغفر الشرك أصلاً، لكن أجمعت الامه على أنه لا يغفره مع عدم التوبة، فاما إذا تاب منه فانه يغفره، وإن كان عندنا غفران الشرك مع التوبة تفضلاً، وعند المعتزلة هو واجب، وهذه الآية من أكد ما دل على إن الله تعالى يعفو عن المذنبين من غير توبة ووجه الدلالة منها أنه نفى أن يغفر الشرك إلا مع التوبة وأثبت أنه يغفر ما دونه، فيجب أن يكون مع عدم التوبة، لانه إن كان ما دونه، لا يغفره إلا مع التوبة، فقد صار ما دون الشرك مثل الشرك، فلا معنى

(٢١٩)

للنفي، والاثبات. وكان ينبغي أن يقول: " إن الله لا يغفر " المعاصي إلا بالتوبة ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول الحكيم أنا لأعطي الكثير من مالي تفضلاً، وأعطي القليل إذا استحق علي، لانه كان يجب أن يقول: أنا لا أعطي شيئاً من مالي إلا إذا استحق علي كيف وفي الآية ذكر العظيم الذي هو الشرك، وذكر ما هو دونه؟ والفرق بينهما بالنفي والاثبات، فلا يجوز ألا يكون بينهما فرق من جهة المعنى. فان قيل: نحن نقول: إنه يغفر ما دون الشرك من الصغائر من غير توبة. قلنا: هذا فاسد من وجهين.

أحدهما - انه تخصيص، لان ما دون الشرك يقع على الكبير والصغير. والله تعالى أطلق أنه يغفر ما دونه، فلا يجوز تخصيصه من غير دليل.

الثاني - ان الصغائر تقع محبطة فلا يجوز المؤاخذة بها عند الخصم وما هذا حكمه لا يجوز تعليقة بالمشيئة وقد علق الله تعالى غفران ما دون الشرك بالمشيئة، لانه قال: " لمن يشاء " فان قيل: تعليقة بالمشيئة يدل على أنه لا يغفر مادون الشرك قطعاً. قلنا: المشيئة دخلت في المغفور له لافيما يغفر، بل الظاهر يقتضي انه يغفر ما دون الشرك قطعاً، لكن لمن يشاء من عبادته، وبذلك تسقط شبهة من قال القطع على غفران مادون الشرك من غير توبة، اغراء بالقبيح الذي هو دون الشرك، لانه إنما يكون اغراء لو قطع على أنه يغفر ذلك لكل أحد. فاما إذا علق غفرانه لمن يشاء، فلا اغراء لانه لأحد إلا وهو يجوز أن يغفر له، كما يجوز أن يؤاخذ به فالزجر حاصل على كل حال، ومتى عارضوا هذه الآية بآيات الوعيد كقوله:

" ومن يظلم منكم ندقه عذاباً كبيراً " (١) وقوله: " ومن يعص الله ورسوله " ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها " (٢) وقوله: " إن الفجار لفي جحيم " (٣) كان لنا أن نقول: العموم لاصيغة له، فمن أين لكم أن المراد به جميع العصاة ثم نقول نحن نخص آياتكم بهذه الآية ونحملها على الكفار. فمتى قالوا لنا: بل نحن نحمل

(١) سورة الفرقان: آية ١٩. (٢) سورة النساء: آية ١٣.

(٣) سورة الانفطار: آية ١٤. (*)

(٢٢٠)

آياتكم على أصحاب الصغائر. فقد تعارضت الآيات ووقفنا وجوزنا العفو بمجرد العقل، وهو غرضنا وقد استوفينا ما في ذلك في الاصول في باب الوعيد من اراده وقف عليه من هناك. وقوله: " ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً " معناه من يشرك بالله، فقد كذب، لانه يقول: إن عبادته يستحقها غير الله. وذلك افتراء، وكذب. وقوله: " إثماً عظيماً " نصب على المصدر فكأنه قال: افترى، وأثم " اثماً عظيماً " لان افترى بمعنى أثم، فلذلك نصب المصدر به. وقال ابن عمر:

لما نزل قوله: " إن الله يغفر الذنوب جميعاً " ظن أنه تعالى يغفر الشرك أيضاً، فانزل الله هذه الآية. وقال ابن عمر: ما كنا نشك معشر أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) في قاتل المؤمن، وأكل مال اليتيم وشاهد الزور، وقاطع الرحم، حتى نزلت هذه الآية فامسكنا عن هذه الشهادة. وهذا يدل على أن الصحابة كانت تقول بما نذهب إليه من جواز العفو عن فساق أهل الملة من غير توبة، بخلاف ما يذهب إليه أصحاب الوعيد من المعتزلة، والخوارج، وغيرهم. قوله تعالى:

(ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا) (٤٩) - آية
بلاخلاف - .

المعنى:

قد فسرنا معنى " ألم تر إلى الذين " فيما مضى، وأن معناه ألم تعلم في قول أكثر أهل العلم،
واللغة وقال بعضهم: معناه ألم تخبر وفيه سؤال على وجه الاعلام.

وتأويله اعلم قصتهم ألم ينته علمك إلى هؤلاء الذين يزكون أنفسهم؟ وقيل في معناه قولان:
أحدهما - قال الحسن، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وهو المروي عن أبي جعفر (ع): انهم
اليهود، والنصارى في قوله: " نحن ابناء الله وأحباؤه " (١)

(١) سورة المائدة: آية ٢٠. (*)

(٢٢١)

" وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيتهم " (١) قال الزجاج: اليهود
جاءوا إلى النبي (صلى الله عليه وآله) بأولادهم الاطفال، فقالوا يا محمد أعلى هؤلاء ذنوب؟ فقال
(صلى الله عليه وآله): لا، فقالوا: كذلك نحن ما نعمل بالليل يغفر بالنهار، وما نعمل بالنهار يغفر
بالليل، فقال الله تعالى: " بل الله يزكي من يشاء " وقال:

مجاهد، وأبو مالك: كانوا يقدمونهم في الصلاة ويقولون: هؤلاء لا ذنب لهم.

وقال ابن عباس: كانوا يقولون: أطفالنا يشفعون لنا عند الله.

الثاني - روي عن عبدالله بن مسعود انه تزكية الناس بعضهم بعضا لينالوا بذلك ما لا من مال
الدنيا، فاخبر الله تعالى أنه الذي يزكي من يشاء. وتزكيتهم أنفسهم هو أن يقولوا: نحن أذكاء.
اللغة والاعراب والنظم:

والزكا النمو يقال زكا الزرع يزكو وزكا الشيء: إذا نما في الصلاح وقوله:

" ولا يظلمون فتيلا " قال الزجاج: لا يظلمون مقدار فتيل. فيكون نصبه على أنه مفعول ثان:
كقولك: ظلمته حقه أي انتقصته حقه. قال الرماني: ويحتمل أن يكون نصبا على التمييز
كقولك: تصببت عرقا. وقيل في معنى القليل ههنا قولان:

أحدهما - هو قول ابن عباس في رواية وقول عطاء ابن أبي رباح، ومجاهد، وقتادة،
والضحاك، وعطية: إنه الذي شق النواة. وقال الحسن: الفتيل ما في بطن النواة، والنقير:
ما في ظهرها، والقمطير قشرها.

الثاني - ما فتلت بين اصبعيك من الوسخ. في رواية أخرى عن ابن عباس، وأبي مالك، والسدي: والفتل: لي الشئ يقال. فتلت الحبل أفنتله فتلا، وانفتل فلان في صلاته. والفتيلة معروفة. واقة فتلاء. إذا كان في ذراعيها فتل عن الجنب. والفتيل في معنى المفتول.

(١) سورة البقرة: آية ١١١. (*)

(٢٢٢)

ووجه اتصال قوله: " ولا يظلمون فتيلًا " بما قبله أنه لما قال: " بل الله يزكي من يشاء " نفى عن نفسه الظلم لئلا يظن أن الأمر بخلافه. قوله تعالى:

" أنظر كيف يفترون على الله الكذب وفي به إثما مبينا " (٥٠) - آية بلاخلاف. اللغة:

النظر هو الاقبال على الشئ بالبصر ومن ذلك النظر بالقلب، لانه إقبال على الشئ بالقلب، فكذلك النظر بالرحمة، ونظر الدهر إلى الشئ: إذا أهلكه، والنظر إلى الشئ تلمسه والنظر إليه بالتأميل له. والانتظار: الاقبال على الشئ بالتوقع له. والانتظار التأخير إلى وقت. والاستتظار سؤال الانتظار. والمناظرة: اقبال كل واحد على الآخر بالمحاجة. والنظير مثل الشئ لاقباله على نظيره بالمماثلة:

والفرق بين النظر بالعين، وبين الرؤية أن الرؤية هي إدراك المرئي، والنظر إنما هو الاقبال بالبصر نحو المرئي، ولذلك قد تنتظر ولا نراه، كما يقولون: نظرت إلى الهلال فلم أراه، ولذلك يجوز أن يقال في الله أنه رائي. ولا يجوز أن يقال ناظر.

وقوله: " كيف يفترون " فالافتراء والاختلاق متقاربان، والفرق بينهما أن الافتراء هو القطع على كذب أخبر به، واختلق قدر كذبا أخبر به، لأن الفري القطع، والخلق التقدير. المعنى:

وافترأؤهم الكذب على الله ههنا المراد به تزكيتهم لأنفسهم بانا " أبناء الله وأحباؤه " وأنه " لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى " ذكره ابن جريج وقوله: " وكفى به إثما مبينا " معناه تعظيم ائمه وإنما يقال كفى به في العظم على جهة المدح أو الذم، كقولك: كفى بحال المؤمن نبلا وكفى بحال الكافر إثما

(٢٢٣)

كأنه قيل: ليس يحتاج إلى حال أعظم منه في المدح أو الذم. كما يقال ليس يحتاج إلى أكثر مما به. ويحتمل أن يكون معناه كفى هذا إثما أي ليس يقصر عن منزلة الاثم.
قوله تعالى:

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) (٥١) - آية بلاخلاف -
المعنى:

قيل في المعنى بهذه الآية قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، وقتادة: هم جماعة من اليهود منهم: حي بن أخطب وكعب بن الأشرف، وسلام بن أبي الحقيق، والربيع بن الربيع (١). قالوا لقريش: أنتم أهدى سبيلا ممن آمن بمحمد.

الثاني - قال عكرمة إن المعنى به كعب بن الأشرف، لأنه قال هذا القول، وسجد لصنمين كانا لقريش. وقيل في معنى الجبت، والطاغوت خمسة أقوال:

أحدها - قال عكرمة: إنهما صنمان. وقال أبو علي: هؤلاء جماعة من اليهود آمنوا بالاصنام التي كانت تعبدها قريش، والعرب مقاربة لهم ليعينوهم على محمد (صلى الله عليه وآله).
الثاني - قال ابن عباس: الجبت الاصنام. والطاغوت: تراجمة الاصنام الذين يتكلمون بالتكذب عنها.

الثالث - إن الجبت الساحر. والطاغوت الشيطان، قاله ابن زيد. وقال مجاهد: الجبت: السحر.

(١) في المخطوطة (الربيع) بالنقاط (ابن الربيع) وفي مجمع البيان (أبورافع). (*)

(٢٢٤)

الرابع - قال سعيد بن جبير، وأبو العالية: الجبت: الساحر. والطاغوت: الكاهن.

والخامس - في رواية عن ابن عباس والضحاك: إن الجبت حي بن أخطب، والطاغوت كعب بن الأشرف، لأنهما جاءا إلى مكة، فقال لهما أهل مكة: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم، فاخبرونا عنا وعن محمد (صلى الله عليه وآله)، فقالا: ما أنتم وما محمد؟ قالوا: نحن ننصر الكوماء ونسقي اللبن على الماء، ونفك العناة، ونصل الارحام، ونسقى الحجيج. ومحمد منبوز قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج بنو غفار فقالا: أنتم خير منه، وأهدى سبيلا فانزل الله هذه الآية. وقال الزجاج، والفراء، والبلخي: هما كل معبود من دون الله تعالى.

اللغة:

ووزن طاغوت فعلوت على وزن رهبوت. قال الخليل: هومن طغا وقلبت اللام إلى موضع العين كما قيل: لاث في لايث. وشاك في شايك. وهذا تغيير لايقاس عليه، لكنه يحمل على النظير. والجبت لاتصريف له في اللغة العربية.

وقيل: هو الساحر بلغة حبش عن سعيد بن جبير: والسبيل المذكور في الآية هو الدين. وإنما سمي سبيلا، لانه كالسبيل الذي هو الطريق في الاستمرار عليه ليؤدي إلى الغرض المطلوب. ونصبه على التمييز كقولك هو أحسن منك وجها وأجود منك ثوبا لانك في قولك: هذا أجود منك قد أبهمت الشيء الذي فضلته به إلا أن تريد ان جملته أجود من جملتك فتقول هذا أجود منك وتمسك.

قوله تعالى: (أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) (٥٢) - آية بلاخلاف.

(٢٢٥)

النزول:

قوله: " أولئك " اشارة إلى الذين ذكرهم في الآية الاولى. وقال قتادة: لما قال كعب بن الاشرف، وحي بن أخطب " هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا " وهما يعلمان أنهما كاذبان. أنزل الله هذه الآية " أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) فالوعيد فيها على ما تقدم من القول على جهة العناد، لانها اشارة إلى ما تقدم من صفتهم الدالة على عنادهم.

اللغة والمعنى:

(أولئك) لفظ جمع، وواحد ذافي المعنى كما قالوا: نسوة في جماعة النساء. وللواحدة امرأة. وغلب على أولاء (ها) التي للتنبيه. وليس ذلك في أولئك، لان في حرف الخطاب تنبيهها للمخاطب إذ كان الكاف انما هو حرف لحق، لتنبيه المخاطب، فصار معاقبا للهاء التي للتنبيه في أكثر الاستعمال. واللعنة: الابعاد من رحمة الله عقابا على معصيته، فلذلك لايجوز لعن البهائم، ولامن ليس بعاقل من المجانين، والاطفال، لانه سؤال العقوبة لمن لايستحقها. فمن لعن حية أو عقربا أو نحو ذلك مما لامعصية له فقد اخطأ، لانه سأل الله عزوجل ما لايجوز في حكمته.

فان قصد بذلك الابعاد لاعلى وجه العقوبة، كان ذلك جائزا. فان قيل: كيف قال: " فلن تجد له نصيرا " مع تناصر أهل الباطل على باطلهم؟ قلنا: عنه جوابان:

أحدهما - " فلن تجد له نصيرا " ينصره من عقاب الله الذي يحله به مما قد أعده له، لانه الذي يحصل عليه وماسواه يضمحل عنه.

الثاني - " فلن تجد له نصيرا " ، لانه لايعتد بنصرة ناصرله مع خذلان الله اياه.
قوله تعالى:

(أم لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيرا)
(٥٣) - آية - .

(٢٢٦)

النظم والاعراب:

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها اتصال الصفة بالبخل، والصفة بالحسد والجهل، لان قوله: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا) يدل على أنهم حسدوا المؤمنين وأنهم يعملون أعمال الجاهلين، إلا أن الكلام خرج مخرج الاستفهام، للتوبيخ، والتفريع بتلك الحال. وجاءت أم ههنا غير معادلة للالف لتدل على اتصال الثاني بالاول. والمعنى بل ألهم نصيب من الملك؟ وتسمى أم هذه المنقطة عن الالف لانها بخلاف المتصلة بها على المعادلة. ومثله " الم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه " (١) وقال بعضهم: إن الالف محذوفة، لان أم لاتجئ مبتدأة على تقدير أهم أولى بالنبوة " أم لهم نصيب من من الملك " فيلزم الناس طاعتهم. وهذا ضعيف، لان حذف الالف إنما يجوز في ضرورة الشعر بالاجماع ولا ضرورة في القرآن. " وإذا " لم تعمل في يؤتون لانها إذا وقعت بين الفاء، والفعل، جاز أن تقدر متوسطة فتلغى كما تلغى (أرى) (٢)

إذا توسطت أو تأخرت، لان النية به التأخير. والتقدير أم لهم نصيب من الملك فلا يؤتون الناس نقيرا اذا، وكذلك إذا كان معها واو، نحو " وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلا " (٣) ويجوز أن تقدر مستأنفة، فتعمل مع حرف العطف. و (اذن) لاتعمل إلا بشروط أربعة: أن تكون جوابا لكلام، وأن تكون مبتدأة في اللفظ، ولا يكون ما بعدها متعلقا بما قبلها، ويكون الفعل بعدها مستقبلا. ومتى نقص واحد من هذه الشروط لم تعمل. المعنى واللغة:

وقوله: (لا يؤتون الناس نقيرا) اخبار من الله تعالى عن لومهم، وبخلهم

(١) سورة ألم السحدة: آية ١، ٢، ٣. (٢) أي (أرى) القلبية.

(٣) سورة الاسرى: آية ٧٦. (*)

(٢٢٧)

أي لا يؤتونهم نقيرا. وقيل في معنى النكير ههنا ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس، وقتادة، والسدي، وعطاء، والضحاك، وابن زيد: إنه النقطة التي في ظهر النواة. وقال مجاهد: هو الحبة التي في بطن النواة. وفي رواية أخرى عن ابن عباس أن النكير ما نقر الرجل بأصبعه، كما ينقر الدرهم. والنقر: النكت ومنه المنقار، لأنه ينقر به. والناقور: الصور، لأن الملك ينقر فيه بالنفخ المصوت. والنقرة: حفرة في الأرض أو غيرها، والنكير:

خشبته تنقر وينبذ فيها. والمناقرة: مراجعة الكلام. وانتقر: اختص كما يختص بالنقر واحدا واحدا. والمنقر: المقلع عن الشيء، لأنه كما يقلع في النقر، ثم يعود إليه. ومعنى (أم لهم نصيب من الملك) ما يدعيه اليهود أن الملك يعود إليهم. وقوله: "فاذا لا يؤتون الناس" يعني العرب. وذكر الزجاج في معناه وجهين: أحدهما - بل لهم نصيب، لأنهم كانوا أصحاب بساتين وأموال، وكانوا في غاية البخل. والثاني - أنهم لو أعطوا الملك، ما أعطوا الناس نقيرا من بخلهم اختاره البلخي وبه قال السدي، وابن جريج.

قوله تعالى: (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) (٥٤) - آية - المعنى: المعنى بقوله: (أم يحسدون الناس) قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والسدي، وعكرمة: إنه النبي (صلى الله عليه وآله)، وهو قول أبي جعفر (ع)، وزاد فيه وآله. (*)

(٢٢٨)

الثاني - قال قتادة: هم العرب (١): محمد (صلى الله عليه وآله) وأصحابه، لأنه قد جرى ذكرهم في قوله: "يقولون للذين هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا" ذكره الجبائي. والفضل المذكور في الآية قيل فيه قولان:

أحدهما - قال الحسن، وقتادة، وابن جريج: النبوة. وهو قول أبي جعفر (ع) قال وفي آله الامامة.

الثاني - قال ابن عباس: والضحاك والسدي ما أباحه الله للنبي من نكاح تسعة. اللغة: والحسد تمنى زوال النعمة عن صاحبها لما يلحق من المشقة في نيلا لها، والغبطة: تمنى مثل النعمة، لاجل السرور بها لصاحبها، ولهذا كان الحسد مذموما والغبطة غير مذمومة. وقيل: إن الحسد من افراط البخل، لأن البخل مع النعمة، لمشقة بذلها. والحسد تمنى زوالها لمشقة نيلا

صاحبها لها بالعمل فيها على المشقة بنيل النعمة. ثم قال " فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة
وآتيناهم ملكا عظيما " فما حسدوهم على ذلك فكيف حسدوا محمدا وآله ما أعطاهم الله إياه.
المعنى:

والملك المذكور في الآية ههنا قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس: هو ملك سليمان، وبه قال عطية العوفي.

الثاني - قال السدي: هو ما أحل لداود من النساء تسع وتسعون امرأة، ولسليمان مئة لان
اليهود عابت النبي (صلى الله عليه وآله) بكثرة النساء فبين الله ان ذلك وأكثر منه كان في آل
ابراهيم.

الثالث - قال مجاهد، والحسن: إنه النبوة. وقال أبو جعفر (ع): انه الخلافة، من أطاعهم، أطاع
الله ومن عصاهم عصى الله.

(١) في المخطوطة (الذين هم محمد..). (*)

(٢٢٩)

قوله تعالى:

(فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنهم سعيرا) (٥٥) - آية بلاخلاف -.

المعنى:

الضمير في قوله: (فمنهم من آمن) يحتمل أن يكون عائدا إلى أحد أمرين:

أحدهما - قال مجاهد، والزجاج، والجبائي: إن من أهل الكتاب من آمن بمحمد (صلى الله عليه
وآله) لتقدم الذكر في " يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم " (١).

الثاني - فمن أمة ابراهيم من آمن بابراهيم، ومنهم من صد عنه. كما أنكم في أمر محمد (صلى
الله عليه وآله) كذلك. وليس في ذلك توهين لامره كما ليس فيه توهين لامر ابراهيم. واتصال
الكلام على هذا الوجه ظاهر وعلى الوجه الاول تقديره وقع (٢) هذا كله " فمنهم من آمن به
ومنهم من صد عنه " وقال قوم:

" فمنهم من آمن " بداود وسليمان " ومنهم من صد عنه " وليس في الآية دلالة على أن ما تقدم
من الوعيد إنما صرف عنهم لايمان هذا الفريق، لانه قال في الآخرة " يوم تبيض وجوه
وتسود وجوه " (٣) وقال بعضهم: فيه دلالة على ذلك، ولذلك قال: " وكفى بجهنم سعيرا " أي
ان كان صرف بعض العقاب، فكفى بجهنم استغرافا بالعذاب.

اللغة:

وسعير بمعنى مسعورة وترك - لاجل الصرف - التأنيث للمبالغة في الصفة كما قالوا: كف خضيب ولحية دهين. وتركت علامة التأنيث، لأنها لما كان دخولها فيما

(١) سورة النساء: آية ٤٦.

(٢) في المخطوطة (ومع) بدل (وقع).

(٣) سورة آل عمران: آية ١٠٦. (*)

(٢٣٠)

ليست له، للمبالغة نحو رجل علامة كان سقوطها فيما بقي له للمبالغة فحسن هذا التقابل في الدلالة. والسعر: إيقاد النار ومنه قوله: " وإذا الجحيم سعرت " (١) واستعرت النار والحرب والشر استعاراً. وأسعرتها اسعاراً. وسعرتها تسعيراً. والسعر: سعر المتاع وسعروه تسعيراً وذلك لاستعار السوق بحماها في البيع. الساعور كالتنور في الأرض. والمسعور: الذي قد ضربته السموم، والعطش. وزيدت الباء في قوله: " وكفى جهنم " لتأكيد الاختصاص، لأنه يتعلق به من وجهين: وجه الفعل في كفى جهنم كقولك: كفى الله، ووجه الإضافة في الكفاية بجهنم. وعلى ذلك قيل: كفى بالله للدلالة على أن الكفاية تضاف إليه من أوكد الوجوه، وهو وجه الفعل، ووجه المصدر. قوله تعالى:

(إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما) (٥٦) - آية بلاخلاف - .
المعنى واللغة:

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن من حجد معرفته وكذب أنبياءه، ودفع الآيات التي تدل على توحيده، وصدق نبيه أنه سوف يصليه نارا لتدل على أن ذلك يفعله به في المستقبل، ولم يكن دخولها لشك، لأنه تعالى عالم بالأشياء لا يخفى عليه أمر من الأمور. ومعنى نصليه نارا: نلزمه إياها نقول: أصليته النار: إذا القيته فيها، وصليته صليا: إذا شويته: وشاة مصالية أي مشوية. والصلا الشواء.

وصلي فلان بشر فلان. وصلي برجل سوء.

وقوله: (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) قيل فيه ثلاثة أقوال:

(١) سورة التكويد: آية ١٢. (*)

(٢٣١)

أحدها - قال الرماني: إن الله يجدد لهم جلودا غير الجلود التي احترقت وتعدم المحترقة على ظاهر القرآن من أنها غيرها، لأنها ليست بعض الانسان. قال قوم هذا لايجوز، لأنه يكون عذب من لا يستحق العذاب. قال الرماني: لا يؤدي إلى ذلك، لان ما يزداد لا يألم، ولا هو بعض لما يألم، وإنما هو شئ يصل به الالم إلى المستحق له. وقال الجبائي: لايجوز أن يكون المراد ان يزداد جلدا على جلده، كلما نضجت لأنه لو كان كذلك لوجب أن يملأ جسد كل واحد من الكفار جهنم إذا أدام الله العقاب، لأنه كلما نضجت تلك الجلود زاد الله جلدا آخر، فلا بد أن ينتهي إلى ذلك.

والجواب الثاني - اختاره البلخي والجبائي، والزجاج: ان الله تعالى يجدها بان يردها إلى الحالة التي كانت عليها غير محترقة، كما يقال جئنتي بغير ذلك الوجه وكذلك، إذا جعل قميصه قباء جاز إن يقال جاء بغير ذلك اللباس أو غير خاتمه فصاغه خاتما آخر جاز أن يقال هذا غير ذلك الخاتم، وهذا هو المعتمد عليه.

والثالث - قال قوم: إن التبديل إنما هو للسراييل التي ذكرها التي ذكرها الله في قوله: " سراييلهم من قطران " (١) فاما الجلود فلو عذبت ثم إوجدت، لكان فيه تفتير عنهم، وهذا بعيد، لأنه ترك للظاهر وعدول بالجلود إلى السراييل، ولانقول إن الله تعالى يعدم الجلود، بل على ما قلناه يجدها ويطريها بما يفعل فيها من المعاني التي تعود إلى حالتها، فاما من قال: إن الانسان غير هذه الجملة، وأنه هو المعذب، فقد تخلص من هذا السؤال. ويقوي ما قلناه ان أهل اللغة يقولون: أبدلت الشئ بالشئ إذا أزلت عينا بعين، كما قال الراجز:

عزل الامير بالامير المبدل وبدلت - بالتشديد - إذا غيرت هيئة، والعين واحدة. يقولون: بدلت جتي قميصا: إذا جعلتها قميصا ذكره المغربي، وقال البلخي: ويحتمل وجها آخر وهو أن يخلق الله لهم جلدا آخر فوق جلودهم، فاذا احترق التحناني أعاده الله.

(١) سورة ابراهيم: آية ٥٠. (*)

(٢٣٢)

وهكذا يتعقب الواحد الآخر قال: ويحتمل أن يخلق الله لهم جلدا لا يألم يعذبهم فيه، كما يعذبهم في سراييل القطران.

فان قيل: كيف قال: (ليذوقوا العذاب) مع أنه دائم لازم؟ قيل: لان احساسهم في كل حال كاحساس الذائق في تجدد الوجدان من غير نقصان، لان من استمر على الاكل، لا يجد الطعم، كما يجد الطعم من يذوقه. وقوله: " إن الله كان عزيزا حكيما " معناه أنه قادر قاهر لا يمتنع عليه انجاز ما توعد به أو وعد، وحكيم في فعله لا يخلف وعيده، ولا يفعل إلا قدر المستحق به

فينبغي للعاقل أن يتدبره، ويكون حذره منه على حسب علمه به ولا يغتر بطول الامهال، والسلامة من تعجيل العقوبة.

قوله تعالى:

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا) (٥٧) - آية بلاخلاف -.

المعنى:

لما ذكر الله تعالى في الآية الاولى ما توعد به الكفار والجاحدين لآياته تعالى، وعدفي هذه الآية المصدقين به تعالى، والعاملين الاعمال الصالحات، وهي الحسنات التي هي طاعات الله، وصالح يجري على وجهين:

أحدهما - على من يعمل الطاعة.

الثاني - على نفس العمل ويقال: رجل صالح، ومعناه ذو عمل صالح، ويقال:

عمل صالح، فيجري عليه الوصف بأنه صالح. وعدهم بأن سيدخلهم جنات وهي جمع جنة وهي البستان التي يجنها الشجر " تجري من تحتها الأنهار " وفيه محذوف، لان التقدير تجري من تحتها مياه الأنهار، لان الماء هو الجاري دون الأنهار

(٢٣٣)

غير أنه يعرف الاستعمال سقط عنه اسم مجاز، كما سقط في قولهم: هذا شعر امرئ القيس وان كان المراد انه حكاية عنه، فاما قوله: " واسأل القرية " مجاز لامحالة، لانه لا بد فيه من تقدير أهلها، وقوله: " خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة " يعني من النفاس والحبيض ومن جميع الأقدار، والادناس.

اللغة:

والطهارة نقيض النجاسة. والنجاسة في الاصل هي ماكان نتنا نحو الجيف، وغيرها، وشبه بذلك نجاسة الحكم تبعا للشريعة كما يقال في الخمر: إنها نجسة.

وقوله: " ويدخلهم ظلا ظليلا " فالظل أصله الستر من الشمس قال رؤبة: كل موضع يكون فيه الشمس، فتزول عنه، فهو ظل وفي. وماسوى ذلك فظل، لا يقال فيه في. والظل: الليل، لانه كالستر من الشمس. والظلة: السترة، وظل يفعل كذا: إذا فعله نهارا، لانه في الوقت الذي يكون للشمس ظل. والاضلال الدنو، لان الشئ بدنوه، كأنه قد ألقى عليك ظله. والاضل: باطن منسم البعير، لان المنسم يستره. والظليل: هو الكنين، لانه لاشمس فيه ولاسموم. قال الحسن:

ربما كان ظل ليس بظليل، لانه يدخله الحر والسموم، فلذلك وصف ظل الجنة بأنه ظليل. ومنه قوله: " وظل ممدود " (١) لانه ليس كل ظل ممدودا. وروي أن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعها وهي شجرة الخلد. وقيل: إنما قال " ظلا ظليلا " فرقا بينه وبين " ظل ذي ثلاث شعب لاطليل ولا يغني من اللهب " (٢) وقيل يدخلهم ظلا ظليلا في الموقف حيث لا ظل إلا ظل عرشه. قوله تعالى:

(إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها وإذا حكمتم

(١) سورة الواقعة: آية ٣١.

(٢) سورة المرسلات آية ٣١ - ٣٢. (*)

(٢٣٤)

بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا) (٥٨) - آية بلاخلاف -.

المعنى:

قيل في المعنى بهذه الآية ثلاثة أقوال:

أولها - ما قال ابن عباس، وأبي بن كعب، والحسن، وقتادة، وهو المروي عن أبي جعفر (ع)، وأبي عبدالله (ع): إن كل مؤتمن على شئ يلزمه رده.

الثاني - قال زيد بن أسلم، ومكحول، وشهر بن حوشب: إن المراد به ولاة الامر وهو اختيار الجبائي، وروي ذلك عن أبي جعفر أيضا وأبي عبدالله (ع)

وقالوا: أمر الله الأئمة كل واحد منهم أن يسلم الامر إلى من بعده، وعلى الوجه الاول يدخل هذا فيه، لان ذلك من جملة ما ائتمنه الله عليه. ولذلك قال أبو جعفر (ع):

إن اداء الصلاة والزكاة والصوم والحج من الامانة، ويكون الامر للامر بآداء الامانة من الغنائم والصدقات، وغير ذلك مما يتعلق به حق الرعية.

الثالث - قال ابن جريج: نزلت في عثمان بن طلحة. أمر الله تعالى نبيه أن يرد إليه مفاتيح الكعبة، والمعتمد هو الاول، وإن كان الاخير روي أنه سبب نزول الآية، غير أنه لا يقصر عليه.

اللغة والمعنى:

تقول: أديت الشئ أو ديه تأدية، وهو المصدر الحقيقي، ولو قلت: أديت أداء كان جائزا يقام الاسم المصدر. ويقال: أدوات للصيد أدوله ادوا:

إذا خنته، لتصيده. وأدى اللبن يؤدي: إذا حمض. وقوله: " وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " أمر الله تعالى الحكام بين الناس أن يحكموا بالعدل لا بالجور " ان الله نعمًا يعظكم به " معناه نعم الشيء شيئًا يعظكم الله به من أداء الأمانة وكتبت (ما) في (نعمًا) موصولة، لأنها بمنزلة الكافي في (إنما)، و (ربما)، غير أنها في نعمًا

(٢٣٥)

اسم يعود إليه الضمير في (به) فتقديره نعم شيئًا يعظكم به أونعم وعظا يعظكم به، ولا يجوز إسكان العين مع الميم في نعمًا لأنه جمع بين ساكنين، ولكن يجوز اختلاس الحركة من غير اشباع الكسرة، كالاختلاس في " يأمركم " وبارئكم " وعلى هذا تحمل قراءة أبي عمر. وقال الزجاج: اجتماع الساكنين فيه ينكره جميع البصريين.

والسميع: هو من كان على صفة يجب لاجلها أن يسمع المسموعات إذا وجدت والبصير من كان على صفة يجب لاجلها أن يبصر المبصرات إذا وجدت. والسامع هو المدرك للمسموعات. والمبصر هو المدرك للمبصرات. ولذلك يوصف تعالى فيما لم يزل بأنه سميع بصير، ولا يوصف بأنه سامع مبصر إلا بعد وجود المبصرات والمسموعات.

وقوله: (إن الله سميعا بصيرا) اخبار بأنه كان سميعا بصيرا فيما مضى.

وذلك يرجع إلى كونه حيا لآفة به فاذا كان لايجوز خروجه عن كونه حيا، فلا يجوز خروجه عن كونه سميعا بصيرا.

قوله تعالى:

(ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) (٥٩)

- آية بلاخلاف -.

المعنى:

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين يأمرهم أن يطيعوه ويطيعوا رسوله ويطيعوا أولي الأمر منهم، فالطاعة هي امتثال الأمر. فطاعة الله هي امتثال أوامره والانتهاة عن نواهيه. وطاعة الرسول كذلك امتثال أوامره وطاعة الرسول أيضا هي طاعة الله، لأنه تعالى أمر بطاعة رسوله، فمن أطاع الرسول، فقد أطاع

(٢٣٦)

الله كما قال " من يطع الرسول فقد أطاع الله " (١) فأما المعرفة بأنه رسول، فمعرفة بالرسالة ولايتم ذلك إلا بعد المعرفة بالله، وليست احدهما هو الاخرى، وطاعة الرسول واجبة في حياته

وبعد وفاته، لان بعد وفاته يلزم اتباع سنته، لانه دعا إليها جميع المكلفين إلى يوم القيامة، كما أنه رسول إليهم أجمعين. فاما أولو الامر، فللمفسرين فيه تاويلان: أحدهما - قال أبوهريرة، وفي رواية عن ابن عباس، وميمون بن مهران، والسدي، والجبائي، والبلخي، والطبري: إنهم الامراء.

الثاني - قال جابر بن عبدالله، وفي رواية أخرى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وعطاء، وأبي العالية: انهم العلماء. وروى أصحابنا عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) أنهم الائمة من آل محمد (صلى الله عليه وآله) فذلك أوجب الله تعالى طاعتهم بالاطلاق، كما أوجب طاعة رسوله وطاعة نفسه كذلك. ولايجوز ايجاب طاعة أحد مطلقا إلا من كان معصوما مأمونا منه السهو والغلط، وليس ذلك بحاصل في الامراء، ولا العلماء، وإنما هو واجب في الائمة الذين دلت الادلة على عصمتهم وطهارتهم، فاما من قال المراد به العلماء، فقله بعيد، لان قوله (وأولي الامر) معناه أطيعوا من له الامر، وليس ذلك للعلماء، فان قالوا: يجب علينا طاعتهم إذا كانوا محقين، فاذا عدلوا عن الحق فلا طاعة لهم علينا. قلنا: هذا تخصيص لعموم ايجاب الطاعة لم يدل عليه دليل. وحمل الآية على العموم، فيمن يضح ذلك فيه أولى من تخصيص الطاعة بشئ دون شئ كما لايجوز تخصيص وجوب طاعة الرسول وطاعة الله في شئ دون شئ. وقوله: (فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) فمعنى الرد إلى الله هو إلى كتابه والرد إلى رسوله هو الرد إلى

سنته. وقول مجاهد، وقتادة، وميمون بن مهران، والسدي: والرد إلى الائمة يجري مجرى الرد إلى الله والرسول، ولذلك قال في آية أخرى " ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم " (٢) ولانه إذا كان

(١) سورة النساء: آية ث ٧٩. (٢) سورة النساء: آية ٨٢. (*)

(٢٣٧)

قولهم حجة من حيث كانوا معصومين حافظين للشرع جروا مجرى الرسول في هذا الباب. وقوله: (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أي تصدقون بهما. (ذلك خير وأحسن تاويلا) ذلك اشارة إلى الرد إلى الله وإلى الرسول (وأحسن تاويلا) قال قتادة، والسدي، وابن زيد: أحمد عاقبة. وقال مجاهد: معناه أحسن جزاء.

وهومن آل يؤول إذا رجع والمآل المرجع والعاقبة مآل، لانها بمنزلة ما تفرقت عنه الاشياء ثم رجعت إليه. وتقول: إلى هذا يؤول الامر أي يرجع. وقال الزجاج:

أحسن من تأويلكم أنتم إياه من غير رد إلى أصل من كتاب الله وسنة نبيه، وهذا هو الأقوى، لان الرد إلى الله والرسول والائمة المعصومين أحسن من تأويل بغير حجة. واستدل جماعة بهذه الآية على أن الاجماع حجة بأن قالوا: إنما أوجب الله الرد إلى الكتاب والسنة بشرط وجود التنازع، فدل على أنه إذا لم يوجد التنازع، لا يجب الرد، ولا يكون كذلك إلا هو حجة، وهذا إن استدل به مع فرض أن في الامة معصوما حافظا للشرع كان صحيحا، وإن فرضوا مع عدم المعصوم كان باطلا، لان ذلك استدلال بدليل خطاب، لا تعليق الحكم بشرط أو صفة لا يدل على أن ماعداء بخلافه عند أكثر المحصلين، فكيف يعتمد عليه ههنا، على أنهم لا يجمعون على شئ إلا عن كتاب أو سنة، فكيف يقال: إذا أجمعوا لا يجب عليهم الرد إلى الكتاب والسنة، وهم قد ردوا إليها على أن ذلك يلزم في كل جماعة، وإن لم يكونوا جميع الامة إذا اتفقوا على شئ ألا يجب عليهم الرد إلى الكتاب والسنة، لان قوله: (فان تنازعتهم) يتناول جماعة ولا يستغرق جميع الامة، فعلم بذلك فساد الاستدلال بما قالوه. وقد بينا الكلام على ذلك مستوفى في العدة في أصول الفقه.

قوله تعالى:

(ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما

(٢٣٨)

أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) (٦٠)
- آية بلاخلاف -.

المعنى واللغة:

عجب الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) في هذه الآية ممن يزعم أنه آمن بما أنزل على محمد (صلى الله عليه وآله)، وما أنزل من قبله بان قال ألم ينته علمك إلى هؤلاء الذين ذكرنا وصفهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمرهم الله أن يكفروا به. وقال الحسن، والجبائي: نزلت الآية في قوم منافقين احتكموا إلى الاوثان بضرب القداح. وقد بينا معنى الطاغوت فيما تقدم. وقيل في معناه ههنا قولان:

أحدهما - أنه كاهن تحاكم إليه رجل من المنافقين، ورجل من اليهود هذا قول الشعبي، وقتادة. وقال السدي اسمه أبو بردة.

الثاني - قال ابن عباس، ومجاهد، والربيع، والضحاك: إنه كعب ابن الاشرف رجل من اليهود، فاخترت المنافق التحاكم إلى الطاغوت، وهو رجل يهودى.

وقيل: كعب بن الاشرف، لانه يقبل الرشوة، واختار اليهودي التحاكم إلى محمد نبينا (صلى الله عليه وآله) لانه لايقبل الرشوة. ومعنى الطاغوت ذو الطغيان - على جهة المبالغة في الصفة - فكل من يعبد من دون الله فهو طاغوت، وقد تسمى به الاوثان كما تسمى بأنها رجز من عمل الشيطان، ويوصف به كل من طغى، بان حكم بخلاف حكم الله تعالى غير راض بحكمه تعالى. وروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) أن الآية في كل من يتحاكم إلى من يحكم بخلاف الحق، و (زعم)، يحتاج إلى اسم، وخبر، " وانهم " في الآية نائب عن الاسم، والخبر، لانها على معنى الجملة، ومخرج المفرد، وليس بمنزلة ظننت ذلك، لانه على معنى المفرد ومخرج المفرد، لان قولك: زعمت أنه قائم يفيد ما يفيد هو قائم، وكذلك ظننت ذاك، لانه

(٢٣٩)

يدل دلالة الاشارة إلى ما تقدر علمه عند المخاطب.
وقوله: (ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا) يدل على بطلان قول المجبرة: إن الله تعالى يفعل المعاصي ويريدها، لان الله تعالى نسب إضلالهم إلى أنه بارادة الشيطان على وجه الذم لهم، فلو أراد تعالى أن يضلهم بخلق الضلال فيهم، لكان ذلك أوكد وجوه الذم في إضلالهم. وأصل الضلال الهلاك بالعدول عن الطريق المؤدي إلى البغية، لانه ضد الهدى الذي هو الدلالة على الطريق المؤدي إلى البغية، وله تصرف كثير يرجع إلى هذه النكتة ذكرناه فيما مضى. وأضله الله معناه: سماه الله ضالا أو حكم عليه به، كما يقال أكفره بمعنى سماه بالكفر، ولايجوز أن يقال أكفره الله بمعنى أنه دعاه إلى الكفر، لانه منزه عن ذلك، فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.
قوله تعالى:

(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) (٦١) - آية -.

قال ابن جريج: الداعي إلى حكم الرسول هو المسلم الذي يدعو المنافق إلى حكم الرسول (صلى الله عليه وآله) وقال قتادة: هو يهودي دعا المنافق إلى حكم الرسول، لعلمه أنه لايجوز في الحكم " وتعالوا " أصله من العلو وهو تفاعلوا، منه كقولك: توافقوا، فاذا قلت لغيرك: تعال، فمعناه ارتفع علي - وان كان في اتخفاض من الارض - لانه جعله كالرفيع بكونه فيه، ويجوز أن يكون أصله للمكان العالي حتى صار لكل مكان. وقوله:
(يصدون عنك صدودا) قيل في سبب صد المنافقين عن النبي (صلى الله عليه وآله) قولان:
أحدهما - لعلمهم بأنه لا يأخذ الرشا على الحكم وأنه يحكم بمر الحق.
والثاني - لعداوتهم للدين.

وصدّدت الاصل فيه ألايتعدى، لانك تقول: صدّدت عن فلان أصد

(٢٤٠)

بمعنى أعرضت عنه، ويجوز صدّدت فلانا عن فلان - بالتعدي - لانه دخله معنى منعته عنه. ومثله رجعت أنا ورجعت غيري، لانه دخله معنى رددته، فلذلك جاز رجعته، " وصدودا " نصب على المصدر على وجه التأكيد للفعل، كقوله:

" وكلم الله موسى تكليما " (١) ومعنى ذلك أنه ليس ذلك على بيان كالكلام بل كلمه في الحقيقة. وقيل في معنى " تكليما " أنه كلمه تكليما شريفا عظيما ويمكن مثله في الآية. ولا يكون تقديره رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا عظيما.

قوله تعالى:

(فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) (٦٢) - آية -.

الاعراب:

قيل في موضع كيف من الاعراب قولان:

أحدهما - انه رفع بتقدير: فكيف صنيعهم إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم، كأنه قال الاساءة صنيعهم بالجرأة في كذبهم أم الاحسان بالتوبة من جرمهم.

والثاني - انه نصب وتقديره: كيف يكونون أمصرين أم تائبين يكونون؟ ويجوز الرفع على معنى كيف بك. كأنه قال أصلح أم فساد؟ المعنى:

وقيل في معنى المصيبة في الآية قولان:

أحدهما - ذكره الزجاج: ان بعض المنافقين أظهر أنه لايرضى بحكم رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقتله عمر، ثم جاء إخوانه من المنافقين يطالبون بدمه " يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا " كذبا وزورا.

(٣) سورة الانفطار: آية ١٤. (*)

(٢٤١)

الثاني - ان أصابتهم نقمة من الله لم ينيبوا تائبين من المعصية بل يزدادون جرأة بحلفهم كاذبين بالله عزوجل. وقال الحسين بن علي المغربي: الآية نزلت في عبدالله بن أبي وما أصابه من النذل عند مرجعهم من غزوة بني المصطلق هي غزوة المريسيع حين نزلت سورة المنافقين، فاضطر إلى الخشوع والاعتذار، وذلك مذكور في تفسير سورة المنافقين أو مصيبة

الموت لما تضرع إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الاقالة والاستغفار واستوهبه ثوبه، ليتقي به النار يقولون: ما أردنا إلا إحسانا وتوفيقا أي بكلامه بين الفريقين المتازعين في غزوة بني المصطلق. وقوله: (فاعرض عنهم) يأسا منهم (وعظهم) ايجابا للحجة عليهم " وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً " فيه دلالة على فضل البلاغة وحث على اعتمادها. وقوله: " إن أردنا إلا إحسانا أردنا وتوفيقاً " معناه قيل فيه قولان:

أحدهما - أي ما أردنا بالمطالبة بدم صاحبنا إلا إحسانا إلينا، وما وافق الحق في أمرنا.
الثاني - ما أردنا بالعدول عنك في المحاكمة توفيقاً بين الخصوم، وإحساناً بالتقريب في الحكم دون الحمل على مر الحق. كل ذلك كذب منهم وافك.

ان قيل كيف يقتضي الانتقام منهم الاعتذار لما سلف من جرمهم؟ قلنا:
عنه جوابان:

أحدهما - للتقريع بتعجيل العقاب على ما ارتكبوا من الآثام.
الثاني - ان الانتقام قد يكون اقضاء النبي (صلى الله عليه وآله) واذلاله إياهم، وتخويله بالنفي أو القتل ان لم ينتهوا عن قبائحهم - هذا قول الجبائي - والحلف: القسم.
ومنه الحلف، لتحالفهم فيه على الامر. وحليف الجود ونحوه، لانه كالحلف في اللزوم، أو حلف الغلام إذاقارب البلوغ.
قوله تعالى:

(أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فاعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً) (٦٣)
- آية - .

(٢٤٢)

المعنى:

(أولئك) اشارة إلى المنافقين الذين تقدم وصفهم، وإنما قال: يعلم ما في قلوبهم وإن كان معلوماً ذلك بدلالة العقل لامرين:
أحدهما - تأكيداً لما علمناه.

والثاني - انه يفيد أنه لا يغنى عنهم كتمان ما يضمرونه شيئاً من العقاب، لان الله يعلم ما في قلوبهم من النفاق. وكذلك كل ما ذكره الله مما هو معلوم عند المخاطب. إنما الفائدة في مقارنته بما ليس بمعلوم على جهة الاحتجاج به، أو غيره من الوجوه. وقوله: (فاعرض عنهم وعظهم) جمع بين معنى الاعراض والاقبال.

وقيل في معناه ثلاثة أوجه:

أحدها - فاعرض عنهم بعداوتك لهم، وعظهم.

الثاني - فاعرض عن عقابهم وعظهم.

الثالث - قال الجبائي: أعرض عن قبول الاعتذار منهم. وقوله: " وقل لهم في أنفسهم قوالا بليغا " قال الحسن: القول البليغ الذي أمر به في الآية أن يقول إن أظهرتم ما في قلوبكم قتلنكم، فهذا يبلغ من نفوسهم كل مبلغ. وقال الجبائي: خوفهم بمكاره تنزل بهم في أنفسهم إن عادوا لمثل ما فعلوه. ويجوز أن يكون المراد ازجرهم عما هم عليه بأبلغ الزجر.
اللغة:

وأصل البلاغة البلوغ، تقول: بلغ الرجل بالقول بليغ بلاغة، فهو بليغ: إذا كان بعبارة يبلغ كثير ما في قلبه. ويقال: أحقق بليغ، وبلغ ومعناه. أنه أحقق يبلغ حيث يريد. وقيل: معناه قد بلغ في الحماسة. وفي الآية دلالة على فضل البلاغة، وأنها أحد أقسام الحكمة، لما فيها من بلوغ المعنى الذي يحتاج إلى التفسير باللفظ الوجيز مع حسن الترتيب.

(٢٤٣)

قوله تعالى:

(وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بأذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا) (٦٤) - آية بلاخلاف - .
المعنى:

" ما " في قوله: " وما أرسلنا " نافية فلذلك قال: " من رسول "، لان (من) لاتزاد في الايجاب، وزيادتها تؤذن باستغراق الكلام كقولك: ما جاءني من أحد.
والتقدير في الآية: وما أرسلنا رسولا إلا ليطاع، فيمتثل ما نأمره به. والذي اقتضى ذكر طاعة الرسول إعراض هؤلاء المنافقين - الذين تحاكموا إلى الطاغوت - عن طاعته، وهم يزعمون أنهم يؤمنون به حتى كأنه قد قيل لهم: من الايمان أن لاتطيعوه في كل ما يدعوا إليه، فبين الله تعالى أنه كغيره من الرسل الذي ما أرسل إلا ليطاع. وقوله: " بأذن الله " معناه بأمر الله الذي دل على وجوب طاعتهم، والاذن على وجوه: يكون بمعنى اللطف، كقوله: " وما كان لنفس أن تؤمن إلا بأذن الله " (١) ومنها الامر مثل هذه الآية. ومنها التخليية نحو " وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله " (٢) وقوله: " ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم " معناه إذ بخسوها حقها بادخال الضرر عليها بفعل المعصية من استحقاق العقاب، وتقويت الثواب بفعل الطاعة.
الاعراب والمعنى:

وموضع " أنهم " رفع. والمعنى لو وقع مجيئهم في وقت ظلمهم مع استغفارهم " لوجدوا الله توابا رحيمًا " و (لو) موضوعة للفعل، لما فيها من معنى الجزاء تقول: لو كان كذا، لكان كذا. ولايقع بعدها إلا (أن). وإنما اجيز في (أن)

(١) سورة يونس: آية ١٠٠. (٢) سورة البقرة: آية ١٠٢. (*)

(٢٤٤)

خاصة أن تقع بعدها، لأنها كالفعل في إفادة معنى الجملة. وفتحت (ان) لأنها مبنية على (لو) بترتيبها على نحو ترتيبها بعد العامل فيها. وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة: من أن الله تعالى يريد أن يعصي الانبياء قوم ويطيعهم آخرون، لأنه تعالى بين أنه ما أرسلهم إلا ليطاعوا، واللام لام الغرض ومعناه إلا وأراد من المبعوث إليهم أن يطيعوا. وذلك خلاف مذهبهم. وفيها أيضا دلالة على أن من كان مرتكبا لكبيرة يجب أن يستغفر الله فان الله سيتوب عليه ويقبل توبته، ولا ينبغي لاحد أن يستغفر مع كونه مصرا على المعصية بل ينبغي أن يتوب ويندم على ما فعل ويعزم على أن لا يعود إلى مثله ثم يستغفر باللسان ليتوب الله عليه. وقوله: " لوجدوا الله " يحتمل أمرين: أحدهما - لوجدوا مغفرة الله لذنوبهم ورحمته إياهم.

والثاني - لعلموا الله توابا رحيمًا. والوجدان قد يكون بمعنى الإدراك، فلا يجوز عليه تعالى أنه تعالى غير مدرك في نفسه. وذكر الحسن في هذه الآية: أن اثني عشر رجلا من المنافقين اجتمعوا على أمر من النفاق وائتمروا به فيما بينهم، فأخبره الله بذلك، وقد دخلوا على رسول الله، فقال رسول الله: إن اثني عشر رجلا من المنافقين اجتمعوا على أمر من النفاق، وائتمروا به فيما بينهم، فليقم أولئك فليستغفروا ربهم، وليعترفوا بذنوبهم حتى اشفع لهم. فلم يقم أحد. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ألا تقومون؟ مرارا - . ثم قال: قم يافلان وأنت يافلان، فقالوا يارسول الله نحن نستغفر الله ونتوب إليه، فاشفع لنا. قال الآن أنا كنت في أول أمركم أطيب نفسا بالشفاعة، وكان الله تعالى أسرع إلى الاجابة أخرجوا عني، فأخرجوا عنه حتى لم يرههم.

قوله تعالى:

" فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما " (٦٥) - آية - .

(٢٤٥)

قيل في معنى دخول (لا) في أول الكلام قولان:

أحدهما - أنها رد لكلام. كأنه قيل لا الأمر كما يزعمون من الايمان وهم على تلك الحال من الخلاف، ثم استؤنف قوله: " وربك لا يؤمنون حتى.. " .

الثاني - انها توطئة للنفي الذي يأتي فيما بعد، لانه إذا ذكر في أول الكلام وآخره كان أوكد وأحسن، لان النفي له صدر الكلام. وقد اقتضى القسم أن يذكر في الجواب.
النزول:

وقيل في سبب نزول هذه الآية قولان:

أحدهما - أنها نزلت في الزبير ورجل من الانصار تخاصهما إلى النبي (صلى الله عليه وآله) في سراح من الحرّة كانا يسقيان منه نخلا لهما، فقال النبي (صلى الله عليه وآله) اسق يازبير ثم ارسل إلى جارك، فغضب الانصاري، وقال: يارسول الله ان كان ابن عمك؟! ! فتلون وجه رسول الله حتى عرف ان قد ساءه، ثم قال يازبير احبس الماء إلى الجدد (١) أو إلى الكعبين، ثم خل سبيل الماء، فنزلت الآية. وقال أبو جعفر (ع) كانت الخصوصية بين الزبير، وحاطب بن أبي بلتعة روي ذلك عن الزبير وأم سلمة. وذهب إليه عمر بن شبة، والواقدي. وقال قوم وهو اختيار الطبري: إنها نزلت في المنافق واليهودي اللذين احتكما إلى الطاغوت. قال: لان سياق الكلام بهذا أشبه.
اللغة والمعنى:

وقوله: (فيما شجر بينهم) معناه فيما وقع بينهم من الاختلاف. تقول شجر يشجر شجرا وشجورا وشاجره في الامر: إذا نازعه فيه مشجرة، وشجارا وتشاجروا فيه: تشاحوا. وكل ذلك لتداخل كلام بعضهم في بعض كتداخل الشجر بالتفافه. وفي الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة، لانه إذا وجب الرضى بفعل النبي (صلى الله عليه وآله) فالرضا بفعل الله تعالى أولى، ولو كان خلق الكفر والمعاصي لوجب على الخلق الرضابه وذلك خلاف الاجماع. وقيل في معنى الحرج قولان:

(١) أراد مرفع من اعضاء المزرعة لتمسك الماء كالجدار. وفي رواية، قال له: " احبس الماء حتى يبلغ الجدى - بضم الميم وتشديد الدال - " وهي المسناة - عن لسان العرب: (جدد) - .

(٢٤٦)

أحدهما - قال مجاهد هو الشك. وقال الضحاك: الاثم. وأصل الحرج الضيق فكأنه قال ضيق شك أو اثم وكلاهما يضيق الصدر. ومعنى الآية أن هؤلاء المنافقين لا يؤمنون حتى يحكموا النبي (صلى الله عليه وآله) فيما وقع بينهم من الاختلاف، ثم لا يجدوا حرجا مما قضى به أي لاتضيق صدورهم به، ويسلموا لما يحكم به لايعارضونه بشئ فحينئذ يكونون مؤمنين. و " تسليمًا " مصدر مؤكد والمصادر المؤكدة بمنزلة ذكرك للفعل ثانيا كأنك قلت: سلمت تسليمًا ومن حق التوكيد أن يكون محققا لما تذكره في صدر كلامك، فاذا قلت: ضربت ضربا، فمعناه

أحدثت ضرباً احقه حقا ولا أشك فيه. ومثله في الآية انهم يسلمون من غير شك يدخلهم فيه. وقال أبو جعفر (ع): لما حكم النبي (صلى الله عليه وآله) للزبير على خصمه، لوى شذقه وقال لمن سأله عن حكم له، فقال: لمن يقضي؟ لابن عمته. فتعجب اليهودي وقال: إنا آما بموسى فاذنبنا ذنبا فامرنا الله تعالى بان نقتل أنفسنا، فقتلناها فاجلت عن سبعين ألف قتيل. وهؤلاء يقرن بمحمد (صلى الله عليه وآله) ويطؤون عقبه ولا يرضون بقضيته، فقال ثابت بن الشماس لو أمرني الله أن أقتل نفسي لقتلتها فانزل الله " ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم.. " إلى قوله: " إلا قليل منهم " يعني ابن الشماس ذكره السدي.

قوله تعالى:

(ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتاً) (٦٦) - آية بلاخلاف -
القراءة، والحجة:

قرأ ابن عامر وحده " إلا قليلا " بالنصب، وكذلك هو في مصاحف أهل الشام. الباقر بالرفع. وقيل: إن النصب قراءة أبي، فمن رفع فعلى البدل من

(٢٤٧)

المضر كأنه قال: ما فعله إلا قليل منهم. وهذا يجوز في النفي دون الاثبات، لانه لا يجوز أن يقول فعله إلا قليل منهم، لان الفعل ليس للقليل في الاثبات كما هو لهم في النفي. وقال الكسائي: ارتفع بالتكرار. والمعنى ما فعلوه ما فعله إلا قليل.

ومن نصب فانه قال: الاستثناء بعد تمام الكلام، لان قوله: " ما فعلوه " كلام تام كما أن قولك فعل القوم كلام تام. فاستثنى بعده، ولم يجعل ما بعد إلا عليه الاعتماد. والوجه الرفع، لان الفعل لهم. فهو أدل على المعنى. وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر والكسائي " إن اقتلوا " بضم النون وبضم الواو في قوله: " أو اخرجوا " وقرأ عاصم وحمزة بكسرهما وكسر النون. وضم الواو أبو عمرو. فمن ضمهما فلان الثالث مضموم أتبع الضمة. ومن كسرهما فعلى أصل الحركة لانتقاء الساكنين.

وأبو عمرو ضم الواو تشبيها بواو " اشتروا الضلالة " (١). " ولا تتسوا الفضل بينكم " (٢).
المعنى:

ومعنى قوله: (ولو أنا كتبنا عليهم) أي لو أنا ألزمناهم وأوجبنا عليهم " أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم " أي لو كتبنا عليهم ذلك - كما أوجبنا على قوم موسى وقتلوا أنفسهم وأخرجهم إلى التيه - ما فعله هؤلاء للمشقة التي فيه مع أنه كان ينبغي أن يفعلوه، لمالهم فيه من الحظ، لانا لم نكن لنأمرهم به إلا لما تقضيه الحكمة، وما فيه من المصلحة مع تسهيلنا

تكليفهم وتيسيرنا عليهم، فمايقعدهم عنه مع تكامل أسباب الخير فيه وسهولة طريقة؟ ولو فعلوا ما يوعظون به أي ما يؤمرون به، لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا. وقيل في معناه قولان: أحدهما - ان البصيرة أثبت من اعتقاد الجهالة لما يعتري فيها من الحيرة واضطراب النفس الذي يتميز من حال المعرفة بسكون النفس إليه. الثاني - ان اتباع الحق إثبت منفعة لان الانتفاع بالباطل يضمحل بمايعقب

(١) سورة البقرة: آية ١٦، ١٧٥.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٣٧. (*)

(٢٤٨)

من المضرة وعظيم الحسرة. وفالاول لاجل البصيرة. والثاني لاجل دوام المنفعة. وقال البلخي معنى الآية أنه لو فرض الله عليهم قتل أنفسهم كما فرض على قوم موسى عندما التمسوا أن يتوب عليهم أو الخروج من ديارهم ما فعلوه. فاذا لم يفرض عليهم ذلك، فليفعلوا ما أمروا به مما هو أسهل عليهم منه، فان ذلك خير لهم وأشد تثبيتا لهم على الايمان. وفي الدعاء اللهم ثبتنا على ملة رسولك. ومعناه اللهم الطف لنا ما نثبت معه على التمسك بطاعة رسولك والمقام على ملته.

قوله تعالى:

(وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) (٦٨) - آيتان بلاخلاف

.-

قيل: ان " إذا " دخلت ههنا لتدل على معنى الجزاء، كأنه قال ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما جزاء على فعلهم - ومعنى - " إذا " جواب وجزاء وهي تقع متقدمة ومتأخرة ومتوسطة وإنما تعمل متقدمة خاصة إلا أن يكون الفعل بعدها للحال نحو إذا أظنك خارجا. وتلغى اذا عن العمل من بين أخواتها لأنها تشبه أظن في الاستدراك بها تقول: زيد في الدار أظن فتستدرك بها بعد ما مضى صدر الكلام على اليقين. وكذلك يقول القائل: أنا أجيئك فتقول:

وأنا أكرمك اذن. أردت أن تقول: وأنا أكرمك ثم استدركته باذن. ولدن مبنية ولم تبين عند، لأنها أشد إبهاما إذا كانت تقع في الجواب نحو أين زيد، فتقول: عند عمرو، فلايقع لدن هذا الموقع، فجرت لشدة الإبهام مجرى الحروف.

ومعنى (لدنا) ههنا من عندنا. وإنما ذكر " من لدنا " تأكيدا للاختصاص، بأنه مالا يقدر عليه إلا الله، لانه قديوتي بما يجريه على يد غيره. وقد يؤتي بمايختص بفعله. وذلك أشرف له وأعظم في النعمة ولانه متحف بما لايقدر عليه غيره.

وقوله: " ولهديناهم " معناه ولفعلنا من اللطف بهم ما يثبتون معه على الطاعة، ولزوم الاستقامة وإنما لم يفعل بهم هذا اللطف مع الحال التي هم عليها، لانه يخرجهم

(٢٤٩)

من معنى اللطف حتى يصيروا بمنزلة من لالطف له على وجه. ومثله " اهدنا الصراط المستقيم " أي ثبتنا بلطفك على الصراط المستقيم. وقال أبوعلي: معناه الاخذبهم على طريق الجنة في الآخرة. قال: ولايجوز أن يكون المراد بالهداية ههنا الارشاد إلى الدين لانه تعالى وعد بهذا من يكون مؤمنا مطيعا. ولايكون كذلك إلا وقد اهتدى، فان قيل: لم جاز أن يمنعوا

اللفظ لسوء فعلهم. ولم يجز أن يمنعوا لسوء فعل غيرهم إذ قد صاروا بمنزلة من لالطف لهم؟ قلنا: لانهم يؤتون في معاصيهم من قبل أنفسهم ولايجوز أن يؤتوا فيها من قبل غيرهم ولو جاز ذلك لجاز أن يقتطعوا عن التوبة بالقتل فيكونوا قد أوتوا في معاصيهم من قبل المتقطع لهم وتكون التخلية فيه بمنزلة الاماتة. والواجب في هذا ان يمنع غير هذا المكلف من سوء الفعل الذي فيه ارتفاع اللطف. فان كان لطف هذا المكلف متعلقا بفعل غيره، وقد علم انه لايفعله، لم يحسن تكليف هذا المكلف لانه ان منع هذا من الايمان، فسد، وان ترك وسوء الفعل فسد. واللام في قوله: " ولهديناهم صراطا مستقيما " لام الجواب التي تقع في جواب (لو) كما تقع في جواب القسم. كما قال امرؤ القيس:

حلفت لها بالله حلفة فاجر * لناموا فما ان من حديث ولاصال (١)

والفرق بين لام الجواب ولام الابتداء ان لام الابتداء لاتدخل إلا على الاسم المبتدأ إلا في باب (ان) خاصة فانها تدخل على الفعل لمضارعه الاسم. يبين ذلك قولك: قد علمت ان زيدا ليقوم. وقد علمت ان زيدا ليقوم فتكسر (ان) الاولى وتفتح الثانية. وقوله: (صراطا) نصب على أنه مفعول ثان، لانه في معنى مفعول كسوته ثوبا، أي فاكتسى ثوبا. فكذلك ولهديناهم فاهتدوا صراطا. قوله تعالى:

(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله

(١) ديوانه: ١٦١ حلفة فاجر: قسم فاسق. صال: مستدفئ بالنار. في المطبوعة (حديث) بدل (حديث).

(٢٥٠)

عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (٦٩) ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) (٧٠) - آيتان.

المعنى واللغة والنزول:

لما جرى ذكر الطاعة فيما تقدم والحض عليها اقتضى ذكر طاعة الله، وطاعة الرسول، والوعد عليها. وقيل: إنه وعدبامر مخصوص على الطاعة من مرافقة النبيين ومن ذكر معهم وهو أعم فائدة. ومعنى قوله: (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين " انه يستمتع برؤية النبيين وزيارتهم، والحضور معهم. فلا ينبغي أن يتوهم من أجل أنهم في أعلى عليين انه لايراهم. وقال الحسن، وسعيد بن جبير، ومسروق، وقتادة، والربيع، والسدي، وعامر: إن سبب نزول هذه الآية ان بعض الناس توهم ذلك، فحزن له، وسأل النبي (صلى الله عليه وآله) عن ذلك، فانزل الله الآية.

وقيل في معنى الصديق قولان:

أحدهما - المداوم على ما يوجبه التصديق بالحق.

الثاني - ان الصديق هو المتصدق بما يخلص له من عمل البر. والاول أظهر.

والشهداء جمع شهيد. وهو المقتول في سبيل الله. وفي تسميته شهيدا قولان:

أحدهما - لانه قام بشهادة الحق حتى قتل في سبيل الله.

والآخر - انه من شهداء الآخرة بما ختم له من القتل في سبيل الله. وليست الشهادة هي القتل،

لانها معصية، ولكنها حال المقتول في اخلاص القيام بالحق لله مقرا به، وداعيا إليه. وقيل:

الشهادة هي الصبر على ما أمره الله به من قتال عدوه والانقياد له. فاما الصبر على الالم

بترك الانين فليس بممنوع، بل هو مباح إذا لم يقل ما يكرهه الله. وقال الجبائي: الشهداء جمع

شهيد. وهم الذين جعلهم الله شهداء في الآخرة. فهم عدول الآخرة. وهذا على مذهبه بعيد، لان

أهل الجنة

(٢٥١)

كلهم عدول عنده، لان من ليس يعدل لا يدخل الجنة. والله تعالى وعدمن يطيعه ويطيع رسوله

بأنه يحشره مع هؤلاء. فينبغي أن يكونوا غير الموعود لهم.

وإلا يصير تقديره إنهم مع نفوسهم.

والصالح: من استقامت نفسه بحسن عمله. والمصلح المقوم لعمل يحسنه.

ويقال: الله يصلح في تدبير عباده. بمعنى أنه يحسن تدبير عباده. ولا يوصف بانه صالح.

الاعراب وقوله: (وحسن أولئك رفيقا) نصب على التميز. ولذلك لا يجمع. وهو في موضع

رفقاء وقيل إنه لم يجمع، لان المعنى، حسن كل واحد منهم رفيقا كما قال: " يخرجكم طفلا "

(١) وقال الشاعر:

نصبن الهوى ثم ارتمين قلوبنا * باسهم أعداء وهن صديق (٢)

ومن قال: " رفيقا " نصب على التمييز، قال: لانه قد سمع حسن أولئك من رفقاء، وكرم زيد

من رجل. وقال قوم: هونصب على الحال، فانه قد تدخل (من)

في مثله. فاذا سقطت (من) فالحال هو الاختيار، لانه من أسماء الصفات كاسماء الاجناس.

ويكون التوحيد لما دخله من معنى حسن كل واحد منهم مرافقا.

ونظيره: لله درهم فارسا، أي حال الفروسية.

اللغة:

والرفيق: مشتق من الرفق في العمل. وهو الارتفاق فيه. ومنه الترفق في

(١) سورة الحج: آية ٥، وسورة المؤمن: آية ٦٨.

(٢) قائله جرير. ديوانه ٢: ٢٠ الطبعة الاولى. المطبعة العلمية بمصر وروايته (دعون)

بدل (نصبن) وفي المطبوعة (باعين) بدل (بأسهم) وأثبتناها كما في جميع المصادر طبقات فحول الشعراء: ٣٥١،
واللسان (صدق) والعقد الفريد ٧: ٤٨ وروايته (بعثن) بدل (نصبن) وما بعده.

وما نقت طعم العيش منذنايتم * وما ساغ لي بين الجوانح ريق

(٢٥٢)

السير، ونحوه. ومنه المرافقة. والمرفق من اليد - بكسر الميم - لانه يرتفق به.

ويقال أيضا في العمل نحو قوله: " ويهيئ لكم من أمركم مرفقا " (١) أي رفقا يصلح به
أمركم. والمرفق: بفتح الميم - من مرافق الدار. والرفقة: الجماعة في السفر، لارتفاق بعضهم
ببعض. وقوله: " ذلك الفضل " إشارة إلى الثواب بالكون مع النبيين، والصديقين. والتقدير ذلك
هو الفضل من الله. وهو وإن كان مستحقا، فلم يخرج من أن يكون تفضلا، لان سببه الذي هو
التكليف، تفضل. والفضل:

هو الزائد على المقدار إلا أنه قد كثر على ما زاد من الانتفاع. وكل ما يفعله تعالى فهو فضل،
وتفضل، وافضال، لانه زائد على مقدار الاستحقاق الذي يجري على طريق المساواة. وقوله:
" وكفى بالله عليما " انما ذكر، ليعلم انه لا يضيع عنده شئ من جزاء الاعمال. من حيث كان
تعالى: عالما به، وبما يستحق عليه.

وتقديره، وكفى بالله عليما بكنه الجزاء على حقه، وتوفير الحظ فيه. ودخلت الباء في اسم الله
زائدة للتوكيد. والمعنى كفى الله ووجه التأكيد أن اتصال الاسم بالفعل من جهة بنائه عليه وجه
من وجوه الاتصال واتصاله بالباءوجه آخر من وجوه الاتصال، فاذا اجتمعا كان أوكد. ووجه
آخر هو أن معناه اكتفى العباد بالله. ووجه ثالث وهو أنه توطئة لباب سير بزيد وأكرم بزيد
من جهة أن موضعه رفع، وفيه حرف من حروف الجر. والكفاية مقدار مقاوم للحاجة.
ولا يخلو المقدار من أن يكون فاضلا أو مقصرا أو كافيا، فهذه الاقسام الثلاثة متقابلة.

قوله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا) (٧١) - آية -.

المعنى واللغة:

هذا خطاب للمؤمنين الذين صدقوا بالله، وبرسوله. ومعناه أيقنوا بالله،

(١) سورة الكهف: آية ١٦. (*)

(٢٥٣)

ورسوله. أمرهم الله أن يأخذوا حذرهم. وقيل في معناه: قولان:

أحدهما - قال أبو جعفر (ع) وغيره: خذوا سلاحكم، فسمي السلاح حذرا لان به يقى الحذر. الثاني - احذروا عدوكم باخذ السلاح، كما يقال للانسان خذ حذرك. بمعنى احذر. والحذر والحذر لغتان. مثل الاذن والاذن. والمثل المثل. ثم أمرهم بان ينفروا. والنفور: الفرع نفر ينفى نفورا: إذا فرغ. ونفر إليه: إذا فرغ من أمر إليه. والمعنى انفروا إلى قتال عدوكم. ومنه النفور: جماعة تفرغ إلى مثلها.

والنفير إلى قتال العدو. ونفر الحاج يوم الثاني والثالث من التشريق، لانهم يفرعون إلى الاجتماع للرجوع إلى الاوطان. والمنافرة: المحاكمة للفرع إليها فيما يختلف فيه وقيل: إنما كانت، لانهم يسألون الحاكم أيضا أعز نفرا. ونفره تنفيرا. ونافره منافرة. وتنافروا تنافرا. واستنفره استنفارا. وقوله: " ثبات " قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي: إن معناه انفروا فرقة بعد فرقة، أو فرقة في جهة وفرقة في جهة. أو انفروا جميعا من غير تفرق بالاوقات، والجهات.

والثبات جمع ثبة وهي جماعات في تفرقة أي يأتون متفرقين. وقال أبو جعفر: الثبات: السرايا والجميع العسكر. قال أبو ذؤيب:

فلما اجتلاها بالايام تحيرت * ثبات عليها ذلها واكتئابها (١)

يصف العاسل، وتدخينه على النحل. والايام - بكسر الهمزة على وزن لجام - الدخان ويجمع ثبة على ثبتين، أيضا. قال زهير:

وقد اغدوا على ثبة كرام نشاوى واجدين لما نشاء (٢)

وانما جاز أن يجمع ثبة ثبون - وان كان هذا الجمع يختص ما يعقل - للعوض من النقص الذي لحقه، لان أصله ثبوة. ومثله عضين وسنين وعرين. فان صغرت

(١) - اللسان (جلا). البيت لابي ذؤيب يصف النحل والعاسل. وفي رواية (اجتلاها)

بدن جلاها. يعني جلا العاسل النحل عن مواضعها بالايام وهو الدخان.

(٢) - ديوانه: ٧٢. مجاز القرآن لابي عبيدة: ١٣٢ واللسان: (ثبا)، (نشو). (*)

(٢٥٤)

قلت ثبيات (١) وسنيات، لان النقص قد زال. وقيل: ان الثبة عصبه منفردة من (عصب). وتقول ثبيت على الرجل اثبي تثبية: إذا تثبت عليه. وذكرت محاسنه في حال حياته. وتصغير ثبة ثبية. فاما ثبة الحوض، فهي وسطه. الذي يثوب إليه الماء. وهي من ثاب يثوب، لان تصغيرها ثوية. - وقوله: " أو انفروا جميعا " وقد مضى معناه - (٢).

قوله تعالى:

(وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أُنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا) (٧٢) - آية.

قال الحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن جريج، وابن زيد: نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يبطئون الناس عن الجهاد. فإذا أصابتهم مصيبة فيه، من قتل أو هزيمة، قالوا قول الشامت بهم في تلك الحال: قد أُنعم الله علينا إذ لم نكن معهم شهداء أي حضورا. وقال أبو جعفر (ع): من يتمنى التأخر عن جماعة المسلمين، لا يكون إلا كافرا. فقوله: " وإن منكم لمن ليبطئن " خطاب للمؤمنين.

وانما أضاف المنافقين إليهم لامرين:

أحدهما - ان من عداكم ودخلائكم.

الثاني - أي منكم في الحال الظاهرة، أو حكم الشريعة من حقن الدم، ونحو ذلك من الموارثة، والمناكحة. واللام الأولى لام الابتداء بدلالة دخولها على الاسم، والثانية لام القسم بدلالة دخولها على الفعل مع نون التأكيد. وتقديره إن منكم لمن حلف بالله ليبطئن. وانما جاز صلة " من " بالقسم، ولم يجر بالامر والنهي لان القسم خبر يوضح الموصول، كما يوضح الموصوف في قولك: مررت برجل لتكرمنه، لانه خصه بوقوع الاكرام به في المستقبل من كل رجل غيره. وليس كذلك

(١) - في المخطوطة زيادة: " على الاصل انثى ثبية " - في هذا الموضع.

(٢) - ما بين القوسين ساقط من المطبوعة وهو موجود في المخطوطة. (*)

(٢٥٥)

الامر في قولك: مررت برجل أضربه، لانه لايتخصص بالضرب في الامر كما، تخصص في الخبر. قال: الفراء تدخل اللام في النكرات وفي من وما والذى. فاذا جئت بالمعرفة الموقته، لم يجر ادخال اللام فيها. لاتقول إن عبدالله ليقومن وان زيدا ليذهبن، لان زيدا، وعبدالله، لا يحتاجان إلى صلة، والابطاء: اطالة مدة العمل لقلّة الانبعاث.. ضده الاسراع. وهو قصر مدة العمل، للتدبير فيه.

والاناة: اطالة الاحكام الذي لاسبيل إليه إلا بالثبوت فيه. وضدها العجلة وهي قصر المدة من غير إحكام الصنعة تقول: بطؤ في مشيه يبطؤ بطاء: إذانقل وتباطأ وتباطيا وبطأ تبطيا واستبطأ استبطاء وأبطأ إبطاء: إذا تأخر.

قوله تعالى:

(ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) (٧٣)
آية بلاخلاف - .

المعنى بهذه الآية المنافقون الذين وصفهم الله بأنهم يفرحون بتأخرهم عن المؤمنين إذا أصيبوا، وانهزموا. فاخبر عنهم انه إذا أصاب المؤمنين فضل من الله بان يظفروا أو يقهروا العدو، بانهم يتمنون الكون معهم، فيفوزوا فوزا عظيما.
وانما ذمهم الله بهذا التمني لاحد أمرين:

أحدهما - لانهم قالوه على وجه ايثار الغنيمة لاعلى حال المثوبة من جهة الله لشكهم في الجزاء من الله.

الثاني - قال قتادة وابن جريج انهم قالوا: ذلك على جهة الحسد للمؤمنين.
والاصابة. ملامسة المرمي لما وقعت به الرمية. فاذا قيل: أصاب - مطلقا - فمعناه أصاب الغرض. ويجوز أن ينفي فيقال: لم يصب، يعني الغرض، وان أصاب غيره.
وقوله: " كان لم تكن بينكم وبينه مودة " قيل فيه ثلاثة أقوال:

(٢٥٦)

أحدها - انه اعتراض بين القول، والتمني، ولا يكون له موضع من الاعراب.
وتقديره ليقولن: ياليتني كنت معهم، فافوز فوزا عظيما. كأن لم يكن بينكم وبينه مودة.
الثاني - أن يكون اعتراضا وموضعه التقديم. وتقديره فان أصابتم مصيبة، قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا كأن لم يكن بينكم، وبينه مودة. واختار هذا الوجه أبو علي النحوي.
الثالث - أن يكون في موضعه على موضع الحال. كما تقول: مررت بزيد كأن لم يكن بينك وبينه معرفة فضلا عن مودة. والزجاج أجاز الوجوه الثلاثة.
المعنى:

وفي معنى الآية قولان:

أحدهما - قال الجبائي: المعنى ليقولن لهؤلاء الذين أقعدهم عن الجهاد، كأن لم يكن بينكم وبينه أي وبين محمد (صلى الله عليه وآله) مودة، فيخرجكم لتأخذوا من الغنيمة، ليغضوا إليهم رسول الله (صلى الله عليه وآله).

الثاني - انه يقول قول الممنوع بالعداوة. وانما أنى من جهله بتلك الحال.
وهو الاظهر. والمعنى كأنه لم يعاقدكم على الايمان ولم يظهر لكم مودة على حال يخاطبون بذلك من أقعدوه عن الخروج، ثم يقول من قبل نفسه: ياليتني كنت معهم. وقال الحسين بن

علي المغربي: المعنى ليس الكون معهم في الخير، والشر، كأهل المودات، وانما يتمنون ذلك عند الغنيمة كالبعداء يذمهم بسوء العهد مع سوء الدين.
وانما نصب جواب التمني بالفاء، لانه مصروف عن العطف محمول على تأويل المصدر.
وتقديره ياليتني كان لي حضور، معهم ففوز. ولو كان على العطف، لكان ياليتني كنت معهم ففزت. وقرأ أبو جعفر المدني، وحفص، ورويس، والبرجمي:
" كان لم تكن " - بالتاء - لان لفظة المودة مؤنثة. ومن قرأ بالياء، فلان التأنيث

(٢٥٧)

ليس بحقيقي، ومع ذلك قد وقع فصل بين الفعل، والفاعل.
قوله تعالى: (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما) (٧٤) - آية - .
لما أخبر الله تعالى في الآية الاولى ان قوما من المنافقين يثبطون المؤمنين عن جهاد العدو والقتال في سبيل الله، حث في هذه الآية على الجهاد، بأن قال:
لا تلتفتوا إلى تثبيط المنافقين، وقاتلوا في سبيل الله بائعين للدنيا بالآخرة، إذ لكم بذلك أعظم الاجر وأكبر الحظ. وقال الزجاج: فليكن من الذين يقاتلون في سبيل الله أو عن كان بينه وبينكم عقد مودة. ومعنى (يشرون الحياة الدنيا بالآخرة)
يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة. وبيعهم إياها بالآخرة هو استبدالهم إياها بالآخرة ببذلهم أنفسهم، وأمواهم في سبيل الله، وتوطنين أنفسهم على الجهاد في طاعة الله.
يقال: شريت بمعنى بعت. واشتريت: ابتعت. ويشرون: يبيعون - في قول الحسن، والسدي، وابن زيد، وجميع أهل اللغة - . قال يزيد بن مفرغ:
وشريت بردا ليتني * من بعد برد كنت هامة
وبرد اسم غلامه. وشريته بمعنى بعته. وفي الآية حذف. والتقدير يشرون الحياة الدنيا بالحياة الآخرة. كأنه قال: يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية.
ويجوز يبيعون الحياة الدنيا بنعيم الآخرة، ثم قال: (ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب).
فالوعد على القتال، لاعلى القتل، والغلبة. وقوله: " فيقتل " عطف على يقاتل. ولذلك جزمه والجواب قوله: " فسوف نؤتيه " وإنما قال: أو يغلب، لان الوعد على القتال حتى ينتهي إلى تلك الحال، لانه أعظم الجهاد. وعليه أعظم الاجر.

(٢٥٨)

والاجر العظيم هو أعلى أثمان العمل. وذلك أن ثمن العمل على ثلاثة أوجه. ثمن أعلى، وثنم أدنى، وثنم أوسط بينهما فالله تعالى يثامن عليه بالثمن الاعظم الاعلى، فلذلك حسن وصف الاجر بالاعظم من غير تقييد له، إذ كان لا ثمن أعظم مما يثامن الله عليه في ذلك العمل. قوله تعالى:

(وما لكم لاتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوالدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا) (٧٥) - آية -

المعنى والاعراب:

معنى قوله: " ومالكم " أي شئ لكم. و " لاتقاتلون " في موضع الحال كأنه قال: أي شئ لكم تاركين، أي في حال القتال مع هذه الامور التي تقتضي الحرص على الجهاد، أي لا عذر لكم ألا تقاتلوا في سبيل الله، ومثله قوله: " فما لهم عن التذكرة معرضين " (١) وقوله: " والمستضعفين " خفض بالعطف على ما عملت فيه (في) وتقديره في المستضعفين. وقيل في معناه قولان:

أحدهما - وعن المستضعفين، فوقع (في) موقع (عن) فاذا ذكرت (عن) فخلصر في الاذى عنهم إذ كانت لما عدا الشئ وإذا ذكرت (في) فلان القتال مضمن بهم، لخلصهم، إذا كانت في اللوعاء.

الثاني - ان يكون على محذوف، وتقديره وفي اعزاز المستضعفين، وقد قال المبرد: هو عطف على اسم الله بتقدير، وسبيل المستضعفين " من الرجاء والنساء والوالدان ".

(١) سورة المدثر: آية ٥٠ (*)

(٢٥٩)

اللغة والمعنى:

والوالدان جمع ولد على مثال خرب وخربان، وبرق وبرقان، وورل وورلان، مثل ولد وولدان، وهو من ابنية الكثير، والاعلب على بابه فعال نحو جبال وجمال.

وقوله: " الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها " قال ابن عباس والحسن وابن أبي نجيح، والسدي ومجاهد وابن زيد: إنها مكة، لان أهل مكة كانوا قد اجتهدوا أن يفتنوا قوما من المؤمنين عن دينهم، والاذى لهم وكانوا مستضعفين في أيديهم. وقال تعالى " مالكم " لاتسعون في خلاصهم. وهم يسمون كل مدينة قرية، وإنما جاز أن يجري صفة ظالم على الاول وهو في المعنى للثاني، لانها قوية في العمل لقربها من الفعل متمكنة من الوصف بأنها

تصرف تصرفه في التأنيث والتذكير والتنثية، والجمع، خلاف باب أفعل منك، فلذلك جاز مررت برجل ظالم أبوه، ولم يجر مررت برجل خير منه أبوه. والولي القيم بالامر حتى يستقدهم من أمر أعدائهم، لانه يتولى الامر بنفسه، ولا يكله إلى غيره. وحكى أبو علي ان منهم سلمة بن هشام، والوليد بن الوليد، وعياش بن أبي ربيعة وأبوجندل بن سهيل، وانما قال: (يقولون.. الظالم أهلها) وان كان فيهم ولدان لا ينطقون تغليبا للاكثر، كقولك قال أهل البصرة، وإن كان قولاً لبعضهم. قوله تعالى:

(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) (٧٦) - آية بلاخلاف - . المعنى:

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن الذين صدقوا بالله، ورسوله يقاتلون في سبيل الله، وفي معنى سبيل الله قولان:

(٢٦٠)

أحدهما - طاعة الله، لانه تؤدي إلى ثواب الله في جنته التي أعدها لأوليائه. الثاني - قال أبو علي: إنه دين الله الذي شرعه الذي يؤدي إلى ثوابه ورحمته. وتقديره في نصره دين الله، ثم قال: "والذين كفروا" يعني الذين جحدوا آيات الله الدالة على توحده، ونبوة نبيه. وقوله: "يقاتلون في سبيل الطاغوت" قد فسرناه فيما مضى. فقال قوم: هو الشيطان. وقال آخرون: هو ما عبد من دون الله. والاول قول الحسن والشعبي. والثاني حكاة الزجاج.

وقال أبو العالية: هو الكاهن. وهو يؤنث ويذكر قال الله تعالى: "يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به" (١)

فذكره وقال: "والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها" (٢) فانث قال أبو عبيدة هو ههنا في موضع جماعة، كما قال: "حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير" (٣)

وكان المراد به الجنس. وقوله: "فقاتلوا أولياء الشيطان" يقوي قول من قال: المراد بالطاغوت الشيطان. وقوله: "إن كيد الشيطان كان ضعيفا" إنما دخلت (كان) ههنا مؤكدة لتدل على ان الضعف لكيد الشيطان لازم في جميع الاوقات فيما مضى، والحال، والمستقبل. وليس هو عارضا في حال دون حال.

والكيد السعي في فساد الحال على وجه الاحتيال تقول كاده يكيد كيدا، فهو كائد له. إذا عمل في إيقاع الضرر به على وجه الحيلة عليه. وانما وصف تعالى كيد الشيطان، بالضعف لأميرين:

أحدهما - لضعف نصرته، لأوليائه بالاضافة إلى نصره الله المؤمنين - ذكره الجبائي - وقال الحسن: أخبرهم أنهم سيظهرون عليهم، فذلك كان ضعيفا. الثاني - لضعف دواعي أوليائه إلى القتال بانها من جهة الباطل إذ لانصير لهم. وانما يقاتلون بما تدعو إليه الشبهة. والمؤمنون يقاتلون بما تدعو إليه الحجة.

(١) سورة النساء: آية ٥٩. (٢) سورة الزمر: آية ١٧.

(٣) سورة المائدة: آية ٤.

(٢٦١)

قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلًا) (٧٧) - آية بلاخلاف -

القراءة، والحجة:

قرأ ابن كثير، وحزمة، والكسائي، وخلف، والحلواني عن هشام ولا يظلمون بالياء. الباقرن بالتاء. فمن قرأ بالياء حمل الكلام على لفظ الغيبة ومن قرأ بالتاء فعلى المواجهة. النزول:

وقيل في سبب نزول هذه الآية قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقتادة، والسدي: انها نزلت في ناس من الصحابة استأذنوا النبي (صلى الله عليه وآله) قال ابن عباس: منهم عبدالرحمن ابن عوف. وهم بمكة في قتال المشركين. فلم ياذن لهم: فلما كتب عليهم القتال.

وهم بالمدينة قال فريق منهم ما حكاه الله في الآية. فان قيل: كيف. وز ذلك، والله تعالى يقول: " كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة " فامرهم باقامة الصلاة وايتاء الزكاة، ولم تكن الزكاة فرضت بمكة؟ قيل: قد قال البلخي في ذلك:

إنه يجوز أن يكون قوم من المنافقين عرضوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) ذلك والاقوى عندي أن يكون الله قال ذلك على وجه الندب، والاستحباب دون الزكاة المقدره على وجه مخصوص.

(٢٦٢)

الثاني - قال مجاهد: نزلت في اليهود. نهى الله هذه الامة أن يصنعوا مثل صنيعهم.
المعنى:

قوله: (ألم تر) معناه ألم ينته علمك إلى هؤلاء تعجبيا من ذلك. ولو قال:
ألم تر هؤلاء أو ألم تعلم هؤلاء علم يظهر فيه معنى التعجب منهم كما يظهر ب (إلى)، لأنها تؤذن
بحال بعيدة قد لا ينتهي إليها، لبعدها، لما فيها من العجب الذي يقع بها. وقوله: (الذين قيل لهم
كفوا أيديكم) يعني حين طلبوا القتال وقيل لهم:
اقتصروا على اقامة الصلاة وإيتاء الزكاة (فلما كتب عليهم القتال) يعني الجهاد (إذا فريق
منهم) يعني جماعة (يخشون الناس كخشية الله) قال الحسن: هو من صفة المؤمنين لما طبعوا
عليه من البشرية والخوف، لاعلى وجه كراهة المخالفة.
وقال أبو علي: هو من صفة المنافقين، لانهم كانوا كذلك حرصا منهم على الدنيا والبقاء فيها
والاستكثار منها وقال يخشون القتل من قبل المشركين كما يخشون الموت من قبل الله. وقوله:
(أو أشد خشية) ليس معنى (أو) ههنا الشك، لان ذلك لا يجوز عليه تعالى. وقيل في معناها
قولان:

أحدهما - أنها دخلت للابهام على المخاطب. والمعنى أنهم على إحدى الصفتين.
وهذا أصل (أو) وهو معنى واحد على الإبهام.

الثاني - على طريق الإباحة نحو قولك: جالس الحسن أو ابن سيرين.
ومعناه إن قلت يخشون الناس كخشية الله فانت مصيب، وان قلت يخشونهم أشد من ذلك فأنت
مصيب لانه قد حصل لهم مثل تلك الخشية وزيادة. وقولهم:
" لم كتبت علينا القتال " معناه ألزمتنا وأوجبت علينا.
وقوله: (لولا أخرتنا) معناه هلا أخرتنا " إلى أجل قريب وهو إلى أن نموت بأجالنا فأعلمهم الله
تعالى أنه متاع الدنيا قليل، وأن الآخرة خير لاهل التقى وأعلمهم أن آجالهم لا تخطئهم "
ولا يظلمون فتىلا " أي لا يبخسون هذا

(٢٦٣)

القدر، وكيف ما زاد عليه. والفتيل: ماتقتله بيدك من الوسخ ثم تلقيه في قول ابن عباس. وقيل:
هو مافي شق، النواة، لانه كالخيط المفتول في شق النواة.
قوله تعالى:

أيما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً (٧٨) - آية بلاخلاف - .

اللغة والمعنى:

أعلمهم الله تعالى في هذه الآية أن الأجل لا تخطفهم، ولا تنفعهم الخشية من القتل ولو كانوا في بروج مشيدة، وأيما كانوا من المواضع أدركهم الموت بمعنى أصابهم. " وأيما " كتبت موصولة. وفي قوله: " ان ماتوعدون " مفصولة، لان الاولى زائدة.

والثاني - بمعنى الذي ففصلت هذه كما تفصل الاسماء، ووصلت تلك كما توصل الحروف. وقيل في معنى البروج ثلاثة أقوال:

أحدها - قال مجاهد، وابن جريج: هي القصور.

الثاني - قال السدي، والربيع: هي قصور في السماء، باعيانها. وقال الجبائي:

هي البيوت التي تكون فوق الحصون. وأصل البروج الظهور. يقال تبرجت المرأة:

إذا أظهرت محاسنها. والبرج - في العين - اتساعها لظهورها بالاتساع. والمشيدة:

المزينة بالجص. وهو الشيد. قال الجبائي: معناه المجصصة. وقال الزجاج، وغيره:

معناه المطولة في ارتفاع. وقال قوم: المشدد، والمخفف سواء إلا من جهة تكثير الفعل. وقال

آخرون: المشيدة بالتشديد - المطولة. والمشيدة بالتخفيف - المطلية بالجص والنورة. والشيد

رفع البناء. تقول شاد بناء يشيده شيدا: إذا رفعه.

(٢٦٤)

والشيد: الجص، لانه مما يرفع به البناء. ويجوز أشاد الرجل بناءه. فأما بالذكر فنقول أشاد بذكره لاغير: إذا رفع منه.

وقوله: (وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك)

حكاية عن المنافقين، وصفة لهم. في قول الحسن، وأبي علي وأبي القاسم. وقال الزجاج: قيل:

هوفي صفة اليهود. وبه قال الفراء. وذلك أن اليهود، لما قدم النبي (صلى الله عليه وآله) المدينة،

فكانوا إذا زكت ثمارهم، واخصبوا، قالوا هذا من عند الله، فاذا أجدبوا، وخاست ثمارهم، قالوا

هذا لشؤم محمد (صلى الله عليه وآله). وفي معنى الحسنة، والسيئة ههنا قولان:

قال ابن عباس، وقتادة، وأبو العالية: هو السراء والضراء واليؤس.

والرخاء، والنعمة والمصيبة، والخصب، والجذب. وقال الحسن، وابن زيد:

هو النصر، والهزيمة. وقوله: (من عندك) قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال ابن زيد: معناه بسوء تدبيرك.

والثاني - قال الجبائي، والبلخي، والزجاج. أي بشؤمك الذي لحقنا كما حكي عن قوم موسى (وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) فامر الله تعالى نبيه أن يقول: إن جميع ذلك من عند الله، ثم قال: " فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً " قال الفراء: (مال) كثرت في الكلام حتى توهموا أن اللام متصلة بما، وانها حرف واحد، ففصلوا اللام بماخفضت في بعض المواضع، ووصلوها في بعض المواضع. والاتصال الوجه. والوقف على اللام، لا يجوز، لانها لام الخفض.

والمعنى أي شئ لهؤلاء القوم، لا يفقهون حديثاً، أي لا يفهمون معناه. تقول: فقه الرجل يفقه فقها والاسم الفقيه: وصار يعرف الاستعمال علماً على علم الفقهاء من علوم الدين. وفقه الرجل يفقه فقها: إذا صار فقيهاً. وأفقهته: أفهمته والتفقه:

تعلم الفقه وتفاهه: إذا تعاطى ليرى انه فقيه. وليس هو كذلك. ومثله تعالم وقيل:

معنى الحديث ههنا القرآن. وقوله: (لايكادون) معناه لا يقربون فيه معنى الحديث الذي هو القرآن، لانهم يعيدون منه باعراضهم عنه، وكفرهم به ولا

(٢٦٥)

يفهمون ان ما ذكرناه من السراء، والضراء، والشدة والرخاء على ما وصفناه. قوله تعالى:

(ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا) (٧٩) - آية بالاخلاف -.

المعنى:

قال الزجاج: هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله). والمراد به الامة. كما قال (ياأيها النبي إذا طلقتم النساء) (١) فان المراد به الامة. وقال قوم: المخاطب به الانسان، كأنه قال: ما أصابك أيها الانسان - في قول قتادة، والجبائي - . وقيل في معنى الحسنه والسيئة ههنا قولان:

أحدهما - قال ابن عباس، والحسن: الحسنه ما أصابه يوم بدر من الظفر، والغنيمه. والسيئة ما أصابه يوم أحد من كسر ربايعته (صلى الله عليه وآله)، والهزيمة. وقال الجبائي: معناهما النعمة، والمصيبة. ويدخل في النعمة نعمة الدنيا، والدين. وفي المصيبة مصائب الدنيا، والدين إلا أن أحدهما من عمل العبد للطاعة، وماجر إليه ذلك العمل.

والآخر - من عمل العبد للمعصية وما جر إليه عمله لها. وهذا يوافق الاول الذي حكيناه عن تقدم.

والثاني - ان الحسنه، والسيئة: الطاعة، والمعصية - ذكره أبو العالية، وأبو القاسم - ويكون المعنى ان الحسنه التي هي الطاعة باقدار الله، وترغيبه فيها، ولطفه لها. والسيئة بخذلانه على

وجه العقوبة له على المعاصي المقدمة. وسماه سيئة كما قال: " وجزاء سيئة سيئة مثلها " (٢) والتقدير ما أصابك من ثواب حسنة

(١) - سورة الطلاق: آية / ١ (٢) - سورة الشورى: آية ٤٠. (*)

(٢٦٦)

فمن الله، لانه الذي عرضك للثواب، وأعانك عليها. وما أصابك من عقاب سيئة فمن نفسك، لانه تعالى نهاك عنها، وزجرك عن فعلها. فلما ارتكبتها كنت الجاني على نفسك. وانما احتاج إلى التقدير، لان ما أصابك ليس هو ما أصبت. ويجوز أن يكون المراد بالسيئة ما يصيبهم في دار الدنيا من المصائب، لانه لايجوز أن يكون ذلك عقابا أو بعض ما يستحقونه. وقوله: " فمن نفسك " معناه فبذنبك في قول الحسن، وقتادة، والسدي، وابن جريج، والضحاك. قال البخاري: مصيبة هي كفارة ذنب صغير، أو عقوبة ذنب كبير. ويحتمل أن يكون المراد أو تأديب وقع لاجل تفريط. فان قيل: كيف عاب قول المنافقين في الآية الاولى، لما قالوا إذا أصابتهم حسنة انها من عند الله، وإذا أصابتهم سيئة، قالوا هذه من عندك.

وقد اثبت مثله في هذه الآية؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - ان ذلك على وجه الحكاية. والتقدير يقولون: ما أصابك من حسنة، فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك. ويكون (يقولون) محذوفا، لدلالة سياق الكلام عليه.

الثاني - ان معناهما مختلف، فالاول عند أكثر أهل العلم ان المراد به النعمة، والمصيبة من الله تعالى. وفي الآية الثانية المراد به الطاعة، والمعصية. فلما اختلفت معناهما، لم يتناقضا. ويكون وجه ذكر هذه الآية عقيب الاولى ألا يظن ظان ان الطاعات والمعاصي من فعل الله، لما قال في الآية الاولى: (قل كل من عند الله)

وفي الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة، لانه تعالى قال: " فمن نفسك " فاضاف المعصية إلى العبد ونفاها عن نفسه تعالى. ولو كانت من خلقه، لكانت منه على أوكد الوجوه. ولا ينافي ذلك قوله في الآية الاولى " كل من عند الله " لانا بينا وجه التأويل فيه. قال الرماني: وفي الآية دلالة على أنه تعالى، لايفعل الالم إلا على وجه اللطف، أو العقاب دون العوض فقط، لان المصائب إذا كانت كلها من قبل ذنب العبد، فهي اما عقوبة، واما من قبل تأديب المصلحة.

وقوله: (وأرسلناك للناس رسولا) معناه من الحسنه ارسالك يا محمد (صلى

(٢٦٧)

الله عليه وآله) ومن السيئة خلافك يا محمد (صلى الله عليه وآله) وكفى بالله شهيدا لك وعليك.

والمعنى وكفى الله. وقوله: (ما أصابك من حسنة) معنى " من " هنا للتبيين ولو قال: إن أصابك من حسنة كانت زائدة لامعنى لها.
الاعراب والحجة:

(ورسولا) نصب بارسلناك، وانما ذكره تأكيدا لان أرسلناك دل على أنه رسول، " وشهدا " نصب على التمييز، لانك إذا قلت كفى الله ولم تبين في أي شئ الكفاية كنت مبهما. وقوله: " وما أصابك من سيئة فمن نفسك " دخلت الفاء في الجواب لان معنى (ما) من وادخل من على السيئة، لان ما نفي و (من) يحسن ان تتراد في النفي مثل ما جاءني من أحد.
قوله تعالى:

(من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا) (٨٠) - آية - .
بين الله تعالى بهذه الآية أن طاعة الرسول (صلى الله عليه وآله) طاعة الله. وانما كان كذلك، لان طاعة الرسول بامر الله، فهي طاعة الله على الحقيقة، وبارادته وان كانت أيضا طاعة للنبي من حيث وافقت ارادته المستدعية للفعل. فاما الامر الواحد، فلايكون من أمرين كما لا يكون فعل واحد من فاعلين.

وقوله: (ومن تولى) أي اعرض ولم يطع " فما أرسلناك عليهم حفيظا " وقيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن زيد: حافظا لهم من التولي حتى يسلموا.
والثاني - حافظا لاعمالهم التي يقع الجزاء عليها، لان الله تعالى هوالمجازي عليها.
الثالث - قال أبوعلي: حافظا لهم من المعاصي حتى لاتقع. قال ابن زيد:

(٢٦٨)

هذا أول مابعث، كما قيل له: " ان عليك إلا البلاغ " (١) ثم أمر فيما بعد بالجهاد ووجه جواب الجزاء في قوله: " فما أرسلناك عليهم حفيظا " من المعاصي حتى لاتقع - في قول أبي علي - وعلى القول الآخر لانك لم ترسل عليهم حفيظا لاعمالهم التي يقع الجزاء عليها، فتخاف أن لاتقوم بها. وفي الآية دلالة على ان الرسول لايمر بالخطأ، لان الله تعالى جعل طاعته طاعة نفسه. والله لايمر بالخطأ بلا خلاف.
النظم:

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها انه لما ذكر الحسنة التي هي نعمة من الله، بين أن منها ارسال نبي الله ثم بين أن منها طاعة الرسول التي هي طاعة الله. فهو في ذكر نعم الله مجملة،

ومفصلة. وفيها تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) في تولي الناس عنه وعن الحق الذي جاء به، مع تضمنها تعظيم شأنه بكون طاعته طاعة الله.
قوله تعالى:

(ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً) (٨١) - آية بلاخلاف - .
قرأ أبو عمر بادغام التاء في الطاء. وبه قرأ حمزة: والباقون بالاظهار والفتح.
وفرق الكسائي بين بيت طائفة فاطهر في الفعل وادغم في الاسم إذا قال بيتت طائفة. قال المبرد، والزجاج: لوجه لذلك، بل هما سواء. وانما حسن ادغام التاء في الطاء، لقرب مخرجهما. ولم يجز إدغام الطاء في التاء، لما فيها من الاطباق.
وكذلك يجوز إدغام الباء في الميم في " تكتب ما يبيتون " ولا يجوز ادغام الميم في الباء نحو " لا قسم بهذا البلد " لانه يخل باذهاب الغنة في ذلك، ولا يخل

(١) سورة الشورى: آية ٤٨. (*)

(٢٦٩)

بها في الاول. ويحتمل رفع طاعة وجهين:
أحدهما - أمرنا طاعة.

والثاني - منا طاعة. قال الزجاج: الاول أحسن، لانه أجمع. ويجوز طاعة
" نصبا " على معنى نطيع طاعة. ولم يقرأ به. ومن القائلون لهذا القول؟ قيل فيه قولان:
- أحدهما - قال الحسن، والسدي، والضحاك: هم المنافقون

الثاني - انهم الذين حكى عنهم انهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقوله: (فاذا برزوا من عندك) يعني خرجوا من عندك بيت طائفة منهم يعني دبر جماعة منهم ليلا. قال المبرد: التبييت كل شئ دبر ليلا. وقال الجبائي معناه دبروه في بيوتهم وهذا بعيد لوجه له في اللغة. قال الرماني: وفيه معنى الاخفاء في النفس، وكذلك لا يوصف تعالى به. قال عبيدة بن همام:
(١)

أتوني فلم أرض ما بيتوا * وكانوا أتوني بشئ نكر

لانكح أيمهم منذرا * وهل ينكح العبد حر لحر؟! (٢)

ومعنى " بيت طائفة منهم غير الذي تقول " - أي غير ما تقول بأن اضمروا الخلاف فيما أمرتهم به أو نهيتهم عنه - هذا قول ابن عباس، وقتادة:
والسدي. وقال الحسن: قدرت طائفة منهم - (٣) غير الذي تقول على جهة التكذيب.

وقوله: (والله يكتب ما يبيتون) فيه قولان:

الاول - نكتبه في اللوح المحفوظ ليجازوا به.

التاني - قال الزجاج: يكتب بان ينزله اليك في الكتاب. ثم أمر الله نبيه

-
- (١) قيل هو أخويني العدوية من بني مالك بن حنظلة من بني تيم وقيل: عبيد بن همام التغلبي وقيل غير ذلك.
(٢) مجاز القرآن ١: ١٣٣، الحيوان ٤: ٣٧٦ الكامل للمبرد ٢: ٣٥، ١٠٦، الازمنة والامكنة للمرزوقي ١: ٢٦٣، ديوان الاسود بن يعفر النهشلي: أعشى بني نهشل في ديوان الاعشيين: ٢٩٨، واللسان (تكر).
(٣) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة. وهوفي المخطوطة. (*)

(٢٧٠)

بالاعراض عنهم، وألتسميهم باعيانهم ابقاء عليهم، وبستر أمورهم إلى أن يستقر أمر الاسلام. وأمره بان يتوكل عليه " وكفى بالله وكيلًا " يعني حفيظًا، لما يجب تفويضه إليه من التدبير. وأصل الوكيل القائم بما فوض إليه من التدبير. ومعنى بيت اضمر. وأصله إحكام الامر ليلا من البيات. قوله تعالى:

(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا) (٨٢) - آية -
المعنى:

هذا الآية تدل على أربعة أشياء:

أحدها - على بطلان التقليد، وصحة الاستدلال في اصول الدين، لانه حث ودعا إلى التدبر. وذلك لا يكون إلا بالفكر والنظر.
والثاني - يدل على فساد مذهب من زعم ان القرآن، لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول له من الحشوية، والمجبرة، لانه تعالى حث على تدبره، ليعلموا به.
الثالث - يدل على أنه لو كان من عند غير الله، لكان على قياس كلام العباد من وجود الاختلاف فيه.

الرابع - تدل على أن المتناقض من الكلام ليس من فعل الله، لانه لو كان من فعله، لكان من عنده، لامن عند غيره.

اللغة:

والتدبر: هو النظر في عواقب الامور. وأصله الدبر. والتدابير: التقاطع، لان كل واحد يولي الآخر دبره، بعداوته له. ودبر القوم يدبرون دبارا: إذا هلكوا، لانهم يذهبون في جهة الادبار عن الغرض. وادبر القوم: إذا ولى أمرهم

(٢٧١)

عن الرشد. والدبر: النحل. والدبر: المال الكثير. والتدبير: اصلاح الامر لعاقبة. وفي الحديث " لاتدبروا " أي لاتكونوا أعداء. والفرق بين التدبر والتفكران التدبر تصرف القلب بالنظر في العواقب، والتفكر تصرف للقلب بالنظر في الدلائل. والاختلاف: هو امتناع أحد الشئيين أن يسد مسد الآخر فيما يرجع إلى ذاته كالسواد الذي لايسد مسد البياض، وكذلك الذهاب في الجهات المختلفة جهة الخلف، والقدام واليمين، والشمال. وقيل في معنى الاختلاف ههنا ثلاثة أقوال: أحدها - قال أبوعلي من جهة بليغ، ومرذول. وقال الزجاج: الاختلاف في الاخبار بما يسرون.

الثالث - قال قتادة، وابن زيد: اختلاف تناقض من جهة حق، وباطل. والاختلاف على ثلاثة اضرب: اختلاف تناقض، واختلاف تفاوت، واختلاف تلاوة. وليس في القرآن اختلاف تناقض، ولااختلاف تفاوت، لأن اختلاف التفاوت هو في الحسن والقبح، واخطأ والصواب، ونحو ذلك مما تدعو إليه الحكمة أويصرف عنه. وأما اختلاف التلاوة، فهو ماتلاءم في الحسن، فكله صواب، وكله حق. وهو اختلاف وجوه القراءات واختلاف مقادير الآيات والسور واختلاف الاحكام في الناسخ والمنسوخ. ومن اختلاف التناقض ما يدعو فيه أحد الشئيين إلى فساد الآخر. وكلاهما باطل. نحو مقدارين وصف أحدهما بأنه أكبر من الآخر ووصف الآخر بأنه أصغر منه، فكلاهما باطل إذ هو مساو له. وفي الناس من قال: انتفاء التناقض عن القرآن إنما يعلم انه دلالة على أنه من فعل الله، لما أخبرنا الله تعالى بذلك. ولو لأنه تعالى أخبر بذلك كان لقاتل أن يقول (١): إنه يمكن أن يتفحظ متفحظ في كلامه ويهذبته تهذيباً، لا يوجد فيه شئ من التناقض وعلى هذا لايمكن أن يجعل ذلك جهة اعجاز القرآن قبل أن يعلم صحة السمع، وصدق النبي (صلى الله عليه وآله).

في المطبوعة (يكون) بدل (يقول). (*)

(٢٧٢)

قوله تعالى:

(وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردهو إلى الرسول وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً) (٨٣) - آية - .

أخبر الله تعالى عن المنافقين، الذين تقدم وصفهم بأنهم إذا جاءهم " أمر من الامن أو الخوف " وهو ما كان يرجف به من الاخبار في المدينة: اما من قبل عدو يقصدهم أو يظهر المؤمنين على عدوهم، أو هلاك بعض أعدائهم وهو الامن.

والاول: الخوف اذاعوا به، وتحدثوا به من غير أن يعلموا صحته، فكره تعالى ذلك، لان من فعل هذا لا يخلو كلامه من الكذب. ولما يدخل على المؤمنين به من الخوف ومعنى اذاعوا به: أعلنوه، وأفشوه في قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، وابن حريج وأصله اشاعة الخبر في الجماعة.

اللغة:

يقال: اذاعه اذاعة واذاعوا به قال الشاعر:

اذاع به في الناس حتى كأنه * بعلياء نار أوقدت بتقوب (١)

وأصل الاذاعة التفريق. قال تبع: لما ورد المدينة:

ولقد شربت على براجم شربة * كادت بباقية الحياة تذيب (٢)

أي تفرق. وبراجم: ماء بالمدينة كان يشرب منه، فنسبت (٣) بحلقه

(١) قائله أبو الاسود الدؤلي. اللسان (ذيع) ومجاز القرآن ١: ١٣٣ والاعاني ١٢: ٣٠٥. (٢) لم نجده في مصادرنا.
(٣) في المطبوعة (فشبت) وفي مجمع البيان (فتشبت). وقد أثبتنا ما في المخطوطة. (*)

(٢٧٣)

علقة. وذاع الخبر ذيعا. ورجل مذيع: لا يستطيع كتمان خبر. واذاع الناس بما في الحوض: إذا شربوه. وكذلك اذاعوا بالمتاع: إذا ذهبوا به. واذاعة السر: اظهاره. واذاعة، والاشاعة، والافشاء، والاعلان، والاظهار، نظائر وضده الكتمان، والاسرار، والاخفاء.

المعنى:

ثم قال: (ولو ردوه إلى الرسول) بمعنى لو ردوه إلى سنته " وإلى أولي الامر منهم ". قال أبو جعفر (ع): هم الائمة المعصومون. وقال ابن زيد، والسدي، وأبو علي: هم امراء السرايا، والولادة، وكانوا يسمعون باخبار السرايا ولا يتحققونه فيشيعونه ولا يسألون أولي الامر. وقال الحسن، وقتادة، وابن جريج، وابن أبي نجیح، والزجاج: هم أهل العلم، والفقهاء الملازمين للنبي (صلى الله عليه وآله)، لانهم لو سألوهم عن حقيقة ما أرجفوا به، لعلموا به. قال الجبائي: هذا لا يجوز، لان أولي الامر من لهم الامر على الناس بولاية والاول أقوى، لانه تعالى بين أنهم متى ردوه إلى أولي العلم علموه. والرد إلى من ليس بمعصوم، لا يوجب العلم لجواز الخطأ

عليه بلاخلاف سواء كانوا امرء السرايا، أو العلماء. وقوله: "يستنبطونه" قال ابن عباس، وأبو العالية: معناه يتحسسونه. وقال الزجاج: يستخرجونه.
اللغة والاعراب والمعنى:

والاستنباط، والاستخراج، والاستدلال، والاستعلام، نظائر، وأصل الاستنباط الاستخراج. يقال لكل ما استخرج حتى تقع عليه رؤية العين، أو معرفة القلب: قد استنبط. والنبط الماء يخرج من البئر أول ماتحفر. وانبط فلان أي استنبط الماء من طين حر. ومنه اشتقاق النبط، لاستنباطهم العيون.

والضمير في قوله: "منهم" يحتمل أن يعود إلى أحد أمرين: أحدهما - وهو الاظهرانه عائد إلى أولي الامر.

(٢٧٤)

والآخر - إلى الفرقة المذكورة من المنافقين، أو الضعفة.
وقوله: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) معناه لولا اتصال مواد اللطاف من جهة الله، "لاتبعتم الشيطان إلا قليلا" وقيل فيما وقع الاستثناء منه: أربعة أقوال:
أحدها - "لاتبعتم الشيطان إلا قليلا" منكم، فانه لم يكن يتبع الشيطان.
ويكون الفضل ههنا بالنبي (صلى الله عليه وآله)، والقرآن - في قول الضحاك -، وهو اختيار الجبائي.

الثاني - لاتبعتم الشيطان إلا قليلا من الاتباع. ويكون الفضل على جملة اللطف، لان ذلك لم يكن يزكو به أحد منهم.

الثالث - قال الحسن، وقتادة. وذكره الفراء، لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلا.

الرابع - قال ابن عباس، وابن زيد: اذاعوا به إلا قليلا هو اختيار الكسائي والفراء والمبرد والبلخي والطبري. وتقديره يستنبطونه منهم إلا قليلا.

قال المبرد: لان العلم بالاستنباط في الناس أقل. وليس كذلك الاذاعة. وغلط الزجاج النحويين في ذلك. وقال: كل هذه الاقوال جائزة. وقال قوم حكاه الطبري:

ان مخرجه الاستثناء. وهو دليل الجمع، والاحاطة. والمعنى انه لولا فضل الله لم ينج أحد من الضلالة. فجعل قوله: "إلا قليلا" دليلا على الاحاطة كما قال الطرماح يمدح بزيد بن المهلب:

قليل المثالب والقادحة (١)

والمعنى انه لامثالب.

أشم كثير يدي النوال يدي - بضم الياء وكسر الدال وتشديد الياء - أو - بفتح الياء وكسر الدال وتشديد الياء - جمع (يد). (*)

(٢٧٥)

قوله تعالى: (فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرص المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا) (٨٤) - آية بلاخلاف -.

هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) خاصة أمره الله أن يقاتل في سبيل الله وحده بنفسه. وقوله: " لا تكلف إلا نفسك " ومعناه لا تكلف إلا فعل نفسك، لأنه لا ضرر عليك في فعل غيرك فلاتهتم بتخلف المنافقين عن الجهاد فعليهم ضرر ذلك، وليس المراد لا يأمر أحدا بالجهاد. وإنما أراد ما قلناه ألا ترى أنه قال " وحرص المؤمنين " على القتال يعني حثهم على الجهاد. وفي ذلك دلالة على أنه لا يجوز أن يؤاخذ الله الاطفال بكفر آبائهم ويؤيده قوله: " ولا تزر وازرة وزر أخرى " لان مفهوم هذا الكلام أنه لا يجوز أن تؤخذ بذنب غيرك. والفاء في قوله: " فقاتل في سبيل الله " قيل في معناه قولان:

أحدهما - أن يكون جوابا لقوله: (ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما) (١) هكذا ذكره الزجاج، لأنه محمول على المعنى من حيث دل على معنى إن أردت الفوز، فقاتل.

الثاني - أن يكون متصلا بقوله: (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله) (٢) فقال في سبيل الله. كذا ذكره الزجاج ووجهه لاحظ لك في ترك القتال فنتركه، ثم وضع فقاتل موضع فنتركه. وقوله: " وحرص المؤمنين " معناه حثهم " عسى الله أن يكف " قال الحسن، والبلخي، والزجاج: إن (عسى) من الله واجب ووجه ذلك ان اطماع الكريم انجاز وإنما الاطماع تقوية أحد الامرين على الآخر دون قيام الدليل على التكافؤ في الجواز. وخرج (عسى) في هذا من معنى الشك

(١) سورة النساء آية: ٧٤. (٢) سورة النساء آية: ٧٥. (*)

(٢٧٦)

كخروجها في قول القائل: أطع ربك في كل ما أمرك به، ونهاك عنه عسى (١) ان تغلح بطاعتك. ومعنى " أن يكف بأس الذين كفروا " ان يمنع شدة الكفار، ثم قال: " والله أشد بأسا وأشد تنكيلا " فالبأس: الشدة (٢) في كل شئ ومعنى التنكيل قال الحسن، وقتادة: هو العقوبة. وقال أبو علي الجبائي: هو الشدة بالامور الفاضحة (٣) ونكل به، وشوه به، وندد به نظائر.

وأصله النكول: وهو الامتناع للخوف. نكل عن اليمين، وغيرها ينكل نكولا. والنكال: ما يمتنع به من الفساد خوفا من مثله من العذاب. والنكل القيد.
قوله تعالى:

(من يشفع شفاعه حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعه سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شئ مقبنا)
(٨٥) - آية - .
المعنى واللغة:

قيل في معنى الشفاعة ههنا قولان:

أحدهما - قال أبو علي: الشفاعة الحسنة: الدعاء للمؤمنين. والشفاعة السيئة: الدعاء عليهم، لان اليهود كانت تفعل ذلك فتوعدهم الله تعالى عليه. وقال الحسن، ومجاهد، وابن زيد: الشفاعة هي مسألة الانسان في صاحبه أن يناله خير بمسألته.
وقال الازهري معنى " من يشفع شفاعه حسنة " من يزد عملا إلى عمل. والشفع: الزيادة. سئل تغلب عن اشتقاق الشفاعة، فقال: الزيادة وهو أن يشفعك في ماتطلبه حتى تضمه إلى ما عندك، فتشفعه أي تزيده بها إن كان واحدا، فضمت إليه ما زاد صار شفعا.

(١) (عسى) ساقط من المطبوعة.

(٢) في المطبوعة (الشهرة) بدل (الشدة) وهو تحريف.

(٣) في المخطوطة (بالامر الفاصم). (*)

(٢٧٧)

وعندنا ان حقيقة الشفاعة هي المسألة في اسقاط الضرر. وانما تستعمل في مسألة المنافع مجازا، لان أحدا لايقول: إنا نشفع في النبي (صلى الله عليه وآله) إذا سألنا الله أن نزيد في كراماته، ولو كان الامر على ما قاله الحسن، ومجاهد، لكنا شافعين فيه. ووجه اتصال هذا الكلام بما تقدم، انه لما قيل " لا تكلف إلا نفسك " عقب ذلك بان لك مع هذا في دعاء المؤمنين إلى الحق ما للانسان في شفاعة صاحبه بخير يصل إليه، لئلا يتوهم ان العبد من أجل انه لا يؤخذ بعمل غيره، لا يتردد فعله بعمل غيره.

الثاني - ان الشفاعة تصير الانسان شفعا لصاحبه في جهاد عدوه من الكفار.

والكفل: قال الحسن، وقتادة: هو الوزر، وهو قول أبي جعفر (ع). وقال السدي، والربيع، وابن زيد: هو النصيب. ومنه قوله: " يؤتكم كفلين من رحمته " وأصل الكفل (١): المركب الذي يهيا كالسرج للبعير من كسا، أخرج أو نحوه حول السنام. وانما قيل كفل، واكتفل البعير، لانه لم يستعمل الظهر كله. وانما استعمل نصيب منه. وقال الازهري: الكفل الذي لا يحسن ركوب

الفرس. وأصله الكفل: وهو ردف العجز. ومنه الكفاية بالنفس، وبالمال. والكفل المثل.
والمقيت: قيل في معناه خمسة أقوال:
قال السدي، وابن زيد، والكسائي: هو المقتدر.
والثاني - قال ابن عباس، واختاره الزجاج: إنه الحفيظ.
والثالث - قال مجاهد: هو الشهيد.
والرابع - المقيت: الحسيب عنه.
والخامس - قال الجبائي: هو المجازي كأنه قال: وكان الله على كل شئ من الحسنات،
والسيئات مجازيا. وأصل المقيت: القوت، قاته يقوته قوتا: إذا أعطاه ما يمك رمقه. والمقيت:
المقتدر لاقتداره على ما يمك رمقه. يقال منها قات الرجل يقيت اقاة حكاه الكسائي وينشد
للزبير بن عبدالمطلب عم النبي (صلى الله عليه وآله):

(١) في المطبوعة (وأهله) بدل (وأصل). (*)

(٢٧٨)

وذي ضغن كفت النفس عنه وكنت على مساءته مقيتا (١)
فهذه لغة قريش. وقال كثير:
وماذاك عنها عن نوال اناله * ولانني منها مقيت على ود
أي مقتدر فاما قول اليهودي:
ألي الفضل أم علي إذاحو * سبت اني على الحساب مقيت (٢)
قيل: ومعناه موقوف. أي كما ان من يحتاج إلى القوت موقوف على سد خلته. ويحتمل معنى
مقيت أي مقتدر على الحساب بتوجيه إلى انه لي أو علي بحسب عملي. وقال ابن كثير: المقيت
الواصب وهو القائم على كل شئ بالتدبير.
وأقوى الوجوه معنى المقتدر بدلالة البيت الذي للزبير بن عبدالمطلب.
قوله تعالى:

" وإذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شئ حسيبا " (٨٦) - آية
بلاخلاف -.

هذا خطاب من الله تعالى لجميع المكلفين، يأمرهم إذا دعى لهم انسان بطول الحياة، والبقاء
والسلامة، ان يحيوهم باحسن من ذلك أو يردوا عليهم مثله. قال النحويون: أحسن ههنا صفة
لاينصرف، لانه على وزن افعل وهو صفة لاتنصرف والمعنى حيوا بتحية أحسن منها.
والتحية: مفعلة من حييت. ومعناها ههنا السلام قال السدي: وابن جريج وعطا، وإبراهيم: إنه

إذا سلم عليك واحد من المسلمين، فسلم عليه باحسن مما سلم عليك. أورد عليه مثل ما قال. وذلك إذا قال السلام عليك، فقل أنت وعليك السلام ورحمة الله أو تقول كما قال لك. وقال قتادة، وابن عباس، ووهب: فحيوا باحسن منها أهل الاسلام، أو ردوها على أهل الكفر

(١) البيت مختلف في نسبه فقبل انه لابي قيس بن رفاعه. وقيل لاحيعة بن الجلات الانصاري. اللسان (قوت) وطبقات فحول الشعراء: ٢٤٢ - ٢٤٣ والدر المنتور ٢: ١٨٨.
(٢) ديوانه: ١٤ والاصمعيات: ٨٥ ومجاز القرآن ١: ١٣٥ وطبقات فحول الشعراء ٢٣٧. واللسان (قوت). (*)

(٢٧٩)

والاول أقوى، لانه روي عن النبي (صلى الله عليه وآله)، انه قال: إذا سلم عليك أهل الكتاب، فقولوا وعليكم. وقال الحسن، وجماعة من متقدمي المفسرين: إن السلام تطوع. والرد فرض، لقوله: (وإذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها أو ردوها) وذلك أمر يقتضي الايجاب.

وقوله: (إن الله كان على كل شئ حسيبا) قيل في معنى الحسيب قولان: أحدهما - قال مجاهد:، وابن أبي نجيح: معنى حسيب حفيظ وقال قوم: معناه ههنا من قولهم: احسبني الشئ يحسبني احسابا بمعنى كفاني. ومنه قولهم: حسبي كذا وكذا أي كفاني. وقال بعضهم: الحسيب في هذا الموضع فعيل من الحساب الذي هو بمعنى الاحصاء يقال منه: حاسبت فلانا على كذا وكذا وهو حسيبه وذلك إذا كان صاحب حسابه. قال الزجاج: معناه يعطي كل شئ من العلم والحفظ والجزاء مقدار ما يحسبه أي يكفيه. ومنه قوله: " عطاء حسابا " (١)

أي كافيا. وسمي الحساب حسابا، لانه يعلم به ما فيه الكفاية وذكر الحسن: انه دخل على النبي (صلى الله عليه وآله) رجل، فقال: السلام عليكم، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): وعليك السلام ورحمة الله، ثم دخل آخر فقال. السلام عليكم ورحمة الله، فقال النبي (ص):

وعليك السلام ورحمة الله، وبركاته، ثم دخل آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، وبركاته، فقال النبي (صلى الله عليه وآله): وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. قال بعضهم يارسول الله كيف هذا فقال النبي (صلى الله عليه وآله) الاولان بقيامن التحية بقية فرددتها. وهذا لم يبق منها شيئا فرددت عليه ما قال (٢).

قوله تعالى:

(الله لاآله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ومن أصدق من الله حديثا) (٨٧) - آية بلاخلاف -.

(١) سورة النبأ: آية ٣٦.

(٢) في المطبوعة سقط فظيع في هذا الحديث وقد أثبتنا ما في المخطوطة. (*)

(٢٨٠)

قد بينا فيما تقدم معنى الله. وهو الذي تحقق له العبادة. وانه من كان قادرا على خلق اصول النعم التي يستحق بها العبادة. وليس هو عبارة عن يستحق العبادة، لانه لو كان كذلك، لما كان تعالى إليها فيما لم يزل. وإذا ثبت انه موصوف به فيما لم يزل، دل على ان المراد ما قلناه. وإذا ثبت ذلك، فقد بين تعالى بهذه الآية انه لا يستحق العبادة سواه. وقوله: " ليجمعنكم إلى يوم القيامة " اللام في ليجمعنكم لام القسم كقولك: والله ليجمعنكم. وقيل في معناه قولان: أحدهما - ليعتثكنم من بعد مماتكنم، ويحشرنكنم جميعا إلى موقف الحساب الذي يجازي فيه كلا بعمله، ويقضي فيه بين أهل طاعته، ومعصيته.

الثاني - قال الزجاج: معناه ليجمعنكم في الموت وفي قبوركم. وقوله:

" لاريب فيه " معناه لاشك فيما أخبركم به. من قوله: اني جامعكم يوم القيامة.

وقيل في تسمية ذلك اليوم بالقيامة قولان:

أحدهما - لان الناس يقومون من قبورهم.

الثاني - انهم يقومون للحساب. قال الله تعالى " يوم يقوم الناس لرب العالمين " (٣) وقوله: " ومن أصدق من الله حديثا " تقرير في صورة الاستفهام ومعناه لأحد أصدق من الله في الخبر الذي يخبر به من حيث لا يجوز عليه الكذب في شئ من الاشياء، لانه لا يكذب إلا محتاج يجتنب به نفعا، أو يدفع به ضررا.

وهما يستحيلان عليه تعالى. فاذا استحيل عليه الكذب. وانما يجوز ذلك على من سواه. فلذلك كان تعالى أصدق القائلين. ونصب حديثا على التمييز كما تقول: من أحسن من زيد فهما أو خلقا؟ قوله تعالى:

(فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون

(١) سورة المطففين: آية ٦. (*)

(٢٨١)

أن تهودوا من أضل الله ومن يظلل الله فلن تجد له سبيلا) (٨٨)

- آية بلاخلاف -.

المعنى والنزول:

خاطب الله تعالى بهذه الآية المؤمنين. فقال: ما شأنكم أيها المؤمنون في أهل النفاق فرقتين مختلفتين " والله أركسهم بما كسبوا " يعني بذلك والله ردهم إلى أحكام أهل الشرك في اباحة دمائهم، وسبي ذراريهم " بما كسبوا " يعني بما كذبوا الله ورسوله، وكفروا بعد إسلامهم. والاركاس. الرد. ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فاركسوا في حميم النار انهم * كانوا عصاة وقالوا الافك والزورا (١)

قال الفراء: يقال منه أركسهم، وركسهم وقد ذكر أنها في قراءة عبدالله وأبي (والله ركسهم) بغير الف. وفيمن نزلت هذه الآية قيل فيه خمسة أقوال:

أحدها - قال قوم نزلت في اختلاف أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الذين تخلفوا عن رسول الله يوم أحد، وانصرفوا إلى المدينة. وقالوا لرسول الله وأصحابه لو نعلم قتالا لاتبعناكم. ذكر ذلك زيد بن ثابت.

والثاني - قال مجاهد، وأبو جعفر (ع)، والفراء: إنها نزلت في اختلاف كان بين أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) في قوم كانوا قدموا المدينة من مكة، وظهروا للمسلمين أنهم مسلمون، ثم رجعوا إلى مكة، لأنهم استوخموا المدينة، وظهروا لهم الشرك، ثم سافروا ببضائع المشركين إلى اليمامة. فاراد المسلمون أن يأخذوهم وما معهم فاختلفوا. وقال قوم: لانفعل ذلك (٢) لأنهم مؤمنون. وقال آخرون:

هم مرتدون. فانزل الله فيهم الآية:

الثالث - قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك: بل كان اختلافهم في قوم

(١) ديوانه: ٣٦، وهو هكذا:

اركسوا في جهنم أنهم كانوا * عتاة تقول افكا وزورا

وهو في الدر المنثور ٢: ١٩١ هكذا:

اركسوا في جهنم أنهم كانوا عتاة * يقولوا مينا وكذبا وزورا

(٢) في المطبوعة (ذلك) ساقطة.

(٢٨٢)

من أهل الشرك كانوا أظهروا الإسلام بمكة، وكانوا يعينون المشركين على المسلمين، فقال قوم: دماؤهم، وأموالهم حلال وقال آخرون: لابل هو حرام.

الرابع - قال السدي نزلت في قوم كانوا بالمدينة أرادوا الخروج عنهم نفاقا.

وقالوا للمؤمنين أصابنا جذب وخصاصة نخرج إلى الظهر حتى نتماءل، ونرجع، فقال قوم: هو منافقون. وقال آخرون: هم مؤمنون.

والخامس - قال ابن زيد: بل نزلت في اختلاف أصحاب رسول الله في قصة أهل الافك
عبدالله بن أبي، وأصحابه، لما تكلموا في عائشة.
الاعراب:

وقوله: (فتنين) يحتمل نصبه أمرين:

أحدهما - قال بعض البصريين هو نصب على الحال كقولك: مالك قائما.

ومعناه مالك في حال القيام. وقال الفراء: هو نصب على فعل مالكم ولاينافي (١)
كان المنصوب في مالك: معرفة، أو نكرة. ويجوز أن تقول مالك السائر معنا، لانه كالفعل
الذي ينصب بكل، وأظن، وما أشبهما قال: وكل موضع صلحت فيه فعل ويفعل من
المنصوب، جازنصب المعرفة، والنكرة. كما تنصب كان وأظن، لانهما نواقص في المعنى.
وان ظننت انهن تامات. واختلفوا في معنى اركسهم، فقال ابن عباس: معناه ردهم. وفي رواية
أخرى عنه: أوقعهم. وقال قتادة:

اهلكهم - وقال السدي: معناه أضلهم بما كسبوا. ومعناه أيضا اهلكهم - (٢)

وقوله: (أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يظلل الله فلن تجد له سبيلا)

معناه أتريدون أيها المؤمنون أن تهدوا إلى الاسلام من أضله الله. ويحتمل معنيين:

أحدهما - أن من وجده الله ضالاً، وسماه بانه ضال، وحكم به من حيث ضل بسوء اختياره.

(١) في المطبوعة (تبالي) بدل (ينافي). (٢) ما بين القوسين ساقط من المطبوعة. (*)

(٢٨٣)

الثاني - أضله الله بمعنى خذله. ولم يوفقه كما وفق المؤمنين، لانهم لما عصوا وخالفوا
استحقوا هذا الخذلان عقوبة لهم على معصيتهم، فيريدون الدفاع عن قتالهم مع ما حكم الله
بضلالهم وخذلانهم. وقال الجبائي: المعنى ومن يعاقبه الله على معاصيه، فلاتجد له طريقاً إلى
الجنة. وطعن على الاول من قول البغداديين ان المراد به التسمية، والحكم بأن قال: لو أراد
ذلك، لقال: ومن ضلل الله وهذا ليس بشئ، لانهم يقولون: أكفرته وكفرته، وأكرمه وكرمه:
إذاسميته بالكفر أو الكرم قال الكمي:

فطائفة قد أكفروني بحبكم * وطائفة قالوا مسيئاً ومذنب (١)

ويحتمل أن يكون المراد وجدهم ضلالاً، كما قال الشاعر:

هبوني امرأمنكم أضل بعيره أي وجده ضالاً، ثم قال لهم أليس الله قال: ويريد الشيطان أن
يضلهم ضلالاً بعيداً " (٢) أنرى أراد أن الشيطان يخلق فيهم الضلالة؟ بل انما أراد يدعوهم
إليها ولاخلاف أن الله تعالى لايدعو إلى الضلالة، ويقوي قول من قال: المراد به التسمية.

قوله: (أتريدون أن تهدوا من أضل الله) وانما أراد ان تسموهم مهتدين لانهم كانوا يزعمون أنهم مؤمنون فحينئذ رد الله عليهم، فقال: لا تختلّفوا في هؤلاء، وقولوا باجمعكم: إنهم منافقون. ولم يكونوا يدعونهم إلى الايمان، فخالفهم أصحابهم، فعلم ان الصحيح ما قلناه، ثم أخبر الله تعالى فقال: "ومن يضل الله يعني من خذله " فلن تجد له سبيلا " يامحمد ولاطريقا. ومن قال من المجرّة: إن قوله: " أركسهم بما كسبوا " يدل على أنه أوقعهم في النفاق. فقولهم باطل، لانه قال: بما كسبوا، فبين انه فعل بهم ذلك على وجه الاستحقاق. وذلك لايليق إلا بما قدمناه، لانه لو أوقعهم في النفاق (٣) لمعصية تقدمت، لكان يجب أن

(١) خزنة الادب: ٢٣٦. (٢) سورة النساء: آية ٥٩. (٣) (في النفاق) ساقط من المطبوعة.

(٢٨٤)

يكون أوقعهم فيها لمعصية أخرى. وذلك يؤدي إلى مالا يتناهى أو ينتهي إلى معصية ابتدأهم بها وذلك ينافي قوله: " بما كسبوا " والفئة الفرقة من الناس. مأخوذ من فأيت رأسه إذاشققته. الفأو: الشعب من شعاب الجبل. والركس: الرد إلى الحالة الاولى. ومنه قيل للعدرة، والروث: ركس، قوله تعالى: (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولدا ولا نصيرا) (٨٩) - آية - . أخبر الله تعالى في هذه الآية عن هؤلاء المنافقين أنهم يودون ويتمنون أن تكفروا أي تجحدوا وحدانية الله تعالى وتصديق نبيكم كما جحدوا، هم " فتكونون سواء " يعني مثلهم كفارا تستون أنتم، وهم في الكفر بالله، ثم نهاهم أن يتخذوا منهم أولياء، ويستصحوهم، بل ينبغي أن يتهموهم، ولا ينتصحوهم، ولا يستصروهم، ولا يتخذوا منهم ولياناصرا، ولا خليلا مصافيا " حتى يهاجروا في سبيل الله " ومعناه حتى يخرجوا من دار الشرك. ويفارقوا أهلها المشركين " في سبيل الله " يعني في ابتغاء دين الله. وهو سبيله، فيصيروا عند ذلك مثلكم، لهم مالكم، وعليهم ما عليكم - وهو قول ابن عباس - ثم قال: " فان تولوا " يعني هؤلاء المنافقين عن الاقرار بالله، ورسوله، وعن الهجرة من دار الشرك، ومفارقة أهله " فخذوهم " أيها المؤمنون " واقتلوهم حيث وجدتموهم " أي أصبتموهم من أرض الله. (ولا تتخذوا منهم ولدا ولا نصيرا) يعني ولا تتخذوا منهم خليلا ولا ولا ناصرا ينصركم على أعدائكم - وهو قول ابن عباس والسدي - .

(٢٨٥)

قوله تعالى:

(إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) (٩٠) - آية بلاخلاف.

لما أمر الله تعالى المؤمنين بقتال الذين لا يهاجرون عن بلاد الشرك حيث وجدوهم، وألا يتخذوا منهم وليا ولا نصيرا استثنى من جملتهم من وصل منهم إلى قوم بينكم وبينهم مودعة، وعهد وميثاق، فدخلوا فيهم وصاروا منهم. ورضوا بحكمهم فان لمن وصل إليهم ودخل فيهم راضيا بحكمهم حكمهم في حقن دمائهم بدخوله فيهم. والمعنى بقوله: " إلا الذين يصلون " بنو مدلج، كان سراقه بن مالك بن جعشم (١) المدلجي جاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله) بعد أحد، فقال له: أنشدك الله والنعمة.

وأخذ منه ألا يغزوا قومه، فان أسلمت قريش أسلموا، لانهم كانوا في عقد قريش، فحكم الله فيهم ما حكم في قريش، وحرّم منهم ما حرّم منهم، ففيهم نزلت هذه الآية - على ما ذكره بن شبة - . وقال أبو جعفر (ع) قوله تعالى: " إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق " قال: هو هلال بن عويمر السلمي. واثق عن قومه ألا تخفيف يامحمد من أتك ولا تخيف من أتنا. وبمثل هذا التأويل قال السدي، وابن زيد، وعكرمة وقال أبو عبيدة " يصلون " بمعنى ينتسبون إليهم. والعرب تقول قد اتصل الرجل: إذا انتمى إلى قوم وقال الاعشى يذكر امرأة انتسبت إلى قومها:

إذا اتصلت قالت: ابكر بن وائل * وبكر سبتها والانوف رواغم (٢)
وقدضعف هذا الجواب، لان تعيين الانتساب لو أوجب إن يكون حكم

(١) في المخطوطة (ابن جعشم) وفي مجمع البيان (ابن خثعم) وقد اثبتنا ما في المطبوعة والطبري واكثر التفاسير، وكتب الرجال. (٢) ديوانه: ٨١ رقم القصيدة ٩. ومجاز القرآن ١: ١٣٦، واللسان (وصل). (*)

(٢٨٦)

المنتسب حكم من انتسب إليه ممن بينهم وبينهم ميثاق، لوجب ألا يقاتل النبي (صلى الله عليه وآله) قريشا، لما بينهم وبين المؤمنين من الانتساب. وحرمة الايمان أعظم من حرمة المودعة. فان قيل: هذه الآية منسوخة قيل: لعمرى إنها منسوخة لكن لاخلاف أنها نسخت بقوله في سورة براءة " اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم " وبراءة نزلت بعد فتح مكة، فكان يجب ألا يقاتل قريشا على دخول مكة وقد علمنا خلافه وقوله: " أو جاؤكم حصرت صدورهم " قال عمر بن شبة يعني به أشجع فانهم قدموا المدينة في سبعمائة يقودهم مسعود بن دخيلة فاخرج إليهم

النبي (صلى الله عليه وآله) احمال التمر ضيافة. وقال: نعم الشئ الهدية أمام الحاجة. وقال لهم: ما جاءكم؟ قالوا:

قربت دارنا منك، وكرها جربك، وحرب قومنا، يعنون بني ضمرة الذين بينهم وبينهم عهد لقلتنا فيهم، فنزلت الآية. وقوله: " جاؤكم حصرت صدورهم " معناه قد حصرت، لانه في موضع الحال والماضي إذا كان المراد به الحال قدر معه قد، كما يقولون: جاء فلان، وذهب عقله. والمعنى قد ذهب عقله. وسمع الكسائي من العرب من يقول: أصبحت نظرت إلى ذات التنانير بمعنى قد نظرت.

وانما جاز ذلك، لان قد تدني الفعل من الحال. وقرأ الحسن، ويعقوب " حصرة صدورهم " منصوبا على الحال. وأجاز يعقوب الوقف بالهاء. وهو صحيح في المعنى وقراءة القراءة بخلافه. ومعنى " حصرت صدورهم " ضاقت عن أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم وكل من ضاقت نفسه عن شئ من فعل أو كلام يقال: قد حصر. ومنه الحصر في القراءة وما قلناه معنى قول السدي وغيره.

وقوله: " ولو شاء الله لسلطهم عليكم " مثل قوله: " ولو شاء الله لاعتكم " (١) ومعناه الاخبار عن قدرته على ذلك لو شاء لكنه لا يشاء ذلك، بل يلقي في قلوبهم الرعب حتى يفرعوا، ويطلبوا المودعة، والمسالمة، ويدخل بعضهم في حلف من بينكم وبينهم ميثاق وفي ذمتهم، ثم قال: " فان اعتزلوكم " يعني هؤلاء الذين أمرنا بالكف عن قتالهم من المنافقين بدخولهم في أهل عهدكم أو بمصيرهم إليكم " حصرت

(١) سورة البقرة: آية ٢٢٠. (*)

(٢٨٧)

صدورهم "، فلم يقاتلوكم " والقوا اليكم السلم " يعني صالحوكم، واستسلموا، كما يقول القائل: أعطيتك قيادي والقيت إليك خطامي إذا استسلم له وانقاد لامره، فكذلك قوله: " والقوا اليكم السلم " يريد به الصلح وقال أكثر المفسرين: البلخي والطبري والجبائي، وغيرهم: ان المراد به الاسلام. قال الطرماح:

وذلك ان تمينا غادرت سلما * للاسد كل حصان وعثة اللبد (١)

يعني استسلاما. وقال: " فما جعل الله لكم عليهم سبيلا " يعني إذا استسلموا لكم فلا طريق لكم على نفوسهم، وأموالهم. قال الربيع: السلم هاهنا الصلح، ثم نسخ ذلك بقوله: " فاذا انسوخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم " (٢) الآية. وبه قال عكرمة والحسن قالا. نسخت هذه الآية إلى قوله: " سلطانا مبينا " وقوله: في الممتحنة: " لاينهاكم الله عن الذين لم

يقاتلوكم " إلى قوله: " الظالمون " (٣) نسخت هذه الاربعة آيات بقوله: في براءة الآية التي تلونها، وبه قال قتادة وابن زيد:

قوله تعالى: (ستبدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة اركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث تقفتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) (٩١) - آية بلاخلاف - .
النزول قيل في الذين نزلت فيهم هذه الآية ثلاثة أقوال:

(١) ديوانه: ١٤٥ من قصيدته التي هجا بها الفرزدق الحصان: المرأة العفيفة. وعثة:

كثيرة اللحم لينة - بكسر فسكون - كساء يفرش للجلوس عليه.

(٢) سورة التوبة: آية ٦. (٣): آية ٨.

(٢٨٨)

أحدها - قال ابن عباس، ومجاهد: نزلت في ناس كانوا يأتون النبي (صلى الله عليه وآله) فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش، ويرتكسون في الاوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا، فأمر الله بقاتلهم ان لم يعتزلوا، ويصلحوا.

الثاني - قال قتادة: نزلت في حي كانوا بنهامة قالوا: يا نبي الله لانقاتلك، ولانقاتل قومنا. وأرادوا ان يأمنوا قومهم ويأمنوا نبي الله فأبى الله عليهم ذلك.

فقال: " كلما ردوا إلى الفتنة " يعني إلى الكفر " اركسوا فيها " يعني وقعوا فيها.

الثالث - قال السدي: نزلت في نعيم بن مسعود الاشجعي، وكان يأمن في المسلمين بنقل الحديث بين النبي (صلى الله عليه وآله)، والمشركين، فنزلت هذه الآية، وقال مقاتل: نزلت في أسد وغطفان.

المعنى:

وقال أبو العالية معنى قوله: " كلما ردوا إلى الفتنة اركسوا فيها " يعني كلما ابتلوا بها عموا فيها. وقال قتادة: كلما عرض لهم بلاء هلكوا فيه. والفتنة في اللغة هي الاختبار. والاركاس: الرجوع. فمعنى الكلام كلما ردوا إلى الاختبار، ليرجعوا إلى الكفر والشرك رجعوا إليه. وقوله: " فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم " معناه وان لم يعتزلوكم أيها المؤمنون هؤلاء الذين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم وهم كلما دعوا إلى الشرك أجابوا إليه (ويلقوا اليكم السلم) يعني ولم يستسلموا لكم فيعطوكم المقادة ويصالحوكم ويكفوا أيديهم عن قتالكم (فخذوهم واقتلوهم حيث تقفتموهم) يعني حيث أصبتموهم. ثم قال: " وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا " يعني حجة ظاهرة. وقال السدي، وعكرمة: السلطان الحجة وقال أبو علي:

نزلت في قوم كانوا يظهرون الاسلام، فاذا اجتمعوا مع قريش اظهروا لهم الكفر. وهو قوله:
(كلما ردوا إلى الفتنة) يعني الكفر (اركسوا فيها) بمعنى وقعوا فيها، فما داموا مظهرين
للاسلام وكافين عن قتال المسلمين، فلا

(٢٨٩)

يتعرض لهم. ومتى لم يظهروا الاسلام، وجب قتالهم على ما ذكره الله، ثم قال قوم:
الآية منسوخة وان من لم يحارب مع المؤمنين، وجب قتاله. واختاره هو أنها غير منسوخة.
قال: لانه لادليل على ذلك.
قوله تعالى:

(وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة
إلى أهله إلا أن يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من
قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين
متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً (٩٢) - آية بلاخلاف - .
المعنى والاعراب:

قوله: (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) معناه لم يأذن الله، ولا أباح لمؤمن أن يقتل
مؤمناً فيما عهده إليه، لانه لو أباحه وأذن فيه ما كان خطأ.
والتقدير إلا أن يقتله خطأ، فان حكمه هكذا على ما ذكر. فذهب إلى هذا قتادة وغيره.
وقوله: (إلا خطأ) استثناء منقطع - في قول أكثر المفسرين - وتقديره إلا أن المؤمن قد يقتل
المؤمن خطأ، وليس ذلك مما جعل الله له، ومثله قول الشاعر:
من البيض لم تظعن بعيداً ولم تطأ * على الارض إلا ريط برد مرجل (١)
والمعنى لم تطأ على الارض إلا أن تطأ ذيل البرد، وليس ذيل البرد من الارض.

(١) قاتله جرير ديوانه: ٤٥٨، والنقائض: ٧٠٦، ومجاز القرآن ١: ١٣٧. (*)

(٢٩٠)

وقد ذكرنا لذلك نظائر فيما مضى، ولانطول باعادتها. وتقدير الآية: إلا أن المؤمن قد يقتل
المؤمن خطأ وليس ذلك مما جعل الله له. وقال قوم: الاستثناء متصل والمعنى: لم يكن للمؤمن
أن يقتل متعمداً مؤمناً. ومتى قتله متعمداً لم يكن مؤمناً فان ذلك يخرج من الايمان، ثم قال: "
إلا خطأ " ومعناه إن قتله له خطأ لا يخرج من الايمان. ثم أخبر تعالى بحكم من قتل من
المؤمنين مؤمناً خطأ، فقال: " ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ". ومعناه فعليه تحرير

رقبة مؤمنة. يعني مظهرة للايمان وظاهر ذلك يفتضي أن تكون بالغة ليحكم لها بالايمان وذلك في ماله خاصة.

" ودية مسلمة إلى أهله " تؤديها عنه عاقلته إلى أولياء المقتول إلا أن يصدق أولياء المقتول حينئذ تسقط عنهم. وموضع (أن) من قوله: " إلا أن يصدقوا " نصب، لان المعنى فعليه ذلك إلا أن يصدقوا النزول:

وقيل: إن الآية نزلت في عياش ابن أبي ربيعة المخزومي: أخي أبي جهل، لانه كان أسلم، وكان قد قتل رجلا مسلما بعد اسلامه، وهو لايعلم باسلامه. وهذا قول مجاهد، وابن جريج، وعكرمة، والسدي. وقالوا: المقتول هو الحارث بن يزيد بن أبي نبشية العامري. ولم يعلم أنه أسلم، وكان أحدمن رده عن الهجرة، وكان يعذب عياشا مع أبي جهل، قتله بالحره بعد الهجرة. وقيل: قتله بعد الفتح وقد خرج من مكة وهو لايعلم باسلامه. ورواه أبوالجارود عن أبي جعفر (ع).

وقال ابن زيد: نزلت في رجل قتله أبوالدرداء، كان في سرية فعدل أبوالدرداء إلى شعب يريد حاجة، فوجد رجلا من القوم في غنم له، فحمل عليه بالسيف فقال:

لاإله إلا الله ! فبدر فضربه ثم جاء بغنمه إلى القوم ثم وجد في نفسه شيئا فأتى رسول الله (ص) فذكر ذلك له، فقال له النبي (صلى الله عليه وآله): ألا شققت عن قلبه فقال: ما عسيت أن أجد ! هل هو إلا دم أو ماء؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله) فقد أخبرك بلسانه فلم تصدقه قال كيف بي يارسول الله؟ قال: فكيف بلا إله إلا الله؟ ! قال فكيف بي

(٢٩١)

يارسول الله؟ قال: وكيف بلا إله إلا الله؟ ! حتى تمنيت أن يكون ذلك اليوم مبتدأ إيماني، ثم نزلت هذه الآية والذي ينبغي أن يعول عليه ان ما تضمنته الآية حكم من قتل خطأ ويجوز في سبب نزول الآية كل واحد مما قبل.

المعنى:

وقال ابن عباس، والشعبي، وابراهيم، والحسن، وقتادة: الرقبة المؤمنة لاتكون إلا بالغة قد أمنت وصامت وصلت. فاما الطفل فانه لايجزي ولاالكافر.

وقال عطاء: كل رقبة ولدت في الاسلام فهي تجزي. والاول أقوى، لان المؤمن على الحقيقة لايطلق إلا على بالغ مظهر للايمان ملتزم لوجوب الصوم والصلاة، إلا أنه لاخلاف أن المولود بين مؤمنين يحكم له بالايمان، فبهذا الاجماع ينبغي أن يجزي في كفارة قتل الخطأ. وأما الكافرة والمولود بين كافرين فانه لايجزي بحال.

والدية المسلمة إلى أهل القتل هي المدفوعة إليهم موفرة غير منتقصة حقوق أهلها منها " إلا أن يصدقوا " معناه يتصدقوا فادغمت التاء في الصاد لقرب مخرجها وفي قراءة أبي " إلا ان يتصدقوا " .

وقوله: (فان كان من قوم عدولكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) يعني إن كان هذا القتل الذي قتله المؤمن خطأ من قوم هم أعداء لكم مشركون وهو مؤمن، فعلى قاتله تحرير رقبة مؤمنة. واختلفوا في معناه، فقال قوم: إذا كان القتل في عداد قوم أعداء وهو مؤمن بين أظهرهم لم يهاجر، فمن قتله فلا دية له. وعليه تحرير رقبة مؤمنة، لان الدية ميراث، وأهله كفار لا يرثونه. هذا قول ابراهيم، وابن عباس، والسدي، وقتادة، وابن زيد، وابن عياض. وقال آخرون: بل عنى به أهل الحرب من يقدم دار الاسلام فيسلم ثم يرجع إلى دار الحرب إذا مربهم جيش من أهل الاسلام فهرب قومه وأقام ذلك المسلم فيهم فقتله المسلمون،

(٢٩٢)

وهم يحسبونه كافرا. ذكر ذلك عن ابن عباس في رواية أخرى. وقوله: (فان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) ومعناه إن كان القتل الذي قتله المؤمن خطأ من قوم بينكم وبينهم أيها المؤمنون ميثاق أي عهد و ذمة وليسوا أهل حرب لكم " فدية مسلمة إلى أهله " تلزم عاقلة قاتله. وتحرير رقبة على القاتل كفارة لقتله. واختلفوا في صفة هذا القتل الذي هو من قوم بيننا وبينهم ميثاق أهو مؤمن أم كافر؟ فقال قوم: هو كافر إلا أنه يلزم قاتله دية، لان له ولقومه عهدا. ذهب إليه ابن عباس، والزهري، والشعبي، و ابراهيم النخعي، وقتادة، وابن زيد. وقال آخرون: بل هو مؤمن، فعلى قاتله دية يؤديها إلى قومه من المشركين، لانهم أهل ذمة. روي ذلك أيضا عن ابراهيم والحسن. وهو المروي في أخبارنا. إلا أنهم قالوا: يعطي ديته ورثته المسلمين دون الكفار. والميثاق هو العهد. وقد بيناه فيما مضى. والمراد ههنا الذمة، وغيرها من اليهود وبه قال السدي والزهري، وابن عباس والخطأ هو ان تريد شيئا فتصيب غيره. وهو قول ابراهيم، وأكثر الفقهاء.

والدية الواجبة في قتل الخطأ مئة من الابل ان كانت العاقلة من أهل الابل - بلا خلاف - وان اختلفوا في أسنانها فقاتل يقول. هي أربع: خمس وعشرون حقة، وخمس وعشرون جذعة، وخمس وعشرون ابنة مخاض، وخمس وعشرون بنت لبون.

روي ذلك عن علي (ع). وقال آخرون: هي أخماس: عشرون حقة، وعشرون جذعة، وعشرون بنت لبون، وعشرون بنو لبون، وعشرون بنت مخاض.

وينسب ذلك إلى ابن مسعود. وروى الامرين معا أصحابنا. وقال قوم: هي أرباع غير أنها ثلاثون حقة، وثلاثون بنت لبون، وعشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لبون. روي ذلك عن عثمان وزيد بن ثابت. قال الطبري: هذه الروايات متكئة. والاولى التخيير. ولا يحمل على العاقلة صلح، ولا اقرار، ولا ما كان دون الموضحة. وأما الدية من الذهب فالف دينار، ومن الورق عشرة آلاف درهم.

وقال بعضهم: اثني عشر ألفا والاول عندنا هو الاصح. ودية عمد الخطأ مئة من

(٢٩٣)

الابل مغلظة اثلاثا - وروي أرباعا - ثلث بنت لبون، وثلث حقة، وثلث جذعة. وتسنأدى في سنين. ودية الخطأ في ثلاث سنين. ودية العمد إذا تراضوا بها في سنة. وأما دية أهل الذمة فقال قوم: هي دية المسلم سواء. ذهب إليه ابوبكر، وعثمان، وابن مسعود، وابراهيم، ومجاهد، والزهري، وعامر الشعبي، واختاره الطبري، وأبوحنيفة وأصحابه. وقال قوم: على النصف من دية المسلم. ذهب إليه عمرو بن شعيب رواه عن عمر بن الخطاب وبه قال عمر بن عبد العزيز. وقال قوم:

هي على الثلث من دية المسلم ذهب إليه سعيد بن المسيب، والشافعي غير أنها اربعة آلاف واختلاف الفقهاء قد ذكرناه في الخلاف. واما دية المجوسي فلا خلاف أنها ثمانمئة وكذلك عندنا نادية اليهودي والنصراني. (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما) يعني فمن لم يجد الرقبة المؤمنة كفارة عن قتله المؤمن لاعتباره فعليه صيام شهرين متتابعين. واختلفوا في معناه: فقال قوم:

مثل ما قلناه ذهب إليه مجاهد. وقال آخرون: " فمن لم يجد " الدية فعليه. صوم الشهرين عن الدية والرقبة. وتأويل الآية فمن لم يجد رقبة مؤمنة ولادية يسلمها إلى أهلها فعليه صوم شهرين متتابعين، ذهب إليه مسروق والاول هو الصحيح، لان دية قتل الخطأ على العاقلة، والكفارة على القاتل باجماع الامة على ذلك. وصفة التتابع في الصوم أن يتابع الشهرين لايفصل بينهما بافطار يوم. وقال أصحابنا: إذا صام شهرا وزيادة ثم أفطر خطأ وجاز له البناء.

وقوله: (توبة من الله) نصب على القطع. ومعناه رجعة من الله لكم إلى التيسير عليكم بتخفيفه عنكم ما خفف عنكم من فرض تحرير الرقبة المؤمنة بايجاب صوم الشهرين المتتابعين توبة " وكان الله عليما حكيما " معناه لم يزل الله عليما بما يصلح عباده فيما يكلفهم من فرائضه حكيما بما يقضي فيهم. ويدبره. وقال الجبائي:

انما قال: (توبة من الله) تعالى بهذه الكفارة التي يلتزمها بدره عقاب القاتل.

وذمه لانه يجوز أن يكون عاصيا في السبب، وان لم يكن عاصيا في القتل من حيث أنه رمى في موضع هو منهي عنه بأن يكون رجمة، وان لم يقصد القتل وهذا

(٢٩٤)

ليس بشئ لان الآية عامة في كل قاتل خطأ، وما ذكره ربما اتفق في الأحاد. والزام دية قتل الخطأ العاقلة ليس هو مؤاخذة البرئ بالسقيم، لان ذلك ليس بعقوبة بل هو حكم شرعي تابع للمصلحة. ولو خلينا والعقل ما أوجبناه. وقيل: ان ذلك على وجه المواساة والمعونة قوله تعالى:

(ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها و غضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) (٩٣) - آية بلاخلاف -.

المعنى: أخبر الله تعالى في هذه الآية ان من يقتل مؤمنا متعمدا يعني قاصدا إلى قتله ان جزاؤه جهنم خالدا فيها أي مؤيدا في جهنم و غضب الله عليه. وقد بينا ان غضب الله هو ارادة عقابه، والاستخفاف به. " ولعنه " معناه أبعد من ثوابه ورحمته " واعدله عذابا عظيما " يعني لا يعلمون قدر مبلغه لكثرتة واختلفوا في صفة قتل العمد، فعندنا أن من قصد قتل غيره بما يقتل مثله في غالب العادة سواء كان بحديدة حادة كالسلاح أو مثقلة من حديد أو خنق أو سم أو إحراق أو تفريق أو موالات ضرب بالعصا حتى يموت أو بحجارة ثقيلة فان جميع ذلك عمد يوجب القود، وبه قال ابراهيم، وعبيد بن عمير، والشافعي، وأصحابه، واختاره الطبري. وقال قوم: لا يكون قتل العمد إلا ما كان بحديد. ذهب اليه سعيد ابن المسيب، و ابراهيم، والشافعي في رواية أخرى، وطاووس وأبوحنيفة وأصحابه غير أن عندنا أنه إذا قتله بغير حديدة فلا يستقاد منه إلا بحديدة. وقال الشافعي يستقاد منه بمثل ماقتل به فأما القتل شبيهه العمد فهو ان يضربه بعضا أو غيرها مما لم تجر العادة بحصول الموت عنده، فاذا مات منه، كان شبيهه العمد، وفيه الدية مغلظة في مال القاتل خاصة لايلزم العاقلة. وقد بينا اختلاف الفقهاء في مسائل

(٢٩٥)

الخلافة في هذه المسألة. واستدللت المعتزلة بهذه الآية على أن مرتكب الكبيرة مخلد في نار جهنم. وأنه اذا قتل مؤمنا، فانه يستحق الخلود، ولايعفى عنه بظاهر اللفظ. ولنا أن نقول: ما انكرتم ان يكون المراد بالآية للكفار ومن لاثواب له أصلا. فأما من هو مستحق للشواب، فلا يجوز ان يكون مرادا بالخلود اصلا، لما بيناه فيما مضى من نظائره. وقد روى اصحابنا ان الآية متوجهة إلى من يقتل المؤمن لايمانته، وذلك لا يكون إلا كافرا. وقال عكرمة، وابن جريج: ان الآية نزلت في انسان بعينه ارتد ثم قتل مسلما، فانزل الله تعالى فيه الآية، لانه كان

مستحلا لقتله، على أنه قد قيل: إن قوله: " خالدا فيها " لا يفهم من الخلود في اللغة الا طول اللبث، فأما البقاء ببقاء الله، فلا يعرف في اللغة، ثم لاخلاف أن الآية مخصوصة بمن لا يتوب، لانه ان تاب فلا بد من العفو عنه اجماعا، وبه قال مجاهد. وقال ابن عباس: لا توبة له ولا إذا قتله في حال الشرك ثم اسلم وتاب.

وبه قال ابن مسعود، وزيد بن ثابت والضحاك. ولا يعترض على ما قلناه قول من يقول ان قاتل العمد لا يوفق للتوبة، لان هذا القول إن صح فانما يدل على أنه لا يختار التوبة. ولا ينافي ذلك القول بأنها لو حصلت، لازالت العقاب. وإذا كان لا بد من تخصيص الآية واخراج التائبين عنها، جاز لنا ان نخرج منها من يتفضل الله عليه بالعفو على ان ظاهر الآية يتضمن ان جزاءه جهنم فمن أين أن ذلك لا بد من حصوله، وان العفو لا يجوز حصوله؟ وهذا قول أبي مجلز وأبي صالح.

ولا يدفع ذلك قوله: " وغضب الله عليه ولعنه واعدله عذابا عظيما " لان ذلك اخبار عن انه مستحق لذلك، فمن اين حصوله لامحالة؟ وقال الجبائي: الجزاء عبارة عما يفعل، وما لا يفعل لا يسمى جزاء. ألا ترى ان الاجير اذا استحق الاجرة على من استأجره، لا يقال في الدراهم التي مع المستأجر انها جزاء عمله؟ ! وانما يسمى بذلك اذا أعطاه إياها. وهذا ليس بشيء، لان الجزاء عبارة عن المستحق سواء فعل، ولم يفعل الا ترى انا نقول: جزاء من فعل الجميل ان يقابل عليه بمثله، وان كان ما فعل بعد؟ وانما يراد انه ينبغي ان يقابل بذلك. ونقول:

(٢٩٦)

من استحق عليه القود، أو حد من الحدود إن جزاء هذا ان يقتل، أو يقام عليه الحد. ولو كان الامر على ما قالوه، لوجب ألا يكون الخلود في النار جزاء للكفار، لانه لم يقع بعد، ولا يصح ان يقع، لان ما يوجد منه لا يكون إلا متاهيا وانما لم يقل في الدراهم، انها جزاء لعمله، لان ما يستحقه الاجير في الذمة لا يتعين في دراهم معينة. وللمستأجر أن يعطيه منها، ومن غيرها. فلذلك لم توصف هذه المعينة بانها جزاء للعمل، ثم لنا أن نعارض بآيات الغفران، كقوله: " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " (١) وقوله: " ان الله يغفر الذنوب جميعا " (٢) وقوله: " ان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم " (٣).

وإذا تعارضا، وقفنا وبقينا على جواز العفو عقلا. وقال الجبائي والبلخي: الآية نزلت في اهل الصلاة. لانه تعالى بين في الآية الاولى حكم قتل الخطأ من الذية، والكفارة. وذلك يختص أهل الصلاة، ثم عقب ذلك بذكر قتل العمد منهم. وهذا ليس بصحيح، لان لزوم الذية في الخطأ يتناول المسلم، والمعاهد. وأما الكفارات فان عندنا تلزمهم أيضا لانهم متعبدون بالشرائع. ولو سلمنا ان الآية الاولى تختص المسلمين، لم يلزم ان تختص الثانية بهم، بل لا يمتنع ان يراد بها

الكفار على وجه الخصوص أو الكفار، والمسلمين على وجه العموم. غير اننا قد علمنا انه لايجوز ان يراد بها من هو مستحق الثواب، لان الثواب دائم. ولايجوز مع ذلك أن يستحق العقاب الدائم مع ثبوت بطلان الاحباط، لاجماع الآية على خلافه.
قوله تعالى:

(ياأيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن القى اليكم السلم لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا

-
- (١) سورة النساء: آية ٤٧ - ١١٥. (٢) - سورة الزمر: آية ٥٣.
(٣) - سورة الرعد: آية ٧ وسورة حم السجدة: آية ٤٣. (*)

(٢٩٧)

فعندالله مغنم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيراً)
(٩٤) - آية - .
القراءة، والحجة:

قرأ أهل المدينة، وابن عباس، وخلف (السلم) بغير الف. الباقرن بالف.
وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما فتثبتوا (بالتاء) من الثبوت في الموضعين ههنا وفي الحجرات الباقرن (فتبينوا) من التبيين. وقرئ من طريق النهرواني لست مؤمنا - بفتح الميم الثانية - الباقرن بكسرهما وبه قرأ أبو جعفر محمد بن علي (ع) على ما حكاه البلخي. فمن قرأ بالتاء من الثبوت. فانما اراد التثبت الذي هو خلاف العجلة.

ومن قرأ بالياء والنون، اراد من التبيين الذي هو النظر، والكشف عنه حتى يصح.
والمعنيان متقاربان، لان المثبت متبين، والمتبين مثبت. ومن قرأ (السلم) بلالالف اراد الاستسلام. ومنه قوله: " والقوا إلى الله يومئذ السلم " (١) أي استسلموا.
وقوله: " ورجلا سلما " أي مستسلما. وروى أبان عن عاصم بكسر السين. والمعنى خلاف الحرب. ومن قرأ بالف ذهب إلى التحية. ويحتمل أن يكون المراد لا تقولوا لمن اعتزلكم وكف عن قتالكم: لست مؤمنا. قال أبو الحسن: يقولون: انما فلان سلام إذا كان لا يخالط أحدا.
المعنى:

خاطب الله تعالى بهذه الآية المؤمنين الذين إذا ضربوا في الارض بمعنى ساروا فيها للجهاد وأن يتأنوا في قتال من لا يعلمون كفره، ولا ايمانه، وعن قتل من يظهر الايمان وان ظن به الكفر باطنا. ولا يعجلوا حتى يبين لهم أمرهم فانهم ان بادروا ربما أقدموا على قتل مؤمن.

ولا يقتلوا من استسلم لهم، وكف عن قتالهم، واطهر انه اسلم. والا يقولوا لمن هذه صورته:
لست مؤمنا، فيقتلوه طلب عرض

(١) سورة النحل: آية ٨٧. (*)

(٢٩٨)

" الحياة الدنيا " يعني متاع الحياة الدنيا الذي لابقاء له. فان عند الله مغانم كثيرة وفواضل
جسيمة فهو خير لكم ان أطعتم الله فيما أمركم به، وانتهيتم عما نهاكم عنه.
النزول:

واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال عمر بن شبة: نزلت في مرداس رجل من غطفان،
غشيتهم خيل المسلمين، فاستعصم قومه في الجبل، وأسهل هو مسلما مستسلما، فاطهر لهم
اسلامه، فقتلوه، وأخذوا ما معه. وقال أبو عمر والواقدي، وابن اسحاق. نزلت في عامر بن
الاضبط الاشجعي لقيته سرية لابي قتادة فسلم عليه فشد محلم بن جثامة فقتله لاحنة كانت
بينهم، ثم جاء النبي (صلى الله عليه وآله) وسأل ان يستغفر له فقال النبي (صلى الله عليه وآله) لاغفر
الله لك. وانصرف باكيا فما مضت عليه سبعة ايام حتى هلك فدفن، ثم لفظته الارض فجاءوا
إلى النبي (صلى الله عليه وآله) وأخبروه فقال (ع): إن الارض تقبل من هو شر من محلم
صاحبكم، لكن الله اراد أن يعظم من حرمتكم، ثم طرحوه بين صد في جبل، والقوا عليه
الحجارة، فنزلت الآية. وقال ابن عباس: لحق ناس رجلا في غنيمة له، فقال السلام عليكم،
فقتلوه وأخذوا غنمه. فنزلت الآية. قال ابن عباس: فكان الرجل يسلم في قومه، فاذا غزاهم
أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله)، وهرب أصحابه وقف، وأظهر تحية الاسلام (السلام عليكم)
فيكفون عنه، فلما خالف بعضهم، وقتل من أظهر ذلك نزلت فيه الآية وبه قال السدي: وقال
الرجل السلام عليكم، أشهد ان لا إله إلا الله، وان محمدا رسول الله. فشد عليه أسامة بن زيد
وكان أمير القوم، فقتله، فنزلت الآية. وقال قوم: كان صاحب السرية المقداد. وقال آخرون:
ابن مسعود. وكل واحد من هذه الاسباب يجوز أن يكون صحيحا، ولا يقطع بواحد منها بعينه.
والذي يستفاد من ذلك أن من اظهر الشهادتين لايجوز لمؤمن أن يقدم على قتله، ولا إذا أظهر
ما يقوم مقامها من تحية الاسلام.

(٢٩٩)

المعنى:

وقوله. (كذلك كنتم من قبل) اختلفوا في معناه، فقال قوم: كما كان هذا الذي قتلتموه بعدما القي
إليكم السلام مستخفيا من قومه بدينه خوفا على نفسه منهم، كنتم أنتم مستخفين بايديانكم من

قومكم حذرا على أنفسكم فمن الله عليكم، ذهب إليه سعيد بن جبير وقال ابن زيد معناه كما كان هذا المقتول كافرا فهداه الله، كذلك كنتم كفارا، فهداكم الله. وبه قال الجبائي. وقال المغربي: معناه كذلك كنتم أذلاء أحادا إذا صار الرجل منكم وحده، خاف أن يختطف. وقوله: (فمن الله عليكم) قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال سعيد بن جبير: فمن الله عليكم باظهار دينه، واعزاز أهله حتى أظهرتم الاسلام بعد ما كنتم تكتُمونه من اهل الشرك. وقال السدي: معناه تاب الله عليكم " فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا " معناه انه كان عليما بما تعملونه قبل أن تعملوه. قال البلخي في الآية دلالة على أن المجتهد لا يضل، لان النبي (صلى الله عليه وآله) لم يضل مقادا ولا بترأ منه. ومن قرأ " لست مؤمنا " بفتح الميم الثانية، قال: معناه لا تقولوا لمن استسلم لكم لسنا نؤمنا. وهو وجه حسن.

قوله تعالى:

(لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله باموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين باموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما (٩٥) درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما) (٩٦) - آيتان - .

(٣٠٠)

القراءة، والحجة: قرأ أهل المدينة وابن كثير غير أولي الضرر - نصبا - الباقون بالرفع. فمن رفع جعله نعتا للقاعدين. ومن نصبه فعلى الاستثناء. وهو اختيار أبي الحسن الاخفش. المعنى:

بين الله بهذه الآية انه " لايستوي " ومعناه لايعتدل " القاعدون " يعني المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله من أهل الايمان بالله وبرسوله. المؤثرون الدعة والرفاهية على مقاساة الحر والمشقة بلقاء العدو، والجهاد في سبيله إلا أهل الضرر منهم بذهاب أبصارهم، وغير ذلك من العلل التي لاسبيل لاهلها إلى الجهاد للضرار الذي بهم " والمجاهدون في سبيل الله " ومنهاج دينه لتكون كلمة الله هي العليا والسفراغون وسعهم في قتال أعداء الله، وأعداء دينهم " باموالهم " انفاقا لها فيما يوهن كيدأعداء أهل الايمان. وقال قوم: إن قوله: " غير أولي الضرر " نزل بعد قوله: " لايستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله " فجاء عمر بن أم مكتوم، وكان أعمى فقال: يارسول الله كيف وأنا أعمى، فما برح حتى نزل قوله: " غير أولي الضرر ". ذكر ذلك البراء بن عازب، وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت. وهو يقوي قراءة من قرأ بالنصب. الاعراب والمعنى:

" والقاعدون " رفع بيستوي ويستوي ههنا يقتضي فاعلين، فصاعدا وقوله: " والمجاهدون " معطوف عليه. والتقدير لايستوي القاعدون إلا أولي الضرر والمجاهدون. وقال الفراء: الرفع أجود لاتصال " غير " بقوله: " القاعدون " والاستثناء كان يجب أن يكون بعد تمام الكلام بقوله: " لايستوي القاعدون... "

والمجاهدون غير أولي الضرر " قال ويجوز خفضه نعتا للمؤمنين وماقريء به.

(٣٠١)

والاول أقوى. ويحتمل النصب على الحال كقولك: جاء زيد غير مريب. فان قيل: أيجوز أن يساوي أهل الضرر المجاهدين على وجه، فان قلت: لا، فقد صاروا مثل من ليس من أولي الضرر؟ قلنا: يجوز أن يساؤوهم بأن يفعلوا طاعات أخر تقوم مقام الجهاد، فيكون ثوابهم عليهم مثل ثواب الجهاد. وليس كذلك من ليس بأولي الضرر، لانه قعد عن الجهاد، بلاعذر. وظاهر الآية يمنع من مساواته على وجه.

وقال ابن عباس لايستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر، والخارجين إلى بدر ثم قال: (وفضل الله المجاهدين باموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) قال ابن جريج وغيره معناه فضل الله المجاهدين باموالهم وأنفسهم درجة على القاعدين من أهل الضرر ثم قال: (وكلا وعد الله الحسنى) يعني وعد الله الحسنى المجاهدين باموالهم وأنفسهم والقاعدين أولي الضرر. والمراد بالحسنى ههنا الجنة في قول قتادة وغيره من المفسرين. وبه قال السدي. وقوله: (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) معناه فضل الله المجاهدين باموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير أولي الضرر أجرا عظيما. وقوله: (درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيمًا)

قال قتادة هو كما يقال: الاسلام درجة، والفقه درجة، والهجرة درجة، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة. وقال عبدالله بن زيد: معنى الدرجات هي التسع درجات التي درجها في سورة براءة. وهي قوله: (ماكان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب أن يتخلفوا عن رسول الله **صلى الله عليه وآله**) ولايرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيض الكفار ولا ينالون من عدو نيلا) إلى قوله: (ليجزئهم الله أحسن ما كانوا يعملون) (١) قال: هذه التسع درجات. وقال قوم: المراد بالدرجات ههنا الجنة. واختاره الطبري. (ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيمًا) معناه لم يزل الله غفارا للذنوب صافحا لعبيده عن العقوبة. رحيمًا بهم متفضلا عليهم. فان

(١): آية ١٢٠، ١٢١. (*)

(٣٠٢)

قيل: كيف قال في أول الآية (فضل الله المجاهدين باموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) ثم قال في آخرها (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات) وهذا ظاهر التناقض؟! قلنا عنه جوابان:

أحدهما - ان في اول الآية فضل الله المجاهدين على القاعدين أولي الضرر درجة وفي آخرها فضلهم على القاعدين غير أولي الضرر درجات ولا تتناقض في ذلك، لان قوله: (وكلا وعد الله الحسنى) يدل على ان القاعدين لم يكونوا عاصين مستخفين. وان كانوا تاركين للفضل.

والثاني - قال أبو علي الجبائي: أراد بالدرجة الاولى علو المنزلة وارتفاع القدر على وجه المدح لهم كما يقال: فلان أعلى درجة عند الخليفة من فلان يريدون بذلك أنه أعظم منزلة. وبالثنائية أراد الدرجات في الجنة التي تتفاضل بها المؤمنون بعضهم على بعض على قدر استحقاقهم، ولاتنافي بينهما. وقال الحسين بن علي المغربي انما كرر لفظ التفضيل، لان الاول أراد تفضيلهم في الدنيا على القاعدين والثاني أراد تفضيلهم في الآخرة بدرجات النعيم. قوله تعالى:

(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا (٩٧) إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا (٩٨) فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا) (٩٩) - ثلاث آيات -.

هذه الآية نزلت في قوم أظهروا للنبي (صلى الله عليه وآله) الاسلام بمكة، فلما هاجر

(٣٠٣)

النبي (صلى الله عليه وآله) وهاجر أصحابه فنتوهم آباؤهم عن دينهم فافتتوا وخرجوا مع المشركين يوم بدر فقتلوا كلهم. وقيل: انهم كانوا خمسة نفر. قال عكرمة: هم قيس بن الفاكهة بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الاسود بن أسد، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو العاص بن ميثمة بن الحجاج، وعلي بن أمية بن خلف. وذكر أبو الجارود عن أبي جعفر (ع) مثله، فانزل الله فيهم الآيات. وقال (ع):

ان الذين توفاهم الملائكة يعني قبض أرواحهم " ظالمي أنفسهم " نصب على الحال يعني في حال هم فيها ظالموا نفوسهم بمعنى بخسوها حقها من الثواب وادخلوا عليها العقاب بفعل الكفر. وقالت لهم الملائكة " فيم كنتم " أي في أي شئ كنتم من دينكم على وجه التقرير لهم والتوبيخ لفعالهم (قالوا كنا مستضعفين في الارض)

يستضعفنا أهل الشرك بالله في ارضنا وبلادنا بكثرة عددهم وقوتهم، ويمنعونا من الايمان بالله واتباع رسوله على جهة الاعتذار فقالت لهم الملائكة " ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها " يعني فخرجوا من ارضكم وداركم وتفارقوا من يمنعكم من الايمان بالله وبرسوله إلى ارض يمنعكم أهلها من أهل الشرك، فتوحدوه وتعبدوه وتتبعوا نبيه ثم قال تعالى " فأولئك مأواهم جهنم " يعني مسكنهم جهنم

" وساءت " يعني جهنم لاهلها الذين صاروا اليها " مصرا " وسكنا ثم استثنى من ذلك المستضعفين الذين استضعفهم المشركون (من الرجال والنساء والولدان) وهم الذين يعجزون عن الهجرة لاعسارهم وقلة حيلتهم " ولايهتدون سبيلا " يعني في الخلاص من مكة. وقيل معناه لايهتدون لسوء معرفتهم بالطريق من أرض الاسلام استثنوا من جملة من أخبر أن مأواهم جهنم للعدر الذي هم فيه.

ونصب المستضعفين بالاستثناء من الهاء والميم في قوله: " مأواهم جهنم " فقال تعالى: " فاولئك عسى الله ان يعفو عنهم " يعني لعل الله أن يعفو عنهم لما هم عليه من الفقر ويتفضل عليهم بالصفح عنهم في تركهم الهجرة من حيث لم يتركوها اختيارا " وكان الله عفوا غفورا " ومعناه لم يزل الله ذا صفح بفضلته عن ذنوب عباده بترك عقوبتهم على معاصيهم " غفورا " ساترا عليهم ذنوبهم بعفوه

(٣٠٤)

لهم عنها. قال ابن عباس كنت أنا وأمي من المستضعفين. قال عكرمة وكان العباس منهم وكان النبي (صلى الله عليه وآله) يدعو في دبر صلاة الظهر اللهم خلص الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن ربيعة وضعفة المسلمين من أيدي المشركين الذين لا يستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا. وبالجملة التي ذكرناها قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والسدي، وقتادة، والضحاك، وابن وهب، وابن جبير.

وقوله: (توفاهم) يحتمل ان يكون فعلا ماضيا ويكون موضعه الفتح لان الماضي مبني على الفتح. والثاني ان يكون رفعا والمعنى تتوفاهم وقد حذف أحد التائين وقد بينا فيما مضى أن (عسى) من الله معناه الوجوب قال المغربي: ذكر (عسى) ههنا تضعيف لامر غيرهم كمايقول القائل ليت من أطاع الله سلم، فكيف من عصاه. ومثله قول الشاعر:

ولم تر كافر نعى نجا * من السوء ليت نجا الشاكر
والتوفي هو الاحصاء قال الشاعر:

إن بني أدرد ليسوا من أحد * ليسوا إلى قيس وليسوا من أسد
ولاتوفاهم قریش في العدد بمعنى أحصاهم. والملائكة تتوفى. وملك الموت يتوفى. والله يتوفى. ومايفعله ملك الموت والملائكة يجوز أن يضاف إلى الله إذا فعلوه بأمره وما تفعله الملائكة جاز أن يضاف إلى ملك الموت، إذا فعلوه بأمره.

قوله تعالى:

(ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيمًا) (١٠٠) - آية - .

(٣٠٥)

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن من يفارق وطنه، ويخرج من أرض الشرك وأهله هربا بدينه إلى أرض الإسلام وأهلها والمهاجر في سبيل الله يعني مهاجرا دين الله وطريقه الذي شرعه لخلقه يجد في الأرض مراغما كثيرا (يجد) مجزوم، لأنه جواب الشرط.
اللغة:

والمراغم المضطرب في البلاد والمذهب يقال منه: راغم فلان قومه مراغما ومراغمة قال الفراء: هما مصدران ومنه قول النابغة الجعدي:

كطود يلاذ بأركانها * عزيز المراغم والمهرب (١)

وقال الشاعر: إلى بلد غير داني المحل * بعيد المراغم والمضطرب
والمراغم مأخوذ من الرغام وهو التراب ومعنى راغمت فلانا هجرته. ولم أبال رغم أنفه أي وان لصق بالتراب أنفه.

المعنى:

واختلف أهل التأويل في معناه، فقال ابن عباس: المراغم التحول من أرض إلى أرض وبه قال الضحاك، والربيع، والحسن، وقتادة، ومجاهد. وقال السدي يعني معيشة. وقال ابن زيد يعني مهاجرا. وقال ابن عباس يعني سعة في الرزق.

وبه قال الربيع بن أنس والضحاك. وقال قتادة: سعة من الضلالة إلى الهدى. وقال يزيد بن أبي حبيب: إن أهل المدينة يقولون من خرج فاصلا من أهله يريد الغزو وجب سهمه لقوله: (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله) وقوله:

"سعة" يحتمل أمرين: أحدهما - السعة في الرزق. الثاني - السعة مما كان فيه من تضيق المشركين عليهم في أمر دينهم بمكة. ثم أخبر تعالى أن من خرج مهاجرا

(١) ديوانه: ٢٢ ومجاز القرآن ١: ١٣٨ واللسان (رغم).

(٣٠٦)

من أرض الشرك فارا بدينه إلى الله ورسوله وأدركه الموت قبل بلوغه دار الهجرة وأرض الإسلام "فقد وقع أجره على الله" يعني ثواب عمله وجزاء هجرته عليه تعالى "وكان الله غفورا" يعني ساترا على عباده ذنوبهم بالعفو عنهم "رحيما" بهم رفيقا.

النزول:

وقيل في سبب نزول الآية ان الله لما أنزل ان الذين " توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم " كتب المسلمون بالآيات وبعثوها إلى أخوانهم من أهل مكة فخرج حينئذ منها جماعة، فقالوا: لم يبق لنا عذر فهاجروا. وقال سعيد بن جبير وعكرمة والضحاك والسدي وابن زيد وابن عباس ورواه أبو الجارود عن أبي جعفر (ع) انها نزلت في ضمرة بن العيص بن ضمرة بن زنباع أو العيص بن ضمرة وكان مريضا فأمر أهله ان يفرشوا له على سريره ويحملوه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال ففعلوا فأتاه الموت بالتعظيم، فنزلت فيه الآية. وبه قال قتادة وقال: قال ضمرة وأنا أعرف الطريق ولي سعة في المال أخرجوني فأخرج، فمات. وقال عمر بن شبة: هو أبو أمية ضمرة بن حندب الخزاعي. وقال الزبير بن بكار: هو خالد بن حزام أخو حكيم بن حزام خرج مهاجرا فمات في الطريق. قال عكرمة وخرج جماعة من مكة مهاجرين فلحقهم المشركون وفتنهم عن دينهم فافتتوا، فانزل الله فيهم " ومن الناس من يقول أمنا بالله فاذا أودي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله " (١) وكتب بها المسلمون من المدينة إليهم ثم نزل فيهم " ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم. " قوله تعالى:

(وإذا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم

(١) سورة العنكبوت: آية ١٠ (*)

(٣٠٧)

عدوا مبينا) - (١٠١) - آية بلاخلاف -.

معنى قوله:

(وإذا ضربتم في الارض) إذا سرتم فيها فليس عليكم جناح يعني حرج ولاثم ان تقصروا من الصلاة يعني من عددها فتصلوا الرباعيات ركعتين.

وظاهر الآية يقتضي أن التقصير لايجوز إلا إذا خاف المسافر، لانه قال " ان خفتم أن يفتنكم " ولاخلاف اليوم أن الخوف ليس بشرط، لان السفر المخصوص بانفراده سبب للتقصير. والظاهر يقتضي ان التقصير جائز لاثم فيه. ويقتضي ذلك انه يجوز الاتمام، وعندنا وعندكثير من الفقهاء ان فرض المسافر مخالف لفرض المقيم، وليس ذلك قصرا، لاجماع اصحابنا على ذلك. ولما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال: فرض المسافر ركعتان غير قصر. واما الخوف بانفراده فعندنا يوجب القصر.

وفيه خلاف وقد روي عن ابن عباس أن صلاة الخائف قصر من صلاة المسافر. وانها ركعة ركعة. وقال قوم: معنى قوله: " ليس عليكم جناح أن تقصروا " يعني من حدود الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا. وهو الذي رواه أصحابنا في صلاة شدة الخوف. وأنه يصلي إيماء والسجود اخفض من الركوع. فان لم يقدر فان التسبيح المخصوص يكفي عن كل ركعة. ثم أخبر تعالى أن الكافرين يعني الجاحدين لتوحيد الله ونبوة نبيه فقد أبانوا عداوتهم لكم بماصبتهم لكم الحرب على عبادتكم الله، وترككم عبادة الاوثان.

وفي قصر الصلاة ثلاث لغات تقول: قصرت الصلاة أقصرها وهي لغة القرآن. وقصرتها تقصيرا، واقصرتها إقصارا.

واختلف أهل التأويل في قصر الصلاة فقال قوم: هي قصر من صلاة الحاضر ما كان يصلي أربع ركعات أذن له في قصرها، فيصلحها ركعتين. ذهب إليه يعلى ابن أمية، وعمر بن الخطاب. وان يعلى قال لعمر كيف نقصر الصلاة وقد أمنا فقال عمر: عجبت ما عجبت منه، فسألت النبي (صلى الله عليه وآله) عن ذلك فقال: صدقة تصديق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته. وبه قال ابن جريج وقتادة. وفي قراءة أبي " وإذا ضربتم

(٣٠٨)

في الارض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة أن يفتنكم الذين كفروا " ولا يقرأ " إن خفتم " ومعنى هذه القراءة الا يفتنكم الذين كفروا وحذف (لا)

كما حذف في قوله: " يبين الله لكم أن تضلوا " (١) ومعناه ألا تضلوا. وقال قوم: القصر لا يجوز إلا مع الخوف روي ذلك عن عائشة، وسعد بن أبي وقاص.

وقال قوم: عنى بهذه الآية قصر صلاة الخوف في غير حال المسابقة، وفيها نزلت.

ذهب اليه مجاهد وغيره. وقال آخرون: عنى بها قصر الصلاة صلاة الخوف في حال غير شدة الخوف. وعنى به قصر الصلاة من صلاة السفر لامن صلاة الإقامة، لان صلاة السفر عندهم ركعتان تمام غير قصر، كما قلناه - ذهب إليه السدي، وابن عمر، وسعيد بن جبير، وجابر بن عبدالله، وكعب - وكان من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) قطعت يده يوم اليمامة وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وثعلبة ابن زهدم اليربوعي وكان من الصحابة - وأبوهريرة. وروي عن ابن عباس في رواية اخرى إن القصر المراد به صلاة شدة الخوف تقصر من حدودها وتصلحها إيماء وهو مذهبنا. وأما حد السفر الذي يجب فيه التقصير فعندنا انه ثمانية فراسخ.

وقال ابوحنيفة، واصحابه: مسيرة ثلاثة أيام. وقال الشافعي ستة عشر فرسخا ثمانية واربعين ميلا. وقال قوم: يجب في قليل السفر وكثيره. بينا الخلاف فيه في كتاب الخلاف.

وانما قال في الاخبار عن الكافرين انهم عدو، ولم يقل أعداء لان لفظة فعول وفعل تقع على الواحد والجماعة، وفتنت الرجل أفتته فهو مفتون لغة أهل الحجاز وتميم وربيعه. وأهل نجد كلهم وأسد يقولون: أفتنت الرجل فهو فاتن.

وقد فتن فتونا: إذا دخل في الفتنة.

قوله تعالى:

(وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك

(١) سورة النساء: آية ١٧٥. (*)

(٣٠٩)

ولياخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وامتعنكم فيميلون عليكم ميلاً واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله اعد للكافرين عذاباً مهيناً) (١٠٢) - آية واحدة بلاخلاف - .

قوله (إذا كنت فيهم) معناه في الضاربين في الارض من أصحابك يا محمد

الخائفين عدوهم أن يفتوهم، فأقمت لهم الصلاة يعني أتممت لهم الصلاة بحدودها وركوعها وسجودها، ولم تقصرها القصر الذي يجب في صلاة شدة الخوف من الاقتصار على الائمة. فلتقم طائفة من اصحابك الذين كنت فيهم معك في صلاتك وليكن سائرهم في وجه العدو. ولم يذكر ما ينبغي ان تفعله الطائفة غير المصلية لدلالة الكلام عليه " وليأخذوا أسلحتهم " قال قوم: الفرقة المأمورة بأخذ السلاح هي المصلية مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) والسلاح مثل السيف يتقلد به والخنجر يشده إلى درعه وكذلك السكين ونحو ذلك من سلاحه وهو الصحيح. وقال ابن عباس الطائفة المأمورة بأخذ السلاح هي التي بازاء العدو دون المصلية، فاذا سجدوا يعني الطائفة التي قامت معك مصلية بصلاتك، وفرغت من سجودها فليكونوا من ورائكم يعني فليصيروا بعد فراغهم من سجودهم مصافين للعدو. وعندنا انهم يحتاجون أن يتموا صلاتهم ركعتين، والامام قائم في الثانية ثم ينصرفون إلى موضع اصحابهم ويجيء الآخرون فيستفتحون الصلاة فيصلي بهم الامام الركعة الثانية، وبطيل تشهد حتى يقوموا فيصلوا بقية صلاتهم ثم يسلم بهم الامام. ومن قال: إن صلاة الخائف ركعة، قال: الاولون إذا صلوا ركعة فقد فرغوا. وكذلك الفرقة الثانية.

(٣١٠)

وروى ذلك أبو الجارود عن أبي جعفر (ع). ورواه مسلمة عن ابي عبدالله (ع)

وهذا عندنا انما يجوز في صلاة شدة الخوف. وفي الناس من قال: ان النبي (صلى الله عليه وآله) يسلم بهم ثم يقومون فيصلون تمام صلاتهم. وقد بينا اختلاف الفقهاء في مسائل الخلاف في صلاة الخوف. وقوله: " وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم " يعني الطائفة الثانية يأخذون السلاح والحذر في حال الصلاة. وذلك يبين ان المأمورة بأخذ السلاح في الاول هم المصلون دون غيرهم. وقوله: " ود الذين كفروا لوتغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم " معناه تمنى الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم وتشتغلون عن أخذها تأهباً للقتال وعن أمتعتكم التي بها بلاغكم في أسفاركم فتنهون عنها (فيميلون عليكم ميلاً واحدة) معناه يحملون عليكم، وأنتم متشاغلون بصلاتكم عن أسلحتكم، وأمتعتكم حملة واحدة فيصيبون منكم غرة فيقتلونكم، ويستبيحون عسكريكم، وما معكم. والمعنى لا تشاغلوا باجمعكم بالصلاة عند مواقفة العدو، فتمكنوا عدوكم من أنفسكم، وأسلحتكم، ولكن اقيموها على ما بينت. وخذوا حذركم بأخذ السلاح. ومن عادة العرب أن يقولوا: ملنا عليهم بمعنى حملنا عليهم. قال العباس بن عباد بن نضلة الانصاري لرسول الله (ص)

ليلة العقبة الثانية: والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن غدا على اهل منى باسيافنا فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم نؤمر بذلك يعني في ذلك الوقت وقوله: " ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا اسلحتكم وخذوا حذركم " معناه لاجرم عليكم ولا اثم ان كان بكم أذى من مطر يعني إن نالكم من مطر، وأنتم مواقفو عدوكم، او كنتم مرضى يعني أعلاء، أو جرحى ان تضعوا اسلحتكم إذا ضعفتكم عن حملها، لكن إذا وضعتموها، فخذوا حذركم.

يعني احترسوا منهم أن يميلوا عليكم وأنتم غافلون غارون، ثم قال: " إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا " يعني عذابا مذلاً يبقون فيها أبداً. وقيل " وان كنتم مرضى " نزلت في عبدالرحمن بن عوف وكان جريحاً. ذكره ابن عباس.

واللام في قوله: " فلنقم " لام الامر وهي تجزم الفعل. ومن حقها أن

(٣١١)

تكون مكسورة إذا ابتدئ بها. وبنو سليم يفتحونها. يقولون: ليقم زيد. كما تميم لام كي يقولون جئت لأخذ حقي. فإذا اتصلت بما قبلها من الواو والفاء جاز تسكينها وكسرها. ذكره الفراء. وقال: " طائفة أخرى " ولم يقل: آخرون، ثم قال: " لم يصلوا فليصلوا معك " ولم يقل: فلتنصل معك حملاً للكلام تارة على اللفظ وأخرى على المعنى كما قال: " وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا " (١) ولو قال: اقتتلنا لكان جائزاً ومثله

" فريفا هدى وفريفا حق عليهم الضلالة " (٢) وفي قراءة أبي: حق عليه الضلالة ومثله " نحن جميع منتصر " (٣) ولم يقل منتصرون ومثله كثير. وفي الآية دلالة على نبوة النبي (صلى الله عليه وآله). وذلك ان الآية نزلت والنبي (صلى الله عليه وآله) بعسفان والمشركون بضحجان، فتوافقوا فصلى النبي (صلى الله عليه وآله) بأصحابه صلاة الظهر بتمام الركوع، والسجود فهم بهم المشركون ان يغيروا عليهم، فقال بعضهم: لهم صلاة أخرى أحب إليهم من هذه يعنون العصر، فأنزل الله عليه الآية فصلى بهم العصر صلاة الخوف، ويقال: إنه كان ذلك سبب اسلام خالد بن الوليد، لانه كان هم بذلك فعلم أنه ما أطلع النبي (صلى الله عليه وآله) على ما هموا به غير الله تعالى فاسلم وفي الناس من قال: من حكم صلاة الخوف اختص به النبي (صلى الله عليه وآله) وقال آخرون - وهو الصحيح - انه يجوز لغيره.

قوله تعالى:

(فاذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فاذا اطمأننتم فاقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) (١٠٣) - آية - .

المعنى:

معنى الآية انكم أيها المؤمنون إذا فرغتم من صلاتكم - وأنتم واقفون

(١) سورة الحجرات: آية ٩. (٢) سورة الاعراف: آية ٢٩.

(٣) سورة القمر: آية ٤٤. (*)

(٣١٢)

عدوكم - التي بينها لكم (فاذكروا الله قياما وقعودا) أي في حال قيامكم وفي حال قعودكم، ومضطجعين على جنوبكم. والجنب: الجانب تقول نزلت جنبه أي جانبه بالتعظيم له والدعاء لانفسكم بالظفر على عدوكم لعل الله أن يظفركم بهم.

وينصركم عليهم. وذلك مثل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) (١). وهو قول ابن عباس وأكثر المفسرين. وقوله: (فاذا اطمأننتم فاقيموا الصلاة " اختلفوا في تأويله، فقال قوم معناه اذا استقررتم في أوطانكم وأقمتم في سفركم وضربكم في الارض. ذهب إليه مجاهد، وقتادة وقال آخرون معناه إذا استقررتم بزوال الخوف من عدوكم، وحدث الامن لكم، فاقيموا الصلاة أي فأنتموا حدودها بركوعها، وسجودها. ذهب اليه السدي، وابن زيد، ومجاهد في رواية أخرى. وهو اختيار الجبائي، والبلخي الطبري. وأقوى التأويلين قول من قال: إذا زال خوفكم من عدوكم، وأمنتم فأنتموا

الصلاة بحدودها غير قاصرين لها عن شئ من حدودها، لانه تعالى عرف عباده الواجب عليهم من فرض صلاتهم بهاتين الآيتين في حالين:
احدهما - حال شدة الخوف أذن لهم فيها بقصر الصلاة على ما بيناه من قصر حدودها، والاقتصار على الايماء.

والثانية - حال غير شدة الخوف امرهم فيها باقامة حدودها وإتمامها على مامضى من معاقبة بعضهم بعضا في الصلاة خلف أئمتها، لانه قال: " وإذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة " فلما قال: " فاذا اطمأننتم فاقموا الصلاة " كان معلوما انه يريد إذا اطمأننتم من الحال التي لم تكونوا فيها مقيمين صلاتكم فاقموا الصلاة بجميع حدودها غير قاصرين لها.
وقال ابن مسعود نزلت الآية في صلاة المرضى. والظاهر بغيره أشبه. وقوله:
(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) اختلفوا في تأويله، فقال قوم:

(١) سورة الانفال: آية ٤٦. (*)

(٣١٣)

معناه ان الصلاة كانت على المؤمنين فريضة مفروضة، ذهب إليه عطية العوفي، وابن عباس، وابن زيد، والسدي، ومجاهد، وهو المروي عن أبي جعفر (ع)
وأبي عبدالله (ع). وقال آخرون: كانت على المؤمنين فرضا واجبا. ذهب اليه الحسن، ومجاهد، في رواية، وابن عباس في رواية وأبو جعفر في رواية أخرى عنه، والمعنيان متقاربان بل هما واحد. وقال آخرون: معناه كانت على المؤمنين كتابا موقوتا يعني منجما يؤديونها في انجمها ذهب اليه ابن مسعود وزيد بن أسلم وقتادة. وهذه الاقوال متقاربة، لان ما كان مفروضا فهو واجب وما كان واجبا ادائه في وقت بعد وقت فمفروض منجم. واختار الجبائي والطبري القول الاخير قال: لان موقوتا مشتق من الوقت فكانه قال: هي عليهم فرض في وقت وجوب أدائها.
قوله تعالى:

(ولاتهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما (١٠٤) - آية بلاخلاف - .
المعنى:

معنى قوله: (ولاتهنوا) لاتضعفوا يقال وهن فلان في الامر يهن وهنا وهونا. وقوله في ابتغاء القوم يعني في طلب القوم. والقوم هم أعداء الله وأعداء المؤمنين من أهل الشرك " إن تكونوا " أيها المؤمنون " تألمون " مما ينالكم من الجراح منهم في الدنيا " فانهم " يعني المشركين "

يألمون " أيضا مما ينالهم منكم من الجراح والاذى مثل ما تألمون انتم من جراحهم واذاهم " وترجون " أنتم أيها المؤمنون " من الله " الظفر عاجلا والثواب آجلا على ماينالكم منهم " مالا يرجون " هم على ما ينالهم منكم يقول: فأنتم إن كنتم مؤمنين من ثواب الله لكم

(٣١٤)

على ما يصيبكم منهم بما هم مكذبون به فأولى وأحرى ان تصبروا على حربهم وقتالهم منهم على قتالكم وحربكم. وهو قول قتادة، والسدي، ومجاهد، والربيع، وابن زيد، وابن عباس، وابن جريج.

النزول: وقال ابن عباس، وعكرمة: الآية نزلت في أهل أحد لما أصاب المسلمين ما أصابهم وصعد النبي (صلى الله عليه وآله) الجبل وجاء أبو سفيان وقال يا محمد (صلى الله عليه وآله) يوم لنا ويوم لكم، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) أجيبوه، فقال المسلمون لاسواء لاسواء قتلانا في الجنة وقتالكم في النار، فقال أبو سفيان عزي لنا ولاعزى لكم، فقال النبي (صلى الله عليه وآله) قولوا: الله مولانا ولامولى لكم. قال أبو سفيان اعل هبل، فقال النبي (صلى الله عليه وآله) قولوا له: الله أعلى وأجل، فقال أبو سفيان موعدنا وموعدكم بدر الصغرى، ونام المسلمون وبهم الكلوم وفيهم نزلت " ان يمسسكم قرح فقد.. " الآية. وفيهم نزلت " إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون " لان الله تعالى أمرهم على ما بهم من الجراح ان يتبعوهم وأراد بذلك ارهاب المشركين فخرجوا إلى بعض الطريق وبلغ المشركين ذلك فاسرعوا حتى دخلوا مكة. المعنى واللغة:

وقال بعضهم معنى " وترجون من الله مالايرجون " أي تخافون من جهته مالا يخافون كما قال: " قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون أيام الله " (١) بمعنى لا يخافون. وقال قوم لايعرف في كلام العرب الرجاء بمعنى الخوف إلا إذا كان في الكلام جحد سابق كما قال: " مالكم لاترجون لله وقارا " (٢) بمعنى لاتخافون لله عظيمة. وقال الشاعر:

(١) سورة الجاثية: آية ١٣. (٢) سورة نوح: آية ١٣. (*)

(٣١٥)

لاترجى حين تلاقي الزائدا * أسبعة لاقت معا أو واحد (١)
وقال أبو ذؤيب الهذلي:
إذا لسعته النحل لم يرج لسعها * وحالفها في بيت نوب عوامل (٢)

قال: الفراء: نوب ونوب، وهو النحل. ولا يجوز أن نقول رجوتك بمعنى خفتك. وانما استعمل الرجاء بمعنى الخوف لان الرجاء أمل قد يخاف ألا يتم. وهي لغة حجازية. قال الكسائي: لم أسمعها إلا بتهامة ويذهبون معناها إلى قولهم: ما أبالي وما أحفل قال الشاعر:

لعمرك ما أرجو إذا كنت مسلما * على أي جنب كان الله مصرعي
أي ما أبالي. وقوله: " كان الله عليما " يعني بمصالح خلقه حكيمًا في تدبيره أياهم وتقديره أحوالهم.

قوله تعالى:

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولاتكن للخائنين خصيما (١٠٥)
واستغفر الله كان غفورا رحيمًا) (١٠٦) - آيتان - .
المعنى:

خاطب الله بهذه الآية نبيه (صلى الله عليه وآله)، فقال: " إنا أنزلنا إليك " يامحمد (صلى الله عليه وآله)

" الكتاب " يعني القرآن " بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله " يعني بما أعلمك الله في كتابه " ولاتكن للخائنين خصيما " نهاه أن يكون لمن خان مسلماً أو معاهداً في نفسه أو ماله خصيماً يخاصم عنه، ويدفع من طالبه عنه بحقه الذي خانه فيه.

ثم أمره بأن يستغفر الله في مخاصمته عن الخائن مال غيره " إن الله كان غفورا

(١) معاني القرآن ١: ٢٨٦ واللسان (رجا). (٢) ديوانه ١٤٣، ومعاني القرآن ١: ٢٨٦، والصاح الجوهري (رجا) ويروى (عوامل). (*)

(٣١٦)

رحيما " يصفح عن ذنوب عباده ويستترها عليهم، ويترك مؤآخذتهم بها. وعندنا أن الخطاب وإن توجه إلى النبي (صلى الله عليه وآله) من حيث خاصم من رآه على ظاهر الايمان والعدالة، وكان في الباطن بخلافه فلم يكن ذلك معصية، لانه (ع) منزّه عن القبائح فانما ذكر على وجه التأديب له في أن لا يبادر فيخاصم ويدفع عن خصم إلا بعد أن يبين الحق منه. والمراد بذلك امته (عليه السلام). على أنا لانعلم أن ماروي في هذا الباب وقع من النبي (صلى الله عليه وآله)، لان طريقه الأحاد، وليس توجه النهي إليه بدال على أنه وقع منه ذلك المنهي قال " لئن أشركت ليحبطن عملك " (١) ولا يدل ذلك على وقوع الشرك منه. وقال قوم من المفسرين: انه لم يخاصم عن الخصم وإنما هم به فعاتبه الله على ذلك.

القصة والنزول:

والآية نزلت في بني أبيرق كانوا ثلاثة أخوة بشر وبشير ومبشر وكان بشر يكنى أبا طعمة فغلبوا على عم قتادة بن النعمان وأخذوا له طعاما وسيفا، ودرعا فشكى ذلك إلى ابن أخيه قتادة وكان قتادة بدرىافجاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فذكر له القصة، وكان معهم في الدار رجل يقال له لبيد بن سهل وكان فقيرا شجاعا مؤمنا، فقال بنو ابيرق لقتادة هذا عمل لبيد بن سهل، فبلغ لبيدا ذلك، فاخذ سيفه وخرج إليهم. وقال يابني ابيرق أترموني بالسرقة وأنتم أولى به مني، وانتم المنافقون تهجون رسول الله وتنسبون إلى قريش لتبنيين ذلك أو لاضعن سيفي فيكم فداروه. وقالوا: ارجع رحمك الله فانك بريء من ذلك. وبلغهم ان قتادة مضى إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فمشوا إلى رجل من رهطهم يقال له أسير بن عروة، وكان منطيقا لسنا فأخبروه، فمشى أسير إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في جماعة، فقال: يا رسول الله (صلى الله عليه وآله) إن قتادة بن النعمان رمى جماعة من أهل الحسب منا بالسرقة واتهمهم بما ليس فيهم وجاء قتادة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فاقبل

(١) سورة الزمر: آية ٦٥. (*)

(٣١٧)

عليه النبي (صلى الله عليه وآله)، وقال عمدت إلى أهل بيت حسب ونسب رميتهم بالسرقة وعاتبه فاغتم قتادة ورجع إلى عمه، فقال: ليتني مت ولم أكن كلمت رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقد قال لي ما كرهت، فقال عمه الله المستعان، فنزلت هذه الآية (ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرمي به بريئا) (١) يعني لبيد بن سهل حين رماه بنو ابيرق بالسرقة " فقد احتمل بهتاننا واثما مبينا " إلى قوله: (وكان فضل الله عليك عظيما) (٢) فبلغ ذلك بني ابيرق فخرجوا من المدينة، ولحقوا بمكة وارتدوا لهم يزلوا بمكة مع قريش فلما فتح مكة هربوا إلى الشام فانزل الله فيهم (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى) (٣) إلى آخر الآيات. ولما مضى إلى مكة نزل على سلامة بنت سعد ابن شهيد امرأة من الانصار كانت ناكحا في بني عبدالدار بمكة فهجاها حسان، فقال:

وقد أنزلته بنت سعد وأصبحت * ينازعها جلد استها وتنازعها

ظننتم بأن يخفي الذي قد صنعت * وفيها نبي عنده الوحي واضعه (٤)

فحملت رحله على رأسها وألقته بالابطح وقالت. ما كنت تأتيني بخير أهديت إلي شعر حسان. ونزل فيه قوله: (ومن يشاقق الرسول) (٥) هذا قول مجاهد، وقتادة بن النعمان، وابن زيد، وعكرمة، إلا أن قتادة، وابن زيد، وعكرمة قالوا: إن بني ابيرق طرحوا ذلك على يهودي يقال له زيد بن السمين، فجاء اليهودي إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبمثله قال ابن عباس.

وقال ابن جريج: هذه الآيات كلها نزلت في أبي طعمة بن أبي ابيرق إلى قوله: (إن الله لا يغفران يشرك به. ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (٦) وقال: رمى بالدرع في دار أبي مليك ابن عبد الله الخزرجي فلما نزل القرآن لحق بقريش، وقال الضحاك: نزلت في

(١، ٢) سورة النساء: آية ١١١.

(٣، ٥) سورة النساء: آية ١١٤.

(٤) ديوانه: ٢٧١.

(٦) سورة النساء: آية ٤٧، ١١٥. (*)

(٣١٨)

رجل من الانصار استودع درعا فجدد صاحبها فخونه رجال من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) فغضب له قوم فاتوا نبي الله، فقالوا: أخونوا صاحباً، وهو أمين مسلم؟ فعذره النبي (صلى الله عليه وآله) وكذب عنه. وهو يرى أنه يرى مكذوب عليه، فانزل الله فيه الآيات. واختار الطبري هذا الوجه وقال: لان الخيانة إنما تكون في الوديعة فأما السارق فلا يسمى خائناً فحملة عليه أولى وكل ذلك جائز.

قوله تعالى:

(ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً) (١٠٧) - آية - .
نهى الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يجادل عن الذين يختانون أنفسهم بمعنى يخونون أنفسهم فيجعلونها خونة بخيانتهم ماخانوا من الاموال. وهم الذين تقدم ذكرهم من بني بيزق فقال: لاتخاصم عنهم فيما خانوا فيه ثم أخبر (إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً) يعني من كان صنعته خيانة الناس في أموالهم (أثيماً) يعني مأثوماً وبمثله قال من تقدم من المفسرين قال قتادة: وفيهم نزلت الآيات إلى قوله:

(ومن يشاقق الرسول).

قوله تعالى:

(يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبببتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما تعملون محيطاً)

(١٠٨) - آية - .

معنى يستخفون يكتُمون فأخبر الله تعالى ان هؤلاء الخائنين يكتُمون خيانتهم من الناس الذين لا يقدرّون لهم على شيء إلا الذكر لهم بقبيح ما أتوه من فعلهم وتشنيع ما ركبوه إذا اطلعوا منهم على ذلك حياء منهم وحذرا من قبح

(٣١٩)

الاحدوثة ولايستخفون من الله الذي هو معهم بمعنى أنه مطلع عليهم لا يخفى عليه شئ من أمرهم وبيده العقاب. والنكال وتعجيل العذاب فهو أحق بأن يستحيا منه وأولى بأن يعظم من أن يراهم حيث يكرهه إذ يبيتون ما لا يرضى من القول معناه حين يسرون ليلا ما لا يرضى من القول فيغيرونه عن وجهه. ويكونون فيه.

والتببيت هوكل كلام أو أمر أصلح ليلا وأصله من فكرهم فيه ليلا. وقال الشاعر:

أتوني فلم أرض ما بيتوا * وكانوا أتوني بشئ نكر (١)

وحكي عن بعض طئ ان التببيت في لغتهم التبديل. وأنشد الاسود بن عامر بن جوين الطائي في معاتبة رجل:

وبيت قولي عبد الملوك * قاتلك الله عبدا كنودا (٢)

يعني بدلت قولي. وروي عن الاعمش عن أبي رزين: ان معنى " يبيتون ما لا يرضى " يؤلفون ما لا يرضى يعني في رمي البرئ بجرم السقيم. والمعنى متقارب، لان التأليف والتشويه والتغيير عما هو عليه وتحويله عن معناه إلى غيره واحد والمعني بالآية الرهط الذين مشوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مسألة المدافعة عن بني ابيرق، والجدال عنه " وكان الله بما تعملون محيطا " يعني يعلم ما يعلمه هؤلاء المستخفون من الناس وتببيتهم ما لا يرضى من القول وغيره من أفعالهم " محيطا " بمعنى عالما محصيا لا يخفى عليه شئ منه حافظا لجميعه ليجازيهم عليه ما يستخفونه قال الزجاج: الذي بيتوه قولهم إن اليهودي سارق الدرع وعزمهم على أن يحلفوا انهم ما سرقوا وان يمينهم تقبل دون يمين اليهودي، لانه مخالف الاسلام. قوله تعالى:

(ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله

(١) مرتخرجه في ٣: ٢٩. ٢. (٢) لم نجده في مصادرنا. (*)

(٣٢٠)

عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا) (١٠٩) - آية بلا خلاف -.

هاأنتم (ها) للتببيه واعيدت مع (أولاء) والمعنى ها أنتم الذين جادلتم، لان (هؤلاء، وهذا) يكون في الاشارة للمخاطبين التي أنفسهم بمنزلة الذين.

وقد يكون لغير المخاطبين بمنزلة الذين، قال يزيد بن مفرغ:

نجوت وهذا تحمليين طليق (١)

أي والذي تحملين طليق. قال الزجاج هؤلاء بمعنى الذين، لان المخاطب المواجه لايجناج إلى الاشارة إلى نفسه. وقال المغربي: هؤلاء كناية عن اللصوص الذين يجادل عنهم. وهو غير أنتم ولذلك حسن التكرير. ومعنى الآية ها أنتم الذين جادلتم. والجدال أشد الخصومة مأخوذ من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله. ورجل مجدول شديد. والاجدل الصقر، لانه أشد الطيور. والمعنى يامعاشر من جادل عن بني أبيرق في الحياة الدنيا. والهاء والميم في عنهم كناية عن الخائنين، فمن يجادل الله عنهم. معناه من ذاياخصم الله عنهم يوم تقوم الساعة يوم يقوم الناس من قبورهم إلى محشرهم فيدافع عنهم ماالله فاعل بهم. والمعنى إنكم إن دافعتم في عاجل الدنيا فانهم سيصيرون في الآخرة إلى من لايدافع عنده عنهم أحد فيما يفعل بهم من العذاب وأليم النكال.

وقوله: (أم من يكون عليهم وكيلا) معناه ومن ذا الذي يكون وكيلا على هؤلاء الخائنين يوم القيامة يتوكل عنهم في خصومة الله عنهم يوم القيامة. وقد بينا أن الوكالة هي القيام بأمر من يوكل له.

(١) قائله يزيد بن مفرغ الحميري. حاشية الصبان ١: ١٦٠ قطر الندى ١٠٦، وأكثر كتب النحو وصدرة: عدس ما لعباد عليك امارة وهو من قصيدة هجا بها عباد بن زياد بن أبي سفيان فسجنه وأطال سجنه فكلم فيه معاوية فوجه بريدا يقال له حمحام فأخرجه وقدمت له فرس (وقيل بغلة) فنفرت فقال: عدس.. الخ وعدس صوت يزجر به البغل. (*)

(٣٢١)

قوله تعالى:

(ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيمًا) (١١٠) - آية - .

المعنى:

المعنى من يعمل ذنبا، وهو السوء، أو يظلم نفسه باكتساب المعاصي التي يستحق بها العقوبة " ثم يستغفر الله " يعني يتوب اليه مما عمل من المعاصي، ويراجعه " يجد الله غفورا رحيمًا " ومعناه يعلمه ساترا عليه ذنبه بصفحه له عن عقوبة جرمه " رحيمًا " به.

واختلفوا فيمن عنى بهذه الآية، فقال قوم: عنى بها الخائنين الذين وصفهم في الآية الالى. وقال آخرون: عنى الذين كانوا يجادلون عن الخائنين. قال لهم: " ها أنتم جادلتم عنهم في الحياة الدنيا ". والاولى حمل الآية على عمومها في كل من عمل سوا او ظلم نفسه، وان كان سبب نزولها فيمن تقدم ذكره من الخائنين أو المجادلين.

وبه قال أكثر المفسرين: الطبري، والبلخي، والجبائي، وابن عباس، وعبدالله ابن معقل، وابووائل، وغيرهم.

قوله تعالى:

(ومن يكسب إثماً فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً) (١١١).

(المعنى -)

المعنى من يأت ذنباً على عمد منه ومعرفة فانما يجترح وبال ذلك الذنب،

(٣٢٢)

وضره وخزيه وعاره على نفسه دون غيره من سائر خلق الله.

والمعنى ولاتجادلوا أيها الناس الذين يجادلون عن هؤلاء الخونة - فانكم وإن كنتم لهم عشيرة وقراة - فيما أتوه من الذنب، ومن التبعة التي يتبعون بها، فانكم متى دافعتم عنهم أو خاصمتهم بسببهم كنتم مثلهم، فلا تدافعوا عنهم ولاتخاصموا

" وكان الله عليماً حليماً " يعني عالماً بما تفعلون أيها المجادلون عن الخائنين أنفسهم، وغير ذلك من أفعالهم وأفعال غيرهم " حكيماً " في أفعاله من سياستكم وتدبيركم، وتدبير جميع خلقه. وقيل: إنها نزلت في أبريق. وفي الآية دلالة على أنه لا يؤخذ أحد بجرم غيره، ولا يعاقب الاولاد بذنوب الآباء على ما يذهب اليه قوم من أهل الحشو. ومثله قوله: " ولاتزر وازرة وزر أخرى " (١). قوله تعالى:

(ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً) (١١٢) - آية بلاخلاف -.

- اللغة، والمعنى -

الخطيئة، والخطي: الاثم العمد، تقول: خطئ يخطأ: إذا تعمد الذنب، وأخطأ يخطأ: إذا لم يتعمد. قال الزجاج: لما سمى الله تعالى المعاصي بانها خطيئة ووصفها دفعة أخرى بانها إثم، فصل بينهما ههنا حتى يدخل الجنسان فيه. وقال غيره: المعنى من يعمل خطيئة، وهي الذنب، أو إثم، وهو ما لا يحل من المعصية، وفرق بين الخطيئة والاثم، لان الخطيئة قد تكون عمداً وغير عمد، والاثم لا يكون إلا عمداً. فبين تعالى أن من يفعل خطيئة على غير عمد منه لها مما يلزمه

(٣٢٣)

فيه الغرامة، وان لم يكن إثم فيه، أو آثما فيه على عمد منه، وهو ما يستحق به العقاب " ثم رمى به بريئا " يعني أضافه إلى من هو بريء منه " فقد احتمل بهتاننا " يعني فقد تحمل بفعله ذلك فرية وكذبا " وإثما مبينا " يعني وجرما عظيما.

والبهتان: الكذب الذي تتحير فيه من عظمه وبيانه. يقال: بهت فلان:

إذا كذب، وبهت يبهت: إذا تحير، قال الله تعالى: " فبهت الذي كفر " (١) وإنما قال " به " وقد ذكر الخطيئة والاثم قال الفراء: لأنه يجوز أن يكنى عن الفعلين أحدهما مؤنث والآخر مذكر بلفظ التذكير والتوحيد ولوكثر لجازت الكناية بالتوحيد، لان (الافاعيل) تقع على فعل واحد، فكذلك جاز، فان شئت جعلتها لواحد، وإن شئت جعلت الهاء للآثم خاصة كما قال: " وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها " (٢) فجعله للتجارة. وفي قراءة عبدالله " وإذا رأوا لهوا أو تجارة " فجعله للتجارة في تقديمها وتأخيرها. ولو ذكر على نية الله لجاز وقد جاء مثني، قال تعالى: " إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما " (٣) وفي قراءة أبي " إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهم ". وفي قراءة عبدالله بن مسعود مثله، لأنه في مذهب الجمع كما يقول: أصبح الناس صائما ومفطرا، فأدى اثنان عن الجمع. وقال الزجاج:

المعنى ثم يرمي بذلك بريئا. قال رؤبة:

فيه خطوط من سواد وبلق * كأنه في الجلد توليع البهق (٤)

أي كأن ذلك. واختلفوا فيمن عنى به بقوله: " بريئا " بعد إجماعهم على أن الرامي ابن أبيرق، فقال قوم: البرئ رجل مسلم يقال له: لبيد بن سهل. وقال آخرون: بل هو رجل يهودي يقال له زيد بن السمين. وقد ذكرناه فيما مضى.

وبالآخر قال ابن سيرين، ورواه أبو الجارود عن أبي جعفر (ع).

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٧. (٢) سورة الجمعة، آية ١١. (٣) سورة النساء، آية ١٣٤. (٤) انظر ١: ٢٩٦. (*)

(٣٢٤)

قوله تعالى:

(ولولا فضل الله ورحمته لهمت عليك طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) (١١٣) - آية -.

معنى الآية لولا أنه تعالى تفضل عليك يا محمد فعصمك بتوفيقه وبيانه لك أمر هذا الخائن حتى كفتت عن الجدل عنه " لهمت طائفة " ومعناه لقد همت فرقة منهم، بتقدير (قد) ذكره الفراء. ويعني بالفرقة التي همت من الخائنين أنفسهم " أن يضلوك " بمعنى يزلوك عن الحق، ويخطئوك. وقيل: يهلكوك بتلبيسهم أمر الخائن عليك وشهادتهم عندك بانه برئ مما ادعي عليه، ثم قال تعالى: " وما يضلون " هؤلاء الذين هموا باضلالك عن الواجب في أمر هذا الخائن " إلا انفسهم ". واضلالهم انفسهم كان بأن الله لما كان قد بين لهم ما ينبغي أن يعملوا عليه من المعاونة على البر والتقوى، والا يتعاونوا على الاثم والعدوان، فلما عدلوا عن ذلك وتعاونوا على الاثم والعدوان، فكانوا بذلك مضلين انفسهم عن طريق الحق. وقوله: " وما يضررونك من شئ " يعني هؤلاء الذين هموا باضلالك، لا يضررونك، لان الله قديمتك ويسددك في أمورك، ويبين لك أمر المحق والمبطل. " وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة " معناه ومن فضل الله عليك يا محمد، ما تفضل به عليك، انزله عليك الكتاب الذي هو القرآن، وفيه تبيان كل شئ وهدى وموعظة وانزل عليك الحكمة مضافة إلى الكتاب، وهي بيان ما ذكره في الكتاب مجملا من أحكام الكتاب: من الحلال والحرام، والامر والنهي " وعلمك

(٣٢٥)

مالم تكن تعلم " من خبر الاولين والآخرين وما كان وما هو كائن. وكل ذلك من فضل الله. وقوله: " وكان فضل الله عليك عظيما " يعني لم يزل فضل الله عليك يا محمد عظيما، فاشكره على ما أولاك من نعمه واحسانه. قال الجبائي: وفي الآية دلالة على ان التسمية بالضلال تسمى اضلالا، لانه لو كان ذلك صحيحا، لكانوا قد اضلوا النبي (صلى الله عليه وآله) حيث نسبوه إلى الضلال وقد نفى الله عنه ذلك. وهذا ليس بصحيح لامرين: أحدهما - انهم ما سموه بهذا الفعل ضالا، وانما قصدوا التمويه، والتلبيس عليه، فلما كشف الله تعالى ذلك بطل غرضهم.

والثاني - ان من قال: إن الضلال يكون بمعنى التسمية لم يقل: إنه لا يكون الا كذلك، لان الاضلال على وجوه مختلفة: بمعنى التسمية، وغير ذلك مما بيناه فيما تقدم. والاضلال يكون بمعنى الدفن قال النابغة:

وآب مضلوه بغير جلية * وغودر بالجولان جرم ونائل (١)

يعني دافنوه.

قوله تعالى:

(لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) (١١٤) - آية بلاخلاف -.

(القراءة والحجة):

قرأ " فسوف يؤتية " - بالياء - ابو عمر، وحمزة، وقتيبة، وخلف.

(١) انظر ١: ١٩٤. (*)

(٣٢٦)

الباقون بالنون من قرأ بالياء حمله على قوله: " ومن يفعل ". ومن قرأ بالنون حمله على المعنى.

أخبر الله تعالى: أنه لاخير في كثير من نجوى الناس جميعا. والنجوى هو ما ينفرد به الاثنان أو الجماعة سرا كان أو جهرا. ويقال: نجوت الشيء: إذا خلصته والقيته. يقال: نجوت الجلد: إذا القيته عن البعير، وغيره قال الشاعر:

فقلت انجوا عنها نجا الجلد إنه * سيرضيكما منها سنام وغاربه (١)

ونجوت فلانا: إذا استنكته قال الشاعر:

نجوت مجالدا فوجدت منه * كريح الكلب مات حديث عهد (٢)

ونجوت الوتر واستنجيته إذا خلصته كما قال الشاعر:

فتبازت فتبازخت لها * جلسة الاعسر يستنجي الوتر (٣)

وأصله كله من النجوة، وهو ما ارتفع من الارض، قال الشاعر يصف سيلا:

فمن بنجوته كمن بعقوته * والمستكن كمن يمشي بقرواح (٤)

ويقول: ما أنجا فلان شيئا ومانجا شيئا منذ أيام إذا لم يتغوط. والتقدير في الآية " لاخير في كثير " مما يديرونه بينهم من الكلام " إلا " كلام " من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس " .

- الاعراب -

قال الزجاج يحتمل موضع من نصبا وأن يكون خفضا، فالخفض على إلا في نجوى من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح. والنصب على أن يكون إستثناء منقطعا بمعنى لكن كأنه قال: لكن من أمر بصدقة أو معروف ففي نجواه خير.

وطعن بعضهم على الوجه الاول بأن قال لايجوز أن يعطف بالاعلى الهاء والميم في مثل هذاالموضع من أجل أنه لم ينله الجحد. وقال الفراء: يحتمل الخفض على

-
- (١) لسان العرب: (نجا) (٢) انظر: ٢١٨، اللسان (بجا)
(٣) اللسان "نجا" ويروى. جلسة الجازر. قاتله عبدالرحمن بن حسان.
(٤) قاتله عبيد بن الابرص. مرفي ١: ٢١٨. اللسان نجا (*).

(٣٢٧)

تقدير لاخيرفي كثير من نجواهم إلا فيمن أمر بصدقة فيكون النجوى على هذا هم الرجال المتناجون كما قال: (مايكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم) (١) وكما قال: " واذهم نجوى " (٢) والنصب على أن يجعل النجوى فعلا فيكون نصبا، لانه حينئذ يكون استثناء منقطعاً، لان (من) خلاف النجوى ومثله قول الشاعر:

وقفت فيها أصيلاً لأسائلها * أعيت جواباً وما بالدار من أحد (٣)
إلا الاواري لا ياما ابينها * والنوي كالحوض بالمظلومة الجلد
ويحتمل وجها ثالثاً أن يكون رفعا كما قال الشاعر:
وبلدة ليس بها أنيس * إلا اليعافير والالعيس (٤)

واقوى الوجوه أن تجعل (من) في موضع خفض بالرد النجوى، ويكون بمعنى المتناجين، خرج مخرج السكرى والجرحى، ويكون التقدير لاخير في كثير من نجواهم يعني من المتناجين يامحمد إلا فيمن أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس، فان أولئك فيهم الخير.

وقوله: " ومن يفعل ذلك " اشارة إلى ماتقدم من الامر بالصدقة والمعروف والاصلاح بين الناس ابتغاء مرضاة الله يعني طلب مرضاة الله ونصب ابتغاء على أنه مفعول له وتقديره لا ابتغاء مرضاة الله، وهو في معنى المصدر، لان التقدير ومن يتبع ذلك ابتغاء مرضاة الله، وقوله: " فسوف نؤتيه اجرا عظيماً " يعني ثواباً جزيلاً في المستقبل.

قوله تعالى

" ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم

-
- (١) سورة المجادلة، آية / ٧ (٢) سورة الاسرى، آية ٤٧.
(٣) أنظر ١: ٤٤ (وأصيلاً) فيها روايتان أخريان: أصيلاً وأصيلاكي. والبيتان للنايعة من معلقته المشهورة. (٤)
أنظر ١: ١٥١ ومعاني الفراء ١: ٢٨٨. (*).

(٣٢٨)

وساعت مصبراً " (١١٥) آية بلاخلاف.

المعنى:

معنى يشاقق الرسول يباين الرسول معاديا له، فيفارقه على العداوة، لان المشاققة هي المباينة على وجه العداوة، من بعد ما تبين له الهدى " معناه من بعد ما تبين له وظهر أنه رسول الله، وأن ما جاء به من عند الله حق، وهدى موصل إلى الصراط المستقيم بمامعه من الآيات والمعجزات مثل القرآن وغيره. وقوله:

" ويتبع غير سبيل المؤمنين " معناه ويتبع غير سبيل من صدقه وسلك منهاجا غير منهاجهم " نوله ما تولى " معناه نجعل ناصره ما استنصره واستعان به من الاوثان والاصنام وهي لا تغنيه ولا تدفع عنه من عذاب الله شيئا " ونصله جهنم " أي ونجعله صلى نار جهنم معناه نحرقه بها وقد بينا معنى الصلى فيما تقدم " وساءت مصيرا " يعني موضعا يصير إليه من صار اليه.

- القراءة -

وقرأ ابو عمرو وحزمة وابوبكر الالبرجمي، والداجوى عن هشام، وابوجعفر من طريق النهرواني قوله " ونصله، ونوده " " ولا يؤده " حيث وقع بسكون الهاء فيهن، قال الزجاج يقول في ذلك كسر الهاء، واثبات الياء وضم الهاء، واشباعها بالواو وبكسر الهاء بلاياء. ولا يجوز اسكان الهاء بلاكسر، لان الهاء من حقها أن تكون معها ياء فحذف الياء. واثبات الياء وضم الهاء ضعيف، ولا يجوز حذف الياء إلا اذا كان هناك كسرة يدل عليها النزول والمعنى. ونزلت هذه الآية في الخائنين الذين ذكرهم الله في قوله:

" ولاتكن للخائنين خصيما " لما أبى التوبة أبو طعمة بن الالبيرق ولحق بالمشركين من عبدة الاوثان بمكة مرتدا مفارقا رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو قول مجاهد وقتادة، وأكثر المفسرين. وهو المروي عن أبي جعفر (عليه السلام).

وقد استدل خلق من المتكلمين، والفقهاء بهذه الآية على أن الاجماع حجة،

(٣٢٩)

بأن قالوا: توعد الله على اتباع غير سبيل المؤمنين كما توعد على مشاققة الرسول (صلى الله عليه وآله) فلولا أن اتباعهم واجب لم يجز ذلك، وهذا ليس بصحيح من وجوه:

أحدها - أن الآية نزلت في من تقدم ذكره وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فيجب أن يتناوله ويتناول كل من يجري مجراه من المرتدين ومخالفى الاسلام.

والثاني - أن من أصحابنا من قال: لانسلم أنه أزد ب (من) في هذه الآية الاستغراق، ولابلظة (سبيل) جميع السبل، ولا ب (المؤمنين) جميع المؤمنين، فمن أين لهم وجوب الاستغراق. وإذا احتل التخصيص، جاز لنا أن نحمل على سبيل الايمان الذي من خالفه كان

كافرا، أو المؤمنين أراد به الأئمة المعصومين، ولو جاز حملها على العموم، لوجب حملها على أهل جميع الاعصار على وجه الجمع دون أهل كل عصر، لان العموم يقتضي ذلك، فاذا خصوا بأهل كل عصر، خصصنا ببعض أهل العصر على أنه إنما حرم اتباع غير سبيل المؤمنين، فمن أين وجوب اتباع سبيلهم، ولم لا يجوز أن يكون اتباع غير سبيلهم محصورا. واتباع سبيلهم موقوفا على الدليل، ويجوز أن يكون أيضا محظورا مثله أو مباحا أو مندوبا، فمن أين الوجوب مع احتمال جميع ذلك على أنه لو سلم جميع ذلك، لكان يجب علينا اتباع إذا كانوا مؤمنين، لانه هكذا أوجب، فمن أين انهم لا يخرجون عن كونهم مؤمنين. ووجوب الاتباع تابع لكونهم مؤمنين، فيحتاجون إلى دليل آخر في أنهم لا يخرجون عن كونهم مؤمنين غير الآية على أن ظاهر الآية يتضمن أن من شاق الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين يتناولوه الوعيد، فمن أين أنه إذا انفرد احدهما عن الآخر يتناولوه الوعيد. ونحن إنما نعلم تتناول الوعيد على مشاققة الرسول (صلى الله عليه وآله) بانفرادها بدليل غير الآية، فعلى من خالف أن يقول: إن اتباع غير سبيل المؤمنين يتناولوه الوعيد بدليل غير الآية. وقد استوفينا ما في هذه الآية في أصول الفقه، وغيره من كتبنا مشروحا لانطول بذكره ها هنا.

(٣٣٠)

قوله تعالى:

(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) (١١٦) آية بلاخلاف اخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغفر الشرك، وأنه يغفر ما دونه، وقد بينا الاستدلال بذلك على ما نذهب اليه من جواز العفو عن مرتكبي الكبائر من أهل الصلاة، وإن لم يتوبوا فما مضى، فلأوجه لاعادته وقيل أنه عنى بهذه الآية أباطعة الخائن حين أشرك ومات على شركه بالله، غير أن الآية وإن نزلت بسببه، فعندنا وعند جميع الاممة أن الله لا يغفر لمن أشرك به بالتوبة: لتناول العموم لهم، فان قيل: فعلى هذا من لم يشرك بالله بان لا يعبد معه سواه، وإن كان كافرا بالنبي (صلى الله عليه وآله) من اليهود النصارى ينبغى أن يكون داخلا تحت المشيئة، لانه مما دون الشرك ! قلنا: ليس الامر على ذلك لان كل كافر مشرك، لانه إذا جحد نبوة النبي اعتقد أن ما ظهر على يده من المعجزات - ليست من فعل الله، ونسبها إلى غيره، وان الذي صدقه بها ليس هو الله، ويكون ذلك اشراكا معه على أن الله تعالى أخبر عنهم بأنهم قالوا:

- يعني النصارى - " المسيح ابن الله، وقالت اليهود عزيز بن الله " (١) وذلك هو الشرك بالله تعالى على أنه لو لم يكونوا داخلين في الشرك لخصصناهم من جملة من تناولتهم المشيئة لاجماع الامة على أن الله تعالى لا يغفر الكفر على وجه الابتوبة.

وقوله: " ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا " يعني من يجعل في عبادته مع الله شريكا، فقد ذهب عن طريق الحق وزال عن قصد السبيل ذهابا بعيدا، لانه باشراكه مع الله في عبادته فقد أطاع الشيطان، وسلك طريقه وترك طاعة ربه.

سورة التوبة، آية ٣١. (*)

(٣٣١)

قوله تعالى:

(إن يدعون من دونه إلا إناثاوان يدعون الا شيطانا مريدا) (١١٧) آية - اختلفوا في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال:

فقال أبومالك، والسدي، وابن زيد، والزجاج: ان المراد بذلك ألهمهم، واللات، والعزى، ومنات، وساف، ونائله سماهن إناثا بتسمية المشركين اياها باسماء الاناث.

الثاني - قال ابن عباس، وقتادة، والحسن: معناه ان يدعون من دونه الا اناثا يقول ميتا ليس فيه روح، قال الحسن: الاناث كل شئ ميت ليس فيه روح، مثل خشبة يابسة أو حجر يابس. وقال الزجاج لان الموات يخبر عنها بلفظ التأنيث كما يعبر عن المؤنث تقول: الاحجار تعجبني ولاتقول يعجبوني.

الثالث - قال الحسن في رواية أخرى: إن أهل الاوثان كانوا يسمون أوثانهم أناثا، وكان لكل حي صنم يسمونها أنثى.

الرابع - قال مجاهد: الاناث هي الاوثان. وروي عن عروة عن أبيه أن في مصحف عائشة الأوثان وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأها إلا وثنا جمع وثن كأنه جمع وثنا، وثنا، ثم قلب الواو همزة مضمومة مثل وجوه وأوجه وقتت واقتت، وقرأ بعضهم أنثا جمع أناث مثل ثمار وثمر والقراءة المشهورة أناثا، وعليه القراء من أهل الامصار.

الخامس - قال الحسين بن علي المغربي: إلا اناثا معناه ضعافا عاجزين لاقدرة لهم يقولون: سيف أنيث ومينائة بالهاء وميناث أي غير قاطع. قال صخر الغي:

فتخبره بأن العقل عندي * جراز لأفل ولأنيث

وأنت في أمره: اذالان، وضعف والانيث المخنث، وقال الكميت:

وشذبت عنهم شوك كل قتادة * بفارس يخشاها الانيث المغمز

(٣٣٢)

قال الازهري: والاناث الموات. وقوله: (وان يدعون الا شيطانا مريدا)

المعنى إن هؤلاء الذين يعبدون غير الله ليس يعبدون الا الجمادات، والا الشيطان المرید وهو المتمرد على الله في خلافه فيما أمر به ونهى عنه وهو ابليس، وبه قال قتادة واكثر المفسرين " ويدعون " معناه يعبدون، لانهم، إذا دعوا الله مخلصين، فقد عبدوه، ومثله قوله: " ادعوني استجب لكم " (١) اي اعبدوني بدلالة قوله:

" ان الذين يستكبرون عن عبادتي " (١) قال الزجاج: المرید هو الخارج عن الطاعة يقال حائظ ممرد أي مملس وشجرة مرداء إذا تناثر ورقها ومنه سمي أمرد ومن لالحية له أي أملس موضع اللحية، ويقال مرد الرجل يمرد مرودا ومرادة: إذا عتا وخرج عن الطاعة. قوله تعالى:

(لعنه الله وقال لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا) (١١٨) آية.

معنى لعنه الله ابعده الله من ثوابه، واخزاه واقصاه والهاه في (لعنه) الله كناية عن الشيطان والتقدير، وان يدعون إلا شيطانا مریدا قد لعنه الله وابعده من كل خير.

وقوله: " وقال لاتخذن " يعني بذلك ان الشيطان المرید قال لربه (عزوجل)

اذ لعنه: لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا يعني قسما معلوما وبه قال الضحاك. واتخاذ الشيطان النصيب من عباد الله يكون باغوائه اياهم عن قصد السبيل، ودعائه اياهم إلى طاعته، وتزيينه لهم الضلال والكفر، فمن أجاب دعاءه واتبعه، فهو من نصيبه المعلوم، وحظه المقسوم، وانما اخبر بذلك ليعلم الذين شاقوا الرسول من بعد ما تبين له الهدى انهم من نصيب الشيطان الذي لعنه الله. والمفروض: الموقت. والمعنى هاهنا

(١) سورة المؤمن، آية ٦٠. (*)

(٣٣٣)

ما افترضه عليهم من طاعتي والفرض: القطع والفريضة التلثة تكون في النهر والفريضة: كل ما أمر الله به والزمه وقوله: " وقد فرضتم لهن فريضة " (١) أي قطعة من المال وفرضت للرجل: إذا جعلت له قطعة من مال الفئ والفرض النمر قال الشاعر:

إذا اكلت سمكا وفرضا * ذهب طولا وذهبت عرضا (٢)

وإنما سمي النمر فرضا لانه يؤخذ في فرائض الصدقة يقال: سقاها بالفراض والفرض والفرض الحز يكون في المسواك يشد فيه الخيط، والفرض في القوس: الحز يشد فيه الوتر. قوله تعالى:

(ولا ضلنهم ولا مئنينهم ولا مرنهم فليبتكن اذان الانعام ولا مرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا (١١٩) يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الاغورا (١٢٠) أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا (١٢١) ثلاث آيات.

- المعنى -

قوله: " ولا ضلنهم " إخبار عن الشيطان المرید الذي وصف صفته في الآية الأولى انه قال لربه: " لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا. ولا ضلنهم " ومعناه ولا صدن النصيب المفروض الذي اتخذه من عبادك عن محجة الهدى إلى الضلال ومن الاسلام إلى الكفر " ولا مئنينهم " ومعناه أو همهم انهم ينالون في الآخرة حظا لا يزيغهم بما أجعل في أنفسهم من الاماني عن طاعتك وتوحيدك إلى طاعتي والشرك بي " ولا مرنهم فليبتكن اذان الانعام " يعني لامرن النصيب المفروض من

(١) سورة البقرة، آية ٢٧٧. (٢) لسان العرب (فرض). (*)

(٣٣٤)

عبادك بعبادة غيرك من الانداد والاثوان ينسكوا له ويحرموا يخللوا ويشرعوا غير الذي شرعه الله لهم فيتبعوني ويخالفوك.

- اللغة -

والتبتيك: القطع تقول بئكت الشيء ابتكته تبتيكاً: إذا قطعته. وبتكته وبتك مثل قطعه وقطع وسيف باتك: قاطع والمراد في هذا الموضع قطع اذن البحيرة، ليعلم انها بحيرة. واران الشيطان بذلك دعاءهم إلى البحيرة فيستجيبون له، ويعملون بها طاعة له. قال قتادة: البتك قطع اذان البحيرة والسائبة لطواغيتهم وقال السدي:

كانوا يشقونها. وبه قال عكرمة وقوله: " ولا مرنهم فليغيرن خلق الله " اختلفوا في معناه فقال ابن عباس، والربيع بن انس عن انس: انه الاخضاء وكرهوا الاخضاء في البهائم وبه قال سفيان، وشهر بن حوشب، وعكرمة وابوصالح وفي رواية أخرى عن ابن عباس فليغيرن دين الله وبه قال إبراهيم ومجاهد وروي ذلك عن ابي جعفر وابي عبدالله (عليهم السلام) قال مجاهد: كذب العبد يعني عكرمة في قوله: إنه الاخضاء وإنما هو تغيير دين الله الذي فطر الناس عليه في قوله:

" فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم " (١) وهو قول قتادة، والحسن والسدي، والضحاك، وابن زيد. وقال قوم: هو الوشم. روي ذلك عن الحسن والضحاك

وابراهيم ايضا وعبدالله. وقال عبدالله: لعن الله الواشمات والمونتشمات والمتفلجات المغيرات خلق الله وقال الزجاج: خلق الله تعالى الانعام ليأكلوها، فحرموها على انفسهم وخلق الشمس والقمر والحجارة مسخرة للناس ينتفعون بها، فعبدها (٢) المشركون وأقوى الاقوال من قال: فليغيرن خلق الله بمعنى دين الله بدلالة قوله: " فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم " ويدخل في ذلك جميع ماقاله المفسرون، لانه إذا كان ذلك خلاف الدين فالآية تتناوله، ثم اخبر تعالى عن حال نصيب الشيطان المفروض الذين شاقوا

(١) سورة الروم: آية ٣. (٢) في الاصل (فعبدوها) (*)

(٣٣٥)

" الله ورسوله من بعد ما تبين له الهدى " (١) فقال ومن يتبع الشيطان فيطيعه في معصية الله وخلاف امره " فقد خسر خسرا مبينا " معناه هلك هلاكاً ظاهراً، وبخس نفسه حظها خسرا مبينا عن عطيه وهلاكه، لان الشيطان لايملك له نصيرا من الله إذا أراد عقابه، ثم اخبر تعالى الشيطان أنه يعد من يتبعه ويمنيهم فيعدهم النصر ممن ارادهم، ويمنيهم الظفر على من أرادهم بمكره، ثم قال تعالى:

" ومايعدهم الشيطان إلا غرورا " يعني باطلا وسماء غرورا، لانهم كانوا يظنون أن ذلك حق، فلما بان لهم انه باطل، كان غرورا وقوله: " اولئك ماواهم جهنم " إشارة إلى هؤلاء الذين اتخذوا الشيطان وليا من دون الله مأواهم يعني مصيرهم الذين يصيرهم اليه جهنم ولايجدون عنها محيصا يعني لايجدون عنها معدلا إذا حصلوا فيها.

— اللغة -: يقول حاص فلان عن هذا الامر يحيص حيصا وحوصا: اذا عدل عنه ومنه حديث ابن عمر) (بعثارسول الله (صلى الله عليه وآله) سرية، كنت فيهم فلقينا المشركون فحصنا حيصة) وقال بعضهم: فجاضوا جوضة وهما بمعنى واحد، غير انه لايقراً لإبالصاد والحاء وحصت احوص حوصا وحياصا إذا خطت يقال حص عين صقرك، اي خط عينه والحوص في العين مؤخرها. والحوص غورها.

قوله تعالى:

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن اصدق من الله قيلا) (١٢٢).

(١) سورة النساء آية: ١١٤. (*)

(٣٣٦)

آية - لما ذكر الله تعالى حكم من يشاقق الرسول، ويتبع غير سبيل المؤمنين، وذكر ان من يشرك به لا يغفر له وبين حكم من يتبع الشيطان ويكون من نصيبه، ذكر في هذه الآية حكم من يؤمن به ويوحده، ويقر بنبيه ويصدقه ويضيف إلى ذلك عمل الصالحات، وانه سيدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار ثوابا على اعمالهم، وجزاء إيمانهم، ويخلدهم فيها " وخالدين " نصب على الحال والمعنى ان هذه الحال ستدوم لهم، وتتأبد، وان ذلك وعد حق من الله لهم وقوله: " ومن اصدق من الله قيلا " صورته صورة الاستفهام والمراد به التقرير والانكار والمعنى لأحد اصدق من الله قيلا أي قولا ووعدا، لانه لا يجوز عليه خلف الميعاد ولا الاخلال بما يجب عليه من الثواب. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

قوله تعالى: (ليس بامانيكم ولااماني اهل الكتاب من يعمل سوء يجز به ولايجد له من دون الله وليا ولا نصيرا) (١٢٣). آية المعنى:

في (ليس) ضمير والتقدير ليس الثواب بامانيكم، ولاأماني أهل الكتاب والاماني يخفف ويتقل فيقال باماني واماني على وزن افاعيل وفعالل كقراير وقراقر.

واختلفوا في من عنى بهذه الآية فقال مسروق تفاخر المسلمون، وأهل الكتاب، فقال المسلمون نحن اهدى منكم. وقال أهل الكتاب: نحن اهدى منكم. فانزل الله تعالى: " ليس بامانيكم ولاأماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجزبه " فقال أهل الكتاب نحن وأنتم سواء فانزل الله تعالى " ومن يعمل من الصالحات من ذكر وانثى وهو مؤمن " (١) ففلح المسلمون. ذهب إلى ذلك قتادة والسدي، والضحاك وابو

(١) في المطبوعة (ففتح). (*)

(٣٣٧)

صالح. وقال مجاهد معناه ليس بامانيكم يعني أهل الشرك من قريش، لانهم قالوا: لانبعث ولانعذب، ولااماني أهل الكتاب انهم خير من المسلمين، ولايدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ذهب اليه ابن زيد وهذا الوجه أقوى لانه لم يجر لاماني المسلمين ذكر وقد جرى ذكر اماني الكفار في قوله: " ولامنينهم " يعني الذي يتخذهم الشيطان نصيبا مفروضا " ويقوي ذلك أن الله تعالى قد وعد المؤمنين بقوله: " والذين آمنوا وعملوا الصالحات " بادخال الجنة والخلود فيها.

وتلك غاية أماني المسلمين، فكيف ينفي بعد ذلك امانيهم؟.

وقوله: " ومن يعمل سوء يجزبه " اختلفوا في تأويله فقال قوم: إنه يريد بذلك جميع المعاصي صغائرهما وكبائرها وإن من ارتكب شيئا منها، فان الله يجازيه عليها. اما في الدنيا أو في

الآخرة ذهب اليه قتادة وعائشة، ومجاهد. وقال آخرون: من يعمل سوء من أهل الكتاب، نجزيه ذهب اليه، الحسن. قال:

كقوله: " وهل نجزي الالكفور " (١) وبه قال ابن زيد والضحاك وهو الذي يليق بمذهبننا، لانا نقطع على ان الكفار لا يغفر لهم على حال والمسلمون يجوز أن يغفر لهم ما يستحقونه من العقاب، فلا يمكننا القطع على أنه لابد أن يجازي بكل سوء. وقال قوم: معنى السوء هاهنا الشرك فمعنى الآية من يعمل الشرك يجزبه (٢)

ذهب اليه ابن عباس وسعيد بن جبير. وروى أبوهريرة انه لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين، فشكلوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال (صلى الله عليه وآله): فادفعوا وتشددوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها او الشوكة يشاكها. وقيل لبعض الصحابة: أليس بمرض، ليست تصيب اللاواء؟. قال: بلى فهو ما تجزون به.

وقوله: " ولاتجد له من دون الله وليا ولا نصيرا " معناه ولا يجد الذي يعمل سوء من معاصي الله، وخلاف امره وليا يلي أمره وينصره ويحامي عنه، ويدفع عنه ما ينزل به من عقوبة الله، " ولانصيرا " يعني ناصرا ينصره مما يحل به من عقاب الله، واليم عذابه. واستدل المعترلة على المنع من غفران معاصي أهل

(١) سورة سبأ، آية ١٧ (٢) في المطبوعة (ينجزبه). (*)

(٣٣٨)

الصلاة بهذه الآية. قالوا: لانه تعالى بين أنه يجازي على كل سيئة، وذلك يمنع من جواز العفو قلنا: قد تكلمنا على نظير ذلك فيما مضى بما يمكن اعتماده هاهنا منها انا لانسلم انها تستغرق جميع من فعل السوء، بل في أهل التأويل من قال: المراد به الشرك. وهو ابن عباس وقد قدمناه، ثم لاخلاف ان الآية مخصوصة، لان التائب ومن كانت معصيته صغيرة، لا يتناولها العموم، فاذا جاز لهم تخصيص الفريقين، جاز لنا أن نخص من يتفضل الله عليه بالعفو. وهذا واضح وقد بينا الجواب عما يزداد على ذلك من الاسئلة بما فيه كفاية فيما مضى وفي كتاب شرح الجمل، لانطول بذكره هاهنا. قوله تعالى:

(ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) (١٢٤) آية.

— القراءة —

قرأين كثير وابوعمر، وابوبكر، الالكسائي وابوجعفر وروم

" يدخلون " بضم الياء وفتح الخاء هاهنا وفي مريم والمؤمن. وافقه رويس الافي هذه السورة.

- المعنى -

وعد الله تعالى بهذه الآية جميع المكلفين من الذكور والاناث إذا عملوا الاعمال الصالحات، وهم مؤمنون مقرون بتوحيد الله وعدله، مصدقون بنبيه (صلى الله عليه وآله)، عاملون لما اتى به بأنه يدخلهم الجنة وينيبهم فيها، ولا يبخسهم شيئاً مما يستحقونه من الثواب، وان كان مقدار نقير في الصغر، وهي النقطة التي في ظهر النواة، وقيل منها تنبت النخلة.

(٣٣٩)

ومن ضم الياء وفتح الخاء، فلانه قال: " ولا يظلمون " فضم الياء، ليزدوج الكلام، ولانهم لا يدخلونها حتى يدخلوها. ومن فتح الياء، فلانهم إذا ادخلوا الجنة، فقد دخلوها. فان قيل ظاهر الآية يقتضي انه لا يثيب الا من آمن وعمل الصالحات فمن انفرد بالايمان، لا يستحق الثواب، وكذلك من فعل بعض الصالحات قلنا: ظاهر العموم مخصوص بلاخلاف لانه لو آمن بالله واليوم الآخر واحترم عقبيه، لاخلاف انه يدخل الجنة، فكذلك إذا اخل ببعض الصالحات أو ارتكب معصية، فانا نعلم دخوله الجنة بدليل آخر على أن (من) في قوله: " من الصالحات " يقتضي انه لو فعل بعض الصالحات لادخل الجنة، لانها للتبعيض. وانما تقتضي الاستغراق إذا حملت على ان معناها بيان الصفة، فاذا احتمل الظاهر ما قلناه، سقطت المعارضة فاما من قال: ان (من) زائدة فلا يعول على قوله، لانه إذا امكن حمل الكلام على فائدة، لم يجز أن يحمل على الزيادة. وبما قلناه في معنى النقير، قال مجاهد وعطية والسدي وغيرهم. قوله تعالى:

(ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً واتخذ الله ابراهيم خليلاً) (١٢٥) آية:

قضى الله تعالى في هذه الآية للاسلام بالفضل على سائر الملل بقوله: ومن أحسن ديناً ايها الناس وهو في صورة الاستفهام. والمراد به التقرير. والمعنى من احسن ديناً وأصوب طريقاً، واهدى سبيلاً ممن اسلم وجهه الله يعني استسلم وجهه لله. والوجه يراد به هاهنا نفسه وذاته كما قال: " كل شئ هالك الاوجهه " (١) فانقاده بالطاعة ولنبيه (صلى الله عليه وآله) بالتصديق " وهو محسن " بمعنى وهو فاعل للفعل الحسن مما امره الله به " واتبع ملة ابراهيم حنيفاً " يعني واتبع الذي كان عليه (ابراهيم)،

(٣٤٠)

وامر به نبيه من بعده، وأوصاهم به من الإقرار بتوحيده، توعده وتزيهه عماليليق به " حنيفا " يعني مستقيما على منهاجه وسبيله. وقد بينا فيما مضى معنى الحنيف، فلافائدة في إعادته، وبمثل ذلك قال الضحاك، وغيره من المفسرين.

وقوله: " واتخذالله ابراهيم خليلا " ومعنى الخليل يحتمل أمرين:

احدهما - المحبة، مشتقا من الخلطة بضم الخاء والمعنى اتخذ الله ابراهيم محبا وتكون خلطة ابراهيم: موالاته لاولياء الله ومعاداته لاعدائه. وخلطة الله له نصرته على من اراده بسوء مثل ما اراد نمرود من احراقه بالنار، فانقذه الله منها، وأعلى حجته عليه. وكما فعل بملك مصر حين راوده عن اهله، وجعله اماما لمن بعده من عباده، وقدوة لهم.

والثاني - ان يكون ذلك مشتقا من الخلطة التي هي الفقر بفتح الخاء - كما قال زهير يمدح هرم بن سنان:

وان أتاه خليل يوم مسألة * يقول لاغائب مالي ولاحرم (١)

ويروى يوم مسغبة وهو الاظهر وانما انشد البلخي يوم مسألة، وهو بخلاف الروايات. وقال آخر:

واني وان لم تسعفاني بحاجة * إلى آل ليلى مرة لخليلي (٢)

أي لمحتاج. وقيل: انه أصاب أهل ناحية ابراهيم (ع) جذب، فارتحل إلى خليل له من أهل مصر يلتمس طعاما لاهله من قبله، فلم يصب عنده حاجته، فلما قرب من أهله مريمفازة ذات رمل لينة فملا غرائره (٣) من ذلك الرمل لئلا يغم أهله برجوعه بغير ميرة (٤)، فيظنوا ان معه طعاما فحول الله تعالى غرائره دقيقا، فلما وصل إلى اهله قام أهله، ففتحو الغرائر فوجدوا دقيقا، فعجنوا منه، فخبزوا فاستيقظ

(١) اللسان: (حرم) و (واخل). رفع (يقول) مع انه جواب الحزاء، لى التقديم كأنه قال: ان اتاه خليل. أجاز ذلك سيبويه.

(٢) لم أجد البيت في مصادرنا.

(٣) الغرائر جمع غرارة - بكسر الغين - وهي الجوالق التي يوضع فيها الدخن والقمح.

(٤) الميرة الطعام أو جلبه. (*)

(٣٤١)

ابراهيم فسألهم من اين خبزوا؟ فقالوا من الدقيق الذي جئت به من عند خليلك (١) المصري فقال: لابل من عند خليلي الله (عزوجل) فسماه الله خليليا. فهذا ما روي وهو من آيات الانبياء (صلى الله عليه وآله) فاما الاشتقاق فالخلطة بضم الخاء: الصداقة.

والخلة بفتح الخاء: الحاجة، للاختلال الذي يلحق الفقير فيما يحتاج اليه. والخلة بمعنى الصداقة، فلان كل واحد منهما يسد خلل صاحبه في المودة، والحاجة. وقيل: لانه يطلعه على اسراره فكانه في خلل قلبه والخلل: كل فرجه تقع في شئ والخلال: هو ما يتخلل به لانه يتبع به الخلل بين الاسنان.

قال الشاعر:

ونظرن من خلل الستور باعين * مرضى مخالطها السقام صحاح
يعني نظرن من الفرج التي في الستور وقولهم: لك خلة من خلال. تأويله إني أخلّي لك من رأيي، او مما عندي عن خلة من خلال ومعنى أخلّي أخلل. فابدل من إحدى اللامين ياء. ويجوز أن يكون أخلّي من الخلوة، والخلوة والخلل يرجعان إلى معنى واحد. والخل: الطريق في الرمل إذا انفرجت منه فرجة فصارت طريقا.

والخل ما يؤكل معروف. واختار الفراء والبلخي أن يكون من الخلة التي هي الفقر قال: ويخالف المحبة، لان المحبة من الله لعبده هي الثناء عليه ومدحه له، ولانه يحب الانسان ما ليس من جنسه، ولا يخاف إلاماهو من جنسه. وعلى ما بيناه، لا يمنع ذلك وإن كان فيه بعض التجوز. وقال الازهري: الخليل الذي خص بالمحبة يقال: دعا فلان فخلل أي خص. واختار الجبائي هذا الوجه وقال: كل نبي فهو خليل الله، لانه خصه بما لم يخص به غيره والخلة: الخصلة، وجمعها خلال. وانما خص الله تعالى ابراهيم فأنه خليله من الفقر، وان كان الخلق كلهم فقراء إلى رحمته تشريفا له بالنسبة اليه واختصاصه به من حيث انه فقير اليه لايرجو لسدخلته سواه.

وخص ابراهيم من بين سائر الانبياء بانه خليل الله على المعنيين، كما خص موسى بانه كليم الله ومحمد (صلى الله عليه وآله) بانه حبيب الله، وعيسى بانه روح الله ولايلزم على ذلك

(١) في المطبوعة (خليك) (*)

(٣٤٢)

تسمية عيسى بانه ابن الله، لان هذه اللفظة لاتستعمل حقيقتها إلا في من خلق من مائه أو ولد على فراشه، ومجازها في من يجوز ذلك فيه. ولذلك لايجوز أن يتخذ الشاب شيئا ابنا، وان جاز ان يتبنى بصبي، ولايجوز ان يتخذ البهيمة ابنا، لما لم يجز ان تكون مخلوقة من مائه على وجه.

والحنيفية التي امرالله نبيه بأن يتبع ابراهيم فيها عشرة اشياء: خمسة في الرأس وخمسة في الجسد. فالتى في الرأس: المضمضة. والاستنشاق، والسواك، وقص الشارب، والفرق لمن

يكون طويل الشعر، والتي في الجسد: فالاستتجاء، والختان، وحلق العانة، ومنتف الابط وقص الاظفار وجميع ذلك مستحب الا الختان والاستتجاء، فانهما واجبان. وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف. وقال الجبائي كلما كان تعبد الله به ابراهيم، فانه تعبد به النبي (صلى الله عليه وآله) وأمتة وزاده اشياء لم يتعبد بها ابراهيم (ع) وعموم الآية يقتضي ماقاله، وإن كان ذلك شرعا لنبينا من حيث اعلمه الله ذلك، وتعبد به بوحى من جهته.
قوله تعالى:

(و الله ما في السماوات وما في الارض وكان الله بكل شئ محيطا) (١٢٦). آية لما ذكر الله تعالى انه اتخذ ابراهيم خليلا لطاعته ربه واخلاصه له العبادة، ومسارعة إلى رضاه، بين ذلك بفضل له لامن حاجة إلى خلته فقال: وكيف يحتاج إلى خلته من له مافى السماوات والارض من قليل وكثير ملكا، ومع ذلك مستغن عن جميع خلقه. وجميع الخلق يحتاجون اليه فكيف يحتاج إلى خلة ابراهيم، لكنه اتخذ خليلا لمسارعة إلى رضاه وامتناله ما يأمره به.
" وكان الله بكل شئ محيطا " يعني لم يزل الله عالما بجميع ما فعل عباده ان كان محسنا اثاره، وان كان مسيئا عاقبه ان شاء.

(٣٤٣)

قوله تعالى:

(ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن ومايتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لاتؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تتكوهن والمستضعفين من الولدان وان تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما) (١٢٧) آية بلاخلاف.
— المعنى — يسألك يا محمد، اصحابك ان تفتيهم في امر النساء، والواجب لهن وعليهن واكتفى بذكر النساء من ذكر شأنهن لدلالة الكلام على المراد " قل الله يفتيكم فيهن " يعني قل يا محمد، انه يفتيكم فيهن يعني في النساء ومايتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لاتؤتونهن ما كتب لهن.

— الاعراب —

واختلفوا في اعراب (ما يتلى). قال الزجاج والفراء معا: يحتمل ان يكون موضع (ما) رفعا والتقدير في قول الزجاج، والذي يتلى عليكم في الكتاب أيضا يفتيكم فيه. وقال الفراء تقديره الله يوصيكم فيهن وما يتلى عليكم. وقال جميعا يجوز ان يكون موضع (ما) خفضا بالعطف على فيهن إلا ان الزجاج ضعف هذا وقال:

هذا بعيد لان عطف المظهر على المضممر لايجوز. وقال الفراء: يجوز على تقدير فيهن وما يتلى عليكم.

واختلفوا في تأويل " وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لاتؤتونهن ما كتب لهن " فقال قوم: الذي يتلى عليكم هو آيات الفرائض التي في أول السورة. روى ذلك سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان اهل الجاهلية

(٣٤٤)

لايورثون المولود حتى يكبر، ولايورثون المرأة، فانزل الله آية الميراث أول السورة، وهو معنى " اللاتي لاتؤتونهن ما كتب لهن ". وبه قال مجاهد: وروي ذلك عن ابي جعفر (ع). وقال قوم: كان الرجل تكون في حجره اليتيمة بها ذمامة، ولها مال، فكان يرغب عنها ان يتزوجها ويحبسها لما لها طمعا أن تموت فيرثها، فنزلت الآية. ذهب اليه عائشة، وقيادة والسدي وابومالك وابراهيم قال السدي: كان جابر بن عبدالله الانصاري ثم السلمي له بنت عم عمياء ذميمة قد ورثت عن أبيها مالا، فكان جابر يرغب عن نكاحها، ولاينكحها مخافة ان يذهب الروح بما لها فسأل النبي (صلى الله عليه وآله) عن ذلك وقال: اترث إذا كانت عمياء؟ فقال (صلى الله عليه وآله): نعم فانزل الله فيه هذه الآية. وقال قوم: معناه يفتيكم فيهن وفيما يتلى عليكم في آخر السورة من قوله: " يستفتونك قل الله يفتيكم " في الكلاله ذهب اليه ابن جبير وقالت عائشة: كان الرجل تكون في حجره اليتيمة تشاركه في ماله فيعجبه ماله وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها، فنهى الله عن ذلك في قوله: " وإن خفتم الاتقسطوا في اليتامى فانكحوا " من غيرهن " ما طاب لكم " قالت: وقوله " وما يتلى عليكم " هو ما ذكره في أول السورة من قوله: " وإن خفتم الاتقسطوا ". فعلى هذه الأقوال (ما) في موضع خفض بالعطف على الهاء والنون في قوله: " فيهن " والتقدير قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم، وعلى ما قال الفراء: قل الله يفتيكم فيهن ما يتلى عليكم في الكتاب وقال آخرون: نزلت الآية في قوم من اصحابه (صلى الله عليه وآله) سألوه عن أشياء من أمر النساء، وتركوا المسألة عن أشياء أخر كانوا يفعلونها، فافتاهم الله فيما سألوه عنه، وفيما تركوا المسألة عنه ذهب اليه محمد بن أبي موسى. ويكون معنى قوله: وما يتلى عليكم في الآية التي بعدها وقيل: هم اليتامى الصغار من الذكور والاناث. وما بعدها قوله: " وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا " والذي سألوا عنه، فاجيبوا ما كتب الله لهن من الميراث في آية الميراث. واختار الطبري أن يكون المراد به آيات الفرائض قال: لان الصداق ليس مما كتب الله للنساء الا بالنكاح، فما لم تنكح فلا صداق

لها عند احد.

وقوله: " والمستضعفين من ولدان " في موضع جر وتقديره وفي المستضعفين من ولدان. وقيل هم اليتامى الصغار من من الذكور والاناث، لانهم كانوا لا يورثون الصغار من الذكور حتى يبلغ.

" وان تقوموا لليتامى " والمعنى وفي ان تقوموا لليتامى بالقسط على ما قاله في قوله: " وان خفتم ان لا تقسطوا في اليتامى ": فامرهم أن يؤتوا المستضعفين من ولدان حقوقهم من الميراث، ويعدلوا فيهم، ويعطونهم ما فرضه الله لهم في كتابه. وبه قال السدي، وابن زيد، ومجاهد، وابن عباس.

وقوله: " وترغبون ان تتكوهن " معناه ترغبون عن أن تتكوهن.

وقال الحسن في قوله: " والمستضعفين من ولدان " قال: يعني في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن أي الا يأكلوا اموالهم إلا بالقسط، يعني بالعدل. وقال عبيدة السلماني فيما رواه ابن سيرين عنه ان معنى " وترغبون ان تتكوهن " ترغبون فيهن. وفي رواية ابن عون عن ابن شيرين يرغبون عنهن. وقال الحسن: يرغبون عنهن وكان عبيدة بن حرض يقول: يا محمد أتعطي الوالدان المال؟ وانما يأخذ المال من يقاتل ويجوز الغنيمة، فنزل قوله: " والمستضعفين من ولدان ".

وقوله: " وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما " المعنى مهما فعلتم، أيها المؤمنون من عدل في أمر اليتامى التي أمركم الله أن تقوموا، فيهن بالقسط، وأنتهيتم فيه إلى أمره وإلى طاعته، فان الله كان به عالما لم يزل وقيل معانين الله سيجازيكم عليه كما يقول القائل أنا أعرف لك ما تفعله بمعنى اجازيك عليه.

قوله تعالى:

(وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا والصلح خير واحضرت الانفس

الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيراً) (١٢٨) آية.

— القراءة والحجة —

قرأ أهل الكوفة ان يصلحا بضم الياء وكسر اللام وبسكون الصاد. الباؤون يصلحا بتشديد الصاد فمن شدد الصاد، قال معناه يتصالحا ويكون قوله: (صلحا)

اسما لامصدرا ومن قرأ بخلافه قال: هو مصدر.

— المعنى —

يقول الله تعالى: " وان امرأة خافت " ومعناه علمت " من بعلمها "، أي زوجها " نشوزا " يعني استعلاء بنفسه عنها إلى غيرها. وارتفاعا بها عنها: إما لبغضه، وإما لكراهة منه شيئا منها إما ذمامتها، وإماسنها وكبرها، أو غير ذلك

" او اعراضا " يعني انصرفا بوجهه او ببعض منافعه التي كانت لها منه " فلاجناح عليهما " أي لاحرج عليهما ان يصلحا بينهما صلحا بان تترك المرأة له يومها، او تضع عنه بعض ما يجب لها. من نفقة او كسوة، وغير ذلك تستعطفه بذلك، وتستديم المقام في حباله، والتمسك بالعقد الذي بينهما وبينه من النكاح، ثم قال:

" والصلح " بترك بعض الحق استدامة للخدمة، وتمسكا بعقد النكاح خير من طلب الفرقة، وقال بعضهم: الصلح خير من النشوز، والاعراض والاول أشبه. هذا إذا كان بطيبة من نفسها، فان لم يكن كذلك، فلا يجوز له الا ما يسوغ في الشرع من القيام بالكسوة والنفقة، والقسمة والإطلاق. وبهذه الجملة قال علي (عليه السلام)، وعمر وابن عباس، وسعد بن جبير وعائشة وعبيدة السلماني، وابراهيم والحكم وقتادة، ومجاهد وعامر الشعبي والسدي، وابن زيد قال ابن عباس: خشيت سودة بنت زمعة ان يطلقها رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقالت لا تطلقني واجلسني مع نسائك ولا تقسم لي، فنزلت " وان امرأة خافت من بعلمها نشوزا او اعراضا " وقال سعيد بن المسيب عن سليمان بن يسار. ان رافع بن خديج كانت تحته امرأة قد علا من سنها، قال

(٣٤٧)

أبوجعفر (ع) هي بنت محمد بن مسلمة، فتزوج عليها شابة فآثر الشابة عليها، فابت الاولى أن تقر على ذلك، فطلقها تطليقة حتى إذا بقي من أجلها يسيرا قال: إن شئت راجعتك وصبرت على الاثرة، وان شئت تركتك حتى يخلو أجلك، ثم طلقها الثانية، وفعل فيها ما فعل اولاً، قالت: بل راجعني واصبر على الاثرة، فراجعها. فذلك الصلح الذي بلغنا ان الله أنزل فيه " وان امرأة خافت. الآية ".

وقوله: " واحضرت الانفس الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيراً " واختلفوا في تأويله فقال بعضهم واحضرت الانفس النساء الشح على انصباهن من انفس ازواجهن واموالهم وإيامهن منهم. ذهب اليه ابن عباس وسعد بن جبير وعطاء، وابن جريج والسدي. ويزعم انها في سورة بنت زمعة، ورسول الله (صلى الله عليه وآله) لانها كانت كبرت، فاراد

رسول الله (صلى الله عليه وآله) ان يطلقها، فاصطلحا على ان يمسكها ويجعل يومها لعائشة، فشحت بمكانها من رسول الله (صلى الله عليه وآله). وقال آخرون: واحضرت انفس كل واحد من الرجل والمرأة الشح بحقه قبل صاحبه.

وهو اعم فيكون شح المرأة بترك حقها من النفقة والقسمة وغير ذلك وشح الرجل إنفاقه على التي لايريدها، وبذلك قال ابن وهب، وابن زيد. والشح: افراط في الحرص على الشئ ويكون بالمال وبغيره من الاعراض يقال: هو شحيح بمودتك اي حريص على دوامها ولايقال في ذلك بخيل والبخل يكون بالمال خاصة.

قال الشاعر:

لقد كنت في قوم عليك اشحة * بفقدك إلا ان من طاح طائح
يودون لوخطوا عليك جلودهم * وهل يدفع الموت النفوس الشحائح (١)
فان قيل: قوله: " وإن امرأة خافت " ليس فيه ان الرجل نشز على امرأة والخوف ليس معه يقين قلنا: عنه جوابان:
احدهما - إن الخوف في الآية بمعنى العلم وتقديره، وإن امرأة علمت.

(١) مجمع البيان ٢: ١١٩ - طبع صيدا - العقد الفريد ٣: ٢٤٧ - ٢٤٨. (*)

(٣٤٨)

والثاني - انها لاتخاف النشوز من الرجل إلا وقد بدأ منه ما يدل على النشوز والاعراض من أمارات ذلك ودلائله. وقوله: " وإن امرأة خافت " ارتفعت المرأة بفعل مضمر دل عليه ما بعد الاسم، وتقديره وإن خافت امرأة خافت والتفرقة بين ان التي للجزء (١) والفعل الماضي قال الزجاج هو جيد، ولايجوز ذلك في الفعل المستقبل.

لاتقول: ان امرأة تخف، (ان) لاتفصل بينهما وبين ما يجزم ويجوز ذلك في ضرورة الشعر قال الشاعر:

فمتى واغل بينهم يحيوه * ويعطف عليه كاس الساقى (٢)

وانما جاز في الماضي مع الاختيار، لان (ان) غير عاملة في لفظه وان لم تكن من (٣) حروف الجزاء، فجاز أن يفرق بينهما وبين الفعل، وغير ان يقبح فيه الفصل مع الماضي والمستقبل لاتقول: متى زيد جاءنى اكرمته، ويجوز ان تقول: إن الله أمكنني فعلت.

وقوله: " وان تحسنوا " خطاب للرجال يعني ان تفعلوا الجميل بالصبر على من تكرهون من النساء، وتتقوا من الجور عليهن في النفقة والعشرة بالمعروف، فان الله عالم بذلك. وكان عالما بما تعملون فيما قبل فيجازيكم على ذلك.

قوله تعالى:

(ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان عفورا رحيمًا) (١٢٩) آية بلاخلاف.

(١) في المطبوعة (التي الجزاء). (٢) لسان العرب: (وغل) ومجمع البيان ٢: ١١٩ الواغل: الداخلة على القوم في طعامهم - وقيل: في شراهم - دون أن يدعو أو نفق معهم: وفي رواية أخرى: وتعطف على كف الساقى.
(٣) في المطبوعة (وان أم حروف الجزاء).

(٣٤٩)

المعنى:

نفى الله تعالى في هذه الآية ان يقدر احد من عباده على التسوية بين النساء والازواج في حبهن والميل إليهن حتى لا يكون ميله إلى واحدة منهن الامثل ما يميل إلى الاخرى. لان ذلك تابع لما فيه من الشهوة، وميل الطبع. وذلك من فعل الله تعالى، ولاصنع للخلق فيه، وان حرص على ذلك كل الحرص. وليس يريد بذلك نفي القدرة على التسوية بينهن في النفقة، والكسوة والقسمة، لانه لو كان كذلك لما امر الله تعالى بالتسوية في جميع ذلك، لانه تعالى لا يكلف العبد ما لا يطيقه. كما قال: " لا يكلف الله نفسا الا وسعها " (١) وقال: " لا يكلف الله نفسا الا ما اتاها " (٢) ولا تجوز المناقضة في كلامه تعالى. ولو حملنا على انه نفى الاستطاعة في التسوية بينهن في النفقة، جاز أن يكون المراد به ان ذلك لا يخف عليكم بل يثقل ويشق عليكم تسويتهم، لميلكم إلى بعضهن، فاباح الله تعالى حينئذ ورخص ان يفضل بعضهن على بعض في مازاد على الواجب من القسمة والنفقة، ولا يؤاخذ بذلك.

وقوله: " فلا تميلوا كل الميل " معناه فلا تعدلوا باهوائكم عن من لم تملكوا محبته منهن كل الميل حتى يحملكم ذلك على ان تجوروا على صواحبها في ترك اداء الواجب لهن عليكم من حق القسمة، والنفقة والكسوة، والعشرة بالمعروف،

" فتذروها كالمعلقة "، يعني تذورا التي لاتميلون اليها كالمعلقة يعني كالتى هي لاذات زوج، ولاهي ايم. وبه قال مجاهد وعبيدة، والحسن وابن عباس، وقتادة وابن زيد والضحاك وسفيان، والطبري والجبائي والبلخي وغيرهم. وهو المروي عن ابي جعفر (عليه السلام) وابى عبد الله (عليه السلام). وروى ابو ملكية أن الآية نزلت في عائشة وروى ابو قلابة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) انه كان يقسم بين نساءه ويقول: اللهم هذه قسمتي في ما املك فلا تلمنى فيما تملك، ولا املك وقوله:

" وان تصلحوا " يعني في القسمة بين الازواج والتسوية بينهن في النفقة،

(١) سورة البقرة، آية ٢٨٦. (٢) سورة الطلاق، آية ٧. (*)

(٣٥٠)

والكسوة والعشرة بالمعروف، وتتركوا الميل (١) الذي نهاكم الله عنه، من تفضيل واحدة على الأخرى في ذلك، " فان الله كان عفورا رحيمًا " تستر عليكم ما مضى منكم من الحيف في ذلك إذا تبتم، ورجعتم إلى الاستقامة والتسوية بينهن، ويرحمكم بترك المؤاخذة على ذلك، وكذلك كان يفعل فيما مضى مع غيركم يعني في قبول التوبة من (٢) كل تائب مقلع نادم على ما فرط وروي عن علي (عليه السلام)

انه كان له امرأتان، فكان إذا كان يوم واحدة لا يتوضأ في بيت الأخرى.

وروي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن ابائه (عليهم السلام) ان النبي (صلى الله عليه وآله) كان يقسم بين نسائه في مرضه، فيطاف — به — (٣) بينهن، وكان معاذ بن جبل له امرأتان ماتتافي الطاعون أقرع بينهما إيهما تدفن قبل الأخرى؟.

قوله تعالى:

(وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما) (١٣٠) آية.

— المعنى —

إن الزوجين اللذين تقدم ذكرهما، متى أبى كل واحد منها مصالحة الآخر فإن تطالب المرأة بنصيبها من القسمة والنفقة والكسوة ويمتنع الزوج من اجابتها التي ذلك، لميله إلى الأخرى ومحبتة لها، أو لصغر سنها أو جمالها ويتفرقا حينئذ بالطلاق، فان الله يغني كل واحد منهما من سعته يعني من فضله ورزقه

" وكان الله واسعا حكيما " يعني كان لم يزل هكذا واسع الفضل على عباده، رحيمًا بهم في ما يدبرهم به وفي الآية دليل على ان الارزاق كلها بيد الله وهو الذي يتولاها

(١) المطبوعة (وكل) (٢) من ساقطة المطبوعة (٣). (به) ساقطة من المطبوعة والتصحيح عن مجمع البيان والسياق يقتضي ذلك أيضا. (*)

(٣٥١)

لعباده وإن كان ربما أجراها على يدي من يشاء من عباده وقال ابن عباس: " كلامن سعته " يعني من رزقة وهذه الجملة بها قال مجاهد وجميع المفسرين.
قوله تعالى:

(ولله ما في السموات وما في الارض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم ان اتقوا الله وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الارض وكان الله غنيا حميدا (١٣١) والله ما في السموات وما في الارض وكفى بالله وكيفا (١٣٢) ان يشأ يذهبكم ايها الناس ويأت باخرين وكان الله على ذلك قديرا (١٣٣)
من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والاخرة وكان الله سميعا بصيرا) (١٣٤) اربع آيات.

لما ذكر الله قوله: وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته بين في هذه الآية بان له ملك ما في السموات وما في الارض، لا يتعذر عليه إغناء كل واحد من الزوجين عند التفرق، وإيناسه من وحشته ثم رجع إلى توبيخ من سعى في أمر بني أبيرق وتعنيفهم، ووعد من فعل فعل المرتد منهم، فقال: ولقد وصينا أهل التوراة والانجيل وهم الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أي وأمرناكم أيضا أيها الخلق " ان اتقوا الله " والتقدير بان اتقوا الله وأحذروا أن تعصوه، وتخالفوا أمره ونهيه " وإن تكفروا " يعني تجحدوا وصيته إياكم أيها المؤمنون، فتخالفوها، " فان لله ما في السموات وما في الارض " يعني له ملك ما فيهما، فلا يستحضر بخلافكم وصيته ولان تكونوا أمثال اليهود والنصارى، بل تضرون انفسكم بما يحل بكم من عقابه، وغضبه " وكان الله غنيا " لم يزل، غير محتاج إلى خلقه وإن الخلق

(٣٥٢)

هم المحتاجون إليه " حميدا " يعني مستوجب الحمد عليكم بصنائه الحميدة إليكم، والائه الجميلة، فاستدعوا ذلك باتقاء معاصيه، والمسارعة إلى طاعته فيما يأمركم به وهذه الجملة مروية عن علي (عليه السلام) وهو قول جميع المفسرين، ثم قال:
" والله ما في السموات وما في الارض " بمعنى له ملك ما فيهما، وهو القيم بجميعه والحافظ له لا يغرب عنه علم شئ ولا يؤوده حفظه وتدبيره " وكفى بالله وكيفا " يعني كفى الله حافظا. فان قيل لم كرر قوله: " والله ما في السموات وما في الارض " الآيتين، احدهما عقيب الاخرى؟ قلنا: لاختلاف الخبرين: الاول في الآية الاولى عن حاجة الخلق إلى بارئه، وغناه تعالى عن خلقه، وفي الثانية حفظ الله تعالى إياهم وعلمه بهم، وتدبيره لهم فان قيل: هلا قال: وكان الله غنيا حميدا أو كفى به وكيفا؟ قيل: ما ذكره في الآية الاولى يصلح ان يختم به وصف الله تعالى بالغناء وأنه محمود، ولم يذكر فيها ما يقتضي وصفه بالحفظ والتدبير، فلذلك كرر قوله: " والله ما في السموات " .

وقوله: " ان يشأ يذهبكم " معناه، ان يشأ الله ايها الناس ان يهلككم، ويفنيكم ويأت بقوم آخرين غيركم ينصرون نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) ويؤازرونه، كان الله تعالى على ذلك قديرا،

فويخ تعالى بهذه الآيات الخائنين الذين خانوا الدرع (١) وساعدوهم على ذلك، ودافعوا عنهم وحذر أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) أن يكونوا مثلهم وان يفعلوا فعل المرتد منهم في ارتداده ولحاقه بالمشركين وبين أن من فعل ذلك لا يضر إلا نفسه، لأنه المحتاج إليه (تعالى) وغناه عنه (عزوجل) وعن جميع الخلق وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه لما نزلت هذه الآية ضرب بيده علي ظهر سلمان، فقال: هم قوم هذا رواه ابوهريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله)، ثم أخبر (تعالى) من كان ممن أظهر الايمان بمحمد (صلى الله عليه وآله) من أهل النفاق الذين يبطنون الكفر، ويظهرون الايمان. يريد ثواب الدنيا يعني عرض الدنيا باظهاره بلسانه في الايمان، " فعندالله ثواب الدنيا " يعني جزاؤه في الدنيا منها، وثوابه فيها هو ما يأخذ من الفئ والغنيمة إذا شهد مع

(١) - انظر تفسير آية (١٠٥) من سورة النساء. (*)

(٣٥٣)

المسلمين الحرب، وأمنه على نفسه وماله وذريته. وأما ثوابه في الآخرة فنار جهنم. " وكان الله سميعا بصيرا " يعني انه كان لم يزل على صفة يجب ان يسمع المسموعات إذا وجدت، ويبصر المبصرات إذا وجدت. وهذه الصفة هي كونه حيا لآفة فيه والصفة حاصلة له في الازل والافات مستحيلة عليه، فوجب وصفه بانه سميع بصير وانما ذكر هاهنا ذلك، ليبين ان مايقوله المنافقون اذالقوا المؤمنين فان الله يسمعه ويعلمه وهو قولهم: إنا مؤمنون بصيرابما يضمرونه وينطون عليه من النفاق. وموضع كان في قوله: " من كان " جزم، لانه شرط والجواب الفاء. وارتفعت (يريد) لانه ليس فيها حرف عطف كما قال: " من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها " (١) وقال: " من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها " (٢) جزم، لانه جواب الشرط. قوله تعالى:

(ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والاقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلووا او ترضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا) (١٣٥) آية.

— القراءة والحجة —

قرأين عامر وحمزه (وإن تلووا) بضم اللام، بعدها واو واحدة ساكنة.

الباقون يسكنون اللام بوابين بعدها أولهما مضمومة. حجة من قرأواوا واحدة أن قال: إن ولاية الشئ اقبال عليه وخلاف الاعراض عنه. والمعنى ان تقبلوا أو تعرضوا فإن الله بما تعملون خبيراً فيجازي المحسن المقبل باحسانه، والمسيء المعرض

(١) سورة هود، آية ١٠. (٢) سورة الشورى، آية ٢٠. (*)

(٣٥٤)

باعراضه وتركه الاقبال على مايلزمه ان يقبل عليه قال: ولو قرأت بالواوين، لكان فيه تكرار، لان اللي كالأعراض الأتري ان قوله: " لووا رؤسهم ورايتهم يصدون " (١) معناه أعراض منهم، وترك الانقياد للحق ومثله " ليا بالسنتهم " (٢) معناه أنحرف وأخذ فيما لاينبغي ان يأخذوا به. وحجة من قرأ بالواوين من لووا ان تقول لايمتتع ان تتكرر اللفظتان المختلفتان بمعنى واحد على وجه التأكيد، كقوله: " فسجد الملائكة كلهم اجمعون " وكقول الشاعر:

وهنداتي من دونها * النأي والبعد (٣)

وقول آخر:

والفي قولها كذبا ومينا وقالوا: أيضا يجوز ان يكون تلوا كان أصله تلواوا، وان الواو التي هي عين همزت لانضمامها، كما همزت في قوله: (أدروا) والقيت حركة الهمزة على اللام التي هي فاء، فصار تلوا اجاز ذلك الزجاج والفراء وأبو علي الفارسي.

(المعنى واللغة)

ومعنى الآية ان الله تعالى لما حكى عن الذين سعوا إلى رسول الله في امر بني أبيرق وقيامهم لهم بالعدو، وذبحهم عنهم من حيث كانوا أهل فقر وفاقة، أمر الله المؤمنين ان يكونوا " قوامين بالقسط " يعني بالعدل والقسط، والاقساط: العدل يقال: أقسط الرجل إقساطا إذا عدل وأتى بالقسط وقسط ويقسط قسوطا: إذا أجاز وقسط البعير يقسط قسطا إذا يبست يده ويد قسط، أي يابسة " شهد الله " وهو جمع شهيد ونصب شهداء على الحال من الضمير في قوله: (قوامين) وهو ضمير الذين آمنوا وقوله: " ولو على انفسكم " يعني ولو كانت شهادتك على انفسكم أو على والديكم أو على أقرب الناس اليكم، فقوموا فيها بالقسط والعدل، وأقيموا على صحتها، وقولوا فيها الحق، ولاتميلوا فيها لغنى غني، ولافقر فقير، فتجوروا، فان الله قد سوى بين الغني والفقير فيما ألزمكم من أقامه الشهادة لكل واحد منهما بالعدل، وهو

(١) سورة المنافقون آية ٥. (٢) سورة النساء، آية ٤٥.

(٣) قائله الحطيئة صدر البيت: الاحبذا هند وأرض بها هند (*)

(٣٥٥)

تعالى أولى بهما وأحق، لانه مالكهما والههما دونكم وهو علم بما فيه مصلحة كل واحد منهما في ذلك، وفي ذلك، وفي غيره من الامور كلها منكم، فلا تتبعوا الهوى في الميل في شهادتكم إذا قمتم بها لغني وفقير إلى احدهما، فتعدلوا عن الحق أي تجوزوا عنه وتضلوا ولكن قوموا بالقسط، وأدوا الشهادة على ما امركم الله عزوجل بادائها بالعدل لمن شهدتم عليه وله، فان قيل كيف تكون شهادة الانسان على نفسه حتى يامر الله تعالى بذلك، قلنا: بان يكون عليه حق لغيره، فيقر له ولايجده، فادب الله تعالى المؤمنين ان يفعلوا ما فعله الذين عذروا بني أبيرق في سرقتهم ما سرقوا، وخيانتهم ما خانوا وازافتهم ذلك إلى غيرهم فهذا اختيار الطبري. وقال السدي: انها نزلت في النبي (صلى الله عليه وآله) وقد اختصم اليه رجلان غني وفقير، فكان ضلعه (١) مع الفقير، لظنه أن الفقير لا يظلم الغني، فابى الله تعالى إلا القيام بالقسط في أمر الغني والفقير قال: " ان تكن غنيا او فقيرا فانه أولى بهما " وهذا الوجه فيه بعد، لانه لايجوز على النبي (صلى الله عليه وآله) في الحكم ان يميل إلى احد الخصمين سواء كان غنيا أو فقيرا فان ذلك ينافي عصمته وقال ابن عباس: أمرالله سبحانه المؤمنين أن يقولوا الحق ولو على انفسهم، او ابنائهم، ولايجابوا غنيا لغناه، ولامسكينا لمسكنته وهذا هو الاولى، لانه أليق بالظاهر من غير عدول عنه.

وفي الآية دلالة على جواز شهادة الوالد لولده والولد لوالده، وكل ذي قرابة لمن يقرب منه، فقال ابن شهاب: كان سلف المسلمين على ذلك حتى دخل الناس فيما بعدتهم، وظهرت فيهم امور حملت الولاية على اتهامهم، فتركت شهادة من يتم إذا كان من اقربائهم وجاز ذلك من الولد والوالد والاخ والزوج والمرأة وبمعنى قول ابن عباس، قال قتادة، وابن زيد. وقوله: " فالله أولى بهما " إنما ثنى، ولم يقل به لانه أراد " فالله أولى بغناء الغني وفقير الفقير) لان ذلك منه تعالى وقال قوم: لم يقصد غنيا بعينه، ولافقيرا بعينه

(٣٥٦)

وهومجهول وما ذلك حكمه جاز الرد عليه التوحيد والتنثية والجميع. وفي قراءة ابي " فالله أولى بهم " وقال قوم: (او) بمعنى الواو في هذا الموضع، فلذلك ثنى وقال آخرون: جاز تنثية قوله " بهما "، لانهما قدذكرا، كما قيل: وله اخ أو أخت فلكل واحد منهما وقيل جاز ذلك، لانه أضر فيه (من) كانه قال: وله أخ او أخت إن يكون من خاصم غنيا او فقيرا، بمعنى غنيين أو فقيرين " فالله أولى بهما ".
وقوله: " فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا " يحتمل ثلاثة اوجه:

أحدها - لا تتبعوا الهوى في ان تعدلوا عن الحق، فتجوروا بترك إقامة الشهادة بالحق.
والثاني - ان يكون التقدير لا تتبعوا أهواء انفسكم هرباً من ان تعدلوا في إقامة الشهادة.
والثالث - فلا تتبعوا الهوى، لتعدلوا، كما يقال: لا تتبع هواك لترضي ربك، بمعنى انهاك عنه
كيما ترضى ربك بتركه. ذكره الفراء والزجاج.
وقوله: " وإن تلووا أو تعرضوا " اختلفوا في تأويله فقال قوم: معناه وان تلووا ايها الحكام في
الحكم لاحد الخصمين على الآخر، او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً وحملوا الآية
على انها نزلت في الحكام ذهب اليه السدي على ما قال:
إنها نزلت في النبي (صلى الله عليه وآله) وروي عن ابن عباس انه قال: هما الرجلان يجلسان
بين يدي القاضي، فيكون لي القاضي واعراضه لآحدهما على الآخر وقال اخرون:
معناه وان تلووا ايها الشهداء في شهادتكم، فتحرفوها، فلا تقيموها أو تعرضوا عنها، فتركوها
ذهب اليه ابن عباس ومجاهد وقال مجاهد: معنى تلووا تبدلوا الشهادة أو تعرضوا أي تكتموها
وهو قول ابي جعفر (ع) وبه قال ابن زيد والضحاك وأولى التأويلين قول من قال: إنه لي
الشهادة لمن شهد له أو عليه بان يحرفها بلسانه أو يتركها، فلا يقيمها، ليبطل بذلك شهادته
وأعراضه عنها فلو ترك اقامتها فلا يشهد بها. وسياق الآية يدل على ما قال ابن عباس وقوله:
" فان الله كان بما تعملون خبيراً " معناه انه كان عالماً بها يكون منهم من اقامة الشهادة،
وتحريفها والاعراض عنها، واللي

(٣٥٧)

هو المطل لما يجب من الحق قال الاعشى:

يلويني ديني النهار واقتضي * ديني إذا رقد النعاس الرقدا (١)

قوله تعالى:

(يا ايها الذين آمنوا امنوا بالله ورسوله والكتاب الذي انزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته
وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً) (١٣٦) آية.

(القراءة والحجة -)

قرأ ابن كثير وأبو عمر وابن عامر والكسائي عن أبي بكر " الكتاب الذي نزل والكتاب الذي
أنزل " بضم النون، والهمزة وكسر الزاء الباقيون بفتحهما، فمن فتحهما حمله على قوله: " أنا
نحن نزلنا الذكر " وقوله: " وانزلنا اليك الذكر " ومن ضمها حملها على قوله: " ولنبين للناس
ما نزل اليهم " وقوله: " يعلمون انه منزل " وكل جيد سايع.

قبل في تأويل أمر من آمن - آمن يؤمن - بالله ورسوله ثلاثة اقوال:

أحدها - وهو المعتمد عليه عندنا واللايق بمذهبنا ان المعنى يأيها الذين آمنوا في الظاهر بالاقرار بالله ورسوله، وصدقوهما، آمنوا بالله ورسوله في الباطن، ليطابق باطنكم ظاهرهم ويكون الخطاب خاصا بالمنافقين الذين كانوا يظهرون خلاف ما يبطنون. والكتاب الذي نزل على رسوله هو القرآن امرهم بالتصديق به والكتاب الذي انزل من قبل، يعنى التوراة والانجيل امرهم بالتصديق بهما، وانهما من عند الله.

والثاني - ما اختاره الجبائي والزجاج والبلخي ان يكون ذلك خطابا لجميع المؤمنين

(١) ديوانه من قصيدة قالها لكسرى حين اراد منهم رهائن لما أغار الحارث بن وعله على بعض السواد ورقمها: ٣٤. يلويني: يملطني. (*)

(٣٥٨)

الذين هم مؤمنون على الحقيقة ظاهرا او باطنا أمرهم الله تعالى أن يؤمنوا به في المستقبل بان يستديموا الايمان، ولا ينتقلوا عنه، لان الايمان الذي هو التصديق لا يبقى وانما يستمر بان يجده الانسان حالا بعد حال وهذا أيضا وجه جيد.

الثالث - ما اختاره الطبري من ان ذلك خطاب لاهل الكتاب اليهود والنصارى امرهم الله (تعالى) بان يؤمنوا بالنبى (صلى الله عليه وآله)، والكتاب الذي أنزل عليه كما آمنوا بما معهم من الكتب: التوراة والانجيل ويكون قوله: " والكتاب الذي نزل من قبل " اشارة إلى مامعهم من الانجيل والتوراة ويكون وجه أمرهم بالتصديق لهما وان كانوا مصدقين بهما، لاحد امرين:

أحدهما - ان التوراة والانجيل اذا كان فيهما صفات النبى (صلى الله عليه وآله)، وما ينبئ عن صدق قوله وصحة نبوته فمن لم يصدق النبى (صلى الله عليه وآله)، ولم يصدق الكتاب الذي أنزل معه، لا يكون مصدقا بما معه، لان في تكذيبه، تكذيب مامعه من التوراة والانجيل، فيجب عليه أن يصدق النبى (صلى الله عليه وآله) ويقر بما انزل عليه، ليكون مصدقا بما معه، ومعترفا به. والثاني - أن يكون متوجها إلى اليهود الذين آمنوا بالتوراة دون الانجيل والقران، فيكون الله أمرهم بالاقرار بمحمد (صلى الله عليه وآله) وبما انزل من قبل يعنى الانجيل. وذلك لا يصح الا بالاقرار بعبسى (عليه السلام) أيضا وانه نبى من قبل الله وقوله: " ومن يكفر بالله وملئكته وكتبه ورسله واليوم الآخر " معناه ان من كفر بمحمد (صلى الله عليه وآله) فيجدد نبوته ويجحد ما انزله الله عليه، فكانه جحد جميع ذلك، لانه لا يصح ايمان احد من الخلق الا بالايمان بما امره الله بالايمان به، والكفر بشئ منه كفر بجميعه خطابا لاهل الكتاب وامره اياهم بالايمان بمحمد (صلى الله عليه وآله) تهديدا لهم، وان كانوا مقرين بوحدانية الله تعالى والملائكة والكتب والرسول، واليوم الآخر سوى محمد (صلى الله عليه وآله) وما جاء به من القران فبين لهم ان من جحد

محمدًا بنبوته لاينفعه الايمان بشئ سواه، ويكون وجوده وعدمه سواء وقوله: " فقد ضل ضلالا بعيدا " معناه فقد ذهب عن قصد السبيل وجاز

(٣٥٩)

عن محجة الطريق ألى المهالك ضلالا ذهابا، وجورا بعيدا.
قوله تعالى:

(ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولاليهوديهم سبيلا)
(١٣٧) آية واحدة.

(المعنى -: قيل في المعني بهذه الآية ثلاثة اقوال) (الاول - قال قتادة عنى بذلك الذين امنوا بموسى، ثم كفروا بان عبدوا العجل، ثم آمنوا يعني النصارى)بعيسى، ثم كفروا به، ثم ازدادوا كفرا بنبوته محمد (صلى الله عليه وآله) وقال الزجاج والفراء: آمنوا بموسى، وكفروا بعزير، ثم آمنوا بعزير، ثم كفروا بعيسى، ثم ازدادوا كفرا بمحمد (صلى الله عليه وآله).

والثاني - قال مجاهد وابن زيد يعني بذلك اهل النفاق انهم آمنوا، ثم ارتدوا ثم آمنوا، ثم ارتدوا، ثم ازدادوا كفرا بموتهم على كفرهم.

والثالث - قال ابوالعالية: هم اليهود والنصارى أذنبوا ذنبا في شركهم، ثم تابوا فلم تقبل توبتهم، ولو تابوا من الشرك لقبل منهم واقوى الاقوال عندنا قول مجاهد، لان المؤمن على الحقيقة عندنا لايجوز ان يكفر، لان الايمان يستحق عليه الثواب الدائم والكفر يستحق عليه العقاب الدائم بلاخلاف فيهما والاحتياط عندنا باطل، فلو اجزنا الارتداد بعد الايمان الحقيقي لادى إلى اجتماع استحقاق الثواب الدائم والعقاب الدائم والاجماع بخلافه واختار الطبري الوجه الاول وقال الجبائي والبلخي يجوز ان تكون الآية نزلت في قوم كانوا آمنوا ثم ارتدوا، ثم آمنوا ثم كفروا، ثم ازدادوا كفرا وقوله:

" لم يكن الله ليغفر " معناه لم يكن الله ليغفر لهم الايمان الثاني الكفر

(٣٦٠)

المتقدم، لانه لما ارتد فيما بعد، دل على ان ما تقدم، لم يكن ايمانا فلايستحق به
غفران عقاب الكفر المتقدم وهو الذي اختاره الزجاج وقال البلخي والزجاج: لم يكن الله ليغفر
لهم إذا لم يتوبوا منه وهذا الذي ذكروه لا يصح، لان الكفر على كل حال ولومرة واحدة،
لا يغفر الله الا بالتوبة، فلامعنى لنفي الغفران عن كفر بعد ايمان تقدمه كفر تقدمه ايمان.
وقوله: " ولا يهديهم سبيلا " معناه لا يهديهم سبيل الجنة والثواب فيها، لانهم غير مستحقين له
ويحتمل ان يكون المراد بذلك أنه لا يلفظ لهم فيما بعد بل يخذلهم عقوبة لهم على كفرهم
المتقدم. ولا يجوز ان يكون المراد به أنه لا ينصب لهم الدلالة، لان نصب الادلة قد تقدم في
الكليف الاول والمرتد عندنا على ضربين:

احدهما - لا يستتاب ويقتل على كل حال وهو من ولد على فطرة الاسلام بين مسلمين متى كفر
فانه يقتل على كل حال. والآخر وهو من كان كافرا فاسلم، ثم ارتد فانه يستتاب ثلاثا فان تاب
والاقتل، ولا يستتاب اكثر من ذلك. وبه قال علي (عليه السلام) وابن عمر. وقال قوم: يستتاب
ابدا. ذهب اليه ابراهيم وغيره. واختاره الطبري. والمرأة تستتاب على كل حال فان تابت،
والا خلدت في السجن ولا تقتل بحال وفي ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف.
قوله تعالى:

(بشر المنافقين بأن لهم عذابا اليما (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين
ايبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا) (١٣٩) ايتان بلاخلاف.
المعنى:

معنى قوله " بشر المنافقين " جعل موضع بشارتهم لهم العذاب والعرب تقول:
تحيتك الضرب وعقابك السيف، أي بدلا من ذلك. قال الشاعر:

(٣٦١)

وخيل قد دلفت لها بخيل * تحية بينهم ضرب وجميع
امر الله (تعالى نبيه) ان يبشر المنافقين بان لهم عذابا أليما وهو المؤلم الموجه.
على نفاقهم، ثم وصف هؤلاء المنافقين فقال: " الذين يتخذون " أهل الكفر بالله ونبيه اولياء
يعني انصارا وأحلافا من دون المؤمنين يعني من غيرهم، ثم قال:
" يبتغون عندهم العزة " معناه يطلبون عندهم المنفعة والقوة باتخاذهم اولياء من دون اهل
الايمان به (تعالى)، ثم أخبر ان العزة باجمعها له (تعالى) وان هؤلاء الذين يطلبون من جهنم
العزة. المنعة، لامنعة عندهم، بل النصر والمنعة من عند الله الذي له العزة والمنعة الذي يعز
من يشاء، ويذل من يشاء. واصل العزة الشدة ومنه قيل للارض الصلبة الشديدة: عزاز ويقال:

استعز المريض اذا اشتد مرضه وتعزز اللحم: إذا اشتد منه قيل: عز علي ان يكون كذا، اي اشتد علي ومنه قولهم: " من عزيز أي من غلب سلب. وقولهم: عز الشيء معناه صعب وجوده واشتد حصوله.

قوله تعالى:

(وقد نزل عليكم في الكتاب ان إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره انكم إذا مثلهم ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً) (١٤) آية.

قرأ عاصم ويعقون " وقدنزل " بفتح النون والزاي وتشديده. الباقون بضم النون وكسر الزاي والمنزل في الكتاب.

(٣٦٢)

قوله تعالى:

(وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره إلى قوله.. الظالمين).

اعلم الله تعالى في هذه الآية المؤمنين ان المنافقين يهزءون بكتاب الله الذي هو القرآن، وأمرهم ان لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا، يعني يأخذوا في حديث غير القرآن، ثم قال: انكم ان جالستموهم على الخوض في كتاب الله والهزاء به، فانتم مثلهم، وانما حكم بانهم مثلهم متى رضوا بما هم فيه، ولم ينكروا عليهم مع القدرة على الانكار، ولم يظهروا كراهية، فانهم متى كانوا راضين بالكفر، كانوا كفاراً، لان الرضاء بالكفر كفر. وفي الآية دلالة على وجوب انكار المنكر مع القدرة على ذلك، وزوال العذر عنه. وإن من ترك ذلك مع القدرة عليه كان مخطئاً أثماً. وكذلك فيها دلالة على انه لا يجوز مجالسة الفساق، والمبتدعين من اي نوع كان. وبه قال جماعة من المفسرين. ذهب اليه ابوائل، وابراهيم وعبدالله. وقال ابراهيم: من ذلك إذا تكلم الرجل في مجلس بكذب، يضحك منه جلساؤه، فسخط الله عليهم. وبه قال عمر بن عبدالعزيز وقيل: إنه ضرب صائماً كان قاعداً مع قوم يشربون الخمر. وقال ابن عباس: امر الله بذلك الانفاق، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، والمرء والخصومة وبه قال الطبري والجبائي والبلخي وجماعة من المفسرين.

قال ابو علي الجبائي: اما الكون بالقرب منهم بحيث يسمع صوتهم ولا يقدر على انكاره، فليس يحظور، وانما المحظور مجالستهم من غير اظهار كراهية ماسمعه أو يراه. وقوله: " إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً " ومعناه ان الله يجمع الفريقين من اهل الكفر، والنفاق في القيامة في النار. والعقوبة فيها كما اتفقوا في الدنيا على عداوة المؤمنين،

والمؤازرة عليهم. قال الجبائي: في الآية دلالة على بطلان قول الاصم، ونفاة الاعراض وقولهم: انه ليس ها هنا غير الاجسام، لانه

(٣٦٣)

قال: " حتى يخوضوا في حديث غيره " فاثبت غيرا لما كانوا فيه. وذلك هو العرض. قوله تعالى:

(الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا الم نكن معكم وان كان للكافرين نصيب قالوا الم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) (١٤١) آية بلاخلاف. (الذين) في موضع خفض صفة للمنافقين والكافرين في قوله: " إن الله جامع المنافقين والكافرين ".

أخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين اي ينتظرون بهم فان فتح الله على المؤمنين فتحا من عدوهم، فاقاء عليهم فيئا من الغنائم، قالوا لهم الم نكن معكم نجاهد عدوكم ونغزوهم معكم، فاعطونا نصيبنا من الغنيمة، فانا شهدنا القتال وان كان للكافرين نصيب أي حظ باصابتهم من الغنيمة، فانا شهدنا القتال وان كان للكافرين نصيب أي حظ باصابتهم من المؤمنين، وليس المراد بذلك ان لهم نصيبا من الله، لانه (تعالى) لم يجعل لهم غلبة المسلمين، ولا اباح لهم شيئا من اموالهم، بل حظر ذلك عليهم. وقوله: " قالوا " يعني قال المنافقين للكافرين:

الم نستحوذ عليكم بمعنى الم نغلب عليكم؟ في قول السدي. وقال ابن جريج: معناه ألم نبين لكم انا على ما انتم عليه والاستحواذ الغلبة ومنه قوله: " استحوذ عليهم فأنسأهم ذكر الله " ومعناه غلب عليهم. يقال منه: حاذ عليه يحوذ. واستحاذ يستحاذ. وحاذ يحيد. قال العجاج يصف ثورا وكلاما:

يحوذهن وله حوذي (١)

وانشده ابو عبيد والاصمعي بالزاي يحوزهن وله حوزي والمعنيان

(١) اللسان (حوذ). ديوانه: ٧١ ومجاز القرآن لابي عبيده ١: ١٤١ وبده:

خوف الخلاط فهو اجنبي كما يحوذ الفئة الكمي (*)

(٣٦٤)

متقاربان. وقال لبيد في صفة عيرواتن على احاذ.

إذا اجتمعت واحوذ جانبها * واوردها على عوج طوال (١)

العوج الطوال القوائم. وقيل: هي النخيل الطوال. فمعنى احوذ جانبيها لم يشذ منها شيء. والاحوذ: الجاد المنكش الخفيف في اموره كلها. وكان القياس يقتضي ان يقول: استحاذ، لان الواو إذا كانت عين الفعل وكانت محركة بالفتح، وما قبلها ساكن تقلب حركتها إلى فاء الفعل، وقلبوها الفا اتباعا لحركة ما قبلها.

كقولهم: استحاذ واستبان واستنار واستعاذ بالله وهاهنا تركت على الاصل وهي لغة القرآن. وقوله: " ونمنعكم من المؤمنين " يعني يقول المنافقين الكافرون منعنا المؤمنين منكم بتخذيلنا اياهم، واطلاعنا اياكم على اخبارهم، وكوننا عيوننا لكم حتى انصرفوا عنكم وغلبتموهم. وقوله: " فانه يحكم بينكم يوم القيامة " اخبار منه (تعالى)

انه الذي يحكم بين الخلائق يوم القيامة ويفصل بينهم بالحق، وينصر المؤمنين " ولا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا " اي بالغبلة والقهر. وان حملناه على دار الدنيا يمكن حمله على انه لا يجعل لهم عليهم سبيلا بالحجة، وان جاز ان يغلبوهم بالقوة، لكن المؤمنين منصورون بالحجة والدلالة. وبالتأويل الاول قال علي (عليه السلام):

والسدى وابومالك وابن عباس. قال السدي: السبيل - هاهنا - الحجة. وبالثاني قال: الزجاج والجبائي والبلخي. وقال الجبائي: ولوحملنا ذلك على الغلبة، كان أيضا صحيحا، لان غلبة الكفار للمؤمنين ليس مما فعله الله، لان ذلك قبيح، والله لا يفعل القبيح. وليس كذلك غلبة المؤمنين للكفار، لانه حسن وطاعة، فكان ذلك منسوبا إلى الله (تعالى).
قوله تعالى:

(إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى

(١) اللسان (حوذ). القصيدة: ١٧ وبعده:

رفعن سرادقا يوم ربح * يصفق بين ميل واعتدال (*)

(٣٦٥)

الصلاة قاموا كسالى يراون الناس ولا يذكرون الله قليلا (١٤٢)

مذبذبين بين ذلك لالى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا (١٤٣) آيتان.

- قدينا - في اول البقرة معنى الخداع من المنافقين، ومن الله (تعالى)

وجملته ان الخداع من المنافقين اظهارهم الايمان الذي حقنوا به دماءهم واموالهم، كما حقن المؤمنون على الحقيقة. وقال: الحسن والزجاج والازهري ان معناه يخادعون نبي الله فسماه خداعا لله للاختصاص، كما قال: إن الذين يبائعونك انما يبائعون الله فسمى مبايعة النبي (صلى الله عليه وآله) مبايعة الله، للاختصاص، لانه بأمره. ومعنى الخداع من الله يحتمل امرين:

أحدهما - ان يجازيهم على خداعهم فسمى الجزاء باسم الشئ، للازدواج، كما قال: " وجزاء سيئة سيئة مثلها " والجزاء ليس بسيئة. وقال: " ومكروا ومكر الله " والله لا يمكر، غير انه يجازي عليه.

والثاني - ما حكم الله فيهم من منع دمائهم بما اظهروه من الايمان بلسانهم مع علمه بباطنهم، واعتقادهم الكفر استدراجا منه لهم في الدنيا حتى يلقوه يوم القيامة، فيوردهم بما ابطنواهم نار جهنم. وقال السدي: يعطيهم الله نورا يوم القيامة يمشون به مع المسلمين، كما كانوا في الدنيا، ثم يسلبهم ذلك النور، ويضرب بينهم بسور، فذلك هو الخداع منه (تعالى). وبه قال ابن جريج، والحسن وغيرهم من المفسرين:

على ما بيناه فيما مضى. وقوله: " وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس " يعني ان المنافقين لا يعملون شيئا من اعمال العبادات التي اوجبها على المؤمنين على وجه القرابة إلى الله، لانهم غير موقنين بها، ولان لهم عليها ثوبا أو عقابا وانما يفعلون ذلك إبقاء على انفسهم، وحذرا من المؤمنين ان يقتلوهم، ويسلبوا اموالهم، فهم إذا قاموا إلى الصلاة، قاموا كسالى اليها رياء للمؤمنين،

(٣٦٦)

ليحسبواهم المؤمنون منهم، وليسوا منهم، لانهم لا يعتقدون فرضها. وبه قال قتادة وابن زيد. وقوله: " ولا يذكر الله إلا قليلا " إنما وصف ما استثناه من ذكرهم الله بالقلّة من حيث انهم لا يقصدون به وجه الله، ولا التقرب اليه، لا ان شيئا من ذكر الله يوصف بانه قليل، بل يوصف جميعه بانه كثير، قال الحسن: وصفه بالقلّة، لانه كان لغير الله. وقال قتادة: لانه لم يقبله الله وكلماء رده الله، فهو قليل، وماقبله فهو كثير. وقال الجبائي: لانهم. إذا قاموا إلى الصلاة، لم يذكرها غير تكبيرة الاحرام.

وقوله: " مذنبين " في موضع نصب على الحال. ومعناه انهم يقومون إلى الصلاة يعني المنافقين مترددين، لالي هؤلاء يعني المؤمنين فيفعلونه، فيستحقون به الثواب ولا إلى هؤلاء يعني الكفار فيجاهرون بالكفر، بل بين ذلك يظهر ايمان، فيجري عليهم حكم أهله، ويبطنون الكفر فيستحقون به عقاب أهله. واصل التذبذب التحرك والاضطراب. قال النابغة:

الم تر ان الله اعطاك سورة * يرى كل ملك دونها يتذبذب (١)

وقال الحسن بن علي المغربي: مذنبين مطرودين من هؤلاء، ومن هؤلاء، من الذب الذي هو الطرد. وصف الله تعالى هؤلاء المنافقين بالحيرة في دينهم، وانهم لا يرجعون إلى صحة فيه، لامع المؤمنين على بصيرة، ولامع الكفار على جهالة. وقال ابن عمر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ان مثلهم مثل الشاة العائرة بين الغنمين تتحير، فتتظر إلى هذه والى هذه،

لا تدري ايهما تتبع. وبهذه الجملة قال السدي وقتادة ومجاهد وابن جريج وابن زيد وغيرهم من المفسرين. وقوله: " ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا " يحتمل امرين: احدهما - من يضل الله عن طريق الجنة، فلن تجد له سبيلا إلى طريق الجنة. والثاني - من يجد له عقوبة على معاصيه عن طريق الرشاد والاسلام، ولم

(١) - مرفي ١: ١٩ (*)

(٣٦٧)

يوقفه، لحرمانه نفسه التوفيق بسوء اختياره، فلن تجد له سبيلا يعني طريقا إلى الحق يفضيه اليه.

قوله تعالى:

(ياايها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين اتريدون ان تجعلوا الله عليكم سلطانا مبينا) (١٤٤) آية.

هذا خطاب للمؤمنين نهاهم الله ان يتخذوا الكافرين اولياء وانصارا من دون المؤمنين، فيكونون مثلهم في ركوب مانهاهم الله عنه من موالة اعدائه " اتريدون ان تجعلوا الله عليكم سلطانا مبينا " يعني حجة ظاهرة. قال عكرمة، كل ما في القرآن من ذكر سلطان، فمعناه حجة. وبه قال مجاهد والزجاج. وهو يذكر ويؤنث وقيل للامير سلطان، لان معناه ذو الحجة ومعنى الآية النهي عن اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين. فمن فعل ذلك، فقد جعل الله على نفسه الحجة، وتعرض لغضبه وعقابه وفي الآية دلالة على أنه لايجوز أن يبتدئ، الله الخلق بالعذاب، ولايعاقب الاطفال بذنوب الآباء، لانه لوكان ذلك شائعا، لما قال للمؤمنين: " تجعلون لله عليكم سلطانا مبينا " يعني باتخاذكم الكفار أولياء من دون المؤمنين، لان ذلك دلالة على انه لم يكن له ذلك، وانه لاكان له حجة على الخلق لولا معاصيهم ومخالفتهم له تعالى.

قوله تعالى:

(ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) (١٤٥) الاالذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فاولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين اجرا عظيما) (١٤٦) آيتان بلاخلاف.

(٣٦٨)

— القراءة والحجة —

قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر، إلا العلمي (الدرك) بسكون الراء الباقيون بفتحها وهما الغتان مثل نهر ونهر وشمع وشمع فمن فتح الراء قال في الجمع: إدراك في القلة والكثرة ومن سكنها قال إدراك وفي الكثير الدرك والتسكين لغة وليس يسكن من المفتوح، لان مثل ذلك لا يجوز تسكينه، فلا يسكن جمل وجبل وإنما هما لغتان مثل شمع وشمع ونهر ونهر. قالوا بفتح الراء أفصح، سمع من العرب من يقول:
أعطني دركا اصل به حبلي، يعني ما يصل به حبله الذي عجز عن بلوغ الركة.

— المعنى —

ومعنى الآية الاخبار من الله أن المنافقين في الطبقة الاسفل من النار. قال عبدالله: المنافقون في توابيت من حديد مغلقة عليهم في النار وبه قال ابو هريرة، وابن عباس. قال ابن جريج: قال عبدالله بن كثير وأبو عبيدة، سمعنا ان جهنم إدراك منازل. وليس يمتنع ان يجعل الله قوما من الكفار في الدرك الاسفل، كفرعون وهامان وأبى جهل، فان هؤلاء اعظم كفرا من المنافقين وليس في اخبار الله ان المنافقين هناك ما يمنع أن يكون غيرهم فيه أيضا، وان تفاضلوا في العقاب قال ابن جريج: هذه الايات نزلت في عبدالله بن ابي واصحابه. قال البلخي يجوز ان يكون الادراك منازل بعضها أسفل من بعض بالمسافة، ويجوز أن يكون ذلك اخبارا عن بلوغ الغاية في العقاب والاهانة، كما يقال بلغ فلانا السلطان الحضيض، وبلغ فلانا العرش. ويريدون بذلك علو المنزلة وانحطاطها لا المسافة.

وقوله: " ولن تجد له نصيرا " معناه لا تجد يا محمد، لهؤلاء المنافقين إذا جعلهم الله في اسفل طبقة من النار ناصرنا ينصرهم، فينقذهم من عذابه، ويدفع عنهم أليم عقابه، ثم استثنى فقال: " الا الذين تابوا " فاستثنى منهم التائبين من نفاقهم إذا أصلحوا نباتهم، وخلصوا الدين لله، وتبرؤا من الآلهة والانداد، واعتصموا يعني تمسكوا بكتاب الله وصدقوا رسله، فانهم إذا فعلوا ذلك فانهم

(٣٦٩)

يكونون مع المؤمنين في الجنة، ومحل الكرامة، ويسكنهم مساكنهم وما وعدهم من الجزاء على توبتهم، وسوف يؤتي الله المؤمنين اجرا عظيما. فكان تقدير الآية إن الذين راجعوا الحق، واقروا بوحدانية الله، وتصديق رسوله، وما جاء به من عند الله، وأصلحوا اعمالهم فعملوا بما أمرهم الله به وادوا فرضه وانتهوا عما نهاهم، وانزجروا عن معاصيه، وتمسكوا بعهد الله وميثاقه، فقطع حينئذانه تعالى يؤتي المؤمنين، أي يعطيهم أجرا، يعني عظيما، ودرجات في

الجنة كما اعطى من مات على النفاق منازل في النار في اسفل طبقة منها. وهذه الجملة معنى قول حذيفة بن اليمان، وجميع المفسرين.

" وسوف يؤت الله " كتبت في المصحف بلاياء تخفيفا ومثله " يوم يأت لا تكلم " وقوله: " ما كنا نبغ " وغير ذلك. وكان الكسائي يثبت الياء في الوصل دون الوقف، ثم رجع عنه. وابوعمر و يثبتها في الوصل واهل المدينة يثبتونها في الحالين قوله تعالى:

(ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وامنتم وكان الله شاكرا عليما) (١٤٧) آية.

خاطب الله (تعالى) بهذه الآية المنافقين الذين تابوا وآمنوا، واصلحوا اعمالهم، فقال: إن انتم تبتم إلى الله وراجعت الحق الواجب لله عليكم، وشكرتمه على نعمه واخلصتم عبادته، واعتصمتم به وتركتم رياء الناس، وآمنتم برسوله محمد (صلى الله عليه وآله) وصدقتم به، وأقررتم بما جاء به من عند الله ما يصنع. بعذابكم، أي لاجابة بالله إلى عذابكم، وجعلكم في الدرك الاسفل من جهنم، لانه لا يجتلب بعذابكم نفعا، ولا يدفع عن نفسه ضررا، لانهما مستحيلان عليه.

" وكان الله شاكرا " يعني لم يزل الله مجازيا للشاكر على شكره في جميع

(٣٧٠)

عباده عليما بما يستحقونه على طاعاته من الثواب، ولا يضيع عنده شئ منه، ولا يفوته شئ من معاصي من عصاه، فيجازي بذلك من يشاء منهم على سوء أفعالهم جزاء بما كسبوه. وبه قال قتادة وغيره من المفسرين. والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من تعظيم المنعم، وذلك لا يجوز الشكر منه بمعنى الجزاء عليه كما قال: " ومكروا و مكر الله " " وجزاء سيئة سيئة مثلها " والجزاء ليست سيئة ولكن اطلق ذلك لازدواج الكلام.

قوله تعالى:

(لا يجب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم وكان الله سميعا عليما) (١٤٨) آية بلاخلاف.

- القراءة والحجة -

الفراء ضم الظاء في قوله: " الامن ظلم " وكسر اللام. وقرأ زيد بن اسلم والضحاك بن مزاحم (ظلم) بفتح الظاء واللام. فمن ضم الظاء، اختلفوا في تأويله فقال قوم: معنى ذلك لا يجب الله ان يجهر احد بالدعاء على احد، وهو الجهر بالسوء إلا من ظلم فيدعو على ظالمه، لا يكره ذلك وذلك انه رخص له فيه.

ذهب اليه ابن عباس وقتادة والحسن.

- الاعراب -

و (من) على قول ابن عباس في موضع رفع، لانه وجهه إلى ان الجهر بالسوء في معنى الدعاء. واستثنى المظلوم منه وقال الزجاج: وجه الرفع أن يكون بدلا من احد وتقديره لا يجب الله أن يجهر احد بالسوء إلا من ظلم وقال الفراء تقديره لا يجب الله أن يجهر بالسوء الا المظلوم، فلا حرج عليه في الجهر اما بان يدعو عليه، أو بان يخبر بما فعله به، ويذمه عليه. وبه قال الجبائي قال: ولا يجوز

(٣٧١)

لمن ليس بمظلوم ان يذكر احدا بسوء لان الله (تعالى) امره بالستر عليه والكتمان، وانما يجب عليه ان ينكر عليه فيما بينه وبينه على وجه لا يفضحه، وانما جاز ذلك للمظلوم، لانه خصم يجوز له ان يدعي على خصمه ما ظلمه فيه، فان أقام بذلك بينة استوفى له حقه، والابطل دعواه. وقال بعض النحويين: هذا خطأ في العربية، لان من لا يجوز أن يكون رفعا بالجد لانها في صلة ان، ولم ينله الجحد، فلا يجوز العطف عليه. لا يجوز ان يقول: لا يعجبني ان يقوم الازيد. ويحتمل أن يكون (من) نصبا في تأويل ابن عباس.

— المعنى —

وقوله: " لا يجب الله الجهر بالسوء من القول " يكون كلاما، ثم قال: " الامن ظلم فلا حرج عليه " فيكون (من) استثناء من الفعل، وان لم يكن قبل الاستثناء شئ ظاهر يستثنى منه، كما قال: " لست عليهم بمسيطر الامن تولى وكفر ". وكقولهم: اني لاكره الخصومة والمراء، اللهم إلا رجلا يريد الله بذلك. ولم يذكر فيه شئ من الاشياء ذكره الفراء. وقال آخرون: معناه لا يجب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم فيخبر بما ينل منه. ذهب اليه مجاهد قال مجاهد: هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن اليه فقد رخص له أن يقول ذلك فيه وروي

عن أبي عبد الله انه قال: هو الضيف ينزل بالرجل، فلا يحسن ضيافته، جاز أن يقول ذلك فيه. وقال آخرون: الامن ظلم فانتصر من ظلمه، فان ذلك قد أذن له فيه، ذهب اليه السدي وهو المروي عن ابي جعفر (ع) و (من) على هذا يكون في موضع نصب على انقطاعه من الاول. ومن شأن العرب ان تنصب ما بعد الاقي الاستثناء المنقطع. فالمعنى على هذا القول سوى قول ابن عباس: لا يجب الله الجهر بالسوء من القول، لكن من ظلم فلا حرج عليه ان يخبر بما ينل منه، ينتصر ممن ظلمه. ومن فتح الظاء قال تأويله: لا يجب الله الجهر بالسوء من القول، الامن ظلم، فلا بأس ان يجهر له بالسوء من القول. ذهب اليه ابن زيد قال:

(٣٧٢)

يجهر له بالسوء حتى يفرع. (ومن) على هذا القول في موضع نصب والمعنى لا يحب الله الجهر أن يجهر احد لاحد من المنافقين بالسوء من القول إلا من ظلم منهم فاقام على نفاقه، فانه لا بأس بالجهر بالسوء من القول. قال الزجاج: وفيه وجه آخر لم يذكره النحويون وهو أن يكون الامن ظلم، لكن الظالم اجهروا له بالسوء من القول، وهو استثناء ليس من الاول. وهذا الذي ذكره هو قول ابن زيد بعينه. وقال الفراء: موضع (من) نصب في القراءتين معا. ويجوز الرفع على تقدير لا يحب الله أن يجهر بالسوء الا المظلوم. وقال البلخي: كان الضحاك يقول: فيه تقديم وتأخير والتقديم ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وامنتم إلا من ظلم بفتح الظاء ثم قال: لا يحب الله الجهر بالسوء من القوم على كل حال. قال البلخي: ويجوز ان يكون (إلا) بمعنى الواو، كانه قال: لا يحب الله الجهر بالسوء، ولا من ظلم، فانه لا يحب الجهر بالسوء منه. وقال قطرب: يجوز ان يكون المراد به المكره في قوله: " الامن ظلم " لانه إذا اكره على الجهر بالسوء من القول، فلا شئ عليه.

والقراءة المعروفة أولى بالصواب، لان هذه شاذة.

والتأويل فيه لا يحب الله ان يجهر احد لاحد بالسوء من القول إلا من ظلم، فلاحرج عليه أن يخبر بما اسئ اليه. وتكون (من) في موضع نصب لانقطاعها عما قبلها، فانه لا اسماء قبله يستثنى منها. وهو مثل قوله: " لست عليهم بمسيطر الامن تولى وكفر " وقوله: " وكان الله سميعا عليما " يعني سميعا لما يجهرون من سوء القول لمن يجهرون له، وغير ذلك من كلامكم واصواتكم عليما بما تخفون من سوء قولكم وكلامكم لمن يخفون له به فلا يجهرون يحصي ذلك كله عليكم فيجازي على ذلك كل المسئ باسائه. والمحسن باحسانه. قوله تعالى:

(ان تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا) (١٤٩) آية.

(٣٧٣)

— المعنى —

هذا خطاب لجميع المكلفين. يقول الله لهم: " ان تبدوا " بمعنى ان تظهروا (خيرا) اي حسنا جميلا من القول لمن احسن اليكم شكرا على إنعامه عليكم، أو تخفوه أي تتركوا اظهاره، فلا تبدوه، " أو تعفوا عن سوء " معناه أو تصفحوا عن اساء اليكم عن اساءته، فلا تجهروا له بالسوء من القول الذي أذنت لكم أن تظهروه، وتجهروا به " فان الله كان عفوا " يعني لم يزل كان صفوحا عن خلقه يصفح لهم عن معاصيه " قديرا " يعني قادرا على الانتقام منهم. وانما أراد بذلك انه مع صفحه قادرا على الانتقام، ليكون اعظم للمدح ليحث بذلك الخلق على العفو

عمن أساء إليهم. إذا قدروا على الانتقام منهم، والمكافات لهم. ولا يجهروا له بالسوء من القول مع القدرة عليه، ويتأدبوا في ذلك بأدب الله تعالى.

وروى عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ان الله عفو يحب العفو). قوله تعالى:

(ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا (١٥٠) أولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا) (١٥١) آيتان.

— المعنى —

معنى الآية الاخبار من الله تعالى " إن الذين يكفرون " ومعناه يجحدون بالله ورسله من اليهود والنصارى " ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله " أي

(٣٧٤)

يكذبوا رسل الله الذين أرسلهم إلى خلقه وأوحى إليهم ويزعمون انهم كاذبون على الله. وذلك معنى إرادتهم التفريق بين الله ورسله " ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض " ومعناه أنهم يقولون نصدق بهذا ونكذب بهذا، كما فعلت اليهود صدقوا موسى ومن تقدمه من الانبياء، وكذبوا عيسى ومحمد (صلى الله عليه وآله) وكما فعلت النصارى صدقت عيسى ومن تقدمه من الانبياء، وكذبوا محمدا (صلى الله عليه وآله) " ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا " يعني يريد المفرقون بين الله ورسله الزاعمون انهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ان يتخذوا بين قولهم: نؤمن ببعض، ونكفر ببعض سبيلا يعني طريقا إلى الضلالة التي أحدثوها، والبدعة التي ابتدعوها يدعون جهال الناس اليه، ثم اخبر عن حالهم فقال: " أولئك هم الكافرون حقا " أي هؤلاء الذين أخبر عنهم بانهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، وتفريقهم بين الله ورسله هم الكافرون حقا فاستيقنوا ذلك ولا ترتابوا بدعواهم انهم يقرون بما زعموا انهم فيه مقرون من الكتب والرسل، فانهم يكذبون في دعواهم هذه، لانهم لو كانوا صادقين في ذلك، لصدقوا جميع رسل الله، لانه لا يصح ان يكونوا عارذفين بالله ورسوله مع جحودهم، لنبوة بعض الانبياء على ما يذهب اليه في الموافات. وعند من قال بالاحباط لا يمتنع ان يكونوا عارفين بالله، وبعض رسله فاذا كفروا ببعضهم، انحبط ما معهم من الثواب على ايمانهم وهذا لا يصح على مذهبنا في بطلان الاحباط فالصحيح إذا ما قلناه.

وقوله: " واعتدنا " معناه أعددنا للكافرين يعني الجاحدين الذين ذكرهم ولغيرهم من اصناف الكفار (عذابا) في الآخرة " مهينا " يهينهم ويذلهم مخلدون في ذلك وقال قتادة والسدي ومجاهد

نزلت في اليهود والنصارى وانما قال: إن هؤلاء هم الكافرون حقا، وإن كان غيرهم أيضا كافرا حقا على وجه التأكيد لئلا يظن انهم ليسوا كافرا لقولهم: نؤمن ببعض ونكفر ببعض وقيل إنه قال ذلك استعظاما لكفرهم، كما قال إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم إلى

(٣٧٥)

قوله: " أولئك هم المؤمنون حقا " وقد يكون مؤمنا حقا من لم يلحق هذه الخصال بلاخلاف.
قوله تعالى:

(والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين ائمتهم أولئك سوف نؤتيهم اجرهم وكان الله غفورا رحيفا) (١٥٢)
آية بلاخلاف.

— القراءة والحجة —

قرأ يؤتيهم بالياء حفص الباقون بالنون حجة حفص قوله: " سوف يؤت الله المؤمنين " ومن
قرأ نؤتيهم - بالنون - فلقوله: " واتيناها اجره " وقوله: " أولئك سنؤتيهم اجرا " وغير ذلك من
الآي.

— المعنى —

لما ذكر الله تعالى حكم من فرق بين الله ورسوله، والايان ببعض دون بعض، وانهم الكافرون،
وانه أعد لهم العذاب المهين، اخبر عقيبه عن أمن بالله ورسوله، وصدقهم وأقر بنبوتهم، ولم
يفرقوا بين ائمتهم، بل آمنوا بجميعهم، فان الله (تعالى) سيؤتيهم اجرهم بمعنى سيعطيهم
ثوابهم الذي استحقوا على ايمانهم بالله ورسوله، والاقرار بهم، وإنه يعطيهم جزاءهم على ذلك.
" وكان الله غفورا رحيفا " ومعناه يغفر لمن هذه صفته ما سلف له من المعاصي والآثام،
ويسيرها عليهم، ويترك العقوبة عليها، فانه لم يزل كان غفورا رحيفا أي متفضلا عليهم
بالهداية إلى سبيل الحق موقفا لهم لما فيه خلاص رقابهم من عقاب النار.

(٣٧٦)

قوله تعالى:

(يسلك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سئلوا موسى اكبر من ذلك فقالوا:
ارنا الله جهرة فاخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن
ذلك واتينا موسى سلطانا مبينا) (١٥٣) آية بلاخلاف.

هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) يسألك يا محمد اهل الكتاب يعني اليهود ان تنزل عليهم كتابا من السماء، واختلفوا في الكتاب الذي سأل اليهود محمد (صلى الله عليه وآله) ان ينزل عليهم من السماء فقال قوم: سألو ان ينزل كتابا من السماء مكتوبا، كما جاء موسى بنى اسرائيل بالتوراة مكتوبة من عند الله في الالواح. ذهب اليه السدي ومحمد بن كعب القرظي، فانزل الله فيهم هذه الآية إلى قوله: " على مريم بهتانا عظيما " وقال اخرون: بل سألو ان ينزل عليهم كتابا خاصا لهم ذهب اليه قتادة.

وقال آخرون: بل يسألون أن ينزل على رجال منهم بأعيانهم كتابا بالامر بتصديقه، واتباعه ذكر ذلك ابن جريج، واختاره الطبري وقال الزجاج: ذلك حين سألو فقالوا: " لن نؤمن لرقبك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه " وقال الجبائي: كان سؤالهم على وجه التعنت والافكان فيما أنزله الله من القران دلالة واضحة على نبوته.

وقوله: " فقد سألو موسى اكبر من ذلك " فانه توبيخ من الله تعالى، سئل انزال الكتاب عليهم، وتقريع منه لهم بقوله لنبيه (صلى الله عليه وآله): يا محمد لا يعظن عليك مسألتهم، اياك ذلك فانهم من جهلهم بالله عزوجل وجرأتهم عليه، واغترارهم بحلمه، لو أنزلت عليهم الكتاب الذي سألوه لخالفوا امر الله، كما خالفوا بعد أحياء الله اوائلهم من صعقتهم، فعبدوا العجل، واتخذوه آلهة فعبدوه من دون خالقهم وبارئهم الذي أراهم قدرته، وعظمته وسلطانه بما أراهم، ثم قص من قصتهم وقصة موسى

(٣٧٧)

ماقص، فقال: " فقد سالوا موسى اكبر من ذلك " يعني سأل اسلاف هؤلاء اليهود موسى (ع) اعظم مما سألوك فقالوا أرنا الله جهرة أي عيانا نماينه وننظر اليه.

وقد بينا معنى الجهرة فيما مضى. وحكي عن ابن عباس انه قال: فيه تقديم وتأخير، وتقديره إنما قالوا جهرة أرنا الله: وهو الذي اختاره ابو عبيدة. وقال غيره: أراد رؤية بالبصر ظاهرة منكشفة، لان من علم الله فقدر آه. وهو اختيار الزجاج لقوله تعالى: " لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة " وقول ابن عباس يدل على انه كان يذهب إلى استحالة الرؤية عليه تعالى، لان على تأويله بنفس سؤال الرؤية، اخذتهم الصاعقة دون رؤية مخصوصة على ما يذهب اليه من قال بالرؤية. وقوله: " فاخذتهم الصاعقة بظلمهم " يعني فصعقوا بظلمهم انفسهم عن سؤالهم موسى ان يريهم الله، لان ذلك مما هو مستحيل عليه (تعالى) وفي ذلك دلالة واضحة على استحالة الرؤية عليه (تعالى) واستعظام لتجويزها، لانهم كانوا يكفرون به ويجحدونه ولم ينزل عليهم الصاعقة، فلما سألو الرؤية أنزلها عليهم. وفي ذلك دلالة على أن اصل كل تشبيه تجويز الرؤية عليه تعالى على قوله ابي علي. وقد بينا معنى الصاعقة فيما مضى، فلا تطول باعادته.

وقوله: " ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البيئات " معناه، ثم اتخذ هؤلاء الذين سألوا موسى ماسألوا من رؤية الله بعد ما احياهم وبعثهم من صعقتهم - العجل الذي كان السامري أضلهم به. وقد بينا فيما مضى السبب الذي من اجله اتخذوا العجل، وكيف كان أمرهم. وقوله: " من بعد ما جاءتهم البيئات " معناه من بعد ماجاءت هؤلاء الذين سألوا موسى البيئات من الله، ومن الدلالات الواضحات بان الرؤية مستحيلة عليه، ومنها اصعاق الله اياهم عند مسألتهم موسى يريدون ان يريهم ربهم جهرة، ثم احيأوه اياهم بعد مماتهم مع غيره من الآيات التي أراهم الله دلالة على ذلك، فقال الله مقبحا فعلهم، وموضحا عن جهلهم ونقص عقولهم باقرارهم للعجل بانه الههم، وهم يرونه عيانا، وينظرون اليه، فعكفوا على

(٣٧٨)

عبادته مصدقين بالآهيته ثم قال تعالى: " ففعلنا عن ذلك " ومعناه عفونا للذين عبدوا العجل عن عبادتهم بعد ان اراهم الله آية على أنهم لا يرون ربهم. وقوله: " واتينا موسى سلطانا مبينا " معناه اعطينا موسى حجة ظاهرة تبين عن صدقه وحقيقة نبوته، وتلك الحجة هي الآيات التي اتاه الله اياها. قوله تعالى:

(ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم لاتعدوا في السبت واخذنا منهم ميثاقا غليظا) (١٥٤) - آية اجماعا - .

— القراءة والحجة —

قرأ أهل المدينة (لاتعدوا) بتسكين العين وتشديد الدال والجمع بين ساكنين بمعنى لاتعدوا، ثم ادغم التاء في الدال فصارت دالا مشددة مضمومة، كما قرأ من قرأ (يهتدي) بتسكين الهاء - وقوا ذلك بقوله: " ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت " فجاء في هذه القصة افتعلوا وقال: " لاتعدوا فان الله لا يحب المعتدين " وقرأ الباقر بتسكين العين - من عدوت في الامر: اذا تجاوزت الحق فيه أعدو عدوانا وعداء وعدوا قال ابوزيد: عدا على اللص: اشد العدو. والعدو والعداء والعدوان اي سرقك وظلمك. وعدت عينه عن ذلك اشد العدو وتعدو وحببتهم قوله: إذ يعدون في السبت في هذه القصة وقوله: فاولئك هم العادون.

— المعنى —

معنى قوله: " ورفعنا فوقهم الطور " يعني الجبل لما امتنعوا من العمل بما في التوراة وقبول ما جاءهم به موسى بميثاقهم يعني بما اعطوا الله من الميثاق والعقد،

(٣٧٩)

ليعملن بما في التوراة. " وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا " يعني باب حطه حين امرهم الله ان يدخلوا فيه سجودا، فدخلوا على استاهم يزحفون. وقلنا لهم: " لاتعدوا في السبت " اي لاتتجاوزوا في يوم السبت ما أبيح لكم إلى ما حرم عليكم. قال قتادة: امرهم الله ان لا يأكلوا الحيتان يوم السبت، ولا يعرضوا لها. واحل لهم ما عداه. وقوله: " واخذنا - منهم ميثاقا غليظا " يعني عهدا مؤكدا بأنهم يعملون ما أمرهم الله به وينتھون عما نهاهم الله عزوجل عنه. وقد بينا فيما مضى السبب الذي من أجله كانوا أمروا بدخول الباب سجدا، وما كان من أمرهم في ذلك. قال ابن عباس: رفع الله فوقهم الجبل، فقيل لهم: إما ان تأخذوا التوراة بما فيها، او يلقى عليكم الجبل. وقال ابو مسلم: رفع الله الجبل فوقهم ظللا لهم من الشمس بميثاقهم أي بعهدهم جزاء لهم على ذلك. والاول قول اكثر المفسرين. قوله تعالى:

(فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا (١٥٥) وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاننا عظيما) (١٥٦) - آيتان - .

— المعنى —

المعنى في قوله: " بما نقضهم " قولان: احدهما - قال الفراء والزجاج وغيرهما: " إن (ما) زائدة ". وتقديره فبنقضهم. والثاني - انها بمعنى شئ. وتقديره فبشئ ونقضهم. بدل منه ومجرور به.

(٣٨٠)

مثله قوله: " مثلا ما بعوضة " (١) وفيه القولان. والتقدير فبنقض هؤلاء الذين وصفهم من اهل الكتاب وميثاقهم يعني عهودهم التي عاهدوا الله عليها أن يعملوا بما في التوراة " وكفرهم بآيات الله " يعني جحودهم بآيات الله. وهي اعلامه، وادلته التي احتج بها عليهم في صدق انبيائه، ورسله " وقتلهم الانبياء بغير حق " يعني وقتلهم الانبياء بعد قيام الحجة عليهم بصدقهم بغير حق يعني بغير استحقاق منهم، لكبيرة أتوها ولاخطيئة استوجبوا بها القتل. وقتل الانبياء، وان كان لا يكون إلا بغير حق، فانما اكده بقوله: " بغير حق " ومعناه ما قدمنا القول فيه أنه لا يكون ذلك إلا بغير حق، كما قال: " ومن يدع مع الله الها آخر لابرهان له به " والمعنى إن هذا لا يكون عليه برهان. ومثله قول الشاعر:

على لاحب لايهتدى بمناره (٢)

وانما اراد لا منارها هناك يهتدى به. وقد استوفينا ما في ذلك فيما مضى
” وقولهم قلوبنا غلف ” تقديره يقولون: قلوبنا عليها غشاوة وأغطية لانفقه ما تقول، ولانعلق
له، فاكذبهم الله في ذلك وقال الفراء والزجاج: معناه قلوبنا أوعية للعلم لانفقة ما تقول. وقد بينا
معنى الغلف فيما مضى. قوله: ” بل طبع الله عليها بكفرهم ” والمعنى كذبوا في قولهم قلوبنا
غلف ما هي بغلف، ولا عليها اغطية، بل طبع الله عليها بكفرهم. وقد بينا معنى الطبع فيما
مضى. وهو أنه السمة والعلامة وسم الله تعالى وعلم على قلوب قوم من الكفار الذين علم من
حالهم أنهم لا يؤمنون فيما بعد، وجعل ذلك عقوبة لهم على كفرهم الذي ارتكبه في الحال
تعرفه الملائكة. وقوله: ” فلا يؤمنون إلا قليلا ” معناه فلا يصدقون الا تصديقا قليلا. وإنما
وصفه بالقلّة لانهم لم يصدقوا على ما أمرهم الله به لكن صدقوا ببعض الانبياء، وبعض الكتب
وكذبوا بالبعض، فكان تصديقهم بما صدقوا به قليلا، لانهم، وان صدقوا به من وجه، فهم
يكذبون به من وجه آخر. ويجوز.

(١) سورة البقرة، آية ٢٦. (٢) انظرا: ١٨٩ - ٢٧٩ - ٤٤٤ (*)

(٣٨١)

أن يكون الاستثناء من الذين نفى الله عنهم الايمان فكانه علم انه يؤمن منهم جماعة قليلة فيما
بعد، فاستثناهم من جملة من اخبر عنهم انهم لا يؤمنون. وبهذه الجملة قال جماعة المفسرين:
قتادة وغيره. واختلفوا في قوله: ” فيما نقضهم ” هل هو متصل بما قبله من الكلام او منفصل
منه، فقال قتادة هو منفصل وقال لما ترك القوم أمر الله، وقتلوا رسله وكذبوا بآياته ونقضوا
ميثاقه طبع الله على قلوبهم بكفرهم، ولعنهم وقال قوم: بل هو متصل بما قبله. قالوا: معناه
فاخذتهم الصاعقة بظلمهم بنقضهم ميثاقهم، وبكفرهم بايات الله، وبقتلهم الانبياء بغير حق،
وبكذا وكذا أخذتهم الصاعقة، فتبع الكلام بعضه بعضا. ومعناه مردود على أوله، وجوابه قوله
” فبظلم ” من الذين قالوا الزجاج هو بدل من قوله: ” فيما نقضهم ” واختار الطبري الاول، وأنه
منفصل من معنى ما قبله والمعنى. فيما نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بايات الله وبكذا وكذا لعناهم،
وغضبنا عليهم، فترك ذكر لعناهم لدلالة قوله: ” بل طبع الله عليها بكفرهم ” على معنى ذلك
من حيث كان من طبع على قلبه، فقد لعن وسخط عليه قال: وانما قلنا ذلك، لان الذين اخذتهم
الصاعقة كانوا على عهد موسى، الذين قتلوا الانبياء، والذين رموا مريم بالبهتان العظيم،
وقالوا قتلنا عيسى، كانوا بعد موسى بدهر طويل، ومعلوم أن الذين اخذتهم الصاعقة لم تأخذهم
عقوبة على رميهم مريم بالبهتان، ولالقولهم: انا قتلنا المسيح فبان بذلك أن الذين قالوا هذه
المقالة غير الذين عوقبوا بالصاعقة.

وقوله: " وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً " معناه وبكفر هؤلاء الذين وصفهم، وقولهم على مريم بهتاناً يعني رميهم لها بالزنا، وهو البهتان وبفريتهم عليها، لانهم رموها وهي بريئة بغير بينه ولا برهان به بل هتوها بباطل القول.
وهو قول ابن عباس والسدي والضحاك.

(٣٨٢)

قوله تعالى:

(وقولهم اننا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً) (١٥٧) آية.

— المعنى —

هذه الآية عطف على ما قبلها وتقديره، فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بايات الله وقتلهم الانبياء بغير حق، وقولهم: قلوبنا غلف وقولهم اننا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، أنزلنا من العذاب، وأوجبنا لهم من العقاب، لان اخبارهم انهم قتلوا المسيح يقينا، وما قتلوه، كفر من حيث هو جرأة على الله في قتل انبيائه، ومن دلت المعجزات على صدقه، ثم كذبهم الله في قولهم: اننا قتلناه فقال: " وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ".

اختلفوا في كيفية التشبيه الذي شبه لليهود في أمر عيسى فقال وهب بن منبه: أنى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت فاحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صيرهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم سحر تمونا ليبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً، فقال عيسى لاصحابه: من يشري نفسه منكم اليوم بالجنة، فقال رجل منهم: انا، فخرج اليهم فقال: انا عيسى، وقد صيره الله على صورة عيسى، فاخذوه وقتلوه، وصلبوه. فمن ثم شبه لهم، وظنوا انهم قد قتلوا عيسى، وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك. وبه قال قتادة والسدي وابن اسحاق ومجاهد وابن جريج، وان اختلفوا في عدد الحواريين، ولم يذكر احد غير وهب ان شبهه ألقى على جميعهم، بل قالوا: ألقى شبهه على

(٣٨٣)

واحد، ورفع عيسى من بينهم قال ابن اسحاق: وكان اسم الذي القي عليه شبهه سرجس، وكان احد الحواريين، ويقال: إن الذي دلهم عليه وقال هذا عيسى أحد الحواريين أخذ على ذلك ثلاثين درهماً، وكان منافقاً، ثم انه ندم على ذلك فاختنق حتى قتل نفسه، وكان اسمه بودس زكريابوطا، وهو ملعون في النصارى، وبعض النصارى يقول: إن بودس زكريا بوطاهو

الذي شبه لهم فصوله، وهو يقول: لست بصاحبكم الذي دلتكم عليه. قال الطبري: الاقوى قول ابن المنبه، وهوان سبعة عشر القي على جماعتهم شبه عيسى، لانه لو كان ألقى على واحدمهم مع قول عيسى ايكم يلقى عليه شبي له الجنة، ثم رأوا عيسى قد رفع من بين ايديهم لما اشتبه عليهم، وما اختلفوا فيه، وان جاز ان يشتبه على أعدائهم من اليهود الذين لم يكونوا يعرفونه، لكن لما ألقى شبهه على جميعهم، فكان يرى كل واحد بصورة عيسى، فلما قتل واحد منهم اشتبه الحال عليهم. وهذا الذي ذكره قريب. وقال الجبائي: وجه التشبيه ان رؤساء اليهود اخذوا إنسانا فقتلوه وصلبوه على موضع عال، ولم يمكنوا احدا من الدنو منه فتغيرت حليته وتكررت صورته.

وقالوا: قتلنا عيسى، ليوهموا بذلك على عوامهم، لانهم كانوا احاطوا بالبيت الذي فيه عيسى فلما دخلوه كان رفع عيسى من بينهم، فخافوا أن يكون ذلك سبب إيمان اليهود به، ففعلوا ذلك. والذين اختلفوا غير الذين صلبوا من صلبيه، وهم باقي اليهود، فان قيل: هل يجوز ان يلقى الله شبه زيد على عمر حتى لايفصل الناظر اليهما بينهما، كما كان يفصل قبل القاء الشبه؟ قيل: ذلك مقدور لله بلاخلاف، ويجوز ان يفعله عندنا تغليظا للمحنة، وتشديدا للتكليف، وان كان ذلك خارقا للعادة، يجوز أن يجعل ذلك معجزة أو كرامة، لبعض اوليائه الصالحين، أو الائمة المعصومين (ع). وعند المعتزلة لايجوز ذلك الا على يدي الانبياء أو في وقتهم، لانه لايجوز خرق العادة عنهم إلا على يده. وقد قيل: إن اصحاب عيسى (ع) تفرقوا عنه حتى لم يبق غير عيسى، وغير الذي القي شبهه عليه، فلذلك

(٣٨٤)

اشتبه على النصارى، فان قيل: كيف يجوز من الخلق العظيم ان يخبروا بالشئ على خلاف ما هو به، وقد علمنا كثرة اليهود والنصارى، ومع كثرتهم اخبروا ان عيسى صلب وقتل، فكيف يجوز ان يكونوا مع كثرتهم كذابين؟ ولئن جاز هذا لم نتق بشئ من الاخبار اصلا ويؤدي ذلك إلى قول السنمية! قلنا: هؤلاء القوم دخلت عليهم الشبهة، لان اليهود لم يكونوا يعرفون عيسى، وانما اخبروا انهم قتلوا واحدا، وقيل لهم انه عيسى، فهم في ذلك صادقون، وان لم يكن المقتول عيسى. وأما النصارى فاشتبه عليهم، لانه كان ألقى شبهه على غيره، فلما رأوا من هو في صورته مقتولا، ظنوا انه عيسى، فلم يخبر احد من الفريقين بما ظن ان الامر على ما اخبر به، فلايؤدي ذلك إلى بطلان الاخبار بحال.

وقوله: " وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا " يعني به الذين احاطوا بعيسى واصحابه حيث أرادوا قتله لانهم كانوا قد عرفوا عدة من في البيت، فلما دخلوا عليهم فقدوا واحدا منهم، فالتبس عليهم امر عيسى بفقدهم واحدا من العدة،

وقتلوا من قتلوا على شك منهم في امر عيسى. هذا على قول من قال: لم يتفرق أصحابه حتى دخل عليهم اليهود واما من قال تفرقوا عنه، فانه يقول: اختلافهم كان بأن عيسى هل كان في من بقي في البيت أو كان في الذين خرجوا. فاشتبه الامر عليهم. قال الزجاج: وجه اختلاف النصرى أن: منهم من ادعى انه له لا يقتل، ومنهم من قال قتل، فكذب الله الجميع. وقوله: " إلا اتباع الظن " استثناء منقطع. وتقديره لم يكن لهم بمن قتلوه علم لكنهم اتبعوه ظنا منهم انه عيسى، ولم يكن به.

وقوله: " وما قتلوه يقينا " معناه " وما قتلوا ظنهم الذي اتبعوا المقتول الذي قتلوه، وهم يحسبونه عيسى يقينا إنه عيسى، ولانه غيره، لكنهم كانوا منه على ظن وشبهة، كما يقول القائل: ما قتلت هذا الامر علما، وما قتلته يقينا: إذا تكلم فيه بالظن على غير يقين. فالهاء في (قتلوه) عائدة على الظن. وقال ابن عباس وجوبير

(٣٨٥)

وما قتلوا ظنهم يقينا. وحكى الزجاج عن قومهم: أن الهاء. راجعة إلى عيسى (ع). نفى الله عنه القتل على وجه التحقيق واليقين. وقال السدي: وما قتلوا أمره يقينا إن الرجل هو عيسى (ع) وقوله: " بل رفعه الله اليه " يعني بل رفع الله المسيح اليه، ولم يقتلوه، ولم يصلبوه، لكن الله رفعه وطهره من الذين كفروا وقوله: " كان الله عزيزا حكيما " معناه " لم يزل الله عزيزا منتقما من اعدائه كانتقامه من الذين اخذتهم الصاعقة بظلمهم، وكلعنه من نقض ميثاقه وفعل ما قصه الله، حكيما في افعاله وتدبيراته وتصريفه خلقه في قضائه، واحذروا أيها السائلون محمدا ان ينزل عليكم كتابا من السماء - حلول عقوبته بكم، كما حل باوائلكم الذين فعلوا فعلكم في تكذيبهم رسلي وأقترائهم على اوليائي. وبه قال ابن عباس. وقوله: " بل رفعه الله ".

— القراءة والحجة —

في القراء من ادغم اللام في الراء وعليه الاكثر. وهو الاقوى لقرب مخرج اللام من مخرج الراء. وهو أقوى من ادغام الراء في اللام، لان في الراء تكويرا فهو يجري مجرى الحرفين. ومن لم يدغم قال: لانه من كلمتين. وقال الفراء: لا يجوز غير الادغام. وقال سيبويه: الادغام اجود وتركه جائز وهي لغة حجازية.

وقوله: " بل رفعه الله اليه " معناه انه رفعه إلى الموضع الذي يختص الله (تعالى) بالملك، ولم يملك احدا منه شيئا. وهو السماء، لانه لا يجوز ان يكون المراد انه رفعه إلى مكان هو

(تعالى)، فيه لان ذلك من صفات الاجسام (تعالى الله عن ذلك) وعلى هذا يحمل قوله حكاية عن ابراهيم " إني ذاهب إلى ربي " يعني إلى الموضع الذي امرني به وربي ومثل قوله: " ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله " يعني مهاجرا إلى الموضع الذي أمره الله بالهجرة اليه.

(٣٨٦)

قوله تعالى:

(وان من اهل الكتاب الاليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) (١٥٨) آية. معنى (ان) معنى (ما) النافية وموضعها الرفع وهي مثل قوله: " وإن منكم إلا واردها " أي ما منكم احد إلا واردها. ومعنى الآية الاخبار منه (تعالى)

بانه إلا ليؤمنن به يعني بعيسى قبل موته واختلفوا في الهاء إلى من ترجع فقال قوم: هي كناية عن عيسى، كانه قال: لا يبقى احد من اليهود الا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى بأن ينزله الله إلى الارض إذا اخرج المهدي (عج) وانزله الله لقتل الدجال، فتصير الملل كلها ملة واحدة، وهي ملة الاسلام الحنيفية دين ابراهيم (ع). ذهب اليه ابن عباس وأبومالك والحسن وقتادة، وابن زيد وذلك حين لا ينفعم الايمان. واختاره الطبري. قال: والآية خاصة لمن يكون في ذلك الزمان وهو الذي ذكره علي بن ابراهيم في تفسير أصحابنا. وروى شهر بن حوشب عن محمد بن علي بن الحنفية ان الحجاج سأله عن هذه الآية وقال: نرى اليهود تضرب رقبتهم، فلا يتكلم بشئ فقال: حدثني محمد بن علي أن الله يبعث اليه ملكا يفضه ويضرب رأسه ودبره، ويقول له: كذبت عيسى، فيؤمن حينئذ ويقول: كذبت عيسى ويعترف به. فقال الحجاج: عن؟ فقال: عن محمد بن علي فقال له، جئت بها من عين صافية. فقيل لشهرما أردت بذلك؟ قال: اردت ان اغيظه وذكره البلخي مثل ذلك وضعف هذا الوجه الزجاج وقال: الذين يبقون إلى زمن نزول عيسى (ع)

من أهل الكتاب قليل. والآية تقتضي عموم إيمان أهل الكتاب أجمع قال: إلا ان تحمل على ان جميعهم يقول: ان عيسى الذي ينزل لقتل الدجال نحن نؤمن به فعلى هذا يجوز. واختار الوجه الثاني وقال قوم: الهاء كناية عن الكتابي، وتقديره أنه لا يكون احد من أهل الكتاب يخرج من دار الدنيا إلا ويؤمن بعيسى عند

(٣٨٧)

موته إذا زال تكليفه، وتحقق الموت، ولكن لا ينفعه الايمان حينئذ ذهب اليه ابن عباس في رواية أخرى، ومجاهد قال ابن عباس: لو ضربت رقبتهم لم تخرج نفسه حتى يؤمن وبه قال

عكرمة والضحاك. وفي رواية عن الحسن وقتادة وقال قوم: الهاء كناية عن محمد (صلى الله عليه وآله) والتقدير وليس من أهل الكتاب إلا من يؤمن بمحمد (صلى الله عليه وآله) قبل موت الكتابي ذهب إليه عكرمة وطعن الطبري على هذا الوجه بل قال: لو كان ذلك صحيحا لما جاز اجزاء احكام الكفار عليهم إذا ماتوا من ترك الصلاة عليهم. ومنع المدافنة والموراثه. وغير ذلك. ووجب اجراء حكم الاسلام عليهم. وهذا الذي ذكره ليس بشئ لان ايمانهم بمحمد (صلى الله عليه وآله) انما يكون في حال زوال التكليف، فلا حكم لذلك الايمان. وذلك مثل ايمان فرعون حين غرق وقال:

" امنت انه لا اله الا الذي امنت به بنو اسرائيل " فقال الله تعالى له: " الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين " فكذاك ايمان هؤلاء لايعتد به، وانما يضعف هذا الجواب من حيث انه لم يجز لمحمد (صلى الله عليه وآله) ذكر فيما تقدم، ولا هاهنا ضرورة موجبة لرد الكناية عليه. وما هذه صورته لا تجوز الكناية عنه. وانما قلناه في قوله: حتى توارت بالحجاب إنها كناية عن الشمس للضرورة، لانه يتحمل سواها.

وقد جرى ذكر عيسى والكتابي فامكن ان يكون كناية عن كل واحد منهما، فلا يجوز العدل عنه وقوله " ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا " قال قتادة وابن جريح: يكون عيسى عليهم شهيدا على أنه قد بلغ رسالة ربه، وافر على نفسه بالعبودية مكذبا من كذبه ومصدقا من صدقه. قوله تعالى:

(فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات ما احل لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا (١٥٩) واخذهم الربا وقد نهوا عنه واكلهم اموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذابا

(٣٨٨)

اليمان) (١٦٠) آيتان - هاتان الآيتان معطوفتان على ما تقدم. قال الزجاج: قوله: " فبظلم " بدل من قوله: " فبما نقضهم ميثاقهم " والعامل في الياء قوله: " حرمنا عليهم طيبات " لما طال الكلام أجمل (تعالى) ما ذكره هاهنا في قوله: فبظلم واخبر انه حرم على اليهود الذين نقضوا ميثاقهم الذين واتقوا الله عليه، وكفروا باياته، وقتلوا أنبياءه، وقالوا، البهتان على مريم وفعلوا ما فعلوا مما وصفه الله في كتابه طيبات من المأكل وغيرها، وكانت لهم حلالا، عقوبة لهم بظلمهم الذي أخبر الله عنه لانهم لما فعلوا ما فعلوا، اقتضت المصلحة تحريم هذه الاشياء عليهم. وهو قول مجاهد واكثر المفسرين. وقوله: " وبصدهم عن سبيل الله كثيرا " يعنى بمنعهم عباد الله عن دينه وسبيله التي شرعها لعباده صدا كثيرا، وكان صدهم عن سبيل الله بقولهم على الله الباطل، وادعائهم ان ذلك عن الله، وتبديلهم كتاب الله وتحريفهم معانيه عن وجوهه. ومن أعظم ذلك جردهم نبوة محمد (صلى الله عليه وآله) وتركهم

بيان ما قد عملوا من امره من جهل امره من الناس، وهو قول مجاهد وغيره. وقوله: " وأخذهم الربا " يعني على رؤوس أموالهم بتأخيرهم له عن محله إلي محل آخر وقد نهوا عنه يعني عن الربا، وأكلهم اموال الناس بالباطل يعني بخير استحقاق، ولا استيجاب. وهو ما كانوا يأخذونه من الرشا على الاحكام، كما قال تعالى: " واكلهم السحت لبئس ماكانوا يعملون " ومنه ما كانوا يأخذونه من اثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم، ويقولون هذا من عندالله، وما اشبه ذلك من المآكل الخسيسة الخبيثة، فعاقبهم الله تعالى على جميع ذلك بتحريم ما حرم عليهم من الطيبات. وقوله: " واعتدنا للكافرين منهم عذابا " معناه وجعلنا للظالمين أنفسهم بكفرهم بالله، وجددهم رسوله محمد (صلى الله عليه وآله) من هؤلاء اليهود العذاب الاليم. وهوالمؤلم الموجه يصلونها في الاخرة عدة لهم. قال ابوعلي: حرم الله (تعالى) هذه الطيبات على الظالمين منهم عقوبة لهم على ظلمهم ومن لم يكن ظالما منهم نسخه منهم اما على لسان عيسى أو علي لسان محمد (صلى الله عليه وآله)

(٣٨٩)

نبينا وهوما حرمه من كل ذي ناب من السباع ومخالب من الطير، وغير ذلك مما ذكره في قوله: " وعلى الذين هاد واحرما كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرما عليهم شحومهما إلي قوله.. ذلك خزيناهم ببغيهم " فهذا البغي هوالظلم الذي ذكره هاهنا. قوله تعالى:

(لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر اولئك سنؤتيهم اجرا عظيما) (١٦١) آية. استثنى الله تعالى من اليهود الذين وصف صفتهم فيما مضى من الآيات في قوله: يسألك اهل الكتاب إلى هاهنا من هداه الله لدينه، ووفقه لرشده فقال:

" لكن الراسخون " وهم الذين رسخوا في العلم وثبتوا فيه. وقد مضى معنى الرسوخ فيما مضى في العلم الذي جاء به الانبياء، واحكام الله التي ادوها إلى عباده، والمؤمنون بالله. ورسوله منهم يؤمنون بالقرآن الذي أنزله الله اليك يامحمد (صلى الله عليه وآله) وبالكتب التي انزلها على من قبلك من الانبياء، والرسول، ولا يسألونك ما يسأل هؤلاء الجهال من انزال كتاب من السماء، ولانهم قد علموا صدق قولك بما قرأوا من الكتب التي انزلها على الانبياء، ووصفك فيها وأنه يجب عليهم اتباعك، فلا حاجة بهم إلى ان يسألوك معجزة اخرى، ولادلالة غير ما علموا من امرك بالعلم الراسخ في قلوبهم وهو قول قتادة والمفسرين. وقوله: " والمقيمين الصلاة " اختلفوا هل هم الراسخون في العلم أو غيرهم؟ فقال قوم: هم هم. واختلف هؤلاء في إعرابه ومخالفته لاعراب الراسخين فقال قوم منهم: هو غلط من الكتب وانما هو،

لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون والمقيمون الصلاة ذكر ذلك حماد بن سلمة عن الزبير. قال: قلت لابان بن عثمان بن عفان. ما شأنها كتبت لكن الراسخون في العلم

(٣٩٠)

منهم والمؤمنون والمقيمون الصلاة فقال: قال: إن الكاتب لما كتب لكن الراسخون في العلم منهم إلى قوله: من قبلك قال: ما اكتب؟ قيل له: اكتب والمقيمون الصلاة.

وروى عروة بن الزبير قال: سألت عائشة عن قوله: " والمقيمون الصلاة "، وعن قوله: " والصابئون " وعن قوله: " ان هذان " فقالت: يابن اخي هذا عمل الكتاب أخطأوا في الكتابة وفي مصحف ابن مسعود (والمقيمون الصلوة) وقال الفراء أو الزجاج وغيرهما من النحويين: هو من صفة الراسخين، لكن لما طال، واعترض بينهما كلام نصب المقيمون على المدح وذلك سائغ في اللغة كما قال في الآيات التي تلونها، وفي قوله: " والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء " وقال اخرون: هو من صفة الراسخين في العلم هاهنا، وان كان الراسخون في العلم من المقيمون. قالوا: وموضع (المقيمون) خفض عطا على ما في قوله: يؤمنون بما أنزل اليك وما انزل من قبلك، ويؤمنون بالمقيمون الصلاة.

والمعنى يؤمنون باقام الصلاة وقوله: والمؤتون الزكاة. قالوا: عطف على قوله: " والمؤمنون " وقال اخرون المقيمون الصلاة هم الملائكة. واقامتهم للصلاة تسبيحهم ربهم، واستغفارهم لمن في الارض. ومعنى الكلام والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزله من قبلك، وبالملائكة. واختاره الطبري. قال لانه في قراءة أبي كذلك، وكذلك هو في مصحفه. فلما وافق مصحفه لمصحفنا ذلك على انه ليس بغلط. وقال اخرون: المعنى المؤمنون يؤمنون بما انزل اليك، وما انزل من قبلك، ويؤمنون بالمقيمون الصلاة، وهم الائمة المعصومون، والمؤتون الزكاة، كما قال: يؤمن بالله، ويؤمن للمؤمنين. وانكروا النصب على المدح. قالوا: وانما يجوز ذلك بعد تمام خبره قالوا وخبر الراسخين قوله: " اولئك سنؤتيهم اجرا عظيما " فلايجوز نصب المؤمنين على المدح في وسط الكلام قبل تمام الخبر. واختار الزجاج ذلك. قال:

يجوز ان تقول مررت بزید كريم. بالجر والنصب والرفع: النصب على المدح، والخفض على الصفة، والرفع على تقدير هو الكريم. وانشد في النصب على المدح

(٣٩١)

يت خرناق:

لايبعدن قومي الذين * هم سم العداة وافة الجزر

النازليين بكل معتزك * والطيبون معاهد الأزر

على معنى اذكر النازلين وهم الطيبون. ولو نصب لكان جائزا. وقال قوم

المعنى لكن الراسخون في العلم منهم ومن المقيمين الصلاة قالوا فموضعه خفض. وقال:

قوم: المعنى يؤمنون بما أنزل. اليك وإلى المقيمين الصلاة وهذا الوجهان الاخيران ضعيفان عند النحويين، لانه لا يكاد يعطف ظاهر على مكنى.

قوله: " اولئك سنوتيتهم اجرا عظيما " إشارة إلى هؤلاء الذين وصفهم الله فاخبر أنه سيعطيهم اجرا أي ثوابا، وجزآ على ما كان منهم من طاعة الله واتباع أمره من الخلود في الجنة. وقيل من جملة الراسخين: عبدالله بن سلام وابن يامين وابن سوريا، واسد وثعلبة، وسلام وغيرهم من علماء اليهود الذين آمنوا بالنبي (صلى الله عليه وآله).

قوله تعالى:

(إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان واتينا داود زبوراً) (١٦٢) آية.

القراءة والحجة

قرأ حمزة وخلف (زبوراً) بضم الزاي. الباقرن بفتحها حيث وقعت من ضم الزاي احتمل ذلك وجهين: احدهما أن يكون جمع زبر، فوقع على المزبور الزبر.

كما قيل: ضرب الامير ونسج اليمن. كما يسمى المكتوب الكتاب، ثم جمع الزبر على زبور لوقوعه موقع الاسماء التي ليست مصادر، كما يجمع الكتاب كتب، فلما استعمل استعمال الاسماء، قالوا: زبور والوجه الآخر ان يكون جمع زبور يحذف الزيادة على زبور، كما قالوا: ظريف وظروف، وكروان وكروان، وورشان

(٣٩٢)

ورشان ونحو ذلك مما يجمع بحذف الزيادة يدل على قوة هذا ان التكسير مثل التصغير. وقد اطردها هذا الحذف في ترخيم التصغير نحو ازهر وزهير، وحارث وحريث وثابت وثبيت والجمع مثله في القياس، وإن كان اقل منه في الاستعمال، ومن فتح الزاي أراد الكتاب المنزل على داود (ع) كما سمي المنزل على موسى التوراة، والمنزل على عيسى الانجيل، والمنزل على محمد (صلى الله عليه وآله) الفرقان.

— المعنى —

قال الحسين بن علي المغربي: زبور جمع زبور ومثله تخوم وتخوم وعذوب وعذوب قال: ولا يجمع فعول - بفتح الفاء - على فعول - بضم الفاء - إلا هذه الثلاثة فيما عرفنا. والزبر

احكام العمل في البئر خاصة يقال: بئر مزبورة: اذا كانت مطوية بالحجارة. ويقال: ما لفلان زبراي عقل. وزبر الحديد: قطعة واحدها زبرة. ويقول زبرت الكتاب ازبره زبرا مثل اذبره ذبرا - بالذال المعجمة -.

— المعنى —

هذا خطاب من الله للنبي (صلى الله عليه وآله) يقول الله: إنا اوحينا اليك يا محمد أي ارسلنا اليك رسلنا بالنبوة كما أرسلنا إلى نوح وسائر الانبياء الذين سميناهم لك من بعد والذين لم نسّمهم لك. وقيل: إن هذه الآية نزلت على النبي (صلى الله عليه وآله) لان بعض اليهود لما فضحهم الله بالآيات - التي انزلها على رسوله (صلى الله عليه وآله) من عند قوله: " يسألك أهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء، وما بعده " فتلا ذلك عليهم رسول الله، قالوا: ما انزل الله على بشر من شيء بعد موسى، فانزل الله هذه الآيات تكذيبا لهم، واخبر نبيه والمؤمنين بها انه قد انزل على من بعد موسى من الذين سماهم في هذه الآية وعلى من لم يسمهم وهو قول ابن عباس. وقال آخرون بل قالوا لما انزل الله الايات التي قبل هذه في ذكرهم: ما انزل الله على بشر من

(٣٩٣)

شيء، ولاعلى عيسى. ذهب اليه محمد بن كعب القرظي وفيه نزل قوله: " وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء " والاسباط في ولد اسحاق كالثبائل في اولاد اسماعيل. وقد بعث منهم عدة رسل: كيوسف وداود وسليمان، وموسى وعيسى، فيجوز ان يكون اراد بالوحي اليهم الوحي إلى الانبياء منهم، كما تقول: ارسلت إلى بني تميم، وإن ارسلت إلى وجوههم وليس يصح عندنا ان الاسباط الذين هم اخوة يوسف، كانوا انبياء. قوله تعالى:

(ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما) (١٦٤) آية بلاخلاف.

— الاعراب والمعنى —

يحتمل نصب (ورسلا) امرين:

احدهما - على قول الفراء - انا اوحينا اليك كما اوحينا إلى نوح، والى رسل قد قصصناهم عليك، ورسلا لم نقصصهم عليك. فلما حذف إلى نصب رسلا. وقال الزجاج: تقديره انه لما قال: " إنا اوحينا " كان معناه ارسلناك رسولا عطف على ذلك، فقال: ورسلا. وتقديره وارسلنا رسلا، فعطف الرسل على معنى الاسماء قبلها في الاعراب كما قال الشاعر:

أوحيت بالخبزله ميسرا * والبيض مطبوخا معا والسكر
لم يرضه ذلك حتى يشكرا والوجه الثاني - أن يكون نصبا بفعل يفسره ما بعده، ويتلوه، وهو
اختيار الزجاج. وتقديره وقصصنا عليك رسلا قد قصصناهم عليك، كما قال: " والظالمين
اعدلهم " والتقدير واعد للظالمين اعدلهم عذابا اليما.
وقرأ ابي ورسل - بالرفع - لما كان في الفعل عائد اليهم، وهو قوله:

(٣٩٤)

" وقد قصصناهم عليك " وقوله:

" وكلم الله موسى تكليما " نصب تكليما على المصدر وفائدة وكلم الله موسى بلاواسطة
خصوصا من بين سائر الانبياء كلمهم الله بواسطة الوحي وقيل: إنما قال ذلك، ليعلم، ان كلام
الله من جنس هذا المعقول الذي يشقق من التكلم على خلاف مايقول المبطلون. وقيل انما اتى
بالمصدر تأكيدا. وقيل: انما أراد بذلك تعظيم كلامه، كانه قال: كلم الله موسى تكليما شريفا كما
قال: " فغشيهم من اليم ما غشيهم " يريد بذلك تعظيم ما غشيهم من الالهوال فاما قول من قال:
ان الله كلم موسى باللغات كلها التي لم يفهمها. فلما كان آخر شئ كلمه بكلام فهمه، فان ذلك
لايجوز عليه تعالى، لان خطاب من لايفهم خطابه عبث يجري مجرى قبح خطاب العربي
بالزنجية، والله (يتعالى عن ذلك) قال البلخي: وفي الآية دلالة على أن كلام الله محدث من
حيث انه كلم موسى خاصة دون غيره من الانبياء، وكلمه في وقت دون وقت، ولو كان الكلام
قدما ومن صفات ذاته لم يكن في ذلك اختصاص ومن فصل بين الكليم والتكلم، فقد ابعد لان
المكلم لغيره لا يكون الامتكلم، وان كان يجوز ان يكون متكلما وان لم يكن مكلما فالمتكلم
يجمع الامرين.

قوله تعالى:

(رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة، بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما)
(١٦٥) آية بلاخلاف.

نصب (رسلا) على القطع من اسماء الانبياء الذين ذكر اسماءهم (مبشرين)
نصب على الحال. والتقدير أرسلت هؤلاء الانبياء رسلا إلى خلقي وعبادي مبشرين بثوابي من
اطاعني وصدق رسلي (ومنذرين) يعني مخوفين من عقابي من عصاني وخالف أمري، وكذب
رسلي " لئلا تكون للناس على الله حجة بعد الرسل " وقال

(٣٩٥)

ابوعلي: ذلك مخصوص بمن علم الله من حاله أن له في بعثه الانبياء لطفًا، لانه إذا كان كذلك متى لم يبعث اليهم نبيا يعرفهم ما فيه لطفهم، كان في ذلك اتم الحجة عليه (تعالى) وذلك يفسد قول من قال: في مقدوره من اللطف ما لو فعله بالكافر لآمن به، لانه لو كان الامر على ما قالوه، لكانت لهم الحجة بذلك على الله (تعالى)

قائمة. فاما من لم يعلم من حاله ان له في انفاذ الرسل اليه لطفًا، فالحجة قائمة عليه بالعقل، وأدلتة على توحيده، وصفاته وعدله، ولولم تقم الحجة بالعقل ولاقامت إلا بانفاذ الرسل، نفسد ذلك من وجهين:

أحدهما - ان صدق الرسل لايمكن العلم به الابعد تقدم العلم بالتوحيد والعدل فان كانت الحجة، لم تقم عليه بالعقل فكيف الطريق له إلى معرفة النبي (صلى الله عليه وآله) وصدقه.

والثاني - انه لوكانت الحجة لاتقوم الابالرسول لاحتاج الرسول أيضا إلى رسول آخر حتى تقوم عليه الحجة. والكلام في رسوله كالكلام في هذا الرسول ويؤدي ذلك إلى مالا يتناهى. وذلك فاسد فمن استدل بهذه الآية على ان التكليف، لايصح بحال الابعد انفاذ الرسل، فقد ابعد على ما قلناه. وقوله: " وكان الله عزيزا حكيما " معناه انه مقتدر على الانتقام ممن يعصيه ويكفر به لايمنعه منه مانع لعزته حكيم فيما امر به خلقه وفي جميع افعاله.

قوله تعالى:

(كن الله يشهدبما انزل اليك انزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا) (١٦٦) آية.
قال الزجاج: الرفع مع تخفيف (لكن) والنصب مع تشديده جائز، لكن لم يقرأ بالتشديد احد.
ومعنى " لكن الله يشهد " أي يبين ما تشهد به ويعلم مع ابانته انه حق.

(٣٩٦)

" والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا " دخلت الباء مؤكدة. والمعنى اکتفوا بالله في شهادته والمعنى في الآية ان هؤلاء اليهود الذين سألوك ان ينزل عليهم كتابا من السماء وقالوا لك ما أنزل الله على بشر من شيء، قد كذبوا ليس الامر كما قالوا، لكن الله يشهد بتنزيل ما انزله اليك من كتابه ووحيه انزل ذلك اليك، وهو عالم بانك خيرته من خلقه، وصفوته من عباده يشهد لك بذلك ملائكته، فلا يحزنك تكذيب من كذبك، وخلاف من خالفك " وكفاك بالله شهيدا " أي حسبك بالله شاهدا على صدقك، دون ما سواه. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في جماعة من اليهود كان النبي (صلى الله عليه وآله) دعاهم إلي اتباعه، واخبرهم أنهم يعلمون حقيقته نبوته فجدوا نبوته، وانكروا معرفته، فانزل الله فيهم هذه الآية تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) وتعزية له عن تكذيب من كذبه. ومن استدل بهذه الآية على انه تعالى عالم بعلم، فقد اخطأ لان، قوله بعلمه معناه، وهو عالم به. ولو كان المراد بذلك ذاتا اخرى، لوجب ان يكون العلم

آلة في الانزال، كما يقولون كتبت بالقلم، وقطعت بالسكين، ونجرت بالفاس. ولاخلاف ان العلم ليس بآلة في الانزال. وقال الزجاج معناه إنزال القرآن الذي علمه فيه. وهو اختيار الازهري. قوله تعالى:

(ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا) (١٦٧) آية المعنى:
ان الذين جحدوا نبوتك بعد علمهم بها من أهل الكتاب الذين ذكر قصتهم، وانكروا ان الله تعالى أوحى اليك وانزل كتابه عليك، وصدوا عن سبيل الله يعني عن الدين بعثك به الي خلقه. وهو الاسلام بقولهم للذين يسألونهم

(٣٩٧)

عن صحة نبوتك ما نجد صفة محمد (صلى الله عليه وآله) في كتبنا، وادعأؤهم عهد إليهم ان النبوة لاتكون إلا في ولد هارون. ومن ذرية داود، وماشبه ذلك فقد ضلوا ضلالا بعيدا يعني جاروا عن قصد الطريق جورا شديدا، وزالوا عن المحجة التي هي دين الله الذي ارتضاه لعباده وبعثك به الي خلقه زوالا بعيدا، ابعدوا من الرشاد. قوله تعالى:

(إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا (١٦٨) الا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا) (١٦٩) آيتان.

هذا خبر من الله تعالى بان الذين جحدوا رسالة محمد (صلى الله عليه وآله) كفروا بالله، وجحدوه بجحودهم رسالة نبيه وظلموا نبيه بتكذيبهم اياه، ومقامهم على الكفر على علم منهم بظلمهم عباد الله، وحسدا للعرب، وبغيا على رسوله " لم يكن ليغفر لهم " يعني لم يكن الله ليغفو عن ذنوبهم بترك عقابهم عليها، لكنه تعالى يفضحهم بها (جل ثأؤه) بعقوبته إياهم عليه، ولاليهديهم طريقا يعني لاليهديهم لطريق الجنة، لان الهداية إلى طريق الايمان قد سبقت، وقد عم الله ايضا بها جميع المكلفين. ويحتمل ان يكون المراد لم يكون الله يفعل بهم ما يؤمنون عنده في المستقبل عقوبة لهم على كفرهم الماضي، واستحقاقهم حرمان ذلك، وانه يخذلهم عن ذلك حتى يسلكوا طريق جهنم، ويكون المعنى لم يكن الله ليوفقهم للاسلام، لكنه يخذلهم عنه إلى طريق جهنم جزاء لهم على ما فعلوه من الكفر خالدين فيها مقيمين ابدا " وكان ذلك على الله يسيرا " المعنى وكان تخليد هؤلاء الذين وصفت لكم صفتهم في جهنم على الله يسيرا، لانه تعالى إذا أراد ذلك به لم يقدر على الامتناع منه، ولايصعب عليه عقاب من يعصيه، فذلك كان يسيرا عليه.

(٣٩٨)

قوله تعالى:

(ياايها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فأمنوا خيرا لكم وان تكفروا فان الله ما في السماوات والارض وكان الله عليما حكيما) (١٧٠) آية بلاخلاف.

خاطب الله بهذه الآية جميع الكفار الذين لم يؤمنوا بالنبى (صلى الله عليه وآله) من مشركي العرب، وجميع اصناف الكفار، وبين انه قد جاءهم الرسول - يعني محمد (صلى الله عليه وآله) - بالحق من ربكم - يعني بالاسلام الذي ارتضاه الله لعباده ديننا من ربكم. يعني من عند ربكم " فامنوا خيرا لكم " معناه صدقوه وصدقوا ما جاءكم به من عند ربكم من الدين فان الايمان بذلك خير لكم من الكفر " وان تكفروا " اي تجحدوا نبوته وتكذبوا رسالته وبما جاء به من عند الله فان ضرر ذلك يعود عليكم دون الله تعالى الذي له ملك السماوات، لاينقص كفركم بما كفرتم به من امره، وعصيانكم فيما عصيتموه فيه من ملكه وسلطانه شيئا. " وكان الله عليما " بما انتم صائرون اليه من طاعته أو معصيته " حكيما " في امره اياكم ونهيه عما نهاكم عنه وفي غير ذلك من تدبيره فيكم، وفي غيركم من خلقه.

الاعراب -: واختلفوا في نصب " خيرا لكم " فقال الخليل، وجميع البصريين: إن ذلك محمول على المعنى، لانك إذا قلت: انته خيرا لك، فانت تدفعه عن امر، وتدخله في غيره، كانك قلت: انته وات خيرا لك، وادخل فيما هو خير لك وانشد الخليل وسيبويه قول عمر بن ابي ربيعة:

فواعديه سرحتي مالك * او الربا بينهما اسهلا

وتقديره وأنتي مكانا اسهلا وقال الكسائي: انتصب يخرجوه من الكلام. قال:

(٣٩٩)

وهذا تفعله العرب في الكلام التام، نحو قولك لتقو من خيرا لك، وانته خيرا لك، فاذا كان الكلام ناقصا، لم يخبر غير الرفع تقول: ان تنته خير لك، وان تصبروا خير لكم. وقال الفراء انتصب ذلك لانه متصل بالامر وهو من صفته. الا ترى انك، تقول: انته هو خير لك؟ فما اسقطت هو اتصل بما قبله، وهو معرفة فانتصب وقال ابو عبيدة: انتصب ذلك على اضمار كان، كانه قال: فامنوا يكن الايمان خيرا لكم. قال: وكذلك كل امر ونهي قال الفراء: يلزم على ذلك ما يبطله. ألا ترى انك تقول: اتق الله تكن محسنا، ولا يجوز ان تقول: اتق الله محسنا باضمار كان، ولا يصلح ان تقول: انصرنا اخانا، وانت تريد تكن اخانا. وقال قوم. انتصب ذلك بفعل مضمر اكتفى في ذلك المضمر بقوله: لاتفعل ذلك وافعل صلاحا لك.

قوله تعالى:

(يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه فامنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم انما الله اله واحد سبحانه ان يكون له ولد له ما في السماوات وما في الارض وكفى بالله وكيلًا) (١٧١) آية واحدة.

هذا خطاب من الله تعالى لاهل الكتاب الذي هو الانجيل وهم النصارى نهاهم الله (تعالى) ان يغلوا في دينهم بان يجاوزوا الحق فيه، ويفرطوا في دينهم، ولا يقولوا في عيسى غير الحق، فان قولهم في عيسى انه ابن الله قول بغير الحق، لانه (تعالى) لم يتخذ ولدا فيكون عيسى أو غيره من خلقه ابناله، ونهاهم ان يقولوا على الله. الاالحق، وهو الاقرار بتوحيده، وانه لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد.

واصل الغلو في كل شئ تجاوز حده يقال: غلا فلان الدين يغلو غلوا. وغلا

(٤٠٠)

بالجارية عظمها ولحمها: إذا انسرعت الشباب، وتجاوزت لذاتها. يغلو بها غلوا وغلاء قال الحارث بن خالد المخزومي:

خمصانة فلق موشحها * رود الشباب غلابها عظم (١)

وقوله: انما المسيح عيسى بن مريم، فأصل المسيح المموح - نقل من مفعول إلى فاعيل. سماه الله بذلك لتطهيره إياه من الذنوب، وقيل مسح من الذنوب والادناس التي تكون في الادميين كما يمسح الشئ من الأذى الذي يكون فيه. وهو قول مجاهد. وقال ابو عبيدة: هذه الكلمة عبرانية أو سريانية مشيحا، فعربت فقيل المسيح، كما عرب سائر أسماء الانبياء في القرآن، نحو اسماعيل واسحاق وموسى وعيسى. وقال قوم ليس هذا مثل ذلك، لان اسماعيل واسحاق وما اشبههما اسماء، لاصفات. والمسيح صفة ولا يجوز ان يخطب العرب وغيرها من اجناس الخلق في صفة شئ إلا بما يفهم، فعلم بذلك انها كلمة عربية وقال ابراهيم: المسيح المسيح الصديق واما المسيح الدجال فانه ايضا بمعنى الممسوح العين صرف من مفعول إلى فاعيل فمعنى المسيح في عيسى (ع) الممسوح البدن من الادناس والآثام. ومعنى المسيح في الدجال الممسوح العين اليمنى أو اليسرى كما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله) في ذلك، وقوله:

رسول الله اخباره منه (تعالى) ان المسيح أرسله الله وجعله نبيا. وقوله: (كلمته القاها إلى مريم) فانه يعني بالكلمة الرسالة التي امر الله ملائكته أن يأتي بها بشارة من الله (تعالى) لها التي ذكرت في قوله: " قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه " يعني برسالة منه وبشارة من عنده وقال قتادة والحسن: هو قوله: " كن فكان " واختار الطبري الاول وقال

الجبائي: ذلك مجاز، وانما اراد بالكلمة انهم يهتدون بعيسى، كما يهتدون بكلامه. وكذلك يحيون به في دينهم كما يحيى الحي بالروح، فلذلك سماه روحا.

(١) - اللسان (علا) - مجاز القرآن ١: ١٤٣ وفي الاغاثي (علا) بدل (فلا).
خصماتة بفتح الحاء وضعتها - ضامرة البطن. رُود الشباب شابة حسنة. (*).

(٤٠١)

وقوله: " القاها إلى مريم " فمعناه اعلمها بها واخبرها كما يقال القيت اليك كلمة حسنة بمعنى اخبرتك بها. وقال الجبائي: معنى القاها إلى مريم خلقه في رحمها.
وقوله: " وروح منه " اختلفوا فيه على ستة اقوال:
فقال، قوم: معناه ونفحة منه وسماء روحا، لانه حدث عن نفحة جبرائيل في درع مريم بامر الله له بذلك، ونسب إلى الله، لانه كان بامرهم. وانما سمي النفخ روحا، لانها ريح تخرج من الروح. واستشهدوا على ذلك قول ذي الرمة - واسمه غيلان - في صفة نار نفثها.
فلما بدت كفنتها وهي طفلة * بطلساء لم تكمل ذراعا ولاشبرا.
وقلت له: ارفعها اليك واحيها * بروحك واقتتها لها قبيلة قدرا
وظاهر لها من يابس الشخت، واستعن * عليها الصبا واجعل يديك لهاسترا (٢).
معنى احياها بروحك اي بنفخك. وقال بعضهم: معناه انه كان انسانا باحياء الله اياه بتكوينه بلاواسطة من جماع، ونطفة على مجرى العادة.
وقال قوم: قوله: " وروح منه " معناه ورحمة منه. كما قال في موضع:
" وايدهم بروح منه " ومعناه ورحمة منه. قال: فجعل الله عيسى رحمة على من اتبعه، وأمن به وصدقه، لانه هداهم إلى سبيل الرشاد.
وقال آخرون: معنى ذلك وروح من الله خلقها فصورها، ثم أرسلها إلى مريم، فدخلت في فيها فصيرها الله تعالى روح عيسى ذهب اليه ابو العالية عن أبي ابن كعب.

(١) - ديوانه. واللسان (روح) يصف نارا طلساء خرقة اقتتها...: (نفخ بها برفق) الشحت: الدقيق من كل شئ. (*)

(٤٠٢)

وقال بعضهم: ان معنى الروح - هاهنا - القوة التي كان بها يحيى الموتى قال الراجز:
اذعرج الليل بروح الشمس وقال قوم: معنى الروح هاهنا جبرائيل. قالوا: والروح معطوفة به على ما في قوله من ذكر الله تعالى. والمعنى ان القاء الكلمة إلى مريم كان من الله تعالى.

ثم من جبرائيل. وقوله: " فامنوا بالله ورسله " امر من الله اياهم بتصديق الله تعالى، والاقرار بوحدانيته، وتصديق رسله فيما جاؤا به من عندالله، وفيما اخبرهم به أن الله لا شريك له، ولصاحبة ولاولدا.

وقوله: " ولاتقولوا ثلاثة انتهوا " نهى لهم عن أن يقولوا الارباب ثلاثة، وانما رفع ثلاثة بمحذوف دل عليه ظاهر الكلام. وتقديره ولاتقولوا: هم ثلاثة.

وانما جاز ذلك، لان القول حكاية ومثل ذلك قوله: " سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم " (١) وكذلك كلما ورد من مرفوع بعد القول لارافع معه ففيه اضمار اسم رافع لذلك الاسم، ثم قال متوعدا لهم على عظيم قولهم الذي قالوه في الله: انتهوا أيها القائلون الله ثالث ثلاثة عما تقولون من الزوج والشرك بالله، والانتهاء عن ذلك خير لكم من قولكم لما لكم عند الله من العقاب العاجل لكم على قولكم ذلك ان أقمتم عليه، ولم ترجعوا إلى الحق.

ووجه النصب في " انتهوا خير لكم " ما قلناه في قوله آمنوا خيرا لكم، فلا وجه لاعادته.

وقوله: " انما الله اله واحد " معناه الاخبار من الله (تعالى) ان الذي يحق له العبادة واحد، لان من كل له ولد، لا يكون آلهها وكذلك من كان له صاحبة لايجوز ان يكون إلهها معبودا، ولكن الله الذي له الالهوية والعبادة إله واحد، ومعبود واحد لاولد له، ولاوالد، ولصاحبة، ولاشريك، ثم نزه تعالى نفسه وعظمتها ورفعها عما قاله المبطلون الكافرون فقال: " سبحانه ان يكون

(١) سورة الكهف، آية ٢٣.

(٤٠٣)

له ولد " ولفظة سبحان تفيد الممتزيه عما لايليق به من الولد والصاحبة، لان من يملك ما في السماوات والارض وما بينهما وله التصرف فيهما، وفيهم عيسى وامه، وهم عبيده، وهو رازقهم وخالقهم، وهم أهل الحاجة إليه والفاقة، فكيف يكون المسيح ابناله، وهو إما في الاض أو في السماء. وهو تعالى يملك جميع ذلك، ويحتمل ان يكون في موضع نصب لانه يصلح ان يقال عن ان يكون او من ان يكون، فاذا حذف حرف الجر كانت في موضع نصب. وكان الكسائي يقول هو في موضع خفض. والاول قول الفراء وغيره.

وقوله: " وكفى بالله وكيفا " معناه حسب ما في السموات وما في الارض بالله قيما ومدبرا، ورازقا من الحاجة معه إلى غيره ومعنى كفى بالله اكتفوا بالله.

وقد شبهت النصارى قولها: انه ثلاثة اقانيم جوهر واحد بقولنا: سراج واحد، ثم نقول. انه ثلاثة اشياء دهن وقطن ونار وللشمس انها شمس واحدة، ثم نقول انها جسم وضوء وشعاع. قال البلخي، وهذا غلط، لانا وان قلنا إنه سراج واحد، لانقول هوشى واحد، ولالشمس انها

شئ واحد بل نقول هو أشياء على الحقيقة، كما نقول عشرة واحدة، وانسان واحد، ودار واحدة، وشهر واحد، وهي اشياء متغايرة. فان قالوا: إن الله شئ واحد حقيقة كما انه إله واحد، فقولهم بعد ذلك انه ثلاثة مناقضه لايشبه ما قلناه. وان قالوا: هو اشياء، وليس بشئ واحد دخلوا في قول المشبهة، وتركوا القول بالتوحيد. والعجب انهم يقولون: إن الاب له ابن والابن لآب له، ثم يزعمون ان الذي له ابن هو الذي لآب له، ويقولون إن من عبد الانسان، فقد اخطأ وضل، ثم يزعمون ان المسيح إله انسان، وانهم يعبدون المسيح. وقد تكلمنا على ما نعقل من مذاهبهم في الاقانيم والاتحاد والنبوة في كتاب شرح الجمل بما لامزيد عليه لانطول بذكره هاهنا.

(٤٠٤)

قوله تعالى:

(لن يستتفك المسيح ان يكون عبدا لله والملائكة المقربون ومن يستتفك عن عبادته ويستكبر فيسحشرهم اليه جميعا) (١٧١) آية.

معنى " لن يستتفك المسيح " لم يأنف. وأصله في اللغة من نكفت الدمع: إذا نحيت به باصبعك من خدك. قال الشاعر:

فباتوا فلولا ما تذكر منهم * من الخلف لم ينكف لعينيك مدمع

فتأويل " لن يستتفك " لن ينقبض ولن يمتنع. فمعنى الآية " لن يستكبر المسيح ان يكون عبدا " بمعنى من ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون. ومعناه ولا يستتفك الملائكة أيضا، ولا يأنفون، ولا يستكبرون من الاقرار لله بالعبودية، والاذعان له بذلك " المقربون " الذين قربهم ورفع منازلهم على غيرهم من خلقه.

وقال الضحاك: المقربون معناه انه قربهم إلى السماء الثانية. وقوله: " ومن يستتفك عن عبادته ويستكبر " معناه من يأنف من عبادة الله، ويتعظم عن التذلل والخضوع له، والطاعة له من جميع خلقه " فسحشرهم ". ومعناه فسبيعتهم يوم القيام جميعا يجمعهم لموعدهم عنده. ومعنى إليه إلى الموضع الذي لا يملك التصرف فيه سواه، كما يقال صار أمر فلان إلي القاضي أي لا يملكه غير القاضي، ولا يراد بذلك المكان الذي فيه القاضي. واستدل قوم بهذه الآية على ان الملائكة أفضل من الانبياء، قالوا: لا يجوز ان يقول القائل: لا يأنف الامير أن يركب الي ولا غلامه. وانما

يجوز أن يقال: لا يأنف الوزير أن يركب الي ولا الامير، فيعطف بعالي الرتبة على الادون، ولا يعطف بالادون على الاعلى. وهذا الذي ذكروه لادلالة فيه من وجوه:

احدها - ان يكون هذا القول متوجها إلى قوم اعتقدوا أن الملائكة أفضل من الانبياء، فاجرى الكلام على اعتقادهم، كما يقول القائل لغيره: لا يستكف ابي من

(٤٠٥)

من كذا، ولا ابوك. وإن كان القائل يعتقد ان اياه أفضل.
الثاني - انه لاتفاوت بين الانبياء والملائكة التفاوت البعيد كتفاوت الامير والحارس، وما يجري مجرى ذلك. ويجوز أن يقدم الفاضل ويؤخر المفضل. ألا ترى أنك تقول: لا يستكف الامير فلان من كذا، ولا الامير فلان؟ وان كان الاول افضل.
والثالث - انه اخر ذكر الملائكة، لان جميع الملائكة اكثر ثوابا لا محالة من المسيح منفردا فمن اين ان كل واحد منهم افضل من المسيح، او غيره من الانبياء؟ قوله تعالى:
(فاما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم اجرهم ويزيدهم من فضله واما الذين استكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا اليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) (١٧٢) آية.
أخبر الله تعالى في هذه الآية و وعد ان الذين يقرون بوحدانيته تعالى، ويعترفون بربوبيته، ويخضعون لعبادته، ويعملون الاعمال الصالحات التي أمر الله بها، وبعث بها رسله انه يوفيهم اجرهم. ومعناه يؤتيهم جزاء أعمالهم الصالحة وافية تاما، ويزيدهم من فضله يعني يزيدهم ما كان وعدهم به من الجزاء على أعمالهم الصالحة والثواب عليها من الفضل، والزيادة هو ما لم يعرفهم مبلغه لانه (تعالى) وعد على الحسنة عشر أمثالها من الثواب، والزيادة على ذلك تفضل من الله عليهم، وإن كان كل ذلك من فضله إلى عباده. وقد روي ان الزيادة إلى سبعين ضعفا وإلى سبعمائة وإلى الفين وكل ذلك جائز على ما يختاره الله ويفعله.
وقوله " وأما الذين استكفوا واستكبروا " معناه أن الذين يأنفون عن الاقرار بتوحيد الله، ويتعظمون عن الاعتراف بعبوديته، والاذعان له بالطاعة،

(٤٠٦)

واستكبروا عن التذلل له، وتسليم ربوبيته يعذبهم عذابا اليما أي مؤلما موجعا، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا. وانما رفع ولا يجدون بالعطف على ما بعد فيعذبهم ولو جزم على موضع ما بعد الفاء، كان جائزا يعني ولا يجد المستكفون والمستكبرون لانفسهم وليا ينجيهم من عذابه، وناصرين ينقذهم من عقابه.
قوله تعالى:

(ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا) (١٧٣) آية بلاخلاف -.

هذا خطاب من الله (تعالى) لجميع الخلق من الناس المكلفين من سائر اصناف الملل الذين قص قصصهم في هذه السورة من اليهود والنصارى والمشركين " قد جاءكم " يعني أتاكم حجة من الله تبرهن لكم عن صحة ما أمركم به، وهو محمد (صلى الله عليه وآله) جعله الله حجة عليكم، وقطع به عذركم، " وانزلنا إليكم نورا مبينا " يعني وانزلنا اليكم معه نورا مبينا يعني بين لكم المحجة الواضحة، والسبل الهادية إلى ما فيه لكم النجاة من عذاب الله واليم عقابه، وذلك النور هو القرآن الذي أنزله الله على محمد (صلى الله عليه وآله) وهو قول مجاهد، وقتادة والسدي وابن جريج، وجميع المفسرين. وانما سماه نورا لنا فيه من الدلالة على ما امر الله به ونهى عنه والاهتداء به تشبها بالنور الذي يهتدي به في الظلمات وفي الآية دلالة على أن كلام الله محدث، لانه وصفه بالانزال فلو كان قديما، لما جاز ذلك عليه.

قوله تعالى:

(فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما) (١٧٤) آية.

(٤٠٧)

هذا اخبار من الله ووعده لمن صدق الله وأقر بوحدانيته، واعترف بما بعث به نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) من أهل الملل، واعتصم به وتمسك بالنور الذي أنزله إلى نبيه. قال ابن جريج الهاء في (به) كناية عن القرآن، فسيدخلهم في رحمة منه معناه ستألفهم رحمة التي تتجهم من عقابه، وتوجب لهم ثوابه، وجنته، ويلحقهم مالحق أهل الايمان به، والتصديق لرسله، " ويهديهم اليه صراطا مستقيما " يعني يوفقهم لاصابة فضله الذي تفضل به على أوليائه ويسددهم لسلوك منهج من أنعم عليه من أهل طاعته واقتفاء اثارهم واتباع دينهم. وذلك هو الصراط المستقيم.

وهو الاسلام الذي ارتضاه الله ديننا لعباده.

ونصب " صراطا مستقيما " على القطع من الهاء في قوله (إليه) ويحتمل أن يكون المراد بقوله: " ويهديهم اليه " يعني إلى ثوابه.

قوله تعالى:

(يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين يبين الله لكم ان تضلوا والله بكل شئ عليم) (١٧٥) آية آخر السورة.

– النزول –

روى البراء بن عازب قال: آخر سورة نزلت كاملة براءة. وآخر آية نزلت خاتمة سورة النساء " يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة " وقال جابر بن عبدالله: نزلت في المدينة وقال ابن سيرين: نزلت في مسير كان فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله)

(٤٠٨)

واصحابه. واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال سعيد بن المسيب: سأل عمر النبي (صلى الله عليه وآله) عن الكلالة، فقال: ليس قد بين الله ذلك؟ قال: فنزلت " يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة " وقال جابر بن عبدالله: اشتكيت وعندي تسع اخوات لي أوسبع، فدخل علي النبي (صلى الله عليه وآله) فنفخ في وجهي، فافقت. فقلت: يا رسول الله ألا أوصي لآخواتي بالثلثين؟ قال: أحسن. قلت: الشطر. قال: احسن، ثم خرج وتركني، ورجع الي فقال: يا جابر اني لاراك ميتا من وجعك هذا، وان الله عزوجل قد أنزل في الذي لآخواتك فجعل لهن الثلثين. قال: وكان جابر يقول:

نزلت هذه الآية في. وقال قتادة: ان اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) همهم شأن الكلالة، فانزل الله (عزوجل)، فيها هذه الآية.

– المعنى –

معنى يستفتونك يسألونك يا محمد ان تفتيهم في الكلالة. وحذف اقتصارا لما دل الجواب عليه. والاستفتاء والاستقضاء واحديقال: قاضيته وفاتيته.

قال الشاعر:

تعالوا نفاتيكم أعياء وفقعس * إلى المجد أدنى ام عشيرة حاتم
هكذا انشده الحسين بن علي المغربي. وقد فسرنا معنى الكلالة وذكرنا اختلاف العلماء في ذلك فأغنى عن الاعادة. وقوله: " أن امرؤ هلك ليس له ولد " قال السدي: معناه مات ليس له ولد ذكر وانثى، (وله اخت) يعني وللميت اخت لآبيه وامه، فلها نصف ما ترك، فان لم يكن أخت لآب وأم، وكانت اخنا لآب قامت مقامها، والباقي عندنا رد على الاخت سواء كان هناك عصابة، اولم يكن. وقال جميع الفقهاء: إن الباقي للعصابة، وإن لم يكن هناك عصابة، وهم العم وبنو العم، واولاد الاخ. قال فمن قال: الرد على ذوي الارحام، رد على الاخت الباقي وهو اختيار الجبائي، وأكثر اهل العلم. وقال زيد بن ثابت، والشافعي وجماعة: إن الباقي لبيت المال يرثه جميع المسلمين. وقوله: " وهو يرثها إن لم يكن لها ولد " يعني إن كانت الاخت هي

(٤٠٩)

الميتة، ولها أخ من أب وأم، أو من اب فالمال كله له بلاخلاف إذا لم يكن هناك ولد، سواء كان ولدها ذكراً، أو أنثى، فإن كان ولدها ذكراً، فالمال له بلاخلاف ويسقط الاخ، وإن كانت بنتا كان لها النصف بالتسمية بلاخلاف والباقي رد عليها، لأنها اقرب دون الاخ، ولأن الله (تعالى) انما قال: " وهو يرثها " يعني الاخ إذا لم يكن لها ولد. والبنت - ولد - (١) بلاخلاف ومن خالف في تسمية البنت ولدا فقد اخطأ. ذكر ذلك البلخي واستدل على ذلك بان قال: لو مات وخلف بنياً وأبوين إن للابوين الثلث، مع قوله: " ولابويه لكل واحد منهما السدس ان كان له ولد " وإنما أراد الولد الذكر. وهذا الذي ذكره خطأ، لأنه خلاف لاهل اللغة. لأنه لاخلاف في تسمية البنت بانها ولد، ولأنه قال: " يوصيكم الله في أولادكم " ثم فسر الاولاد فقال: " للذكر مثل حظ الانثيين " فلو كان الولد لايقع على الانثى، لكان المال بينهم بالسوية، وذلك خلاف القرآن. على انا نخالف في المسألة التي ذكرها، فنقول للابوين السدسان، وللبنات النصف والباقي رد عليهم على قدر سهامهم، فنجعل الفريضة من خمسة ومن رد الباقي على الاب فانما يرده بالتعصيب، لالان البنت لاتسمى ولداً، فبان بطلان ماقاله. ومن خالفنا من الفقهاء في مسألة الاخ والبنت، يقول: الباقي للاخ، لقوله (ع): (ما ابققت الفرائض فلأولي عصبته)

ذكر هذا الخبر عندنا ضعيف، لأنه أولاً خير واحد. وقد طعن على صحته. ضعفه أصحاب الحديث بما ذكرناه في مسائل الخلاف، وتهذيب الاحكام، وغير ذلك من كتبنا. وما هذه صفته لايترك له ظاهر القرآن. وقوله: " فان كانتا اثنتين " يعني ان كانت الاختان اثنتين، فلهما الثلثان. وهذا لاخلاف فيه والباقي على مابيناه من الخلاف في الاخت الواحدة. عندنا، رد عليها دون عصبته، ودون ذوي الارحام، وإذا كان هناك عصبته، رد الفقهاء الباقي عليهم، وإن لم يكن رد على ذوي الارحام.

من قال بذلك فرد على الاختين، لانهما أقرب، ومن لم يقل بذلك رد على بيت المال. فان كانت احدى الاختين لاب وام، والاخرى لاب، فللاخت للاب والام النصف،

(١) - ساقطة من المطبوعة. (*)

(٤١٠)

بلاخلاف. والباقي ردعليها عندنا، لأنها تجمع السببين ولاشئ للاخت للاب، لأنها انفردت بسبب واحد وعند الفقهاء لها السدس تكملة الثلثين والباقي على ما بيناه من الخلاف، وإن كانوا أخوة رجالاً ونساء يعني يكون الورثة أخوة رجالاً ونساء للاب، والام، أو للاب فللذكر مثل

حظ الانثيين. بلاخلاف فان كان الذكور منهم للاب والام والاناث للاب، انفرد الذكور بجميع المال بلاخلاف. وإن كان الاناث للاب والام والذكور للاب كان للاناث الثلثان ما سمي بلاخلاف والباقي عندنا، رد عليهن لما بيناه من اجتماع السببين لهن. وعند جميع الفقهاء ان الباقي للاخوة من الاب، لانهم عصبه. وقد قلنا ما عندنا في خبر العصبه ويمكن ان يحمل خبر العصبه مع تسليمه على من مات، وخلف زوجا أو زوجة وأخالاب وأم، وأخا للاب أو ابن اخ لاب وأم، أو ابن أخ لاب أو ابن عم لاب وام، وابن عم لاب فان للزوج سهمه المسمى والباقي لمن يجمع كلاله الاب والام دون من يتفرد بكلاله الاب.

وقوله: " يبين الله لكم أن تضلوا " قال الفراء: معناه لئلا تضلوا.
قال القطامي:

رأينا ما رأى البصراء فيها * فآلينا عليها ان تباعا (١)

والمعنى الاتباعا. وقال الزجاج والبصريون: لايجوز إضمار لا. والمعنى يبين الله لكم كراهة أن تضلوا. وحذف كراهة، لدلالة الكلام عليه. قالوا: وانما جاز الحذف في قوله: " وسل القرية " والمعنى وسل اهل القرية، لانه بقي المضاف فدل على المحذوف. فاما حذف (لا) وهى حرف جاء لمعنى النفي، فلايجوز، لكن قد تدخل في الكلام مؤكدة وهى لغو كقوله: " لئلا يعلم أهل الكتاب " والمراد لئن يعلم. ومثله قول الشاعر:

وما الوم البيض الا تسخرا * إذا راين الشمط القفندرا (٢)

(١) - ديوانه: ٤٣ يصف ناقته. (٢) - أنظرا: ٥٥؛ (*)

(٤١١)

والمعنى وما الوهم البيض ان تسخر ومثله قوله: " لااقسم بهذا البلد " (١)
" ولااقسم بيوم القيامة " (٢) والمعنى أقسم. ولايجوز على القياس على ذلك أن تقول: لأخلف عليك وتريد أخلف عليك، لان (لا) إنما تلغى إذا مضى صدر الكلام على غير النفي، فاذا بنيت الكلام على النفي، فقد نقضت الايجاب وانما جاز الغاء (لا) في اول السورة، لان القرآن كله كالسورة الواحدة ألا ترى أن جواب الشئ فيه يقع وبينهما سور؟ كما قال تعالى جوابا لقوله: " وقالوا ياايها الذين نزل عليه الذكر انك لمجنون " (٣) فقال: " نون والقلم وما يسطرون. ما انت بنعمة ربك بمجنون " (٤) وبينهما سور كثيرة. ذكره الزجاج. وقوله: " إن امرؤ هلك " قال الفراء (هلك) في موضع جزم. ومثله قوله: " وان احد من المشركين استجارك " (٥) ولوكان موضعها يفعل كان جزما. وقال الزجاج: جاز مع ان تقديم الاسم قبل الفعل، لان (ان) لاتعمل في الماضي، ولانها (ام) في الجزاء قال: والتقدير ان هلك امرؤ هلك. وانشد الفراء:

صعدة قد نبتت في حائر * اينما الريح تميلها تمل

فجزم تميلها. وقدحال بينها وبين اينما بالاسم وهو الريح. وقال عمر: سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن الكلاله، فقال: ألم تسمع الآية التي انزلت في الصيف. وفي خبر آخر - تكفيك آية الصيف.

وقوله: " امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك " يمنع أن يكون الاخت ترث مع البنت، لانه شرط في ميراثها عدم الولد. والبنت ولد بلا حلاف بين أهل اللغة. وما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أن الاخوات مع البنات عصبه خبر واحد، لايلتفت اليه، لانه يخالف نص القرآن. وبما قلناه قال ابن عباس، لانه لم يجعل الاخوات مع البنات عصبه.

(١) - سورة البلد، آية ١. (٢) - سورة القيامة، آية ١. (٣) - سورة الحجر، آية ٦. (٤) - سورة القلم، آية ١ - (٥) سورة التوبة، آية ٧. (*)

(٤١٢)

وموضع (ان) في قوله (ان تضلوا) نصب في قول الاكثر، لاتصالها بالفعل وفي قول الكسائي: خفض، لان تقديره عنده لئلا تتولوا، فان قيل:
ما وجه قوله: " اثنتين " مع أن قوله: " فان كانتا " قد دل على الثنتين؟ قيل:
يحتمل امرين:

احدهما - ان يكون ذلك تأكيدا للمضمرة بقول القائل: فعلت أنا.

والثاني - ان يبين بذلك ان المطلوب في ذلك العدد، لاغيره من الصفات من صغر او كبير أو عقل أو عدمه، وغير ذلك من الصفات، بل متى جعل العدد ثبت مذكوره من الميراث. وقوله:

والله بكل شي عليم " معناه عالم بكل شئ من مصالح عباده في قسمته مواريتهم، وغيرها من جميع الاشياء، لا يخفى عليه شئ من جميعه.

(٤١٣)

سورة المائدة هي مدنية في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة. وقال جعفر بن مبشر: هي - مدينة إلا آية منهما نزلت في حجة الوداع وهي قوله: " اليوم اكملت لكم دينكم " وهي كلها مدنية بمعنى انها نزلت بعد الهجرة. وقال الشعبي: نزل قوله: " اليوم اكملت " والنبي (صلى الله عليه وآله) واقف على راحلته في حجة الوداع. وقال عبدالله بن عمر آخر سورة نزلت المائدة. وهي مائة وعشرون آية كوفي واثنان وعشرون في المدينتين. وثلاثة وعشرون بصرى. بسم الله الرحمن الرحيم. قوله تعالى: (يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود احلت لكم بهمية الانعام الامايتلى عليكم غير محلي الصيد وانتم حرم ان الله يحكم ما يريد) (١) آية بلاخلاف.

(٤١٤)

هذا خطاب من الله (تعالى) للمؤمنين المعترفين بوحدانيته تعالى المقرين له بالعبودية المصدقين لرسوله (صلى الله عليه وآله) في نبوته، وفيما جاء به من عند الله من شريعة الاسلام، أمرهم الله بايفاء العقود وهي العهود التي عاهدوها مع الله وأوجبوا على انفسهم حقوقا، والزموا نفوسهم بها فروضاً امرهم الله تعالى بالاتمام بالوفاء والكمال لما لزمهم يقال: أوفى بالعهد ووفى به وأوفى به لغة أهل الحجاز. وهي لغة القرآن، واختلف اهل التأويل في العقود التي امر الله " تعالى " بالوفاء بها في هذه الآية بعد اجماعهم على ان المراد بالعقود العهود، فقال قوم: هي العقود التي كان اهل الجاهلية عاقد بعضهم بعضاً على النصره والمؤازرة. والمظاهرة على من حاول ظلمهم اوبغاهم سوء وذلك هو معنى الحلف. ذهب اليه ابن عباس ومجاهد، والربيع ابن أنس والضحاك وقتادة والسدي وسفيان الثوري.

والعقود جمع عقد. وأصله عقد الشيء بغيره. وهو وصله به، كما يعقد الحبل إذا وصل به شيئاً. يقال منه: عقد فلان بينه وبين فلان عقداً فهو يعقده. قال الحطيئة: قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم * شدوا العنّاج وشدوا فوقه الكرباً (١) وذلك إذا واثقه على امر عاهده على عهد بالوفاء له بما عاقده عليه من امان، أو ذمة أو نصره، أو نكاح أو غيره ذلك. قال قتادة: هي عقود الجاهلية الحلف. ويقال: اعقدت العسل فهو عقيد ومعقد وروى بعضهم عقدت، العسل والكلام وأعقدت. وقال آخرون: هي العهود التي أخذ الله على عباده بالابان به، وطاعته فيما أحل لهم أو حرم عليهم. روي ذلك عن ابن عباس وقال: هو ما أحل وحرّم وما فرض، وما حد في القرآن كله، فلا تعدوا أو لا تنكثوا، ثم سدد فقال:

(١) ديوانه: ٦ القرآن لابي عبيدة ١: ١٤٥ اللسان (كرب) من قصيدته التي قالها في الزبرقان بن بدر وبغيض بن عامر من بني أنف الناقة. العنّاج: خيط يشد في أسفل الدلو. الكرب: الحبل. (*)

(٤١٥)

"والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه إلى قوله: سوء الدار". وبه قال أيضاً مجاهد: وقال قوم: بل العقود التي يتعاقدونها الناس بينهم ويعقدها المرء على نفسه كعقد الايمان، وعقد النكاح، وعقد العهد، وعقد البيع، وعقد الحلف.

ذهب اليه عبدالله بن عبيدة وابن زيد، وهو عبدالرحمن بن زيد بن اسلم عن ابيه. وقال آخرون: ذلك امر من الله لاهل الكتاب بالوفاء بما أخذ به ميثاقهم من العمل بما في التوراة والانجيل في تصديق محمد (صلى الله عليه وآله) وما جاء به من عند الله. ذكر ذلك ابن جريج وأبو صالح. وقال الجبائي: أراد به الوفاء بالايمان فيما يجوز الوفاء به. فاما ما كان يمينا بالمعصية، فعليه حنثه وعليه الكفارة. وعندنا ان اليمين في معصية لا تنعقد، ولا كفارة في خلافها. وأقوى هذه الأقوال ما حكيناه عن ابن عباس أن معناه أوفوا بعقود الله التي أوجبها عليكم، وعقدها فيما أحل لكم وحرّم، وألزمكم فرضه. وبين لكم حدوده. ويدخل في جميع ذلك ما قالوه إلا ما كان عقداً على المعاونة على أمر قبيح. فان ذلك محظور بلاخلاف.

وقوله: "أحلت لكم بهيمة الانعام" اختلفوا في تأويل بهيمة الانعام في هذه الآية فقال قوم: هي الانعام كلها: الابل والبقر، والغنم. ذهب اليه الحسن وقاتادة والسدي والربيع والضحاك، وقال آخرون: أراد بذلك اجنة الانعام التي توجد في بطون امهاتها إذا ذكيت الامهات. وهي ميتة.

ذهب اليه ابن عمر وابن عباس. وهو المروي عن ابي عبدالله. والاولى حمل الآية على عمومها في الجميع.

والانعام جمع نعم، وهو اسم للابل، والبقر والغنم خاصة عند العرب كما قال تعالى: " والانعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون " ثم قال: " والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة " ففضل جنس النعم من غيرها من اجناس الحيوان وأما بهائمها فانها أولادها. وقال الفراء بهيمة الانعام: وحشها كالطباء، وبقر الوحش، والحرر الوحشية. وانما سميت بهيمة الانعام، لان كل حي لايميز، فهو بهيمة الانعام، لانه ابهم عن ان يميز.

(٤١٦)

وقوله: " الاما يتلى عليكم " اختلفوا في المراد بقوله " الاما يتلى عليكم " فقال بعضهم: أراد بذلك أحلت لكم أولاد الابل، والبقر والغنم إلا ما بين الله تعالى فيما يتلى عليكم بقوله: " حرمت عليكم الميتة والدم... الآية " ذهب اليه مجاهد وقتادة وقال: الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه. وبه قال السدي وابن عباس. وقال اخرون: استثنى من ذلك الخنزير روي ذلك أيضا عن ابن عباس، والضحاك. والاول أقوى، لان قوله: " إلا ما يتلى عليكم " يجب حمله على عمومها في جميع ما حرم الله (تعالى) في كتابه. والذي حرمه هو ما ذكره في قوله:

" حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به... إلى آخر الآية " والخنزير وإن كان محرما، فليس من بهيمة الانعام، فمتى حملناه عليه كان الاستثناء منقطعا، ومتى خصصنا بالميتة والدم، كان الاستثناء متصلا. وإن حملناه على الكل نكون غلينا حكم الميتة وما ذكر بعده، فيكون الاستثناء أيضا حقيقة ومتصلا. واختار الطبري تخصيصه بالميتة والدم، وما أهل لغير الله به. قال الحسين ابن علي المغربي إلا ما يتلى معناه من البحيرة والسائبة والوصيلة فلا تكون المحرم، واستثنى هاهنا ما حرمه (تعالى) فلا يليق بذلك.

وقوله: " غير محلي الصيد وانتم حرم " اختلفوا في تأويله فقال بعضهم: معناه أوفوا بالعقود غير محلين الصيد وانتم حرم أحلت لكم بهيمة الانعام. ويكون فيه التقديم والتاخير، فغير يكون منصوبا على هذا الحال مما في قوله: " اوفوا بالعقود " من ذكر الذين آمنوا. وتقدير الكلام أوفوا أيها الذين آمنوا بعقود الله التي عقدها عليكم في كتابه لامحليين الصيد، وانتم حرم. وقال اخرون: معنى ذلك أحلت لكم بهيمة الانعام الوحشية من الطباء، والبقر والحرر غير محلي الصيد غير مستحليين اصطيادهم، وانتم حرم، وإلا ما يتلى عليكم (فغير) على هذا منصوب على الحال من الكاف، والميم اللين في قوله: " أحلت لكم بهيمة الانعام " والتقدير أحلت لكم يأيها الذين آمنوا بهيمة الانعام، لامستحلي اصطيادها في حال إحرامكم وقال اخرون: معناه أحلت لكم بهيمة الانعام كلها إلا ما يتلى عليكم. بمعنى إلا

(٤١٧)

ما كان منها وحشياً، فانه صيد، ولايحل لكم وانتم حرم. والتقدير على هذا أحلت لكم بهيمة الانعام كلها إلا ما بين لكم من وحشها غير مستحلي اصطياها في حال إحرامكم، فتكون (غير) منصوبة علي الحال في الكاف والميم في قوله: إلا ما يتلى عليكم. ذهب إلى ذلك الربيع، والحرم جمع حرام. وهو المحرم قال الشاعر:
فقلت لها حثي اليك فاني * حرام واني بعد ذاك لبيب
أي واني ملب.

وقوله: " إن الله يحكم ما يريد " معناه إن الله يقضي في خلقه ما يشاء من تحليل ما يريد تحليله، وتحريم ما يريد تحريمه، وإيجاب ما يريد إيجابه. وغير ذلك من احكامه وقضاياه، فافعلوا ما أمركم به، وانتهوا عما نهاكم عنه.

— الاعراب —: (وما) في قوله: " إلا ما يتلى عليكم " في موضع نصب بالاستثناء. وقال الفراء يجوز ان يكون موضعها الرفع. كما تقول جاعني القوم، إلا زيدا وإلا زيد قال الزجاج: وهذا لايجوز إلا أن تكون إلا بمعنى غير، فتكون صفة. فاما بمعنى الاستثناء، فلايجوز. وقوله (عليه السلام): (زكاة الجنين زكاة امه عندنا) معناه انه إذا زكيت الام وخرج الولد ميتاً، قد اشعرا واوربر، جاز أكله. وبه قال الشافعي وأهل المدينة وقال ابوحنيفة: معناه انه يزكى كما تزكى امه وهو اختيار البلخي.
قوله تعالى:

(ياايها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله ولاالشهر الحرام ولا الهدى ولاالقلائد ولاأمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانا وإذا حللتم فاصطادوا ولايجرمكم شئان قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا

(٤١٨)

تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب) (٢)
آية.

— القراءة —

قرأأبو بكر عن عاصم، وابوجعفر واسماعيل المسيبي (شئان) بسكون النون الاولى في الموضوعين. الباقون بفتحها وقرأ ابن كثير وأبو عمر (وان صدوكم) بكسر الهمزة الباقون بفتحها.

— المعنى —

هذا خطاب من الله (تعالى) للمؤمنين ينهاهم ان يحلوا شعائر الله. واختلفوا في معنى شعائر الله على سبعة اقوال:

فقال بعضهم: معناه لاتحلوا حرمان الله، ولا تعدوا حدوده، وحملوا الشعائر على المعالم. وارادوا بذلك معالم حدود الله وأمره ونهيه، وفرائضه ذهب اليه عطا وغيره. وقال قوم: معناه لاتحلوا حرم الله وحملوا شعائر الله على معالم حرم الله من البلاد. ذهب اليه السدي.

وقال اخرون: معنى شعائر الله مناسك الحج. والمعنى لاتحلوا مناسك الحج، فتضيعوها. ذهب اليه ابن جريج، ورواه عن ابن عباس.

وقال ابن عباس: كان المشركون يحجون البيت، ويهدون الهدايا، ويعظمون حرمة المشاعر، ويتجرون في حججهم، فاراد المسلمون ان يغيروا عليهم، فنهاهم الله عن ذلك. وقال مجاهد: شعائر الله الصفا والمروة والهدي من البدن، وغيرها. كل هذا من شعائر الله.

(٤١٩)

وقال الفراء كانت عامة العرب لاترى الصفا والمروة من الشعائر، ولا يطوفون بهما، فنهاهم الله عن ذلك وهو قول ابي جعفر (عليه السلام).

وقال قوم: معناه لاتحلوا ما حرم الله عليكم في إحرامكم. روي ذلك عن ابن عباس في رواية اخرى.

وقال الجبائي الشعائر: العلامات المنصوبة للفرق بين الحل، والحرم نهاهم الله أن يتجاوزوها إلى مكة بغير إحرام. وقال الحسين بن علي المغربي: المعنى لاتحلوا الهدايا المشعرة. وهو قول الزجاج واختاره البلخي. وأقوى الاقوال قول عطا من أن معناه، لاتحلوا حرمان الله، ولاتضيعوا فرائضه لان الشعائر جمع شعيرة وهي.

على وزن فعيلة، واشتقاقها من قولهم: شعر فلان بهذا الامر: إذا علم به، فالشعائر المعالم من ذلك، وإذا كان كذلك، وجب حمل الآية على عمومها، فيدخل فيه مناسك الحج، وتحريم ما حرم في الاحرام، وتضييع ما نهى عن تضييعه واستحلال حرمان الله، وغير ذلك من حدوده وفرائضه وحلاله وحرامه، لان كل ذلك من معالمه، فكان حمل الآية على العموم اولى.

وقوله: " ولاالشهر الحرام " معناه ولاتستحلوا الشهر الحرام بقتالكم فيه اعداءكم من المشركين، كما قال: " يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير " وهو قول ابن عباس وقتادة.

والشهر الحرام الذي عناه الله هاهنا قال قوم:

هو رجب، وهو شهر كانت مضر تحرم فيه القتال. وقال قوم: هو ذو العقدة. ذكره عكرمة.
وقال ابو علي الجبائي: هو اشهر الحرام كلها، نهاهم الله عن القتال فيها.
وهو اليق بالعموم. وبه قال البلخي.

وقوله: " ولا الهدي ولا القلائد " فالهدي جمع واحده هدية واصله هدية وهو ما هداه الانسان من
بعير او بقرة أو شاة أو غير ذلك إلى بيت الله تقربا به إلى الله (تعالى) وطلبا لثوابه يقول الله:
لا تستحلوا ذلك فتغصبوه أهله عليه، ولا تحولوا بينهم وبين ما اهدوا من ذلك إلى بيت الله ان
يبلغوه محله من الحرم، ولكن

(٤٢٠)

خلوهم حتى يبلغوا به المحل الذي جعله عزوجل له. وهو كعبته. قال ابن عباس:
والهدي يكون هديا قبل ان يقلد ما جعله على نفسه أن يهديه ويقلده. وقوله: " ولا القلائد "
معناه ولا تحلوا القلائد. واختلفوا في معناه فقال بعضهم: عنى بالقلائد الهدي. وانما كرر، لانه
أراد المنع من حل الهدي الذي لم يقلد، والهدي الذي قلد. وهو قول ابن عباس. وقال آخرون:
يعني بذلك القلائد التي كان المشركون يتقلدونها إذا أرادوا الحج مقبلين إلى مكة من لحاء
السمر، وإذا خرجوا منها إلى منازلهم منصرفين منها إلى المشعر. ذهب إليه قتادة وقال كان
في الجاهلية إذا خرج الرجل من أهله يريد الحج تقلد من السمر، فلا يعرض له أحد وإذا رجع
تقلد قلادة شعر، فلا يعرض له احد. وقال عطا: كانوا يتقلدون من لحاء شجر الحرم يأمنون به
إذا خرجوا من الحرم. وقال الفراء: كان اهل الحرم يتقلدون بلحاء الشجر، واهل غير الحرم
يتقلدون بالصوف والشعر وغيرهما، فنزلت " لاتحلوا شعائر الله.. " وقال مجاهد: وهو اللحافي
رقاب الناس. والبهائم امن لهم. وهو قول السدي.

وقال ابن زيد: إنما عنى بالمؤمنين نهاهم أن ينزعوا شيئاً من شجر الحرم يتقلدون به، كما كان
المشركون يفعلونه في جاهليتهم. ذهب إليه عطا في رواية والربيع بن أنس. وقال ابو علي
الجبائي: القلائد هوما قلده الهدي، نهاهم عن حلها، لانه كان يحب أن يتصدق بها. قال:
ويحتمل أن تكون عبارة عن الهدي المقلد. والاقوى ان يكون المراد بذلك النهي عن حل
القلائد، فيدخل فيه الانسان والبهيمة إذ هو نهى عن استحلال حرمة المقلد، هو هديا كان ذلك
أو انسانا.

قوله: " ولاأمين البيت الحرام " معناه، ولا تحلوا قاصدين البيت الحرام.
يقال: أمتت كذا: إذا قصدته وعمدته. وبعضهم يقول يمتته قال الشاعر:

إنني كذاك إذا ما ساعني بلد * يمتت صدر بعيري غيره بلدا (١)

والبيت الحرام بيت الله بمكة، وهو الكعبة.

(٤٢١)

وقوله: " يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا " معناه يلتمسون أرباحا في تجارتهم من الله " ورضوانا " يعني وان ترضى عنهم منسكهم. نهى الله تعالى أن يحل ويمنع من هذه صورته. فاما من قصد البيت ظلما لاهله، وجب منعه ودفعه عنهم.

— النزول —

وقال ابوجعفر (عليه السلام): نزلت هذه الآية في رجل من بني ربيعة يقال له: الحطم. قال السدي: أقبل الحطم بن هند البكري حتى أتى النبي (صلى الله عليه وآله) وحده، وخلف خيله خارجة من المدينة، فدعاه فقال: الام تدعو فاخبره وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله) قال: لأصحابه: يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان، فلما أخبره النبي (صلى الله عليه وآله) قال: انظروا لعلي اسلم ولي من اشاوره، فخرج من عنده فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) عليه وآله

لقد دخل بوجه كافر، وخرج بعقب غادر، فمر بسرج من سرج المدينة فساقه وانطلق به، وهو يرتجز ويقول:

قد لفها الليل بسواق حطم * ليس براعي ابل ولاغنم

ولابجزار على ظهر وضم * باتوا نياما وابن هند لم ينم

بات يقاسيها غلام كالزلم * خدلج الساقين ممسوح القدم (١)

ثم اقبل من عام قابل حاجا قد قلد هديا، فاراد رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يبعث اليه، فنزلت هذه الآية " ولآمين البيت الحرام " هذا قول ابن جريج، وعكرمة والسدي وقال ابن زيد: نزلت يوم الفتح في ناس يأمون البيت من

(١) البيان والتبيين ٢: ٣٠٨ الاغاني ١٤: ٤٤ اللسان (حطم) وقبل هذا الرجز قوله هذا أوان الشد فاشتدي زيم. حطم السائق الذي يسير بأقصى سرعة: الوضم: خشبة القصاب التي يقطع عليك اللحم الزلم: قدح الميسر. خدلج الساقين: ممتلى الساقين. ممسوح القدم: قدمه مستو. وقد جاء في صفة رسول الله (صلى الله عليه وآله): مسيح القدمين. (*)

(٤٢٢)

المشركين بهلون بعمره. فقال المسلمون: يارسول الله (صلى الله عليه وآله) إنما هؤلاء مشركون، مثل هؤلاء دعنا نغير عليهم، فانزل الله تعالى الآية قال ابن عباس: ذلك في كل من توجه حاجا. وبه قال الضحاك والربيع بن انس.

— النسخ —

واجمعوا على انه نسخ من حكم هذه الآية شئ إلا ابن جريح فانه قال: لم ينسخ منها شئ، لانه لايجوز أن يبتدأ المشركون في أشهر الحرم بالقتال إلا إذا قاتلوا. وهو المروي عن ابي جعفر (ع) وقال الشعبي: لم ينسخ من المائدة غير هذه الآية وقال أبو ميسرة: في المائدة ثمانية عشر فريضة ليس منها شئ منسوخ.

واختلفوا فيما نسخ منه فقال بعضهم: نسخ جميعها ذهب إليه الشعبي وقال: لم ينسخ من المائدة غير هذه الآية لاتحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام، ولا الهدي، ولا القلائد. وبه قال مجاهد: قال: نسخها قوله: " اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم " وبه قال قتادة والضحاك وحبيب بن ابي ثابت وابن زيد. وقال اخرون: نسخ منها قوله: " ولا الشهر الحرام، امين البيت الحرام " ذكر ذلك عن ابن ابي عروبة عن قتادة وقال: نسخها قوله: " اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم " وقوله: " ماكان للمشركين أن يعمرؤا مساجد الله " وقوله: " انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام... الآية " في السنة التي نادى علي (عليه السلام) فيها بالاذان.

وبه قال ابن عباس وقال قوم: لم ينسخ منه إلا القلائد. وروي ذلك عن ابن ابي بحيح عن مجاهد. وأقوى الأقوال قول من قال: نسخ منها " ولا الشهر الحرام ولا القلائد ولا امين البيت الحرام " لاجماع الامة على أنه (تعالى) احل قتال أهل الشرك في أشهر الحرم وغيرها من شهور السنة. واجمعوا ايضا على ان مشركا لو قلد لحا جميع اشجار الحرم عنقه او ذراعاه، لم يكن ذلك أمانا له من القتل إذا لم يتقدم له امان.

(٤٢٣)

— المعنى —

وقوله: " ولا امين البيت " ظاهره يحتل المسلم والمشرك لعموم اللفظ، لكن خصصنا المشركين بقوله: " اقتلوا المشركين.. الآية " ويحتل أيضا أن يكون مخصوصا بأهل الشرك. وعليه اكثر المفسرين. فان كان مخصوصا بهم، فلا شك أيضا أنه منسوخ بما قدمناه من الآية والاجماع. وقوله: " يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا " معناه يلتمسون ويطلبون الزيادة، والارباح في التجارة ورضوان الله عنهم وألا يحل بهم ما حل بغيرهم من الامم بالعقوبة في

غالب دنياهم. وهو قول قتادة وقال: هي للمشركين يلتمسون فضل الله، ورضوانه بما يصلح لهم دنياهم.

وبه قال ابن عباس والربيع بن انس ومجاهد وفي الآية دلالة على جواز حمل المتاع للتجارة في الحج. وقوله: إذا حلتكم، فاصطادوا فأهل الحجاز يقولون: حلتت من الاحرام أهل، والرجل حلال. وكذلك سعد بن بكر وكذا يقولون: حرم الرجل فهو حرام: إذا صار محرماً، وقوم حرم واسد وقيس وتميم يقولون: أهل من احرامه، فهو محل وأحرم فهو محرم. معناه إذا حلتكم من إحرامكم، فاصطادوا الصيد الذي نهيتكم ان تحلوه، وأنتم حرم. وهو بصورة الامر. ومعناه الاباحة.

وتقديره لاجرح عليكم في اصطاده فاصطادوه ان شئتم حينئذ لان السبب المحرم قد زال. وهو قول جميع المفسرين: مجاهد وعطاء، وابن جريج وغيرهم. وقوله: " ولايجرمكم " قال ابن عباس: ولايحملكم شأن قوم. وهو قول قتادة. واختلف اهل اللغة في تأويلها، فقال الاخفش، وجماعة من البصريين، لايقن لكم، مثل قوله: " لاجرم ان لهم النار " ومعناه حق ان لهم النار.

وقال الكسائي والزجاج معناه: لايحملكم وقال بعض: الكوفيين معناه لايحملكم. قال: يقال: جرمني فلان على ان صنعت كذا أي حملني عليه. وقال الفراء: معناه لايكسبكم شأن قوم. واستشهد الجميع بقول الشاعر:
ولقد طعنت ابا عيينة طعنة * جرمت فزارة بعدها ان يغضبوا (١)

(١) قائله أبو اسمعيل الضريبي. مجاز القرآن لابي عبيدة ١: ١٤٧ اللسان: (جرم) (*)

(٤٢٤)

فمنهم من حمل قوله: جرمت على ان معناه حملت. ومنهم من حمله على أن معناه أحقت الطعنة، لفسارة الغضب. ومنهم من قال: معناه كسبت فزارة أن يغضبوا وقال المغربي: معناه قطعت فزارة وليس من هذافي شئ. وسمع الفراء من العرب من يقول: فلان جريمة أهله أي كاسبهم. وخرج يجرمهم أي يكسبهم.

والاقاويل متقاربة المعاني. وقراءة القراء المعروفين " لايجرمكم " - بفتح الياء من جرمته. وقرأ يحيى بن وثاب، والاعمش " يجرمكم " بضم الياء من أجرمته فهو يجرمني. وقيل: هما لغتان. والاولى أفصح، وأعرف، وأجاز أبو علي الفارسي معنى جرم كسب. قال: وهو فعل يتعدى الي مفعولين مثل كسب يدل على ذلك قول الشاعر في صفة عقاب:

جريمة ناهض في رأسه نيق * يرى لعظام ماجمعت صليباً

معناه تكسب لفرخها. جريمة ناهض يحتمل تقريرين:

احدهما - جريمة قوت ناهض اي كاسب قوته، كما قالوا ضارب قداح، وضريب قداح وعريف وعارف.

والآخر - ان تقدر حذف المضاف، وتضيف جريمة إلى ناهض. والمعنى كاسب ناهض، فجرم يستعمل في الكسب وما يريد من سعي الانسان عليه.

واما جرم فمعناه اكتسب الاثم قال الله تعالى: " إنا من المجرمين منتقمون " وقال:

" فعلي إجرامي " ومعناه فعلي عقوبة إجرامي أو اثم إجرامي ومعنى " لايجرمنكم شئنآن قوم " لا تكتسبوا لبغض قوم عدوانا، ولاتفتنوه، فمن فتح أن أوقع النهي في اللفظ على الشئنآن. والمعنى بالنهي المخاطبون، كماقالوا: لأرئيتك هاهنا ولا تموتن إلا وانتم مسلمون. الاعراب:

وكذلك قوله: لايجرمنكم شقاقي يصيبكم المفعول الثاني واسماء المخاطبين المفعول الاول، كما أن المفعول الاول في الآية الاخرى المخاطبون. والثاني قوله: " أن

(٤٢٥)

تعدتوا " ولفظ النهي واقع على الشقاق. والمعنى بالنهي المخاطبون. قال الزجاج: موضع (ان) الاولى نصب بانه مفعول له.

وتقديره لايحملنكم بغض قوم لان صدودكم عن المسجد يعنى النبي (صلى الله عليه وآله) واصحابه، لما صدوهم عن مكة. وموضع ان الثانية مفعول به ومعناه لايكسبنكم بغض قوم أي بغضكم قوما الاعتداء عليهم، لصددهم عن المسجد الحرام.

وقوله: " شئنآن قوم " معناه بغض قوم في قول ابن عباس، وقتادة وابن زيد، وغيرهم يقول: شئنئت الرجل اشناه شئننا وشئنا وشئنا ومنشأة: إذا أبغضته وذهب سيبويه إلى أن ماكان من المصادر على فعلان لم يتعد فعله إلا أن يشد شئ نحو شئيته شئاً ولايجوز أن يكون شئيته يراد به حذف الجر، كقول سيبويه في فرقته وحذرته أن اصله حذرت منه لان اسم الفاعل منه على فاعل، نحو شاني و " ان شانئك هو الابتر " وقال الشاعر:

بشانيك الضراعة والكلول قال ابو علي: هذا يقوي انه مثل علم يعلم، فهو عالم، ونحوه من المتعدي وأيضا، فان شئيت في المعنى بمنزلة أبغضت، فلما كان معناه عدي كماعدي أبغضت كما أن الرفث لما كان بمعنى الافضاء عدي بالجار، كما عدى الافضاء به. وقال سيبويه:

قالوا: لويته حقه ليانا على فعلان، فيجوز ان يكون شئان فيمن اسكن النون مصدرا كالليان فيكون المعنى لايحملنكم بغض قوم، لو فتح النون. قال ابو عبيدة: " شئنآن قوم " بغضاء وهي متحركة الحروف مصدر شئيت، وبعضهم يسكنون النون الاولى وانشد للاحوص:

وما العيش الاما تلذ وتشتهي * وان عاب فيه ذوالشنان وفندا
فحذف الهمزة قال أبوعلي: ويجوز ان يكون خفها. وقال أبوعبدة:
وشنيت أيضا بمعنى أقررت به، وبؤت به وانشد للعجاج.
زل بنو العوام عن آل الحكم * وشنؤا الملك لملك ذوقدم

(٤٢٦)

وقال الفرزدق:

ولو كان هذا الامر في جاهلية * شنئت به أوغص بالماء شاربه
قال ابوعلي: وقد جاء فعلا مصدرًا ووصفًا وهما جميعًا قليلان. فمما حل مصدرًا ما حكاه
سيبويه من قولهم: خصمان وندمان. وانشد ابوزيد ما ظاهره أن يكون فعلا منه صفة وهو:
لما استمر بها شيحان منبجح * بالبين عنك بها مولاك شنانا

— اللغة —

حكى أبوزيد في مؤنث شنان شنانى.

ويقرب أن يكون شيحان فعلا.

وفي الحديث (ثم اعرض وأشاح) قال ابوعلي: وترك صرف شيحان في البيت مع أنه لافعل
له. ويجوز ان يكون، لانه اسم علم. ويجوز ان يكون على قول من يجوز ترك صرف ما
يتصرف في الشعر. فاما الشنان قال ابوعلي: فعلا يجرى على ضربين:

احدهما - اسم، والآخر - صفة فالاسم على ضربين:

احدهما ان يكون مصدرًا، كالنقر ان والغليان، والطوفان والغثيان. وعامة ذلك يكون معناه
التحرك والتقلب. والاسم الذي ليس بمصدر نحو الورشان والعجان. وأما مجيئه فنحو الزفيان
والقطوان والصميان، وكبش الين ونعجة اليانة، وكباش الي، ومثله حمار قطوان واتان
قطوانة من قطا يقطو قطا وقطا:

إذا قارب بين خطوه. ومن خفف النون ذهب إلى انه مصدر، مثل ليان. ومعنى الآية لا يحملنكم
بغض قوم أي بغضكم قوما لصددهم إياكم ومن اجل صددهم إياكم ان تعتدوا فاضيف المصدر
الي المفعول وحذف الفاعل كقوله: من دعاء الخير وسؤال نعجتك وقوله: ان صدوكم من كسر
الهمزة الي ان (ان) للجزاء يقوي ذلك ان في قراءة ابن مسعود ان يصدوكم فمتى؟ قيل كيف
تكون للجزاء والصد ماض، لانه كان سنة الحديدية من المشركين للمسلمين، وما يكون ماضيا
لا يكون شرطًا؟ قيل:

(٤٢٧)

ذكر ابو علي ان الماضي قد يقع في الجزاء لا ان المراد بالماضي الجزاء، لكن على انه إن كان مثل هذا الفعل، فيكون اللفظ على ما مضى والمعنى على مثله، كأنه يقول: إن وقع مثل هذا الفعل يقع منكم كذا. وعلى ذلك حمل قول الشاعر:

إذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة * ولم تجدي من أن تقري به بدا (١)

إن قد أغنى عنه ما تقدم من قوله: " لايجر منكم " والمعنى إن صدوكم قوم عن المسجد الحرام، فلا تكسبوا عدوانا. ومن فتح الهمزة، فلانه مفعول له والتقدير لايجرمنكم شأن قوم، لان صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، فان الثانية في موضع نصب بانه المفعول الثاني. والاولى منصوبة، لانه مفعول له وقوله:

" ان تعتدوا " معناه إن تجاوزوا حكم الله فيهم إلى ما نهاكم عنه. وذكر انها نزلت في النهي عن الطلب بدخول الجاهلية. ذهب إليه مجاهد وقال: هذا غير منسوخ. وهو الاولى. وقال غيره هو منسوخ ذهب إليه ابن زيد. وإنما قلنا: إنه غير منسوخ، لان معناه لا تعتدوا الحق فيما امرتكم به. وإذا احتمل ذلك، لم يخبر أن يقال هو منسوخ إلا بحجة.

وقوله: وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ليس بعطف على أن تعتدوا، فيكون في موضع نصب، بل هو استئناف كلام أمر الله تعالى الخلق بان يعين بعضهم بعضا على البر وهو العمل بما امرهم الله به، واتقاء ما نهاهم عنه، ونهاهم ان يعين بعضهم بعضا على الاثم. وهو ترك ما أمرهم به، وارتكاب ما نهاهم عنه من العدوان، ونهاهم ان يجاوزوا ما حد الله لهم في دينهم، وفرض لهم في أنفسهم وبه قال ابن عباس وابوالعالية وغيرهما من المفسرين.

وقوله: " واتقوا الله ان الله شديد العقاب " أمر من الله، ووعيد وتهديد لمن اعتدى حدوده، وتجاوز أمره يقول الله: . ومعناه احذروا معاصيه وتعدى حدوده فيما امركم به ونهاكم عنه، فتستوجبوا عقابه متى خالفتم وتستحقوا

(١) انظر ١: ٢٨٩ - ٣٥٢. (*)

(٤٢٨)

اليوم عقابه، ثم وصف عقابه بالشدة فقال: إن الله شديد العقاب لمن يعاقبه من خلقه، لانه نار لا يطفى حرها، ولا يخمد جمرها، ولا يسكن لهيبا (نعوذ بالله منها). قوله تعالى:

(حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وان تستقسموا بالازلام ذلكم فسق

ان اليوم يؤس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشوني اليوم اكملت لكم دينكم واتممت
عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم فان الله
غفور رحيم (٣) آية بلاخلاف.

— اللغة —

بين الله (تعالى) في هذا الآية ما استثناه في قوله: " احلت لكم بهيمة الانعام إلا ما يتلى عليكم " فهذا مما تلاه علينا فقال مخاطبا للمكلفين: " حرمت عليكم الميتة " وأصله الميتة مشدد غير انه خفف، ولو قرئ، على الاصل كان جائزا إلا انه لم يقرأ به احد هاهنا إلا أبا جعفر المدني يقال: ميت بمعنى واحد. وقال بعضهم الميت لما لم يموت والميت لما قد مات وهذا ليس بشيء لان ميت يصلح لما قد مات، ولما سيموت. قال الله (تعالى): " انك ميت وانهم ميتون " وقال الشاعر في الجمع بين اللغتين:

ليس من مات فاستراح بميت * انما الميت ميت الاحياء

فجعل الميت مخففا من الميت وقال بعضهم: الميتة كلما له نفس سائلة من دواب

(٤٢٩)

البر، وطيره مما اباح الله اكلها أهلها ووحشها فارقتها روحها بغير تذكية. وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه سمى الجراد والسمك ميتا فقال: ميتتان مباحان: الجراد، والسمك. وقوله: " والدم " تقديره، وحرمة عليكم الدم. وقيل: إنهم كانوا يجعلون في المباعر يشوونها وياكلونها، فاعلم الله تعالى ان الدم المسفوح أي المصبوب حرام، فاما المتلخخ باللحم، فهو كاللحم، وما كان منه كاللحم مثل الكبد فهو مباح.

وأما الطحال، فهو محرم عندنا. وقد روي كراهته عن " علي (عليه السلام)، وابن مسعود واصحابهما " وعند جميع الفقهاء أنه مباح. وانما شرطنا في الدم المحرم ما كان مسفوحا، لانه (تعالى) بين ذلك في أخرى فقال: " او دما مسفوحا ".

وقوله: " ولحم الخنزير " معناه وحرمة عليكم لحم الخنزير اهليه وبريه، فالميتة والدم مخرجهما في الظاهر مخرج العموم. والمراد بهما الخصوص. ولحم الخنزير على ظاهره في العموم. وكذلك كل ما كان من الخنزير حرام كلحمه من الشحم والجلد، وغير ذلك وقوله: " وما اهل لغير الله به " موضع ما رفع وتقديره وحرمة عليكم ما اهل لغير الله به. ومعنى اهل لغير الله به ما ذبح للاصنام والوثان أي ذكر اسم غير الله عليه، لان الاهلال رفع الصوت بالشئ. ومنه استهلال الصبي وهو صياحه إذا سقط من بطن امه. ومنه إهلال المحرم بالحج أو العمرة: إذا لي به. قال ابن احرر:

يهل بالفرد قد ركبانا * كما يهل الراكب المعتمر
فما تقرب به من الذبح لغير الله او ذكر عليه غير اسمه حرام، وكل ما حرم اكله مما عددها
يحرم بيعه وملكه، والتصرف فيه.
والخنزير يقع على الذكر والانثى. وفي الآية دلالة على ان ذبائح من خالف الاسلام، لايجوز
اكله، لانهم يذكرون عليه اسم غير الله لانهم يعنون بذلك من ابد شرع موسى، أو اتخذ عيسى
ابنا، وكذب محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وآله) وذلك غير الله، فيجب ان لايجوز اكل ذبيحته.
فاما من اظهر الاسلام، ودان بالتجسيم،

(٤٣٠)

والصورة وقال بالجبر والتشبيه أو خالف الحق، فعندنا لايجوز اكل ذبيحته. فاما الصلاة عليه
ودفنه في مقابر المسلمين وموارثته، فانه يجري عليه، لان هذه الاحكام تابعة في الشرع
لاظهار الشهادتين. واما مناكحته فلا تجوز عندنا. وقال البلخي حاكيا عن قوم: إنه لايجوز
أجراء شئ من ذلك عليهم. وحكى عن آخرين أنه يجري جميع ذلك عليهم، لانهاتجري على
من اظهر الشهادتين دون المؤمنين على الحقيقة، وكذلك أجريت على المجانين، والاطفال. فاما
التسمية على الذبيحة، فعندنا واجبة من تركها متعمدا، لايجوز اكل ذبيحته، وان تركها ناسيا،
لم يكن به يأس.

وكذلك إن ترك استقبال القبلة متعمدا لم يحل أكل ذبيحته، وان تركه ناسيا، لم يحرم.. وفي
ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف.

والمخنقة قال السدي: هي التي تدخل رأسها بين شعبتين من شجرة فتختنق وتموت. وقال
الضحاك: هي التي تخنق وتموت. وقال قتادة: هي التي تموت في خناقها. وقال ابن عباس:
هي التي تختنق، فتموت. وحكي عن قتادة ان أهل الجاهلية كانوا يخنقونها، ثم يأكلونها.
والاولى حمل الآية على عمومها في جميع ذلك وهي التي تختنق حتى تموت، سواء كان في
وثاقها أو بادخال رأسها في موضع لا تقدر على التخلص أو غير ذلك، لان الله (تعالى) وصفها
بأنها المنخنقة، ولو كان الامر على ما حكي عن قتادة، لقال: " والمخنوقة " .

وقوله: " والموقوذة " يعني التي تضرب حتى تموت: يقال: وقذتها أقذها وقذا وأوقذها يوقذها
إيقادا: إذا اثختتها ضربا. قال الفرزدق:

شفارة تقذ الفصيل برجلها * فطارة لقوادم الابكار
وهو قول ابن عباس، وقاتادة والضحاك والسدي:

وقوله: " والمتردية يعني التي تقع من جبل، أو تقع في بئر أو من مكان عال، فتموت. وهو قول ابن عباس. وقتادة والسدي، والضحاك ومتى وقع في بئر ولا يقدر على موضع ذكاته، جاز أن يطعن ويضرب بالسكين في غير المذبح حتى

(٤٣١)

يبرد، ثم يؤكل. وقوله: " والنطيحة " يعني التي تنطح أو تنطح، فتموت والنطيحة بمعنى المنطوحة، فنقل من مفعول الي فعيل، فان قيل: كيف تثبت فيها الهاء، وفعيل إذا كان بمعنى مفعول مثل لحية دهين، وعين كحيل وكف خضيب، بلاهاء، التأنيث في شئ من ذلك؟ قيل: اختلف في ذلك فقال: بعض البصريين اثبت فيها الهاء أعني في النطيحة، لأنها جعلت كالاسم، مثل الطويلة والظريفة فوجه. هذا تأويل النطيحة الي معنى الناطحة. ويكون المعنى حرمت عليكم الناطحة التي تموت من نطاحها. وقال بعض الكوفيين: إنما يحذف الهاء من فعيلة بمعنى مفعولة إذا كانت صفة لاسم قد تقدمها، مثل كف خضيب، وعين كحيل، فاما إذا حذف الكف والعين والاسم الذي يكون فقيل نعتا له واجتزوا بفعيل أثبتوا فيه هاء التأنيث، ليعلم بثبوتها فيه أنها صفة للمؤنث دون المذكر فيقول: راينا كحيلة وخضيبة واكيلة السبع، فلذلك دخلت الهاء في النطيحة، لأنها صفة المؤنث. والقول بأن النطيحة بمعنى المنطوحة هو قول اكثر المفسرين: ابن عباس، وابوميسرة والضحاك، والسدي وقتادة، لانهم اجمعوا على تحريم الناطحة والمنطوحة إذاماتا.

وقوله: " وما اكل السبع " موضع (ما) رفع وتقديره وحرمت عليكم ما اكل السبع بمعنى ما قتله السبع. وهو قول ابن عباس، والضحاك وقتادة، وهو فريسة السبع. وقوله: " إلا ما ذكيتم " معناه إلا ما ادركتم ذكاته، فذكيتموه من هذه الاشياء التي وصفها. وموضع (ما) نصب بالاستثناء. واختلفوا في الاستثناء إلى ماذا يرجع فقال قوم: يرجع إلى جميع ما تقدم ذكره من قوله: " حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع " الا ما لا يقبل الذكاة من الخنزير والدم. وهو الاقوى. ذهب اليه علي (عليه السلام) وابن عباس قال: وهو أن تدركه تتحرك أذنه او ذنبه، أو تطرف عينه. وهو المروى عن ابي جعفر وابي عبدالله (ع) وبه قال الحسن وقتادة

(٤٣٢)

وإبراهيم وطاووس، وعبيد بن عمير والضحاك، وابن زيد وقال اخرون: هو استثناء من التحريم، لا من المحرمات، لان الميتة لا ذكاة لها، ولا الخنزير قالوا: والمعنى حرمت عليكم الميتة والدم وسائر ما ذكر إلا ما ذكيتم مما احله الله لكم بالتذكية، فانه حلال لكم. ذهب اليه مالك

وجماعة من أهل المدينة، والجبائي وسئل مالك من الشاة يخرق جوفها السبع حتى يخرج أمعاءها فقال لا أرى ان تذكى ولا يؤكل أي شئ يذكى منها. وقال كثير من الفقهاء إنه يراعى أن يلحق فيه حياة مستقرة، فيذكى ويجوز أن يؤكل وما يعلم أنه لاهية فيه مستقرة، فلا يجوز بحال. واختار الطبري الاقل. وقال: كل ما أدرك ذكاته مما ذكر من طير أو بهيمة قبل خروج نفسه ومفارقة روحه جسده، فحلال اكله إذا كان مما أحله الله لعباده واختار البلخي، والجبائي الاول، فان قيل: فما وجه تكرير قوله: " وما أهل لغير الله به والمنخقة والموقوذة " وجميع ما عدد تحريمه في هذه الآية وقد افتتح الآية بقوله: " حرمت عليكم الميتة " والميتة تعم جميع ذلك وان اختلفت أسباب موته من خنق أو ترد أو نطح أو اهلال لغير الله به أو كيل سبع. وانما يكون لذلك معنى على قول من يقول: إنها، وان كانت فيها حياة إذا كانت غير مستقرة، فلا يجوز أكلها. قيل:

الفائدة في ذلك ان الذين خوطبوا بذلك لم يكونوا يعدون الميت إلا مامات حنف انفه من دون شئ من هذه الاسباب، فاعلمهم الله ان حكم الجميع واحد، وان وجه الاستباحة هو التذكية المشروعة. وقال السدي إن ناسا من العرب كانوا يأكلون جميع ذلك، ولا يعدونه ميتا. انما يعدون الميت الذي يموت من الوجع.

والتذكية: هوفري الوداج والحقوم إذا كانت فيه حياة، ولا يكون بحكم الميت. واصل الذكاء في اللغة تمام الشئ فمن ذلك الذكاء في السن، والفهم وهو تمام السن. قال الخليل: الذكاء أن تأتي في السن على قروحه، وهوسن في ذات الحافر، هي البزولة في ذات الخف، وهي الصلوجه في ذات الظلف. وذلك تمام استكمال القوة. قال الشاعر:

(٤٣٣)

يفضله اذا اجتهدا عليها * تمام السن منه والذكاء

وقيل جرى المذكيات غلاب اي جرى المسار التي قد أسنت ومعنى تمام السن النهاية في الشباب، فاذا نقص عن ذلك أوزاد، فلا يقال له الذكاء. والذكاء في الفهم أن يكون فهما تاما سريع القبول وذكيت النار إنما هو من هذا تأويله أتممت اشعالها فالمعنى على هذا ما ذكيتم أي ما ادركتم ذبحه على التمام.

وقوله: " وما ذبح على النصب " فالنصب: الحجارة التي كانوا يعبدونها وهي الاوثان. واحدها نصب، ويجوز أن يكون واحدا، وجمعه أنصاب. (وما)

موضعه رفع عطا على ما تقدم. وتقديره وحرمة عليكم ما ذبح على النصب. وبه قال مجاهدو ابن جريج، وقتادة. وقال ابن جريج: النصب ليست اصناما الصنم يصور وينقش، وهذه حجارة تتصب ثلثمائة وستون حجرا. ومنهم من يقول ثلثمائة منها لخزاعه، فكانوا إذا ذبحوا نضحوا

الدم على ما أقبل من البيت، وشرحوا اللحم، وجعلوه على الحجارة. فقال المسلمون: كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم فنحن أحق أن نعظمه، فانزل الله " لن ينال الله لحومها ولأدمائها...".

الاية " وقوله: " وان تستقسموا بالازلام ذلكم فسق " موضع (ان) رفع. وتقديره. وحرّم عليكم الاستقسام بالازلام. وواحد الازلام زلم وزلم قال الراجز: بات يراعيها غلام كالزلم وهي سهام كانت للجاهلية مكتوب على بعضها أمرني ربي، وعلى بعضها نهاني ربي، فاذا أرادوا سفرا أو أمرأيتهم به. ضربوا تلك القداح فان خرج السهم الذي عليه أمرني ربي، مضى لحاجته وإن خرج الذي عليه نهاني ربي، لم يمض، وإن خرج مالميس عليه شئ أعادوها فبين الله (تعالى) أن ذلك حرام العمل به. والاستقسام الاستفعال من قسمت أمري أي قلبته ودبرته قال الراعي: وتركت قومي يقسمون أمورهم * اليك أم يتلثثون قليلا

(٤٣٤)

وقيل: معناه طلب قسم الارزاق بالقداح التي كانوا يتقاعلون بها في اسفارهم وابتداءات أمورهم قال الشاعر يفتخر بقوة عزيمته وانه لايلتفت إلى ذلك.

أولم اقسام فترثبني القسوم (١)

وبه قال ابن عباس، وقتادة وسعيد بن جبير، ومجاهد والسدي قال مجاهد:

هي سهام العرب، وكعاب فارس والروم كانوا يتقاملون بها.

وقوله: " ذلكم فسق " معنى هذه الاشياء التي ذكرها فسق يعني خروج من طاعة الله إلى معصيته وهو قول ابن عباس، وأصله من فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرها. قال الزجاج: ولوكان بعض هذه المرفوعات نصبا بتقدير وحرّم الله الدم ولحم الخنزير، لكان جائزا إلا انه لم يقرأ به احد والقراءة متبعة، لايجوز خلاف ما قرئ به.

وقوله: " اليوم يئس الذين كفروا من دينكم " نصب اليوم على الظرف.

والعامل فيه يئس ذو والفسق اليوم. وليس يراد به يوما بعينه ومعناه الآن يئس الذين كفروا من دينكم، كما يقول القائل: أنا اليوم قد كبرت، وهذا لا يصلح إلى اليوم يريد الآن.

وبئس على وزن فعل يئس على وزن يفعل - بفتح العين، وروي بكسرهما - وقيل: يئس على وزن لعب بكسر اللام، والعين - وذكر يئس.

والمعنى ان الله قد حول الخوف الذي كان يلحقكم منكم اليهم، ويئسوا من بطلان الاسلام، وجاء كم ما كنتم توعدون به من قوله، ليظهره على الدين كله.

والدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه وأمرهم بالقيام به. ومعنى يئس انقطع طمعهم من دينكم أن تتركوه، وترجعوا منه إلى الشرك. وبه قال ابن عباس والسدي وعطا.
وقيل: إن اليوم الذي ذكر هو يوم عرفة من حجة الوداع بعد دخول العرب كلها في الاسلام.
ذهب إليه مجاهد، وابن جريج وابن زيد. وقيل: يوم جمعة، لما نظر

(١) في المطبوعة "فتوئني" بدل "فترثني". الطبري ٩ - ٥١٠ مجاز القرآن لابي عبيدة ١: ١٥٢. قسوم جمع قسم: الحظ الربث حبسك الانسان عن حاجته. (*)

(٤٣٥)

النبي (صلى الله عليه وآله) فلم ير الا مسلما موحدا، أو لم ير مشركا.
وقوله " فلا تخشوهم " هذا خطاب للمؤمنين نهاهم الله ان يخشوا ويخافوا من الكفار أن يظهروا على دين الاسلام، ويقهر والمسلمين ويرد وهم عن دينهم، ولكن اخشوني وخافوني إن خالفتم امري وارتكبتم معصيتي ان احل بكم عقابي وأنزل عليكم عذابي وهو قول ابن جريج، وغيره.
وقوله: " اليوم اكملت لكم دينكم " في تأويله ثلاثة اقوال:

احدها - قال ابن عباس، والسدي واكثر المفسرين إن معناه أكملت لكم فرائضي وحدودي وأمري ونهيي وحلالتي وحرامي بتتزيلي ما انزلت، وتبيناني ما بينت لكم، فلا زيادة في ذلك، ولانقضاء منه بالنسخ بعد هذا اليوم. وكان ذلك اليوم عام حجة الوداع قالوا: ولم ينزل بعد هذا على النبي (صلى الله عليه وآله) شئ من الفرائض في تحليل شئ، ولاتحرمة وأنه (عليه السلام) مضى بعد ذلك بأحدى وثمانين ليلة. وهو اختيار الجبائي والبلخي، فان قيل: أكان دين الله ناقصا في حال حتى أتمه ذلك اليوم؟ قيل: لم يكن دين الله ناقصا في حال، ولا كان إلا كاملا، لكن لما كان معرضا للنسخ، والزيادة فيه. وذلك يجري مجرى وصف العشرة بانها كاملة العدد، ولا يلزم أن توصيف بانها ناقصة، لما كان عدد المئة اكثر منها، واكمل.

فكذلك ما قلناه. وقال الحكم وسعيد بن جبير وقتادة معناه أكملت لكم حجكم وأفردتكم بالبلد الحرام تحجون دون المشركين، ولا يخالطكم مشرك وهو الذي اختاره الطبري قال لان الله قد انزل بعد ذلك قوله: " يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله " وقال الفراء هي آخر آية نزلت. وهذا الذي ذكره لوصح لكان ترجيحا لكن فيه خلاف. وقال الزجاج: معنى اكملت لكم الدين كفتيكم خوف عدوكم وأظهرتكم عليهم، كما تقول: الآن كمل لنا الملك. وكمل لنا ما نريد أي كفيينا ما كنا تخافة. وروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) أن الآية نزلت بعد أن نصب النبي (صلى الله عليه وآله) عليا علما للامة يوم غدير خم منصرفه عن حجة الوداع، فانزل

(٤٣٦)

الله يومئذ " اليوم اكملت لكم دينكم " .

وقوله: " واتممت عليكم نعمتي " خاطب الله (تعالى) جميع المؤمنين بأنه أتم نعمته عليهم باظهارهم على عدوهم المشركين، وفيهم اياهم عن بلادهم، وقطعه طمعهم من رجوع المؤمنين، وعودهم إلى ملة الكفر، وانفراد المؤمنين بالحج البلد الحرام. و: قال ابن عباس وقتادة والشعبي.

وقوله: " ورضيت لكم الاسلام دينا " معناه رضيت لكم الاستسلام لامري والانقياد لطاعتي على ما شرعت لكم من حدوده، وفرائضه ومعالمه دينا يعني بذلك طاعة منكم لي. فان قيل: أوما كان الله راضيا للاسلام دينا لعباده الايوم أنزلت هذه الآية؟ قيل: لم يزل الله راضيا لخلقه الاسلام دينا، لكنه لم يزل يصف نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) واصحابه في درجات الاسلام، ومراتبه درجة بعد درجة، ومرتبة بعد مرتبة، وحالا بعد حال حتى اكمل لهم شرائعه وبلغ بهم أقصى درجاته، ومراتبه، ثم قال: حين أنزلت هذه الآية " ورضيت لكم الاسلام دينا " فالصفة التي لها اليوم والحال التي انتم عليها، فالزموه، ولاتفارقوه. قال ابن عباس وعمر وعامر الشعبي وقتادة، كان ذلك يوم الجمعة. وقال الطاووس بن شهاب، وشهر ابن خوشب، واكثر المفسرين نزلت هذه الآية يوم عرفة حجة الوداع. وروى حنش عن ابن عباس، قال: ولد النبي (صلى الله عليه وآله) يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وأنزلت المائدة يوم الاثنين، وانزلت " اليوم اكملت لكم دينكم يوم الاثنين " ورفع الذكر يوم الاثنين. وقال الربيع بن أنس: نزلت في المسير من حجة الوداع. وقوله: " فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لأثم " معناه من دعت الضرورة في مجاعة لان المخمصة شدة ضمور البطن. لاثم أي غير مائل إلى إثم.

والمخمصة مفعلة، مثل المجنبه والمنجلة من خمص البطن وهوطيه، واضطماره من الجوع، وشدة السغب هاهنا دون أن يكون مخلوقا كذلك. قال النابغة الدباني

(٤٣٧)

في صفة امرأة بخمص البطن:

والبطن ذوعكن خميص لين * والنحر ينفجه بندي مقعد (١)
ولم يرد بذلك وصفها بالجوع، لكن أراد وصفها بلطافة طي ما علا الاوراك والافخاذ من جسدها، لان ذلك المحمود من النساء. فاما الاضطمار من الضر فكقول أعشى ثعلبية:
تبيتون في المشتى ملاء بطونكم * وجاراتكم غير تبن خماصا (٢)
يعني يبتن مضطرات البطن من الجوع. وقال بعض نحوي البصريين:

المخمصة المصدر من خمسه الجوع. وغيره يقول: هو اسم للمصدر، وكذلك تقع المفعلة اسما في المصادر للتأنيث، والتذكير: والذي قلناه هو قول ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد. وقوله: " غير متجانف لاثم " نصب على الحال. والمتجانف المتمايل للاثم المنحرف اليه. ومعناه في هذا الموضع المعتمد له القاصد اليه من جنف القوم: إذا مالوا. وكل اعوج، فهو اجنف.

والمعنى فمن اضطر إلى أكل الميتة، وما عدد الله تحريمه عند المجاعة الشديدة غير متعمد إلى ذلك، ولا مختار له، ولا مستحل له على كل حال، فان الله أباحه له. تناول ذلك مقدار ما يمسك رمقه، لازيادة عليه. وهو قول أهل العراق. وقال أهل المدينة: يجوز أن يشبع منه عند الضرورة. وما قلناه قول ابن عباس، ومجاهد وقتادة. قال قتادة: " غير متجانف لاثم " أي غير عاص بان يكون باغيا أو محاربا أو خارجا في معصية. وقال ابن زيد: لا تأكل ذلك ابتغاء الاثم ولا جرأة عليه.

وقوله: " فان الله غفور رحيم " في الكلام متروك دل ما ذكر عليه، لان المعنى فمن اضطر في مخمصة إلى ما حرمت عليه مما ذكرت في هذه الآية غير متجانف لاثم، فأكله لدلالة الكلام عليه.

ومعنى " فان الله غفور رحيم " ان الله لمن أكل ما حرمت عليه بهذه الآية

(١) - ديوانه: ٦٦ واللسان: (قعد). العكن: اطواء البطن. تنفجه: ترفعه.

(٢) ديوانه: ١٠٩. ومجاز القرآن ١: ١٥٣. (*)

(٤٣٨)

أكله في مخمصة متجانف، لاثم غفور لذنوبه أي ساتر عليه أكله، ويعفو عن مؤاخذته به، وليس يريد أن يغفر له عقاب ذلك، لانه اباحه له، فلا يستحق عليه العقاب وهو رحيم أي رقيق بعباده. لان رحمته ورفقه أنه أباح لهم أكل ما حرم عليهم في حال الخوف على النفس وروى المثني قال: قلنا يارسول الله (صلى الله عليه وآله) إنا بارض يصيبنا فيها مخمصة، فما يصلح لنا من الميتة؟ قال: اذا لم تصطبخوا أو تعتبقوا أو تختنقوا بها بقلًا، فشأنكم بها. وقال الحسن: يأكل منها مسكته.

وذكر في تختنقوا خمس لغات: تختنقوا بالهمزة وتختنقوا - بحذفها - وتختنقوا - بقلبها ياء - وتختنقوا وتخفوا - بالتخفيف - والخفأصل البردي كانوا يقشرونه ويأكلونه في المجاعة، فمع وجود ذلك لايجوز اكل الميتة.

وقوله: " فان الله غفور رحيم " عقيب قوله: " فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم " لا يدل على ان له أن يعاقبهم على فعل المباح، لان الوجه في ذلك أنه أراد أن يصف نفسه بمغفرة الذنوب وسترها، والصفح عنها لا يدل بذلك على أنه أحرى ألا يؤخذ بفعل المباحات التي ليست بذنوب، كما قال: " إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم " فدل على أن ما يفعله من المغفرة أو العقوبة صواب وحكمة، ليكون أعم في الدلالة على استحقاقه الاوصاف المحمودة.

واجاز بعضهم أن يكون ذلك ثوابا لبعض المكلفين قدمه، كما انه يجوز ان تكون الحدود عقابا لهم قدمه فلا شبهة في ذلك.
قوله تعالى:

(يسئلونك ماذا احل لهم قل احل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما امسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله ان الله سريع الحساب) (٥)
- آية بلاخلاف -.

(٤٣٩)

موضع (ما) رفع ويحتمل أن يكون وحدها اسما وخبرها قوله: (ذا) واحل من صلة ذا. وتقديره اي شئ الذي احل لهم؟ ويحتمل أن يكون ما وذا اسما واحدا، ورفع بالابتداء وتقديره أي شئ احل لهم؟ واحل لهم خبر الابتداء.
فمعنى الآية يسألك يا محمد اصحابك ما الذي احل لهم اكله من المطاعم، فقل لهم:
احل لكم الطيبات منها وهي الحلال الذي أذن لكم ربكم في أكله من الذبائح على قول الطبري والجبائي، وغيرهما وقال البلخي: الطيبات هو ما يستنذبه. قال قوم:
واحل لكم ايضا مع ذلك صيد ما علمتم من الجوارح وهي الكواسب من سباع الطير، والبهائم ولايجوز أن يستباح عندنا أكل شئ مما اصطاده الجوارح من السباع سوى الكلب إلا ما ادرك ذكاته. وسميت الطير جوارح، لجرحها أربابها وكسبها اياهم أفواتهم من الصيد يقال منه: جرح فلان أهله خيرا إذا كسبهم خيرا.

وفلان جارحة أهله يعني كاسبهم، ولجارحة لفلانة أي لاكاسب لها قال اعشى بني ثعلبة:
ذات خد منضج ميسمها * تذكر الجارح ما كان اجترح
يعني اكتسب. وقوله: " وما علمتم " تقديره وصيديما علمتم من الجوارح وحذف لدلالة الكلام عليه، لان القوم على ما روي كانوا سألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين أمرهم بقتل الكلاب عما يحل لهم اتخاذه منها، وصيده. فانزل الله (تعالى)

فيما سألوا عنه هذه الآية، فاستثنى (عليه السلام) مماكن حرم اتخاذه منها، وأمر بقتله كلاب الصيد، وكلات الماشية، وكلات الحرث وأذن في اتخاذا ذلك ذكرت ذلك سلمى ام رافع عن أبي رافع. قال جاء جبرائيل إلى النبي (صلى الله عليه وآله) يستأذن عليه، فاذن له فقال: قدأنا لك يارسول الله فقال: اجل ولكننا لاندخل بيتا فيه كلب. قال ابورافع: فأمرني رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن أقتل كل كلب بالمدينة، فقتلت حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبج عليها، فتركته رحمة لها. وجئت إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فاخبرته، فأمرني فرجعت، وقتلت الكلب، فجاؤا فقالوا:

يارسول الله ما يحل لنا من هذه الامة التي أمرت بقتلها، فسكت رسول الله (صلى الله عليه وآله)

(٤٤٠)

فانزل الله " يسألونك ماذاحل لهم قل احل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين " وبه قال عكرمة ومحمد بن كعب القرطي واختلفوا في الجوارح التي ذكر الي الاية: بقوله: " وما علمتم من الجوارح مكلبين " فقال قوم: هو كل ما علم فصبد فيتعلمه بهيمة كانت او طائرا. ذهب ليه الحسن، ومجاهد وحنيفة بن عبدالرحمن. ورووه عن ابن عباس، وطاووس وعلي بن الحسين وابي جعفر (ع)

وقالوا: الفهد والبازي من الجوارح. وقال قوم: عنى بذلك الكلاب خاصة دون غيرها من السباع. ذهب اليه الضحاك والسدي وابن عمر وابن جريج. وهو الذي رواه أصحابنا عن ابي عبدالله (عليهما السلام) فاما ما عدا الكلاب، فما ادرك ذكاته، فهو مباح، وإلا فلايحل أكله. ويقوي قولنا قوله تعالى: " مكلبين " وذلك مشتق من الكلب ومن صاد بالباز والصقر لايكون مكلبا.

وقوله: " مكلبين " نصب على الحال وتقديره وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح مكلبين أي في هذه الحال. يقال: رجل مكلب وكلات إذا كان صاحب صيد بالكلاب. وفي ذلك دليل على أن صيد الكلب الذي لم يعلم، حرام إذا — لم — (١) تدرك ذكاته.

وقوله: " تعلمونهن مما علمكم الله " معناه تؤدبون الجوارح، فتعلمونهن طلب الصيد لكم بما علمكم الله من التأديب الذي أدبكم به. وقال بعضهم: معناه كما علمكم الله. ذهب اليه السدي. وهذا ضعيف لان من المعنى الكاف لايعرب في اللغة، ولايينهما تقارب، لان الكاف للتشبيه ومن للتبويض واختلفوا في صفة التعليم للكلب فقال بعضهم: هوان يستشلى لطلب الصيد إذا أرسله صاحبه، ويمسك عليه إذا أخذه، فلا يأكل منه ويستجيب له إذا دعاه. فاذا توالي منه ذلك كان معلما.

ذهب إليه ابن عباس وعط وابن عمرو الشعبي وطاووس وابراهيم والسدي. قال عطا: إذا أكل منه فهو ميتة. وقال ابن عباس: إذا اكل الكلب من الصيد، فلا تأكل منه فانما امسك على نفسه. وهو الذي دلت عليه أخبارنا. غير أنهم اعتبروا ان يكون

(١) - (لم) - ساقطة من المطبوعة. (*)

(٤٤١)

اكل الكلب للصيد دائما. فاما إذا كان نادرا، فلا بأس ما أكل منه. وقال ابو يوسف، ومحمد: حد التعليم أن يفعل ذلك ثلاث مرات. وقال قوم: لاحد لتعليم الكلاب، فاذا فعل ما قلناه، فهو معلم. وقد دل على ذلك رواية اصحابنا، لانهم رووا أنه إذا أخذ كلب مجوسي فعلمه في الحال، فاصطاد به، جاز أكل ما يقتله. وقد بينا أن صيد غير الكلب، لا يحل أكله الا ما أدرك ذكاته. فلا يحتاج أن تراعي كيف تعلمه، ولا اكله منه. ومن أجاز ذلك أجاز أكل ما اكل منه البازي والصقر. ذهب اليه عطا وابن عباس والشعبي وابراهيم، وقالوا: تعلم البازي هو أن يرجع إلى صاحبه. وقال قوم: جوارح الطير والسباع سواء في ذلك ما أكل منه، وما لا يؤكل. روي ذلك عن النبي (صلى الله عليه وآله) والشعبي وعكرمة، وابن جريج. وقال قوم: تعليم كل جارحة من البهائم والطير واحد وهو أن يشلى على الصيد، فيستشلى، ويأخذ الصيد، ويدعوه صاحبه، فيجيب، فاذا كان كذلك كان معلما اكل منه أو لم يأكل. روي ذلك عن سلمان رواه قتادة عن ابي وقاص. وقال لولم يبق إلا جذية، جاز أكلها وبه قال ابو هريرة، وابن عمر. وقد بينا مذهبنا في ذلك وهو الذي رواه عدي بن حاتم عن النبي (صلى الله عليه وآله).

وقوله: " فكلوا مما امسكن عليكم " يقوي قول من قال: ما أكل منه الكلب لا يجوز أكله، لانه أمسك على نفسه. ومن شرط استباحة ما يقتله الكلب ان يكون صاحبه سمي عند إرساله، فان لم يسم لم يجزله اكله إلا إذا ادرك ذكاته وحده أن يجده يتحرك: عينه أو أذنه أو ذنبه، فيذكيه حينئذ بفري الحقوم والوداج، واختلفوا في (من) - من - قوله: " مما امسكن عليكم " فقال قوم:

هي زائدة، لان جميع ما يمسه، فهو مباح. وتقديره فكلوا ما امسكن عليكم. وجرى ذلك مجرى قوله: " يكفر عنكم من سيئاتكم " وقوله: " وينزل من السماء من جبال فيها من برد " وتقديره وينزل من السماء جبالا فيها برد. وقال بعضهم: وينزل من

(٤٤٢)

السماء من جبال فيها من برد أي من السماء من برد يجعل الجبال من برد في السماء ويجعل الانزال منها وانكر قوم ذلك وقالوا (من) للتبويض ويقوي قولهم: قد كان من مطر وكان من

حديث. يقول هل كان من مطر، وهل كان من حديث عندكم ونكفر عنكم من سيئاتكم ما يشاؤه ويريده. وقوله: " وينزل من السماء من جبال فيها من برد " يجيز حذف (من) برد ولايجيز حذفها من الجبال. ويقول:

المعنى وينزل من السماء من امثال جبال بردا، ثم أدخلت في من البرد مفسر عنده عن أمثال الجبال. وقد أقيمت الجبال مقام الامثال. والجبال هي جبال فلايجيز حذف (من) من الجبال، لانها دالة على أن في السماء الذي أنزل منه البرد أمثال جبال برد، لاجبال برد. واجاز حذف (من) من برد، لان البرد مفسر من الامثال، كما يقال: عندي رطلان زيتا، ومن زيت. وليس عندك الرطلان وانما عندك المقدار، فمن تدخل في المفسر وتخرج منه، وكذلك عند هذا القائل من السماء من امثال جبال، وليس بجبال. وقال: فان كان أنزل من جبال في السماء من برد جبالا، ثم حذف الجبال الثانية فالجبال الاولى في السماء جاز كما يقال: أكلت من الطعام يريدا كلت من الطعام طعاما، ثم يحذف الطعام، ولايحذف (من). والاقوى أن تكون من في الآية للتبعيض، لان مايمسكه الكلب من الصيد، لايجوز أكل جميعه لان في جملته ما هو حرام من الدم، والفرث والغدد، وغير ذلك مما لايجوز أكله، فاذا قال: فكلوا مما امسكن عليكم، أفاد ذلك بعض ما أمسكن، وهو الذي أباح الله أكله من اللحم، وغيره. وقوله: " ونكفر عنكم من سيئاتكم " قدبيننا الوجه فيه وسنبين الوجه في قوله: " من السماء جبال فيها من برد " إذا انتهينا اليه ان شاء الله.

وقوله: " واذكروا اسم الله عليه " صريح في وجوب التسمية عند الارسال. وهو قول ابن عباس والسدي وغيرهما. وقوله: " واتقوا الله " معناه واجتنبوا ما نهاكم عنه، فلا تقربوه، واحذروا معاصيه في ارتكاب ما نهاكم عنه في أن تأكلوا من صيد الكلب غير المعلم، أو مما لم يمسه عليكم، أو تأكلوا مما لم يسم

(٤٤٣)

الله عليه من الصيد، والذبايح مما صاده اهل الاوثان والاصنام " ان الله سريع الحساب " معناه التخويف بأنه سريع حسابه لمن حاسبه على نعمه، لایشغله حساب بعض عن بعض. ومتى غاب الكلب والصيد عن العين، ثم رآه ميتا لايجوز أن يأكله، لانه يجوز أن يكون مات من غير قتل الصيد. وفي الحديث: (كل ما أصميت ولا تأكل ما أنميت) فمعنى اصميت أن تصطاد بكلب أو غيره، فمات وأنت تراه مات بصيدك. واصل الصميان السرعة والخفة: ومعناه هاهنا ما أسرع فيه الموت وأنت تراه. ومعنى ما أنميت ما غاب عنك فلاتدري مات بصيدك أو بعارض آخر يقال نمت الرمية: إذا مضت والسهم فيها. وأنميت الرمية: إذا رميتها، فمضيت، والسهم فيها قال امرؤ القيس:

فهو لا تنمى رميته * ماله لاعد من نفره

وقال الحارث بن وعله الشيباني:

قالت سليمان فد غنيت فتى فالان لاتصمى ولاتنمى أي عشت ومتى اخذ الكلب الصيد ومات في يده من غير أن يجرحه، لم يجز أكله. واجاز قوم ذلك. والاول أحوط. وكل من لاتؤكل ذبيحته من أجناس الكفار، لايؤكل صيده أيضا. فأما الاصطياد بكلايه المتعلمه فجاز إذا صاده المسلم. قوله تعالى:

(اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اتوا الكتاب من قبلكم إذا اتيمتوهن اجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي اخدان ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله

(٤٤٤)

وهو في الآخرة من الخاسرين) (٥) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه أحل للمؤمنين الطيبات، وهي الحلال على ما بينا القول فيه في الآية الاولى، دون ما حرم في الآية المتقدمة. وقيل: معنى الطيبات ما يستلذ ويستطاب. وظاهر الآية على هذا يقتضي تحليل كل مستطاب إلا ما قال دليل على تحريمه.

وقوله: " وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم " رفع بالابتداء " وحل لكم " خبره وذلك يختص عند اكثر اصحابنا بالحبوب، لانها المباحة من أطعمة أهل الكتاب، فاما ذبائحهم وكل مائع يباشرونه بايديهم فانه تحبس ولايحل استعماله وتذكيبتهم لاتصح لان من شرط صحتها التسمية لقوله: ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وهؤلاء لا يذكرون اسم الله. وإذا ذكروه قصدوا بذلك اسم من ابد شرع موسى أو عيسى أو اتخذ عيسى ابنا. وكذب محمدا (صلى الله عليه وآله)

وذلك غير الله. وقد حرم الله ذلك بقوله: " وما اهل لخير الله به " على ما مضى القول فيه واكثر المفسرين على أن قوله: " وطعام الذين اوتوا الكتاب " المراد به ذبائحهم وبه قال قوم من اصحابنا: فمن ذهب اليه الطبري والبلخي والجبائي واكثر الفقهاء، ثم اختلفوا، فمنهم من قال: أراد بذلك ذبائح كل كتابي ممن أنزل عليه التوراة والانجيل، أو ممن دخل في ملتهم ودان بدينهم، وحرم ما حرموا، وحل ما حللوا. ذهب اليه ابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن المسيب، والشعبي وابن جريج، وعطا والحكم وقتادة. واجازوا ذبائح نصارى بني تغلب وقال آخرون:

إنما عنى به الذين أنزلت التوراة والانجيل عليهم، ومن كان دخيلا فيهم من سائر الامم، ودان بدينهم، فلاتحل ذبائحهم. حكى ذلك الربيع عن الشافعي من الفقهاء.

وروي تحريم ذبائح نصارى تغلب عن علي (عليه السلام) ورواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقال مجاهد، وابراهيم وابن عباس وقتادة والسدي والضحاك، وابن زيد وابوالدرداء إن اطعام الذين اوتوا الكتاب ذبائحهم وغيرها من الاطعمة.

(٤٤٥)

وبه قال الطبري والجبائي والبلخي وغيرهم. وقوله: " وطعامكم حل لهم " فيه بيان إن طعامنا ايضا حل لهم، فان قيل فما معنى ذلك، وهم لايستحلون طعامنا بتحليلنا لهم ذلك؟ قلنا عنه جوابان: احدهما - ان الله بين بذلك أنه حلال لهم ذلك سواء قبلوه، أو لم يقبلوه. والثاني - أن يكون حلال للمسلمين بذله لهم، ولو كان محرما عليهم، لما جاز لمسلم بذله اياه. وقوله: " والمحصنات من المؤمنات " معناه واحل لكم العقد على المحصنات يعني العفائف من المؤمنات. وقيل هن الحرائر منهن، ولايدل ذلك على تحريم من ليس بعفيفة، لان ذلك دليل خطاب يترك لدليل يقوم على خلافه، ولاخلاف أنه لو عقد على من ليس بعفيفة، ولا امة كان عقده صحيحا غير مفسوخ، وان كان الاولى تجنبه. وكذلك لو عقد على أمة بشرط جواز العقد على الامة على مامضى القول فيه. واختلف المفسرون في المحصنات التي عنا هن هاهنا فقال بعضهم عنى بذلك الحرائر خاصة: فاجرة كانت أو عفيفة وحرموا إماء اهل الكتاب بكل حال لقوله: " ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات فمما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات ". ذهب اليه مجاهد وطارق بن شهاب، وعامر الشعبي والحسن وقتادة. وقال اخرون: أراد بذلك العفائف من الفريقين: حرائر كن او إماء، وأجازوا العقد على الامة الكتابية. روى ذلك أيضا عن مجاهد، وعامر الشعبي وسفين وابراهيم والحسن بن ابي الحسن وقتادة في رواية، ثم اختلفوا في المحصنات من الذين اوتوا الكتاب، فقال قوم: هو عام في العفائف منهن: حرة كانت أو أمة، حربية كانت او ذمية. وهو قول من قال المراد بالمحصنات العفائف. وقال اخرون:

أراد الحرائر منهن: حرييات كن أو ذميات. وعلى قول الشافعي المراد بذلك من كان من نساء بني اسرائيل دون من دخل فيهن من سائر الملل. وقال قوم: أراد بذلك الذميات منهن. ذهب اليه ابن عباس. واختار الطبري أن يكون المراد بذلك الحرائر

(٤٤٦)

من المسلمات والكتايبات. وعندنا لايجوز العقد على الكتابية نكاح الدوام، لقوله تعالى: " ولاتنكح المشركات حتى يؤمن، " ولقوله: " ولاتمسكوا بعصم الكوافر " فاذا ثبت ذلك، قلنا في قوله: " والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب " تأويلان.

احدهما - ان يكون المراد بذلك اللاتي أسلمن منهن. والمراد بقوله: " والمحصنات من المؤمنات " من كن في الاصل مؤمنات. ولدن على الاسلام قيل: إن قوما كانوا يتخرجون من العقد على الكافرة إذا اسلمت فبين الله بذلك انه لاخرج في ذلك، فلذلك أفردهن بالذكر حكى ذلك البلخي.

والثاني - أن يخص ذلك بنكاح المتعة أو ملك اليمين، لانه يجوز عندنا وطؤهن بعقد المتعة، وملك اليمين على أنه روى أبو الجارود عن أبي جعفر (ع) أن ذلك منسوخ بقوله: " ولاتنكح المشركات حتى يؤمن " روى عن ابي عبدالله (ع)

انه قال: هو منسوخ بقوله: " ولاتمسكوا بعصم الكوافر " وقوله: " وإذا اتيتموهن اجورهن " يعني مهورهن. وهو عوض الاستمتاع بهن. وهو قول ابن عباس، وجميع المفسرين.

وقوله: " محصنين غير مسافحين ولامتخذي اخذ ان " نصب على الحال وتقديره أحل لكم المحصنات من الفريقيين، وانتم محصنون غير مسافحين، ولامتخذي أخذان يعني اعفاء غير مسافحين بكل فاجرة، وهو الزنا، ولامتخذي اخذ ان يعني اعنا غير مسافحين، ولامتخذي أخذان، ولامتفردين ببغية واحدة، خادنها وخادنته اتخذها لنفسه صديقة يفجر بها. وقد بينا معنى الاحصان ووجوهه، ومعنى السفاح والخدن في سورة النساء، فلوجه لاعادته وبذلك قال ابن عباس وقتادة والحسن.

وقوله: " ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين " يعني من يجحد ما أمر الله الاقرار به، والتصديق به من توحيد الله، ونبوة نبيه،

(٤٤٧)

والاقرار بما جاء به فقد حبط عمله يعني الاعمال التي يعملها، ويعتقدها قربات إلى الله، فانها تنحبط، ولايستحق عليها ثوابا، بل يستحق عليها العقاب، " وهو في الآخرة من الخاسرين " يعني الهالكين الذين غبنوا نفوسهم حظها من ثواب الله بكفرهم، واستحقاقهم العقاب على جحدهم التوحيد، والاسلام. وقال قوم: إن قوله: " ومن يكفر بالايمان " عنى به اهل الكتاب، لان قوما تخرجوا من نكاح نساء أهل الكتاب، واكل طعامهم وما بين الله في هذه الآية. ذهب اليه قتادة وابن جريج ومجاهد وابن عباس. فان قيل ما معنى " ومن يكفر بالايمان " قيل:

الايمان هو الاقرار بتوحيد الله، وصفاته، وعدله، والاقرار بالنبى (صلى الله عليه وآله) وما جاء به من عند الله. فمن جحد ذلك أو شيئاً منه كان كافراً بالايمان.

وقد حبط عمله الذي يرجو به الفوز والنجاة. وهو في الآخرة من الخاسرين. وقال مجاهد:
معناه من يكفر بالله. قال البلخي لا يعرف تأويل مجاهد في اللغة.
قوله تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا
برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وان كنتم جنبا فاطهروا وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء
أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم
وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم
تشكرون) (٦) - آية بالاخلاف -

— القراءة —

قرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص ويعقوب، والاعشى إلا النفار
" وأرجلكم " - بالنصب - الباقون بالجر وقرأ لمستم بلال حمزة والكسائي

(٤٤٨)

وخلف الباقون لامستم بالف هاهنا وفي النساء هذا خطاب للمؤمنين أمرهم الله إذا أرادوا القيام
إلى الصلاة، وهم على غير طهر، أن يغسلوا وجوههم، ويفعلوا ما أمرهم الله به فيها. وحذف
الارادة، لان في الكلام دلالة عليه، ومثله " فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله " ومعناه وإذا اردت
قراءة القرآن فاستعذ، وإذا قمت فيهم فاقمت لهم الصلاة ومعناه فاردت أن تقيم لهم الصلاة. ثم
اختلفوا هل يجب ذلك كلما أراد القيام إلى الصلاة أو بعضها أو في أي حال هي؟ فقال قوم:
المراد به إذا اراد القيام اليها، وهو على غير طهر. وهو الذي اختاره الطبري والبلخي
والجبائي والزجاج وغيرهم. وهو المروي عن ابن عباس، وسعد بن ابي وقاص، وابي موسى
الاشعري وأبي العالية، وسعيد بن المسيب وجابر بن عبدالله، وابراهيم والحسن والضحاك،
والاسود والسدي، وغيرهم. وقال آخرون: معناه إذا قمتم من نومكم إلى الصلاة ذهب اليه زيد
ابن اسلم والسدي وقال آخرون: المراد به كل حال قيام الانسان إلى الصلاة، فعليه ان يجدد
طهر الصلاة. ذهب اليه عكرمة. وقال: كان علي يتوضأ عند كل صلاة، ويقرأ هذه الآية. وقال
ابن سيرين إن الخلفاء كانوا يتوضؤون لكل صلاة، والاول هو الصحيح عندنا. وما روي عن
علي (عليه السلام)

في تجديد الوضوء عند كل صلاة محمول على الندب. وقال قوم: كان الفرض أن يتوضأ لكل
صلاة، ثم نسخ ذلك بالتخفيف، وهو المروي عن ابن عمر انه حدثته أسماء بنت زيد بن
الخطاب أن عبدالله بن حنظلة بن ابي عامر الغسيل حدثها أن النبي (صلى الله عليه وآله) أمر

بالوضوء عند كل صلاة، فشق ذلك عليه فأمر بالسواك ورفع عنه الوضوء إلا من حدث، فكان عبدالله يرى أن فرضه عليه، فكان يتوضأ وروى سليمان بن بريدة عن ابيه قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله)

يتوضأ لكل صلاة، فلما كان عام الفتح صلى الصلوات بوضوء واحد. فقال عمر: يارسول الله صنعت شيئاً ما كنت تصنعه ! قال: عمدا فعلته يا عمر. وقال الحسين بن علي المغربي: معنى إذا قمتم إذا عزمتم عليها وهممتم بها. قال الراجز للرشيد:

(٤٤٩)

ما قاسم دون الفتى ابن امه * وقد رضيناها فقم فسمه
فقال: يا أعرابي، ما رضيت ان تدعونا إلى عقد الامر له قعودا حتى أمرتنا بالقيام، فقال: قيام عزم لاقيام جسم. وقال حريم الهمداني:

فحدثت نفسي أنها أو خيالها * اتانا عشاء حين قمنا لنهجعاً
أي حين عزمنا للهجوع. وأقوى الأقوال ما حكيناه أولاً من ان الفرض بالوضوء يتوجه إلى من اراد الصلاة وهو على غير طهر، فاما من كان متطهراً، فعليه ذلك استحباباً. وما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) والصحابة في تجديد الوضوء، فهو محمول على الاستحباب في جميع الاحوال، لاجماع أهل العصر على أن الفرض في الوضوء كان في كل صلاة، ثم نسخ، فعلمنا بذلك أن ما روي من تجديد الوضوء، كان على وجه الاستحباب. وقال قوم: إن الله (تعالى) أنزل هذه الآية اعلماً للنبي (صلى الله عليه وآله) أنه لاوضوء عليه إلا إذا قام إلى الصلاة دون غيرها من الاعمال، لانه كان إذا أحدث امتنع من الاعمال حتى يتوضأ فاباح الله له بهذه الآية أن يفعل ما بداله من الاعمال بعد الحدث إلى عمل الصلاة، توضأ أولم يتوضأ. وأمره بالوضوء للصلاة. روى ذلك عبدالله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن عبدالله بن علقمة عن ابيه قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذا بال لم يرد جواب السلام حتى يتطهر للصلاة، ثم يجيب حتى نزلت هذه الآية.

وقوله: " فاغسلوا وجوهكم " امر من الله بغسل الوجه واختلفوا في حد الوجه الذي يجب غسله، فحده عندنا من قصاص شعر الرأس إلى محاذي شعر الذقن طولاً وما دخل بين الوسطى والابهام عرضاً، وما خرج عن ذلك فلا يجب غسله.

وما نزل من الشعر عن المحادر، فلا يجب غسله. وقال بعضهم: ما ظهر من بشرة الانسان من قصاص شعر رأسه منحدرًا إلى منقطع ذقنه طولاً، وما بين الاذنين عرضاً. قالوا والاذنان وما بطن من داخل الفم والانف والعين، فليس من الوجه، ولا يجب غسل ذلك، ولاغسل شئ منه. واما ما غطاه الشعر كالذقن، والصدغين،

(٤٥٠)

فان امرار الماء على ما علا الشعر عليه يجزي من غسل ما بطن منه من بشرة الوجه، لان الوجه عندهم ما ظهر لعين الناظر من ذلك يقابلها دون غيره. وهذا بعينه مذهبنا. إلا ما خرج عن الابهام والوسطى إلى الاذن، فانه لايجب غسله. ذهب إلى ما حكيناه إبراهيم، ومغيرة والحسن وابن سيرين، وشعبة والزهري وربعية وقتادة، والقاسم بن محمد وابن عباس، وابن عمر. قال ابن عمر: الاذنان من الرأس. وبه قال قتادة والحسن، ورواه أبوهريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله) وقال آخرون:

الوجه كل ما دون منابت شعر الرأس إلى منقطع الذقن طولاً، ومن الاذن إلى الاذن الاخرى عرضاً ما ظهر من ذلك لعين الناظر، وما بطن منه من منابت شعر اللحية، والعارضين، وما كان منه داخل الفم والانف، وما أقبل من الاذنين على الوجه.

وقالوا: يجب غسل جميع ذلك ومن ترك شيئاً منه لم تجزه الصلاة. ذهب إليه ابن عمر في رواية نافع عنه، وابوموسى الأشعري. ومجاهد وعطا والحكم، وسعيد بن جبير وطاؤوس، وابن شيرين والضحاك، وانس بن مالك وام سلمة، وابوايوب وابوامامة، وعمار بن ياسر وقتادة كلهم قالوا بتخليل اللحية، فاما غسل باطن الفم، فذهب إليه مجاهد، وحماد وقتادة. واما من قال: ما أقبل من الاذنين يجب غسله، وما أدبر يجب مسحه فالشعبي. وقد بينا مذهبنا في ذلك. والذي يدل على صحة ذلك أن ما قلناه مجمع على انه من الوجه. ومن ادعى الزيادة فعليه الادلة. واستوفينا.

ذلك في مسائل الخلاف وتهذيب الاحكام.

وقوله: " وايديكم إلى المرافق " منصوب بالعطف على الوجوه الواجب غسلها.

ويجب عندنا غسل الايدي من المرافق، وغسل المرافق معها إلى رؤوس الاصابع، ولا يجوز غسلها من الاصابع إلى المرافق (وإلي) في الآية بمعنى مع كقوله: " تاكلوا اموالهم إلى اموالكم " وقوله: " من انصاري إلى الله " وأراد بذلك (مع) قال امرؤ القيس:
له كف كالدعص لبدته الندى * الي حارك مثل الرتاج المضيب

(٤٥١)

وقال النابغة الجعدي:

ولوح ذراعين في بركة * إلى جؤجؤ رهل المنكب

اراد مع حارك ومع رهل. وطعن الزجاج على ذلك فقال: لوكان المراد بالي مع، لوجب غسل اليد إلى الكتف، لتناول الاسم له. وانما المراد بالي الغاية والانتهاء، لكن المرافق يجب غسلها

مع اليدين. وهذا الذي ذكره ليس بصحيح، لانالو خلينا وذلك، لقلنا بما قاله. لكن خرجنا بدليل. ودليلنا على صحة ما قلناه: اجماع الامة على أنه متى بدأ من المرافق كان وضوءه صحيحا وإذا جعلت غاية ففيه الخلاف. واختلف أهل التأويل في ذلك، فقال مالك بن أنس: يجب غسل اليدين إلى المرفقين، ولا يجب غسل المرفقين. وهو قول زفر. وقال الشافعي: لأعلم خلافا في ان المرافق يجب غسلها. وقال الطبري: غسل المرفقين، وما فوقهما مندوب اليه غير واجب. وانما. اعتبرنا غسل المرافق، لاجماع الامة على أن من غسلها صحت صلاته. ومن لم يغسلها، ففيه الخلاف. والمرافق جمع مرفق. وهو المكان الذي يرتفق به، ويتكأ عليه على المرفقة وغيرها.

وقوله: " وامسحوا برؤوسكم " اختلفوا في صفة المسح، فقال قوم: يمسح منه ما يقع عليه اسم المسح، وهو مذهبنا. وبه قال ابن عمر، والقاسم بن محمد، وعبد الرحمن بن ابي ليلى، وابراهيم والشعبي وسفيان. واختاره الشافعي واصحابه والطبري. وذهب قوم إلى انه يجب مسح جميع الرأس ذهب اليه مالك. وقال ابو حنيفة، وابويوسف ومحمد: لايجوز مسح الرأس باقل من ثلاثة أصابع. وعنه روايتان فيهما خلاف، ذكرناهما في الخلاف. وعندنا لايجوز المسح إلا على مقدم الرأس. وهو المروي عن ابن عمر والقاسم بن محمد، واختاره الطبري. ولم يعتبر احد من الفقهاء ذلك. وقالوا: أي موضع مسح أجزاءه وإنما اعتبرنا المسح ببعض الرأس، لدخول الباء الموجبة، للتبويض لان دخولها في الموضع الذي يتعدى الفعل فيه بنفسه لوجه له غير التبعض والإكان لغوا. وحملها على الزيادة لايجوز مع

(٤٥٢)

إمكان حملها على فائدة مجددة، فان قيل: يلزم على ذلك المسح ببعض الوجه في التيمم قلنا كذلك نقول، لانانقول بمسح الوجه من قصاص الشعر إلى طرف الانف ومن غسل الرأس، فانه لايجزيه عن المسح عندنا وخالف جميع الفقهاء في ذلك، وقالوا يجزيه لانه يشتمل عليه. وهذا غير صحيح، لان حد المسح هو إمرار العضو الذي فيه نداوة على العضو الممسوح من غير أن يجري عليه الماء. والغسل لا يكون الا بجريان الماء عليه، فمعناها مختلف، وليس إذا دخل المسح في الغسل يسمى الغسل مسحا، كما أن العمامة لاتسمى خرقة، وان كانت تشتمل على خرق كثيرة.

وقوله: " وارجلكم إلى الكعبين " عطف على الرؤوس فمن قرأ بالجر ذهب إلى انه يجب مسحها كما وجب مسح الرأس، ومن نصبهما ذهب إلى انه معطوف على موضع الرؤوس، لان موضعها نصب لوقوع المسح عليها، وانماجر الرؤوس لدخول الباء الموجبة للتبويض على ما بيناه فالقراءتان جميعا تفيدان المسح على ماذهب اليه. وممن قال بالمسح ابن عباس

والحسن البصري وابو علي الجبائي ومحمد بن جرير الطبري، وغيرهم ممن ذكرناهم في الخلاف، غير أنهم أوجبوا الجمع بين المسح والغسل بالمسح بالكتاب، والغسل بالسنة وخيرة الطبري في ذلك. وأوجبوا كلهم استيعاب جميع الرجل ظاهرا وباطنا. وعندنا أن المسح على ظاهرهما من رؤوس الاصابع إلى الكعبين. وهما الناتئان في وسط القدم على ما استدل عليه. وقال عكرمة عن ابن عباس: الرضوء غسلتان ومسحتان. وبه قال أنس بن مالك. وقال عكرمة ليس على الرجلين غسل إنما فيهما المسح. وبه قال الشعبي: ألا ترى أن التيمم يمسح ما كان غسلا ويلغي ما كان مسحا. وقال قتادة افترض الله مسحتين وغسلتين. روى أوس ابن أبي أوس قال: رأيت النبي (صلى الله عليه وآله) توضأ ومسح على نعليه، ثم قام فصلي. وروى حذيفة قال: أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) سباطة قوم، فبال عليها قائما، ثم دعا بماء، فتوضأ ومسح على نعليه. وروى حبة الغربي قال: رأيت علي ابن ابي طالب (عليه السلام) شرب في الرحبة قائما، ثم توضأ ومسح علي نعليه.

وروي عن ابن عباس أنه وصف وضوء رسول الله (صلى الله عليه وآله) فمسح

(٤٥٣)

على رجليه. وعنه أنه قال: إن كتاب الله المسح ويأبى الناس الا الغسل. وعن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) أنه قال ما نزل القرآن إلا بالمسح. فان قيل: القراءة بالجر ليست على العطف على الرؤوس في المعنى. وانما عطف عليها على طريق المجاورة، كما قالوا: حجر ضب خرب، وخرب، من صفات الحجر لا الضب وكما قال الشاعر:

كان بثيرا في عرائين وبله * كبير اناس في بجاد مزمل
والمزمل من صفة الكبير لالبجاد. وقال الاعشى:

لقد كان في حول ثواء ثويته * تقضى لبانات ويسام سائم قلنا: هذا لايجوز من وجوه: احدها - ما قال الزجاج أن الاعراب بالمجاورة، لايجوز في القرآن، وانما يجوز ذلك في ضرورة الكلام والشعر.

والثاني - أن الاعراب بالمجاورة لا يكون مع حرف العطف فاما قول الشاعر:

فهل انت ان ماتت اتانك راحل * إلى آل بسطام بن قيس فخطب

قالوا: جر مع حرف العطف الذي هو الفاء، فانه يمكن أن يكون أراد الرفع وانما جر الراوي وهما. ويكون عطف على راحل يكون قد أقوى لان القصيدة مجرورة. وقال قوم: أراد بذلك الامر وإنما جر لاطلاق الشعر.

والثالث - أن الاعراب بالمجاورة إنما يجوز مع ارتفاع اللبس. فاما مع حصول اللبس، فلا يجوز، ولا يشتبه على احد أن خرب من صفة حجر، لا الضب.
وكذلك قوله: مزمل من صفة الكبير لا البجاد. وليس كذلك في الآية، لان الارجل يمكن أن تكون ممسوحة ومغسولة، فاما قول الشاعر: ثواء ثويته، فانما جره بالبدل من الحول والمعنى لقد كان في ثواء ثويته تقضى لبانات. وهو من بدل الاشتمال، كقوله: " قتل اصحاب الاخدود النار ". وقول الشاعر:

لم يبق الا اسير غير منفلت * وموثق في عقال الاسر مكبول
فليس خفض موثق على المجاورة، لان معنى البيت لم يبق غير اسير قالوا بمعنى

(٤٥٤)

غير وهي تعاقبها في الاستثناء. فقوله غير موثق عطف المعنى على موضع اسير.
وتقديره لم يبق غير اسير وغير منفلت. واما قوله: " وهورعين " في قراءة من جرهما، فليس بمجرور على المجاورة، بل يحتمل امرين:
احدهما - أن يكون عطفاً على قوله: " يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب وباريق وكأس من معين " إلى قوله: " وهورعين " عطف على اكواب. وقولهم:
انه لا يطاق إلا بالكاس غير مسلم، بل لا يمتنع أن يطاق بالهور العين كما يطاق بالكاس وقد ذكر في جملة ما يطاق به الفاكهة واللحم.
والثاني - أنه لما قال: " اولئك المقربون في جنات النعيم " عطف بحورعين على جنات النعيم فكانه قال: هم في جنات النعيم. وفي مقاربة أو معاشرة حورعين.
ذكره أبو علي الفارسي، فاما من قال: الرجلان ممسوحان ويراد بالمسح الغسل، فقوله: يبطل بما قلناه من أن المسح غير الغسل. واستشهداهم بقولهم: تمسحت للصلاة وأنهم سموا الغسل مسحا. وقوله: " فطفق مسحا بالسوق والاعناق "، وانه أراد غسلها باطل بما قدمناه، ولانه لو كان ذلك محتملاً لغة، لما احتتمل شرعا، لان الشرع فرق بين الغسل والمسح، ولذلك قالوا بعض اعضاء الطهارة مغسولة، وبعضها ممسوحة. وفلان يرى غسل الرجلين، وفلان يرى مسحهما، ولانه لا خلاف أن الرأس ممسوح مسحا ليس بغسل، فلا بد ان يكون حكم الرجلين حكمهما، لكونهما معطوفتين عليه، وقولهم: تمسحت للصلاة، فلانهم لما أرادوا أن يخبروا بلفظ مختصر عن جميع أفعال الصلاة، لم يخز أن يقولوا اغتسلت للصلاة، لان في الطهارة ما ليس بغسل. واستطالوا أن يقولوا اغتسلت وتمسحت للصلاة قالوا: بدلا من ذلك تمسحت توسعا، ومجازا. وقوله: " فطفق مسحا بالسوق " فاكثر المفسرين على ان المراد به فطفق ضربا. ذهب اليه الفراء وأبو عبيدة. وقال آخرون: أراد المسح في الحقيقة، وأنه كان مسح أعراقها

وسوقها. وانما حمل على الغسل شاذمنهم ومن قال القراءة تقتضي المسح غير أنه المسح على الخفين، فقوله باطل، لان الخف

(٤٥٥)

لايسمى رجلا في لغة ولاشرع. والله (تعالى) أمر بايقاع الفرض علي ما يسمى رجلا في الحقيقة. واما لقراءة بالنصب، فقد بينا أنها معطوفة علي موضع الرؤوس لان موضعها النصب، والحكم فيها المسح والعطف على الموضع جائز، لانهم يقولون: لست بقائم ولاقاعد. ويقولون حسبت بصدرة وصدر زيد وان زيدا في الدار وعمرو، فيرفع عمرو بالعطف على الموضع. وقال الشاعر:
معاوي اننا بشر فاسجح * فلسنا بالجبال ولا الحديد
وقال اخر:

هل انت باعث دينار ل حاجتنا * او عبد رب اخعون بن مخراق
وانما نصب عبد رب، لان التقدير باعث ديناراً، فحمله على الموضع، وقد سوغوا العطف على المعنى، وان كان اللفظ لا يقتضيه قال الشاعر:
جنني بمثل بني عمرو لقومهم * أو مثل اسرة منظور بن سبار
لما كان معنى جنني هات مثلهم، أو اعطني مثلهم. قال: أو مثل بالنصب عطفاً على المعنى، وعطف الارجل على الايدي لايجوز، لان الكلام متى حصل فيه عاملان: قريب وبعيد لا يجوز أعمال البعيد دون القريب مع صحة حمله، عليه.
لايجوز أن يقول القائل: ضربت زيدا وعمرا وأكرمت خالدا وبكرا. ويريد بنصب بكر العطف على زيد أو عمرو المضروبين، لان ذلك خروج عن فصاحة الكلام، ودخول في معنى اللغو وبمثل ما قلناه ورد القران واكثر الشعر قال الله تعالى: " وانهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله احدا " ولو اعمل الاول، لقال:

كما ظنتموه. وقال " آتوني افرغ عليه قطرا " ولو أعمل الاول، لقال أفرغه.
وقال: " هاؤم اقرأوا كتابيه " ولو اعمل الاول لقال: هاؤم اقرأوه. وقال الشاعر:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه * وعزة ممطول معنى غريمها
ولو أعمل الاول، لقال: فوفاه غريمه. فاما قول امرئ القيس:
فلوانما أسعى لادنى معيشة * كفاني ولم اطلب قليل من المال

(٤٥٦)

فانما أعمل الاول للضرورة، لانه لم يجعل القليل مطلوباً وانما كان المطلوب عنده الملك. وجعل القليل كافياً. ولولم يرد هذا ونصب، لفسد المعنى. فاما من نصب بتقدير واغسلوا أرجلكم، كما قالوا:

متقلدا سيفاً ورمحاً وعلفها تبناً وماء بارداً فقد اخطأ، لان ذلك إنما يجوز إذا استحال حمله على اللفظ. فاما إذا جاز حمله على ما في اللفظ، فلا يجوز هذا التقدير. ومن قال يجب غسل الرجلين، لانهما محدودتان كاليدين، فقوله ليس بصحيح، لانهما لانسلم ان العلة في كون اليدين مغسولتين كونهما محدودتين. وانما وجب غسلهما، لانهما عطفاً على عضو مغسول. وهو الوجه. فكذلك إذا عطف الرجلين على ممسوح هو الرأس، وجب أن يكونا ممسوحين. والكعبان عندنا هما النابتان في وسط القدم. وبه قال محمد بن الحسن وإن أوجب الغسل. وقال أكثر المفسرين والفقهاء: الكعبان هما عظما الساقين يدل على ما قلناه أنه لو أراد ما قالوا، لقال إلى الكعب، لان في الرجلين منها أربعة. وايضا فكل من قال: يجب مسح الرجلين، ولا يجوز الغسل قال الكعب هو ما قلناه، لان من خالف في أن الكعب ما قلناه على قولين: قائل يقول بوجوب الغسل، وآخر يقول بالتخيير. قال الزجاج: كل مفصل للعظام فهو كعب.

وفي الآية دلالة على وجوب الترتيب في الوضوء من جهين:

احدهما - ان الواو يوجب الترتيب لغة على قول الفراء وأبي عبيد وشرعا على قول كثير من الفقهاء، ولقوله (عليه السلام): ابدأوا بما بدأ الله به.

والثاني - ان الله أوجب على من يريد القيام إلى الصلاة إذا كان محدثاً أن يغسل وجهه أولاً، لقوله: " إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا " والفاء توجب التعقيب والترتيب بلاخلاف، فاذا ثبت أن البداء بالوجه هو الواجب، ثبت في باقي الاعضاء، لان أحدا لا يفرق ويقويه قوله (عليه السلام) للاعرابي - حين علمه الوضوء، فقال: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به، فان كان رتب فقد بين انه الواجب الذي لا يقبل الله الصلاة إلا به، وان لم يرتب لزم أن يكون من رتب،

(٤٥٧)

لايجزيه وقد اجتمعت الامة على خلافه. وفي الآية دلالة على أن من مسح على العمامة أو الخفين لايجزيه، لان العمامة لاتسمى رأساً. والخف لايسمى رجلاً كما لا يسمى البرقع وما يستر اليدين وجهاً ولا يداً. وما روي من المسح على الخفين أخبار احاد لا يترك لها ظاهر القرآن. على أنه روي عن علي (عليه السلام) أنه قال: نسخ ذلك بهذه الآية وكذلك قال لمن قال: اقبل المائدة أو بعدها. وفي الآية دلالة على وجوب النية في الوضوء، لانه قال: إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا. وتقديره فاغسلوا للصلاة كما يقول القائل: إذا أردت لقاء عدوك، فخذ سلاحك بمعنى فخذ سلاحك للقاءه ولا يمكن أن يكون غاسلاً هذه الاعضاء للصلاة إلا بنية. وقوله: "

ان كنتم جنبا فاطهروا " معناه وإن أصابنكم جنابة وأردتم القيام إلى الصلاة فاطهروا بالاعتسال.

والجنابة تكون بشيئين:

أحدهما - بانزال الماء الدافق في النوم أو اليقظة. وعلى كل حال بشهوة كان أو بغير شهوة. والآخر - بالتقاء الختانين وحده غيبوبة الحشفة أنزل أو لم ينزل، والجنب يقع على الواحد والجماعة والاثنتين، والمذكر والمؤنث مثل رجل عدل، وقوم عدل، ورجل زور وقوم زور، ونحو ذلك وهو بمنزلة المصدر قال الزجاج: تقديره ذو جنب. ويقال أجنب الرجل وجنب واجتنب والفعل الجنابة وقدحكي في جمعه أجناب والاول أظهر. واصل الجنابة البعد قال علقمة:

فلا تحرمني نائلا عن جنابة * فاني امرؤ وسط القباب غريب

وقوله: " وان كنتم مرضى او على سفر أو جاء احد منكم من الغائط او لامستم النساء " معناه وان كنتم مرضى يعني ان كنتم جرحى أو مجدرين أو مرضى يضربكم استعمال الماء وكنتم جنبا أو على غير وضوء قدبينا ذلك في سورة النساء وقوله: " أو على سفر " معناه وإن كنتم مسافرين وأنتم جنبا وجاء أحد منكم من الغائط معناه أو جاء أحد منكم من الغائط قدقضى حاجته فيه، وهو مسافر أو لامستم النساء معناه أو جامعتم النساء، وانتم مسافرون. وقد بينا اختلاف الفقهاء في اللمس، وبيننا أصح الأقوال في ذلك، فلاوجه لاعادته، فان قيل: ما معنى

(٤٥٨)

تكرير قوله: لامستم النساء إن كان معنى اللمس الجماع مع انه قد تقدم ذكر الواجب عليه لقوله: " وان كنتم جنبا فاطهروا " قلنا وجه ذلك أن المعنى في قوله: " وان كنتم جنبا " غير المعنى الذي ألزمه الله بقوله: او لامستم النساء، لانه (تعالى) بين الحكم بقوله: " وان كنتم جنبا فاطهروا " معناه إذا كنتم واجدين للماء ممكنين لاستعماله، ثم بين حكمه إذا عدم الماء، أو لايمكن من استعماله أو هو مسافر غير مريض مقيم، فاعلمه أن التيمم هو فرضه، وهو طهارته. وقد بينا حكم التيمم ومعناه وكيفيةه فيما مضى.

وقوله: " فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وايديكم منه " قد بينا جميع ذلك فيما مضى. جملة أنه يقول: أيها المؤمنون إذا قمتم إلى الصلاة، وانتم على غير طهر، ولم تجدوا ماء، ولاتمكنون من استعماله، فأقصدوا وجه الارض طاهرا نظيفا غير نجس، ولاقدر " فامسحوا بوجوهكم وايديكم منه " يعني مما يعلق بايديكم منه يعني من الصعيد وقد بينا كيفية التيمم، وأنه من قصاص الشعر إلى طرف الانف، ومن الزند الي اطراف الاصابع في اليدين. وقد بينا اختلاف المفسرين والفقهاء في ذلك، فلا معنى لاعادته. وقوله: " ما يريد الله ليجعل

عليكم من حرج " معناه ما يريد الله مما فرض عليكم من الوضوء إذا قمتم إلى الصلاة والغسل من الجنابة والتيمم صعيدا طيبا عند عدم الماء أو تعذر استعماله، ليلزمكم في دينكم من ضيق، ولانفتحتكم فيه، وهو قول علي (عليه السلام)

ومجاهد وجميع المفسرين. وقوله: " ولكن يريد ليظهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون " معناه لكن يريد الله ليظهركم بما فرض عليكم من الوضوء والغسل من الاحداث والجنابة أن ينظف بذلك اجسامكم من الذنوب. واللام في قوله:

" ليظهركم " دخلت لتبيين الارادة والمعنى ارادته لتظهيركم كما قال الشاعر:

اريد لانسى ذكرها فكانما * تمثل لي ليلي بكل سبيل

روي ما قلناه عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي امامة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: إن الوضوء يكفر ما قبله وقوله: " وليتم نعمته

(٤٥٩)

عليكم " معناه ويريد الله مع تطهيركم من ذنوبكم بطاعتكم اياه فيما فرض عليكم من الوضوء والغسل إذا قمتم إلى الصلاة مع وجود الماء، والتيمم مع عدمه، أن يتم نعمته باباحته لكم التيمم، وتصييره لكم الصعيد الطيب طهورا رخصة منه لكم في ذلك مع سوابغ نعمه التي أنتم بها عليكم " لعلكم تشكرون " معناه ولتشكروا الله على نعمه التي أنعم بها عليكم بطاعتكم اياه فيما امركم به ونهاكم عنه.

قوله تعالى:

(واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا واطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور) (٧) آية بلاخلاف.

في هذه الآية اذكار بنعم الله تعالى عليهم برسوله (صلى الله عليه وآله)

وميثاقه الذي واثقهم به عندما ضمنوا لرسول الله (صلى الله عليه وآله) السمع والطاعة، ثم حذرهم ان ينقضوا ذلك بقلوبهم، واعلمهم أنه عليم بذات الصدور.

والميثاق الذي واثقهم به قال البلخي: والجبائي هو ما أخذ عليهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) عند اسلامهم وبيعتهم بأن يطيعوا الله في كل ما يفرضه عليهم مما ساءهم أو سرهم. قال الجبائي: هو مبايعتهم له ليلة العقبة وبيعة الرضوان وهو قول ابن عباس وقال اخرون: هو ما اخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم (ع) واشهدهم على انفسهم الست بربكم؟ قالوا: بلى. ذهب اليه مجاهد. والصحيح قول ابن عباس لامرين:

احدهما - ان الخبر مروى في أخذ الميثاق على من استخرج من صلب ادم (ع) ضعيف تحيله العقول.

والثاني - أن الله (تعالى) ذكر بعقب تذكيره المؤمنين ميثاقه الذي واثق به اهل التوراة بعدما أنزل كتابه على نبيه موسى (ع) فيما أمرهم به ونهاهم عنه،

(٤٦٠)

فقال: " ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا " الايات بعدها منبها بذلك أصحاب رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله)

على مواضع حظوظهم من الوفاء لله بما عاهدهم عليه وتعريفهم سوء عاقبة هل الكتاب في تضييعهم من الوفاء لله بما عاهدهم عليه وما ضيعوا من ميثاقه الذي واثقهم به في أمره ونهيه زاجرا لهم عن نكث عهده لئلا يحل بهم ما حل بمن تقدم من الناكثين عهده من اهل الكتاب. وقال ابو الجارود عن ابي جعفر (ع) - الميثاق هو ما بين لهم في حجة الوداع من تحريم كل مسكر وكيفية الوضوء على ما ذكره الله وغير ذلك ونصب امير المؤمنين (عليه السلام) اماما للخلق وهذا داخل فيما حكيناه عن ابن عباس إذ هو بعض ما أمر الله به قوله تعالى:

(ياايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) (٨) آية - بلاخلاف - . هذا خطاب للمؤمنين امرهم الله تعالى ان يكونوا قوامين بالقسط أي قائمين بالعدل يقومون به، ويدومون عليه شهداء. لله أي مبينون عن دين الله، لان الشاهد يبين ما شهد عليه. و " قوامين " نصب بانه خبر كان (شهداء) نصب على الحال.

وقوله: " ولا يجرمنكم " قد فسرناه فيما مضى. قال الكسائي: وابوعبيدة معناه لا يجرمنكم بغض قوم على الا تعدلوا يقال: جرمني فلان على أن فعلت كذا أي حملني عليه وقال الفراء يجرمنكم يكسبنكم يقال: جرمت على أهلي أي كسبتهم. وفلان جريمة أهله أي كاسبهم قال الكسائي: وفيه لغتان جرمت اجرم جرما وأجرمت اجرم أجراما. وشنآن قال الكسائي: معناه البغض وفيه لغتان: فتح

(٤٦١)

النون الاولى وجزمها. وقد بينا اختلاف القراء فيه. قال الزجاج: من حرك النون اراد بغض قوم. ومن سكن اراد بغيض قوم. وحكى ايضا جرم واجرم لغتين وقيل اجرمته ادخلته في الجرم كما قيل أئمته ومعناه ادخلته في الاثم والمعنى لا يجرمنكم شنآن قوم اي بغض قوم ألا تعدلوا في حكمكم فيهم، وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم. وقال عبدالله بن كثير: نزلت هذه الآية في يهود حين مضى النبي (صلى الله عليه وآله) إلى حصن بني قريظة يستعينهم في دية فهموا أن يقتلوه، فنزلت هذه الآية، ثم أمرهم بعد النبي عن الجور أن يفعلوا العدل مع كل أحد

وليا كان أو عدوا، فان فعل العدل أقرب لكم أيها المؤمنون إلى التقوى، ثم حذرهم تعالى فقال " واتقوا الله " أي خافوا عقابه باجتنب معاصيه وفعل طاعاته، فان الله خبير أي عالم باعمالكم والكناية في قوله: " هو أقرب للتقوى " كناية عن العدل أي العدل أقرب للتقوى، ولولم يكن هو في الكلام، لكان أقرب نصبا، كما قال: انتهوا خير لكم وكنى عن الفعل في هذا الموضع بهو. قوله تعالى:

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم) (٩) - آية بلاخلاف - .
وعد الله تعالى في هذه الآية الذين صدقوا بوحداية الله واقروا بنبوته نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) وعملوا الصالحات ان لهم مغفرة او وعدهم مغفرة ووقعت الجملة موقع المفرد كما قال الشاعر:

وجدنا الصالحين لهم جزاء * وجنات وعينا سلسبيلا
وتكون الجملة التي هي لهم مغفرة في موضع النصب، ولذلك عطف في البيت وعينا، فنصب على الموضع، ويحتمل ان يكون موضع (لهم مغفرة) في موضع الرفع، ويكون الموعود به محذوفاً، ويكون التقدير لهم مغفرة وأجر عظيم فيما

(٤٦٢)

وعدهم أولهم مغفرة وأجر عظيم هو الجنة. وهو معنى قول الحسن والجبائي والوعد، هو الخبر الذي يتضمن النفع من المخبر. والوعيد: هو الخبر الذي يتضمن الضرر من المخبر. وتقول: وعدته خيرا وأوعدته شرا والايعاد مطلقا يكون في الشر. والوعد مطلقا في الخير، فاذا قيدته بذكر الخير او الشر، قلت فيهما معا وعدته وأوعدته معا فيما حكاه الزجاج. والمغفرة اصلها التغطية ومعناها تكفير السيئة. والتكفير ايضا: التغطية ومنه تكفر في السلاح: اذا تغطى به قال لبيد:
في ليلة كفر النجوم غمامها والاجر المذكور في الآية هو الثواب الذي وعد الله المؤمنين به على فعلهم الطاعات. والفرق بين الثواب والاجر في العرف أن الثواب هو الجزاء على الطاعات. والاجر قد يكون مثل ذلك وقد يكون في المعنى المعاوضة على المنافع بمعنى الاجر. قوله تعالى:

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك اصحاب الجحيم)
(١٠) - آية - .

قوله: " والذين كفروا " معناه جحدوا توحيد الله، وصفاته وعدله، وانكروا نبوة نبيه، والاعتراف بما جاء به من عند الله، وكذبوا بآيات الله أخبر الله عنهم أنهم اصحاب الجحيم. وجحيم اسم من اسماء جهنم، فعلى هذا قوله،

” والذين ” في موضع رفع على الابتداء ” وكفروا ” في صلة الذين وكذبوا باياتنا عطف على ما في الصلة. وقوله: اولئك اصحاب الجحيم جملة في موضع خبر الذين. وحدالكفر عندنا كل معصية يستحق بها عقاب دائم، لان ما ليس بكفر من المعاصي لا يستحق عليه إلا عقاب منقطع، ثم ينقسم قسمين فان كان كفر ردة، تعلق عليه أحكام من منع الموارثة من المسلم والصلاة عليه، والدفن في مقابر المسلمين، وغير ذلك. وان كان كافر ملة بأن يكون مظهرا للشهادتين لم يجر عليه شئ من هذه الاحكام. وقال قوم: إن الكفر أعظم الاجرام، لانه جدد انعم الله،

(٤٦٣)

ونعمته أعظم النعم، ويستحق عليها أعظم الشكر، فيجب أن يكون كفرها وجدها أعظم الاجرام والمكذب بآيات الله، وان يعلمها آيات، فهو كافر إذا كان له سبيل إلى معرفتها. ومعنى أصحاب الجحيم أنهم يخلدون في النار، لان المصاحبة تقتضي الملازمة كما يقال اصحاب الصحراء بمعنى الملازمين لها. قوله تعالى:

(يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (١١) - آية بلاخلاف - . هذا خطاب للمؤمنين ذكرهم الله نعمته عليهم حين هم قوم أن يبسطوا اليهم أيديهم. واختلفوا في الباسطين أيديهم على خمسة اقوال:

فقال مجاهد وقتادة وابومالك: هم اليهود هموا بأن يقتلوا النبي (صلى الله عليه وآله) لما مضى إلى بني قريظة يستعين بهم على دية مقتولين من بني كلاب بعد بئر معونة كانا وفدا على النبي (صلى الله عليه وآله) فلقيهما عمرو بن أمية الضمري فقال: أمسلمين؟ فقالا: بل رافدين، فقتلهما، فقال له النبي (صلى الله عليه وآله) قتلت قتيلين قبل أن يبلغا الماء والله لادينهما. ومضى إلى يهود بني قريظة يستعين بهم.

وقيل: كان يستقرض لاجل الدية لانه كل يحملها، فهتمت بنو قريظة بالفتك به وبقتله، فأعلم الله تعالى النبي (صلى الله عليه وآله) ذلك فانصرف عنهم.

وقال الحسن: إنما بعثت قريش رجلا ليفتك بالنبي (صلى الله عليه وآله)

فاطلع الله نبيه على امره ومنعه الله منه، لانه دخل على النبي (صلى الله عليه وآله) وسيفه مسلول فقال له: أرنيه فاعطاه اياه، فلما حصل في يده قال: ما الذي يمنعني من قتلك؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله) الله يمنعك فرمى بالسيف وأسلم. واسم الرجل عمرو بن وهب الجمحي بعثه صفوان بن أمية ليغتاله (صلى الله عليه وآله) بعد بدر،

(٤٦٤)

فاعلمه الله ذلك. وكان ذلك سبب إسلام عمرو بن وهب.

وقال الواقدي. غزا رسول الله (صلى الله عليه وآله) جمعان بني ذبيان ومحارب بذى أمر فتحصنوا برؤوس الجبال، ونزل رسول الله (صلى الله عليه وآله) بحيث يراهم، فذهب لحاجته فاصابه مطرفيل ثوبه، فشره على شجرة واضطجع تحته بعيدا من أصحابه، والاعراب ينظرون اليه فاخبروا سيدهم دعثور بن الحارث المحاربي فجاء حتى وقف على رأسه بالسيف مشهورا، فقال: يا محمد (صلى الله عليه وآله) من يمنعك منى اليوم؟ فقال: الله ودفع جبرائيل في صدره وقع السيف من يده، فاخذه رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وقام على رأسه وقال: من يمنعك منى اليوم؟ فقال: لا احد وانا اشهد ان لا اله الا الله، وان محمدا رسول الله (صلى الله عليه وآله) فنزلت الآية.

وقال ابو علي الجبائي المعني بذلك ما لطف الله (تعالى) المسلمين من كف أعدائهم عنهم حين هموا باستئصالهم بأشياء شغلهم بها من الامراض والقحط، وموت الاكابر، وهلاك المواشي وغير ذلك من الاسباب التي انصرفوا عندها عن قتل المؤمنين:

وقال ابن عباس. كانت اليهود دعوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى طعام لهم، وعزموا على الفتك به، فاعلم الله ذلك نبيه (صلى الله عليه وآله) فلم يحضر.

وقال اخرون: نزلت الآية فيما عزم المشركون على الايقاع بالنبي (صلى الله عليه وآله) وأصحابه يوم بطن النخلة إذا دخلوا في الصلاة، فاعلمه الله ذلك، فصلى بهم صلاة الخوف. وانما جعل الله تخلص النبي مما هموا به نعمة على المؤمنين من حيث كان إمامهم وسيدهم، وكان مبعوثا اليهم بما فيه مصالحهم، فمقامه بينهم نعمة على المؤمنين، فلذلك اعتد به عليهم. وقال قوم: هو مردود على قوله: " اليوم يؤس الذين كفروا من دينكم " ومعناه جملة الظفر. — اللغة —:

والذكر هو حضور المعنى للنفس يقال: ذكر يذكر ذكرا. واذكره إكرا وتذاكروا تذاكرا. وذاكره مذاكرة. وذاكره تذكيرا. واستذكر استذكرا واذكر اذكرا. وقد يستعمل الذكر بمعنى القول، لان من شأنه أن تذكر به المعنى. والتذكر هو طلب

(٤٦٥)

المعنى لاطلب القول. والفرق بين الذكر والعلم ان الذكر ضده الجهل. وقد يجمع الذكر للشيء والجهل به من وجه واحد. ومحال ان يجتمع العلم به والجهل به من وجه واحد والفرق بين الذكر والخاطر أن الخاطر مرور المعنى على القلب. والذكر حصول المعنى في النفس وايضا الذكر يجري على نقيض النسيان، لانه يستعمل بعدما نسيه. وليس كذلك الخاطر.

والهم بالامر هو حديث النفس بفعله. يقال: هم بالامر بهم. ومنه الهم. وهو الفكر الذي يغم. وجمعه هموم واهتم اهتماما. وأهمه الامر إذ اعني به، فحدث نفسه به والفرق بين الهم بالشئ والقصد اليه انه قد يهم بالشئ قبل أن يريده ويقصده بان يحدث نفسه به وهو مع ذلك مميل في فعله ثم يعزم اليه ويقصد اليه. قوله تعالى:

(ولقد اخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله انى معكم لئن اقمتم الصلاة واتيتم الزكوة وامنتم برسلى وعززتموهم واقرضتم الله قرضا حسنا لا كفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) (١٢) - آية بلا خلاف -.

الميثاق: اليمين المؤكدة، لانه يستوثق بها من الامر، فاخذالله ميثاقهم باخلاص العبادة له، والايمان برسله. وما يأتون به من شرايع دينه. وقوله: " بعثنا منهم اثني عشر نقيبا " فالنقيب فيه أربعة أقوال: قال الحسن " هو الضمين وقال الربيع: هو الامين. وقال قتادة: هو الشهيد على قومه. وقال قوم: هو الرئيس من العرفاء.

— اللغة —

واصل النقيب في اللغة النقب وهو الثقب الواسع. وقال ابو مسلم: هو فعيل بمعنى مفعول كانه اختير ونقر عليه، فقيل نقيب، لانه ينقب عن احوال

(٤٦٦)

القوم، كما ينقب عن الاسرار. ومنه نقاب المرأة. ومنه المناقب وهي الفضائل. والنقب: الطريق في الجبل. ويقال نقب الرجل على القوم ينقب نقبا: إذا صار نقيبا. ونكب عليهم ينكب نكابة: إذا صار منكبا. وهو عون العريف. وقد نقب نقابة. والنقبة سراويل بغير رجلين لاتساع نقبه تلبسة المرأة. وأول الجرب النقبة وجمعها النقب. والنقب قال الشاعر: متبذلا تبدو محاسنه * يضع الهاء مواضع النقب ويقال: كلب نقيب إذا نقب حنجرته، لئلا يرتفع صوته في نباحه يفعل ذلك البخلاء، لئلا يطرقهم ضيف بسماع نباح الكلاب. ومنه نقت الحائط: إذا بلغت في النقب آخره. وفي معنى قوله: " اثني عشر نقيبا " قولان: احدهما - قال الحسن والجبائي: أنه اخذمن كل سبط منهم ضمينا بما عقد عليهم بالميثاق من امر دينهم.

الثاني قال مجاهد والسدي: إنهم بعثوا إلى الجبارين، ليقفوا على آثارهم ويرجعوا بذلك إلى موسى، فرجعوا يبهون قومهم عن قتالهم لمارأوا من شدة بأسهم، وعظم خلقهم إلى اثنين منهم. وقال البلخي: يجوز أن يكون النقباء رسلا ويجوز ان يكونوا قادة. وقوله: "بعثنا" لا يدل على أنهم رسل، كما اذا قال القائل: الخليفة بعث الامير أو القضاة لايفيد أنهم رسل، بل يفيد أنه ولاهم وقلدهم. والغرض بذلك إعلام النبي (صلى الله عليه وآله) أن هؤلاء الذين هموا بقتل النبي (صلى الله عليه وآله) صفاتهم وأخلاقهم أسلافهم الغدر، ونقض العهد. وقوله: "وقال الله اني معكم" معناه ناصركم على عدوكم وعدوي الذي أمرتكم بقتالهم إن قاتلتموهم، ووفيتم بعهدي وميثاقي الذي أخذته عليكم. وفي الكلام حذف، وتقديره وقال الله: إني معكم. وإنما حذف استغناء بقوله: "ولقد اخذ الله ميثاق بني اسرائيل" ثم ابتدأ تعالى قسما، لأن أقمتم الصلاة معشر بني إسرائيل

(٤٦٧)

"وآتيتم الزكاة" أي اعطيتموها "وآمنتكم برسلي" معناه وصدقتم بما اتاكم به رسلي من شرائع ديني وقال الربيع بن أنس: هذا الخطاب من الله للنقباء وقال غيره: هو خطاب لبني اسرائيل. والتقدير ان موسى (ع) قال لهم عن الله تعالى: إن الله ناصركم على عدوكم ما اقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتكم برسلي "وعزز تموهم" قيل معناه قولان: احدهما - قال مجاهد والسدي: معناه نصرتموهم وهو اختيار الزجاج. الثاني - قال عبدالرحمن بن زيد: معناه ونصرتموهم وأطعتموهم. وبه قال أبو عبيدة. والعزز - في اللغة - الرد والمنع في قول الفراء تقول: عزرت فلانا: إذا أدبته، وفعلت به ما يردعه عن القبيح. وقال تعالى: "وتعزروه وتوقروه" ومعناه تنصروه. وإلا كان تكرارا. وهو اختيار الطبري وأشد أبو عبيدة في التعزيز بمعنى التوقير قول الشاعر: وكم من ما جدلهم كريم * ومن ليث يعزر في الندي (١) أي يعظم. وهو قول أبي علي. وقوله: "واقرضتم الله قرضا حسنا" معناه وانفقتم في سبيل الله، وجهاد عدوه وعدوكم قرضا حسنا. وقيل: معناه بطيبة نفس. وقيل معناه الا يتبعه من ولاذى. وقيل من الحلال دون الحرام. وإنما قال: قرضا، ولم يقل إقراضا، لأنه رده إلى قرض قرضا، كما قال: "انبتكم من الارض نباتا" (٢) ولم يقل إنباتا ويقال: اعطيته عطاء. وقال امرؤ القيس: ورضت فذللت صعبة اي إذلال (٢) لأن فيه معنى اذلت.

وقوله: " لاكفرن عنكم سيئاتكم " اللام جواب القسم. وهو قوله: " لئن اقمتم الصلاة " فالاولى لام القسم والثانية جوابه، وقال قوم: كل واحد منهما

(١) - مجاز القرآن لابي عبيدة ١: ١٥٧ وتفسير الطبري ١٠: ١٢٠. الندي مجلس القوم ماداموا مجتمعين فيه.

(٢) سورة نوح، آية ١٧. (٣) ديوانه: ١٤١. راض الدابة علمها السير.

(٤٦٨)

قسم. وصحيح الاول، لان الكلام لم يتم في قوله: " لئن اقمتم الصلاة واتيتم الزكوة " ومعنى " لاكفرن " لاعطين بعفوي وصفحي عن عقوبتكم على ما مضى اجرامكم، ولادخلنكم مع ذلك جنات تجري من تحتها الانهار والجنات البساتين والكفر معناه الجحود، والتغطية والستر. قال لبيد:

في ليلة كفر النجوم غمامها (١)

وقوله تجري من تحتها يعني من تحت اشجار هذه الجنات الانهار.

وقوله: فمن كفر بعد ذلك منكم يعني من جحد منكم يامعشر بني اسرائيل ما امرته به، فتركه أو ركب ما نهيته عنه بعد اخذ الميثاق عليه، فقد ضل يعني أخطأ قصد الطريق الواضح، وزال عن منهاج السبيل القاصد. والضلال هو الركوب على غير هدى. وسواء السبيل يعني وسطه.

قوله تعالى:

(فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه نسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين) (١٣) - آية بلاخلاف -.

— القراءة —

قرأ حمزه والكسائي قسية بلالاف - وقرأ الباقون قاسية - بالاف.

— المعنى —

المعنى بالآية تسليية النبي (صلى الله عليه وآله) فقال الله له: لاتعجبين من هؤلاء اليهود الذين هموا ان يبسطوا ايديهم اليك وإلى اصحابك ونكثوا العهد الذي بينك

(١) - انظر ١: ٦٠ (*)

(٤٦٩)

وبينهم، وغدروا بك، فان ذلك من عاداتهم، وعادات اسلافهم، لاني اخذت ميثاق سلفهم على عهد موسى على طاعتي، وبعثت منهم اثني عشر نقيبا، فنقضوا ميثاقي، ونكثوا عهدي، فلعنتمهم بنقضهم ميثاقهم. وفي الكلام محذوف اكتفى بدلالة الظاهر عليه. والمعنى فمن كفر بعد ذلك منكم، فقد ضل سواء السبيل، فنقضوه، فلعنتمهم فيما نقضهم ذلك لعناهم فاكتفى بقوله: فيما نقضهم من ذكر فنقضوا.

(وما) زائدة والتقدير فبنقضهم (وما) مؤكدة. وهو قول قتادة وجميع المفسرين ومثله قول الشاعر:

لشيء ما يسود من يسود والهاء والميم كنايةان عن بني اسرائيل واللعن هو الطرد للسخط على العبد، وهو الابعاد من رحمة الله على جهة العقوبة. وقال الحسن: هو المسخ الذي كان فيهم حين صاروا قرده، وخنزير. ومعنى جعلنا - هاهنا - قال البلخي: سميها بذلك عقوبة على كفرهم، ونقض ميثاقهم. قال: ويجوز أن يكون المراد ان الله بكفرهم لم يفعل بهم اللطف الذي تنتشر به صدورهم كما يفعل بالمؤمن. وذلك مثل قولهم: افسدت سيفك: إذا تركت تعاهده حتى صدئ. ويقولون: جعلت اظافيرك سلاحك: إذا لم تقصها. ويشهد للاول قوله تعالى: " وجعلوا لله شركاء الجن " وأراد بذلك انهم سموا لله شركاء. وقال ابو علي: هو البيان عن حالهم، وجفا قلوبهم عن الايمان بالله ورسوله، كما يقال: جعلته فاسقا مهتوكا: إذا أبان عن حاله للناس.

ومعنى قاسية. أي يابسة يقال للرحيم: لين القلب، ولغير الرحيم: قاسي القلب. والقاسي والقاسح - بالحاء - الشديد الصلابة. ويقال: قسا يقسو قسوة ومنه " فهي كالحجارة أو أشد قسوة " وقسوة أشد مبالغة. وقاسية أعرف وأكثر في الاستعمال. وقال ابو عبيدة: قاسية معناه فاسدة من قولهم: درهم قسي أي زائف قال أبو زيد:

(٤٧٠)

لها صواهل في صم السلام كما * صاح الفسيات في ايدي الصياريف
يصف وقع المساحي في الحجارة. وقال ابو عباس: الدرهم انما سمي قسيا اذا كان فاسدا لشدة صوته بالقس الذي فيه، فهو راجع إلى الاول. وقال الراجز:
وقد قسوت وقسا لداتي وقوله: " يحرفون الكلم " فالتحريف يكون بأمرين: بسوء التاويل، وبالتغيير والتبديل، كما قال تعالى: " ويقولون هومن عند الله وما هو من عند الله " بعد قوله: " وان منهم لفريقا يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب " والكلم جمع كلمة.

وقوله: " ونسوا حظا مما ذكروا به " معناه تركوا نصيبا مما ذكروا به يعني مما أنزل على موسى. وهو قول الحسين والسدي وابن عباس.

وقوله: " ولا تزال تطلع على خائنة منهم " معناه على خيانة منهم وفاعله في أسماء المصادر كثير، نحو عافاه الله عافية. " والمؤتفكات بالخاطئة " و " اهلكوا بالطاغية " ويقال: قائلة بمعنى القيلولة. كل ذلك بمعنى المصدر وراغية الابل وثاغية الشاة. ويقال: رجل خائنة قال الشاعر:

حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن * للغدر خائنة مغل الاصبغ

فخائنة على وجه المبالغة، كما قالوا: رجل نسابة، لانه يخاطب رجلا.

ومعناه لاتخن، فتغلل اصبعك في المتاع أي تدخلها الخيانة، ومغل بدل من خائنة.

ويجوز أن يكون على خائنة معناه على فرقة خائنة.

وقوله: " الا قليلا منهم " نصب على الاستثناء من الهاء والميم في قوله:

" على خائنة منهم ".

وقوله: " فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين " قال قتادة: هو

(٤٧١)

منسوخ بقوله: " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر " وقال ابو علي بقوله: " واماتخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء " وقال البلخي: يجوز أن يكون أمر بالعفو والصفح بشرط التوبة أو بذل الجزية، لانهم إذا بذلوا الجزية لا يؤاخذون بشئ من كفرهم. وهو قول الحسن، وجعفر بن مبشر. واختار الطبري هذا. فعلى هذا لا يكون منسوخا وقوله: " يحرفون الكلم " لا يدل على أنه جعل قلوبهم قاسية، ليحرفوا بل يحتمل امرين:

احدهما - ان يكون كلاما مستأنفا ويكون التمام عند قوله: " قاسية " ثم أخبر عنهم بانهم يحرفون الكلام عن مواضعه.

الثاني - أن يكون ذلك حالا، لقوله: " فيما نقضهم ميثاقهم يحرفون " اي يحرفون الكلم ناسين لحظوظهم " لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية " .
قوله تعالى:

ومن الذين قالوا انا نصارى اخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) (١٤) - آية بلا خلاف - .

وقوله: " ومن الذين قالوا انا نصارى " انما لم يقل: من النصارى لما قاله الحسن: من أنه اراد تعالى بذلك أن يدل على أنهم ابتدعوا النصرانية التي هم عليها اليوم، وتسموا بها.

وقوله: " اخذنا ميثاقهم " يعني بتوحيد الله عزوجل، والاقرار بنبوة المسيح، وجميع انبياء الله وانهم كلهم عبيد الله لا يذكر. وقال ابو علي: معناه تركوا العمل به، فكان كالذي لا يذكر.

وقوله: " مما ذكروا به " يعني فيما أنزله الله على موسى وعيسى في التوراة والانجيل،
والكتب المتقدمة.

(٤٧٢)

وقوله: " فاغرينا بينهم " قال مجاهد وقتادة وابن زيد والسدي والجبائي:
معناه بين اليهود والنصارى. وقال الربيع والزجاج والطبري:
معناه بين النصارى. وهو ما وقع بينهم من الخلاف نحو الملكية، وهم الروم والنسطورية،
واليعقوبية من العداوة. وأصل الاغراء تسليط بعضهم على بعض.
وقيل: معناه التحريش. وأصله اللصوق. يقال: غريت بالرجل غرى - مقصور وممدود -
ومعناه لصقت به. قال كثير:

إذا قيل مهلا قالت العين بالبكا * غراء ومدتها حوافل تهمل

واغريت زبدا بكذا حتى غرى به. ومنه الغراء الذى يغرى به للصوص والاغراء بالشئ معناه
الاصاق من جهة التسليط. وانما أغرى بينهم بالاهواء المختلفة في الدين في قول إبراهيم.
وقيل. بالقاء البغضاء بينهم - عن الحسن وقتادة - وقيل:

يامر بعضهم أن يعادي بعضا في قول ابي علي فكأنه يذهب إلى ما تقدم من الامر لهم بمعادة
الكفار. والذي يقوله أن الوجه في اغراء الله فيما بينهم أنه امر النصارى بمعادة اليهود فيما
يفعله اليهود من القبيح في التكذيب بالمسيح، وشتم امه، والقذف لها والغرية عليها، واضافتها
اليه تعالى، ووصفها بما لا يليق، وامر اليهود بمعادة النصارى في اعتقادهم التثليث، وان
المسيح ابن الله وغير ذلك من اعتقاداتهم الفاسدة، نقضوا هذا الميثاق واعرضوا عنه حتى
صار بمنزلة المنسي فكان في ذلك أمر كل واحد منهما بالطاعة، فان قيل يمنع من ذلك قوله:
(فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا بينهم العداوة والبغضاء) فجعل اغراءه لهم بالعداوة جوابا
لقوله: (فنسوا حظا مما ذكروا به) لان الفاء تدل على الجواب. واذا كانت جوابا، وجب أن
يكون (تعالى) إنما أغرى بينهم، لاجل نسيانهم للحظ الذي ذكروا به، وانه عاقبهم بهذا
الاغراء، وليس في الامر والنهي والعبادات عقوبات - بلاخلاف - فدل جوابه بالفاء في قوله:
" فاغرينا " عقيب قوله: " فنسوا حظا " على أنه عاقب بالاغراء لاعلى ما قلتموه؟ قيل: قوله "
فنسوا حظا مما ذكروا به " جوابه وانه فعل هذا الاغراء، لاجل نسيانهم. غير أنه ليس بعقوبة،
وان كان جوابا. فكا

(٤٧٣)

لاجل نسيانهم. غير أنه ليس بعقوبة، وان كان جوابا. فكان الاغراء إنما وقع بينهم من أجل نسيانهم لحظهم من قبل أنهم نسوا ما ذكروا به من معرفة التوحيد، والتدين به، فصاروا إلى القول بالاتحاد والشرك والفربة عليه (تعالى) فلاجل ذلك أمر الله أضدادهم بمعاداتهم، واغرائهم بهم. فان قيل: فان الله (تعالى) ذكر النصارى في هذه الآية بنسيان حظهم ثم أجاب بالفاء في قوله: " فاغرينا بينهم " وليس يصح على هذا ان يكون أغرى بينهم من اجل ما فعله النصارى من الكفر، لانه إذا أمر اليهود بمعاداة النصارى، لاجل نسيان النصارى وكفرهم فانما هذا عن امر الله اليهود بهم، وليس باغراء بعضهم ببعض، وقوله: " فاغرينا بينهم " يدل على ان الله بعث كل واحد من الفريقين على صاحبه، وهذا يوجب خلاف قولكم؟! قيل: الامر على ما قلتم من أن امر اليهود بمعاداة النصارى هو إغراء لهم بهم، وليس باغراء بين النصارى، لكنه تعالى قد ذكر اليهود فيما تقدم من هذه السورة، وتكذيبهم، وفريتهم على الله، ثم ذكر النصارى، فلما جمع بين الفريقين في الذكر في

هذه السورة، وان لم يجمعهم في هذه الآية، جاز ان يذكر انه اغرى بينهم العداوة بان امر كل واحد منهما بمعاداة عدوه فيما عصى فيه. وصح الاغراء بينهم والقضاء العداوة والتباعد والمنافرة، وصح أن يجعل ذلك جوابا. وقد قال البلخي جوابا آخر: وهوان يكون الاغراء بين النصارى خاصة بعضهم لبعض على ظاهر الآية، وهو أن الله تعالى نصب الادلة على ابطال قول كل فرقة من فرق النصارى، فاذا عرفت طائفة منها فساد مذهب الاخرى فيما نصب الله لها من الادلة، وان جهلت فساد مقالة نفسها لتفريطها في ذلك، وسوء اختيارها، فجاز على هذا أن يضاف الاغراء في ذلك إلى الله من حيث انه امر كل فرقة منها بمعاداة الاخرى على ما تعتقده، وان أمرها ايضا بأن تترك ما هي متمسكة به لفساده وهذا واضح بحمد الله، فان قيل: أيجوز على هذا ان يقال ان الله اغرى بين المؤمنين والكفار العداوة؟ قلنا: اما اغراء المؤمن بالكفر فصحيح، واما اغراء الكافر بالمؤمن، فليس بصحيح، لان ما عليه المؤمنون حق، وما عليه الكفار، باطل. وإنما يقال: ان الله اغرى بين

(٤٧٤)

قوم وقوم إذا كان على بطلان قول كل طائفة منهما دليل يدل على فساد قول من يخالفها فعلى هذا لا يصح إطلاق القول بما قالوه، ومتى قيد القول على ما بيناه، جاز، وأن لم يخبر مع الاطلاق.

وقوله: " وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون " لما قال (تعالى) لنبيه:

" فاعف عنهم واصفح " بين انه من وراء الانتقام منهم، وانه سيجازيهم عند ورودهم عليه، بما كانوا يصنعون في الدنيا من نقض الميثاق، ونكث العهد ويعاقبهم على ذلك بحسب استحقاقهم.

قوله تعالى:

(يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين الله لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) ()

آيتان كوفي وثلاث بصري ومدني. هذا خطاب لاجل الكتاب من اليهود والنصارى الذين عصوا الرسول فيما أمرهم به، ودعاهم اليه، فقال لهم. قد جاءكم رسولنا محمد (صلى الله عليه وآله) يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب أي يبين للناس ما كنتم تخفونه. وقال ابن عباس وقتادة: إن مما بينه رجم الزانين، وأشياء كانوا يحرفونها بسوء التأويل. وإنما لم يقل: يا أهل الكتابين، لأن الكتاب اسم جنس. وفيه معنى العهد، وهو أو جزوا حسن في اللفظ من حيث كانوا، كأنهم أهل كتاب واحد. والوجه في تبين بعضه، وترك بعضه أنه يبين ما فيه دلالة على نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) من صفاته، ونعته، وبشارته به، وما يحتاج إلى علمه من غير ذلك مما تنفق له الأسباب التي يحتاج معها إلى استعلام ذلك، كما اتفق في الرجم

(٤٧٥)

وما عداهذين مما ليس في تفصيله فائدة يكفي ذكره في الجملة. وقوله: " ويعفو عن كثير " معناه يترك كثيرا لا يأخذكم به، ولا يذكره لأنه لم يؤمر به على قول ابي علي وقال الحسن: ويصفح عن كثير بالتوبة منه.

ومعنى النور في الآية يحتمل امرين:

احدهما - أنه النبي (صلى الله عليه وآله) في قول الزجاج والآخر - هو القرآن على قول ابي علي وإنما سمي نورا، لأنه يهتدى به كما يهتدى بالنور، ويجب ان يتبع لأنه نور مبين عن الحق من الباطل في الدين. والاولى ان يكون كناية عن النبي، لان قوله: " وكتاب مبين " المراد به القرآن، وقوله: " يهدي به الله " يعني يفعل اللطف المؤدي إلى سلوك طريق الحق يعني بالنبي (صلى الله عليه وآله) او الكتاب " من اتبع رضوانه " يعني رضا الله والرضوان والرضا من الله ضد السخط. وهو اعادة الثواب لمستحقه وقال قوم: هو المدح على الطاعة والثناء. وقال الرماني: هو جنس من الفعل يقتضي وقوع الطاعة الخالصة مما يبطلها، ويضاد الغضب. قال لان الرضا بما كان يصح، واردة ما كان لا يصح إذ قد يصح أن يرضى بما كان، ولا يصح أن يريد ما كان. وهذا الذي ذكره ليس بصحيح، لان الرضا عبارة عن ارادة حدوث الشيء من الغير، غير انها لاتسمى بذلك إلا إذا وقع مرادها، ولم يتخلها كراهة، فتسميتها بالرضا، موقوفة على وقوع المراد إلا أن بعد وقوع المراد بفعل ارادة هي رضالما كان فسقط ما قاله.

وقوله: " سبل السلام " السبل جمع سبيل. وفي السلام قولان:
احدهما - هو الله في قول الحسن والسدي - والمعنى دين الله. وقال:
" هو الله الذي لاله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن " الثاني - قال الزجاج: إنه
السلامة من كل مخافة ومضرة إلا ما لا يعتد به، لأنه يؤول إلى نفع في العاقبة.
وقوله: " يخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه " معناه من الكفر إلى الايمان، لأن الكفر يتحير
فيه صاحبه كما يتحير في الظلام، ويهتدي بالايمان إلى النجاة كما

(٤٧٦)

يهتدي. بالنور وقوله: " باذنه " معناه بلطفه.
وقوله: " يهديهم إلى صراط مستقيم " معناه يرشدهم إلى طريق الحق. وهو دين الحق. وقال
الحسن: هو الذي يأخذ بصاحبه حتى يؤديه إلى الجنة. وبه قال أبو علي. ومعنى " صراط
مستقيم " طريق مستقيم وهو دين الله القويم الذي لا اعوجاج فيه.
قوله تعالى:

(لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن اراد ان يهلك
المسيح بن مريم وامه ومن في الارض جميعا والله ملك السماوات والارض وما بينهما يخلق
ما يشاء والله على كل شئ قدير) (آية بلا - خلاف - اللام في قوله: " لقد كفر " جواب
للقسم وتقديره أقسم لقد كفر الذين قالوا. وانما كفروا بقولهم: إن الله هو المسيح بن مريم على
وجه التدين به، لانهم لوقالوه على وجه الحكاية منكرين لذلك لم يكفروا به. وانما كانوا بذلك
كافرين من وجهين:

احدهما - انهم كفروا بالنعمة من حيث أضافوها إلى غير الله ممن ادعوا الهيته.
والثاني - كفر صفة لانهم وصفوا المسيح وهو محدث بصفات الله تعالى، فقالوا:
هو إله واحد فكل جاهل بالله كافر، لأنه لما ضيع حق نعمة الله، كان بمنزلة من أضافها إلى
غيره ومعنى من يملك من الله شيئاً من يقدر ان يدفع من أمر الله شيئاً، من قولهم: ملكت على
فلان أمره: إذا اقتدرت عليه حتى لا يمكنه انفاذ شئ من امره الابك. وتقديره من يملك من امره
شيئاً. ووجه الاحتجاج بذلك انه لو كان المسيح إليها، لقدر على دفع أمر الله اذا اتى باهلاكه
واهلاك غيره، وليس

(٤٧٧)

بقادر عليه لاستحالة القدرة على مغالبة القديم (تعالى) إذا ذلك من صفات المحتاج الذليل.

وقوله: " والله ملك السموات والارض وما بينهما " انهالم يقل وما بينهن مع ذكر السموات على الجمع، لانه أراد به النوعين أو الصنفين كما قال الشاعر:
طرقا فتلك هما همى اقريهما * قلصا لواقح كالقسي وحولا
فقال: طرفا، ثم قال: فتلك هما همى. فان قيل: كيف حكى عنهم ان الله هو المسيح بن مريم. وعندهم هو ابن الله؟ قلنا: لانهم زعموا انه اله. وهذا الاسم انما هو للاله بمنزلة ذلك، كما لو قال الدهري: إن الجسم قديم لم يزل، وان لم يذكره بهذا الذكر.
قوله تعالى:

(وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل انتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والارض وما بينهما واليه المصير) ()
آية بلاخلاف -.

روي عن ابن عباس أن جماعة من اليهود قالوا للنبي حين حذرهم بنقمات الله وعقوباته، فقالوا: لاتخوفنا فاننا ابناء الله واحباؤه وقال السدي: إن اليهود تزعم ان الله عزوجل أوحى إلى بني اسرائيل إن ولدك بكر من الولد. وقال الحسن: انما قالوا ذلك على معنى قرب الولد من الوالد. واما قول النصارى، فقليل فيه: إنهم تأولوا ما في الانجيل من قول عيسى اذهب إلى ابي وأبيكم. وقال قوم: لما قالوا:

المسيح ابن الله أجرى ذلك على جميعهم، كما يقولون: هذيل شعراء أي منهم شعراء وكما قالوا في رهط مسيلمة قالوا: نحن انبياء أي قال قائلهم. وكما قال جرير:
ندسنا ابا مندوسة القين بالقنى

(٤٧٨)

فقال: ندسنا. وانما النادس رجل من قوم جرير.

وقوله: " واحباؤه " جمع حبيب، فقال الله لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله)

قل لهؤلاء المفترين على ربهم: " فلم يعذبكم بذنوبكم " فلاي شئ يعذبكم بذنوبكم إن كان الامر على ما زعمتم، فان الاب يشفق على ولده. والحبيب على حبيبه، لايعذبه وهم يقرون بأنهم معذبون، لانهم لو لم يقولوا به، كذبوا بكتبهم وأباحوا الناس ارتكاب فواحشهم. واليهود تقرر انهم يعذبون أربعين يوما. وهي عدد الايام التي عبدوا فيها العجل.

وقوله: " بل انتم بشر " معناه قل لهم: ليس الامر على ما زعمتم انكم ابناء الله واحباؤه، بل انتم بشر ممن خلق من بني آدم ان أحسنتم جوزيتم على إحسانكم مثلهم، وإن أسأتم، جوزيتم علي إساءتكم، كما يجازي غيركم. وليس لكم عند الله إلا ما لغيركم من خلقه.

وقوله: " يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء " فانه وان علق العذاب بالمشيئة، فالمراد به المعصية، لانه تعالى لايشاء العقوبة إلا لمن كان عاصيا، فكان نكرها أوجز وأبلغ، لما في ذلك من رد الامر إلى الله الذي يجازي به على وجه الحكمة.

وانما هذا وعيد من الله لهؤلاء اليهود والنصارى المتكلمين على منازل أسلافهم في الجنان عندهم. فقال الله تعالى: لاتغثروا بذلك فانهم نالوا ما نالوا بطاعتي وايثار رضاي، لابالاماني. وقال السدي: معنى " يغفر لمن يشاء " يعني يهدي من يشاء في الدنيا فيغفر له، ويميت من يشاء على كفره، فيعذبه.

وقوله تعالى: " والله ملك السموات والارض " معناه انه يملك ذلك وحده لاشرىك له يعارضه، فقد وجب اليأس مما قدروا من كل جهة، وأنه لامنجي لهم الا بالعمل بطاعة الله واجتتاب معاصيه. وقال أبو علي: ذلك بأنه يملك السموات، والارض وما بينهما على أنه لاولد له، لان المالك لذلك لاشبه له، ولان المالك لايملك ولده لخلق له.

وقوله: " واليه المصير " معناه انه يوئل اليه امر العباد في أنه لايملك ضرهم،

(١) - في المطبوعة (بجزئها). (*)

(٤٧٩)

ولانفعهم غيره - عزوجل -، لانه يبطل تمليكه لغيره ذلك اليوم كما ملكهم في دار الدنيا كما يقال: صار أمرنا إلى القاضي لاعلى معنى قرب المكان، وإنما يراد بذلك أنه المتصرف فينا والامر لنا دون غيره.

قوله تعالى:

(يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل تقولوا ما جاءنا من بشير
ولانذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شئ قدير) (٢١) - آية بلاخلاف - هذا خطاب
لل يهود والنصارى ناداهم الله خصوصا لينبهم على ما يذكر لهم.

وقوله (قد جاءكم رسولنا يبين لكم) يدل على أنه اختصه من العلم بما ليس مع غيره " على
فترة من الرسل " يعني على انقطاع من الرسل. وفيه دلالة على أن زمان الفترة: لم يكن فيه
نبي. والفترة انقطاع ما بين النبيين عند جميع المفسرين. والاصل فيها الانقطاع عما كان عليه
من الجد فيه من العسل، يقال: فتر عن عمله وفترته عنه. وفتر الماء إذا انقطع عما كان عليه
من البرد إلى السخونة. وامرأة فاترة الطرف أي منقطعة عن حدة النظر. وفتر البدن كفتور
الماء، والفتر ما بين السبابة والابهام إذا فتحا. وقال الحسن:

كانت هذه الفترة بين عيسى ومحمد (ص) ستمائة سنة وقال قتادة خمسمائة وخمسين سنة.
وقال الضحاك أربعمائة سنة وبضعا وستين سنة.

وقوله (أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولانذير) يدل على بطلان مذهب

(٤٨٠)

المجبرة في القدرة، لان الحجة بمنع القدرة تؤكد من الحجة بمنع اللطف، وتكون الحجة في
ذلك لمن علم الله أن بعثة الانبياء مصلحة لهم، فاذا لم يبعث، تكون لهم الحجة، فاما من لا يعلم
ذلك فيهم، فلاحجة لهم، وان لم يبعث اليهم الرسل. ومعنى " أن تقولوا " ألا تقولوا " ما جاءنا
من بشير ولانذير " .

على قول الفراء وغيره من الكوفيين، كقوله تعالى: " يبين الله لكم أن تضلوا " ومعناه ألا
تضلوا. وقال البصريون: معناه كراهة أن تضلوا، وكراهة أن تقولوا، وحذفت كراهة. كما قال
" واسأل القرية " وإنما أراد أهلها. وأن

" تقولوا " في موضع نصب عند أكثر البصريين وقال الخليل والكسائي:

موضعه الجر وتقديره لئلا تقولوا. والبيان الذي أتاهم به النبي (صلى الله عليه وآله) هودين
الاسلام الذي ارتضاه الله. وهويان نفس الحق من الباطل، وما يجب.

والبشير هو المبشر لكل مطيع بالثواب. والنذير هو المنذر المخوف كل عاص لله بالعقاب
ليتمسك المطيع بطاعته، ويجتنب العاصي لمعصيته. والجملة التي ذكرناها قول ابن عباس
وقتادة وجميع المفسرين.

قوله تعالى:

(وإن قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم
مالم يؤت أحدا من العالمين (٢٢) آية بلاخلاف في هذه الآية اعلام من الله تعالى للنبي (صلى

الله عليه وآله) قديم تمادي هؤلاء اليهود في الغي وبعدهم من الحق وسوء اختيارهم لانفسهم
وشدة خلافهم لانبيائهم مع

(٤٨١)

كثرة نعم الله عليهم وتتابع أياديه وآلاله عليهم، مسلما بذلك نبيه (صلى الله عليه وآله) من مقاساتهم
في ذات الله. فقال: فاذكر يا محمد إذ قال موسى لهم (يا قوم اذكروا).
نعمة الله عليكم) وأياديه لديكم وآلاله عليكم. وهو قول ابن عباس وابن عيينة.
وقوله (إذ جعل فيكم أنبياء) يعني ان موسى ذكر قومه بنعمه عليهم، وبلائه لديهم فقال لهم
(اذكروا نعمة الله عليكم) إذ فضلكم بأن جعل فيكم أنبياء يخبرونكم بأنباء لغيره، ولم يعط ذلك
غيركم في زمانكم هذا، وقيل ان الانبياء الذين ذكرهم الله أنهم جعلوا فيهم هم الذين اختارهم
موسى إلى الجبل: وهم السبعون الذين ذكرهم الله تعالى فقال (واختار موسى قومه سبعين
رجلا لميقاتنا) (١) وقال قوم: هم الانبياء الذين كانوا بعد موسى (ع).
وقوله (وجعلكم ملوكا) معناه سخر لكم من غيركم خدما يخدمونكم.
وقال قتادة: لانهم أول من سخر لهم الخدم من بني اسرائيل، وملكوا. قال قوم: كل من ملك
بيتا أو خادما أو امرأة ولا يدخل عليه إلا بأمره فهو ملك - كائنا من كان - ذهب إليه عمرو بن
العاص وزيد بن اسلم والحسن والفراء قال: هؤلاء إنما خاطبهم موسى بذلك لانهم كانوا
يملكون الدور والخدم ولهم نساء وأزواج. وبه قال الحسن وابن عباس ومجاهد. وروي عن
النبي (صلى الله عليه وآله).
وقال السدي جعلهم ملوكا يملك الرجل منهم نفسه وأهله وماله. وقال الزجاج: جعلكم الله
تملكون أمركم ولا يغلبكم عليه غالب. وقال البلخي:

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٥٤. (*)

(٤٨٢)

ليس ينكر أن يكون الله جعل لهم الملك والسلطان ووسع عليهم التوسعة التي يكون الانسان بها
ملكا. وقال المؤرج: معناه - بلغة كنانة وهذيل - جعلكم أحرارا. وقال أبو علي: الملك هو
الذي له ما يستغني به عن تكلف الاعمال وتحمل المشاق، والتسكع في المعاش. وقال ابن
عباس، ومجاهد: جعلوا ملوكا باليمن والسلوى والحجر والغمام. وزاد الجبائي: وبغير ذلك من
الاموال. وقال قوم: ملكوا أنفسهم بالتخلص من الغيظ.

وقوله: (وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) يعني أعطاكم ما لم يعط أحدا من عالمي زمانهم. وهو قول الحسن والبلخي. وقال أبو علي: أعطاكم مالم يعط أحدا من العالمين أي من اجتماع هذه الامور وكثرة الانبياء فيهم، والآيات التي جاءتهم، إنزال المن والسلوى عليهم. وهو قول الفراء والزجاج.

وقال ابن عباس ومجاهد والحسن: هذا خطاب موسى لامته - وهو الاظهر - وقال سعيد بن جبير، وأبو مالك: هو خطاب من الله لامة محمد (صلى الله عليه وآله). وإنما قلنا: أن الاول أولى لان الله أخبر حاكيا عن موسى (ع) أنه قال لهم " اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا) ثم عطف على ذلك قوله:

(وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) فالعدول عن ذلك من غير ضرورة لايجوز. وقوله: " أنبياء " لاينصرف في معرفة ولانكرة لان علامة التأنيث فيها لازمة مثل حمراء تأنيث أحمر. ويخالف ذلك علامة التأنيث في طلحة وقائمة تأنيث قائم فلذلك انصرف هذا في النكرة دون المعرفة.

(٤٨٣)

قوله تعالى:

(يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) (٢٣) آية بلاخلاف هذه حكاية عن موسى (ع) أنه خاطب قومه وأمرهم بالدخول إلى الارض المقدسة وهي: بيت المقدس على قول ابن عباس، وابن زيد، والسدي وأبي علي. وقال الزجاج والفراء: هي دمشق وفلسطين وبعض الاردن. قال الفراء بتشديد النون - وقال قتادة: هي الشام. وقال مجاهد هي أرض الطور.

والمقدسة في اللغة: المطهرة. وقيل: إنها طهرت من الشرك وجعلت مسكنا وقرارا للانبياء والمؤمنين، والاصل التقديس، وهو التطهير، ومنه قيل للسلطان الذي يتطهر منه: القدس. وقيل: بيت المقدس لانه يطهر من الذنوب. ومنه تسبيح الله وتقديسه سبوح قدوس، وهو تنزيهه عما لايجوز عليه من نحو الصحابة والولد والظلم والكذب.

وقوله: " كتب الله لكم " يعني في اللوح المحفوظ. فان قيل: كيف كتب الله لهم مع قوله " فانها محرمة عليهم "؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - قال ابن اسحاق: إنها كانت هبة من الله لهم ثم حرمهم إياها. والثاني - إن ظاهر ذلك يقتضي العموم بأن الله كتب لهم، فلما قال " إنها محرمة عليهم أربعين سنة " استثنى ذلك من جملته.

ويحتمل أن يكون المراد انها يدخلها قوم منهم. وقيل: ان القوم الذين كتب لهم دخولها غير الذين حرم عليهم، والذين كتب لهم دخولها مع يوشع بن

(٤٨٤)

نون بعد موت موسى بشهرين.

وقوله: " ولا تترتدوا على أدباركم " فيه قولان:

أحدهما - لا ترجعوا عن طاعة الله إلى معصيته - في قول أبي علي.

الثاني - لا ترجعوا عن الارض التي أمرتم بدخولها.

وقوله " فتنقلبوا خاسرين " قيل في معناه قولان:

أحدهما - أنه كان فرض عليهم دخولها كما فرضت الصلاة والصوم والزكاة والحج، فلما لم يفعلوا فقد خسروا الثواب. هذا قول قتادة والسدي.

والثاني - أنه أراد بذلك خسران حظهم كالخسران في البيع بذهاب رأس المال.

وخاسرين نصب على الحال، والعامل فيه " فتنقلبوا " دون قوله

" ولا تترتدوا ".

قوله تعالى:

قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فانما

داخلون (٢٤) آية بلاخلاف هذه حكاية من الله عن قوم موسى لما أمرهم بدخول الارض

المقدسة، انهم قالوا: إن في الارض قوما جبارين، ونصب (جبارين) ب (أن) و (فيها)

خبر (إن) قدم على الاسم. والجبار هو الذي لا ينال بالقهر وأصله - في النخل - ما فات اليد

طولا والجبار من الناس هو الذي يجبرهم على ما يريد.

وقال ابن عباس: بلغ من جبرية هؤلاء القوم أنه لما بعث موسى من قومه

(٤٨٥)

اثني عشر نقيبا ليخبروه خبرهم، رآهم رجل من الجبارين يقال له عوج فأخذهم في كفه مع

فاكهة كان حملها من بستانه وأتى بهم الملك فنثرهم بين يديه وقال معجبا للملك منهم: هؤلاء

يريدون قتالنا؟ فقال الملك: ارجعوا إلى صاحبكم فاخبروه خبرنا.

وقال قتادة ومجاهد مثله. قال مجاهد كانت فاكهتهم لا يقدر على حمل عنقود لهم خمسة رجال

بالخشب. ويدخل في قشر رمانة خمسة رجال.

وان موسى كان طوله عشرة أذرع وله عصا طولها مثل ذلك ونزا من الارض مثل ذلك، فيبلغ

كعب عوج بن عوق فقتله. وقيل كان سريره مئة ذراع.

وأصل الجبار من الاجبار على الامر وهو الاكراه عليه. والجبر جبر العظم وهو كالاكراه على الصلاح. قال العجاج:

قد جبر الدين الاله فجبر * وعور الرحمن من ولى العور (١)

أي أصلحه ولامه كجبر العظم كرها. والجبار هدر الارش لان فيه معنى الكره. والجبار في صفات الله صفة التعظيم، لانه يفيد الاقتدار، وتقول: لم يزل الله جبارا بمعنى أن ذاته تدعو العارف بها إلى تعظيمها.

والفرق بين الجبار والقهار أن القهار هو الغالب لمن ناوأه أو كان في حكم المناوئ بمعصيته إياه، ولا يوصف فيما لم يزل بأنه قهار. والجبار في صفة المخلوقين صفة ذم، لانه يتعظم بما ليس له من العظمة. فان العظمة لله تعالى.

وقوله (وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها) يعني هؤلاء الجبارين " فان

(١) لسان العرب (جبر)، (عور)، والعور هنا بمعنى قبح الامر وفساده، تقول: عورت عليه أمره أي أفسدته عليه.

(٤٨٦)

يخرجوا منها فانا داخلون " تمام الحكاية عن قوم موسى.

قوله تعالى:

قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون (٢٥)

وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين (٢٦) آيتان في البصري وآية عند الباقرين.

هذا إخبار من الله تعالى عن رجلين من جملة النقباء الذين بعثهم موسى لتعرف خبر القوم. وقيل هما يوشع بن نون، وكالب، وقيل كلاب بن يوفنا، في قول ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة والربيع. وقال الضحاك: هما رجلان كانا في مدينة الجبارين وكانا على دين موسى

(ع). وقوله: " من الذين يخافون " قال قتادة: يخافون الله - عزوجل - وقال أبو علي يخافون

الجبارين أي لم يمنعهم الخوف من الجبارين أن قالوا الحق " أنعم الله عليهما " بالتوفيق

للطاعة. وقال الحسن: أنعم الله عليهما بالاسلام. وكان سعيد بن جبيرة يقرأ " يخافون " بضم

الياء. وروي تأويل ذلك عن ابن عباس: انهما كانا من الجبارين أنعم الله عليهما بالاسلام.

وقوله: " ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون " اخبار عن قول الرجلين انهما قالوا

ذلك. وإنما صار الظفر بدخول باب مدينة الجبارين لما رأوا من رعبهم وما ألقى الله في

قلوبهم من حكمة بأنه كتبها لهم، وما تقدم من وعد موسى (ع) إياهم بأنهم إن دخلوا الباب

غلبوا.

وقوله " وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين " معناه فتوكلوا على الله في

(٤٨٧)

نصره إياكم على الجبارين إن كنتم مؤمنين بالله، وبما آتاكم به رسوله من عنده.
قوله تعالى:

قالوا ياموسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون (٢٧)
آية بلاخلاف.

هذا إخبار عن قوم موسى أنهم قالوا: لاندخل هذه المدينة مادام الجبارون فيها، لانهم جنبوا
وخافوا من قتال الجبارين لعظم أجسامهم وشدة بطشهم، ولم يتقوا بوعد نبيهم بالنصر لهم
عليهم والغلبة لهم.

وقوله " فاذهب أنت وربك " إنما أبرز الضمير ليصح العطف عليه، لانه لايجوز العطف على
الضمير قبل أن يؤكد. وإنما جاز في قوله " فاجمعوا أمركم وشركاءكم " (١) ذلك، لان ذكر
المفعول صار عوضا عن المنفصل مثل (لا) في " لو شاء الله ما اشركنا ولاآبأؤنا " (٢) وإنما
لم يقرن قوله (اذهب أنت وربك فقاتلا) بالنكير - إذ الذهاب لايجوز عليه تعالى - لامرين:
أحدهما - لان الكلام كله يدل على الافكار عليهم والتعجب من جهلهم في تلقيهم أمر نبيهم
بالرد له والمخالفة عليه.

الثاني - لانهم قالوا ذلك على المجاز بمعنى وربك معين لك - على ما ذكره البلخي - والاول
أقوى لانه أظهر من أولئك الجهال. وإنما يتأول على ما قاله البلخي لوكانوا ممن لايجوز
عليهم مثل ذلك. وقال الحسن: هذا القول منهم يدل على أنهم كانوا مشبهة وأنهم كفروا بذلك
بالله. وقال أبو علي: إن كانوا قالوه على وجه الذهاب من مكان إلى مكان فهو كفر، لان

(١) سورة يونس آية ٧١ (٢) سورة الانعام آية ١٤٨ (*)

(٤٨٨)

ذلك جل بالله تعالى. وإن قالوه على وجه الخلاف فهو فسق.

فان قيل: هل يجوز وصفه تعالى بالقتال كما قال " قاتلهم الله أنى يؤفكون " (١)؟ قلنا: هذا
مجاز، والمعنى إن عداوته لهم عداوة المقاتل، وانه يحل بهم ما يحله بالمقاتل المستعلي
بالاقتدار وعظم السلطان، وليس كذلك قول هؤلاء الجهال.
قوله تعالى:

قال رب إني لأملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين (٢٨) آية بلاخلاف.

في هذه الآية إخبار من الله تعالى عما قاله موسى (ع) عقيب ما كان من قومه من الخلاف وقلة القبول على نبيهم، وخرج ذلك مخرج الغضب منه على قومه لما كان من عصيانهم إياه. ومثل ذلك لا يخرج إلا على غضب.

وقوله " لأملك إلهي وأخي " مجاز، لان الانسان لا يصح أن يملك نفسه، لان الاصل في الملك القدرة، والمالك هو القادر، ومحال أن يقدر الانسان على نفسه، ثم من حق المملوك أن يكون مقدورا عليه أو في حكم المقدور عليه في أن له أن يصرفه تصريف المقدور عليه كملك الانسان للمال والعبد ونحوه، فلا يجوز على هذا أن يملك نفسه. ومعنى الآية أنه لما ملك تصريف نفسه في طاعة الله جاز أن يصف نفسه بأنه يملكها، لانه مما يجوز أن يملكه. وقوله: " وأخي " لانه كان أيضا طائعا له فيما يأمره به، فكان كالقادر عليه. ويحتمل موضعه أربعة أوجه:

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣١ وسورة ٦٥ المنافقون آية ٤. (*).

(٤٨٩)

أحدها - الرفع على موضع (إن) وتقديره: إني لأملك إلهي وأخي لا يملك الا نفسه.

الثاني - الرفع أيضا بالعطف على الياء في (إني).

الثالث - النصب بالعطف على الياء في (إني).

الرابع - النصب بالعطف على نفسي.

وقوله " فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين " قيل في الوجه الذي سأل الفرق بينه وبينهم قولان:

أحدهما - أن يحكم ويقتضي بما يدل على بعدهم عن الحق وذهابهم عن الصواب فيما ارتكبوا من العصيان ولذلك القوا في التيه. هذا قول ابن عباس والضحاك.

الثاني - قال أبو علي إنما دعا بأن يفرق بينه وبينهم في الآخرة بأن يكون هؤلاء في النار، وأن يكون هؤلاء في الجنة. ولو دعا بالهلاك في الدنيا لاهلكهم الله.

وقال قوم: إنما سأل أن ينصره الله عليهم حتى يرجعوا إلى الحق. وقال البلخي معناه باعد، وافصل. وحكي عن المؤرج ان معناه: اقض - بلغة مدبن - والفرق الذي يدل على المباعدة

مثل قول الراجز:

يارب فافرق بينه وبينني * أشد ما فرقت بين اثنين

وقوله " الفاسقين " في الآية - لا يدل على ان ما وقع منهم كان فسقا لا كفرا، لان الكفر قد يوصف بالفسق، لان الفسق هو الخروج من الطاعة إلى المعصية على وجه التمرد، ويكون

ذلك في الكفر قال الله تعالى " إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه " (١) وكان بذلك كافرا بلاخلاف.

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٥١. (*)

(٤٩٠)

قوله تعالى:

قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض فلا تأس على القوم الفاسقين (٢٩) آية هذه الآية إخبار من الله، وخطاب لموسى (ع) أن قومه قد حرم عليهم دخول بلد الجبارين أربعين سنة، وفي كيفية التحريم قولان:

أحدهما - قول أكثر المفسرين: أنه تحريم منع كما قال الشاعر:

جالت لتصرعني فقلت لها اقصري * اني امرؤ صرعي عليك محرم

يعني دابته التي هو راكبها ويريد بذلك إني فارس لايمكنك أن تصرعني. وقال أبوعلي: يجوز أن يكون المراد به تحريم تعبد - والاول هو الاظهر - وقال البلخي: يجوز أن يكونوا أمرؤا بأن يطوفوا فيه أربعين سنة يتيهون في الارض يعني في المسافة التي بينهم وبينها. وقال الربيع: وكان مقداره ستة فراسخ. وقال مجاهد، والحسن: كانوا يصبحون حيث أمسوا ويمسون حيث أصبحوا. وقال الحسن: لم يمتم موسى (ع) في التيه. وروي عن ابن عباس أنه مات في التيه على علم منه فيه. وأما هارون فإنه مات قبل موسى في التيه، وكان أكبر من موسى. واستخلف موسى يوشع بعده. وقال:

إن الله بعثه نبيا. وفي دخوله أيضا مدينة الجبارين خلاف.

وأصل التيه التحير الذي لايهتدى لاجله للخروج عن الطريق إلى الغرض المقصود. وأصله الحيرة. يقال: تاه يتيه تيهًا: إذا تحير. وتيهته، وتوهته، والياء أكثر. والتهيء - من الارض - هي التي لايهتدي فيها. يقال: أرض تيه وتيهاء. قال الشاعر:

تية أتاويه على السفاط

(٤٩١)

فان قيل: يجوز على جماعة - عقلا - كثيرين أن يسيروا في فراسخ يسيرة فلا يهتدوا للخروج منها؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - قال أبوعلي: يكون ذلك بأن تحول الارض التي هم عليها إذا ناموا فيردهم إلى المكان الذي ابتدؤا منه.

الثاني - أن يكون بالاشتباه. والاسباب المانعة من الخروج عنها إما بأن يمحو العلامات التي يستدل بها أو بأن يلقى شبه بعضها على بعض، ويكون ذلك معجزة خارقة للعادة. وقيل: إن التيه كان عقوبة لهم بعدد الايام التي عبدوا فيها العجل عن كل يوم سنة. ومن قال هذا قال: لم يكن موسى وهارون فيها، أو كانا فيها غير متوهين، كما كان ابراهيم في نار نمرود غير متألم بها.

وقوله: (أربعين سنة) نصبه يحتمل أمرين:

أحدهما - على قول الربيع ب " محرمة " حرما عليهم أربعين سنة.

والثاني - " يتيهون " على قول الحسن وقتادة، لانهما قالوا: إنه ما دخلها أحد منهم. وقيل: انه دخلها يوشع بن نون وكالب بن يوفنا بعد موت موسى بشهرين. قالوا لانه لاخلاف بين المفسرين أن دخولها كان محرم عليهم على طريق التأييد. وإنما دخلها أولادهم مع يوشع وكالب بن يوفنا. وقوله:

" فلاتأس على القوم الفاسقين " خطاب لموسى (ع) أمره الله أن لا يحزن على هلاكهم لفسقهم.

والاسى: الحزن يقال أسى يأسى أسى أي حزن قال امرؤ القيس:

وقوفا بها صحبي على مطيهم * يقولون لاتهلك أسى وتجمل

وقال الزجاج: هو خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله).

(٤٩٢)

قوله تعالى:

واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لاقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين (٣٠) آية بلاخلاف وجه إتصال هذه الآية بما قبلها أن الله تعالى أراد أن يبين أن حال اليهود في الظلم ونقض العهد وارتكاب الفواحش من الامور كحال ابن آدم قابيل في قتله أخاه هابيل، وماعاد عليه من الوبال بتعديه. فأمر نبيه أن يتلو عليهم اخبارهما وفيه تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) لما ناله من جهلهم بالتكذيب في جوده وتبكييت اليهود.

وقوله: " إذ قربا قربانا " متعلق بنبأ، وتقديره: اقرأ عليهم خبر ابني آدم وما جرى منهما إذ قربا قربانا. والقربان يقصد به القرب من رحمة الله من أعمال البر وهو على وزن فعلان من القرب، كالفرقان من الفرق، والعدوان من العدو، والشكران من الشكر، والكفران من الكفر.

قال ابن عباس وعبدالله بن عمر، ومجاهد، وقتادة، وأكثر المفسرين:

إن المتقربين كانا ولدي آدم لصلبه: قابيل، وهابيل. وقال الحسن، وأبو مسلم محمد بن بحر، والزجاج: هما من بني إسرائيل، لأن علامة تقبل القربان لم تكن قبل ذلك. وكان سبب قبول قربان أحدهما. ورد الآخر أحد أمرين:

أحدهما - أنه رد قربان أحدهما لأنه كان فاجرا فاسقا. وقبل قربان هابيل لأنه كان متقيا مطيعا، ولذلك قال الله (إنما يتقبل الله من المتقين).
الثاني - انه قرب بشر ماله وأخسه. وقرب الآخر بخير ماله، وأشرفه.

(٤٩٣)

فتقبل الأشرف، ورد الاخس.

وقال قوم ان سبب القربان أنه لم يكن هناك فقير فمن أراد القربان أخرج من ماله ما أحب، ففعلا ذلك، فأكلت النار قربان أحدهما دون الآخر، ولم يكن ذلك عن أمر الله. وقال أكثر المفسرين ورواه أبو جعفر وغيره من المفسرين:

أنه ولد لكل واحد من قابيل وهابيل اخت توأم له فأمر آدم كل واحد بتزويج اخت الآخر. وكانت اخت قابيل أحسن من الاخرى، فارادها، وحسد أخاه عليها، فقال آدم قريبا قربانا، فأيكما قبل قربانه فهي له، وكان قابيل صاحب زرع فعمد إلى اخبث طعام. وعمد هابيل إلى شاة سمينية ولبن وزبد، فصعدا به الجبل فأنتت النار فأكلت قربان هابيل، ولم تعرض لقربان قابيل. وكان آدم غائبا عنهما بمكة، فقال قابيل لاعشت يا هابيل في الدنيا، وقدتقبل قربانك ولم يتقبل قرباني. وتريد أن تأخذ اختي الحسنة. وآخذاختك القبيحة، فقال له هابيل: ما حكاه الله تعالى، فشدخه بحجر فقتله، ثم حمله على عاتقه وكان يضعه على الارض ساعة ويبيكي ويعود يحمله كذلك ثلاثة أيام إلى أن رأى الغرابين.

وقوله: " لاقتلنك " معناه قال الذي لم يتقبل قربانه: و " قال إنما يتقبل الله " يعني الذي تقبل قربانه، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه.

وقيل في علامة القبول قولان:

قال مجاهد كانت النار تأكل المرذود. وقال غيره بل كانت العلامة في ذلك نارا تأتي فتأكل المتقبل ولاتأكل المرذود.

وقال قوم في الآية دلالة على ان طاعة الفاسق غير متقبلة لكنها تسقط عقاب تركها. واما النافلة فيصل اليه ضرب من النفع بها. وتقبل الطاعة إيجاب الثواب عليها - وهذا الذي ذكره غير صحيح - لان قوله " إنما يتقبل الله

(٤٩٤)

من المتقين " : معناه إنما يستحق الثواب على الطاعات من يوقعها لكونها طاعة فاما إذا فعلها لغير ذلك فإنه لا يستحق عليها ثوابا. فاذا ثبت ذلك، فلا يمتنع أن تقع من الفاسق يوقعها على الوجه الذي يستحق عليها الثواب فيستحق الثواب ولا تحابط عندنا بين ثوابه وما يستحق عليه العقاب. والاتقاء يكون لكل شئ يمتنع منه غير أنه لا يطلق اسم المتقين إلا على المتقين للمعاصي خاصة بضرب من العرف، لانه أحق ما يجب أن يخاف منه كما لا يطلق خالق إلا على الله - عزوجل - لانه أحق بهذه الصفة من كل فاعل، لان جميع أفعاله تقع على تقدير وترتيب وقوله: " إنما يتقبل الله من المتقين " يعني القرابين إنما قوله تعالى:

لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين (٣١) آية يتقبلها الله من الذين يتقون معاصي الله خوف عقابه دون من لا يتقيها. في هذه الآية إخبار عن ولد آدم المقتول، وهو هابيل أنه قال لأخيه حين هدده بالقتل لما تقبل قربانه ولم يتقبل قربان أخيه، فقال " لئن بسطت إلي يدك " ومعناه لئن مددت إلي يدك. والبسط هو المد وهو ضد القبض

" لتقتلني " معناه لان تقتلني ما أنا باسط يدي اليك لان أقتلك.

فان قيل لم قال ذلك وقد وجب بحكم العقل الدفع عن النفس وإن أدى إلى قتل المدفوع؟ ! قلنا: عنه جوابان:

أحدهما - أن معناه لئن بدأتني بقتل لم أبداك لأعلى أني لادفعك عن نفسي إذا قصدت قتلي هذا قول ابن عباس وجماعة، وقيل: إنه قتله غيلة بأن ألقى عليه وهونائم صخرة شدخه بها.

(٤٩٥)

الثاني - قال الحسن، ومجاهد، والجبائي: إنه كان كتب عليهم إذا أراد الرجل قتل رجل تركه ولم يمتنع منه. وكان عمرو بن عبيد يجيز الوجهين وهو الاقوى لان كلا الامرين جائز. فان قيل كيف يجوز الوجه الاخير وفيه اطماع في النفس؟ ! قلنا: ليس فيه شئ من ذلك لانه يجري مجرى قول القائل لغيره لئن ظلمتني لم أظلمك، ولئن قبحت في أمري لم أقبح في أمرك بل في ذلك غاية الزجر والردع عن القبيح، لان القبيح منفر عن نفسه صارف عن فعله.

وقوله: " إني أخاف الله رب العالمين " يعني أخاف الله في ابتداء مدي اليك يدي لقتلك " رب العالمين " يعني رب الخلائق.

واللام في قوله " لئن " لام القسم وتقديره أقسم " لئن بسطت إلي يدك " وجوابه " ما أنا بباسط " ولا تقع (ما) جوابا للشرط والفرق بينهما أن ل (ما) صدر الكلام والقسم لا يخرجها عن ذلك كما جاز ان يكون جواب القسم ب (أن) ولا م الابتداء، ولم يجز بالفاء لان المقسم عليه ليس يجب

بوجوب القسم وإنما القسم يؤكد، وجواب الشرط يجب بوجوبه، وإذا اجتمع القسم والجزاء كان جواب القسم أولى من جواب الجزاء، لأنه لما تقدم وصار الجزاء في حشو الكلام غلبه على الجواب فصار له واكتفى به من جواب الجزاء لدلالته عليه.

وروى غياث بن ابراهيم عن ابي اسحق الهمداني عن علي (ع) أنه قال:
لما قتل ابن آدم (ع) اخاه بكا وقال:

تغيرت البلاد ومن عليها * فوجه الارض مغبر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم * وقل بشاشة الوجه المليح

(٤٩٦)

فأجاب آدم (ع) أيا هابيل قد قتلا جميعا * وصار الحي بالموت الذبيح
وجاء بشرة قد كان فيه * على خوف فجاء بها يصيح
قوله تعالى:

إني أريد أن تبوء بأثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين (٣٢)
في هذه الآية إخبار عن ابن آدم (ع) المقتول أنه قال: لأبدأك بالقتل لاني " أريد أن تبوء بأثمي " ومعناه أن ترجع، وأصله الرجوع إلى المنزل يقال: باء إذا رجع إلى المباءة وهي المنزل " وبأءوا بغضب من الله " (١) أي رجعوا. والبواء الرجوع بالقود، وهم في هذا الامر بواء أي سواء، لانهم يرجعون فيه إلى معنى واحد. وقال الشاعر:

ألا تنتهي عنا ملوك وتنتقي * محارمنا لايبؤؤالدم بالدم (٢)

أي لا يرجع الدم بالدم. وقوله " بأثمي وإثمك " معناه اثم قتلي ان قتلتني، وإثمك الذي كان منك قبل قتلي - هذا قول ابن عباس، وابن مسعود والحسن، وقتادة، والضحاك، ومجاهد - وقال مجاهد معناه خطيأتي ودمي، ذهب إلى ان المعنى مثل إثمى. وقال الجبائي، والزجاج. وإثمك الذي من أجله لم يتقبل قربانك. ويجوز أن يريد بأثمي الاول اثم قتلي ان قتلتني

(١) سورة ٢ البقرة آية ٦١ وسورة ٣ آل عمران آية ١١٢.

(٢) اللسان (بوء) وفيه روايتان: لايبأء، لايبؤء. (*)

(٤٩٧)

وإثمك الذي قتلتني، فاضافه تارة إلى المفعول واخرى إلى الفاعل، لانه مصدر يصح ذلك فيه، كما تقول ضرب زيد عمرا وضرب عمرو زيد فتضيفه تارة إلى الفاعل واخرى إلى المفعول. فان قيل: كيف جاز أن يريد منه الاثم وهو قبيح؟ قلنا: المراد بذلك عقاب الاثم، لان الرجوع بالاثم رجوع بعقابه، لانه لايجوز لاحد أن يريد معصية الله من غيره كما لايجوز. أن يريدها

من نفسه، وهو قول أبي علي وغيره. وقال قوم: التقدير إني أريد أن لا تبوء باثمي كما قال " يبين الله لكم أن تضلوا " ومعناه ألا تضلوا. وهذا وجه يحتمله الكلام لكن الظاهر خلافه، وإنما يحمل على ذلك إذا دل الدليل على أنه لا يجوز أن يريد من غيره الاثم. وليس ههنا ما يدل عليه والكلام يدل على أنه أراد العقاب لامحالة لو أراد الاثم. وقوله " فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين " لا يدل على فساد القول بالارجاء، لأن ظاهره يقتضي أنه يستحق بذلك النار والعذاب، وان ذلك جزاءه وليس في ذلك ما يمنع من جواز اسقاطه بغير توبة فينبغي أن لا يمنع منه.

وفي الآية دلالة على أن الوعيد بالنار قد كان في زمن آدم بخلاف ما يدعيه جماعة من اليهود والنصارى. قوله تعالى:

فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين (٣٣) آية بلاخلاف

(٤٩٨)

قيل في معنى " طوعت له نفسه " ثلاثة أقوال:

أحدها - شجعتة نفسه على قتل أخيه في قول مجاهد. وقال قتادة زينت له نفسه قتل أخيه. وقال قوم: معناه ساعدته نفسه على قتل أخيه، فلما حذف حرف الجر نصب قوله " قتل أخيه ". ومن قال معناه زينت نصبه كأنه مفعول به. يقال طاع لهذه الظبية اصول الشجرة، وطاع لفلان كذا أي أتاه طوعا، ويقال أيضا انطاع. ولا يقال اطاعته نفسه، لان (أطاع) يدل على قصد لموافقة معنى الامر، وليس كذلك طوع، لانه بمنزلة انطاع له اصول الشجرة. وفي الفعل ما يتعدى إلى نفس الفاعل نحو حرك نفسه، وقتل نفسه. وفيه ما لا يتعدى نحو أمر ونهى، لان الامر والنهي لا يكون إلا ممن هو أعلى لمن هودونه.

وقال ابن عباس وابن مسعود وأبو مالك وأبو جعفر (عليه السلام):

إنه قتله بصخرة شدخ رأسه بها، وقال مجاهد: لم يدر كيف يقتله حتى ظهر له ابليس فعلمه ذلك، ظهر في صورة طير، فأخذ طيرا آخر وترك رأسه بين حجرين فشدخه. وقابيل ينظر اليه ففعل مثله. وقيل هو أول قتل كان في الناس. وقوله: " فأصبح من الخاسرين " لا يدل على أنه قتله ليلا، لان معناه صار من الخاسرين بقتله ليلا أو نهارا، لانه يحسن في هذا أن يقال: أصبح، لانه بمنزلة الامر الذي بيت ليلا، فكانت ثمرته الوبال والخسران، والمعنى - ههنا - ذهاب رأس المال بهلاك نفسه. وذلك أعظم الخسران كما قال تعالى " خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة " فمعنى الآية أصبح من الذين باعوا الآخرة بالدنيا، فخسروا في ذلك وخابت صفقتهم.

قوله تعالى:

فبعث الله غرابا يبحث في الارض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين (٣٤)

آية بلاخلاف قرأ الحسن (ياويلتي) مضاف، وهما لغتان يقال ياويلتا وياويلتي ذكره الازهري. قيل: إنه كان أول ميت من الناس فلذلك لم يدر كيف يواريه وكيف يدفنه حتى بعث الله غرابين أحدهما حي والآخر ميت، وقيل كانا حيين فقتل أحدهما صاحبه ثم بحث الحي الارض فدفن فيه الغراب الميت، ففعل به مثل ذلك قابيل، وهو قول ابن عباس وابن مسعود وابن مالك ومجاهد والضحاك وقتادة. وفي ذلك دلالة على فساد ما قال الحسن وأبو علي وأبو مسلم إنهما كانا من بني اسرائيل، لانه لم يكن الناس إلى زمان بني اسرائيل، لايدرون كيف يدفنون ميتهم، قال الرماني ولايجوز أن يكون الغراب مكلفا، لان المعلوم من دعوة الرسول أن المكلفين هم الملائكة والانس والجن، والمعلوم ضرورة أنه لامطيع لله أحد إلا من هذه الثلاثة أصناف، وأيضا فقد بعث الله النبي (صلى الله عليه وآله) إلى كل مكلف سوى الملائكة ولايقول أحد: إنه مبعوث إلى الغرابان. ومعنى " فبعث الله غرابا " ألهمها ذلك. وقال الزجاج أكرم الله

المقتول بأن بعث غرابا حثا عليه التراب ليريه كيف يواري سوءة أخيه. وقال قوم: كان ملكا في صورة الغراب. وقال أبو علي يجوز أن يكون الغراب قد زاد الله في عقله ماعقل أمر الله لاعلى وجه التكليف كما نأمر صبياننا وأولادنا فيفهمون عنا.

ومعنى " سوءة أخيه " قيل فيه قولان: أحدهما - قال أبو علي: إنه جيفة أخيه، لانه كان تركه حتى أنتن فقبل لجيفته سوءة. وقال غيره: معناه عورة أخيه والظاهر يحتمل الامرين. وأصل السوء التكررة تقول ساءه يسوءه إذا أتاه بما يكرهه.

وروى الحسن عن النبي (صلى الله عليه وآله) أن الله ضرب لكم مثلا ابني آدم فخذوا من خيرهما ودعوا شرهما).

وقوله " قال وياويلتا " فيه حذف لان تقديره ليريه كيف يواري سوءة أخيه فواراه قال والقائل أخاه ياويلتاه. وقال الزجاج الوقف في غير القران عليها ياويلتاه، والنداء لغير الأدميين نحو " يااحسرتا على العباد " (١).

و " ياويلتا ألد وأنا عجوز " (٢). وقال ياويلتا وإنما وقع في كلام العرب.

على تنبيه المخاطب وان الوقت الذي يدعي هذه الاشياء هو وقتها. والمعنى ياويلتنا تعالي فانه من ابانك أي قوله: مني الويل وكذلك ياعجبا: المعنى ياأيها العجب هذا وقتك. وقال سيبيويه: الويل كلمة تقال عند الهلكة.

وقيل الويل واد في جهنم وقوله " أعجزت " يقال عجزت عن الامر أعجز عجزا ومعجزة.

(١) سورة يس آية ٣٠. (٢) سورة هود آية ٧٢ (*)

(٥٠١)

وقوله " فأصبح من النادمين " قيل كانت توبته غير صحيحة، لأنها لو كانت صحيحة لاستحق عليها الثواب. وقال أبو علي: ندم على قتله على غير الوجه الذي يكون الندم توبة لانه ندم لانه لم ينتفع به وناله ضرر بسببه من أبيه واخوته. ولو كان على الوجه الصحيح لقبل الله توبته. وعلى مذهبنا كان يستحق الثواب لو كانت صحيحة، وإن لم يسقط العقاب. قوله تعالى:

من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الارض لمسرفون (٣٥) آية عند الجميع. قرأ أبو جعفر والزيبر (من أجل) ذلك بفتح النون واسكان الهمزة ومثله (قد أفلح) وما أشبهه. الباقيون يقطعون الهمزة بفتح النون بنقل الحركة من الهمزة إلى ما قبلها. ومن اسكنها تركها على أصلها.

ومعنى (من أجل) من جراء ذلك وجريته. وقال الزجاج: معناه من جنابة ذلك. يقال أجلت الشيء أجلا إذا اجنيته. قال الخواني:

وأهل خباء صالح ذات بينهم * قد احتربوا في عاجل أنا آجله (١)

(١) اللسان (أجل) وروايته كنت بينهم) بدل (ذات بينهم) وفي الصحاح مثل هنا وقائله خوات بن جبير. (*)

(٥٠٢)

أي جانيه وقيل جاره عليهم. وقال عدي بن زيد:

أجل ان الله قد فضلكم * فوق من احكأ صلبا بارزا (١)

وأصله الجر. ومنه الاجل الوقت الذي يجر اليه العقد الاول ومنه الأجل نقيض العاجل. ومنه (أجل) بمعنى نعم، لانه انقياد إلى ما يجر اليه ومنه الاجال القطيع من بقر الوحش، لان بعضها ينجر إلى بعض.

و " ذلك " اشارة إلى قتل أحد ابني آدم أخاه ظلما. حكمناالى بني اسرائيل أنه من قتل منهم نفسا بغير نفس أو فساد كان منها في الارض فاستحقت بذلك قتلها. وفسادها في الارض إنما يكون بالحرب لله ولرسوله واخلافة - السبيل - على ما سنبينه فيما بعد - وهو قول الضحاك وجميع المفسرين. واختلفوا في تأويل قوله (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الارض، فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحيها فكأنما أحيها الناس جميعا) على ستة أقوال:

أحدها - قال الزجاج: معناه إنه بمنزلة من قتل الناس جميعا في أنهم خصومه من قبل ذلك الانسان.

والثاني - قال أبوعلي: إن عليه مثل مآثم كل قاتل من الناس لأنه سن القتل وسهله لغيره، فكان بمنزلة المشارك فيه. ومثله قوله (ع): (من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان له وزرها ووزر من عمل بها).

الثالث - قال الحسن وقتادة ومجاهد: إن معناه تعظيم الوزر والمآثم

(١) اللسان (أجل). (*)

(٥٠٣)

وتقديره ياابن آدم انك لو قتلت الناس جميعا كان لك من عمالك ماتقوز به وتتجو من النار؟! - والله - كذبتك نفسك والشيطان، فكذلك قتلك ظلما الانسان أي كنت تستحق الخلود في النار كما كنت تستحقه بقتل الناس جميعا.

الرابع - قال ابن عباس: معناه من شد على عضد نبي أو امام عدل.

فكأنما أحيها الناس جميعا. ومن قتل نبيا أو إماما عدلا، فكأنما قتل الناس جميعا.

الخامس - قال ابن مسعود وغيره من الصحابة: معناه (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا) عند المقتول " ومن أحيها فكأنما أحيها الناس جميعا " عند المستنقذ.

السادس - قال ابن زيد معناه انه عليه من القود والقتل مثل مايجب عليه لو قتل الناس جميعا. وقوله: (ومن أحيها فكأنما أحيها الناس جميعا)

قال مجاهد معناه من نجاها من الهلاك مثل الخرق والحرق. وقال الحسن وابن زيد معناه من عفا عن دمها وقد وجب القود عليها. وقال أبوعلي معناه من زجر عن قتلها بمافيه حياتها على وجه يقتدى به فيها بأن يقتدى به فيها بأن يعظم تحريم قتلها كماحرمه الله. فلم يقدم عليه فقد حي الناس بسلامتهم منه وذلك احياءه إياها. وهو اختيار الطبري والله تعالى هو المحيي للخلق

لايقدر على ذلك غيره تعالى. وإنما قال: (أحيائها) على وجه المجاز بمعنى نجاها من الهلاك كما حكى عن نمرود ابراهيم " أنا أحيي وأميت " فاستبقا واحدا وقتل الاخر. قوله (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات) قسم من الله تعالى أن رسله أتت بني اسرائيل الذين ذكر قصصهم وأخبارهم بالآيات الواضحة والحجج الدالة على صدق رسله وصحة ما أتوا به ثم أخبر أن

(٥٠٤)

كثيرا منهم يعني من بني اسرائيل لمسرفون بعد مجيئ رسل الله اليهم ومعنى (لمسرفون) لعاملون بمعاصي الله، ومخالفون أمره ونهيه باتباعهم غير رسل الله. والاسراف الخروج عن التقصير والاقتصاد وضده التقطير. والاقتصاد هو التعديل بلا إسراف ولا اقتار وقد يمدح بالاقتصاد. وقال أبو جعفر (ع):

المسرفون هم الذين يستحلون المحارم ويسفكون الدماء.
قوله تعالى:

إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم (٣٦) آية بلاخلاف.

المحارب عندنا هو الذي أشهر السلاح وأخاف السبيل سواء كان في مصر أو خارج مصر، فان اللص المحارب في مصر وغير مصر سواء. وبه قال الاوزاعي ومالك والليث بن سعد وابن لهيعة والشافعي والطبري. وقال قوم: هو قاطع الطريق في غير مصر ذهب اليه أبوحنيفة وأصحابه وهو المروي عن عطاء الخراساني. ومعنى (يحاربون الله) يحاربون أولياء الله ويحاربون رسوله (ويسعون في الارض فسادا) وهو ما ذكرناه من أشهر السيف واخافة السبيل. وجزاءهم على قدر الاستحقاق إن قتل قتل وان أخذ المال وقتل قتل وصلب وان أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف. وان اخاف السبيل فقط فانما عليه النفي لاغير هذا مذهبا. وهو المروي عن أبي جعفر

(٥٠٥)

(عليه السلام) وأبي عبدالله (ع) وهو قول ابن عباس وابي مجلز وسعيد بن جببر، والسدي، وقتادة، والربيع و ابراهيم على خلاف عنه - وبه قال أبو علي الجبائي والطبري وحكي عن الشافعي أنه إن أخذ المال جهرا كان للامام صلبه حيا وان لم يقتل.

" وان يقتلوا " في موضع رفع وتقديره إنما جزاؤهم القتل، والصلب أو القطع من موضع الخلاف، ومعنى (إنما) ليس جزاؤهم الا هذا قال الزجاج: اذاقال جزاؤك عندي درهم جاز أن يكون معه غيره، فاذا قال انما جزاؤك درهم كان معناه ماجزاؤك إلا درهم. واختلفوا في سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس والضحاك، نزلت في قوم كان بينهم وبين النبي (صلى الله عليه وآله) مودعة فنقضوا العهد، وأفسدوا في الارض، فخير الله نبيه في ما ذكر في الآية، وقال الحسن وعكرمة نزلت في أهل الشرك. وقال قتادة، وأنس وسعيد بن جبير والسدي: انها نزلت في العرنيين والعكليين حين ارتدوا وأفسدوا في الارض فأخذهم النبي (صلى الله عليه وآله) وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمل أعينهم (١) وفي بعض الاخبار أحرقتهم بالنار. ثم اختلفوا في نسخ هذا الحكم الذي فعله بالعرنيين، فقال البلخي وغيره نسخ ذلك بنهيته عن المثلة. ومنهم من قال: حكمه ثابت في نظرائهم لم ينسخ. وقال آخرون لم يسمل النبي (صلى الله عليه وآله) أعينهم وإنما أراد أن يسمل فأنزل الله آية المحاربة، والذي نقوله: إن عندنا ان كان فيهم طليعة لهم حتى يقتلوا قوما

(١) سمل أعينهم أي فقأها بحديدة محماة. (*)

(٥٠٦)

سملت عين الربيفة (١) وأجري على الباقيين ماذكرناه. وقال قوم: الامام مخير فيه ذهب اليه ابن عباس في رواية ومجاهد والحسن وسعيد بن المسيب، وعطا وابراهيم في رواية عنه. فمن قال بالاول، ذهب إلى أن (أو) في الآية تقتضي التفصيل ومن قال بالثاني ذهب إلى انها للتخيير.

ومعنى قوله: " وأرجلهم من خلاف " معناه أن يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى. ولو كان موضع (من) (على) أو (الباء) لكان المعنى واحدا. وقوله " أو ينفوا من الارض " في معناه ثلاثة أقوال: أحدها - أنه يخرج من بلاد الاسلام ينفي من بلد إلى إلا أن يتوب ويرجع وهو الذي نذهب اليه. وبه قال ابن عباس، وأنس بن مالك، ومالك ابن أنس، والحسن والسدي والضحاك، وقتادة، وسعيد بن جبير، والربيع ابن انس، والزهري. وقال أصحابنا لايمكن أيضا من دخول بلاد الشرك، ويقاتل المشركون على تمكينهم من ذلك حتى يتوبوا ويرجعوا إلى الحق. وقال الفراء النفي أن يقال: من قتله قدمه هدر.

والثاني - انه ينفى من بلد إلى بلد غيره ذهب اليه سعيد بن جبير في رواية أخرى، وعمربن عبدالعزيز .

الثالث ان النفي هو الحبس ذهب اليه أبوحنيفة وأصحابه.
أصل النفي الاهلاك ومنه النفي الاعدام، فالنفي الاهلاك بالاعدام.
ومنه النفاية لردئ المتاع. ومنه النفي، وهو ما تطاير من الماء عن الدلو، قال الراجز:

(١) ربيثة القوم عينهم الذي يطلعهم على أخبار العدو. يقف على مرتفع عال ويرقب حركات العدو. (*)

(٥٠٧)

كأن متنيه من النفي * مواقع الطير على الصفي (١)
والنفي الطرد قال أوس بن حجر:
ينفون عن طرق الكرام * كما ينفي المطارق مايلي الفرد
وقوله " ذلك لهم خزفي في الدنيا " معناه أن فعل ماذكرناه من الاحكام خزفي في الدنيا، والخزفي
الفضيحة يقال خزفي يخزي خزيا إذا افتضح وخزى يخزى خزاية إذا استحيا وخزوته اخزوه
خزوا إذا سسته ومنه قول لبيد:
واخزها بالبر لله الاجل (٢)
" ولهم في الآخرة عذاب عظيم " معناه زيادة على ذلك وهذا يبطل قول من قال اقامة الحدود
تكفير للمعاصي لانه يقال مع اقامة الحدود عليهم بين ان لهم في الآخرة عذابا عظيما ومعنى
ان لهم في الآخرة عذابا عظيما انهم يستحقون ذلك ولايدل على انه يفعل بهم ذلك لامحالة لانه
يجوز أن يعفو الله عنهم ويتفضل عليهم باسقاط عقابهم.

(١) اللسان (نفي) وروايته:

كأن متنيه من النفي.

من طول اشرافي على الطوي مواقع الطير على الصفي (٢) اللسان (خزا) وقيله:

أكذب النفس اذا حدثتها * ان صدق النفس يزدي بالامل

غير أن لاتكذبها في التقى * واخزها بالبر لله الاجل (*)

(٥٠٨)

قوله تعالى:

إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم (٣٧) آية بلاخلاف.

قال الزجاج يحتمل الذين ان يكون في موضع الرفع بالابتداء وخبره فاعلموا ان الله غفور رحيم والمعنى غفور رحيم لهم والمعنى لكن التائبون من قبل القدرة عليهم فالله غفور رحيم. ويجوز أن يكون في موضع نصب بالاستثناء من قوله (فاعلموا أن الله غفور رحيم). لما بين الله حكم المحارب - على ما فصلناه - استثنا من جملتهم من يتوب مما ارتكبه قبل أن يؤخذ، ويقدر عليه لان توبته بعد حصوله في قبضة الامام، وقيام البيعة عليه بذلك لاينفعه، ووجب اقامة الحد عليه.

واختلفوا فيمن تدرأ عنه التوبة الحدود: هل هو المشرك أو من كان مسلما من أهل الصلوة؟ فقال الحسن، وقتادة، ومجاهد والضحاك: هو المشرك دون من كان مسلما. فأما من أسلم، فانه لم يؤخذ بما جناه إلا أن يكون معه عين مال قائمة فانه يجب عليه ردها وماعدها يسقط. وأما علي (ع)

فانه حكم بذلك فيمن كان مسلما وهو حارثة بن بدر، لانه كان قد خرج محاربا ثم تاب فقبل علي (ع) توبته. وجعل له أمانا على يد سعيد بن قيس. وحكم به أبو موسى الأشعري في فلان المرادي جاء تائبا بعدكونه محاربا فقبل توبته. وأبو هريرة في علي الاسدي وبه قال السدي ومالك بن أنس إلا أن مالكا قال يؤخذ بالدم اذا طالب به وليه. وقال الليث بن سعيد لا يؤخذ به وقال الشافعي تضع توبته عنه حد الله الذي وجب لمحاربتة، ولا يسقط عنه

(٥٠٩)

حقوق بني آدم وهو مذهبا، فعلى هذا إن أسقط الآدمي حق نفسه ويكون ظهرت منه التوبة قبل ذلك لايقاص عليه الحد، وإن لم يكن ظهرت منه التوبة أقيم الحد، لانه محارب فيتاحتم عليه الحد. وهو قول أبي علي.

واخلاف أنه إذا اصيب المال بعينه في يده أنه يرد إلى أهله. فاما المشرك المحارب فمتى أسلم وتاب سقطت عنه الحدود، سواء كان ذلك منه قبل القدرة عليه أو بعدها بلاخلاف. فاما السارق إذا قدر عليه بعد التوبة وتكون التوبة منه بعد قيام البيعة فانه لايسقط عنه الحد. وإن كان قبل قيام البيعة اسقطت عنه. وقال قوم:

لاتسقط التوبة الحد عن السارق - ولم يفصل. وادعي في ذلك الاجماع.

قالوا لان الله جعل هذا الحكم للمحارب بالاستثناء بقوله: " فاعلموا أن الله غفور رحيم " ولم يكن غير المحارب في معناه فيقاص عليه، لان ظاهر هذا التفرد وليس كذلك هو في المحارب الممتنع بفئة وفي الآية حجة على من قال لاتصح التوبة مع الاقامة على معصية أخرى يعلم

صاحبها أنها معصية، لانه تعالى علق بالتوبة حكما لايجل به الاقامة على معصية هي السكر أو شرب نبيذ التمر على غير التأويل باجماع المسلمين.
قوله تعالى:

يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون (٣٨) آية بلاخلاف.

خاطب الله في هذه الآية المؤمنين وأمرهم أن يتقوه ومعناه أن يتقوا معاصيه ويجتنبوها وابتغوا إليه معناه يطلبون إليه الوسيلة وهي القربة في

(٥١٠)

قول الحسن ومجاهد وقتادة وعطا والسدي وابن زيد وعبدالله بن كثير وأبي وابل. وهي على وزن (فعيلة) من قولهم توسلت اليك أي تقربت قال عنتره ابن شداد:
إن الرجال لهم اليك وسيلة * أن يأخذوك فلججي وتخضبي
وقال الآخر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا * وعاد التصافي بيننا والوسائل
يقال منه سلت أسأل أي طلبت وهما يتساولان أي يطلب كل واحد منهما من صاحبه. والاصل
الطلب والوسيلة التي ينبغي أن يطلب مثلها.

فان قيل كيف قال تعالى " اتقوا الله " وهو غاية التحذير مع أنه تعالى رغب في الدعاء اليه
وهما كالمتنافرين؟ قيل إنما قال ذلك لئلا يكون المكلف على غرور من أمره بكثرة نعم الله عليه
فيظن أنها موجبة للرضاء عنه فحقيقة.

الدعاء اليه باتقائه من جهة اجتناب معاصيه والعمل بطاعته. فان قيل هل يجوز أن يتقى
المعاقب من أجل عقابه كما يحمد المحسن من أجل إحسانه.

قلنا: لا لان أصل الاتقاء الحجز بين الشئيين لئلا يصل أحدهما إلى الاخر من قولهم اتقاه
بالترس. ومنه اتقاه بحقه، فالطاعة له تعالى حازمة بين العقاب وبين العبد أن يصل إليه. وأما
حمدالانسان، فمجاز لان المحمود في الحقيقة يستحق الولاية والكرامة.

وقوله: " وجاهدوا في سبيله " أمر منه تعالى بالجهاد في دين الله، لانه وصلة وطريق إلى
ثوابه. ويقال لكل شئ وسيلة إلى غيره هو طريق إليه فمن ذلك طاعة الله فهي طريق إلى
ثوابه. والدليل على الشئ طريق إلى العلم به والتعرض للشئ طريق إلى الوقوع فيه واللفظ
طريق إلى طاعة الله والجهاد

(٥١١)

في سبيل الله فديكون باللسان واليد والقلب والسيف والقول والكتاب.

وقوله: (لعلكم تفلحون) يحتمل أمرين:

أحدهما - اعملوا لتفلحوا ومعناه ويكون غرضكم الصلاح فهذا يصح مع اليقين.

الثاني - اعملوه على رجاء الصلاح به فهذا مع الشك في خلوصه مما يحبطه وهذا الوجه لا يصح إلا على مذهب من قال بالاحباط. فاما من لا يقول به فلا يصح ذلك فيه غير أنه يمكن أن يقال الشك فيه يجوز أن يكون في هل أوقعه على الوجه المأمور به أم لا؟ لأنه لاحال إلا وهو يجوز أن يكون فرط فيما أمر به " والمفلحون " هم الفائزون بمافيه غاية صلاح أحوالهم.

قوله تعالى:

إن الذين كفروا لو أن لهم مافي الارض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب اليم (٣٩) يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم (٤٠) آيتان بلاخلاف.

أخبر الله تعالى في هذه الآية " ان الذين كفروا لو أن لهم مافي الارض جميعا ومثله معه " وافتدوا بجميع ذلك من العذاب الذي يستحقونه على كفرهم " ماتقبل منهم " .

والذين في موضع نصب بان وخبر (ان) الجملة في (لو) وجوابها.

وقوله: " ولهم عذاب اليم " يحتمل أمرين:

(٥١٢)

أحدهما - أن يكون في موضع الحال.

والثاني - أن يكون عطفًا على الخبر، ولايجوز أن يكون خيرا من

" يريدون " أن يخرجوا من النار، وماهم بخارجين منها " . و (لو) في موضع الحال كما تقول مررت بزيد لو رآه عدوه لرحمه، لأنه في موضع معتمد الفائدة مع أن الثاني في استئناف (إنه) ولايحكم بقطع الخبر، وإنما اجبيت (لو) ب (ما) ولم يجز أن يجاب (أن) ب (ما) لان (ما) لها صدر الكلام وجواب (لو) لا يخرجها من هذا المعنى كما لا يخرجها جواب القسم، لأنه غير عامل. و (أن) عاملة فلذلك صلح أن يجاب ب (لا) ولم يصلح ب (ما)

كقولك إن تأتي لايحققك سوء، ولايجوز (ما) لان (لا) تنفي عمابعدها ماوجب لما قبلها في أصل موضوعها كقولك قام زيد لاعمر و (ما) تنفي عمابعدها مالم يجب لغيرها، فلذلك كان لها صدر الكلام. وإنما نفى الله أن يقبل منهم فدية من غير تقييد بالتوبة، لامرين:

أحدهما لانهم لا يستحقون هذه الصفة لو وقعت منهم التوبة مع البيان عن أن الآخرة لاتقبل فيها توبة.

الثاني ان ذلك مقيد بدليل العقل والسمع الذي دل على وجوب اسقاط العقاب عند التوبة كقوله " غافر الذنب وقابل التوب " (١) وعندنا أنه لم يقيد بالتوبة لان التوبة لايجب اسقاط العقاب عندها عندنا. وإنما يتفضل الله بذلك عند التوبة فأراد الله أن يبين أن الخلاص من عقابه الذي استحق على الكفر به ومعاصيه لا يستحق على وجهه. وإنما يكون ذلك تفضلا على كل حال. واللام في قوله: " ولهم عذاب اليم " لام الملك لان حقيقتها الاضافة

(١) سورة غافر آية ٣. (*)

(٥١٣)

على معنى الاختصاص غير أنها إذا اضيفت تصح أن يكون فعلا إلى ما يصح أن يكون فاعلا فالاضافة بمعنى اضافة الفعل إلى الفاعل نحو " إن قام زيد " ويجوز أن يكون على معنى المفعول بقرينة ككلام زيد ونحوه. وقوله:

" لو أن لهم مافي الارض جميعا " يدل على أنه ليس لهم مافي الارض جميعا، لانه لو كان لهم لكان الابلاغ أن يقال يسلبون النعمة به من غير فدية تسقط عنهم شيئا من العقوبة. وقوله: " يريدون أن يخرجوا من النار " في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال أبو علي معناه يتمنون أن يخرجوا منها فجعل الارادة ههنا تمنيا.

وقال الحسن معناه الارادة على الحقيقة، لانه قال كلما رفعتهم النار بلهبها رجوا أن يخرجوا منها، وهو قوله: " كلما أرادوا أن يخرجوا منها اعيدوا فيها " (١). وقال بعضهم معناه يكادون أن يخرجوا منها، إذا رفعتهم بلهبها كما قال - عزوجل - " جدارا يريد أن ينقض " (٢) أي يكاد ويقارب.

فان قيل كيف يجوز أن يريدوا الخروج من النار مع علمهم بأنهم لا يخرجون؟ قلنا: لان العلم بأن الشئ لا يكون لا يصرف عن إرادته.

كما أن العلم بأنه يكون لا يصرف عن إرادته وإنما يدعو إلى الارادة حسنها أو الحاجة اليها كما أن المراد بهذه المنزلة. فان قيل: هل يجوز أن يطمعوا في الخروج من النار كما قال الحسن قلنا الخروج منها إلى غير عذاب يجري مجرى عذابها فلا يجوز لعلمهم بأن العذاب دائم لا يفتقر عنهم فان كان معه العلم بأنهم لا يخرجون منها لم يجز أن يطمعوا في الخروج، لان العلم ينافي

(١) سورة الم السجدة آية ٢٠. (٢) سورة الكهف آية ٧٨. (*)

(٥١٤)

الطمع ولا ينافي الارادة كما لا يطمع العاقل في أن يعود في الدنيا شابا كما كان. وقال أبو علي: إنما يتمنون الخلاص منها قبل دخولها، لما في التمني من التروح، وليس ذلك من صفة أهلها. ولا يجوز أن يقال في الكلام يريدون أن يستخرجون من النار كما جاز (علم أن سيكون منكم مرضى) (١)

لأن أن المخفة من الشديدة لتحقيق كائن في الحال أو الماضي أو المستقبل. وليس في الارادة تحقيق وقوع المراد لامحالة، كما ليس في الامر تحقيق وقوع المأمور به، فلذلك لم يجز أمرته أن سيقوم، وجاز أمرته أن يقوم. قوله " وما هم بخارجين منها " يعني من جهنم " ولهم عذاب مقيم " أي دائم ثابت لا يزول ولا يحول، كما قال الشاعر:

فان لكم بيوم الشعب مني * عذابا دائما لكم مقيما
وروي أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس يأعمى القلب يأعمى البصر تزعم ان قوما يخرجون من النار وقد قال الله تعالى: " وما هم بخارجين منها " ! فقال ابن عباس ويحك أو ما فقهت هذه للكفار؟! .
قوله تعالى:

والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم (٤١) آية بلاخلاف.

وقوله " والسارق والسارقة " قال سيبويه الاجود فيه النصب ومثله " الزانية والزاني ". وبالنصب قرأ عيسى بن عمر وهو بخلاف ما عليه القراء لا يجوز أن يقرأ به والوجه الرفع. ومثله " اللذان يأتيانها منكم فآذوهما " .

(١) سورة المزمل آية ٢٠. (*)

(٥١٥)

ويحتمل رفعهما شيئين:

أحدهما - قال سيبويه إنه على تفسير فرض فيما يتلى عليكم حكم السارق والسارقة. ومنه " والذنان يأتيانها منكم " (١).

الثاني - قال المبرد والفراء لأن معناه الجزاء وتقديره من سرق فاقطعوه، وله صدر الكلام. وقال الفراء ولو أردت سارقا بعينه لكان النصب الوجه ويفارق ذلك قولهم زيدا فاضربه، لأنه ليس فيه معنى الجزاء.

وظاهر قوله " والسارق والسارقة " يقتضي عموم وجوب القطع على كل من يكون سارقا أو سارقة، لان الالف واللام إذا دخلا على الاسماء المشتقة أفادا الاستغراق إذالم يكونا للعهد دون تعريف الجنس - على ما ذهب اليه قوم - . وقد دللنا على ذلك في أصول الفقه. فأما من قال القطع لايجب إلا على من كان سارقا مخصوصا من مكان مخصوص مقدارا مخصوصا وظاهر الآية لاينبئ عن تلك الشروط، فيجب أن تكون الآية مجملة مفتقرة إلى بيان، فقوله فاسد لان ظاهر الآية يقتضي وجوب القطع على كل من يسمى سارقا وإنما يحتاج إلى معرفة الشروط ليخرج من جملتهم.

من لايجب قطعه فأما من يجب فاننا نقطعه بالظاهر، فالآية مجملة فيمن لايجب قطعه دون من يجب قطعه فسقط ماقلوه.

وقوله " فاقطعوا أيديهما " أمر من الله بقطع أيدي السارق والسارقة.

والمعنى ايمانهما. وإنما جمعت أيدي لان كل شئ من شيئين، فتثنيته بلفظ الجمع كما قال - عزوجل - : " فقد صغت بكما " (٢) وقال الفراء كلما

(١) سورة النساء آية ١٥ (٢) سورة التحريم آية ٤. (*)

(٥١٦)

كان في البدن منه واحد فتثنيته بلفظ الجمع لان أكثر أعضائه فيه منه اثنان، فحمل ماكان فيه الواحد على مثل ذلك، فقيل قلوبهما وظهورهما. كما قيل عيونهما وأيديهما. وقال الفراء إنما فعلوا ذلك للفصل بين مافي البدن منه واحد وبين مافي البدن منه اثنان، فجعل مافي البدن منه واحد تثنيته وجمعه بلفظ واحد ولم يثن أصلا، لان الاضافة تدل عليه، ولان التثنية جمع، لانه ضم شئ إلى شئ. وإن ثني جاز قال الشاعر:

ظهرهما مثل ظهور الترسين.

فجمع بين الامرين. وإنما اعتبرنا قطع الايمان، لاجماع المفسرين على ذلك. كالحسن والسدي والشعبي وغيرهم. وفي قراءة ابن مسعود

" والسارقون والسارقات فاقطعوا ايمانهما " والنصاب الذي يتعلق القطع به قيل فيه ستة أقوال: أولها - على مذهبنا، وهو ربع دينار. وبه قال الاوزاعي والشافعي، لما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال القطع في ربع دينار.

الثاني - ثلاثة دراهم وهو قيمة المجن. ذهب اليه مالك بن أنس.

الثالث - خمسة دراهم روي ذلك عن علي (ع) وعن عمر، وانهما قالوا:

لايقطع الخمس إلا في خمسة دراهم وهو اختيار أبي علي، قال: لأنه بمنزلة من منع خمسة دراهم من الزكوة في أنه فاسق.

الرابع - قال الحسن: يقطع في درهم، لان مادونه تافه.

الخامس - عشرة دراهم ذهب اليه أبوحنيفة وأصحابه لما رووا أنه كان قيمة المجن عشرة دراهم.

السادس - قال أصحاب الظاهر وابن الزبير يقطع في القليل والكثير.

(٥١٧)

ولايقطع إلا من سرق من حرز. والحرز يختلف، فكل شئ حرز يعتبر فيه حرز مثله في العادة. وحده أصحابنا بأنه كل موضع لم يكن لغيره الدخول اليه والتصرف فيه إلا باذنه فهو حرز. وقال أبوعلي الجبائي الحرز أن يكون في بيت أو دار مغلق عليه وله من يراعيه ويحفظه.

ومن سرق من غير حرز لايجب عليه القطع. قال الرماني، لأنه لايسمى سارقاً حقيقة وإنما يقال ذلك مجازاً كمايقال سرق كلمة أو معنى في شعر لأنه لايلطق على هذا اسم سارق على كل حال. وقال داود: يقطع اذا سرق من غير حرز.

وكيفية القطع عندنا يجب من أصول الاصابع الاربعة ويترك الابهام والكف - وهو المشهور عن علي (ع): وقال اكثر الفقهاء: إنه يقطع من الرسغ. وهو المفصل بين الكف والساعد. وقالت الخوارج يقطع من الكتف. وأما الرجل فعندنا تقطع الاصابع الاربعة من مشط القدم ويترك الابهام والعقب.

دلينا أن ماقلناه مجمع على وجوب قطعه. وماقالوه ليس عليه دليل.

ولفظ اليد يطلق على جميع اليد إلى الكتف ولايجب قطعه - بلاخلاف إلا ماحكيناها عن لايعتدبه. وقد استدل قوم من أصحابنا على صحة ماقلناه بقوله " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم " (١) وإنما يكتبونه بالاصابع.

- والمعتمد ماقلناه - وعليه اجماع الفرقة المحقة.

ومتى تاب السارق قبل أن يرفع إلى الامام. وظهر ذلك منه ثم قامت عليه البينة، فانه لايقطع. غير أنه يطالب بالسرقة وإن تاب بعدقيام البينة

(١) سورة البقرة آية ٧٩. (*)

(٥١٨)

عليه وجب قطعه على كل حال. وقال الفقهاء يجب قطعه على كل حال. فان كان تاب كان قطعه امتحانا، وان لم يكن تاب كان عقوبة وجزاء. ومتى قطع فانه لايسقط عنه رد السرقة سواءكانت باقية أوهالكة، فان كانت باقية ردها - بلاخلاف - وإن كانت هالكة رد عندنا قيمتها. وقال أبوحنيفة وأصحابه: لايجمع عليه القطع والغرامة معا، فان قطع سقطت الغرامة وان غرم سقط القطع. وقد دللنا على صحة ماقلناه - في مسائل الخلاف - ومتى سرق بعد قطع اليد دفعة ثانية قطعت رجله اليسرى حتى يكون من خلاف.

فان سرق الثالثة حبس عندنا. وبه قال الحسن. وقال أبوعلي تقطع اليد الاخرى، فان سرق في الحبس قتل عندنا. ولا يعتبر ذلك أحد من الفقهاء وظاهر الآية يقتضي وجوب قطع العبد والامة إذا سرقا لتناول اسم السارق والسارقة لهما وقوله: " جزاء بما كسبا " معناه استحقاقا على فعلهما " نکالا من الله " أي عقوبة على ما فعلاه. قال زهير:

ولولا أن ينال أبا طريف * عذاب من خزيمة أو نکال

أي عقوبة. ونصبه يحتمل أمرين:

أحدهما - مفعول له وتقديره لجزاء فعلهما الثاني - نصب على المصدر الذي دل عليه فاقطعوا لان معنى فاقطعوا:

جازوهم ونكلوا بهم. وقال الازهري معناه لينكل غيره نکالا عن مثل فعله يقال نكل ينكل إذا جبن، فهو ناكل " والله عزيز حكيم " أي مقتدر لا يغالب " حكيم " فيما يأمر به من قطع السارق والسارقة، وفي غيره من الافعال.

(٥١٩)

قوله تعالى:

فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم (٤٢) آية بلا خلاف أخبر الله تعالى أن من تاب وأقلع وندم على ماكان منه من فعل الظلم بالسرقة وغيرهما وفعل الفعل الجميل الصالح " فان الله يتوب عليه " ومعناه يقبل توبته باسقاط العقاب بها عن المعصية التي تاب منها. ووصف الله تعالى بانه يتوب على التائب فيه فائدة عظيمة، لان في ذلك ترغيبا للعاصي في فعل التوبة، ولذلك قال تعالى واصفا نفسه بأنه تواب رحيم. ووصف العبد بأنه تواب معناه أواب وهي صفة مدح من أجل المدح على التوبة التي يسقط العقاب عندها. ولا خلاف في سقوطه عندها وهي الندم على ما مضى من القبيح أو الاخلال بالواجب والعزم على ترك الرجوع إلى مثله في القبح.

وفي الناس من قال يكفي الندم مع العزم على ترك المعادة. والذي ذكرناه أولى، لان سقوط العذاب عنده مجمع عليه. وان اختلفوا هل هو واجب أو تفضل؟ وما قالوه فيه خلاف. ويمكن

التوبة من الحسن إلا أن حسنه لا يدعو إلى التوبة منه كما يدعو قبح القبيح إلى التوبة منه لكن قد يتوب الانسان منه لقبحه فيما يتوهمه أو لمضرة تلحقه به. ولا يجوز التوبة من الحسن كيف تصرف الحال لانه تحريم لما ليس بحرام، وقبيح لما ليس بقبيح. ويمكن أن تكون التوبة من القبيح معصية الله كالذي يتوب من الالحاد ويدخل في النصرانية وقال مجاهد: ان الحد كفارة. وهذا غير صحيح، لان الله تعالى دل

(٥٢٠)

على معنى الامر بالتوبة. وإنما يتوب المذنب من ذنبه. والحد من فعل غيره. وأيضا فمتى كان مصرا كان اقامة الحد عليه عقوبة. والعقوبة لا تكفر الخطيئة. كما لا يستحق بها الثواب. وقوله " إن الله غفور رحيم " يدل على ما نذهب اليه من أن قبول التوبة واسقاط العقاب عندنا تفضل من الله، فلذلك صح وصفه بأنه غفور رحيم. ولو كان الغفران واجبا عند التوبة لم يلق به غفور رحيم قوله تعالى:

ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير (٤٣)

قيل فيمن يتوجه هذا الخطاب اليه قولان:

أحدهما - انه متوجه إلى النبي (صلى الله عليه وآله) والمراد به امته كما قال " يا ايها النبي إذا طلقتم النساء " والثاني - أنه متوجه إلى كل مكلف من الناس وتقديره: ألم تعلم يا انسان. واتصال هذا الخطاب بما قبله اتصال الحجاج والبيان عن صحة ما تقدم من الوعد والوعيد. وما ذكره من الاحكام والمعنى ألم تعلم يا انسان " ان الله له ملك السموات والارض " يعني له التصرف فيهما من غير دافع ولا منازع " يعذب من يشاء " إذا كان مستحقا العقاب " ويغفر لمن يشاء " إذا عصاه ولم يتب، لانه إذا تاب، فقد وعد بأنه لا يؤاخذ به بعد التوبة. وعند المخالفة يقبح مؤاخذته بعدها.

فعلى الوجهين معا لا يعلق ذلك بالمشيئة. وفي ذلك دلالة على أنه قادر على

(٥٢١)

أن يعاقب على وجه الجزاء، لانه لو لم يكن قادرا عليه لما كان فيه وجه مدح والله على كل شيء قدير " معناه ههنا أن من ملك السموات والارض وقدر على هذه الاجسام والاعراض التي يتصرف فيها ويديرها، فهو لا يعجزه شيء لقدرته على كل جنس من أجناس المعاني. وقوله " على كل شيء قدير " عام في كل ما يصح أن يكون مقدر له تعالى. ولا يحتاج إلى أن يقيد بذكر ما تصح القدرة عليه لامرين:

أحدهما - ظهور الدلالة عليه، فجاز ألا يذكر في اللفظ والآخر - أن ذلك خارج فخرج المبالغة كما يقول القائل أتاني أهل الدنيا. ولعله لم يجئه الاخسة فاستكثرهم قوله تعالى: يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر. من الذين قالوا أمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أو تيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم (٤٤)

(٥٢٢)

هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) نهاه الله أنه يحزنه الذين يسارعون في الكفر أي يبادرون فيه. و (يحزنك) - بفتح الياء وضمها - لغتان. وقد قرئ بهما. وقد قدمنا ذكره مستوفى من المنافقين "الذين قالوا أمنا" يعني صدقنا "بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم" يعني لم تصدق قلوبهم "ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك" وقف ههنا. و "سماعون" فيه مبالغة من سامع مثل جابر وجبار. وقيل في رفع "سماعون" قولان:

أحدهما - قال سيبويه رفع على الابتداء والخبر "من الذين هادوا كما تقول من قومك عقلاء الثاني - قال الزجاج: على أنه خبر الابتداء. وتقديره: المنافقون هم، واليهود سماعون للكذب. وقيل في معنى ذلك قولان:

أحدهما - "سماعون" كلامك للكذب عليك سماعون كلامك "لقوم آخرين لم يأتوك" ليكذبوا عليك إذا رجعوا إليهم أي هم عيون عليك وقيل انهم كانوا رسل أهل خيبر لم يحضروا. فلهذا جالسوك، هذا قول الحسن والزجاج وأبو علي.

الثاني - قال أهل التفسير "سماعون للكذب" قابلون له كما يقال لاتسمع من فلان أي لا تقبل منه، ومنه سمع الله لمن حسده "سماعون لقوم آخرين" ارسلوا بهم في قضية زان محصن. فقالوا لهم: إن أفتاكم محمد (صلى الله عليه وآله) بالجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فلا تقبلوه، لانهم قد كانوا حرفوا حكم الجلد الذي في التوراة إلى جلد أربعين، وتسويد الوجه والاشهار على حمار.

هذا قول ابن عباس، وجابر، وسعيد بن المسيب والسدي، وابن زيد.

(٥٢٣)

وقال قتادة: إنما كان ذلك في قتل من قتلوا: إن أفتاكم بالديّة فاقبلوه وإن أفتاكم بالقود فاحذروه. وقال أبو جعفر (ع) نزلت الآية في أمر بني النضير وبني قريظة وقوله: " يحرفون الكلم " قيل في معنى (تحريفهم) قولان:

أحدهما - تحريف كلام النبي (صلى الله عليه وآله) بعد سماعه، للكذب " يقولون إن أو تيتم هذا " أي دين اليهود فاقبلوه " وإن لم تؤتوه فاحذروا " أن تقبلوا خلافه - في قول الحسن وابي علي الثاني - جعلهم بدل رجم المحصن جلد أربعين تغييرا لحكم الله - في قول المفسرين.

وقوله: " من بعد مواضعه لان المعنى من بعد استقراره في مواضعه، ومضي الايام عليه. وقال الزجاج من بعد أن فرض فروضه، وأحل حلاله، وحرّم حرامه. ولو قال مكان " بعد مواضعه " عن مواضعه لجاز، لان معناه متقارب، هذا كما يقول القائل: أتيتك عن فراغي من الشغل، وبعد فراغي منه، ولا يجوز كما قياسا على ذلك أن تقول بدل قولك: رميت عن القوس، رميت بعد القوس، ولا في قولك: جاء زيد بعد عمرو، أن تقول:

عن عمرو، لان المعنى يختلف. وذلك أن (عن) لما عدا الشئ الذي هو كالسبب له و (بعد) إنما هي لما تأخر عن كون الشئ، فما صح معنى السبب ومعنى التأخر جاز فيه الامران، وما لم يصح إلا أحد المعنيين لم يجز إلا احد الحرفين.

وقوله: " ومن يرد الله فتنته " في الفتنة ثلاثة أقوال:

أحدها - قال الزجاج معناه من يرد فضيخته باظهار ما ينطوي عليه.

الثاني - قال السدي من يرد الله هلاكه.

(٥٢٤)

الثالث - قال الحسن وأبو علي والبلخي من يرد الله عذابه من قوله " يوم هم على النار يفتنون " أي يعذبون. وقوله " نوقوا فتنكم " أي عذابكم. وقوله " ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات " يعني الذين عذبوا.

وأصل الفتنة التخليص من قولهم: فتنت الذهب في النار أي خلصته من الغش والفتنة الاختبار تسمى بذلك لما فيها من تخليص الحال لمن أراد الاضلال. وإنما أراد الحكم عليه بذلك بايراد الحجج. ففيه تمييز وتخليص لحالهم من حال غيرهم من المؤمنين. ومن فسره على العذاب فلانهم يحرقون كما يحرق خبث الذهب فهم خبث كلهم. ومن فسره على الفضيحة فلما فيها من الدلالة عليهم التي يتميزون بهامن غيرهم. وقوله " اولئك لم يرد الله أن يطهر قلوبهم " قيل فيه قولان:

أحدهما - قال أبو علي وغيره لم يرد الله أن يطهرها من الحرج والضيق الدال على دنس الكفر عقوبة لهم.

الثاني - قال البلخي وغيره: لم يرد أن يطهرها من الكفر بالحكم بأنها بريئة منه مندوحة بضده كما يطهر قلوب المؤمنين بذلك. ولا يجوز أن يكون المراد بذلك الذين لم يرد الله منهم الايمان، لانه لو لم يكن مريدا منهم الايمان، لم يكن مكلفا لهم، لان التكليف هو إرادة ما فيه المشقة والكلفة،

ولان الله أمرهم بالايمان - بلاخلاف - والامر لا يكون أمرا إلا بإرادة المأمور به على ما بين في غير موضع.

وقوله: " لهم في الدنيا خزي " يعني لهؤلاء الكفار والمنافقين الذين ذكرهم في الآية، فبين أن لهم خزيا عن عذاب الله في الدنيا وهو ما كان يفعله بهم من الذل والهوان، والبغض والزام الجزية على وجه الصغار " ولهم

(٥٢٥)

في الآخرة عذاب عظيم " مضافا إلى عذاب الدنيا وخزيها.

وقال أبو جعفر (ع) وجماعة من المفسرين ذكرنا أسماءهم: إن امرأة من خيبر - في شرف منهم - زنت وهي محصنة فكرهوا رجمها، فأرسلوا إلى يهود المدينة يسألون النبي (ع) طمعا أن يكون أتى برخصة، فسألوه، فقال:

هل ترضون بقضائي؟ قالوا: نعم، فانزل الله عليه الرجم، فأبوه. فقال جبرائيل: سلمهم عن ابن سوريا، ثم اجعله بينك وبينهم، فقال: تعرفون شابا أبيضاً أعورا أمردا يسكن فدكا يقال له ابن سوريا؟ قالوا: نعم هو أعلم يهودي على ظهر الأرض بما أنزل الله على موسى. قال: فارسلوا إليه فأسلوا فأتى، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله): أنت عبدالله بن سوريا. قال: نعم. قال:

أنت أعلم اليهود قال: كذلك يقولون. قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): فاني أنا شدة الله الذي لا إله إلا هو القوي إله بني اسرائيل الذي أخرجكم من أرض مصر، وقلق لكم البحر فأنجاكم وأغرق آل فرعون، وظلل عليكم الغمام وأنزل عليكم المن والسلوى، وأنزل عليكم كتابه فيه حلاله وحرامه، هل تجدون في كتابكم الذي جاء به موسى الرجم على من أحسن؟ قال عبدالله بن سوريا:

نعم، والذي ذكرتني لولا مخافتني من رب التوراة أن يهلكني إن كتمت ما اعترفت لك به، فانزل الله فيه " يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير " (١) فقام ابن سوريا فوضع يديه على ركبتي رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثم قال: هذا مقام العائذ بالله وبك أن تذكر لنا الكثير أمرت أن تعفو عنه، فأعرض النبي (صلى

الله عليه وآله) عن ذلك، ثم سأله ابن صوريا عن نومه وعن شبه الولد بأبيه وامه وما حظ الاب من

(١) سورة ٤ النساء آية ١٦. (*)

(٥٢٦)

أعضاء المولود؟ وما حظ الام؟ فقال: تنام عيناى ولاينام قلبي، والشبه يغلبه أي المائين علا، وللاب العظم والعصب والعروق، وللام اللحم والدم والشعر. فقال: أشهد أن أمرك أمر نبي، وأسلم، فشتسه اليهود. فقال المنافقون لليهود: إن أمركم محمد بالجلد فاقبلوه وإن أمركم بالرجم فلا تقبلوا. وهو قوله: " يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه " يعني الجلد " وان لم تؤتوه فاحذروا " وسلاه عن ذلك بقوله: " لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر " فلما أرادوا الانصراف تعلقت قريظة بالنضير، فقالوا ياأبا القاسم - وكانوا يكرهون أن يقولوا يامحمد لئلا يوافق ذلك ما في كتابهم من ذكره - هؤلاء اخواننا بنوا النضير اذا قتلوا منا قتيلا لايعطونا القود وأعطونا القود وأعطونا سبعين وسقا من تمر، وإن قلنا منهم قتيلا أخذوا القود ومعه سبعون وسقا من تمر، وإن أخذوا الدية أخذوا منا مئة وأربعين وسقا. وكذلك جراحاتنا على أنصاف جراحاتهم، فانزل الله تعالى " وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط " (١) فحكم بينهم بالسواء، فقالوا:

لانرضى بقضائك، فانزل الله " أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون " (٢).

ثم قال " وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيهاحكم الله " شاهدا لك بما يخالفونك. ثم فسرما فيها من حكم الله فقال " وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس " الآية " فان تولوا " يعني بني النضير، لما قالوا لا تقبل حكمك

" يصيبهم ببعض ذنوبهم " وهو أجلاؤهم من ديارهم.

(١) سورة ٥ المائدة آية ٥٣.

(٢) سورة ٥ المائدة آية ٤٦. (*)

(٥٢٧)

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية. وقال السيدي نزلت في ابي لبابة الانصاري لقوله لبني قريظة حين حاصرهم النبي (صلى الله عليه وآله): إنما هو الذبح فلا تنزلوا على حكم سعد.

وقال عكرمة وعامر الشعبي: نزلت في رجل من اليهود قتل رجلا من أهل دينه فقال القاتل لحلفائهم من المسلمين سلوا لي محمدا (صلى الله عليه وآله) فان بعث بالدية اختصمنا إليه وان كان يأمرنا بالقتل لم نأته. وقال أبو هريرة: نزلت في عبدالله بن سوريا، وذلك أنه ارتد بعد إسلامه على ما وصفناه عن أبي جعفر (ع) وقال ابن جريج ومجاهد: نزلت في المنافقين وهم السماعون لقوم آخرين والاصح من هذه الاقوال أنها نزلت في ابن سوريا على ما قدمناه عن أبي جعفر (ع) وهو اختيار الطبري لانه رواه أبو هريرة والبراء بن عازب وهما صحابييان. قوله تعالى:

سماعون للكذب أكالون للسحت فان جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين (٤٥) آية قرأ السحت - بضم السين والحاء - ابن كثير وأهل البصرة والكسائي وأبو جعفر (ع) الباقر باسكان الحاء. وقوله: " سماعون للكذب " وصف لهؤلاء اليهود الذين تقدم وصفهم. ورفع كما رفع سماعون الاول سواء، لانه صفة بعد صفة. وقد يجوز

(٥٢٨)

النصب في الموضوعين على القطع لكن لم يقرأه، وقد فسرنا معنى الكذب. وقوله: " أكالون للسحت " معناه أنه يكثر أكلهم للسحت، وهو الحرام. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (السحت الرشوة في الحكم) وفي السحت لغتان ضم الحاء وإسكانها. وقد قري بهما على ما بيناه، فالسحت اسم للشئ المسحوت وليس بمصدر، المصدر بفتح السين. وقال الحسن سمعوا كذبه وأكلوا رشوته. وقال ابن مسعود وقتادة وإبراهيم ومجاهد والضحاك والسدي: السحت الرشى وروي عن علي (ع) أنه قال: (السحت الرشوة في الحكم ومهر البغي وعسب الفحل، وكسب الحجام، وثمان الكلب، وثمان الخمر، وثمان الميتة، وحلوان الكاهن والاستعجال في المعصية). وروي عن ابي هريرة مثله. وقال مسروق سألت عبدالله عن الجور في الحكم قال: ذلك الكفر، وعن السحت فقال الرجل يقضي لغيره الحاجة فيهدي له الهدية. وأصل السحت الاستئصال اسحت الرجل إسحاتا وهو أن يستأصل كل شئ يقال: سحته وأسحته اذا استأصله. وأذهب. قال الفرزدق:

وعض زمان يابن مروان لم يدع * من المال إلا مسحتا أو مجلف (١)
ويقال للحالق: اسحت أي استأصل. ومنه قوله: " فيسحتكم بعذاب " (٢) أي يستأصلكم به وفلان مسحوت المعدة اذا كان أكلولا شرها.

(١) اللسان (جلف). عض زمان: ساء زمان. المسحت الشئ المهلك والمجلف - بضم الميم وتشديد اللام - الشئ الذي بقي منه بقية قليلة لا يعتنى بها. (٢) سورة طه آية ٦١.

(٥٢٩)

وقد اسحت ماله إذا أفسده وأذهب. ففي اشتقاق السحت أربعة أقوال: قال الزجاج لأنه يعقب عذاب الاستئصال والبوار. وقال أبو علي هو حرام لابركة فيه لاهله، لأنه يهلك هلاك الاستئصال، وقال الخليل هو القبيح الذي فيه العار نحو ثمن الكلب والخمر فعلى هذا يسحت مروة الانسان.

وقال بعضهم حرام يحمل عليه الشره، فهو كشره المسحوت المعدة. وقوله: " فان جاؤك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم " قال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وابن شهاب: خيره الله تعالى في الحكم بين اليهود في زناء المحصن، وفي رواية اخرى عن ابن عباس، وقتادة، وابن زيد أنه خيره في الحكم بينهم في قتل من اليهود. وكلا القولين قد رواه أصحابنا على ما قدمناه. وروي أن عليا (ع) دخل في بيت المال فأفرط فيه ثم قال لا أمسي وفيك درهم ثم أمر رجلا فقسمه بين الناس، فقيل له لو عوضته شيئا، فقال إن شاء لكنه سحت وفي اختيار الحكام، والائمة الحكم بين أهل الذمة إذا احتكموا اليهم قولان: أحدهما - قال ابراهيم الشعبي وقتادة وعطاء والزجاج، والطبري، وهو المروي عن علي (ع) والظاهر في رواياتنا أنه حكم ثابت والتخيير حاصل.

وقال الحسن وعكرمة، ومجاهد، والسدي، والحكم، وجعفر بن مبشر، واختاره الجبائي: أنه منسوخ بقوله " وان احكم بينهم بما أنزل الله " (١) فنسخ الاختيار وأوجب الحكم بينهم بالقسط، وهو العدل يقال أقسط إقساطا إذا عدل " إن الله يحب المقسطين " يعني العادلين، وقسط يقسط قسوطا اذا جار. ومنه قوله: " وأما القاسطون فكانوا لجهنم

(١) سورة المائدة آية ٥٢. (*)

(٥٣٠)

خطبا " (١) أي الجائرون وقوله: " وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا " أي لا يقدرون لك على ضرفي دين، ولانديا، فدع النظر ان شئت وإن حكمت فاحكم بما أنزل الله. قوله تعالى:

وكيف يحكمونك وعندهم التورية فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين

(٤٦)

آية بلاخلاف المعنى كيف يحكمك هؤلاء اليهود يا محمد بينهم، فيرضوا بك حكما، وعندهم التوراة فيها حكم الله التي أنزلها على موسى التي يقرون بها أنها كتابي وجه التعجب للنبى (صلى الله عليه وآله) وفيه تقرير لليهود الذين نزلت فيهم فكأنه قال الذي أنزلته على نبىي وإنه الحق وإن ما فيه حكم من حكمي لا يتناكرونه ويعلمونه، وهم مع ذلك يتولون: أي يتركون الحكم به جرأة علي كيف تقرون أيها اليهود بحكم نبىي محمد مع جدكم نبوته، وتكذيبكم إياه وأنتم تتركون حكمي الذي تقرون به أنه واجب وأنه حق من عند الله. وقوله: " فيها حكم الله " قال أبو علي فيه دليل على أنه لم ينسخ لانه لو نسخ لم يطلق عليه بعد النسخ أنه حكم الله كما لا يطلق أن حكم الله تحليل الخمر أو تحريم السبت. وقال الحسن " فيها حكم الله " بالرجم. وقال قتادة وعصيانا لي. " فيها حكم الله " بالقود.

(١) سورة الجن آية ١٥. (*)

(٥٣١)

فان قيل كيف يقولون " فيها حكم الله " وعندكم أنها محرفة مغيرة؟. قلنا: على ما قال الحسن وقاتادة لايتوجه، لانها وإن كانت مغيرة محرفة لايمتنع أن يكون فيها هذان الحكمان غير مبدلين، وهو رجم المحصن ووجوب القود. ويحتمل أن يكون المراد بذلك فيها حكم الله عندهم، لانهم لايقرون بأنها مغيرة بل يدعون أنهاهي التي أنزلت على موسى (ع) بعينها.

والحكم هو فصل الامر على وجه الحكمة فيما يفصل به، وقد يفصل بالبيان أنه الحق وقد يفصل بالزام الحق والاذخ به كما يفصل الحكام بين الخصوم بمايقطع الخصومة وتثبت القضية. وقوله: " ثم يتولون " فالتولي هو الانصراف عن الشئ والتولي عن الحق. الترك له. وهو خلاف التولي اليه، لان الاقبال عليه والتولي له فالله صرف النصره والمعونة اليه ومنه تولى الله للمؤمنين.

وقوله: " من بعد ذلك " قال عبدالله بن كثير: إشارة إلى حكم الله في التوراة. وقال قوم هو إشارة إلى تحكيمك، لانهم ليسوا منه على ثقة، وإنما طلبوا به الرخصة. وقوله: " وما اولئك بالمؤمنين " قيل في معناه قولان:

أحدهما - وما هم بالمؤمنين بحكمك أنه من عند الله مع جدكم نبوتك والعدول عما يعتقدونه حكما لله فيه لاعلى من يقرون بنبوته، فبين أن حالهم ينافي حال المؤمن به. والثاني - قال أبو علي أن من طلب غيرحكم الله من حيث لم يرض به فهو كافر بالله وهكذا هؤلاء اليهود.

قوله تعالى:

إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها

(٥٣٢)

النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فالتك هم الكافرون (٤٧) آية عند الجميع قرأ " اخشوني " بياء في الوصل أهل البصرة وأبوجعفر، واسماعيل، ويقف يعقوب بالياء.

أخبر الله تعالى أنه الذي أنزل التوراة فيها هدى أي بيان أن أمر النبي حق وأن ما سألك عنه في حكم الزانيين حق، والقود حق " ونور " يعني فيها جلاء ما أظلم عليهم وضياء ما التبس عليهم " يحكم بها النبيون الذين اسلموا " يعني يحكم بالتوراة النبيون الذين أذعنوا بحكم الله وأقروا به.

وقال الحسن وقتادة وعكرمة والزهري والسدي: إن النبي (صلى الله عليه وآله) داخل في ذلك، بل قال أكثرهم: هو المعني بذلك لما حكم في رجم المحصن، ولا يدل ذلك على أنه كان متعبدا بشرع موسى (ع) لأن الله تعالى هو الذي أوجب عليه بوحى أنزل عليه لالرجوع إلى التوراة فصار ذلك شرعاه وإن وافق ما في التوراة وإيمانه اليهود بذلك على صحة نبوته من حيث علم ما هو من غامض علم التوراة ومما قد التبس على كثير منهم وهو قد عرف ذلك من غير قراءة كتبهم، والرجوع إلى علمائهم، فلم يكن ذلك إلا باعلام الله له ذلك وذلك من دلائل صدقه (صلى الله عليه وآله).

(٥٣٣)

وقوله: " للذين هادوا " العامل في (الذين) أحد شيئين:

أحدهما (يحكم) في قول الزجاج وابي علي وجماعة من أهل التأويل.

والثاني - قال قوم العامل (أنزلنا) كأنه قال أنزلناها للذين هادوا.

والربانيون. قد فسرناه فيما مضى (١) وهو جمع رباني وهم العلماء البصراء بسياسة الناس وتدبير أمورهم، قال السدي: عنابه ابن سوريا.

وقال الباقون - وهو الاولى - إنه على الجمع، والاحبار جمع حبر، وهو العالم مشتق من التحبير وهو التحسين فالعالم يحسن الحسن ويقبح القبيح، وقال الفراء، أكثر ما سمعت فيه حبر

بالكسر. وقوله " بما استحفظوا " معناه بما استودعوا. والعامل في الباء أحد سببين:

أحدهما - " الاحبار " كأنه قال العلماء بما استحفظوا.

والثاني - (يحكم) بما استحفظوا.
وقوله: " وكانوا عليه شهداء " قيل في معناه قولان:
أحدهما - قال ابن عباس شهداء على حكم النبي (صلى الله عليه وآله) في التوراة.
الثاني - شهداء على ذلك الحكم أنه الحق من عند الله.
وقوله: " فلا تخشوا الناس واخشوني " قيل في معناه قولان:
أحدهما - لاتخشوهم يا علماء اليهود في كتمان ما أنزلت ذهب اليه السدي.
الثاني - لاتخشوهم في الحكم بغير ما أنزلت بل اخشوني فان النفع والضرر بيدي " ولاتشتروا
بآياتي ثمنا قليلا " معناه لاتأخذوا بترك الحكم الذي أنزلته على موسى (ع) أيها الاحبار
خسيسا. وهو الثمن القليل. وإنما

(١) في تفسير آية ٧٩ من سورة آل عمران المجلد الثاني ص ١١٠ - ١١١. (*)

(٥٣٤)

نهاهم عن أكل السحت على تحريفهم كتاب الله وتغييرهم حكمه، وهو قول ابن زيد والسدي.
وقوله: " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون " معناه من كتم حكم الله الذي أنزله
في كتابه وجعله حكما بين عباده، فأخفاه وحكم بغيره: من رجم المحصن والقود " فأولئك هم
الكافرون ".
واختلفوا هل الآية على عمومها أم لا؟ فقال ابن مسعود والحسن وابراهيم هي على عمومها.
وقال ابن عباس: هي في الجاحد لحكم الله.
وقيل في اليهود خاصة في قول الجبائي، لانه قال لاحجة للخوارج فيهما من حيث هي خاصة
في اليهود. وقال البلخي يجوز أن تكون (من) بمعنى (الذي) وتكون للعهد، وهو من تقدم ذكره
من اليهود. ويحتمل أن يكون خرج مخرج الشتم لاعلى وجه المجازاة كما يقول القائل: من
فعل كذا فهو الذي لاحسب له ولأصل، ولايريد أنه استحق الذناء بالفعل الذي ذكروا أنه إنما
كان غير حسيب من أجل فعله وإنما يريدون الشتم وإن كان قد يفعل ذلك لعارض الحسيب
العظيم الهمة. واختار الرماني قول ابن مسعود غير أنه قال الحكم هو فصل الامر على وجه
الحكمة عند الحاكم بخلاف ما أنزل الله، لانه بمنزلة من قال الحكمة خلاف ما أنزل الله.
والاولى أن تقول هي عامة فيمن حكم بغير ما أنزل الله مستحلا لذلك، فانه يكون كافرا بذلك
- بلاخلاف - ومتى لم يكن كذلك فالآية خاصة على ما قاله ابن عباس في الجاحدين أو ما
قاله أبو علي في اليهود.

وروى البراء بن عازب عن النبي (صلى الله عليه وآله) أن هذه الآيات الثلاث: " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون. ومن لم يحكم بما أنزل الله

(٥٣٥)

فأولئك هم الظالمون. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون " في الكفار خاصة، وبه قال ابن مسعود وأبو صالح. وقال ليس في أهل الاسلام منها شئ وبه قال الضحاك وأبومجلز وعكرمة وقتادة. وقال الشعبي: نزلت

" الكافرون " في المسلمين " والظالمون " في اليهود " والفاسقون " في النصارى وقال عطا وطاووس أراد به كفرا دون كفر، وظلما دون ظلم، وفسقا دون فسق. ورووه عن ابن. وقال ابراهيم هي عامة في بني اسرائيل وغيرهم من المسلمين، وبه قال الحسن: وقد بينا الاقوى من هذه الاقاول.

قوله تعالى:

وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون (٤٨) آية بلاخلاف قرأ الكسائي " والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن " بالرفع فيهن. وروي ذلك عن النبي (صلى الله عليه وآله) وأنه كان يقرأ به. وقرأ نافع " الاذن " بسكون الذال حيث وقع. وقرأ نافع وعاصم وحمزة وخلف ويعقوب " والجروح قصاص " بالنصب.

قوله " وكتبنا " أي فرضنا عليهم يعني اليهود الذين تقدم ذكرهم " فيها " يعني في التوراة " أن النفس بالنفس " ومعناه إذا قتلت نفسا أخرى متعمدا أنه يستحق عليها القود إذا كان القاتل عاقلا مميزا، وكان

(٥٣٦)

المقتول مكافيا للقاتل، أما بأن يكونا مسلمين حرين أو كافرين أو مملوكين، فأما أن يكون القاتل حرا مسلما والمقتول كافرا أو مملوكا فان عندنا لا يقتل. وفيه خلاف بين الفقهاء. وإن كان القاتل مملوكا أو كافرا أو المقتول مثله أو فوجه فانه يقتل به - بلاخلاف -.

وقوله: " والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص " من نصب جميع ذلك عطفه على المنصوب بواو الاشتراك ثم استأنف، فقال والجروح قصاص.

ومن نصب الجروح عطفها على ما قبلها من المنصوبات. ومن لم ينصب غير النفس فعلى أن ذلك هو المكتوب عليهم.

ثم ابتداء ما بعده بيانا مبتدأ. ويحتمل أن يكون الواو عاطفة جملة على جملة ولا يكون الاشتراك فيمن نصب. ويحتمل أن يكون حمل على المعنى، لان التقدير قلنا لهم " ان النفس بالنفس " فحمل " العين بالعين " على المعنى دون اللفظ. ويحتمل أن يكون عطف على الذكر المرفوع في الظرف الذي هو الخبر، وإن لم يؤكد المعطوف عليه بضمير منفصل، كما قال " لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا " (١) فلم يؤكد كما أكد في قوله: " يراكم هو وقبيله " (٢) ذكر الوجوه الثلاثة الزجاج، وأبو علي الفارسي ومن نصب الجميع جعل الكل فيما كتب عليهم. هذا وإن كان إخبار من الله أنه ما كتب عليهم في التوراة فانه لاخلاف أن ذلك ثابت في هذا الشرع ويراعى في قصاص الاعضاء ما يراعى في قصاص النفس من التكافؤ. ومتى لم يكونا متكافئين، فلاقصاص على الترتيب

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٤٨. (٢) سورة ٧ الاعراف آية ٢٦. (*)

(٥٣٧)

الذي رتبناه في النفس سواء. وفيه أيضا خلاف، ويراعى في الاعضاء التساوي أيضا، فلانقلع العين اليمنى باليسرى، ولانقطع اليمين باليسار. وتقطع الناقصة بالكامل. فمن قطع يمين غيره وكانت يمين القاطع شللا. قال أبو علي: يقال له إن شئت قطعت يمينه الشلاء أو تأخذ دية يدك. وقد ورد في أخبارنا أن يساره تقطع إذالم يكن للقاطع يمين، فأما عين الاعور، فانها تعلق بالعين التي قلعتها سواء كانت المقلوعة عوراء أو لم تكن. وان قلعت العين العوراء كان فيهاكمال الدية إذا كانت خلقة أو ذهب بآفة من الله أو يقلع احدى عيني القالع ويلزمه مع ذلك نصف الدية. وفي ذلك خلاف ذكرناه في الخلاف.

وأما الجروح، فانه يقتص منها إذا كان الجراح مكافيا للمجروح على ما بيناه في النفس، وتقتص بمثل جراحته الموضحة بالموضحة والهاشمة بالهاشمة والمنقلة بالمنقلة (١) ولاقصاص في المأمومة وهي التي ام الرأس والالجايفة، وهي التي تبلغ الجوف، لان في القصاص منها تعزيرا بالنفس. ولاينبغي أن يقتص من الجراح إلابعد أن تتدمل من المجروح، فاذا اندمل اقتص حينئذ

(١) الموضحة هي الجراح التي بلغة العظم فأوضحت عنه.

(الهاشمة) قيل: شجة تهشم العظم. وقيل: هي التي هشمت العظم ولم يتباين فراشه. وقيل هي التي هشمت العظم فنقش واخرج، فتباين فراشه. و (المنقلة) - بكسر القاف وتشديده - هي التي تنقل العظم أي تكسره حتى يخرج منها

فراش العظم وهي قشور تكون على العظم دون اللحم. وفيها أقوال أخر وروايات في الشرع من شاء فليراجع كتب الفقه الاستدلالية.

(٥٣٨)

من الجارح. وإن سرت إلى النفس كان فيها القود. وكسر العظم لاقصاص فيه، وإنما فيه الدية. وكل جارحة كانت ناقصة فاذا قطعت كان فيها حكومة. ولا يقتص لها الجارحة الكاملة كيد شلاء وعين لا تبصرون سوداء متأكلة (١)، فإن جميع ذلك حكومة لا تبلغ دية تلك الجارحة. وقد روي أن في هذه الأشياء مقدرًا وهو ثلث دية العضو الصحيح. وتفصيل أحكام الجنايات والديات استوفيناها في النهاية والمبسوط في الفقه لانطول بذكره ههنا.

وقوله: " فمن تصدقه فهو كفارة له " الهاء في " كفارة له " يحتمل عودها إلى أحد أمرين: أحدهما - وهو الأقوى - ما قاله عبدالله بن عمر والحسن وقتادة وابن زيد وإبراهيم - على خلاف عنه - والشعبي بخلاف عنه: إنها عائدة على المتصدق من المجروح أو ولي المقتول، لأنه إذا تصدق بذلك على الجارح لوجه الله كفر الله عنه بذلك عقوبة ما مضى من معاصيه. الثاني - على المتصدق عليه لأنه يقوم مقام أخذ الحق عنه ذهب إليه ابن عباس ومجاهد، وإنما رجحنا الأول، لأن العائد يجب أن يرجع إلى المذكور، وهو من تصدق، والمتصدق عليه لم يجر له ذكر، ومعنى " من تصدق " به عفا عن الحق واسقط. فان قيل: هل يكفر الذنب إلا التوبة أو اجتناب الكبيرة؟ قلنا: على مذهبنا يجوز أن يكفر الذنب شئ من أفعال الخير، ويجوز أن يتفضل الله باسقاط عقابها. وقال قوم: يجوز أن يكفر بالطاعة الصغيرة

(١) (المتأكلة) هي السن المحتكة اما من الكبر أو من عاهة فيها وهي أيضا السن التي قد ذهب منها شئ وبقي منها بقية. (*)

(٥٣٩)

حتى يسقط بها. وقوله " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون " قد بينا أن في الناس من قال ذلك يختص باليهود الذين لم يحكموا بما أنزل الله في التوراة من القود والرجم. ويمكن أن يحمل على عمومته في كل من لم يحكم بما أنزل الله وحكم بخلافه بأنه يكون ظالما لنفسه بارتكاب المعصية الموجبة للعقاب.

وهذا الوجه يوجب أن ما تقدم ذكره من الاحكام يجب العلم به في هذا الشرع وإن كان مكتوباً في التوراة.

قوله تعالى:

وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين (٤٩ آية عند الجميع قوله: (وقفينا) معناه أتبعنا يقال: قفاه يقفوه وقفوا ومنه قافية الشعر لأنها تتبع الوزن ومنه القفا، ويثنى قفوان، واستقفاه إذا قفأثره ليسلبه.

والقفي الضيف، لأنه يقفى بالبر واللفظ. وقوله " على آثارهم " فالآثار جمع أثر وهو العسل الذي يظهر للحس، وآثار القوم ما أبقوا من أعمالهم، ومنه المأثرة، وهي المكرمة التي يأتريها الخلف عن السلف، لأنها عمل يظهر نفا المنفس، والاثير الكريم على القوم لأنهم يؤثرونه بالبر، ومنه الايثار بالاختيار، لأنه اظهار أحد العاملين على الآخر واستأثر فلان بالشئ إذا

(٥٤٠)

اختاره لنفسه. والهاء والميم في قوله: " آثارهم " قيل فيمن يرجع اليه قولان: أحدهما - اختاره البلخي والرماني: انهما يرجعان إلى النبيين الذين أسلموا، وقد تقدم ذكرهم. وقال أبو علي يعودان على الذين فرض عليهم الحكم الذي مضى ذكره، لأنه أقرب. والاول أحسن في المعنى. وهذا أجود في العربية.

وقوله: " بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة " نصب مصدقا على الحال. والمعنى أنه يصدق على ماضى من التوراة الذي أنزلها الله على موسى ويؤمن بها. وإنما قال لما مضى قبله بين يديه لأنه إذا كان ما يأتي بعده خلفه، فالذي مضى قبله قدامه وبين يديه.

وقوله (وآتيناه الانجيل) يعني عيسى أنزلنا عليه الانجيل " فيه " يعني في الانجيل " هدى " يعني بيان، وحجة " ونور " سماه نورا لما فيه من الاهتداء به كما يهتدى بالنور و " هدى " رفع بالابتداء " وفيه " خبره قدم عليه. و " نور " عطف عليه و " مصدقا لما بين يديه من التوراة " نصب على الحال وليس ذلك بتكرير لان الاول حال لعيسى (ع) وأنه يدعوا إلى التصديق بالتوراة. والثاني - أن في الانجيل ذكر التصديق بالتوراة وهما مختلفان و " هدى " في موضع نصب بالعطف على " مصدقا " .

و (موعظة) عطف على " هدى للمتقين ". وإنما اضافه إلى المتقين، لأنهم المنتفعون بها. وقد مضى مثل ذلك فيما مضى. والمتقون هم الذين يتقون معاصي الله وترك واجباته خوفا من عقابه والوعظ والموعظة هو الزجر عما كرهه الله إلى ما يحبه الله والتنبية عليه.

قوله تعالى:

وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون (٥٠) آية قرأ حمزة (وليحكم) بكسر اللام، ونصب الميم. الباقون بجزم الميم وسكون اللام على الامر. حجة حمزة أنه جعل اللام متعلقة بقوله " وأتيناها الانجيل " لان إيتاءه الانجيل انزال ذلك عليه، فصار كقوله " إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس " (١) وحجة من جزم الميم انه جعله أمرا بدلالة قوله: " وأن احكم بينهم بما أنزل الله " فكما أمر النبي (صلى الله عليه وآله) بالحكم بما أنزل عليه كذلك أمر عيسى (ع) بالحكم بما أنزل الله في الانجيل. وفي معنى الامر قولان:

أحدهما - وقلنا: " ليحكم أهل الانجيل " فيكون على حكاية ما فرض عليهم وحذف القول لدلالة ما قبله في قوله وقفينا، وأتيناكما قال: " والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم " (٢) أي يقولون سلام عليكم.

الثاني - أنه استأنف الامر لاهل الانجيل على غير حكاية، لان أحكامه كانت حينئذ موافقة لاحكام القرآن. ولم تنسخ بعد - هذا قول ابي علي - والاول أقوى - وهو اختيار الرماني. وقوله: " بما أنزل الله فيه " يعني الانجيل، وهو يذكر ويؤنث،

(١) سورة ٤ النساء آية ١٠٤.

(٢) سورة ١٣ الرعد آية ٢٥. (*)

والانجيل إفعال من النجل وهو الاصل، والنجل النزمن الماء. والنجل الولد. والنجل القطع. ومنه سمي المنجل. وقرأ الحسن (أنجيل) بفتح الهمزة وهوشاذ وهو ضعيف. لانه ليس في كلام العرب شئ على وزن (أفعال) وإنما جزمت لام الامر ونصبت لام كي، لان لام الامر توجب معنى لا يكون للاسم فأوجبت إعرابا لا يكون للاسم ولام كي يقدر بعدها (أن) بمعنى الاسم. وقوله: " ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الفاسقون " قيل فيه قولان: أحدهما - قال أبو علي ان (من) بمعنى الذي وهو خبر عن قوم معرفين، وهم اليهود الذين تقدم ذكرهم.

والثاني - قال غيره ان ذلك خرج مخرج المجازاة والمعنى أن من لم يحكم بما أنزل الله من المكلفين فهو فاسق، لان اطلاق الصفة يدل على أنه ذهب إلى ان الحكمة في خلاف ما أمر الله به، فلهذا كان كافرا.

وقال ابن زيد: الفاسقون - ههنا - وفي أكثر القرآن بمعنى الكاذبين كقوله " إن جاءكم فاسق " (١) يعني كاذب.

قوله تعالى:

وأُنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم

(١) سورة ٤٩ الحجرات آية ٦. (*)

(٥٤٣)

في ما أتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (٥١) آية
بلاخلاف هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) بأنه تعالى أنزل إليه الكتاب يعني القرآن
" بالحق مصدقا " نصب على الحال يصدق ما بين يديه من الكتاب يعني التوراة والانجيل وما
فيهما من توحيد الله وعد له والدلالة على نبوته (ع)

والحكم بالرجم والقود على ما تقدم ذكره. وفيه دلالة على أن ما حكا الله أنه كتبه عليهم في
التوراة حكم بأنه يلزمنا العمل به، لانه جعل القرآن مصدقا لذلك ومهيئنا عليه.
وقيل في معنى (المهيمن) خمسة أقوال: أحدهما - قال ابن عباس والحسن وقتادة، ومجاهد:
معناه أمين عليه وشاهد. وقال قوم: مؤتمن.

وقال آخرون: شاهد. وقال آخرون حفيظ. وقال بعضهم: رقيب.

والاصل فيه (مؤيمن) فقبلت الهزة هاء، كما قيل في أرقت الماء: هرقت.

هذا قول ابي العباس والزجاج وقد صرف، فقيل (هيمن) الرجل إذا ارتقب، وحفظ وشهد،
يهيمن هيمنة فهو مهيم. وقال بعضهم مهيمنا - بفتح الميم الثانية - وهوشاذ. وفي معنى
المهيمن ههنا قولان:

قال ابن عباس، والحسن، وأكثر المفسرين: إنه صفة للكتاب.

الثاني - قال مجاهد هو صفة النبي (صلى الله عليه وآله) والاول أقوى، لاجل حرف العطف، لانه
قال: " فأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب " ثم قال: " ومهيئنا "
ولايجوز أن يعطف على حال لغير الاول. لاتقول ضربت هند زيدا قاعدا وقائمة، ولو قلت
قائمة بلاواو لكان جائزا. ويجوز

(٥٤٤)

أن يكون عطا على مصدقا ويكون مصدقا حالا للنبي (صلى الله عليه وآله) والاول أظهر.

وقوله " فاحكم بينهم بما أنزل الله " قال ابن عباس، والحسن، ومسروق: يدل على أن أهل الكتاب إذا ترفعوا إلى الحكام يجب أن يحكموا بينهم بحكم القرآن وشريعة الاسلام، لأنه أمر من الله تعالى بالحكم بينهم والامر يقتضي الايجاب. وقال أبو علي ذلك نسخ بالتخيير في الحكم بين أهل الكتاب والاعراض عنهم والترك. وقوله: " ولاتتبع أهواءهم " نهي له (صلى الله عليه وآله) عن اتباع أهوائهم في الحكم، لا يدل ذلك على أنه كان اتبع أهواءهم، لأنه مثل قوله " لئن اشركت ليحبطن عملك " (١) ولا يدل ذلك على أن الشرك كان وقع منه. وقوله " عما جاءك من الحق " أي لاتتبع أهواءهم عادلا عما جاءك من الحق.

وقوله " لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا " فالشرعة والشريعة واحد وهي الطريقة الظاهرة. والشريعة هي الطريق الذي يوصل منه إلى الماء الذي فيه الحياة فقبل الشريعة في الدين أي الطريق الذي يوصل منه إلى الحياة في النعيم، وهي الامور التي تعبد الله - عزوجل - بها من جهة السمع قال الشاعر:

انتسونني يوم الشريعة والقنا * بصفين في لباتكم قد تكسرا
يريد شريعة الفرات والاصل فيه الظهور اشرفت القنا اذا أظهرته.
وشرعت في الامر شروعا إذا دخلت فيه دخولا ظاهرا، والقوم في الامر شرع سواء أي متساوون. والمنهاج الطريق المستمر يقال: طريق نهج ومنهج أي بين قال الراجز:

(١) سورة الزمر آية ٦٥. (*)

(٥٤٥)

من يك ذاشك فهذا فلج * ماء رواء وطريق نهج (١)
وقال المبرد: الشرعة ابتداء الطريق، والمنهاج الطريق المستمر قال:
وهذه الالفاظ إذا تكررت فلزيادة فائدة منه. ومنه قول الحطيئة:
ألا حبذا هند وأرض هند * وهند أتى من دونها النأي والبعد (٢)
قال فالنأي لما قل بعده والبعد لما كثر بعده فالنأي للمفارقة، وقد جاء بمعنى واحد. قال الشاعر:

حييت من طلل تقادم عهده * أقوى واقفر بعد أم الهيثم
واقفر وأقوى معناهما خلا وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والضحاك " شرعة ومنهاجا " أي سنة وسبيلا والشرعة التي جعلت " لكل " قيل فيه قولان: احدهما - قال مجاهد شريعة القرآن لجميع الناس لو آمنوا به. الثاني - قال قتادة وغيره واختاره الجبائي أنه شريعة التوراة وشريعة الانجيل وشريعة القرآن.

وقوله " منكم " قيل في المعنى به قولان:

أحدهما أمة نبينا وأمم الانبياء قبله على تغليب المخاطب على الغائب.

الثاني - أنه أراد أمة نبينا وحده، وهو قول مجاهد. والاول أقوى لأنه تعالى بين أنه جعل لكل شرعة ومنهاجا غير شرعة صاحبه ويقوي ذلك قوله " ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة " ولو كان الامر على ما قال مجاهد لما كان لذلك معنى، لأنه تعالى قد جعلهم أمة واحدة بأن أمرهم بالدخول

(١) مجاز القرآن لابي عبيدة ١: ١٦٨ واللسان (روى). وقد رواه الطبري (من يك في شك).

(٢) اللسان " نأى " (*).

(٥٤٦)

فيها والانقياد لها. وقوله " ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة " قيل في معناه أقوال:
أحدها قال الحسن والجبائي انه اخبار عن القدرة كما قال " ولوشئنا لآتيننا كل نفس هداها "
(١).

الثاني قال البلخي معناه لو شاء الله لفعل ما يختارون عنده الكفر، لكنه لايفعله، لانه مناف
للحكمة ولايلزم على ذلك أن يكون في مقدوره ما يؤمنون عنده فلا يفعله، لان ذلك لو كان
مقدورا لوجب أن يفعله مالم يناف التكليف.

الثالث قال قوم: لو شاء الله لجمعهم على ملة واحدة في دعوة جميع الانبياء والاول اصح لان
دعوة الانبياء تابعة للمصالح، فلا يمكن جمع الناس على شريعة واحدة مع اختلاف المصالح.
الرابع قال الحسين بن علي المغربي: معناه لو شاء الله ألا يبعث اليهم نبيا، فيكونون متعبدين
بما في العقل ويكونون أمة واحدة. وأقوى الوجوه أولها.

وقوله " ولكن ليبلوكم فيما أتاكم " معناه ليختبركم بما كلفكم من العبادات وهو عالم بما يؤل اليه
أمركم، لانه عالم لنفسه وقد فسرنا معنى البلوى فيما مضى. " فاستبقوا الخيرات " قيل في
معناه قولان:

أحدهما - بادروا فوت الحظ بالتقدم في الخير.
الثاني - بادروا الفوت بالموت ذكره الجبائي.

(١) سورة ٣٢ حم السجدة آية ١٣.

(٥٤٧)

وقوله " إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون " أي إلى الله مرجعكم يعني إلى
الموضع الذي لايملك أحد فيه لكم ضرا ولانفعا غيره فجعل رجوعهم إلى هذا الحد بالموت
رجوعا اليه تعالى وبين أنه يعلمهم ما كانوا يختلفون فيه في الدنيا من أمر دينهم وأنه يحكم في
ذلك بينهم بالحق.

قوله تعالى:

وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك
فان تولوا فاعلم أنما يريد الله يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون (٥٢) آية
بلا خلاف موضع " أن احكم " نصب والعامل فيها وانزلنا والتقدير وأنزلنا إليك أن احكم بينهم
بما انزل الله. ويجوز أن يكون موضعها رفعا وتقديره ومن الواجب أن احكم بينهم بما أنزل
الله. ووصلت أن بالامر ولايجوز صلة الذي بالامر لان (الذي) اسم ناقص مفتقر إلى صلة في

البيان عنه فتجري مجرى صفة النكرة ولذلك لا بد لها من عائد يعود اليها وليس كذلك " ان " لانها حرف، وهي مع ما بعدها بمنزلة شئ واحد فلما كان في فعل الامر معنى المصدر جاز وصل الحرف به على معنى مصدره.

وانما كرر الامر بالحكم بينهم، لامرين:

أحدهما - أنهما حكمان أمر بهما جميعا لانهم احتكموا اليه في زناء المحصن ثم احتكموا اليه في قتل كان منهم ذكره أبو علي وهو المروي عن

(٥٤٨)

ابي جعفر (ع).

الثاني - ان الامر الاول مطلق والثاني دل على أنه منزل.

وقوله " ولاتتبع أهواءهم " نهى له (صلى الله عليه وآله) أن يتبع أهواءهم فيحكم بما يهوونه.

وقوله " واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك " في؟؟ قولان:

أحدهما - قال ابن عباس احذرهم ان يضلوك عن ذلك إلى ما يهونون من الاحكام اطماعا منهم في الاستجابة إلى الاسلام.

الثاني - قال ابن زيد احذرهم ان يضلوك بالكذب عن التوراة بما ليس فيها فاني قد بينت لك حكمها. وقال الشعبي الآية وان خرجت مخرج الكلام على اليهود فان المجوس داخلون فيها.

وقوله " فان تولوا " معناه فان أعرضوا عن حكمك بما أنزل الله " فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم " قيل في معناه أربعة أقوال:

أحدها - قال الجبائي انه وان ذكر لفظ الخصوص فان المراد به العموم كما قد يذكر العموم ويراد به الخصوص.

الثاني - انه على تغليب العقاب أي يكفي أن يؤخذوا ببغض ذنوبهم في اهلاكهم والتدمير عليهم.

الثالث ان يعجل بعض العقاب بما كان من التمرد في الاجرام لان ذلك من حكم الله في العباد.

الرابع - قال الحسين: ان المراد به اجلاء بني النضير بنقض العهد وقتل بني قريظة وقوله " وان كثير من الناس لفاسقون " معناه تسليية للنبي (صلى الله عليه وآله) عن اتباع هؤلاء القوم إلى

اجابته والاقرار بنبوته بأن قليلا من الناس الذين

(٥٤٩)

يؤمنون، وان الاكثرهم الفاسقون، فلا ينبغي ان يعظم ذلك عليك.

قوله تعالى:

أفحكم الجاهلية ييغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون (٥٣) آية بلا خلاف قرأ (تبغون) بالتاء ابن عامر وحده الباقر بالبياء. من قرأ بالتاء فعلى معنى قل لهم، ومن قرأ بالبياء، فلان ما قبله على لفظ الغيبة وهو قوله

" وان كثيرا من الناس لفاسقون " فحملوا عليه. والكناية في قوله " افحكم الجاهلية تبغون " قيل فيها قولان:

أحدهما - إنها كناية عن اليهود في قول مجاهد، وأبو علي قال أبو علي لانهم كانوا إذا وجب الحكم على ضعفائهم ألزمهم إياه. وإذا وجب على أقويائهم بالغنى والشرف في الدنيا لم يأخذوهم به، فقول لهم " أفحكم الجاهلية " يعني عبدة الاوثان " تبغون " وأنتم أهل كتاب.

الثاني - انها كناية عن كل من طلب غير حكم الله أي انما خرج منه إلى حكم الجاهلية. وكفى بذلك خزيا أن يحكم بما يوجبه الجهل دون ما يوجبه العلم.

ونصب " أفحكم الجاهلية ييغون " وهو مفعول به ومعنى تبغون تطلبون يقال بغى يبغى بغيا اذا طلبه والبغاة هم الذين يطلبون التآمر على الناس والترأس بغيرحق والبغى الفاجرة لانها تطلب الفاحشة، ومنه قوله " ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله " (١) أي من طلب عليه الاستعلاء

(١) سورة الحج آية ٦٠.

(٥٥٠)

بالظلم. وقوله " ومن أحسن من الله حكما " نصب على التمييز أي فصلا بين الحق والباطل من غير محاباة، ولامقاربة لانه لايجوز للحاكم أن يحابي في الحكم بأن يعمل على ما يهواه بدلا مما يوجبه العدل وقد يكون حكم أحسن من حكم بأن يكون أولى منه وأفضل منه وكذلك لو حكم بحق يوافق هواه كان ما يخالف هواه أحسن مما يوافق وقوله " لقوم يوقنون " معناه عند قوم يوقنون بالله وبحكمه فاقبعت اللام مقام (عند) هذا قول ابي علي، وهذا جائز إذا تقاربت المعاني ولم يقع اللبس لان حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض.

قوله تعالى:

ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لايهدي القوم الظالمين (٥٤) آية قوله " بعضهم أولياء بعض " إخبار منه تعالى ان الكفار يوالي بعضهم بعضا وقوله " ومن يتولهم منكم " يعني من استنصرهم واتخذهم أنصارا فانه منهم أي محكوم له بحكمهم في وجوب لعنه والبراءة منه ويحكم بأنه من أهل النار. وقوله " ان الله لايهدي القوم الظالمين " معناه لايهديهم إلى طريق الجنة لكفرهم، واستحقاقهم العذاب

الدائم بل يضلهم عنها إلى طريق النار، هذا قول ابي علي. وقال غيره: معناه لا يحكم لهم بحكم المؤمنين في المدح والثناء والنصرة على الاعداء.

(٥٥١)

قوله تعالى:

فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين (٥٥) آية بلاخلاف هذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) أعلمه الله أنه يرى الذين في قلوبهم مرض أي شك ونفاق " يقولون " في موضع الحال، وتقديره قائلين نخشى أن تصيبنا دائرة. الذين يخشون أن تصيبهم دائرة قيل فيه قولان:

أحدهما - قال مجاهد وقتادة والسدي وأبو علي الجبائي: إنهم قوم من المنافقين.

وقال عطية بن سعد وعبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت: إنه عبدالله ابن ابي بن سلول.

و " الدائرة " الدولة التي تحول إلى من كانت له عنن هي في يديه، قال الشاعر:

ترد عنك القدر المقدروا * ودائرة الدهر أن تدورا (١)

يعني دول الدهر الدائرة من قوم إلى قوم.

وقوله " فعسى الله أن يأتي بالفتح " عسى موضوعة في اللغة للشك وهي من الله تعالى تفيده الوجوب، لان الكريم اذا أطمع في خير يفعله، فهو بمنزلة

(١) مجاز القرآن ١: ١٦٩ وتفسير الطبري ١٠: ٤٠٤.

(٥٥٢)

الوعد به في تعلق النفس به وإرجائها له، ولذلك حق لا يضيع ومنزلة لا تخيب.

والفتح القضاء والفصل - وهو قول قتادة - ومنه قوله " افتح بيننا وبين قومنا بالحق " (١)

وقال أبو علي هو فتح بلاد المشركين على المسلمين وقال السدي: هو فتح مكة. ويقال للحاكم

الفتاح، لانه يفتح الحكم ويفصل به الامر. وقوله " أو أمر من عنده " قيل فيه ثلاثة أقوال:

قال السدي: هو تجديد أمر فيه إذلال المشركين وعز للمؤمنين، وقيل هو الجزية.

وقيل: هو اظهار نفاق المنافقين مع الامر بقتلهم في قول الحسن والزجاج.

وقال أبو علي: هو أمر دون الفتح الاعظم أو موت هذا المنافق، لانه إذا أتى الله المؤمنين ذلك

ندم المنافقون والكفار على تقويتهم بأنفسهم ذلك، وكذلك إذا ماتوا أو تحققوا ما يصيرون اليه

من العقاب ندموا على ما فعلوه في الدنيا من الكفر والنفاق.

قوله تعالى:

ويقول الذين آمنوا أهو لاء الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين (٥٦) آية قرأ ابن كثير، وعامر، ونافع " يقول " بلاواو . الباقون بالواو، وكلهم قرأ بضم اللام إلا أباعمرو، فإنه فتحها. من نصب اللام فالمعنى عسى

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٨٨.

(٥٥٣)

أن يقول، ومن رفعه فعلى الاستئناف.
فان قيل كيف يجوز النصب ولايجوز أن يقول الذين آمنوا؟ قيل: قال أبوعلي الفارسي يحتمل ذلك أمرين غير هذا:
أحدهما - أن يحمل على المعنى، لانه إذا قال عسى الله أن يأتي بالفتح وكأنه قال عسى أن يأتي الله بالفتح، " ويقول الذين آمنوا " كما قال " فاصدق وأكن " كأنه قال: أصدق وأكن، وقد جاء مثله نحو قوله " عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم (١) وقال " عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا " (٢).
ووجه آخر وهو: أن يبدل (أن يأتي) من اسم الله اسم كما أبدلت (أن) من الضمير الذي في قوله " وما أنسانية إلا الشيطان أن أذكره " (٣) فاذا أبدلته فكأنك قلت عسى أن يأتي الله بالفتح، ويقول الذين آمنوا. وأما من رفع فلانه عطف جملة على جملة، ولم يجعلها عاطفة على مفرد. ويقوى الرفع قراءة من قرأ بلاواو وأما إسقاط الواو وإثباتها فجميعا حسنان: أما الحذف فلان في الجملة المعطوفة ذكرا في المعطوف عليها وذلك أن من وصف بقوله " يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصينا دائرة " إلى قوله " نادمين " هم الذين قال فيهم " أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم انهم لمعكم حبطت أعمالهم " فلما صار في كل واحدة من الجملتين ذكر فيما تقدم من الاخرى حسن عطفها بالواو وبغير الواو، كما أن قوله " سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢١٦ . (٢) سورة ٤ النساء آية ٨٣.

(٣) سورة ١٨ الكهف آية ٦٤.

(٥٥٤)

خمسة سادسهم كلبهم " (١) لما كان في كل واحدة من الجملتين ذكرا تقدم اكتفى بذلك عن الواو. ويدل على حسن اثبات الواو قوله " ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم " .

قوله " ويقول الذين آمنوا " أي الذين صدقوا بالله ورسوله ظاهرا وباطنا تعاجبا من نفاق المنافقين " أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم " في معاونتكم على أعدائكم ونصرتكم " حبطت أعمالهم " أي ضاعت أعمالهم التي عملوها، لانهم اوقعوها على خلاف الوجه المأمور به، لان ما فعلوه فعلوه على وجه النفاق دون التقرب به إلى الله. وقوله " فأسبحوا خاسرين " ليس المراد به معنى الصباح، وإنما معناه صاروا خاسرين، ومثل ذلك قولهم: ظل فلان يفعل كذا، وبات يفعل كذا، وليس بمراد وقت بعينه، وإنما وصفهم بالخسران، لانهم فوتوا نفوسهم الثواب واستحقوا عوضا منه العقاب فأى خسران أعظم من ذلك.

قوله تعالى:

يأبئها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم (٥٧) آية قرأ نافع وأهل المدينة " يرتد " بدالين، وبه قرأ ابن عامر، وكذلك

(١) سورة الكهف آية ٢٢.

(٥٥٥)

هو في مصاحفهم. الباقون بدال واحدة مشددة، وكذلك هو في مصاحفهم. من أظهر ولم يدغم قال: لان الحرف المدغم لا يكون إلا ساكنا ولا يمكن الادغام في الحرف الذي يدغم حتى يسكن، لان اللسان يرتفع عن المدغم والمدغم فيه ارتفاعا واحدة، فاذا لم يسكن لم يرتفع اللسان ارتفاعا واحدة، واذا لم يرتفع كذلك لم يمكن الادغام، فاذا كان كذلك لم يسغ الادغام في الساكن لان المدغم إذا كان ساكنا والمدغم فيه كذلك التقى ساكنان، والتقاء الساكنين في الوصل في هذا النحو ليس من كلامهم فأظهر الحرف الاول في حركة وأسكن الثاني من المثليين، وهذه لغة أهل الحجاز، فلم يلتق الساكنان.

وحجة من أدغم أنه لما اسكن الحرف الاول من المثليين للادغام لم يمكنه أن يدغمه في الثاني والثاني ساكن فحرك المدغم فيه لالتقاء الساكنين وهذه لغة بني تميم. وفي القرآن نظيره قال

الله تعالى: " ومن يشاقق الرسول " (١)

وقال: " ومن يشاقق الله ورسوله " (٢).

واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على أربعة أقول:

فقال الحسن وقتادة والضحاك وابن جريج إنها نزلت في ابي بكر.

الثاني - قال السدي: نزلت في الانصار.

الثالث - قال مجاهد: نزلت في أهل اليمن، وروي ذلك عن النبي (صلى الله عليه وآله) واختاره الطبري لمكان الرواية. وروي أنهم قوم أبي موسى الأشعري. وكانت وفودهم قد أتت أيام عمر، وكان لهم في نصرة الاسلام أثر. وقال أبو جعفر وأبو عبد الله (ع) وروي ذلك عن عمار وحذيفة، وابن عباس: أنها نزلت في أهل البصرة ومن قاتل عليا (ع) فروي عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال:

(١) سورة ٤ النساء آية ١١٤. (٢) سورة ٨ الانفال آية ١٣.

(٥٥٦)

يوم البصرة " والله ما قوتل أهل هذه الآية حتى اليوم " وتلاهذه الآية. ومثل ذلك روى حذيفة، وعمار وغيرهما. والذي يقوي هذا التأويل أن الله تعالى وصف من عناده بالآية بأوصاف وجدنا أمير المؤمنين (ع) مستكملا لها بالاجماع، لانه قال: " ياأيها الذين آمنوا من يردت منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين " وقد شهد النبي (صلى الله عليه وآله) لامير المؤمنين (ع) بما يوافق لفظ الآية في قوله وقد ندبه لفتح خبير بعد فرار من فرعنها واحدا بعد واحد (لاعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كزار غير فرار لايرجع حتى يفتح الله على يديه) فدفعها إلى أمير المؤمنين، فكان من ظفره ما وافق خبر الرسول (صلى الله عليه وآله). ثم قال " أدلة على المؤمنين أعزة على الكافرين " فوصف من عناه بالتواضع للمؤمنين والرفق بهم، والعزة على الكافرين. والعزير على الكافرين هو الممتنع من أن ينالوه مع شدة نكايته فيهم ووطأته عليهم، وهذه أوصاف أمير المؤمنين (ع) التي لايدانى فيها ولايقارب. ثم قال " يجاهدون في سبيل الله ولايخافون لومة لائم " فوصف - جل اسمه من عنا بهذا الجهاد وبما يقتضي الغلية فيه، وقد علمنا أن أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) بين رجلين: رجلا لا عناء له في الحرب ولاجهاد. والآخر له جهاد وعناء، ونحن نعلم قصوركل مجاهد عن منزلة أمير المؤمنين (ع) في الجهاد، فانهم مع علو منزلتهم في الشجاعة وصدق البأس لايلحقون منزلته ولايقاربون رتبته لانه (عليه السلام) المعروف بتفريج الغم، وكشف الكرب عن وجه الرسول (صلى الله عليه وآله) وهو الذي لم يحم قط عن قرن، ولانكص عن هول، ولا ولى الدبر، وهذه حالة لم تسلم لاحد قبله ولابعده فكان (ع) بالاختصاص بالآية أولى لمطابقة أوصافه لمعناها.

(٥٥٧)

فامان قال أنها نزلت في أبي بكر فقولته بعيد من الصواب، لانه تعالى إذا كان وصف من أراده بالآية بالعزة على الكافرين وبالجهاد في سبيله مع اطراح خوف اللوم كيف يجوز أن يظن عاقل توجه الآية إلى من لم يكن له حظ في ذلك الموقف لان المعلوم أن أبا بكر لم يكن له نكاية في المشركين، ولاقتيل في الاسلام، ولا وقف في شئ من حروب النبي (صلى الله عليه وآله) موقف أهل البأس والفناء، بل كان الفرار شيمته، والهرب ديدنه، وقد انهزم عن النبي (صلى الله عليه وآله) في مقام بعد مقام، فانهزم يوم أحد ويوم حنين، وغير ذلك، فكيف يوصف بالجهاد في سبيل الله - على ما يوصف في الآية - من لاجهاد له جملة. وهل العدول بالآية عن أمير المؤمنين (ع) مع العلم الحاصل بموافقة أوصافه لها إلى غيره إلا عصبية ظاهرة. ولم يذكر هذا طعنا على أبي بكر (رضى الله عنه) ولا قدحا فيه، لان اعتقادنا فيه أجمل شئ، بل قلنا أليس في الآية دلالة على ما قال.

ومعنى "أذلة على المؤمنين" أي أهل لين ورقة "أعزة على الكافرين" أي أهل جفاة وغلظة. والذل بكسر الذال غير الذال بضمها، لان الاول اللين والانقياد والثاني الهوان والاستخفاف. وروي عن علي (ع) وابن عباس (رحمة الله عليه) أن معنى "أذلة" أهل رحمة ورقة. ومعنى "أعزة أهل غلظة وشدة. وقال الاعمش "أذلة" يعني ضعفاء.

ومحبة الله تعالى لخلقه إرادة ثوابهم وإكرامهم وإجلالهم. ومحبتهم له إرادتهم لشكره وطاعته وتعظيمه. والارتداد - عندنا - على ضربين: مرتد عن فطرة الاسلام، فانه يجب قتله ولايستتاب، ويقسم ماله. وبين ورثته وتعتد منه زوجته عدة الوفاة من يوم إرتداده. والآخر من أسلم عن كفر

(٥٥٨)

ثم ارتد فهذا يستتاب، فان تاب وإلا وجب عليه القتل، فان لحق بدار الحرب. اعتدت منه زوجته عدة الطلاق، فان رجع إلى الاسلام في زمان العدة كان أملاك بها، وإن لم يرجع وانقضت العدة فقد ملكت نفسها، ولاسبيل له عليها وإن رجع فيما بعد. وأما المرأة فانها تستتاب على كل حال، فان تابت وإلا حبست حتى تموت. وفي ذلك خلاف قد بيناه في مسائل الخلاف، فأما من يعتقد الجبر والتشبيه وأزلية صفات قديمة معه تعالى فهو كافر بلاخلاف بين أهل العدل. واختلفوا فمنهم من قال حكمه حكم المرتد يستتاب فان تاب وإلا قتل. ومنهم من قال يستتاب ولايقتل لانه لم يخرج عن الملة لاقراره بالشهادتين.

وقوله "يجاهدون في سبيل الله" صفة للقوم الذين وعد الله أن يأتي بهم إن ارتدوا. وقوله "ولا يخافون لومة لائم" أي لا يخشون لوم أحد وعذله ولا يصددهم ذلك عن العمل بما أمرهم الله به وذلك اشارة إلى هذا النعت الذي نعتهم به "ذلك فضل الله" أي ذلك فضل من الله وتيسر

منه ولطف منه، ومنة من جهته " والله واسع عليم " يعني جواد على من يجود به عليه لا يخاف نفاذ ما عنده " عليم " بموضع جوده وعطائه ولا يبذله الا لمن تقتضي الحكمة إعطاؤه. قوله تعالى:

إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ٥٨ آية
بلاخلاف اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية فيه، فروى أبو بكر الرازي في كتاب

(٥٥٩)

أحكام القرآن على ما حكاه المغربي عنه، والطبري، والرماني، ومجاهد، والسدي: إنها نزلت في علي (ع) حين تصدق بخاتمه وهوراعع، وهو قول ابي جعفر وابي عبدالله (ع) وجميع علماء أهل البيت. وقال الحسن والجبائي:

إنها نزلت في جميع المؤمنين. وقال قوم نزلت في عبادة بن الصامت في تبرئه من يهود بني قينقاع، وحلفهم إلى رسول الله والمؤمنين. وقال الكلبي نزلت في عبدالله بن سلام وأصحابه لما أسلموا فقتعت اليهود موالاتهم، فنزلت الآية.

واعلم إن هذه الآية من الأدلة الواضحة على إمامة أمير المؤمنين (ع) بعد النبي بلا فصل.

ووجه الدلالة فيها أنه قد ثبت أن الولي في الآية بمعنى الاولي واللاحق.

وثبت أيضا أن المعني بقوله " والذين آمنوا " أمير المؤمنين (ع) فاذا ثبت هذان الاصلان دل على إمامته، لان كل من قال: ان معنى الولي في الآية ما ذكرناه قال إنها خاصة فيه. ومن قال باختصاصها به (ع) قال المراد بها الامامة.

فان قيل دلوا أولا على ان الولي يستعمل في اللغة بمعنى الاولي واللاحق ثم على ان المراد به في الآية ذلك، ثم دلوا على توجهها إلى أمير المؤمنين (ع)

قلنا: الذي يدل على أن الولي يفيد الاولي قول أهل اللغة للسلطان المالك للامر: فلان ولي الامر قال الكميت:

ونعم ولي الامر بعد وليه * ومنتجع التقوى ونعم المؤدب

ويقولون: فلان ولي عهد المسلمين إذا استخلف للامر لانه أولى بمقام من قبله من غيره وقال النبي (صلى الله عليه وآله) (أيما امرأة نكحت بغير اذن وليها فنكاحها باطل) يريد من هو أولى بالعقد عليها. وقال تعالى: " فهب لي من لدنك

(٥٦٠)

وليا يرثي ويرث من آل يعقوب " (١) يعني من يكون أولى بحيازة ميراثي من بني العم. وقال المبرد: الولي والاولى واللاحق والمولى بمعنى واحد والامر فيما ذكرناه ظاهر، فاما الذي يدل على أن المراد به في الآية ما ذكرناه هو ان الله تعالى نفى ان يكون لنا ولي غير الله وغير رسوله، والذين آمنوا بلفظة

"إنما" ولو كان المراد به الموالة في الدين لما خص بها المذكورين، لان الموالة في الدين عامة في المؤمنين كلهم. قال الله تعالى " والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض " (٢) وإنما قلنا: أن لفظة (إنما) تفيد التخصيص، لان القائل، إذا قال إنما لك عندي درهم فهم منه نفى ما زاد عليه، وقام مقام قوله: ليس لك عندي إلا درهم. ولذلك يقولون إنما النحاة المدققون البصريون ويريدون نفى التدقيق عن غيرهم. ومثله قولهم: إنما السخاء سخاء حاتم يريدون نفى السخاء عن غيره، قال الاعشى:

ولست بالاكتر منهم حصى * وإنما العزة للكائر (٣)

أراد نفى العزة عن من ليس بكائر. واحتج الانصار بما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال (إنما الماء من الماء) في نفى الغسل من غير انزال.

وادعى المهاجرون نسخ الخبر، فلولا أن الفريقين فهموا التخصيص لما كان الامر كذلك ولقالوا (إنما) لاتفيد الاختصاص بوجوب الماء من الماء.

ويدل أيضا على أن الولاية في الآية مختصة أنه قال: " وليكم " فخاطب به جميع المؤمنين ودخل فيه النبي (صلى الله عليه وآله) وغيره ثم، قال ورسوله، فاخرج

(١) سورة مريم آية ٤ - ٥. (٢) سورة التوبة آية ٧٢.

(٣) اللسان (كثر) والاكتر هنا والكائر بمعنى العدد الكثير وليس هوللتفضيل. (*)

(٥٦١)

النبي (صلى الله عليه وآله) من جملتهم لكونهم مضافين إلى ولايته، فلما قال " والذين آمنوا " وجب أيضا أن يكون الذي خوطب بالآية غير الذي جعلت له الولاية. وإلا. أدى إلى أن يكون المضاف هو المضاف اليه وأدى إلى أن يكون كل واحد منهم ولي نفسه، وذلك محال. وإذا ثبت أن المراد بها في الآية ما ذكرناه، فالذي يدل على أن أمير المؤمنين (ع) هو المخصوص بها أشياء:

منها - أن كل من قال: ان معنى الولي في الآية معنى الاحق قال إنه هو المخصوص به. ومن خالف في اختصاص الآية يجعل الآية عامة في المؤمنين وذلك قد ابطلناه.

ومنها - ان الطائفتين المختلفتين الشيعة وأصحاب الحديث رووا أن الآية نزلت فيه (عليه السلام) خاصة.

ومنها - أن الله تعالى وصف الذين آمنوا بصفات ليست حاصلة إلا فيه، لانه قال: " والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راعون " فبين أن المعني بالآية هو الذي أتى الزكاة في حال الركوع. وأجمعت الامة على أنه لم يؤت الزكاة في حال الركوع غير أمير المؤمنين (ع)، وليس لاحد أن يقول: إن قوله " وهم راعون " ليس هو حال ل " يؤتون الزكاة " بل المراد به أن من صفتهم إيتاء الزكاة، لان ذلك خلاف لاهل العربية، لان القائل إذا قال لغيره لقيت فلانا، وهو راكب لم يفهم منه الا لقاءه له في حال الركوب، ولم يفهم منه أن من شأنه الركوب. واذا قال: رأيتته وهو جالس أو جاءني وهو ماش لم يفهم من ذلك كله إلا موافقة رؤيته في حال الجلوس أو مجيئه ماشيا. واذا ثبت ذلك وجب أن يكون حكم الآية مثل ذلك.

فان قيل: ما انكرتم أن يكون الركوع المذكور في الآية المراد به

(٥٦٢)

الخشوع كأنه قال يؤتون الزكاة خاضعين متواضعين كما قال الشاعر:

ولاتيهن الفقير علك أن * تركع يوما والدهر قد رفعه (١)

والمراد علك أن تخضع، قلنا الركوع هو التلطأ المخصوص، وإنما يقال للخشوع ركوعا تشبيها ومجازا، لان فيه ضربا من الانخفاض، يدل على ماقلناه نص أهل اللغة عليه، قال صاحب العين: كل شئ ينكب لوجهه فتمس ركبتيه الارض أو لا تمس بعد أن يطأ رأسه فهو راع قال لبيد:

أخبر أخبار القرون التي مضت * أدب كأني كلما قمت راع (٢)

وقال ابن دريد: اراع الذي يكبو على وجهه، ومنه الركوع في الصلاة قال الشاعر:

وأقلت حاجب فوق العوالي * على شقاء تركع في الطراب (٣)

أي تكبوا على وجهها. وإذا كانت الحقيقة ما قلناه، لم يجز حمل الآية على المجاز.

فان قيل قوله " الذين آمنوا " لفظ جمع كيف تحملون ذلك على الواحد؟ قيل: قد يعبر عن الواحد لفظ الجمع إذا كان معظما عالي الذكر قال تعالى " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " (٣) وقال: " رب ارجعون "

(١) قائله الاضبط بن قريع الاسدي. وهو في اللسان (ركع). وقد مرفي موارد كثيرة من هذا الكتاب.

(٢) اللسان (ركع) وقد مرفي ١ / ١٩٥.

(٣) اللسان (ركع) وقد مرفي ١ / ١٩٥.

(٥٦٣)

وقال " ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها " (١) ونظائر ذلك كثيرة. وقال:
" الذين قال لهم الناس قد جمعوا لكم " (٢) ولاخلاف في أن المراد به واحد، وهونعيم بن مسعود الاشجعي. وقال: " أفيضوا من حيث أفاض الناس " (٣) والمراد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال " الذين قالوا لآخوانهم وقعودا لو أطاعونا ما قتلوا " (٤) نزلت في عبدالله بن أبي ابن سلول.

فاذا ثبت استعمال ذلك كان قوله " الذين يقيمون الصلاة " محمولا على الواحد الذي قدمناه. فان قيل: لو كانت الآية تفيد الامامة لوجب أن يكون ذلك إماما في الحال ولجاز له أن يأمر وينهى ويقوم بما يقوم به الائمة.

قلنا: من أصحابنا من قال: إنه كان إماما في الحال ولكن لم يأمر لوجود النبي (صلى الله عليه وآله) وكان وجوده مانعا من تصرفه، فلما مضى النبي (صلى الله عليه وآله) قام بما كان له. ومنهم من قال - وهو الذي نعتمده - أن الآية دلت على فرض طاعته واستحقاقه للامامة. وهذا كان حاصله له. وأما التصرف فموقوف على ما بعد الوفاة كما يثبت استحقاق الامر لولي العهد في حياة الامام الذي قبله وإن لم يجز له التصرف في حياته. وكذلك يثبت استحقاق الوصية للوصي وان منع من التصرف وجود الموصي. وكذلك القول في الائمة وقد استوفينا الكلام على الآية في كتب الامامة بما لا يحتمل بسطه هاهنا.

فان قيل: أليس قد روي أنها نزلت في عبادة بن الصامت أو عبدالله بن سلام وأصحابه؟ فما أنكرتم أن يكون المراد بالذين آمنوا هم دون من

(١) سورة ألم السجدة آية ١٣. (٢) سورة آل عمران آية ١٧٢.

(٣) سورة البقرة آية ١٩٩. (٤) سورة آل عمران آية ١٦٨. (*)

(٥٦٤)

ذهبت اليه؟ قلنا: أول ما نقوله: إنا دللنا على أن هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين (ع) بنقل الطائفتين، ولما اعتبرناه من اعتبار الصفة المذكورة في الآية وأنها ليست حاصلة في غيره بطل ما يروى في خلاف ذلك، على أن الذي روي في الخبر من نزولها في عبادة بن الصامت لا ينافي ما قلناه، لان عبادة لما تبرأ من حلف اليهود أعطي ولاية من تضمنته الآية، فأما ما روي من خبر عبدالله بن سلام فبخلاف ما ذهبوا اليه لانه روي أن عبدالله بن سلام لما اسلم قطعت اليهود حلفه وتبرؤوا منه فاشتد ذلك عليه، وعلى أصحابه فأنزل الله تعالى الآية

تسليية لعبدالله ابن سلام وأصحابه وأنه قد عوضهم من مخالفة اليهود، ولالية الله وولاية رسوله وولاية الذين آمنوا. والذي يكشف عما قلناه أنه قد روي أنها لما نزلت خرج النبي (صلى الله عليه وآله) من البيت، فقال لبعض أصحابه (هل أعطى أحد سائلا شيئاً فقالوا: نعم يارسول الله قد أعطى علي بن أبي طالب السائل خاتمه، وهو راعع. فقال النبي (صلى الله عليه وآله) الله أكبر قد أنزل الله فيه قرآنا) ثم تلا الآية إلى آخرها. وفي ذلك بطلان ما قالوه. وقد استوفينا ما يتعلق بالشبهات المذكورة في الآية في كتاب الاستيفاء وحلناها بغاية ما يمكن، فمن أراده وقف عليه من هناك. فأما الولي بمعنى الناصر فلسنا ندفعه في اللغة لكن لايجوز أن يكون مرادا في الآية لما بيناه من نفي الاختصاص.

وإقامة الصلاة إتهامها بجميع فروضها من قولهم فلان قائم بعمله الذي وليه أي يوفي العمل جميع حقوقه، ومنه قوام الأمر. وفي الآية دلالة على أن العمل القليل لايفسد الصلاة.

(٥٦٥)

قوله تعالى:

ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون (٥٩) آية قيل في معنى قوله " ومن يتولى الله ورسوله " قولان:

أحدهما - قال أبوعلي من يتولى القيام بطاعة الله ورسوله ونصرة المؤمنين.

الثاني - من يكون وليا لله ورسوله والمؤمنين: بنصرة دين الله والاخلاص له. ولايدل ذلك على أن الولاية الاولى هي تولى النصره من حيث كان في هذه الآية كذلك، لانه لاتتافي بين أن تنفيذ الآية الاولى الطاعة وإن أفادت الثانية تولى النصره وليس يجب أن تحمل الثانية على الآية الاولى من غير ضرورة.

على أن في أصحابنا من قال: هذه الآية مطابقة للاولى وأنها تفيد وجوب طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة الذين آمنوا، وهم الذين ذكرهم الله في الآية فعلى هذا زالت الشبهة.

و " من " رفع بالابتداء. والجملة خبر عنه وفي " يتولى " ضمير يعود إلى (من) والعائد إلى " من " معنى الخبر، كأنه قال، فهو غالب وصار هذا الكلام في موضعه، وهذا العائد في موضع الجواب. ومعنى " من " في الجزاء معنى " إن " فلهذا جازمت الفعل المضارع، و " لو " لاتجزم لانها للماضي، وليست بمعنى " إن " وإنما يعرب الفعل المضارع دون الماضي.

والفرق بين " من " والذي " من ثلاثة أوجه أحدها - أن " من " لما يعقل

(٥٦٦)

و " الذي " مشتركة. و " من " في الجزاء لما يستقبل، وهي في معنى

" إن " وليس كذلك " الذي " وثالثها - أن " من " تجزم ولاحتجاج في الجزاء والاستفهام إلى صلة ولا يكون جوابها إلا بالفعل والفاء.

وقوله: " فان حزب الله هم الغالبون " قال الحسن حزب الله جند الله.

وقال غيره انصار الله قال الشاعر:

وكيف أضوى وبلال حزبي (١)

أي كيف استضام وبلال نصري. وأصله النائبة من قولهم: حزبه الامر يجزبه حزبا اذ أنابه، وكل قوم تشابهت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزاب. ومنه قوله " اولئك الاحزاب " (٢) " وكل حزب لما لديهم فرحون " (٣).

و " إن حزب الشيطان هم الخاسرون " وتحزب القوم اذا اجتمعوا كالاتحاد على النائبة. وأرض حزبة غليظة وحمار حزابية مجتمع الخلق غليظ.

(١) قائلة رؤية بن العجاج. ديوانه: ١٦، ومجاز القرآن ١: ١٦٩ من ارجوزة يمدح بها بلال بن ابي بردة وقد ذكر

نفسه ثم اعترض من يعترضه في الهجاء فقال:

ذاك وان عبي لي المعجبي * وططح الجدل لحاء القشب

القيت أقوال الرجال الكذب * وكيف اضوى وبلال حزبي

ورواية الديوان " ولست اضوى ". ططح الشئ: فرقه.

و (للحاء): المخاصمة و (القشب) - بفتح القاف وسكون الشين الكلام المفترى. (٢) سورة ص آية ١٣.

(٣) سورة المؤمنون آية ٥٤ وسورة الروم آية ٣٢.

(٥٦٧)

قوله تعالى:

ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين (٦٠) آية قرأ " والكفار " بالجر أبو عمرو، ونافع، والكسائي. والباقون بالنصب، فمن نصب عطف على " الذين اتخذوا دينكم " وحجتهم في ذلك قوله: " لا يتخذوا المؤمنون الكافرين أولياء ". ومن جر عطف على " من الذين اوتوا الكتاب " أي ومن الكفار أولياء وحجتهم في ذلك أن الحمل على أقرب العاملين أجود، لانها لغة القرآن وحسن الحمل على الجر، لان فرق الكفار ثلاث المشرك. والمنافق. والكتابي الذي لم يسلم وقد كان منهم الهزء فساغ لذلك أن يكون الكفار مجرورا وتفسيرا للموصول وموضحا له.

وقد اخبر الله تعالى أن المشركين كان منهم إستهزاء بقوله " إنا كفييناك المستهزئين " (١) وعن المنافقين في قوله: " واذا خلوا إلى شياطينهم قالوا انا معكم إنما نحن مستهزؤن " (٢) واخبر

عن الكتابي في هذه الآية. فقال

" لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار " وإن وقع على جميع الاصناف، فهو في من ليس من أهل الكتاب أليق، وعليه أغلب، فلذلك أفرد بالذكر. وقال الحسن: المعنى بالكفار مشركوا العرب، وإنما دخل غيرهم في الحكم بما صحب الكلام من الدليل

(١) سورة المجادلة آية ١٩. (٢) سورة البقرة آية ١٤. (*)

(٥٦٨)

وقال غيره: يدخل فيه جميع أصناف الكفار، وإنما وصفهم الله تعالى بما كانوا عليه من التلاعب بالدين لامرين:

أحدهما - لاغراء المؤمنين بعداوتهم والبراءة منهم.

الثاني - ذم لهم وتحذيرا من مثل حالهم لأنها حال السفهاء الذين لاخلق لهم. وقال ابن عباس: كان رفاعة بن زيد بن التابوت وسويدين الحارث قد أظهرها الاسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادونهما، فانزل الله هذه الآية ويجوز في " هزوا " أربعة أوجه: الاول " هزوا " بضم الزاي وتخفيف الهمزة، الثاني هزوا بالواو ومن غير همز على التخفيف لان الهمزة مفتوحة قبلها ضمة كجون، الثالث هزأ بسكون الزاي والهمز. الرابع هزى على وزن هدى بفتح الزاي واسقاط الهمزة. والهزاء السخرية وهو اظهار ما يلهي تعجبا مما يجري. قال الله تعالى: " ولقد استهزئ برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن " (١) وقال الشاعر:

ألا هزئت واعجبها المشيب * فلانكر لديك ولاعجب

ويقال هزئ به يهزأ هزوا وهزوا واستهزوا به استهزاء. و (اللعب)

الاحذ على غير طريق الحق، ومثله العبث وأصله من لعب الصبي يقال:

لعب يلعب لعبا اذا سال لعبه لانه يخرج إلى غير جهته وكذلك اللاعب يمر في غير جهة الصواب.

وقوله: " ان كنتم مؤمنين " قيل في معناه قولان:

أحدهما - ان كنتم مؤمنين بوعدده ووعدده.

الثاني - إن من كان مؤمنا غضب لايمانه على من طعن فيه. وكافاه

(١) سورة الانعام آية ١٠ وسورة الانبياء آية ٤١. (*)

(٥٦٩)

بما يستحقه من المقت له.

قوله تعالى:

وإذا ناديتم إلى الصلوة إتخذها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون (٦١) آية بلاخلاف النداء والدعاء بمد الصوت على طريقة يافلان وأصله ندى الصوت وهو بعد مذهبه وضجة جرمه. ومنه قولهم: أناديك ولأناجيك أي أعالنك النداء، ولأسر لك النجوى، وأصل الباب الندو، وهو الاجتماع يقال ندى القوم يندون ندوا إذا اجتمعوا في النادي، ومنه دار الندوة وندى الماء، لأنه يجتمع قليلا قليلا وندى الصوت لأنه عن جرم ندى.

أخبر الله تعالى عن صفة الكفار الذين نهى الله المؤمنين عن اتخاذهم أولياء بانهم إذا نادى المؤمنون إلى الصلاة ودعوا إليها اتخذوها هزوا ولعبا وفي معنى ذلك قولان: قال قوم: إنهم كانوا إذا أذن المؤمنون للصلاة تضحكوا فيما بينهم وتغامزوا على طريق السخف والجنون تجهيلا لاهلها، وتنفيرا للناس عنها، وعن الداعي إليها. الثاني - أنهم كانوا يرون المنادي إليها بمنزلة اللاعب الهازئ بفعلها جهلا منهم بمنزلها وقال أبو ذهيل الجمحي:

وابرزتها من بطن مكة بعدما * أصات المنادي بالصلاة فأعتما

وقوله تعالى: " بأنهم قوم لا يعقلون " قيل في معناه قولان:

أحدهما - انهم لا يعقلون مالهم في اجابتهم لو أجابوا إليها من الثواب،

(٥٧٠)

وما عليهم في استهزائهم بها من العقاب.

الثاني - انهم بمنزلة من لا عقل له يمنعه من القبائح ويردعه من الفواحش وقال السدي: كان رجل من النصارى بالمدينة فسمع المؤذن ينادي أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: حرق الكاذب فدخلت خادمة له ليلة بنار وهو نائم وأهله فسقطت شرارة فأحرق البيت واحترق هو وأهله.

قوله تعالى:

قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون (٦٢) آية واحدة أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يخاطب أهل الكتاب فيقول لهم " هل تنقمون منا " وقيل في معناه ثلاثة أقوال: أحدها هل تسخطون. الثاني هل تتكرون. والثالث هل تكرهون، والمعنى متقارب يقول ينقم نقما ونقم ينقم والاول اكثر قال عبدالله بن قيس الرقيات:

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا (١)

قال ابن عباس: أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله) نفر من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع ابن أبي رافع وغيره، فسألوه عن يؤمن به من الرسل، فقال

(١) ديوانه: ٧٠ ومجاز القرآن ١: ١٧٠ واللسان (نقم) من قصيدته التي قالها لعبد الملك بن مروان في خبر ذكره ابوالفرج الاصفهاني في الاغاني ٥٠: ٧٦ - ٨٠. (*)

(٥٧١)

أؤمن " بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل ويعقوب والاسباط وأما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون " (٢) فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا:

لأنؤمن به وبمن آمن به، فانزل الله هذه الآية.

وقوله " وإن اكثركم فاسقون " في موضع نصب، لانه مصدر في تقدير بان اكثركم، ولو أستأنفه كان صوابا لكن لم يقرأ به. وقيل في معناه ثلاثة أقوال:

قال الزجاج والفراء هل تكرهون منا إلا ايماننا وفسقكم، والمعنى ليس هذا مما ينقم.

الثاني - قال الحسن: لفسقكم نقتم ذلك علينا.

الثالث - قال أبو علي: نقموا فسق اكثرهم، لانهم لم يتابعوهم عليه.

فان قيل كيف قال: " وان اكثركم فاسقون " وهم جميعا فساق؟ قلنا عنه ثلاثة اجوبة:

أحدها أنهم خارجون عن أمر الله طلبا للرئاسة وحسدا على منزلة النبوة.

الثاني - فاسقون بركوب الاهواء. الثالث - على التلطف للاستدعاء.

ومعنى الآية هل تكرهون إلا ايماننا وفسقكم أي انما كرهتم ايماننا وانتم تعلمون أنا على حق،

لانكم فسقتم بأن اقمتم على دينكم لمحبتكم الرئاسة وتكسبكم بها الاموال.

فان قيل كيف يعلم عاقل أن دينا من الاديان حق فيؤثر الباطل على على الحق؟! !

(١) سورة البقرة آية ١٣٦. (*)

(٥٧٢)

قلنا: أكثر ما نشاهده كذلك، من ذلك أن الانسان يعلم ان القتل يورده النار، فيقتل إما إيثارا لشفاء غيظ أو لآخذ مال. وكما فعل ابليس مع علمه بأن الله يدخله النار بمعصيته فأثر هواء على القربة من الله وعمل لما يدخله النار. وهذا ظاهر في العادات.

قوله تعالى:

قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة
والخنزير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل (٦٣)
قراء حمزة " وعبد الطاغوت " بضم الباء وخفض التاء يريد خدم الطاغوت في قول الاعمش،
ويحيى بن رئاب. الباقر بفتح الباء والداد ونصب التاء قال أبو علي: حجة حمزة أنه حمل
على ما عمل فيه (جعل) كأنه قال وجعل منهم من عبد الطاغوت. ومعنى (جعل) خلق، كما
قال " وجعل منها زوجها " (١) وقال " وجعل الظلمات والنور " (٢) قال: وليس (عبد)
لفظ جمع لانه ليس في أبنية الجمع شئ على هذا البناء لكنه واحد في موضع جمع كما قال "
وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " (٣) وجاء على (فعل) لان هذا البناء يراد به الكثرة نحو يقط
وندى و (عبد) في الاصل صفة، وان

(١) سورة الاعراف آية ١٨٨ . (٢) سورة الانعام آية ١ .

(٣) سورة الرعد آية ٣٤ وسورة النحل آية ١٨ . (*)

(٥٧٣)

كان استعمل استعمال الاسماء، ولايزيل ذلك عنه كونه صفة كمالم يزل في الابرق والابطح
حيث كسر تكسير الاسماء لم يزل عنهما معنى الصفة بدلالة أنهم تركوا صرفهما كما تركوا
صرف (أحمر) ولم يجعلوه كأوكل وابدع.

وأما من فتح فانه عطفه على مثال الماضي الذي في الصلة، وهو قوله

" لعنه الله وغضب عليه " وأفرد الضمير في (عبد) وان كان المعنى فيه كثرة لان الكلام
محمول على لفظ (من) دون معناه، ولوحمل الكلام أو البعض على المعنى لكان صوابا قال
الفراء: وقرأ أبي وعبد الله " وعبد الطاغوت " على الجمع، والمعنى والذين عبد الطاغوت -
بضم العين والباء - مثل ثمار وثمر، وعبيد وعبد، على أنه جمع جمع، ويكون المعنى وجعل
منهم عبد الطاغوت كما تقول: جعلت زيدا أخاك أي نسبتك اليك ويجوز على هذا رفع الدال
على تقدير، وهم عبد الطاغوت لكن لم يقرأ به أحد. قال:

ولو قرأ قارئ وعبد الطاغوت كان صوابا يريد به عبدة الطاغوت ويحذف الهاء للاضافة كما
قال الشاعر:

قام ولاها فسقوه صر خدا (١) يريد ولاتها وحكي في الشواذ و (عبد الطاغوت) على مالم
يمسي فاعله، ذكره الرماني. قال الطبري هي قراءة أبي جعفر المدني. وحكى البلخي (عابد
الطاغوت، وعبد الطاغوت) مثل شاهد وشهد. وحكى ايضا (عباد الطاغوت) مثل كافر وكفار،
ولا يقرأ بشئ من ذلك. وقال الطبري

(١) معاني القرآن للفراء ١ : ٣١٤ . والطبري ١ : ٤٤١ (صرخد)
موضع في الشام تنسب له الخمرة الجيدة. (*)

(٥٧٤)

عن يريدة الاسلامي انه قرأ (عابد الطاغوت) فهذه ثمانية أوجه، لكن لا يقرأ إلا بقرائتين أو ثلاثة، لان القراءة متبوعة يؤخذ بالمجموع عليه، قال الفراء (عبد) على ما قرأ حمزة إن كانت لغة فهو مثل حذر وحذر، وعجل وعجل فهو وجه والافانه أراد قوله الشاعر:

أبني لبيني إن أمكم * أمة وإن أباكم عبد (١)

فحرك وهذا في ضرورة الشعر لافي القراءة وأنشد الاخفش:

أنسب العبد إلى آباءه * اسود الجلدة من قوم عبد (٢) أمر الله تعالى في هذه الآية نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يخاطب الكفار ويقول لهم

" هل انبئكم " أي هل اخبركم " بشر من ذلك " أي من الذي طعنتم عليه من المسلمين، ومما رغبتم عنه ونقمتم عليه، وانما قال " بشر من ذلك وان لم يكن من المؤمن شر وكذلك قوله " اولئك شر مكانا " على الانصاف في الخطاب والمظاهرة في الحجاج لان الكفار يعتقدون ان هؤلاء أشرار، وأن مافيهم شر فخرج على ما يعتقدونه.

وقوله: " مثوبة " معناها الثواب الذي هو الجزاء ووزنها مفعولة مثل مقولة ومجوزة ومضوفة على معنى المصدر وقال الشاعر:

وكننت اذا جاري دعا لمضوفة * أشمرحتي ينصف الساق مئزري (٣)

(١) قائله اوس بن حجر . ديوانه القصيدة: ٥ البيت ٤ ومعاني القرآن للفراء ١ : ١٤ ، ٣١٥ واللسان (عبد).

(٢) اللسان (عبد).

(٣) قائله ابوجندب الهذلي . اشعار الهذليين ٣ : ٩٢ ومجاز القرآن لابي عبيدة ١٧٠ واللسان (ضيف)، (نصف). المضيفة، والمضافة: الامر يشفق منه وقد روي البيت بهما جميعا.

(٥٧٥)

وقال ابو عبيدة هي (مفعلة) مثل مكرهة ومعقلة ومشغلة.

وموضع (من) يحتمل ثلاثة أوجه من الاعراب: أحدها - الجر والتقدير بشر من ذلك لمن لعنه الله والرفع على من لعنه الله، وانصب على أنبئكم من لعنه الله. وقيل في معنى (الطاغوت) قولان:

أحدهما قال الحسن: هو الشيطان، لانهم أطاعوه طاعة المعبود.

والثاني كل مادعا إلى عبادته من دون الله من الفراعنة، فشبهه به ماعبد من الاصنام ونحوها. قال ابو علي: وهو هاهنا العجل الذي عبدته اليهود، لان الكلام كله في صفتهم. وقوله (أولئك شر مكانا) يعني هؤلاء الذين وصفهم بأنهم لعنهم وغضب عليهم، وانهم عبدة الطاغوت شر مكانا يعني في عاجل الدنيا وأجل الآخرة. وهو نصب على التمييز وقوله " وأضل عن سواء السبيل " يعني أجوز عن الطريق المستقيم. وظن بعضهم ان قوله (وجعل منهم القردة جعلهم كذلك والخنازير وعبد الطاغوت) يفيد أنه جعلهم يعبدون الطاغوت - يتعالى الله عن ذلك - لانه لو كان جعلهم كذلك لما كان عليهم لوم، وانما المعنى ماقلناه: من أنه اخبر عن شر ممن عابوه، وهم الذين لعنهم وغضب عليهم، ومن جعل منهم القردة والخنازير، ومن عبد الطاغوت، لانه تعالى هو الخالق لهم، وان كان لم يخلق عبادتهم للطاغوت. وقال ابو علي: هو معطوف على قوله " من لعنه الله وغضب عليه " ومن " عبد الطاغوت " ومن جعل منهم القردة والخنازير وليس بمعطوف على قوله (وجعل منهم القردة والخنازير) فعلى هذا سقطت الشبهة.

(٥٧٦)

قوله تعالى:

وإذا جاؤكم قالوا أمانا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون (٦٤) آية
بلاخلاف أخبر الله تعالى عن هؤلاء المنافقين بانهم اذا جاؤا المؤمنين (قالوا أمانا)
أي صدقنا (وقددخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) قيل فيه قولان:
أحدهما - قال الحسن وابن عباس والسدي وقتادة وأبو علي: وقد دخلوا بالكفر بخلاف ما
أظهروه على النبي (صلى الله عليه وآله) وخرجوا به من عنده.
الثاني - وقد دخلوا به في احوالهم وقد خرجوا به إلى احوال آخر كقولك هو يتقلب في الكفر
ويتصرف به، ومعناه تقريب الماضي من الحال ولهذا دخلت (في) هذا الموضوع. وقال
الخليل: ويكون لقوم ينتظرون الخبر كقولك قد ركب الامير لمن كان ينتظره، وهو راجع إلى
ذلك الاصل لانه تقريب من الحال المنتظرة وأصل الدخول الانتقال إلى محيط كالوعاء إلا أنه
قد كثر حتى قيل دخل في هذا الامر، ولايدخل في المعنى مالميس منه. ودخل في الاسلام.
وخرج بالردة منه. وكان ذلك مجاز. وقوله:

(جاؤكم) لايجوز ان يكون عاملا في " اذا " كمايعمل في " متى " لو.

قيل: متى جاؤكم، قالوا أمانا، لان " اذا " مضافة إلى ما بعدها والمضاف اليه لايعمل في
المضاف لانه من تمامه. وليس كذلك " متى " لانها جزاء.

وقوله " والله اعلم بما كانوا يكتُمون " معناه ما يكتُمونه من نفاقهم اذ اظهروا بالسننهم ما ضمروا
خلافه في قلوبهم فبين الله للناس أمرهم.

(٥٧٧)

قوله تعالى:

وترى كثيرا منهم يسارعون في الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون (٦٥) آية
بلاخلاف وصف الله تعالى المنافقين الذين تقدم وصفهم لنبيه (صلى الله عليه وآله) بأنه " ترى
كثيرا منهم يسارعون " أي يبادرون في الاثم والعدوان.

قال السدي: الاثم الكفر، وقال غيره وهو يقع على كل معصية وهو الاولى. والفرق بين الاثم
والعدوان أن الاثم الجرم كائنا ما كان، والعدوان الظلم، فهم يسارعون في ظلم الناس وفي
الجرم الذي يعود عليهم بالوبال والخسران. وقيل - العدوان من عدوهم على الناس بما لا يحل.
وقيل - لمجاوزتهم حدود المجاوزتهم حدود الله وتعديتهم اياها. ويقال تأثم اذا تخرج من الاثم.
والآثم الفاعل للآثم. والسحت الرشوة في الحكم - في قول الحسن - وأصله استئصال القطع
فيكون من هذا لانه يقتضي عذاب الاستئصال ويتكرر لانه يقتضي استئصال المال بالذهاب.

وانما قال " يسارعون " بدل قوله (يعجلون) وان كانت العجلة أدل على الذم لامرين:
أحدهما - أنهم يبادرون اليه كالمبادرة إلى الحق، فأفاد " يسارعون " أنهم يعملونه كأنهم
محقون فيه.

والاخر - لازالة إيهام أن الذم من جهة العجلة، وايجابه في الاثم والعدوان.

وقوله " لبئس ما كانوا يعملون " يدل على أن الحمد والذم يكونان

(٥٧٨)

للافعال، لانه بمنزلة بئس العمل عملهم، وهذا ذم لذلك العمل إلا انه جرى على طريقة الحقيقة
أو طريقة المجاز بدليل آخر يعلم. وقد كثر استعماله حتى قيل الاخلاق المحمودة والاخلاق
المذمومة. ونعم ما صنعت وبئس ما صنعت وأصل الذم واللوم واحد إلا أن الذم كثر في نفس
العمل دون اللوم، لانه لا يقال: لمت عمله كما يقال نمت عمله. و (ما) في قوله " لبئس ما "
يحتمل أمرين: أحدهما - ان تكون كافة كما تكون في انما زيد منطلق وليتما عمرو قائم،
فلا يكون لها على هذا موضع. الثاني ان تكون نكرة موصوفة كأنه قيل: لبئس شيئا كانوا
يعملون.

قوله تعالى:

لولا ينهيه الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ماكانوا يصنعون (٦٦) آية.

معنى " لولا " هاهنا هلا. واصلها ان يمتنع الشئ لوجود غيره.

(لو) معناها امتناع الشئ لامتناع غيره. وقال الرماني أصلها التقدير لوجوب الشئ عن الاول فنقلت إلى التحضيض على فعل الثاني من أجل الاول. وان لم يذكر ولا بد معها من دلالة دخلها معنى: لم لايفعل.

فان قيل كيف تدخل (لولا) على الماضي وهي للتحضيض وفي التحضيض معنى الامر؟ ! قيل: لانها تدخل للتحضيض والتوبيخ، فاذاكانت مع الماضي فهي توبيخ كقوله تعالى " لولا جاؤا عليه باربعة شهداء " (١) وقوله " ولولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا " (٢).

(١، ٢) سورة ٢٤ النورآية ١٢ - ١٣ (*)

(٥٧٩)

و " الرباني " العالم بالدين الذي من قبل الرب، وهو منسوب إلى الرب على وجه تغيير الاسم، كما قالوا روحاني في النسبة إلى الروح، وبحراني في النسبة إلى البحر. وقال الحسن " الربانيون " علماء أهل الانجيل والاحبار علماء أهل التوراة. وقال غيره كله في اليهود، لانه يتصل بذكرهم.

وقوله: " لبئس ما " اللام فيه لام القسم ولايجوز أن تكون لام الابتداء، لانها لا تدخل على الفعل الا في باب " أن " خاصة لانها حلقت عن الاسم إلى الخبر لئلا يجمع بين حرفين في موضع واحدبمعنى واحد والصنع والعمل واحد. وقيل الفرق بينهما أن الصنع مضمن بالجودة من قولهم: ثوب صنيع، وفلان صنيعه فلان اذا استخلصه إلى غيره وصنع الله لفلان أي احسن اليه وكل ذلك كالفعل الجيد.

قوله تعالى:

وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما انزل إليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيمة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الارض فسادا والله لا يحب المفسدين ٦٧، آية.

(٥٨٠)

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن اليهود انها قالت: إن " يد الله مغلولة " وقيل في معني (مغلولة) قولان: أحدهما قال ابن عباس وقتادة، والضحاك:

إن المراد بذلك أنها مقبوضة من العطاء على وجه الصفة له بالبخل كما قال تعالى " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبتسطها كل البسط " (١) وانما قالوا ذلك لما نزل قوله " من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا " (٢) قالوا:

إن رب محمد فقير يستقرض منا في أنزل الله هذه الآية.

الثاني قال الحسن معناه انها مقبوضة عن عذابنا.

وقال البلخي يجوز ان يكون اليهود، قالوا قولاً واعتقدوا مذهباً معناه يؤدي إلى ان الله يبخل في حال ويجود في حال أخرى، فحكى الله تعالى ذلك على وجه التعجب منهم والتكذيب لهم. ويجوز أن يكون ذلك على وجه التعجب منهم والتكذيب له. ويجوز ان يكونوا قالوا ذلك على وجه الهزاء حيث لم يوسع على النبي (صلى الله عليه وآله) وعلى أصحابه. وليس ينبغي أن يتعجب من قوم يقولون لموسى: " اجعل لنا إلهاً كما لهم إلهة " ومن اتخذ العجل إلهاً، ومن زعم أن ربه أبيض الرأس واللحية جالس على كرسي، كيف يقولون إن الله يبخل مرة ويجود أخرى. وقال الحسين بن علي المغربي حدثني بعض اليهود الثقات منهم بمصر ان طائفة قديمة من اليهود قالت ذلك بهذا اللفظ.

وأما اليد فانها تستعمل على خمسة أوجه: أحدها - الجارحة. والثاني - النعمة. الثالث - القوة. الرابع - الملك. الخامس - تحقيق إضافة الفعل،

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٢٩.

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٤٥ وسورة ٥٧ الحديد آية ١١. (*)

(٥٨١)

قال الله تعالى " أولى الايدي والابصار (١) معناه القوى ويقال لفلان على فلان يد أي نعمة وله علي يد أشكرها أي نعمة. وقال الشاعر:

له في ذوي الحاجات أيد كأنها * مواقع ماء المزن في البلد القفر

ومثل ذلك يقولون له عليه صنع حسنة. وقوله " الذي بيده عقدة النكاح " (٢) معناه من يملك ذلك وقوله " لما خلقت بيدي " (٣) أي توليت خلقه. وقوله " غلت أيديهم " قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال الزجاج وغيره معناه الزموا البخل على مطابقة الكلام الاول فهم أبخل الناس.

الثاني - قال الحسن وأبو علي " غلت أيديهم " في جهنم.

وقوله " ولعنوا بما قالوا " أي أبعدوا من رحمة الله وثوابه. وقوله

" بل يدها مبسوطتان " تكذيب منه تعالى لما قالوا وإخبار أن يديه مبسوطتان أي نعمه مبسوطه. وقيل في وجه تنبيه اليد ثلاثة أقوال:

أحدها - أنه أراد نعمة الدنيا ونعمة الدين أو نعمة الدنيا ونعمة الآخرة.

الثاني - قال الحسن معناه قوتاه بالثواب والعقاب والغفران والعذاب بخلاف قول اليهود إن يده مقبوضة عن عذابنا.

الثالث - أن التنبيه للمبالغة في صفة النعمة مثل قولهم: لبيك وسعديك، وكما يقول القائل: بسط يديه يعطي يمنا ويسرة ولا يريدون الجارحة وإنما يريدون كثرة العطية وقال الاعشى:

(١) سورة ص آية ٤٥. (٢) سورة البقرة آية ٢٣٧.

(٣٩) سورة ص آية ٧٥.

(٥٨٢)

يداك يدامجد فكف مفيدة * وكف إذا ما ضن بالزاد تنفق (١)

وقوله تعالى " ينفق كيف يشاء " معناه يعطي من شاء من عباده ويمنع من شاء منهم، لأنه متفضل بذلك ويفعل حسب ما تقتضيه المصلحة.

وقوله " وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا " أي وسيزدادون عند ذلك طغيانا وكفرا لأن القرآن لا يفعل شيئا من ذلك، كما يقول القائل: وعظمتك فكانت موعظتي وبالآ عليك. وما زادتك إلا شرا أي أنك أرددت عندها شرا. وذلك مشهور في الاستعمال. والطغيان هنا هو الغلو في الكفر.

وقوله " والقينا بينهم العداوة والبغضاء " قيل فيه قولان:

أحدهما - إن المراد بذلك بين اليهود والنصارى على ما قلناه في قوله

" فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء " (٢) هذا قول الحسن ومجاهد. وقد جرى ذكرهم في قوله " لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء " (٣).

الثاني - إن الكناية راجعة على اليهود خاصة. والمراد ما وقع بينهم من الخلاف بين الأشمعية والعنانية وغيرهم من طوائف اليهود ذكره الرماني.

وبماذا القي بينهم العداوة والبغضاء؟ قيل فيه قولان:

أحدهما - قال أبو علي بتعريف اليهود قبح مذهب النصارى في عبادة المسيح وبتعريف النصارى قبح مذهب اليهود في الكفر بالمسيح.

الثاني - قال الرماني بوضع البغضاء عقابا على الاختلاف بالباطل.

وقوله " إلى يوم القيامة " فيه دلالة على أنهم لا يجتمعون على مذهب

(١) ديوانه: ١٥٠ (٢) سورة المائدة آية ١٥.

(٣) سورة المائدة آية ٥٤.

(٥٨٣)

واحد إلى يوم القيامة.، ولا بد أن يكون ذلك مختصا بمن يعلم الله من حالهم انهم لا يؤمنون.
وقوله " كلما أو قدوا نارا للحرب أطفأها الله " قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال الحسن ومجاهد: لحرب محمد (صلى الله عليه وآله) وفي ذلك دلالة ومعجزة، لان الله أخبر عن الغيب وكان كما أخبر، لان اليهود كانت أشد أهل الحجاز بأسا وأمنعهم دارا حتى أن قريشا كانت تعتضد بهم والاوز والخزرج تستبق إلى محالفتهم والتكثير بنصرتهم، فأباد الله حضراءهم واقتلع أصلهم فأجلى النبي (صلى الله عليه وآله) بني قينقاع وبني النضير، وقتل بني قريظة وشرد أهل خيبر وغلب على فدك ودان له أهل وادي القرآن. فمحي الله آثارهم صاغرين وحقق بخبر نبيه (صلى الله عليه وآله). وهذه كلمة مستعملة في اللغة في التمشاغل بالحرب والاستعداد لها. قال عوف ابن عطية:

إذا ما اجتئنا جنا منهل * شيبنا لحرب بعلياء نارا

الثاني - قال قتادة: هو عام. والمعنى إن الله أذلهم بذاك لا يغزون أبدا وإنما يطفئ الله بلطفه نار حربهم وما يوقى نبيه (صلى الله عليه وآله) من نقض ما يبرمون.

وما يطلع عليه من أسرارهم ويمن به عليه من النصر والتأييد، ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود " يسعون في الارض فسادا " يعني بمعصية الله وتكذيب رسله ومخالفة أمره ونهيه، واجتهادهم في دفع الاسلام ومحو ذكر النبي (صلى الله عليه وآله).

من كتبهم، وذلك هو سعيهم بالفساد، ثم قال " والله لا يحب المفسدين " بعني لا يحب من كان عاملا بمعاصيه في أرضه.

قوله تعالى:

ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم

(٥٨٤)

سيئاتهم ولادخلناهم جنات النعيم (٦٨) آية قد بينا أن معنى (لو) امتناع الشيء لامتناع غيره.
وقال الرماني معناه وجوب المعنى الثاني، بالاول على جهة التقدير بطريقة لو كان كذا لكان كذا، فان قطع الاول قطع الثاني بطريقة كقولك وقد كان كذا وكذا، وقد كان كذا وما كان كذا، فما كان كذا فنحوه. وما كفرنا عنهم سيئاتهم فما آمنوا واتقوا. والفرق بين (لو) و (إن) - مع أن

كل واحدة منهما تعلق المعنى الاول - أن " لو " للماضي و " ان " للمستقبل كقولك: ان أتيتني
أكرمك. ولو أتيتني لأكرمك، فيقدر الاكرام بالأتين في الماضي. وفي
" إن " وعد وليس في " لو " ذلك.

أخبر الله تعالى أن هؤلاء اليهود والكفار لو آمنوا واتقوا معاصيه لكفر عنهم سيئاتهم أي
غطاها عليهم وأزال عقابها عنهم وأثابهم على إيمانهم وتقواهم.
" ولادخلناهم جنات النعيم " اللام لام القسم وأصل التكفير التغطية.
ومنه يكفر في السلاح قال الشاعر:

في ليلة كفر النجوم غمامها (١).

وقوله " ولادخلناهم جنات النعيم " وان كان على لفظ الماضي فالمراد به الاستقبال وإنما كان
كذلك، لأنه قدر تقدير الماضي كما قال " ولو ردوا لعادوا " وذلك يدل على أن " لو " أوسع
من " ان " .

قوله تعالى:

ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم

(١) قد مر في ١ : ٦٠ منسوب إلى لبيد.

(٥٨٥)

من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون
(٦٩) آية.

قد بينا معنى (لو) فيما مضى وإنما فتحت (أنهم) بعدها لان هذا موضع قد خالف الابتداء بأنه
بالفعل أولى فصار بمنزلة العامل الذي يختص بالفعل دون الاسم أو الاسم دون الفعل يبين ذلك
امتتاع اللام من الدخول على الخبر في (لو) وليس كذلك (حتى) و (الا). ومعنى " أقاموا
التوراة والانجيل " علموا بما فيهما على ما فيهما دون أن يحرفوا شيئاً منهما أو يغيروا أو يبدلوا
كما كانوا يفعلون ويحتمل أن يكون معناه بما فيهما بأن أقاموهما نصب أعينهم لئلا يزلوا في
شئ من حدودهما.

وقوله " وما أنزل إليهم من ربهم " يحتمل أمرين:

أحدهما - قال ابن عباس وأبو علي وغيرهما: المراد به الفرقان.

الثاني - قال قوم: كل ما دل الله عليه من أمور الدين. وقوله " لاكلوا من فوقهم " بارسال
السماء عليهم مداراً " ومن تحت أرجلهم " باعطاء الارض خيرها وبركتها وقال قوم " من
فوقهم " ثمار النخل والاشجار " ومن تحت أرجلهم " الزرع. والمعنى لو آمنوا لاقاموا في

أوطانهم، وأموالهم وزروعهم، ولم يجلووا عن بلادهم، ففي ذلك التأسيف لهم على ما فاتهم، والاعتداد بسعة ماكانوا فيه من نعمة الله عليهم، وهو جواب التبخيل في قولهم " يدالله مغلولة " (١).

الثاني ان المعنى فيه التوسعة، كما يقال: هو في الخير من قرنه إلى

(١) سورة المائدة آية ٦٧.

(٥٨٦)

قدمه أي يأتيه الخير من كل جهة يلتمسه منها. واختار الطبري الوجه الاول. وقد جعل الله التقي من أسباب الرزق فقال " ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب " (١) وقال " ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض " (٢) وقال " استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا " (٣) وقال " وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا " (٤).

وقوله " منهم أمة مقتصدة " يعني من هؤلاء الكفار قوم معتدلون في العمل من غير غلو ولا تقصير. قال أبو علي: وهم الذين أسلموا منهم، وتابعوا النبي (صلى الله عليه وآله)، وهو المروي في تفسير أهل البيت.

وقال قوم: نزلت في النجاشي وأصحابه. وحكى الزجاج عن قوم أنهم قالوا: نزلت في قوم لم يناصروا النبي (صلى الله عليه وآله) مناصبة هؤلاء. والاول أقوى، لان الله تعالى لا يجوز أن يسمي الناصب مقتصدا بحال. ويحتمل أن يكون أراد به من يقر منهم بأن المسيح عبدالله، ولا يدعي فيه الالهية والبنوة.

وقال مجاهد: هم مسلموا أهل الكتاب. وبه قال ابن زيد، والسدي.

واشتقاق المقتصدين من القصد، لانه القاصد إلى ما يعرف، فكان خلاف الطالب المتحير في طلبه. والاقتصاد الاستواء في العمل المؤدي إلى الغرض. وقوله " وكثير منهم ساء ما يعملون " أخبار منه تعالى أن أكثر هؤلاء اليهود والنصارى. يعملون الاعمال السيئة وهم الذين يقيمون على

(١) سورة ٦٥ الطلاق آية ٢ - ٣. (٢) سورة الاعراف آية ٩٥.

(٣) سورة نوح آية ١٠ - ١٣ (٤) سورة الجن آية ١٦.

(٥٨٧)

الكفر والجحود بالنبي (صلى الله عليه وآله) وقوله " ساء " معناه قبيح و " مايعلمون " يحتمل أن تكون (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر والتقدير: بئس شبيها عملهم كما قال: " ساء مثلا القوم الذين كذبوا ". والثاني أن تكون (ما) بمعنى الذي وما بعدها صلة لها والعائد محذوف. قوله تعالى:

يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين (٧٠) آية بلاخلاف.

قرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر " رسالاته " على الجمع. الباقر " رسالته " على التوحيد. من قرأ على الجمع ذهب إلى أن الانبياء يبعثون بضروب الرسائل واختلاف العبادات. ومن وحد، فلانه يدل على الكثرة. قيل في سبب نزول هذه الآية أربعة أقوال:

أحدها - قال محمد بن كعب القرظي، وغيره: إن اعرابيا هم بقتل النبي (صلى الله عليه وآله) فسقط السيف من يده وجعل يضرب برأسه شجرة حتى انتثر دماغه.

الثاني - أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان يهاب قريشا فأزال الله عزوجل بالآية تلك الهيبة. وقيل كان للنبي (صلى الله عليه وآله) حراس بين أصحابه، فلما نزلت الآية قال الحقوا بملاحقكم، فان الله عصمني من الناس.

الثالث - قالت عائشة إن المراد بذلك إزالة التوهم أن النبي (صلى الله عليه وآله) كتم شيئا من الوحي للتقية.

(٥٨٨)

الرابع - قال أبو جعفر وأبو عبد الله (عليهما السلام) إن الله تعالى: لما أوحى إلى النبي (صلى الله عليه وآله) أن يستخلف عليا كان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه، فأنزل الله تعالى هذه الآية تشجيعا له على القيام بما أمره بادائه. والآية فيها خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) وإيجاب عليه تبليغ ما أنزل اليه من ربه وتهديده إن لم يفعل وانه يجري مجري إن لم يفعل ولم يبلغ رسالته.

فان قيل كيف يجوز ذلك؟ ولا يجوز أن يقول: إن لم تبلغ رسالته فما بلغت لان ذلك معلوم لا فائدة فيه ! قلنا: قال ابن عباس: معناه إن كتمت آية مما أنزل اليك فما بلغت رسالته والمعنى ان جريمته كجريمته لو لم يبلغ شيئا مما أنزل اليه في انه يستحق به العقوبة من ربه.

وقوله " والله يعصمك من الناس " معناه يمنعك أن ينالوك بسوء من فعل أو شر أو قهر. وأصله عصام القرية، وهو وكاؤها الذي يشدبه من سير أو خيط. قال الشاعر:

وقلت عليكم مالكا إن مالكا * سيعصمكم إن كان في الناس عاصم (١)

أي سيمنعكم. وقوله تعالى " إن الله لايهدي القوم الكافرين " قيل في معناه قولان:
قال الجبائي: إن الله يهدي إلى الثواب والجنة الكافرين.
وقال الرماني: معنى الهداية ههنا المعونة بالتوفيق والالطاف إلى الكفر بل إنما يهديهم إلى
الايمان والثواب، لأن من هداه إلى غرضه فقد أعانه

(١) مجاز القرآن ١: ١٧١ والطبري ١٠: ٤٧٢.

(٥٨٩)

على بلوغه، ولايجوز أن يكون المراد به أنه لايهديهم إلى الايمان، لانه تعالى هداهم اليه بأن
دلهم عليه ورجبهم فيه وحذرهم من خلافه.

وفي الاية دلالة على صحة نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) من وجهين:

أحدهما أنه لا يقدم على الاخبار بذلك محققا إلا من يأمن أن يكون مخبره على ما هو به، لانه
لاداعي له إلى ذلك غير الصدق والثاني - أنه لما وقع مخبره على ما أخبر به فيه وفي نظائره
دل على أنه من عندعلام الغيوب. وحكى البلخي أن بعد قوله تعالى " والله يعصمك من الناس
" لم يكن الكفار قادرين على قتل النبي ولا منهيون عن قتله، لان مع المنع لا يصح النهي
عنه، قال وإنما هم منهيون عن أسباب القتل التي تقتل غالبا، لانهم كانوا قادرين عليها. قال
ووجه آخر أنهم كانوا قادرين لكن علم أنهم لا يقتلونه. وأنه يحول بينهم وبين القتل. والاول
لايصح، لان القدرة على بعض الاجناس قدرة على كل جنس تتعلق القدرة بها.
قوله تعالى:

قل يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن
كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين (٧١)
سبب نزول هذه الاية ما روي عن ابن عباس أنه جاء جماعة من اليهود، فقالوا: يا محمد ألسنت
تقول: إن التوراة من عندالله؟ قال بلى. قالوا فانا

(٥٩٠)

نؤمن بها ولانؤمن بما عداها فنزلت الاية.

ومعناها أنه تعالى أمر نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول لاهل الكتاب " لستم على شئ حتى
تقيموا التوراة والانجيل ". وقيل في معناه قولان:

أحدهما - حتى تقيموها بالتصديق بما فيهما من البشارة بالنبي (صلى الله عليه وآله) والعمل
بما يوجب ذلك فيهما.

الثاني - قال أبو علي يجوز أن يكون الأمر باقامة التوراة والانجيل وما فيهما إنما كان قبل النسخ لهما.

وقوله " وما أنزل اليكم من ربكم " يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يريد به القرآن الذي أنزله على جميع الخلق.

الثاني - أن يريد جميع ما نصبه الله من الأدلة الدالة على توحيده وصفاته وصدق نبيه (صلى الله عليه وآله).

وقوله: " وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا " والمراد أنهم يزدادون عند نزوله طغيانا وكفرا، لان القرآن المنزل لايزيد شيئا طغيانا.

فان قيل هذا هو المفسدة بعينه، لانهم إذا فسدوا عنده ولولاه لما فسدوا كان ذلك مفسدة. !!!
قيل ليس في الآية أنه لولم ينزل القرآن لم يكونوا يفعلون الكفر بل لايمتنع أنه لو لم ينزل القرآن لفعلوا من الكفر ما هو أعظم، فصار إنزال القرآن لطفافي استتقاص الكفر وتقليل المفسدة، فالمفسدة زائلة واللفظ حاصل، على أنه لايمنع أن يكونوا يفعلون الكفر بعينه لولم ينزل القرآن

(٥٩١)

فحقيقة المفسدة اذا ليست بحاصلة، لان حد المفسدة ما وقع عنده الفساد ولولاه لم يقع من غير أن يكون تمكيننا.

والطغيان ههنا تجاوز الحد في الظلم والغلوفيه وأصله تجاوز الحد.

ومنه قوله تعالى: " انا لما طغى الماء " (١) وقوله: " إن الانسان ليطغى " (٢)
أي يتجاوز الحد في الخروج عن الحق.

وقوله: " فلا تأس على القوم الكافرين " معناه لاتحزن تقول أسي يأسى أسا إذا حزن. قال الشاعر:

وانحلبت عيناه من فرط الاسى (٣)

وهذا تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) وليس بنهي عن الحزن، لانه لايقدر عليه لكنه تسلية ونهي عن التعرض للحزن. قال البلخي ذلك يدل على بطلان ما روي من أن النبي (صلى الله عليه وآله) دعا للكفار بالهداية، لانه نهاه عن الحزن وأمره بلعنهم ولايجتمع قول اللهم العنهم، واهداهم واغفرلهم.

قوله تعالى:

إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا

فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون (٧٢)

أخبر الله تعالى أن الذين صدقوا الله وأقروا بنبوته نبيه (صلى الله عليه وآله) " والذين هادوا " يعني الذين اعتقدوا اليهودية ونبوته موسى، وتأييد شرعه " والصابئون "

(١) سورة الحاقة آية ١١ . (٢) سورة العلق آية ٦ .

(٣) قاتله العجاج. ديوانه: ٣١ ومجاز القرآن ١: ١٧١ والكامل للمبرد ١: ٣٥٢ واللسان (حلب)، (كرس).

(٥٩٢)

وهو جمع صابئ، وهو الخارج عن دين عليه امة عظيمة من الناس إلى ما عليه فرقة قليلة، وهم عباد الكواكب. وعندنا لا يؤخذ منهم الجزية. وعند المخالفين يجرون مجرى أهل الكتاب وصبأ ناب البعير وسن الصبي إذا خرج. وضبأ - بالضاد المعجمة - معناه اختبأ في الارض، ومنه اشتق ضابئي البرجمي. و " النصرى " وهم الذين يقرون بالمسيح (ع) وقوله:

" من آمن بالله " قيل فيه قولان:

أحدهما يعني الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهم المنافقون ذكره الزجاج.

الثاني - من دام على الايمان والاخلاص ولم يرتد عن الاسلام.

وقيل في معني رفع الصابئين ثلاثة أقوال: أحدها قال سيبويه: إنه على التقديم والتأخير والتقدير: ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصرى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون كذلك. قال الشاعر:

وإلا فاعلموا أنا وأنتم * بغاة ما بقينا في شقاق

والمعنى فاعلموا انا بغاة ما بقينا في شقاق وأنتم كذلك. وقال ضبابئ البرجمي:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله * فاني وقياربهما لغريب (١)

والثاني - قال الكسائي هو عطف على الضمير في (هادوا) وكأنه قال هادوا هم والصابئون. قال الرماني هذا غلط من وجهين: أحدهما ان الصابئ لا يشارك اليهود في اليهودية. والآخر أنه عطف على الضمير المتصل

(١) قد مر هذا البيت في ١: ٢٠٣.

(٥٩٣)

من غير تأكيد بالمنفصل.

والثالث قال الفراء: إن عطف على ما لا يتبين فيه الاعراب وهو (الذين)

ويجوز النسق على مثل (الذين) وعلى المضممر نحو اني وزيد قائمان، فعطف على موضع (ان).

وقوله " وعمل صالحا " فالعمل والفعل واحد. وقال الرماني: فعل الشيء إحداثه وإيجاده بعد أن لم يكن وعمله إحداث ما يكون به متغيرا سواء كان إحداثه نفسه أو أحداث حادث فيه. وقوله تعالى " فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون " مع ما يمر بهم من أجل يوم القيامة لامرين: أحدهما - أن ذلك لا يعتد به لانه عارض، ثم يصيرون إلى النعيم الدائم. ومنه قوله " لا يحزنهم الفزع الاكبر " (٢) وهو عذاب النار كما يقال للمريض لابس عليك. الثاني أن أهوال يوم القيامة إنما تتال الضالين دون المؤمنون. والاول أقوى لعموم قوله: " يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد " (٣) وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أن الناس يلجمهم العرق. وانهم يحشرون حفاة عراة عزلا، فقالت عائشة لا يحتشمون من ذلك، فقال (صلى الله عليه وآله): لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه " (٤) فأما قوله " من آمن بالله " وقد ذكر الذين آمنوا، فلان المعني بالذين آمنوا ههنا - في قول الزجاج - المنافقون بدلالة قوله " لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم " (٥) والتقدير من

(٢) سورة الانبياء آية ١٠٣ (٣) سورة الحج آية ٢. (٤) سورة عبس آية ٣٧.

(٥) سورة المائدة آية ٤٤. (*)

(٥٩٤)

آمن منهم. وقال قوم: من آمن يرجع إلى من عدا الذين آمنوا وحمل " الذين آمنوا " على ظاهره من حقيقة الايمان. ومنهم من قال: يرجع إلى الجميع ويكون المعني في " من آمن " من يستديم على الايمان ويستمر عليه. وقد استوفينا ما يتعلق بذلك في سورة البقرة. قوله تعالى:

لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون (٧٣) آية عند الجميع.

اللام في قوله " لقد " لام القسم. أقسم الله تعالى أنه أخذ الميثاق وهو الايمان المؤكدة التي أخذها أنبياءهم على بني اسرائيل في قول ابي علي.

وقال غيره: يجوز أن يكون الميثاق هي الآيات البينة التي قرربها علم ذلك عندهم. وإنما أخذ ميثاقهم على الاخلاص لتوحيد الله تعالى، والعمل بها أمر به، والانتهاه عما نهى عنه والتصديق برسله والبشارة بالنبي الامي والاقرار به، حسب ما تقدمت صفته عندهم. ووجه الاحتجاج على أهل الكتاب بما أخذ على آبائهم من الميثاق أنهم قد عرفوا ذلك في كتبهم، وأقروا بصحته، فحجته لازمة لهم، والعمل به واجب عليهم، وعيب المخالفة يلحقهم كما لحق آباءهم الذين نقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم. وقوله " كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم " والهوى هو لطف محل الشئ من النفس مع الميل اليه بما لا ينبغي، فلذلك غلب على الهوى

(٥٩٥)

صفة الذم، كما قال تعالى " ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى " (١) ويقال: منه: هوى يهوى ويقال: هو يهوى هوى إذا انحط في الهواء وأهوى بيده إذا انحط بها ليأخذ شيئاً. و " امه هاوية " (٢) أي جهنم، لانه يهوى فيما. وهم يتهاونون في الهواء اذا سقط بعضهم في أثر بعض والفرق بين الهوى والشهوة: أن الشهوة تتعلق بالمدركات فيشتهي الانسان الطعام، ولايهوى الطعام. وهواء الجو ممدود، وهوى النفس مقصور. وقوله " وأفئدتهم هواء " (٣) قيل فيه قولان: أحدهما - أنها منحرفة لاتعي شيئاً كهواء الجو. والآخر أنه قد أطارها الخوف. ومنه قوله " كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران " (٤) أي استهوته من هوى النفس. وقوله " فريقا كذبوا وفريقا يقتلون " نصب فريقا في الموضوعين بأنه مفعول به قدم. وإنما قال في الاول " كذبوا " بلفظ الماضي. وفي الثاني " يقتلون " بلفظ المستقبل لامرين: أحدهما - ليدل بذلك على أن من شأنهم ذلك وعادتهم ففيه معنى كذبوا وقتلوا ويكذبون ويقتلون مع موافقته لرؤوس الآي. الثاني - أن يكون على معنى فريقا كذبوا، ولم يقتلوا وفريقا كذبوا وقتلوا فيكون يقتلون صفة الفريق.

قوله تعالى:

وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله

(١) سورة النازعات آية ٤٠ - ٤١. (٢) سورة القارعة آية ٩.

(٣) سورة ابراهيم آية ٤٣. (٤) سورة الانعام آية ٧١. (*)

عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون (٧٤) آية بلاخلاف.
قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي " ألا تكون " بالرفع. الباقون بالنصب. ولم يختلفوا في رفع
(فتنة) فمن رفع، فالمعنى حسبوا فعلهم غير فائن لهم، لأنهم كانوا يقولون " نحن أبناء الله
وأحبأؤه " ومن نصبه فلان

" أن " تنصب الفعل المضارع. وقال أبو علي الفارسي الافعال على ثلاثة أضرب: فعل يدل
على ثبات الشئ واستقراره نحو العلم، وفعل يدل على خلاف الاستقرار والثبات، وفعل يحتمل
الامرین، فاماكان معناه العلم وقع بعده (أن) الثقيلة، ولم تقع بعده الخفيفة الناصبة للفعل، لان
الثقيلة معناها إثبات الشئ واستقراره والعلم بأنه كذلك أيضا، فاذا أوقع عليه واستعمل معه كان
وقعه ملائما له. ولو استعملت الناصبة للفعل بعدما معناه العلم واستقرار الشئ له لتباينا
وتدافعا، فمن استعمال الثقيلة بعد العلم وابقاعه عليها قوله: " ويعلمون أن الله هو الحق المبين "
(١) و " ألم يعلم بأن الله يرى " (٢)، لان الباء زائدة. وكذلك التبيين والتيقن، واماكان معناه
العلم كقوله " ثم بدا لهم من بعد ما رءوا الآيات " (٣) فهذا ضرب من العلم لانه تبيين لامر قد
بان فلذلك كان قسما كماكان علمت قسما في نحو قوله:

ولقد علمت لتأتين منيتي وكذلك " ثم بدالهم من بعد مارءوا الآيات ليسجننه حتى حين (٤) فهو

(١) سورة النور آية ٢٥. (٢) سورة العلق آية ١٤.

(٣، ٤) سورة يوسف آية ٣٥. (*)

بمنزلة علموا ليسجننه وعلى ذلك قول الشاعر:

بدا لي أني لست مدرك ماضى * (ولا سابقا شيئا اذا كان جائيا)

فأوقع بعدها الشديدة كما يوقعها بعد علمت واماكان معناه مالم يثبت ولم يستقر فنحو (أطمع)
و (أخاف) و (اشفق) و (أرجو) فهذا ونحوه لا يستعمل بعده إلا الخفيفة الناصبة للفعل كقوله
تعالى: " والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي " (١) وقوله " تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم "
(٢) وقوله: " الا أن يخافا الايقيما حدود الله. فان خفتن ان لا يقيما حدود الله " (٣) وقوله: "
فخشينا ان يرهقهما (٤) وقوله " أشفقتم أن تقدموا " (٥) وكذلك أرجو، وعسى، ولعل فأما
مايستعمل في الامرین نحو حسبت وظننت وزعمت فهذا النحو يجعل مرة بمنزلة (أرجو) و
(أطمع)

من حيث كان أمرا غير مستقر ومرة يجعل بمنزلة العلم من حيث استعمل استعماله. ومن حيث كان خلافة. والشئ قد يجري مجرى الخلاف نحو (عطشان) و (ريان) فاما استعمالهم استعمال العلم، فلانهم قد أجابوه بجواب القسم. حكى سيبويه ظننت ليسقيني. وقيل في قوله " وظنوا مالهم من محيص " (٦) ان النفي جواب الظن كما كان جوابا لعلمت في قوله " علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات " (٧) وكلا الوجهين جاء به القرآن مثل قراءة من نصب قوله " أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا " (٨)

(١) سورة الشعراء آية ٨٢. (٢) سورة الانفال آية ٢٦.

(٣) سورة البقرة آية ٢٢٩. (٤) سورة الكهف آية ٨١ (٥) سورة المجادلة آية ١٣ (٦) حم السجدة آية ٤٨.

(٧) سورة الاسرى آية ١٠٢. (٨) سورة العنكبوت آية ٤. (*)

(٥٩٨)

" أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم " (٩) " ألم أحسب الناس أن يتركوا " (١٠) ومثل قراءة من رفع قوله " أم يحسبون أننا نسمع سرهم " (١١) " أيحسبون إنما نمدهم به من مال وبنين (١٢) " ايحسب الانسان أن لن نجمع عظامه " (١٣) فهذه مخففة من الشديدة. ومثل ذلك في الظن قوله: " تظن أن يفعل بها فاقرة " (١٤) وقوله " إن ظنا أن يقيما حدود الله " (١٥) ومن الرفع قوله: " وانا ظننا أن لن نقول الانس والجن. وانهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا " (١) وإن هاهنا الخفيفة من الثقيلة لان الناصبة للفعل لا تقع بعدها (أن) لاجتماع الحرفين في الدلالة على الاستقبال كما لم تجتمع الناصبة مع السين، ولم يجتمعا كالم يجتمع الحرفان بمعنى واحد. ولذلك كانت (ان) في قوله " علم ان سيكون " (٢) المخففة من الشديدة. ومن ذلك قوله " وظنوا أنهم احيط بهم " (٣) فاما قوله: الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم " (٤) وقوله: " ظننت اني ملاق حسابيه " (٥) فالظن هاهنا بمعنى العلم، وحسن وقوع الخفيفة من الشديدة في قول من رفع وإن كان بعده فعل لدخول (لا) وكونها عوضا من حذف الضمير معه وإيلاء

(٩) سورة الجاثية آية ٢٠. (١٠) سورة العنكبوت آية ٢.

(١١) سورة الزخرف آية ٨٠. (١٢) سورة المؤمنون آية ٥٦.

(١٣) القيامة آية ٣. (١٤) سورة القيامة آية ٢٥.

(١٥) سورة البقرة آية ٢٣٠.

(١) سورة الجن آية ٥ - ٧. (٢) سورة المزمل آية ٢٠.

(٣) سورة يونس آية ٢٢. (٤) سورة البقرة آية ٤٦.

(٥٩٩)

مالم يكن يليه. ولو قلت علمت أن يقول لم يجز حتى يأتي بما يكون عوضا نحو (قد) و (لا) والسين وسوف، كما قال " علم ان سيكون " ولا يدخل على ذلك قوله: " وان ليس للانسان الاماسعى " (٦) فلم يدخل بين (أن) و (ليس) شئ لان (ليس) ليس بفعل على الحقيقة. أما (فتنة)

فلو نصب لكان صحيحا في العربية على تقدير: أن لا يكون قولهم فتنة. ولكن لم يقرأ به أحد. قال الرماني: وحد الحسابان هو قوة أحد النقيضين. في النفس على الآخر على وأصله الحساب، فالنقيض القوي يحتسب به دون الآخر أي هو فيما يحتسب ولا يطرح ومنه الحساب لانه مما يحسب ولا يطرح لاجل الشرف ومنه قولهم: حسبك أي يكفيك، لانه بحساب الكفاية ومنه احتساب الاجر، لانه فيما يحتسب ويكفي. الفتنة هاهنا العقوبة. وقيل البلية - في قول السدي وقتادة والحسن ومجاهد - وقيل: الشدة. وكل ذلك متقارب. وقال ابن عباس: الفتنة - هاهنا - الشرك. وأصل الفتنة الاختبار، ومنه افتتن بفلانة اذا هوأها، لانه يظهر ما يطوي من خبره بها. وفتنت الذهب في النار اذا خلصته ليظهر خبره في نفسه متميزا من شائب غيره. وقوله " يوم هم على النار يفتنون " (١) أي يحرقون. فاذا هم خبث كلهم " وفتناك فتونا " (٢) أي اختبرناك اختبارا أي ليظهر خبرك على خلوص أمرك في طاعتك أو غير ذلك من حالك. وقوله " فعموا ووصموا " معناه عن الحق على وجه التشبيه بالاعمى

(٦) سورة النجم آية ٣٩.

(١) سورة الذاريات آية ١٣. (٢) سورة ٢٠ طه آية ٤٠. (*)

(٦٠٠)

والاصم لانه لا يهدي إلى طريق الرشدي في الدين كما لا يهتدي هذا إلى طريق الرشدي في الدنيا لاجل العمى والاصم، فكذلك اولئك لاعراضهم عن النظر. وقوله " ثم تاب الله عليهم ثم عموا ووصموا " إخبار منه تعالى أن هؤلاء الكفار حسبوا أن لا يكون فتنة على ما فسرناها " فعموا ووصموا " وقتلوا الانبياء وكذبوهم ثم أن فريقا منهم تابوا فتاب الله عليهم ثم عموا ووصموا " يعني عادوا إلى ما كانوا عليه. وقيل قوله " ثم عموا ووصموا " في الاقرار بالنبوي (صلى الله عليه وآله) وقوله: " كثير منهم " قال الزجاج يحتمل رفعه ثلاثة أوجه:

أحدها - ان يكون بدلا من الفاء، فكأنه لما قال " عموا وصموا " ابدل الكثير منهم أي عمي وصم كثير منهم كما يقول جاغني قومك أكثرهم.

والثاني - أن يكون جمع الفعل متقدما على لغة من قال اكلوني البراغيث، وذهبوا قومك. قال أبو عمرو الهذلي:

ولكن ديا في ابوه وامه * بحوران يعصرن السليط اقاربه (١)

الثالث ان يكون (كثيرا) خبر ابتداء محذوف والتقدير ذو العمى والصمم " كثير منهم " ثم بين تعالى " إنه بصير " أي عالم " بما يعملون " أي بأعمالهم.

قوله تعالى:

لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه

(١) اللسان (سلط)، (ديف) نسبة إلى الفرزدق. (*)

(٦٠١)

من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وما لظالمين من أنصار (٧٥) آية بلاخلاف.

اللام في قوله " لقد " لام القسم. أقسم الله تعالى بأنه " كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم " والكفر هو الجحود لما يجب عليه الاقرار به، والتصديق له. وقال الرمانى: هو تضييع حق النعمة بالجدد او ماجرى مجراه في عظم الجرم. ولذلك كان من قتل نبيا فهو كافر وان أقر بجميع نعم الله. وعندنا إن قتل نبي يدل على ان قاتله جاحد لما يجب عليه الاقرار به، والاعتقاد لتصديقه.

والذين يقولون من النصارى: إن الله هو المسيح بن مريم هم اليعقوبية، وهم مع ذلك مثلثة، لانهم يقولون إن الاب والابن وروح القدس إله واحد.

وغيرهم يقولون: إن المسيح ابن الله. ولا يقولون هو الله وأجمعوا على أنه إله.

وقوله: " وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم " اخبار عن المسيح (ع) أنه قال لبني اسرائيل الذين كانوا في زمانه " اعبدوا الله ربي وربكم " الذي يملكني وإياكم وإني وإياكم عبيده، ومن خلقتي وخلقكم " إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة " فالشرك هو الكفر. وإنما يطلق على من أشرك في عبادة الله غيره، وإنما كان كافرا، لانه جحد نعمة الله باضافتها إلى غيره، وزعمه أن غيره يستحق العبادة مع ما ثبت أنه لا يقدر أحد على ما يستحق به العبادة سوى الله تعالى. والشرك أصله الاجتماع في الملك، فاذا كان الملك بين نفسين، فهما شريكان

وكذلك كل شئ يكون بين نفسين، ولا يلزم على ذلك ما يضاف إلى كل واحد منهما منفردا كالعبد يكون ملكا

(٦٠٢)

الله وهو ملك للانسان، لانه لو بطل ملك الانسان، لكان ملكا لله كما كان، لم يزد في ملكه شئ لم يكن.

وقوله: " فقد حرم الله عليه الجنة " اخبار من المسيح لقومه أن من يشرك بالله، فان الله يمنعه الجنة. والتحریم هاهنا هو تحریم منع لاتحریم عبادة.

وقوله: " ومأواه النار وما للظالمين من أنصار " معناه أنهم مع حرمانهم الجنة مستقرهم النار، ولاناصر لهم يدفع عنهم ويخلصهم مما هم فيه من أنواع العذاب. قوله تعالى:

لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من آله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم (٧٦) آية بلاخلاف.

وهذا قسم آخر من الله بأنه كفر من قال: " إن الله ثالث ثلاثة " والقائلون بهذه المقالة هم جمهور النصارى من الملكانية، واليعقوبية والنسطورية، لانهم يقولون: أب، وابن، وروح القدس إله واحد، ولا يقولون ثلاثة آلهة. ويمنعون من العبارة. وإن كان يلزمهم أن يقولوا إنهم ثلاثة آلهة.

وما كان هكذا صح أن يحكى بالعبارة اللازمة. وإنما قلنا: يلزمهم، لانهم يقولون الابن إله والاب إله وروح القدس إله. والابن ليس هو الاب.

ومعنى " ثالث ثلاثة " أحد ثلاثة. وقال الزجاج، لا يجوز نصب ثلاثة لكن للعرب فيه مذهب آخر وهو أنهم يقولون رابع ثلاثة، فعلى هذا يجوز

(٦٠٣)

الجر والنصب، لان معناه الذي صير الثلاثة أربعة بكونه فيهم.

ثم أخبر تعالى، فقال " وما من إله إلا إله واحد " أي ليس إلا إله واحد. ودخلت (من) للتوكيد.

وقوله: " وإن لم ينتهوا عما يقولون " أي إن لم يرجعوا ويتوبوا عما يقولون من القول بالثلاثية أقسم " ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم " يعني الذين يستمرون على كفرهم والمس - هاهنا

- ما يكون معه احساس وهو حوله فيه، لان العذاب لا يمس الحيوان إلا أحس به ويكون المس بمعنى اللمس، لان في اللمس طلبا لاحساس الشئ، فلهذا اختير هاهنا المس.

واللمس ملاصقة معها إحساس وإنما قال " ليمسن الذين كفروا منهم " لامرين:

أحدهما - ليعم الوعيد الفريقين الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم، والذين قالوا هو ثالث ثلاثة والضمير عائد إلى أهل الكتاب.

الثاني - أنه من أقام منهم على الكفر لزمه هذا الوعيد في قول أبي علي، والزجاج، وليس في الآية ما يدل على أن في أفعال الجوارح ما هو كفر لأن الذي فيها هو الاخبار عن أن من قال الله ثالث ثلاثة فهو كافر، وهذا لا خلاف فيه. وليس فيها أن هذا القول بعينه هو كفر أن دلالة على الكفر، فمن يقول الكفر هو الجحود، وإن الإيمان هو التصديق بالقلب يقول إن في أفعال الجوارح ما يدل على الكفر الذي هو الجحود في القلب مثل القول الذي ذكره الله تعالى. ومثل ذلك السجود للشمس وعبادة الاصنام وغير ذلك، فلا دلالة في الآية على ما قالوه.

(٦٠٤)

قوله تعالى:

أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم (٧٧) آية الالف في قوله " أفلا " الف إنكار وأصلها الاستفهام، لأنه لا يصح للسؤال جواب عن مثل هذا فيكون حينئذ تقريرا لهم وإنكارا عليهم ترك التوبة وإنما دخلت " إلى " في قوله: " يتوبون إلى الله " لأن معنى التوبة الرجوع إلى طاعة الله، لأن التائب بمنزلة من ذهب عنها ثم عاد إليها، وقد بينا فيما مضى أن التوبة طاعة يستحق بها الثواب، فأما إسقاط العقاب عندها فهو تفضل من الله غير واجب. والفرق بين التوبة والاستغفار أن الاستغفار طلب المغفرة بالدعاء أو التوبة أو غيرهما من الطاعة. والتوبة الندم على القبيح مع العزم على أن لا يعود إلى مثله في القبيح أو الإخلال بالواجب والاستغفار مع الإصرار على القبيح لا يصح ولا يجوز. وفي الآية تحضيض على التوبة والإقلاع من كل قبيح والانكار لتركها، وحث على الاستغفار " والله غفور رحيم " إخبار منه تعالى أنه يستر الذنوب ويغفرها رحمة منه لعباده.

قوله تعالى:

ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون (٧٨) آية بلاخلاف أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه ليس المسيح بن مريم إلا رسول أرسله الله " قد خلت من قبله الرسل " أي أنه رسول ليس بإله كما أن الأنبياء قبله

(٦٠٥)

رسل ليسوا بآلهة. وأنه أتى بالمعجزات من قبل الله كما أتوا بها من قبل ربهم، فمن ادعى له الآلهية فهو كمن ادعى الآلهية لجميعهم لتساويهم في المنزلة ومعنى " خلت " مضت. " وأمه صديقة " قيل في معناه قولان:

أحدهما - أنها كانت تصدق بآيات ربها ومنزلة ولدها، وتصدقه فيما أخبرها به بدلالة قوله " وصدقت بكلمات ربها " (١) ذكر ذلك الحسن، والجبائي.

الثاني لكثرة صدقها وعظم منزلتها فيما تصدق به من أمرها أو سميت صديقة على وجه المبالغة، كما قيل: رجل سكيت. أي مبالغ في السكوت.

وقوله " كانا يأكلان الطعام " فيه احتجاج على النصارى، لان من ولدته النساء، وكان يأكل الطعام لا يكون إلهًا للعباد لان سبيله سبيلهم في الحاجة إلى الصانع المدبر، لان من فيه علامة الحدث، لا يكون قديما. ومن يحتاج إلى غيره لا يكون قادرا لا يعجزه شئ وقيل إن ذلك كناية عن قضاء الحاجة لان من أكل الطعام لابد أن يحدث حدثا مخصوصا على مجرى العادة.

وقوله " انظر كيف نبين لهم الآيات " أمر للنبي وامته بأن يفكروا فيما بين الله من الآيات والدلالات لهم على بطلان ما اعتقدوه من ربوبية المسيح، وبنوته ثم أمره بأن ينظر ثانيا " أنى يؤفكون " أي كيف يؤفكون. وقيل من أين يؤفكون ومعنى " يؤفكون " يصرفون. وقيل يقبلون. والمعنى متقارب، لان المعنى انظر كيف يصرفون عن الآيات التي بينها لهم ويقال:

لكل مصروف عن شئ مأفوك عنه، وقد أفكت فلان عن كذا أي صرفته عنه صرفا. فأنا أفكه إفكا فهو مأفوك وقد أفكت الأرض إذا صرف عنها المطر،

(١) سورة التحريم آية ١٢. (*)

(٦٠٦)

والإفك الكذب، لانه صرف الخبر عن وجهه. والمؤتفكات المنقلبات من الرياح، وغيرها، لانها صرفت بقلبها عن وجهها. قوله تعالى:

قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم (٧٩) آية أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول لهؤلاء النصارى الذين قالوا " إن الله ثالث ثلاثة ": " أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا " أي توجهون عبادتكم إلى من لا يقدر على الضر والنفع، لان القادر عليهما هو الله تعالى او من يمكنه الله من ذلك. ولو جاز توجيه العبادة إلى المسيح الذي لا يملك ذلك لجاز توجيهها إلى الاصنام كما يقوله عباد الاصنام. وقد علمنا خلاف ذلك.

والمالك: هو القدرة على تصريف ما للقادر عليه أن يصرفه، فملك الضرر والنفع أخص من القدرة عليهما، لأن القادر عليهما قد يقدر من ذلك على ماله أن يفعل، وقد يقدر منه على ما ليس له أن يفعله. والنفع: هو فعل اللذة أو السرور أو مآدى اليهما أو إلى واحد منهما مثل الملاذ التي تحصل في الحيوان. والصلة بالمال والوعد باللذة، فإن جميع ذلك نفع، لأنه يؤدي إلى اللذة، والضرر هو فعل الألم أو الغم أو مآدى اليهما أو إلى واحد منهما كالألام التي توجد في الحيوان والقذف والسب، لأن جميع ذلك يؤدي إلى الآلام والغضب ضرر لأنه من الأسباب المؤدية إلى الآلام.

وقوله " والله هو السميع العليم " قيل في معناه هاهنا قولان:

(٦٠٧)

أحدهما - أنه ذكر للاستدعاء إلى التوبة فهو يسمع قول العبد فيها وما يضمرة منها. والآخر التحذير من الجزاء بالسيئة، لأنه يعلم الاعمال ويسمع الاسرار والاعلان. وذلك دليل على ملك الجزاء بالثواب والعقاب. قوله تعالى:

قل يا أهل الكتاب لاتغلو في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل (٨٠) آية بلاخلاف.

أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يخاطب أهل الكتاب، وهم النصارى هاهنا. وقال قوم: المراد به اليهود والنصارى، لأن اليهود أيضا غلوا في تكذيب عيسى، ومحمد (صلى الله عليه وآله) ويقول لهم " لاتغلو في دينكم " ومعناه لا تتجاوزوا الحد الذي حده الله لكم إلى الزيادة. وضده التقصير وهو الخروج عن الحد إلى النقصان. والزيادة في الحد والنقصان معا فساد أي ودين الله الذي أمر به هو بين الغلو، والتقصير، وهو الاقتصاد. وقوله " ولا تتبعوا أهواء قوم " وقل لهم: لاتسلخوا سبيل الاوائل، لأن الاتباع هو سلوك الثاني طريقة الاول على وجه الاقتداء به وقد يتبع الثاني الاول في الحق وقد يتبعه في الباطل. وإنما يعلم أحدهما بدليل.

والمراد هاهنا النهي عن اتباع سبيلهم الباطل. و (الاهواء) هاهنا المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة، لأن قد يستتقل النظر لما فيه من المشقة، وميل طبعه إلى بعض المذاهب فيعتقده، وهو ضلال فيهلك به. وقوله:

(٦٠٨)

" قد ضلوا من قبل " فيه قولان:

قال الحسن، ومجاهد: هم اليهود.

وقال أبو علي هم أسلافهم الذين هم رؤساء ضلالتهم الذين سنوألهم هذا الكفر من الفريقين اليهود والنصارى " وأضلوا كثيرا " يعني هؤلاء الذين ضلوا من قبل وأضلوا أيضا كثيرا من الخلق. ونسب الاضلال اليهم، من حيث كان بدعائهم وإغوائهم.

وقوله " وضلوا عن سواء السبيل " قيل في معناه قولان:

أحدهما - ضلوا باضلالهم غيرهم في قول الزجاج.

الثاني - وضلوا من قبل، وضلوا من بعد، فلذلك كرر. وقيل

" وضلوا من قبل " عن الهدى في الدنيا " واضلوا كثيرا " عن طريق الجنة.

و " سواء السبيل " معناه مستقيم الطريق. والمعنى فيه الحق من الدين، لانه يستقيم بصاحبه إلى الجنة، والخلود في النعيم. وقيل له: سواء لاستمراره على استواء. قوله تعالى:

لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون (٨١) آية بلاخلاف.

قيل في معني " لعن الذين كفروا من بني اسرائيل " الآية ثلاثة أقوال:

أحدها - إياهم من مغفرة الله مع الإقامة على الكفر والمعصية لله - عزوجل - لدعاء الانبياء (عليهم السلام) عليهم بالعقوبة ودعوتهم مستجابة مع مافي ذلك من الفضيحة، وانطواء أولياء الله لهم على العداوة، والمظاهرة

(٦٠٩)

عليهم في إقامة الحجة.

الثاني - قال الحسن ومجاهد وقتادة وأبومالك لعنوا على لسان داود، فصاروا قردة وعلى لسان عيسى، فصاروا خنازير. وانما ذكر عيسى وداود، لانهما انبه الانبياء المبعوثين بعد موسى (ع) ولما ذكر داود أغنى عن ذكر سليمان، لان قولهما واحد. وقال أبو جعفر (ع) أما داود فلعن أهل ايلة لما اعتدوا في سبتهم وكان اعتداؤهم في زمانه، فقال: اللهم البسهم اللعنة مثل الرداء ومثل المنطقة على الحقوين، فمسخهم الله قردة. وأما عيسى فلعن الذين أنزلت عليهم المائدة ثم كفروا بعد ذلك.

الثالث - قال أبو علي الجبائي: إنه إنما أظهر ذلك لئلا يوهما الناس أن لهم منزلة بولادة الانبياء تتجيبهم من عقوبة المعاصي.

واللعن هو الابعاد من رحمة الله، فلعله الله يعني أبعد الله من رحمته إلى عقوبته، ولا يجوز لعن من لا يستحق العقوبة من الاطفال والمجانين والبهائم، لانه تعالى لا يبعد من رحمته من لا يستحق الابعاد عنها. وقوله:

" ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون " إشارة إلى اللعن الذي تقدم ذكره بمعصيتهم واعتدائهم. ف (ذا) لماقرب و (ذلك) لمابعد، لانه اجتزئ في دلالة الخطاب لما قرب بالاقبال عليه. وفي القريب بالاشارة اليه فلما بعد لم يصلح الاجتزاء فيهما كما يصلح فيما قرب، فاتى بالكاف للخطاب واكد ذلك باللام وكسرت لالتقاء الساكنين والكاف في ذلك حرف وفي غلامك إسم، ولهذا لم يؤكد بمايؤكد في غلامك لانك لا تقول ذلك نفسك. كما تقول في غلامك نفسك. وإنما قال: " بماعصوا وكانوا يعتدون " وإن كان الكفر أعظم الاجرام

(٦١٠)

ليدل على أن من خلصت معصيته ممايكفرها أو بقتة، وأنهم مع كفرهم قد عصوا بغير الكفر من الجرم الذي فسر في الآية التي بعد. قوله تعالى:

كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون (٨٢) آية بلاخلاف. أخبر الله تعالى أن هؤلاء الكفار الذين ذكرهم لم يكونوا يتناهون عن منكر أي لم يكن ينهى بعضهم بعضا مثل قولك لايتضاربون ولا يترامون ولا ينتهون ومعناه لايكفون عما نهوا عنه. وقوله: " لبئس ماكانوا يفعلون " وفتحت اللام لام القسم وتقديره اقسام لبئس ماكانوا يفعلون كما فتحت لام الابتداء لانها لمالم تكن عاملة ك (لام الاضافة) اختير لها أخف الحركات. ولايجوز أن تكون لام الابتداء، لانها لاتدخل على الفعل الا في باب (أن) ولا تدخل على الماضي.

و (ما) في قوله " لبئس ما " قيل فيها قولان: أحدهما - أن تكون (ما) كافة ل (بئس) كما تكف في (إنما) و (بعدها) و (ربما) والآخر - أن تكون اسما نكرة كأنه قال: بئس شيئاً فعلوه، كما تقول بئس رجلاً كان عندك.

وفي الآية دلالة على وجوب انكار المنكر، لان كل شئ ذم الله عليه فواجب تركه إلا أن يقيد بوقت يخصه، لان ظاهر ذلك يقتضي قبحه، والتحذير منه. والمنكر هو القبيح، سمي بذلك لانه ينكره العقل من حيث أن العقل يقبل الحسن ويعترف به، ولايبأه وينكر القبيح ويبأه والانكار

(٦١١)

ضد الاقرار. فمايقربه العقل هوالحق، وماينكره، فهو الباطل.

وقيل في معنى (المنكر) - هاهنا - ثلاثة أقوال: أحدها صيد السمك في السبت. والثاني - أخذ الرشوة في الحكم. والثالث - أكل الربا وأثمان الشحوم. وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لاقدست أمة لاتأخذ لضعيفها حقه غير مضيع. قوله تعالى:

ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون (٨٣) آية بلا خلاف.

هذا خطاب من الله للنبي (صلى الله عليه وآله) يقول له " ترى كثيرا منهم " يعني من هؤلاء اليهود في قول الحسن وأبي علي. وقال غيرهما يعني أهل الكتاب أي " يتولون الذين كفروا " من عبدة الاوثان في قول الحسن وغيره. وقال أبو جعفر يتولون الملوك الجبارين ويزينون لهم أهوائهم ليصيبوا من دنياهم.

فان قيل: كيف يتولى أهل الكتاب عبدة الاوثان مع إكفارهم إياهم على تلك العبادة؟! قلنا لانهم يعملون عمل المتولي بالنصرة والمعونة والرضا بما يكون منهم من عداوة النبي (صلى الله عليه وآله) ومحاربتة. ويجوز أن يكونوا تولوهم على ذلك في الحقيقة، فيكون على جهة تقييد الصفة.

فان قيل ما الفائدة في اخباره (صلى الله عليه وآله) يراه وهو عالم به؟ قلنا: عنه جوابان: أحدهما - التوبيخ لصاحبه فيقرعون بما هو من حالهم. والآخر التنبيه على باطن أمرهم بما يدل عليه ظاهر حالهم المعلومة

(٦١٢)

فينكشف باطنهم القبيح.

وقوله " لبئس ما قدمت لهم أنفسهم " قيل في معناه قولان:

أحدهما بئس شيئا قدموه من العمل لمعادهم في الآخرة في قول أبي علي.

واللام لام القسم على ما بيناه.

والثاني - أنه يجري مجرى قوله: " سولت لهم أنفسهم " أي قدمت لهم أنفسهم بما بعثهم على تولي الذين كفروا مع مخالفتهم. وقوله: " أن سخط الله عليهم " قيل في موضع " أن سخط الله " قولان:

أحدهما - رفع كقولك: ما قدموه لانفسهم سخط الله أي هو سخط الله عليهم وخلودهم في النار

بما كان من توليهم ورفع كرفع (زيد) في قولك:

بئس رجلا زيد.

الثاني - أنه جر على تقدير لان سخط الله عليهم وحصلوا على الخلود في النار وقال الزجاج: يجوز أن يكون نصبا على تقدير بئس الشئ ذلك، لان أكسيهم السخطة عليهم.
قوله تعالى:

ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون (٨٤)
آية بلا خلاف قيل في معنى قوله " ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم " مع العلم بأنهم لا يؤمنون بالنبي قولان:

أحدهما - قال الحسن ومجاهد أنه في المنافقين من اليهود الثاني - المراد بالنبي موسى (ع) ومنعى (لو) - هاهنا - النفي

(٦١٣)

لايمانهم وإن لم يكون حرف نفي لكنه خرج مخرج الحجاج الذي يدل على نفي الايمان. وانما معناه تعليق الثاني بالاول في أنه يجب بوجوبه، فاذا ظهر أن الثاني لم يجب دل على ان الاول لم يكن قد دخله معنى النفي من هذه الجهة.
فان قيل: إذا كان المؤمن بالله لا يطلق عليه اسم مؤمن إلا وهو مؤمن بالنبي وبما أنزل اليه فلم ذكر؟.

قلنا للدلالة على التفصيل لان تلك الصفة وان كانت دالة فانما تدل على طريق الجملة وقوله " ما اتخذوهم أولياء " يعني هؤلاء لو كانوا مؤمنين على الحقيقة لما اتخذوا المشركين أولياء و (ما) يجوز أن تكون جواب (لو)

ولا يجوز أن تكون جواب (ان) لان حرف الجزاء يعمل فيما قبله و (ما) لها صدر الكلام فلا يعمل فيها. وليس كذلك (لم) فلذلك لم يجز ان آتيني ما ضرك ويجوز ان آتيني لم يضررك، لانه يجوز أن تقول زيدا لم أضرب ولا يجوز أن تقول زيدا ما ضربت وقوله: " ولكن كثيرا منهم فاسقون " إنما وصفهم بالفسق وإن كان الكفر أعظم في باب الذم لامرين:

أحدهما إن معناه خارجون عن أمر الله فهذا المعنى لا يظهر بصفة كافر.
والآخر ان الفاسق في كفره هو المتمرد فيه والكلام يدل على أنهم فاسقون في كفرهم أي خارجون إلى التمرد فيه.

قوله تعالى:

لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن

(٦١٤)

أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (٨٥)

آية بلا خلاف قيل في سبب نزول هذه الآية قولان:

أحدهما - قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسدي: إنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابه لما أسلموا.

وقال قتادة: نزلت في قوم من أهل الكتاب كانوا على الحق متمسكين بشريعة عيسى (ع) فلما جاء محمد (صلى الله عليه وآله) آمنوا به.

وقال مجاهد: نزلت في الذين جاءوا مع جعفر بن أبي طالب (رحمه الله)

مسلمين واللام في قوله " لتجدن " لام القسم. والنون دخلت لتفصل بين الحال والاستقبال، هذا مذهب الخليل، وسيبويه وغيرهما. وقوله:

" عداوة " منصرف منتصب على التمييز.

وصف الله تعالى اليهود والمشركين بأنهم أشد الناس عداوة للمؤمنين، لان اليهود ظاهروا المشركين على المؤمنين مع أن المؤمنين يؤمنون بنبوّة موسى والتوراة التي أتى بها، فكان ينبغي أن يكونوا إلى من وافقهم في الايمان بنبيهم وكتابهم أقرب. وظاهروا المشركين حسدا للنبي (عليه السلام).

وقوله: " ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى " يعني الذين قدمنا ذكرهم - عن المفسرين. وقال الزجاج يجوز أن يكون أراد به النصارى، لانهم كانوا أقل مظاهره للمشركين، وبه قال الجبائي.

وروي عن ابن عباس أنه قال: من زعم أنها في النصارى فقد كذب. وإنما

(٦١٥)

هم النصارى الاربعون الذين فاضت أعينهم حين قرأ النبي (صلى الله عليه وآله) عليهم القرآن إثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية من أهل الشام. وساروا إلى الاسلام ولم يسارع اليهود.

والمودة هي المحبة إذا كان معها ميل الطباع يقال: وددت الرجل أوده ودا وودادا ومودة: إذا أحببته وودته: إذا تمنيته أوده ودا. ومنه قوله

" ودوا لو تدهن فيدهنون " (١).

وقوله " ذلك بأن منهم قسيسين ورهبان " فالقسيسون العباد في قول ابن زيد والقس والقسيس واحد إلا أنه قد صار كالعلم على رئيس من رؤساء النصارى في العبادة. ويجمع قسوسا

وأصله في اللغة النميمة يقس قسا إذا نم الحديث. قال رؤبة بن العجاج:

يضحكن عن قس الاذى غوافلا * لا جعبريات ولا طهاملا (٢)

الطهامل من النساء القباح. ومصدره القسوسة والقسيسة فالقس الذي ينم حاله بالاجتهاد في
العبادة. والرهبان جمع راهب، كراكب وركبان وفارس وفرسان. قال الشاعر:
رهبان مدين لو رأوك تنزلوا * والعصم من شعف العقول الفادر (١)
وقيل: إنه يكون واحدا ويجمع رهابين كقربان وقرايين ورهابة أيضا قال الشاعر:

(١) سورة القلم آية ٩.

(٢) اللسان (قسس)، (جعبر) ورايته (يمسين) بدل "يضكن".

(٣) قائله جرير ديوانه: ٣٠٥ واللسان (ذهب)، ومعجم البلدان (مدين). (*)

(٦١٦)

لو عاينت رهبان دير في القل * لاقبل الرهبان يمشي ونزل (٢)
وكل ذلك من الرهبة التي هي المخافة ورهب يرهب رهبا إذا خاف والترهيب ضد الترغيب.
وقوله " وإنهم لا يستكبرون " معناه إن هؤلاء النصارى الذين آمنوا لا يستكبرون عن اتباع الحق
والانقياد له كما استكبر اليهود وعباد الاوثان وانفوا من قبول الحق، وأخبر الله تعالى في هذه
الآية عن مجاوري النبي (صلى الله عليه وآله) من اليهود، ومودة النجاشي وأصحابه الذين أسلموا
معه من الحبشة لان الهجرة كانت إلى المدينة وبها اليهود والى الحبشة وبها النجاشي
وأصحابه فأخبر عن عداوة هؤلاء ومودة أولئك.

(١) تفسير القرطبي ٦: ٢٥١ وتفسير الطبري ١٠: ٥٠٣. (*)

(١)

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الثامن

دار إحياء التراث العربي

(٣)

سورة الشعراء قال قتادة هي مكية. وقيل أربع آيات منها مدنية من قوله " والشعراء إلى آخرها " وهي مئتان وسبع وعشرون آية في الكوفي والمدني الاول وست في البصري والمدني الاخر بسم الله الرحمن الرحيم * (طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين (٣).

ثلاث آيات في الكوفي خاصة. واثنان في الباقي. ولم يعد " طسم " آية إلا أهل الكوفة. قرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى والعلمي " طسم، وطس " بامالة الطاء فيهما. الباقيون بالتفخيم، وأظهر - النون من هجاء سين عند الميم - حمزة وأبو جعفر إلا أن أبا جعفر يقطع الحروف. الباقيون يخفونها قال ابوا علي الفارسي: تبين النون من (طسم) على قراءة حمزة هو الوجه، لان حروف الهجاء في تقدير الانفصال والانقطاع مما بعدها، وإذا ثبت ذلك وجب أن تبين النون

(٤)

لأنها تخفى إذا اتصلت بحرف من حروف الفم، فإذا لم يتصل بها، لم يكن هناك ما يوجب إخفاؤها. ووجه إخفائها مع هذه الحروف أن همزة الوصل قد وصلت ولم تقطع، وهمزة الوصل إنما تذهب في الدرج فكما سقطت همزة الوصل، وهي لا تسقط إلا في الدرج مع هذه الحروف في (الف لام ميم) الله، كذلك لا تبيين النون، ويقدر فيها الاتصال بما قبلها، ولا يقدر الانفصال.

قيل إنما عد (طسم) آية، ولم يعد (طس) لان (طس) تشبه الاسم المنفرد، نحو (قابيل، وهابيل) وليس كذلك (طسم). ووجه الشبه بالزنة أن أوله لا يشبه حروف الزيادة التي هي حروف المد واللين، نحو (يس)

وليس شئ على وزن المفرد يعد إلا (ياسين) لان الياء تشبه حروف الزيادة فقد رجع إلى انه ليس على زنة المفرد. وقد بينا فيما مضى معاني هذه الحروف المقطعة في أول سورة البقرة، فلا نطول باعادته. وقد بينا قول من قال. إنها اسماء السور. وقال قتادة والضحاك: ان (طسم، وطس) اسم من اسماء القرآن.

وقوله " تلك آيات الكتاب المبين " انما أشار ب (تلك) إلى ما ليس بحاضر لانه متوقع، فهو كالحاضر بحضور المعنى للنفس، وتقديره: تلك الآيات آيات الكتاب. وقيل: تلك الآيات التي وعدتم بها هي القرآن. وقيل: ان " تلك " بمعنى (هذا) ومعنى (الكتاب) القرآن، ووصفه بأنه (المبين) لان به تتبين الاحكام، لان البيان اظهار المعنى للنفس بما يتميز به عن غيره، وهو مأخوذ من البينونة، وهي التفرقة بين الشئ وغيره. فالمبين الذي يبين الحق من الباطل. وسمي أيضا فرقانا، لانه يفرق بين الحق والباطل.

وقوله " لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين " قيل فيه قولاً: الاول - قال ابن عباس وقتادة: معناه لعلك قائل نفسك. والثاني قال ابن زيد: مخرج

(٥)

نفسك من جسدك. والبخع القتل، قال ذو الرمة:

الا أيهذا الباخع الوجد نفسه * لشئ نحتة عن يديه المقادر (١)

وقال ابن عباس معنى " أن لا يكونوا مؤمنين " فيه أي في القرآن وقال الفراء موضع (أن) نصب ب (باخع)، لان (أن) جزاء، كانه قال: ان لم يكونوا مؤمنين فانت قائل نفسك، فلما كان ماضياً نصب (ان) كما تقول:

اتيك (أن) تأتيني، ولو لم يكن ماضيا لقلت: آتيك ان تأتني، ولو كانت مجزومة مع كسر (ان) كان جائزا، ومثله (لا يجز منكم شأن قوم أن) (٢) بالفتح والكسر. قوله تعالى:

* (إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين (٤) وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) * (٥) آيتان بلا خلاف. لما بين الله تعالى حرص النبي (صلى الله عليه وآله) على إيمان قومه، واجتهاده بهم حتى كاد أن يقتل نفسه تأسفا على تركهم الايمان، أخبره بأنه قادر على أن ينزل عليهم آية ودلالة من السماء تظل اعناقهم لها خاضعة بأن تلجئهم إلى الايمان، لكن ذلك نقيض الغرض بالتكليف، لانه تعالى لو فعل ذلك، لما استحقوا ثوابا ولا مدحا، لان الملجأ لا يستحق الثواب والمدح على فعله، لانه بحكم المفعول فيه. وقيل: المراد بالاعناق الرؤساء. وقال قتادة: المعنى لا يلوي أحد منهم

(١) شرح ألفية بن مالك (المنادى) ٢٢٤ (٢) سورة ٥ المائد آية ٣ (*)

(٦)

عنقه إلى معصية. وقيل في وجه جمع "خاضعين" بالياء والنون وهو صفة (الاعناق) والاعناق لا تعقل، وهذا الجمع يختص بمن يعقل قيل فيه أربعة أقوال: احدهما - فظل اصحاب الاعناق لها خاضعين، وحذف المضاف، واقام المضاف اليه مقامه لدلالة الكلام عليه.

الثاني - انه أراد بالاعناق الرؤساء والجماعات، كما يقال جاءه عنق من الناس أي جماعة. الثالث - ان يكون على الاقحام. قال ابو عبيدة، والمبرد "خاضعين" من صفة الهاء والميم، في قوله "اعناقهم" كما قال جرير:

أرى مر السنين أخذن مني * كما أخذ السرار من الهلال (١)
فعلى هذا يكون ترك الاعناق وأخبر عن الهاء والميم، وتقديره فظلوا خاضعين لها والاعناق مقحمة.

الرابع - أنها ذكرت بصفة من يعقل لما نسب اليها ما يكون من العقلاء كما قال الشاعر:
تمزرتها والديك يدعو صياحه * إذا ما بنوا نعش دنوا فتصوبوا (٢)
ويروي نادى صباحه. ثم اخبر تعالى عن هؤلاء الكفار الذين تأسف النبي (صلى الله عليه وآله) على عدولهم عن ايمانهم انه ليس يأتيهم ذكر من الرحمن يعني القرآن. كما قال تعالى "انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" (٣) وقال "إن

(١) ديوانه " دار بيروت " ٣٤١ (٢) قائله النابغة الجعدي. اللسان (نعش)

(٣) سورة ١٥ الحجر آية ٩ (*)

(٧)

هو إلا ذكر وقرآن مبين " (١) ووصفه بأنه محدث، ولذلك جره، لأنه صفة ل (ذكر). وقوله " إلا كانوا عنه معرضين " أي يتولون عنه ولا ينظرون فيه.

قال الفراء: انما قال " فظلت " ولم يقل " فتظّل " لأنه يجوز أن يعطف على مجزوم الجزاء ب (فعل) لأن الجزاء يصلح في موضع (فعل، يفعل) وفي موضع (يفعل، يفعل) لأنك تقول: إن زرتي زرتك وإن تزرتي أزرك، والمعنى واحد قوله تعالى:

* (فقد كذبوا فسيأتئيبهم أنبؤ ما كانوا به يستهزؤن (٦) أو لم يروا إلى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم (٧) إن في ذلك لاية وما كان أكثرهم مؤمنين (٨) وإن ربك لهو العزيز الرحيم (٩) أربع آيات بلا خلاف.

اخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم بأنهم كذبوا بايات الله وجحدوا رسوله وأنه سيأتئيبهم فيما بعد، يعني يوم القيامة " اخبار ما كانوا به يستهزون " وإنما خص المكذب باتيان الانبياء، مع أنها تأتي المصدق والمكذب، من حيث أن المكذب يعلم بها بعد أن كان جاهلاً. والمصدق كان عالماً بها، فلذلك حسن وعيد المكذب بها، لأن حاله يتغير إلى الحسرة والندم. والاستهزاء السخرية، وهو طلب اللهو بما عند الطالب صغير القدر.

ثم قال " او لم يروا " هؤلاء الكفار " إلى الارض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم " من أنواع النبات، فيستدلوا على توحيده، بأن يعلموا أن ذلك

(١) سورة ٣٦ يس آية ٦٩ (*)

(٨)

لا يقدر عليه غيره. ولا يتأتى من سواه، ممن هو قادر بقدره، لأنه لو تأتى من غيره لتأتى منا لانا قادرون أيضا بقدره، فلما استحال منا علمنا استحالة ذلك ممن يجري مجرانا، فاذا الفاعل لذلك مخالف لنا، وانه قادر لنفسه.

ثم اخبر تعالى ان فيما ذكره من انبات النبات من كل زوج كريم، لدلالة لمن يستدل بها، ومن يتمكن من ذلك، وإن اكثر الكفار لا يصدقون بذلك، ولا يعترفون به عنادا وتقليدا لاسلافهم،

وحبا للراحة، وهربا من مشقة التكليف ومعنى " كل زوج كريم " يعني مما يأكل الناس والانعام، في قول مجاهد. وقيل:

من الشئ ومشاكله في الانتفاع به. وقيل: من كل زوج كريم من انواع تكرم عند أهلها. وقيل: من كل نوع معه قرينه من أبيض وأحمر وأصفر. وحلو وحامض، وروائح وغير ذلك مختلفة. ثم قال " وإن ربك " يا محمد " لهو العزيز " الغني القادر الذي لا يعجز ولا يغلب " الرحيم " أي المنعم على عباده بأنواع النعم التي ذكرها. قوله تعالى:

* (وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين (١٠) قوم فرعون ألا يتقون (١١) قال رب إني أخاف أن يكذبون (١٢)

ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هرون (١٣) ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون) * (١٤) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ " ويضيق صدري، ولا ينطلق لساني " بالنصب يعقوب، عطا على " ان يكذبون " الباقون - بالرفع - عطا على * (أخاف) * ويجوز أن يكون على

(٩)

الاستئناف. والمعنى: واني يضيق صدري.

يقول الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) واذكر يا محمد الوقت الذي نادى فيه ربك - الذي خلقك - موسى، ومعناه قال له: يا موسى، بأن ائت القوم الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي. ثم بين: من القوم الموصوفون بهذه الصفة؟ بان قال * (قوم فرعون) * وهو عطف بيان * (ألا يتقون) * وإنما قال بالياء، لانه على الحكاية. وتقديره: فقل لهم: ألا تتقون، ومثله * (قل للذين كفروا سيغلبون) * (٥) بالياء والتاء. ولو قرى بالتاء كان جائزا، والتقوى مجانية القبائح بفعل المحاسن: اتقى الله يتقيه اتقاء أي اتقى عقابه بطاعته بدلا عن معصيته، واصله صرف الامر بحاجز بين الصارف وبينه.

ثم حكى ما قال موسى وجوابه، فانه قال يا * (رب اني أخاف أن يكذبون) * ولا يقبلون مني. والخوف انزعاج النفس بتوقع الضرر، ونقيضه الامن وهو سكون النفس إلى خلوص النفع، ونظير الخوف الفرع والذعر والجزع.

والتكذيب تصيير المخبر كاذبا باضافة الكذب اليه، كذبه تكذيبا وأكذبه إكذابا والكذب نقيض الصدق، والكذب كله قبيح، والتكذيب على وجهين: فتكذيب الصادق قبيح، وتكذيب الكاذب حسن.

وقوله " ويضيق صدري ولا ينطلق لساني " حكاية أيضا عما قال موسى.
وضيق الصدر غم يمنع من سلوك المعاني في النفس، لأنه يمنع منه كما يمنع ضيق الطريق
من السلوك فيه. وقوله " ولا ينطلق لساني " أي لا ينبعث بالكلام.

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٢ (*)

(١٠)

وقد يتعذر ذلك لآفة في اللسان، وقد يتعذر لضيق الصدر، وغروب المعاني التي تطلب الكلام.
وقوله " فارسل إلى هارون " يعني لمعاونتي، كما يقال: إذا نزلت بنا نازلة أرسلنا إليك أي
لتعيننا. وقيل: انما طلب المعاونة حرصا على القيام بالطاعة. " ولا ينطلق لساني " للعقدة التي
كانت فيه. قال الجبائي: لم يسأل موسى ذلك إلا بعد أن أذن الله تعالى له في ذلك، لان الانبياء
لا يسألون الله إلا ما يؤذن لهم في مسألته.

وقوله " ولهم علي ذنب " يعني قتل القبطي الذي قتله موسى حين استصرخ به واحد من
أصحابه من بني اسرائيل - ذكره مجاهد وقتادة - وقوله " فأخاف أن يقتلون " بدل ذلك
المقتول.

قوله تعالى:

* (قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون (١٥) فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين
(١٦) أن أرسل معنا بني إسرائيل (١٧) قال ألم نريك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين
(١٨) وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين (١٩)
قال فعلتها إذا وأنا من الضالين) * (٢٠) ست آيات.

هذا خطاب من الله تعالى جوابا لموسى عماه حكاة؟؟ * (قال كلا) * لا يقتلونك * (فاذهبا) *
ومعنى (كلا) زجر أي لا يكون ذلك، ولا يقتلونك * (فاذهبا) * أمر لموسى وهارون على ما
اقترحه موسى فاجيب اليه * (فاذهبا بآياتنا) * أي

(١١)

بأدلتنا ومعجزاتنا التي خصكما الله بها، و * (انا معكم مستمعون) * أي نحن نحفظكم ونحن
سامعون ما يجري بينكم، فهو (مستمع) في موضع (سامع) لان الاستماع طلب السمع
بالاصغاء اليه، وذلك لا يجوز عليه تعالى، وانما قال بهذا اللفظ، لانه أبلغ في الصفة، وأشد
في التعظيم - والله تعالى سامع بما يغني عن مذكر مستمع - لينبئ عن هذا المعنى، ووصفه

بسامع يغني عن سماع الجماعة التي يقع سماعهم معاونة وإنما قال (مستمعون) بلفظ الجمع بناء على قوله * (إنا) * وأمرهما بأن يأتيا فرعون وأن يقولوا له * (إنا رسول رب العالمين) * أرسلنا الله اليك لندعوك إلى عبادته، وترك الاشرار به، وإنما قال * (رسول) * على التوحيد، وهو للثنتين، لأن المعنى ان كل واحد منا رسول رب العالمين، وقد يكون الرسول في معنى الجمع قال الهذلي:

الكني اليها وخير الرسو * ل أعلمهم بنواحي الخبر (١)

أي وخير الرسل: وقيل: إنه في موضع رسالة، فكما يقع المصدر موقع الصفة كذلك تقع الصفة موقع المصدر. والارسال جعل الشيء ماضيا في الامر، ومثله الاطلاق والبعث، وانشد في ذلك:

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم * بسر ولا أرسلتهم برسول (٢)
أي برسالة، وقال الآخر:

ألا من مبلغ عني خفافا * رسولا بيت أهلك منتهاها (٣)

فانته تأنيث الرسالة. وقوله " أن ارسل معنا بني اسرائيل " أي أمرك الله بأن تطلق صراح بني إسرائيل ليحيئوا معنا، وفي الكلام حذف وتقديره: إنهما مضيا إلى فرعون، وقالوا له ما أمرهم الله به

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٩٣ (٢) مر هذا البيت في ١ / ٣٦٨ (٣) قائله عباس بن مرداس تفسير الطبري ١٩ / ٣٨ والقرطبي ١٣ / ٩٤ (*)

(١٢)

فقال فرعون لموسى " ألم نربك فينا وليدا " فالتربية تنشئة الشيء حالا بعد حال: رباه يربيه، ومثله نماء ينميه نماء. وقوله " وليدا " أي حين كنت طفلا صغيرا " ولبثت فينا من عمرك سنين " أي اقامت سنين كثيرة عندنا، ومكثت.

وفى (عمر) ثلاث لغات - ضم الميم وإسكانها مع ضم العين، وفتح العين وسكون الميم. ومنه قوله " لعمرك " (١)، وعمر الانسان بالفتح لا غير، وفى القسم ايضا بالفتح لا غير.

وقوله " وفعلت فعلتك التي فعلت " يعني قتلك القبطي. وقرأ الشعبي " فعلتك " بكسر الفاء مثل الجلسة والركبة، وهو شاذ لا يقرأ به. وقوله " وانت من الكافرين " قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال ابن زيد أنت من الجاحدين لنعمتنا.

الثاني - قال السدي أراد كنت على ديننا هذا الذي تعييه كافرا بالله.

وقال الحسن: وأنت من الكافرين أي في أي إلهك. وقيل: من الكافرين لحق تربيتي، فقال له موسى (ع) في الجواب عن ذلك " فعلتها " يعني قتل القبطي " وأنا من الضالين " قال قوم: يعني من الضالين أي من الجاهلين بأنها تبلغ القتل. وقال الجبائي " وأنا من الضالين " عن العلم بان ذلك يؤدي إلى قتله.

وقال قوم: معناه " وأنا من الضالين " عن طريق الصواب، لاني ما تعمده. وانما وقع مني خطأ، كما يرمي انسان طائرا فيصيب انسانا. قوله تعالى:

* (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني

(١) سورة الحجر آية ٧٢ (*)

(١٣)

من المرسلين (٢١) وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل (٢٢) قال فرعون وما رب العالمين (٢٣) قال رب السموات والارض وما بينهما إن كنتم موقنين (٢٤) قال لمن حوله ألا تستمعون) * (٢٥) خمس آيات بلا خلاف. يقول الله تعالى حاكيا عن موسى أنه قال لفرعون: إني فررت منكم لما خفتكم، فالفرار الذهاب على وجه التحرز من الادراك، ومثله الهرب: فر يفر فرارا، ومنه يفتقر أي يضحك، لانه يباعد بين شفقيه مباحة الفرار.

وقوله " فوهب لي ربي حكما " فالهبة الصلة بالنائل. وهب له يهب هبة فهو واهب، واستوهبه كذا إذا سأله هبته، وتواهبوا ما بينهم إذا اسقطوها عنهم على جهة الهبة. والحكم العلم بما تدعو اليه الحكمة، وهو الذي وهبه الله تعالى لموسى من التوراة. والعلم بالحلال والحرام وسائر الاحكام. والخبر عما يدعو اليه الحكم ايضا يسمى حكما. والحكم - ههنا - أراد به النبوة - في قول جماعة من المفسرين - وقوله " وجعلني من المرسلين " أي جعلني الله نبيا من جملة الانبياء.

وقوله " وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني اسرائيل " قيل في معناه قولان: احدهما - ان اتخاذك بني اسرائيل عبيدا قد أحببت ذلك، وإن كانت نعمة علي. الثاني - إنك لما ظلمت بني اسرائيل ولم تظلمني عددها نعمة علي؟! !

(١٤)

وقيل قول ثالث - انه لا يوثق بأنها نعمة منك مع ظلمك بني اسرائيل في تعبيدهم، وفي كل ذلك دلالة وحجة عليه، وتقرير له.

ويجوز في * (أن) * النصب بمعنى لتعبيدك بني اسرائيل، والرفع بالرد على النعمة أي على تعبيدك بني اسرائيل. والتعبيد اتخاذ الانسان أو غيره عبدا تقول عبده وأعبده بمعنى واحد، قال الشاعر:

علام يعبد في قومي وقد كثرت * فيهم أباعر ما شاءوا وعبدان (١)

وقال الجبائي بين أنه ليس لفرعون عليه نعمة، لان الذي تولى تربيته أمه وغيرها من بني اسرائيل بأمر فرعون لما استعبدهم. وقال الحسن: أراد أخذت أموال بني اسرائيل، واتخذتهم عبيدا فأنفقت علي من أموالهم. فاراد أن لا يسوغه ما امتن به عليه. وقال قوم: أراد أو تلك نعمة؟! مستفهما واسقط حرف الاستفهام.

وقوله تعالى * (قال فرعون وما رب العالمين) * حكاية من الله أن فرعون قال لموسى أي شئ رب العالمين الذي تدعوني إلى عبادته، لان هذا القول من فرعون يدل على ان موسى كان دعاه إلى طاعة الله وعبادته. وقيل: ان فرعون عجب من حوله من جواب موسى، لانه طلب منه أي أجناس الاجسام هو؟ جهلا منه بما ينبغي أن يسأل عنه، فقال موسى في جوابه " رب السموات والارض وما بينهما " أي رب العالمين هو الذي اخترع السموات والارض وخلقهما، وخلق ما بينهما من الحيوان والجماد والنبات " إن كنتم موقنين " بذلك مصدقين به فقال فرعون - عند ذلك - لمن حوله من أصحابه " ألا تستمعون " أي ألا تصغون اليه، وتقهمون ما يقول معجبا لهم من قوله، حين عجز عن محاورته ومجاوبته.

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٩٦ والطبري ١٩ / ٤٣ (*)

(١٥)

قوله تعالى:

* (قال ربكم ورب آبائكم الاولين (٢٦) قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون (٢٧) قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون (٢٨) قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين (٢٩) قال أو لو جئتكم بشئ مبين) * (٣٠) خمس آيات بلا خلاف.

قال لما قال فرعون لمن حوله " ألا تستمعون " إلى قول موسى فانه يقول ربه رب العالمين الذي خلق السموات والارض وما بينهما ! معجبا لهم من قوله، قال موسى " ربكم " الذي خلقكم ويملك تدبيركم وخلق آباءكم الاولين، وملك تدبيرهم، وتدبير جميع الخلق. والاول

الكائن قبل غيره والآخر الكائن بعد غيره، والكائن على صفة أول في كونه على تلك الصفة، نحو الاول في دخول الدار، فقال فرعون - عند ذلك حين لم يجد جوابا لكلام موسى - لقومه " إن رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون " يموه عليهم، اني اسأله عن ماهية رب العالمين فيجيبني عن غير ذلك، كما يفعل المجنون. والجنون داء يعتري النفس يغطي على العقل، وأصله الستر من قولهم: جنه الليل وأجنه إذا ستره بظلمته والجنة البستان الذي يجنه الشجر، فقال موسى عند ذلك ان الذي ذكرته انه " ربكم ورب آبائكم الاولين "... " هو رب المشرق والمغرب " فالمشرق الموضع الذي تطلع منه الشمس، والمغرب الموضع الذي تغرب فيه الشمس يقال:

(١٦)

شرقت الشمس شروفا إذا طلعت، وأشرقت إشراقا إذا أضاعت وصفت. " وما بينهما إن كنتم تعقلون " ذلك وتندبرونه، فلما طال على فرعون الاحتجاج من موسى تهدده " قال لئن اتخذت الها غيري " يعني معبودا سواي " لاجلنك " من المسجونين أي محبوسا من جملة المحبسين، فقال له موسى " أولو جنتك بشئ مبين " يعني بمعجزة تدل على صحة ما ادعيته تبينني من غيري والمعنى ان جنتك بشئ يدل على صدقي تحبسني؟! ! قوله تعالى:

* (قال فات به إن كنت من الصادقين (٣١) فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين (٣٢) ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين (٣٣)

قال للملا حوله إن هذا لساحر عليم (٣٤) يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون (٣٥) قالوا أرجه وأخاه وأبعث في المدائن حاشرين (٣٦) يأتوك بكل سحار عليم (٣٧) فجمع السحرة لميقات يوم معلوم (٣٨) وقيل للناس هل أنتم مجتمعون (٣٩) لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) * (٤٠) عشر آيات بلا خلاف.

لما قال موسى لفرعون " أو لو جنتك بشئ مبين قال " فرعون " فات به إن كنت من الصادقين " أي هات ما ادعيته من المعجزة إن كنت صادقا

(١٧)

" فألقى عصاه " حينئذ موسى " فاذا هي ثعبان مبين " وهي الحية العظيمة، ومنه الثعب وهو المجرى الواسع، وانتعب الماء انتعابا إذا جرى باتساع، ومنه الثعبان لانه يجري باتساع لعظمه. وفي قلب العصا حية دلالتان:

إحداهما - دلالة على الله تعالى، لانه مما لا يقدر عليه إلا هو، وليس مما يلتبس بإيجاب الطباع، لانه اختراع، للانقلاب في الحال.

والثاني - دلالة على النبوة بموافقته الدعوة مع رجوعها إلى حالتها الاولى لما قبض عليها. وقيل: الثعبان الحية الذكر، ووصفه تعالى العصا - ههنا - بأنها صارت مثل الثعبان، لا ينافي قوله " كأنها جان " من وجوه:

احدها - انه تعالى لم يقل، فاذا هي جان، كما وصفها بأنها ثعبان، وانما شبهها بالجان، ولا يجوز أن تكون مثله على كل حال.

والثاني - انه وصفها بالثعبان في عظمها، وبالجان في سرعة حركتها، فكأنها مع كبرها في صفة الجان لسرعة الحركة، وذلك أبلغ في الاعجاز.

وثالثها - انه أراد أنها صارت مثل الجان في أول حالها، ثم تدرجت إلى ان صارت مثل الثعبان، وذلك ايضا أبلغ في باب الاعجاز.

ورابعها - ان الحاليين مختلفان، لان احدهما كانت حين ألقى موسى فصارت العصا كالثعبان، والحالة الاخرى حين أوحى الله اليه وناداه من الشجرة.

ومعنى (مبين) قال ابن عباس: انه ثعبان لا شبهة فيه. وقيل: معناه مبين وجه الحجة به. وروي أنها غرزت ذنبها في الارض ورفعت رأسها نحو الميل إلى السماء، ثم انحطت فجعلت رأس فرعون بين نابيها، وجعلت تقول: مرني بما شئت،

(١٨)

فناداه فرعون أسألك بالذي أرسلك لما احذتها، فاخذها، فعادت عصا، كما كانت - ذكره ابن عباس، والمنهال -.

وقوله " ونزع يده " أي أخرجها من جيبه أو من كفه على ما روي. ويجوز أن يكون المراد حسر عن ذراعه. والمعنى أنه نزعها عن اللباس التي كان عليها. والنزع إخراج الشيء مما كان متصلا به، وملابسا له.

وقوله " فاذا هي بيضاء " يعني بياضا نوريا كالشمس في إشراقها * (لِلنَّاطِرِينَ) * إليها من غير برص، فقال فرعون عند ذلك لاشراف قومه الذين حوله * (إن هذا) * يعني موسى * (لساحر عليم) * أي عالم بالسحر والحيل * (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) * قيل معناه يريد أن يخرج عبيدكم بني اسرائيل قهرا. ويحتمل أن يكون أراد يخرجكم من دياركم ويتغلب عليكم * (فماذا تأمرون) * في تأديبه، وانما شاور قومه في ذلك مع أنه كان يقول لهم: انه إله، لانه يجوز أن يكون ذهب عليه وعلى قومه أن الاله لا يجوز أن يشاور غيره، كما ذهب عليهم أن الاله لا يكون جسما محتاجا، فاعتقدوا إلهيته لما دعاهم إليها مع ظهور

حاجته التي لا اشكال فيها، فقال لفرعون اشراف قومه الذين استشارهم " أرجه واخاه " أي أخرهما، فالارجاء التأخير، تقول: ارجأت الامر ارجئه إرجاء، وهم المرجئة، لانهم قالوا بتأخير حكم الفساق في لزوم العقاب. وقيل:

انما أشاروا بتأخيره ولم يشيروا بقتله، لانهم رأوا أن الناس يفتنون به ان قتل، وإن السحرة اذا قاومته زال ذلك الافتتان، وكان له حينئذ عذر في قتله أو حبسه بحسب ما يراه. وقوله * (وابعث في المدائن حاشرين) * أي ارسل حاشرين يحشرون الناس من جميع البلدان. فالحشر السوق من جهات مختلفة إلى مكان واحد،

(١٩)

حشره يحشره حشرا، فهو حاشر والشئ محشور، وانحشر الناس إلى مكان إذا اجتمعوا اليه. والسحر لطف الحيلة حتى يتوهم المموه عليه أنه حقيقة. وقوله * (ياتوك) * أي يجيئك * (بكل سحار) * مبالغة فيمن يعمل بالسحر * (عليم) * أي عالم بالسحر، وفي الكلام حذف، لان تقديره إنه انفذ الحاشرين في المدائن وانهم حشروهم * (فجمع السحرة) * على ما قالوه * (لميقات يوم معلوم) * لوقت يوم بعينه اختاروه وعينوه * (وقيل للناس هل انتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة) * ان غلبوا موسى، فالغلبة الاستعلاء بالقوة: غلبة يغلبه غلبة إذا قهره، وتغلب تغليباً وغالبه مغالبة وتغالباً تغالباً. وقد يوصف المستعلي على غيره بالحجة بأنه غلبه. قوله تعالى:

* (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لاجرا إن كنا نحن الغالبين (٤١) قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين (٤٢) قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون (٤٣) فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون (٤٤) فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون (٤٥) آيات بلا خلاف.

قرأ حفص " تلقف " بتخفيف القاف، الباقون - بتشديدها - إلا أن البزي وابن فليح وقنبل شددوا التاء. قال ابوعلي: من خفف القاف، فهو الوجه، لان من شددها يريد تتلقف، فادغم، وانما ادغم، لانه يلزمه إذا ابتدأ

(٢٠)

على هذه القراءة أن يجتلب همزة الوصل، وهمزه الوصل لا تدخل على الافعال المضارعة، كما لا تدخل على اسماء الفاعلين.

حكى الله تعالى أن السحرة لما حشروهم إلى فرعون وحضروا بين يديه قالوا له " أئن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين " اي هل لنا أجر جزاء على غلبنا اياه ان غلبناه. ومن قرأ على

الخبر " إن لنا " أراد انهم لتيقنهم بالاجر أخبروا بذلك. والاول أقوى لقوله " قال نعم " وذلك جواب الاستفهام. والاجر الجزاء على العمل بالخير. والجزاء على الشر يسمى عقابا، ولذلك اذا دعي لانسان قيل: أجرك الله. والمعنى أئن لنا لاجرا عند الملك؟ والغالب الذي يعلو على غيره الذي يمنع في نفسه بما يصير اليه في قبضة، فالله غالب كل شئ بمعنى أنه عال عليه لدخوله في مقدوره، لا يمكنه الخروج منه، فقال لهم فرعون في جواب ذلك: " نعم " لكم على ذلك الاجر الجزيل " وانكم " مع ما تعطون من الجزاء " اذا لمن المقربين ". والمقرب المدني من مجلس الكرامة، واختصاصه بها.

ثم حكى ما قال موسى للسحرة، فانه قال لهم " ألقوا ما أنتم ملقون " وهذا بصورة الامر والمراد به التحدي، والمعنى اطرحوا ما انتم ملقوه " فالتقوا حبالهم وعصيهم " أي طرحت السحرة ما كان معهم من السحر من الحبال والعصي التي سحروها وموهوا بأنها تسعى وتتحرك. وقيل: انهم جعلوا فيها زيبقا، وطرحوها في الشمس، فلما حميت بالشمس تحرك الزيبق، لانه إذا حمي من شأنه أن يصعد فتحركت لذلك الحبال والعصي، فظن الناظرون أنها تتحرك. وقالوا حين طرحوا ما معهم " بعزة فرعون " والعزة القوة التي يتمتع بها من لحاق الضيم بعلو منزلتها، وهذا القول قسم منهم وإن كان غير مبرور " إنا لنحن الغالبون " لموسى فيما أتى به " فالقى " عند ذلك " موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون "

(٢١)

أي تناولت العصا ما موهوا به في ادنى مدة من الزمان، والتلقف تناول الشئ بالفم بسرعة، تقول: تلقف تلقفا والتلقف التلقفا واستلقف استلقافا. ومعنى (ما يأفكون) ما يوهمون الانقلاب زورا وبهتاننا. وقيل كان عدد السحرة اثني عشر ألفا وكلهم أقر بالحق عند آية موسى. قوله تعالى:

* (فالقي السحرة ساجدين (٤٦) قالوا آمنا برب العالمين (٤٧)

رب موسى وهرون (٤٨) قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فليسوف تعلمون (٤٩) لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم أجمعين (٥٠) قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون) * (٥١) ست آيات.

قرأ أهل الكوفة إلا حفصا وروح " أأمتم " بهمزتين مخففتين على الاستفهام. وروى حفص وورش ورويس بهمزة واحدة على الخبر. الباقر بهمزتين الاولى مخففة والثانية ملينة. ولم يفصل أحد بين الهمزتين بألف. وقد بينا نظائره فيما تقدم في الاعراف.

حكى الله تعالى أن السحرة لما بهرهم ما أظهره موسى (ع) من قلب العصا حية وتلقفها جميع ما اتعبوا نفوسهم فيه علموا أن ذلك من فعل الله، وأن احدا من البشر لا يقدر عليه فأمنوا عند

ذلك، وأذعنوا للحق وخروا ساجدين لله شكرا على ما أنعم به عليهم ووقفهم للايمان، وأنهم قالوا عند ذلك " آمنة " وصدقنا " برب العالمين " الذي خلق الخلق كلهم، الذي هو " رب موسى وهارون " وإنما

(٢٢)

خص رب موسى وهارون بالذكر دون غيرهما، وان كان رب كل شيء، للبيان عن المعنى الذي دعا إلى ربوبيته موسى وهارون، لان الجهال كانوا يعتقدون ربوبية فرعون، فكان إخلاصهم على خلاف ما يقوله الاغبياء، والمعنى الذي ألقاهم ساجدين قيل فيه قولان: احدهما - إن الحق الذي عرفوه القاهم ساجدين.

الثاني - انهم ألقوا نفوسهم ساجدين لما عرفوا من صحة الدعاء إلى الدين. فقال عند ذلك فرعون مهددا لهم " أأمنتم له " أي صدقتم له فيما يدعو اليه منكرا عليهم " قبل أن آذن لكم " في تصديقكم. ثم قال " إنه لكبيركم " أي استاذكم وعالمكم " الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون " فيما بعد ما افعله بكم جزاء على تصديقكم إياه، ودخلت اللام في الكلام تأكيدا، ثم فسر ذلك، فقال " لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف " يعني قطع اليد من جانب، والرجل من الجانب الاخر كقطع الرجل اليسرى واليد اليمنى " ولاصلبنكم " مع ذلك " أجمعين " على الجذوع، ولا أترك واحدا منكم، لا تتناله عقوبتي، فقالوا له في الجواب عن ذلك " لا ضير " أي لا ضرر علينا بما تفعله يقال: ضره يضره ضرارا، وضاره يضير ضيرا، وضاره يضره ضورا لغة قليلة. وقوله " انا إلى ربنا منقلبون " أي مصيرنا إلى ثواب الله لا يضرنا ما تفعله بنا. وقال الجبائي: في الآية دلالة على ان للانسان أن يظهر الحق وإن خاف القتل. وقال الحسن: لم يصل فرعون إلى قتل أحد منهم ولا قطعه. وقال قوم: أول من قطع الايدي والارجل فرعون.

قوله تعالى:

* (إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول

(٢٣)

المؤمنين (٥٢) وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون (٥٣) فأرسل فرعون في المدائن حاشرين (٥٤) إن هؤلاء لشرذمة قليلون (٥٥) وإنهم لنا لغائظون (٥٦) وإنا لجميع حاذرون (٥٧)

فأخرجناهم من جنات وعيون (٥٨) وكنوز ومقام كريم (٥٩)

كذلك وأورثناها بني إسرائيل (٦٠) فأتبعوهم مشرقين) * (٦١)

عشر آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة وابن عامر إلا الحلواني " حاذرون " بألف، الباقون بغير ألف. من قرأ بالالف قال: هو مثل شرب، فهو شارب، وحذر فهو حاذر. وقيل: رجل حاذر فيما يستقبل، وليس حاذرا في الوقت، فإذا كان الحذر له لازما قيل رجل حذر مثل سؤل وسائل، وطمع وطامع، وكان يجوز ضم الذال لانهم يقولون: حذر وحذر - بكسر الذال وضمها - مثل يقط ويقظ وفظن وفظن.

وقرأ عبدالله بن السائب " حادرون " بالذال - المهملة - بمعنى نحن أقوىاء غلاظ الاجسام، يقولون: رجل حادر أى سمين، وعين حذرة بكرة إذا كانت واسعة عظيمة المقلة، قال امرؤ القيس:

وعين لها حذرة بكرة * شقت مأقيهما من آخر (١)

وقيل الفرق بين الحاذر والحذر أن الحاذر الفاعل للحذر، أن يناله مكروه والحذر.

(١) ديوانه ٩٩ وتفسير القرطبي ١٣ / ١٠٤ (*)

(٢٤)

المطبوع على الحذر وقيل: " حاذرون " مؤدون في السلاح أى ذؤوا أداة من السلاح المستعدون للحروب من عدو، والحذر اجتناب الشئ خوفا منه، حذر حذرا، فهو حاذر وحذره تحذيرا، وتحذر تحذرا وحاذره محاذرة وحذارا.

أخبر الله تعالى عن السحرة أنهم حين آمنوا وقالوا لفرعون: لا ضرر علينا بما تفعل بنا، لانا منقلبنا إلى الله وثوابه، قالوا " إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا " أى ما فعلنا من السحر وغيره، لانا كنا اول من صدق بموسى وأقر بنبوته، وبما دعا اليه من توحيد الله ونفي التشبيه عنه ممن كان يعمل بالسحر.

وقيل: أنهم اول من آمن عند تلك الآية. ومن قال: هم اول من آمن من قومه فقد غلط، لان بني اسرائيل كانوا آمنوا به. ولو كسرت الهمزة من (إن)

على الشرط كان جائزا. والطمع طلب النفس للخير الذى يقدر فيها انه يكون.

ومثله الامل والرجاء والخطايا جمع خطيئة، وهي الزوال عن الاستقامة المؤدية إلى الثواب. ثم حكى تعالى انه أوحى إلى موسى، وامره بأن يسري بعباد الله الذين آمنوا به، ويخرجوا من بلد فرعون، وهم بنوا إسرائيل المقرون بنبوته. يقال سرى وأسرى لغتان، فمن قطع الهمزة قال: هو من اسرى يسري، ومن وصلها فمن سرى يسري. واعلمهم أن فرعون وجنوده يتبعونهم، ويخرجون في طلبهم وتبع واتبع لغتان.

ثم حكى ايضا ان فرعون ارسل برسله في المدائن حاشرين يحشرون الناس اليه الذين هم جنوده، وقيل: انه حشر جنده من المدائن التي حوله ليقبضوا على موسى وقومه، لما ساروا بأمر الله (عزوجل) فلما حضروا عنده، قال لهم " إن هؤلاء " يعني أصحاب موسى " لشرذمة قليلون " والشرذمة العصابة

(٢٥)

الباقية من عصب كثيرة، وشرذمة كل شئ بقيته القليلة، ومنه قول الراجز:

جاء الشتاء وقميصي اخلاق * شرانم يضحك منه التواق (١)

وقال عبدالله بن مسعود: الشرذمة الذين قتلهم فرعون من بني اسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا، وانما استقلهم، لانه كان على مقدمته سبعة آلاف الف على ما قال بعض المفسرين. ثم قال " وانهم " مع قتلهم " لنا لغائظون " أي يغيظوننا بمخالفتهم إيانا، ويقال: جمع قليل وقليلون، كما يقال حي واحد، وواحدون.

ثم اخبر تعالى عن فرعون أنه قال لجنده " انا لجميع حذرون " منهم قد استعدنا لقتالهم. ثم اخبر تعالى عن كيفية إهلاكهم بأن قال " فاخرجناهم " يعني فرعون وقومه " من جنات " وهي البساتين التي تجنحها الاشجار " وعيون " جارية فيها " وكنوز " يعني اموال لهم مخبئة بعضها على بعض في مواضع غامضة من الارض ومنه كناز التمر وغيره مما يعبأ بعضه على بعض " ومقام كريم " فالمقام الموضع الذي يقيمون فيه. ويجوز أن يكون مصدرا و " الكريم " هو الحقيق باعطاء الخير الجزيل، لانه اهل للكرم، وهي صفة تعظيم في المدح: كرم كرما وكرمه إكراما، وتكرم تكرما. وقيل: المقام الكريم المناير. وقيل مجالس الامراء والرؤساء: التي كان يحف بها الاتباع.

ثم قال تعالى " كذلك " أي مثل ذلك أي كما وصفنا لك اخبارهم " واورثناها بني اسرائيل " أي نعم آل فرعون بأن اهلكنا آل فرعون وملكننا ديارهم واملاكهم

(١) مر تخريجه في ٦ / ٣٢٨ (*)

(٢٦)

لنبي اسرائيل. والارث تركة الماضي ممن هلك لمن بقي. وقيل صار ذلك في ايدي بني اسرائيل في ايام داود وغيره. وقال الحسن: رجع بنو اسرائيل إلى مصر بعد اهلاك فرعون وقومه.

وقوله " فاتبعوهم مشرقين " معناه تبعوا اثرهم وقت اشراق الشمس وظهور ضوئها وصفائه. وقيل معناه مصبحين، ويقال: اتبع فلان فلانا وتبعه اذا اقتفى اثره - لغتان -.

قوله تعالى:

* (فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون (٦٢)

قال كلا إن معي ربي سيهدين (٦٣) فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم (٦٤)

وأزلفنا ثم الاخرين (٦٥) وأنجينا موسى ومن معه أجمعين (٦٦)

ثم أغرقنا الاخرين (٦٧) إن في ذلك لاية وما كان أكثرهم مؤمنين (٦٨) وإن ربك لهو العزيز الرحيم (٦٩) وائل عليهم نبأ إبراهيم (٧٠) إذ قال لابيه وقومه ما تعبدون) * (٧١) عشر آيات بلا خلاف.

قرأ حفص " معي ربي " بفتح الياء، وكذلك في جميع القرآن. الباقيون بسكونها، فمن سكن ذهب إلى التخفيف، ومن فتح فعلى أصل الكلمة لان الاسم على حرف واحد، فقراءته - بالفتح - ان كان متصلا بكلمة على حرفين.

(٢٧)

وكان اصحاب موسى فزعوا من فرعون أن يلحقهم وحذروا موسى، فقالوا " انا لمدركون " فقال لهم موسى (ع) - ثقة بالله - " كلا " ليس كما تقولون " ان معي ربي سيهدين " وقرأ الاعرج " لمدركون " مفتعلون، من الادراك وادغم التاء في الدال. قال الفراء: دركت ادراكا وادركت ادراكا بمعنى واحد، مثل حفرت واخفرت، بمعنى واحد.

وقرأ حمزة وحده " تراء الجمعان " بالامالة. الباقيون بالتخفيف على وزن (تراعى) لانه تفاعل من الرؤية، وهو فعل ماض موحد، وليس مثنى، لانه فعل متقدم على الاسم، ولو كان مثنى لقال تراء ووقف حمزة " تراءى " بكسر الراء ممدود قليلا، لان من شرطه ترك الهمزة في الوقف، فنترك الهمزة التي آخر الالف، كأنه يريد بها، فلذلك مد قليلا. ووقف الكسائي " تراءى " اى بالامالة على وزن تراعى، وتنادى. الباقيون وقفوا بألفين على الاصل.

وكذلك جميع ما في القرآن مثل " أنشأناهن انشاء " (١) و * (أنزل من السماء ماء) * (٢) كل ذلك يقفون بالمد بألفين. وحمزة يقف على الف واحدة. واذا كانت الهمزة للتأنيث أسقطت الهمزة في الوقف عند الجميع نحو * (بيضاء) * (٣)

(١) سورة ٥٦ الواقعة آية ٣٥ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٢ وسورة ١٣ الرعد آية ١٩ وسورة ١٤ ابراهيم آية ٣٢ وسورة ١٦ النحل آية ٦٥ وسورة ٢٠ طه آية ٥٣ وسورة ٢٢ الحج آية ٦٣ وسورة ٣٥ فاطر آية ٢٧ وسورة ٣٩ الزمر آية ٢١ (٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٠٧ وسورة ٢٠ طه آية ٢٢ وسورة ٢٦ الشعراء آية ٣٣ وسورة ٢٧ النمل آية ١٢ وسورة ٢٨ القصص آية ٣٢ وسورة ٣٧ الصافات آية ٤٦ (*)

(٢٨)

و * (انها بقرة صفراء) * (١) و * (الاخلاء) * (٢) فيشم الضمة في موضع الرفع ولا يشم الفتحة في موضع النصب.

اخبر الله تعالى انه * (لما تراء الجمعان) * جمع فرعون وجمع موسى أى تقابلا بحيث يرى كل واحد منهما صاحبه. ويقال: تراء نارهما أى تقابلا، وانما جاز تثنية الجمع، لانه يقع عليه صفة التوحيد، فنقول: هذا جمع واحد، ولا يجوز تثنية مسلمين، لانه لا يقع عليه صفة التوحيد، لانه على خلاف صفة التوحيد.

* (قال أصحاب موسى انا لمدركون) * أى لملحقون. فالادراك اللاحق، وادركته ببصري اذا رأيته، وادرك قتادة الحسن اى لحقه، وادرك الزرع اذا لحق ببلوغه، وادرك الغلام إذا بلغ، وادركت القدر إذا نضجت، فقال لهم: موسى " كلا " ليس الامر على ذلك " إن معي ربي " بنصره إياي " سيهدين " أي سيدلني على طريق النجاة من فرعون وقومه كما وعدني، لان الانبياء لا يخبرون بما لا دليل عليه من جهة العقل او السمع.

وقوله " فأوحينا اليه أن اضرب بعصاك البحر " اي امرناه بضرب البحر بعصاه، وقيل: هو بحر قلزم الذي يسلك الناس فيه من اليمن ومكة إلى مصر، وفيه حذف، لان تقديره فضرب البحر " فانفلق " وقيل: انه صار فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط طريق " فكان كل فرق كالطود العظيم " فالطود الجبل، قال الاسود بن يعفر النهشلي:

حلوا بانقرة يحبس عليهم * ماء الفرات يجئ من اطواد (٣)

(١) سورة ٢ البقرة آية ٦٩ (٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٦٧ (٣) تفسير القرطبي ١٣ / ١٠٧ والطبري ١٩ / ٤٦
واللسان (نقر) وروايته نزلوا بأنقرة يسيل عليهم * ماء الفرات يجئ من اطواد (*)

(٢٩)

وقوله " وأزلفنا ثم الاخرين " قال ابن عباس وقتادة: معناه قربنا إلى البحر فرعون، ومنه قوله " وأزلفت الجنة للمتقين " (١) أي قربت وادنيت قال العجاج:

ناج طواه الاين مما وجفا * طي الليلي زلفا فزلفا سمارة الهلال حتى احقوقفا (٢)

أي منزله يقرب من منزله، ومنه قيل ليلة المزدلفة. وقال ابو عبيدة:

معنى أزلفنا جمعنا، وليلة مزدلفة ليلة جمع، والمعنى قربنا قوم فرعون إلى البحر كما يسرنا لبني اسرائيل سلوك البحر وكان ذلك سبب قربهم منهم حتى اقتحموه وقيل: معناه قربناهم إلى المنية لمجئ وقت هلاكهم قال الشاعر:

وكل يوم مضئ او ليلة سلفت * فيها النفوس إلى الاجال تزدلف (٣)

وانجيناً موسى ومن معه يعني بني إسرائيل أنجيناهم جميعهم من الهلاك والغرق " ثم اغرقنا الباقين " من فرعون وأصحابه. وقال تعالى " إن في ذلك " يعني في فلق البحر فرقا، وانجاء موسى من البحر، وإغراق قوم فرعون، لدلالة واضحة على توحيد الله وصفاته التي لا يشاركه فيها أحد.

ثم اخبر تعالى ان " اكثرهم لا يؤمنون " ولا يستدلون به بسوء اختيارهم كما يسبق في علمه. فالآخر - بفتح الخاء - الثاني من اثنين قسيم (احد) كقولك نجا الله أحدهما، وغرق الآخر، والآخر - بكسر الخاء - هو الثاني قسيم الاول كقولك نجا الاول وهلك الآخر. وقيل: معنى " وما كان اكثرهم مؤمنين " ان الناس مع هذا البرهان الظاهر، والسلطان القاهر، بالامر المعجز

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٩٠ (٢) مر تخريجه في ٦ / ٧٩ (٣) تفسير القرطبي ١٣ / ١٠٧ (*)

(٣٠)

الذي لا يقدر عليه أحد غير الله، ما آمن اكثرهم، فلا تستنكر أيها المحق استنكار استيحاش من قعودهم عن الحق الذي تأتيتهم به، وتدلهم عليه، فقد جروا على عادة اسلافهم، في انكار الحق وقبول الباطل.

وقوله " وإن ربك لهو العزيز الرحيم " أي هو القادر الذي لا يمكن معارضته في أمره، وهو مع ذلك رحيم بخلقه. وفي ذلك غاية الحث على طلب الخير من جهة الموصوف بهما. ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) " واتل " يا محمد على قومك " نبأ ابراهيم " أي خبره، حين " قال لآبيه وقومه ما " الذي " تعبدون " من دون الله؟! يعني أي شئ معبودكم على وجه الانكار عليهم، لانهم كانوا يعبدون الاصنام.

قوله تعالى:

* (قالوا نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين (٧٢) قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون (٧٣) قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون (٧٤) قال أفأرأيتم ما كنتم تعبدون (٧٥) أنتم وآباؤكم الاقدمون (٧٦) فانهم عدو لي إلا رب العالمين (٧٧) الذي خلقني فهو يهدين (٧٨) والذي هو يطعمني ويسقيني (٧٩) وإذا مرضت فهو يشفين) * (٨٠) تسع آيات بلا خلاف.

حكى الله تعالى ما أجاب به قوم ابراهيم حين قال لهم ابراهيم " ما تعبدون ؟" فانهم " قالوا نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين " أي مقيمين مداومين علي عبادتنا (*)

(٣١)

يقال: عكف عكوفاً، فهو عاكف، واعتكف اعتكافاً. قال ابن عباس: معناه فنظّل لها مصليين. وقيل: في وجه دخول الشبهة عليهم في عبادة الاصنام أشياء:

أحدها - أنهم اعتقدوا أنها تقربهم إلى الله زلفى كما يتقرب بتقبيل بساط الملك إليه.
ومنها - أنهم اتخذوا هياكل النجوم ليحظوا بتوجه العبادة إلى هياكلها، كما يفعل بالهند.
ومنها - ارتباط عبادة الله بصورة يرى منها.

ومنها - أنهم توهموا خاصية في عبادة الصنم يحظى بها، كالخاصية في حجر المغناطيس.
والشبهة الكبرى العامة في ذلك تقليد الذين دخلت عليهم الشبهة، ولذلك " قالوا وجدنا آباءنا
كذلك يفعلون " ولم يحتجوا بشئ سوى التقليد، الذي هو قبيح في العقول. والعبادة خضوع
بالقلب في أعلى مراتب الخضوع، فلا تستحق إلا بأصول النعم وبما كان في أعلى المراتب
من الإنسان، فكل من عبد غير الله، فهو جاهل بموجب العبادة، كافر لنعم الله، لأن من حقه
إخلاص العبادة له.

فقال لهم ابراهيم (ع) " هل يسمعونكم " هذه الاصنام التي تعبدونها إذا دعوتموها ! أي هل
يسمعون أصواتكم، لأن اجسامهم لا تسمع " أو ينفعونكم " بشئ من المنافع " أو يضررون " بشئ
من المضار !. وإنما قال ذلك، لأن من لا يملك النفع والضرر، لا تحسن عبادته، لأنها
ضرب من الشكر، ولا يستحق الشكر إلا بالنعم، فمن لا يصح منه الانعام يقبح شكره، ومن
قبح شكره قبحت عبادته. فقالوا عند ذلك " وجدنا آباءنا كذلك يفعلون " أحالوا على مجرد

(٣٢)

التقليد. فقال لهم ابراهيم منكرا عليهم التقليد " أفرايتم ما كنتم تعبدون " من الاصنام " أنتم " الآن
" وآبائكم الاقدمون " المتقدمون، فالاقدم الموجود قبل غيره، ومثله الاول والاسبق. والقدم
وجود الشئ لا إلى أول ثم قال ابراهيم " فانهم " عدو لي يعني الاصنام جمعها جمع العقلاء،
لما وصفها بالعداوة التي تكون من العقلاء، لأن الاصنام كالعدو في الصورة بعبادتها، ويجوز
أن يكون، لأنه كان منهم من لا يعبد إلا الله مع عبادة الاصنام فغلب ما يعقل ولذلك استثناه،
فقال " إلا رب العالمين " لأنه استثناء من جميع المعبودين، وعلى الوجه الاول يكون الاستثناء
منقطعا وتكون (إلا) بمعنى لكن ثم وصف رب العالمين فقال: هو " الذي خلقني " واخرجني
من العدم إلى الوجود " فهو يهدين " لأن هداية الخلق إلى الرشاد أمر يجل، فلا يكون إلا ممن
خلق الخلق كأنه قيل من يهديك؟ ومن يسد خلنك بما يطعمك ويسقيك؟ ومن إذا مرضت
يشفيك؟ فقال - دالا بالمعلوم على المجهول " الذي خلقني، فهو يهدين والذي هو يطعمني
ويسقيني " بمعنى أنه يزرقني ما يوصلني إلى ما فيه صلاحي " وإذا مرضت فهو يشفين " بان
يفعل ما يحفظ بدني ويصح جسمي ويرزقني ما يوصلني إليه.

قوله تعالى * (والذي يميّتي ثم يحيين (٨١) والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين

(٨٢) رب هب لي حكما وألحقتني بالصالحين (٨٣)

واجعل لي لسان صدق في الآخرين (٨٤) واجعلني من ورثة جنة النعيم (٨٥) واغفر لابي إنه كان من الضالين (٨٦) ولا تخزني

(٣٣)

يوم يبعثون (٨٧) يوم لا ينفع مال ولا بنون (٨٨) إلا من أتى الله بقلب سليم (٨٩) تسع آيات بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن ابراهيم (ع) أنه قال بعد قوله: إن الله الذي يشفيه إذا مرض " والذي يميتني " بعد أن كنت حيا " ثم يحيين " أي يحييني بعد أن اكون ميتا يوم القيامة * (والذي أطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين) * أي يوم الجزاء وهذا انقطاع منه (ع) إلى الله دون أن يكون له خطيئة يحتاج ان تغفر له يوم القيامة، لان عندنا أن القبائح كلها لا تقع منهم (ع)، وعند المعتزلة الصغائر التي تقع منهم محبطة، فليس شئ منها بمغفور يحتاج ان يغفر لهم يوم القيامة. وقيل: إن الطمع - ههنا - بمعنى العلم دون الرجاء وكذلك في قوله * (انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا) * (١) كما ان الظن يكون بمعنى العلم.

وقيل: ان ذلك خرج مخرج التلطف في الدعاء بذكر ما يتيقن انه كائن كما انه إذا جاء العلم على المظاهرة في الحجاج وذكر بالظن.

ثم حكى انه سأل الله تعالى فقال * (رب هب لي حكما) * والحكم بيان الشئ على ما تقتضيه الحكمة، فسأل ذلك ابراهيم، من حيث كان طريقا للعلم بالامور.

وقوله * (والحقني بالصالحين) * معناه افعل بي من اللطف ما يؤديني إلى الصلاح. والاجتماع مع النبيين في الثواب. وفي ذلك دلالة على عظم شأن الصلاح وصلاح العبد هو الاستقامة على ما أمر الله به ودعا اليه.

وقوله * (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) * اي ثناء حسنا في آخر الامم، فأجاب

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٥٢ *

(٣٤)

الله تعالى دعاءه، لان اليهود يقرون بنبوته، وكذلك النصارى، واكثر الامم. وقيل: معنى " واجعل لي لسان صدق في الآخرين " أي اجعل من ولدي من يقوم بالحق، ويدعو إلى الله، وهو محمد (صلى الله عليه وآله) ثم سأله أن يجعله " من ورثة جنة النعيم، بأن يفعل معه من اللطاف ما يختار عنده الطاعات، لان الجنة لا يثاب فيها إلا بالاستحقاق. ثم قال " ولا تخزني يوم يبعثون " أي لا تفضحني بذنب، ولا تعيرني يوم يحشر الخلائق. و

(الخزي) الفضيحة والتعبير بالذنب بما يردع النفس، يقال: خزي خزيا. وأخزاه الله إخزاء، وهذا موقف خزي.

وهذا الدعاء منه (ع) إنقطاع منه إلى الله تعالى، لانا قد بينا أن القبائح لا تقع من الانبياء على حال.

ثم وصف اليوم الذي يبعث فيه الخلائق بأنه "يوم لا ينفع" فيه "مال" فيفادي به الانسان نفسه من العقاب "ولا" ينفع "بنون" ينصرونه "إلا من أتى" أي وإنما ينفع من يأتي "الله بقلب سليم" أي سليم من الفساد والمعاصي، انما خص القلب بالسلامة، لانه إذا سلم القلب سلم سائر الجوارح من الفساد، من حيث أن الفساد بالجراحة لا يكون إلا عن قصد بالقلب الفاسد، فان اجتمع مع ذلك جهل، فقد عدم السلامة من جهتين، وقيل: سلامة القلب سلامة الجوارح، لانه يكون خاليا من الاصرار على الذنب.

وحكى انه سأل الله تعالى أن يغفر لابييه، وذكر انه من الضالين، قالوا:

إنما سأل الله أن يغفر له يوم القيامة بشرط تقتضيه الحكمة. وهو أن يتوب قبل موته، فلما تبين انه عدو لله تبرأ منه، ووصفه بأنه ضال يدل على أنه كافر، كفر جهل لا كفر عناد. وقيل: انه إنما دعا لابييه لموعدة وعده بها، لانه كان يطمعه سرا في الايمان فوعده بالاستغفار، فلما تبين انه كان عن نفاق تبرأ منه. وقال الحسن: عاب الله

(٣٥)

تعالى من فعل ابراهيم في قوله "إلا قول ابراهيم لابييه لاستغفرن لك" بعد قوله "قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه" (١). وليس الامر على ما قاله. ونحن نبين الوجه في هذه الآية إذا انتهينا إليها إن شاء الله. وعند اصحابنا ان أباه الذي استغفر له، كان جده لامه، لان آباء النبي (صلى الله عليه وآله) إلى آدم كلهم مؤمنون موحدون - بأدلة ليس هذا موضع ذكرها، والدلالة عليها.

قوله تعالى:

* (وأزلفت الجنة للمتقين (٩٠) وبرزت الجحيم للغاوين (٩١))

وقيل لهم أينما كنتم تعبدون (٩٢) من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون (٩٣) فككبوا فيها هم والغاون (٩٤) وجنود إبليس أجمعون (٩٥) ست آيات.

معنى "وأزلفت الجنة للمتقين" قربت لهم ليدخلوها "وبرزت الجحيم للغاوين" أي أظهرت الجحيم للعاملين بالغواية وتركهم الرشد، يقال: برز يبرز بروزا، وأبرزه إبرازا، وبرزه تبريزا، وبارزه مبارزة، وتبارزا تبارزا. وفي رؤية الانسان آلات العذاب التي أعدت لهم عذاب عظيم، وألم جسيم للقلب فبروز الجحيم للغاوين بهذه الصفة. و (الغاوي) العامل بما

يوجب الخيبة من الثواب: غوى الرجل يغوى غيا وغواية، وأغواه غيره إغواء، واستغواه استغواء واصله الخيبة قال الشاعر:

(١) سورة ٦٠ الممتحنة آية ٤ (*)

(٣٦)

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغو لا يعدم على الغي لائما (١)
ثم اخبر أنه يقال لهم، يعني للغاوين على وجه التوبيخ لهم والتقريع " أين ما كنتم تعبدون من دون الله " وإنما وبخوا بلفظ الاستفهام، لانه لا جواب لهم عن ذلك إلا بما فيه فضيحتهم، كقولك اينما كنت تعبد من دون الله؟! لا يخلصك من عقابه " هل ينصرونكم " ويدفعون عنكم العقاب في هذا اليوم " أو ينتصرون " لكم اذا عوقبتم !، فمن عبدها، فهو الغاوي في عبادته، لا يملك رفع الضرر عن نفسه، ولا عن عبده مع أنه لا حق به. ثم قال " فككبوا فيها " ومعناه كبوا إلا انه ضوعف، كما قال " بريح صرصر " (٢) أي صر. وقيل: جمعوا بطرح بعضهم على بعض - عن ابن عباس - وقال مجاهد: هووا " هم والغالون " أي وكب الغالون معهم، وكب معهم " جنود ابليس " أي من اتبعه من ولده، وولد آدم.
وقال ابو عبيدة (ككبوا) معناه طرحوا فيها بعضهم على بعض جماعة جماعة.
وقال المبرد: نكسوا فيها من قولهم: كبه الله لوجهه.
قوله تعالى:

* (قالوا وهم فيها يختصمون (٩٦) تالله إن كنا لفي ضلال مبين (٩٧) إذ نسويكم برب العالمين (٩٨) وما أضلنا إلا المجرمون (٩٩) فما لنا من شافعين (١٠٠) ولا صديق حميم (١٠١)

فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين (١٠٢) إن في ذلك لآية وما

(١) مر تخريجه في ٢ / ٣١٢ و ٤ / ٣٩١ و ٥ / ٥٤٨ و ٦ / ٣٦٦ (٢) سورة ٦٩ الحاقة آية ٦ (*)

(٣٧)

كان أكثرهم مؤمنين (١٠٣) وإن ربك لهو العزيز الرحيم * (١٠٤)
تسع آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبرا عن هؤلاء الكفار أنهم إذا حصلوا في الجحيم " يختصمون " والاختصام منازعة كل واحد منهم صاحبه بما فيه إنكار عليه واغلاظ له: يقال: اختصما في الأمر

اختصاصا. وتخاصما تخاصما، وخاصمه مخاصمة. ويقول بعضهم لبعض " تالله إن كنا لفي ضلال مبين " قال الزجاج: معناه ما كنا الا في ضلال مبين. وقال غيره: اللام لام الابتداء التي تدخل في خبر (ان) و (ان)

هذه في الخفيفة من الثقيلة، ويلزمها اللام في خبرها، فرقا بينها، وبين (ان) التي للجحد، وتقديره تالله ان كنا لفي ضلال مبين في الحال التي سويناكم - يخاطبون كل معبود من دون الله - " برب العالمين " الذي خلق الخلق، في توجيه العبادة اليكم. والتسوية اعطاء أحد الشيين مثل ما يعطى الآخر، ومثله المعادلة والموازنة. والمراد - ههنا - الشركة في العبادة.

ثم قال * (وما أضلنا الا المجرمون) * بأن دعونا إلى الضلال فتبعناهم، وقبلنا منهم. ثم يقولون * (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) * أي لو كان لنا شفيع لسأل في أمرنا او صديق لدفع عنا، فقد آيس الكفار من شافع، وانما يقولون ذلك اذا رأوا جماعة من فساق أهل الملة يشفع فيهم، ويسقط عنهم العقاب ويخرجون من النار، يتلهفون على مثل ذلك، ويتحسرون عليه. والصديق هو صاحب الذي يصدق المودة وصدق المودة اخلاصها من شائب الفساد.

و (الحميم) القريب الذي يحمى بغضب صاحبه، والحميم هو الحامي، ومنه الحمى.

وأحم الله ذلك من لقائه: أي ادناه، بمعنى جعله كالذي بلغ بنصحه إياه، وحم

(٣٨)

كذا أي قدر.

ثم اخبر تعالى أنهم يتمنون فيقولون " فلو أن لنا كرة " أي رجعة إلى دار التكليف " فنكون من المؤمنين " وانما جاز التمني ب (لو)، لانه التقدير، كما أن التمني ب (ليت) مثل ذلك لتقدير المعنى، إلا أن التقدير ب (لو) لموجب غيره والتقدير ب (ليت) للامتناع بالمقدر، وانما جاز جواب التمني، لان المعنى متصور بالتمني غير انه اذا كان بالفاء، فهو نصب، فلذلك نصب (فنكون) لان الفاء اذا صرفت عن العطف أضمر معها (ان) للاشعار بالصرف.

ثم قال تعالى " ان في ذلك لآية " أي ان فيما قصصناه، وذكرناه لدلالة لمن نظر فيها واعتبر بها، لكن اكثرهم لا يعتبرون بها، ولا يؤمنون بها، وأخبر " إن ربك " يا محمد " لهو العزيز الرحيم " وإنما جمع بين الصفتين: العزيز والرحيم، ليرغب في طلب ما عند الله أتم الترغيب من حيث هو عظيم الرحمة واسع المقذور، منيع من معاجزة غيره. وقيل في وجه اخبارهم بأنهم يكونون مؤمنين لو ردوا إلى دار التكليف قولان:

احدهما - انهم يخبرون عن عزمهم، لان الله تعالى قد أخبر عنهم أنهم " لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه " (١) ولا يجوز - ان يكونوا مع رفع التكليف وكمال عقولهم وحصول المعارف

الضرورية - ان يكذبوا، لانهم ملجؤون إلى ترك القبيح بأن يخلق الله فيهم العلم الضروري، انهم لو راموا القبيح لمنعوا من ذلك، ولولا ذلك لكانوا مغزين بالقبيح وذلك لا يجوز. والثاني - ان يكون ذلك القول منهم قبل دخولهم النار، وقبل ان يصيروا ملجئين. والاول أقوى.

(١) سورة ٦ الانعام آية ٢٨ (*)

(٣٩)

قوله تعالى:

* (كذبت قوم نوح المرسلين (١٠٥) إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون (١٠٦) إني لكم رسول أمين (١٠٧) فاتقوا الله وأطيعون (١٠٨) وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين (١٠٩) فاتقوا الله وأطيعون) * (١١٠) ست آيات بلا خلاف. يقول الله تعالى مخبرا عن قوم نوح أنهم كذبوا الذين أرسلهم الله بالنبوة.

وانما كذبوهم جميعهم، لانهم كذبوا كل من دعا إلى توحيد الله، وخلع عبادة الاصنام ممن مضى من الرسل، وغيرهم ممن يأتي. وقال الحسن: لانهم بتكذيبهم نوحا مكذبون من جاء بعده من المرسلين. ولو لم يكن قبله نبي مرسل. وقال الجبائي: كذبوا من أرسل قبله. وانما قال " كذبت " بالتأنيث، والقوم مذكر لانه بمعنى جماعة قوم نوح.

ثم بين انهم انما كذبوه حين " قال لهم اني رسول " من قبل الله تعالى " أمين " على رسالته، والامين الذي يؤدي الامانة وضده الخائن، وقد أدى نوح الامانة في أداء الرسالة، والنصيحة لهم، فلذلك وصفه الله بأنه (أمين).

وانما سماه بأنه (أخوهم) لانه كان منهم في النسب، وذكر ذلك، لانهم به انس وإلى إجابته أقرب فيما ينبغي أن يكونوا عليه، وهم قد صدقوا عنه " ألا تتقون " الله باجتتاب معاصيه منكرنا بهذا القول عليهم، وانما جاء الانكار بحرف الاستفهام لانهم لا جواب لهم عن ذلك إلا بما فيه فضيحتهم، لانهم: ان قالوا لا نتقي ما يؤدينا إلى الهلاك هتكوا نفوسهم وخرجوا عن عداد العقلاء. وان قالوا: بل نتقيه

(٤٠)

لزمهم ترك عبادة الاصنام.

ثم قال لهم " فاتقوا الله " واجتنبوا معاصيه وافعلوا طاعاته " واطيعون " فيما أمركم به، وأدعوكم اليه. ثم قال لهم * (وما أسألكم عليه) * على ما أدعوكم اليه. * (من أجرينى) *

فيصرفكم ذلك عن الايمان، لانه ليس أجري، وثوابي * (الا على رب العالمين) * الذي خلق جميع الخلائق، ثم كرر عليهم قوله * (فاتقوا الله واطيعون) * لاختلاف المعنى فيه، لان التقدير، فاتقوا الله واطيعوني لاني رسول أمين، واتقوا الله واطيعوني لاني لا أسألكم أجرا عليه فتخافون تلم أموالكم.

والطاعة اجابة الداعي بموافقة ارادته مع كون الداعي فوقه، فالرتبة معتبرة. قوله تعالى:

* (قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون (١١١) قال وما علمي بما كانوا يعملون (١١٢) إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون (١١٣)

وما أنا بطارد المؤمنين (١١٤) إن أنا إلا نذير مبين (١١٥) قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين (١١٦) قال رب إن قومي كذبون (١١٧) فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين (١١٨) فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون (١١٩) ثم أغرقنا بعد الباقين (١٢٠) إن في ذلك لاية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٢١) وإن ربك لهو العزيز الرحيم) * (١٢٢) اثنتا عشرة آية بلا خلاف.

(٤١)

قرأ يعقوب * (واتباعك) * على الجمع. الباقون * (واتبعك) * على الفعل الماضي قال الزجاج: من قرأ على الجمع فقراءته جيدة، لان الواو (واو) الحال، واكثر ما يدخل على الاسماء. تقول جنئك وأصحابك بنو فلان، وقد يقولون:

وصحبك بنو فلان، واكثر ما يستعملونه مع (قد) في الفعل، حكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا لنوح حين دعاهم إلى الله وخوفهم من معصيته: انصدقك فيما تدعونا اليه وقد اتبعك الارذلون؟! يعني السفلة واوضاع الناس. والردل الوضع، ونقيض الرذيلة الفضيلة وجمعه الرذائل.

وقيل: انهم نسبوههم إلى صناعات دنيئة، كالحياكة والحجامة. وانهم مع ذلك اهل نفاق ورذالة، فأنفوا من اتباعه لما اتبعوه هؤلاء، ولم يجز من نوح أن يقبل قول هؤلاء فيهم، لانهم كفار يعادونهم، فلا تقبل شهادتهم. ويجوز أيضا ان يكونوا لما آمنوا تابوا من قبيح ما عملوا، لان الايمان يجب الخطايا، ويوجب الاقلاع عنها. ولم يجز استصلاح هؤلاء باقصاء من آمن، كما لا يجوز استصلاحهم بفعل الظلم، لان في ذلك اذلالا للمؤمنين، وذلك ظلم لهم، لا يجوز أن يفعل بأهل الايمان، لانه قبيح.

ومن قرأ - على الجمع - أراد ان الذين اتبعوك هم الارذلون.

ومن قرأ على الفعل أراد: تبعك من هذه صفته.

فقال لهم نوح (ع): لم أطردهم " وما علمي بما كانوا يعملون " فيما مضى، لاني ما كلفت ذلك، وانما أمرت بأن ادعوهم إلى الله، وقد اجابوني اليه، وليس حسابهم الا على ربي الذي خلقتي وخلقهم لو علمتم ذلك وشعرتموه، وليس أنا بطارد المؤمنين، لاني لست الا نذيرا مخوفا من معصية الله مبين لطاعته،

(٤٢)

داع اليه.

و (الطرد) ابعاد الشيء على وجه التفتير، طرده يطرده، واطرده جعله طريدا، واطرد في الباب استمر في الذهاب كالطريد، وطارده مطاردة وطرادا. فقال له قومه عند ذلك * (لئن لم تنته) * وترجع عما تقوله، وتدعو اليه * (يا نوح لتكونن من المرجومين) * بالحجارة، وقيل: من المرجومين بالشتم، فالرجم الرمي بالحجارة، ولا يقال للرمي بالقوس رجم، ويسمى الشتم مرجوما لانه يرمى بما يذم به. والانتهاه بلوغ الحد من غير مجاوزة إلى ما وقع عنه النهي.

وأصل النهاية بلوغ الحد، والنهي الغدير، لانتهاه الماء اليه.

فقال نوح عند ذلك يا رب * (إن قومي كذبون) * وانما قال ذلك مع أن الله تعالى عالم بأنهم كذبه، لانه كالعلة فيما جاء بعده، فكأنه قال * (افتح بيني وبينهم فتحا) * لانهم كذبوني، إلا انه جاء بصيغة الخبر دون صيغة العلة. وإذا كان على معنى العلة حسن أن يأتي بما يعلمه المتكلم والمخاطب. ومعنى * (افتح بيني وبينهم فتحا) * احكم بيننا بالفعل الذي فيه نجاتنا، وهلاك عدونا وعامل كل واحد منا بما يستحقه، يقال للحاكم: الفتاح، لانه يفتح وجه الامر بالحكم الفصل، ويتقرر به الامر على أداء الحق، فقال الله تعالى له مجيبا لدعائه " فأنجيناه ومن معه " من المؤمنين * (في الفلك) * يعني السفن، يقال شحنه يشحنه شحنا فهو شاحن إذا ملاه بما يسد خلاءه، وشحن الثغر بالرجال. ومنه الشحنة، قال الشاعر، في الفتح بمعنى احكم:

ألا ابلغ بني عصم رسولا * فاني عن فتاحتكم غني (١)

والفلك السفن يقع على الواحد والجمع. ثم اخبر تعالى انه لما أنجى نوحا

(١) مر تخريجه في ١ / ٣١٥، ٣٤٥ و ٤ / ٥٠٠ (*)

(٤٣)

واصحابه اغرق الباقيين من الكفار بعد ذلك، واهلكهم.

ثم قال تعالى: إن فيما اخبرنا به من قصة نوح وإهلاك قومه لآية واضحة على توحيد الله، وإن كان اكثرهم لا يؤمنون، ولا يعتبرون به. وقيل: إن قوله * (ان في ذلك لآية وما كان

أكثرهم مؤمنين) * في عدة مواضع ليس بتكرير وإنما هو ذكر آية في قصة نوح، وما كان من شأنه مع قومه بعد ذكر آية فيما كان من قصة إبراهيم وقومه، وذكر قصة موسى وفرعون فيما مضى، فبين أنه إنما ذكر ذلك لما فيه من الآية الباهرة، وكرر * (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) * لأن المعنى انه * (العزيز) * في الانتقام من فرعون وقومه * (الرحيم) * في نجاة موسى ومن معه من بني اسرائيل، وذكر - ههنا - * (العزيز) * في إهلاك قوم نوح بالغرق الذي طبق الارض * (الرحيم) * في إنجائه نوحا ومن معه في الفلك.

والعزيز القادر الذي تتعذر مما نعته لعظم مقدراته، فصفة (عزيز) وإن رجعت إلى معنى قادر، فمن هذا الوجه ترجع، ولا يوصف بالعزيز مطلقا الا الله، لأنها تفيد معنى قادر، ولا يقدر أحد على ممانعته. والله تعالى قادر أن يمنع كل قادر سواه. ومعنى وصفه بأنه عزيز مبالغة من ثلاثة أوجه: احدها - لانه بزنة (فعيل). والثاني - انه لا يوصف به مطلقا سواه. والثالث - لما فيه من التعريف بالالف والام.

قوله تعالى:

* (كذبت عاد المرسلين (١٢٣) إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون (١٢٤) إني لكم رسول أمين (١٢٥) فاتقوا الله

(٤٤)

وأطيعون (١٢٦) وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين (١٢٧) أتبنون بكل ريع آية تعبثون (١٢٨)

وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون (١٢٩) وإذا بطشتم بطشتم جبارين (١٣٠) فاتقوا الله وأطيعون (١٣١) * تسع آيات بلا خلاف اخبر الله تعالى عن عاد - وقيل: هم قبيلة - انهم كذبوا من أرسلهم الله حين قال لهم أخوهم هود. قال الحسن: كان أخاهم من النسب دون الدين * (ألا تتقون) * الله باجتناب معاصيه إلى قوله * (رب العالمين) * وقد فسرنا نظائره.

وقوله " تبنون بكل ريع آية " فالبناء وضع ساف على ساف إلى حيث ينتهي.

والريع الارتفاع من الارض، وجمعه أرياع وريعة قال ذو الرمة:

طراق الخوافي مشرق فوق ربيعة * ندى ليلة في ريشه يترقوق (٢)

ومنه الريع في الطعام، وهي الزيادة والنماء قال الاعشى:

وبهما قفر تجاوزتها * إذا خب في ريعها ألها وفيه لغتان - فتح الراء، وكسرها - بمعنى

المكان المرتفع، قال الفراء فيه لغتان * (ريع، وراع) * مثل زير، وزار قال أبو عبيدة هو

الطريق بين الجبلين في ارتفاع. وقيل: هو الفج الواسع، وقال قتادة: معناه بكل آية طريق أي

علامة " تعبتون " تلعبون، في قول ابن عباس. وقوله " وتتخذون " مصانع لعلمكم تخذلون " قال المؤرج: لعلمكم تخذلون: كأنكم تخذلون - بلغة قريش - وقال

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ١٢٣ والطبري ١٩ / ٥٣ (*)

(٤٥)

الفراء: معناه كيما تخذلون. قال مجاهد: المصانع أراد بها حصونا مشيدة. وقال قتادة: مأخذ للماء، وهو جمع مصنع، ويقال مصنعة لكل بناء. وقيل: إنهم كانوا يبنون بالمكان المرتفع البناء العالي، ليدلوا بذلك على أنفسهم، وزيادة قوتهم وليفاخروا بذلك غيرهم من الناس، وكانوا جاوزوا في ايجاد المصانع إلى الاسواق فنهوا عن ذلك، وقال الزجاج: المصانع المباني " لعلمكم تخذلون " معناه تفعلون ذلك لكي تبغوا فيها مؤبدين " وإذا بطشتم بطشتم جبارين " فالبطش العسف قتلا بالسيف وضربا بالسوط - في قول ابن عباس - والجبار العالي على غيره بعظم سلطانه، وهو في صفة الله تعالى مدح، وفي صفة غيره ذم، فاذا قيل للعبد جبار فمعناه انه يتكلف الجبرية. والجبار في النحل ما فات اليد، وقال الحسن: بطش الجبرية هو المبارزة من غير ثبت ولا توقف، فذمهم الله بذلك، ونهاهم هود فقال " اتقوا الله " باجتتاب معاصيه و " اطيعوني " فيما أدعوكم اليه، ولم يكن هذا القول تكرارا من هود لانه متعلق بغير ما تعلق به الاول، لان الاول معناه، فانتقوا الله في تكذيب الرسل، واطيعوني فيما أدعوكم اليه من اخلاص عبادته، والثاني فانتقوا الله في ترك معاصيه في بطش الجبارين وعمل اللاهين واطيعوني في ذلك الامر الذي دعوتكم اليه.

قوله تعالى:

* (واتقوا الذي أمركم بما تعلمون (١٣٢) أمركم بأنعام وبنين (١٣٣) وجنات وعيون (١٣٤) إنني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (١٣٥) قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من

(٤٦)

الواعظين (١٣٦) إن هذا إلا خلق الاولين (١٣٧) وما نحن بمعذبين (١٣٨) فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٣٩) وإن ربك لهو العزيز الرحيم) * (١٤٠)

تسع آيات بلا خلاف.

قرأ " خلق الاولين " - بفتح الخاء - ابن كثير وابوعمر والكسائي وأبو جعفر. الباقون - بضم الخاء واللام - فمن قرأ - بفتح الخاء - أراد: ليس هذا إلا اختلاق الاولين - في قول ابن مسعود - ومن ضم الخاء واللام: أراد ليس هذا الاعادة الاولين، في أنهم كانوا يحيون ويموتون. وقال بعضهم: المعني في " خلق الاولين " خلق أجسامهم، وانكروا أن يكون المعنى

إلا كذب الاولين لانهم يقولون " ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين " (١). وليس الامر على ما ظنه لانهم قد سمعوا بالدعاء إلى الدين، وكانوا عندهم كذا بين، فلذلك قال " كذبت عاد المرسلين " (٢) وقال " إن هذا إلا اساطير الاولين " (٣) وانما قالوا " ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين " أي ما سمعنا أنهم صدقوا بشئ منه، أو ذكروا آية حق وصواب، بل قالوا باطل، وخطأ.

حكى الله تعالى عن هود أنه قال لقومه واتقوا معاصي الله الذي أمركم بالذي

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٢٤ وسورة ٢٨ القصص آية ٣٦ (٢) آية ١٢٣ من هذه السورة (٣) سورة ٦ الانعام آية ٢٥ وسورة ٨ الانفال آية ٣١ وسورة ٢٣ المؤمنون آية ٨٤ وسورة ٢٧ النمل آية ٦٨ (*)

(٤٧)

تعلمون من انواع نعمه، فالامداد اتباع الثاني ما قبله شيئاً بعد شئ، على انتظام فهو لاء امدهم الله بالمال وبالبنين، يعني الذكور من الاولاد، وبالانعام من الابل والبقر والغنم والبساتين التي فيها شجر تحتها عيون جارية فيها، فاتاهم رزقهم على إدرار. فالعيون ينابيع ماء تخرج من باطن الارض، ثم تجري على ظاهرها وعين الماء مشبه بعين الحيوان في استدارته وتردد الماء إلا انه جامد في عيون الحيوان يتردد بالشعاع.

ثم قال لهم " اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم " يعني يوم القيامة، والعظيم هو الموصوف بالعظم، وفيه مبالغة مثل ما أعظمه لعظم ما فيه من الاهوال.

ثم حكى ما أجابه به قومه، فانهم قالوا له " سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين " وإنما لم يقل سواء علينا أو عظت أم لم تعظ، ليتشاكل رؤس الآي، ومعناه إنا لسنا نقبل منك ما تقوله: سواء علينا وعظك وارتفاعه والوعظ حث بما فيه تليين القلب، للانقياد إلى الحق، والوعظ زجر عما لا يجوز فعله. ومعنى " سواء " أي كل واحد من الامرين مثل الآخر، حصول الوعظ وارتفاعه.

ثم قالوا: ليس هذا الذي تدعوه " إلا خلق الاولين " أي كذبهم، فيمن فتح الخاء. والاعادة الاولين وخلقهم. والخلق المصدر من قولك: خلق الله العباد خلقا. والخلق المخلوق من قولهم: يعلم هذا من خلق الناس. قال الفراء: يقولون هذه الحاديث: خلق يعنون المختلفة. قال والقراءة بضم الخاء أحب إلي، لانها تتضمن المعنيين. والخلق الاختلاق، وهو افتعال الكذب على التقدير الذي يوهم الحق.

ثم اخبروا: إنا لسنا بمعذبين على خلاف ما تدعوننا اليه، على ما تدعيه

(٤٨)

" فكذبوه " يعني هودا " فأهلكناهم إن في ذلك لآية " إلى آخر القصة.
وقد فسرناه.

قوله تعالى:

* (كذبت ثمود المرسلين (١٤١) إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون (١٤٢) إني لكم رسول أمين (١٤٣) فاتقوا الله وأطيعون (١٤٤) وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين (١٤٥) أتتركون في ما ههنا آمنين (١٤٦) في جنات وعيون (١٤٧) وزروع ونخل طلعها هضيم (١٤٨) وتحتون من الجبال بيوتا فارهين (١٤٩) فاتقوا الله وأطيعون) *

(١٥٠)

عشر آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وابوعمر و " فرهين " بغير الف. الباقيون " فارهين " بألف.

حكى الله تعالى عن قوم صالح، وهم (ثمود) أنهم كذبوا المرسلين، ولم يصدقوهم فيما دعوهم اليه من توحيد الله وخلع الانداد وترك عبادة الاصنام، حتى قال لهم أخوهم في النسب صالح، وهو النبي المبعوث اليهم " ألا تتقون " الله باجتنب معصيته وترك عبادة من سواه " اني لكم رسول أمين " فالأمين هو الذي استودع الشئ على من أمن منه الخيانة، فالرسول بهذه الصفة، لانه يؤدي الرسالة، كما حملها من غير تغيير لها، ولا زيادة، ولا نقصان.

(٤٩)

ثم أمرهم فقال " فاتقوا " عقاب " الله " باجتنب معاصيه " واطيعون " فيما ادعوكم اليه، ولست اسألكم على ما ادعوكم اليه اجرا فيصرفكم عن القبول لانه ليس أجري وثوابي في ذلك إلا على رب العالمين الذي خلق الخلق. ثم قال لهم يا قوم " اتتركون فيما ههنا آمنين " منكرا عليهم، فان ما هم فيه من النعم لا تبقى عليهم، وانها تزول عنهم وأن أمنهم سيؤول إلى الخوف. والامن سكون النفس إلى السلامة، وهو نفيض الخوف. وقد يكون أمانا مع العلم بالسلامة. ومع الظن القوي.

ثم عدد نعمهم التي كانوا فيها، فقال انتم " في جنات " وهي البساتين التي يسترها الشجر " وعيون " جارية " وزروع " وهو جمع زرع وهو نبات من الحب الذي يبذر في الارض: زرعه أي بذره في الارض كما يزرع البذر فالبذر المبدد في الارض على وجه مخصوص يسمى زرا " ونخل طلعها هيضم " فالهضيم اللطيف في جسمه، ومنه هضيم الحشا أي لطيف الحشا، ومنه هضمه حقه: إذا ما نقصه، لانه لطف جسمه ينقصه، ومنه هضم الطعام إذا لطف واستحال إلى مشاكلة البدن. وقال ابن عباس: معنى " هضيم " أي قد بلغ واينع. وقال

الضحاك: ضمير يزكون بعضه بعضا. وقال عكرمة: هو الرطب اللين، وقال مجاهد: هو الذي اذا مس تفتت. وقال أبو عبيدة والزجاج، والفراء: هو المتداخل بعضه في بعض. وقوله " وتحتون من الجبال بيوتا فارهين " قال ابن عباس: معناه حاذقين وقال ابن عباس ايضا (فرهين) أشرين بطرين. وقال الضحاك: معناه عليين. وقال ابن زيد: الفره القوي. وقيل: هو الفرح المرح، كما قال الشاعر:

(٥٠)

لا أستكين إذا ما ازمة أزمت * ولن تراني بخير فاره اللبب (١)
أي مرح اللبب. وقيل: فاره وفره مثل حاذق وحذق. والفاره النافذ في الصنعة بين الفراهة كحاذق بين الحذق، وعبد فاره نافذ في الامور.
ثم قال لهم " اتقوا الله " في ترك عبادته والاشراك به واجتنبوا معاصيه " واطيعون " فيما أدعوكم اليه.
قوله تعالى:

* (ولا تطيعوا أمر المسرفين (١٥١) الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون (١٥٢) قالوا إنما أنت من المسحرين (١٥٣)
ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين (١٥٤) قال هذه ناقة لما شرب ولكم شرب يوم معلوم (١٥٥) ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم (١٥٦) فعقروها فأصبحوا نادمين (١٥٧) فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٥٨) وإن ربك لهو العزيز الرحيم) * (١٥٩)
تسع آيات بلا خلاف.

حكى الله تعالى أن صالحا قال لقومه " لا تطيعوا أمر المسرفين " وهم الذين تجاوزوا الحد بالبعد من الحق. وقيل عنى بالمسرفين: تسعة رهط من ثمود، كانوا

(١) اللسان (فره) وروايته (الطلب) بدل (اللبب) (*)

(٥١)

يفسدون في الارض ولا يصلحون، فنهاهم الله على لسان صالح عن اتباعهم.
وقال " الذين يفسدون في الارض " بان يفعلوا فيها المعاصي، ويرتكبوا القبائح " ولا يصلحون " أي لا يفعلون شيئا من الافعال الحسنة.
فقالوا له في الجواب عن ذلك " انما أنت من المسحرين " والمسحر: هو الذي قد سحر مرة بعد مرة، حتى يختل عقله ويضطرب رأيه. والسحر حيلة توهم قلب الحقيقة، وقال مجاهد: معناه

من المسحورين. وقال ابن عباس: من المخلوقين، لانه يذهب إلى انه يخترع على أمر يخفى كخفاء السحر. وقيل:

معناه انك ممن له سحر أي رئة، ومنه قولهم أنتفخ سحره قال لبيد:

فان تسلينا فيم نحن فاننا * عصافير من هذا الانام المسحر (١)

أي المعلل بالطعام وبالشراب، على أمر يخفى كخفاء السحر.

ثم قالوا له " ما أنت إلا بشر مثلنا " أي ليس أنت إلا مخلوقا مثلنا، فلن نتبعك ونقبل منك،

وقالوا له " فأت بآية " أي معجزة تدل على صدقك " إن كنت من " جملة " الصادقين " في

دعواك، فقال لهم " هذه ناقة " وهي التي أخرجها الله من الصخرة عشراء ترعو على ما

أقترحوا " لها شرب " أي حظ من الماء، قال الشاعر:

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت * حمامة في غصون ذات او قال (٢)

أي لم يمنع حظها من الماء و (الشرب) - بفتح الشين وضمها وكسرها - تكون مصادرا،

على ما قاله الفراء والزجاج، وكانوا سألوا أن يخرج لهم من

(١) مر تخريجه في ١ / ٣٧٢ و ٦ / ٤٨٥ (٢) السان (وقل) وروايته:

لم يمنع الشرب منها غير أن هتفت * حمامة في سحوق ذات أو قال (*)

(٥٢)

الجبل ناقة عشراء فاخرجها الله حاملا كما سألوا، ووضعت بعد فصيلا، وكانت عظيمة الخلق

جدا. ثم قال لهم صالح " ولا تمسوها " يعني الناقة " بسوء " أي بضر تشعر به، فالسوء هو

الضرر الذي يشعر به صاحبه، لانه يسوء وقوعه، فاذا ضره من حيث لا يشعر به لم يكن قد

ساءه، لكنه عرضه لما يسوؤه.

وقوله " فيأخذكم عذاب يوم عظيم " معناه إنكم إن مسستم هذه بسوء أخذكم عذاب يوم عظيم،

أي الصيحة التي أخذتهم.

ثم اخبر فقال " فعقروها " أي انهم خالفوه وعقروا الناقة. فالعقر قطع الشئ من بدن الحي، فاذا

كثر انتفت معه الحياة، وإن قل لم تنتف.

والمراد - ههنا - انهم نحروها. وقيل: انهم عقروها، لانها كانت تضيق المرعى على

مواشيهم. وقيل: كانت تضيق الماء عليهم، ولما عقروها رأوا آثار العذاب فيه جدا، ولم يتوبوا

من كفرهم، وطلبوا صالحا ليقتلوه، فنجاه الله ومن معه من المؤمنين. ثم جاءتهم الصيحة

بالعذاب، فوقع لجميعهم الاهلاك، ولو كانوا ندموا على الحقيقة، واقلعوا عن الكفر، لما أهلكهم

الله.

ثم قال تعالى إن فيما أخبرنا به وفعلناه بقوم صالح من إهلاكهم، لدلالة واضحة لمن اعتبر بها، لكن أكثرهم لا يؤمنون " وإن ربك " يا محمد " لهو العزيز " أي العزيز في انتقامه " الرحيم " بمن آمن من خلقه به.

قوله تعالى:

* (كذبت قوم لوط المرسلين (١٦٠) إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تنتقون (١٦١) إني لكم رسول أمين (١٦٢) فاتقوا الله

(٥٣)

وأطيعون (١٦٣) وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرين إلا على رب العالمين (١٦٤) أتأتون الذكران من العالمين (١٦٥)

وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون (١٦٦) قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين (١٦٧)

قال إني لعلمكم من القالين (١٦٨) رب نجني وأهلي مما يعملون (١٦٩) فنجيناه وأهله أجمعين (١٧٠) إلا عجوزا في الغابرين (١٧١) ثم دمرنا الآخرين (١٧٢) وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين (١٧٣) إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٧٤) وإن ربك لهو العزيز الرحيم * (١٧٥)

ست عشرة آية بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن قوم لوط أنهم كذبوا الرسل الذين بعثهم الله، بترك الاشرار به وإخلاص العبادة له، حين " قال لهم أخوهم لوط ألا تنتقون " الله فتجتنبوا معاصيه والاشراك به، وانه قال لهم " اني لكم رسول أمين " وقد فسرناه. واخباره عن نفسه بأنه رسول أمين مدح له، وذلك جائز في الرسول كما يجوز أن يخبر عن نفسه بأنه رسول الله، وانما جاز أن يخبر بذلك لقيام الدلالة على عصمته من القبائح. وغيره لا يجوز أن يخبر بذلك عن نفسه لجواز

(٥٤)

الخطأ عليه.

واخبر ايضا انه قال لهم " فاتقوا الله " واجتنبوا معاصيه " واطيعون " فيما أمركم به وأدعوكم اليه ولست اسألكم على ما أؤديه اليكم وأدعوكم اليه، أجرا، ولا ثوابا، لانه ليس أجرين إلا على الله الذي خلق العالمين، وانما حكى الله تعالى دعوة الانبياء بصيغة واحدة، ولفظ واحد إشعارا بأن الحق الذي يأتي به الرسل، ويدعون اليه واحد من اتقاء الله تعالى وإجتنب معاصيه وإخلاص عبادته، وطاعة رسله، وأن أنبياء الله لا يكونون إلا أمناء لله، وانه لا يجوز على

واحد منهم أن يأخذ الاجر على رسالته، لما في ذلك من التنفير عن قبول قولهم، والمصير اليه إلى تصديقهم. ثم قال لهم منكرًا عليهم " أتأتون الذكران من العالمين "؟ ! يعني من جملة الخلائق " وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم " أي وتتركون ما خلقه لكم من الأزواج والنساء، وتذرون استغني في ماضيه ب (ترك) ولا يستعمل إلا في ضرورة الشعر. والزوجة المرأة التي وقع عليها العقد بالنكاح الصحيح، يقال: زوجة وزوج، قال الله تعالى " اسكن أنت وزوجك الجنة " (١).

ثم قال لهم منكرًا عليهم " بل انتم قوم عادون " أي خارجون عن الحق بعيديون عنه. والعادي والظالم والجائر نظائر، والعادي من العدوان.

وقد يكون من العدو، وهو الاسراع في السعي، فقال له قومه في جوابه " لئن لم تنته " وترجع عما تقوله " يا لوط " وتدعونا اليه وتتهانا عنه " لتكونن من المخرجين " أي نخرجك من بيننا وعن بلدنا. فقال لهم لوط عند ذلك " إني لعملكم من القالين " يعني من المبغضين: قلاه يقليه إذا أبغضه.

(١) سورة ٢ البقرة آية ٣٥ (*)

(٥٥)

ثم دعا لوط ربه فقال " رب نجني واهلي مما يعملون " أي من عاقبة ما يعملونه، وهو العذاب النازل لهم فأجاب الله دعاءه وقال " فنجيناك واهله اجمعين " يعني من العذاب الذي وقع بهم. وقد يجوز أن يكون أراد النجاة من نفس عملهم، بأن يفعل لهم من اللطف ما يجتنبون مثل افعالهم، وتكون النجاة من العذاب النازل بهم تبعًا لذلك. واستثنى من جملة أهله الذين نجاهم " عجوزا " فانه أهلها. وقيل: انها كانت امرأة لوط تدل قومه على اضيافه " في الغابرين " يعني الباقين. فيمن هلك من قوم لوط، لانه قيل: هلكت هي فيما بعد مع من خرج عن القرية بما أمطر الله عليهم من الحجارة. وقيل أهلكو بالخسف، وقيل بالانثفاك وهو الانقلاب. ثم أمطر على من كان غائبًا منهم عن القرية من السماء حجارة قال الشاعر في الغابر:

فماونا محمد مذ أن غفر * له الاله ما مضى وما غبر (١)

وقال الشاعر:

لا تكسع الشول باغبارها * انك لا تدري من الناتج (٢)

فأعبارها بقية لبنها في اخلافها، والغابر الباقي في قلة، كالتراب الذي يذهب بالكنس، ويبقى غباره: غير يغبر، فهو غابر، وغير الجص بقيته. وغير من الغبار تغبيرًا، وتغبر تغبيرًا. والعجوز المرأة التي قد أعجزها الكبر عن أمور كثيرة، ومثله الكبيرة والمسنة.

وقوله " ثم دمرنا الآخرين " فالتدمير هو الاهلاك بأهوال الامور، دمره تدميرا، ومثله تيره
تتبيرا، ودمر عليه يدمر دمرا إذا هجم عليه بالمكروه

(١) مر تخريجه في ٦ / ٣٤٤ و ١٧٥٧ (٢) تفسير القرطبي ١٣ / ١٣٣ (*)

(٥٦)

والدامر الهالك.

وقوله " وامطرنا عليهم مطرا " فالامطار الاتيان بالقطر العام من السماء، وشبه به امطار
الحجارة. والاهلاك بالامطار عقاب اتي الذكران من العالمين " فساء مطر المنذرين " سماه
(سوء) وإن كان حسنا، لانه كان فيه هلاك القوم ثم قال " إن في ذلك لآية " أي دلالة " وما
كان اكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم " وقد فسرناه.

قوله تعالى:

* (كذب أصحاب الايكة المرسلين (١٧٦) إذ قال لهم شعيب ألا تتقون (١٧٧) إني لكم رسول
أمين (١٧٨) فاتقوا الله وأطعون (١٧٩) وما أسئلكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب
العالمين (١٨٠) أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين (١٨١) وزنوا بالقسطاس المستقيم
(١٨٢) ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين (١٨٣) واتقوا الذي خلقكم
والجبلة الاولين (١٨٤) قالوا إنما أنت من المسحرين (١٨٥) وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك
لمن الكاذبين (١٨٦) فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين (١٨٧) قال ربي
أعلم بما تعملون (١٨٨)

(٥٧)

فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم (١٨٩) إن في ذلك لآية وما كان
أكثرهم مؤمنين (١٩٠)

وإن ربك لهو العزيز الرحيم) * (١٩١) ست عشرة آية بلا خلاف.

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر " أصحاب اليكة " على انه اسم المدينة معرفة لا ينصرف. قال
ابو علي الفارسي: الاجود أن يكون ذلك على تخفيف الهمزة، مثل لحر ونصبه يضعف، لانه
يكون نصب حرف الاعراب في موضع الجر، مع لام التعريف، وذلك لا يجوز. وحجة من
قرأ بذلك أنه في المصحف بلا ألف. وقالوا هو اسم المدينة بعينها. الباقر " أصحاب الايكة "
بالالف واللام مطلقا مضافا. ومثله الخلاف في ص. وقرأ ابوا حفص " كفا " بفتح السين -
هنا - وفي (سبأ). الباقر باسكانها.

حكى الله تعالى أن قوم شعيب، وهم أصحاب الايكة كذبوا المرسلين في دعائهم إلى خلع الانداد وإخلاص العبادة لله. والايكة الغيضة ذات الشجر الملتف. وجمعه الايك، قال النابغة الذبياني:

تجلو بقادمتي حمامة أيكة * بردا أسف لشاته بالاثمد (١)

وقال ابن عباس وابن زيد: اصحاب الايك هم أهل مدين. وانما قال " إذ قال لهم شعيب " ولم يقل أخوهم كما قال في سائر من تقدم من الانبياء لانه لم يكن منهم في النسب، وسائر من تقدم كانوا منهم في النسب، إلا موسى

(١) ديوانه (دار بيروت) ٤٠ (*)

(٥٨)

فانه كان من بني اسرائيل، وكانوا هم قبطا ولم يسمه الله بأنه أخوهم. ثم حكى عن شعيب انه قال لقومه مثل ما قاله سائر الانبياء وقد فسرناه.

ثم قال لهم " اوفوا الكيل " أي اعطوا الواجب وافيا غير ناقص ويدخل الوفاء في الكيل والذرع والعدد، يقال: أوفى يوفي إيفاء ووفاء. ونهاهم أن يكونوا من المخسرين، فالمخسر المعرض للخسران في رأس المال بالنقصان أخسر يخسر إخسارا إذا جعله يخسر في ماله، وخسر هو يخسر خسرانا واخسره نقيض أرباحه. وأمرهم أن يزنوا بالقسطاس المستقيم، فالوزن وضع شي بازاء المعيار، لما يظهر منزلته منه في ثقل المقدار إما بالزيادة أو النقصان أو التساوي. والقسطاس العدل في التقويم على المقدار، وهو على وزن (قرطاط)

وجمعه قساطيس. وقال الحسن: القسطاس القبان. وقال غيره هو الميزان. وقال قوم هو العدل والسواء. ذكره ابو عبيدة.

ثم قال لهم " ولا تبخسوا الناس اشياءهم " أي لا تتقصوها، " ولا تعثوا في الارض مفسدين " قال قوم: لا تعثوا فيها بالمعاصي. وقال سعيد ابن المسيب: معناه لا تفسدوا فيها بعد اصلاحها. وقال ابو عبيدة: عثا يعثا عثوا وهو أشد الفساد بالخراب. وقال غيره: عثا يعثوا عثوا، وعاث يعيث عيثا.

ثم قال لهم " واتقوا الذي خلقكم " وأوجدكم بعد العدم " والجبلة الاولين " فالجبلة الخليقة التي طبع عليها الشئ - بكسر الجيم - وقيل ايضا بضمها ويسقطون الهاء أيضا فيخففون. ومنه قوله " ولقد أضل منكم جبلا كثيرا " (١) وقال ابو ذؤيب:

(١) سورة ٣٦ يس آية ٦٢ (*)

منايا يقربن الحتوف لاهلها جهارا * ويستمتعن بالانس الجبل (١)
ومعناه اتقوا خليفة الاولين في عبادة غير الله والاشراك معه، فهو عطف على (الذي) فيها،
ولا يجوز أن يكون منصوبا ب " خلقكم " لان الله تعالى لم يخلق كفرهم، ولا ضلالهم، وإن
جعلته منصوبا ب " خلقكم " على أن يكون المعنى اتقوا الله الذي خلقكم وخلق الخلق الاولين،
كان جائزا، واخلصوا العبادة لله. فقالوا في الجواب له " إنما انت من المسحرين " وقد فسرناه.
" وما أنت إلا بشر مثلنا " أي مخلوقا من الناس مثلنا، ولست بملك حتى يكون لك فضل علينا.
والبشر هو الانسان، والانسان مشتق من الانس ووزنه (فعليان) والاصل إنسيان غير أنه حذف
منه الياء، فلما صغر رد إلى أصله، فقيل: انسيان. والبشر من البشرة الظاهرة. والمثل والشبه
واحد.

" وإن نظنك لمن الكاذبين " معناه إنا نحسبك كاذبا من جملة الكاذبين.
و (إن) هي المخففة من الثقيلة. ولذلك دخلت اللام في الخبر. ثم قالوا له: إن كنت صادقا
ومحقا في دعواك " فاسقط علينا كسفا من السماء " أي قطعا - في قول ابن عباس - وهو
جمع كسفة، ومثله نمرة وتمر، فقال لهم في الجواب عن ذلك " ربي أعلم بما تعملون " ومعناه
إنه إن كان في معلومه أنه: متى بقاكم انكم تتوبون أو يتوب تائب منكم، لم يقطعكم بالعذاب،
وإن كان في معلومه انه لا يفلح واحد منكم، فسيأتىكم عذاب الاستئصال.
ثم قال تعالى " فكذبوه " يعني قوم شعيب كذبوا شعيبا، فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة، وهي
سحابة رفعت لهم، فلما خرجوا اليها طلبا لبردها من شدة ما أصابهم من الحر مطرت عليهم
نارا فاحرقتهم، فهؤلاء أصحاب الظلة، وهم

(١) تفسير الطبري ١٩ / ٦٠ (*)

غير أهل مدين - في قول قتادة - قال: أرسل شعيب إلى أمتين.
" إن في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم " وقد فسرناه وانما
كر، " وإن ربك لهو العزيز الرحيم " للبيان عن انه رحيم بخلقه عزيز في انتقامه من الكفار.
قوله تعالى:

* (وإنه لتنزِيل رب العالمين (١٩٢) نزل به الروح الامين (١٩٣) على قلبك لتكون من
المنذرين (١٩٤) بلسان عربي مبين (١٩٥) وإنه لفي زبر الاولين (١٩٦) أو لم يكن لهم آية

أن يعلمه علمؤ بني إسرائيل (١٩٧) ولو نزلناه على بعض الاعجميين (١٩٨) فقراه عليهم ما كانوا به مؤمنين (١٩٩)

كذلك سلكناه في قلوب المجرمين (٢٠٠) لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم (٢٠١) فيأتيتهم بغتة وهم لا يشعرون (٢٠٢)

فيقولوا هل نحن منظرون (٢٠٣) أفبعذابنا يستعجلون (٢٠٤)
أفرايت إن متعناهم سنين (٢٠٥) ثم جاءهم ما كانوا يوعدون (٢٠٦) ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون (٢٠٧) * ست عشرة آية بلا خلاف. (*)

(٦١)

قرأ ابن عامر واهل الكوفة الا حفصا ويعقوب " نزل " به بتشديد الزاي وفتحها * (الروح الامين) * بالنصب فيهما، الباقون بالتخفيف والرفع فيهما.

وقرأ ابن عامر * (أو لم تكن) * بالتاء * (آية) * بالرفع. الباقون بالياء ونصب * (آية) * من شدد الزاي، فلقوله " فانه نزل على قلبك باذن الله " (١) * (وانه لتنزىل رب العالمين) * ومن خفف، فلان التنزىل فعل الله، وهذا فعل جبرائىل، يقال: نزل الله جبرائىل، ونزل جبرائىل. فاما قوله * (فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا) * بالتشديد، فلاجل حذف الباء، لانك تقول نزلت به وأنزلته. ومن شدد فانه أضاف الفعل إلى الله.

ومن خفف أضاف الفعل إلى جبرائىل (ع) ومن قرأ * (أو لم تكن) * بالتاء ورفع * (آية) * جعلها اسم (كان) وخبره * (أن يعلمه) * لان (ان) مع الفعل بمنزلة المصدر، وتقديره: أو لم تكن لهم آية معجزة ودلالة ظاهرة علم بني اسرائىل بمحمد في الكتب. يعني كتب الانبياء (ع) قبله أنه نبي، وأن هذا القرآن من عند الله، لكنه لما جاءهم ما عرفوه على بصيرة كفرُوا به. ومن قرأ بالياء ونصب (آية) جعلها خبر (كان) واسمه (أن يعلمه) وهو الاقوى في العربية، لان (آية) نكرة، و (أن يعلمه) معرفة، وإذا اجتمعت معرفة ونكرة اختير أن يكون المعرفة اسم (كان) والنكرة خبرها، وسيبويه لا يجيز غير ذلك إلا في ضرورة الشعر كقول حسان:

كأن سبيئة من بيت رأس * يكون مزاجها عسل وماء (٢)

من بيت رأس معناه من بيت رئيس، فسمى السيد رأسا، قال عمرو ابن كلثوم.

(١) سورة ٢ البقرة آية ٩٧ (٢) (اللسان رأس) (*)

(٦٢)

برأس من بني جشم بن عمرو (١)

وبيت رأس بيت بالشام، تتخذ فيه الخمر. والهاء في قوله " نزله... وانه لتنزيل " كناية عن القرآن في قول قتادة. وصفه الله تعالى أنه تنزيل من رب العالمين الذي خلق الخلائق. ووصفه بأنه تنزيل من رب العالمين، تشریف له وتعظيم لشأنه. ثم قال " نزل به الروح الامين " من خفف أسند الفعل إلى جبرائيل، ولذلك رفعه. ومن ثقل أسنده إلى الله تعالى، ونصب * (الروح الامين) * على انه مفعول به. والروح الامين جبرائيل (ع). وانما قال * (على قلبك) * لانه بقلبه يحفظه فكأنه المنزل عليه. و (الروح الامين)

جبرائيل (ع) في قول ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك وابن جريج. ووصف بأنه (روح) من ثلاثة وجوه:

احدها - انه تحيا به الارواح بما ينزل من البركات.

الثاني - لان جسمه روحاني.

الثالث - ان الحياة عليه أغلب، فكأنه روح كله.

وقوله * (على قلبك لتكون من المنذرين) * أي انزل هذا القرآن على قلبك لتخوف به الناس وتندرهم. ثم عاد إلى وصفه فقال * (وانه لفي زبر الاولين) * ومعناه إن ذكر القرآن في كتب الاولين على وجه البشارة به، لا لان الله أنزله على غير محمد (صلى الله عليه وآله). وواحد (الزبر) زبور، وهي الكتب، تقول: زبرت الكتاب أزره زبرا إذا كتبتة. واصله الجمع، ومنه الزبرة الكتبة، لانها مجتمعة.

ثم قال تعالى * (أولم يكن لهم آية) * اي دلالة في علم بني اسرائيل واضحة

(١) ملحق ديوانه امرئ القيس اخبار عمرو بن كلثوم: ٢٢٦ وروايته:

برأس من بني جشم بن بكر * ندق به السهولة والحزونا (*)

(٦٣)

على صحة أمره. ومن حيث أن مجيئه على ما تقدمت البشارة به بجميع أوصافه لا يكون إلا من جهة علام الغيوب. وقيل: من علماء بني اسرائيل عبدالله ابن سلام - في قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد - ثم قال " ولو نزلناه " يعني القرآن " على بعض الاعجمين " قيل: معناه على أعجم من البهائم أو غيره ما آمنوا به - ذكره عبدالله بن مطيع - وقيل: معناه " لو نزلناه على " رجل اعجم اللسان ما آمنوا به ولتكبروا عليه، لانه من غيرهم، وأن المعجزة تفارقه، وفي ذلك تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) حين لم يؤمنوا به، ولم يقبلوا منه. ونقيض الاعجم الفصيح، والاعجم الذي يمتنع لسانه من العربية. والعجمي نقيض العربي، وهو نسبة الولادة، قال الشاعر:

من وائل لا حي يعدلهم * من سوقة عرب ولا عجم (١)
وإذا قيل أعجمي، فهو منسوب إلى أنه من الاعجمين الذين لا يفصحون كما قال العجاج:
والدهر بالانسان دوازي (٢)
فنسبه إلى أنه من الدوازين بالانسان.

وقوله " كذلك سلكناه في قلوب المجرمين " فالهاء كناية عن القرآن.
ومعناه أقررناه في قلوبهم باخطاره ببالمهم لتقوم به الحجة عليهم، والله لطف يوصل به المعنى
في الدليل إلى القلب، فمن فكر فيه أدرك الحق به. ومن أعرض عنه كان كمن عرف الحق
وترك العمل به في لزوم الحجة عليه.
والفرق بين من ادرك الحق لسلوكه في القلب، وبين من ادرك الحق بالاضطرار اليه في
القلب، أن الاضطرار اليه يوجد الثقة به فيكون، صاحبه عالما به. واما

(١) تفسير الطبري ١٩ / ٦٤ (٢) مر تخريجه في ٤ / ٣٧٧، ٥٠٥ (*)

(٦٤)

بسلوكه، فيكون مع الشك فيه.
وقال الحسن وابن جريج، وابن زيد: كذلك " سلكناه " أي الكفر.
ولا وجه لذلك، لانه لم يجر ذكره، ولا حجة فيه وانما الحجة في القرآن واخطاره بالبال، فهو
أحسن في التأويل.
وقوله " لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم " اخبار منه تعالى عن قوم من الكفار أنهم
يموتون على كفرهم بأنهم لا يؤمنون حتى يشاهدوا العذاب المؤلم، فيصيرون عند ذلك ملجئين
إلى الايمان، ومعنى " حتى يروا العذاب " أي حتى يشاهدوا أسبابه من نيران مؤججة لهم
يساقون اليها، لا يردهم عنها شيء. ويحتمل حتى يعلموه في حال حلوله بهم علم ملابسته لهم.
ثم قال تعالى " فيأتيهم بغتة " ومعناه: إن العذاب الذي يتوقعونه ويستعجلونه يجيئهم فجأة.
والبغته حصول الامر العظيم الشأن من غير توقع بتقديم الاسباب، وقيل البغته الفجأة.
والبادرة، بغته الامر بيغته بغتا وبغته قال الشاعر:

وافضع شئ حين يفجؤك البغت (١)

واتاه الامر بغتة نقيض أتاه عن تقدمه " وهم لا يشعرون " أي لا يعلمون والشعور هو العلم
بما يلطف، لطف الشعر.

ثم اخبر تعالى انه إذا جاءهم العذاب بغتة قالوا " هل نحن منظرون " أي مؤخرون، فقال الله
تعالى " ابعذابنا يستعجلون " على وجه التوبيخ لهم والانكار عليهم. ثم قال لنبيه (صلى الله عليه

وآله) " افرأيت " يا محمد " إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون " به من العذاب " ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون " معناه

(١) مر تخريجه في ٤ / ١٢٢، ٥٠٧ و ٦ / ٢٠٤ (*)

(٦٥)

انه لم يغن عنهم ما كانوا يمتعون، لازديادهم من الآثام، واكتسابهم من الاجرام، أي أي شئ يغني عنهم ما يمتعون به من النعم، لانه فان كله، والاعناء عن الشئ صرف المكروه عنه بما يكفي عن غيره. والغنى به نقيض الغنى عنه، فالاعناء عنه الصرف عنه، والاعناء به الصرف به، والامتع احضار النفس ما فيه اللذة بادراك الحاسة، يقال: أمتعته بالرياحين والطيب، وامتعه بالنزه والبساتين، وامتته بالمال والبنين، وامتعه بالحديث الطريف الطريف. قوله تعالى:

* (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون (٢٠٨) ذكرى وما كنا ظالمين (٢٠٩) وما تنزلت به الشياطين (٢١٠) وما ينبغي لم وما يستطيعون (٢١١) إنهم عن السمع لمعزولون (٢١٢) فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين (٢١٣) وأنذر عشيرتك الاقربين (٢١٤) واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين (٢١٥) فان عصوك فقل إني بريء مما تعملون (٢١٦) وتوكل على العزيز الرحيم (٢١٧) الذي يريك حين تقوم (٢١٨) وتقلبك في الساجدين (٢١٩) إنه هو السميع العليم) * (٢٢٠) اثنتا عشرة آية في المكي والمدني الآخر، وثلاث عشرة آية فيما عداه. عدوا

(٦٦)

" الشياطين " ولم يعدها الاول.

يقول الله تعالى " وما أهلكنا من " أهل " قرية " بالعذاب الذي أنزلناه عليهم فيما مضى من الامم السالفة * (الا) * وكان * (لها منذرون) * يخوفونهم بالله ويحذرونهم معاصيه. وقوله " ذكرى وما كنا ظالمين " معناه ذلك الذي قصصناه من إنزال العذاب بالامم الخالية " ذكرى " لكم تتعظون بها. ثم بين أن ذلك كان عدلا، ليكون أشد في الزجر، وإن الله تعالى لم يكن ظالما لاحد.

وموضع " ذكرى " يجوز أن يكون نصبا بالانذار، ويجوز أن يكون رفعا بالاستئناف على ذلك (ذكرى). والذكرى: هو إظهار المعنى للنفس تقول: ذكرته ذكرى.

وبين ان ذلك ليس مما ينزل به الشياطين ويغوون به الخلق، بل هو وحي من الله تعالى. ثم بين انه ليس ينبغي للشياطين أنزال ذلك. انهم لا يستطيعون على ذلك. ومعنى ينبغي لك كذا يطلب منه فعله في مقتضى العقل، فتقول:

ينبغي لك أن تختار الحسن على القبيح، ولا ينبغي لك أن تختار القبيح على الحسن. واصله من البغية التي هي الطلب، وقرا الحسن و " ما تنزلت به الشياطين " بالواو، ظنا منه أنه مثل (المسلمين). وهذا لحن بلا خلاف، لانه جمع تكسير شيطان وشياطين. والاستطاعة هي القدرة التي ينطاع بها الفعل للجارحة. ثم قال: " انهم " يعني الشياطين " عن السمع لمعزولون " وقيل: معناه إنهم عن عن استراق السمع من السماء لمعزولون. وقيل: عن سمع القرآن - في قول قتادة - لمعزولون معناه منحون. فالعزل تحية الشيء عن الموضوع إلى خلافه، وهو ان يزيله عن أمر إلى نقيضه، كما قال الشاعر:

(٦٧)

عزل الامير بالامير المبدل (١)

وانما لم ينبغ لهم ذلك لحراسة المعجزة عن أن تتموه بالباطل، لان الله إذا أراد أن يدل بها على صدق الصادق أخلصها بمثل هذه الحراسة، حتى تصح الدلالة. ثم نهى نبيه (صلى الله عليه وآله) والمراد به المكلفين، فقال " ولا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين " وتقديره انك إن دعوت معه إلها آخر كنت من المعذبين. ثم امره أن ينذر عشيرته الاقربين قيل: انما خص في الذكر انذار عشيرته الاقربين، لانه يبدأ بهم، ثم الذين يلونهم، كما قال تعالى " قاتلوا الذين يلونكم من الكفار " (٢) لان ذلك هو الذي يقتضيه حسن التدبير: الترتيب. ويحتمل أن يكون انذرهم بالافصاح عن قبيح ما هم عليه وعظم ما يؤدي اليه من غير تليين بالقول يقتضي تسهيل الامر لما يدعو اليه مقارنة العشيرة، بأن من نزل بهم الاغلاظ في هذا الباب أنلهم. وقيل: ذكر عشيرتك الاقربين أي عرفهم إنك لا تغني عنهم من الله شيئا إن عصوه. وقيل: انما خص عشيرته الاقربين لانه يمكنه أن يجمعهم ثم ينذرهم، وقد فعل (صلى الله عليه وآله) ذلك. والقصة بذلك مشهورة فانه روي أنه أمر (صلى الله عليه وآله) عليا بأن يصنع طعاما ثم دعا عليه بني عبد مناف وأطعمهم الطعام. ثم قال لهم: أيكم يؤازرنى على هذا الامر يكن وزيرى وأخي ووصيى، فلم يجبه أحد إلا علي (ع) والقصة في ذلك معروفة.

ثم أمره (صلى الله عليه وآله) بأن يخفض جناحه للمؤمنين الذين اتبعوه، ومعناه ألن جانبك وتواضع لهم، وحسن أخلاقك معهم - ذكره ابن زيد - ثم قال " فان عصوك " يعني أقاربك بعد انذارك إياهم وخالفوك فيما تدعوهم اليه إلى

(١) مر في ٧ / ٩٧، ٤٥٦ (٢) سورة ٩ التوبة آية ١٢٤ (*)

(٦٨)

ما يكرهه الله، فقل لهم " اني برئ مما تعملون " أي من أعمالكم القبيحة وعبادتكم للاصنام. والبراءة المباحة من النصره عند الحاجة، فاذا برئ من عملهم فقد تباعد من النصره لهم او الموالاته. ثم أمره أن يتوكل على العزيز الرحيم ومعناه أن يفوض أمره إلى من يدبره. والتوكل على الله من الايمان، لانه أمر به، وحث عليه " على العزيز الرحيم " يعني القادر الذي لا يغالب، ولا يعاز الكبير الرحمة الواسع النعمة على خلقه " الذي يراك " يا محمد " حين تقوم وتقلبك في الساجدين " أي تصرفك في المصلين بالركوع والسجود والقيام والقعود - في قول ابن عباس وقتادة - وفي رواية أخرى عن ابن عباس:

إن معناه إنه أخرجك من نبي إلى نبي حين أخرجك نبيا. وقيل: معناه يراك حين تصلي وحدك، وحين تصلي في جماعة. وقال قوم من اصحابنا: إنه أراد قلبه من آدم إلى أبيه عبدالله في ظهور الموحدين، لم يكن فيهم من يسجد لغير الله.

والرؤية - ههنا هي ادراك البصر، دون رؤية القلب، لان (رأيت) بمعنى علمت، لا يتعدى إلى مفعول واحد، فهي من رؤية البصر، ثم قال " إنه هو السميع العليم " أي يسمع ما تتلو في صلاتك، العليم بما تضرر فيها في قلبك.

وقيل معنى " وتوكل على العزيز الرحيم " ليظهرك على كيد أعدائك الذين عصوك فيما أمرتهم به. وقرأ ابن عامر ونافع " فتوكل " بالفاء، لانها في مصاحف أهل المدينة والشام كذلك. الباقرن بالواو، وكذلك هو في مصاحفهم.

والتوكل على الله: هو أن يقطع العبد جميع أماله من المخلوقين إلا منه تعالى، ويقطع رغبته من كل احد إلا اليه، فاذا كان كذلك رزقه الله من حيث لا يحتسب.

(٦٩)

قوله تعالى:

* (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين (٢٢١) تنزل على كل أفاك أثيم (٢٢٢) يلقون السمع وأكثرهم كاذبون (٢٢٣)

والشعراء يتبعهم الغاوان (٢٢٤) ألم تر أنهم في كل واد يهيمون (٢٢٥) وأنهم يقولون ما لا يفعلون (٢٢٦) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما

ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) * (٢٢٧)

سبع آيات بلا خلاف.

لما اخبر الله تعالى أن القرآن ليس مما تنزل به الشياطين، وأنه وحي من الله تعالى على نبيه، نبه خلقه على من تنزل الشياطين عليه بقوله " هل انبئكم " أي هل أخبركم " على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم " أي كذاب أثيم، وقال مجاهد: الافاك الكذاب. ومعناه الكثير الكذب، والقلب للخبر من جهة الصدق إلى الكذب، وأصله الانقلاب من المؤتفكات وهي المنقلبات.

والانباء الاخبار بما فيه من الغيوب وعظم الشأن، ومنه قولهم: لهذا الامر نبأ ومنه اشتق وصف الرسول بأنه نبي بعظم شأن ما اتى به من الوحي من الله. والآثم الفاعل للقبیح: أثم يأثم إذا ارتكب القبيح، وتأثم إذا ترك الآثم مثل تحوب إذا ترك الحوب، وأثمه تأثيماً إذا نسبه إلى الآثم، ثم قال " يلقون

(٧٠)

لسمع، أي يلقون ما يسمعون باستراق السمع إلى كل أفاك أثيم - في قول مجاهد - ثم اخبر تعالى أن اكثرهم كاذبون فيما يلقونه اليهم. وقوله " والشعراء يتبعهم الغاوان " قال الحسن: هم الذين يسترقن السمع ويلقونه إلى الكهنة، وقال إنما يأخذون أخبارا عن الوحي " انهم عن السمع لمعرولون " أي عن سمع الوحي. وقيل: ان الشعراء المراد به القصاص الذين يكذبون في قصصهم ويقولون ما يخطر ببالهم. وقوله " ألم تر انهم في كل واد يهيمون " أي هم لما يغلب عليهم من الهوى كالهائم على وجهه في كل واد يعن له، وليس هذا من صفة من عليه السكينة والوقار ومن هو موصوف بالحلم والعقل. والمعنى أنهم يخوضون في كل فن من الكلام والمعاني التي يعن لهم ويريدونه. وقال ابن عباس وقتادة:

معناه في كل لغو يخوضون: يمدحون ويذمون، يعنون الباطل. وقال الجبائي:

معناه يصغون إلى ما يلقيه الشيطان اليهم على جهة الوسوسة لما يدعوهم اليه من الكفر والضلال. وقيل: انما صار الاغلب على الشعراء الغي باتباع الهوى، لان الذي يتلو الشعر - في الاكثر - العشاق ولذلك يقبح التشبيب. مع أن الشاعر يمدح للصلة ويهجو على جهة الحمية فيدعوه ذلك إلى الكذب، ووصف الانسان بما ليس فيه من الفضائل والردائل. وقرأ نافع " يتبعهم " بتخفيف التاء من تبعه إذا اقتفى أثره، يقال تبع فلانا اذا سار في أثره واتبعه لحقه. الباقر: بالتشديد من الاتباع، ومعناها واحد.

والآية قيل نزلت في الشعراء الذين هجوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) والمؤمنين، وهي تتناول كل شاعر يكذب في شعره - ذكره الفراء - وقيل: انها نزلت في ابن الزبيري وأمثاله.

(٧١)

ثم اخبر ان هؤلاء الشعراء يقولون ويحثون على اشياء لا يفعلونها هم، وينهون عن اشياء يرتكبونها، ثم استثنى من جملتهم الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا، فأجبتبوا معاصيه، وانتصروا - لنفوسهم في الدين - من الذين ظلموهم. وقيل: أراد الشعراء الذين ردوا على المشركين هجاءهم للمؤمنين، فانتصروا بذلك للنبي والمؤمنين، ثم هدد الظالمين، فقال " وسيعلم الذين ظلموا " نفوسهم " أي منقلب ينقلبون " أي أي منصرف ينصرفون اليه لان منصرفهم إلى النار، نعوذ بالله منها. وقيل أراد الذين ظلموا نفوسهم بقول الشعر الباطل من هجو النبي والمؤمنين، ومن يكذب في شعره. وقوله " أي منقلب ينقلبون " نصب (أي) ب (ينقلبون) ولا يجوز أن ان يكون منصوبا ب (سيعلم)، لان أيا لا يعمل فيها ما قبلها، لان الاستقام له صدر الكلام حتى ينفصل من الخبر بذلك.

(٧٣)

٢٧ - سورة النمل مكية بلا خلاف وهي خمس وتسعون آية حجازي واربع وتسعون آية بصري وشامي وثلاث وتسعون آية في عدد الكوفيين بسم الله الرحمن الرحيم * (طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين (١) هدى وبشرى للمؤمنين (٢) الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم يوقنون (٣) إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون (٤) أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الآخسرون) * (٥) خمس آيات بلا خلاف.

قد بينا معنا الحروف التي في أوائل السور فيما تقدم بما لا نحتاج معه إلى إعادته، وقد بينا قول من قال إنها أسماء للسور. وقال قوم " طس " اسم من أسماء القرآن. وقوله " تلك " إشارة إلى ما وعدوا بمجيئه من القرآن. وقيل ان " تلك "

(٧٤)

بمعنى (هذا) وآيات القرآن هي القرآن، وانما أضافها اليه، كما قال " انه لحق اليقين " (١). والقرآن والكتاب معناهما واحد، ووصفه بالوصفين ليفيد أنه مما يظهر بالقراءة، ويظهر بالكتابة، وهو بمنزلة الناطق بما فيه من الامرين جميعا وذلك يبطل قول من قال: ان كلام الله شئ واحد لا يتصرف بالقراءة والكتابة.

ووصفه بأنه مبين تشبيهه له بالناطق بكذا، وإذا وصفه بأنه بيان جرى مجرى وصفه له بالنطق بكذا في ظهور المعنى به للنفس. والبيان هو الدلالة التي تبين بها الاشياء. والمبين المظهر، وحكم القرآن الموعظة بما فيها من الترغيب والترهيب والحجة الداعية إلى الحق الصارفة عن الباطل، وأحكام الشريعة التي فيها مكارم الاخلاق ومحاسن الافعال، والمصلحة فيما يجب من حق النعمة لله تعالى ما يؤدي إلى الثواب ويؤمن من العقاب. ثم وصفه بأنه " هدى وبشرى للمؤمنين " وموضع " هدى " نصب على الحال، وتقديره هاديا ومبشرا، ويجوز أن يكون رفعا على تقدير هو " هدى وبشرى للمؤمنين " والمعنى ان ما فيه من البيان والبرهان يهديهم إلى الحق، وما لهم في وجه كونه معجزا الذي فيه من اللطف ما يؤديهم إلى الثواب ويبشرهم بالجنة.

ثم وصف المؤمنين الذين بشرهم القرآن بأنهم " الذين يقيمون الصلاة " بحدودها ويداومون على أوقاتها ويخرجون ما يجب عليهم من الزكاة في أموالهم إلى مستحقها، وهم مع ذلك يوقنون بالآخرة، ويصدقون بها. ثم وصف تعالى من خالف ذلك ولم يصدق بالآخرة، فقال " إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم اعمالهم فهم يعمهون " قيل في معناه قولان:

احدهما - قال الحسن والجبائي: زينا لهم اعمالهم التي أمرناهم بها، فهم

(٧٥)

يتحiron بالذهاب عنها.

الثاني - زينا لهم أعمالهم بخلقنا فيهم شهوة القبيح الداعية لهم إلى فعل المعاصي ليجتنبوا المشتهى " فهم يعمهون " عن هذا المعنى أي يتحiron بالذهاب عنها. ثم اخبر تعالى ان من وصفه بذلك لهم " سوء العذاب " ووصفه بأنه سوء لما فيه من الالم و " هم في الآخرة هم الاخسرون " لانهم يخسرون الثواب ويحصل لهم بدلا منه العقاب فهو اخسر صفقة تكون.

قوله تعالى:

* (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم (٦) إذ قال موسى لاهله إني آنست نارا سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون (٧) فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين (٨) يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم (٩) وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون (١٠) إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم) * (١١) ست آيات بلا خلاف. قرأ اهل الكوفة " بشهاب قبس " منون غير مضاف جعلوا (قبسا) صفة للشهاب على تقدير منور. الباقيون بالاضافة على تقدير (نار)

(٧٦)

يقول الله تعالى مخاطبا لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) " انك " يا محمد " لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم " أي انك لتعطى لان الملك يلقيه اليه من قبل الله تعالى، من عند حكيم بصير بالصواب من الخطاء في تدبير الامور بما يستحق به التعظيم. وقد يفيد (الحكيم) العامل بالصواب المحكم للامور المنتقن لها.

وعليم بمعنى عالم إلا أن فيه مبالغة. وقال الرماني هو مثل سامع وسميع، فوصفنا له بأنه عالم يفيد أن له معلوما، كما أن وصفه بأنه سامع يفيد بأن له مسموعا.

ووصفه بأنه عليم يفيد أنه متى صح معلومه. فهو عليم به، كما أن (سميعا)

يفيد إنه متى وجد مسموع لابد أن يكون سامعا.

وقوله " إذ قال موسى لاهله " قال الزجاج: العامل في إذ (اذكر) وهو منصوب به. وقال غيره: هو منصوب ب (عليم) اذ قال اني آنست نارا.

فالإيناس الإحساس بالشئ من جهة ما يؤنس أنست كذا، أوئسه إيناسا وما أنست به، فقد أحسست به، مع سكون نفسك اليه " سآتيكم منها بخبر " يعني بمن يدل على الطريق ويهدينا اليه، لانه كان قد ضل " أو آتيكم بشهاب قبس " قيل:
لأنهم كانوا قد أصابهم البرد، وكان شتاء فلذلك طلب ناراً. والشهاب نور كالعمود من النار، وجمعه شهب. وقيل للكوكب الذي يمتد وينقض شهاب، وجمعه شهب، وكل نور يمتد مثل العمود يسمى شهاباً، والقبس القطعة من النار قال الشاعر:
في كفه صعدة متقفة * فيها سنان كشعلة القبس (١)
ومنه قيل اقتبس النار اقتباساً أي أخذ منها شعلة، واقتبس منه علماً أي أخذ منه نوراً يستضيء به كما يستضيء بالنار " لعلكم تصطلون " معناه، لكي

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ١٥٧ (*)

(٧٧)

تصطلوا. ومعناه لتدفئوا، والاصطلاء التدفئ بالنار، وصلى النار يصلي صلاً إذا لزمها، فاصله اللزوم. وقيل الصلاة منه للزوم الدعاء فيها. والمصلي الثاني بعد السابق للزومه صلوا السابق. وإنما قال لامراته " لعلى آتيكم " لانه أقامها مقام الجماعة في الانس بها والسكون اليها في الامكنة الموحشة. ويجوز أن يكون على طريق الكناية على هذا التأويل.
وقوله " فلما جاءها " معناه جاء النار " نودي أن بورك من في النار ومن حولها " وقيل في معناه قولان:

احدهما - بورك نور الله الذي في النار، وحسن ذلك، لانه ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار. في قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والحسن.
الثاني - الملائكة الذين وكلهم الله بها على ما يقتضيه. " ومن حولها " - في قول ابي علي الجبائي - ولا خلاف أن الذين حولها هم الملائكة الذين وكلوا بها. و " سبحان الله رب العالمين ".

وقوله " ان بورك " يحتمل أن يكون نصبا على نودي موسى بأن بورك.
ويحتمل الرفع على نودي البركة، والبركة ثبوت الخير النامي بالشئ. قال الفراء العرب تقول: بارك الله، وبورك فيك.

وقوله " انه انا الله العزيز الحكيم " معناه ان الله قال لموسى ان الذي يكلمك هو الله العزيز القادر الذي لا يغالب، الحكيم في افعاله، المئزه من القبائح. قال الفراء: الهاء في قوله " انه " عماد، ويسميها البصريون إضمار الشأن والقصة. ثم أراد أن يبين له دلالة يعلم بها صحة

النداء، فقال " والى عصاك " من يدك، وفي الكلام حذف، وهو أنه القى عصاه وصارت حية " فلما رآها تهتز كأنها جان " وهي الحية الصغيرة مشتق من الاجتنان، وهو الاستتار، وقال

(٧٨)

الفراء: هي حية بين الصغيرة والكبيرة، قال الراجز:
يرفعهن بالليل إذا ما أسدفا * أعناق جان وهاما رجفا (١)
ووصف العصا في هذا الموضع " كأنها جان " وفي الشعراء بأنها ثعبان، وهي الحية الكبيرة، لأنها جمعت صفة الجان في اهتزازه وسرعة حركته مع انه ثعبان في عظمه، ولذلك هاله ف " ولى مدبرا ". وقيل انها أول شئ صارت جانا ثم تدرجت إلى ان صارت ثعبانا، وهم يشاهدونها، وذلك أعظم في الاعجاز.

وقيل: ان الحاليين مختلفان، لان الحال التي صارت فيها جانا هي الحال التي خاطبه الله في أول ما بعثه نبيا، والحال التي صارت ثعبانا هي الحال التي لقي فرعون فيها. فلا تنافي بينهما على حال.

وقوله " ولم يعقب " معناه ولم يرجع - في قول قتادة - وقال الجبائي معناه لم يرجع على عقبيه. والمعاقبة ذهاب واحد ومجئ آخر على وجه المناوبة. وانما ولى منها موسى بالبشرية، لا انه شك في كونها معجزة له ولا يضره ذلك.

وقوله " يا موسى لا تخف " نداء من الله تعالى لموسى وتسكين منه، ونهي له عن الخوف. وقال له انك مرسل و " لا يخاف لدي المرسلون " لانهم لا يفعلون قبيحا، ولا يخلون بواجب، فيخافون عقابه عليه، بل هم منزهون عن جميع ذلك.

وقوله " إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء " صورته صورة الاستثناء، وهو منقطع عن الاول وتقديره لكن من ظلم نفسه بفعل القبيح، ثم بدل حسنا بعد سوء، بأن تاب من القبيح، وفعل الحسن، فانه يغفر له. وقال قوم:

(١) تفسير الطبري ١٩ / ٧٦ وروايته:

يرقن بالليل اذا ما رجفا * اعناق جان وهاما رجفا (*)

(٧٩)

هو استثناء متصل وأراد من فعل صغيرة من الانبياء. فعلى هذا يكون الاستثناء متصلا - ذكره الحسن - وهذا تأويل بعيد، لان صاحب الصغيرة لا خوف عليه أيضا لوقوعها مكفرة. والاستثناء وقع من المرسلين الذين لا يخافون، فالاول هو الصحيح.

وقوله " ثم بدل حسنا بعد سوء " معناه ندم على ما فعله من القبيح، وتاب منه وعزم على أن لا يعود إلى مثله في القبح، فان من تلك صورته، فان الله يغفر له ويستتر عليه لانه رحيم. وقيل: المعنى " لا يخاف لدي المرسلون " انما الخوف على من سواهم " إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء " قال الجبائي:

في الآية دلالة على انه يسمى الحسن حسنا قبل وجوده وبعد تقضيه، وكذلك القبيح، وهذا إنما يجوز على ضرب من المجاز، دون الحقيقة، لان كون الشيء حسنا او قبيحا بقيد حدوثه على وجه لا يصح في حال عدمه، وانما سمي بذلك بتقدير أنه متى وجد كان ذلك، وقال قوم " إلا " بمعنى الواو، فكأنه قال اني لا يخاف لدي المرسلون، ولا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء، فاني أغفر له.

قوله تعالى:

* (وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين (١٢)

فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين (١٣) وجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة

(٨٠)

المفسدين (١٤) ولقد آتينا داود وسليمن علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) * (٥١) أربع آيات بلا خلاف.

امر الله تعالى موسى (ع) أن يدخل يده في جيبه. وقيل: أراد كمه.

وقيل: ثيابه " تخرج بيضاء من غير سوء " يعني من غير برص. وقال المبرد:

السوء إذا اطلق يراد به البرص، وإذا وصل بشئ، فهو كلما يسوء، قال:

وتقديره كأن هاتين مع بقية الآيات تسع آيات. والتقدير ادخل يدك في جيبك فان ذلك مع إلقاء العصا، وما بعد ذلك من الآيات تسع آيات، كما يقال جاء فلان في جمع كثير، وهو احد ذلك الجمع. وقيل: إن معنى (في) من.

وقال ابن مسعود: اتى موسى فرعون وعليه جبة صوف. وقال مجاهد كان كمها إلى بعض يده.

وقوله " إلى فرعون " تقديره مرسلا إلى فرعون وقومه في تسع آيات.

وحذف كما قال الشاعر:

رأنتي بخيلها فصدت مخافة * وفي الخيل دعاء الفؤاد فروق (١)

اي رأنتي مقبلا بخيليتها. ثم اخبر تعالى عن فرعون وقومه بأنهم " كانوا قوما فاسقين " والآيات التسع التي كانت لموسى (ع): قلب العصا حية. واليد البيضاء. والجراد. والقمل. والضفادع، والدم. والبحر وانفلاقه. ورفع الطور فوق رؤسهم. وانفجار الحجر اثنتا عشرة عينا. وقيل: بدل البحر

(١) تفسير الطبري ١٩ / ٧٨ (*)

(٨١)

والجبل الطوفان والطمس. ذكره ابن زيد. ثم اخبر تعالى عن فرعون وقومه أنه لما جاءتهم آيات الله ودلائله مبصرة. وقيل في معنى مبصرة قولان: احدهما - انها تبصر الصواب من الخطأ، يقال أبصرته وبصرته بمعنى واحد، كقولك أكفرته وكفرته، واكذبتة وكذبتة. الثاني - مبصرة للحق من الباطل، فهي تهدي اليه كأنها تراه. قالوا عند ذلك إنه هذه الآيات " سحر مبين " أي ظاهر. ثم قال " وجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا " والمعنى انهم عرفوها وعلموها بقلوبهم، لكنهم جحدوا بها بألسنتهم طلبا للعلو والتكبر، ففي ذلك دلالة على أنهم كانوا معاندين إذ جحدوا ما عرفوا. وقال الرماني: لا تدل على ذلك، لان معرفتهم كانت بوقوعها على الحقيقة. فأما الاستدلال على أنها من فعل الله ومن قبله ليدل بها على صدق من أعطاها إياه فبعد العلم بوقوعها.

وقال ابو عبيدة: الباء زائدة، والمعنى وجدوها، كما قال العجاج:

نضرب بالسيف ونرجوا بالفرح (١)

وقيل انهم جحدوا ما دلت عليه من تصديق الرسول، كما تقول كذبت به أي بما جاء به. ثم قال تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) " فانظر " يا محمد * (كيف كان عاقبة المفسدين) * لان الله أهلكتهم وغرقهم ودمر عليهم.

ثم اخبر تعالى بأنه اعطى داود وسليمان علما من عنده، وانهما قالوا الحمد لله

(١) قد مر في ٧ / ١١٨ من هذا الكتاب (*)

(٨٢)

الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين، بأن جعلنا أنبياء واختارنا من بين الخلائق. والعلم الذي اوتياه قيل: هو علم الاحكام. وقيل: هو العلم بمنطق الطير، وكلام البهائم. قوله تعالى:

* (وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين (١٦)

وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطيير فهم يوزعون (١٧) حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون (١٨) فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضيه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) * (١٩) أربع آيات بلا خلاف.

اخبر الله تعالى أن سليمان ورث داود. واختلفوا فيما ورث منه، فقال اصحابنا إنه ورث المال والعلم. وقال مخالفونا: انه ورث العلم، لقوله (صلى الله عليه وآله) نحن معاصر الانبياء لا نورث.

(٨٣)

وحقيقة الميراث هو انتقال تركة الماضي بموته إلى الثاني من ذوي قرابته. وحقيقة ذلك في الاعيان، فاذا قيل ذلك في العلم كان مجازا. وقولهم: العلماء ورثة الانبياء، لما قلنا. والخبر المروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) خبر واحد، لا يجوز أن يخص به عموم القرآن ولا نسخه به.

وقال بعضهم: إن داود كان له تسعة عشر ولدا ذكورا وورثه سليمان خاصة، فدل على أنه إنما ورثه العلم والنبوة، فخير واحد لا يلتفت اليه.

وقوله * (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) * أي فهمنا معاني منطقها وما نفهم به بعضها عن بعض، قال المبرد: والعرب تسمي كل مبين عن نفسه ناطقا ومتكلما قال رؤبة:

لو انني اوتيت علم الحكل * علم سليمان كلام النمل (١)

وقال الرماني * (منطق الطير) * صوت يتفاهم به معانيها على صيغة واحدة، بخلاف منطق الناس إذ هو صوت يتفاهمون به معانيهم على صيغ مختلفة، لذلك لم نفهم عنها مع طول مصاحبتها، ولم تفهم هي عنا، لان افهامها مقصورة على تلك الامور المخصوصة، ولما جعل سليمان يفهم عنها، كان قد علم منطقها.

وقوله * (واوتينا من كل شيء) * لفظه لفظ العموم، والمراد به الخصوص لانه لم يؤت اشياء كثيرة. وقيل: المعنى * (واوتينا من كل شيء) * يطلبه طالب لحاجته اليه وانتفاعه به، ويحتمل

أن يكون المراد * (وأوتينا من كل شيء) * علما وتسخييرا في كل ما يصلح أن يكون معلوما لنا ومسخرأ، غير ان مخرجه مخرج العموم أبلغ وأحسن.
ثم اخبر ان سليمان كان قد قال هذا القول: إن هذا لهو الفضل الظاهر. اعترافا

(١) مقاييس اللغة (حك) ٢ / ٩١ (*)

(٨٤)

بنعم الله. ويحتمل أن يكون ذلك اخبارا من الله بأن ما ذكره هو الفضل الظاهر. وقيل: معناه وأعطينا من كل شيء من الخيرات.
وقوله " وحشر لسليمان جنوده " أي جمع له من كل جهة جنوده " من الجن والانس والطيير " قال محمد بن كعب القرطبي: كان عسكره مئة فرسخ، خمسة وعشرون من الانس، وخمسة وعشرون من الجن، وخمسة وعشرون من الطير، وخمسة وعشرون من الوحش، وقوله " فهم يوزعون " معناه قال ابن عباس: يمنع أولهم على آخرهم وقال ابن زيد: يساقون. وقال الحسن: معناه يتقدمون. وقول ابن عباس أقوى، لانه من قولهم: وزعه من الظلم إذا منعه من ذلك وكفه، قال النابغة:

على حين عاتبت المشيب على الصبي * وقلت لما أصح والشيب وازع (١)
ويقولون لابد للسلطان من وازعة أي يمنع الناس عنه، وقال الشاعر:
لم يزع الهوى إذ لم توات * بلى وسلوت عن طلب العتاة (٢)

وقيل: معنى يوزعون يمنعون ان نزلوا عن مراتبهم بالجمع مرة، وبالتفريق أخرى، حتى يتقدموا في مسيرهم. والايزاز المنع من الذهاب، فانما منع أول الجنود على آخرهم ليتلاحقوا، ولا يتفرقوا، كما تقدم الجيوش اذا كثرت بمثل ذلك. وقوله " حتى اتوا على واد النمل " معناه سار سليمان وجنوده حتى بلغوا واديا فيه النمل و " قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون " قيل: كانت معرفة النمل بسليمان على طريق المعجزة الخارقة للعادة له (ع) على غيره. وهذا غير لازم لانه لا يمتنع ان تعرف البهيمة هذا الضرب كما تعرف كثيرا مما فيه نفعها وضرها فمن معرفة النملة انها تكسر الحبة بقطعتين لئلا تنبت، الا الكريزة فانها تكسرها باربع قطع، لانه تنبت إذا

(١) الطبري ١٩ / ٨٠ والقرطبي ١٣ / ١٦٨ (٢) تفسير الطبري ١٩ / ٨٠ (*)

(٨٥)

كسرت بقطعتين، فمن هداها إلى هذا هو الذي يهديها إلى ما يحطمها مما لا يحطمها.

وقيل: جعل لها منطوق تفهم به المعاني، لانه يفهم به المعاني كما تفهم به، كالفم وبكما الفرح
قال الشاعر:

عجبت لها أنى تكون غناؤها * فصيحاً ولم تفغر بمنطقها فما (١)

وقيل: انه ظهر من النملة امارات من الرجوع إلى بيتها خوفاً من حطم جنود سليمان إياها،
فاعلم به سليمان انها تحرزت، فعبر عن ذلك بالقول مجازاً كما قال الشاعر:

امتلا الحوض وقال قطني * مهلاً رويداً قد ملات بطني (٢)

ولم يكن هناك قول من الحوض. ويقولون: عيناك تشهد بسهرك، ويريدون بذلك امارات السهر
التي تظهر في العين، وقوله " لا يحطمنكم سليمان " أي يكسرنكم بأن يطأكم عسكريه " وهم لا
يشعرون " أي لا يعلمون بوطنكم، فلما فهم سليمان هذا " تبسم ضاحكاً من قولها. وقال رب
أوزعني " أي الهمني ما يمنع من ذهاب الشكر عني بما أنعمت به علي وعلى والدي، ووقفني
" ان اعمل صالحاً ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين " كالانبياء ومن يجري
مجراهم ممن يعمل الاعمال الصالحة ولا يرتكب شيئاً من القبائح. وقال ابن زيد: معنى في
عبادك مع عبادك.

قوله تعالى:

* (وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من

(١) اللسان (غنا) (٢) قد مر في ١ / ٤٣١ (*)

(٨٦)

الغائبين (٢٠) لاعذبه عذاباً شديداً أو لاذبحنه أو لياتيني بسطان مبين (٢١) فمكت غير بعيد
فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبا يقين (٢٢) إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت
من كل شئ ولها عرش عظيم (٢٣١) وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم
الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون (٢٤) ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء
في السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون (٢٥) الله لا إله إلا هو رب العرش
العظيم) * (٢٦)

سبع آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير " أو لياتيني بسطان مبين " بنونين الاولى مشددة مفتوحة والثانية مكسورة.
الباقون بنون واحدة مشددة مكسورة. وقرأ " مكت " عاصم وروح - بفتح الكاف - الباقون
بضمها، وهما لغتان. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " من سبأ بنبا " غير مصروف. الباقون
مصروفاً، منونا.

من لم يصرفه فلانه معرفة ومؤنث، لانه قيل: ان (سبأ) حي من احياء اليمن. وقيل: هو اسم أهم. وقد قال الزجاج: (سبأ) مدينة تعرف بمأرب من اليمن، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، فاذا صرفته فعلى البلد، وإذا لم تصرفه، فعلى المدينة. وقيل: من صرفه جعله إسما للمكان، ومن لم يصرفه جعله اسما للبقعة.

(٨٧)

قال جرير:

الواردون وتيم في ذوي سبأ * قد عض أعناقهم جلد الجواميس (١)
وقال آخر في ترك صرفه:

من سبأ الحاضرين مأرب اذ * بينون من دون سيله العرما (٢)
وقرأ الكسائي وابوجعفر ورويس " ألا يا اسجدوا " بتخفيف (ألا).
الباقون " ألا يسجدوا " مشددة. وجه قراءة الكسائي أنه جعل (ألا) للتثنية (يا) هؤلاء على حذف
المنادي " اسجدوا " على الأمر، قال الاخطل:

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بدر * وإن كان حيانا عدى آخر الدهر (٣)
أي ألا يا هند. وقرأ ابن مسعود " هلا " وذلك يقوى قراءة من قرأ بالتخفيف. ومن قرأ بالتشديد
فمعناه وزين لهم الشيطان ضلالتهم لئلا يسجدوا لله، وشاهد الاول قول الشاعر:
ألا اسلمي يا دارمي على البلى * ولا زال منهلا بجرعائك القطر (٤)
وقال العجاج:

يا دار سلمي يا اسلمي ثم اسلمى * عن سمس أو عن يمين سمس اخبر الله سبحانه عن
سليمان أنه " تفقد الطير، فقال مالي لا أرى الهدد " قيل كان سبب تفقده الهدد أنه احتاج اليه
في سيره ليدله على الماء، لانه يقال:

انه يرى الماء في بطن الارض. كما نراه في القارورة - وذكره ابن عباس - وقال وهب بن
منية: كان تفقده إياه لاخلاله بنوبته. وقيل: كان سبب تفقده أن الطير كانت تظله من الشمس،
فلما أخل الهدد بمكانه بان بطولع الشمس عليه

(١) مر تخريجه انظر ٦ / ٣٨٨ (٢) تفسير القرطبي ١٣ / ١٨١ (٣) تفسير الطبري ١٩ / ٨٤ (٤) تفسير القرطبي
١٣ / ١٨٧ (*)

(٨٨)

وقوله " أم كان من الغائبين " معنى (أم) بل. وقيل: " معناه أتأخر عصيانا " أم كان من الغائبين
" لعذر وحاجة. ثم قال " لاعذبه عذابا شديدا أو لاذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين " وهذا وعيد

منه للهدهد أنه متى لم يأت سليمان بحجة ظاهرة في تأخره يفعل به أحد ما قاله، عقوبة له على عصيانه. قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: تعذيب الهدهد نتف ريشه وطرحه في الشمس.

قوله " فمكث غير بعيد " أي لبث غير بعيد، وفي ماضيه لغتان - فتح الكاف وضمها - ثم جاء سليمان، فقال معتذرا عن تأخره، واخلاله بموضعه " أحطت بما لم تحط به " أي علمت ما لم تعلم، وعلم الاحاطة هو أن يعلمه من جميع جهاته التي يمكن أن يعلم عليها تشبيها بالسور المحيط بما فيه. ثم قال له " وجئتك من سبأ " يا سليمان يا نبي الله " بنبأ " و (سبأ) مدينة أو قبيلة على ما بيناه.

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) ان (سبأ) رجل واحد له عشرة من العرب فتيامن ستة وتشاءم أربعة، فالذين تشاءموا: لحم، وجذام، وغسان، وعاملة. والذين تيامنوا: كندة، والاشعرون، والازد، ومدحج، وحمير، وانمار، ومن الانمار خثعم وبجيلة.

وقوله " بنبأ يقين " أي بخبر لا شك فيه، وانه يحتاج إلى معرفته، لما فيه من الاصلاح لقوم قد تلاعب بهم الشيطان في ذلك، فعذره عند ذلك سليمان
- وقيل: عذر الهدهد بما أخبره بما يحبه لما فيه من الاجر وإصلاح الملك الذي وهبه الله -
(١) ثم شرح الخبر فقال " إني وجدت امرأة تملكهم " وتتصرف فيهم بحيث لا يعترض عليها أحد ومع ذلك " أوتيت من كل شئ " أي

(١) ما بين القوسين كان في المطبوعة متأخرا عن مكانه اسطرا (*)

(٨٩)

أعطيت كل شئ، لفظه لفظ العموم والمراد به المبالغة في كثرة ما أوتيت من نعم الدنيا وسعة الملك. وقيل: انها أوتيت كل شئ يؤتى الملوك، والعرش العظيم سرير كريم معمول من ذهب وقوائمه من لؤلؤ وجوهر - في قول ابن عباس - ثم اخبر انه وجدها " وقومها يسجدون للشمس من دون الله " وأن الشيطان زين ذلك لهم فهم لا يهتدون إلى سبيل الحق والتوحيد واخلاص العبادة لله تعالى.

ثم قال الهدهد على وجه التوبيخ والتهجين لفظهم " ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبأ في السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون " والخبء هو المخبوء، وهو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه. وضع المصدر موضع الصفة خبأته اخبائه خبأ. وما يوجد الله ويخرجه من العدم إلى الوجود فهو بهذه المنزلة فخبء السماء الامطار والرياح، وخبء الارض

الاشجار والنبات " ويعلم ما تخفون وما تعلنون " فمن قرأ بالتاء جعله للمخاطبين. ومن قرأ بالياء فللغائبين. والخبء والخفاء نظائر، وقيل الخبء الغيب، وهو كل ما غاب عن الادراك. وقوله " فهم لا يهتدون " دليل على أن المعارف ليست ضرورة، لانه اراد لا يهتدون إلى دين الله. وقال الجبائي: لم يكن الهدد عارفا بالله وإنما أخبر بذلك، كما يخبر مراقبوا صبياننا، لانه لا تكليف عليهم ولا تكيف إلا على الملائكة والجن والانس، وهذا الذي ذكره خلاف الظاهر، لان الاحتجاج الذي حكاه الله عن الهدد احتجاج عارف بالله وبما يجوز عليه ومالا يجوز، لانه قال " وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله " ولا يجوز أن يفرق بين الحق في السجود لله وبين الباطل الذي هو السجود للشمس، وان احدهما حسن

(٩٠)

والآخر قبيح إلا من كان عارفا بالله وبما يجوز عليه ومالا يجوز، وذلك ينافي حال الصبيان، ثم نسب تزيين عملهم إلى الشيطان، وهذا قول من عرفه وعرف ما يجوز عليه في عدله، وأن القبيح لا يجوز عليه، ثم حكى أنه قال إن الشيطان صدهم عن السبيل: الحق باغوائهم، وانهم مع هذا الصد لا يهتدون إلى الحق من توحيد الله وعدله.

وقال ابو عبدالله البصري في بعض المواضع: إن الهدد كان رجلا من البشر اسمه هدهد، ولم يكن من الطير وهذا غلط لان الله تعالى قال " وتفقذ " يعني سليمان تفقد " الطير فقال مالي لا أرى الهدد " فكيف يحمل ذلك على انه اسم رجل؟! إن هذا من بعيد الاقوال. وقال الفراء: من قرأ " ألا " بالتخفيف، فهو موضع سجود، ومن ثقل، فلا ينبغي أن يكون موضع سجودا وقد يجوز السجود على مخالفة تزيين الشيطان. ومعنى " ويعلم ما يخفون وما يعلنون " أي ما يسرون في نفوسهم، وما يظهرونه. وقرأ الكسائي وحفص " ما تخفون وما تعلنون " بالتاء فيهما على الخطاب. الباقر بالياء على الخبر.

ثم اخبر فقال " الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم " إلى ههنا تمام حكاية ما قاله الهدد. و (العرش) سرير الملك الذي عظمه الله ورفعته فوق السموات السبع وجعل الملائكة تحف به وترفع أعمال العباد اليه، وتنشأ البركات من جهته فهو عظيم الشأن، كما وصفه تعالى. قوله تعالى:

* (قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين (٢٧)

إذهب بكتابي هذا فالقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا

(٩١)

يرجعون (٢٧) قالت يا أيها الملؤ إني ألقى إلي كتاب كريم (٢٩) إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم (٣٠)

ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين) * (٣١) خمس آيات بلا خلاف.

لما سمع سليمان ما اعتذر به الهدد في تأخره بما قصه الله تعالى وذكرناه قال عند ذلك " سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين " في قولك الذي أخبرتنا به فأجازيك بحسب ذلك. وإنما لم يقل: أصدقت أم كذبت، وقال: أم كنت من الكاذبين، لأنه أليق في الخطاب، لأنه قد يكون من الكاذبين بالميل اليهم وقد يكون منهم بالقرابة التي بينه وبينهم. وقد يكون منهم بأن يكذب كما كذبوا ومثل ذلك في الخطاب ولينه قولهم: ليس الامر على ما تقول، فهو أليق من كذبت، لأنه قد يكون ليس كما تقول من جهة الغلط الذي لا يوصف بالصدق ولا بالكذب.

ثم أمر سليمان الهدد بأن يذهب بكتابه الذي كتبه له وأشار اليه بقوله " هذا فألقه اليهم ثم تولى عنهم فانظر ماذا يرجعون " وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره فألقه اليهم فانظر ماذا يرجعون، ثم تولا عنهم، وهذا لا يحتاج اليه، لان الكلام صحيح على ما هو عليه من الترتيب. والمعنى فألقه اليهم ثم تول عنهم قريبا منهم، فانظر ماذا يرجعون - على ما قال وهب بن منية وغيره - فانهم قالوا معنى " تول عنهم استتر عنهم، وفي الكلام حذف، لان تقديره فمضى الهدد بالكتاب. وألقاه اليهم، فلما رأته قالت لقومها " يا أيها الملاء " وهم أشرف اصحابها " إني ألقى إلي كتاب كريم " ومعنى كريم أنه حقيق بأن

(٩٢)

يوصل الخير العظيم من جهته، فلما رأت آثار ذلك في كتاب سليمان وصفته بأنه كريم. وقيل: أرادت ب (كريم) انه من كريم يطيعه الانس والجن والطير.

والهاء في قوله " انه من سليمان " كناية عن الكتاب، والهاء في قوله " وإنه بسم الله الرحمن الرحيم " كناية عما في الكتاب. وقيل: إنه كان مختوما، فلذلك وصفته بأنه كريم.

وقوله " بسم الله الرحمن الرحيم " حكاية ما قالتها على المعنى باللغة العربية، وإن كانت لم تقل هي بهذا اللفظ، والحكاية على ثلاثة اوجه: حكاية على المعنى فقط، وحكاية على اللفظ فقط من غير أن يعلم معناه. وحكاية على اللفظ والمعنى وهو الاصل في الحكاية التي لا يجوز العدول عنها إلا بقريئة. وموضع " ان لا تعلوا " يجوز أن يكون رفعا بالبدل من (كتاب) ويحتمل النصب على معنى بأن لا تعلوا. والعلو على الشيء طلب القهر له بما يكون به بحسب سلطانه " لا تعلوا علي " أي لا تطلبوا تلك الحال، فانكم لا تتالونها مني، * (وأتوني مسلمين) * يحتمل وجهين:

احدهما - واتوني مؤمنين بالله ورسوله.

الثاني - مستسلمين لامري فيما أدعوكم اليه فاني لا أدعو إلا إلى الحق.

قوله تعالى:

* (قالت يا أيها الملؤ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون (٣٢) قالوا نحن أولوا قوة وأولوا باس شديد * والامر إليك فانظري ماذا تأمرين (٣٣) قالت إن الملوك إذا

(٩٣)

دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون (٣٤)

وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) * (٣٥)

خمس آيات حجازي. وأربع فيما عداه. عد الحجازيون شديد رأس آية ولم يعده الباقون. حكى الله تعالى ان المرأة لما وقفت على كتاب سليمان، ووصفته بأنه كتاب كرف؟، وعرفتهم ما فيه قالت لاشراف قومها * (افتوني في أمري) * اي أشيروا علي والفتيا هو الحكم بما هو صواب بدلا من الخطأ، وهو الحكم بما يعمل عليه كما يسأل العامي العالم ليعمل على ما يجيبه به، ثم قالت لهم لم أكن أقطع أمرا ولا أفصل حكما دونكم ولا أعمل به * (حتى تشهدون) * وتعاينوه. وهذا ملاطفة منها لقومها في الاستشارة منهم فيما يعمل عليه، فقالوا لها في الجواب عن ذلك انا * (نحن أولوا قوة وأولوا باس شديد) * أي أصحاب قدرة وأصحاب باس أي شجاعة شديدة * (والامر إليك فانظري ماذا تأمرين) * ما الذي تأمرينا به لنمنتله، وهذا القول منهم فيه عرض القتال عليها إن أرادت، فقالت لهم في الجواب * (ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) * فكونوا على حذر من ذلك * (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) * قيل بأن يستعبدوهم. فقال الله تعالى تصديقا لهذا القول * (وكذلك يفعلون) * قال ابن عباس: إنما يفعلون ذلك إذا دخلوها عنوة.

ثم حكى انها قالت * (إني مرسله اليهم بهدية) * فأذنوا للامر في ذلك لانظر ما عند القوم فيا يلتمسون من خير أو شر. وقيل إنها ارسلت بجوار وغلمان على زي واحد. فقالت ان ميز بينهم ورد الهدية وأبا إلا المتابعة، فهو نبي وإن قبل الهدية فانما هو من الملوك. وعندنا ما يرضيه - ذكره ابن عباس -

(٩٤)

وقيل: انها أرسلت اليه بلبنة من ذهب فأمر سليمان أن تطرح بين أرجل الدواب وسراقينها استهانة بذلك.

قوله تعالى:

* (فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فعا آتيني الله خير مما آتيكم بل أنتم بهديتكم تفرحون (٣٦) إرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون (٣٧) قال يا أيها الملؤ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين (٣٨) قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين (٣٩) قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم) * (٤٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة ويعقوب " أتمدوني " بنون واحدة مشددة على الادغام وياء ثابتة في الوصل والوقف. الباقون بنونين.

أخبر الله تعالى إن الهدية التي أنفذت بها المرأة، لما وصلت إليه، قال لموصلها

(٩٥)

" أتمدونني بمال " والامداد الحاق الثاني بالاول، والثالث بالثاني إلى حيث ينتهي. والمعنى لست أرغب في المال الذي تمدونني به، وإنما أرغب في الايمان الذي دعوتكم اليه والاذعان بالطاعة لله ورسوله. ثم قال " فما آتاني الله خير مما آتاكم " بالتمكين من المال الذي لي أضعافه واضعاف أضعافه إلى ما شئت منه. ثم قال لهم " بل أنتم بهديتكم تفرحون " أي ما يهدى اليكم " لانكم أهل مفاخرة في الدنيا ومكاثرة. وقيل بهديتكم التي اهديتموها الي تفرحون. والهدية العطية على جهة الملاطفة من غير مئابة، تهدي هدية، لانها تساق إلى صاحبها على هداى، فالاصل الهداية وهي الدلالة على طريق الرشد. ثم حكى ما قال سليمان لرسولها الذي حمل الهدية " ارجع اليهم " وقل لهم " فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها " أي لا طاقة لهم بهم ولا يقدررون على مقاومتهم " ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون " فالذليل هو الناقص القوة في نفسه بما لا يمكنه أن يدفع غيره عن نفسه. والصاغر هو الذليل الصغير القدر المهين، يدل على معنى التحقير بشيئين، ونقيض الذليل العزيز وجمعه أعزة،. جمع الذليل أذلة.

ثم حكى تعالى أن سليمان قال لاشراف عسكره وأمائلة جنده " ايكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين " فاختلفوا في الوقت الذي قال سليمان " ايكم يأتيني بعرشها " فقال قوم قال ذلك حين جاءه الهدهد بالخبر، وهو الوقت الاول لانه يبين به صدق الهدهد من كذبه، ثم كتب الكتاب بعد - في قول ابن عباس - وقال وهب بن منية: انما قال ذلك بعد مجئ الرسل بالهدية.

واختلفوا في السبب الذي لاجله خص بالطلب فقيل لانه أعجبتته صفته فأحب أن يراه، وكان من ذهب وقوائمه مكلل من جوهر، على ما ذكره قتادة. وقال

(٩٦)

ابن زيد: لانه أحب أن يعاينها ويختبر عقلها إذا رأته اثبتته أم تنكره. وقيل:
ليريها قدرة الله في معجزة، يأتي بها في عرشها.
واختلفوا في معنى " مسلمين " فقال ابن عباس: معناه طائعين مستسلمين وقال ابن جريج: هو
من الاسلام الذي هو دين الله الذي أمر به عباده.
ثم حكى تعالى انه أجاب سليمان عفريت من الجن. ومعنى عفريت مارء قوي داهية، يقال:
عفريت و عفرية، ويجمع عفاريت و عفاري. قال سيبويه:
هو مأخوذ من العفر. والمعنى كل سديد في مذهبه من الدهاء والنعارة والنجابة يقال: رجل
عفرية نفرية على وزن (زبينة) لواحد الزبانية.
وقوله " انا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك " أي من مجلسك الذي تقضي فيه - في قول قتادة
- " وإني عليه " يعني على الاتيان به في هذه المدة " لقوي أمين " وفي ذلك دلالة على بطلان
قول من يقول: القدرة تتبع الفعل لانه أخبر انه قوي عليه، ولم يجئ بعد بالعرش. وقال ابن
عباس: " أمين " على فرج المرأة. فقال عند ذلك " الذي عنده علم من الكتاب " قال ابن عباس
وقتادة: هو رجل من الانس، كان عنده علم إسم الله الاعظم الذي إذا دعي به أجاب. وقيل: يا
إلهنا وإله كل شئ يا ذا الجلال والاکرام، وقال الجبائي:
الذي عنده علم من الكتاب سليمان (ع). وقال ذلك للعفريت ليريه نعمة الله عليه. والمشهور
عند المفسرين هو الاول. وقد ذكر أن إسمه اصف بن برخيا.
وقيل: هو الخضر. وقال مجاهد: اسمه أسطوع. وقال قتادة: اسمه مليخا.
وقوله " انا آتيتك به قبل ان يرتد اليك طرفك " قيل في معناه قولان:
احدهما - قال مجاهد: إن ذلك على وجه المبالغة في السرعة.
الثاني - قال قتادة: معناه قبل أن يرجع اليك ما يراه طرفك. وقيل:

(٩٧)

قبل ان يرجع طرفك خاسئا إذا فتحها وادمت فتحها. وقيل: قبل أن تفتحها وتطبقها. وقيل:
حمل العرش من مأرب إلى الشام في مقدار رجع البصر.
وقيل: شقت عنه الارض فظهر. وقيل يجوز أن يكون الله اعدمه ثم اوجده في الثاني بلا فصل
بدعاء الذي عنده علم من الكتاب، وكان مستجاب الدعوة إذا دعا باسم الله الاعظم. ويكون ذلك
معجزة له. وقال قوم: كان ذلك معجزة لسلمان. وفي الكلام حذف، لان تقديره " انا آتيتك به

قبل أن يرتد اليك طرفك " فأتاه به " فلما رآه " سليمان " مستقرا عنده قال " معترفا بنعم الله عليه " هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر " أي أشكر على نعمه أم أجدها.
ثم قال سليمان " ومن شكر فانما يشكر لنفسه " لان ثواب ذلك يعود عليه ومن جحد نعم الله فانما يضر نفسه، لان عقاب ذلك يحل به " فان الله غني " عن شكره وعن كل شيء. " كريم " في انعامه على خلقه.

وقرأ ابو عمرو ونافع وعاصم - في رواية حفص - * (فما أتاني الله) * - بفتح الياء - في الوصل. الباقون " فما آتان " بغير ياء في الوصل.

قوله تعالى:

* (قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون (٤١) فلما جاءت قيل لها أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين (٤٢) وصددها ما كانت

(٩٨)

تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين (٤٣) قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير * قال رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين (٤٤) ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون (٤٥)

خمس آيات عند الكل ما عدا الكوفي، فانها في عدده ست آيات عد * (قوارير) * آية. ولم يعده الباقون.

حكى الله تعالى ان سليمان أمر ان ينكروا لها عرشها، وهو أن يغيره إلى حال تنكره اذا رأته اراد بذلك اعتبار عقلها على ما قيل. والجحد والانكار: جحد العلم بصحة الشيء، ونقيضه الاقرار، والتكثير تغيير حال الشيء إلى حال ينكرها صاحبها إذا رآها.

وقوله " ننظر اتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون " بيان من سليمان ان الغرض بتكثير عرشها ننظر اتهتدي بذلك أم تكون من الذين لا يهتدون إلى طريق الرشد، فلما جاءت المرأة، قال لها سليمان " أهكذا عرشك " فقالت في الجواب كأنه هو، ولم تقطع عليه، لما رأت من تغيير احواله. فقال سليمان " واوتينا العلم من قبلها " قال مجاهد: هو من قول سليمان " وكنا مسلمين " اي مؤمنين بالله مستسلمين له. وقال الجبائي: هو من كلام قوم سليمان (ع).

ثم اخبر تعالى فقال " وصددها ما كانت تعبد من دون الله " ومنعها

(٩٩)

منه وتقديره وصددها سليمان عما كانت تعبد من دون الله، ومنعها منه " انها كانت من قوم كافرين " بنعم الله عليهم عابدين مع الله غيره. وقال الفراء:

يجوز ان يكون المراد صددها عن عبادة ما كانت تعبد من دون الله من الشمس انها كانت من قوم كافرين يعبدون الشمس، فنشأت على ذلك. وكسر (انها) على الاستئناف، ولو نصب على معنى، لانها جاز.

ثم حكى بأنه قيل لها " ادخلي الصرح " فالصرح هو الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف، ومنه قولهم: صرح بالامر اذا افصح به، ولم يكن عنه.

والتصريح خلاف التعريض، وفلان يكذب صراحا من هذا. " فلما رأته حسبته لجة " يعني ان المرأة لما رأته الصرح ظننته لجمة، واللجة معظم الماء.

ومنه لجم البحر خلاف الساحل. ومنه لجم في الامر اذا بالغ بالدخول فيه " وكشفت عن ساقبها " ظنا منها انها تريد ان تخوض الماء. وقيل: ان سليمان اجري الماء تحت الصرح الذي هو كهيئة السطح. وقيل: الصرح صحن الدار يقال صرحة الدار، وراحة الدار، وقاعة الدار، وقارعة الدار كله بمعنى صحن الدار. وقيل صرح القصر، قال الشاعر:

بهن نعماء بناء الرجال * تشبه اعلامهن الصروحا (١)

وقال ابو عبيدة: كل بناء من زجاج او صخر او غير ذلك موثق، فهو صرح، ومنه " يا هامان ابن لي صرحا " (٢) وقيل: انه اراد ان يختبر عقلها.

وقيل: لانهم كانوا قالوا: ان ساقبها مثل ساق الحمار برجل حمار، لانها من ولد بين الانس والجن، لانه قيل: ان الجن خافت ان يتزوج بها سليمان،

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٢٠٩ والطبري ٢٠ / ٤١ (٢) سورة ٤٠ المؤمن آية ٣٦ (*)

(١٠٠)

فقالوا ذلك لينفروا عنها، فلما امتحن ذلك وجده على خلاف ما قيل فيه.

وقيل: انه كان قيل: ان على ساقبها شعرا، فلما كشفته بان الشعر فساءه ذلك واستشار الجن في ذلك، فعملوا له النورة والزرنيخ. وقيل: انه اول من اتخذ له ذلك. وقيل: انما فعل ذلك ليريها عظيم آيات الله لتسلم وتهتدي إلى دين الله.

ثم قال لها " انه صرح ممرد من قوارير " فالممرد المملس، ومنه الامرد.

وشجرة مرداء ملساء لا ورق عليها، والمارد الخارج عن الحق المملس منه.

فقالت عند ذلك يا رب " اني ظلمت نفسي " بما ارتكب من المعاصي بعبادة غيرك " واسلمت " الآن " مع سليمان لله رب العالمين " الذي خلق الخلق.

وقيل: انها لما اسلمت تزوجها سليمان (ع).

ثم اخبر تعالى انه ارسل " إلى ثمود اخاهم صالحا " يعني في النسب، لانه كان منهم " ان اعبدوا الله " موضع (ان) نصب، وتقديره ارسلناه بأن اعبدوا الله، وحده لا شريك له " فاذا هم فريقان يختصمون " يعني منهم مؤمن بصالح ومنهم كافر به، في قول مجاهد قوله تعالى: * (قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون (٤٦) قالوا اطيننا بك وبمن معك قال طأركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون (٤٧) وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون (٤٨)

(١٠١)

قالوا تقاسموا بالله لنبيئته وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنما لصادقون (٤٩) ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون) * (٥٠) خمس آيات بلا خلاف. قرأ حمزة والكسائي وخلف * (لنبيئته وأهله ثم لنقولن) * بالتاء فيهما جميعا. الباقيون بالنون. وقرأ مجاهد بالياء. وقرأ ابوبكر عن عاصم * (مهلك) * بفتح الميم واللام، وفي رواية حفص - بفتح الميم وكسر اللام - الباقيون - بضم الميم وفتح اللام - قال ابوعلی: من قرأ بضم الميم احتتمل المرين: احدهما - اراد المصدر من إهلاك اهله أي لم نشهد اهلاكم. الثاني - ان يكون المراد لم نشهد موضع إهلاكهم. وقراءة حفص ايضا تحتتمل أمرين: احدهما - ما شهدنا موضع هلاكهم. والثاني - المصدر اي ما شهدنا هلاكهم. وقراءة ابى بكر معناها المصدر.

لما اخبر الله تعالى انه ارسل صالحا إلى قومه، وانهم كانوا فريقين، مسلم وكافر، يخاصم بعضهم بعضا، قال لهم صالح * (يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة) * فالاستعجال طلب التعجيل، وهو الاتيان به قبل وقته. وكان هؤلاء الجهال إذا خوفوا بالعقاب قالوا، على جهة الانكار لصحته متي هو؟ وهلا يأتينا به؟، فقال لهم صالح * (لم تستعجلون) * ذلك: قال مجاهد. يعني العذاب قبل الرحمة، والسيئة - ههنا - المراد بها العقاب سماها سيئة لما فيها من الآلام ولانها جزاء على الافعال السيئة، لان السيئة هي الخصلة التي تسوء صاحبها حين

(١٠٢)

يجدها. والسيئة ايضا هي الفعل القبيح الذي، لا يجوز لفاعلها فعلها، ونقيضها الحسنة. فقال لهم * (لولا تستغفرون الله) * ومعناه هلا تسألون الله الغفران به بدلا من استعجال العقاب *

(لعلكم ترحمون) * وإنما خرجت (لولا) إلى معنى (هلا) لأنها كانت لامتناع الشئ لكون غيره، كقولك: لولا زيد لايتينك، فخرجت إلى الانكار، لامتناع الشئ لفساد سببه فقال * (لولا تستغفرون الله) * منه. ثم اخبر بما اجابوه، لانهم قالوا * (اطيرنا بك وبمعنى معك) * أي وبمن هو على دينك، فالتطير التشاؤم، وهو نسبة الشؤم إلى الشئ على ما يأتي به الطير من ناحية اليد اليسرى وهو البارح، والسانح هو اتيانها من جهة اليد اليمنى. واصل، (اطيرنا) تطيرنا، دخلت فيه ألف الوصل، لما سكنت الطاء للادغام، فقال لهم صالح * (طائركم عند الله) * أي الشئ الذي تحذرونه بالتطير * (عند الله) * لانه القادر على عقابكم بما أنتم عليه من الكفر. والمعنى - في قول ابن عباس - معاقتكم عند الله. ثم قال لهم: ليس ذلك للتشاؤم والتطير * (بل انتم قوم تفتنون) * فالفتنة - ههنا - قولهم ما زين لهم من الباطل. ثم اخبر تعالى أنه " كان في المدينة " التي بعث الله منها صالحا " تسعة رهط يفسدون في الارض " أي يفعلون فيها المعاصي " ولا يصلحون " أي لا يفعلون الطاعات. وقوله " قالوا تقاسموا بالله " قيل في معناه قولان: احدهما - قالوا متقاسمين إلا انه يحذف منه قد. والآخر - انه أمر، وليس بفعل ماض. " لنبيته وأهله " حكاية أنهم قالوا: * (لنبيته) * فمن قرأ بالنون اراد إنا نفعل بهم ذلك ليلا. ومن قرأ بالتاء، فعلى انه خاطب بعضهم بعضا بذلك. ولمعنى انهم تحالفوا: لنظرفنهم ليلا،

(١٠٣)

يقال لكل عمل بالليل تبييت، ومنه قوله * (إذ يبيتون ما لا يرضى من القول) * (١) وانشد ابو عبيدة:

اتوني فلم ارض ما بيتوا * وكانوا اتوني بامر نكر لانكح امهم منذرا * وهل ينكح العبد حر
لحر (٢)

وقال ابن اسحاق انهم لما اتوا صالحا لتبييته، دفعنهم الملائكة بالحجارة، * (ثم لنقولون لوليه) * معناه إنهم قالوا إذا قال لنا وليه وناصره: من فعل هذا قلنا له * (ما شهدنا مهلك أهله) * فمن ضم الميم اراد ما رأينا إهلاكه. ومن فتح الميم اراد مكان هلاكهم او اهلاكهم يريد المصدر * (وانا لصادقون) * في هذا القول.

ثم اخبر تعالى انهم " مكروا " بهذا القول " ومكرنا " نحن ايضا مكرنا بأن جازيناهم على مكرهم وجعلنا وباله عليهم فاننا أهلكناهم عن آخرهم. وقيل:

ان الله أرسل عليهم صخرة أهلكتهم. ويحتمل أن يكون المعنى في " مكرنا " انا انجينا المؤمنين بالمكر بالكفار بكل ما يقدر عليهم من الاضرار بهم، وإلجائهم إلى الايمان. وانما نسبه إلى نفسه لما كان بأمره.

قوله تعالى:

* (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أن دمرناهم وقومهم أجمعين (٥١) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون (٥٢) وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون (٥٣)

(١) سورة ٤ النساء آية ١٠٧ (٢) مر تخريجه في ٣ / ٢٦٩ ، ٣١٩ (*)

(١٠٤)

ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون (٥٤)
أنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون) * (٥٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة ويعقوب " أنا دمرناهم " بفتح الالف. الباقون بكسرها ومن فتح احتمل وجهين: احدهما - النصب على البديل من (كيف) و (كيف) نصب ب (انظر). والثاني - ان يكون (كيف) في موضع الحال و (دمرنا) خير (كان) وتلخيصه، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أي عاقبة امرهم التدمير. وقيل: هو نصب بتقدير بأننا، فلما حذف الباء نصب، وقال الكسائي: هو في موضع الجر. ويحتمل الرفع أيضا على البديل من (عاقبة). ويحتمل أيضا على الجواب، كأنه قيل: ما كان عاقبة أمرهم؟ فقيل: تدميرنا لهم.

يقول الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) " انظر " يا محمد وفكر " كيف كان عاقبة مكرهم " أي هؤلاء الكفار الذين كفروا ودمرناهم. والعاقبة الحال التي يؤدي إليها البادئ تقول: اعقبني هذا الدواء صحة. وأعقب هذا الطعام الردي مرضا، وكذلك المعاصي تعقب النار. وقيل: ان بيوتهم هذه المذكورة بوادي القرى موضع بين الشام والمدينة. والمكر الاخذ بالحيلة للايقاع في بلية، فلما مكر أولئك الكفار بصالح (ع) ليقتلوه، ومن آمن ولم يتم مكرهم، وأدى مكرهم إلى هلاكهم وتدميرهم والتدمير التقطيع بالعذاب، فدمر الله قوم صالح بأن قطعهم بعذاب الاستئصال في الدنيا قبل الآخرة، فلم يبق لهم باقية.

(١٠٥)

ثم اخبر تعالى ان بيوت أولئك الكفار " خاوية " أي خالية فارغة وكان رسمهم أن يكونوا فيها ويأوون اليها، فلما أهلكهم الله، صاروا عبرة لمن نظر اليها واعتبر بها. وقيل هذه البيوت المذكورة بوادي القرى.

وقوله " وانجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون " اخبار منه تعالى انه انجى وخلص المؤمنين من قوم صالح لانهم كانوا يتقون معاصي الله، خوفا من عقابه، فالاتقاء الامتناع من البلاء بما يرد عن صاحبه ان ينزل به. والتقي هو العامل بما يتقي عنه العقاب. وقيل: ان الله تعالى دمر التسعة الرهط الذين يفسدون في الارض وقومهم. وقوله " ولوطا إذ قال لقومه " يحتمل امرين:

احدهما - نصب (لوطا) بتقدير وأرسلنا لوطا. الثاني - واذكر لوطا حين قال لقومه منكرا عليهم افعالهم " اتأتون الفاحشة " يعني الخصلة القبيحة الشنيعة، الظاهرة القبح، وهي اتيانهم الذكران في أدبارهم " وانتم تبصرون " أي تعلمون أنها فاحشة. وقيل معناه: " وأنتم تبصرون " أي يرى بعضكم من بعض ان ذلك عتوا وتمردا. ثم بين الفاحشة التي كانوا يفعلونها بقوله " أنتم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء " التي خلقهن الله لكم. ثم اخبر تعالى عن لوط انه قال لهم " بل أنتم قوم تجهلون " اي تفعلون أفعال الجهال لجهلكم بمواقع نعم الله سبحانه وتعالى عليكم.

قوله تعالى:

* (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من

(١٠٦)

قريبتكم إنهم أناس يتطهرون (٥٦) فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين (٥٧) وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين (٥٨) قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون (٥٩) أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إليه مع الله بل هم قوم يعدلون) * (٦٠) خمس آيات بلا خلاف.

نصب (جواب قومه) بأنه خبر (كان) واسمعاها (أن قالوا) ولا يجوز وقع جواب - ههنا - لان ما بعد الايجاب وما قبلها نفي، والنفي أحق بالخبر من الايجاب، ومثله " ما كان حجتهم إلا قالوا " (١).

اخبر الله تعالى عن قوم لوط حين قال لهم لوط ما تقدم ذكره، منكرا عليهم انه لم يكن لهم جواب عن ذلك، بل عدلوا إلى أن قالوا، بعضهم لبعض خرجوا لوطا ومن تبعه " من قريبتكم " فانهم " أناس يتطهرون " أي يتطهرون عن عملكم في إتيان الذكران من العالمين إذ تأمرونهم،

ويتنزهون عن ذلك، فلا تجاوروهم وهذه صفتهم - وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة -
فأخبر الله تعالى أنه أهلك هؤلاء القوم بأجمعهم وأنجى لوطاً وأهله الذين آمنوا به من

(١) سورة ٤٥ الجاثية آية ٢٤ (*)

(١٠٧)

ذلك الهلاك واستثنى من جملة أهله امرأته، واخبر انه " قدرناها من الغابرين " أي جعلها من
الغابرين لان جرمها على مقدار جرمهم، فلما كان تقديرها كتقديرهم في الاشرار بالله جرت
مجراهم في انزال العذاب بهم. وقيل:

" قدرناها " أي بما كتبنا إنها من الغابرين، واخبر تعالى انه أمطر عليهم مطراً. قال الحسن:
أمطرت الحجارة على من خرج من المدينة، وخسف المدينة باهلها، فهم يهون إلى يوم
القيامة " فساء مطر المنذرين " وهم الذين أبلغهم لوط النذارة، وأعلمهم بموضع المخافة
ليتقوها، فخالفوا ذلك. ونقيض النذارة البشارة، وهي الاعلام بموضع الامن ليجتنبى، والنذير
البشير ينذر بالنار ويبشر بالجنة.

ثم قال لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) قل يا محمد " الحمد لله " شكرا على نعمه بأن وفقنا
للإيمان " وسلام على عباده الذين اصطفى " يعني اجتنابهم، الله واختارهم يقال:
صفا يصفو صفاء، وأصفاه بكذا إصفاء، واصطفاه اصطفاء، ويصفى تصفياً وصفاء وتصفية،
وصافاه مصافاة.

وقوله " أما يشركون " من قرأ - بالتاء - وجهه إلى انه خطاب لهم. ومن قرأ - بالياء -
فعلى الخبر. وقوله " الله خير أما " معناه خير لنا منا لانفسا، ولفظ أفعل لا يدخل إلا بين شيئين
يشتركان في حكم ويفضل أحدهما على صاحبه، وما يعبدون من دون الله لا خير فيه. قال
ابوعلي: يجوز أن يقع ذلك في الخير الذي لا شر فيه، والشر الذي لا خير فيه. وإن كان
يتوهم بعض الجهال الامر على خلاف ما هو به، فنقول: هذا الخير خير من الشر. وانكر على
من خالف هذا. واجاز قوم من اهل اللغة ذلك على ما مضى القول فيه في غير موضع.

ثم قال لهم: أمن الذي " خلق السموات والارض " بأن انشأها واحترعها

(١٠٨)

" وانزل لكم من السماء ماء يعني غيثاً ومطراً * (فأنبتنا به) * بذلك الماء * (حدائق) * وهي
جمع حديقة، وهي البستان إذا كان عليه حائط يحوطه * (ذات بهجة) * انما وصف (الحدائق)
بلفظ الواحد في قوله * (ذات) * لان معناه جماعة ذات بهجة. وقيل: الحديقة البستان الذي فيه
النخل، و (البهجة) منظر حسن ابتهج به إذا سر.

ثم قال * (ما كان لكم ان تثبتوا شجرها) * أي لم تكونوا تقدر على انبات شجر الحديقة، لان الله تعالى هو القادر عليه لا غيره. ثم قال منكرا عليهم * (أله مع الله) * يقدر على ذلك. ثم قال * (بل هم قوم يعدلون) * بالله غيره لجهلهم، وقيل: يعدلون عن الحق. ومعنى الآية التثبيبه على أن من قدر على انبات الحدائق ذات الشجر واخراج الشجر باكرم الثمار، يجب اخلاص العبادة له، وإن من عدل إلى الاشرار به كافر بهذه النعمة الخفية. قوله تعالى:

* (أمن جعل الارض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون (٦١) أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أله مع الله قليلا ما تذكرون (٦٢) أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أله مع الله تعالى الله عما يشركون (٦٣) أمن

(١٠٩)

يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (٦٤) قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون) * (٦٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ اهل البصرة وعاصم " عما يشركون " بالياء. الباقر بالتاء. وقرأ ابو عمرو وهشام وروح " قليلا ما يذكرون " بالياء. الباقر بالتاء. من قرأ بالياء في الموضعين جعله للمخاطبين ومن قرأ بالتاء فالى الغائبين.

يقول الله تعالى منبها على مواقع نعمه على خلقه، ممتنا بها عليهم بأن قال " أمن " الذي " جعل الارض قرارا " بأن أسكنها للاستقرار عليها، وامكان التصرف عليها، فمن جعلها كذلك لمصالح عباده بها على ما يحتاجون اليه منها عالم حكيم، وهو أولى بالعبادة من الاصنام " وجعل خلالها أنهارا " يعني خلال الارض وهي المسالك في نواحيها " أنهارا " جمع نهر وهي المجرى الواسع من مجاري الماء، واصله الاتساع، فمنه النهار لاتساع ضيائه، ومنه انهار الدم إذا جرى، كالنهر " وجعل لها رواسي " يعني الجبال الثابتة، رست ترسو رسوا إذا ثبتت فلم تبرح من مكانها كالسفينة وغيرها، ومنه المراسي.

وقوله " وجعل بين البحرين حاجزا " فالحاجز هو المانع بين الشئئين، أن يختلط احدهما بالآخر، وقد يكون ذلك بكف كل واحد منهما عن صاحبه. وفي ذلك دلالة على امكان كف النار عن الحطب، حتى لا تحرقه ولا تسخنه كما كف الماء المالح عن الاختلاط بالعذب. ثم قال " أله مع الله " يقدر على ذلك،

(١١٠)

تبكيثا لهم على الاشراك به. ثم قال " بل اكثرهم لا يعلمون " حقيقة ما ذكرناه لعدو لهم عن النظر في الدلالة المؤدية اليه. وقيل " بل اكثرهم لا يعلمون " ما لهم وعليهم في العبادة إن اخلصوها، او اشركوا فيها.

ثم قال " ام من يجيب المضطر إذا دعاه " فاجابة دعاء المضطر هو فعل ما دعا به، لاجل طلبه، وذلك لا يكون إلا من قادر عليه مختار له، لانه يقع على ما دعا به الداعي " ويكشف السوء " يعني الآلام يصرفها عنكم " ويجعلكم خلفاء الارض " أي يجعل أهل كل عصر يخلفون العصر الاول " أله مع الله " يقدر على ذلك ثم قال " قليلا ما تذكرون " أي تفكرون قليلا بما قلناه ونبهنا عليه. ثم قال " أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر " بما نصب لكم من الدلالات التي تستدلون بها، من الكواكب وغيرها * (ومن) * الذي * (يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته) * يعني بين يدي المطر والغيث.

ومن قرأ بالنون أراد ملقحات. وقيل: معناه منتشرة. ومن قرأ بالباء أراد مبشرات بالمطر. ثم نزه نفسه عن الاشراك به واتخاذ إله معه فقال * (تعالى عما يشركون) * ثم قال * (أم من يبدؤ الخلق ثم يعيده) * يبدؤهم بأن يخرعهم ابتداء، ثم يعيدهم بعد أن يميتهم، ويعيدهم إلى ما كانوا عليه * (ومن يرزقكم من السماء والارض) * من السماء بالغيث والمطر. ومن الارض بالنبات وانواع الثمار * (أله مع الله) * يقدر على ذلك * (قل) * لهم يا محمد * (هاتوا برهانكم) * وحجتكم * (ان كنتم صادقين) * في قولكم محقين في الاشراك معه، فاذا لم تقدروا على اقامة البرهان على ذلك، فاعلموا انه لا إله معه، ولا يستحق العبادة سواه، لان كان ما يكون حقا من أمر الدين لابد أن يكون عليه دلالة وبرهان.

(١١١)

ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) * (قل) * يا محمد * (لا يعلم من في السموات والارض الغيب إلا الله) * يعني الغائب عن الخلق لا يعلم به إلا الله تعالى أو من أعلمه الله، ثم اخبر انهم لا يشعرون متى يبعثون ويحشرون يوم القيامة. قوله تعالى:

* (بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون (٦٦) وقال الذين كفروا إذا كنا ترابا وأبأؤنا أننا لمخرجون (٦٧) لقد وعدنا هذا نحن وأبأؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الاولين (٦٨) قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين (٦٩) ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون) * (٧٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير، وأهل البصرة بل " أدراك " بقطع الهمزة، يقال: تدارك زيد أمره وأدراك بمعنى واحد، ومثله " إنا لمدركون " (١) وقد شدد الاعرج وروى السموني - بكسر اللام - ووصل الهمزة وتشديد الدال من غير ألف.

الباقون " بل ادراك " بمعنى تتابع علمهم وتلاحق حتى كمل. والمعنى بل ادراك في الآخرة أي حين لم ينفعهم اليقين مع شكهم في الدنيا - على ما ذكره ابن عباس - وقيل: انه قرأ " بلى ادراك " وادراك العلم لحاق الحال التي يظهر فيها

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٦٢ (*)

(١١٢)

معلومه، ففي الآخرة يظهر الحق بما يرى من الامور التي من شأنها أن يقع عندها علم بمقتضى ما يحدث من عظم الامور وقيل: معنى " بل " ههنا (هل) فكأنه قال: هل ادراك علمهم، ومعناه انهم لا يعلمون الآخرة " بل هم في شك منها " ومن شدد الدال قال أصله تدارك فأدغموا التاء في الدال وقلبوا ألف الوصل.

وقرأ اهل المدينة " إذا " على الخبر. الباقون بهمزتين على الاستفهام، ويحقق الهمزتين ابن عامر وأهل الكوفة وروح، إلا أن هشاماً يفصل بينهما بالف، وابن كثير وابوعمر ورويس يخففون الاولى ويلينون الثانية. ويفصل بينهما بالف أبو عمرو، واما " ائنا " فقراءته على الخبر، وزاد فيه نونا ابن عامر والكسائي.

الباقون بهمزتين وخففهما عاصم وحزمة وخلف وروح. الباقون يخففون الاولى ويلينون الثانية، ويفصل بينهما بالف أهل المدينة إلا ورشاً، وابوعمر وروح. وقد مضى تحليل هذه القراءات فيما مضى.

لما اخبر الله تعالى عن الكفار أنهم لا يشعرون متى يحشرون يوم القيامة وانهم ساءخرون في ذلك، أخبر انهم يعلمون حقيقة ذلك يوم القيامة حين يبعثهم الله، وانه لا ينفعهم علمهم في ذلك الوقت مع شكهم في دار الدنيا. وأخبر انهم في شك من البعث في دار الدنيا، وأنهم عمون عن معرفة حقيقته. وهو جمع (عمى) وشبه جهلهم بذلك بالعمى، لان كل واحد منها يمنع بوجوده من ادراك الشئ على ما هو به، لان الجهل مضاد العلم، والعمى مناف للرؤية.

ثم حكى عن الكفار انهم قالوا متعجبين من البعث والنشور " أنذا كنا ترابا " ويكون " آباؤنا " ترابا ايضاً " ائنا لمخرجون " من قبورنا ومبعوثون، يقولون ذلك مستهزئين منكبين. ثم اخبر انهم يحلفون ويقولون " لقد وعدنا هذا " البعث " نحن " فيما مضى وكذلك وعد به " آباؤنا " ولم نعرف حقيقة

(١١٣)

ذلك، ثم حكى انهم يقولون ليس " هذا إلا اساطير الاولين " وانما اشتبه عليهم النشأة الثانية لطول المدة في النشأة الاولى على مجرى العادة، ولو نظروا في أن من اجرى هذه العادة حكيم، وانه قادر على نقض العادة، كما قدر على اجرائها لزالته شبهتهم.

ثم امر نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول لهم " سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين " لانهم يرون آثار آبائهم وكيف أهلكهم الله وخرب ديارهم كعاد وثمرود وغيرهم، فيعلمون عند ذلك صحة ما قلناه، ولا يأمنوا أن يحل بهم مثل ما حل بهم.

ثم نهى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يحزن عليهم ويتأسف على تركهم الايمان وأن لا يكون في ضيق نفسه " مما يمكرون "، فان وبال مكرهم عائد عليهم.

قوله تعالى:

* (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٧١) قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون (٧٢) وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون (٧٣) وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون (٧٤) وما من غائبة في السماء والارض إلا في كتاب مبين) * (٧٥) خمس آيات بلا خلاف.

(١١٤)

حكى الله تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم " يقولون متى هذا الوعد " الذي توعدنا به " ان كنتم صادقين " في اخباركم بذلك في البعث والنشور، والوعد من الحكيم على ضربين:

احدهما - ان يكون مقيدا بوقت، فاذا جاء ذلك الوقت فلا بد أن يفعل فيه ما وعد به.

والثاني - ان يكون مطلقا غير موقت إلا انه لا بد أن يكون معلوما لعلام الغيوب الوقت الذي يفعل فيه الموعد به، فاذا كان ذلك الوقت معلقا بزمان تعين عليه الفعل في ذلك الوقت، فلا بد للموعد به من وقت، وإن لم يذكر مع الوعد.

ثم امر نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول لهم " عسى ان يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون " فعسى من الله واجبة، والمعنى ان الذي وعدكم الله به لا بد أن يردفكم، والردف الكائن بعد الاول قريبا منه. والفرق بينه وبين التابع أن في التابع معنى الطلب لموافقة الاول، وترادف إذا تلاحق، تلاحقا ترادفا، واردفه اردافا. ومعنى " ردف لكم " قرب منكم ودنا - في قول ابن عباس - وقيل:

تبع لكم. والاستعجال طلب الامر قبل وقته، فهؤلاء الجهال طلبوا العذاب قبل وقته تكذيبا به. وقد أقام الله عليهم الحجة فيه. و (ردف) من الافعال التي تتعدى بحرف وبغير حرف، كما قال الشاعر:

فقلت لها الحاجات تطرحن بالفتى * وهم يعناني معنا ركائبه (١)
وقيل: ان الباء انما دخلت للتعدية. وقيل: انما دخلت لما كان معنى تطرحن ترمين، وكذلك لما
كان معنى " ردف لكم " دنا، قال " لكم " قال المبرد: معناه

(١) البيت في مجمع البيان ٤ / ٢٣١ (*)

(١١٥)

ردفكم واللام زائدة. وقيل " بعض الذي تستعجلون " يوم بدر. وقيل:
عذاب القبر.

ثم قال " وإن ربك لذو فضل على الناس " والفضل الزيادة على ما للعبد بما يوجبه الشكر،
فالعبد حق العبد. والفضل فيه واقع من الله لا محالة إلا انه على ما يصح وتقتضيه الحكمة.
ثم اخبر ان " اكثر الناس لا يشكرون " الله على نعمه بل يكفرونه.
ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) " وإن ربك " يا محمد " ليعلم ما تكن صدورهم " أي ما تخفيه
صدورهم، يقال: كنت الشيء في نفسي، وأكننته إذا سترته في نفسك، فهو مكن ومكنون لغتان.
قال الرماني: الاكنان جعل الشيء بحيث لا يلحقه أذى لمانع يصد عنه " وما يعلنون " أي يعلم
ما يظهره ايضاً.

ثم قال " وما من غائبة في السماء والارض " أي ليس شيء يغيب علمه عن أهل السماء
والارض " إلا " ويبينها الله " في كتاب مبين " وهو الكتاب المحفوظ. وقال الحسن: الغائبة
القيامة. وقال النفاش: ما غاب عنهم من عذاب السماء والارض. وقيل: هو ما أخفاه الانسان
عن قلبه وعينه. وقال البلخي: معنى " في كتاب مبين " أي هو محفوظ لا ينسأه كما يقول
القائل: أفعالك عندي مكنونة أي محفوظة.
قوله تعالى:

* (إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون (٧٦) وإنه لهدى ورحمة
للمؤمنين (٧٧) إن

(١١٦)

ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم (٧٨) فتوكل على الله إنك على الحق المبين (٧٩)
إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) * (٨٠) خمس آيات بلا خلاف.
قرأ ابن كثير " ولا يسمع " بياء مفتوحة وفتح الميم " الصم " بالرفع.

ومثله في الروم. الباكون " تسمع " بالتاء وكسر الميم " الصم " بالنصب، فوجه قراءة ابن كثير انه أضاف الفعل إلى الصم، فلذلك رفعه. ووجه قراءة الباقيين أنهم أضافوا الفعل إلى النهي (صلى الله عليه وآله) وجعلوا الصم مفعولا ثانيا.

اخبر الله تعالى أن هذا القرآن الذي انزله على نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) " يقص على بني اسرائيل أكثر " الاشياء التي اختلفوا فيها الكفار. والقصاص كلام يتلو بعضه بعضا فيما ينبئ عن المعنى، ومن اجاب غيره عما سأل لم يقل له انه يقص لانه اقتصر على مقدار ما يقتضيه السؤال. والاختلاف ذهاب كل واحد إلى خلاف ما ذهب اليه صاحبه. والاختلاف ايضا امتناع احد الشئيين أن يسد مسد صاحبه فيما يرجع إلى ذاته. واختلاف بني اسرائيل نحو اختلافهم في المسيح حتى قالت اليهود فيه ما قالت، وكذبت بنبوته. وقالت النصارى ما قالت من نبوته، ووجوب إلهيته، وكاختلاف اليهود في نسخ الشريعة، فأجازهم قوم في غير التوراة وأباه آخرون، فلم يجيزوا النسخ أصلا، واعتقدوا أنه بدأ. وكاختلافهم في المعجز، فقال بعضهم: لا يكون إلا بما لا يدخل تحت مقدور العباد. وقال آخرون: قد يكون إلا أنه ما يعلم أنه لا يمكن العباد الاتيان به،

(١١٧)

وكاختلافهم في صفة المبشر به في التوراة، فقال بعضهم: هو يوشع بن نون. وقال آخرون: بل هو منتظر لم يأت بعد. وكل ذلك قد دل القرآن على الحق فيه. وقيل: قد بين القرآن اختلافهم في من سلف من الانبياء. وقيل: ان بني اسرائيل اختلفوا حتى لعن بعضهم بعضا كالاسماعيلية والعنانية والسامرة.

ثم وصف تعالى القرآن ب " انه لهدى ورحمة للمؤمنين " معناه انه بيان للحق فيما وقع الاختلاف فيه من بني اسرائيل وغيرهم إذا رجعوا اليه علموا مفهومه، وانه من عند حكيم، لا يقول إلا بالحق، فالهدى الدلالة على طريق الحق الذي من سلكه اداه إلى الفوز بالنعيم في جنة الخلد، فالقرآن هدى من هذا الوجه، ورحمة للمؤمنين في تأديته إلى ما فيه من مرضات الله تعالى.

ثم خاطب نبيه (صلى الله عليه وآله) فقال * (ان ربك) * يا محمد * (يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم) * أي العزيز في انتقامه من المبطلين العليم بالمحق المبين منهم من المبطل. وقيل: العليم بصحة ما يقضي به العزيز بما لا يمكن رد قضائه، فهو يقضي بين المختلفين بما لا يمكن أن يرد ولا يلتبس بغير الحق.

وفي الآية تسلية للمحقين الذين خولفوا في أمر الدين، لان أمرهم يؤول إلى ان يحكم بينهم رب العالمين بما لا يمكن دفعه ولا تلبيسه.

ثم خاطب بينه (صلى الله عليه وآله) فقال * (فتوكل على الله) * يا محمد * (انك على الحق المبين) * الظاهر البين في ما تدعو اليه، ثم شبه الكفار بالموتى الذين لا يسمعون ما يقال لهم، وبالصم الذين لا يدركون دعاء من يدعوهم، من حيث انهم لم ينتفعوا بدعائه ولم يصيروا إلى ما دعاهم اليه، فقال * (انك) * يا محمد * (لا تسمع الموتى) * لان ذلك محال * (ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولو مدبرين) * أي عرضوا عن دعائك ولم يلتفتوا اليه ولم يفكروا في ما تدعوهم اليه، فهو لاء الكفار بترك الفكر في ما يدعوهم

(١١٨)

اليه النبي (صلى الله عليه وآله) بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون، وبمنزلة الصم الذين لا يدركون الاصوات.

قوله تعالى:

* (وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون (٨١) وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون (٨٢) ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون (٨٣) حتى إذا جاؤا قال أكذبتهم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أماذا كنتم تعملون (٨٤) ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون) * (٨٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة " تهدي " بالتاء مفتوحة وبسكون الهاء " العمي " بنصب الياء.

ويقف على " تهدي " بالياء. الباقر " بهاد " بياء مكسورة وبألف بعد الهاء، وخفض الياء من " العمي " على الاضافة في الموضعين. فقراءة حمزة تفيد الفعل المضارع. وقراءة الباقرين اسم الفاعل.

يقول الله تعالى لنبيه لست يا محمد تهدي العمي عن ضلالتهم. والهادي هو الذي يدعو غيره إلى الحق ويرشد اليه. وقد يدعو بالنطق بأن يقول: هو صواب وقد يدعو اليه بأن يبين أنه صواب، فانه ينبغي أن يعمل عليه ويعتقد صحته.

(١١٩)

والضلالة الذهاب عن طريق الصواب وهو الهلاك بالذهاب عنه. وإنما شبه الله تعالى الكفار بأنهم عمي، لانهم من حيث لم يهتدوا إلى الحق، ولم يصيروا اليه فكأنهم عمي، وانما نفى أن يهديهم إلى الحق بأن يحملهم عليه او يجبرهم عليه، ولم ينتف أن يكون هاديا لهم بالدعاء اليه، ويبين لهم الحق فيه.

وقوله " ان تسمع إلا من يؤمن بآياتنا " معناه لا تسمع إلا من يطلب الحق بالنظر في آياتنا ولا يلبث أن يسلم، لان الدلائل تظهر له، وعقله يخاصمه حتى يقول بالحق ويعتقده. وانما قال انه يسمع المؤمنين، من حيث أنهم الذين ينتفعون به ويسلمون له.

وقوله " وإذا وقع القول عليهم " قال قتادة: معناه وجب الغضب عليهم.

وقال مجاهد: حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون. وقيل: معناه إذا وقع القول عليهم بأنهم قد صاروا إلى منزلة من لا يفلح أحد منهم ولا أحد بسببهم، أخذوا حينئذ بمنادي العقاب باظهار البراءة منهم. وقال ابن عمر، وعطية: إذا لم يأمر الناس بالمعروف وينهوا عن المنكر تخرج الدابة. وقيل: انها تخرج من بين الصفا والمروة. وروى محمد بن كعب القرظي عن علي (عليه السلام) انه سئل عن الدابة، فقال: (اما والله مالها ذنب وإن لها لحية) وفي هذا القول منه (ع)

إشارة إلى انه من ابن آدم. وقال ابن عباس: دابة من دواب الله لها زغب وریش لها أربعة قوائم. وقال ابن عمر: انها تخرج حتى يبلغ رأسها الغيم، فيراها جميع الخلق. ومعنى " تكلمهم " قيل فيه قولان:

احدهما - تكلمهم بما يسوؤهم من انهم صائرون إلى النار، من الكلام بلسان الأدميين الذي يفهمونه ويعرفون معناه، فتخاطب واحدا واحدا، فتقول له: يا مؤمن يا كافر. وقيل " تكلمهم بأن الناس كانوا باياتنا لا يوقنون "

(١٢٠)

أي بهذا القول. ذكره ابن مسعود.

الثاني - تكلمهم من الكلام. وقيل إنها تكتب على جبين الكافر أنه كافر وعلى جبين المؤمن أنه مؤمن. وروي ذلك عن النبي (صلى الله عليه وآله).

ثم قال " ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون " واستدل به قوم على صحة الرجعة في الدنيا، لانه قال: من كل أمة، وهي للتبعيض فدل على ان هناك يوما يحشر فيه قوم دون قوم، لان يوم القيامة يحشر فيه الناس عامة، كما قال " وحشرناهم فلم نغادر منهم احدا " (١). ومن حمل الآية على أن المراد باليوم يوم القيامة قال: إن (من) زائدة، والتقدير ويوم نحشر كل أمة فوجا أي فوجا فوجا من الذين كذبوا بآيات الله ولقاء الآخرة " فهم يوزعون " أي يجمعون. وقال ابن عباس: معناه يدفعون. وقيل:

يساقون. وقيل: يوقف أولهم على آخرهم.

وقوله " ووقع القول عليهم بما ظلموا " أي صاروا إلى منزلة من لا يفلح احد منهم، ولا احد بسببهم، " فهم " في ذلك الوقت " لا ينطقون " بكلام ينتفعون به. ويجوز أن يكون المراد " لا ينطقون " أصلا لعظم ما يرونه ويشاهدونه من أهوال القيامة.

وقرأ اهل الكوفة " تكلمهم أن الناس " بفتح الالف، لان ابن مسعود قرأ " بأن الناس " فلما سقطت الباء نصبوا (أن). الباقرن بالكسر على الاستئناف. وروي عن ابن عباس " تكلمهم " مخففا اي تسمهم وتجرحهم تقول العرب كلمت زيدا إذا جرحته. وقد يقال ايضا بالتشديد من الجراح، ولا يقال في الكلام إلا بالتشديد.

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٤٨ (*)

(١٢١)

قوله تعالى:

* (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون (٨٦) ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الارض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين (٨٧) وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرمر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شئ إنه خبير بما تفعلون (٨٨) من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون (٨٩) ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون (٩٠) إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شئ وأمرت أن أكون من المسلمين (٩١) وأن أتلقوا القرآن فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين (٩٢) وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) * (٩٣)

ثمان آيات بلا خلاف.

(١٢٢)

قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم " وكل أتوه " مقصورة على وزن (فالوه) الباقرن " أتوه " ممدودة ومضمومة التاء على وزن * (فالوه) * وقرأ اهل الكوفة * (من فزع) * منونا * (يومئذ) * بفتح الميم. الباقرن بغير تنوين على الاضافة إلا ورشا فإنه نصب الميم من * (يومئذ) * مع الاضافة. ووجه هذه القراءة انه جعل (يوم) مع (إذ) كالاسم الواحد، لان إضافة (يوم)

إلى (إذ) ليست محضة، لان الحروف لا يضاف اليها، ولا إلى الافعال، وانما أجازوا في اسماء الزمان الاضافة إلى الحروف وإلى الافعال نحو: هذا يوم ينفع، لما خص وكثر، وقرأ

اهل البصرة وابن كثير وابوبكر إلا يحيى والداجونى عن ابن ذكوان * (يفعلون) * بالياء،
الباقون بالتاء. وقرأ اهل المدينة وابن عامر ويعقوب * (عما تعملون) * بالتاء. الباقون بالياء.
يقول الله تعالى منبها لخلقه على وجه الاعتبار والتنبيه على النظر بالفكر بجعله تعالى الليل
ليسكن فيه خلقه، من الحيوان من الحركات، لان من جعل الشئ لما يصلح له من الانتفاع،
فانما ذلك باختياره دون الطبع، وما يجري مجراه مما ليس مختار، ففي ذلك بطلان قول كل
مخالف فيه. وقوله * (والنهار مبصرا) * يحتمل أمرين:

احدهما - انه جعل النهار ذا إِبصار، كما قال * (عيشة راضية) * (١) أي ذات رضا، وكما
قال النابغة:

كليني لهم يا أمية ناصب (٢)

أي لهم ذي نصب.

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ٢١ وسورة ١٠١ الزلزال آية ٧ (٢) مر تخريجه في ٥ / ٩٥ ، ٣٢٩ (*)

(١٢٣)

الثاني - لانه يريك الاشياء كما يراها من يبصرها بالنور الذي تجلى عنها فقبل هو كقول
جرير:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى * ونمت وما ليل المطي بنائم (١)

اي بالذي ينام فيه. ثم قال * (ان في ذلك لآيات) * يعني دلالات واضحات لقوم يصدقون بالله
وبتوحيده. وقوله * (ويوم ينفخ في الصور) * منصوب بتقدير: واذكر * (يوم ينفخ في
الصور) * أي وذلك يوم ينفخ في الصور، يعني قوله * (وقع القول عليهم بما ظلموا.... يوم
ينفخ في الصور) * ويجوز أن يكون على حذف الجواب، وتقديره وتكون البشارة الثانية يوم
ينفخ في الصور. وقيل: تقديره ويوم ينفخ في الصور يفرع، لان المعنى إذا نفخ في الصور
فرع إلا أنه لما جاء الثاني بالفاء اغنى عن (يفعل) لانها ترتب.

وقال الحسن وقتادة: الصور صور الخلق. وقال مجاهد: هو قرن كالبوق ينفخ فيه. وقيل:
النفخة الاولى نفخة الفرع. والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين.

وقيل: معنى * (ففرع من في السموات ومن في الارض) * من شدة الاسراع والاجابة، يقال:
فرعت اليك في كذا إذا أسرعت إلى ندائه في معونتك.

وقيل: هو ضد الامن، وهو الاولى. وقيل: وجه النفخ في الصور أنه على تصور ضرب
البوق للاجتماع على المسير إلى أرض الجزاء بالحال التي تعرف في دار الدنيا. ومن ذهب
إلى أنه جمع صورة قال: المعنى نفخ الارواح في الاجساد بردها إلى حال الحياة التي كانت

عليها. وقوله * (إلا من شاء الله) * روي في الخبر أن الشهداء من جملة الخلق لا يفزعون ذلك اليوم. وقيل:

(١) مر تخريجه في ٥ / ٤٦٥ (*)

(١٢٤)

* (إلا من شاء الله) * يعني من الملائكة الذين يثبت الله قلوبهم. وقيل: اسرافيل هو النافخ في الصور بأمر الله تعالى. ثم قال * (وكل أتوه داخرين) * معناه إن جميع الخلق جاؤا لله داخرين أي صاغرين. فمن قصر، حمله على انهم أتوه أي جاؤه. ومن مد، حمله على أنهم جاؤه على وزن (فاعلوه).
ولفظه (كل) ههنا معرفة، لأنها قطعت عن الاضافة، كما قطع قوله * (من قبل ومن بعد) *
(؟) إلا أنه لم يبين، لأنه قطع عن متمكن التمكن التام. وليس كذلك * (من قبل ومن بعد) *
لأنه كان ظرفا لا يدخله الرفع.

وقوله * (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) * قال ابن عباس: تحسبها قائمة وهي تسير سيرا حثيثا سريعا قال النابغة الجعدي:
ناز عن مثل الطود يحسب أنهم * وقوف لحاح والركاب تهملج (٢)
أي من أجل كثرتهم وإتقافهم يحسب انهم وقوف، فكذلك الجبال.

وقوله * (صنع الله الذي أتقن كل شيء) * نصب (صنع الله) بما دل عليه ما تقدم من الكلام من قوله * (تمر مر السحاب) * فكأنه قال: صنع الله صنع الذي أتقن كل شيء إلا انه اظهر اسم الله في الثاني، لأنه لم يذكر في الاول وانما دل عليه. والاتقان حسن إيناق وقوله * (انه خبير بما تفعلون) * أي عليم بأفعالهم فيجازيهم بحسبها على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب.

ثم بين كيفية الجزاء، فقال * (من جاء بالحسنة) * يعني بالخصلة الحسنة * (فله خير منها) * أي خير يصيبه منها. وقيل: فله أفضل منها في عظم النفع لان له بقيمتها وبالوعد الذي وعده الله بها كأنه قال: من اتى بالحسنة التي هي الايمان والتوحيد والطاعة لله يوم القيامة يكون آمنا لا يفزع كما يفزع الكفار

(١) سورة ٣٠ الروم آية ٤ (٢) تفسير الطبرى ٢٠ / ١٤ (*)

(١٢٥)

والفساق. وقيل: هم من فزع الموت في الدنيا آمنون في الآخرة. وقيل: من فزع يوم القيامة في الجنة آمنون. ثم قال * (ومن جاء بالسيئة) * يعني بالمعصية الكبيرة التي هي مثل الكفر والشرك، وما جرى مجراهما. وقال جميع المفسرين:

إن السيئة - ههنا - الشرك، فإن الله تعالى يكبه على وجهه في النار. ويقال: كبه واكبه إذا نكسه، ويقال لهم * (هل تجزون) * بهذا العقاب * (إلا) * مكافأة لما كنتم تفعلون وتعملون في دار التكليف من المعاصي.

ثم قال لنبيه * (قل) * لهم * (انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة) * يعني مكة - في قول ابن عباس - وقال غيره: منى، أي أمرت بعبادة رب هذه البلدة لم أوامر بعبادة سواه * (التي حرمها) * وقيل: معنى (حرمها) عظم حرمتها من أن يسفك دم حرام فيها أو يظلم أحد فيها أو يصطاد صيدها أو يخلى خلاؤها وقيل: حرمها حتى أمن الوحش فيها، فلا يعدو الكلب على الغزال، ولا على الطير ولو خرج من الحرم لنفر أشد النفور، فذكر لهذه الآية في الحرم * (وله كل شيء) * أي يملك كل شيء بالتصرف فيه على وجه يريده ويختاره، وليس لاحد منعه منه * (وأمرت أن أكون من المسلمين) * الذين يسلمون بتوحيده واخلاص العبادة له مستسلمين له * (وأمرت أن أتلو القرآن) * عليكم وادعوكم إلى ما فيه * (فمن اهتدى) * إلى الحق والعمل بما فيه * (فانما يهتدي لنفسه) * لأن جزاء ذلك وثوابه يصل إليه دون غيره * (ومن ضل) * عنه وجار ولم يعمل بما فيه ولم يهتد إلى الحق * (فقل) * له يا محمد * (انما أنا من المنذرين) * الذين يخوفون بعقاب الله من معاصيه، ويدعون إلى طاعته. وفي ذلك دلالة على فساد قول المجبرة الذين يقولون: ان الله يخلق الايمان والهداية والكفر والضلالة.

ثم امر نبيه (صلى الله عليه وآله) بأن يقول * (الحمد لله) * اعترافا بنعمه * (سيريكم

(١٢٦)

آياته) * يعني دلالاته التي ليس يمكنكم جدها. وقال الحسن: معناه يريكم آياته في الآخرة فتعرفون انها على ما قال في الدنيا. وقيل: يركم في الدنيا ما ترون من الآيات في السماء والارض، فتعرفونها أنها حق. ذكره مجاهد. ثم قال وليس ربك يا محمد * (بغافل عما تعملون) * من قرأ بالياء يعني عما يفعله المشركون. ومن قرأ بالتاء، فعلى تقدير: قل لهم: ليس ربكم بغافل عما تعملونه بل هو عالم بجميع ذلك فيجازيكم عليه، وفي ذلك غاية التهديد.

(١٢٧)

٢٨ - سورة القصص مكية في قول قتادة والحسن وعطاء وعكرمة ومجاهد ليس فيها ناسخ ولا منسوخ وقال ابن عباس آية منها نزلت بالمدينة وقيل بالجحفة وهي قوله " ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد " وهي ثمانون وثمان آيات بلا خلاف في جملتها واختلفوا في رأس آيتين سأذكرها عند كتابتها بسم الله الرحمن الرحيم * (طسم (١) تلك آيات الكتاب المبين (٢) نتلو عليك من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون (٣) إن فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين (٤) ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) * (٥).

(١٢٨)

خمس آيات كوفي وأربع فيما عداه. عد الكوفي " طسم " آية ولم يعدها الباقون. قد بينا معنى هذه الحروف في أوائل السور في عدة مواضع، فلا فائدة في إعادته، وقوينا قول من قال: إنها أسماء للسور.

وقوله " تلك آيات الكتاب " أي تلك آيات الكتاب التي وعدتم بانزالها. وقيل معناه هذا القرآن هو الكتاب المبين - ذكره الحسن - وقيل: في معنى " المبين " قولان: احدهما - قال قوم: المبين أنه من عند الله. وقال قتادة: المبين الرشد من الغي. والمبين هو البين أيضا. وأضاف الآيات إلى الكتاب، وهي الكتاب كما قال " انه لحق القين " (١)

ثم خاطب نبيه (صلى الله عليه وآله) فقال " نتلو عليك " يا محمد طرفا من اخبار " موسى وفرعون بالحق " على حقيقة البيان وهو اظهار المعنى للنفس بما تميزه من غيره مشتق من أبنت كذا من كذا إذا فصلته منه. والبرهان إظهار المعنى للنفس بما يدعو إلى انه حق مما هو حق في نفسه. والتلاوة الاثنيان بالثاني بعد الاول في القراءة بما يتلوه تلاوة، فهو تلى لمقدم، والمقدم والتالي مثل الاول والثاني.

والنبا الخبر عما هو أعظم شأنًا من غيره. والحق هو ما يدعو اليه العقل، ونقيضه الباطل، وهو ما صرف عنه العقل.

وقوله " لقوم يؤمنون " معناه إنا نتلو عليك هذه الاحبار لقوم يصدقون بالله، وبما أنزل عليك، لانهم المنتفعون به، والايمان الصديق بفعل ما يؤمن من العقاب.

ثم اخبر تعالى فقال " ان فرعون علا في الارض " أي تجبر وبغي - في

(١) سورة ٩٦ الحاقة آية ٥١ (*)

(١٢٩)

قول قتادة وغيره - ببيغيه واستعباده بني إسرائيل، وقتل أولادهم. وقيل: بقره وادعائه الربوبية. وقيل: بشدة سلطانه " وجعل اهلها شيعة " أي قوما يستضعف طائفة منهم " فيستعبدهم و " يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم " أي يستبقي بناتهم فلا يقتلن، وقيل: إنه كان يأمر باخراج أحيائهن الذي فيه الولد والاول هو الصحيح. ثم اخبر تعالى وحكم بأن فرعون " كان من المفسدين " في الارض والعلمين بمعاصي الله. ثم وعد تعالى فقال " ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض " وهو عطف على قوله " يستضعف طائفة منهم " ونحن نريد أن نمن. وقال قتادة: يعنى من بني اسرائيل " ونجعلهم أئمة " يقتدى بهم " ونجعلهم الوارثين " لمن تقدمهم من قوم فرعون.

وروى قوم من أصحابنا أن الآية نزلت في شأن المهدي (ع) وأن الله تعالى يمن عليه بعد أن استضعف. ويجعله إماما ممكنا، ويورثه ما كان في ايدي الظلمة. قال السدي: إن فرعون رأى في منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني اسرائيل فسأل علماء قومه، فقالوا: يخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يده، فامر بذبح أبناءهم واستحياء نساءهم، وأسرع الموت في شيوخ بني إسرائيل، فقالت القبط لفرعون: ان شيوخ بني إسرائيل قد فنوا، وصغارهم قد قتلتم فاستبقهم لعملنا وخدمتنا، فأمرهم أن يستحيوا في عام، ويقتلوا في عام، فولد في عام الاستحياء هارون، وولد في عام القتل موسى، قال الضحاك: عاش فرعون

(١٣٠)

أربع مئة سنة، وكان قصيرا وسيما، وهو أول من خضب بالسواد. وعاش موسى مئة وعشرين سنة. وقيل: ان فرعون كان من أهل الاضطخر. قوله تعالى:

* (ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (٦) وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين (٧) فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين (٨) وقالت امرأت فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولذا وهم لا يشعرون (٩) وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لو لا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) * (١٠) خمس آيات بلا خلاف. قرأ أهل الكوفة إلا عاصما " وحزنا " بضم الحاء، واسكان الزاي.

الباقون بفتحهما، وهما لغتان. يقال: حزن وحزن مثل نجل ونجل. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما " ويرى فرعون وهامان " بالياء ورفع (فرعون، وهامان) باسناد الرؤية اليهما. الباقر بالنون، ونصب (فرعون وهامان) باسناد الفعل إلى الله، وكونهما مفعولين.

(١٣١)

لما أخبر الله تعالى أنه يريد أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة، أخبر في هذه الآية أنه يريد أن يمكنهم في الأرض، والتمكين هو فعل جميع ما لا يصح الفعل ولا يحصل إلا معه: من القدرة والآلة واللفظ وغير ذلك.

وقال الرماني: اللفظ لا يدخل في التمكين، لأنه لو دخل فيه لكان من لا لطف له لم يكن ممكنا، ولكن يقال: انه من باب ازاحة العلة. ثم بين انه تعالى " يرى فرعون وهامان وجنودهما منهم " يعني من بني اسرائيل " ما كانوا يحذرون " من زوال ملكهم على يد رجل من بني اسرائيل، ولذلك ذبح فرعون أبناءهم.

ومن قال: ان الآية في شأن المهدي (ع) حمل فرعون وهامان على فرعون هذه الامة وهامانها، والكناية في " منهم " عائدة على أنصار المهدي (ع) قالوا: وهذه أولى، لأنه بلفظ الاستقبال، لان في أوله النون او الياء على اختلاف القراءتين وهما للمضارعة.

والحذر توقي ما فيه المضرة، فهؤلاء الذين طلبوا الحذر في غير وجهه، اذ قتلوا الاطفال ظلما لاجله، ولو طلبوه بالرجوع إلى الله، ودعائه ليكشف عنهم لكانوا طالبين له من وجهه.

وقوله " وأوحينا إلى أم موسى " أي ألهمناها، وقذفنا في قلبها، وليس

بوحى نوم، ولا نبوة - في قول قتادة وغيره - وقال الجبائي: كان الوحي رؤيا منام عبر منه مؤمن به من علماء بني اسرائيل. وقوله " أن ارضعيه " أي ألهمناها إرضاع موسى " فاذا خفت عليه فألقيه في اليم " فالخوف توقع ضرر لا يؤمن به.

وقال الزجاج: معنى " أوحينا إلى أم موسى " اعلمناها، وقوله " فألقيه في اليم " أمر من الله تعالى لام موسى انها إذا خافت على موسى من فرعون أن ترضعه وتطرحه في اليم. واليم البحر، ويعني به النيل " ولا تخافي ولا تحزني " نهي من الله تعالى

(١٣٢)

لها من الخوف والحزن، فانه تعالى أراد أن ينزّل خوف أم موسى بما وعدّها الله من سلامته على أعظم الامور في القائه في البحر الذي هو سبب الهلاك في ظاهر التقدير، لولا لطف الله

تعالى بحفظه حتى يرده إلى أمه. ووعدها بأنه يرده عليها بقوله " انا رادوه اليك " ووعدها أيضا بان يجعله من جملة الانبياء المرسلين بقوله " وجاعلوه من المرسلين " .

ثم اخبر ان آل فرعون التقطوه، وفي الكلام حذف، لان تقديره ان أم موسى طرحته في البحر ومضى في البرح إلى أن بلغ قصر فرعون فالتقطه آل فرعون. والالتقاط هو اصابة الشيء من غير طلب، ومنه اللقطة قال الراجز:

ومنهل وردته التقاطا * لم ألق اذ وردته فراطا (١)

وقوله " ليكون لهم عدوا وحزنا " اللام لام العاقبة، لانهم لم يلتقطوه لان يصير لهم عدوا وحزنا، بل التقطوه ليكون قرّة عين لهم، ومثله قول الشاعر:

لدوا للموت وابنوا للخراب (٢)

ومنه قوله " ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا " (٣). ثم اخبر تعالى " إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين " عاصين لله في أفعالهم، ثم حكى تعالى أن امرأة فرعون لما جيئ بموسى اليها ورأته وعطف الله بقلبها عليه جاءت به إلى فرعون، وقالت " قرّة عين لي ولك " أي قرّة عين هذا الولد لي ولك " لا تقتلوه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولدا " إذا ربيناك وكبر " وهم لا يشعرون " بأن هلاكهم على يديه، في قول قتادة.

ثم قال " واصبح فؤاد ام موسى فارغا " قال ابن عباس وقتادة والضحاك:

(١) تفسير الطبري ٢٠ / ١٩ والقرطبي ١٣ / ٢٥٢ (٢) مر في ٣ / ٦ و ٥ / ٤٣ (٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٨ (*)

(١٣٣)

معناه فارغا من كل شيء إلا من ذكر موسى. وقال الحسن وابن زيد وابن اسحاق: فارغا من حيننا بنسيانها، فانها نسيتم ما وعدنا الله به. وقيل: فارغا من الحزن لعلمها بأن ابنها ناج سكونا إلى ما وعد الله وقبلت به. وقوله " إن كادت لتبدي به " قال ابن عباس وقتادة والسدي: معناه كادت لتبدي بذكر موسى. وتقول: يا ابناه. وقيل: ان كادت لتبدي بالوحي. وقوله " لولا أن ربطنا على قلبها " فالربط على القلب تقويته على الامر حتى لا يخرج منه إلى ما لا يجوز. وجواب (لولا) محذوف، وتقديره لولا أن ربطنا على قلبها لاظهرته. وقوله " لتكون من المؤمنين " معناه فعلنا ذلك بها لتكون من جملة المؤمنين المصدقين بتوحيد الله وعدله. قوله تعالى:

* (وقالت لاخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون (١١) وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون (١٢)

فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون (١٣) ولما بلغ أشده واستوى آتيناها حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين (١٤) ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان

(١٣٤)

هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى ففضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) * (١٥) خمس آيات بلا خلاف. حكى الله تعالى عن أم موسى أنها قالت لاخت موسى: قصيه أي اتبعي أثره، يقال قصه يقصه قصا إذ اتبع أثره، ومنه القصص، لأنه حديث يتبع بعضه بعضا يتبع الثاني لاول، والاقتران اتباع الجاني في الاخذ بمثل جنايته في النفس " فبصرت به عن جنب " معنى (فبصرت به) رآته، وهو لا يتعدى إلا بحرف الجر. والرؤية تتعدى بنفسها، وقال مجاهد: معناه عن بعد، ومثله أبصرت به عن جنابة قال الاعشى:

أتيت حريثا زائرا عن جنابة * فكان حريث عن عطائي جامدا (١)

أي عن بعد، وقيل: معنى " عن جنب " عن مكان جنب، وهو الجانب لان الجنب صفة وقعت موقع الموصوف لظهور معناه، وكان ذلك احسن واوجز " وهم لا يشعرون " قال قتادة: معناه وآل فرعون لا يشعرون انها اخته.

وقوله " وحرمنا عليه المواضع " وهي جمع مرضعة ومعناه منعناه منهن وبغضناهن اليه، فكان ذلك كالمنع والنهي، لا أن هناك نهيا عن الفعل، قال الشاعر:

جاءت لتصرعني فقلت لها اقصري * اني امرء صرعي عليك حرام (٢)

اي ممتنع فاني فارس امنعك من ذلك، ومثله قولهم: فلان حرم على

(١) ديوانه * (دار بيروت) * ٤٣ (٢) مر هذا البيت في ٣ / ٤٨٩ (*)

(١٣٥)

نفسه كذا بالامتناع منه، كالامتناع بالنهي. وقوله " من قبل " أي من قبل رده على أمه " فقالت هل أدلكم على اهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون " معناه يضمونونه برضاعه والقيام عليه، وينصحونه في ذلك، فقيل لاخته من أين قلت: انهم ناصحون له أعرفت أهله، فقالت: إنما عنيت ناصحون للملك. والنصح اخلاص العمل من شائب الفساد، وهو نقيض الغش: نصح ينصح نصحا، فهو ناصح في عمله، وناصح في نفسه في توبته إذا اخلصها. وقوله " فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن " قيل: ان فرعون سأل أمه كيف يرتضع منك، ولم يرتضع من غيرك؟! قالت: لاني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا اكاد أوتى بصبي إلا ارتضع مني.

وبين تعالى انه إنما فعل ذلك " كي تقر عينها " يعني عين أمه، فرده عليها " ولتعلم ان وعد الله حق " لا بد من كونه. ثم قال " ولكن اكثرهم " اى الخلق " لا يعلمون " حقيقة ما يراد بهم. وقيل: من قوم فرعون ما علمته أم موسى، ومن لطيف تدبير الله تسخير فرعون لعدوه حتى تولى تربيته.

وقوله " ولما بلغ أشده واستوى " قال قتادة: اشده ثلاث وثلاثون سنة، واستوائه اربعون سنة. وقيل استواء قوته * (آتيناه) * يعني أعطيناه * (حكما وعلما) * قال السدى: يعني النبوة. وقال عكرمة: يعني العقل.

وقال مجاهد: الفرقان. والحكم الخبر بما تدعو اليه الحكمة. والمعنى علمناه من الحكمة ما تقتضي المصلحة، واولحينا اليه بذلك. ثم قال: ومثل ما فعلنا به نجزي أيضا من فعل الاحسان. وفعل الطاعات والافعال الحسنة.

ثم اخبر تعالى ان موسى * (دخل المدينة) * يعني مصر، وقيل: غيرها * (على حين غفلة من اهلها) * قيل: إنه كان وقت القاتلة. وقيل: لانهم

(١٣٦)

غفلوا عن ذكره لبعد عهدهم به. وقيل: انه كان يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم. وقوله * (فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه) * قال مجاهد: يعني من شيعته إنه كان اسرائيليا، والآخر إنه كان قبطيا. وقال ابن اسحاق: كان احدهما مسلما، والآخر كافرا * (فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه) * أى استنصره لينصره * (فوكزه موسى) * أى دفع في صدره، وجميع كفه (ولكزه) مثل وكزه ولهزه * (فقضى عليه) * أى مات، فقال عند ذلك موسى * (هذا من عمل الشيطان) * أى من اغوائه حتى زدت من الايقاع به، وإن لم اقصد قتله. وقيل: ان الكناية عن المقتول، فكأنه قال: ان المقتول من عمل الشيطان اى عمله عمل الشيطان. ثم وصف الشيطان بأنه * (عدو) * للبشر ظاهر العداوة. وقوله * (هذا من شيعته وهذا من عدوه) * إشارة إلى الرجلين اللذين احدهما من شيعه موسى، والآخر من عدوه إنما هو على وجه الحكاية للحاضر إذا نظر اليهما الناظر قال هذا من شيعته وهذا من عدوه.

قوله تعالى:

* (قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم (١٦) قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين (١٧) فأصبح في المدينة خائفا يترقب فاذا الذي استنصره بالامس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين (١٨) فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوه لهما قال

(١٣٧)

يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالامس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الارض وما تريد أن تكون من المصلحين (١٩) وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملا يأترون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين) * (٢٠) خمس آيات بلا خلاف. حكى الله تعالى عن موسى انه حين قتل القبطي ندم على ذلك وقال يا " رب إني ظلمت نفسي " بقتله وسأله ان يغفر له، فحكى الله تعالى انه " غفر له " لان " الله هو الغفور " لعباده " الرحيم " بهم المنعم عليهم. وعند أصحابنا أن قتله القبطي لم يكن قبيحا، وكان الله أمره بقتله، لكن كان الاولى تأخيره إلى وقت آخر لضرب من المصلحة، فلما قدم قتله كان ترك الاولى والافضل.

فاستغفر من ذلك لا أنه فعل قبيحا. وقال جماعة: ان ذلك كان منه صغيرة غير انها وقعت مكفرة لم يثبت عليها عقاب، ويكون قوله " رب إني ظلمت نفسي " على الوجه الاول أي بخست نفسي حقها بأن لم أفعل ما كنت أستحق به ثوابا زائدا. وعلى المذهب الثاني مذهب من يقول بالموازنة يقول: لانه نقص من ثوابه، وكان بذلك ظالما لنفسه. فأما من قال: إن ذلك كان كبيرة منه وظلما فخارج عما نحن فيه، لان ادلة العقل دلت على أن الانبياء لا يجوز عليهم شي من القبائح، لا كبيرها ولا صغيرها. ومن قال: إنه كان ذلك صغيرة، قال: كان دفعه له المؤدي إلى القتل صغيرة، لا أنه قصد القتل وكان صغيرة.

(١٣٨)

وقوله " قال رب بما أنعمت علي فلن اكون ظهيرا للمجرمين " معناه إن أنعمت علي فلن اكون، فهو مشبه بجواب الجزاء، ولذلك دخلت الفاء في الجواب، وإذا وقع الانعام قيل لما أنعمت، فلن اكون، لانها في كلا الموضوعين تدل على أن الثاني وقع من أجل الاول. ويحتمل أن يكون ذلك قسما من موسى بنعم الله عليه، بمغفرته، وفنون نعمه بأن لا يكون معينا على خطيئة، ولا يكون ظهيرا. والظهير المعين لغيره بما به يصير كالظهر له الذي يحميه من عدوه.

وقوله " فأصبح في المدينة خائفا يترقب " معناه إن موسى أصبح خائفا من قتل القبطي، يترقب الاخبار - في قول ابن عباس - والترقب التوقع.

وقوله " فاذا الذي استنصره بالامس يستصرخه " يعني رأى من كان استنصره بالامس، بأن طلب نصرته على عدوه " يستصرخه " أي يطلب نصرته ايضا.

وقيل: يطلب الصراخ على العدو بما يردعه عن الايقاع بمن قد تعرض له " قال له موسى انك لغوي مبين " أي عادل من الرشد، ظاهر الغواية، ومعناه انك لغوي في قتالك من لا تطيق دفع شره عنك، من أصحاب فرعون، خائب فيما تقدر أن تفعله.

وقوله " فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما " قيل: إن موسى هم أن يدفع العدو عن نفسه وعن صاحبه، ويبطش به " قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالامس " قال الحسن: هو من قول الفرعوني، لأنه كان قد اشتهر أمر القتل بالامس أنه قتله بعض بني إسرائيل. وقال ابن عباس واكثر اهل العلم انه من قول الاسرائيلي، لأنه قال له موسى انك لغوي مبين، خاف على نفسه فظن أنه يريد الايقاع به، فقال ما قال. وقوله " إن تريد إلا أن تكون جبارا في الارض " اي لست تريد بقتل من قتلته

(١٣٩)

بالامس إلا أن تكون جبارا متكبيرا في الارض " وما تريد " اي ولست تريد " أن تكون من " جملة " المصلحين " .

وقوله " وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى " قيل هو مؤمن آل فرعون " قال يا موسى ان الملا يأترون بك ليقتلوك " أي يأمر بعضهم بعضا بقتلك.

وقيل: يأترون معناه يرتأون، قال نمر بن تولب:

أرى الناس قد احدثوا شيمة * وفي كل حادثه يؤتمر (١)

أي يرتاء، وقال آخر:

ما تأثر فينا فأم * - رك في يمينك أو شمالك

فقوله " فاخرج اني لك من الناصحين " حكاية ما قال الرجل لموسى، وانه ناصح له بقوله، يحذره من اعدائه. وقال الزجاج: وقوله " اني لك " ليست من صلة " الناصحين " لان الصلة لا تقدم على الموصول، لكن تقديره: إني من الناصحين الذين ينصحون لك، يقال: نصحت لك ونصحتك، والاول اكثر.

قوله تعالى:

* (فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين (٢١) ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل * ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون (٢٢) ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير (٢٣) فسقى

(١) تفسير الطبري ٢٠ / ٣١ والقرطبي ١٣ / ٢٦٦ (*)

(١٤٠)

لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير (٢٤) فجاءته إحداهما
تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه
القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) * (٢٥).

خمس آيات كوفي، وست فيما عداه، عد الكل " يسقون " آية إلا الكوفيين فانهم عدوها وما
بعدها إلى " كبير " آية. قرأ ابو عمرو، وابن عامر، وابو جعفر " حتى يصدر " بفتح الياء وضم
الذال. الباقون - بضم الياء وكسر الذال - والصدر الانصراف عن الماء: صدر يصدر صدرا
وأصدره غيره إصدارا، ومنه والصدر، لان التدبير يصدر عنه، والمصدر لان الافعال تصدر
عنه. فمن فتح الياء أسند الفعل إلى الرعاء، ومن ضمه أراد اصدارهم عنه ومواشيهم.

حكى الله تعالى ان موسى لما انذره مؤمن آل فرعون، وأن اشراف قومه ورؤساءهم قد
ائتمروا على قتله، وأمره بالخروج من المدينة خرج (ع) " خائفا يتربق " أي يطلب ما يكون
ويتوقعه، والترقب طلب ما يكون من المعنى على حفظه للعمل عليه، ومثله التوقع وهو طلب
ما يقع من الامر متى يكون. وقال قتادة وخرج منها خائفا من قتله النفس يتربق الطلب. وقيل
خرج بغير زاد وكان لا يأكل الاحشاش الصحراء إلى أن بلغ ماء مدين.

وقوله " قال رب نجني من القوم الظالمين " حكاية ما دعا به موسى ربه، وانه سأله أن يخلصه
من القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله، وذلك يدل على أن خوفه كان من القتل.

(١٤١)

وقوله " ولما توجه تلقاء مدين " فالتوجه صرف الوجه إلى جهة من الجهات، ويقال: هذا
المعنى يتوجه إلى كذا أي هو كالتطالب له بصرف وجهه اليه، وتلقاء الشيء حذاه، ويقال: فعل
ذلك من تلقاء نفسه أي من حذا داعي نفسه. و (مدين) لا ينصرف، لانه إسم بلدة معرفة، قال
الشاعر:

رهبان مدين لو رأوك تنزلوا * والعصم من شعف العقول الغادر (١)

الشعف أعلى الجبل، والغادر الكبير. وقال ابن عباس: بين مصر ومدين ثمان ليال، نحو ما
بين الكوفة والبصرة.

وقوله " عسى ربي أن يهديني سواء السبيل " حكاية ما قال موسى في توجهه، فانه قال: عسى
أن يدلني ربي على سواء السبيل، وهو وسط الطريق المؤدي إلى الجاة، لان الاخذ يميننا
وشمالا يبعد عن طريق الصواب، ويقرب منه لزوم الوسط على السنن، فهذا هو المسعى في
الهداية، وقال الشاعر:

حتى اغيب في سواء الملحد اي في وسطه، وقال عطاء: عرضت له أربع طرق لم يدر أيها يسلك، فقال ما قال. ثم أخذ طريق مدين حتى ورد على شعيب، وهو قول عكرمة. ثم حكى تعالى أن موسى " لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة " يعني جماعة " من الناس يسقون " بهائمهم ويستسقون الماء من البئر " ووجد من دونهم " يعني دون الناس " امرأتين تذودان " أي يحبسان غنمهما ويمنعانهما من الورود إلى الماء يقال: ذاذ شاته وإبله عن الشيء يزودها ذودا إذا احبسها عنه بمنعها منه، قال سويد بن كراع:

(١) مر تخريجه في ٣ / ٦٠١ (*)

(١٤٢)

أبيت على باب القوا في كأنما * أذود بها سربا من الوحش شرعا (١)
وقال الآخر:

وقد سلبت عصاك بن تميم * فما تدري بأي عصا تذود (٢)

وقال الفراء: لا يقال: ذدت الناس، وإنما قالوا ذلك في الغنم والابل، وقال قتادة: كانتا تذودان الناس عن شائهما. وقال السدي: تحبسان غنمهما فقال لهما موسى " ما خطبكما " أي ما شأنكما؟ في قول ابن اسحاق، قال الراجز:

يا عجا ما خطبه وخطبي (٣)

والخطب الامر الذي فيه تفخيم، ومنه الخطبة، لأنها في الامر المعظم، ومن ذلك خطبة النكاح والخطاب، كل ذلك فيه معنى العظم، فأجابته بأننا لا نسقي غنمنا حتى يصدر الرعاء وواحد الرعاء راع، ويجمع ايضا رعاة ورعيانا، والمعنى انا لا نسقي حتى ينصرف الرعاء - فيمن فتح الياء - أو يصرفون غنمهم - فيمن ضم الياء - لانا لا قوة بنا على الاسقاء، وإنما ننظر فضول الماء في الحوض - في قول ابن عباس وقاتدة وابن اسحاق - " وابونا شيخ كبير " لا يقدر على أن يتولى ذلك بنفسه، وقوله " فسقى لهما " قال شريح: رفع لهما حجرا عن بئر لا يقدر على رفعه إلا عشرة رجال ثم استقى لهما. وقال ابن اسحاق: إنه زحم الناس عن الماء حتى آخروهم عنه حتى سقى لهما. وقوله " ثم تولى إلى الظل فقال رب اني لما أنزلت الي من خير فقير " معناه إني إلى ما أنزلت فاللام بمعنى إلى، و (ما) بمعنى الذي وما بعده من صلته و (لما) متعلق بقوله (فقير) وتقديره أي فقير

(١) تفسير الطبري ٢٠ / ٣٣ والقرطبي ١٣ / ٢٦٦ (٢) تفسير الطبري ٢٠ / ٣٣ والقرطبي ١٣ / ٢٦٨ (٣)

قاله روبة. تفسير القرطبي ١٣ / ٢٦٨ والطبري ٢٠ / ٣٣ (*)

(١٤٣)

إلى ما أنزلت الي من خير. قال ابن عباس: أدرك موسى جزع شديد، فقال " رب اني لما انزلت الي من خير فقير " وفي الكلام حذف، لان التقدير إن المرأتين عادتا إلى أبيهما وشكرتا فعله، فقال أبوهما لاحدهما ادعية لي لاجزيه على فعله " فجاءت احدهما تمشي على استحياء " قيل: معناه مستترة بكم درعها أو قميصها، فقالت له " ان ابي يدعوك " ليكافبك على ما سقيت لنا وإن موسى مشى معها حتى وصل اليه " وقص عليه القصص " من اخباره وما مر عليه، فقال له الشيخ " لا تخف نجوت من القوم الظالمين " قال ابن عباس معناه ليس لفرعون سلطان بأرضنا. وقيل: كان الشيخ أبوهما شعيبا (ع) وقال الحسن: بل كان رجلا مسلما على دين شعيب اخذ الدين عنه، وشعيب مات قبل ذلك، وقال قوم: انه كان ابن اخي شعيب (ع). قوله تعالى:

* (قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الامين (٢٦) قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين (٢٧) قال ذلك بيني وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل (٢٨) فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله أنس من جانب الطور نارا قال لاهله

(١٤٤)

امكثوا إني آنست نارا لعلني آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون (٢٩) فلما أتيتها نودي من شاطئ الواد الايمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين) * (٣٠) خمس آيات بلا خلاف. قرأ عاصم * (جذوة) * بفتح الجيم، وقرأ حمزة وخلف بضمها. الباقون - بكسر الجيم - وفيه ثلاث لغات - فتح الجيم وضمها وكسرها. والكسر أكثر وافصح. والجذوة القطعة الغليظة من الحطب فيها النار، وهي مثل الحزمة من أصل الشجر، وجمعها جذي قال الشاعر:

كانت حواطب ليلي يلتمس لها * جزل الجذى غير خوار ولا ذعر (١)

وقال قتادة: الجذوة الشعلة من النار. حكى الله تعالى أن احدى المرأتين قالت لابيها " يا أبت استأجره " والاستئجار طلب الاجارة، وهي العقد على أمر بالمعاوضة، يقال: أجره أجرا، وأجره إجارة وإيجارا، واستأجره استئجارا ومنه الاجير، والماجور. والاجر الثواب، وهو الجزاء على الخير. ثم حكى أنها قالت لابيها " ان خير من استأجرت القوي الامين " قال قتادة: عرفت قوته بأنه سقى الماشية بدلو واحد، وعرفت أمانته بغض طرفه، وامره إياها بأن تمشي

خلفه. والقوي القادر العظيم المقدر، ومنه وصف الله تعالى بأنه القوي العزيز، وأصل القوة شدة الفتل من قوي الحبل، وهي طافاته التي يفتل عليها، ثم نقل إلى معنى القدرة على الفعل. والامانة خاصة للتأدية على ما يلزم فيها،

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٢٨١ والطبري ٢٠ / ٤١ (*)

(١٤٥)

وهي ضد الخيانة، والثقة مثل الامانة.

ثم حكى ما قال أبوالمراثنين لموسى (ع)، فانه قال له " إني اريد أن انكحك احدى ابنتي هاتين " أي ازوجك احدهما، فالانكاح عقد ولي المرأة على غيره الزوجية، وهو تزويجه اياها، والنكاح تزوج الرجل المرأة، يقال نكحها نكاحا إذا تزوجها. وقوله " على أن تأجرني ثماني حجج " معناه على أن تجعل أجري على تزويجي إياك ابنتي رعي ماشيتي ثماني سنين، لانه جعل صداق ابنته هذا الذي عقد عليه، وجعل الزيادة على المدة اليه الخيار فيها، فلذلك قال " فان أتممت عشرا فمن عندك " أي هبة منك غير واجب عليك.

ثم اخبر انه قال " وما اريد ان اشق عليك " بأن الزمك عشر سنين " ستجديني " فيما بعد * (ان شاء الله من) * جملة * (الصالحين) * الذين يفعلون الخيرات، وتعليق الصلاح بمشيئة الله في الآية يحتمل أمرين:

احدهما - ان يريد بها الصلاح في الدنيا من صحة الجسم وتمام القوة، فان الله تعالى يجوز ان يفعل بأنبيائه أمراضا امتحانا لهم ولطفاء، فلذلك قال إن شاء الله.

والثاني - ان يكون أراد ان شاء الله تقيتي، لانه يجوز أن يخترمه الله فلا يفعل الصلاح الديني، فلذلك علقه بمشيئة الله. ويحتمل أن يكون ذلك لاتفاق الكلام، ولا يكون خبرا قاطعا، فلا يكون بمشيئة الله شرط في فعل الصلاح وقال ابن عباس: ان موسى قضى أتما الاجلين وأوفاهما، وقيل: انه كان جعل لموسى كل سخلة تولد على خلاف شبه امها فأوحى الله (عزوجل) إلى موسى ان الق عصاك في الماء فولدت كلهن خلاف شبههن. وقيل: جعل له كل

(١٤٦)

بلقاء فولدن كلهن بلقا.

ثم حكى تعالى ان موسى قال له * (ذلك بيني وبينك ايما الاجلين قضيت فلا عدوان علي) * أي لا تعدي علي لاني مخير في ذلك * (والله على ما نقول وكيل) * أي كاف وحسيب، وقيل: انه من قول الشيخ، ثم حكى تعالى ان موسى لما قضى الاجل تسلم زوجته وسار بها

إلى أن * (أنس من جانب الطور ناراً) * اي ابصر امرأ يؤنس بمثله، والطور الجبل قال العجاج:

أنس جربان فضاء فانكدر * داني جناحيه من الطور فمر (١)

فلما رأى ذلك قال لاهله: البثوا مكانكم، فاني ابصرت ناراً، فامضي نحوها * (لعلي آتيكم منها بخبر) * يعرف منه الطريق، فانه روي انه كان قد ضل عن الطريق * (او جذوة من النار) * اي قطعة من الحطب غليظة فيها النار، وقيل الجذوة الشعلة من النار، لكي تصطلوا بها. وقيل: انهما كانا وجدا البرد، فذلك قال ما قال.

ثم حكى تعالى ان موسى لما اتى النار بان قرب منها * (نؤدي من شاطئ الواد الايمن) * اي من جانبه وهو الشط، ويجمع شواطئ وشطانا * (من البقعة المباركة) * يقال: بقعة وبقعة بالضم والفتح، وجمعه بقاع، ووصفها بأنها مباركة لانه كلم الله فيها موسى * (من الشجرة) * قيل ان الكلام والنداء سمعه موسى من ناحية الشجرة، لان الله تعالى فعل الكلام فيها لا أن الله تعالى كان في الشجرة، لانه لا يحويه مكان، ولا يحل في جسم، فتعالى الله عن ذلك " أن يا موسى " أي ناداه بان قال له يا موسى * (اني أنا الله رب العالمين) *

(١) تفسير الطبري ٢٠ / ٤٠ وروايته " أنس جربان قض "، وقد مر قسم من هذا الرجز في ١ / ٢٨٦ و ٧ / ٣٥٨ (*).

(١٤٧)

الذي خلقت جميع الخلائق وأخرجتهم من العدم إلى الوجود.
قوله تعالى:

* (وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين (٣١)

أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذاتك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين (٣٢) قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون (٣٣) وأخي هرون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون (٣٤) قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) * (٣٥) خمس آيات بلا خلاف قرأ * (من الرهب) * بفتح الراء والهاء - ابن كثير ونافع وابوجعفر وابوعمر. الباقر - بضم الراء وسكون الراء - إلا حفصاً، فانه قرأ - بفتح الراء وسكون الراء - وقرأ ابن كثير وابوعمر * (فذاتك) * مشددة النون.

الباقون بالتخفيف. وقرأ نافع * (ردا) * بفتح الدال من غير همز منونا. وقرأه ابوجعفر بالف بعد الدال من غير همز وغير تنوين. الباقون بسكون الدال وبعدها همزة مفتوحة منونة. وقرأ عاصم وحمزة * (يصدقني) * بضم القاف.

(١٤٨)

الباقون بالجزم.

الرهب والرهب لغتان مثل النهر والنهر، والسمع والسمع. وقيل في تشديد * (ذانك) * ثلاثة اقوال: احدها - للتوكيد، الثاني - للفرق بين النون التي تسقط للاضافة. وبين هذه النون. الثالث - للفرق بين بنية الاسم المتمكن وغير المتمكن. وروي عن ابن كثير انه قرأ * (فذانيك) * قال ابو علي: وجه ذلك انه أبدل من احدى النونين ياء، كما قالوا: تظنيت وتظننت. ومن جزم * (يصدقني) * جعله جوابا للامر وفيه معنى الشرط. وتقديره: إن أرسلته صدقني ومن رفع جعله صفة للنكرة. وتقديره رداء مصدقا لي. وقال مقاتل: الرهب الكم، ويقال وضعت الشئ في رهي اي في كمي، ذكر الشعبي انه سمع ذلك من العرب. ومن شدد * (ذانك) * جعله تنثية (ذلك) ومن خفف جعله تنثية (ذاك).

اخبر الله تعالى انه لما قال لموسى * (اني انا الله رب العالمين) * أمره ايضا ان يلقي عصاه، وانه القاها أي طرحها وخرجها من يده إلى الارض فانقلبت باذن الله شعبانا عظيما * (تهتز) * باذن الله * (كأنها جان) * في سرعة حركته، وشدة اهتزازة، فعلم موسى عند ذلك ان الذي سمعه من الكلام صادر من الله، وان الله هو المكلم له دون غيره، لان ذلك إنما يعلمه بضرب من الاستدلال.

وقوله * (ولى مدبرا، ولم يعقب) * اي لم يرجع، اي خاف بطبع البشرية وتأخر عنها ولم يقف، فقال الله تعالى له * (يا موسى اقبل ولا تخف انك من الأمنين) * من ضررها. والعصا عود من خشب كالعمود، وفي انقلابه حية دليل على ان الجوهر من جنس واحد، لانه لا حال ابعد إلى الحيوان من حال الخشب. وما جرى مجراه من الجماد، وذلك يقتضي صحة قلب الابيض إلى

(١٤٩)

حال الاسود، والاهتزاز شدة الاضطراب في الحركة، والحيوان له حركة تدل عليه إذا رأي عليها لا يشك في انه حيوان بها. وهي التصرف بالنفس من غير ربح، ولا سبب يولد التصرف مع كونه على البنية الحيوانية. وقيل:

ان الله امره ان يدخل يده في فيها، ففعل فعادت عصا كما كانت. ثم امره الله ان يسلك يده في جيبه، أي بأن يدخلها فيه، وكانت سمرة شديدة السمرة فلما اخرجها خرجت بيضاء نقية * (من غير سوء) * اي من غير برص.

وقوله * (واضم اليك جناحك) * قال ابن عباس ومجاهد: يعني يدك * (من الرهب) * يعني من الرعب، والفرق الذي لحقه لاجل الحية - في قول مجاهد، وقتادة - وقال قوم: ان معناه امر له بالعزم على ما اريد له مما امر به، وحثه على الجد فيه، ويمنعه ذلك من الخوف الذي لحقه، ولا يستعظم ذلك، فيكون ذلك مانعا مما امر به، كما قال * (سنشد عضدك بأخيك) * ولم يرد خلاف الحل فكذلك الضم ليس يراد به الضم المزيل للفرجة. ومثله قول الشاعر:

اشدد حياز يمك للموت فان الموت لاقيك * ولا تجزع من الموت إذا حل يواديك (١)
وانما يريد تاهب له. ثم قال " فذانك " يعني قلب العصا حية واخراج اليد البيضاء " برهانان " أي دليلان، واضحان من الله في ارسالك إلى فرعون واشراف قومه.
ثم اخبر تعالى أن فرعون وقومه " كانوا قوما فاسقين " خارجين من طاعة الله إلى معاصيه.
ثم حكى تعالى ما قال موسى، فانه قال يا رب " اني قتلت منهم نفسا " يعني القبطي الذي وكزه ففضى عليه " فأخاف ان يقتلوني " بدله.

(١) اللسان (حزم) نسبه إلى علي (ع) *

(١٥٠)

وقال ايضا " وأخي هارون هو افصح مني لسانا " لان موسى كان في لسانه عقدة ولم يكن كذلك هارون، وسأل الله تعالى أن يرسل هارون معه " ردا " أي عوناً، والردء العون الذي يدفع السوء عن صاحبه، ومنه رداء الشيء يردأه رداء فهو رديء، فالرد المعين في دفع الرداء عن صاحبه. ويقال: رداًه اردأه رداء إذا أعنته. وادأته ايضاً لغتان. وقوله " يصدقني " من جزمه جعله جواباً للامر، ومن رفعه جعله صفةً للنكرة، وتقديره رداء مصدقا " إني اخاف أن يكذبون " في ادعاء النبوة والرسالة، وقيل: ان موسى ما سأل ذلك إلا باذن الله، لانه لا يجوز ان يسأل نبي أن يرسل معه إنساناً آخر نبياً، وهو لا يعلم أنه يصلح لذلك، فلا يجاب اليه، فان ذلك ينفر عنه. فقال الله تعالى " سنشد عضدك بأخيك " أي سنقويك به بأن نقرنه اليك في الرسالة لنقوي بعضكما ببعض.

" ونجعل لكما سلطانا " يعني حجة وقوة، وهي التي كانت لهما بالعصا. والسلطان القوة التي يدفع بها على الامر. والسلطان الحجة الظاهرة، وتقديره ونجعل لكما سلطانا ثابتا " فلا يصلون اليكما " فيه تقديم وتأخير.

ثم قال تعالى " فلا يصلون اليكما " يعني فرعون، وقومه لا يتمكنون من قتلكما، ولا اذا كما،
ثم قال " بآياتنا " أي بحججنا وبراهيننا " انتما ومن اتبعكما " من بني إسرائيل وغيرهم "
الغالبون " لفرعون، فعلى هذا يكون " انتما " مبتداء، " ومن اتبعكما " عطفاً عليه " والغالبون "
خبره " وبآياتنا " متعلق بقوله " الغالبون ". وعلى الوجه الآخر يكون " بآياتنا " متعلقاً بقوله "
ويجعل لكما سلطاناً.... بآياتنا " قال الزجاج: يجوز أن يكون " بآياتنا " متعلقاً بقوله " فلا
يصلون اليكما " بآياتنا وحججنا، وكل ذلك محتمل.

(١٥١)

قوله تعالى:

* (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا
الاولين (٣٦) وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه
لا يفلح الظالمون (٣٧) وقال فرعون يا أيها الملا ما علمت لكم من آله غيري فأوقد لي يا
هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلني أطلع إلى آله موسى وإني لأظنه من الكاذبين (٣٨)
واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون (٣٩)
فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) * (٤٠) خمس آيات بلا
خلاف.

قرأ ابن كثير " قال موسى " بلا واو، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة. الباقون - بالواو -
وكذلك هو في المصاحف.

وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً " من يكون " بالياء. الباقون بالتاء من قرأ بالياء فلان تأنيث
العاقبة ليس بحقيقي. ومن قرأ بالتاء، فلان لفظه مؤنث. وتقدير الكلام إن موسى مضى إلى
فرعون " فلما جاءهم موسى بآياتنا " أي حججنا " بينات " أي ظاهرات " قالوا " يعني فرعون
وقومه ليس " هذا " الذي يدعيه " إلا سحر مفترى " أي مختلق مفتعل. والفرق

(١٥٢)

بين (لو) و (لما) أن (لو) لتقدير وقوع الثاني بالاول، و (لما) للايجاب في وقوع الثاني
بالاول. وقولك: ولو جاءهم موسى بآياتنا قالوا، ليس فيه دليل انهم قالوا وفي (لما) دليل على
انهم قالوا عقيب مجئ الآيات. وقوله * (سحر مفترى) * اي سحر مختلق لم بين على اصل
صحيح، لانه حيلة موهم خلاف الحقيقة، فوصفوا الآيات بالسحر والاختلاق، على هذا المعنى
جهلاً منهم وذهاباً عن الصواب.

وقوله * (ما سمعنا بهذا في آباؤنا الاولين) * أي لم نسمع ما يدعيه ويدعو اليه في آباؤنا الذين كانوا قبلنا، وانما قالوا * (ما سمعنا بهذا في آباؤنا الاولين) * مع شهرة قصة قوم نوح وصالح وغيرهم من النبيين الذين دعوا إلى توحيد الله واخلص عبادته لاحد امرين:

احدهما - للفترة التي دخلت بين الوقتين وطول الزمان جحدوا أن تقوم به حجته. والآخر - إن آباءهم ما صدقوا بشئ من ذلك، ولا دانوا به، ووجه الشبهة في أنهم ما سمعوا بهذا في آباؤهم الاولين أنهم الكثير الذين لو كان حقا لادركوه، لانه لا يجوز أن يدرك الحق الانقص في العقل والرأي، ولا يدركه الافضل منهما، وهذا غلط، لان ما طريقه الاستدلال قد يصيبه من سلك طريقه ولا يصيبه من لم يسلك طريقه.

ثم حكى ما قال موسى بأنه قال * (ربي اعلم بمن جاء بالهدى) * أي بالدين الواضح والحق المبين من عنده، ووجه الاحتجاج بقوله * (ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) * أنه عالم بما يدعو إلى الهدى مما يدعو إلى الضلال، فلا يمكن من مثل ما أتيت به من يدعو إلى الضلال، لانه عالم بما في ذلك من فساد العباد

(١٥٣)

ثم بين هذا بقوله * (انه لا يفلح الظالمون) * وان عاقبة الصلاح لاهل الحق والانصاف، وهو كما تقول على طريق المظاهرة بحمل الخطاب: الله أعلم بالمحق منا من المبطل وحجتي ظاهرة، فاكسرها ان قدرت على ذلك * (ومن تكون له عاقبة الدار) * يعني الجنة والثواب في الآخرة * (انه لا يفلح) * أي لا يفوز بالخير من ظلم نفسه وعصى ربه وكفر نعمه.

ثم حكى تعالى ما قال فرعون عند سماع كلام موسى لقومه فانه قال لهم * (يا ايها الملاء ما علمت لكم من إله غيري) * فلا تصغوا إلى قوله، حين أعياه الجواب وعجز عن حاجته. ثم قال لهامان * (وقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا) * قال فالصرح البناء العالي كالقصر، ومنه التصريح شدة ظهور المعنى قال الشاعر:

بهن نعمام بناها الرجا * ل تحسب اعلامهن الصروحا (١)

جمع صرح وهي القصور، وقال قتادة: اول من طبخ الأجر وبنى به فرعون ويقال: الأجر بالتخفيف، والتثقيب والأجر ثلاث لغات.

وقوله * (لعلي اطلع إلى اله موسى) * فالاطلاع الظهور على الشئ من عل، وهو الاشراف عليه. وقوله * (واني لاظنه من الكاذبين) * حكاية ما قال فرعون فانه قال: أظن موسى من جملة الذين يكذبون، ثم اخبر تعالى ان فرعون استكبر، وكذلك جنوده، واستكبروا * (في الارض بغير الحق، وظنوا انهم الينا لا يرجعون) * إلى الله وإلى ثوابه وعقابه. وقوله *

(فاخذناه وجنوده فنبدناهم في اليم) * اخبار منه تعالى انه اخذ فرعون وجنوده أي جمعهم
وطرحهم في البحر، وغرقهم. والنبد الإلقاء، قال ابو الاسود الدؤلي:

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٢٠٩ والطبري ٢٠ / ٤١ (*)

(١٥٤)

نظرت إلى عنوانه فنبدته * كنبذك نعلًا أخلفت من نعالكا (١)

وقال قتادة: البحر الذي غرق فيه فرعون يقال له: اسناد، على مسيرة يوم من مصر.

قوله تعالى:

* (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيمة لا ينصرون (٤١)

وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة هم من المقبوحين (٤٢)

ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكتنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلمهم

يتذكرون (٤٣) وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين

(٤٤) ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا

ولكننا كنا مرسلين) * (٤٥) خمس آيات بلا خلاف.

اخبر الله تعالى انه جعل فرعون وقومه * (أئمة يدعون إلى النار) * وقيل في معناه قولان:

احدهما - انا عرفنا الناس انهم كانوا كذلك، كما يقال: جعله رجل شر بتعريفه حاله. والثاني

- انا حكمنا عليهم بذلك، كما قال * (ما جعل الله

(١) مر تخريجه في ١ / ٣٦٧ (*)

(١٥٥)

من بحيرة ولا سائبة) * (١) وكما قال * (وجعلوا لله شركاء الجن) * (٢) وانما قال ذلك،

واراد انهم حكموا بذلك، وسموه. والجعل على اربعة اقسام:

احدها - بمعنى الاحداث، كقوله * (وجعلنا الليل والنهار آيتين) * (٣)

وقوله * (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) * (٤)

الثاني - بمعنى قلبه من حال إلى حال كجعل النطفة علقة إلى ان تصير انسانا الثالث - بمعنى

الحكم انه على صفة، كما قال انه جعل رؤساء الضلالة يدعون إلى النار اي حكم بذلك.

الرابع - بمعنى اعتقد انه على حال كقولهم جعل فلان فلانا راكبا إذا اعتقد فيه ذلك. والامام

هو المقدمح للاتباع يقتدون به، فرؤساء الضلالة قدموا في المنزلة لاتباعهم فيما يدعون اليه من

المغالبة. وانما دعوهم إلى فعل ما يؤدي بهم إلى النار، فكان ذلك كالدعاء إلى النار. والداعي هو الطالب من غيره ان يفعل إما بالقول او ما يقوم مقامه، فداعي العقل بالاظهار الذي يقوم مقام القول. وكذلك ظهور الارادة يدعو إلى المراد.

وقوله * (ويوم القيامة لا ينصرون) * معناه: إنهم كانوا يتناصرون في الدنيا، وهم لا ينصرون في الآخرة بنصر بعضهم لبعض، ولا غيره ولا احد ينصرهم.
وقوله * (واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة) * معناه الحقنا بهم في هذه الدنيا لعنة بأن لعناهم وابعدناهم من رحمتنا. وقال ابو عبيدة معناه ألزمناهم بأن امرنا بلعنهم، قوما بعد قوم * (ويوم القيامة هم من المقبوحين) * مع اللعنة.

(١) سورة ٥ المائدة آية ١٠٦ (٢) سورة ٦ الانعام آية ١٠٠ (٣) سورة ١٧ الاسرى آية ١٢ (٤) سورة ٢١ الانبياء آية ٣٢ (*)

(١٥٦)

والاتباع إلحاق الثاني بالاول، فهو لاء الدعاة إلى الضلالة ألحقوا اللعنة تدور معهم حيث ما كانوا، وفي ذلك أعظم الزجر عن القبيح. وقيل: المقبوح المشوه بخلقته لقبيح عمله، ويقال: قبحه الله يقبحه قبحا، فهو مقبوح إذا جعله قبيحا وقال ابو عبيدة: معنى (المقبوحين) المهلكين.
ثم اخبر تعالى انه أعطى موسى الكتاب يعني التوراة من بعد ان اهلك القرون الاولى من قوم فرعون وغيرهم، وانه فعل ذلك " بصائر للناس " وهي جمع بصيرة يتبصرون بها ويعتبرون بها وجعل ذلك هدى يعني ادلة وبيانا ورحمة اي ونعمة عليهم لكي يتذكروا ويتفكروا فيعتبروا به. وقوله " وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الامر وما كنت من الشاهدين " معناه ما كنت بجانب الغربي أي الجبل - في قول قتادة - حين قضينا اليه الامر اي فصلنا له الامر بما ألزمناه وقومه وعهدنا اليه فيهم، فلم تشهد انت ذلك " ولكنا انشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في اهل مدين " أي مقيما فالثاوي المقيم قال الاعشى:

أثوى وقصر ليلة ليزودا * ومضى وأخلف من قتيلة وموعدا (١)

" تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين " والمعنى انك لم تشهد احساننا إلى إلى عبادنا بارسال الرسل ونصب الآيات وانزال الكتب بالبيان والهدى وما فيه الشفاء للعمى كأنه يقول لم تراي شئ كان هناك، تفخيما لشأنه مع إنك انما تخبر به عنا، ولولا ما أعلمناك منه لم تهتد له.
قوله تعالى:

* (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك

(١٥٧)

لنتذر قوما ما أتيتهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون (٤٦)
ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك
ونكون من المؤمنين (٤٧)
فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى
من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون (٤٨) قل فأتوا بكتاب من عند الله هو
أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين (٤٩) فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن
أضل ممن اتبع هويته بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين * (٥٠) خمس آيات
بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة " سحران " بغير الف. الباقون " ساحران " وقيل في معناه قولان:
أحدهما - قال مجاهد أراد موسى وهارون، والثاني - قال ابن عباس: أراد موسى ومحمدا "
تظاهرا ": اي تعاونا.
ومن قرأ " سحران " قال ابن عباس: أراد التوراة والقرآن. وقال الضحاك: أراد الانجيل
والقرآن. وقال عكرمة: أراد التوراة والانجيل. ومن اختار " ساحران " فلانه قال تظاهرا
وذلك إنما يكون بين الساحرين دون

(١٥٨)

السحريين. ومن قرأ " سحران " قال: في ذلك ضرب من المجاز، كما قال " بكتاب من عند الله
هو اهدى " (١) والكتاب يهتدى به، ولا يهدي.
وانما يقال ذلك مجازا.

يقول الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) " ما كنت بجانب الطور " الذي كلم الله عليه موسى
حين ناداه وكلمه. وقال له " إني أنا الله " (٢) " يا موسى أقبل ولا تخف انك من الأمنين "
(٣) " فخذها بقوة " (٤) وقيل: إن هذه المرة الثانية التي كلم الله فيها موسى " ولكن رحمة من
ربك " ومعناه لكن آتيناك علم ذلك رحمة من ربك، ونعمة عليك، لما فيه من العبرة والموعظة،
وإن سبيلك لسبيل غيرك من النبيين في التأييد والمعجزة الدالة على النبوة.
وقوله " لنتذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك " فالانذار الاعلام بموضع المخافة ليتقى، فالنبي
(صلى الله عليه وآله) نذير لانه معلم بالمعاصي، وما يستحق عليها من العقاب، لتتقى بالطاعات،
والنذر العقد على ضرب من البر بالسلامة من الخوف والمعنى إنا أعلمناك لتخوف قوما لم

يأتهم مخوف قبلك ليتذكروا ويعتبروا، وينزعوا عن المعاصي. و (التذكر) طلب الذكر بالفكر والنظر.

وقوله " ولولا ان تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم " أي لولا أن تلحقهم مصيبة جزاء على ما كسبت أيديهم فيقولوا حينئذ " لولا ارسلت الينا رسولا " اي هلا ارسلت الينا من ينهانا عن المعاصي ويدعونا إلى الطاعات * (فنتبع آياتك) * أي ادلتك وبياناتك * (ونكون من المؤمنين) * بوحدانيتك لما أهلكتناهم عاجلا بكفرهم، فجواب (لولا) محذوف لدلالة الكلام عليه، لان

(١) آية ٤٩ من هذه السورة (٢) سورة ٢٠ طه آية ١٤ (٣) آية ٣١ من هذه السورة (٤) سورة ٧ الاعراف آية ١٤٤ (*)

(١٥٩)

معنى الكلام الامتنان عليهم بالامهال حتى يتذكروا ما أتى به الرسول (صلى الله عليه وآله). وقال قوم جواب (لولا) * (ارسلت الينا رسولا) * .

وفي الآية دلالة على وجوب فعل اللطف، لانه لو لم يكن فعله واجبا لم يكن للآية معنى صحيح. ثم اخبر تعالى انه * (فلما جاءهم) * يعني الكفار * (الحق من عندنا) * من عند الله من القرآن والادلة الدالة على توحيده * (قالوا) * عند ذلك: هلا أوتى محمد من المعجزات * (مثل ما أوتي موسى) * من قبل: من فلق البحر وقلب العصا حية وغير ذلك. فقال الله تعالى * (اولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل) * قال الجبائي معنى * (اولم يكفروا) * اي او لم يكفر من كان في عصر موسى وهارون، ونسبوهما إلى السحر ف * (قالوا ساحران تظاهرا) * اي موسى ومحمد - في قول ابن عباس، وفي قول مجاهد: موسى وهارون. ومن قرأ (سحران) أراد التوراة والقرآن او التوراة والانجيل او الانجيل والقرآن. على ما حكيناه بخلاف فيه وأنهم قالوا مع ذلك * (انا بكل كافرون) * اي بكل ما امر به، وذكر انه من عند الله. ويحتمل ان يكون المراد بموسى وهارون. وقال الحسن: المعنى بقوله * (إننا بكل كافرون) * مشركوا العرب الذين كفروا بالتوراة والانجيل والقرآن.

ثم امر تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول لكفار قومه * (فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما) * يعني من كتاب موسى وكتاب محمد - في قول ابن زيد - " اتبعه ان كنتم صادقين " فيما تدعونه، ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) " فان لم يستجيبوا لك " مع ظهور الحق " فاعلم انما يتبعون اهواءهم " أي ما تميل طباعهم اليه، لان الهوى ميل الطبع إلى المشتهى. وما عمل على انه حسن للهوى فلا يجوز أن يكون طاعة لكنه أبيض أن يفعله على هذا الوجه، كما أبيض أن

(١٦٠)

يفعله للذة والشهوة، والاستمتاع به. وانما يكون طاعة الله ما عمل على أنه حسن لان الحكم دعا اليه او لان الحكمة دعت اليه إذ كلما دعت اليه الحكمة بالترغيب فيه فالحكم داع اليه. ثم اخبر تعالى فقال " ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين " أي لا يهديهم إلى طريق الجنة. ويجوز ان يكون المراد لا يحكم بهديتهم، لانهم عادلون عن طريق الحق.
قوله تعالى:

* (ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) * خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى إنا " وصلنا " لهؤلاء الكفار " القول " وقيل في معناه قولان: احدهما - قال ابن زيد " وصلنا لهم القول " في الخبر عن أمر الدنيا والآخرة الثاني - قال الحسن البصري " وصلنا لهم القول " بما أهلكنا من القرون

(١٦١)

قرنا من قرن فأخبرناهم أنا أهلكنا قوم نوح بكذا، وقوم هود بكذا، وقوم صالح بكذا " لعلهم يتذكرون " فيخافوا أن ينزل بهم ما نزل بمن كان قبلهم.
واصل التوصيل من وصل الحبال بعضها بعض. ومنه قول الشاعر:
فقل لبني مروان ما بال ذمة * وحبل ضعيف ما يزال يوصل (١)
والمعنى انا اتبعنا القرآن بعضه بعضا. وقيل: معناه فصلنا لهم القول.
وقوله " الذين آتيناهم الكتاب " يعني التوراة * (من قبله) * يعني من قبل القرآن وقد تقدم ذكره في قوله " فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل " .

وقوله " هم به يؤمنون " أي هم بالقرآن يصدقون من قبل نزوله وبعد نزوله. ويحتمل أن تكون الكناية عن النبي (صلى الله عليه وآله)، وتقديره الذين آتيناهم الكتاب من قبل محمد هم بمحمد يؤمنون، لانهم كانوا يجدون صفته في التوراة ثم قال * (وإذا يتلى عليهم) * يعني القرآن " قالوا آمنا به " أي صدقنا به " انه الحق من ربنا انا كنا " من قبل نزوله " مسلمين " به مستمسكين بما فيه.

ثم اخبر تعالى ان هؤلاء الذين وصفهم يعطيهم الله أجرهم اي ثوابهم على ما صبروا في جنب الله " مرتين " إحداهما - لفعلهم الطاعة، والثانية للصبر عليها لما يوجبها العقل من التمسك بها، والصبر حبس النفس عما تتازع اليه فيما لا يجوز أن يتخطأ اليه، ولذلك مدح الله الصابرين. والصبر على الحق مر إلا أنه يؤدي إلى الثواب الذي هو أحلى من الشهد، فهؤلاء صبروا على الامتناع من المعاصي، وعلى فعل الطاعات. وقيل: صبروا على الاذى في جنب الله.

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٢٩٥ والطبري ٢٠ / ٥١ مع اختلاف قليل في الرواية (*)

(١٦٢)

ثم وصف الصابرين الذين ذكرهم فقال " ويدروُن بالحسنة السيئة " يعني يدفعون بالتوبة المعاصي، لان الله تعالى يسقط العقاب عندها. وقيل: معناه يدفعون بالكلام الجميل اللغو من كلام الكفار. وقيل: ان ذلك قبل الامر بقتالهم، ولا يمتنع أن يؤمروا، بالاعراض عن مكالمتهم مع الامر بقتالهم، ولا تنافي بينهما على حال.

ثم قال " ومما رزقناهم ينفقون " أي جعلنا لهم التصرف فيها، وملكانهم إياها ينفقون في طاعة الله، وفي سبيل الخير، وإذا سمعوا لغوا من الكلام، ورأوا لغوا من الفعل أعرضوا عنه، ولم يخاصموا فيه فقالوا لفاعل اللغو " لنا أعمالنا ولكم اعمالكم " أي لنا جزاء اعمالنا ولكم جزاء اعمالكم " سلام عليكم " أي ويقولون لهم قولا يسلمون منه. ويقولون " لا نبتغي الجاهلين " أي لا نطلبهم ولا نجازيهم على لغوهم. واللغو الفعل الذي لا فائدة فيه، وانما يفعله فاعله على توهم فاسد، واللغو واللغا بمعنى واحد. قال الشاعر:

عن اللغا ورفث التكلم (١)

ومن احسن الادب الاعراض عن لغو الكلام. وقيل: ان هذه الآيات نزلت في عبدالله بن سلام، وتميم الداري، والجارود العبدي، وسلمان الفارسي لما اسلموا نزلت فيهم هذه الآيات - على ما ذكره قتادة - وقال غيره: انها نزلت في أربعين رجلا من أهل الانجيل كانوا مسلمين بالنبي (صلى الله عليه وآله) قبل مبعثه:

اثنتان وثلاثون رجلا من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن ابي طالب وقت قدمه، وثمانية قدموا من الشام: منهم بحيرا، وابرهه، والاشرف، وعامر، وايمن وإدريس، ونافع، قال قتادة: آتاهم الله أجرهم مرتين، لايمانهم بالكتاب

(١) مر تخريجه في ٢ / ١٣٢، ١٦٤، ٢٣٠ من هذا الكتاب (*)

(١٦٣)

الاول وإيمانهم بالكتاب الثاني.

قوله تعالى:

* (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين (٥٦) وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون (٥٧) وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين (٥٨) وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون (٥٩) وما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون) * (٦٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل المدينة ورويس " يجبي " بالياء. الباقرن بالتاء. وقرأ أبو عمرو وإلا السوسي " يعقلون " بالياء.

يقول الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) " إنك " يا محمد " لا تهدي من أحببت " هدايته. وقيل: معناه من أحببته لقرابته. والمراد بالهداية - ههنا - اللطف

(١٦٤)

الذي يحتاج إليه ليختار عنده الايمان، وذلك لا يقدر عليه غير الله لانه إما أن يكون من فعله خاصة أو باعلامه، لانه لا يعلم، ما يصلح العبد في دينه إلا الله تعالى، فاذا دبر الامور على ما فيه صلاحه كان لاطفا له، وهذا التدبير لا يتأتى من أحد سوى الله تعالى، فلذلك نفى الله ذلك عن نبيه، ويؤيد ما قلناه قوله " وهو أعلم بالمهتدين " ومعناه هو أعلم بمن يهدي باللطف ممن لا يهدي، فهو تعالى يدبر الامور على ما يعلم من صلاح العباد، على التفصيل من غير تعليم.

وهذه الآية نزلت لان النبي (صلى الله عليه وآله) كان يحرص على إيمان قومه ويؤثر أن يؤمنوا كلهم، ويجب أن ينفقوا له ويقروا بنبوته، وخاصة أقاربه. فقال الله تعالى له: إنك لا تقدر على ذلك، وليس في مقدورك ما تلتف بهم في الايمان ذلك بل في مقدور الله يفعل به من يشاء إذا علم أنهم يهتدون عند شئ فعله بهم فلا ينفع حرصك على ذلك. وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغيرهم أنها نزلت في أبي طالب. وعن ابي عبدالله وابي جعفر إن أبا طالب كان مسلما وعليه اجماع الامامية، لا يختلفون فيه، ولهم على ذلك أدلة قاطعة موجبة للعلم ليس هذا موضع ذكرها.

ثم قال تعالى حاكيا عن الكفار انهم قالوا: إن نتبع محمدا وما يدعونا اليه ونقول انه هدى وموصل إلى الحق " نتخطف من ارضنا " وقيل: انها نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف، فانه قال للنبي (صلى الله عليه وآله) انا لنعلم أن قولك حق ولكن يمنعنا أن نتبع الذي معك، ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا يعني مكة، ولا طاقة لنا بالعرب فقال الله تعالى * (أو لم نمكن لهم حرما آمنا) * فالتخطف اخذ الشيء على الاستلاب من كل وجه: تخطف تخطفًا واختطف اختطافًا وخطفه ويخطفه خطفا قال امرؤ القيس:

(١٦٥)

نخطف خزان الشربة بالضحي * وقد حجرت منها ثعالب أورال (١)
فقال الله تعالى لهم " أو لم نمكن لهم حرما آمنا " وقيل في وجه جعله الحرم آمنا وجهان:
احدهما - بما طبع النفوس عليه من السكون إليه بترك النفور مما ينفر عنه في غيره كالغزال مع الكلب، والحمام مع الناس وغيرهم.
والوجه الآخر - بما حكم به على العباد وأمرهم أن يؤمنوا من يدخله ويلوذ به، ولا يتعرض له، وفائدة الآية إنا جعلنا الحرم آمنا لحرمة البيت مع أنهم كفار يعبدون الاصنام حتى آمنوا على نفوسهم وأموالهم، فلو آمنوا لكان أحرى بأن يؤمنهم الله، وأولى بأن يمكنهم من مراداتهم. وقوله " يجبى اليه ثمرات كل شئ " أي يجلب إلى هذا الذي جعلناه حرما ثمرات كل شئ. فمن قرأ بالتاء فلتأنيث الثمرات. ومن قرأ بالياء، فلان التأنيث غير حقيقي.
وقوله " رزقا من لدنا " نصب على المصدر، وتقديره رزقا رزقناه من عندنا " ولكن أكثرهم لا يعلمون " ما أنعمنا به عليهم. ثم قال " وكم أهلكنا من قرية " أي من أهل قرية استحقوا العقاب " بطرت معيشتها " قال الفراء:
معناه أبطرتها معيشتها، كقولهم ابطرك مالك، فذكرت المعيشة، لان الفعل كان لها في الاصل فحول إلى ما أضيفت اليه فنصبت كما قال " فان طبن لكم عن شئ منه نفسا " (٢) فالبطر والاشر واحد، وهو شق العصا بتضييع حق نعم

(١) شرح ديوانه ١٦٦ (حسن السندوبي)

(٢) سورة ٤ النساء آية ٣ *

(١٦٦)

الله، والطغيان فيها بجحدها، والكفر بها.
ثم اخبر تعالى فقال " فتلك مساكنهم " يعني مساكن الذين أهلكهم الله " لم تسكن من بعدهم إلا قليلا " من الزمان. ثم هلكوا وورث الله تعالى مساكنهم لانه لم يبق منهم احد. ثم خاطب نبيه

(صلى الله عليه وآله) فقال " وما كان ربك " يا محمد " مهلك القرى، حتى يبعث في أمها رسولا " وقيل في معنى " أمها " قولان:

أحدهما - في أم القرى، وهي مكة.

والآخر في معظم القرى في سائر الدنيا " يتلو عليهم آياتنا " اي يقرأ عليهم حجج الله وبياناته " وما كنا مهلكي القرى إلا واهلها ظالمون " لنفوسهم بارتكاب المعاصي، وكفران نعمه.

ثم خاطب خلقه فقال " وما أوتيتم من شئ " اي ما اعطيتم من شئ " فمتاع الحياة الدنيا " اي هو شئ تنتفعون به في الحياة الدنيا، وتترزنون فيها * (وما عند الله) * من الثواب ونعيم الجنة * (خير وأبقى) * من هذه النعم، لانها باقية، وهذه فانية * (افلا تعقلون) * ذلك وتتكفرون فيه.

وقوله * (ثمرات كل شئ) * قيل: ان (كل) ههنا البعض، لانا نعلم انه ليس يجبى إلى مكة كثير من الثمرات. وقال قوم: ظاهر ذلك يقتضى انه يجبى إليه جميع الثمرات إما رطبا او يابسا، ولا مانع يمنع منه.

ومن قرأ * (تعقلون) * بالتاء فلقوله * (وما أوتيتم) * ومن قرأ بالياء فتقديره * (أفلا يعقلون) * يا محمد.

قوله تعالى:

* (أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقية كمن متعناه متاع

(١٦٧)

الحياة الدنيا ثم هو يوم القيمة من المحضرين (٦١) ويوم يناديهم فيقول أين شركاءي الذين كنتم تزعمون (٦٢) قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون (٦٣) وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون (٦٤) ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين * (٦٥) خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى منبها لخلقه على عظيم ما انعم به عليهم ورغبهم فيه من ثواب الجنة " أفمن وعدناه وعدا حسنا " يعني من ثواب الجنة جزاء على طاعته يكون بمنزلة من متعناه متاع الحيا الدنيا؟! وقال السدي المعني بقوله " أفمن وعدناه " حمزة بن عبدالمطلب، وعلي بن ابي طالب (عليه السلام) وعدهما الله الجنة.

وقيل: النصر في الدنيا والجنة في الآخرة - ذكره الضحاك ومجاهد - " كمن متعناه متاع الحياة الدنيا " يعني به أبا جهل " ثم هو يوم القيامة من المحضرين " في النار. وقيل للجزاء. وقيل: نزلت في النبي (صلى الله عليه وآله) وابي جهل والمتعة هي المنفعة. وقد فرق بينهما بأن

المتعة منفعة توجب الالتئاذ في الحال، والنفع قد يكون بألم يؤدي إلى لذة في العاقبة، فكل متعة منفعة، وليس كل منفعة متعة. والمتاع على وجهين:
احدهما - كالادوات التي يتمتع بها من نحو الفرس، والاثاث والثياب وغيرها

(١٦٨)

والثاني - يكون بمعنى المتعة. والمراد - ههنا - متعة الحياة الدنيا.
وقوله - " ثم هو يوم القيامة من المحضرين " يعني من المحضرين للجزاء بالعقاب، لانه تعالى ذكر من وعد وعدا حسنا، فدل ذلك على أهل الثواب ثم ذكر انه لا يستوي أهل الثواب وغيرهم، فدل على اهل العقاب، لبعد حال كل فريق من الفريقين عن الآخر. والاحضار ايجاد ما به يكون الشيء بحيث يشاهد، فلما كان هؤلاء القوم يوجدون يوم القيامة ما به يكرهون بحيث يشاهدهم الخلائق، كانوا محضرين. ثم قال " ويوم يناديهم " وتقديره: واذكر يوم ينادي الله الكفار، وهو يوم القيامة " فيقول " لهم على وجه التوبيخ لهم والتقريع " اين الذين " اتخذتموهم شركائي فعبدتموهم معي على قولكم وزعمكم والزعم القول في الامر عن ظن أو علم، ولذلك دخل في باب العلم، واخواته قال الشاعر:

فان تزعميني كنت أجهل فيكم * فاني شريت الحلم بعدك بالجهل (١)

ثم حكى ان " الذين حق عليهم القول " بالعقاب: من الشياطين والانس والذين أغوا الخلق من الانس يقولون في ذلك اليوم " ربنا هؤلاء " يعني من ضل بهم من الناس واتخذوا شركاء من دون الله هم " الذين اغوينا اغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون " اي تبرأ بعضهم من بعض، وصاروا أعداء. ويقولون لم يكن الانس يعبدوننا. ثم حكى الله فقال " وقيل " لهم " ادعوا شركاءكم " الذين عبثتموهم من دون الله. ثم حكى انهم يدعونهم " فلا يستجيبون لهم ويرون العذاب لو انهم كانوا يهتدون " وقيل في معناه قولان:

(١) الكتاب لسبويه ٦١ / ١ (*)

(١٦٩)

احدهما - لو أنهم كانوا يهتدون ما رأوا العذاب.
والثاني - لو كانوا يهتدون لرأوا العذاب.
ثم قال " ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين " فيما دعوكم اليه من توحيد الله وعدله واخلاص العبادة له.
قوله تعالى:

* (فعميت عليهم الانبياء يومئذ فهم لا يتساءلون (٦٦)

فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين (٦٧) وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون (٦٨) وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون (٦٩) وهو الله لا آله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون) * (٧٠) خمس آيات بلا خلاف.

لما حكى الله تعالى أنه ينادي الكفار يوم القيامة ويقررهم عما أجابوا به المرسلين، أخبر أنهم تعمى عليهم الحجج، فهم لا يسأل بعضهم بعضا. والعمى آفة تنافي صحة البصر " وعميت عليهم الانبياء " فيه تشبيه بالعمى عن الابصار لانسداد طريق الاخبار عليهم، كما تنسد طرق الارض على الاعمى، ومعنى " فهم لا يتساءلون " أي هم لانسداد طرق الاخبار عليهم لم يجيبوا عما سئلوا

(١٧٠)

عنه، ولا يسأل بعضهم بعضا عنه، لانقطاعهم عن الحجة، ولا ينافي قوله " فهم لا يتساءلون " قوله في موضع آخر " وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون " (١) لان يوم القيامة مواطن يختلف فيها حالهم، فمرة تطبق عليهم الحيرة، فلا يتساءلون، ومرة يفيقون فيتساءلون. وقال الحسن: لا يسأل بعضهم بعضا أن يحمل عنه شيئا كما كانوا في الدنيا.

ثم اخبر تعالى " ان من تاب " من المعاصي ورجع عنها إلى الطاعات، وازداد إلى ذلك الاعمال الصالحات " فعسى أن يكون من المفلحين " وانما أدخل (عسى) في اللفظ مع انه مقطوع بفلاحه، لانه على رجاء أن يدوم على ذلك، فيفلح، وقد يجوز أن يزول فيما بعد، فيهلك، فلهذا قال " فعسى " على انه قيل: إن عسى من الله في جميع القرآن واجبة. ثم اخبر تعالى فقال " وربك " يا محمد " يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة " قيل في معناه قولان:

احدهما - يختار الذي كان لهم فيه الخيرة، فدل بذلك على شرف اختياره لهم.
الثاني - أن تكون (ما) نفيا أي لم يكن لهم الخيرة على الله بل الله الخيرة عليهم، لانه مالك حكيم في تدبيرهم، فيكون على هذا الوجه الوقف على قوله " ويختار " وهو الذي اختاره الزجاج. وقال الحسن: معناه " ما كان لهم الخيرة " اي أن يختاروا الانبياء، فيبعثوهم. وقال مجاهد " لا يتساءلون " بالانساب والقرباب. وقيل " لا يتساءلون " بما فيه حجج لهم، وقوله " سبحانه وتعالى عما يشركون " معناه ما عظم الله حق عظمته من اشرك في عبادته، لان من تعظيمه اخلاص الالهية له، وانه الواحد فيما تفرد به على

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ٢٧ وسورة ٥٢ الطور آية ٢٥ (*)

(١٧١)

استحقاق العبادة، وانه لا يجوز أن يستغنى عنه بغيره، فمن اشرك في عباته فما عظمه حق تعظيمه، فهذا قد قبح فيما أتى وضيع حق نعمه.

ثم قال تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) " وربك يا محمد يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون " أي عالم بما يخفونه وما يظهرونه. يقال: اكننت الشيء في صدري أي أخفيته و (كننته) بغير ألف صنته. وقيل: كننت الشيء وكننته لغتان.

ثم اخبر تعالى انه إله الذي لا إله سواه، ولا يستحق العبادة غيره في جميع السموات والارض، وانه يستحق الثناء والحمد والمدح والتعظيم، على ما انعم به على خلقه في الدنيا والاخرة " وله الحكم " بينهم بالفصل بين المختلفين بما يميز به الحق من الباطل. وان جميع الخلق يرجعون اليه يوم القيامة الذي لا يملك احد الحكم غيره. وقيل قوله " وربك يخلق ما يشاء ويختار " ذلك في الوليد بن المغيرة حين قال " لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " (١) فبين الله تعالى أن له أن يختار ما يشاء لنبوته ورسالته بحسب ما يعلم من يصلح لها.

قوله تعالى:

* (قل أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيمة من آله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون (٧١) قل أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيمة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون (٧٢)

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٣١ (*)

(١٧٢)

رحمته ومن جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (٧٣) ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون (٧٤) ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون) * (٧٥) خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) " قل " يا محمد لهؤلاء الكفار الذين عبدوا معي آلهة تتبها لهم على خطئهم * (أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا) * أي دائما * (إلى يوم القيامة) * بلا نهار ولا ضياء * (من إله غير الله يأتيكم بضياء) * كضياء النهار تبصرون فيه، فانهم لا يقدرون على الجواب عن ذلك إلا بأنه لا يقدر على ذلك سوى الله تعالى، فحينئذ

يلزمهم الحجة بأنه لا يستحق العبادة غير الله وهذا تنبيه منه لنبيه (صلى الله عليه وآله) ولخلقه على وجه الاستدلال على توحيده ويبطل ذلك قول من قال: المعارف ضرورية. لانه لو كان تعالى معلوما ضرورة لما احتاج الامر إلى ذلك، لان كونه معلوما ضرورة يغني عن الاستدلال عليه، وما لا يعلم ضرورة من أمر الدين، فلا يصح معرفته إلا ببرهان يدل عليه. وقوله * (افلا تسمعون) * معناه أفلا تقبلونه وتتفكرون فيه؟ وفي ذلك تبكيت لهم على ترك الفكر فيه، لانهم إذا لم يفكروا فيما يسمعون من حجج الله فكأنهم ما سمعوه. وقيل في قوله * (أفلا تسمعون) * قولان:

احدهما - افلا تسمعون هذه الحجة فتدبرونها وتعملون بموجبها إذ كانت بمنزلة الناطقة بأن ما انتم عليه خطأ وضلال يؤدي إلى الهلاك.

(١٧٣)

والثاني - ان معناه أفلا تقبلون. ثم نبههم أيضا فقال * (أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا) * أي دائما * (إلى يوم القيامة) * بلا ليل تسكنون فيه، فانهم لا يقدرّون على الجواب عن ذلك إلا بما يدل على فساد معتقدهم، وهو انه لا يقدر على ذلك غير الله، فحينئذ تلزمهم الحجة بأنه لا يستحق العبادة سواه.

وقوله * (افلا تبصرون) * معناه أفلا تتفكرون فيما ترونه، لان من لا يتدبر بما يراه من الحجج والبراهين فكانه لم يرها. وقيل معناه ألا تعلمون ثم قال * (ومن رحمته) * أي من نعمه عليكم أن * (جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا) * في الليل * (ولتبتغوا من فضله) * بالنهار بالسعي فيه، ولكي تشكروا هذه النعم التي أنعم بها عليكم، والهاء في قوله * (لتسكنوا فيه) * يحتمل وجهين احدهما - ان يعود إلى الليل خاصة، ويضمّر مع الابتغاء هاء أخرى، الثاني - ان يعود الضمير اليهما إلا انه وحد، لانه يجري مجرى المصدر في قولهم: اقبالك وادبارك يؤذيني، والاول أصح، لان الليل للسكون فيه، والنهار للتصرف والحركة، ولكنه يحتمل ليكونوا في هذا على التصرف وفي ذاك على الهدوء وقطع التصرف، وانما كان الفساد في ادامة النهار في دار التكليف، ولم يكن في دار النعيم، لان دار التكليف لابد فيها من التعب والنصب الذي يحتاج معه إلى الاستجمام والراحة، وليس كذلك دار النعيم، لانه انما يتصرف فيها بالملاذ. وقوله " اين شركائي الذين كنتم تزعمون " قد مضى تفسيره، وانما كرر النداء ب " أين شركائي الذين كنتم تزعمون " لان النداء الاول للتقرير بالاقرار على اليقين بالغي الذي كانوا عليه ودعوا اليه.

والثاني - للتعجيز عن اقامة البرهان لما طولبوا به بحضرة الأشهاد مع

(١٧٤)

تقرير حاصل به بالاشراك بعد تقرير.
ثم اخبر تعالى انه نزع " من كل أمة " من الامم " شهيدا " يشهد على تلك الامة بما كان فيها،
ومعنى * (نزعنا) * أخرجنا وأحضرنا يقال:
فلان ينزع إلى وطنه بأن يحن إليه حيننا يطالبه بالخروج إليه. قال قتادة ومجاهد:
شهيدا نبينا الذي يشهد عليها بما فعلوه، وقيل هؤلاء الشهود: هم عدول الآخرة الذين لا يخلو
زمان منهم يشهدون على الناس بما عملوا من عصيانهم.
وقوله * (هاتوا برهانكم) * حكاية عما يقول الله تعالى للكفار في الآخرة فانه يقول لهم هاتوا
حجتكم على ما ذهبتم إليه * (إن كنتم صادقين) * ثم اخبر تعالى انهم عند ذلك يعلمون * (أن
الحق لله) * أي ان التوحيد لله والاخلاص في العبادة له دون غيره لان معارفهم. ضرورة *
(وضل عنهم ما كانوا يفترون) * أي بطل ما عبده من دون الله، واقتراءهم هو ادعاءهم
الالهية مع الله تعالى قوله تعالى:

* (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتتوء بالعصبة
أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين (٧٦) وابتغ فيما آتاك الله الدار
الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الارض إن
الله لا يحب المفسدين (٧٧) قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله

(١٧٥)

قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون
(٧٨) فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي
قارون إنه لذو حظ عظيم (٧٩) وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل
صالحا ولا يلقها إلا الصابرون) * (٨٠) خمس آيات بلا خلاف.

هذا اخبار من الله تعالى * (أن قارون كان من قوم موسى) * قال ابن اسحاق: كان موسى
ابن أخيه، وقارون عمه. وقال ابن جريج: كان ابن عمه لابيه وأمه * (فبغى عليهم) * قال
قتادة: إنما بغى عليهم بكثرة ماله. والبغى طلب العلو بغير حق. ومنه قيل لولاة الجور: بغاة،
يقال: بغى يبغى بغيا، فهو باغ وابتغى كذا ابتغاء إذا طلبه، ويبتغي فعل الحسن أي يطلب فعله
بدعائه إلى نفسه. و (قارون) اسم أعجمي لا ينصرف. وروي أنه كان عالما بالتوراة فبغى
على موسى وقصد إلى تكذيبه، والافساد عليه. وقوله * (وآتيناه من الكنوز) * أي اعطيناه
كنوز الاموال والكنز جمع المال بعضه على بعض، وبالعرف عبارة عما يخبأ تحت الارض،
ولا يطلق اسم الكنوز في الشرع الا على مال لا يخرج زكاته، لقوله تعالى * (والذين يكنزون

الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشرهم بعذاب اليم) * (١) فوجه الوعيد عليه منه
تعالى

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣٥ (*)

(١٧٦)

على فعلهم يدلك على صحة ما قلناه.

وقوله * (ما ان مفاتحه) * المفتاح عبارة عما يفتح به الاغلاق، وجمعه مفاتيح ومفاتيح جمع
مفتاح، ومعناها واحد، وقال قوم: كانت مفاتيحه من جلود وقال آخرون: مفاتحه خزائنه. قال
الزجاج: وهو الاشبه.

وقوله * (لنتوء بالعصبة) * أي ليثقل في حمله، يقال: ناء بحمله ينوء نوءا إذا نهض به مع
ثقله عليه، ومنه أخذت الانواء، لأنها تنهض من المشرق على ثقل نهوضها. وقال ابوزيد:
ناعني الحمل إذا انقلني. والعصبة الجماعة الملتفة بعضها ببعض. وقال قتادة: العصبة ما بين
العشرة إلى الاربعين. وقال ابن عباس: قد يكون العصبة ثلاث. وانما قال لنتوء بالعصبة
والمعنى العصبة تتوء بها، لان المعنى تميل بها مثقلة. وقيل: هو يجري مجرى التقديم
والتأخير كما قال الشاعر:

ونركب خيلا لا هوادة بينها * وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر (١)
وانما تشقى الضياطرة بالرماح، وقال آخر:

فديت بنفسه نفسي ومالي * وما ألوه إلا ما يطيق (٢)

والمعنى بنفسه ومالي نفسه، وقال الفراء: كان الاصل ان يقول لنتوء العصبة أي يثقلهم، بحذف
الياء ومثله قوله، وهو مقلوب:

إن سراجا لكريم مفخرة * تحلى به العين إذا ما تجهره (٣)

فالوجه ان الرجل يعجب العين وكان ينبغي ان يقول يحلى بالعين، كقوله:

(١) قاتله خدش بن زهير امالي الشريف المرتضى ١ / ٤٦٦ واللسان (ضطر)

(٢) قاتله عباس بن مرداس أمالي الشريف المرتضى ١ / ٢١٧ (٣) مر تخريجه في ٢ / ٧٩، ١٩٦ (*)

(١٧٧)

حليت بعينك ربطة مطويه قال الرماني - التأويل الاول هو الصحيح، لانه ليس من باب
التقديم والتأخير لما في ذلك من قلب المعنى وليس كالذي تبنيه الاعراب. وقوله * (إذ قال له

قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين) * حكاية عما قال قوم قارون لقارون حين خوفوه بالله ونهوه عن الفرح بما آتاه الله من المال، وأمروه بالشكر عليه. والفرح المرح الذي يخرج إلى الانس، وهو البطر. ولذلك قال تعالى * (ان الله لا يحب الفرحين) * لانه إذا اطلقت صفة فرح فهو الخارج بالمرح إلى البطر، فأما قوله " فرحين بما آتاهم الله من فضله " (١) فحسن جميل بهذا التقييد، وقال مجاهد: الفرحين هو فرح البطر. وقال الشاعر:

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى * ولا جازع من صرفه المتقلب (٢)

وقال آخر:

ولا ينسيني الحدثن عرضي * ولا أرخي من الفرح الازارا (٣)

وقوله " وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة " حكاية عما قال لقارون قومهم المؤمنون بموسى وبتوحيد الله. وقال قوم: إن المخاطب له كان موسى وإن ذكر بلفظ الجمع ومعناه اطلب فيما أعطاك الله من الاموال " الدار الآخرة " بأن ينفقها في وجوه البر وسبيل الخير " ولا تنس نصيبك من الدنيا " قال ابن عباس: منعاه أن يعمل فيها بطاعة الله، وقال الحسن معناه: أن يطلب الحلال

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٧٠ (٢) تفسير القرطبي ١٣ / ٣١٣ ويروى (المتحول) بدل (المتقلب) ومجاز القرآن ١٧٨ / ٢ (٣) قائله ابن احمر، مجاز القرآن ٢ / ١١١ (*)

(١٧٨)

" وأحسن " اي افعل الجميل إلى الخلق. وتفضل عليهم، كما تفضل الله عليك " ولا تبغ الفساد في الارض " أي لا تطلب الفساد بمنع ما يجب عليك من الحقوق، وانفاق الاموال في المعاصي " ان الله لا يحب المفسدين " أي لا يريد منافع من يفسد في الارض، ولا يريد أن يفعل بهم ثواب الجنة.

وقوله " قال إنما أوتيته على علم عندي " حكاية عما قال قارون في جواب قومهم، فانه قال لهم: أوتيت هذه الاموال على علم بأني مستحق لذلك، لعلمي بالتوراة، وقال قوم: لاني أعمل الكيمياء، وقال قوم لعلمي بوجوه المكاسب، وبمالا يتهيأ لاحد أن يسلبني إياه، فقال الله تعالى موبخا على هذا القول " او لم يعلم " قارون " ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو اشد منه قوة واكثر جمعا " كقوم عاد، وثمود، وقوم لوط وغيرهم، فما اغنى عنهم جمعهم ولا قوتهم حين أراد الله إهلاكهم، فكيف ينفع قارون ماله وجمعه.

وقوله " ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون " قال الفراء تقديره: لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم، فالهاء والميم للمجرمين، كما قال تعالى " فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان " (١) وقال الحسن لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون لنعلم ذلك من قبلهم، وإن سئلوا سؤال تقريع وتوبيخ. ثم حكى تعالى أن قارون " خرج على قومه في زينته " التي كان يتزين بها. وقيل: إنه كان خرج مع قومه عليهم في الديباج الاحمر على الخيل، فلما رآه الذين يريدون الحياة الدنيا من الكفار والمنافقين والضعيفي الايمان بما للمؤمنين عند الله من ثواب الجنة قالوا " يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون " تمنوا

(١) سورة ٥٥ الرحمن آية ٣٩ (*)

(١٧٩)

مثل منزلته، ومثل ماله وإنهم قالوا ان قارون " لذو حظ " من الدنيا ونعيمها " عظيم ". ثم حكى ما قال المؤمنون بثواب الله المصدقون بوعدده في جوابهم " ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا " مما أوتي قارون، وحذف لدلالة الكلام عليه. وقوله " ولا يلقاها إلا الصابرون " أي ما يلقى مثل هذه الكلمة إلا الصابرون على أمر الله. وقيل: وما يلقى نعمة الله من الثواب إلا الصابرون.

فان قيل: أليس عندكم أن الله لا يؤتي الحرام أحدا؟ وقد قال - ههنا - " وابتغ فيما آتاك الله " فأخبر انه آتاه.

قيل: لا يعلم أن ذلك المال كان حراما، ويجوز أن يكون حلالا ورثه أو كسبه بالمكاسب والمتاجر، ثم لم يخرج حق الله منه وطغى فسخط الله عليه وعاقبه لطغيانه وعصيانه لا على كسب المال.

قوله تعالى:

* (فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين (٨١) وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون (٨٢) تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين (٨٣)

(١٨٠)

من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون (٨٤) إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين (٨٥) وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن

ظهيرا للكافرين (٨٦) ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين (٨٧) ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) * (٨٨) ثمان آيات بلا خلاف.

روي عن الكسائي الوقف على "وي" من قوله تعالى "وي كان الله" ومن قوله "وي كأنه" وروي عن ابن عمر الوقف على الكاف منهما قال ابوطاهر: الاختيار اتباع المصحف، وهما فيه كلمة واحدة، وقرأ حفص ويعقوب "لخسف بنا" بفتح الخاء والسين. الباقيون بضم الخاء وكسر السين على ما لم يسم فاعله.

حكى الله تعالى أن خسف بقارون وباراه الارض، فمر يهوي فيها حتى زهقت نفسه على اسوء حالها، والخسف ذهاب في الارض في جهة السفلى.

ثم اخبر تعالى انه لم يكن لقارون * (فئة) * أي جماعة منقطعة اليه. والفئة

(١٨١)

مشتق من فأوت رأسه بالسيف إذا قطعته، وتصغيرها فئية * (ينصرونه من دون الله) * أي يمنعونه من عذاب الله الذي نزل به، وانما ذكر امتناع النصره من الله مع أنه معلوم أنه كذلك، لان المراد أنه لم يكن الامر على ما قدره من امتناعه بحاشيته وجنده، لان الذي غره قوته وتمكنه حتى تمرد في طغيانه. ثم اخبر انه كما لم يكن له من ينصره لم يكن هو ايضا ممن ينتصر بنفسه لضعفه عن ذلك وقصوره عنه. ثم حكى أن * (الذين تمنوا مكانه بالامس) * حين خرج عليهم على زينته لما رأوه خسف الله به، أصبحوا يقولون * (ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) * أي يوسع رزقه على من يشاء ويضيق على من يشاء، اعترفوا بذلك. ومعنى * (وي) * التثنيه على أمر من الامور، وهي حرف مفصول من (كأن) - في قول الخليل وسيبويه - واختاره الكسائي. وذلك انهم لما رأوا الخسف تنبهوا فتكلموا على قدر علمهم عند التثنيه لهم، كما يقول القائل إذا تبين له الخطأ: وي كنت على خطأ، وقال زيد بن عمرو بن نفيل:

سألتاني، الطلاق إذ رأتاني * قل مالي قد جئتماني بنكر وي كأن من يكن له نشب يح * بب ومن بفتقر يعيش عيش ضر (١)

وقيل (وي كأنه) بمنزلة (ألا كأنه، وأما كأنه) وقيل هي: ويك إن الله، كأنه قال ينبئك بهذا إلا انه حذف، قال عنتره:

ولقد شفى نفسي وأذهب سقمها * قيل الفوارس ويك عنتر أقدم (٢)

وقال قوم: هي بمنزلة (ويلك) إلا انه حذف اللام تخفيفا، ونصب انه بتقدير اعلم انه لا يفلح، وهذا ضعيف، لان العلم لا يضمم ويعمل. وقال

(١٨٢)

الفراء: سألت امرأة زوجها عن أبيه فقال ويك إنه وراء الحائط، ومعناه ألا ترينه وراء الحائط. وقيل المعنى إن * (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) * لا لكرامة عليه، كما بسط لقارون * (ويقدر) * أي يضيق لا لهوانة عليه، كما ضيق على أنبيائه. ثم قالوا * (لولا أن من الله علينا) * وعفى عنا لخسف بنا، كما خسف بقارون * (ويك أنه لا يفلح الكافرون) * أي لا يفوز بثوابه وينجو من عقابه من يجحد نعم الله ويعبد معه سواه. وقيل: إن قارون جعل لبغي جعلاً على أن ترمي موسى بالفاحشة، فلما حضرت في الملا كذبت قارون واخبرت بالحق فخر موسى ساجداً يبكي، فأوحى الله إليه ما يبكيك قد سلطتك على الأرض فمرها بما شئت، فقال موسى يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم. ثم قال يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى حقروهم ثم قال يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى اعناقهم وهم في كل ذلك ينادون يا موسى يا موسى ارحمنا - ذكره ابن عباس - وروي أن الله تعالى قال: لو قالوا مرة واحدة يا الله ارحمنا لرحمتهم. ثم قال تعالى * (تلك الدار الآخرة) * يعني الجنة * (نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض) * وإنما قبح طلب العلو في الأرض، لأنه ركون إليها، وترك لطلب العلو في الآخرة، ومعاملة لها بخلاف ما أراد الله بها من أن تكون دار ارتحال لا دار، مقام فيها * (ولا فساد) * أي ولا يريدون فساداً في الأرض بفعل المعاصي * (والعاقبة للمتقين) * اخبار منه تعالى بأن العاقبة الجميلة من الثواب للذين يتقون معاصي الله ويفعلون طاعاته. وقيل: علواً في الأرض معناه تكبراً عن الحق. ثم اخبر تعالى ان من جاء بطاعة من الطاعات وحسنة من الحسنات

(١٨٣)

* (قله خير منها) * ثواباً عليها وجزاء عليها، لأن له بالواحدة عشرة * (ومن جاء بالسيئة) * يعني بالمعصية * (فلا يجزى الذين عملوا السيئات) * يعني الذين عملوا المعاصي إلا على قدر استحقاقهم على ما فعلوه من غير زيادة. كما قال * (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) * (١).

وقوله * (إن الذي فرض عليك القرآن) * خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) يقول الله له إن الذي أوجب عليك الامتثال بما يضمنه القرآن وأنزله عليك * (لرادك إلى معاد) * قال الحسن: معناه إلى المرجع يوم القيامة. وقال مجاهد: إلى الجنة. وقال ابن عباس: إلى مكة.

والاظهر من الاقوال: لرادك إلى معاد في النشأة الثانية إلى الجنة. واكثر أقوال المفسرين انه أراد إلى مكة قاهرا لاهلها.

ثم قال له * (قل) * يا محمد * (ربي أعلم من جاء بالهدى) * الذي يستحق به الثواب ممن لم يجئ به، وضل عنه، لا يخفى عليه المؤمن من الكافر، ولا من هو على الهدى، ولا من هو ضال عنه.

ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) * (وما كنت) * يا محمد * (ترجو أن يلقي اليك الكتاب إلا رحمة من ربك. فلا تكونن ظهيرا للكافرين) * قال الفراء: تقديره إلا أن ربك رحمك. فانزله عليك، فهو استثناء منقطع. ومعناه وما كنت ترجو أن تعلم كتب الاولين وقصصهم تتلوها على أهل مكة، ولم تشهدها ولم تحضرها بدلالة قوله * (وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو) * (٢) أي انك تتلو على أهل مكة قصص مدين وموسى ولم تكن هناك ثاويا مقيما فتراه فتسمعه وكذلك

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٠ (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٤٥ (*)

(١٨٤)

قوله * (وما كنت بجانب الغربي) * (١) * (فما أنت تتلو قصصهم وأمرهم، فهذه رحمة من ربك. ومعنى * (فلا تكونن ظهيرا) * اي لا تكونن معيناً لهم * (ولا يصدنك) * يعني هؤلاء الكفار أي لا يمنعك " عن " اتباع * (آيات الله) * وحججه * (بعد إذا أنزلت اليك) * على ما بينها في القرآن * (وادع إلى ربك) * الذي خلقك وأنعم عليك * (ولا تكونن من المشركين) * الذين يتخذون مع الله معبودا سواه * (ولا تدع مع الله إلها آخر) * فتستدعي حوائجك من جهته * (لا إله إلا هو) * اخبار منه تعالى أنه لا معبود إلا الله وحده لا شريك له.

ثم اخبر أن كل من سوى الله هالك، فان * (كل شئ هالك إلا وجهه) * ومعناه إلا ذاته. وقيل: معناه كل شئ هالك إلا ما أريد به وجهه.

قال الشاعر:

استغفر الله ذنبا لست محصيه * رب العباد اليه الوجه والعمل (٢)

ثم قال * (له الحكم) * لانه ليس لاحد أن يحكم بشئ إلا بأمره الله تعالى.

ويجعل الحكم له عقليا كان او شرعيا و " اليه " إلى الله * (ترجعون) * يوم القيامة أي إلى الموضع الذي لا يملك أحد التصرف فيه سواه، لان الله تعالى قد ملك في الدنيا لكثير من البشر التصرف فيها.

(١) سورة ٦ القصص آية ٤٤ (٢) تفسير القرطبي ١٣ / ٣٢٨ (*)

(١٨٥)

٢٩ - سورة العنكبوت قال قوم: هي مكية، وقال قتادة: العشر الاول مدني، والباقي مكّي. وقال مجاهد: هي مكية. وهي تسع وستون آية بلا خلاف في جملتها، وفي تفصيلها خلاف بسم الله الرحمن الرحيم.

* (الم (١) أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (٢) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (٣) أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا سوء ما يحكمون (٤) من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم) * (٥).
خمس آيات كوفي وأربع فيما عداه عدوا " الم " آية. ولم يعده الباقيون.
قال قتادة: نزلت في أناس من أهل مكة خرجوا للهجرة فعرض لهم

(١٨٦)

المشركون، فرجعوا، فنزلت الآية فيهم، فلما سمعوا خرجوا، فقتل منهم من قتل وخلص من
خلص، فنزلت فيهم * (والذين جاهدوا فينا) * الآية (١) وقيل: نزلت في عمار، ومن كان
بقرب مكة - ذكره ابن عمر - وقيل:

نزلت في قوم أسلموا قبل فرض الجهاد والزكاة، فلما فرضا منعوا، فنزلت الآية فيهم.
قد بينا في غير موضع اختلاف الناس في ابتداء السور بحروف الهجاء وذكرنا أن أقوى
الاقوال قول من قال: إنها أسماء للسور. وقال قوم:
إنها أسماء للقرآن.

وقوله * (الم أحسب الناس أن يتركوا) * اختلف الناس في * (الم) * وقد ذكرناه فيما مضى
(٢). وقوله * (أحسب الناس أن يتركوا) * خطاب من الله لخلقه على وجه التوبيخ لهم بأن
قال أيظن الناس أن يتركهم الله إذا قالوا آمنا أي صدقنا ونقتصر منهم على هذا القدر،
والحسبان والظن واحد. وقوله * (أحسب) * معناه التوهم والتخيل. وقيل: الحسبان مشتق من
الحساب، لانه في حساب ما يعمل عليه. ومنه الحسيب، لانه في حساب ما يختبي، و " هم لا
يفتنون " أي أيظنون أنهم لا يختبرون إذا قالوا آمنا؟! . والمعنى انهم يعاملون معاملة المختبر
لتظهر الافعال التي يستحق عليها الجزاء. وقيل: في معنى " أن يقولوا آمنا " قولان: احدهما -
يتركوا لان يقولوا. الثاني - أحسبوا أن يقولوا على البذل وقال مجاهد: معنى " يفتنون " يبتلون
في أنفسهم واموالهم.

وقيل: معنى يفتنون يصابون بشدائد الدنيا أي ان ذلك لا يجب أن يرفع في الدنيا لقولهم آمنا.
وقال ابن عمر: أظنوا ان لا يؤمروا ولا ينهوا.

(١) آية ٦٩ من هذه السورة (٢) انظر ١ / ٤٧ - ٥١ (*)

(١٨٧)

وقال الربيع: ألا يؤذوا ولا يقتلوا؟! ثم اقسم تعالى انه فتن الذين من قبلهم " فليعلمن الله الذين صدقوا " في ايمانهم " وليعلمن الكاذبين " فيه. وانما قال " فليعلمن " مع أنه للاستقبال والله تعالى عليم فيما لم يزل، لحدوث المعلوم فلا تصح الصفة إلا على معنى المستقبل إذ لا يصلح ولا يصح لم يزل عالما بأنه حادث، لانعقاد معنى الصفة بالحادث، وهو إذا حدث علمه تعالى حادثا بنفسه. وقيل: معنى " وليعلمن الله الذين صدقوا " ليجازيهم بما يعلم منهم. وقيل: معناه يعلم الله الذين صدقوا في أفعالهم، كما قال الشاعر:

ليث بعثر يصطاد الرجال - إذا * ما الليث كذب عن أقرانه صدقا (١)
وقال ابن شجرة " فليعلمن الله " معناه فليظهرن الله لرسوله صدق الصادق.
وقال النقاش: معناه فليميزن الله الصادقين من الكاذبين. وهو قول الجبائي.
ثم قال تعالى ممددا لخلقه " أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا " اي أيطن الذين يفعلون القبائح والمعاصي ان يفوتونا؟! كما يفوت السابق لغيره.
ثم قال " ساء ما يحكمون " اي بئس الشئ الذي يحكمون بظنهم. انهم يفوتونا.
ثم قال " من كان يرجوا لقاء الله " أي من كان يأمل لقاء ثواب الله.
وقال سعيد بن جبير والسدي: معناه من كان يخاف عقاب الله، كما قال الشاعر:
إذا لسعته النحل لم يرج لسعها (٢)
أي لم يخف ف (من) رفع بالابتداء، وخبرها (كان) وجواب الجزاء كقولك زيد إن كان في الدار فقد صدق الوعد. وقوله " فان أجل الله

(١) قاتله زهير بن ابى سلمى ديوانه: ٤٣ (٢) قد مر تخريجه في ٢ / ٢١٠ و ٣ / ٣١٥ و ٧ / ٤٩١ (*)

(١٨٨)

لآت " أي الوقت الذي وقته الله للثواب والعقاب آت لا محالة والله " هو السميع " لاقوالكم " العليم " بما تضررونه في نفوسكم، فيجازيكم بحسب ذلك.
قوله تعالى:

* (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين (٦))

والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون (٧)
ووصينا الانسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي
مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون (٨) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين
(٩) ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء
نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله باعلم بما في صدور العالمين) * (١٠) خمس
آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى " ومن جاهد " أي من جاهد نفسه بأن يصبر على ما أمره الله به، ويعمل
بسنته، ومنه الجهاد، وهو الصبر في الحرب على ما جاء به الشرع " فانما يجاهد لنفسه " لان
ثواب صبره عائد عليه وواصل اليه دون الله تعالى، لانه تعالى غني عن جميع الخلائق غير
محتاج إلى طاعتهم، ولا غير ذلك.

ثم قال تعالى " والذين آمنوا " أي صدقوا بوحديته وقرأوا بنبوة

(١٨٩)

نبيه، واعترفوا بما جاء به من عند الله " لنكفرن عنهم سيئاتهم " التي اقترفوها قبل ذلك. ومن
قال بالاحباط قال: تبطل السيئة الحسنة التي هي أكبر منها حتى يصير بمنزلة ما لم يعمل، كما
قال " ان الحسنات يذهبن السيئات " (١)

والاحباط هو ابطال الحسنة بالسيئة التي هي اكبر منها. والسيئة الخصلة التي يسوء صاحبها
عاقبتها. والحسنة الخصلة التي يسر صاحبها عاقبتها. وكل حسنة طاعة لله، وكل سيئة هي
معصية له تعالى.

وقوله " لنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون " قال الجبائي: معناه أحسن ما كانوا يعملون:
طاعاتهم لله، لانه لا شئ في ما يعمله العباد أحسن من طاعاتهم لله. وقال قوم: معناه
ولنجزينهم بأحسن اعمالهم، وهو الذي أمرناهم به، دون المباح الذي لم نأمرهم به ولا نهيناهم
عنه.

وقوله " ووصينا الانسان بوالديه حسنا " معناه أمرناه أن يفعل حسنا وألزمناه ذلك. ثم خاطب
كل واحد من الناس، فقال " وإن جاهداك " يعني الوالدين أيها الانسان " لتشرك بي " في العبادة
" ما ليس لك به علم، فلا تطعهما " في ذلك. وقيل: نزلت في سعد بن ابي وقاص، لانه لما
هاجر حلفت أمه انها لا يظلمها سقف بيت حتى يعود. فنزلت الآية.

ثم قال مهديا للجميع " الي مرجعكم " أي إلي مآلكم " فانبئكم " أي اخبركم " بما كنتم تعملون " في
دار التكليف، ثم اجازيكم بحسبه. ثم قال تعالى " والذين آمنوا " بتوحيد الله واخلص العبادة

له وصدق انبيائه و اضافوا إلى ذلك الاعمال الصالحات " لندخلنهم في " جملة " الصالحين " الذين فعلوا الطاعات و يجازيهم الله ثواب الجنة.

(١) سورة ١١ هود آية ١١٥ (*)

(١٩٠)

ثم اخبر ان " من الناس من يقول " بلسانه " آمنا بالله فاذا أُوذِيَ في الله " أي إذا لحقه شدة في جنب الله " جعل فتنة الناس " أي عذاب الناس إياهم " كعذاب الله " أي خافوا عذاب الخلق، كما يخاف عذاب الله، فيرتدون.

" ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم " وهذا الذي ذكره صفة المنافقين الذين إذا جاهدوا الكفار وكانت الدائرة على المسلمين جعلوا ذلك مثل ما يعذبهم الله، ومتى ظفروا بأعدائهم قالوا للمؤمنين " انا كنا معكم " في الجهاد فلنا مثل ما لكم من الغنيمة، فقال تعالى " أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين " أي الله يعلم بواطن احوالهم وسرائر ما في نفوسهم، فيجازيهم على حسب ذلك.
قوله تعالى:

* (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين (١١) وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون (١٢)
وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليستلن يوم القيمة عما كانوا يفترون (١٣) ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون (١٤)
فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) * (١٥)
خمس آيات بلا خلاف.

(١٩١)

اقسم الله تعالى بأنه يعلم الذين يؤمنون بالله على الحقيقة ظاهرا وباطنا فيجازيهم على ذلك بثواب الجنة، وذلك ترغيب لهم " وليعلمن المنافقين " فيه تهديد للمنافقين مما هو معلوم من حالهم التي يستترون بها ويتوهمون انهم نجوا من ضررها، باخفائها، وهي ظاهرة عند من يملك الجراء عليها، وتلك الفضيحة العظمى بها.

ثم حكى تعالى أن الذين كفروا نعم الله و جحدوها يقولون للذين آمنوا بتوحيده وصدق انبيائه " اتبعوا سبيلنا ولنحمل " نحن " خطاياكم " أي نحمل ما تستحقون عليها من العقاب يوم القيامة

عنكم هزوا بهم واشعارا بأن هذا لا حقيقة له، فالمأمور بهذا الكلام هو المتكلم به أمر نفسه في
مخرج اللفظ ومعناه يضمن إلزام النفس هذا المعنى، كما يلزم بالامر، قال الشاعر:

فقلت ادعي وادع فان اندى * لصوت أن ينادي داعيان (١)

معناه ولادع. وفيه معنى الجزاء وتقديره ان تتبعوا ديننا حملنا خطاياكم.

ثم نفى تعالى أن يكونوا هم الحاملين لخطاياهم من شيء، وانهم يكذبون في هذا القول، لان الله
تعالى لا يؤاخذ أحدا بذنب غيره، فلا يصح إذا أن يتحمل احد ذنب غيره، كما قال تعالى " ولا
تزر وازرة وزر أخرى. وأن ليس للانسان إلا ما سعى " (٢) وليس ذلك بمنزلة تحمل الدية
عن غيره، ولان الفرض في الدية أداء المال عن نفس المقتول، فلا فضل بين ان يؤديه زيد
عن نفسه، وبين ان يؤديه عمرو عنه، لانه بمنزلة قضاء الدين.

(١) شرح الفية بن مالك ٢٦٧ وتفسير القرطبي ١٣ / ٣٣٤ (٢) سورة الانعام آية ١٦٤ وسورة الاسرى آية
١٥ وسورة فاطر آية ١٨ وسورة الزمر آية ٧ وسورة النجم آية ٣٩ (*)

(١٩٢)

وقوله " وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم " معناه انهم يحملون خطاياهم في أنفسهم التي لا
يعملونها بغيرهم، ويحلون الخطايا التي ظلموا بها غيرهم، فحسن لذلك فيه التفصيل الذي ذكره
الله.

وقوله " وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون " أى يعملون. ومعناه إنهم يسألون سؤال تعنيف
وتوبيخ وتبكيه وتقريع، لا سؤال استعلام كسؤال التعجيز في الجدل، كقولك للوثني ما الدليل
على جواز عبادة الاوثان، وكما قال تعالى " هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين " (١).

ثم اخبر تعالى انه أرسل نوحا إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، وانه مكث
فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فلم يجيبوه، وكفروا به " فأخذهم الطوفان " جزاء على كفرهم،
فأهلكهم الله تعالى " وهم ظالمون " لنفوسهم بما فعلوه من عصيان الله تعالى والاشراك به،
والطوفان الماء الكثير الغامر، لانه يطوف بكثرتة في نواحي الارض قال الراجز:

افناهم طوفان موت جارف (٢)

شبه الموت في كثرته بالطوفان. ثم اخبر تعالى انه أنجى نوحا والذين ركبوا معه السفينه من
المؤمنين به، وجعل السفينة آية أي علامة للخلائق يعتبرون بها إلى يوم القيامة، لانها فرقت
بين المؤمنين والكفار والعاصين والاخيار، فهي دلالة للخلق على صدق نوح وكفر قومه.
قوله تعالى:

* (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير

(١٩٣)

لكم إن كنتم تعلمون (١٦) إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون (١٧) وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين (١٨) أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير (١٩) قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير) * (٢٠) خمس آيات بلا خلاف. قرأ أهل الكوفة إلا عاصما " أو لم تروا " بالتاء. الباقون بالياء. وقرأ ابن كثير وابوعمر " النشأة " بفتح الشين ممدودة - هنا - وفي النجم، والواقعة. الباقون - بسكون الشين مقصورا - ومن قرأ بالتاء، فعلى الخطاب تقديره: قل لهم يا محمد " أو لم تروا " حين انكروا البعث والنشور " أو لم تروا كيف يبدئ الله الخلق " أي إذا انكرتم الاعادة كان الابتداء أولى بالنكرة. وحيث أقرروا بان الله خالقهم ابتداء فيلزمهم أن يقرروا بالاعادة ثانيا. ومن قرأ بالياء، فعلى الاخبار عنهم " ويبدئ " فيه لغتان اتى بهما القرآن بدأ الله الخلق، وأبدأهم، قال الله تعالى " وهو الذي يبدئ الخلق ثم يعيده " فمصدر أبدأ يبدؤ إبداء، فهو مبدئ. ومن قرأ (بدأ) يبدؤ

(١٩٤)

بدء، فهو بادئ، وذلك مبدوء، ويقال: رجع عوده على بدئه بالهمز، وبدا يبدؤ، بغير همز: ظهر. وقال ابو عمرو (غلام تغلب): يجوز رجع عوده على بده - بغيره همز - بمعنى الظهور كقولهم: ما عدا مما بدا. والنشأة والنشأة بالمد والقصر، لغتان. كقولهم: رافة ورأفة، وكأبة وكأبة وهما مصدران.

فالنشأة المرة الواحدة، يقال: نشأ الغلام، فهو ناشئ، وامرأة ناشئة، والجمع ناشئ، ويقال للجواري الصغار نشأ قال نصيب:

ولولا ان يقال صبا نصيب * لقلت بنفسى النشأ الصغار (١)

وانشأهم الله إنشاء، فهو منشئ، ونشت - بغير همز - ريحا طيبة، ورجل نشوان من الشراب. ورجل نشيان للخير إذا كان يتخير الخير، حكاه تغلب.

قوله " وابراهيم إذ قال " يحتمل نصبه أمرين:

احدهما - ان يكون عطفًا على قوله " وارسلنا نوحا إلى قومه " وتقديره وأرسلنا ابراهيم أيضا.

الثاني - بتقدير واذكر " ابراهيم " حين " قال لقومه أعبدوا الله " وحده لا شريك له، واتقوا عقابه باتقاء معاصيه " ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون " ما هو خير لكم مما هو شر لكم. وقوله " انما تعبدون من دون الله اوثانا " حكاية عما قال ابراهيم لقومه كأنه قال لهم ليس تعبدون من دون الله إلا اوثانا، وهو جمع وثن، وهو ما يعبد من دون الله. وقيل: ما يعمل من حجر وطين يسمى وثنا. و (ما) في قوله " إنما " كافة، وليست بمعنى الذي، لأنها لو كانت بمعنى الذي، لكان (اوثان) رفعا.

(١) مر تخريجه في ٤ / ٣٠٤ (*)

(١٩٥)

وقوله " وتخلقون إفكا " أي تعملون أصناما، وسماها إفكا لادعائهم انها آلهة - وهو قول قتادة، والجبائي - وقال ابن عباس: وتصنعون كذبا، وتحقيقه يصنعون على ما يقدرون، ثم قال لهم ابراهيم أيضا * (إن الذين تعبدون من دون الله) * يعني الاصنام * (لا يملكون لكم رزقا) * أي لا يقدرون على أن يرزقوكم، وإنما يبتغي الرزق من القادر على المنع، وهو الله الرازق. والملك قدرة القادر على ماله أن يتصرف فيه أتم التصرف، وليس ذلك إلا الله - عز وجل - على الحقيقة لان له التصرف والقدرة على جميع الاشياء بلا مانع، والانسان إنما يملك ما يملكه الله، ويأذن له في التصرف فيه. فأصل الملك لجميع الاشياء لله. ومن لا يملك أن يرزق غيره لا يستحق العبادة، لان العبادة تجب بأعلى مراتب النعمة. والاصنام لا تقدر على ذلك، فاذا لا يحسن عبادتها.

ثم قال لهم * (وابتغوا عند الله الرزق) * أي اطلبوا الرزق من عند الله دون من سواه * (واعبدوه) * على ما انعم به عليكم من أصول النعم، وأعلى مراتب الفضل * (واشكروا له) * ايضا، لانكم اليه ترجعون يوم القيامة فيجازيكم على قدر اعمالكم. فمن عبده وشكره جازاه بالثواب. ومن عبد غيره وكفر نعمه جازاه بالعقاب. ويقال: شكرته وشكرت له يؤكد باللام. فمعنى الشكر له اختصاصه بنفسه من غير احتمال لغيره. ثم قال * (وإن تكذبوا) * بما اخبركم به من عند الله، وما أدعوكم اليه من اخلاص عبادته * (فقد كذب أمم من قبلكم) * انبياءهم الذين بعثوا فيهم وليس * (على الرسول إلا البلاغ المبين) * يعني الا أن يوصل اليهم ويؤدي اليهم ما أمر به لكونه بيانا ظاهرا يمكنهم معرفته وفهمه، وليس عليه حملهم على الايمان.

ثم قال * (او لم يروا كيف يبدؤا الله الخلق) * أي ألم يفكروا فيعلموا كيف

(١٩٦)

اخترع الله الخلق من العدم * (ثم يعيده) * ثانيا إذا اعدمهم بعد وجودهم. قال قتادة: معنى * (ثم يعيده) * بالبعث بعد الموت. وقيل ينشئه بالاحياء * (ثم يعيده " بالرد إلى حال الموت. والاول أصح * (ان ذلك على الله يسير) * غير متعذر، لان من قدر على الاختراع والانشاء أولا كان على الاعادة اقدر.

ومعنى (يسير) لا تعب عليه فيه ولا نصب، وكل فعل كان كذلك، فهو سهل يسير. والاحتجاج في ذلك أن من قدر على ذلك قادر على ارسال الرسول إلى العباد.

ثم قال لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) * (قل) * لهؤلاء الكفار * (سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الله الخلق) * وفكروا في آثار من كان قبلكم، وإلى اي شئ صار امرهم لتعتبروا بذلك فيما يؤديكم إلى العلم بربكم.

وقوله * (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) * فالنشأة الآخرة اعادة الخلق كرة ثانية من غير سبب كما كان اول مرة، لان معنى الانشاء اليجاد من غير سبب * (ان الله على كل شئ قدير) * اخبار منه تعالى انه قادر على كل شئ يصح ان يكون مقدورا له.

قوله تعالى:

* (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون (٢١)

وما أنتم بمعجزين في الارض ولا في السماء ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير (٢٢) والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم (٢٣) فما

(١٩٧)

كان جواب قومه إلا أن قالوا قتلوه أو حرقوه فأنجيه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون (٢٤) وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيمة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأويكم النار ومالكم من ناصرين) * (٢٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وابوعمر، والكسائي " مودة بينكم " بالرفع والاضافة.

وقرأ نافع وابوبكر عن عاصم وابن عامر " مودة بينكم " منونا منصوبا.

وروى الاعشى عن أبي بكر برفع " مودة " و " بينكم " نصب، وقرأ حفص عن عاصم وحزمة " مودة بينكم " نصبا غير منون مضاف.

من رفع يحتمل وجهين احدهما - ان يجعل " انما " كلمتين يجعل (ما)

بمعنى الذي، وهو اسم (ان) و (مودة) خبره، ومفعول اتخذتم (هاء)

محذوفة، وتقديره: إن الذي اتخذتموه مودة بينكم، كما قال الشاعر:

ذريني إنما خطائي وصوا * بي علي وانما اهلكت مالي يريد ان الذي اهلكته مالي. الثاني -
ان يرفعها بالابتداء، " وفي الحياة الدنيا " خبرها.
ومن نصب جعل (المودة) مفعول (اتخذتم).
ومن أضاف جعل البين الوصل.

(١٩٨)

ومن لم ينون ولم يضيف جعل (البين) ظرفا. وهو الفراق ايضا. يقال:
بينهما بين بعيد، وبون بعيد، وجلس زيد بيننا، وبيننا بالادغام، ذكره ابن زيد عن ابن حاتم عنا
الاصمعي، يقال: بان زيد عمرا: إذا فارقه بيونه بونا قال الشاعر:
كأن عيني وقد بانوني * غربا نصوح غير محنوني وقرأ ابي " انما مودة بينكم ".
اخبر الله تعالى انه " يعذب من يشاء " من عباده اذا استحقوا العقاب * (ويرحم من يشاء) *
منهم فيعفو عنهم بالتوبة وغير التوبة * (واليه تغلبون) * معاشر الخلق أي اليه تحشرون
وترجعون يوم القيامة. والقلب الرجوع والرد، فتقلبون أي تردون إلى حال الحياة في الآخرة
بحيث لا يملك الضر والنفع فيه إلا الله. والقلب نفي حال بحال يخالفها. ثم قال: ولستم
بمعجزين في الارض أي بفائتين، فالمعجز الفائق بما يعجز القادر عن لحاقه. ولهذا فسروا *
(وما أنتم بمعجزين) * أي بفائتين، والمعنى لا تغتروا بطول الامهال * (في الارض ولا في
السماء) * اي لستم تفوتونه في الارض، ولا في السماء لو كنتم فيها، فانه قادر عليكم حيث
كنتم. وقيل في ذلك قولان: احدهما - لا يفوتونه هربا في الارض، ولا في السماء. الثاني -
ولا من في السماء بمعجزين، كما قال حسان:

أمن يهجوا رسول الله منكم * ويمدحه وينصره سواء (١)

وتقديره ومن يمدحه وينصره سواء أم لا يتساوون؟! وقوله * (وما لكم من دون الله من ولي
ولا نصير) * أي وليس لكم ولي ولا ناصر من دون الله يدفع عنكم عقاب الله إذا أراد بكم،
فالولي هو الذي

(١) مر تخريجه في ١ / ٤١٠ (*)

(١٩٩)

يتولى المعونة بنفسه، والنصير قد يدفع المكروه عن غيره تارة بنفسه وتارة بان يأمر بذلك. ثم
قال تعالى * (والذين كفروا بآيات الله) * اي جحدوا أدلة الله ولقاء ثوابه وعقابه يوم القيامة *
(أولئك يؤسوا من رحمتي) * اخبار عن اياسهم من رحمة الله، لعلمهم انها لا تقع بهم ذلك

اليوم * (وأولئك لهم عذاب اليم) * اي مؤلم. وفي ذلك دلالة على ان المؤمن بالله واليوم الآخر لا يجوز ان ييأس من رحمة الله.

ثم قال * (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه او حرقوه) * وفي ذلك دلالة على ان جميع ما تقدم حكاية ما قال ابراهيم لقومه، وانهم لما عجزوا عن جوابه بحجة عدلوا إلى ان قالوا اقتلوه او حرقوه وفي الكلام حذف، وتقديره:

إنهم اوقدوا نارا وطرحوه فيها * (فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآية) * واضحة وحجة بينة * (لقوم يؤمنون) * بصحة ما اخبرناك به من توحيد الله واخلاص عبادته.

ثم عاد إلى حكاية قول ابراهيم وانه قال لهم * (إنما اتخذتم من دون الله اوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا. ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) * قال قتادة: كل خلة تتقلب يوم القيامة عداوة إلا خلة المتقين كما قال * (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين) * (١) ومعنى الآية ان ابراهيم قال لقومه: انما اتخذتم هذه الاوثان آلهة من دون الله لتتوادوا بها في الحياة الدنيا، ثم يوم القيامة يتبرؤ بعضكم من بعض ويلعن بعضكم بعضا، ومستقركم النار، ومالك من ينصركم بدفع عذاب الله عنكم.

ثم قال لهم " ومأواكم النار " أي مستقركم و " ما لكم من ناصرين "

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٦٧ (*)

(٢٠٠)

يدفعون بالقهر والغلبة. وروى عبدالله بن احمد بن حنبل عن أبيه في كتاب التفسير أن جميع الدواب والهوام كانت تطفي عن ابراهيم النار إلا الوزغ فانها كانت تنفخ النار، فامر بقتلها. وروى أيضا انه لم ينتفع احد يوم طرح ابراهيم في النار بالنار في جميع الدنيا. قوله تعالى:

* (فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم (٢٦) ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين (٢٧) ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (٢٨) أننكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا انتننا بعذاب الله إن كنت من الصادقين (٢٩)

قال رب انصرني على القوم المفسدين) * (٣٠) خمس آيات بلا خلاف.

ست آيات حجازي وخمس في ما عداه عدوا " السبيل " آية ولم يعدها الباقون.

قرأ أهل الحجاز وابن عامر وحفص ويعقوب " إنكم لتأتون الفاحشة " بهمزة واحدة على الخبر. وقرأه أهل الكوفة. إلا حفصاً بهزتين مخففتين على الاستفهام. وقرأ أبو عمرو كذلك إلا أنه بلين الثانية، ويفصل بينهما

(٢٠١)

بألف، وأما " إنكم لتأتون الرجال " فأنهم على أصولهم. حكى الله سبحانه أن إبراهيم لما دعا قومه إلى إخلاص عبادة الله وترك عبادة الأوثان، وقبح فعلهم في ذلك أنه صدق به لوط (عليه السلام) وآمن به. وكان ابن اخته، فإبراهيم خاله وهو قول ابن عباس وابن زيد والضحاك وجميع المفسرين. وقال لوط " اني مهاجر إلى ربي " معناه أي خارج من جملة الظالمين على جهة الهجر لهم لقبح أفعالهم إلى حيث أمرني ربي، ومن هذا هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة وإلى أرض الحبشة، لأنهم هجروا ديارهم وأوطانهم لأذى المشركين لهم فأمرُوا بأن يخرجوا عنها. وقيل: هاجر إبراهيم ولوط من كوثى، وهي من سواد الكوفة إلى أرض الشام في قول قتادة. وقال " إنه هو العزيز الحكيم " الذي لا تضيع الطاعة عنده، العزيز الذي لا يذل من نصره. ثم قال " ووهبنا له " يعني لإبراهيم " إسحاق ويعقوب، وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب " قيل: إنما لم يذكر اسماعيل مع أنه نبي معظم، لأنه قد دل عليه بقوله " وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب " فترك ذكر اسمه لأنه يكفي فيه الدلالة عليه لشهرته وعظم شأنه، وذكر ولد ولده في سياقه ذكر ولده، لأنه يحسن إضافته إليه، لأنه الأب الأكبر له. وقوله " وأتيناها أجره في الدنيا " قال ابن عباس: الأجر في الدنيا الثناء الحسن، والولد الصالح، وقال الجبائي: هو ما أمر الله به المكلفين من تعظيم الأنبياء. قال البلخي: وذلك يدل على أنه يجوز أن يثيب الله في دار التكليف ببعض الثواب. و (الكتاب) أريد به الكتب، من التوراة والانجيل والزبور والقرآن، غير أنه خرج مخرج الجنس. " وإنه في الآخرة لمن الصالحين "

(٢٠٢)

أخبار منه تعالى أن إبراهيم مع أنه آتاه أجره وثوابه في الدنيا إنه في الآخرة يحشره الله من جملة الصالحين العظمي الأقدار، لما قاموا به من النبوة على ما أمر الله به، وقوله " ولوطاً إذ قال لقومه " يحتمل نصبه أيضاً بشيئين:

أحدهما - و (أرسلنا لوطاً) عطفاً على (نوحاً وإبراهيم).

والثاني - بتقدير واذكر لوطاً حين قال لقومه " إنكم لتأتون الفاحشة " من قرأ بلفظ الاستفهام أراد به الإنكار دون الاستعلام. ومن قرأ على الخبر أراد إن لوطاً أخبرهم بذلك منكرًا لفعلهم لا مفيداً لهم، لأنهم كانوا يعلمون ما فعلوه. والفاحشة - ههنا - ما كانوا يفعلونه من أتيان

الذكران في أدبارهم " ما سبقكم بها " بهذه الفاحشة أحد من الخلائق. ثم فسر ما أراد بالفاحشة فقال " انكم لتأتون الرجال " يعني في أدبارهم، والفاحش الشنيع في القبح، فحش فلان يفحش فحشا وتفاحش تفاحشا إذا شنع في قبحه، وهو ظهوره بما تقتضي العقول بالبديهة رده وانكاره. وقوله " وتقطعون السبيل " قيل: انهم كانوا يقطعون الطريق لآخذ الاموال، وقيل: يقطعون سبيل الولد باتيان الذكران في الادبار، وقيل:

بالعمل الخبيث، لانهم كانوا يطلبون الغرباء " وتأتون في ناديكم المنكر " قال ابن عباس: كانوا يضرطون في مجالسهم، وقال السدي: كانوا يحذفون من مر بهم. وقال مجاهد: كانوا يأتون الرجال في مجالسهم. وقال الكلبي: منها الحذف، والصفير، ومضغ العلك، والرمي بالبندق، وحل ازرار القبا والقميص. وهي ثماني عشرة خصلة. وقال غيره: هي عشرة خصال. وقوله " فما كان جواب قومه إلا ان قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت

(٢٠٣)

من الصادقين " حكاية عما قال قوم لوط في جوابه حين عجزوا عن مقاومته بالحجة وانهم قالوا له " ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين " في دعواك النبوة وأن الله أرسلك وأمرك بما تدعو اليه، فقال عند ذلك لوط " رب انصرنى على القوم المفسدين " الذين فعلوا المعاصي وارتكبوا القبائح وأفسدوا في الارض والمعنى اكفني شرهم وأذاهم، ويجوز أن يريد اهلكهم، وانزل عذابك عليهم. قوله تعالى:

* (ولما جاءت رسلنا إبرهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين (٣١) قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين (٣٢) ولما أن جاءت رسلنا لوطا سئى بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين (٣٣) إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون (٣٤)

ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) * (٣٥) خمس آيات قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب " لننجينه " بالتخفيف. الباقر بالتثقل. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وابوبكر ويعقوب " منجوك " غير متحرك بالتخفيف. الباقر بالتشديد وقرأ ابن عامر والكسائي

(٢٠٤)

عن ابي بكر * (منزلون) * بالتشديد. الباقر بالتخفيف. من قرأ " لننجينه " بالتشديد وبتحريك النون، فلقوله * (ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) * (١)

ولقوله * (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) * (٢) ومن خفف فلقوله * (فأنجاه الله من النار) * (٣) يقال: نجا زيد وأنجيته ونجيته، مثل فرح وفرحته وأفرحته.
ومن قرأ * (منزلون) * بالتشديد، فلان أصله نزل، كما قال * (نزل به الروح الامين) * (٤). فاذا عديته ثقته إما بالهمزة او بالتضعيف والتضعيف يدل على التكرار.
وقوله * (انا منجوك وأهلك) * نصب * (أهلك) * على انه مفعول به عطفًا على موضع الكاف، وقوله * (قوا أنفسكم وأهليكم) * (٥) انما كسر اللام وموضعها النصب، لان العرب تقول: رأيت أهلك يريدون جميع القرابات.
ومنهم من يقول: أهليك، ويجمع اهل على أهلين، فاذا أضافه ذهب النون للاضافة، فالياء علامة الجمع والنصب، وكسرت اللام لمجاورتها الياء. وفي الحديث (ان لله أهلين) قيل: من هم يا رسول الله؟ قال (اهل القرآن هم اهل الله وخاصته) ومن العرب من يجمع (أهلا) أهلات انشد ابن مجاهد:

فهم اهلات حول قيس بن عاصم * إذا ادلجوا بالليل يدعون كووثا
قال ابن خالويه: الصواب أن يجعل اهلات جمع اهلة. قال: فان قيل:
هل يجوز أن تقول أهلون؟ - بفتح الهاء - كما يقولون: أرضون إذ كان الاصل ارضات،
قال: إن (أهلا) مدكر تصغيره أهيل، وارضاً مؤنثة تصغيرها

(١) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ١٨ (٢) سورة ٥٤ القمر آية ٣٤ (٣) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢٤ (٤)
سورة ٢٦ الشعراء آية ١٩٣ (٥) سورة ٦٦ التحريم آية ٦ (*)

(٢٠٥)

أريضة، والتاء سابقة في المؤنث ممتعة في المذكر، فهذا يفصل ما بينهما، قال وما علمت احدا تكلم فيه.

اخبر الله تعالى انه لما جاء ابراهيم رسل الله، وهم من الملائكة بالبشرى يبشرونه باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب، والبشرى البيان، وهو الخبر بما يظهر سروره في بشرة الوجه. وقيل: للاخبار بما يظهر سروره او غمه في البشرية: بشرى، ويقوي ذلك قوله * (فبشرهم بعذا اليم) * (١) غير انه غلب عليه البشارة بما يسر به.

وقوله * (قالوا إنا مهلكوا اهل هذه القرية) * حكاية ما قالت الملائكة لابراهيم فانهم قالوا له: بعثنا الله وارسلنا لاهلاك هذه القرية التي فيها قوم لوط. والاهلاك الاذهاب بالشئ إلى ما لا يقع به احساس، فلما كانوا بالعذاب قد اذهبوا هذا الاذهاب كانوا قد اهلكوا، والقرية البلدة التي يجتمع اليها للايواء من جهات مختلفة، وهي من قرية الماء في الحوض أقرية قريبا. إذا

جمعته. ومنه قرى الضيف لانك تجمعهم اليك بما تعده له من طعام. و (الظالم) من فعل الظلم وهو صفة ذم.

فقال لهم ابراهيم عند ذلك * (إن فيها لوطا) * كيف تهلكونها، فقالوا في جوابه * (نحن أعلم بمن فيها) * والاعلم الاكثر معلوما، فاذا كان الشئ معلوما لعالم من جهات مختلفة ولعالم آخر من بعض تلك الوجوه دون بعض كان ذلك اعلم. ثم قالوا * (لننجينه) * أي لنخلصه من العذاب * (وأهله) * أي ونخلص أيضا اهله المؤمنين منهم * (إلا امرأته كانت من الغابرين) * أي من الباقيين

(١) سورة آل عمران آية ٢١ وسورة ٩ التوبة آية ٣٥ وسورة ٨٤ الانشقاق آية ٢٤ (*)

(٢٠٦)

في العذاب، قال المبرد: و (أهلك) عطف على المعنى، لان موضع الكاف الخفض، ولا يجوز العطف على المضمر المخفوض على اللفظ، ومثل ذلك قول لبيد:
فان لم تجد من دون عدنان والدا * ودون معد فلترعك العواذل (١)
فصب (ودون) على الموضوع. ثم حكى تعالى أن رسل الله لما جاءت * (لوطا سئ بهم) * وقيل في معناه قولان:
احدهما - سئ بالملائكة أي ساء مجيؤهم لما طلبوا منه الضيافة لما يعلم من خبث فعل قومه - في قول قتادة -.

الثاني - سئ بقومه ذرعا أي ضاق بهم ذرعا، لما علم من عظم البلاء النازل بهم، فلما رآته الملائكة على تلك الصفة * (قالوا) * له * (لا تخف ولا تحزن انا منجوك) * أي مخلصوك ومخلصوا * (اهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين) * أي من الباقيين في العذاب. وانما قال * (من الغابرين) * على جمع المذكر تغليبا للمذكر على المؤنث إذا اجتمعا. وقيل: كانت من الباقيين لانه طال عمرها، ذكره ابو عبيدة، وقالوا له * (إنا منزلون على اهل هذه القرية رجزا) * أي عذابا رجزا * (بما كانوا يفسقون) * ويخرجون من طاعة الله إلى معصيته. ثم اخبر تعالى فقال * (ولقد تركنا منها) * يعني من القرية انه بينه، قال قتادة الآية البيينة الحجارة التي أمطرت عليهم. وقال غيره عفو آثارهم مع ظهور هلاكهم * (لقوم يعقلون) * ذلك ويبصرونه ويتفكرون فيه ويتعظون به، فيزجرهم ذلك عن الكفر بالله واتخاذ شريك معه في العبادة.

(١) الكتاب لسبويه ١ / ٣٤ (*)

(٢٠٧)

قوله تعالى:

* (وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر ولا تعثوا في الارض مفسدين (٣٦) فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٣٧) وعادا واثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين (٣٨) وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الارض وما كانوا سابقين (٣٩) فكلنا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) * (٤٠) خمس آيات بلا خلاف.

قوله " وإلى مدين أخاهم شعيبا " عطف على قوله " ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه " وتقديره " وأرسلنا إلى مدين، وقد فسرنا معنى (مدين) فيما تقدم (١) " أخاهم شعيبا " وانه قال لهم " يا قوم اعبدوا الله " وحده لا شريك له ولا تشركوا معه في العبادة غيره " وارجوا اليوم الآخر " يحتمل أن

(١) انظر ٦ / ٤٧ (*)

(٢٠٨)

يكون أراد وخافوا عقاب اليوم الآخرة بمعاصي الله، ويحتمل ان يكون أراد واطلبوا ثواب يوم القيامة بفعل الطاعات " ولا تعثوا في الارض مفسدين " معناه لا تضطربوا بحال الجهالة يقال: عثى يعثى عثى، كقولهم عاث يعيث عيثا وفيه معنى الامر بالاستقامة، لانه إنما يخرج عن اضطراب الجهال إلى الاستقامة، في الافعال. والفساد كل فعل ينافي العقل أو الشرع، فهو عبارة عن معاصي الله.

ثم اخبر أن قومه كذبوه في ادعائه النبوة ولم يقبلوا منه فعاقبهم الله بعذاب الرجفة، وهي زعزعة الارض تحت القدم، يقال: رجف السطح من تحت أهله يرجف رجفا، ورجفة شديدة، والارجاف هو الاخبار بما يضطرب الناس لاجله من غير أن يحققونه " فأصبحوا في دارهم جاثمين " قال قتادة: ميتين بعضهم على بعض. وقيل: باركين على ركبهم، والجاثم البارك على ركبتيه مستقبلا بوجهه الارض.

وقوله " وعادا واثمود " أي وأهلكنا أيضا عادا واثمود جزاء على كفرهم " وقد تبين لكم " معاشر الناس كثير " من مساكنهم ".

ثم اخبر أنه " زين لهم الشيطان اعمالهم " التي كفروا بها وعصوا الله فيها، وذلك يدل على بطلان قول المجبرة الذين ينسبون ذلك إلى الله.

ثم اخبر أن الشيطان صدهم ومنعهم عن طريق الحق " فهم لا يهتدون " اليه لاتباعهم دعاء الشيطان. وعدولهم عن الطريق الواضح " وكانوا مستبصرين " أي وكانوا عقلاء يمكنهم تمييز الحق من الباطن بابصارهم له وفكرهم فيه. وقال مجاهد وقتادة " وكانوا مستبصرين " في ضلالتهم لعجبهم به، فتصوروه بخلاف صورته.

(٢٠٩)

ثم اخبر انه تعالى أهلك قارون، وفرعون، وهامان. ويجوز أن يكون عطفاً على (الهاء والميم) في قوله " فصددهم عن السبيل " وكأنه قال فصد عادا وثلثاً، وصد قارون وفرعون وهامان. وأنهم " جاءهم موسى بالبينات " يعني بالحجج الواضحات: من فلق البحر وقلب العصا وغير ذلك " فاستكبروا في الارض " أي طلبوا التجبر فيها، ولم ينقادوا للحق وأنفوا من اتباع موسى " وما كانوا سابقين " أي فائتين لله، كما يفوت السابق.

ثم اخبر تعالى فقال " فكلا أخذنا بذنبه " أي اخذنا كلا بذنبه " فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا " وهو الريح العاصفة التي فيها حصباء وهي الحصى الصغار، وشبه به البرد والجليد، قال الاخطل:

ولقد علمت إذا العشار تروحت * هدى الرئال تكبهن شمالاً ترمي الرياح بحاصب من تلجها *
حتى تبيت على العضة جفالا (١)
وقال الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام يضرينا * بحاصب كنديف القطن منثور (٢)
والذين أرسل عليهم الحاصب قوم لوط - في قول ابن عباس، وقتادة - والذين أخذتهم الصيحة ثمود وقوم شعيب - في قولهما - " ومنهم من خسفنا به الارض " يعني قارون، " ومنهم من أغرقنا " يعني قوم نوم وفرعون.

ثم اخبر تعالى أنه لم يظلمهم بما فعل معهم " ولكن كانوا أنفسهم يظلمون " بجحدهم نعم الله واتخاذهم مع الله آلهة عبودها، وطغيانهم وفسادهم في الارض.
وذلك يدل على فساد قول المجبرة الذين قالوا: إن الظلم من فعل الله، لانه

(١) مر تخريجه في ٧ / ٨ (٢) مر تخريجه في ٦ / ٥٠٢.

(٢١٠)

لو كان من فعله لما كانوا هم الظالمين لنفوسهم، بل كان الظالم لهم من فعل فيهم الظلم قوله تعالى:

* (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون (٤١) إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ وهو العزيز الحكيم (٤٢) وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون (٤٣) خلق الله السموات والارض بالحق إن في ذلك لاية للمؤمنين (٤٤) أتلى ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلوة إن الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) * (٤٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابو عمرو ويعقوب وعاصم - في رواية حفص - والعلمي، والعبسي " ان الله يعلم ما يدعون من دونه " بالياء على الخبر عن الغائب. الباقيون بالتاء على الخطاب. قال ابو علي: (ما) استفهام وموضعها النصب ب (يدعون) ولا يجوز أن يكون نصبا ب (يعلم) ولكن صارت الجملة التي هي منها في موضع نصب، وتقديره إن الله يعلم أوثانا يدعون من دونه، لا يخفى عليه ذلك. ومثله " فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار " (١) والمعنى سيعلمون المسلم

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٣٥ (*)

(٢١١)

يكن له عقابة الدار أم الكافر؟. وكل ما كان من هذا فهكذا القول فيه، وهو قياس قول الخليل. شبه الله سبحانه حال من اتخذ من دونه أولياء ينصرونه عند الحاجة في الوهن والضعف بحال العنكبوت الذي يتخذ بيتا ليأوى اليه، فكما أن بيت العنكبوت في غاية الوهن والضعف، فكذلك حال من اتخذ من دون الله أولياء مثله في الضعف والوهن. والمثل قول سائر يشبه به حال الثاني بالاول. و (الاتخاذ)

أخذ الشئ على اعداده لنائبة، وهو (افتعال) من (الاخذ) فلما اخذوا عبادة غير الله إعدادا لنائبة كانوا اتخذوا الاولياء من دون الله، وذلك فاسد لان عبادة الله هي العاصمة من المكاره دون عبادة الاوثان. والمولي هو المتولي للنصرة، وهو أبلغ من الناصر، لان الناصر قد يكون ناصرا بأن يأمر غيره بالنصرة، والمولي هو الذي يتولى فعلها بنفسه. والعنكبوت هو دابة لطيفة تتسج بيتا تأويه، في غاية الوهن والضعف، ويجمع عناكب، ويصغر عنكب ووزنه (فعلوت) وهو يذكر ويؤنث، قال الشاعر:

على هطأ لهم منهم بيوت * كأن العنكبوت هو ابتناها (١)

ويقال: هو العنكباء. ثم اخبر تعالى " ان أو هن البيوت لبيت العنكبوت " الذي شبه الله حال من اتخذ من دونه أولياء به، فاذا حاله أضعف الاحوال.
وقوله " لو كانوا يعلمون " صحة ما أخبرناهم به ويتحققونه، لكنهم كفار بذلك، فلا يعلمونه ف (لو) متعلقة بقوله " اتخذوا " أي لو علموا أن اتخذهم الاولياء كاتخاذ العنكبوت بيتا سخيفا لم يتخذوهم أولياء، ولا يجوز أن تكون متعلقة بقوله " وإن أو هن البيوت لبيت العنكبوت " لانهم كانوا عالمين بأن

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ٣٤٥ (*)

(٢١٢)

بيت العنكبوت واه ضعيف.

ثم قال تعالى " إن الله يعلم ما تدعون من دونه من شئ " سواء كان صنما او وثنا أو ما كان مثل ذلك " وهو العزيز " في انتقامه الذي لا يغالب في ما يريد " الحكيم " في جميع أحواله وأفعاله، واضع لها في مواضعها. ثم قال " وتلك الامثال " وهي الاشباه والنظائر، قال الشاعر:
هل يذكر العهد في تنمص * إذ يضرب لي قاعدة بها مثلا (١)
" يضر بها للناس وما يعقلها إلا العالمون " أي ما يدركها إلا من كان عالما بمواقعها. ثم اخبر تعالى انه " خلق السموات والارض " وأخرجهما من العدم إلى الوجود " بالحق " أي على وجه الحكمة دون العبث الذي لا فائدة فيه وانه قصد بها الدلالة على توحيده " إن في ذلك " يعني في خلق الله ذلك على ما ذكره " لآية للمؤمنين " المصدقين بتوحيد الله، لانهم المنتفعون بها دون الكفار الذين لم ينتفعوا بها لتفريطهم، فلذلك اسندها إلى المؤمنين ثم قال لنبينه (صلى الله عليه وآله) " اتل ما أوحى اليك من الكتاب " يا محمد يعني القرآن - على المكلفين، واعمل بما تضمنه " وأقم الصلاة " بحدودها " ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر " يعني فعلها فيه لطف للمكلف في فعل الواجب والامتناع عن القبيح، فهي بمنزلة الناهي بالقول إذا قال: لا تفعل الفحشاء ولا المنكر، وذلك لان فيها: التكبير، والتسبيح، والقراءة، وصنوف العبادة، وكل ذلك يدعو إلى شكله ويصرف عن ضده، كالامر والنهي بالقول، وكل دليل مؤد إلى المعرفة بالحق، فهو داع إليه وصارف عن ضده من الباطل. وقال ابن مسعود: الصلاة تنهى عن المنكر وتأمّر بالمعروف. وبه

(١) مجاز القرآن ٢ / ١١٦ (*)

(٢١٣)

قال ابن عباس. وقال ابن مسعود: الصلاة لا تنفع إلا من أطاع.
وقوله " ولذكر الله أكبر " معناه ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته - ذكره
ابن عباس، وسلمان، وابن مسعود، ومجاهد - وقيل:

معناه ذكر العبد لربه أفضل من جميع عمله - في رواية أخرى - عن سلمان، وهو قول قتادة
وابن زيد وابي الدرداء. وقال ابومالك: معناه إن ذكر العبد لله تعالى في الصلاة أكبر من
الصلاة. وقيل: ذكر الله بتعظيمه أكبر من سائر طاعاته. وقيل: ولذكر الله أكبر من النهي عن
الفحشاء.

وقوله " والله يعلم ما تصنعون " من خير وشر، فيجازيكم بحسبه. وفي الآية دلالة على بطلان
قول من قال: ان المعرفة ضرورة، ودلالة على بطلان قول المجبرة في أن الله خلق الكافر
للضلال.

قوله تعالى:

* (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل
إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون (٤٦) وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين
آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون (٤٧) وما
كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبتلون (٤٨) بل هو آيات بينات
في صدور الذين أوتوا العلم

—٢١٤— وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون (٤٩) وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما
الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين) * (٥٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم وقتيبة عن الكسائي " لولا
أنزل عليه آيات من ربه " على الجمع لقوله " قل إنما الآيات ". وقرأ الباقر " آية " على
التوحيد. ومعناها واحد، لأنه لفظ جنس يدل على القليل والكثير. قال قتادة: الآية الأولى
منسوخة بالجهاد والقتال. وقال غيره: هي ثابتة، وهو الأولى، لأنه لا دليل على ما قاله.

فكيف وقد أمر بالجدال بالذي هو أحسن، وهو الواجب الذي لا يجوز غيره كما قال " وجادلهم
بالتي هي أحسن " (١) فالآية خطاب من الله تعالى لنبيه وجميع المؤمنين ينهاهم أن يجادلوا
أهل الكتاب: من اليهود والنصارى " إلا بالتتي هي أحسن " وقيل: معناه إلا بالجميل من القول
في التنبيه على آيات الله وحججه والاحسن الأعلى في الحسن من جهة تقبل العقل له. وقد
يكون الأعلى في الحسن من جهة تقبل الطبع له، وقد يكون في الأمرين، و (الجدال) فتل
الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج فيه. وفي ذلك دلالة على حسن المجادلة، لأنها لو كانت
قبيحة على كمال حال، لما قال " إلا بالتتي هي أحسن ".

وأصل الجدل شدة الفتل، يقال: جدلته أجده جدلا إذا فتله فتلا شديدا، ومنه الاجدل: للصرق لشدة فتل بدنه. وقيل: انه يجوز أن يغلظ

(١) سورة ١٦ النحل آية ١٢٥ (*)

(٢١٥)

المحق في الجدل على الظالم فيه، بتأديب الله تعالى في الآية في قوله " إلا الذين ظلموا منهم " فاستثنى الظالم عن المجادلة بالتي هي أحسن.
فان قيل: لم استثنى الذين ظلموا؟ وكلهم ظالم لنفسه بكفره ! قيل: لان المراد " إلا الذين ظلموا " في جدالهم أو في غيره مما يقتضي الاغلاظ لهم، ولهذا يسع الانسان ان يغلظ على غيره، والا فالداعي إلى الحق يجب أن يستعمل الرفق في أمره. قال مجاهد: " إلا الذين ظلموا منهم " بمنع الجزية. وقال ابن زيد: الذين ظلموا بالاقامة على كفرهم بعد إقامة الحجة عليهم.
ثم قال تعالى للمؤمنين " وقولوا آمنا بالذي انزل الينا " من القرآن " وانزل اليكم " من التوراة والانجيل، وقولوا " وإلهنا وإلهكم واحد " لا شريك له " ونحن له مسلمون " طائعون.
ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) ومثل ما أنزلنا الكتاب على موسى وعيسى من التوراة والانجيل " انزلنا اليك الكتاب " القرآن " فالذين آتيناهم الكتاب " يعني الذين آتيناهم علم الكتاب يصدقون بالقرآن لدلالته عليه " ومن هؤلاء من يؤمن به " أى من غير جهة علم الكتاب. وقيل " فالذين آتيناهم الكتاب " يعني به عبدالله بن سلام وأمثاله. و " من هؤلاء " يعني أهل مكة " من يؤمن به ". ويحتمل ان يكون أراد ب (الذين آتيناهم الكتاب) الذين آتاهم القرآن: المؤمنين منهم و (ومن هؤلاء) يعني من اليهود والنصارى " من يؤمن به " أيضا، والهاء في قوله (به) يجوز أن تكون راجعة إلى النبي، ويجوز أن تكون راجعة إلى القرآن " وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون " لان كل من جحد بآيات الله من المكلفين، فهو كافر: معاندا كان أو غير معاند.
ثم خاطب نبيه (صلى الله عليه وآله) فقال " وما كنت تتلو من قبله من كتاب " يعني

(٢١٦)

لم تكن تحسن القراءة قبل أن يوحى اليك بالقرآن " ولا تخطه بيمينك " معناه وما كنت أيضا تخط بيمينك. وفيه اختصار، وتقديره ولو كنت تتلو الكتاب وتخطه بيمينك " إذا لارتاب المبطلون " وقال المفسرون: إنه لم يكن النبي (صلى الله عليه وآله) يحسن الكتابة. والآية لا تدل على ذلك بل فيها إنه لم يكن يكتب الكتاب وقد لا يكتب الكتاب من يحسنه، كما لا يكتب من لا يحسنه، وليس ذلك بنهي، لانه لو كان نهيا لكان الاجود أن يكون مفتوحا، وإن جاز الضم على وجه الاتباع لضمة الخاء، كما يقال: (رده) بالضم والفتح والكسر، وكان أيضا غير مطابق

للالول. ولو أفاد أنه لم يكن يحسن الكتابة قبل الإيحاء، لكان دليhle يدل على انه كان يحسنها بعد الإيحاء اليه، ليكون فرقا بين الحالتين.

ثم بين تعالى أنه لم يكتب، لأنه لو كتب لشك المبطلون في القرآن وقالوا هو قرأ الكتب أو هو يصنفه، ويضم شيئاً إلى شئ في حال بعد حال فاذا لم يحسن الكتابة لم تسبق اليه الظنة. ثم قال " بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم " وقيل: معناه بل هي آيات واضحات في صدور العلماء. بأنه أمني لا يقرأ ولا يكتب، على صفته في التوراة والانجيل - في قول ابن عباس - وقال الحسن: بل القرآن آيات بينات في صدور العلماء. ثم قال * (وما يجحد بآياتنا) * أي لا ينكر حججنا ويجحدها إلا الذين ظلموا نفوسهم بترك النظر فيها، أو العناد لها بعد طول المدة وحصول العلم بها. ثم حكى عن الكفار أنهم قالوا: هلا أنزل على محمد آية من ربه؟ يريدون آية يقترحونها، وآية كآية موسى: من فلق البحر وقلب العصا حية، فقال الله تعالى لهم * (قل) * لهم يا محمد * (انما الآيات عند الله) * ينزلها ويظهرها بحسب ما يعلم من مصالح خلقه * (وانما أنا نذير) * أي

(٢١٧)

منذر مخوف من معصية الله * (مبين) * طريق الحق من طريق الباطل. قوله تعالى:

* (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون (٥١) قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السموات والارض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون (٥٢) ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون (٥٣) يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين (٥٤) يوم يغشيهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) * (٥٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة ونافع " يقول " بالياء على معنى: ويقول لهم الموكلون بعذابهم. الباقون - بالنون - على وجه الاخبار من الله تعالى عن نفسه. وفي قراءة عبدالله ويقال لهم: على ما لم يسم فاعله.

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا: هلا أنزل على محمد آيات

(٢١٨)

اقترحوها أو آيات كما أنزل على موسى وعيسى، قال الله لهم " أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك " يا محمد " الكتاب " يعني القرآن " يتلى عليهم " فبين أن في القرآن دلالة واضحة وحجة بالغة

ينزاح معه العلة وتقوم به الحجة لا يحتاج معه إلى غيره في الوصول إلى العلم بصحة نبوته وأنه مبعوث من عند الله، مع أن اظهار المعجزات مع كونها لازاحة العلة يراعى فيها المصلحة. فاذا كانت المصلحة في اظهار نوع منها لم يجز إظهار غيرها، ولو اظهر الله الاعلام التي اقترحوها ثم لم يؤمنوا، لاقتضت المصلحة استئصالهم كما اقتضت في الامم الماضية، وقد وعد الله أن هذه الامة لا تعذب بعذاب الاستئصال، كما قال " وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الاولون " (١). والكفاية بلوغ حد ينافي الحاجة، يقال: كفى بكفي كفاية، فهو كاف. وقيل: إن الآية نزلت في قوم كتبوا شيئا من كتب أهل الكتاب شبه الخرافات، فقال الله تعالى:

* (أولم يكفهم) * القرآن تهديدا لهم ومنعا من التعرض لغيره. وقولهم: كفى الله معناه أنه فعل ما ينافي الحاجة بالنصرة. والتلاوة هي القراءة وسميت تلاوة لأنه يتلو حرف حرفا في التلاوة. والقرآن مشتق من جمع الحروف بعضها إلى بعض.

ثم بين الله تعالى * (إن في ذلك) * أي القرآن * (لرحمة) * أي نعمة * (وذكرى) * أي ما يتذكر به ومعتبر * (لقوم يؤمنون) * يصدقون به ويعتبرون وانما أضافه اليهم، لانهم الذين ينتفعون به. ثم أمر نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول * (كفى بالله) * أي كفى الله. والباء زائدة * (بيني وبينكم شهيدا) * يشهد بالحق.

والشاهد والشهيد واحد، وفيه مبالغة، والشهادة هي الخبر بالشئ عن مشاهدة تقوم به الحجة في حكم من أحكام الشرع، ولذلك لم يكن خبر من لا تقوم به

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٥٩ (*)

(٢١٩)

الحجة - في الزنا - شهادة وكان قذفا، ثم بين أن الشهيد الذي هو الله * (يعلم ما في السموات والارض) * ويعلم الذين صدقوا بالباطل وجدوا وحدانيته. ثم اخبر عنهم انهم الخاسرون الذين خسروا ثواب الجنة بارتكابهم المعاصي وجحدهم بالله، فكان ذلك الخسران الذي لا يوازيه خسران مال. وقوله * (والذين آمنوا بالباطل) * انما وصفهم بالايمان مقيدا بالباطل، كما يقال: فلان كافر بالطاغوت مقيدا، وانما الاطلاق لا يجوز فيهما.

ثم خاطب نبيه (صلى الله عليه وآله) فقال * (ويستعجلونك بالعذاب) * يعني هؤلاء الكفار * (يستعجلونك بالعذاب) * أن ينزل عليهم بجحودهم صحة ما تدعوهم به، كما قالوا * (فأمطر علينا حجارة من السماء) * (١)

و * (لو لا أجل مسمى) * يعني وقتنا قدره الله أن يعاقبهم فيه وهو يوم القيامة وأجل قدره الله أن يقيهم إليه لضرب من المصلحة. وقال الجبائي: ذلك يدل على أن التبقية لا تجب لكونه أصلح، لأنه علله بأنه قدر له أجلا * (لجاءهم العذاب) * الذي استحقوه * (ولياتينهم) * العذاب الذي يوعدهونه * (بغثة) * أي فجأة * (وهم لا يشعرون) * بوقت مجيئه. ثم قال * (يستعجلونك) * يا محمد * (بالعذاب) * أي يطلبون العذاب عاجلا قلة يقين منهم بصحته * (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) * أي كأنها محيططة بهم لما قد لزمهم بكفرهم من كونهم فيها. وقيل: معناه انه إذا كان يوم القيامة أحاطت بهم. ووجه ثالث - أنها تحيط بهم * (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون) * أي تكسبون أي ذوقوا جزاء اعمالكم المعاصي التي اكتسبتموها.

(١) سورة ٨ الانفال آية ٣٢ (*)

(٢٢٠)

قوله تعالى:

* (يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فأياي فاعبدون (٥٦) كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون (٥٧) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبؤنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين (٥٨) الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون (٥٩) وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) * (٦٠) خمس آيات بلا خلاف قرأ يحيى والعليمي " ثم إلينا يرجعون " بالياء على الخبر عن الغائب.

الباقون بالتاء على الخطاب. وقرأ اهل الكوفة إلا عاصما " لننؤينهم " بالتاء من أثويته منزلا أي جعلت له منزل مقام، والثواء المقام، الباقون بالياء من قولهم: بوأته منزلا، كما قال تعالى " مبوء صدق " في قوله " ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوء صدق " (١) و " إذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت " (٢) ويحتمل ان تكون اللام زائدة، كقوله * (ردف لكم بعض) * (٣) ويحتمل ان يكون المراد * (بوأنا) * لدعاء إبراهيم * (مكان البيت) * ويقول القائل: اللهم بوأنا مبوء صدق أي انزلنا منزل صدق والتبوء اتخاذ منزل يرجع إليه من يأوى إليه، وأصله

(١) سورة ١٠ يونس آية ٩٣ (٢) سورة ٢٢ الحج آية ٢٦ (٣) سورة ٢٧ النمل آية ٧٢ (*)

(٢٢١)

الرجوع من قوله * (بأعوا بغضب من الله) * (١) أي رجعوا، ومنه قول الحارث ابن عباد:
(بوئوا بشسع كليب) وقيل: معناه لننزلنهم من الجنة علالي.

يقول الله تعالى لخلقهم الذين صدقوا بوحدانيته وأقروا بنبوته نبيه * (يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة) * لبعث أقطارها، فاهربوا من أرض من منعكم فيها من الإيمان واخلص عبادتي فيها. وقيل: نزلت في مؤمني مكة أمروا بالهجرة عنها، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وابن زيد. وقيل * (أرضي واسعة) * بما أخرج فيها من الرزق لكم - ذكره مطرف بن عبدالله بن السخير العامري. وقال الجبائي: معناه إن أرض الجنة واسعة، وأكثر أهل التأويل على أن المراد به أرض الدنيا.

وقوله * (فاياي فاعبدون) * أي اعبدوني خالصا، ولا تطيعوا أحدا من خلقي في معصيتي. وقيل: دخول الفاء في الكلام للجزاء وتقديره إن ضاق موضع بكم فاياي فاعبدون لأن أرضي واسعة. و (إياي) منصوب بمضمر يفسره ما بعده.

ثم أخبر تعالى أن * (كل نفس) * أحيها الله بحياته خلقها فيها * (ذائقة الموت) * والذائق الواجد للجسم بحاسة إدراك الطعم * (ثم الينا ترجعون) * أي تردون إلينا فنجازيكم على قدر استحقاقكم من الثواب والعقاب. وفي ذلك غاية التهديد والزجر. ثم قال * (والذين آمنوا) * أي صدقوا بوحدانية الله، وأقروا بنبوته نبيه (صلى الله عليه وآله) * (وعملوا) * مع ذلك الأعمال * (الصالحات لنبوءنهم) * أي لننزلنهم * (من الجنة) * التي وعدنا الله المتقين * (غرفا) * أي مواضع عاليات * (تجري من تحتها الأنهار) * لأن الغرف تعلو عليها. وقيل: تجري من تحت

(١) سورة ٢ البقرة آية ٦١ وسورة ٣ آل عمران آية ١١٢ (*)

(٢٢٢)

أشجارها المياه. وقيل: أنهار الجنة في أخاديد تحت الأرض * (خالدين فيها) * أي يبقون فيها ببقاء الله.

ثم أخبر تعالى أن ذلك * (نعم أجر العاملين) * أي نعم الثواب والأجر للعاملين بطاعة الله * (الذين صبروا) * على الأذى في الله، وصبروا على مشاق الطاعات، ووكلوا أمورهم إلى الله وتوكلوا عليه في أرزاقهم وجهاد أعدائهم ومهمات أمورهم.

ثم قال تعالى " وكأين من دابة " معنى كآين (كم) وقد فسرناه في ما مضى (١) " لا تحمل رزقها " أي لا تدخره لغد - في قول علي بن الأقرم - وقال الحسن " لا تحمل رزقها " للادخار. وقيل: أن الحيوان أجمع من البهائم والطيور ونحوهما لا تدخر القوت لغدها - إلا ابن

آدم والنملة والفارة - بل تأكل منه كفايتها فقط. وقال مجاهد: معناه " لا تحمل رزقها " لا تطبيق حمل رزقها لضعفها " الله يرزقها " يعني تلك الدابة الضعيفة التي لا تقدر على حمل رزقها " وإياكم " أي ويرزقكم أيضا " وهو السميع العليم " يعني " السميع " لما يقول القائل في فراق وطنه " العليم " بما في نفسه، لانه عالم بجميع الاشياء وقيل: الآية نزلت في أهل مكة: المؤمنين منهم، فانهم قالوا لرسول الله:

ليس لنا بالمدينة اموال، ولا منازل، فمن أين المعاش، فأنزل الله الآية.
قوله تعالى:

* (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر

(١) انظر ٣ / ١٠ و ٦ / ٢٠٢ (*)

(٢٢٣)

الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون (٦١) الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شئ عليم (٦٢) ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون (٦٣) وما هذه الحيوة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون (٦٤) فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين * فلما نجبهم إلى البر إذا هم يشركون (٦٥) ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون) * (٦٦)

سبع آيات بصري وشامي، وست في ما عداه عدوا " مخلصين له الدين " ولم يعده الباقون. قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف، والمسيبي، والاعشى، والبرجمي والكسائي عن أبي بكر * (ليكفروا، وليتمتعوا) * ساكنة اللام. الباقون بالكسر إلا ناعما، لانه اختلف عنه فيه. قال ابو علي: من كسرهما وجعلها الجارة جعلها متعلقة بالاشراك، وكأن المعنى: يشركون ليكفروا، أي لا فائدة لهم في الاشراك إلا الكفر والتمتع بما يتمتعون به عاجلا من غير نصيب آجلا. ومن سكن جعل * (ليكفروا) * بمنزلة الامر، وعطف عليه، وكان

(٢٢٤)

على وجه التهديد. وقال غيره: تحتل هذه اللام أن تكون (لام كي) أي كأنهم اشركوا ليكفروا إذ لا يدفع الشرك في العبادة من كفر النعمة. ويجوز أن يكون لام الامر على وجه التهديد بدلالة قوله * (فسوف تعلمون) *.

يقول الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) ولئن سألت هؤلاء الكفار الذين جحدوا توحيدى وكفروا بنبوتك * (من خلق السموات والارض) * والمنشئ لها والمخرج لها من العدم إلى

الوجود * (وسخر الشمس والقمر) * في دورانها على طريقه واحدة لا تختلف؟؟ * (ليقولن) * في جواب ذلك * (الله) * الفاعل لذلك لانهم كانوا يقولون بحدوث العالم. والنشأة الاولى، ويعترفون بأن الاصنام لا تقدر على ذلك. ثم قال * (فأنى يؤفكون) * هؤلاء أي كيف يصرفون عن صانع ذلك والاخلاص لعبادته - في قول قتادة -.

ثم قال * (الله يبسط الرزق لمن يشاء) * أي يوسعه لمن يشاء من عباده بحسب ما تقتضيه المصلحة * (ويقدر) * أي يضيق مثل ذلك على حسب المصلحة ومنه قوله * (ومن قدر عليه رزقه) * (١) بمعنى ضيق على قدر ما فيه مصلحته. وقيل:

معنى ويقدر - ههنا - ويقبض رزق العبد بحسب ما تقتضيه مصلحته. وخص بذكر الرزق على الهجرة لئلا يخلفهم عنها خوف العيلة.

وقوله " ان الله بكل شئ عليم " أي عالم بما يصلح العبد وبما يفسده فهو يوسع الرزق ويبسط بحسب ذلك. ثم قال " ولئن سألتهم " يعني هؤلاء الذين ذكرناهم " من نزل من السماء ماء ؟" يعني مطرا " فأحيا به الارض من بعد موتها ليقولن " في الجواب عن ذلك " الله " ف " قل " يا محمد عند ذلك " الحمد لله " على فنون نعمه على ما وفقنا للاعتراف بتوحيده واخلاص

(١) سورة ٦٥ الطلاق آية ٧ (*)

(٢٢٥)

عبادته. ثم قال " بل اكثرهم " يعني هؤلاء الخلق " لا يعقلون " ما قلناه لعدو لهم عن طريق المفضي اليه. ثم قال تعالى وليس " هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب " لانها تزول كما يزول اللهو واللعب، لا بقاء لها، ولا دوام، كما يزول اللهو واللعب " وإن الدار الآخرة لهي الحيوان " أي الحياة على الحقيقة لكونها دائمة باقية " لو كانوا يعلمون " صحة ما أخبرناك به. وقال ابو عبيدة: الحيوان والحياة واحد.

ثم قال تعالى مخبرا عن حال هؤلاء الكفار انهم " إذا ركبوا في الفلك " وهي السفن وهاجت به الرياح وخافوا الهلاك " يدعو الله مخلصين له الدين " لا يوجهون دعاءهم إلى الاصنام والوثان " فلما نجاهم إلى البر " أي خلصهم إلى البر " إذا هم يشركون " أي يعودون إلى ما كانوا عليه من الاشرار معه في العبادة " ليكفروا بما آتيناهم " أي يفعلون ما ذكرناه من الاشرار مع الله ليحسدوا نعم الله التي أعطاهم إياها " وليتمتعوا " أي وليتذذوا في العاجل من دنياهم، فالتمتع يكون بالمناظر الحسنة، والاصوات المطربة. والمشام الطيبة والمآكل المذبة، ثم قال مهددا لهم " فسوف يعلمون " أي لابد أن يعلموا جزاء ما يفعلونه من الافعال من طاعة او معصية، فان الله يجازيهم بحسبها وذلك غاية التهديد.

قوله تعالى:

* (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون (٦٧) ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس في

(٢٢٦)

جهنم مثوى للكافرين (٦٨) والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) * (٦٩) ثلاث آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى لهؤلاء الكفار " اولم يروا " ومعناه اولم يعلموا " أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم " أي يتناول الناس من حوالي مكة بسرعة، وتتخذ أموالهم. ومنه خطف البصر لسرعته. ومنه اختطاف الطير لصيده ومنه الخطاف الذي يخرج الدلو. والمعنى بذلك تنبيههم على جميل صنع اله بهم، وسبوغ نعمه عليهم، بأن جعلهم في أمن مع ان الناس يؤخذون من حولهم. وذلك لا يقدر عليه غير الله. ثم قال مهددا لهم " أفبالباطل يؤمنون " ! أي يصدقون بعبادة الاصنام وهي باطلة مضمحلة " وبنعمة الله " التي انعم بها عليهم " يكفرون "؟ ! ثم قال " ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا " أي من اظلم لنفسه ممن جحد آيات الله وازاف اليه ما لم يقله ولم يأمر به من عبادة الاصنام وغيرها " او كذب بالحق لما جاءه " من نبوة محمد (صلى الله عليه وآله) من القرآن الذي أنزل عليه. ثم قال " أليس في جهنم مثوى للكافرين " أي موضع مقام للذين يجحدون نعم الله، ويكفرون بآياته.

ثم قال " والذين جاهدوا فينا " يعني جاهدوا للكفار بأنفسهم، وجاهدوا نفوسهم بمنعها عن المعاصي وإلزامها فعل الطاعة لوجه الله " لنهدينهم سبلنا " أي نرشدهم السبيل الموصل إلى الثواب. وقيل: معناه لنوفقنهم لازدياد الطاعات فيزدادوا ثوابهم. وقيل: معناه لنرشدهم إلى الجنة " وإن الله لمع المحسنين " أي ناصر الذين فعلوا الافعال الحسنة، ويدفع عنهم اعداءهم.

(٢٢٧)

٣٠ - سورة الروم وهي مكية في قول مجاهد وقتادة ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وقال الحسن: كلها مكية إلا قوله * (فسبحانه الله) * إلى قوله * (وحيث تظهرون) * وهي ستون آية كوفي وبصري ومدني الاول وشامي. وتسع وخمسون في المدني الاخير والمكي. بسم الله الرحمن الرحيم * (آلم (١) غلبت الروم (٢) في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون (٣) في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون (٤) بنصر الله بنصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) * (٥).

خمس آيات كوفي وبصري وشامي، وأربع في ما عداه، عد الكوفيون * (آلم) * وعدوا * (غلبت الروم) * وعد البصري والشامي * (غلبت الروم) *

(٢٢٨)

وعدوا * (في بضع سنين) * وعد المدني * (غلبت الروم) * وعد * (اسماعيل والمكي غلبت الروم، في بضع سنين) *.

قرأ ابن عمر، وابوسعيد الخدري * (غلبت الروم) * بفتح الغين، فقيل لابن عمر: على أي شيء غلبوا قال على ريف الشام، وهذا غلط، فان عند جميع المفسرين القزاة بالضم. والسبب في ذلك معروف، وهو ان الروم لما غلبهم فارس فرح مشركوا قريش بذلك من حيث ان اهل فارس لم يكونوا اهل كتاب، وساء ذلك المسلمين، فأخبر الله تعالى ان الروم وإن غلبهم فارس، فان الروم ستغلب في ما بعد فارس * (في بضع سنين) * أي في ما بين ثلاث سنين إلى عشر، فكان كما اخبر، وكان ذلك معجزة ظاهرة باهرة للنبي (صلى الله عليه وآله) وروي أن جماعة من الصحابة راهنوا أبي بن خلف وقيل: أبا سفيان. إن لم يصح الخبر ووافقهم على اربع سنين، فلما اخبروا النبي (صلى الله عليه وآله) قال: (زيدوهم في الخطر واستزيدوا في الاجل) ففعلوا، فغلبت الروم لفارس قبل المدة.

اخبر الله تعالى ان الروم غلبت عليها فارس في أدنى الارض من أرض الشام إلى ارض فارس، وانهم من بعد غلبتهم فارس سيغلبون في ما بعد في بضع سنين. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) ان البضع - ههنا - ما بين الثلاث إلى العشر.

وروي ان سبب ذلك ان الروم لما غلبتها فارس فرح المشركون بذلك وقالوا: أهل فارس لا كتاب لهم غلبوا اهل الروم، وهم اهل كتاب، فنحن لا كتاب لنا نغلب محمدا الذي معه كتاب، فانزل الله تعالى هذه الآيات تسلية للنبي والمؤمنين. وإن الروم وإن غلبها فارس، فانها ستغلب فارس في ما بعد في بضع سنين. قال ابوسعيد الخدري: كان النصر يوم بدر للفريقين للنبي (صلى الله عليه وآله)

(٢٢٩)

والروم على فارس، ففرح المؤمنون بالنصرين. وقيل: كان يوم الحديبية.
وقال الفراء: قوله " من بعد غلبهم " تقديره غلبتهم، فحذف الهاء للاضافة.
كما قال " وإقام الصلاة " (١).

قال الزجاج: الغلب والغلبة مصدران، مثل الحلب والحلبة، والغلبة الاستيلاء على القرن
بالقهر، غلب يغلب فهو غالب وذلك مغلوب، وتغلب تغلبا إذا تعرض للغلبة، غالبه معالبة. و
(الادنى) الاقرب، ونقيض الادنى الاقصى، ونقيض الاقرب الابدع، والمراد أدنى الارض إلى
جهة عدوهم.

والبضع القطعة من العدد ما بين الثلاث إلى العشر، اشتقاقه من بضعته إذا قطعت تبضيعة،
ومنه البضاعة القطعة من المال في التجارة، ومنه البضعة القطعة من البدن، والمبضع، لانه
يقطع به العرق. والمباضعة الجماع. وقال المبرد البضع ما بين العقدين في جميع الاعداد.
ثم اخبر تعالى بأن " لله الامر من قبل ومن بعد " تقديره من بعد غلبهم ومن قبل غلبهم، فقطع
عن الاضافة وبني لانه على الغاية وتفسيرها انه ظرف قطع عن الاضافة التي هي غاية،
فصار كبعض الاسم، فاستحق البناء وبني على الحركة، لان له اصلا في التمكن يستعمل.
وبني على الضمة لانها حركة لا تكون له في حال الاعراب. فهي ادل على البناء.
ثم قال " ويومئذ يفرح المؤمنون " أي يوم يغلب الروم لفارس يسر المؤمنون تفاؤلا بأن يغلبوا
هم المشركين. ثم بين بماذا يفرحون، فقال " بنصر الله ينصر من يشاء من عباده وهو العزيز
" في انتقامه من اعدائه " الرحيم " إلى من أناب إليه من خلقه.

(١) سورة ٢٤ النور آية ٣٧ (*)

(٢٣٠)

قوله تعالى:

* (وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٦) يعلمون ظاهرا من الحيوة
الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون (٧) أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والارض
وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون (٨) أولم يسيروا
في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الارض
وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم
يظلمون (٩) ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن) *
(١٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الحجاز والبصرة والبرجمي، والسمني، والكسائي عن أبي بكر " عاقبة الذين " بالرفع. الباقر بالنصب. من نصب جعلها خبر (كان) وقدمها على الاسم، واسمها يحتمل ان يكون السوء وتقديره: ثم كان السوء عاقبة الذين. ويحتمل ان يكون ما بعد (أن) في قوله " ان كذبوا ". ومن رفع - عاقبة - جعلها اسم (كان) والخبر السوء. ويحتمل ان يكون الخبر

(٢٣١)

(ان كذبوا) وتقديره ثم كان عاقبة المسئ التكذيب بآيات الله، أي لم يظفر في شركه وكفره إلا بالتكذيب، ويكون السوء على هذا نصبا على المصدر في قوله " وعد الله " نصب على المصدر، وتقديره: إن ما ذكره الله تعالى من ان الروم ستغلب فارس في ما بعد، وعد وعدا لله لا يخلف وعده، وتقديره وعدا لله وعده كما قال الشاعر:

يسعى الوشاة جنابيهما وقيلهم * إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول (١)

أي ويقولون: قيلهم، والاختلاف فعل خلاف ما تقدم الوعد به، وسبيل الوعد بالخير والوعيد بالشر واحد في انه إذا وقع فيه خلاف ما تضمنه كان خلفا، ثم قال " ولكن اكثر الناس لا يعلمون " صحة ما اخبرناك به لجهلهم بالله وتفريطهم في النظر المؤدي إلى معرفة الله، ولا يناقض قوله " لا يعلمون " لقوله " يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا " لان ذلك ورد مورد المبالغة لهم بالذم لتضييعهم على ما يلزمهم من أمر الله، كأنهم لا يعلمون شيئا. ثم بين حالهم في ما عقلوا عنه، وما عملوه. ومعنى " يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا " أي عمران الدنيا متى يزرعون ومتى يحصدون، وكيف يبنون ومن أين يعيشون وهم جهال بأمر الآخرة، وله مضيعون - ذكره ابن عباس - أي عمروا الدنيا واخربوا الآخرة. والظاهر هو الذي يصح ان يدرك من غير كشف عنه. فانه تعالى ظاهر بالدلالة. باطن عن حواس خلقه. والامور كلها ظاهرة له، لانه يعلمها من غير كشف عنها ولا دلالة تؤديه اليها. وكلما يعلم بأوائل العقول ظاهر وكلما يعلم بدليل العقل باطن، لان دليل العقل يجري مجرى الكشف عن صحة المعنى - في صفته - والغفلة ذهاب المعنى عن النفس كحال النائم، ونقيضه

(١) مر هذا البيت في ١ / ٣٠٠ و ٥ / ٣٨٨ (*)

(٢٣٢)

اليقظة. وهي حضور المعنى للنفس كحال المنتبه. ونقيضه السهو. ثم قال تعالى منبها لخلقها على وجه الدلالة على توحيده " اولم يتفكروا في انفسهم " فيعلموا ان الله لم يخلق " السموات والارض وما بينهما إلا بالحق " بمعنى الاستدلال بهما على توحيده "

واجل مسمى " للاشياء التي للعباد فيها مصلحة بالاعتبار به اذا تصوروا ذلك في الاخبار عنه انه مع كثرته وعظمه محصل بتسمية تنبئ عنه، لا يتأخر ولا يتقدم، بالاوصاف التي ذكرها الله تعالى عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه شئ منه.

ثم قال " وان كثيرا من الناس بقاء ربهم لكافرون " أي بقاء ثواب الله وعقابه كافرون. يجحدون صحة ذلك ولا يعترفون به.

ثم قال منبها لهم دفعة أخرى " اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم " من الامم " كانوا اشد منهم قوة وآثاروا الارض " أي حرثوها لعمارتها - في قول مجاهد والسدي - و " عمروها اكثر مما عمروها " هؤلاء يعني أهل مكة " وجاءتهم رسلكم بالبينات " يعني أتتهم الرسل بالدلالات من عند الله. وفي الكلام حذف، لان تقديره، فكذبوا بتلك الرسل، وجدوا الآيات فأهلكهم الله بأنواع العذاب. ثم قال " فما كان الله ليظلمهم " بأن يهلكهم من غير استحقاق ابتداء، وفي ذلك بطلان قول المجبرة: ان الله يبتدئ خلقه بالهلاك.

ثم قال " ولكن كانوا " هم " انفسهم يظلمون " بأن جحدوا نعم الله واشركوا في العبادة معه غيره، وكذبوا رسله وعصوه بأنواع العصيان، حتى استحقوا العقاب عاجلا وأجلا.

ثم قال " ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوء " اخبار منه تعالى بأن عاقبة

(٢٣٣)

الذين أساؤا إلى نفوسهم بالكفر بالله تعالى، وتكذيب رسله وارتكاب معاصيه " السوء " وهي الخصلة التي تسوء صاحبها إذا أدركها، وهي عذاب النار - في قول ابن عباس وقتادة وغيرهما - " أن كذبوا " ومعناه لان كذبوا " بآيات الله " أي جحدوا أدلته ولم يؤمنوا بها " وكانوا بها " بتلك الادلة " يستهزؤن " أي يسخرون منها ويتهزؤن بها. وقيل: معنى الآية أنهم حفروا الانهار وخرسوا الاشجار وشيدوا البنيان وصاروا إلى الهلاك على أسوء حال بالعصيان ولم يفكروا في الموت، وانهم يخرجون من الدنيا ويصيرون إلى الحساب والجزاء. قوله تعالى:

* (الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون (١١) ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون (١٢) ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين (١٣) ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون (١٤) فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون (١٥) وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فاولئك في العذاب محضرون (١٦) فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون (١٧) وله الحمد في السموات والارض

(٢٣٤)

وعشيا وحين تظهرون (١٨) يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الارض بعد موتها وكذلك تخرجون (١٩)

ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون (٢٠)
عشر آيات بلا خلاف.

قرأ ابو عمرو، وروح ويحيى والعلمي " ثم اليه يرجعون " بالياء على وجه الخبر. الباقرن -
بالتاء - على الخطاب.

يقول الله تعالى مخبرا عن نفسه أنه هو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده يبدؤهم ابتداء فيوجدتهم بعد أن كانوا معدومين على وجه الاختراع ثم يعيدهم أي يميتهم ويفنيههم بعد وجودهم، ثم يعيدهم ثانيا كما بدأهم أولا، ثم يرجعون اليه يوم القيامة ليجازيهم على أفعالهم، على الطاعات بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب.

واستدل قوم بهذه الآية على صحة الرجعة بأن قالوا " الله يبدؤ الخلق " معناه ابتداء خلقهم " ثم يعيده " إذا أماته في زمان الرجعة " ثم اليه ترجعون " يوم القيامة، وهذا ليس بمعتمد، لان لقائل أن يقول: قوله " ثم يعيده " يجوز أن يكون المراد به احياءهم في القبر للمسألة التي لا خلاف فيها " ثم اليه ترجعون " يوم القيامة، فلا يمكن الاعتماد عليه. و (البدء) أول الفعل وهو على وجهين:

احدهما - انه اول الفعل وهو جزء منه مقدم على غيره.

والثاني - انه موجود قبل غيره من غير طريق الفعلية، يقال: بدأ يبدؤ ببدءا وابتداء يبتدئ ابتداء. والابتداء نقيض الانتهاء، والبدؤ نقيض العود. والخلق - ههنا

(٢٣٥)

- بمعنى المخلوق. ومثله قوله " هذا خلق الله " وتقول هذا الخلق من الناس، وقد يكون الخلق مصدرا من خلق الله العباد، والخلق كالأحداث والمخلوق كالمحدث.

والاعادة فعل الشئ ثانية. وقولهم: اعاد الكلام فهو على تقدير ذلك، كأنه قد اتى به ثانية إذا اتى بمثله، وإن كان الكلام لا يبقى ولا يصح اعادته. وقد يكون الاعادة فعل ما به يكون الشئ إلى ما كان من غير ايجاد عينه كاعادة الكتاب إلى مكانه. ومثل الاعادة الرجعة والنشأة الثانية.

وقوله " ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون " قيل: معناه يبيسون، وقيل:

يتحIRON، وقيل: تنقطع حججهم، فالابلاس التحير عند لزوم الحجة، فالمجرم يبلس يوم القيامة، لانه تظهر جلائل آيات الآخرة التي تقع عندها على الضرورة فيتحير أعظم الحيرة، قال العجاج:

يا صاح هل تعرف رسما مكرسا * قال نعم أعرفه وأبلسا (١)
وقوله " ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء " أي لم يكن في أوثانهم التي كانوا يعبدونها من دون
الله، ويزعمون أنها تشفع لهم عند الله من يشفع لهم. وقيل: شركاؤهم لانهم كانوا يجعلون لها
نصيبا في أموالهم.

وقيل: شركاؤهم الذين جعلوهم شركاء في العبادة " وكانوا بشركائهم كافرين " أي يجحدون
شركاءهم ذلك اليوم، لانه يحصل لهم المعرفة بالله ضرورة. وأصل الشرك إضافة الملك إلى
اثنين فصاعدا على طريق القسمة التي تمنع من اضافته إلى الواحد، فالانسان على هذا يكون
شريكا لانسان آخر في الشيء إذا ملكاه جميعا، والله تعالى مالك له، ملكه هذا الانسان

(١) قد مر في ١ / ١٥٣ و ٢ / ٣٠٩ و ٣ / ٥٧٨ و ٤ / ٥٠٤ (*)

(٢٣٦)

او لم يملكه.

وقوله " ويوم تقوم الساعة " يعني القيامة " يومئذ ينفرقون " قيل:
يتميز المؤمنون من الكافرين. وقيل: معناه لا يلوي واحد منهم على حاجة غيره، ولا يلتفت
اليه، وفي ذلك نهاية الحث على الاستعداد والتأهب لذلك المقام.
ثم قال " فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات " يعني صدقوا بتوحيد الله وصدق رسله، وعملوا
الصالحات، وتركوا القبائح " فهم في روضة يحبرون " أي يسرون سرورا تبين أثره عليهم،
ومنه الحبرة وهي المسرة، ومنه الحبر العالم، والتحبير التحسين الذي يسر به. وانما خص
ذكر الروضة - ههنا - لانه لم يكن عند العرب شئ أحسن منظرا ولا اطيب ريحا من
الرياض، كما قال الشاعر:

ما روضة من رياض الحزن معشبة * خضراء جاد عليها مسبل هطل يضاحك الشمس منها
كوكب شرق * مؤزر بعميم النبت مكتهل يوما بأطيب منها نشر رائحة * ولا بأحسن منها إذ
دنا الاصل (١)

والحبرة هي السرور والغبطة، قال العجاج:

فالحمد لله الذي أعطى الحبر * موالى الحق إن المولى شكر (٢)

ثم بين تعالى أن الكفار في ضد ما فيه اهل الجنة، فقال " وأما الذين كفروا " بنعم الله وجحدوا
آياته ثم انكروا لقاء ثوابه وعقابه يوم القيامة " فهم في العذاب محضرون " أي محضرون
فيها، ولفظة الاحضار لا تستعمل إلا

(١) قائله الاعشى ديوانه (دار بيروت) ١٤٥ (٢) اللسان (حبر) (*)

(٢٣٧)

فيما يكرهه الانسان، ومنه حضور الوفاة، ويقال: احضر فلان مجلس السلطان إذا جئ به بما لا يؤثره، والاحضار إيجاد ما به يكون الشئ حاضرا إما بايجاد عينه كاحضار المعنى في النفس او بايجاد غيره، كايجاد ما به يكون الانسان حاضرا.

ثم قال تعالى " سبحان الله " أى تنزيها لله تعالى مما لا يليق به ولا يجوز عليه من صفات نقص او ينافي عظمه، وما اختص به من الصفات. وقوله " حين تمسون وحين تصبحون " فالامساء الدخول في المساء، والمساء مجئ الظلام بالليل، والاصباح نقيضه، وهو الدخول في الصباح، وهو مجئ ضوء النهار.

ثم قال " وله الحمد في السموات " يعني الثناء والمدح في السموات " والارض وعشيا " أى وفي العشي " وحين تظهرون " أى حين تدخلون في الظهيرة وهي نصف النهار. وإنما خص تعالى العشي والاظهار في الذكر بالحمد وإن كان الحمد واجبا في جميع الاوقات، لأنها أحوال تذكر باحسان الله، وذلك أن انقضاء احسان اول إلى احسان يقتضي الحمد عند تمام الاحسان والاحذ في الآخر، كما قال تعالى " وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين " (١).

وقيل: إن هذه الآية تدل على الصلوات الخمس في اليوم واللييلة، لان قوله " حين تمسون " يقتضي المغرب والعشاء الآخرة " وحين تصبحون " يقتضي صلاة الفجر * (وعشيا) * يقتضي صلاة العصر * (وحين تظهرون) * يقتضي صلاة الظهر - ذكره ابن عباس، ومجاهد - .

ثم اخبر تعالى انه الذى * (يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) *

(١) سورة ١٠ يونس آية ١٠ (*)

(٢٣٨)

قال ابن عباس وابن مسعود: معناه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي فانه يخرج الانسان وهو الحي من النطفة، وهي الميتة، ويخرج الميتة وهي النطفة من الانسان وهو حي. وقال قتادة: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

وقوله * (ويحي الارض بعد موتها) * اي يحييها بالنبات بعد جدوبها، ولا يجوز أن يكون المراد إحياء الارض حقيقة، كما لا يكون الانسان أسدا حقيقة إذا قيل فلان اسد، لانه يراد بذلك التشبيه والاستعارة، فكذلك احياء الارض بعد موتها، كأنها تحيا بالنبات الذى فيها. وقوله * (وكذلك تخرجون) * قرأ اهل الكوفة إلا عاصما والاعشى من طريق الطبرى - بفتح التاء -

أضاف الفعل الذى هو الخروج اليهم. الباقون - بالضم - بمعنى يخرجهم الله، والمعنيان قريبان، لانهم إذا أخرجوا، فقد خرجوا، والمعنى مثل ما يخرج النبات من الارض كذلك يخرجكم الله بعد ان لم يكن كذلك، تخرجون إلى دار الدنيا بعد ان لم تكونوا، ويعيدكم يوم القيامة بعد ان كنتم قد اعدمكم الله أى لا يشق عليه ذلك. كما لا يشق عليه هذا. ثم قال تعالى * (ومن آياته) * أي أدلته الواضحة * (ان خلقكم من تراب) * يعني انه خلق آدم الذى هو ابوكم وأصلكم - في قول قتادة وغيره - * (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) * من نسله وذريته، و * (تتفرقون) * في أطراف الارض فهلا دلکم ذلك على انه لا يقدر على ذلك غيره تعالى؟ وانه الذى يستحق العبادة دون غيره من جميع خلقه. وفي هذه الآيات - دلالة واضحة على صحة القياس العقلي، وحسن النظر بلا شك، بخلاف ما يقول قوم: ان النظر باطل. فأما دلالاته على القياس

(٢٣٩)

الشرعي فبعيد لا يعول على مثله.

قوله تعالى:

* (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يفتكرون (٢١) ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين (٢٢) ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغواكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون (٢٣) ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتا إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (٢٤) ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الارض إذا أنتم تخرجون) * (٢٥) خمس آيات بلا خلاف.

روى حفص عن عاصم " العالمين " بكسر اللام الاخيرة. الباقون بفتحها فمن كسرهما اسند (الآيات) إلى العلماء، لانهم الذين ينظرون فيها، ويعتبرون بها، كما قال " هدى للمتقين " (١) ومن فتح اللام أسند (الآيات) إلى جميع

(١) سورة ٢ البقرة ٢ (*)

(٢٤٠)

المكلفين الذين يتمكنون من الاستدلال بها والاعتبار بها، سواء كانوا عالمين بها او جاهلين، لان الامكان حاصل لجميعهم وهو أعظم فائدة.

يقول الله سبحانه مخاطبا لخلقه منبها لهم على توحيده وإخلاص العبادة له ب " أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها " والنفس هي الذات في الاصل ثم يستعمل على وجه التأكيد لقولهم: رأيت زيدا نفسه، ويعبر بها عن الروح وغير ذلك. وقد بيناه (١) وقال قتادة المعنى - وهنا - أنه خلقت حواء من ضلع آدم. وقال غيره: المعنى خلق لكم من شكل أنفسكم أزواجا، وقال الجبائي: المعنى خلق أزواجكم من نطفكم. قال البلخي: وذلك يدل على قوله " هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها، فلما تغشاها حملت حملا خفيفا " (٢) انه يريد بعض الخلق دون بعض. والزوجة المرأة التي وقع عليها عقد النكاح. والزوج الرجل الذي وقع عليه عقد النكاح.

وقد يقال: للمرأة زوج إذا لم يلبس للاشعار بأنهما نظيران في عقد النكاح عليهما قال الله تعالى " إسكن انت وزوجك الجنة " (٣) وقوله * (لتسكنوا اليها) * يعني سكنون إنس وطمأنينة، بأن الزوجة من النفس إذ هي من جنسها ومن شكلها فهو أقرب إلى الالفة والميل بالمودة منها لو كانت من غير شكلها.

وقوله * (وجعل بينكم مودة ورحمة) * أي جعل بينكم رقة التعطف إذ كل واحد من الزوجين يرق على الآخر رافة العطف عليه، بما جعله الله في قلب كل واحد لصاحبه ليتم سروره.

(١) انظر ٥ / ٦٣ - ٦٤ (٢) سورة ٧ الاعراف آية ١٨٨ (٣) سورة ٢ البقرة آية ٣٥ وسورة ٧ الاعراف آية ١٨ (*)

(٢٤١)

ثم قال * (إن في ذلك) * يعني في خلق الأزواج مشاكلة للرجال * (لآيات) * أي لدلالات واضحات * (لقوم ينفكرون) * في ذلك ويعتبرون به، والفكر والاعتبار والنظر واحد، فالفكر في أن الأزواج لاي شئ خلقت؟ ومن خلقها؟ ومن انعم بها؟ ومن جعلها على الاحوال التي يعظم السرور بها؟ وكيف لا يقدر احد من العباد على ذلك؟ وذلك من اعظم الدلالة على أن لها خالقا مخالفا لها ومنشئا حكيما يستحق العبادة، ولا يستحقها غيره.

ثم نبه على آية أخرى فقال * (ومن آياته) * الدالة على توحيده ووجوب اخلاص العبادة له " خلق السموات والارض " وما فيهما من عجائب خلقه من النجوم والشمس والقمر وجريانها على غاية الحكمة والنظام الذي يعجز كل أحد عنها وبما في الارض من أنواع الاشجار والنبات وأصناف الجمادات التي ينتفع بها وفنون النعم التي يكثر الانتفاع بها " واختلاف ألسنتكم وألوانكم " فالالسنة جمع لسان، واختلافها ما بناها الله تعالى، وهيئاتها مختلفة في الشكل والهيئة وتأتي الحروف بها " واختلاف السنتكم " أي اختلاف مخارجها التي لا يمكن الكلام إلا

بكونها كذلك. وقال قوم: المراد بالالسنة اختلاف اللغات، وهو جواب من يقول: إن اللغات أصلها من فعل الله دون المواضعة. فأما من يقول: اللغات مواضعة فإن تلك المواضعة من فعلهم دون فعل الله، غير أنه لما كانت الآلات التي تتأتى بها هذه الضروب لا يقدر على تهيئها كذلك غير الله جاز أن تضاف اللغات إليه تعالى على ضرب من المجاز " والوانكم " أي واختلاف ألوانكم من البياض والحمرة والشقرة والصفرة، وغير ذلك " إن في ذلك لآيات " أي إن في خلق جميع ذلك لدلالات واضحات لجميع خلقه الذين خلقهم، واكمل عقولهم

(٢٤٢)

ومن كسر اللام اضاف الاعتبار بها إلى العلماء، لانهم المنتفعون بها دون غيرهم فكأنها خلقت لهم دون غيرهم، كما قال " هدى للمتقين " (١) وإن كانت لجميع المكلفين.

ثم قال " ومن آياته " الدالة على توحيده واخلاص العبادة له * (منامكم بالليل والنهار) * فالمنام والنوم واحد، لان في النوم راحة للجسد من الكد الذي يلحقها، والتعب الذي يصيبها * (وابتغواكم) * أي طلبكم المعاش وما ينفعكم * (من فضله) * أي مما يتفضل الله به عليكم. قال البلخي: ويجوز ان يكون المراد بالابتغاء المبتغى، فلذلك كان دلالة عليه دون فعل العباد، وانما يكون فعل الله دلالة عليه لما كان باقداره وإهدائه إلى مرادته وترغيبه فيه وتسهيله له * (إن في) * خلق الله تعالى * (ذلك لآيات) * واضحات على توحيده * (لقوم يسمعون) * ذلك ويقبلونه ويفكرون فيه، لان من لا يفكر فيه ولا ينتفع به كأنه لم يسمعه.

ثم قال * (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا) * والبرق نار تحدث في السحاب، بين تعالى أنه إنما يخلقه ليخافوا من عذابه بالنار على معصيته والكفر به، ويطمعوا في ان يتعقب ذلك مطر فينتفعون به * (وينزل من السماء ماء) * يعني غيثا ومطرا * (فيحيي به الارض بعد موتها) * أي بعد انقطاع الماء عنها وجدو بها. وقيل: * (خوفا) * من المطر في السفر * (وطمعا) * فيه في الحضر.

وقيل: * (خوفا) * من الصاعقة * (وطمعا) * في الغيث * (إن في) * خلق الله * (ذلك لآيات) * أي دلالات واضحة * (لقوم يعقلون) * أي يفكرون فيه، لان من لا يفكر فيه ولا ينتفع به وإن كان عاقلا، فكأنه لا عقل له، وقيل:

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢ (*)

(٢٤٣)

في قوله * (ومن آياته يريكم البرق) * ثلاثة أقوال:

أحدهما - ان تقديره ومن آياته أن يريكم. فحذف (أن) كما قال طرفة:
ألا ايهذا اللائمي احضر الوغى * وأن اشهد للذات هل انت مخلدي (١)

الثاني - انه حذف (أنه) لدلالة (من) عليها، كما قال الشاعر:

وما الدهر إلا تارتان فمنهما * أموت واخرى ابتغي العيش اكح (٢)
أي فتارة أموت. وفي الآية حذف تقديره: ومن آياته آية يريكم البرق.
الثالث - ويريكم البرق من آياته على التقديم والتأخير من غير حذف.

ثم قال * (ومن آياته) * الدالة على ما ذكرناه * (أن تقوم السماء والارض بأمره) * بلا
دعامة تدعمها ولا علاقة تعلق بها، بل لان الله تعالى يسكنها حالا بعد حال لاعظم دلالة على
أنه لا يقدر عليه سواه * (ثم إذا دعاكم دعوة من الارض) * أي أخرجكم من الارض ومن
قبوركم بعد أن كنتم أمواتا يبعثكم ليوم الحساب فعبّر عن ذلك بما هو بمنزلة الدعاء، وبمنزلة
* (كن فيكون) * في سرعة تأتي ذلك، وأمتناع التعذر عليه، وإنما ذكر هذه المقدورات على
اختلافها وعظم شأنها ليدل على انه القادر الذي لا يعجزه شئ. وفي الآيات دلالة واضحة على
فساد مذهب القائلين بان المعارف ضرورية لانها لو كانت ضرورة لم يكن للتببيه على هذه
الادلة وجه ولا فائدة فيه لان ما يعلم ضرورة لا يمكن الاستدلال عليه.

(١) ديوانه (دار بيروت) ٣٢ وقد مر في ١ / ٣٢٧ من هذا الكتاب (٢) قائله ابن مقبل، الكتاب لسبويه وقد مر في
٣ / ٢١٢ و ٤ / ٧٧ من هذا الكتاب. (*)

(٢٤٤)

قوله تعالى:

* (وله من في السموات والارض كل له قانتون (٢٦) وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو
أهون عليه وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم (٢٧) ضرب لكم مثلا
من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيماكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم
كخيفتكم أنفسكم كذلك فصل الآيات لقوم يعقلون (٢٨) بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم
فمن يهدي من أضل الله ومالهم من ناصرين (٢٩) فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي
فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) * (٣٠)
خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى بعد أن ذكر ما يدل على توحيده، وإخلاص العبادة له أن * (له من في
السموات والارض) * من العقلاء فانه يملكهم ويملك التصرف فيهم، وليس لاحد منعه منه
والاعتراض عليه، وخص العقلاء بذلك لان ما عداهم في حكم التبعية.

ثم اخبر عن جميع من في السموات والارض بأنهم قانتون له. قال مجاهد:

(٢٤٥)

معناه مطيعون وقال ابن عباس: معناه مصلون. وقال عكرمة: مقرون له بالعبودية. وقال الحسن: كل له قائم بالشهادة فالقانت الدائم على أمر واحد فالملائكة وغيرهم من المؤمنين دائمون على أمر واحد في الذلة لله في لزوم الطاعة لله تعالى، والكافرون وغيرهم من الفساق دائمون على أمر واحد في الذلة لله - عزوجل - إلا أن منهم من هو بخلقته وفعله، ومنهم من هو بخلقته.

ثم قال تعالى * (وهو الذي يبدؤ الخلق) * اي يخنرهم ابتداء وينشئهم " ثم يعيده " إذا أعدمه * (وهو أهون عليه) * قال ابن عباس وقتادة ومجاهد:

اي هو ايسر، وكل هين. وروي عن ابن عباس ايضا: ان معناه وهو هين عليه، ف (افعل) بمعنى (فاعل) وقال بعضهم * (وهو أهون) * على الخلق، لان الانشاء أولا من نطفة إلى علقة ومن علقة إلى مضغة على التدريج، وفي الاعادة يعادون دفعة واحدة، وحكي عن ابن عباس: انه قال المعنى وهو أهون عليه عندكم، لانكم أقررتم بأنه يبدؤ الخلق، فاعادة الشئ عند المخلوقين أهون من ابتدائه، قال الشاعر - في أهون بمعنى هين:

تمنى رجال أن أموت وان أمت * فتلك سبيل لست فيها باوحد (١)

أي بواحد. وقال الراجز:

قبحتموا يا آل زيد نفرا * الام قوم أصغرا واكبرا أي صغيرا وكبيرا، وقال معن بن أوس:

لعمرك ما ادري واني لاوجل * على أينا تعدو المنية أول (٢)

أي لواجل. والله أكبر بمعنى تكبير. ويقال للسلطان: الاعظم

(١) قد مر في ٧ / ١٦١ (٢) قد مر في ٥ / ٩١ (*)

(٢٤٦)

بمعنى عظيم.

وقوله * (وله المثل الاعلى في السموات والارض) * قال قتادة وهو قول:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لانه دائم في السموات والارض، يقول الثاني فيه كما قال الاول. وقيل: المعنى وله الصفة العليا، لانها دائرة يصفه بها الثاني كما يصفه بها الاول.

وقيل: النشأة الثانية يا أهل الكفر ينبغي أن تكون أهون عليه. ثم قال * (وله المثل الاعلى) *

فذلك دليل على انه مثل ضربه الله.

ذكره الفراء.

وقوله * (وهو العزيز الحكيم) * يعني في انتقامه من اعدائه، الحكيم في تدبيره لخلقه. ثم قال * (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء) * المعنى إنكم إذا لم ترضوا في عبيدكم أن يكونوا شركاء لكم في أموالكم وأملاككم، فكيف ترضون لربكم ان يكون له شركاء في العبادة ! ! . وقال قتادة: كما لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاءكم في فراشكم وأزواجكم كذلك لا ترضوا في ربكم الذي خلقكم أن يعدل به أحد من خلقه فيشرك بينهما في العبادة.

وقوله * (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) * قال ابو مخرمة: معناه تخافون عبيدكم أن يشاركوكم في أموالكم كما تخافون الشرك من نظرائكم. وقيل: تخافون ان يرثوكم كما يرث بعضكم من بعض - ذكره ابن عباس - وقيل: معناه تخافونهم كخيفتكم أنفسكم في اتلاف المال بانفاقه. ثم قال * (كذلك فصل الآيات لقوم يعقلون) * أي كما ميزنا لكم هذه الأدلة لفصل الأدلة لقوم يعقلون، فيتدبرون ذلك ويفكرون فيها. وقال سعيد ابن جبير: كان اهل الجاهلية إذا لبوا قالوا: لبيك اللهم لبيك لا شريك

(٢٤٧)

لك إلا شريك هولاك تملكه وما ملك. فأنزل الله الآية ردا. عليهم وإنكار لقولهم ثم قال تعالى * (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم) * معناه إن هؤلاء الكفار لم يتفكروا في أدلة الله، ولا انتفعوا بها بل اتبعوا أهواءهم وشهواتهم بغير علم منهم بصحة ما اتبعوه. ثم قال * (فمن يهدي من أضل الله) * وقيل: المعنى من يهدي إلى الثواب من أضله الله عنه. وقيل: المعنى من يحكم بهداية من حكم الله بضلالتهم. ثم قال * (وما لهم من ناصرين) * أي ليس لهم من ينصرهم ويدفع عذاب الله إذا حل بهم.

ثم قال تعالى مخاطبا لنبيه (صلى الله عليه وآله) والمراد به جميع المكلفين * (فأقم وجهك للدين حنيفا) * أمرهم الله بأن يوجهوا عبادتهم إلى الله على الاستقامة دون الاشرار في العبادة. ثم قال * (فطرة الله التي فطر الناس عليها) * قال مجاهد:

فطرة الله الاسلام. وقيل: فطر الناس عليها ولها وبها بمعنى واحد، كما يقول القائل لرسوله: بعثتك على هذا ولهذا وبهذا بمعنى واحد. ونصب * (فطرة الله) * على المصدر، وقيل تقديره: اتبع فطرة الله التي فطر الناس عليها، لان الله تعالى خلق الخلق للايمان، ومنه قوله (صلى الله عليه وآله) (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه) ومعنى الفطر الشق ابتداء يقولون: أنا فطرت هذا الشيء اي أنا ابتدأته، والمعنى خلق الله الخلق للتوحيد والاسلام.

وقوله * (لا تبديل لخلق الله) * قال مجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والضحاك وابن زيد وإبراهيم: لا تبديل لدين الله الذي أمركم به من توحيده وعدله وإخلاص العبادة له، وهو قول ابن عباس وعكرمة. وقيل: المراد نفي

(٢٤٨)

الخطأ. ثم قال * (ذلك الدين القيم) * أي ما بيناه من التوحيد والعدل وإخلاص العبادة لله هو الدين القيم أي المستقيم الذي يجب اتباعه * (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) * صحة ذلك لعدولهم عن النظر فيه. قوله تعالى:

* (منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلوة ولا تكونوا من المشركين (٣١) من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كان حزب بما لديهم فرحون (٣٢) وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون (٣٣) ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون (٣٤) أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) * (٣٥) خمس آيات بلا خلاف. قرأ حمزة والكسائي وابن عامر * (فارقوا) * بألف وتخفيف الراء. الباقيون بغير الف وتشديد الراء. من قرأ بألف أراد: فارقوا دينهم الذي أمروا باتباعه. ومن شدد أراد: انهم اختلفوا في دينهم.

قوله * (منيبين إليه) * نصب على الحال وتقديره فاقم وجهك للدين يا محمد أنت والمؤمنون منيبين إلى الله، ولا يجوز أن يكون حالا * (من فطرة الله التي فطر الناس عليها) * لأنه ما فطرهم منيبين، والآنابة الانقطاع إلى الله تعالى

(٢٤٩)

بالطاعة وأصله على هذا القطع. ومنه الناب، لأنه قاطع، وأتاب في الامر إذا نشب فيه، كما ينشب الناب المقاطع، ويجوز أن يكون من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد مرة، فيكون على هذا الانابة التوبة التي يجدها مرة بعد مرة.

ثم قال * (واتقوه) * أي اجتنبوا معاصيه، واتقوا عقابه * (وأقيموا الصلاة) * التي أمركم الله تعالى بها أي دوموا عليها، وقوموا بادائها، فالصلاة وإن كانت في حكم المجمل، ولم يبين شروطها - في الآية - فقد أحال على بيان النبي (صلى الله عليه وآله) هذا إذا أراد بالصلاة تعريف الجنس، وإن أراد العهد الذي استقر في الشرع، فهو على ما قد استقر في الشرع * (ولا تكونوا من المشركين) * نهي لهم عن أن يكونوا من جملة من أشرك بعبادة الله سواه، ثم

قال * (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا) * قال الفراء: يجوز ان يكون التقدير: ولا تكونوا من المشركين من جملة الدين فرقوا دينهم، ويجوز أن يكون من الذين فرقوا ابتداءً، وتقديره الذين تفرقوا وكانوا شيعا * (كل حزب بما لديهم فرحون) * فالنفريق جعل أحد الشيئين مفارقا لصاحبه وضده الجمع، وهو جمع أحد الشيئين إلى صاحبه، فنفرق الدين جعل احدهما ليس مع الآخر في معنى ما يدعو اليه العقل، وهو منكر لمخالفته داعي العقل، والدين العمل الذي يستحق به الجزاء، ودين الاسلام العمل الذي عليه الثواب. ولو جمعوا دينهم في أمر الله ونهيه لكانوا مصيبين، ولكنهم فرقوا بأخراجه عن حد الامر والنهي من الله وكانوا بذلك مبطلين خارجين عن الحق الذي أمر الله به. ومن قرأ * (فارقوا) * بألف أراد: فارقوا دينهم الذي أمرهم الله باتباعه.

(٢٥٠)

وقوله * (وكانوا شيعا) * أي فرقا، والشيع الفرق التي يجتمع كل فريق منها على مذهب، خلاف مذهب الفريق الآخر، وشيعة الحق هم الذين اجتمعوا على الحق. وكذلك شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) هم الذين اجتمعوا معه على الحق وقال قتادة: المعنى بقوله * (من الذين فرقوا دينهم) * اليهود والنصارى، وقال غيره: كل من خالف دين الحق الذي أمر الله به داخل فيه وهو أعم فائدة.

ثم اخبر تعالى ان * (كل حزب) * أي كل فريق * (بما لديهم فرحون) * من الاعتقاد الذي يعتقدونه يسرون به لاعتقادهم أنه الحق دون غيره.

وقوله " وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه " قال الحسن: إذا أصابهم مرض او فقر دعوا الله تعالى راجعين اليه مخلصين في الدعاء له " ثم إذا أذاقهم منه رحمة " بأن يعافيهم من المرض أو يغنيهم من الفقر نعمة منه تعالى عليهم " إذا فريق منهم بربهم يشركون " أي يعودون إلى عبادة غير الله بخلاف ما يقتضي العقل في مقابلة النعمة بالشكر. ثم بين أنهم يفعلون ذلك " ليكفروا بما آتيناهم " أي بما آتاهم الله من نعمه. ثم قال تعالى مهددا لهم " فتمتعوا " أي انتفعوا بهذه النعم الدنيوية كيف شئتم " فسوف تعلمون " ما فيه من كفركم ومعصيتكم أي تصيرون في العاقبة إلى عذاب الله وأليم عقابه.

وقوله " أم انزلنا عليهم سلطانا " اي هل أنزلنا عليهم برهانا وحجة يتسلطون به على ما ذهبوا اليه، ويحتمل أن يكون المراد هل ارسلنا اليهم رسولا فاذا حمل على البرهان، فهو بمنزلة الناطق بالامر لظهاره إياه. وقوله " فهو يتكلم بما كانوا به يشركون " اي هل انزلنا عليهم سلطانا اي رسولا يتكلم بأنا ارسلناه بما يدعونه من الاشرار مع الله في العبادة، فإنهم لا يقدرن على ذلك ولا يمكنهم ادعاء حجة عليه ولا برهان، والكلام وإن خرج مخرج

(٢٥١)

الاستفهام فالمراد به التبيكيت.

قوله تعالى:

* (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون (٣٦)
أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون (٣٧)
فأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم
المفلحون (٣٨) وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكوة
تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون (٣٩) الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم
هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون) * (٤٠) خمس
آيات بلا خلاف.

قرأ نافع وابوجعفر " لتربوا " بالتاء وسكون الواو، الباقيون بالياء وفتح الواو، وقرأ ابن كثير " وما آتيتم من ربا " بالقصر. الباقيون بالمد. واتفقوا على المد في قوله " وما آتيتم من زكوة " وقرأ حمزة والكسائي وخلف " عما يشركون " بالياء. الباقيون بالتاء. قال ابو علي: المعنى وما آتيتم من هدية

(٢٥٢)

أهديتموها لتعوضوا أكثر منها، فلا يربو عند الله، لانكم قصدتم زيادة العوض دون وجه الله، وهو كقوله " ولا تمنن تستكثر " (١) فمن مد اراد أعطيتم من قوله " فأتاهم الله ثواب الدنيا " (٢) ومن قصره فالمعنى يؤل إلى قول من مد إلا انه على لفظ (فعلتم) ومدهم لقوله " وما آتيتم من زكوة " فلقوله " وإيتاء الزكوة " (٣) ولو قال آتيت الزكوة لجاز أن يعني به: فعلتها ولكن لفظ القرآن على الإيتاء. ومن ضم " لتربوا " فالمعنى لتصيروا ذوي زيادة في ما آتيتم من أموال الناس أي يستدعونها من أربى إذا صار ذا زيادة مثل أطف واضرب. ومن فتح أسند الفعل إلى الربوا المذكور وقدر المضاف، فحذفه كما قيل: اجتذاب أموال الناس واجتلابه. ويجوز ذلك. وسمي هذا المدفوع على

هذا الوجه ربا لما كان فيه من الاستزادة.

يقول الله تعالى مخبرا عن خلقه بأنه إذا أذاقهم رحمة من عنده بأن ينعم عليهم بضرور النعم ويصح أجسامهم ويدر أرزاقهم ويكثر. مواشيتهم وغير ذلك من النعم، إنهم يفرحون بذلك ويسرون به ف (إذا) شرط وجوابه " فرحوا بها " وإنما جاء الجزاء ب (إذا) ولم يجئ ب (حين)، لأن (إذا)

أشبهه بالفاء من جهة البناء، والزم للفعل من جهة أنه لا يضاف إلى مفرد، فصار بمنزلة الفاء في ترتيب الفعل، وليس كذلك (حين). وشبه إدراك الرحمة بإدراك الطعم، فسماه ذوقا. " وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم " هو اخبار منه تعالى أنه إن أصابهم عذاب من الله تعالى جزاء على ما كسبته أيديهم " إذا هم يقتنون "

(١) سورة ٧٤ المدثر آية ٦ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ١٤٨ (٣) سورة ٢٤ النور آية ٣٧ وسورة ٢١ الانبياء آية ٧٣ (*)

(٢٥٣)

أي يبأسون من رحمة الله، والقنوط اليأس من الفرج، قال جهد الارقط:
قد وجدوا الحجاج غير قانط (١)

وإنما قال " بما قدمت أيديهم " ولم يقل بما قدموا على التغليب للاكثر الاظهر، لان اكثر العمل وأظهره لليدين، والعمل بالقلب وإن كان كثيرا فهو أخفى، وانما يغلب الاظهر. ويجوز أن يكون ما يصيبهم - من مصائب الدنيا والآلام بها - بعض العقاب، فلذلك قال " بما قدمت ايديهم " ويجوز ان يكون لما فعلوا المعاصي اقتضت المصلحة أن يفعل بهم ذلك، وإن لم يكن عذابا.

ثم قال تعالى منبها لهم على توحيده " اولم يروا " أي او لم يفكروا فيعلموا " ان الله يبسط الرزق " اي يوسعه " لمن يشاء ويقدر " اي ويضيق على من يشاء على حسب ما تقتضيه مصالحهم، وبسط الرزق الزيادة على مقدار القوت منه بما يظهر حاله، واصل البسط نشر الشئ بما يظهر به طوله وعرضه، وبسط الرزق مشبه به. ثم قال " إن في ذلك " يعني في البسط للرزق لقوم وتضييقه لقوم آخرين " لآيات " اي لدلالات " لقوم يؤمنون " بالله، لانهم يعلمون ان ذلك من فضل الله الذي لا يعجزه شئ.

ثم خاطب نبيه (صلى الله عليه وآله) فقال " فأت ذا القربى حقه " اي اعط ذوي قرباك يا محمد حقوقهم التي جعلها الله لهم في الاخماس - وهو قول مجاهد - وقيل: إنه لما نزلت هذه الآية على النبي (صلى الله عليه وآله) اعطى فاطمة فدكا، وسلمه اليها - روى ذلك ابوسعيد الخدري وغيره - وهو المشهور عن ابي جعفر، وابي عبدالله (عليهما السلام). وقال السدي: الآية نزلت في قرابة النبي (صلى الله عليه وآله). وقال قوم:

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٢٢ (*)

(٢٥٤)

المراد به قرابة كل انسان. والاول اظهر، لانه خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) " والمسكين وابن السبيل " تقديره واعط - ايضا - المسكين، وهو الفقير، وابن السبيل وهو المنقطع به حقوقهم التي جعلها الله لهم في الصدقات وغيرها، والخطاب وإن كان متوجها إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فهو متوجه إلى جميع المكلفين.

ثم قال " ذلك خير " يعني اعطاء الحقوق المستحقة خير " للذين يريدون وجه الله " بالاعطاء دون الرياء والسمعة " واولئك هم المفلحون " الفائزون بثواب الله. ثم قال " وما أتيتم من ربا ليربوا في اموال الناس " قال ابن عباس:

هو اعطاء الرجل العطية ليعطى اكثر منها لانه لم يرد بها طاعة الله. وقال ابن عباس: وابوجعفر الربوا ربا ان احدهما - حلال، والآخر حرام، فالاول هو ان يعطي الانسان غيره شيئاً لا يطلب اكثر منه فهو مباح، ولا يربوا عند الله. والآخر - الربوا الحرام. وقال ابن طائوس عن أبيه: إذا أهدى الرجل الهدية ليهدى له أفضل منها فليس فيه أجر ولا وزر، وكلما فعله الفاعل على أن حسن للشهوة فليس فيه حد ولا أجر، وشهوته وشهوة غيره في هذا سواء. وقيل: المعني في الآية التزهيد في الربو، والترغيب في اعطاء الزكاة وقال الحسن:

هو كقوله " يحق الله الربوا ويربي الصدقات " (١) ولا خير في العطية إذا لم يرد بها وجه الله. وقال الجبائي: وما أتيتم من ربا لتربوا بذلك أموالكم " فلا يربو " لانه لا يملكه المرابي بل هو لصاحبه، ولا يربو " عند الله " لانه يستحق به العقاب، واعطاء المال قد يقع على وجوه كثيرة فمنه إعطاؤه على وجه الصدقة.

ومنه اعطاؤه على وجه الهدية. ومنه الصلة. ومنه الودائع. ومن ذلك قضاء

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٧٦ (*)

(٢٥٥)

الدين، ومنه البر ومنه الزكاة. ومنه القرض. ومنه النذر وغير ذلك.

ثم قال " وما أتيتم من زكاة تريدون وجه الله " أي ما اخرجتموه على وجه الزكاة واعطيتموه أهله تريدون بذلك وجه الله دون الربو " فأولئك هم المضعفون " أي يضاعف لهم الحسنات كقوله " من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها " (١) وقال الكلبي: تضاعف أمواله في الدنيا، فالمضعف ذو الاضعاف كما أن الميسر ذو اليسار.

ثم خاطب تعالى خلقه فقال " الله الذي خلقكم " بعد ان لم تكونوا موجودين " ثم رزقكم " من أنواع الملاذ وملكم التصرف فيها وأباحها لكم " ثم يميتكم " بعد ذلك إذا شاء ليصح ايصالكم

إلى ما عوضكم له من الثواب " ثم يحييكم " ليجازيكم على أفعالكم على الطاعات بالثواب وعلى المعاصي بالعقاب " هل من شركائكم " الذين عبدتموهم من دون الله " من يفعل من ذلك من شئ " أو يقدر عليه فيجوز لذلك توجه العبادة إليه فانهم لا يقدرون على أن يقولوا: نعم يقدرون عليه وإنما يعترفون بعجزها عن ذلك، فيعلموا عند ذلك أنها لا تستحق العبادة فلذلك نزه نفسه عقيب ذلك عن أن يشرك معه في العبادة ويتخذ معه معبودا سواه فقال " سبحانه وتعالى عما يشركون " فمن قرأ بالياء وجه الخطاب إلى الغائب. ومن قرأ بالتاء وجهه إلى المخاطبين، وفي ذلك تنبيههم على وجوب ضرب الامثال لله تعالى دون غيره من المخلوقات.

قوله تعالى:

* (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٠ (*)

(٢٥٦)

ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون (٤١) قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين (٤٢) فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون (٤٣) من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون (٤٤) ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين) * (٤٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير - في رواية ابن مجاهد - عن قنبل وروح " لنذيقهم " بالنون. الباقون بالياء. فمن قرأ بالنون فعلى وجه اخبار الله عن نفسه أنه الذي يذيقهم. ومن قرأ بالياء فالمعنى ليذيقهم الله بعض الذي عملوا.

يقول الله تعالى " ظهر الفساد في البر والبحر " قيل: فساد البر هو ما يحصل فيها من المخاوف المانعة من سلوكه، ويكون بخذلان الله عزوجل لاهل العقاب به، وفساد البحر اضطراب أمره حتى لا يكون متصرفا فيه، وكل ذلك ليرتدعوا عن معاصيه. وقال قتادة: المعنى ظهر الفساد في أهل البر والبحر فأهل البر أهل البادية وأهل البحر أهل القرى الذين على الانهار العظيمة ويكون قوله " بما كسبت أيدي الناس " معناه يخلي الله بينهم وبين المعاصي جزاء على ما سبق منهم من المعاصي. وقال مجاهد: البر ظهر الارض والبحر هو

(٢٥٧)

البحر المعروف، لانه يؤخذ فيه كل سفينة غصبا. وقيل: البر الارض القفر والبحر المجرى الواسع للماء عذبا كان أو ملحا، وسمي البر برا، لانه يبر بصلاح المقام فيه خلاف البحر، ومنه البر لانه يبر بصلاحه في الغذاء أتم الصلاح.

وقيل: الفساد المعاصي ودليله قوله تعال " والله لا يحب الفساد " (١) والتقدير.

ظهر عقاب الفساد في البر والبحر، والظهور خروج الشئ إلى حيث يقع عليه الاحساس والعلم به بمنزلة الادراك له. وقد يظهر الشئ بخروجه عن وعاء أو وجوده عن عدم أو ظهوره بدليل. وقيل: بالعدل ينبت الله الزرع ويدر الضرع، وبالظلم يكون القحط وضيق الرزق. وقوله " بما كسبت ايدي الناس " أي جزاء على ما فعله الناس. والكسب فعل الشئ لاجتلاب نفع إلى نفس الفاعل أو دفع ضرر عنه، فالقادر لنفسه يقدر على مثله في الحالتين لاجتلاب نفع إلى غيره أو دفع ضرر عنه، غير انه لا يوصف بهذه الصفة وإن قدر على مثله. وقوله " ليزيقهم بعض الذي عملوا " معناه ليصيبهم الله بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوها من المعاصي " لعلمهم يرجعون " أي ليرجعوا عنها في المستقبل، وتقديره فعل الله تعالى القحط والشدائد والجذب وقلة الثمار وهلاك النفوس عقوبة على معاصيهم ليزيقهم بذلك عقاب بعض ما عملوا من المعاصي ليرجعوا عنها في المستقبل، ليزيقهم عقابه غير انه اجري على بعض العمل لانهم بذواقهم جزاءه كأنهم ذاقوه. وهذا من الحذف الحسن، لانه حذف المسبب وإقامة السبب الذي أدى اليه مقامه.

ثم بين تعالى انه فعل بهم هذا ليرجعوا عن معاصيه إلى طاعته.

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٠٥ (*)

(٢٥٨)

ثم خاطب تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) فقال له " قل " لهم يا محمد " سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان اكثرهم مشركين " أي فكروا فيمن تقدم من الامم التي اشركت بالله أكثرهم، والمؤمنون كانوا قليلين فيهم كيف أهلكتهم الله ودمر عليهم.

ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) " فأقم وجهك للدين القيم " ومعناه استقم للدين المستقيم بصاحبه إلى الجنة أي لا يعدل عنه يمينا ولا شمالا، فانك متى فعلت ذلك أداك إلى الجنة، وهو مثل قوله " ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم " (١)

مجانس فيه للبلاغة ومنه قوله " يوما تتقلب فيه القلوب والابصار " ومنه " يحق الله الربوا ويربي الصدقات ". " من قبل أن يأتي يوم لامر دله من الله يومئذ يصدعون " أي استقيموا

على الطريق المستقيم قبل يوم القيامة الذي تتفرون فيه فرقتين، فريق في الجنة وفريق في السعير - ذكره قتادة - وقال الحسن:
الدين القيم الطاعة لله.

ثم قال " من كفر " بالله وجد نعمه " فعليه كفره " أي فعليه جزاء كفره لا يعاقب أحد بذنب غيره، كما قال " ولا ترز وازرة وزر اخرى " (٢)
" ومن عمل صالحا " يعني الايمان بالله وأفعال الطاعات " فلانفسهم يمهدون " والتمهيد والتمكين والتوطيد نظائر أي ثواب ذلك واصل اليهم وتتمهد احوالهم الحسنة عند الله. وقوله " ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله " اخبار منه تعالى أنه الذي يجزي الذين يطيعون الله تعالى ويجتنبون معاصيه ثواب الجنة

(١) سورة ٩ التوبة آية ١٢٨ (٢) سورة ٦ الانعام آية ١٦٤ وسورة ١٧ الاسرى آية ١٥ وسورة ٣٥ فاطر آية ١٨ وسورة ٣٩ الزمر آية ٧ (*)

(٢٥٩)

من فضله على خلقه " إنه لا يحب الكافرين " أي لا يريد منافعهم ولا ثوابهم، وانما يريد عقابهم جزاء على كفرهم.
قوله تعالى:

* (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (٤٦) ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتمننا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين (٤٧) الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا اصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون (٤٨)

وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين (٤٩)
فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الارض بعد موتها إن ذلك لمحبي الموتى وهو على كل شئ قدير) * (٥٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو جعفر وابن ذكوان " كسفا " بسكون السين. الباكون بتحريكها.
وقرأ اهل الكوفة وابن عامر " إلى آثار " على الجمع وآماله الكسائي إلا أيا

(٢٦٠)

الحارث. الباكون على التوحيد. من سكن السين من كسف أراد جمع كسفة وهي القطعة الواحدة من السحاب، مثل سدرة وسدر. ويحتمل ان يكون الضمير في (خلاله) راجعا اليه.

ويحتمل ان يكون راجعا إلى الخلال. ومن فتح السين أعاد الضمير إلى السحاب لا غير. ومن أفرد " اثر " فلانه مضاف إلى مفرد وجاز الجمع لان (رحمة الله) يجوز ان يراد بها الكثرة. يقول الله تعالى إن من الأدلة الدالة على توحيدى ووجوب اخلاص العبادة لي إرسال الرياح مبشرات بالغيث والمطر. وإرسال الرياح تحريكها واجراؤها في الجهات المختلفة تارة شمالا وتارة جنوبا وصبا، وأخرى دبوراً على حسب ما يريد الله ويعلم فيه من المصلحة، وذلك لا يقدر عليه غيره تعالى، لان العباد وإن قدروا على جنس الحركة فلو اجتمع جميع الخلائق من الجن والانس على ان يردوا الريح إذا هبت شمالا إلى كونها جنوبا وإذا هبت جنوبا إلى كونها شمالا او صبا او دبوراً لما قدروا عليه، فمن قدر على ذلك يعلم أنه قادر لنفسه لا يعجزه شئ مستحق للعبادة خالصة له، وانما سماها مبشرات، لانها بمنزلة الناطقة إذا بشرت بأنه يجيئ مطر وغيث يحيى به الارض لما فيها من إظهار هذا المعنى ودلالاتها على ذلك بجعل جاعل، لانه من طريق العادة التي أجراها الله تعالى.

وقوله " وليذيقكم من رحمته " معطوف على المعنى، وتقديره أن يرسل الرياح للبشارة والاذاقة من الرحمة " ولتجري الفلك " بها " بامرہ ولتبتغوا من فضله " أي تطلبوه، فإرسال الرياح لهذه الامور، ومعنى " لعلمكم تشكرون " لتشكروا الله على نعمه. وإنما اتى بلفظ (لعلمكم) تلطف في الدعاء إلى الشكر كالتلطف في الدعاء إلى البر، في قوله " من ذا الذي يقرض الله قرضاً

(٢٦١)

حسناً " (١) ثم خاطب نبيه (صلى الله عليه وآله) على وجه التسلية عن قومه في تكذيبهم إياه فقال " ولقد أرسلنا من قبلك " يا محمد " رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات " يعني بالمعجزات، وفي الكلام حذف، لان تقديره فكذبوهم وجحدوا بهم فاستحقوا العذاب " فانتقمنا من الذين أجمعوا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين " أي اوجبناه على نفوسنا أن ننصر المؤمنين من عبادنا.

ثم قال تعالى " الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً " أي تنشئ سحاباً فانشاء السحاب وإن كان من فعل الله لكن لما كان السحاب سبباً منه جاز أن يسند اليها " فيبسطه في السماء " أي يبسط ذلك السحاب كيف شاء في السماء من كثافة ورقة وغير ذلك " ويجعله كسفاً " أي قطعاً - في قول قتادة - " فترى الودق " يعني المطر، قال الشاعر:

فلا مزنة ودقت ودقها * ولا أرض اقبل ابقالها (٢)

" يخرج من خلاله " يعني من خلال السحاب " فاذا اصاب به " يعني بذلك المطر " من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون " أي يفرحون ويبشرون بعضهم بعضاً به " وإن كانوا من قبل ان ينزل عليهم " المطر " من قبله لمبلسين " اي قانطين يائسين - في قول قتادة - وقوله " من قبله " في الموضوعين فيه قولان: احدهما - انه للتوكيد. والآخر من قبل الارسال، والاول من

قبل الانزال. ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) والمراد به جميع المكلفين " فانظر " يا محمد " إلى آثار رحمة ربك كيف يحيي الأرض بعد موتها " يحييها بالنبات بعد جدوبها

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٤٥ وسورة ٥٧ الحديد آية ١١ (٢) مر هذا البيت في ١ / ١٢٦ و ٥ / ٣٦١ و ٧ / ٤٤٦ (*)

(٢٦٢)

" إن ذلك لمجبي الموتى " أي مثل ذلك يحيي الله الموتى بعد ان كانوا جمادا " وهو على كل شئ قدير " أي قادر وفيه مبالغة.
قوله تعالى:

* (ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون (٥١) فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين (٥٢) وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون (٥٣) الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير (٥٤) ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون * ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون) * (٥٥).

ست آيات مدني وخمس في ما عداه عد المدني " يقسم المجرمون " ولم يعده الباقون.
قرأ ابن كثير * (ولا تسمع) * بفتح التاء * (الصم) * رفعا الباقون - بضم التاء - * (الصم) * نصبا. وهذا مثل ضربه الله للكفار، والمعنى كما إنك يا محمد لا تسمع الميت لتعذر استماعه فكذلك لا تسمع الكفار. والمعنى انه لا ينتفع بسماعه، لانه لا يعمل به، فاذا كان كذلك فالمعنيان متقاربان، لان المعنى إنك

(٢٦٣)

لا تسمع الكافر ما في القرآن من حكمة وموعظة، كما لا تسمع الاصم المدبر عنك.
وضم التاء ونصب الميم أحسن لتشاكل ما قبله من اسناد الفعل اليك أيها المخاطب وحكم المعطوف يجب ان يكون مشاكلا حكم المعطوف عليه. وقرأ عاصم وحمزة * (من ضعف) * بفتح الضاد في الثلاثة. الباقون بالضم فيهن، وهما لغتان.

يقول الله سبحانه * (ولئن أرسلنا ريحا) * مؤذنة بالهلاك * (فرأوه مصفرا) * فالهاء يجوز أن يكون كناية عن السحاب، وتقديره فرأوا السحاب مصفرا لانه إذا كان كذلك كان غير ممطر، ويحتمل أن يكون راجعا إلى الزرع، وتقديره، فرأوا الزرع مصفرا - والثاني قول الحسن - وجواب لئن في الشرط أغنى عنه جواب القسم، لان المعنى ليظن كما أن (أرسلنا) بمعنى أن يرسل فجواب القسم قد ناب عن الامرين. وكان أحق بالحكم لتقدمه على الشرط ولو

تقدم الشرط لكان الجواب له، كقولك: ان أرسلنا ريحا ظلوا والله يكفرون. و (الاصفرار) لون بين الحمرة والبياض، وهو من النبات الذي يصفر بالريح للجفاف ويحول عن حال الاخضرار، فيصير إلى الهلاك ويقنط صاحبه الجاهل بتدبير ربه في ما يأخذ به من الشدة بأمره تارة والرخاء أخرى ليصح التكليف بطريق الترغيب والترهيب، ومعنى (ظل يفعل) أي جعل يفعل في صدر النهار، وهو الوقت الذي فيه إلى ظل الشمس. و (أضحى يفعل) نظير ظل يفعل إلا أنه كثر حتى صار بمنزلة (جعل يفعل).

ثم قال لنبيه " إنك " يا محمد " لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين " شبه الكفار في ترك تدبرهم لما يدعوهم الله النبي (صلى الله عليه وآله) تارة بالأموات وتارة بالصم، لانهم لا ينتفعون بدعاء داع، لانهم لا يسمعون،

(٢٦٤)

وكذلك من يسمع ولا يصغى ولا يفكر فيه، ولا يتدبره فكأنه لم يسمعه. وقوله " إذا ولوا مدبرين " معناه إذا أعرضوا عن أدلتنا وعن الحق ذاهبين إلى الضلال غير طالبين لسبيل الرشاد. ولذلك لزمهم الذم وصفة النقص.

وقوله " وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم " معناه ليس في هؤلاء حيلة أن يقبلوا الهداية فصار العمي بالضلال صنفين احدهما - يطلب الهداية فهو يجدها عندك. والآخر لا يطلب الهداية، فليس فيه حيلة. ثم قال * (إن) * يعني ليس * (تسمع إلا من يصدق بآياتنا وأدلتنا) * لانهم المنتفعون بدعائك واسماعك * (فهم مسلمون) * لك ما تدعوهم اليه.

ثم قال * (الله الذي خلقكم من ضعف) * وفيه لغتان - الضم، والفتح - مثل الفقر والفقر، والكره والكره، والجهد والجهد، والمعنى انه خلقهم ضعفاء لانهم كانوا نطفًا، فحولهم إلى أن صاروا أحياء أطفالًا لا قدرة لهم * (ثم جعل) * لهم * (من بعد ضعف) * أي من بعد هذا الضعف * (قوة) * إذا شبوا وترعرعوا وكملوا * (ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة) * في حال الشيخوخة والشيب * (يخلق ما يشاء) * كيف يشاء * (وهو العليم) * بما فيه مصالح خلقه قادر على فعله فهو يفعل بحسب ما يعلمه من مصالحهم.

ثم اخبر تعالى عن حال الكفار أنهم * (يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون) * أنهم * (ما لبثوا غير ساعة) * وقيل: في قسمهم بذلك مع أن معارفهم ضرورية قولان: احدهما - قال ابوبكر بن الاخشاد: ذلك يقع منهم قبل اكمال عقولهم. ويجوز قبل الاجاء ان يقع منهم قبيل.

والثاني - قال الجبائي: ان المراد أنه منذ ما انقطع عنا عذاب القبر

(٢٦٥)

* (كذلك كانوا يؤفكون) * أي يكذبون لانه اخبار عن غالب الظن بما لا يعلمون قال: ولا يجوز أن يقع منهم القبيح في الآخرة، لان معارفهم ضرورة. وقيل:

* (كذلك كانوا يؤفكون) * في دار الدنيا ويجحدون البعث والنشور مثل ما حلفوا أنهم لم يلبثوا إلا ساعة، قال الفراء: وتقديره كما كذبوا في الدنيا بالبعث كذلك يكذبون بقولهم ما لبثنا غير ساعة. ومن استدل بذلك على نفي عذاب القبر فقد أبطل، لان المراد أنهم ما لبثوا بعد انقطاع عذاب القبر إلا ساعة.

قوله تعالى:

وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون (٥٦)

فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون (٥٧)

ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بأية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون (٥٨) كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون (٥٩) فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفناك الذين لا يوقنون) * (٦٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة " لا ينفع " بالياء، لان تأنيث المعذرة غير حقيقي. الباقيون

(٢٦٦)

بالتاء، لان اللفظ لفظ التأنيث.

يقول الله تعالى مخبرا عن الذين قد أعطاهم الله العلم وآتاهم إياه بما نصب لهم من الأدلة الموجبة له، ونظروا فيها فحصل لهم العلم، فلذلك أضافه إلى نفسه لما كان هو الناصب للدلالة الدالة على العلوم، والتصديق بالله ورسوله * (لقد لبثتم) * أي مكثتم * (في كتاب الله) * ومعناه إن لبثكم مذکور ثابت في كتاب الله بينه الله فيه، فصار من أجل ان بيانه في كتابه كأنه في الكتاب، كما تقول كلما يكون فهو في اللوح المحفوظ أي هو مبين فيه، وقيل * (في كتاب الله) * أي في كتابه الذي أخبرنا به، واللبث لا يكون إلا في المكان، كما لا يكون السكون إلا فيه، والبقاء قد يكون لا في مكان، ولذلك يوصف تعالى بالباقي، ولا يوصف ب (لابث) و * (إلى يوم البعث) * يعني يوم يبعث الله فيه خلقه ويحشرهم. واصل البعث جعل الشئ جاريا في أمر، ومنه انبعث الماء إذا جرى وانبعث من بين الاموات إذا خرج خروج الماء، ويوم البعث يوم اخراج الناس من قبورهم إلى أرض المحشر.

ثم يقول المؤمنون للكفار " فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون " صحة ذلك وكنتم شاكين فيه. وقال الحسن: لقد قدرنا اجالكم إلى يوم البعث ولكنكم لا تعلمون ان البعث حق.

ثم اخبر تعالى ان ذلك اليوم لا تقبل معذرتهم، والمعذرة إظهار ما يسقط اللائمة، وانما لا تقبل معذرتهم لانهم ملجئون في تلك الحال، ولا يصح اعتذارهم وقوله " ولا هم يستعتبون " أي لا يقبل عتبتهم، ولا يطلب منهم الاعتاب.

والاستعتاب طلب صلاح المعاتب بالعتاب وذلك بذكر الحقوق التي تقتضي خلاف ما عمله العامل بما لا ينبغي أن يكون عليه مع الحق اللازم له وليس في قولهم

(٢٦٧)

ما علمنا أنه يكون ولا أننا نبعث عذر، لانه قد نصب لهم الدلالة عليه ودعوا اليه. ثم اخبر تعالى انه ضرب للناس المكلفين في القرآن الذي أنزله على نبيه محمد (صلى الله عليه وآله) من كل مثل، يحثهم به على الحق واتباع الهدى. ثم قال لنبيه " ولئن جئتكم بأية " يا محمد أي معجزة باهرة " ليقولن الذين كفروا ان انتم إلا مبطلون " في دعواكم البعث والنشور، عنادا وجددا للامور الظاهرة. ثم قال مثل ما طبع الله على قلوب هؤلاء بأن حكم عليهم بانهم لا يؤمنون كذلك حكم في كل من لا يؤمن. وقيل: الطبع علامة يجعلها الله في قلوب الكافرين يفصل بها الملائكة بينه وبين المؤمن. ثم قال لنبيه " فاصبر " يا محمد على أذى هؤلاء الكفار ومقامهم على كفرهم " ان وعد الله حق " في ما وعدك به من النصر واعزاز دينك " ولا يستخفك " أي ولا يستفزك " الذين لا يوقنون " فالاستخفاف طلب الخفة.

(٢٦٨)

٣١ - سورة لقمان هي مكية - في قول مجاهد وقتادة - ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وقال الحسن: هي مكية إلا آية واحدة وهي قوله * (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) * لان الصلاة والزكاة مدينتان وهي ثلاث وثلاثون آية حجازي وأربع وثلاثون آية في ما عدا الحجازي.

بسم الله الرحمن الرحيم.

* (الم (١) تلك آيات الكتاب الحكيم (٢) هدى ورحمة للمحسنين (٣) الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون (٤) أولئك هم على هوى من ربهم وأولئك هم المفلحون) * (٥) خمس آيات كوفي وأربع بلا خلاف فيما عدا الكوفي.

قرأ حمزة " هدى ورحمة " رفعا. الباقيون نصبا. من رفع جعله خبر إبتداء محذوف، وتقديره هو هدى ورحمة، ويجوز أن يكون بدلا من " تلك آيات " أي تلك هدى ورحمة، ومن نصب فعلى المصد وتقديره يهدي به هدى ويرحم به رحمة، ويجوز أن يكون على الحال، وتقديره هاديا أي في حال الهداية والرحمة - ذكره الزجاج - " للمحسنين " الذين يفعلون الافعال

الحسنة من الطاعات ويفضلون على غيرهم. وقد بينا أن اقوى الاقوال في معنى " الم " قول من

(٢٦٩)

قال هو اسم للسورة، وذكرنا ما في الاقوال في ما تقدم. قال الرماني: انما جعل اسم السورة على الاشتراك للمناسبة بينها وبين ما يتصل بها مع الفصل بالصفات وذلك انها استحقت بذكر الكتاب والمؤمنين به غير العادلين عنه، كما هو في البقرة.

وقوله " تلك آيات الكتاب " اشارة إلى آيات الكتاب التي وعدهم الله بانزالها عليهم في الكتب الماضية، قال ابو عبيدة " تلك " بمعنى هذه " وآيات الكتاب " وإن كانت هي الكتاب فهو جائز، كما قال " حق اليقين " (١) وكما قالوا: مسجد الجامع، وغير ذلك. وقد بيناه في ما مضى " الحكيم " من صفة الكتاب، فلذلك جره وإنما وصف الكتاب بأنه (حكيم) مع انه محكم لانه يظهر الحق والباطل بنفسه، كما يظهره الحكيم بقوله، ولذلك يقال:

الحكمة تدعو إلى الاحسان وتصرف عن الاساءة. وقال ابوصالح: احكمت آياته بالحلال والحرام. وقال غيره: احكمت بأن اتقنت " لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل " (٢).

ثم قال هذا الكتاب " هدى ورحمة للمحسنين " أي دلالة موصلة لهم إلى الصواب وما يستحق به الثواب، ورحمة رحمهم الله بها وأضافه إلى المحسنين وإن كان هدى لغيرهم لما كانوا هم المنتفعين به دون غيرهم كما قال " هدى للمتقين " (٣) والاحسان النفع الذي يستحق به الحمد فكل محسن يستحق الحمد وكل مسيء يستحق الذم، وما يفعله الفاعل على انه لا ظلم فيه لاحد لينقطع به عن قبيح في انه احسان فهو احسان يستحق عليه الحمد، لان الحكمة تدعو إلى

(١) سورة ٥٦ الواقعة آية ٩٥ (٢) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٤٢ (٣) سورة البقرة آية ٢ (*)

(٢٧٠)

فعله على هذا الوجه، ولا يدعو إلى ان يفعله للشهوة، ولا للهوى. ثم وصف المحسنين فقال " الذين يقيمون الصلاة " أي يديمون فعلها ويقومون بشرائطها واحكامها ويخرجون الزكاة الواجبة عليهم في أموالهم. وهم بالآخرة مع ذلك يوقنون، ولا يرتابون بها. ثم اخبر أن هؤلاء الذين وصفهم بهذه الصفات " على هدى من ربهم " أي على حجة من ربهم " وأولئك هم المفلحون " الفائزون بثواب الله ورحمته.

قوله تعالى:

* (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين (٦) وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم (٧) إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم (٨) خالدون فيها وعد الله حقاً وهو العزيز الحكيم (٩) خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبأنا فيها من كل زوج كريم) * (١٠) خمس آيات بلا خلاف قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر " ويتخذها " نصباً، الباقر رفعاً من قرأ بالنصب عطفه على " ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها " أي يشتري لهو الحديث

(٢٧١)

للامرين. ومن رفع عطف على قوله " يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله... ويتخذها هزوا " ومن قرأ " ليضل " - بضم الياء وكسر الضاد - أراد يفعل ذلك ليضل غيره. ومن - فتح الياء - أراد ليضل هو نفسه بذلك.

أخبر الله تعالى ان " من " جملة " الناس من يشتري لهو الحديث " أي يستبدل لهو الحديث. وقيل في معناه قولان:

أحدهما - انه يشتري كتاباً فيه لهو الحديث.

الثاني - انه يشتري لهو الحديث عن الحديث. واللهو الاخذ في ما يصرف الهم من غير الحق، تقول: لى فلان يلهو لهواً، فهو لاه، وتلهى تلهياً وألهاء إلهاء، واللهو واللعب والهزل نظائر. والحديث الخبر عن حوادث الزمان. وقال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد: لهو الحديث الغناء، وهو المروي عن أبي جعفر (عليه السلام). وقال قوم: هو شراء المغنيات. وروى أبو أمامة عن النبي (صلى الله عليه وآله) تحريم ذلك. وقال قتادة: هو استبدال حديث الباطل على حديث الحق. وقيل: كلما كان من الحديث ملهياً عن سبيل الله الذي أمر باتباعه إلى ما نهى عنه، فهو لهو الحديث. وقيل: الآية نزلت في النضر ابن الحارث بن كلدة كان اشترى كتباً فيها أحاديث الفرس: من حديث رستم واسفنديار، فكان يلهيهم بذلك ويطرف به، ليصد عن سماع القرآن وتدبر ما فيه.

وقوله " ليضل عن سبيل الله " أي ليتشاغل بما يلهيه عن سبيل الله. وقال ابن عباس: سبيل الله قراءة القرآن، وذكر الله، لأن حجة الله قائمة عليه بالدواعي التي تزعجه إلى النظر فيما يؤديه إلى العلم بالواجب ليعمل، فيتشاغل ليخف ذلك الازعاج. ومن قرأ بالضم أراد ليضل غيره بذلك.

(٢٧٢)

وقوله " ويتخذها هزوا " أي يتخذ سبيل الله سخريّة، فلا يتبعها ويشغل غيره عن اتباعها. والضمير في قوله " ويتخذها " يجوز أن يكون راجعا إلى الحديث، لأنه بمعنى الأحاديث، ويجوز أن يكون راجعا إلى (سبيل الله)

والسبيل يؤنث ويذكر. ويجوز أن يكون راجعا إلى (آيات الله) في قوله " تلك آيات الكتاب ". ثم اخبر تعالى أن من هذه صفته " له عذاب مهين " أي عذاب بذله. والاذلال بالعداوة هو الهوان. فأما اذلال الفقر والمرض، فليس بهوان، ولا إذلال على الحقيقة. وإذلال العقاب لا يكون إلا هوانا، وإن كان العذاب على وجه الامتحان، فلا يكون هوانا أيضا. ثم اخبر تعالى عن صفة هذا الذي يتخذ آيات الله هزوا ويشترى لهو الحديث أنه " إذا تتلى عليه آياتنا " التي هي القرآن " ولى مستكبرا " أي اعرض عنها تكبرا عن استماعها. والكفر فيها، كأنه " لم يسمعها " من حيث لم يفكر فيها، ولم يعتبر بها و " كأن في اذنيه وقرا " أي تقلا يمنع من سماعه. ثم امر نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يبشر من هذه صفة " بعذاب اليم " أي مؤلم موجع.

ثم اخبر تعالى عن صفة المؤمنين للمصدقين بتوحيد الله وصدق انبيائه فقال " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات " أي صدقوا بالله ونبيه وفعّلوا الطاعات " لهم جنات النعيم " يوم القيامة يتمتعون فيها * (خالدين فيها) * أي مؤبدين في تلك البساتين * (وعد الله حقا) * أي وعده الله حقا، لا خلف لوعده * (وهو العزيز) * في انتقامه * (الحكيم) * في أفعاله، إذ لا يفعل إلا ما فيه المصلحة ووجه من وجوه الحكمة ثم اخبر تعالى عن نفسه بأنه * (خلق السموات) * فأنشأها واخترها

(٢٧٣)

* (بغير عمد ترونها) * أي ليس لها عمد يسندها، لأنه لو كان لها عمد لرأيتوها فلما لم تروها دل على أنه ليس لها عمد، لأنه لو كان لها عمد لكانت اجساما عظيمة حتى يصح منها إقلال السموات، ولو كانت كذلك لاحتاجت إلى عمد آخر، فكان يتسلسل. فاذا لا عمد لها، بل الله تعالى سكنها حالا بعد حال بقدرته التي لا توازيها قدرة قادر. وقال مجاهد: لها عمد لا ترونها، هذا فاسد لأنه لو كان لها عمد لكانت اجساما عظيمة، لأنه لا يقل مثل السموات والارض إلا ما فيه الاعتمادات العظيمة. ولو كانت كذلك لرأيت، وكان يؤدي إلى ما ذكرناه من التسلسل.

ثم قال * (والقى في الارض رواسي) * يعني الجبال الثابتة * (أن تميد بكم) * وقيل معناه لئلا تميد بكم، كما قال الراجز:

والمهر يأبى أن يزال ملهيا بمعنى لا يزال. وقال قوم: معناه كراهة أن تميد بكم * (وبث فيها من كل دابة) * أي فرق فيها من كل دابة أي من كل ما يدب على الأرض " وأنزلنا من السماء ماء " يعني غيثا ومطرا " فأنبتنا فيها " بذلك الماء * (من كل زوج كريم) * أي من كل نوع حسن النبت طيب الريح والطعم.
قوله تعالى:

* (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين (١١) ولقد آتينا لقمان الحكمة أن

(٢٧٤)

اشكر الله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غني حميد (١٢) وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم (١٣) ووصينا الإنسان بوالديه حلته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير (١٤) وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) * (١٥) خمس آيات بلا خلاف.
هذا إشارة إلى ما تقدم ذكره من خلق السموات والأرض على ما هي به من عظمها وكبر شأنها من غير عمد يمنع من انحدارها، وألقى الرواسي في الأرض لئلا تميد بأهلها " وبث فيها من كل دابة " للاعتبار والانتفاع بها، وأنزل من السماء ماء لإخراج كل نوع كريم على ما فيه من بهجة ولذة يستمتع بها. فهذا كله خلق الله فأين خلق من اشركتموه في عبادته حتى جاز لكم أن تعبدوه من دونه وهذا لا يمكن معه معارضة، وفيه دليل على توحيده تعالى.
ثم اخبر تعالى فقال " بل الظالمون " لانفسهم بترك الاعتبار بآيات الله " في ضلال مبين " أي عدول عن الحق بين ظاهر وما دعاهم إلى عبادتها انها تخلق شيئا ولكن ضلالهم بالجهل الذي اعتقدوه من التقرب بذلك إلى الله وانها

(٢٧٥)

تقربهم إلى الله زلفى.
ثم اخبر تعالى انه اعطى لقمان الحكمة، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة:
لم يكن لقمان نبيا. وقال عكرمة: كان نبيا. وقيل: انه كان عبدا أسودا حبشيا ذا سفة. فقال له بعض الناس: ألسنت الذي كنت ترعى معنا؟ فقال: نعم.
فقال له: من اين أوتيت ما أرى؟ فقال: بصدق الحديث والصمت عما لا يعنيني.

والحكمة التي أتى الله لقمان هو معرفته بتوحيده، ونفي الشرك عنه. وما فسرناه في ما بعد وهو ان أمره بأن يشكر الله على نعمه التي أنعم بها عليه.

ثم اخبر تعالى فقال " ومن يشكر فانما يشكر لنفسه " أي من يشكر نعمة الله ونعمة من أنعم عليه، فانه يشكر لنفسه، لان ثواب شكره عائد عليه " ومن كفر فان الله غني حميد " أي من جحد نعمة الله، فانه تعالى غني عن شكره حميد على أفعاله، وعقاب ذلك عائد على الكفار دون غيرهم، والشكر لا يكون إلا على نعمة سبقت، فهو يقتضي منعما، فلا يصح على ذلك أن يشكر الانسان نفسه، لانه لا يجوز أن يكون منعما عليها، وهو جرى مجرى الدين في أنه حق لغيره عليه يلزمه أدائه، فكما لا يصح أن يقرض نفسه فيجب أن يقضي ذلك الدين لنفسه، فكذلك لا يصح أن ينعم على نفسه فيلزمه شكر تلك النعمة ثم قال تعالى وأذكر يا محمد " إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم " إذ قال له لا تعبد مع الله غيره فان من فعل ذلك فقد ظلم نفسه ظلما عظيما. ويجوز أن يتعلق قوله " إذ قال لقمان " بقوله " ولقد آتينا لقمان الحكمة... إذ قال لابنه... لا تشرك بالله " ثم قال تعالى " ووصينا الانسان بوالديه " أي وصينا وأمرناه بالاحسان إلى والديه.

والرفق بهما " حملته امه وهنا على وهن " قال الضحاك: معناه ضعفا على ضعف

(٢٧٦)

أي ضعف نطفة الوالد إلى ضعف نطفة الام. وقيل: هو ما يلحقها بحملها إياه مرة بعد مرة من الضعف. وقيل: بل المعنى شدة الجهد، قال زهير:

فان يقولوا بجعل واهن خلق * لو كان قومك في اسبابه هلكوا (١)

وقال ابن عباس " وهن على وهن " أي شدة على شدة. وقيل: ضعف الولد حالا بعد حال، لانه كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم مولودا.

وقوله " وفصاله في عامين " يعني قطامه في انقضاء عامين. وقيل: نزلت في سعد بن ابي وقاص حلفت أمه لا تأكل طعاما حتى تموت أو يرجع سعد ابنها فلما رأته بعد ثلاث لا يرجع عن الاسلام أكلت. ثم قال " أن اشكر لي ولوالديك " أي وصينا بأن اشكر لي على نعمي، واشكر والديك أيضا على ما أنعم عليك. ثم قال " إلي المصير " فيه تهديد أي إلي مرجعكم، فاجازيكم أيها الناس على حسب عملكم.

ثم قال " وإن جاهداك " يعني الوالدين أيها الانسان " على أن تشرك بي " معبودا آخر " فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معرفا " أي احسن اليهما في الدنيا وارفق بهما. ثم قال " واتبع سبيل من أناب إلي " أي رجع إلي طاعتي من النبي والمؤمنين " ثم إلي مرجعكم " أي منقلبكم " فانبئكم " أي اخبركم " بما كنتم تعملون " في دار الدنيا من الاعمال. واجازبكم عليها بحسبه،

وقرأ ابن كثير، إلا ابن فليح " يا بني لا تشرك بالله " بسكون الياء الباقيون بتشديدها وكسرها،
إلا حفصا فإنه فتحها على أصله " يا بني أقم

(١) هو زهير بن ابي سلمى. ديوانه (دار بيروت) ٥١ وروايته (فلن)
بدل (فان) (*)

(٢٧٧)

الصلاة " بفتح الياء، وابن كثير إلا قنبلا وحفص، الباقيون بكسر الياء. فوجه السكون أنه أجرى
الوصل كالوقف، ووجه الفتح على الاضافة، وحذف ما قبلها لاجتماع ثلاث يآآت.. والكسر
على الاجتزاء بها من ياء الاضافة، وعندنا أن الرضاع بعد الحولين يحرم لقوله " وفصاله في
عامين " ولقوله (عليه السلام) لا رضاع بعد الحولين.
قوله تعالى:

* (يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض
يأت بها الله إن الله لطيف خبير (١٦) يا بني أقم الصلوة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر
واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور (١٧) ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في
الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور (١٨) واقصد في مشيك واغضض من صوتك
إن أنكر الأصوات لصوت الحمير (١٩) ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في
الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى
ولا كتاب منير) * (٢٠) خمس آيات بلا خلاف.

(٢٧٨)

قرأ ابن كثير وعاصم وابن عامر " ولا تصعر " بغير ألف في التصعير.
الباقيون " تصاعر " بألف. وقرأ أهل المدينة " مثقال حبة " رفعا. الباقيون نصبا من رفعه جعل
(كان) بمعنى حدث، ووقع، ولم يجعل لها خبرا. ومن نصب فعلى أنه خبر (كان) والاسم
مضمرة فيها أي إن تك الحبة مثقال. وقرأ نافع وأبوجعفر وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن
عاصم " نعمه " على لفظ الجمع.
الباقيون " نعمة " على التوحيد.

يقول الله تعالى مخبرا عن لقمان ووصيته لابنه، وأنه قال " يا بني إنها إن تك مثقال حبة من
خردل " من خير أو شر (فتكن) عطف على الشرط فلذلك جزمه. وتقديره: إن تلك الحبة لو
كانت في جوف صخرة، وهي الحجر العظيم أو تكون في السموات أو الأرض " يأت بها الله "

ويحاسب عليها ويجازي لانه لا يخفى عليه شئ منها، ولا يتعذر عليه الاتيان بها أي موضع كانت، لانه قادر لنفسه لا يعجزه شئ عالم لنفسه لا تخفى عليه خافية. وقوله " يأت بها الله " معناه إنه يجازي بها ويواقف عليها فكأنه أتى بها وإن كانت أفعال العباد لا يصح إعادتها، ولو صح إعادتها لما كانت مقدورة لله. وإنما أراد ما قلناه، وفي ذلك غاية التهديد والحث على الاخذ بالحزم. والهاء في قوله " انها " قيل: انها عماد وهو الضمير على شريطة التفسير. وقيل: (إنها) كناية عن الخطيئة او الفعلة التي تقتضي الجزاء، وهي المضمرة في تلك وإنما أنث متقال، لانه مضاف إلى مؤنث وهي الحبة، كما قيل: ذهببت بعض اصابعه. وكما قيل: — وتشرق بالقول الذي قد اذعته — شرقت صدر القناة من الدم (١)

(١) قاتله الاعشى، ديوانه ١٨٣، واللسان (شرق) (*)

(٢٧٩)

والصخرة وإن كانت في الارض أو في السماء، فذكر السموات والارض بعدها مبالغة كقوله " اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق " (١) وقد قال بعض المفسرين: ان الصخرة خارجة عن السموات والارض، وهو ايضا جائز. وقرأ قتادة " فتكن في صخرة " بكسر الكاف مخففا من (وكن يكن) أي جعل الصخرة كالوكنة. وهو عش الطائر. ذكره ابن خالويه. وحكاه عن ابن مجاهد سماعا، واستحسنه. وقوله " ان الله لطيف خبير " قال قتادة: معناه - ها هنا - لطيف باستخراجها، خبير بمسقرها. واللطيف القادر الذي لا يحفو عن عمل شئ، لان من القادرين من يحفو عن عمل اشياء كثيرة كاخراج الجزء الذي لا يتجزأ وتأليفه إلى مثله، فهو فان كان قادرا عليه، فهو ممتنع منه، لانه يحفو عن عمل مثله. والخبير العالم وفيه مبالغة في الصفة، مشتق من الخبر. ولم يزل الله خبيرا عالما بوجوه ما يصح أن يخبره، والمتقال مقدار يساوي غيره في الوزن، فمقدار الحبة مقدار حبة في الوزن. وقد صار بالعرف عبارة عن وزن الدينار، فاذا قيل: متقال كافور او عنبر، فمعناه مقدار الدينار بالوزن. ثم حكى ما قاله لقمان لابنه ايضا قال له " يا بني اقم الصلاة " أي دم عليها وأقم حدودها وشرائطها " وأمر بالمعروف " والمعروف هو الطاعات " وانه عن المنكر " وهي القبائح سواء كانت قبائح عقلية او شرعية " واصبر على ما أصابك " من الناس في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من المشقة والاذى وفي ذلك دلالة على وجوب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كان فيه

(٢٨٠)

بعض المشقة. ثم قال " إن ذلك " أي ما ذكره من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر " من عزم الامور " من العقد الصحيح على فعل الحسن بدلا من القبيح، والعزم العقد على الامر لتوطين النفس على فعله وهي الارادة المتقدمة للفعل بأكثر من وقت، لان التلون في الرأي يناقض العزم. قال الله تعالى " فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل " (١).

ثم حكى ما قال لقمان لابنه، فانه قال له ايضا " ولا تصعر خدك للناس " ومعناه لا تعرض بوجهك عن الناس تكبرا - ذكره ابن عباس - واصل الصعر داء يأخذ الابل في اعناقها أو رؤسها حتى يلفت أعناقها فتشبه به الرجل المتكبر على الناس. وقال عمر بن جني الثعلبي واصله المبرد إلى الفرزدق:

وكنا إذا الجبار صعر خده * أقمنا له من مثله فتقوما (٢)

قال ابو علي الفارسي: يجوز أن يكون تصعر وتصاعر بمعنى، كقولهم ضعف وضاعف، قال ابوالحسن (لا تصاعر) لغة اهل الحجاز و (لا تصعر) لغة بني تميم. والمعنى ولا تتكبر، ولا تعرض عنهم تكبرا " ولا تمش في الارض مرحا " أي مشي مختال متكبر " ان الله لا يحب كل مختال فخور " فالاختيال مشية البطر، قال مجاهد: المختال المتكبر، والفخر ذكر المناقب للتناول بها على السامع، يقال: فخر يفخر فخرا وفاخره مفاخرة وفخارا، وتقاخرا تقاخرا وافتخر افتخارا.

ثم قال له " واقصد في مشيك " أي اجعل مشيك مشي قصد، لا تمشي مشي مختال ولا متكبر " واغضض من صوتك " أي لا ترفع صوتك متظاولا لانه مذموم " ان انكر الاصوات لصوت الحمير " قال الفراء: معناه إن اشد

(٢٨١)

الاصوات. وقال غيره: معناه أقبح الاصوات - في قول مجاهد - كما يقال: هذا وجه منكر. ثم نبههم على وجوه نعم الله على خلقه. فقال " ألم تروا ان الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض " أي ذلل لكم تتصرفون فيه بحسب ما تريدون من أنواع الحالات من الثمار والبهائم، وغير ذلك " واسبغ عليكم نعمه " ظاهرة أي وسع عليكم نعمه، والسابغ الواسع الذي يفضل عن مقدار القوت. وقوله " ظاهرة وباطنة " أي من نعمه ما هو ظاهر لكم

لا يمكنكم جده: من خلقكم، واحيائكم واقداركم، وخلق الشهوة فيكم وضروب نعمه، ومنها ما هو باطن مستور لا يعرفها إلا من أمعن النظر فيها وقيل: النعم الباطنة مصالح الدين والدنيا، مما لا يشعرون به. وقيل: سخر لكم ما في السموات من شمس وقمر ونجم وسحاب، وما في الارض من دابة وشجر وثمار، وغير ذلك مما تنتفعون به في اقواتكم ومصالحكم. ثم قال تعالى * (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) * اي يخاصم ولا علم له بما يقوله، ويجادل فيه * (ولا هدى) * أي ولا حجة على صحة ما يقوله * (ولا كتاب منير) * أي، ولا كتاب من عند الله منير أي ظاهر عليه نور وهدى. قوله تعالى:

* (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير (٢١) ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك

(٢٨٢)

بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الامور (٢٢) ومن كفر فلا يحزنك كفره إينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور (٢٣) نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ (٢٤) ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) * (٢٥) خمس آيات بلا خلاف.

حكى الله سبحانه عن الكفار وسوء اختيارهم أنه * (إذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله) * من القرآن والاحكام واعملوا بموجبه واقتدرا به * (قالوا) * في الجواب عن ذلك * (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) * من عبادة الاصنام، ولا نتبع ذلك، فقال الله تعالى منكر عليهم * (او لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) * ومعناه إنكم تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم، ولو كان ذلك يدعوكم إلى عذاب جهنم!. وادخل على واو العطف ألف الاستفهام على وجه الانكار.

ثم قال * (ومن يسلم وجهه إلى الله) * أي يوجه طاعته إلى الله ويقصد وجهه بها دون الرياء والسمعة * (وهو محسن) * اي لا يخلط طاعته بالمعاصي * (فقد استمسك بالعروة الوثقى) * أي من فعل ما وصفه فقد تعلق بالعروة الوثيقة التي لا يخشى انتقاضها، والتوثق امتناع سبب الانتقاض، لان البناء الموثق قد جعل على امتناع سبب الانتقاض، وما ليس بموثق على سبب الانتقاض.

ثم قال * (والى الله عاقبة الامور) * أي اليه ترجع أواخر الامور على وجه

(٢٨٣)

لا يكون لاحد التصرف فيها، ولا الامر والنهي.

ثم قال لنبيه * (ومن كفر) * يا محمد من هؤلاء الناس * (فلا يحزنك كفره) * اى لا يغمك ذلك * (الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) * اى نعلمهم باعمالهم ونجازيهم على معاصيهم بالعقاب، * (ان الله عليم بذات الصدور) * اى بما تضرره الصدور، لا يخفى عليه شئ منها. ثم قال * (نمتعهم قليلا) * اى نتركهم يتمتعون في هذه الدنيا مدة قليلة * (ثم نضطرهم) * اى نصيرهم مكرهين * (إلى عذاب غليظ) * يغلظ عليهم ويصعب وهو عذاب النار. ثم قال * (ولئن سألتهم) * يعني هؤلاء الذين كفروا بآيات الله * (من خلق السموات والارض) * ليقولن في جواب ذلك: الله خلق ذلك، لانهم لا يمكنهم أن يقولوا خلق ذلك الاصنام والاوثنان، لانهم يقرون بالنشأة الاولى، ولانهم لو قالوا ذلك لعلم ضرورة بطلان قولهم، فقل عند ذلك يا محمد * (الحمد لله) * على هدايته وتوفيقه لنا بالمعرفة له * (بل اكثرهم لا يعلمون) * انكم وفقكم الله لمعرفته.

قوله تعالى:

* (الله ما في السموات والارض ان الله هو الغني الحميد (٢٦)

ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله

إن الله عزيز حكيم (٢٧)

ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير (٢٨)

ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر

(٢٨٤)

الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير (٢٩) ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير) * (٣٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابو عمرو ويعقوب وابن شاهي * (والبحر يمده) * نصبا. الباقرن رفعا. من نصبه عطفه على * (ما) * في قوله * (أن ما) * لان موضعها نصب ب * (أن) * لان الكلام لم يتم عند قوله * (أقلام) * فاشبه المعطوف قبل الخبر. قال ابن خالويه:

وهذا من حذق ابي عمرو، وجودة تمييزه. وإنما لم يتم الكلام مع الاتيان بالخبر لان (لو) يحتج إلى جواب. ومن رفع استأنف الكلام.

اخبار الله تعالى أن له جميع ما في السموات والارض ملك له يتصرف فيه بحسب إرادته لا يجوز لاحد الاعتراض عليه. ثم اخبّر انه تعالى * (هو الغني) * الذي لا يحتاج إلى شئ من

جميع المخلوقات كما يحتاج غيره من الاحياء المخلوقين وأنه * (الحميد) * مع ذات، يعني المستحق للحمد العظيم، ونقيضه الدميم ويقال (محمود) بمعنى حميد. ومعناه أنه اهل الحمد. ثم قال تعالى * (ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) * وفيه حذف، لان المعنى يكتب به كلام الله * (ما نفذت كلمات الله) * والآية تقتضي انه ليس لكلمات الله نهاية بالحكم، لانه يقدر منها على ما لا نهاية له. وقال قوم: المعنى ان وجه الحكمة وعجيب الصنعة وإتقانها لا ينفد، وليس المراد به الكلام. وقال ابو عبيدة: المراد بالبحر - ههنا - العذب، لان المالح لا ينبت الافلام. وقال ابن عباس: نزلت الآية جوابا

(٢٨٥)

للاليهود، لما قالوا قد أوتينا التوراة، وفيها كل الحكمة، فبين الله تعالى أن ما يقدر عليه من الكلمات لا حصر لولا نهاية. والشجر جمع شجرة مثل ثمرة وتمر، وهو كل نبات يقوم على ساق ويورق الاغصان. ومنه اشتقت المشاجرة بين الناس في الامر. ومنه قوله * (في ما شجر بينهم) * وشجر تشجيرا وتشاجروا تشاجرا، ومد البحر إذا جرى غيره اليه حالا بعد حال. ومنه المد والجزر.

ومد النهر ومده نهر آخر يمده مدا. وقال الفراء: يقولون: أمدد تك الفا فمددت.

* (ان الله عزيز حكيم) * معناه عزيز في انتقامه من اعدائه * (حكيم) * في أفعاله. ثم قال * (ما خلقكم) * معشر الخلق * (ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) * أي إلا كبعث نفس واحدة أي لا يشق عليه ابتداء جميع الخلق ولا إعادتهم بعد إفنائهم، وأن جميع ذلك من سعة قدرة الله كالنفس الواحدة. إذ المراد أن خلقها لا يشق عليه.

وقوله * (إن الله سميع) * أي يسمع ما يقول القائلون في ذلك * (بصير) * بما يضمرونه في قوله " ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة " وفي ذلك تهديد على المخالفة فيه. ثم قال " ألم تر " يا محمد، والمراد به جميع المكلفين " أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل " قال قتادة: معناه ينقص من الليل في النهار، ومن النهار في الليل. وقال غيره: معناه إن كل واحد منهما يتعقب الآخر * (وسخر الشمس والقمر كل يجري) * لانهما يجريان على وتيرة واحدة لا يختلفان بحسب ما سخرهما له، كل ذلك يجري * (إلى أجل مسمى) * قدره الله ان يفنيه فيه. وقال الحسن: الاجل المسمى القيامة * (وإن الله) * عطف على * (ألم تر) * فلذلك نصبه، وتقديره: وتعلم * (أن الله بما تعملون خبير) * من

(٢٨٦)

قرأ بالياء - وهو عياش عن أبي عمرو - أراد الاخبار. ومن قرأ بالتاء حمله على الخطاب. وهو الاظهر. والمعنى * (ان الله بما تعملون) * معشر المكلفين * (خبير) * أي عالم، فيجازيكم بحسب ذلك ليطابق قوله * (الم تر أن الله يولج الليل في النهار) * ثم قال * (ذلك بأن الله هو الحق) * الذي يجب توجيه العبادة اليه * (وأن ما تدعون من دونه الباطل) * . ومن قرأ بالياء فعلى الاخبار عنهم.

ومن قرأ بالتاء على وجه الخطاب.

يقول الله تعالى: ألم تعلم ان ما يدعون هؤلاء الكفار من الاصنام هو الباطل. ومن قرأ بالياء فعلى: قل لهم يا محمد * (وأن الله هو العلي الكبير) * فالعلي هو الذي علا على الاشياء واقتدر عليها، والكبير معناه العظيم في صفاته لا يستحق صفاته غيره تعالى. وذكر ابو عبيدة - في كتاب المجاز - ان البحر المذكور في الآية البحر العذب، لان المالح لا ينبت الاقلام. قوله تعالى:

* (ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور (٣١) وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين * فلما نجىهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور (٣٢) يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم

(٢٨٧)

الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور (٣٣) إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير) * (٣٤).

خمس آيات بصرى وشامي واربع فيما عداهما عدوا * (مخلصين له الدين) * ولم يعده الباقون.

يقول الله تعالى مخاطبا لنبيه (صلى الله عليه وآله) والمراد به جميع المكلفين منبها لهم على جهات نعمه التي انعم بها عليهم وما يدلهم على انه يستحق العبادة خالصا، فقال * (الم تر) * ومعناه الم تعلم * (ان الفلك) * وهي السفن تجري في البحر بنعمة الله عليكم * (ليريكم من آياته) * اي ليريكم بعض ادلته الدالة على وحدانيته، ووجه الدلالة في ذلك ان الله تعالى يجري الفلك بالرياح التي يرسلها في الوجوه التي تريدون المسير فيها، ولو اجتمع جميع الخلق ليجرؤا الفلك في بعض الجهات مخالفا لجهة الرياح لما قدروا على ذلك. وفي ذلك اعظم دلالة على ان المجري لها بالرياح هو القادر الذي لا يعجزه شيء، وذلك بعض الادلة التي تدل على وحدانيته، فلذلك قال * (من آياته) * ثم قال * (إن في ذلك لآيات) * يعني في تسخير الفلك

وإجرائها في البحر على ما بيناه لدلالات * (لكل صبار) * يعني الصبار على مشاق التكليف. وعلى الم المصائب، وأذى الكفار * (شكور) * لنعم الله عليهم واطاف الآيات اليهم لما كانوا هم المنتفعين بها، وانما ذكر * (كل صبار شكور) * لان الصبر عليه بأمر الله، والشكر لنعم الله من افضل

(٢٨٨)

ما في المؤمن. وقال الشعبي: الصبر نصف الايمان، والشكر نصف الايمان فكأنه قال: لكل مؤمن.

ثم قال تعالى * (وإذا غشيهم موج) * يعني إذا غشي اصحاب السفن الراكبي البحر موج، وهو هيجان البحر * (كالظلل) * اي الماء في ارتفاعه وتغطيته ما تحته كالظلل، قال النابغة الجعدي: يصف البحر:

يغاشيهن اخضر ذو ظلال * على حافته فلق الدنان (١)

شبه الموج لانه يجيء منه شئ بعد شئ بالسحاب الذي يركب بعضه فوق بعض، ويكون اسودا بما فيه من الماء " دعوا الله مخلصين له الدين " أي طاعة العبادة، فالاخلاص أفراد المعنى من كل شائب كان من غيره، أي يخلصون الدعاء في هذه الحال لله تعالى دون الاصنام وجميع ما يعبدونه من دون الله " فلما نجاهم " أي خلصهم إلى البر وسلمهم من هول البحر " فمنهم مقتصد " قال قتادة: يعني منهم مقتصد في قوله مضمير لكفره. وقال الحسن: المقتصد المؤمن.

وقيل: مقتصد على طريقة مستقيمة " وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور " فالختار الغدار بعده أقبح الغدر، وهو صاحب ختل وختر أي غدر قال عمرو ابن معدي كرب:

فانك لو رأيت أبا عمير * ملات يديك من غدر وختر (٢)

وقال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد: الختار الغدار، ثم خاطب تعالى جميع المكلفين من الناس فقال " يا ايها الناس اتقوا ربكم " امرهم باجتتاب معاصيه خوفا من عقابه " واخشوا يوما لا يجزي والد عن

(١، ٢) مجاز القرآن ٢ / ١٢٩ (*)

(٢٨٩)

ولده... " يعني يوم القيامة الذي لا يغني فيه أحد عن احد، لا والد عن ولده ولا ولد عن والده، يقال: جزيت عنك أجزى إذا أغنيت عنك. وفيه لغة أخرى: أجزأ يجزئ من أجزأت بالهمزة. ثم قال " ان وعد الله حق " اي الذي وعدته من الثواب والعقاب حق لا خلف فيه " فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور " قال مجاهد وقتادة والضحاك: الغرور الشيطان. وقال

سعيد بن جبير: هو يمنيك المغفرة في عمل المعصية. قال ابو عبيدة: الغرور كل شئ غرك حتى تعصي الله، وتترك ما أمرك به الله، شيطاننا كان أو غيره، فهو غرور. وهو أحسن، لانه أعم. ثم قال تعالى " إن الله عنده علم الساعة " يعني وقت قيام القيامة يعلمه تعالى لا يعلمه سواه " وينزل الغيث " أي وهو الذي يعلم وقت نزول الغيث بعينه وهو الذي " يعلم ما في الارحام " من ذكر او أنثى " وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت " يقال: بأي أرض وبأية أرض. من قال: بأي، فلان تأنيث الارض بالصيغة لا باللفظ. ومن قال: بأية أرض فلان الارض مؤنثة. والمعنى انه لا يعلم موت الانسان في أي موضع من البلاد يكون سواه. وقد روى عن النبي (صلى الله عليه وآله) إن هذه الخمسة اشياء مما لا يعلمها غيره تعالى على التفصيل والتحقيق " إن الله عليم " بتفصيل ذلك " خبير " به لا يخفي عليه شئ من ذلك.

وسأل البلخي نفسه، فقال: إذا قلت: إن من اعتقد الشئ على ما هو به تقليدا أو تخمينا أو تتجيما يكون عالما، فلو أن إنسانا أعتقد ان امرأة تلد ذكرا او رجلا يموت في بلد بعينه او يكسب في الغد كذا، فوافق ذلك اعتقاده، فيجب

(٢٩٠)

ان يكون عالما، ويبطل الاختصاص في الآية؟ ! وأجاب: إن ذلك وإن كان جائزا، فانه لا يقع لظاهر الآية. وهذا غير صحيح، لان من المعلوم ضرورة أن الانسان يخبر شيئا فيعتقده، فيكون على ما اعتقده من هذه الاشياء الخمسة. وانما لا يكون عالما، لانه لا تسكن نفسه إلى ذلك، فأما المنع من وقوعه فمعلوم خلافه.

(٢٩١)

٣٢ - سورة السجدة مكية في قول قتادة ومجاهد وغيرهما. وقال الكلبي ومقاتل: ثلاث آيات منها مدنية قوله " أفمن كان مؤمنا " إلى تمام ثلاث آيات. وهي ثلاثون آية كوفي وحجازي وشامي. وتسع وعشرون آية بصري.

بسم الله الرحمن الرحيم

* (الم (١) تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين (٢)

أم يقولون افتريه بل هو الحق من ربك لتتذرع قوما ما أتيتهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون (٣) الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون (٤) يدبر الامر من السماء إلى الارض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) * (٥).

(٢٩٢)

خمس آيات كوفي وأربع فيما عداه عدوا " ألم " آية ولم يعدها الباقر.

روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه كان يقرأ في كل ليلة سورة السجدة " الم تنزيل " و " تبارك الذي بيده الملك " .

و " تنزيل " رفع على انه خبر ابتداء محذوف، وتقديره " الم " هو تنزيل.

ويجوز أن يكون (تنزيل) رفعا بالابتداء، وخبره " لا ريب فيه " ذكره الزجاج.

وقد تكرر القول بأن أوائل امثال هذه السور أقوى الاقوال فيها انها أسماء للسورة، ورجحناه على غيره من الاقوال. والتلفظ بحروف الهجاء ينبغي ان يكون على الوقف، لانها مبنية على السكون من حيث كانت حكاية للاصوات.

وقوله " تنزيل الكتاب " أي هذه الآيات هي تنزيل الكتاب الذي وعدتم به " لا ريب فيه " أي لا شك فيه أنه وحى من الله. والمعنى أنه لا ريب فيه عند المهتمين، وإن كان ارتاب به حلق من المبطلين. وهو مثل قول القائل: لا ريب في هذا انه ذهب أي عند من رآه واعتبره. وقيل: معنى " لا ريب فيه " خبر والمراد به النهي، والمعنى لا ترتابوا به، والريب الشك.

وقيل: هو اقباح الشك. ووجوه الحكم في الكتاب البيان عن كل ما تدعو الحكمة إلى تميز الحق فيه من الباطل بالبرهان عليه مما يحتاج إليه في الدين الذي يرضى به رب العالمين، وهو على وجهين: حجة، وموعظة، واعتماد الحجة على تبين ما يؤدي إلى العلم بصحة الامر، واعتماد الموعظة على الترغيب والترهيب، وفي الموعظة من جهة التحذير بما تضمنه أي يقرب ما في السورة المسمى به من الحكم، وفيه حجة على العبد من جهة انه قد دل به على ما يجب أنه يعنقد تعظيمه وبعمل به.

وقوله " من رب العالمين " أي هو تنزيل من عند الله الذي خلق الخلائق.
وقوله " ام يقولون افتراه " فهذه (أم) منقطعة، ومعناها (بل) وتقديره:

(٢٩٣)

بل يقولون افتراه، ففيها معنى (بل) والالف إذا كانت معادلة فمعناها (او) مع الاستفهام، و
(افتراه) معناه افتعله، بل قال تعالى ليس الامر على ما قالوه " بل هو الحق " من عند الله
والحق هو كل شئ كان معتقده على ما هو به مما يدعو العقل اليه واستحقاق المدح عليه.
وتعظيمه الكتاب حق، لان من اعتقد أنه من عند الله كان معتقده على ما هو به. والباطل
نقيض الحق، وهو ما كان معتقده لا على ما هو به.

وقوله " بل هو الحق من ربك " فيه دلالة على بطلان مذهب المجبرة لان الله تعالى أنزله
ليهتدي به الخلق لا ليضلوا به عن الدين، والمجبرة تزعم انه أراد ضلال الكفار عن الدين
فيجب كونه منزلا ليضل الكفار عن الدين.

وقوله " لتتذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك " لا ينافي قوله " وإن من أمة إلا خلا فيها نذير
" (١) لان الحسن، قال: المعنى وإن من أمة أهلكت بالعذاب إلا من بعد أن جاءهم نذير ينذرهم
بما حل بهم. وهذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) يقول الله تعالى له " لتتذر " أي لتخوف يا
محمد " قوما " لم يأتهم مخوف قبلك، يعني أهل الفترة من العرب، فكانوا كأنهم في غفلة عما
لزمهم من حق نعم الله وما خلقهم له من العباداة. وقد كان اسماعيل (عليه السلام) نذيرا لمن
أرسل اليه.

ثم قال " الله الذي خلق السموات والارض " أي اخترعهما وانشأها وخلق " ما بينهما في ستة
أيام " أي في ما قدره ستة أيام، لانه قبل خلق الشمس لم يكن ليل ولا نهار. وقوله " ثم استوى
على العرش " أي استوى عليه بالقهر والاستعلاء، وقد فسرناه في ما مضى (٢) ودخلت " ثم "
على (استوى على العرش)

(١) سورة ٣٥ فاطر آية ٢٤ (٢) انظر ٤ / ٤٥٢ (*)

(٢٩٤)

وإن كان مستعليا على الاشياء قبلها، كما دخلت حتى في قوله " ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين
منكم والصابرى " (١) وتقديره ثم صح معنى استوى على العرش باحداثه، وكذلك حتى يصح
معنى " نعلم المجاهدين " أي معنى وصفهم بهذا وذلك لا يكون إلا بعد وجود الجهاد من
جهتهم.

وقوله " مالكم من دونه من ولي ولا شفيع " نفي منه تعالى أن يكون للخلق ناصر ينصرهم من دون الله أو شفيع يشفع لهم، كما كانوا يقولون: نعبدكم ليقربونا إلى الله زلفى. ثم قال " افلا تتذكرون " في ما قلناه وتعتبرون به، فتعلموا صحة ما بيناه لكم. وقوله " يدبر الامر من السماء إلى الارض " معناه ان الذي خلق السموات والارض وما بينهما في هذه المدة يدبر الامور كلها، ويقدرها على حسب إرادته في ما بين السماء والارض، وينزله مع الملك إلى الارض " ثم يعرج اليه " يعني الملك يصعد إلى المكان الذي أمره الله تعالى أن يعرج اليه، كما قال ابراهيم:

" اني ذاهب إلى ربي " (٢) أي ارض الشام التي امرني ربي. ولم يكن الله بأرض الشام، ومثله قوله تعالى " ومن بخرج من بيته مهاجرا إلى انه ورسوله " (٣) يريد إلى المدينة. ولم يكن الله في المدينة. وقوله " في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون " قال ابن عباس، والضحاك: معناه يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة مما يعده البشر. وقيل: معناه خمس مئة عام نزول وخمس مئة عام صعود، فذلك ألف سنة. وقال قوم: يجوز ان يكون يوم القيامة يوما له اول وليس له آخر. وقته اوقاتا يسمى بعضها الف سنة وبعضها خمسين الف

(١) سورة ٤٧ محمد آية ٣١ (٢) سورة ٣٧ الصافات آية ٩٩ (٣) سورة ٤ النساء آية ٩٩ (*)

(٢٩٥)

سنة. وقيل: ان معنى " وإن يوما عند ربك كألف سنة " انه فعل في يوم واحد من الايام الستة التي خلق فيها السموات والارض ما لو كان يجوز أن يفعله غيره. لما فعله إلا في الف سنة. وقيل: ان معناه إن كل يوم من الايام الستة التي خلق فيها السموات كألف سنة من أيام الدنيا. قوله تعالى:

* (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم (٦) الذي أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين (٧) ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين (٨) ثم سويه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافتدة قليلا ما تشكرون (٩) وقالوا إذا ضللنا في الارض أننا لفي خلق جديد * بل هم بلقاء ربهم كافرون) * (١٠)

خمس آيات عراقي لم يعدوا " جديد " آية. وست في ما عداه، لانهم عدوا " جديد " آية. قرأ ابن كثير، وابوعمر، وابن عامر " احسن كل شئ خلقه " باسكان اللام. الباقيون بفتحها. من سكن اللام فعلى تقدير: الذي أحسن خلق كل شئ اي جعلهم يحسنونه والمعنى انه ألهمهم جميع ما يحتاجون اليه. قال الزجاج: ويجوز ان يكون على البدل، والمعنى: احسن كل شئ.

ويجوز أن يكون على المصدر وتقديره الذي خلق كل شيء خلقه. ومن فتح اللام جعله فعلا ماضيا، ومعناه

(٢٩٦)

احسن الله كل شيء خلقه على إرادته ومشيتته، وأحسن الانسان وخلقه في احسن صورة. وقيل: معناه إن وجه الحكمة قائم في جميع أفعاله، ووجوه القبح منتفية منها، ووجه الدلالة قائم فيها على صانعها، وكونه عالما. والضمير في قوله " خلقه " كناية عن اسم الله. لما اخبر الله تعالى انه الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام واستولى على العرش، وانه الذي يدبر الامور ما بين السموات والارض بين - ههنا - ان الذي يفعل ذلك ويقدر عليه هو " عالم الغيب والشهادة " أي يعلم السر والعلانية " العزيز " في انتقامه من أعدائه " الرحيم " بعباده، المنعم عليهم، و (الغيب) خفاء الشيء عن الادراك. والشهادة ظهوره للادراك فكأنه قال: يعلم ما يصح أن يشاهد، وما لا يصح أن يشاهد فيدخل في ذلك المعدوم والحياة والموت والقدرة وجميع ما لا يصح عليه الرؤية. والعزيز: هو القادر على منع غيره ولا يقدر الغير على منعه، وأصله المنع من قولهم: من عزيز، من غلب سلب، لان من غلب أسيره فمنعه أخذ سلبه.

ثم قال الذي احسن كل شيء خلقه، ومعنى ذلك في جميع ما خلقه الله تعالى وأوجده فيه وجه من وجوه الحكمة، وليس فيه وجه من وجوه القبح. وذلك يدل على ان الكفر والضلال وسائر القبائح ليست من خلقه. ولفظة (كل) وإن كانت شاملة للأشياء كلها، فالمراد به الخصوص - ههنا - لانه أراد ما خلقه الله تعالى من مقدراته دون مقدر غيره، ونصب قوله " خلقه " بالبدل من قوله " كل شيء " كما قال الشاعر:
وظعني اليك الليل حزنه انني * لتلك إذا هاب الهادي فعول (١)

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٣٠ (*)

(٢٩٧)

وتقديره وظعني حزنه الليل اليك. وقال الآخر:
كأن هندا ثناياها وبهجتها * يوم التقينا على ادحال دباب (١)
والمعنى كأن ثنايا هندو بهجة هند. وقوله " وبدأ خلق الانسان من طين " أي ابتداء خلق الانسان من طين، يريد انه خلق آدم الذي هو أول الخلق من طين، لان الله تعالى خلق آدم من تراب، فقلبه طينا، ثم قلب الطين حيوانا، وكذلك قال " إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من

تراب ثم قال له كن فيكون " (٢) وقال - ههنا - و " وبدأ خلق الانسان من طين " وكل ذلك لما في التصريفين دليل وقوله " ثم جعل نسله من سلالة " يعني نسل الانسان الذي هو آدم وولده من سلالة، وهي الصفوة التي تنسل من غيرها خارجة، قال الشاعر:

فجاءت به غضب الاديم غضنفرًا * سلالة فرج كان غير حصين (٣)

" من ماء مهين " قال قتادة: المهين الضعيف. وهو (فعليل) من المهنة.

وقوله " ثم سواه " أي عدله ورتب جوارحه " ونفخ فيه " يعني في ذلك المخلوق * (من روحه) * فأضافه إلى نفسه اضافة اختصاص وإضافة ملك على وجه التشريف. ثم قال " وجعل لكم " معاشر الخلق " السمع " لتسمعوا به الاصوات " والابصار " لتبصروا بها المرئيات " والافئدة " أي وخلق لكم القلوب لتعقلوا بها * (قليلا ما تشكرون) * أي تشكرون نعم الله قليلا من كثير و (ما) زائدة، ويجوز ان تكون مصدرية، والتقدير قليلا شكركم، لان نعم

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٣٠ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٥٩ (٣) مر تخريجه في ٧ / ٣٥٣ (*)

(٢٩٨)

الله لا تحصى. ثم حكى عن الكفار فقال * (وقالوا أئذا ضللنا في الارض) * وفيه لغتان فتح اللام وكسرهما، وكل شئ غلب عليه غيره حتى يغيب فيه، فقد ضل فيه، قال الاخطل:

كنت القذي في موج اكر مزبد * قذف الاتي به فضل ضلالا (١)

وقال مجاهد وقتادة: معنى * (ضللنا) * هلكننا. وقال ابو عبيدة: همدنا فلم يوجد لهم دم ولا لحم * (أئنا لفي خلق جديد) * حكاية عن تعجبهم وقولهم كيف نخلق خلقا جديدا، وقد هلكننا وتمزقت أجسامنا. ثم قال * (بل) * هؤلاء الكفار * (بلقاء ربهم) * بالعذاب والعقاب * (كافرون) * أي جاحدون، فلذلك قالوا: أئذا ضللنا في الارض أئنا لفي خلق جديد، جعل * (إذا) * منصوبة ب (ضللنا) وتكون في معنى الشرط، ولا توصل إلا بذكر الفاء بعدها، لان * (إذا) * قد وليها الفعل الماضي ولا يجوز أن تنصب (إذا) بما بعدها إذ لا خلاف بين النحويين فيه. وقرأ الحسن * (صللنا) * بالصاد غير منقوطة. ومعناه احد شئئين: احدهما - انتنا وتغيرنا وتغيرت صورنا، يقال صل اللحم، وأصل إذا أنتن، والثاني - صللنا صرنا من جنس الصلة وهي الارض اليابسة.

قوله تعالى:

* (قل يتوفيكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون (١١) ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون (١٢) ولو

(٢٩٩)

شئنا لآتينا كل نفس هديها ولكن حق القول مني لاملان جهنم من الجنة والناس أجمعين (١٣)
فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون (١٤) إنما
يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) * (١٥)
خمس آيات بلا خلاف.

أمر الله نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يخاطب المكلفين بأن يقول لهم " يتوفاكم ملك الموت " أي
يقبض أرواحكم، قال قتادة يتوفاكم ومعها أعوان من الملائكة، والتوفي أخذ الشيء على تمام،
قال الراجز:

ان بني أدرد ليسوا من أحد * ولا توفاهم قريش في العدد (١)

ومنه قوله " الله يتوفى الانفس حين موتها " (٢) ويقال: استوفى الدين إذا قبضه على كماله،
فملك الموت يتوفى الانسان باخذ روحه على تمام فيعرج بها إلى حيث امره الله تعالى. وقوله
" يتوفاكم " يقتضي أن روح الانسان هي الانسان فالإضافة فيها وقعت كما وقعت في نفس
الانسان، والملك مشتق من اللوكة وهي الرسالة كما قال الهذلي.

الكني اليها وخير الرسو * ل أعلمهم بنواحي الخبر (٣)

وقوله " الذي وكل بكم " صفة للملك الذي يتوفى الانفس، وأن الله

(٣٠٠)

قد وكله بمعنى فوض اليه قبض الارواح. والتوكيل تفويض الامر إلى غيره للقيام به، وكله
توكيلا، وتوكل عليه توكلًا، ووكله يوكله وكالة.

وقوله " ثم إلى ربكم ترجعون " معناه إنكم إلى جزاء الله من الثواب والعقاب تردون. وإنما
جعل الرجوع إلى الجزاء رجوعا إليه تفخيما للامر.

وقيل: معناه تردون إلى ان لا يملك لكم أحد ضرا ولا نفعا إلا الله تعالى. وفيه تعظيم لهذه
الحال. واقتضى الوعيد. ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) " ولو ترى " يا محمد " إذ المجرمون "
فجواب (لو) محذوف وتقديره: ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم إذا بعثوا، من الندم على
تقريطهم في الايمان لرأيتهم ما تعتبرون به. والخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) والمراد به الامة
" ناكسوا رؤسهم " من الغم. وقيل:

من الحياء والخزي مما ارتكبه من المعاصي " عند ربهم " يعني يوم القيامة الذي يتولى الله تعالى حساب خلقه. وفي الكلام حذف لان تقديره قائلين " ربنا أبصرنا وسمعنا " ومعناه أبصرنا الرشد وسمعنا الحق. وقيل: معناه أبصرنا صدق وعدك وسمعنا تصديق رسلك. وقيل معناه: إنا كنا بمنزلة العمي، فقد أبصرنا، وبمنزلة الصم، فسمعنا " فارجعنا " أي ردنا إلى دار التكليف " نعمل صالحا " من الطاعات غير الذي كنا نعمل من المعاصي " إنا موقنون " اليوم لا نرتاب بشئ من الحق والرسالة.

ثم قال تعالى مخبرا عن نفسه " ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها " ومعناه الاخبار عن قدرته انه يقدر على إلجائهم إلى الايمان بان يفعل أمرا من الامور يلجئهم إلى الاقرار بتوحيد الله، لكن ذلك يبطل الغرض بالتكليف، لان المقصود استحقاق الثواب، والالغاء لا يثبت معه استحقاق الثواب وقال الجبائي يجوز أن يكون المراد ولو شئنا لاجبناهم إلى ما سألوا ولرددتهم إلى دار التكليف

(٣٠١)

ليعملوا بالطاعات " ولكن حق القول مني " أن اجازيهم بالعقاب، ولا أردهم وقيل: ولو شئنا لهديناهم إلى الجنة " ولكن حق القول مني " أي أخبرت وأوعدت أني " لاملان جهنم من الجنة والناس أجمعين " بكفرهم بالله وجددهم وحدانيته وكفرانهم نعمه. ثم حكى تعالى ما يقال لمن تقدم ذكره الذين طلبوا الرجوع إلى دار التكليف، فانه يقال لهم يوم القيامة، إذا حصلوا في العذاب " فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا " أي انما فعلتم فعل من نسي لقاء جزاء هذا اليوم، فتركتم ما أمركم الله به وعصيتموه " انا نسيناكم " أي فعلنا معكم جزاء على ذلك فعل من نسيكم يعني من ثوابه، وترككم من نعيمه. والنسيان الترك. ومنه قوله " ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي " (١) وقال النابغة:

سفود شرب نسوه عند مفتأد (٢)

أي تركوه فلم يستعملوه، قال المبرد، لانه لو كان المراد النسيان الذي هو ضد الذكر لجاز أن يكونوا استعملوه " وذوقوا عذاب الخلد " الذي لا فناء له جزاء " بما كنتم تعملون " من المعاصي.

ثم اخبر تعالى عن حال المؤمنين ووصفهم بأن المؤمن على الحقيقة الكامل الايمان بآيات الله وبحججه " هم الذين إذا ذكروا " بحجج الله وتليت عليهم آياته خروا سجدا شكرا على ما هداهم لمعرفة وأنعم عليهم من فنون نعمه ونزهوا الله تعالى عما لا يليق به من الصفات وعن الشرك به حامدين لربهم غير مستكبرين ولا مستكفين من الطاعة.

(١) سورة ٢٠ طه آية ١١٥ (٢) مر هذا البيت كاملا في ٦ / ٨٧ (*)

(٣٠٢)

قوله تعالى:

* (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون (١٦) فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون (١٧) أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستون (١٨) أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون (١٩) وأما الذين فسقوا فمأويهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) * (٢٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ " اخفي " باسكان الياء حمزة ويعقوب. الباقيون - بفتح الياء - من سكن الياء جعله فعلا مستقبلا وحجته قراءة عبدالله " ما تخفي لهم " ومن فتح جعله فعلا ماضيا على ما لم يسم فاعله، فعلى قراءة حمزة (ما) نصب مفعول به، وعلى ما في القرآن إن موضع (ما) رفع بما لم يسم فاعله. والله فاعله و * (قرة أعين) * شئ أعده الله لعباده لم يطلعهم عليه في دنياهم، كما قال النبي (صلى الله عليه وآله) (هو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) وصف الله تعالى المؤمنين الذين ذكرهم في الآية الأولى في هذه الآية بأن قال: وهم الذين لا يستكفون عن عبادته " تتجافى جنوبهم عن المضاجع " أي يرتفعون عن

(٣٠٣)

مواضعهم التي ينامون عليها فالتجافى تعاطي الارتفاع عن الشئ، ومثله النبو يقال جفا عنه يجفو جفاء إذا نبا عنه. وتجافى عنه يتجافى تجافيا، واستجفاه استجفاء والمضجع موضع الاضطجاع، والاضطجاع هو القاء النفس " يدعون ربهم " أي داعين ربهم الذي خلقهم وأوجدهم * (خوفا) * من عذابه يسألونه المغفرة * (وطمعا) * في ثوابه. وانتصب * (خوفا، وطمعا) * على انه مفعول له أي للخوف وللطمع * (ومما رزقناهم ينفقون) * في طاعة الله وسبيل ثوابه. ووجه المدح بذلك أن هؤلاء المؤمنين يقطعهم اشتغالهم بالدعاء لله عن طيب المضطجع لما يأملون به من الخير والبركة من الله تعالى، لان آمالهم مصروفة اليه، واتكالهم في أمورهم عليه، وقال الشاعر في التجافى:

وصاحبي ذات هباب دمشق * وابن ملاط متجاف ادفق (١)

أي متتح عن كركرتها، وقال أنس وقتادة: انه مدح قوما كانوا يتنفلون بين المغرب والعشاء. وقال الضحاك: انهم كانوا يذكرون الله بالدعاء والتعظيم وقال قتادة: * (خوفا) * من عذاب

الله * (وظمعا) * في رحمة الله * (ومما رزقناهم ينفقون) * في طاعة الله. وقال ابوجعفر، وابوعبدالله (عليهما السلام) الآية متناولة لمن يقوم إلى صلاة الليل عن لذيذ مضجعه وقت السحر، وبه قال معاذ والحسن ومجاهد. وقال عبدالله بن رواحة في صفة النبي (صلى الله عليه وآله):

بييت يجافي جنبه عن فراشه * إذا استنقلت بالمشركين المضاجع ثم قال تعالى * (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) * تحتل (ما) في قوله * (ما أخفي) * أن تكون بمعنى الذي ويكون موضعها النصب، ويحتل أن تكون بمعنى (أن) ويكون موضعها الرفع، وتكون الجملة في موضع نصب، والمعنى

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٣٢ (*)

(٣٠٤)

ليس يعلم أحد كنه ما أعد الله لهؤلاء المؤمنين الذين تقدم وصفهم من انواع اللذات والاشياء التي تقر أعينهم بها على كنه معرفتها. وقولهم قرت عيناه أي فرحها الله. لان المستبشر الضاحك يخرج من عينه ماء بارد من شؤونه. والباكي جزعا يخرج من عينيه ماء سخن من الكبد، ومنه قولهم: سخنت عينه - بكسر الخاء - * (جزاء بما كانوا يعملون) * من الطاعات في دار التكليف، وانما نفى العلم عنهم مع أن المؤمن يعلم أنه مستحق للثواب، لان العلم بالشيء يكون من وجهين:

احدهما - ان يعلم الشيء على طريق الجملة، وهو الذي يحصل للمؤمن في دار التكليف. والآخر - ان يحصل على طريق التفصيل، وذلك موقوف على مشاهدتهم للثواب الذي يرونه عند زوال التكليف وحضور الثواب.

ثم قال تعالى * (أمن كان مؤمنا) * مصدقا بالله عارفا به وبأنبيائه عاملا بما اوجبه الله عليه وندبه اليه * (كمن كان فاسقا) * خارجا عن طاعة الله بارتكاب معاصيه على وجه الانكار لذلك، فلذلك جاء به على لفظ الاستفهام، ثم اخبر تعالى بأنهم * (لا يستون) * قط، لان منزلة المؤمن الثواب وانواع اللذات، ومنزلة الفاسق العذاب وفنون العقاب. ثم فسر ذلك بما قال بعده فقال * (اما الذين آمنوا) * بالله وصدقوه وصدقوا أنبياءه * (وعملوا الصالحات) * وهي الطاعات مع ذلك * (فلهم جنات المأوى) * فالمأوى المقام اي لهم هذه البساتين التي وعدهم الله بها يأوون اليها * (نزلا بما كانوا يعملون) * أي في مواضع لهم ينزلون فيها مكافأة لهم على طاعاتهم التي عملوها. وقال الحسن: * (نزلا) * أي عطاء نزلوه * (وأما

الذين فسقوا) * بخروجهم عن طاعة الله إلى معاصيه * (فمأواهم النار) * يأوون إليها نعوذ بالله منها * (كلما أرادوا ان يخرجوا منها) * أي كلما كادوا وهموا

(٣٠٥)

بالخروج منها لما يلحقهم من العذاب * (اعيدوا فيها) * أي ردوا فيها وقال الحسن: كلما كادوا الخروج منها لأنها ترميهم بلهبها ضربوا بمقامع حتى يعودوا فيها، وقيل: لهم مع ذلك على وجه التقرير والتبكيث * (ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) * اي العذاب الذي كنتم به تجحدون في دار الدنيا ولا تصدقون به.

وقال ابن ابي ليلى: نزلت الآية في رجل من قريش وعلي (عليه السلام) وقال غيره: إن هذه الآيات نزلت في علي ابن أبي طالب (عليه السلام) والوليد بن عقبة بن ابي معيط، فالؤمن المراد به علي (عليه السلام) والفاسق هو الوليد بن عقبة، روي انه لقيه يوما فقال لعلي: انا أبسط منك لسانا واحد منك سنانا، فقال علي: (عليه السلام) ليس كما قلت يا فاسق. فنزل قوله * (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا...) * فقال قتادة: والله ما استووا، لا في الدنيا ولا في الآخرة ولا عند الموت.

قوله تعالى:

* (ولنديقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلمهم يرجعون (٢١) ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون (٢٢) ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل (٢٣) وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون (٢٤) إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيمة فيما كانوا

(٣٠٦)

فيه يختلفون) * (٢٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي ورويس * (لما صبروا) * بكسر اللام والتخفيف أي لصبرهم، الباقون بالتشديد وفتح اللام بمعنى حين صبروا.

اقسم الله تعالى في هذه الآية، لان اللام في قوله * (ولنديقنهم) * هي التي يتلقى بها القسم، وكذلك النون الثقيلة، بأنه يذيق هؤلاء الفساق الذين تقدم وصفهم العذاب الادنى بعض ما يستحقونه. وقيل: العذاب الادنى هو العذاب الاصغر وهو عذاب الدنيا بالقتل والسبي والقحط والفقر والمرض والسقم وما جرى هذا المجرى. وقيل: هو الحدود. وقيل: عذاب القبر. عن جعفر بن محمد (عليهما السلام):

ان العذاب الادنى هو القحط، والاكبر خروج المهدي بالسيف. والعذاب الاكبر عند المفسرين هو عذاب الآخرة بالنار التي يستفزع الانسان بالآلام وفي الادنى معنى الاقرب. وقد يكون الادنى من الاشياء في الحسن، وهو أن يفعل على انه ليس فيه ظلم لاحد إذا فعل للشهوة، والادنى في القبح ما يفعل وفيه ظلم يسير اتباعا للشهوة، والاعلى في الحسن هو ما ليس فوقه ما هو اعلى منه يستحق به العبادة. والادنى في العذاب اكبر في الآلام، لان العذاب استمرار الالم، وليس فوق عذاب الكفر عذاب، لان عذاب الفسق دونه.

وقال ابن عباس: وابي بن كعب والحسن: العذاب الادنى مصائب الدنيا.

وقال ابن مسعود: هو القتل يوم بدر. والعذاب الاكبر عذاب الآخرة. وهو قول الحسن ومجاهد وابن زيد وابن مسعود.

وقوله * (لعلهم يرجعون) * إخبار منه تعالى أنه يفعل بهم ما ذكره من العذاب الادنى، ليرجعوا عن معاصي الله إلى طاعته ويتوبوا منها. وهو قول

(٣٠٧)

عبدالله وابي العالية وقتادة.

ثم قال الله تعالى على وجه التقريع لهم والتبكييت " ومن أظلم " لنفسه بارتكاب المعاصي وإدخالها في استحقاق العقاب " ممن ذكر بآيات ربه " أي ينبه على حججه تعالى التي توصله إلى معرفته ومعرفة ثوابه، " ثم أعرض عنها " جانباً، ولم ينظر فيها. ثم قال " إنما من المجرمين " الذين يفعلون المعاصي بقطع الطاعات وتركها " منتقمون " بأن نعذبهم بعذاب النار.

ثم اخبر تعالى فقال " ولقد آتينا موسى الكتاب " يعني التوراة " فلا تكن في مرية من لقائه " أي في شك من لقائه يعني لقاء موسى ليلة الاسراء بك إلى السماء - على ما ذكره ابن عباس - وقيل: فلا تكن في مرية من لقاء موسى في الآخرة، وقال الزجاج: فلا تكن يا محمد في مرية من لقاء موسى الكتاب.

والمرية الشك. وقال الحسن: فلا تكن في شك من لقاء الاذى، كما لقي موسى كأنه قال: فلا تكن في شك من أن تلقى كما لقي موسى " وجعلناه هدى لبني اسرائيل " قال قتادة: وجعلنا موسى هادياً لبني اسرائيل، وضع المصدر في موضع الحال. وقال الحسن: معناه جعلنا الكتاب هادياً لهم " وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا " قال قتادة: معناه جعلنا منهم رؤساء في الخير يقتدى بهم يهدون إلى فعل الخير بأمر الله " لما صبروا " قيل: فيه حكاية الجزاء، وتقديره قيل لهم: إن صبرتم جعلناكم أئمة، فلما صبروا جعلوا أئمة - ذكره الزجاج - و "

كانوا بآياتنا " أي بحججنا " يوقنون " أي لا يشكون فيه. واليقين وجدان النفس بالثقة على خلاف ما كانت عليه من الاضطراب والحيرة.
ثم قال لنبيه " إن ربك " يا محمد " هو " الذي " يفصل بينهم يوم القيامة " أي يحكم بينهم، يعني بين المؤمن والكافر والفاسق " في ما كانوا فيه يختلفون "

(٣٠٨)

في دار الدنيا من التصديق بالله وبرسوله والايان بالبعث والنشور وغير ذلك.
قوله تعالى:

* (أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون (٢٦) أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون (٢٧) ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين (٢٨) قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون (٢٩) فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) * (٣٠)
خمس آيات بلا خلاف.

القراء كلهم على الياء في قوله " أولم يهد لهم " بمعنى اولم يهد إهلاكنا لهم لمن مضى من القرون. وقرئ بالنون بمعنى الاخبار عن الله تعالى أنه الذي بين لهم هلاك الماضين وأرشدهم بذلك إلى الحق وأتباعه، فاضافه إلى نفسه.

يقول الله تعالى منبها لخلقة على وجه الاعتبار بحججه " او لم يهد لهم " ومعناه او لم يبصرهم ويرشدهم من غوايتهم، يقال: هداه يهديه في الدين هدى، وهدى إلى الطريق هداية، واهتدى إذا قبل الهداية. والواجب من الهدى: هو ما يؤدي إلى ما ليس للعبد عنه غنى في دينه، فاللطف على هذا هدى. والنظر المؤدي إلى معرفة الله هدى. وفاعل " يهد " مضمرة فيه،

(٣٠٩)

وتقديره أو لم يهد لهم إهلاكنا من أهلكناهم من القرون الماضية جزاء على كفرهم بالله وإرتكابهم لمعاصيه، ولا يجوز أن يكون فاعل " يهد " كم " في قوله " كم اهلكنا لان " كم " لا يعمل فيها ما قبلها إلا حروف الاضافة، لأنها على تقدير الاستفهام الذي له صدر الكلام، واجاز الفراء أن يكون فاعل " يهد " " كم " ولم يجزه البصريون.

وقوله " يمشون في مساكنهم " اي أهلكناهم بغتة وهم متشاغلين بنفوسهم ويمشون في منازلهم. ثم قال " إن في ذلك لآيات " أي لحججاً واضحات " أفلا يسمعون " ومعناه أفلا يتدبرون ما يسمعون من هذه الآيات، لان من لا يتدبر ما يسمعه، ولا يفكر فيه. فكأنه لم يسمعه. ثم نبههم

على وجه آخر فقال " أو لم يروا " ومعناه او لم يعلموا " أنا نسوق الماء إلى الارض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه انعامهم وأنفسهم " فالسوق الحث على السير، ساقه يسوقه سوقاً، فهو سائق، يقول الله تعالى نسوق ماء المطر إلى هذه الارض الجرز، فننبت به ضروباً من النبات الذي يتغذى به الانسان والانعام وغيرهم والارض الجرز هي الارض اليابسة التي ليس فيها نبات، انقطع ذلك لانقطاع الامطار، وهو مشتق من قولهم: سيف جراز أي قطاع، لا يلقى على شئ إلا قطعه وناقاة جراز، إذا كانت تأكل كل شئ لأنها لا تبقى شيئاً إلا قطعه بفيها وأرض جروز، وهي التي لا تبقى على ظهرها شيئاً إلا أهلكته، كالناقاة الجراز ورجل جروز أكول، قال الراجز:

خب جروز إذا جاع بكا * اياكل التمر ولا يلقى النوى ا (١)
وفيه أربع لغات أرض جرز - بضم الجيم والراء، وبضم الجيم واسكان

(١) تفسير القرطبي ١٤ / ١١٠ (*)

(٣١٠)

الراء وبفتح الجيم والراء، وبفتح الجيم واسكان الراء.

وقال ابن عباس * (نسوق الماء) * بالسيول، لأنها مواضع عالية، قال وهي:
قرى بين اليمن والشام. ثم قال * (أفلا يبصرون) * بأن يفكروا في ذلك فيدلهم على انه لا يقدر على ذلك أحد غير الله الذي لا شريك له. ثم حكى عنهم أنهم * (يقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين) * مستعجلين لما وعد الله تعالى من الفصل بينهم في قوله * (ان ربك هو يفصل بينهم) * يعنون متى يجئ فتح الحكم بينا وبينكم في الثواب والعقاب، والفتح القضاء والحكم، وقيل: انه أراد به فتح مكة، فعلى هذا قوله * (يوم الفتح) * يوم فتح مكة * (لا ينفع الذين كفروا إيمانهم) * لا يليق به. وقيل: لا ينفع الذين قبلهم خلد - من بني كنانة - إيمانهم. والتأويل هو الاول، فقال الله تعالى لنبيه محمد * (قل) * لهم يا محمد * (يوم الفتح) * أي يوم القضاء والفصل. وقال مجاهد: يوم القيامة * (لا ينفع الذين كفروا) * بآيات الله * (إيمانهم) * لان التكليف قد زال عنهم، ومعارفهم تحصل ضرورة * (ولا هم ينظرون) * أي ولا يؤخرون ايضاً، فلا ينبغي ان يستعجلوا مجيئه. ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) * (فأعرض عنهم) * يا محمد، فانه لا ينفع فيهم الدعاء والوعظ. وقيل: كان ذلك قبل أن يؤمر بالجهاد. وقيل: أعرض عن أذاهم * (وانتظر) * حكم الله تعالى فيهم وإهلاكه لهم * (فانهم منتظرون) * أيضاً الموت الذي يؤديهم إلى ذلك. وقيل: انه سيأتيهم ذلك، فكأهم كانوا ينتظرونه.

(٣١١)

٣٣ - سورة الاحزاب مدنية في قول مجاهد والحسن وهي ثلاث وسبعون آية بلا خلاف.
بسم الله الرحمن الرحيم * (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما
حكيمًا (١) واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرًا (٢) وتوكل على الله
وكفى بالله وكيلا (٣) ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللاتي
تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو
يهدي السبيل (٤) أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين
ومواليكم وليس عليكم جناح

(٣١٢)

فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيمًا) * (٥) خمس آيات.
قرأ ابن كثير وابوعمر، ونافع وأبوجعفر * (اللاء) * بهمزة ليس بعدها ياء، إلا أن ابا عمرو
لين الهمزة. وقرأ ابن عامر واهل الكوفة بهمزة بعدها ياء، وقرأ * (تظهِرون) * بفتح التاء
مشددة الظاء بغير ألف - ابن كثير ونافع وابوعمر - وقرأ عاصم إلا الكسائي عنه *
(تظهِرون) * بضم التاء خفيفة الظاء والف بعدها. وقرأ ابن عامر بتشديد الظاء والالف وفتح
التاء. فمن قرأ * (تظهِرون) * بتشديد الظاء اراد تتظهِرون، فأدغم احدى التائين في الظاء.
ومن قرأ بغير الف مشددا اراد تتظهِرون، وادغم احدى التائين في الظاء، وعاصم جعل الفعل
بين اثنين. فقال * (تظهِرون) * بضم التاء وتخفيف الظاء مع الالف. وقرأ ابو عمرو * (بما
يعملون خبيرًا) * و * (بما يعملون بصيرا) * بالياء فيهما. الباقيون بالتاء. وجه قراءة أبي
عمرو قوله " ولا تطع الكافرين والمنافقين " بأن الله يعلم ما يفعلونه، فيجازيهم بحسبه، ووجه
التاء الخطاب لهم.

هذا خطاب من الله تعالى للنبي (صلى الله عليه وآله) والمراد به جميع الامة كما قال " يا أيها
النبي إذا طلقتم " (١) فخصه بالخطاب، وأراد به جميع المكلفين، يأمرهم الله بتقواه، وتجنب
معاصيه، وفعل طاعاته، فنهاهم عن طاعة الكافرين الذين يجحدون نعم الله ويتخذون معه إليها
سواه، ومثل ذلك نهاه عن طاعة المنافقين ومتابعتهم لما يريدونه.

وسبب نزول الآية أن أبا سفيان وجماعة من الكفار قدموا على النبي (صلى الله عليه وآله)

(١) سورة ٦٥ الطلاق آية ١ (*)

(٣١٣)

المدينة، ودعوه إلى أشياء عرضوها عليه، فأراد المسلمون قتلهم. فأنزل الله سبحانه " يا أيها النبي اتق الله " في نقض العهد، وقتل هؤلاء الكفار " ولا تطع الكافرين " في ما يدعونك إليه ولا " المنافقين " في قتلهم ونقض العهد.

والمنافق هو الذي يظهر الايمان ويبطن الكفر، والكافر هو الذي يظهر الكفر ويبطنه. ثم قال " إن الله كان عليما حكيما " في ما يوحى اليك من أمرهم ويأمرك بالطاعة وترك المعصية في متابعتهم في ما يريدونه ولما نهاهم عن متابعة الكفار والمنافقين قال " واتبع ما يوحى اليك من ربك " امره ان يتبع الذي يوحى الله اليه من أمره ونهيه، فعلى موجب هذه الآية لا يجوز لاحد أن يطيع الكفار والمنافقين، وإن دعوهم إلى الحق، ولكن يفعل الحق، لانه حق لا لاجل دعائهم اليه " إن الله كان بما تعملون خبيرا " تهديدا لهم، لان المراد أنه لا يخفى عليه شئ من أعمالكم فيجازيكم بحسبها إن كان سوءا عاقبكم، وإن كان طاعة أثابكم عليها. ومن قرأ - بالياء - أراد الاخبار عن الكفار والخطاب متوجه إلى النبي (صلى الله عليه وآله). ومن قرأ - بالتاء - خاطب الجميع. ثم أمر النبي (صلى الله عليه وآله) والمراد به جميع المكلفين فقال " وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا " أمرهم ان يتوكلوا على الله ويفوضوا أمورهم اليه، فان الله تعالى كاف في ما يوكل اليه. و (الوكيل) القائم بالتدبير لغيره بدعاء من له ذلك اليه، فالحكمة تدعو إلى أن الله تعالى القائم بتدبير عباده، فهو وكيل عليهم من أوكد الوجوه. ثم قال تعالى " ما جعل الله لرجل من قبلين في جوفه " قال ابن عباس: كان المنافقون يقولون: لمحمد قلبان، فاكذبهم الله. وقال مجاهد وقتادة، وهو

(٣١٤)

في رواية عن ابن عباس: أنه كان رجل من قریش يدعى ذا القلبين من دهائه وهو أبو معمر جميل بن اسد، فنزلت هذه الآية فيه. وقال الحسن: كان رجل يقول: لي نفس تأمرني ونفس تنهاني، فأنزل الله فيه هذه الآية. وقال الزهري:

هو مثل في ان هذا ممتنع كامتناع أن يكون ابن غيرك ابنك. وروي عن جعفر الصادق (عليه السلام) أنه قال: ما جعل الله لرجل من قبلين في جوفه يحب بهذا قوماً ويحب بهذا اعداءهم. ولا يمكن أن يكون لانسان واحد قلبان في جوفه، لانه كان يمكن أن يوصل إنسانان فيجعلان إنسانا واحداً، وقد يمكن أن يوصلا بما لا يخرجهما عن أن يكونا انسانين، وليس ذلك إلا من جهة القلب الواحد أن القلبين، لانه إذا جعل لهما قلبان يريد أحدهما بقلبه مالا يريد الآخر ويشتهي مالا يشتهي الآخر، ويعلم مالا يعلم الآخر فهما حيان لا محالة، وليس حيا واحداً. وقال الرماني: لا يجوز أن توجد الارادة والمعرفة في جزئين من القلب او أجزاء وانما يصح أن توجد في جزء واحد، قال: لان ما يوجد في جزئين بمنزلة ما يوجد في قلبين، وقد بطل أن

يكون لانسان واحد قلبان. وهذا الذي ذكره ليس بصحيح، لانه لا يمتنع أن يوجد معنيان مختلفان في جزئين من القلب، لانهما وإن وجدا في جزئين فالحالان الصادران عنهما يرجعان إلى الجملة وهي جملة واحدة وليسا يوجبان الصفة للمحل الواحد فيتتافى، فعلى هذا لا يجوز أن يوجد في جزئين من القلب معنيان ضدان، لاستحالة اجتماع معنهما في الحي الواحد، ويجوز أن يوجد معنيان مختلفان او مثلان في جزئين من القلب ويوجبان الصفتين للحي الواحد، وعلى هذا القياس ليس يمتنع ان يوجد قلبان في جوف واحد إذا كان ما يوجد فيهما يرجع إلى حي واحد، وانما المتتافي أن يرجع ما يوجد منهما إلى حيين، وذلك محال.

(٣١٥)

وقوله " وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن أمهاتكم " أي ليس نساؤكم وأزواجكم إذا قلتن لهن أنتن علي كظهر أمي يصرن أمهاتكم على الحقيقة لان أمهاتكم على الحقيقة هن اللاتي ولدنكم وأرضعنكم. وقال قتادة: إذا قال لزوجته أنت علي كظهر أمي، فهو مظاهر، وعليه الكفارة. وعندنا إن الظهار لا يقع إلا ان تكون المرأة طاهرا، ولم يقربها في ذلك الطهر بجماع، ويحضر شاهدان رجلان مسلمان، ثم يقول لها أنت علي كظهر أمي، ويقصد التحريم. فاذا قال ذلك حرم عليها وحرمت عليه أن يطأها حتى يكفر. وإن اختلف شئ من شرائطه، فلا يقع ظهار أصلا.

وقوله " وما جعل أديعائكم أبناءكم " قال قتادة ومجاهد وابن زيد: نزلت في زيد بن حارثة، فانه كان يدعى ابن رسول الله، والادعياء جمع دعي، وهو الذي تبناه الانسان. وبين الله تعالى أن ذلك ليس بابن على الحقيقة، ولذلك قال في آية أخرى " ما كان محمد أبا احد من رجالكم " (١) وقوله " ذلكم قولكم بأفوهكم " يعني أن قولكم في الدعي أنه ابن الرجل قول تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له عند الله. ثم قال " والله يقول الحق " في ما يبينه " وهو يهدي السبيل " يعني طريق الحق الذي يفضي بكم إلى الثواب. ثم أمر المكلفين بأن يدعوا الادعياء " لأبائهم " الذين ولدوهم وينسبونهم اليهم أو إلى من ولدوا على فراشهم " اقسط " أي، فان ذلك اعدل عند الله، واقسط بمعنى أعدل " فان لم تعلموا آباءهم " ولا تعرفوهم باعيانهم فهم * (اخوانكم في الدين) * أي في الملة فادعوهم بذلك * (ومواليكم) * أي بنو عمكم او لكم ولاءهم إذا كنتم اعتقتموهم من رق. ثم قال " وليس عليكم جناح " اي حرج " في ما اخطأتم به " فنسبتموه

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٤٠ (*)

(٣١٦)

إلى من انتمى إليه وإن الله لا يؤاخذكم به " ولكن ما تعمدت قلوبكم " فقصدتموه من ذلك وارادتموه هو الذي تؤاخذون به، وموضع (ما) جر، تقديره ولكن في ما تعمدت قلوبكم " وكان الله غفورا رحيمًا " يغفر لكم ما لم تتعمدوا من ذلك، ويستره عليكم ويرحمكم بترك مؤاخذتكم به.

قوله تعالى:

* (الأنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا كان ذلك في الكتاب مسطورًا (٦) وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا (٧) ليستل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابًا أليمًا (٨) يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا (٩) إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) * (١٠) خمس آيات.

(٣١٧)

قرأ بن كثير والكسائي وحفص عن عاصم " الظنونا " بألف في الوقف دون الوصل. وقرأ نافع وابوجعفر وابوبكر عن عاصم وابن عامر - بالالف - فيهما وقرأ ابو عمرو ويعقوب وحمزة - بغير الف - فيهما وفي المصحف بألف. من أثبت الألف أثبته لاجل الفواصل التي يطلب بها تشاكل المقاطع، ولأن الألف ثابتة في المصاحف، فاتبعوا المصحف، ومن حذف قال: لأن هذا الألف يكون بدلا من التنوين في حال الوقف، فإذا دخلت الألف واللام اسقطت التنوين، فقط أيضا ما هو بدل منه، ولأن مثل ذلك إنما يجوز في القوافي وذلك لا يليق بالقرآن، قال الشاعر:

أقلى اللوم عاذل والعتابا * - وقولي ان اصبت لقد اصابا (١)

أخبر الله تعالى ان " لنبي " (صلى الله عليه وآله) " أولى بالمؤمنين من أنفسهم " بمعنى أحق بتدبيرهم، وبأن يختاروا ما دعاهم إليه. وأحق بأن يحكم فيهم بما لا يحكم به الواحد في نفسه لوجوب طاعته التي هي مقرونة بطاعة الله، وهو أولى في ذلك وأحق من نفس الإنسان، لأنها ربما دعت إلى اتباع الهوى، ولأن النبي (صلى الله عليه وآله) لا يدعو إلا إلى طاعة الله، وطاعة الله أولى ان تختار على طاعة غيره.

وواحد الأنفس نفس، وهي خاصة الحيوان الحساسة المدركة التي هي نفس ما فيه. ويحتمل ان يكون اشتقاقه من التنفس، وهو التروح، لأن من شأنها التنفس به، ويحتمل ان يكون مأخوذا من النفاسة، لأنها أجل ما فيه وأكرم.

ثم قال " وأزواجه امهاتكم " والمعنى أنهن كالامهات في الحرمة، وتحريم العقد عليهن. ثم قال " وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين " أولوا الارحام هم أولوا الانساب. لما ذكر الله أن ازواج النبي أمهاتهم

(١) قائله جرير ديوانه ٥٨ وسيبويه ٢ / ٢٨ ، ٢٩٩ (*)

(٣١٨)

في الحكم من جهة عظم الحرمة، قال " وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض " أي الا ما بين الله في كتابه مما لا يجوز لازواج النبي (صلى الله عليه وآله) أن يدعين أمهات المؤمنين. وقال قتادة: كان الناس يتوارثون بالهجرة فلا يرث الاعرابي المسلم المهاجر حتى نزلت الآية. وقيل: إنهم كانوا يتوارثون بالمؤاخاة الاولى. ثم نسخ ذلك، فبين الله تعالى أن " أولى الارحام بعضهم اولي ببعض " أي من كان قريبا أقرب فهو أحق بالميراث من الابدع، وظاهر ذلك يمنع أن يرث مع البنت والام احد من الاخوة والاخوات، لان البنت والام اقرب من الاخوة والاخوات، وكذلك يمنع أن يرث مع الاخت أحد من العمومة والعمات وأولادهم، لانها اقرب، والخبر المروي في هذا الباب أن (ما أبقت الفرائض فلأولي عصبة ذكر) خبر واحد مطعون على سنده، لا يترك لاجله ظاهر القرآن الذي بين فيه ان أولى الارحام الاقرب منهم أولى من الابدع " في كتاب الله من المؤمنين " الموأخين والمهاجرين.

وقوله " إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا " استثناء منقطع، ومعناه لكن إن فعلتم إلى أوليائكم معروفًا من المؤمنين وحلفائكم ما يعرف حسنه وصوابه فهو حسن، ولا يكون على وجه نهى الله تعالى عنه، ولا أذن فيه. وقال مجاهد معروفًا من الوصية لهم بشئ، والعقل عنهم والنصرة لهم، ولا يجوز أن يكونوا القرابة المشركين على ما قال بعضهم، لقوله " لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء " (١) وقد أجاز كثير من الفقهاء الوصية للقرابات الكفار. وعندنا ان ذلك جائز للوالدين والولد.

وقوله " كان ذلك في الكتاب مسطورا " يعني أن ما ذكره الله كان مكتوبا

(١) سورة ٦٠ الممتحنة آية ١ (*)

(٣١٩)

في الكتاب المحفوظ اثبته الله وأطلع عليه ملائكته لما لهم في ذلك من اللطف فلا يجوز خلاف ذلك، وقيل: مسطورا في القرآن. و (من) يحتمل أمرين:

احدهما - أن يكون دخلت ل (أولى) أي بعضكم أولى ببعض من المؤمنين والثاني - أن يكون التقدير، وأولوا الأرحام من المؤمنين والمهاجرين أولى بالميراث.

وقوله " وإذ أخذنا من النبيين " تقديره واذكر يا محمد حين أخذ الله من النبيين ميثاقهم، قال ابن عباس: الميثاق العهد والميثاق الغليظ اليمين بالله تعالى على الوفاء بما حملوا. وقوله " ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا " يعني ما عهد الله تعالى إلى الأنبياء المذكورين وأمرهم به من إخلاص العبادة له، وخلع الأنداد من دونه، والعمل بما أوجبه عليهم وندبهم إليه، ونهاهم عن معاصيه، والإخلال بواجباته. وقال البلخي:

معناه ما أمرهم الله به من أداء الرسالة والقيام بها.

وقوله " ليسأل الصادقين عن صدقهم " قال مجاهد: معناه فعل ذلك ليسأل الأنبياء المرسلين ما الذي أجاب به أممكم، ويجوز أن يحمل على عمومته في كل صادق، ويكون فيه تهديد للكاذب، فإن الصادق إذا سئل عن صدقه على أي وجه قال فيجزي بحسبه، فكيف يكون صورة الكاذب.

ثم قال " واعد للكافرين عذابا اليما " أي اعد لهم عذابا مؤلما، وهو عذاب النار - نعوذ بالله منها.

ثم خاطب المؤمنين فقال " يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود " أي في حال ما جاءتكم جنود يعني يوم الأحزاب، وهو يوم الخندق حيث اجتمعت العرب على قتال النبي (صلى الله عليه وآله) قريش وغطفان وبنو قريظة

(٣٢٠)

وتضافروا على ذلك " فارسلنا عليهم " أي فارسل الله تعالى عليهم نصره لنبيه ونعمة على المؤمنين " ريجا " استقبلتهم ورمت في أعينهم الحصباء واكفنت قدورهم واطفئت نيرانهم، وقلعت بيوتهم واطنابهم وارسل الله عليهم " جنودا " من الملائكة نصره للمؤمنين، روى ذلك يزيد بن رومان " لم تروها " أي لم تروا الملائكة أنتم بأعينكم، لأنها اجسام شفافة لا يصح إدراكها " وكان الله بما تعملون بصيرا " من قرء بالياء أراد أن الله عالم بما يعمله الكفار. ومن قرأ بالتاء وجه الخطاب إلى المؤمنين.

ثم قال واذكر " إذ جاءكم " يعني جنود المشركين * (من فوقكم) * وهم عيينة بن حصين بن بدر في أهل نجد * (ومن أسفل منكم) * وهم ابوسفيان في قريش وواجهتهم قريظة، وهو قول مجاهد: * (وإذ زاغت الأبصار) * أي اذكر إذ عدلت الأبصار عن مقرها. قال قتادة معناه: شخصت من الخوف * (وبلغت القلوب الحناجر) * أي نأت عن أماكنها من الخوف. وقيل: قال المسلمون:

يا رسول الله بلغت القلوب الحناجر فهل من شئ نقوله. قال: نعم قولوا * (اللهم استر عورتنا وأمن روعتنا) * فضرب الله وجوه أعدائه بريح الصبا، فهزمهم الله بها، والحناجر جمع حنجرة، وهي الحلق، قيل: لأن الرئة عند الخوف تصعد حتى تلحق بالحلق * (وتظنون بالله الظنونا) * قال الحسن: كانت الظنون مختلفة، فظن المنافقون انه يستأصل، وظن المؤمنون انه سينصر. وقيل: كانت الريح شديدة البرد تمنع المشركين من الحرب وكانت الملائكة تفقد بعضهم عن بعض.

(٣٢١)

قوله تعالى:

* (هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا (١١) وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا (١٢) وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا (١٣) ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا (١٤)

ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا) * (١٥) خمس آيات. قرأ حفص عن عاصم * (لا مقام) * بضم الميم أي لا إقامة لكم. الباقرن - بفتح الميم يعني لا موضع لكم تقومون فيه. وقرأ ابن كثير ونافع وابوجعفر وابن عامر * (لاتوها) * قصرا بمعنى لجأوها. الباقرن بالمد، يعني لاعطوها.

وقالوا: هو أليق بقوله " ثم سئلوا الفتنة " لأن العطاء يطابق سؤال السائل.

لما وصف الله تعالى شدة الأمر يوم الخندق، وخوف الناس وأن القلوب بلغت الحناجر من الرعب. قال * (هنالك ابتلي المؤمنون) * أي اختبروا ليظهر بذلك حسن نياتهم وصبرهم على ما أمرهم الله به من جهاد أعدائه و (هنا) للقريب

(٣٢٢)

من المكان و (هنالك) للبعيد منه، و (هناك) للمتوسط بين القريب والبعيد وسبيله سبيل (ذا. وذاك وذلك).

والابتلاء إظهار ما في النفس من خير أو شر، ومثله الاختبار والامتحان والبلاء النعمة، لإظهار الخير على صاحبه، والبلاء النعمة لإظهار الشر عليه.

وقوله * (وزلزلوا زلزالا شديدا) * معناه وحركوا بهذا الامتحان تحريكا عظيما، فالزلال الاضطراب العظيم ومنه قوله " إذا زلزلت الأرض زلزالها " والزلزلة اضطراب الأرض.

وقيل: انه مضاعف زل، وزلزله غيره. والشدة قوة تدرك بالحاسة، لان القوة التي هي القدرة لا تدرك بالحاسة، وانما تعلم بالدلالة، فلذلك يوصف تعالى بأنه قوي، ولا يوصف بأنه شديد.

ثم قال واذكر يا محمد * (إذ يقول المنافقون) * الذين باطنهم الكفر وظاهرهم الايمان * (والذين في قلوبهم مرض) * أي شك من الايمان بالله ورسوله * (ما وعدنا الله ورسوله) * اي لم يعدنا الله ورسوله من الظفر والظهور على الدين * (إلا غرورا) * وقيل: ان النبي (صلى الله عليه وآله) بشرهم بأنه يفتح عليهم مدائن كسرى وبلاد قيصر وغير ذلك من الفتوح، فقالوا: يعدنا بهذا، والواحد منا لا يقدر على ان يخرج ليقضي حاجة * (ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) * غرانا به، فالغرور ايهام المحبوب بالمكر، يقال: غره يغره غرورا، فهو غار، والغرور الشيطان قال الحارث بن حلزة:

لم يغروكم غرورا ولكن * يرفع الآل جمعهم والضحاء وقال يزيد بن رومان: الذي قال هذا القول معتب بن قشيرة وقال العتابي:

ليس عاقل يقول: إن الله وعد غرورا، لكنهم لما كذبوا رسوله وشكوا في خبره، فكانهم كذبوا الله، وإذا نسبوا الرسول بأنه غرهم، فقد نسبوا الله إلى

(٣٢٣)

ذلك في المعنى، وإن لم يصرحوا به.

ثم قال واذكر يا محمد * (اذ قالت طائفة منهم) * يعني من المنافقين * (يا اهل يثرب) * أي يا اهل المدينة، قيل: ان يثرب اسم ارض المدينة. وقال ابو عبيدة:

إن المدينة الرسول في ناحية من يثرب. وقيل: يثرب هي المدينة نفسها * (لا مقام لكم) * أي ليس لكم مكان تقومون فيه للقتال. ومن ضم أراد: لا إقامة لكم - ذكره الاخفش - وقال يزيد بن رومان: القائل لذلك أوس بن قبطي. ومن وافقه على رأيه * (فارجعوا) * اي امرهم بالرجوع إلى منازلهم. وحكى ان جماعة منهم جاؤا إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فاستأذنوه للرجوع. وقالوا * (إن بيوتنا عورة) * أي هي مكشوفة نخشى عليها السرقة - ذكره ابن عباس ومجاهد - فكذبهم الله تعالى في قوله * (وما هي بعورة...) * وليس يريدون بهذا القول إلا الفرار، والهرب من القتال.

ثم قال * (ولو دخلت عليهم من اقطارها) * اي من نواحيها يعني المدينة او البيوت، فهو جمع قطر، وهو الناحية * (ثم سئلوا الفتنة) * يعني الكفر والضلال وقيل: انهم لو دعوا إلى القتال على وجه الحمية والعصبية لجاؤا إليها - على قراءة من قصر - ومن مد اراد لاعطوا ما سئلوا إعطاءه من ذلك * (وما تلبثوا بها إلا يسيرا) * قال الفراء: وما تلبثوا بالمدينة إلا قليلا حتى يهلكوا. وقال قتادة:

معناه وما احتبسوا عن الاجابة إلى الكفر إلا قليلا.

ثم قال * (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل) * يعني عندما بايعوا النبي (صلى الله عليه وآله) وحلفوا له انهم ينصرونه ويدفعون عنه، كما يدفعون عن نفوسهم، وانهم * (لا يولون الادبار) * اي لا يفرون من الزحف * (وكان عهد الله مسئولاً) * يعني العهد الذي عاهدوا الله عليه، وحلفوا له به يسألهم عن الوفاء به يوم القيامة.

(٣٢٤)

قوله تعالى:

* (قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا (١٦) قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا (١٧) قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم إلينا ولا ياتون لباس إلا قليلا (١٨)

أشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا (١٩) يحسبون الاحزاب لم يذهبوا وإن يات الاحزاب يودوا لو أنهم بادون في الاعراب يسئلون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا) * (٢٠) خمس آيات.

لما اخبر الله تعالى عن المنافقين الذين استأذنوا النبي (صلى الله عليه وآله) في الرجوع واعتلوا بأن بيوتهم يخاف عليها، وكذبهم الله في ذلك، وبين أنهم يريدون

(٣٢٥)

الهرب، قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) * (قل) * لهم * (لن ينفعكم الفرار إن فررتم) * يعني الهرب إن هربتم * (من الموت أو القتل) * فانه لا بد من واحد منهما، وإن هربتم وبقيتم بعده فلا تبقون * (ولا تتمتعون إلا قليلا) * من الزمان. ثم لا بد من الموت. والفرار الذهاب عن الشيء خوفا منه، ومثله الهرب، فر يفر فرارا وأفتر إذا باعد بين شفتيه كتباعد الفار، وانما فرق الله بين الموت والقتل لان القتل غير الموت، فالقتل نقض بينة الحي، والموت ضد الحياة عند من أثبتته معنى، والقتل يقدر عليه غير الله، وانما رفع بعد (اذن) لوقوع (اذن) بين السواو والفعل، فصارت بمنزلة ما لم يقع بعده الفعل، كقولك أنا آتيتك اذن لانه مما يجوز فيه الالغاء بأنه يصح الاستدراك، كالاستدراك بالظن، وقد اعملت بعد (ان) في قوله:

لا تتركني فيهم شطييرا * إني اذن أهلك او اطييرا (١)

ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) قل لهم يا محمد من الذي يمنعكم من الله ان اراد أن يفعل بكم سوءا يعني عذابا أو اراد بكم رحمة، فان احدا لا يقدر على منعه مما يريد الله فعله به (ولا يجدون) هؤلاء * (لهم من دون الله وليا) * ينصرهم * (ولا نصيرا) * يدفع عنهم، ثم قال تعالى * (قد يعلم الله المعوقين منكم) * يعني الذين يعوقون غيرهم عن القتال ويثبطونهم عنه، فالتعويق التثبيط والشغل للعود عن أمر من الامور، فكأن هؤلاء يدعون اخوانهم من المنافقين إلى القعود عن الجهاد ويشغلونهم لينصرفوا عنه * (والقائلين لاخوانهم هلموا لينا) * أي يعلم القائلين لهم تعالوا * (ولا يأتون البأس) * يعني الحرب * (إلا قليلا) * أي ان يكفوا الحضور إلى القتال فلا يحضرون إلا قدر ما يوهمون أنهم معكم، ولا يقاتلون

(١) قاتله نهشل بن حري، اللسان (شطر) (*)

(٣٢٦)

معكم، فهو تعالى عالم بأحوال هؤلاء، لا يخفى عليه شئ منها. ثم قال * (اشحة عليكم) * بالغنيمة والنفقة في سبيل الله - في قول قتادة: ومجاهد - ونصبه على تقدير يأتونه أشحة وإن شئت على الذم. وقال ابن اسحاق * (اشحة عليكم) * بالضغن الذي في أنفسهم، فهو نصب على الحال - في قول الزجاج - وفي قول غيره على المصدر، وتقديره يشحون عليكم اشحة * (فاذا جاء الخوف) * يعني الفرع * (رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت) * يعني من شدة ما يخافون يلحقهم مثل ما يلحق من شارف الموت وأحواله، ويغشى عليه * (فاذا ذهب الخوف) * والفرع * (سلقوكم بالسنة حداد) * أي خصموكم طلبا للغنيمة أشد مخاصمة. وقال الحسن: سلقوكم حاوروكم يقال: خطيب مصقع ومسلق أي بليغ في الخطابة فصيح فيها * (أشحة على الخير) * يعني الغنيمة. ثم قال * (أولئك) * يعني من تقدم وصفه * (لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم) * يعني نفع أعمالهم على وجوه لا يستحق عليها الثواب لانهم لا يقصدون بها وجه الله. ثم قال * (وكان ذلك) * يعني احباط اعمالهم. وقيل: وكان نفاقهم * (على الله يسيرا) * قليلا. ثم وصف هؤلاء المنافقين الذين تقدم ذكرهم بالجبن، فقال * (يحسبون الاحزاب) * الذين انهزموا ورجعوا من شدة فرعهم انهم * (لم يذهبوا) * بعد. وقيل: لفرط جهلهم يعتقدون انهم لم يذهبوا بعد * (وإن يأت الاحزاب يودوا لو انهم بادون في الاعراب) * أي وإن جاؤا الاحزاب تمنوا أن يكونوا في البوادي مع الاعراب * (يسألون عن انبائكم) * أي أخباركم ولا يكونون معكم فيترصدون بكم الدوائر ويتوقعون

الهلاك. ثم قال لنبيه * (ولو كانوا) * يعني هؤلاء المنافقون معكم " وفيكم ما قاتلوا إلا قليلا " أي قدرا يسيرا ليوهموا أنهم في جملتكم، لا لينصروكم ويجاهدوا معكم. وقال

(٣٢٧)

عاصم الجحدري: يساءلون عن انبائكم بتشديد السين بمعنى يتساءلون، فيسأل بعضهم بعضا، وهو شاذ لا يقرأ به. وقرأ طلحة بن مصرف " يودوا لو أنهم بدى في الاعراب " جمع باد، مثل غاز وغزى، وهي أيضا شاذة لا يقرأ بها.

و (هلم) بمعنى أقبل واهل الحجاز يقولون للواحد والاثنتين والجمع والانثى (هلم) بلفظ واحد، وانما هي (لم) ضمت اليها (ها) التي للتنبيه، ثم حذف الالف من (ها) إذ صارا شيئا واحدا، كقولهم (ويلمه) واصله (ويل أمه) فلما جعلوهما شيئا واحدا حذفوا، وغيروا. وأما بنوا تميم فيصرفونه تصريف الفعل، فيقولون: هلم يا رجل وهلم يا رجلان، وهلموا يا رجال وهلمي يا امرأة وهلميا يا امرأتان، وهلمن يا نساء، إلا أنهم يفتحون آخر الواحد البتة، فيقولون: هلم يا رجل وهلم يا امرأة.

قوله تعالى:

* (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا (٢١) ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما (٢٢) من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا (٢٣) ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيمًا (٢٤)

(٣٢٨)

ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا) * (٢٥) خمس آيات.

قرأ عاصم " أسوة " - بضم الهمزة - الباقون بكسرها، وهما لغتان. والكسر أكثر. ومثله (كسوة، وكسوة، ورشوة ورشوة)

هذا خطاب من الله تعالى للمكلفين، يقول لهم: ان لكم معاشر المكلفين " في رسول الله اسوة حسنة " أي اقتداء حسن، في جميع ما يقوله ويفعله متى فعلتم مثله كان ذلك حسنا، والمراد بذلك الحث على الجهاد والصبر عليه في حروبه، والتسليية لهم في ما ينالهم من المصائب، فان النبي (صلى الله عليه وآله) شج رأسه وكسرت ربايعيته في يوم احد وقتل عمه حمزة. فالتأسي به في الصبر على جميع ذلك من الاسوة الحسنة. وذلك يدل على ان الاقتداء بجميع افعال

النبي (صلى الله عليه وآله) حسن جائز إلا ما قام الدليل على خلافه، ولا يدل على وجوب الاقتداء به في أفعاله.

وإنما يعلم ذلك بدليل آخر. فالأسوة حال لصاحبها يقتدي بها غيره في ما يقول به، فالأسوة تكون في إنسان وهي أسوة لغيره، فمن تأسى بالحسن ففعله حسن " لمن كان يرجو الله " فالرجاء توقع الخير، فرجاء الله توقع الخير من قبله ومثل الرجاء الطمع والامل، ومتى طمع الانسان في الخير من قبل الله، فيكون راجيا له.

وقوله " وذكر الله كثيرا " معناه يذكره تعالى بجميع صفاته، ويدعوه بها فيستحق بذلك الثواب من جهته.

ثم قال وقد عاد تعالى إلى ذكر المؤمنين وانهم حين عابوا الاحزاب التي اجتمعت على قتال النبي (صلى الله عليه وآله) وتظافروا عليه، وهم ابوسفيان ومن معه من

(٣٢٩)

المشركين " قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله " من الجهاد في سبيله " وصدق الله ورسوله " في ما اخبرنا به، لان النبي (صلى الله عليه وآله) كان اخبرهم انه يتظاهر عليكم الاحزاب، ويقاثلونكم فلما راهم المؤمنون تبينوا صدق قوله وكان ذلك معجزا له " وما زادهم " مشاهدة عدوهم " إلا إيمانا " وتصديقا بالله ورسوله " وتسليما " لامره. ثم بين ان " من المؤمنين رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه " من مجاهدة عدوه، وألا يولوا الادبار. وقيل: ذلك يوم تأخروا عن بدر، ثم عاهدوا ألا يفارقوا النبي (صلى الله عليه وآله) في غزواته. وقوله " فمنهم من

قضى نحبه " أي منهم من صبر حتى قتل في سبيل الله، وخرج إلى ثواب ربه " ومنهم من ينتظر " ذلك " وما بدلوا تبديلا " أي لم يبدلوا الايمان بالنفاق ولا العهد بالحنث. وروي أن الآية نزلت في حمزة بن عبدالمطلب، وجعفر بن أبي طالب، وعلي بن أبي طالب (عليه السلام) فالذي قضى نحبه حمزة، وجعفر والذي ينتظر علي (عليه السلام) ثم بين تعالى انه يجزي الصادقين على صدقهم في تنزيهه فوعدهم بالثواب الدائم والنعيم المقيم. وقوله * (ويعذب المنافقين إن شاء) * لا يدل على أن ما يجب غفرانه من الكبائر عند التوبة يجوز تعليقه بالمشيئة، لان على مذهبنا إنما جاز ذلك، لانه لا يجب اسقاط العقاب بالتوبة عقلا، وإنما جاز ذلك وعلمناه بالسمع وإن الله يتفضل بذلك. وقوله " او يتوب عليهم " معناه إن شاء قبل توبتهم وأسقط عقابهم. إذا تابوا، وإن شاء لم يقبل ذلك. وذلك اخبار عن مقتضى العقل. وأما مع ورود السمع وهو قوله " وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات " (١) فنقطع على انه تعالى يغفر مع حصول التوبة.

(٣٣٠)

وقوله " إن الله كان عفورا رحيمًا " يؤكد ذلك لأنه إنما يكون فيه مدح إذا غفر ماله المؤاخذة به، ويرحم من يستحق العقاب. وأما من يجب غفران ذنبه ويجب رحمته، فلا مدح في ذلك. وقال قوم: معناه " ويعذب المنافقين إن شاء " بعذاب عاجل في الدنيا أو يتوبوا، قالوا: وإنما علق بالشرط في قوله " إن شاء أو يتوب عليهم " لأنه علم أن من المنافقين من يتوب، ففيد الكلام ليصح - المعنى - ذكره الجبائي - وقيل: إن الذي وعد الله المؤمنين في الأحزاب هو أنه وعدهم إذا لقوا المشركين ظفروا بهم واستعلوا عليهم في نحو قوله " ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون " (١) مع فرض الجهاد. وقيل: إن الذي وعدهم الله به في قوله " أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب " (٢) - ذكره قتادة - و (النحب) النذر أي قضى نذره الذي كان نذره في ما عاهد الله عليه. وقال مجاهد: قضى نذره أي عهده. وقيل: إن المؤمنين كانوا نذروا إذا لقوا حزبا مع رسول الله أن يثبتوا ولا ينهزموا، وقال الحسن: قضى نذره أي مات على ما عاهد عليه، والنحب الموت كقول ذي الرمة:

قضى نذره في ملتقى الخيل هوبر (٣)

أي منيته. وهو بر اسم رجل والنحب الخطر العظيم قال جرير:

بطخفة جالدنا الملوك وخيلنا * عشية بسطام جرين على نحب (٤)

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣٤ وسورة ٦١ الصف آية ٩ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢١٤ (٣) مجاز القرآن ٢ / ١٣٦

الشاهد (٧١٨)

(٤) ديوانه ٥٤ ومجاز القرآن ٢ / ١٣٥ (*)

(٣٣١)

أي على خطر والنحب المد في السير يوما وليلة، قال الفرزدق.

وإذ نحبت كلب على الناس أنهم * أحق نتاج الماجد المتكرم (١)

ثم أخبر تعالى أنه رد المشركين من الأحزاب عن قتال النبي (صلى الله عليه وآله) بغبيظهم الذي جاؤا به وخيبهم لم ينالوا خيرا أملوه من الظفر بالنبي (صلى الله عليه وآله) وبالمؤمنين " وكفى الله المؤمنين القتال " عند رجوعهم، وقيل وكفى الله المؤمنين القتال بالريح والملائكة. وقيل:

وكفى الله المؤمنين القتال بعلي (عليه السلام) وهي قراءة ابن مسعود، وكذلك هو في مصحفه، في قتله عمرو بن عبد ود، وكان ذلك سبب هزيمة القوم. " وكان الله قويا عزيزا " أي قادرا لا يغالِب، وعزيزا لا يقهر، لانه قوي في سعة مقدوره، عزيز في انتقامه.
قوله تعالى:

* (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصبيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا (٢٦) وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها وكان الله على كل شيء قديرا (٢٧) يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحا جميلا (٢٨) وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد

(١) ديوانه ٢ / ٧٥٩ وتفسير القرطبي ١٤ / ١٥٨ ومجاز القرآن ٢ / ١٣٦ (*)

(٣٣٢)

للمحسنات منكن أجرا عظيما (٢٩) يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا) * (٣٠) خمس آيات.
قرأ ابن كثير، وابن عامر " نضعف " بالنون وتشديد العين " العذاب " نصباء، أسند الفعل إلى الله تعالى. وقرأ ابو عمرو " يضعف " بالياء وتشديد العين بلا ألف على ما لم يسم فاعله. الباقون (يضاعف) بالياء والالف.

والذي عليه أكثر المفسرين إن المعنى بقوله " وانزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب " هم بنو قريظة من اليهود، وكانوا نقضوا العهد بينهم وبين النبي (صلى الله عليه وآله) وعاونوا أبا سفيان، فلما هزم الاحزاب امر النبي (صلى الله عليه وآله) مناديه بأن ينادي لا يصلين أحد العصر إلا ببني قريظة، لأن جبرائيل (عليه السلام) نزل عليه وقال إن الملائكة لم تضع أسلحتها بعد، ففيهم من لحق ذلك بعد وصلى العصر في الوقت، وفيهم من صلاها قبل ذلك. وكل صوبه رسول الله. ثم حكم سعد ابن معاذ فيهم رضوا بحكمه، فحكم سعد أن تقتل الرجال، وتسبى الذراري والنساء ونقسم الاموال وتكون الارض للمهاجرين دون الانصار، فقيل له في ذلك فقال لكم دار، وليس للمهاجرين دار، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) حكم فيهم بحكم الله تعالى، وفي بعض الاخبار لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة، وهو جمع رقيق اسم من اسماء سماء الدنيا. وقال الحسن: الآية نزلت في بني النضير والاول أصح وأليق بسياق الآيات، لان بني النضير لم يكن لهم في قتال الاحزاب شيء، وكانوا قد انجلوا قبل ذلك.

(٣٣٣)

والمظاهرة المعاونة، وهي زيادة القوة بأن يكون المعاون ظهرا لصاحبه في الدفع عنه،
والظهر المعين. وفي قراءة ابن مسعود أزروهم، ومعناه عاونوهم.
والصيافي الحصون التي يمتنع بها واحدها صيصية. ويقال جذ الله صيصية فلان أي حصنه
الذي يمتنع به. والصيصية قرن البقرة وشوكة الديك أيضا، وهي شوكة الحائك أيضا، قال
الشاعر:

ما راعني إلا الرماح تنوشه — * كوقع الصياصي في النسيج الممدد (١)
وقوله " وقذف في قلوبهم الرعب " أي ألقى في قلوبهم يعني اليهود والمشركين خوفا من النبي
(صلى الله عليه وآله) " فريقا تقتلون " منهم يعني الرجال " وتأسرون فريقا " يعني النساء
والذراري ثم قال " وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم " يعني ديار بني قريظة وأرضهم
وأموالهم. جعلها الله للمسلمين مع ذلك ونقلها اليهم " وأرضا لم تطؤها " معناه وأورثكم أرضا
لم تطؤها، قال الحسن: هي أرض فارس والروم. وقال قتادة: هي مكة. وقال يزيد بن رومان
وابن زيد: هي خيبر " وكان الله على كل قديرا " أي قادرا على توريتكم أرض هؤلاء
وأموالهم ونصركم وغير ذلك. إلى ههنا انتهت قصة الأحزاب.

ثم انتقل إلى خطاب النبي (صلى الله عليه وآله) فقال له " يا ايها النبي قل لزوجك إن كنتن تردن
الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحا جميلا " قال الحسن لم يكن ذلك تخيير
طلاق، انما هو تخيير بين الدنيا والآخرة. وكان لنزول الآية سبب معروف من بعض أزواج
النبي (صلى الله عليه وآله) فعاتبهن الله تعالى وخبرهن بين المقام مع النبي (صلى الله عليه وآله)
واختيار ما عند الله من الثواب ونعيم الأبد

(١) تفسير القرطبي ١٤ / ١٦١ ومجاز القرآن ٢ / ١٦١ ويروى (فجنت اليه والرماح تنوشه) (*)

(٣٣٤)

ومن مفارقتة بالطلاق وتعجيل المنافع يأخذونها، وبين ذلك بقوله " وإن كنتن تردن الله ورسوله
والدار والآخرة، فإن الله اعد للمحسنات منكن أجرا عظيما " وقيد ذلك بالمحسنات لعلمه أن
فيهن من ربما ارتكبت ما يستحق به الخروج عن ولاية الله تعويلا على ما وعد الله تعالى به
من النعيم، فزجرهن بالتهديد المذكور في الآية.

وروي أن سبب نزول هذه الآية أن كل واحدة من نسائه طلبت شيئا فسألت أم سلمة سترا معلقا
وسألت ميمونة حلة وسألت زينب بنت جحش بردا يمانيا وسألت أم حبيبة ثوبا سحوانيا وسألت
حفصة ثوبا من ثياب مصر وسألت حويرية معجرا وسألت سودة قطيفة خيبرية، فلم يقدر على
ذلك، لان الله تعالى كان خيرها بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة فاختر الآخرة. وقال:

(اللهم أحييني مسكينا وامتني مسكينا واحشرنني مسكينا في جملة المساكن) فحينئذ أمره الله تعالى بتخيير النساء، فاخترن الله ورسوله فعوضهن الله عن ذلك أن جعلهن أمهات المؤمنين. وقيل: وأمر الله أن لا يطلقهن ولا يتزوج عليهن بقوله " لا يحل لك النساء من بعد " (١) ذكره ابن زيد.

ثم خاطب نساء النبي (صلى الله عليه وآله) فقال " يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة يضاعف لها العذاب " من شدد أراد التكثير، ومن أثبت الالف أراد من المضاعفة، ومن قرأ بالنون أضاف الفعل إلى الله، لان الفاعل لذلك هو الله وإنما جاز ان يضعف عقابهن بالمعصية لعظم قدرهن، وأن معصيتهن تقع على وجه يستحق بها ضعف ما يستحق غيرهن، كما أن طاعاتهن يستحق بها ضعف

(١) آية ٥٢ من هذه السورة (*)

(٣٣٥)

ما يستحق به غيرهن، من حيث كن قدرة في الاعمال وأسوة في ذلك. ثم اخبر تعالى أن تضعيف ذلك عليه يسير سهل. والضعف مثل الشئ الذي يضم اليه، ضاعفته ازددت عليه مثله، ومنه الضعف، وهو نقصان القوة بأن يذهب احد ضعفيها، فهو ذهاب ضعف القوة. قال أبو عبيدة: يضاعف لها ضعفين أي يجعل لها العذاب ثلاثة أعذنة لان ضعف الشئ مثله، وضعفي الشئ مثلاه ومجاز يضاعف أن يجعل إلى الشئ شيئاً حتى يكون ثلاثة، فأما من قرأ * (يضعف) * أراد أن يجعل الشئ شيئين، وذكر بعضهم أن ذلك غلط على أبي عمرو في تشديد يضعف، لان ذلك نقل عنه على حكاية الفرق بين يضاعف ويضعف بالتشديد، وليس بينهما فرق، لان المضاعفة والتضعيف شئ واحد وإنما قرأ ابو عمرو * (يضعف) * بضم الياء وتسكين الضاد وتخفيف العين وفتحها والفرق يقع بين هذه وبين يضاعف لانك تقول لمن اعطاك درهما فأعطيته مكانه درهمين: أضعفت لك العطية، فان اعطيته مكان درهم خمسة او ستة قلت ضاعفت له العطية وضعفت بالتشديد أيضاً، فلما رأى ابو عمرو أن من احسن من أزواج النبي أعطي اجرين علم أن من اذنب منهن عوقب عقوبتين، فقرأ يضعف لها العذاب ضعفين.

وكان الحسن لا يرى التخيير شيئاً. وقال: إنما خيرن بين الدنيا والآخرة لا في الطلاق، وكذلك عندنا ان الخيار ليس بشئ غير أن اصحابنا قالوا إنما كان ذلك لنبي الله خاصة، ولما خيرهن لو اخترن انفسهن لبن، فلما غيره فلا يجوز له ذلك. وقال قتادة: خيرهن الله تعالى بين الدنيا

والآخرة في شئ كن أردن من الدنيا. وقال عكرمة: في غيرة كانت غارتها عائشة، وكان تحته يومئذ تسع نسوة خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان

(٣٣٦)

وأم سلمة بن أبي أمية، وسودة بنت زمعة. وكان تحته صفية بنت حي ابن خطب وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الاسدية، وحويرية بنت الحارث من بني المصطلق، فلما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فرح بذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله).
قوله تعالى:

* (ومن يقنت منكن الله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما (٣١) يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقين فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا (٣٢) وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى وأقمن الصلوة وآتين الزكوة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (٣٣) واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا (٣٤) إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات

(٣٣٧)

والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) * (٣٥) خمس آيات.

قرأ حمزة والكسائي " ومن يقنت منكن الله ورسوله ويعمل صالحا " بالياء فيهما على اللفظ، لان لفظة (من مذكر. البااقون " ومن يقنت " - بالياء - حملا على اللفظ " وتعمل " بالتاء حملا على المعنى، لان المعنى من النساء، فكنى بلفظ التأنيث، ولانه قد ظهر علامة التأنيث في قوله " منكن " فكأن الرد عليه أولى من رده على اللفظ. وروي في الشواذ " ومن تقنت " بالتاء حملا على المعنى وذلك جائز في العربية غير انه ليس بمعروف، ولا يقرأ به. وقرأ عاصم ونافع " وقرن " بفتح القاف بمعنى أقرون " في بيوتكن " من قررت في المكان أقر قرارا إلا انه نقل حركة العين إلى القاف، فانفتحت وسقطت الراء الاولى لالتقاء الساكنين كقولهم: في ظللت ظلت. وفي أحسست احست، وقالوا في يحططن من الجبل يحطن. وقال الزجاج: فيه لغتان (قررت في المكان وقررت). البااقون بكسر القاف بمعنى كن أهل وقر، أي هدوء

وسكينة من وقر فلان في منزله يقر وقورا إذا هدا فيه واطمان. ويجوز أن يكون المراد الاستقرار، على لغة حكاها الزجاج والكسائي.

لما تهدد الله تعالى نساء النبي (صلى الله عليه وآله) بأن من يأت منهن بفاحشة ظاهرة من ارتكاب محذور، وما نهى الله تعالى عنه انه يضاعف لها العذاب ضعفين لوقوع أفعالهن على وجه يستحق به ذلك من حيث كن سواء اسوة يتأسى بهن غيرهن ورغبهن في هذه الآية بأن قال " ومن يقنت منكن " أي من داوم منكن على

(٣٣٨)

الطاعة لله ورسوله " وتعمل " مع ذلك الافعال " صالحا نوتها " اي يعطيها الله " أجرها مرتين " كما لو عصت عاقبها ضعفين. والقنوت المداومة على العمل فمن داوم على العمل لله فهو مطيع. ومنه القنوت في صلاة الوتر، وهو المداومة على الدعاء المعروف. والعمل الصالح هو المستقيم الذي يحسن أن يحمد عليه ويستحق به الثواب. والاجر الجزاء على العمل، وهو الثواب، أجره يأجره اجرا والاجر مرتين ليس يجب بالوعد بل إنما هو مستحق، لان أفعالهن تقع على وجه يستحق مثلي مالمو استحق الغير، لانه في مقابلة العذاب ضعفين، ولا يجوز أن يضاعف ضعفين إلا مستحقا، وكذلك الثواب المقابل له.

وقوله " واعتدنا لها رزقا كريما " معنى اعتدنا اعددنا، وابدل من احدى الدالين تاء. والرزق الكريم هو الثواب الذي لا يحسن الابتداء بمثله.

ثم قال " يا نساء النبي لستن كأحد من النساء " انما قال كأحد، ولم يقل كواحدة لان احدا نفي عام للمذكر والمؤنث والواحد والجماعة أي لا يشبهكن احد من النساء في جلالة القدر وعظم المنزلة ولمكانكن من رسول الله (صلى الله عليه وآله) بشرط أن تتقين عقاب الله باجتتاب معاصيه، وامتنال أو امره. وانما شرط ذلك بالاتقاء لئلا يعولن على ذلك، فيرتكبن المعاصي، ولولا الشرط كان يكون اغراء لهن بالمعاصي، وذلك لا يجوز على الله تعالى.

ثم قال لهن " فلا تخضعن بالقول " أي لا تلين كلامكن للرجال، بل يكون جزلا قويا لئلا يطمع من في قلبه مرض. قال قتادة: ومعناه من في قلبه نفاق.

وقال عكرمة: من في قلبه شهوة للزنا.

ثم قال لهن " وقلن قولا معروفا " مستقيما جميلا بريئا من التهمة بعيدا من الريبة موافقا للدين والاسلام. ثم امرهن بالاستقرار في بيوتهن وألا يتبرجن

(٣٣٩)

تبرج الجاهلية - على قراءة من فتح القاف. ومن كسر أرادكن وقورات عليكن سكيئة ووقار " ولا تبرجن " قال قتادة: التبرج التبخر والتكبر، وقال غيره: هو اظهار المحاسن للرجال.

وقوله " تبرج الجاهلية الاول " نصب تبرج على المصدر والمعنى مثل تبرج الجاهلية الاولى، وهو ما كان قبل الاسلام. وقيل ما كان بين آدم ونوح.

وقيل ما كان بين موسى وعيسى، وقيل ما كان بين عيسى ومحمد. وقيل ما كان بفعله اهل الجاهلية، لانهم كانوا يجوزون لامرأة واحدة رجلا وخلا فللزوج النصف السفلاي وللخل الفوقاني من القبيل والمعانقة، فنهى الله تعالى عن ذلك ازواج النبي (صلى الله عليه وآله) واشتقاق التبرج من البرج وهو السعة في العين وطعنة برعاء اي واسعة وفي اسنانه برج إذا تفرق ما بينها. واما الجاهلية الاخرى، فهو ما يعمل بعد الاسلام بعمل اولئك.

ثم أمرهن باقامة الصلاة والدوام عليها بشروطها وايتاء الزكاة لمن وجبت عليه، وأمرهن بطاعة الله وطاعة رسوله، في ما يأمرانهن به. ثم قال " انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا " روى ابو سعيد الخدري وانس بن مالك وعائشة وأم سلمة ووائلة بن الاسقع أن الآية نزلت في النبي (صلى الله عليه وآله) وعلي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) واهل البيت نصب على النداء او على المدح، فروي عن أم سلمة انها قالت إن النبي (صلى الله عليه وآله) كان في بيتي فاستدعا عليا وفاطمة والحسن والحسين، وجلهم بعباء خييرية، ثم قال:

اللهم هؤلاء اهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، فأنزل الله تعالى قوله " انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا " فقالت أم مسلمة قلت: يا رسول الله هل انا من اهل بيتك؟ فقال: لا، ولكنك

(٣٤٠)

إلى خير.

واستدل أصحابنا بهذه الآية على ان في جملة اهل البيت معصوما لا يجوز عليه الغلط وان اجماعهم لا يكون إلا صوابا بأن قالوا ليس يخلو إرادة الله لاذهاب الرجس عن اهل البيت من ان يكون هو ما اراد منهم من فعل الطاعات واجتناب المعاصي، او يكون عبارة عن انه اذهب عنهم الرجس بأن فعل لهم لطفًا اختاروا عنده الامتناع من القبائح. والاول لا يجوز ان يكون مرادًا، لان هذه الارادة حاصلة مع جميع المكلفين، فلا اختصاص لاهل البيت في ذلك ولا خلاف أن الله تعالى خص بهذه الآية اهل البيت بأمر لم يشركهم فيه غيرهم فكيف يحمل على ما يبطل هذا التخصيص ويخرج الآية من أن يكون لهم فيها فضيلة ومزية على غيرهم؟

! على ان لفظة (إنما) تجري مجرى ليس، وقد دللنا على ذلك في ما تقدم وحكيناه عن جماعة من اهل اللغة، كالزجاج وغيره، فيكون تلخيص الكلام: ليس يريد الله إلا إذهاب الرجس على هذا الحد عن أهل البيت، فدل ذلك على ان إذهاب الرجس قد حصل فيهم. وذلك يدل على عصمتهم، وإذا ثبت عصمتهم ثبت ما اردناه.

وقال عكرمة هي في ازواج النبي خاصة. وهذا غلط، لانه لو كانت الآية فيهن خاصة لكنى عنهن بكناية المؤنث، كما فعل في جميع ما تقدم من الآيات نحو قوله " وقرن في بيوتكن ولا تبرجن، واطعن الله واقمن الصلاة وآتين الزكاة " فذكر جميع ذلك بكناية المؤنث، فكان يجب أن يقول إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس اهل البيت ويطهركن، فلما كنا بكناية المذكر دل على ان النساء لا مدخل لهن فيها.

وفي الناس من حمل الآية على النساء ومن ذكرناه من اهل البيت هربا

(٣٤١)

مما قلناه. وقال: إذا اجتمع المذكر والمؤنث غلب المذكر، فكفى عنهم بكناية المذكر. وهذا يبطل بما بيناه من الرواية عن أم سلمة وما يقتضيه من كون من تناولته معصوما. والنساء خارجات عن ذلك. وقد استوفينا الكلام في ذلك - في هذه الآيات - في كتاب الامامة من أراده وقف عليه هناك.

ثم عاد تعالى إلى ذكر النساء فأمرهن بأن يذكرن الله تعالى بصفاته، وبالذعاء والتضرع اليه، وان يفكرون في آيات الله التي تتلى في بيوتهن من القرآن المنزل، ويعملن بها وبما فيها من الحكمة " ان الله كان لطيفا " في تدبير خلقه، وفي إيصال المنافع الدينية والدينيوية اليهم " خبيرا " اي عالما بما يكون منهم، وبما يصلحهم وبما يفسدهم، وأمرهم بأن يفعلوا ما فيه صلاحهم واجتتاب ما فيه فسادهم.

ثم اخبر تعالى ب " إن المسلمين والمسلمات " وهم الذين استسلموا لأوامر الله وانقادوا له، وأظهروا الشهادتين، وعملوا بموجبه " والمؤمنين والمؤمنات " فالاسلام والايمان واحد، عند اكثر المفسرين، وإنما كرر لاختلاف اللفظين.

وفي الناس من قال: المؤمن هو الذي فعل جميع الواجبات، وانتهى عن جميع المقبحات، والمسلم هو الملتزم لشرائط الاسلام المستسلم لها و " القانتين والقانتات " يعني الدائمين على الاعمال الصالحات " والصادقين " في اقوالهم " والصادقات " مثل ذات " والصابرين والصابرات " على طاعة الله وعلى ما يبتليهم الله من المصائب وما يأمرهم به من الجهاد في سبيله " والخاشعين " يعني المتواضعين غير المتكبرين " والخاشعات " مثل ذلك " والمتصدقين

" يعني الذين يخرجون الصدقات والزكوات " والمتصدقات " مثل ذلك " والصائمين والصائمات والحافظين فروجهن " من الزنا وإتكاب انواع الفجور والحافظات " فروجهن

(٣٤٢)

وحذف من الثاني لدلالة الكلام عليه " والذاكرين الله كثيرا والذاكرات " الله كثيرا، وحذف مثل ما قلناه. ثم قال " اعد الله لهم " يعني من قدم ذكرهم ووصفهم " مغفرة واجرا عظيما " يعني ثوابا جزيلا. لا يوازيه شيء.

وقيل: إن سبب نزول هذه الآية ان أم سلمة قالت: يا رسول الله ما للرجال يذكرون في القرآن ولا يذكر النساء؟ فنزلت الآية. فلذلك قال " ان المسلمين والمسلمات " وإن كن المسلمات داخلات في قوله " المسلمين " تغليبا للمذكر فذكرهن بلفظ يخصهن إزالة للشبهة. قوله تعالى:

* (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا (٣٦) وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشيه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا (٣٧) ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلو من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا (٣٨) الذين يبلغون رسالات

(٣٤٣)

الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا (٣٩) ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما * (٤٠) خمس آيات.

قرأ أهل الكوفة " ان يكون لهم الخيرة " بالياء، لان التأنيث غير حقيقي. الباقون بالتاء لتأنيث الخيرة. والخيرة جمع خير وحكي خيرة بفتح الياء وسكونها وقرأ عاصم " وخاتم " بفتح التاء. الباقون بكسرها. وهو الأقوى، لانه مشتق من ختم، فهو خاتم. وقال الحسن: خاتم وهو الذي ختم به الانبياء. وقيل: هما لغتان - فتح التاء وكسرها - وفيه لغة ثالثة (خاتم) وقرئ به في الشواذ. وحكي ايضا (ختام).

وروي عن ابن عباس، وذهب اليه مجاهد، وقتادة أنه نزل قوله " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة.... " الآية، في زينب بنت جحش، لما خطبها رسول الله (صلى الله عليه وآله) لزيد بن

حارثة فامتعت لنسبها من قريش وإن زيدا كان عبدا، فأنزل الله الآية فرضيت به. وقال ابن زيد: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة ابن ابي معيط، وكانت وهبت نفسها لرسول الله (صلى الله عليه وآله) فزوجها زيد بن حارثة.

بين الله تعالى في هذه الآية انه لم يكن " لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله امرا " بمعنى إلزاما وحكما " أن يكون لهم الخيرة " اي ليس لهم ان يتخيروا مع امر الله بشئ يترك به ما امر به إلى ما لم يأذن فيه. والخيرة إرادة اختيار الشئ على غيره. وفي ذلك دلالة على فساد مذهب المجبرة في القضاء والقدر، لانه لو كان الله تعالى قضى المعاصي لم يكن لاحد الخيرة، ولوجب

(٣٤٤)

عليه الوفاء به. ومن خالف في ذلك كان عاصيا، وذلك خلاف الاجماع. ثم قال " ومن يعص الله ورسوله " في ما قضيا به وامرا به وخالفهما " فقد ضل " عن الحق وخاب عنه " ضلالا مبينا " أي ظاهرا.

ثم خاطب النبي (صلى الله عليه وآله) فقال واذكر يا محمد حين " تقول للذي انعم الله عليه " يعني بالهداية إلى الايمان " وانعمت عليه " بالعتق " أمسك عليك زوجك " اي احبسها، ولا تطلقها، لان زيدا جاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله) مخاصما زوجته زينب بنت جحش على ان يطلقها، فوعظه النبي (صلى الله عليه وآله)، وقال له: لا تطلقها وامسكها " واتق الله " في مفارقتها " وتخفي في نفسك ما الله مبديه " فالذي اخفى في نفسه انه إن طلقها زيد تزوجها وخشي من إظهار هذا للناس، وكان الله تعالى امره بتزوجها إذا طلقها زيد، فقال الله تعالى له ان تركت إظهار هذا خشية الناس فترك اضماره خشية الله احق وأولى. وقال الحسن: معناه وتخشي عيب الناس. وروي عن عائشة انها قالت لو كتم رسول الله (صلى الله عليه وآله) شيئا من الوحي لكتم " وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشي الناس والله احق ان تخشاه " وقيل: إن زيدا لما جاء مخاصما زوجته، فرأها النبي (صلى الله عليه وآله) استحسناها وتمنى ان يفارقها زيد حتى يتزوجها، فكتم. قال البلخي: وهذا جائز، لان هذا التمني هو ما طبع الله عليه البشر، فلا شئ على احد إذا تمنى شيئا استحسناه.

ثم قال تعالى * (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) * فالوטר الارب والحاجة وقضاء الشهوة يقال: لي في هذا وطر، أي حاجة وشهوة، قال الشاعر:

ودعني قبل ان اودعه * لما قضى من شبابنا وطرا (١)

وقال آخر:

(٣٤٥)

وكيف ثوي بالمدينة بعدما * قضى وطرا منها جميل بن معمر وقوله * (زوجناكها) * يعني لما طلق زيد امرأته زينب بنت جحش اذن الله تعالى لنبيه في تزويجها، واراد بذلك نسخ ما كان عليه اهل الجاهلية من تحريم زوجة الدعي على ما بيناه، وهو قوله * (لكي لا يكون على المؤمنين حرج) * اي اثم في أزواج ادعيائهم أن يتزوجوهن * (إذا قضوا) * الادعياء * (منهن وطرا) * وفارقوهن، فبين الله تعالى ان الغرض بهذا ان لا يكون المتبنى به إذا طلق المرأة يجري مجرى تحريم إمراة الابن إذا طلقت او مات عنها الابن.

وقوله * (وكان امر الله مفعولا) * معناه وكان تزويج النبي (صلى الله عليه وآله) زينب بنت جحش كائنا لا محالة.

واستدل بقوله * (وكان أمر الله مفعولا) * على حدوث كلام الله، لان الله تعالى قص كلامه. وقد بين أنه مفعول، والمفعول والمحدث واحد. ثم قال تعالى * (ما كان على النبي من حرج في ما فرض الله له) * أي لم يكن عليه إثم في ما قدره الله أن يتزوج زينب بنت جحش التي كانت زوجة زيد، وإن كان دعيا له، وفي جمعه بين التسع. وقال * (سنة الله في الذين خلوا من قبل) * أي ما أمرنا به محمدا من هذه السنن والعادات مثل سنة من تقدم من الانبياء، وما أمرهم الله تعالى به. لانه تعالى أباح لكل نبي شيئا خصه به ورفع به شأنه من بين سائر الامم * (وكان أمر الله قدرا مقدورا) * فالقدر المقدر هو ما كان على مقدار ما تقدم من غير زيادة ولا نقصان، قال الشاعر:

واعلم بان ذا الجلال قد قدر * في الصحف الاولى التي كان سطر (١)

(٣٤٦)

وقوله * (الذين يبلغون رسالات الله) * ولا يكتُمونها بل يؤدونها إلى من بعثوا اليهم * (ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) * أي لا يخافون سوى الله احدا وقوله * (وكفى بالله حسيبا) * أي كافيا ومجازيا. ثم قال * (ما كان محمد أبأ احد من رجالكم) * نزلت في زيد بن حارثة لانهم كانوا يسمونه: زيد بن محمد، فبين الله تعالى ان النبي ليس ب (أب احد) منهم من الرجال وإنما هو ابوالقاسم والطيب والمطهر وإبراهيم، وكلهم درجوا في الصغر. ذكره قتادة.

ثم قال * (ولكن) * كان * (رسول الله) * ونصب باضمار (كان) وتقديره ولكن كان رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وروى عبدالوارث عن ابي عمرو * (ولكن) * بالتشديد * (رسول الله) * نصب ب (لكن) * (وخاتم النبيين) * أي آخرهم، لانه لا نبي بعده إلى يوم القيامة * (وكان الله بكل شئ عليما) * أي عالما لا يخفى عليه شئ مما يصلح العباد. وقيل إنما ذكر * (وخاتم النبيين) * ههنا، لان المعنى أن من لا يصلح بهذا النبي الذي هو آخر الانبياء، فهو مأیوس من صلاحه من حيث انه ليس بعده نبي يصلح به الخلق. ومن استدل بهذه الآية، وهي قوله * (ما كان محمد أبا احد من رجالكم) * على انه لم يكن الحسن والحسين (عليهما السلام) ابنيه، فقد أبعد، لان الحسن والحسين كانا طفلين، كما انه كان أبا إبراهيم وإنما بقي أن لا يكون أبا للرجال البالغين.

قوله تعالى:

* (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا (٤١))

وسبحوه بكرة وأصيلا (٤٢) هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما (٤٣)

(٣٤٧)

تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما (٤٤) يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا (٤٥) وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا (٤٦) وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا (٤٧) ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذيتهم توكل على الله وكفى بالله وكيلًا) * (٤٨) ثمان آيات.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين المصدقين بوحدانيته المقربين بصدق أنبيائه، يأمرهم بأن يذكروا الله ذكرا كثيرا، والذكر الكثير أن نذكره بصفاته التي يختص بها، ولا يشاركه فيها غيره، وننزهه عما لا يليق به. وروي في اخبارنا أن من قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ثلاثين مرة، فقد ذكر الله كثيرا، وكل صفة لله تعالى فهي صفة تعظيم، وإذا ذكر بأنه شئ وجب أن يقال: إنه شئ لا كالأشياء، وكذلك احد ليس كمثل شئ وكذلك القديم هو الاول قبل كل شئ، والباقي بعد فناء كل شئ. ولا يجوز أن يذكر بفعل ليس فيه تعظيم، لان جميع ما يفعله يستحق به الحمد والوصف بالجميل على جهة التعظيم، مثل الذكر بالغنى والكرم بما يوجب اتساع النعم، والذكر احضار معنى الصفة للنفس إما بايجاد المعنى في النفس ابتداء من غير طلب. والآخر بالطلب من جهة الفكر. والذكر قد يجامع العلم، وقد يجامع الشك. والعلم لا يجامع الشك في الشئ على وجه واحد. والذكر أيضا يضاد السهو، ولا

يضاد الشك، كما يضاده العلم. وقوله * (وسبحوه بكرة واصيلا) * أمر لهم بأن ينزهوا الله تعالى عن كل قبيح وجميع ما لا يليق به، بالعادة

(٣٤٨)

والعشي: قال قتادة: يعني صلاة الغداة وصلاة العصر، والاصيل العشي وجمعه أصائل، ويقال اصل وأصال، وهو اصل الليل أي اوله ومبدؤه، وقوله * (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) * يترحم عليكم بايجاب الرحمة، ويصلي عليكم الملائكة بالدعاء والاستغفار، فالاول كالدعاء، والثاني دعاء. وقيل: معناه يثني عليكم بطريقة الدعاء، كقوله عليك رحمتي ومغفرتي. وقيل: معناه هو الذي يوجب عليكم الصلاة، وهي الدعاء بالخير، ويوجبه الملائكة بفعل الدعاء، وهذا مما يختلف فيه معنى صفة الله تعالى وصفة العباد، كتواب بمعنى كثير القبول للتوبة وتواب بمعنى كثير فعل التوبة. وقال الاعشى:

عليك مثل الذي صليت فاعتصمي * يوما فان لجنب المرئ مضطجعا (١)

فمن رفع (مثل) فانما دعا لها مثل ما دعت له. ومن نصب أمرها بأن تزداد من الدعاء أي عليك بمثل ما قلت. وقوله * (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) * معناه ليخرجكم من الجهل بالله إلى معرفته، فشبه الجهل بالظلمات، والمعرفة بالنور، وانما شبه العلم بالنور، لانه يقود إلى الجنة، فهو كالنور. والكفر يقود إلى النار - نعوذ بالله منها - وقال ابن زيد: معناه ليخرجكم من الضلالة إلى الهدى.

ثم اخبر تعالى انه * (كان بالمؤمنين رحيمًا) * حين قبل توبتهم وخلصهم من العقاب إلى الثواب بما لطف لهم في فعله. وقوله * (تحيتهم يوم يلقونه سلام) * أي يحيي بعضهم بعضا يوم يلقون ثواب الله بأن يقولوا السلامة لكم من جميع الافات والفوز بنعيم ثواب الله. ولقاء الله لقاء ثوابه لا رؤيته، لانه بمنزلة قوله

(١) ديوانه (دار بيروت) ١٠٦ وقد مر في ٥ / ٣٣١ من هذا الكتاب (*)

(٣٤٩)

* (فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه) * (١) وبمنزلة قول النبي (صلى الله عليه وآله) (من حلف على يمين كاذبة يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان) ولا خلاف أن هؤلاء لا يرون الله. وقوله * (وأعد لهم أجرا كريما) * أي ثوابا جزيلا.

ثم خاطب النبي (صلى الله عليه وآله) فقال * (يا ايها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) * أي شاهدا على أمتك في ما يفعلونه من طاعة الله او معصيته او إيمان به او كفر، لتشهد لهم يوم القيامة او عليهم، فأجازيهم بحسبه، ومبشرا لهم بالجنة وثواب الابد إن أطاعوني واجتنبوا

معصيتي. * (ونذيرا) * أي مخوفا من النار وعقاب الابد بارتكاب المعاصي وترك الواجبات * (وداعيا) * اي وبعثناك داعيا لهم تدعوهم * (إلى الله باذنه) * والاقرار بوحدانيته وأمتثال ما امرهم به، والانتهاه عما نهاهم عنه * (وسراجا منيرا) * أي انت بمنزلة السراج الذي يهتدي به الخلق. والمنير هو الذي يصدر النور من جهته إما بفعله، وإما لانه سبب له، فالقمر منير، والسراج منير بهذا المعنى، والله منير السموات والارض.

وقال الزجاج * (وداعيا إلى الله باذنه وسراجا) * وبعثناك ذا سراج، وحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه وأراد بالسراج القرآن الذي يحتاجون إلى العمل به.

ثم امر نبيه (صلى الله عليه وآله) بأن * (بيشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا) * أي زيادة على ما يستحقونه من الثواب كثيرا، ثم نهاه عن طاعة الكفار الجاحدين لله والمنكرين لنبوته فقال * (ولا تطع الكافرين) * الذين يتظاهرون بالكفر، ولا " المنافقين " الذين يظهرن الاسلام، ويبطنون الكفر، ولا تساعدهم على ما يردونه * (ودع أذاهم) * أي اعرض عن اذاهم. فانا اكفيك أمرهم إذا توكلت علي، وعملت بطاعتي فان جميعهم في سلطاني

(١) سورة ٩ التوبة آية ٧٨ (*)

(٣٥٠)

بمنزلة ما هو في قبضة غيري. ثم قال * (وتوكل على الله) أي اسند أمرك اليه واكتف به * (وكفى بالله وكيفا) * اي كافيا ومتكفلا ما يسنده اليه. وقوله * (وشاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا، وسراجا) * كل ذلك نصب على الحال.

قوله تعالى:

* (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا (٤٩) يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيماهم لكي لا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما) * (٥٠) آيتان.

قرأ حمزة والكسائي * (تماسوهن) * بألف. الباقون بلا الف. وقد مضى تفسيره في البقرة (١).

(١) انظر ٢ / ٢٦٨ - ٢٧٢ (*)

(٣٥١)

خاطب الله نبيه بأنه إذا نكح واحد من من المؤمنين المصدقين بوحدانيته المقربين بنبوته نبيه مؤمنة نكاحاً صحيحاً، ثم طلقها قبل ان يمسه بمعنى قبل ان يدخل بها بأنه لا عدة عليها منه، ويجوز لها أن تتزوج بغيره في الحال. وأمرهم أن يمتعوها ويسرحوها سراها جميلاً، إلى بيت أهلها. وهذه المتعة واجبة إن كان لم يسم لها مهراً وإن كان سمي لها مهر الزمه نصف المهر، ويستحب المتعة مع ذلك، وفيه خلاف. وقال ابن عباس: إن كان سمي لها صداقاً فليس لها إلا نصف المهر، وإن لم يكن سمي لها صداقاً متعها على قدر عسره أو يسره وهو السراح الجميل. وهذا مثل قولنا سواء. وحكي عن ابن عباس أن هذه الآية نسخت بإيجاب المهر المذكور في البقرة (١) ومثله روي عن سعيد بن المسيب والصحيح الأول. ثم خاطب النبي (صلى الله عليه وآله) فقال * (يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) * يعني مهورهن، لأن النكاح لا ينفك من المهر واحلنا لك ما ملكت من الاماء أن تجمع منهن ما شئت * (مما افاء الله عليك) * من الغنائم والانفال * (وبنات عمك) * أي واحلنا لك بنات عمك * (وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك) * أن تعقد عليهن وتعطيهن مهورهن.

ثم قال * (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي) * فالقراء كلهم على كسر (ان) على انه شرط، وقرأ الحسن بفتحها على انه بمعنى احلنا لك لان وهبت، والمعنى واحد، لانه بمنزلة قولك سرتي إن ملكت وسرتي أن ملكت أي سرتي ما ملكت * (إن أراد النبي) * واحلنا لك المرأة إذا وهبت نفسها لك إن أردتها ورغبت فيها. فروي عن ابن عباس انه لا تحل امرأة بغير مهر وإن وهبت نفسها إلا للنبي

(١) انظر ٢ / ٢٧٢ (*)

(٣٥٢)

(صلى الله عليه وآله) خاصة. وقال ابن عباس: لم يكن عند النبي امرأة وهبت نفسها له، وفي رواية أخرى عن ابن عباس انه كانت عنده ميمونة بنت الحارث بلا مهر وكانت وهبت نفسها للنبي. وروي عن علي بن الحسين (عليه السلام) أنها امرأة من بني اسد يقال لها أم شريك. وقال الشعبي: هي امرأة من الانصار. وقيل زينب بنت خزيمة من الانصار. وعندنا أن النكاح بلفظ الهبة لا يصح وإنما كان ذلك للنبي (صلى الله عليه وآله) خاصة. وقال قوم: يصح غير انه يلزم المهر إذا دخل بها، وإنما جاز بلا مهر للنبي (صلى الله عليه وآله) خاصة غير انه يبين حجة

ما قلناه. قوله * (إن اراد النبي أن يستكحها خالصة لك من دون المؤمنين) * فبين أن هذا الضرب من النكاح خاص له دون غيره من المؤمنين.

وقوله * (قد علمنا ما فرضنا عليهم) * يعني على المؤمنين * (في أزواجهم) * قال قتادة: معناه أي لا نكاح الا بولي وشاهدين وصداق وألا يتجاوز الاربع.

وقال مجاهد: ما فرضنا عليهم ألا يتزوجوا اكثر من أربع. وقال قوم * (ما فرضنا عليهم في أزواجهم) * من النفقة والقسمة وغير ذلك.

وعندنا أن الشاهدين ليسا من شرط صحة انعقاد العقد، ولا الولي إذا كانت المرأة بالغة رشيدة، لأنها ولية نفسها. والمعنى على مذهبنا إنا قد علمنا ما فرضنا على الأزواج من مهرهن ونفقتهن وغير ذلك ومن الحقوق مع * (ما ملكت أيمانهم) * (ما) في موضع جر لأنها عطف على (في) وتقديره: في أزواجهم وفي ما ملكت أيمانهم * (لكيلا يكون عليك حرج) * إذا تزوجت المرأة بغير مهر إذا وهبت لك نفسها وأردتها. ثم قال * (وكان الله غفورا رحيمًا) * أي ساترا للذنب على المسيئين رحيمًا بهم ومنعما عليهم.

(٣٥٣)

قوله تعالى:

* (ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقرأ عينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حلِيمًا (٥١) لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا (٥٢) يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعا فسلوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تتكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما (٥٣) إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء

(٣٥٤)

عليما (٥٤) لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا) * (٥٥) خمس آيات.

قرأ ابن كثير وابوعمر و ابن عامر وابوبكر عن عاصم * (ترجئ) * مهموزة. الباقون بغير همز. من همز خففها ومن ترك الهمز لين، وهما لغتان يقال: أرجئت وأرجيت. وقرأ ابو عمرو وحده * (لا تحل) * بالتاء. الباقون بالياء. فمن قرأ بالتاء، فلان النساء مؤنثة. ومن قرأ بالياء حمله على اللفظ لان المعنى: لا يحل لك شئ من النساء.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) يخيره في نسائه بين أن يرجئ منهن من شاء أي تؤخر وتبعد. قال ابن عباس: خيره الله بين طلاقهن وإسماكنهن. وقال قوم: معناه تترك نكاح من شئت وتتكح من شئت من نساء أمتك. وقال مجاهد: معناه تعزل من شئت من نسائك فلا تأتيها وتأتي من شئت من نسائك فلا تقسم لها، فعلى هذا يكون القسم ساقطاً عنه فكان ممن أرجى ميمونه وأم حبيبة وصفية وسودة، فكان يقسم لهن من نفسه وماله ما شاء، وكان ممن يأوي عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب، فكان يقسم نفسه وماله بينهن بالسوية. وقال زيد بن اسلم: نزلت في اللاتي وهبن أنفسهن فقال الله له تزوج من شئت منهن واترك من شئت، وهو اختيار الطبري وهو أليق بما تقدم. فالإرجاء هو التأخير وهو من تباعد وقت الشئ عن

(٣٥٥)

وقت غيره ومنه الإرجاء في فساق أهل الصلاة، وهو تأخير حكمهم بالعقاب إلى الله * (وتؤوي منهن من تشاء) * فالإيواء: ضم القادر غيره من الأحياء الذين من جنس ما يعقل إلى غيره أو ناحيته، تقول آويت الإنسان آويه إيواء وأوى هو يأوي أويًا إذا انضم إلى مأواه. وقوله * (ومن ابتغيت) * يعني من طلبت * (ممن عزلت) * قال قتادة: كان نبي الله يقسم بين أزواجه فأحل الله تعالى له ترك ذلك. وقيل * (ومن ابتغيت) * أصابته ممن كنت عزلت عن ذلك من نسائك. وقال الحسن * (ترجي من تشاء منهن) * تذكر المرأة للتزويج ثم ترجيها فلا تتزوجها * (فلا جناح عليك) * أي لا جناح عليك في ابتغاء من شئت وإرجاء من عزلت وإيواء من شئت * (ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن) * أي اقرب إذا علمن أن الرخصة من قبل الله كان ذلك أقر لعينهن، وإنهن لا يطلقن وأشد لسرورهن وهو قول قتادة. وقيل * (ذلك أدنى أن تقر أعينهن) * إذا طمعت في ردها إلى فراشها بعد عزلها * (ويرضين بما آتيتهن كلهن) * رفع (كلهن) على تأكيد الضمير وهو النون في (يرضين) لا يجوز غير ذلك، لان المعنى عليه. ثم قال * (والله يعلم ما في قلوبكم) * من الرضا والسخط والميل إلى بعض النساء دون بعض * (وكان الله عليماً) * بذلك * (حليماً) * عن أن يعاجل أحداً بالعقوبة.

وقوله * (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن) * قال ابن عباس والحسن: بعد التسع اللاتي كن عنده واخترنه مكافأة لهن على اختيارهن الله ورسوله. وقال ابي بن كعب لا يحل لك من بعد أي حرم عليك ما عدا اللواتي ذكرن بالتحليل في " إنا احللنا لك.... " الآية. وهن ست أجناس النساء اللاتي هاجرن معك وإعطائهن مهورهن وبنات عمه وبنات عماته وبنات خاله

(٣٥٦)

وبنات خالاته اللاتي هاجرن معه، ومن وهبت نفسها له بجميع ما شاء من العدد، ولا يحل له غيرهن من النساء. وقال مجاهد: " لا يحل لك النساء " من أهل الكتاب ويحل لك المسلمات. وروى أن حكم هذه الآية نسخ، وأبيح له ما شاء من النساء أي أي جنس أراد، وكم أراد، فروي عن عائشة انها قالت: لم يخرج النبي (صلى الله عليه وآله) من دار الدنيا حتى حلل الله له ما أراد من النساء، وهو مذهب اكثر الفقهاء. وهو المروي عن أصحابنا في أخبارنا. " ولا ان تبدل بهن من أزواج " قال ابن زيد: معناه أن تعطي زوجتك لغيرك وتأخذ زوجته. لان أهل الجاهلية كانوا يتبادلون الزوجات. وقيل:

معناه تطلق واحدة وتزوج أخرى بعدها " ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك " استثناء الاماء أي اللاتي تملكهن من جملة ما حرم عليه من النساء " وكان الله على كل شيء رقيباً " أي عالماً حافظاً، فالرقيب الحفيظ - في قول الحسن وقتادة - قال الشاعر:

لواحد الرقباء للضرباء ايديهم نواهد (١)

ثم خاطب المؤمنين فقال " يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم " نهاهم عن دخول دور النبي بغير اذن " إلى طعام غير ناظرين إناه " أي بلوغه، وكان يداريهم، وهو نصب على الحال، يقال في الطعام:

أنأى يأتي إذا بلغ حال النضج، قال الشاعر - الشيباني -

تمخضت المنون له بيوم * اني ولكل حادثة تمام (٢)

وقال الحطيئة:

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٤٠ (٢) تفسير القرطبي ١٤ / ٢٢٦ (*)

(٣٥٧)

وأخرت العشاء إلى سبيل * او الشعري فطال بي الاناء (١)

وقال البصريون: لا يجوز (غير ناظرين) بالجر على صفة (طعام) لان الصفة إذا جرت على غير من هي له لم يضمم الضمير، واجاز ذلك الفراء وانشد الاعشى:
فقلت له هذه هاتها. الينا بأدماء مقتادها (٢).

والمعنى على يدي من اقتادها، وقال الكسائي: سمعت العرب تقول: يدك باسطها، أي انت. وقال الزجاج: لو جر (غير) لقال: إلى طعام غير ناظرين إناه انتم، لا يجوز إلا ذلك. والمعنى غير منتظرين بلوغ الطعام.

ثم قال " ولكن إذا دعيتم فادخلوا " والمعنى إذا دعيتم إلى طعام فادخلوا " فاذا طعمتم فانتمشروا ولا مستأنسين لحديث " أي تفرقوا ولا تقيموا ولا تستأنسوا بطول الحديث، وإنما منعوا من الاستئناس من اجل طول الحديث لان الجلوس يقتضي ذلك، والاستئناس هو ضد الاستيحاش، والانس ضد الوحشة، وبين تعالى فقال " لان ذلك " الاستئناس بطول الجلوس " كان يؤذي النبي فيستحيي منكم " أي من الحاضرين، فيسكت على مضض ومشقة " والله لا يستحيي من الحق " ثم قال " وإذا سألتموهن متاعا " يعني إذا سألتم أزواج النبي شيئا تحتاجون إليه " فاسألوهن من وراء حجاب " وستر " ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن " من الميل إلى الفجور.
ثم قال " وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله " قال ابو عبيدة (كان) زائدة والمعنى ليس " لكم ان تؤذوا رسول الله " بطول الجلوس عنده، ومكالمة نسائه

(١) تفسير القرطبي ١٤ / ٢٢٦ (٢) ديوانه (دار بيروت) روايته:

فقلنا له هذه هاتها * بأدماء في حبل مقتادها (*)

(٣٥٨)

" ولا " يحل لكم ايضا " أن تتكحوا أزواجه من بعده ابدا " لانهن صرن بمنزلة أمهاتكم في التحريم. وقال السدي: لما نزل الحجاب قال رجل من بني تيم أنحجب من بنات عمنا إن مات عرسنا بهن، فنزل قوله " ولا أن تتكحوا أزواجه من بعده ابدا إن ذلكم " إن فعلتموه " كان عند الله عظيما ".

ثم قال لهم " إن تبدوا شيئا " أي إن اظهرتموه من موقعة النساء " او تخفوه فان الله كان بكل شئ عليما " لا يخفى عليه شئ من أعمالكم لا ظاهرة ولا باطنة. ثم استثنى لأزواج النبي (صلى الله عليه وآله) من يجوز لها محادثتم ومكالمتهن، فقال " لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمنهن " ولم يذكر العم والخال لانه مفهوم من الكلام، لان قرباتهم واحدة، لانهن لا يطلن لواحد من المذكورين بعقد نكاح على وجه، فهن محرم لهن " ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمنهن " قال قوم: من

النساء والرجال. وقال آخرون من النساء خاصة. وهو الاصح. وقال مجاهد: رفع الجناح - ههنا - في وضع الجلباب للمذكورين.

وقال قتادة: في ترك الاحتجاب، ثم أمرهن بأن يتقين الله ويتركن معاصيه فقال " واتقين الله إن الله كان على كل شئ شهيدا " أي عالما لا يخفى عليه شئ من ذلك. وقال الشعبي وعكرمة: وإنما لم يذكر العم والخال، لئلا ينعتاهن لابنائهما. وكان سبب نزول الآية لما نزل الحجاب، قوله " فاسألوهن من وراء حجاب " قال آباء النساء وبنائهن: ونحن ايضا مثل ذلك، فانزل الله الآية وبين أن حكم هؤلاء بخلاف حكم الاجانب.

(٣٥٩)

قوله تعالى:

* (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما (٥٦) إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا (٥٧) والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا (٥٨) يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما (٥٩) لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) * (٦٠) خمس آيات يقول الله تعالى مخبرا انه يصلي وملائكته على النبي (صلى الله عليه وآله) وصلاة الله تعالى هو ما فعله به من كراماته وتفضيله وإعلاء درجاته ورفع منازلته وثنائه عليه وغير ذلك من انواع إكرامه. وصلاة الملائكة عليه مسألتهم الله تعالى أن يفعل به مثل ذلك، وزعم بعضهم أن " يصلون " فيه ضمير الملائكة دون اسم الله مع إقراره بأن الله سبحانه يصلي على النبي لكنه يذهب في ذلك إلى انه في افراده بالذكر تعظيما، ذكره الجبائي.

(٣٦٠)

ثم امر تعالى المؤمنين المصدقين بوحدانيته المقربين بنبوة نبيه أن يصلوا ايضا عليه، وهو أن يقولوا: اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم - في قول ابن عباس.

ثم أمر المؤمنين أيضا، ان يسلموا لامره تعالى وأمر رسوله تسليما، في جميع ما يأمرهم به. والتسليم هو الدعاء بالسلامة كقولهم سلمك الله. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. وكقولك: السلام عليك يا رسول الله.

ثم اخبر تعالى " ان الذين يؤذون الله ورسوله " وأذى الله يقال هو اذى أوليائه، وانما أضافه إلى نفسه تعظيما لأوليائه ومبالغة في عظم المعصية به " لعنهم الله " أي يستحقون اللعنة من الله، لان معنى " لعنهم الله " أي حل بهم وبال اللعن بالابعاد من رحمة الله. وقول القائل: لعن الله فلانا معناه الدعاء عليه بالابعاد من رحمته. وقوله " في الدنيا والآخرة " أي هم مبعدون من رحمته تعال في الدنيا والآخرة، ومع ذلك " اعد لهم " في الآخرة " عذابا مهينا " اي مذلا لهم. والهوان الاحتقار، يقال: اهانه اهانة، وإنما وصف العذاب بأنه مهين، لانه تعالى يهين الكافرين والفاسقين به، حتى يظهر الذلة فيه عند العقاب.

ثم قال " والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا " يعني يؤذونهم من غير استحقاق على شئ فعلوه يستوجبون به ذلك " فقد احتملوا بهتاننا.... ". وكان سبب نزول الآية ان قوما من الزناة كانوا يمشون في الطرقات فاذا رأوا امرأة غمزوها. وقال النقاش: نزلت في قوم كانوا يؤذون عليا (عليه السلام) وقيل: نزلت في من تكلم في عائشة في قصة الافك.

(٣٦١)

وقوله " فقد احتملوا بهتاننا " اي كذبا " واثما مبينا " اي ظاهرا - ثم خاطب النبي (صلى الله عليه وآله) بقوله " يا ايها النبي " وامره بأن يقول لازواجه وبناته ونساء المؤمنين، ويأمرهم بأن يدينين عليهم من جلابيبهن، قالجلابيب جمع جلباب وهو خمار المرأة وهي المقنعة تغطي جبيتها ورأسها إذا خرجت لحاجة بخلاف خروج الاماء اللاتي يخرجن مكشفات الرؤس والجباه - في قول ابن عباس ومجاهد - وقال الحسن: الجلابيب الملاحف تدينها المرأة على وجهها " ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين " ثم قال " وكان الله غفورا رحيمًا " اي ستار الذنوب على عباده " رحيمًا " بهم.

ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) " لئن لم ينته المنافقون " أي لئن لم يرجعوا " والذين في قلوبهم مرض " اي شك ونفاق. وقيل: شهوة الزنا " والمرجفون في المدينة " فالارجاف اشاعة الباطل للاعتماد به. والمرجفون هم الذين كانوا يطرحون الاخبار الكاذبة بما يشغلون به قلوب المؤمنين " لنخربنك بهم " يا محمد، والاعراء الدعاء إلى تناول الشئ بالتحريض عليه اغراه يغيره اغراء وغري به يغري مثل اولع به كأنه أخذ بلزومه. وقيل: معناه لسنلظنك عليهم - في قول ابن عباس -.

وقوله " ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا " يعني ينفون عن المدينة ولا يجاورونك يا محمد فيها. قوله تعالى:

* (ملعونين أين ما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا (٦١) سنة

(٣٦٢)

الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٦٢)
يسئلك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا (٦٣) إن
الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا (٦٤) خالدون فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا) * (٦٥)
خمس آيات.

لما أخبر الله تعالى، وتوعد " المنافقين والذين في قلوبهم مرض " أي شك " والمرجفون في
المدينة " بما يشغل قلوب المؤمنين وأنهم إن لم يتوبوا عن ذلك نفوا عنها، وصفهم بانهم "
ملعونين " أي مبعدون " أينما ثقفوا " ونصب (ملعونين) على الحال من الضمير في قوله "
يجاورونك " وقيل: انه نصب على الذم، والصفة ل (قليل)، كأنه قال: إلا أذلاء ملعونين،
(وأينما) منصوب ب (ثقفوا)، وانجزم به (ثقفوا) على طريق الجزاء. وإنما جاز ذلك، لان
الجازم في الاصل (إن) المحذوفة. وصار (أينما) تقوم مقامها، وتغني عنها ولا يجوز ان يعمل
فيه (اخذوا) لانه جواب الجزاء، ولا يعمل الجواب فيها قبل الشرط، لئلا يختلط احد الامرين
بالآخر.

وفي الآية دلالة على انهم انتهوا، وإلا كان يوقع الاغراء بهم ويجعلهم بالصفة التي ذكرها.
وقوله " سنة الله التي قد خلت من قبل " فالسنة الطريقة في تدبير الحكيم ومنه سنة رسول الله،
وهي الطريقة التي أجزاها بأمر الله تعالى، فأضيفت اليه

(٣٦٣)

لانه فعلها بأمر الله. واصل السنة الطريقة. ومن عمل الشيء مرة أو مرتين لا يقال: إن ذلك
سنة، لان السنة الطريقة الجارية، ولا تكون جارية بما لا يعتد به من العمل القليل، وسنة الله
في المتمردين في الكفر - الذين لا يقلع احد منهم ولا من نسلهم - الاهلاك في العذاب في
الدنيا والآخرة.

وقوله " ولن تجد لسنة الله تبديلا " معناه إن السنة التي اراد الله أن يسنها في عباده لا يتهيأ
لاحد تغييرها، ولا قلبها عن وجهها لانه تعالى القادر الذي لا يتهيأ لاحد منعه مما اراد فعله.
ثم قال " يسألك الناس عن الساعة " يعني عن يوم القيامة " قل " لهم " انما علمها عند الله " لا
يعلمها أحد غيره " وما يدريك " يا محمد " لعل الساعة تكون قريبا " مجيئها.
ثم قال تعالى مخبرا " إن الله لعن الكافرين " يعني أبعدهم من رحمته " وأعد لهم سعيرا " يعني
النار التي تستعر وتلتهب " خالدون فيها أبدا " أي مؤبدين فيها لا يخرجون منها " ولا يجدون
وليا " ينصرهم من دون الله " ولا نصيرا " يدفع عنهم.

واستدل قوم بذلك على النار أنها مخلوقة الآن، لان مالا يكون مخلوقا لا يكون معدا. وهذا ضعيف، لانه يجوز أن يكون المراد إن الجنة والنار معدتان في الحكم كائنتان لا محالة، فلا يمكن الاعتماد على ذلك.

قوله تعالى:

* (يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا (٦٦) وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا

(٣٦٤)

فأضلونا السبيلا (٦٧) ربنا أتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا (٦٨) يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) * (٦٩) آيات أربع.

قرأ ابن عامر ويعقوب " ساداتنا " بألف بعد الدال. الباقرن بغير الف على جمع التكسير، والاول على جمع الجمع، وقرأ عاصم وابن عامر - في رواية الداخوني عن هشام " لعنا كبيرا " بالباء. بالباقرن بالناء.

العامل في قوله " يوم تقلب " قوله " واعد لهم سعيرا... يوم تقلب وجوههم " فالتقليب تصريف الشئ في الجهات، ومثله التثقيب من جهة إلى جهة فهؤلاء تقلب وجوههم في النار، لانه ابلغ في ما يصل اليهم من العذاب. وقوله " يقولون يا ليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا " حكاية ما يقول هؤلاء الكفار الذين تقلب وجوههم في النار، فانهم يقولون متمنين: يا ليتنا كنا اطعنا الله في ما امرنا به ونهانا عنه، ويا ليتنا أطعنا الرسول في ما دعانا اليه. وحكى ايضا انهم يقولون يا " ربنا إنا اطعنا " في ما فعلنا " ساداتنا وكبراءنا " والسادة جمع سيد، وهو الملك المعظم الذي يملك تدبير السواد الاعظم، ويقال للجمع الاكثر السواد الاعظم يراد به السواد المنافي لشدة البياض والضياء الاعظم " فأضلونا السبيلا " يعني هؤلاء الرؤساء اضلونا عن سبيل الحق.

وقيل الآية نزلت في الاثنى عشر الذين أطعموا الكفار يوم بدر من قريش. ثم حكى انهم يقولون " ربنا أتهم ضعفين من العذاب " لضلالهم في

(٣٦٥)

نفوسهم وإضلالهم إيانا. وقيل معناه عذاب الدنيا والآخرة " والعنهم لعنا كثيرا " أي مرة بعد اخرى. ومن قرأ بالباء اراد اللعن الذي هو اكبر من لعن الفاسق، لان لعنة الكافر أعظم.

ثم خاطب تعالى المؤمنين فقال " يا ايها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى " أي لا تؤذوا نبيكم مثل ما اودى موسى يعني آذاه قومه بعيب اضافوه اليه لم يقم حجة بتعيبه. وقيل: إن الآية نزلت في المنافقين عابوا النبي (صلى الله عليه وآله) باصطفائه صفيه بنت حي، فهامهم الله عن ذلك. واختلف المفسرون في العيب الذي اضافوه قوم موسى اليه. فقال قوم: انهم آذوا موسى بأن اشاعوا أن هارون قتله موسى فأحياه الله - عزوجل - حتى أخبرهم ان موسى لم يقتله وأن الله تعالى هو الذي اماته عند انقضاء أجله، وهو معنى قوله " فبرأه الله مما قالوا " وقيل: انهم قالوا: إنه ابرص. وقيل: انهم اضافوه إلى انه ادر الخصيتين، فبرأه الله من ذلك، واجاز البلخي حديث الصخرة التي ترك موسى ثيابه عليها على ان يكون ذلك معجزا له. وقال قوم: ذلك لا يجوز لان فيه اشتهاى النبي وابداء سواته على رؤس الاشهاد. وذلك ينفر عنه، فبرأه الله من ذلك.

وقوله " وكان عند الله وحيها " أي عظيم القدر، رفيع المنزلة إذا سأل الله تعالى شيئا أعطاه. وأثبت الالف في قوله " الرسولا.... والسبيلا " لاجل الفواصل في رؤس الآي تشبيها بالقوافي. قوله تعالى:

* (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا (٧٠)

(٣٦٦)

يصلح لكم اعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما (٧١) إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا (٧٢) ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيمًا * (٧٣) أربع آيات.

امر الله تعالى المصدقين بوحدانيته المقربين بنبوته نبيه بأن يتقوا عقابه باجتتاب معاصيه وفعل واجباته وأن يقولوا " قولا سديدا " أي صوابا بريئا من الفساد خالصا من شائب الكذب والتمويه واللغو. وقوله " يصلح لكم اعمالكم " جزم بأنه جواب للامر، وفيه معنى الجزاء. وتقديره: إن فعلتم ما امرتكم به يصلح لكم اعمالكم. وإصلاحه أعمال العباد أن يلطف لهم فيها حتى تستقيم على الطريقة السليمة من الفساد، وذلك مما لا يصح إلا في صفات الله تعالى، لانه القادر الذي لا يعجزه شئ العالم الذي لا يخفى عليه شئ " ويغفر لكم ذنوبكم " قيل: إنما وعد الله بغفران الذنوب عند القول السديد، ولم يذكر التوبة، لان التوبة داخلة في الاقوال السديده، كما يدخل فيه تجنب الكذب في كل الامور فيدخل فيه الدعاء إلى الحق وترك الكفر والهزل واجتتاب الكلام القبيح.

ثم قال " ومن يطع الله ورسوله " في ما أمراه به ونهياه عنه ودعواه اليه

(٣٦٧)

" فقد فاز فوزا عظيما " أي افلح فلاحا عظيما، لانه يفوز بالجنة، والثواب الدائم. وقيل: معناه فقد ظفر بالكرامة من الله والرضوان، وهو الفوز العظيم.

ثم اخبر تعالى بأنه عرض الامانة على السموات والارض، فالامانة هي العقد الذي يلزم الوفاء به مما من شأنه أن يؤتمن على صاحبه، وقد عظم الله شأن الامانة في هذه الآية وأمر بالوفاء بها، وهو الذي امر به في اول سورة المائدة وعناه بقوله " يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود " وقيل في قوله " عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال " مع أن هذه الاشياء جمادات لا يصح تكليفها أقوال:

احدها - ان المراد عرضنا على اهل السموات واهل الارض واهل الجبال وثانيها - ان المعني في ذلك تفخيم شأن الامانة وتعظيم حقها، وأن من عظم منزلتها انها لو عرضت على الجبال والسموات والارض مع عظمها، وكانت تعلم بأمرها لاشفقت منها، غير انه خرج مخرج الواقع لانه ابلغ من المقدر.

وقوله " فأبين ان يحملنها " أي منعن ان يحملن الامانة " واشفقن منها " أي خفن من حملها " وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا " أي ظلوما لنفسه بارتكاب المعاصي، جهولا بموضع الامانة واستحقاق العقاب على ارتكاب المعاصي وقال ابن عباس: معنى الامانة الطاعة لله، وقيل لها أمانة لان العبد أوتمن عليها بالتمكين منها ومن تركها. وقال تعالى " ليبلوكم أيكم احسن عملا " (١) فرغب في الاحسن، وزهد في تركه. وقيل: من الامانة ان المرأة أوتمنت على فرجها والرجل على فرجه ان يحفظاهما من الفاحشة. وقيل: الامانة ما خلق الله تعالى في هذه الاشياء من الدلائل على ربوبيته وظهور ذلك منها، كأنهم أظهرها

(١) سورة ١١ هود آية ٧ (*)

(٣٦٨)

والانسان جحد ذلك وكفر به. وفائدة هذا العرض إظهار ما يجب من حفظها وعظم المعصية في تضييعها.

وقيل معنى " حملها الانسان " أي خانها، لان من خلق الامانة فقد حملها وكذلك كل من اثم فقد حمل الاثم، كما قال تعالى " وليحملن أثقالهم وانقالا مع انقالهم " (١) وقال البلخي: يجوز ان يكون معنى العرض والاباء ليس هو ما يفهم بظاهر الكلام، بل انما أراد تعالى أن يخبر بعظم شأن الامانة وجلالة قدرها " وفضاعة خيانتها وترك ادائها، وانه لو وجد السموات مع عظمها لا تحملها وإن الانسان حملها، وليس الانسان - ههنا - واحدا بعينه، ولا هو المطيع المؤمن، بل

هو كل من خان الامانة ولم يرد الحق فيها، وحمل الانسان الامانة هو ضمانة القيام بها وإداء الحق فيها، لان ذلك طاعة منه الله، واتباع لامره والله لا يعتب على طاعته وما امر به ودعا اليه لكن معنى " حملها " انه؟؟؟؟؟؟ ثم خانها ولم يؤد الحق فيها، كأن ه حملها فذهب بها واحتمل وزرها، كما يقولون فلان أكل امانته أي خان فيها، والعرب تقول: سألت الربيع، وخاطبت الدار فأجابني بكذا، وقالت كذا، وربما قالوا: فلم يجب، وامتنعت من الجواب.

وليس هناك سؤال ولا جواب، وإنما هو اخبار عن الحال التي تدل عليه، وعبر عنه بذكر السؤال والجواب، كما قال تعالى " ائتيا طوعا لو كرها " للسّموات والارض " قالتا أتينا طائعين " (٢) وهو تعالى لا يخاطب من لا يفهم ولا يعقل، وقال تعالى:

* (لقد جئتم شيئا إذا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا) * (٣)
ونحن نعلم ان السموات لم تشعر بما كان من

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ١٣ (٢) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ١٢ (٣) سورة ١٩ مريم آية ٩١ - ٩٢
(*)

(٣٦٩)

الكفار وانه لا سبيل لها إلى الانفطار في ذات نفسها، ويقول القائل أتيت بكذب لا تحتمله الجبال الراسيات، قال الشاعر:

فقال لي البحر إذ جئته * كيف يجيز ضريرا وقال جرير:
لما اتى خبر الزبير تواضعت * سور المدينة والجبال الخشع (١)
وقال آخر:

فاجهشت للتوباد حين رأيت * وكبر للرحمن حين رأني
فقلت له أين الذين عهدتهم * بجنيبك في حزن وطيب زمان
فقال مضوا فاستودعوني بلادهم * ومن ذا الذي يبقى على الحدثن
والتوباد جبل، وقال آخر:

امتلا الحوض وقال قطني * مهلا رويدا قد ملات بطني (٢)
وقال بعض المحدثين:

يا قصر ويحك هل اوعيت من خبر * فقال هل خبر أنبأ من العبر
قد كان يسكنني قوم ذو خطر * بادوا على الدهر والايام والغير
وقد أتاني وقرب العهد يذكرني * منصور أمتكم في الشوك والشجر
حتى أناخ على بابي فقلت له * أما كفاك الذي نبئت من خبري

إن لا اكن قلته نطقا فقد كتبت * به الحوادث في صخري وفي حجري
خطا قديما جليلا غير ذي عوج * يقرأ بكل لسان ظاهر الاثر

(١) ديوانه ٢٧٠ وقد مر في ١ / ٣١٢، ٢٠٤ و ٧ / ١٥٢، ٢٠٩ (٢) مر في ١ / ٤٣١ (*)

(٣٧٠)

فحلني ثم أفناه الزمان ولم يطق * دفاعا لما قد حم من قدر وكلهم قائل لي أنت لي ولمن *
خلفت من ولدي حظرا على البشر فما تملى بنو الآباء بعدهم * ولا هم سكنوا إلا على غرر
وقد قال بعض الحكماء: سل الارض من شق انهارك وغرس اشجارك وبنى ثمارك؟ فان لم
تجبك حوارا أجابتك اعتبارا، والعرض على وجوه يقال: عرضت المال والعمل على فلان،
فهذا بالقول والخطاب، وعرضت هذا الامر على فكري البارحة، وهذا أمر إن عرض على
العقول لم تقبله، ومنه قولهم: عرضت الناقة على الحوض، يريدون عرضت الحوض على
الناقة و (الآباء) على وجوه: فمنه الامتناع وإن لم يكن قصد لذلك، ومنه ألا يصلح لما يريده،
تقول: أردت سل سيفي فأبى علي. وتقول: هذه الارض تأبى الزرع والغرس أي لا تصلح
لهما، فعلى هذا يكون معنى قوله " فأبين أن يحملنها " أي لا تصلح لحملها، وليس في طباعها
حمل ذلك، لانه لا يصلح لحمل الامانة إلا من كان حيا عالما قادرا سميعا بصيرا. بل لا يلزم
أن يكون سميعا بصيرا، وإنما يكفي ان يكون حيا عالما قادرا. وقال قوم: معناه إنا عرضنا
الامانة على أهل السموات وأهل الارض وأهل الجبال، كما قال " فما بكت عليهم السماء
والارض " (١) يعني اهل السماء واهل الارض، فأبوا حملها على أن يؤدوا حق الله فيها
إشفاقا من التقصير في ذلك * (وحملها الانسان) * يعني الكافر جهلا بحق الله واستخفافا
بعرضه * (إنه كان ظلوما) * لنفسه * (جهولا) * بما يلزمه القيام بحق الله، وإنما قال *
(فأبين) * ولم يقل: فأبوا حملا على اللفظ، ولم يرده إلى معنى الأدميين، كما قال * (والشمس
والقمر رأيتهم لي ساجدين) * (٢) وقوله

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٢٩ (٢) سورة ١٢ يوسف آية ٤ (*)

(٣٧١)

* (فظلت اعناقهم لها خاضعين) * (١) حملا على المعنى دون اللفظ، وكل ذلك واضح بحمد
الله.

ثم قال * (ليعذب المنافقين والمنفقات والمشركين والمشركات) * يعني بتضييع الامانة، وقال
الحسن وقتادة: كلاهما خانا الامانة * (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) * بحفظهما

الامانة لانهما كليهما أديا الامانة * (وكان الله غفورا رحيمًا) * أي ستارا لعيوب خلقه رحيمًا بهم في اسقاط عقابهم إذا تابوا ورجعوا إلى الطاعة.

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٤ (*)

(٣٧٢)

٣٤ - سورة سبأ مكية في قول مجاهد وقتادة: والحسن وغيرهم ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وقيل إن آية واحدة منها مدنية، وهي قوله " وترى الذين أوتوا... " وهي أربع وخمسون آية عند الكل إلا الشامي فانها عنده خمس وخمسون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

* (أحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير (١) يعلم ما يلج في الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور (٢) وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين (٣) ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم

(٣٧٣)

مغفرة ورزق كريم (٤) والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز اليم) *

(٥) خمس آيات.

قرأ حمزة والكسائي " علام الغيب " بتشديد اللام وألف بعدها وخفض الميم. وقرأه اهل المدينة وابن عامر ورويس بألف قبل اللام وتخفيف اللام وكسرها ورفع الميم. الباقيون كذلك إلا أنهم خفضوا الميم، وهم ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وخلف وروح. وقرأ ابن كثير وحفص ويعقوب * (من رجز اليم) * برفع الميم - ههنا - وفي الجناثية، و * (معجزين) * قد مضى ذكره، (١)

وقرأ الكسائي وحده (يعزب) بكسر الزاي. الباقيون بضمها. و * (الحمد) * رفع بالابتداء و * (الله) * خبره.

والحمد هو الشكر، والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم.

والحمد هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم، ونقيضه الذم، وهو الوصف بالقبيح على جهة التحقير، ولا يستحق الحمد إلا على الاحسان، فلما كان احسان الله لا يوازيه احسان احد من

المخلوقين، فكذلك لا يستحق الحمد احد من المخلوقين مثل ما يستحقه، وكذلك يبلغ شكره إلى حد العبادة ولا يستحق العبادة سوى الله تعالى، وإن استحق بعضنا على بعض الشكر والحمد. ومعنى قوله * (الحمد لله) * أي قولوا * (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض) * معناه الذي يملك التصرف في جميع ما في السموات، وجميع ما في الارض، وليس لاحد منعه منه ولا الاعتراض عليه * (وله الحمد) * في الاولى يعني بما أنعم عليه من فنون الاحسان و * (في الآخرة) * بما يفعل بهم من الثواب

(١) انظر ٧ / ٣٢٩ (*)

(٣٧٤)

والعوض وضروب التفضل في الآخرة، والآخرة وإن كانت ليست دار تكليف فلا يسقط فيها الحمد والاعتراف بنعم الله تعالى، بل العباد ملجأون إلى فعل ذلك لمعرفة الضرورية بنعم الله تعالى عليهم وما يفعل من العقاب بالمستحقين فيه أيضا إحسان لما للمكلفين به في دار الدنيا من اللطاف والزرع عن المعاصي ويفعل الله العقاب بهم لكونه مستحقا على معاصيه في دار الدنيا، ومن حمد أهل الجنة قولهم: الحمد لله الذي صدقنا وعده. وقولهم: الحمد لله الذي هدانا لهذا.

وقيل: إنما يحمده أهل الآخرة من غير تكليف على وجه السرور به * (وهو الحكيم) * في جميع أفعاله، لأنها كلها واقعة موقع الحكمة * (الخبير) * العالم بجميع المعلومات. ثم وصف نفسه بأنه * (يعلم ما يلج في الأرض) * من سائر أنواع الأشياء * (وما يخرج منها) * كذلك. وقال الحسن: معناه يعلم ما يلج في الأرض من المطر، وما يخرج منها من النباتات، والولوج الدخول، ولج يلج ولوجا، قال الشاعر:

رأيت القوافي يلجن موالجا * تضايق عنه ان تولجه الابر (١)

ومعنى * (ما ينزل من السماء) * قال الحسن: يعني من الماء * (وما يعرج فيها) * من ملك فهو يجري جميع ذلك على تدبير عالم به وتوجيه المصلحة فيه.

ثم حكي عن الكفار أنهم يقولون * (لا تأتينا الساعة) * يعني القيامة تكذيبا للنبي (صلى الله عليه وآله) في ذلك ف * (قل) * لهم يا محمد * (بلى) * تأتاكم * (و) * حق الله * (ربي) * الذي خلقني وأخرجني من العدم إلى الوجود * (لتأتينكم) * الساعة * (عالم الغيب) * من جر * (عالم) * جعله صفة لقوله * (وربي) * وهو في موضع جربوا والقسم. ومن رفعه، فعلى انه خبر ابتداء محذوف، وتقديره هو عالم

(١) تفسير الطبري ٢٢ / ٣٧ (*)

(٣٧٥)

الغيب. ومن قرأ * (علام) * أراد المبالغة في وصفه بأنه عالم الغيب، والغيب كل شئ غاب عن العباد علمه * (لا يعزب عنه) * أي لا يفوته * (مقال ذرة في السموات ولا في الأرض) * بل هو عالم بجميع ذلك، يقال: عزب عنه الشئ يعزب ويعزب لغتان، في المضارع * (ولا اصغر من ذلك ولا أكبر) * أي ولا يعزب عنه علم ما هو اصغر من مقال ذرة، ولا علم ما هو أكبر منه * (إلا في كتاب مبين) * يعني اللوح المحفوظ الذي أثبت الله تعالى فيه

جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة ليطلع عليه ملائكته، فيكون لطفاً لهم، ويكون للمكلفين أيضاً في الاخبار عنه لطف لهم.

ثم بين أنه إنما أثبت ذلك في الكتاب المبين * (ليجزى) * على ذلك * (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) * بنعيم الجنة وهو قوله * (أولئك لهم مغفرة) * لذنوبهم وستر لها، ولهم مع ذلك * (رزق كريم) * قال قتادة: الرزق الكريم الجنة. وقال غيره: هو الهنيء الذي ليس فيه تنغيص، ولا تكدير. ثم بين أن الذين يسعون في آيات الله وحججه * (معجزين) * له أي متعاونين مجاهدين في ابطال آياته * (أولئك لهم عذاب) * على ذلك * (من رجز اليم) * فمن جر * (اليم) * جعله صفة * (رجز) * والرجز هو الرجز، وقال قوم: هو شئ العذاب وقال آخرون:

هو العذاب. والرجز بضم الراء الصنم ومنه قوله * (والرجز فاهجر) * (١) وقال ابو عبيدة * (معجزين) * بمعنى سابقين و * (معجزين) * معناه مثبطين - في قول الزجاج. قوله تعالى:

* (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك

(١) سورة ٧٤ المدثر آية ٥ (*)

=====

(٣٧٦)

هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد (٦) وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد (٧) أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد (٨) أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب (٩) ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد (١٠) أن أعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير) * (١١) ست آيات.

قرأ حمزة والكسائي * (إن يشأ يخسف بهم) * بالياء كناية عن الله تعالى أنه إن شاء خسف. الباقون بالنون كناية على انه إخبار منه تعالى عن نفسه.

يقول الله تعالى مخبراً أن الذين أوتوا العلم والمعرفة بوحداية الله تعالى.

قال قتادة: هم أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) وقال غيره: يجوز أن يكون المراد كل من أوتي العلم بالدين، وهو الأولى، لأنه أعم * (الذي أنزل إليك من ربك) * يعني القرآن * (هو

(الحق) * ف * (الذي) * في موضع نصب بأنه المفعول ب * (يرى) * وقوله * (هو) *
فصل، ويسميه الكوفيون عمادا، قال الشاعر:

=====

(٣٧٧)

ليت الشباب هو الرجوع إلى الفتى * والشيب كان هو البدء الاول أنشده الكسائي على أن *
(هو) * الاول عماد والثاني اسم. و * (الحق) * هو الفعول الثاني، و * (يرى) * في الآية
بمعنى * (يعلم) * وموضعه يحتمل أن يكون نصبا عطفا على * (ليجزى) * ويحتمل ان
يكون رفعا بالاستئناف، وإيتاء العلم اعطاؤه إما بخلق العلم او بنصب الادلة المسببة له، فهو
لطف الله تعالى لهم بما أداهم إلى العلم، فكان كأنه قد أتاهم * (الذي أنزل اليك) * يعني
القرآن وما أنزله الله عليه من الاحكام يعلمونه حقا صحيحا لمعرفةهم بالله وآياته الدالة على
صدق نبيه * (ويهدي) * يعني القرآن ويرشد إلى * (صراط العزيز الحميد) * يعني إلى دين
الله القادر الذي لا يغالب، والحميد يعني المحمود على جميع أفعاله، وهو الله تعالى.

ثم حكى ان الكفار يقول بعضهم لبعض * (هل ندلكم على) * ونرشدكم إلى * (رجل ينبئكم)
* أي يخبركم * (إذا مزقتم كل ممزق) * أي مزقت أعضاؤكم بعد الموت، وصرتم ترابا
ورميما * (إنكم لفي خلق جديد) * ابتداء بأن لم يعمل فيها * (ينبئكم) * لانه لو أعمل فيها
لنصبها، يعيدكم ويحييكم، ويقولون: هذا على وجه الاستبعاد له والتعجب من هذا القول.
ومعنى * (مزقتم) * بليتيم وتقطعت أجسامكم. والعامل في (إذ) يقول - في قول الزجاج -
وتقديره هل ندلكم على رجل يقول لكم إنكم إذا مزقتم تبعثون، ويكون (إذا) بمعنى الجزاء
تعمل فيها التي تليها، قال قيس:

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها * خطانا إلى اعدائنا فنضارب والمعنى يكن وصلها، فلذلك
جزم فنضارب. وقيل العامل فيه معنى الجملة كأنه قيل: يجدد خلقكم، ولا يجوز أن يعمل فيه
ما بعد لام الابتداء، ولا ما

=====

(٣٧٨)

بعد ان لانها حروف لا تتصرف في نفسها ولا في معمولها. وقوله " أفترى على الله كذبا "
قال قوم: اسقط ألف الاستفهام من (أفترى) لدلالة (أم) عليه.

وقال الرماني: هذا غلط، لان الف الاستفهام لا تحذف إلا في ضرورة وإنما القراءة بقطع الالف، فألف الاستفهام ثابتة وألف (افتعل) سقطت، لأنها زائدة، ومثله قوله * (بيدي أستكبرت) * (١) وقوله * (أصطفى النبات) * (٢)

وقوله " سواء عليهم أستغفرت لهم " (٣) ونظائره كثيرة. ولم يفصل بينها بمدة لان الثانية مكسورة ففارق همزة " الله خير اما يشركون " (٤) ولو لم تقطع لكان خبرا بعده استفهام، والمعنى إن هؤلاء الكفار الذين يتعجبون من قول النبي (صلى الله عليه وآله) إن الله يعيد الخلق بعد امانتهم خلقا جديدا، هل كذب على الله متعمدا " أم به جنة " يعنون جنونا فيتكلم بما لا يعلم فقال الله تعالى ليس كما يقولون: " بل الذين لا يوقنون " أي لا يصدقون بالآخرة وبما فيها من الثواب والعقاب " في العذاب والضلال البعيد " يعني العدول البعيد عن الحق، فلذلك يقولون ما يقولون، بل نبههم على صحة ما يقول النبي (صلى الله عليه وآله) من الاعداء فقال " افلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض " فيفكروا فيه ويعتبروا به وإن الله تعالى خلقه واخترعه وأنه " ان نشأ نخسف بهم الارض " من تحت أرجلهم " او نسقط عليهم كسفا " يعني قطعة من السماء ثم قال " إن في ذلك لآية " ودلالة " لكل عبد منيب " أي راجع إلى الله تعالى. ووجه التنبيه بالآية أن ينظروا فيعلموا أن السماء تحيط بهم، والارض حاملة لهم، وفهم في قبضتنا " إن نشأ نخسف بهم الارض او نسقط عليهم السماء " أفما يحذرون

(١) سورة ٣٨ ص آية ٧٥ (٢) سورة ٣٧ الصفات آية ١٥٣ (٣) سورة ٦٣ المنافقون آية ٦ (٤) سورة ٢٧ النمل آية ٥٩ (*)

(٣٧٩)

هذا فيرتدعون عن التكذيب بآيات الله. و (المنيب) المقبل التائب - في قول قتادة - .
ثم اخبر تعالى فقال " ولقد آتينا داود " يعني أعطاه " منا فضلا " من عند الله. وقيل: معناه النبوة. وقيل: الزبور. وقيل: حسن الصوت. وقيل:
هو ما فسرته أي قلنا " يا جبال أوبي معه " ومعناه أنه نادى الجبال وأمرها بأن أوبي معه أي ارجعي بالتسبيح معه، قال الشاعر:

يومان يوم مقامات واندية * ويوم سير إلى الاعداء تأويب (١)

أي رجوع بعد رجوع. وقال ابن عباس ومجاهد وقاتدة والضحاك: أمر الله الجبال أن تسبح معه إذا سبح " والطير " في نصبه وجهان: أحدهما وسخرنا الطير والثاني - بالعطف على موضع المنادى الاول كما قال الشاعر:

ألا يا زيد والضحاك سيرا * - فقد جاوزتما حد الطريق - (٢)
والاول أقوى عندهم لان الحمل على لفظة المنادى أشكل. ويكون كقولهم (أطعمتها تبنا وماء باردا) أي وسقيتها.
وقيل معنى " أوبي " سيرى معه حيث شاء، وليس المعنى إن الله خاطب الجبال، وهي جماد بذلك، بل المراد أنه فعل في الجبال ما لو كانت حية قادرة لكان يتأني منها ذلك.
وقوله " وأنا له الحديد " قال قتادة: كان الحديد في يده مثل الشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار ولا تطريق. ثم قال وقلنا له " أن اعمل سابغات " وهي الدروع التامة والسابع التام من اللباس، ومنه اسباغ النعمة إتمامها، وثوب سابغ تام " وقدر في السرد " معناه لا تجعل الحلقة واسعة لا تقي صاحبها

(١ - ٢) تفسير الطبري ٢٢ / ٤١ (*)

=====

(٣٨٠)

وسرد الحديد نظمه. وقيل: السرد حلق الدرع - في قول ابن عباس وابن زيد - قال الشاعر:
اجاد السدي سردها وأدالها (١)
وقال قتادة: السرد المسامير التي في حلق الدرع، وهو مأخوذ من سرد الكلام سرده يسرده سردا إذا تابع بين بعض حروفه وبعض كالتابعة في الحلق والمسامير، ومنه السرد للطعام وغيره للاستتباع في خروج ما ليس منه، قال الشاعر:
وعليهما مسرودتان قضاهما * داود او صنع السوابغ تبع (٢)
ويقولون: درع مسرودة أي مسمورة الحلق. وقيل: معنى " وقدر في السرد " عدل المسمار في الحلقة لا يدق فينكسر او يغلظ فيفصم، ذكره مجاهد والحكم. " واعملوا صالحا " أمر لهم بأن يعملوا الاعمال الحسنة التي ليست قبيحة وما يكون بفعله مطيعا لله " إني بما تعملون بصير " أي عالم بما تفعلونه، لا يخفى عليه شئ من أعمالكم، فالبصير العليم بالامور بما يتبين في تميزه بعضه من بعض وكان الكسائي يدغم الفاء في الباء في قوله " ان نشأ نخسف بهم " وهذا لا يجوز عند البصريين، لان الفاء من باطن الشفة العليا، واطرف الثنايا العليا، والباء يخرج من بين الشفتين، ولان الفاء فيه نفس، فاذا أدغم في الباء بطل، وأيضا فهو من مخرج التاء، فكما لا يجوز ادغامه في التاء، فكذلك لا يجوز ادغامه في الباء، وأجاز ذلك الفراء. وأما إدغام التاء في الفاء، فلا خلاف فيه.

=====

(٣٨١)

قوله تعالى:

* (ولسليمن الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلناله عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير (١٢) يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور (١٣) فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين (١٤) لقد كان لسبا في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) * (١٥).

خمس آيات شامي، لانهم عدوا " عن يمين وشمال " وأربع في ما عداه، لانهم لم يعدوا ذلك. قرأ نافع " من سائه " بغير همز. الباقر " من سائه " بالهمزة. وقرأ الكسائي وحده " مسكنهم " بكسر الكاف. وقرأ حمزة بفتحها. الباقر (مساكنهم) على الجمع. ونصب الريح في قوله " ولسليمان الريح " على تقدير:

=====

(٣٨٢)

وسخرنا لسليمان الريح. وقرأ ابوبكر عن عاصم بضم الحاء، والمعنى في ذلك أنه اضاف الريح اليه إضافة الملك يصرفه كيف شاء. وقوله " غدوها شهر ورواحها شهر " قال قتادة: كان مسيرها به إلى منتصف النهار مقدار مسير شهر " ورواحها شهر " من منتصف النهار إلى الليل - في مقدار مسير شهر - وقال الحسن كان يغدو من الشام إلى بيت المقدس، فيقبل باصطخر من ارض اصبهان ويروح منها، فيكون بكابل.

وقوله " واسلنا له عين القطر " قال ابن عباس وقتادة: أدبنا له النحاس والقطر النحاس. ثم قال " ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه " أي بأمر الله " ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير " معناه من يعدل من هؤلاء الجن الذين سخرناهم لسليمان حتى يعملوا بين يديه عما أمرهم الله به من طاعته " نذقه من عذاب السعير " يعني عذاب النار تقول: زاغ يزيغ زياغاً وأزاعه إزاعاً.

ثم اخبر تعالى ان الجن الذين سخرهم الله لسليمان " يعملون له ما يشاء من محاريب " قيل: معناه شريف البيوت. وقال قتادة: قصور ومساجد، قال المير:

لا يسمى محرابا إلا ما يرتقى إليه بدرج، لقوله " إذ تسوروا المحراب " (١)
قال عدى بن زيد:

كدمي العاج في المحاريب أو كال * بيض في الروض زهره مستنير (٢)
وقال وضاح اليمى:

ربة محراب إذا جئتها * لم القها أو ارتقي سلما (٣)

(١) سورة ٣٨ ص آية ٢١ (٢) تفسير الطبري ٢٢ / ٤٣ / والقرطبي ١٤ / ٢٧١ (٣) مجاز القرآن ٢ / ١٤٤ (*)

=====

(٣٨٣)

" تماثيل " جمع تمثال وهو صورة. فبين أنهم كانوا يعملون أي صورة أرادها سليمان. وقال قوم: كانوا يعملون له صورة الملائكة. وقال آخرون: كانوا يعملون له صورة السباع والبهائم على كرسية ليكون أهيب له، فذكر أنهم صوروا أسدين وفوق عمودي الكرسي نسرين، فكان إذا أراد صعود الكرسي بسط له الأسد ذراعه، فاذا علا فوق الكرسي نشر النسران جناحيهما، فظللا عليه لئلا يسقط عليه شيء من الشمس، ويقال: إن ذلك ممالا يعرفه أحد من الناس، فلما حاول بخت نصر صعود الكرسي بعد سليمان حين غلب على بني إسرائيل لم يعرف كيف كان يصعد سليمان، فرفع الأسد ذراعه فضرب ساقه فقدها فوق مغشيا عليه، فما جسر أحد بعده أن يصعد على ذلك الكرسي.

" وجفان كالجواب " واحدها جفنة وهي القصعة الكبيرة، والجوابي جمع جابية، وهي الحوض الذي يجئ الماء فيه، قال ابو علي النحوي: إثبات الياء مع الالف واللام أجود، وحذفها يجوز، وقال الاعشى في جفنة:

تروح على آل المحلق جفنة * كجابية الشيخ العراقي تفهق (١)
وقال آخر:

فصبحت جابية صها و جا * كانه جلد السماء خارجا (٢)

وقال ابن عباس: الجوابي الحياض " وقدور راسيات " يعني عاليات ثابتات لا تنزل، ثم نادى آل داود وأمرهم بالشكر على ما أنعم عليهم من هذه النعمة العجيبة التي أنعم بها عليهم، لان نعمته على داود نعمة عليهم، فقال " اعملوا آل داود شكرا " ثم قال تعالى " وقليل من عبادي الشكور " أي من يشكر نعمي قليل، والاكثر يجحدون نعم الله لجهلهم به، وتركهم معرفته.

(٣٨٤)

ثم اخبر تعالى أنه لما قضى على سليمان الموت وقدره عليه وقبضه اليه لم يعلموا بذلك من حاله حتى دلهم على موته دابة الارض وهي الارضة، فأكلت عصاه فانكسرت، فوقع لانه روي أنه قبض وهو في الصلاة، وكان قال للجن اعملوا ما دمتم تروني قائماً، واتكأ على عصاه من قيام، وقبضه الله اليه وبقي مدة فيجئ الجن فيطالعونه فيرونه قائماً فيعودون فيعملون إلى أن دبت الارضة فاكلت عصاه فوقع وخر، فعملوا حينئذ موته وتبينت الجن أن لو كانوا يعلمون ما غاب عنهم من موت سليمان لم يلبثوا في العذاب الذي أهانهم وأذلهم والمنسأة العصا الكبيرة التي يسوق بها الراعي غنمه قال أبو عبيدة: معنى " تبينت الجن " أي أبانت الجن للناس " أن لو كانوا " الجن " يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين " والمنسأة أصلها الهمة من نسات إلى سقت، وقد يترك الهمز، قال الشاعر:

إذا دببت على المنسأة من هرم * فقد تباعد عنك اللهو والغزل (١)

إلا أنه يترك همزها، كما يترك في (البرية) وهي من برأت، وقيل: إنه كان متوكئاً على عصاه سنة لا يدرك أنه مات. وقيل: المعنى " فلما خر تبينت " جماعة من عوام " الجن " أغواهم مردتهم أن المتمردين " لو كانوا يعلمون الغيب " لانهم كانوا يقولون لهم نحن نعلم الغيب، وفي قراءة أهل البيت " فلما خر تبينت الانس أن لو كان الجن يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين " قالوا: لان الجن كانت تعلم أنها لا تعلم الغيب قبل ذلك. وإنما تبينت الانس ذلك من حال الجن.

ثم اخبر تعالى فقال " لقد كان لسبا في مسكنهم آية " أي دلالة وعلامة

(٣٨٥)

ف (سبأ) قيل: إنه ابو عرب اليمن كلها، فقد تسمى به القبيلة نحو هذه تميم. فمن قرأ على التوحيد، فلانه يدل على القليل والكثير. ومن جمع أراد المساكن المختلفة، والفرق بين فتح الكاف وبين كسرها في (مسكنهم) أن الفتح تقييد المصدر، والكسر تقييد الموضع، وقيل: إنهما لغتان في الموضع.

والآيتان قيل: إنهم لم يكن بينهما شئ من هوام الارض، نحو البق والبرغوث والعقرب وغير ذلك. وكان الغريب إذا دخل بلدهم وفي ثيابه قمل متن فهذه آية. والثانية أن المرأة كانت تأخذ على رأسها مكتلا فيمتلئ بالفواكه من غير أن تمس بيدها شيئاً، ثم فسر الآيتين فقال " جنتان " أي هي جنتان.

" عن يمين وشمال " قيل: عن يمين الوادي وشماله. " كلوا من رزق ربكم " أي كلوا من رزق الله الذي رزقكم في هاتين الجنتين، فلفظه لفظ الامر والمراد به الاباحة " واشكروا له " هذه النعمة التي انعم بها عليكم. ثم بين أن تلك الجنتين " بلدة طيبة " التربة. وقيل البلدة الطيبة صنعاء أرضها طيبة ليس فيها سبخة و " رب غفور ". قوله تعالى:

* (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل (١٦) ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور (١٧) وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير

=====

(٣٨٦)

سيروا فيها ليالي وأياما آمنين (١٨) فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور (١٩) ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) * (٢٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو " ذواتي أكل خمط " مضافا. الباقون " أكل خمط " منونا. والاختيار عندهم التتوين، لان الاكل نفس الخمط والشئ لا يضاف إلى نفسه، ومن أضاف قال (الخمط) هو جنس مخصوص من المأكولات، والاكل أشياء مختلفة فأضيفت إلى الخمط، كما تضاف الانواع إلى الاجناس، والخمط ثمر الاراك وهو البربر أيضا، واحدها بربرة وسميت به جارية عائشة. والبربر شجر السواك و (الاثل) شجر، واحدها أثلة.

وقرأ اهل الكوفة إلا أبا بكر " وهل نجازي " بالنون " إلا الكفور " نصبا أضافوا الفعل إلى الله تعالى. الباقون - بالياء - على ما لم يسم فاعله " الكفور " بالرفع، وقرأ أبو عمرو وابن كثير " بعد بين أسفارنا " بالتشديد من التبعيد. الباقون " باعد " من المباعدة على لفظ الامر، إلا يعقوب، فانه قرأ " باعد " على لفظ الخبر، لانهم لما سألوا أن يبعد الله بينهم، ففعل ذلك بينهم جاز حينئذ الاخبار بأنه تعالى فعل ذلك. وقرأ اهل الكوفة (ولقد صدق)

بتشديد الدال. الباقون بتخفيفها.

لما اخبر الله سبحانه عن " سبأ " وهي القبيلة من اليمن انه أنعم عليهم

=====

(٣٨٧)

بالجنتين وبالبلدة الطيبة، وأمرهم بشكر نعمه " فأعرضوا " عن ذلك، فلم يشكروه وكفروه ووجدوا نعمه، ولم يقبلوا ممن دعاهم إلى الله من أنبيائه ورسله جازاهم الله على ذلك بأن ارسل عليهم سيل العرم، وسلبهم تلك النعمة وانزل بهم البلية، فالسيل الماء الكثير الذي لا يمكن ضبطه ولا دفعه، وقيل: انه كانت تجتمع مياه وسيول في هذا الوادي فسدوه بين جبلين بالحجارة والقار وجعلوا له ابوابا يأخذون منه ما شاءوا، فلما تركوا أمر الله بعث عليهم جرذا فنقبه فأغرق الله عليهم جنتهم وأفسد ارضهم. وقيل: العرم: ماء كثير ارسله الله في السد فشقه وهدمه. قال الراجز:

اقبل سيل جاء من أمر الله * يجرّد حرد الجنة المغله (١)

وقيل: ان العرم المسناة التي تحبس الماء، واحدها عرمة وهو مأخوذ من عرامة الماء وهو ذهابه كل مذهب، قال الاعشى ! ففي ذاك للمؤتسي اسوة * ومأرب قفى عليه العرم رجام بنته لهم حمية * إذا جاء ماؤهم لم ترم (٢)

وقيل: كان سببه زيادة الماء حتى غرقوا. وقيل: كان سببه نقب جرذ نقب عليهم السكر. وقيل العرم السكر. وقيل المطر الشديد. وقيل هو اسم وادي وقيل: هو الجرذ الذي نقب السكر، قال كثير:

ايادي سبا يا عزما كنت بعدكم * فلم يحل للعينين بعدك منظر (٣)

وقال آخر:

من صادر او وارد ايدي سبا (٤)

(١) اللسان (غلل) (٢) تفسير الطبري ٢٢ / ٤٧ (٣) اللسان (صبأ) وروايته (منزل) بدل (منظر) (٤) اللسان (سبأ) (*)

=====

(٣٨٨)

وقال جرير:

الواردون وتتم في ذرى سبأ * قد عض اعناقهم جلد الجواميس (١)

ثم قال " وبدلناهم بجنتيهم " التي فيها أنواع الفواكه والخيرات " جنتين " أخرابين وسماها جنتين لازدواج الكلام، كما قال " ومكروا ومكر الله " (٢)

و " يخادعون الله وهو خادعهم " (٣) " ذواتي أكل خمط " أي صاحبتني خمط فالأكل جنبي الثمار الذي يؤكل، والخمط نبت قد أخذ طعما من المرارة حتى لا يمكن أكله - في قول الزجاج - وقال ابو عبيدة هو كل شجر ذي شوك.

وقال ابن عباس والحسن: هو شجر الاراك، وهو معروف. والائل الطرفا قال قتادة: بدلوا بخير الشجر شر الشجر، فالخمط شجر له ثمر مر. والائل ضرب من الخشب كالطرفا، إلا انه أكبر. وقيل: الائل النمر " وشئ من سدر قليل " أي فيهما مع الخمط، والائل قليل من السدر.

ثم قال " ذلك جزيناهم بما كفروا " في نعم الله " وهل نجازي " بهذا الجزاء " إلا الكفور " من كفر نعم الله، فمن قرأ بالنون فلقوله " جزيناهم ". ولا يمكن الاستدلال بذلك على أن مرتكب الكبيرة كافر من حيث هو معذب، لان الله تعالى بين أنه لا يجازي بهذا النوع من العذاب الذي هو الاستئصال إلا من هو كافر، وإن جاز أن يعذب الفاسق بغير ذلك من العذاب. وقال الفراء: المجازاة المكافأة، ومن الثواب الجزاء، تقول: جزاه على معصيته، وجزاه على طاعته.

وقال غيره: لا فرق بينهما.

ثم بين تعالى انه جعل بين سبأ، وبين القرى التي يارك فيها. قال قتادة

(١) مر تخريجه في ٦ / ٣٨٨ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤ (٣) سورة ٤ النساء آية ١٤١ (*)

=====

(٣٨٩)

ومجاهد: هي قرى الشام، وقال ابن عباس: هي بيت المقدس " قرى ظاهرة " قال قتادة: معناه متواصلة، لانه يظهر الثانية من الاولى لقربيها منها " و قدرنا فيها السير " معناه جعل بين القرية الاولى والثانية مسيرة يوم لراحة المسافرين ونزوله فيها " سيروا فيها ليالي وأياما آمنين " لا تخافون جوعا ولا عطشا ولا ظلما من أحد، كأنه قيل لهم سيروا كذا، فقالوا " ربنا باعد بين أسفارنا " معناه إنهم نظروا وملوا النعمة، فقالوا لو كان جنبي ثمارنا أبعد مما هي كان أجدر أن نشتهيها، كما قالت بنو إسرائيل " فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها " (١) بدلا من المن والسلوى " وظلموا أنفسهم " بارتكاب المعاصي " فجعلناهم أحاديث " فضررب بهم المثل فيقال (تفرقوا أيدي سبأ) أي تشتتوا أعظم التشتت قال الشعبي: أما غسان فلققوا بالشام، وأما الانصار فلققوا ببيثرب، وأما خزاعة فلققوا بتهامة، وأما الازد فلققوا بعمان. وقيل:

معنى " جعلناهم احاديث " أي اهلكتناهم والهمنا الناس حديثهم ليعتبروا " ومزقناهم كل ممزق " قال ابن عباس: مزقوا بين الشام وسبأ كل ممزق.

ثم قال تعالى " إن " في ما ذكر " لآيات " ودلالات " لكل صبار شكور " أي صبار على الشدائد شكور على النعماء.

ثم قال تعالى " ولقد صدق عليهم إبليس " صدق " ظنه " فيهم باجابتهم إلى معصية الله وقبولهم منه " فاتبعوه " باجمعهم " إلا فريقا من المؤمنين " العارفين بالله وبوحدانيته، فخالفوه فلم يتبعوه. فمن شدد (صدق) اسند الفعل إلى إبليس وجعل الظن المفعول به، لأن إبليس لما قال تظننا * (ولأمرنهم

(١) سورة ٢ البقرة آية ٦١ (*)

=====

(٣٩٠)

فليبتكن آذان الانعام) * (١) فلما تبعه قوم على ذلك صدق ظنه. ومن خفف فالمعنى مثله، لانهما لغتان يقال: صدقت زيدا وصدقته، وكذبت وكذبته وينشد:

وصدقنتي وكذبتني * والمرء ينفعه كذابه (٢)

وقرأ ابوالهجهاج * (إبليس) * بالنصب * (ظنه) * بالرفع جعل الظن الفاعل وإبليس المفعول به، وذلك جائز عند النحويين. لانهم يقولون: صدقني ظني وكذبني إلا انه شاذ لا يقرأ به، وقيل: ان إبليس لما اغوى آدم قال ذريته أولى بأن أغويهم، وقال * (لاحتكن ذريته إلا قليلا) * (٣) قصدك ذلك ظنه حتى تابعوه. وقال * (فوعزتكم لاغوينهم أجمعين) * (٤) وكانت أجابتهم له تصديقا لظنه.

قوله تعالى:

* (وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ (٢١)

قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير (٢٢) ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فرغ

(١) سورة ٤ النساء آية ١١٨ (٢) اللسان (صدق)

(٣) سورة ١٧ الاسرى آية ٦٢ (٤) سورة ٢٨ ص آية ٨٢ (*)

عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير (٢٣) قل من يرزقكم من السموات والارض قل الله وانا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين (٢٤) قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون) * (٢٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عمر وحمزة والكسائي وخلف، والاعشى والبرجي عن أبي بكر * (أذن له) * بضم الهمزة، الباقون بفتحها. وقرأ ابن عامر ويعقوب * (فزع) * بفتح الفاء والزاي. الباقون * (فزع) * بضم الفاء وكسر الزاي. فمن فتح الهمزة من * (أذن) * فمعناه أذن الله له، ومن ضمها جعله لما لم يسم فاعله، يقال:

أذنت للرجل في ما يفعله اي اعلمته وأذنته أيضا، وأذن زيد إلى عمرو، إذا استمع اليه. روي في الحديث ما أذن الله لشيء قط كأذنه لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن. ومثل ذلك القول في فزع عن قلوبهم، ومعنى فزع. قال ابو عبيدة: فزع عن قلوبهم نفس عنها. وقال ابو الحسن: المعنى حكى عنها. وقال ابو عبيدة: معناه أذهب، وقال قوم: الذين فزع عن قلوبهم الملائكة، ويقال:

فزع وفزع إذا أزيل الفزع عنها، ومثله جاء في (افعل) يقولون: أشكاه إذا زال عنه ما يشكو منه انشد ابوزيد:

تمد بالاعناق او تلويها * وتشتكي لو أننا نشكيها (١)

والمعنى فلما ان اشكيت أزال الشكوى، كذلك فزع وفزع أزال الفزع وقال قتادة: معنى فزع عن قلوبهم خلا من قلوبهم، قال يوحى الله تعالى إلى

(١) اللسان (شكا) وروايته (تثنيها) بدل (تلويها) (*)

جبرائيل فيعرف الملائكة، ويفزع عن أن يكون شيء من امر الساعة، فاذا * (خلا عن قلوبهم) * وعلموا أن ذلك ليس من امر الساعة * (قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق) * وتقديره قالوا قال الحق. فمن قرأ بفتح الفاء أسند الفعل إلى الله، ومن ضمها بنى الفعل للمفعول به، وكان الجار والمجرور في موضع رفع. وقال الحسن: فزع بمعنى كشف الفزع عن قلوبهم، وفزعت منه، والمفزع على ضربين: احدهما - من ينزل به الافزاع. الثاني - من يكشف عنه الفزع. وقوله * (وفزع) * له معنيان احدهما بمعنى ذعر، والثاني - ازال الفزع وقال اليربوعي:

حللنا الكثيب من زرود لنفرعا أي لنغيث. لما اخبر الله تعالى ان إبليس صدق ظنه في الكفار باجابتهم له إلى ما دعاهم اليه من المعاصي بين انه لم يكن لابليس عليهم سلطان. و (من) زائدة تدخل مع النفي نحو قولهم ما جاعني من احد. والسلطان الحجة، فبين بهذا ان الشيطان لم يقدر على اكثر من أن يغويهم ويوسوس اليهم ويزين لهم المعاصي، ويحرضهم عليها. وقوله * (إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) * تقديره إنا لم نمكنه من اغوائهم ووسوستهم إلا لنميز من يقبل منهم ومن يمتنع ويأبى متابعتة، فنعذب من تابعه ونثيب من خالفه، فعبر عن تمييزه بين الفريقين بالعلم، وهو التمييز مجردا، لانه لا يكون العذاب والثواب إلا بعد وقوع ما يستحقون به ذلك، فأما العلم، فالله تعالى عالم بأحوالهم، وما يكون منها في ما لم يزل، وقيل: إن معناه إلا لنعلم طاعاتهم موجودة او عصيائهم إن عصوا فنجاز بهم بحسبها، لانه تعالى لا يجازي احدا على ما يعلم من حاله إلا بعد ان يقع منهم ما يستحق به من ثواب او عقاب، وقيل: معناه إلا لنعامل معاملة

=====

(٣٩٣)

من كأنه لا يعلم، وانم نعمل لنعلم * (من يؤمن بالآخرة) * أي من يصدق بها ويعترف ممن يشك فيها ويرتاب.

ثم قال * (وربك) * يا محمد * (على كل شئ حفيظ) * أي رقيب عالم لا يفوته علم شئ من أحوالهم من ايمانهم وكفرهم او شكهم. ثم أمر نبيه (صلى الله عليه وآله) بأن يقول لهؤلاء الكفار * (ادعوا الذين زعمتم من دون الله) * أنهم آلهة ومعبود، هل يستجيبون لكم؟ إلى ما تسألونهم، لانه لا يستحق العبادة إلا من كان قادرا على إجابة من يدعوه. ثم اخبر تعالى عنها فقال * (لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيها من شرك) * يعني وما لله في السموات والارض شريك * (وماله منهم من ظهير) * أي معاون، والملك هو القدرة على ما للقاد عليه التصرف فيه، وليس لاحد منعه منه، وذلك - في الحقيقة - لا يستحق الوصف به مطلقا إلا الله، لان كل من عداه يجوز أن يمنع على وجه.

ثم اخبر تعالى فقال * (ولا تتفع الشفاعة عنده) * أي عند الله * (إلا لمن اذن) * الله * (له) * في الشفاعة من الملائكة والنبیین والائمة والمؤمنين، لانهم كانوا يقولون: نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، فحكم الله تعالى ببطلان ذلك. وقوله * (حتى إذا فزع عن قلوبهم) * قال ابن عباس وقتادة: حتى إذا خلى عن قلوبهم الفزع، كقولك رغب عنه أي رفعت الرغبة عنه فلا يرغب، بخلاف رغب فيه، ففي أحد الامرين وضع وفي الآخر رفع. وقيل: هم الملائكة يلحقهم غشى عن سماع الوحي من الله بالآية العظيمة، فاذا * (فزع عن قلوبهم) * أي خلى

عنها * (قالوا ماذا قال ربكم) * - ذكره ابن مسعود ومسروق وابن عباس في رواية - وقال الحسن: حتى إذا كنف عن قلوب المشركين الفرع، قالت

=====

(٣٩٤)

الملائكة * (ماذا قال ربكم) * في الدنيا * (قالوا) * قال * (الحق وهو العلي الكبير) * اي الله تعالى المستعلي على الاشياء بقدرته، لا من علو المكان * (الكبير) * في اوصافه دون ذاته، لان كبر الذات من صفات الاجسام. ثم قال له * (قل) * لهم * (من يرزقكم من السموات والارض) * فانهم لا يمكنهم ان يقولوا يرزقنا آلهتنا التي نعبدها ف " قل " لهم عند ذلك الذي يرزقكم * (الله) * وقل * (وانا او اياكم لعلى هدى او في ضلال مبين) * وقيل: إنما قال * (وانا او اياكم) * على وجه الانصاف في الحجاج دون الشك، كما يقول القائل لغيره: احدنا كاذب، وإن كان هو عالما بالكاذب، وعلى هذا قال ابو الاسود الدؤلي يمدح اهل البيت:

يقول الاردلون بنو قشير * طوال الدهر ما تنسى عليا احب محمدا حبا شديدا * وعباسا وحمزة والوصيا بنو عم النبي وأقربوه * احب الناس كلهم اليا فان بك حبهم رشدا أصبه * ولست بمخطئ ان كان غيا (١)

ولم يقل هذا مع أنه كان شاكا في محبتهم، وانه هدى وطاعة، وقال اكثر المفسرين: إن معناه إنا لعلى هدى وإياكم لعلى ضلال وقال ابو عبيدة (او) بمعنى الواو، كما قال الاعشى:

اتغلبة الفوارس او رياحا * عدلت بهم طهية والحشايا (٢)

بمعنى تغلبة ورياحا ثم قال * (قل) * لهم يا محمد * (لا تسألون) * معاشر الكفار * (عما اجرنا) * اي عما اقترفناه من المعاصي * (ولا نسأل) * نحن ايضا * (عما تعملون) * انتم بل كل إنسان يسأل عما يعمله، وهو يجازى على أي فعل فعله دون غيره.

(١) تفسير الطبرى ٢٢ / ٥٧ (٢) مجاز القرآن ٢ / ١٤٨ (*)

=====

(٣٩٥)

وتقدير قوله " ولا تتفع الشفاعة عنده إلا لمن أنن له " ان يشفع له، فزرع بسماعه أذنه حتى إذا فزرع عن قلوبهم وخلي عنها وكشف الفرع عنهم قالوا ماذا قال ربكم قالت الملائكة قال الحق وهو العلي الكبير.

قوله تعالى:

* (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتح العليم (٢٦) قل أروني الذين ألحقتهم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم (٢٧) وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٢٨) ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٢٩) قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون (٣٠) خمس آيات بلا خلاف.

لما امر الله تعالى نبيه ان يخاطب الكفار ويقول لهم ان كل إنسان يسئل عما عمله دون ما عمل غيره، قال له ايضا * (قل) * لهم * (يجمع بيننا ربنا) * يوم القيامة * (ثم يفتح بيننا) * اي يحكم والفتح الحكم، والفتح الحاكم بالحق، لا بالظلم * (وهو الفتح) * أي الحاكم * (العليم) * بما يحكم به لا يخفى عليه شئ منه.

ثم قال * (قل أروني الذين ألحقتهم به شركاء) * تعبدونهم معه وتشركون بينهم في العبادة على وجه التوبيخ لهم في ما اعتقدوه من الاثراك مع الله، كما يقول القائل لمن أفسد عملا: ارني ما عملته توبيخا له بما افسده، فانهم سيفتضحون بذلك إذا اشاروا إلى الاصنام والاوثنان ويضمونها إلى الله ويشركون بينهما في

=====

(٣٩٦)

العبادة فقال تعالى * (كلا) * ومعناه الردع والتنبيه أي ارتدعوا عن هذا القول وتنبهوا عن ضلالكم * (بل هو الله) * الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له * (العزيز) * يعني القادر الذي لا يغالب * (الحكيم) * في جميع افعاله. وقيل * (العزيز) * في انتقامه ممن كفر به * (الحكيم) * في تدبيره لخلقه، فكيف يكون له شريك في ملكه.

ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) * (وما أرسلناك) * يا محمد بالرسالة التي حملناكها * (إلا كافة) * ومعناه أرسلناك إلى الخلق كافة بأجمعهم. وقيل: معناه إلا مانعا لهم وكافا لهم من الشرك ودخلت الهاء للمبالغة * (للناس بشيرا) * لهم بالجنة اي مبشرا بها * (ونذيرا) * أي مخوفا بالنار * (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) * صدق قولك وإنك رسول اليهم، لتقريطهم في النظر في معجزك.

ثم حكى عن الكفار انهم يستبطنون العذاب الذي يخوفهم به النبي (صلى الله عليه وآله) والمؤمنون، فانهم كانوا يحذرونهم نزول العذاب عليهم * (ويقولون متى هذا الوعد) * الذي تعدونا به * (إن كنتم صادقين) * في ما تقولونه معاشر المؤمنين ثم امره ان يقول لهم في الجواب عن ذلك * (قل لكم ميعاد يوم) * ينزل عليكم ما وعدتم به من الثواب والعقاب * (لا تستأخرون

عنه ساعة) * أي لا تؤخرون من ذلك اليوم لحظة * (ولا تستقدمون) * عليه، وهو يوم القيامة.

قوله تعالى:

وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى

=====

(٣٩٧)

بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكانا مؤمنين (٣١) قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين (٣٢) وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون (٣٣) وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون (٣٤) وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين (٣٥) خمس آيات بلا خلاف. حكى الله تعالى عن الكفار أنهم يقولون لن نصدق بهذا القرآن الذي أنزل عليك وتدعيه انه من عند الله ولا بالذي بين يدي القرآن من أمر الآخرة والنشأة الثانية، فجددوا أن يكون القرآن من الله أو أن يكون لما دل عليه من الاعداء للجزاء حقيقة. وقيل: معناه الكتب التي قبله من التوراة والانجيل وغيرهما.

ثم قال " ولو ترى " يا محمد " إذ " أي حين " الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول " أي يرد بعضهم على بعض " يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا " قيل: كانوا رؤساء الضلالة يأمرون الاتباع بعبادة الاوثان لضعفهم عن استخراج صواب الرأي عند أنفسهم،

=====

(٣٩٨)

فالاستضعاف طلب الضعف فكل من يجاهر غيره بما يقتضي ضعفه يقال قد استضعفه، والاستكبار طلب الكبر بغير حق، وكانوا يتعظمون هؤلاء الكفار بالجهل الذي صمموا عليه وصاروا رؤساء فيه ليحققهم به " لولا أنتم لكانا مؤمنين " لكن بسببكم يمنع، فهؤلاء إذا أخبروا عن ظنهم، فقد صدقوا كأنهم قالوا في ما نظن، لانه هكذا يقتضي ظاهر خبرهم، كما إذا أخبروا عما يفعلونه في المستقبل، فهو اخبار عن عزمهم، ولو كان كذبا لانكر الله ذلك واتبعه

بما يدل على انكاره، كما قال " انظر كيف كذبوا على انفسهم " (١) ثم حكى ما أجابهم به المستكبرون فانهم يقولون في جوابهم " أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم "؟ ! منكرين عليهم قولهم انهم منعوهم من الايمان بعد تبين الحق فيه، وليس الامر على ما تقولونه " بل كنتم " أنتم " مجرمين " ثم حكى تعالى ما يقول الذين استضعفوا فانهم يقولون " بل مكر الليل والنهار " معناه مكركم في الليل والنهار - في قول الحسن - كما قال الشاعر:

لقد لمتنا يا ام غيلان في السرى * ونمت وما ليل المطي بنائم (٢)

أي بنائم فيه. وقيل: كأن الليل والنهار يمكران بطول السلامة فيهما.

و (المترف) المنعم البطر بالنعمة " إذ تأمرونا " أي حين تأمرونا " أن نكفر بالله " أي ان نجدد بالله " ونجعل له اندادا " أي امثالا في العبادة " واسروا الندامة " أي اخفوا الندامة بينهم " لما رأوا العذاب " نزل بهم، ولام بعضهم بعضا. وقال الجبائي: معناه اظهروا الندامة، قال: وهذا مشترك. وهذا غلط، لان لفظة الاخفاء هي المشتركة دون لفظ الاسرار، فحمل أحدهما على الآخر قياس في اللغة " وجعلنا الاغلال في اعناق الذين كفروا " الاغلال جمع غل والله

(١) سورة ٦ الانعام آية ٢٤ (٢) مر تخريجه في ٥ / ٦٤٥ (*)

=====

(٣٩٩)

تعالى يجعل الغل في رقاب الكفار عقوبة لهم.

ثم قال موبخا لهم " هل يجزون إلا ما كانوا يعملون " أي يجزون على قدر استحقاقهم لا يجازفون، فلفظه لفظ الاستفهام والمراد به النفي، فكأنه قال:

لا يجزون إلا على قدر اعمالهم التي عملوها.

ثم اخبر تعالى انه ما يرسل في قرية نذيرا أي مخوفا بالله في ما مضى إلا إذا سمع أهلها المترفون منهم المنعمون " قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون " أي جاحدون، ثم حكى بأنهم " قالوا نحن اكثر أموالا واولادا " منكم " وما نحن بمعذبين " على ما تقولونه، لانه لو أراد عقابنا لما أنعم علينا في الدنيا وجعلنا أغنياء وجعلهم فقراء، فقال الله تعالى ردا عليهم " قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر " .

قوله تعالى:

* (قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٣٦) وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون (٣٧) والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب

محضرون (٣٨) قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين (٣٩) ويوم يحشرهم

=====

(٤٠٠)

جميعا ثم يقول للملئكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * (٤٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة وحده " وهم في الغرفة آمنون " لقوله تعالى " أولئك يجزون الغرفة بما صبروا " (١) وفي الجنة غرفات وغرف، غير أن العرب تجتزئ بالواحد عن الجماعة إذا كان اسم جنس كما قالوا: اهلك الناس الدينار والدرهم. الباقون على الجمع " غرفات " على وزن (ظلمة، وظلمات) وحجتهم " لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف " (٢).

لما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا: إن الله لا يعذبنا على ما تقولونه لأنه أغنانا في دار الدنيا، ولم يجعلنا فقراء، فكذلك لا يعذبنا في الآخرة، قال الله ردا عليهم " قل " لهم يا محمد " إن ربي " الذي خلقتني " يبسط الرزق " أي يوسع الرزق لمن يشاء على حسب ما يعلم من مصلحته ومصلحة غيره " ويقدر " أي يضيق. وهو مثل قوله " الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر " (٣) أي يوسع ويضيق، ومنه قوله " ومن قدر عليه رزقه " (٤)

أي ضيق، وعلى هذا: يحتمل قوله " فظن أن لن نقدر عليه " (٥) أي لن نضيق عليه، فبسط الرزق هو الزيادة فيه على قدر الكفاية، والقدر تضيقه على قدر الكفاية. ثم قال " ولكن أكثر الناس لا يعلمون " ما قلناه لجهلهم بالله وبحكمته.

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٧٥ (٢) سورة ٣٩ الزمر آية ٢٠ (٣) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٦٢ (٤) سورة ٦٥ الطلاق آية ٧ (٥) سورة ٢١ الانبياء آية ٨٧ (*)

=====

(٤٠١)

ثم قال تعالى " وما أموالكم " أي ليس أموالكم التي خولتموها " وأولادكم " التي رزقتموها " بالتي تقرّبكم عندنا زلفى " قال الفراء: (التي) يجوز أن يقع على الأموال والأولاد، لأن الأولاد يعبر عنها ب (التي)، وقال غيره: جاء الخبر بلفظ أحدهما - وإن دخل فيه الآخر، ولو قال بالذي يقربكم لكان جائزا و (زلفى) قربي، وإنما يقربكم إليه تعالى أفعالكم الجميلة وطاعته الحسنة. ثم قال " إلا من آمن وعمل صالحا " معناه، لكن من آمن بالله وعرفه وصدق نبيه

وعمل الصالحات التي أمره بها، وانتهى عن القبائح التي نهاه عنها، فان لهؤلاء " جزاء الضعف بما عملوا " ومعناه انه تعالى يجازيهم أضعاف ما عملوا، فانه يعطي بالواحد عشرة، والضعف من الأضعاف، لانه اسم جنس يدل على القليل والكثير. ويجوز في اعراب (جزاء) أربعة أوجه: الرفع والنصب بالنتوين وتركه. وفي (الضعف) ثلاثة أوجه: الجر والنصب والرفع إلا أن القراءة بوجه واحد وهو رفع (جزاء) على الاضافة بلا تنوين، وجر " الضعف " بالاضافة اليه. ثم قال إن هؤلاء مع أن لهم جزاء الضعف على ما عملوه " هم في الغرفات " جمع غرفة وهي العلية " آمنون " فيها لا يخافون شيئاً مما يخاف مثله في دار الدنيا. ثم قال " والذين يسعون في آياتنا معاجزين " أي مسابقين: في من قرأه بألف. ومثبطين غيرهم عن افعال الخير عند من قرأه بغير ألف " أولئك في العذاب محضرون " أي يحصلون في عذاب النار. ثم قال " قل " يا محمد " إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء " أي يوسعه " ويقدر " أي يضيقه لمن يشاء. وإنما كرر قوله " قل إن ربي يبسط الرزق "

=====

(٤٠٢)

لاختلاف الفائدة، لان الاول على معنى إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر من غير أن يعلم اكثر الناس لم فعل ذلك، والثاني - بمعنى أن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له على أن ما انفقه في ابواب البر فانه يخلفه عليه وهو قوله " وما انفقتم من شئ فهو يخلفه " أي يعطيكم عوضه، وليس المراد ان يخلف في دار الدنيا على كل حال، لان الله يفعل ذلك بحسب المصلحة، وإنما أراد انه يعوض عليه إما في الدنيا بأن يخلف بدله او يثيب عليه " وهو خير الرازقين " أي الله تعالى خير من يرزق غيره، لانه يقال: رزق السلطان الجند، ثم قال * (ويوم يحشرهم جميعاً) * يعني يوم القيامة الذي يبعث الله فيه الخلائق * (ثم يقول للملائكة) * الذين عبدتهم جماعة من الكفار * (اهؤلاء) * يعني الكفار الذين عبدوهم * (إياكم كانوا يعبدون) * على وجه التقرير لهم وإن كان بلفظ الاستفهام، كما قال لعيسى * (أأنت قلت للناس اتخذوني وامي إلهين من دون الله) * (١) وقرأ حفص * (ويوم يحشرهم ثم يقول) * بالياء رداً على قوله * (قل إن ربي) * الباقيون بالنون على الجمع. قوله تعالى:

* (قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون (٤١) فالיום لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم

(١) سورة ٥ المائدة آية ١١٩ (*)

(٤٠٣)

بها تكذبون (٤٢) وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين (٤٣) وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير (٤٤) وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير) * (٤٥) خمس آيات بلا خلاف.

لما حكى الله تعالى انه يقول للملائكة إن هؤلاء الكفار إياكم كانوا يوجهون عبادتهم، حكى ما يجيب به الملائكة، فانهم يقولون * (سبحانك أنت ولينا) * تنزيها لك أن نعبد سواك، وتتخذ معك معبودا غيرك، ويقولون: أنت يا ربنا ولينا أي ناصرنا وأولى بنا * (من دونهم) * يعني دون هؤلاء الكفار ودون كل احد وأنت الذي تقدر على ذلك من دونهم، فما كنا نرضى بعبادتهم مع علمنا بأنك ربنا وربهم، ما أمرناهم بهذا ولا رضينا به لهم " بل كانوا يعبدون الجن " بطاعتهم إياهم في ما يدعونهم اليه من عبادة الملائكة. وقيل: انهم صوروا لهم صورة قوم من الجن، وقالوا هذه صورة الملائكة فاعبدوها، وهم وإن عبدوا الملائكة، فان الملائكة لم يرضوا بعبادتهم إياهم ولا دعوهم اليها، والجن دعوهم إلى عبادتهم ورضوا به منهم فتوجه الذم إلى العابد والمعبود، وفي الملائكة لا يستحق الذم غير العابد، فلذلك أضرب عن ذكر الملائكة.

(٤٠٤)

ثم حكى تعالى ما يقول للكفار يوم القيامة، فانه يقول لهم " فالיום لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا " ولا يقدر على ذلك " ونقول للذين ظلموا " نفوسهم بارتكاب المعاصي ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون " أي تجحدونه، ولا تعترفون به. ثم عاد تعالى إلى الحكاية عن حال الكفار في الدنيا فقال " وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات " أي تقرأ عليهم حججنا واضحات من القرآن الذي أنزله على نبيه " قالوا " عند ذلك " ما هذا إلا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد آباؤكم " أي يمنعكم عن عبادة ما كان يعبد آباؤكم " وقالوا " أيضا " ما هذا " القرآن " إلا إفك

مفتري " يعني كذب تخرصه وافتراه " وقال الذين كفروا للحق " يعني القرآن " لما جاءهم إن هذا " أي ليس هذا " إلا سحر مبين " أي ظاهر. والسحر حيلة خفية توهم المعجزة. ثم قال تعالى " وما آتيناهم من كتب يدرسونها " قال الحسن: معناه ما آتيناهم من كتب قبل هذا الكتاب، فصدقوا به وبما فيه ان هذا كما زعموا " وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير " ويجوز ان يكون المراد وما أرسلنا اليهم قبلك يا محمد من نذير إلا وفعلوا به وقالوا له مثل ما قالوا لك، وحذف لدلالة الكلام عليه، وذلك عليه بقوله " وكذب الذين من قبلهم " بما أتاهم الله من الكتب، وبما بعث اليهم من الرسل " وما بلغوا " أي وما بلغ هؤلاء * (معشار ما آتيناهم) * أولئك الكفار، قال الحسن: معنى معشار أي عشر، والمعنى ما بلغ الذين ارسل اليهم محمد (صلى الله عليه وآله) من اهل مكة عشر ما اوتي الامم قبلهم من القوة والعدة - في قول ابن عباس وقتادة - * (فكذبوا رسلي) * أي كذبوا بآيات الله وجحدوا رسله * (فكيف كان نكير) * أي عقوبتي وتغييري لأن الله أهلكتهم واستأصلهم وهو نكير الله تعالى في الدنيا.

=====

(٤٠٥)

قوله تعالى:

* (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادي ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد (٤٦) قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد (٤٧) قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب (٤٨) قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد (٤٩)

قل إن ضللت فانما أضل على نفسي وإن اهتديت فيما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب) * (٥٠) خمس آيات بلا خلاف.

هذا امر من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول للكفار * (إنما أعظكم بواحدة..)* والمعنى يكفيني منكم أن يقوم الرجل وحده أو هو وغيره ثم تتساءلون هل جربنا على محمد كذبا او هل رأينا به جنة؟! ففي ذلك دلالة على بطلان ما أنتم عليه وما ذكرتم فيه، فالوعظ الدعاء إلى ما ينبغي أن يرغب في ما ينبغي أن يجوز منه مما يلين القلب إلى الاستجابة للحق بالنبي (صلى الله عليه وآله) والنبي اجل وأعظم واكبر داع بما اعطاه الله من الحكمة.

وقوله * (مثنى وفرادى) * معناه ان تقوموا اثنين اثنين، وواحدا واحدا ليذاكر أحدهما صاحبه، فيستعين برأيه على هذا الامر. ثم يجول بفكرته حتى يكرره حتى يتبين له الحق من الباطل وبني * (مثنى) * وإن لم يكن صفة لانه مما

=====

(٤٠٦)

يصلح ان يوحد، كما قال تعالى * (أولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع) * (١) وهو - ههنا - في موضع حال، وقال مجاهد في قوله * (اعظكم بواحدة) * أي بطاعة الله تعالى وقال غيره (بواحدة) بتوحيد الله خصلة واحدة، فقولوا: لا إله إلا الله.

وقوله * (ثم تتفكروا ما بصاحبكم) * في موضع نصب عطفاً على * (أن تقوموا لله) * وتتفكروا أي وتتنظروا وتعتبروا، ليس بصاحبكم يعني محمداً (صلى الله عليه وآله) * (من جنة) * أي جنون، لانهم كانوا ينسبونهم إلى الجنون وحاشاه من ذلك.

ثم بين انه ليس * (إلا نذير) * إي مخوف من معاصي الله وترك طاعته * (بين يدي عذاب شديد) * يعني عذاب القيامة. ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) يا محمد * (قل) * لهم * (ما سألتكم من أجر فهو لكم) * وليس * (اجري إلا على الله) * والمعنى أني ابلغكم الرسالة، ولا اجر إلى نفسي عرضاً من اعراض الدنيا بل ثمرة ذلك لكم، وليس أجري إلا على الله.

وقال ابن عباس * (من أجر) * اي من مودة، لان النبي (صلى الله عليه وآله) سأل قريشاً أن يكفوا عن أذاه حتى يبلغ رسالات ربه * (وهو على كل شئ شهيد) * أي عالم به. ثم قال أيضاً * (قل) * لهم يا محمد * (إن ربي يقذف بالحق) * أي يلقيه على الباطل، كما قال تعالى * (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه) * (٢) * (علام الغيوب) * إنما رفع بتقدير هو علام الغيوب، ولو نصب على انه نعت ل (ربي)

لكان جائزاً، لكن هذا اجود، لانه جاء بعد تمام الكلام كقوله * (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) * (٣) والمعنى انه عالم بجميع ما غاب عن جميع الخلائق علمه.

(١) سورة فاطر آية ١ (٢) سورة الانبياء آية ١٨ (٣) سورة ٣٨ ص آية ٦٤ (*)

=====

(٤٠٧)

ثم أمره (صلى الله عليه وآله) أن يقول لهم قد * (جاء الحق) * يعني أمر الله بالاسلام والتوحيد * (وما يبدئ الباطل وما يعيد) * لان الحق إذا جاء اذهب الباطل فلم يبق له بقية يبدئ بها ولا يعيد. وقال قتادة: الباطل إبليس لا يبدؤ الخلق ولا يعيدهم. وقيل: إن المراد به كل معبود من دون الله بهذه الصفة. وقال الحسن: وما يبدئ الباطل لاهله خيراً ولا يعيد بخير في الآخرة.

ثم قال * (قل) * لهم * (إن ضللت) أي ان عدلت عن الحق * (فانما اضل على نفسي) *
لان ضرره يعود علي، لاني أوأخذ به دون غيري * (وإن اهتديت) * إلى الحق * (فبما
يوحي الي ربي إنه سميع قريب) * أي يسمع دعاء من يدعوه قريب إلى إجابته.
وفي الآية دلالة على فساد قول المجبرة، لانه قال * (إن ضللت) * فأضاف الضلال إلى
نفسه، ولم يقل فبقضاء ربي وإرادته.

قال الزجاج: وما يبدئ الباطل أي اي شئ يبدئ الباطل؟ وأي شئ يعيد؟ ويجوز ان تكون (ما)
نافية، والمعنى وليس يبدئ ابليس ولا يعيد.

قوله تعالى:

* (ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب (٥١))

وقالوا آمنة به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد (٥٢) وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيث
من مكان بعيد (٥٣) وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياهم من قبل إنهم كانوا في
شك مريب) * (٥٤) أربع آيات بلا خلاف.

=====

(٤٠٨)

قرأ حمزة والكسائي وابوعمر * (التناوش) * بالهمز. الباقر بغير همز.
يقول الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) * (ولو ترى) * يا محمد * (إذ فرعوا) * من العذاب
يوم القيامة * (فلا فوت) * أي لا مهرب ولا يفوتونه. فالفوت خروج وقت الشئ كفوت
الصلاة، وفوت وقت التوبة وفوت عمل اليوم بانقضائه.
والفرع والجزع والخوف والرعب واحد. والفرع يتعاضم في الشدة بحسب اسبابه وقوله *
(وأخذوا من مكان قريب) * قال ابن عباس والضحاك: أخذوا من عذاب الدنيا. وقال الحسن:
حين يخرجون من قبورهم. وقيل: من بطن الارض إلى ظهرها. والمعنى انهم اذا بعثوا من
قبورهم، ولو ترى فرعهم يا محمد حين لا فوت ولا ملجأ. وجواب (لو) محذوف، والتقدير
لرأيت ما تعتبر به عبرة عظيمة. وقوله * (وقالوا آمنابه) * أي يقولون ذلك الوقت آمنابه
وصدقنا به. فقال تعالى * (وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) * قيل: معناه بفوتهم تناول التوبة
في الآخرة إلى الدنيا، والتناوش تناول من قولهم نشته أنوشه اذا تناولته من قريب قال
الشاعر:

فهي تتوش الحوض نوشا من علا * نوشا به تقطع اجواز الفلا (١)

وتتأوش القوم اذا دنا بعضهم إلى بعض، ولم يلتحم بينهم قتال، وقد همز بعضهم، فيجوز أن يكون من هذا، لان الواو اذا انضمت همزت كقوله * (أقتت) * (٢) ويجوز أن يكون من النش وهو الإبطاء، وانتاشه اخذ به من مكان بعيد، ومثله نأشه قال الشاعر:

تمنى نئيشا أن يكون اطاعني * وقد حدثت بعد الامور امور (٣)

(١) تفسير الطبري ٢٢ / ٦٥ (٢) سورة ٧٧ المرسلات آية ١١ (٣) تفسير القرطبي ١٤ / ٣١٧ (*)

=====

(٤٠٩)

وقال رؤبة:

اقموني جارابي الجاموش * اليك نأش القدر المنوش (١)
* (وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) * معناه كيف تقبل توبتهم أو يردون إلى الدنيا، وقد كفروا بالله ورسله من قبل ذلك، وهو قوله * (بالغيب من مكان بعيد) * يعني قولهم هو ساحر وهو شاعر وهو مجنون.

وقيل: هو قولهم لا بعث ولا جنة ولا نار - ذكره قتادة - وقال البلخي: يجوز ان يكون اراد انهم يفعلون ذلك بحجة داحضة وأمر بعيد. وقال قوم:

يقذفون بالظن ان التوبة تنفعهم يوم القيامة عن مكان بعيد الا ان في العقل انها لا تقبل. ثم قال * (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) * أي فرق بينهم وبين شهواتهم، من قبول توبتهم وايصالهم إلى ثواب الجنة أو ردهم إلى دار الدنيا * (كما فعل) * مثل ذلك * (باشياعهم من قبل) * وهو جمع الجمع تقول شيعة وشيع واشياع، ولان أشياعهم تمنوا أيضا مثل ذلك فحيل بينهم وبين تمنيتهم، ثم اخبر * (انهم كانوا في شك من ذلك) * في الدنيا * (مريب) * والريب أقبح الشك الذي يرتاب به الناس.

وقال سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير قوله " ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت " نزلت في الجيش الذي يخسف بهم بالبيداء فيبقى رجل يخبر الناس بما رآه، ورواه حذيفة عن النبي (صلى الله عليه وآله)

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٥١ (*)

(٤١٠)

٣٥ - سورة فاطر مكية في قول مجاهد وقتادة: لا ناسخ فيها ولا منسوخ، وبه قال الحسن إلا آيتين قوله " إن الذين يتلون كتاب الله " إلى قوله " الفضل الكبير " وهي خمس وأربعون آية عراقي وحجازي إلا اسماعيل. وست وأربعون في عدد اسماعيل والشاميين.

بسم الله الرحمن الرحيم * (أحمد لله فاطر السموات والارض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شئ قدير (١) ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يممسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم (٢) يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون (٣) وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك



(٤١١)

وإلى الله ترجع الامور (٤) يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) * (٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي " هل من خالق غير الله " جراً على أنه صفة ل (خالق) الباقون - بالرفع - على تقدير هل من خالق هو غير الله، ويجوز ان يكون التقدير: هل غير الله من خالق، ويجوز أن يكون رفعا على موضع (من) وتقديره هل خالق غير الله.

يقول الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) قل يا محمد " الحمد لله " أي الشكر له على جميع نعمه " فاطر السموات والارض " أي خالقهما ومخترعهما. والفطر الشق عن الشئ باظهاره للحس، ومعنى فطر السموات والارض أي خلقهما وأظهرهما للحس بعد ان لم تكونا ظاهرتين، وروي عن ابن عباس أنه قال: ما كنت أدري ما معنى فطر السموات حتى احتكم إلي اعرابيان في بئر، فقال أحدهما أنا فطرتها، أي اخترعتها وابتدأتها. ومن كان خالق السموات والارض لا يفعل إلا ما يستحق به الشكر والحمد، لانه غني حكيم، فلا يعدل عما يستحق به الحمد إلى ما لا يستحق به ذلك.

وقوله " جاعل الملائكة رسلا " أي جعل الملائكة رسلا بعضهم إلى بعض وبعضهم إلى البشر. ثم ذكر اوصافهم وهو أنهم " أولي اجنحة " أي اصحاب اجنحة " مثنى وثلاث ورباع.... " أي اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة واربعة اربعة، فهذه الالفاظ معدولة عن الاثنين والثلاث والاربع، مع انها

=====

(٤١٢)

صفات فلذلك ترك صرفها قال الشاعر:

ولكنما اهلي بواد أنيسه * ذئاب تبغي الناس مثنى وموحد (١)

وإنما جعلهم أولي أجنحة، ليتمكنوا بها من العروج إلى السماء ومن النزول إلى الأرض، قال قتادة: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة ومنهم من له أربعة، ثم قال " يزيد في الخلق ما يشاء " قيل حسن الصوت وقيل من الاجنحة من حيث خلق للملائكة زيادة عما خلق لسائر الخلق من البشر والامم. فان قيل: الطائر لا يحتاج إلى اكثر من جناحين فما معنى خلق الملائكة أولي ثلاث واربع؟ قيل: يجوز أن يكون كل جناح بعلوه باثنين، ويجوز أن يكون للزينة الزائدة، وقد يكون للسمة أجنحة في ظهرها. ثم بين " أن الله على كل شئ قدير " أي لا شئ إلا وهو تعالى قادر عليه بعينه او قادر على مثله.

ثم قال تعالى " ما يفتح الله للناس من رحمة " معنى (ما) الذي وتقديره الذي يفتح الله للناس من نعمة ورحمة " فلا ممسك لها وما يمسك " من نعمة على خلقه " فلا مرسل له من بعده " أي من بعد الله " وهو العزيز " يعني القادر الذي لا يقهر " الحكيم " في جميع افعاله، إن انعم وإن امسك، لانه عالم بمصالح خلقه لا يفعل إلا ما لهم فيه مصلحة في دينهم او دنياهم.

ثم خاطب المؤمنين فقال " يا ايها الناس اذكروا نعمة الله عليكم " بأن خلقكم وأوجدكم وأحياكم وأقدركم وشهاكم، وخلق لكم المنافع التي تنتفعون بها " هل من خالق غير الله " تقريراً لهم على انه لا خالق غير الله في السموات والأرض " يرزقكم من السماء " بالمطر ومن " الأرض " بالنبات " لا إله إلا هو " أي لا معبود يستحق العبادة سواه تعالى " فأنى تؤفكون " أي كيف تقلبون

(١) الكتاب لبيويه ٢ / ١٥ (*)

=====

(٤١٣)

عن طريق الحق إلى الضلال. وانما قال " هل من خالق غير الله " وإن كان احدنا يخلق الشئ لان هذه الصفة لا تطلق إلا عليه تعالى، فاما غيره فانها تقيد له. وايضا فقد فسر ما أراد وهو أنه هل من خالق رازق للخلق من السموات والأرض غير الله أي لا خالق على هذه الصفة إلا هو. هذا صحيح لانه لا احد يقدر على ان يرزق غيره من السماء والأرض بالمطر والنبات وأنواع الثمار.

ثم قال تعالى تعزية للنبي (صلى الله عليه وآله) وتسلية له عن تكذيب قومه إياه " وإن يكذبوك " يا محمد هؤلاء الكفار " فقد كذبت رسل من قبلك " أرسلهم الله فكذبوهم ولم يقبلوا منهم فلك أسوة بمن كان قبلك " وإلى الله ترجع الامور " يعني ترد الامور إلى حيث لا يملك التصرف فيها مطلقا غير الله يوم القيامة.

ثم خاطب الخلق فقال " يا أيها الناس إن وعد الله حق " يعني ما وعدهم به من البعث والنشور والجنة والنار صحيح كائن لا محالة " فلا تغرنكم الحياة الدنيا " فتغترون بملاذها وزينتها وتتركون ما امركم الله به وترتكبون ما نهاكم عنه * (ولا يغرنكم بالله الغرور) * فالغرور هو الذي عادته ان يغره غيره، والدنيا وزينتها بهذه الصفة، لان الخلق يغترون بها، وقال الحسن الغرور الشيطان الذي هو إبليس، وهو قول مجاهد. والرزق يطلق على وجهين: احدهما - ان الله جعله يصلح للغذاء يتغذى به الحيوان وللملبس يلبسونه فالعباد من هذا الوجه لا يأكلون ولا ينتفعون إلا بما جعله الله رزقا لهم. والثاني - انه ملكه الله وحكم انه له فهم يتظالمون من هذا الوجه.

=====

(٤١٤)

قوله تعالى:

* (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما حزبه ليكونوا من أصحاب السعير (٦) الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير (٧) أقمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون (٨) والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور (٩) من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور) * (١٠).

خمس آيات حجازي وكوفي، وست بصري وشامي، عد البصريون والشاميون * (شديد) * ولم يعده الباقون. قرأ أبو جعفر * (فلا تذهب) * بضم التاء وكسر الهاء * (نفسك) * بنصب السين. الباقون - بفتح التاء والهاء، ورفع السين. يقول الله تعالى مخبرا لخلقته من البشر * (إن الشيطان لكم عدو) * فيعدل

=====

(٤١٥)

بكم عن افعال الخير ويدعوكم إلى ما فيه الهلكة، فالعداوة ضد الولاية، ولا يجوز ان يكون احد عدوا من وجه وأليا من وجه، كما لا يجوز أن يكون موجودا من وجه معدوما من وجه، لان الصفتين متنافيتان. ثم امرهم بأن يتخذوا الشيطان عدوا كما هو عدو لهم، وبين تعالى أن الشيطان ليس يدعو إلا حزبه أي اصحابه وجنده، وهم الذين يقبلون منه ويتبعونه. وبين انه إنما يدعوهم ليكونوا من اصحاب السعير بارتكاب المعاصي والكفر بالله تعالى، والسعير النار المستعرة.

ثم اخبر تعالى * (إن الذين كفروا) * بآيات الله ويكذبون رسله * (لهم عذاب شديد) * جزاء على كفرهم وتكذيبهم، وإن * (الذين آمنوا وعملوا) * الافعال * (الصالحات لهم مغفرة) * من الله لذنوبهم ولهم * (أجر) * أي ثواب * (كبير) * ثم قال مقررا لهم * (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) * يعني الكفار زينت نفوسهم لهم أعمالهم السيئة فتصوروها حسنة او الشيطان يزنيها لهم فيميلهم إلى الشبهة وترك النظر في الادلة الدالة على الحق باغوائه حتى يتشاغلوا بما فيه اللذة وطرح الكلفة.

وخبر (من) في قوله * (أفمن زين له سوء عمله) * محذوف وتقديره يتحسر عليه، وقيل: إن الخبر قوله * (فان الله يضل من يشاء) * إلا أنه وقع * (من يشاء) * موقعه. وقيل: جواب * (افمن زين) * محذوف بتقدير: كمن علم الحسن من القبيح، وعمل بما علم. وقيل: كمن هداه الله.

وفي ذلك دلالة على بطلان قول من يقول: إن المعارف ضرورة، لانه دل على انهم رأوا اعمالهم السيئة حسنة. وهذا رأي فاسد، ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) ناهيا له * (فلا تذهب نفسك عليهم) * يا محمد * (حسرات) *. ومن فتح التاء جعل

=====

(٤١٦)

الفعل للنفس. والحسرة شدة الحزن على ما فات من الامر * (إن الله عليم بما يصنعون) * من المعاصي والطاعات فيجازيهم بحسبها.

ثم قال * (والله الذي ارسل الرياح فتنثر سحابا) * أي تنشئه وتجمعه وتجيئ به وتحركه * (فسقناه) * إي فساقه الله * (إلى بلد ميت) * لم يمطر أي قحط وجذب فيمطر على تلك الارض فيحيي بذلك الماء والمطر الارض بعد موتها بالزرع بعد أن لم يكن فيها زرع. ثم قال: كما فعل هذا بهذه الارض الجذبة القحطة من احيائها بالزرع بعد أن لم يكن فيها زرع

مثل ذلك ينشر الخلائق بعد موتهم ويحشرهم إلى الموقف للجزاء من ثواب وعقاب. وقيل: إن الله تعالى إذا أراد احياء الخلق امطر السماء أربعين يوماً فبينت بذلك الخلق نباتاً. ثم قال تعالى * (من كان يريد العزة) * يعني القدرة على القهر والغلبة * (فله العزة جميعاً) * أي له القهر على جميع الأشياء لا يقدر احد ان يمنعه مما يريد فعله به. وقيل: معناه من كان يريد علم العزة لمن هي، فهي لله. وقيل: معناه من اراد العزة فليطع الله حتى يعزه. وقوله * (اليه يصعد الكلم الطيب) * قيل: معناه انه تعالى يقبله ويثيب عليه. وقيل: اليه يصعد اي إلى حيث لا يملك الحكم فيه إلا الله، كما يقال: ارتفع امرهم إلى القاضي. وقوله * (والعمل الصالح يرفعه) * اي يقبله. وقيل: في الضمير الذى في * (يرفعه) * ثلاثة اوجه: احدها - يرفع الكلم الطيب من الفعل. الثاني - يرفعه الكلم الطيب. الثالث - يرفعه الله. ثم قال * (والذين يمكرون السيئات) * اي يحتالون لفعل السيئات من الشرك والكبائر. وقيل: هم اصحاب الرياء * (لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور) * قال قتادة: معناه مكرهم يفسد. وقيل: معنى يبور يكسد، فلا ينفذ في ما يريدون

=====

(٤١٧)

وقال مجاهد: هو ما عمل للرياء فانه يفسد، قال ابن الزبيرى:
يا رسول الملئك ان لسانى * راتق ما فتقت اذ انا بور (١)
قوله تعالى:

* (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير (١١) وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (١٢) يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير (١٣) إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيمة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير (١٤) يا أيها

(١) مر تخريجه في ٦ / ٢٩٤ و ٧ / ٤٧٩ (*)

=====

(٤١٨)

الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد (١٥) إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد (١٦)
وما ذلك على الله بعزيز) * (١٧)

ست آيات بصرى وسبع في ما عداه عدوا * (بخلق جديد) * ولم يعده البصريون.
قرأ يعقوب ولا * (ينقص من عمره) * بفتح الياء وضم القاف. الباقرن على ما لم يسم فاعله.
وقرأ قنتيبة * (والذين تدعون) * بالتاء على الخطاب. الباقرن بالياء على الخبر.
هذا خطاب من الله سبحانه لجميع خلقه من البشر انه خلقهم من تراب، ويريد ان آدم الذى هو
ابوهم ومنه انتسلوا خلقه من تراب ومنه تولدوا.

وقيل: إن المراد به جميع الخلق، لانهم إذا خلقهم من نطفة والنطفة تستحيل من الغذاء، والغذاء
يستحيل من التراب، فكأنه خلقهم من تراب، ثم جعل التراب نطفة بتدريج. وعلى الاول يكون
قوله " ثم من نطفة " معناه ثم خلق اولاد آدم من نطفة ثم استنتنا منه عيسى في قوله " إن مثل
عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب " (١) فقولته " ثم جعلكم ازواجاً " أي اشكالا لان
الزوج هو الذى معه آخر من شكله، والاثنتان زوجان " وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه
" معناه ليس تحمل الانثى من حمل يولد ولا تضعه لتمام ولغير تمام إلا والله تعالى عالم به، لا
أن علمه آلة في ذلك، ولا يدل ذلك على أن له علما يعلم به، لان المراد ما ذكرناه من انه لا
يحصل شئ من ذلك إلا وهو عالم به.

وقوله " وما يعمر من معمر " والعمر مدة الاجل للحياة وهو تفضل من

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٥٩ (*)

(٤١٩)

الله سبحانه وتعالى يختلف مقداره بحسب ما يعلم من مصالح خلقه، كما يختلف الغنى والفقير،
والقوة والضعف، والمعنى: وليس يطول عمر احد ولا ينقص من عمره بأن يذهب بعضه
بمضي الليل والنهار إلا وذلك في الكتاب المحفوظ أثبتته الله تعالى قبل كونه. وقال الحسن
والضحاك وابن زيد: معنى " ولا ينقص من عمره " أي من عمر معمر آخر، وقال ابومالك:
معناه ولا ينقص من عمره ينقصي ما ينقصي منه. وقال الفراء: هو كقولك: عندي درهم
ونصفه أي ومثل نصف الدرهم من غيره.

ثم قال * (إن ذلك على الله يسير) * يعني تعمير من يعمره ونقصان من ينقصه وإثبات ذلك
في الكتاب سهل على الله غير متعذر.

ثم قال تعالى * (وما يستوي البحران) * أي لا يستويان لان * (هذا عذب فرات سائغ شرابه) *
* اي مرئ شهي * (وهذا) * الآخر * (ملح أجاج) * فالفرات أعذب العذب والاجاج أشد
المر. والاجاج مشتق من أججت النار كأنه يحرق من مرارته. و * (اللؤلؤ والمرجان) * (١)
يخرج من الملح دون العذب. وقيل:

في الملح عيون عذبة، وفي ما بينهما يخرج اللؤلؤ.

ثم قال * (ومن كل) * يعني من البحرين العذب والاجاج * (تأكلون لحما طريا) * يعني
سمكا * (وتستخرجون حلية تلبسونها) * من اللؤلؤ والمرجان * (وترى الفلك) * يعني السفن
* (فيه مواخر) * اي تشق الماء في جريانها شقا. وقيل: معناه إنها تذهب وتجيء، بلغة قریش
وهذيل. وقال الحسن: يعني مواخير كقوله * (الفلك المشحون) * (٢) * (لتبتغوا من فضله) *
معناه إنه تعالى خلق ذلك لخلقه

(١) سورة ٥٥ الرحمان آية ٢٢ (٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ١١٩ وسورة ٣٦ يس آية ٤١
وسورة ٣٧ الصافات آية ١٤٠ (*)

=====

(٤٢٠)

ليلتمسوا من فضل الله بركوب البحر للتجارة والمسير فيها طلبا للمنافع وما يخرجون منها من
انواع الاشياء لكي يشكروا الله على نعمه ويحمده على فضله ثم قال * (بولج الليل في النهار
ويولج النهار في الليل) * معناه انه ينقص من الليل في النهار عند منقلب الصيف، ومن النهار
في الليل عند منقلب الشتاء.

وقيل: معناه انه يدخل كل واحد منهما على صاحبه ويتعقبه * (وسخر الشمس والقمر كل
يجري لاجل مسمى) * قدره الله لهما بحسب ما علم من مصالح خلقه إلى الوقت الذي يفنيهما
الله فيه. فتسخير الشمس نزولها في بروج مخصوصة في أوقات مخصوصة كل فصل منها
لنوع آخر من المنافع لا يختلف الحال فيه، وتسخير القمر جريانه على وتيرة واحدة، فيستدل
به على السنين والشهور وذلك يدل على أن مدبره عالم حكيم.

ثم قال * (ذلکم الله ربکم) * الذي يقدر على تسخير الشمس والقمر، وإيلاج الليل في النهار
والنهار في الليل وخلق البحرين العذب والمالح، ومنع احدهما أن يختلط بالآخر لا يقدر عليه
غيره * (والذين يدعون من دونه) * وتوجهون عبادتكم اليهم من الاصنام والاوثنان * (ما
يملكون من قطير) * وهو قشر النواة - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وعطية - فدل
على أن من لا يملك هذا القدر لا يستحق العبادة ولا يكون إلها.

ثم قال * (إن تدعوهم) * يعني الاصنام * (لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم) * لأنها جمادات يستحيل ذلك عليها، ولا يقدر على ضرر ولا نفع * (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) * قيل: إن الله تعالى يحيي الاصنام يوم القيامة لينكروا على المشركين، ويوبخوهم على عبادتهم إياهم. وقال البلخي: يجوز أن يكون المراد به الملائكة وعيسى. وقوله * (لا يسمعون)

=====

(٤٢١)

دعاءكم) * أي هم بحيث لا يسمعونه أو هم مشتغلون عنهم لا يلتفتون إليهم ولا يصغون ويجوز أن يكون المراد بها الاصنام ويكون ما يظهرونه من بطلان ما ظنوه كفرا بشركهم وجددا له كما حصل ما في الجماد من الدلالة على الله مسبحا له وهو كقولهم: سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حوارا اجابتك عتبار * (ولا يبنئك) * يا محمد بالشئ على حقيقته * (مثل خبير) * عالم بما أخبر، والله تعالى هو العالم بالاشياء على حقائقها.

ثم قال تعالى * (يا ايها الناس أنتم الفقراء إلى الله) * أي محتاجون إليه * (والله هو الغني) * عن جميع المخلوقات لا تجوز عليه الحاجة، لأنه ليس بجسم فالحاجة من صفة الاجسام * (الحميد) * يعني المحمود المستحق للحمد على جميع افعاله، والله تعالى لا يفعل إلا ما يستحق به حمدا.

ثم أخبر تعالى عن قدرته فقال * (إن يشأ يذهبكم) * معاشر الخلق ويفنيكم * (ويأت بخلق) * آخر * (جديد) * وهو ما كان قريب عهد بانقطاع العمل عنه، وأصله القطع من جده يجده إذا قطعه. والجد ابوالاب لانقطاعه عن الولادة بالاب والجد الماضي فيه بقطعه أولا أو لا من غير تفتير * (وما ذلك على الله بعزيز) * أي بممتنع فالعزيز المنيع بوجه من الوجوه الذي يتعذر معها الفعل. قوله تعالى:

* (ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شئ ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلوة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه

=====

(٤٢٢)

وإلى الله المصير (١٨) وما يستوي الاعمى والبصير (١٩) ولا الظلمات ولا النور (٢٠) ولا الظل ولا الحرور (٢١) وما يستوي الاحياء ولا الاموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور (٢٢) إن أنت إلا نذير) * (٢٣).

ست آيات حجازي وكوفي وخمس آيات شامي واربع آيات بصري عد الحجازيون والكوفي والشامي " البصير " و " النور " ولم يعده البصري وعد الحجازيون والعراقيون " القبور " ولم يعده الشامي.

يقول الله تعالى مخبرا حسب ما تقتضيه حكمته وعدله أنه " لا تزر وازرة وزر اخرى " معناه أنه لا تحمل حاملة حمل أخرى من الذنب، والوزر الثقل، ومنه الوزير لتحمله ثقل الملك بما يتحمله من تدبير المملكة، وتقديره أنه لا يؤاخذ احد بذنب غيره، وإنما يؤاخذ كل مكاف بما يقترفه من الاثم.

وقوله " وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى " معناه وإن تدع مثقلة بالآثام غيرها لتحمل عنها بعض الاثم لا يحمل عنها شيئا من آثامها، وإن كان أقرب الناس إليها، لما في ذلك من مشقة حمل الآثام ولو تحملته لم يقبل تحملها، لما فيه من مجانية العدل ومنافاته له، فكل نفس بما كسبت رهينة، لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، ولا يؤخذ إلا بجنايته.

وقوله " إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب " معناه ليس ينتفع بتخويفك يا محمد إلا الذين يخافون ربهم في غيبتهم وخلواتهم فيجتنبون معاصيه في سرهم ويصدقون بالآخرة.

=====

(٤٢٣)

وقوله " واقاموا الصلاة " قال ابو عبيدة في مجازه: اي وقيمون، فوقع الماضي مقام المستقبل، والمعنى يديمون فعلها ويقومون بشرائطها. وإنما عطف الماضي على المستقبل إشعارا باختلاف المعنى، لان الحسنة لازمة في كل وقت والصلاة لها اوقات مخصوصة، واضاف الانذار إلى الذين يخشون ربهم من حيث كانوا هم المنتفعون بها، وإن كان النبي (صلى الله عليه وآله) ينذر كل مكلف.

ثم قال " ومن تركى " أي فعل الطاعات وقام بما يجب عليه من الزكاة وغيرها من الواجبات فانما يتركى لنفسه، لان ثواب ذلك ونفعه عائد عليه.

وقوله " وإلى الله المصير " معناه يرجع الخلق كلهم إلى حيث لا يملك الامر والنهي إلا الله، فيجازي كل مكلف على قدر عمله. وقوله " وما يستوي الاعمى والبصير " معناه لا يتساوى الاعمى عن طريق الحق والعدل عنها، والبصير الذي يهتدي إليها قط، لان الاول يستحق العقاب، والثاني يستحق الثواب " ولا الظلمات ولا النور " يعني وكذلك لا يستوي المؤمن

والكافر والمطيع والعاصي فشبه الايمان بالنور والكفر بالظلمات، وكذلك لا يستوي " الظل ولا الحرور " فالظل هو الستر عن موقع الشمس ومنه الظلة، وهي السترة عن موقع الشمس، ومنه قولهم: ظل يفعل كذا إذا فعل نهارا في الوقت الذي يكون للشمس ظل، والحرور السموم وهو الريح الحارة في الشمس، وقال الفراء:

الحرور يكون بالليل والنهار والسموم لا يكون إلا بالنهار. وقيل: الظل الجنة والحرور النار " وما يستوي الاحياء ولا الاموات " أي هما أيضا لا يتساويان ولا يتمثلان، فالاسواء حصول أحد الشئيين على مقدار الآخرة، ومنه الاستواء في العود والطريق خلاف الاعوجاج، لممره على مقدار أوله من غير انعدال.

وهذه الامثال أمثال ضربها الله لعبادة الله وعبادة الاوثان، وبين أنه كما

=====

(٤٢٤)

لا تتمثل هذه الاشياء، ولا تتشاكل ولا تتساوى، فكذاك عبادة الله لا تشبه عبادة الاصنام. ثم قال تعالى " إن الله يسمع من يشاء " ومعناه أن الله ينفع باسماع ذلك من يشاء ممن يعلم أن له لطفًا يفعله به دون غيره " وما أنت بمسمع من في القبور " أي لانك لا تقدر على نفع الكفار باسماعك إياهم إذا لم يقبلوا، كما لا تسمع من في القبور من الاموات " ان أنت إلا نذير " أي لست إلا نذيرا مخوفا بالله.

شبه الكفار في تركهم قبول ما يسمعون وذهابهم عن تفهمه وتدبره بالموتى، كما شبههم بالصم والعمي، يقال: أصمهم وأعمى أبصارهم ليس أنهم كانوا لا يسمعون ولا يفهمون أو كان النبي (صلى الله عليه وآله) لا ينذرهم لكن على ما بيناه من التشبيه.

وقيل في (لا) قولان: أحدهما - أنها زائدة مؤكدة للنفي. الثاني - انها باقية لاستواء كل واحد منهما لصاحبه على التفصيل. فمن قال: إنها زائدة قال في مثل قولهم لا يستوي زيد ولا عمرو في هذا المعنى، فلا تكون هنا إلا زائدة.

ومن قال: ليست زائدة، قال تقديره لا يستوي الاعمى والبصير ولا يساوي البصير الاعمى. قوله تعالى:

* (إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير (٢٤) وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلكم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير (٢٥) ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير) * (٢٦) ثلاث آيات بلا خلاف.

=====

(٤٢٥)

لما قال الله تعالى لنبيه إن أنت إلا نذير، ومعناه لست إلا مخوفا من عقاب الله ومعاصيه قال له " انا ارسلناك " يا محمد " بالحق " أي بالدين الصحيح " بشيرا " أي مبشرا بالجنة وثواب الله لمن أطاعه " ونذيرا " أي مخوفا من عقابه لمن عصاه " وإن من أمة " أي ليس من أمة في ما مضى إلا مضى فيها مخوف من معاصي الله. وقال قوم: المعنى " إلا خلا فيها نذير " منهم وقال آخرون: نذير من غيرهم، وهو رسول اليهم، كما أرسل نبينا (صلى الله عليه وآله) إلى العرب والعجم. وقال الجبائي: في ذلك دلالة على أنه لا أحد من المكلفين إلا وقد بعث الله اليهم رسولا، وأنه أقام الحجة على جميع الامم.

ثم قال على وجه التسلية له والتعزية عن تكذيب قومه اياه " فان كذبوك " يا محمد ولم يصدقوك في انك نبي من قبل الله " فقد كذب الذين من قبلهم " من الكفار أنبياء أرسلوا اليهم " جاءتهم رسلهم " من الله " بالبينات " أي الحجج الواضحات " وبالزبر " يعني بالكتب " وبالكتاب المنير " الموضح بمنزلة ما فيه من نور يستضاء به. والزبر هي الكتب، وانما كرر ذكر الكتاب، وعطف عليه، لاختلاف الصنفين، لان الزبر الكتابة الثابتة كالنقر في الحجر، ثم بين تعالى ان الكفار لما كذبوا رسل الله الذين جاؤهم بالبينات ولم يعترفوا بنبوتهم انه اخذهم بالعذاب وبالعقوبة العاجلة واهلكهم ودمر عليهم.

قوله تعالى:

* (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها

(٤٢٦)

وغرابيب سود (٢٧) ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور (٢٨) إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلوة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور (٢٩) ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور) * (٣٠) أربع آيات بلا خلاف.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه والمراد به جميع المكلفين منبها لهم على طريق الاستدلال على وحدانيته واختصاصه من الصفات بما لا يختص به سواه بأن قال " ألم تر " يا محمد ومعناه ألم تعلم " ان الله أنزل من السماء ماء " يعني غيثا ومطرا " فاخرجنا به " اخبار منه تعالى عن نفسه انه أخرج بذلك الماء " ثمرات " جمع ثمرة، وهي ما يجتني من الشجر " مختلفا ألوانها " لان فيها الاحمر والابيض والاصفر والاخضر وغير ذلك ولم يذكر اختلاف طعومها

وروائها لدلالة الكلام عليه. والاختلاف هو امتناع الشيء من ان يسد مسد صاحبه في ما يرجع إلى ذاته ألا ترى أن السواد لا يسد مسد البياض، وذلك لا يقدر عليه سواه تعالى من جميع المخلوقين " ومن الجبال جدد " واحده جده نحو مدة ومدد واما جمع جديد فجدد - بضم الدال - مثل سرير وسرر. والجدد الطرائق * (بيض وحمرة مختلف ألوانها وغرابيب سود) * واحد الغرابيب غريب وهو الذي لونه كلون الغراب من شدة سواده، ولذلك قال * (سود) * لانه دل عليه من هذا

=====

(٤٢٧)

الوجه، ثم بين بالافصاح أنها سود، قال امرؤ القيس:
كأن سراته وجدة مته * كنانن يحرى فوقهن دليص (١)
يعني بالجدة الخطة السوداء تكون في متن الحمار، والكنائن جمع كنانه، والدليص الذي يبرق من الذهب والفضة وما أشبهها، فالجدد هي ألوان الطريق.
ثم قال * (ومن الناس) * أيضا * (ومن الدواب) * التي تدب على وجه الأرض * (والانعام) * كالابل والبقر والغنم * (مختلف ألوانه) * أيضا مثل ذلك مما في الجبال والثمار * (كذلك) * أي مثل ما قدمنا ذكره.
ثم قال * (انما يخشى الله من عباده العلماء) * ومعناه ليس يخاف الله حق خوفه ولا يحذر معاصيه خوفا من عقابه إلا العلماء الذين يعرفون حقيقة ذلك فأما الجهال ومن لا يعرف الله فلا يخافونه مثل ذلك، وكذلك ينظر العلماء في حجج الله وبياناته ويفكرون في ما يفضي بهم إلى معرفته من جميع ما تقدم ذكره ثم اخبر تعالى فقال * (إن الله عزيز) * في انتقامه من اعدائه * (غفور) * لاوليائه والتائبين من خلقه الراجعين إلى طاعته.
ثم قال * (إن الذين يتلون كتاب الله) * يعني يقرؤون القرآن ويعملون بما فيه * (واقاموا الصلاة وانفقوا) * في طاعة الله * (مما رزقناهم) * أي مما رزقهم الله وملكهم التصرف فيه * (سرا وعلانية) * أي في حال سرهم، وفي حال علانيتهم * (يرجون) * في موضع الحال أي راجيين بذلك * (تجارة لن تبور) * أي لا تكسد. وقيل: لا تفسد، يقال بارت السوق إذا كسدت وبار الطعام، وبار الشيء إذا فسد، قال الشاعر:

(١) ديوانه (شرح السندوسي) ١٢٤ وروايته (ظهرة) بدل (مته) (*)

=====

(٤٢٨)

يا رسول الملئك إن لساني * راتق ما فتقت إذ أنابور (١)
ثم بين انهم يقصدون بذلك أن يوفيهم الله أجور ما عملوا من الطاعات بالثواب ويزيدهم من
فضله زيادة على قدر استحقاقهم، لانه وعد بأن يعطي الواحد عشرة * (إنه غفور) * لعباده
سائر لذنوبهم * (شكور) * معناه إنه يعامل بالاحسان معاملة الشاكر. وقال الجبائي: وصفه
بأنه شكور مجاز، لان معناه انه يجازي على الطاعات.
قوله تعالى:

* (والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير
(٣١) ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق
بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير (٣٢)
جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير (٣٣) وقالوا
الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور (٣٤) أأذي أأذلنا دار المقامة من فضله
لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) * (٣٥).
خمس آيات بلا خلاف.

(١) قد مر في ٦ / ٢٩٤ و ٧ / ٤٧٩ (*)

=====

(٤٢٩)

قرأ أبو عمرو * (يدخلونها) * بضم الياء على ما لم يسم فاعله ليشاكل قوله تعالى * (يحلون)
*. الباقون بفتح الياء، لانهم إذا أدخلوها فقد دخلوها، والمعنيان متقاربان.
يقول الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) * (والذي أوحينا إليك) * يا محمد وأنزلناه عليك
* (من الكتاب) * يعني القرآن * (هو الحق) * معناه هو الصحيح الذي معتقده على ما هو
به. وضده الباطل، وهو ما كان معتقده لا على ما هو به.
والعقل يدعو إلى الحق ويصرف عن الباطل، وقوله * (مصدقاً لما بين يديه) * معناه مصدقاً
لما قبله من الكتب بأنه جاء موافقاً لما بشرت به تلك الكتب من حاله وحال من أتى به. ثم قال
* (إن الله) * تعالى بعباده * (لخبير) * أي عالم بهم * (بصير) * بأحوالهم لا يخفى عليه
شئ منها فيجازيهم على استعمال الحق بالثواب وعلى استعمال الباطل بالنار. ثم قال * (ثم
أورثنا الكتاب) * يعني القرآن أورثناه من أصطفيناه من عبادنا. ومعنى الارث انتهاء الحكم

اليه ومصيره لهم، كما قال تعالى * (وتلك الجنة التي أورتتموها بما كنتم تعملون) * (١) وقيل المراد أورتناهم الايمان بالكتب السالفة وكان الميراث انتقال الشئ من قوم إلى قوم. والاول أصح. والاصطفاء الاختيار باخراج الصفوة من العباد، فاصطفى الله المؤمن يحمل على ثلاث طبقات مؤمن ظالم لنفسه بفعل الصغيرة، ومقتصد بالطاعات في المرتبة الوسطى، وسابق بالخيرات في الدرجة العليا، وهم الذين لم يرتكبوا شيئاً من المعاصي، وكل وعد الله الحسنى، والذين اصطفاهم الله وأورثهم الكتاب قيل: هم الانبياء فمنهم ظالم لنفسه يعني أصحاب الصغائر. وقيل: هم اصحاب النار، هذا من قول من أجاز على الانبياء الصغائر دون الكبار، فأما

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٧٢ (*)

=====

(٤٣٠)

من لا يجوز عليهم شيئاً من المعاصي أصلاً لا صغيرة ولا كبيرة يقول: معنى الآية إن الله تعالى أورت علم الكتاب الذي هو القرآن الذين اصطفاهم واجتباهم واختارهم على جميع الخلق من الانبياء المعصومين، والائمة المنتجبين الذين لا يجوز عليهم الخطا ولا فعل القبيح لا صغيراً ولا كبيراً، ويكون قوله * (فمنهم ظالم لنفسه) * راجعاً إلي * (عباده) * وتقديره فمن عبادنا ظالم لنفسه، ومن عبادنا مقتصد، ومن عبادنا سابق بالخيرات، لان من اصطفاه الله لا يكون ظالماً لنفسه، فلا يجوز أن ترجع الكناية إلى الذين اصطفينا وقوله " بالخيرات " يعني يعلم من اقتصد او ظلم نفسه أو سبق بالخيرات.

ثم قال * (ذلك هو الفضل الكبير) * يعني السابق بالخيرات هو الفضل العظيم الذي لا شئ فوقه. وقال ابن عباس: الذين أورثهم الله الكتاب هم أمة محمد، ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسبهم حساباً يسيراً وسابقهم يدخلون الجنة بغير حساب. وقال ابن مسعود - بذلك - وكعب الاحبار. وقال الثالث فرق - المذكورة في هذه الآية كلهم في الجنة. وقال عكرمة عن ابن عباس: إن المصطفين من هذه الامة الانبياء، والظالم لنفسه هو المنافق والمقتصد والسابق بالخيرات في الجنة. والمنافق في النار. وقال الحسن ومجاهد: السابق بالخيرات من جميع الناس، والظالم لنفسه أصحاب المشئمة، والمقتصد اصحاب الميمنة من الناس كلهم. وهذا مثل ما قلناه من ان الكناية راجعة إلى العباد دون المصطفين، وقال البلخي: الاصطفاء - ههنا - التكليف دون الثواب، فعلى هذا يجوز أن ترجع الكناية إلى المصطفين.

ثم قال " جنات عدن " فرفع جنات على تفسير الفوز، كأنه قيل: ما ذلك الفوز؟ فقال هي جنات أي جزاء جنات أو دخول جنات، ويجوز أن يكون

=====

(٤٣١)

بدلا من الفوز، كأنه قال ذلك جنات أي دخول جنات، والجنات هي البساتين التي يجنوها الشجر، والعدن الإقامة " يدخلونها " يعني من تقدم ذكره من الذين سبقوا بالخيرات والمقتصدين " يحلون فيها " بمعنى يلبسون فيها الحلي " من اساور من ذهب " وأساور جمع اسوار، ومن قال سوار جمعه على أسورة " من ذهب ولؤلؤ " فيمن جر، ومن نصب " لؤلؤا " وهو نافع وعاصم فعلى تقدير ويحلون فيها لؤلؤا " ولباسهم فيها حرير " معناه إن ما يلبسه أهل الجنة من اللباس ابريسم محض.

ثم اخبر تعالى عن حال من يدخل الجنة أنهم إذا دخلوها " قالوا الحمد لله " أي اعترافا بنعمة الله وشكرا له على نعمه، وهو الاعتراف منهم على وجه الاجاء، لهم في ذلك سرور لا على وجه التكليف " الذي أذهب عنا الحزن " ومعناه أذهب الغم عنا بخلاف ما كنا عليه في دار الدنيا، وقيل: الحزن الذي اصابهم قبل دخول الجنة، فانهم يخافون من دخول النار إذا كانوا مستحقين لها، فاذا تفضل الله عليهم بأن يسقط عقابهم ويدخلهم الجنة حمدوا الله على ذلك.

وقيل: ما كان ينالهم في دار الدنيا من أنواع الاحزان والاهتمام بأمر المعاش والخوف من الموت وغير ذلك " إن ربنا لغفور شكور " لذنوب عباده إذا تابوا مجاز لهم على شكرهم لنعمه. وقيل: إن مكافاته لهم على الشكر لنعمه والقيام بطاعته جرى مجرى أن يشكره لهم وإن كان حقيقة لا يجوز عليه تعالى.

من حيث كان اعترافا بالنعمة، ولا يصح عليه تعالى أن يكون منعما عليه، ثم وصفوا الله تعالى بأن قالوا " الذي أحلنا " أي انزلنا دار المقامة يعني دار الإقامة وإذا فتحت الميم كان المراد موضع القيام قال الشاعر:

=====

(٤٣٢)

يومان يوم مقامات واندية * ويوم سير إلى الاعداء تأويب (١)
و " من فضله لا يمسننا فيها نصب " يعني تعب. وقال قتادة: معناه وجع " ولا يمسننا فيها لغوب " يعني اعياء. وقيل: اللغوب العناء. ومنه قوله تعالى " وما مسنا من لغوب " (٢).
قوله تعالى:

* (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور (٣٦) وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير (٣٧) إن الله عالم غيب السموات والارض إنه عليم بذات الصدور (٣٨) هو الذي جعلكم خلائف في الارض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا (٣٩)
قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرؤني ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتابا

(١) اللسان (أوب) (٢) سورة ٥٠ ق آية ٣٨ (*)

=====

(٤٣٣)

فهم على بينت منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا) * (٤٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو وحده " يجزى " بضم الياء على ما لم يسم فاعله. الباكون.
بالنون على وجه الاخبار من الله عن نفسه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص " على بينة " بالتوحيد لقوله " قد جاءكم بينة من ربكم " (١) الباكون " بينات " على الجمع، لأنها مكتوبة في المصاحف بالالف والتاء، والبينة والبينات القرآن، وفي قوله " حتى تأتيهم البينة رسول من الله " (٢) وهو محمد (صلى الله عليه وآله). ويقال:

بان الشيء وأبان إذا تبين، فهو باين ومبين، وأبنته أنا وبينته لا غير والبينة وزنها (فيعلة) فاجتمع يآن فأدغم احداهما في الاخرى.

لما اخبر الله تعالى عن أحوال اهل الآخرة وما أعده لاهل الجنة من أنواع الثواب أخبر - ههنا - عن حال الكفار وما أعده لهم من أليم العقاب فقال " والذين كفروا " بوحدانية الله وجدوا نبوة نبيه " لهم نار جهنم " عقوبة لهم على كفرهم يعذبون فيها " لا يقضى عليهم فيموتوا " أي لا يحكم عليهم بالموت فيموتوا فيستريحوا، يقال قضى فلان إذا مات " ولا يخفف عنهم من عذابها " معناه ولا يبسر عليهم عذاب النار ولا يسهل عليهم ومثل هذا العذاب ونظيره " كذلك نجزي كل كفور " جاحد لوحدانيته تعالى ومكذب لانبياؤه.

ثم اخبر تعالى عن حال من هو في النار فقال " وهم يصطرخون فيها " أي

=====

(٤٣٤)

يتصايحون بالاستغاثة، فالاصطراخ الصياح والنداء بالاستغاثة، وهو افتعال من الصراخ قلبت التاء طاء لاجل الصاد الساكنة قبلها، وإنما فعل ذلك لتعديل الحروف بحرف وسط بين حرفين يوافق الصاد بالاستعلاء والاطباق ويوافق التاء بالمخرج. ويقولون " ربنا أخرجنا " من عذاب النار " نعمل صالحا " يعني نعمل بالطاعات والاعمال الصالحات التي أمرنا بها " غير الذي كنا نعمل " من المعاصي، فيقول الله لهم - في جوابه تبيكتنا لهم وإنكارا عليهم " أو لم نعلمكم " في دار الدنيا. وقال ابن عباس، ومسروق: العمر الذي ذكره الله أربعون سنة، وفي رواية أخرى ستون سنة، وهو قول علي (عليه السلام) " ما يتذكر فيه من تذكر " أي عمرناكم مقدار ما يمكن أن يتذكر ويعتبر وينظر ويفكر من يريد أن يتفكر ويتذكر " وجاءكم النذير " يعني المخوف من معاصي الله، قال ابن زيد: يعني به محمدا (صلى الله عليه وآله) وقال غيره: أراد الشيب. وقيل: الحمى " فذوقوا " معاشر الكفار عقاب كفركم ومعاصيكم " فما للظالمين من نصير " اي ليس لمن ظلم - وبخس نفسه حقها بارتكاب المعاصي - ناصر يدفع عنه العذاب. ثم اخبر تعالى بأنه " عالم غيب السموات والارض " لا يخفى عليه شئ مما غاب عن جميع الخلائق علمه " إنه عليم بذات الصدور " ومعناه اتقوا واحذروا أن تضمروا في أنفسكم ما يكرهه الله تعالى، فانه عليم بما في الصدور لا يخفى عليه شئ منها. وقوله " هو الذي جعلكم خلائف في الارض " معناه جعلكم معاشر الكفار أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن. وهو قول قتادة " فمن كفر " أي جحد وحدانيته وأنكر نبوة نبيه (صلى الله عليه وآله) " فعليه " عقاب " كفره " دون غيره " ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا " أي لا يزيدهم كفرهم بالله عند الله

=====

(٤٣٥)

إلا أشد البغض لأن المقت أشد البغض " ولا يزيد الكافرين " أيضا " كفرهم إلا خسارا " لانهم يخسرون الجنة ويحصل لهم النار بدلا منها " وذلك هو الخسران المبين " ثم قال موبخا لهم " قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله " قيل: معناه ادعوا شركاءكم في الاموال التي جعلتم لها قسطا من السائبة والوصيلة والانعام والحرث، وهي الاوثان. وقيل: شركاءكم الذين اشركتموهم في العبادة مع الله " اروني ماذا خلقوا من الارض " معناه أي شئ اخترعوه وانشوؤه فيدخل عليكم بذلك شبهة " أم لهم شرك في السموات؟ " أي لهم شركة في خلق

السموات؟ على وجه المعاونة لله؟ * (أم آتيناهم كتابا) *؟ أي أعطيناهم كتابا أمرناهم فيه بما يفعلونه * (فهم على بينة منه) * أي من ذلك الكتاب، فان جميع ذلك محال لا يمكنهم ادعاء شئ من ذلك، ولا إقامة حجة ولا شبهة عليه * (بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا) * ومعناه ليس شئ من ذلك لكم، ليس يعد الظالمون أنفسهم بعضهم بعضا إلا غرورا يغترون به وزورا يتعدون به، يقال: غره يغره غرورا إذا أطمعه في ما لا يطمع فيه. فان قيل: الآية تدل أن الله سبحانه ينفرد بالخلق دون العباد، لانه بين أن من تهيأ له الخلق فهو إله.

قلنا: هذا كقوله * (ألم أرجل يمشون بها؟ أم لهم أيد يبطشون بها) * (١) فكما لا يدل على ان من كان له يد أو رجل يكون إلهها، فكذلك لا يجب ان يكون من يخلق يكون الها على انه بين المراد بالخلق، فقال * (ماذا خلقوا من الارض) * لا يقدر على خلق الارض ولا على شئ منه إلا الله تعالى على أنا

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٩٤ (*)

=====

(٤٣٦)

لا نطلق اسم خالق إلا على الله، ونقيده في الواحد منا.
قوله تعالى:

* (إن الله يمسك السموات والارض أن تزولا * ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا (٤١)

وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا (٤٢) إستكبارا في الارض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا * ولن تجد لسنة الله تحويلا (٤٣) أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شئ في السموات ولا في الارض إنه كان عليما قديرا (٤٤) ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) * (٤٥).

خمس آيات كوفي ومكي ومدني الاول. وست شامي، وفي عدد اسماعيل.

=====

(٤٣٧)

وسبع بصري. عد البصري والشامي واسماعيل * (تديلا) * وعد البصري قبله * (تزولا) * ولم يعد ذلك الباقيون.

لما بين الله تعالى أن الاصنام لا تقدر على شئ وأن ليس لها شرك في السموات والارض، أخبر عن عظيم قدرته وسعة سلطانه فقال * (إن الله يمسك السموات) * بأن يسكنها حالا بعد حال، ولا يقدر على تسكينها غيره تعالى حال بعد حال، لانه يسكنها بغير عمد، فالارضون ساكنة بلا عمد والسموات ساكنة باسكانه. وهي غير الافلاك التي تجري فيها النجوم، قال عبدالله بن مسعود ان السموات لا تدور، ولو كانت تدور لكانت قد زالت. ومنعهما بهذا التسكين من أن تزولا عن مواضعها او تهوي او تسقط، ومعنى * (أن تزولا) * كراهة أن تزولا. وقال الكوفيون: معناه ألا تزولا عن مراكزهما، فحذف (لا).

ثم قال * (ولئن زالتا) * معنى (لئن) (لو) ويوضع كل واحد منهما مكان الآخر، لانهما يجابان بجواب واحد. ومثله * (ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا) * (١) ومعناه و (لو) ومعنى * (ولئن زالتا) * يعني عن مقرهما * (إن امسكهما من احد من بعده) * أي ليس يسكنها احد ولا يقدر عليه احد بعد الله تعالى * (انه كان حليما) * يعني القادر الذي لا يعاجل واحدا بالعقوبة، ولا يحلم إلا قادر، لان من ليس بقادر، لا يصح ان يعاقب، فلا يحلم وإنما حلمه أناة بمن استحق العقوبة * (غفورا) * أي ستارا لذنوبهم إذا تابوا لا يفضحهم بها على رؤس الاشهاد، و (الغفور) الكثير الغفران لذنوب عباده بالتوبة وبالتفضل لمن يشاء منهم. ثم حكي عن الكفار أنهم * (أقسموا بالله) * يعني حلفوا به * (جهد أيمانهم) *

(١) سورة ٣٠ الروم آية ٥١ (*)

=====

(٤٣٨)

أي غاية وسعهم وطاقتهم * (لئن جاءهم نذير) * أي مخوف من جهة الله يخوفهم من معاصيه * (ليكونن أهدى) * إلى اتباعه والقبول منه * (من احدى الامم) * الماضية وأسبق إلى اتباعه * (فلما جاءهم نذير) * أي محمد (صلى الله عليه وآله) جاءهم يخوفهم بالله " ما زادهم مجيئه " إلا نفورا " أي ازدادوا عند مجيئه نفورا من عن الحق وهربا منه لا أن مجيئه زادهم ذلك. ثم بين تعالى انهم ينفرون عند مجئ النبي " استكبارا " أي طلبا للكبر والتجبر على غيرهم " في الارض " من أن يقرؤا بالحق " ومكر السئ " أي وحيلة الافعال القبيحة والمعاصي لانهم قصدوا بذلك الفرار من اتباع محمد والايمان به، والسئ الشرك - في قول قتادة - واضيف اليه كما قال " لحق اليقين " (١) وفي قراءة عبدالله بن مسعود " ومكرا سيئا "

وقد سكن حمزة وحده الهمزة. الباقيون جروها بالاضافة. والتسكين لحن عندهم اعني البصريين، لا يجوز ان يقرأ به. وقيل الوجه في تسكين حمزة كثرة الحركات في الكلام، كما قال الشاعر:

إذا اعوججن قلت صاحب قوم فسكن الباء لكثرة الحركات، والصحيح الاول، لان مثل هذا إنما يجوز في ضرورة الشعر، قال ابو علي النحوي: يجوز أن يكون أجراه في الوصل مجرى الوقف، وتقدير ومكررا المكر السئ، فأضيف المصدر إلى صفة المصدر، وتقديره ومكروا المكر السئ بدلالة قوله " ولا يحيق المكر السئ إلا بأهله " ومعناه لا ينزل باحد جزاء المكر السئ إلا بمن فعله " فهل ينظرون " أي فهل ينتظرون " إلا سنة الاولين " من نزول العقاب بهم وحلول النقمة عليهم جزاء على كفرهم، فان كانوا ينتظرون ذلك " فلن تجد " يا محمد والمراد به

(١) سورة ٦٩ الحاقة ٥١ (*)

=====

(٤٣٩)

الكفار " لسنة الله تبديلا " أي لا يغير الله عاداته من عقوبة من جحد ربوبيته " ولن تجد لسنة الله تحويلا " ولا يبدلها بغيرها، فالتبديل تصير الشئ مكان غيره، والتحويل تصير الشئ في غير المكان الذي كان فيه، والتغيير تصيير الشئ على خلاف ما كان.

ثم قال " اولم يسيروا في الارض " يعني هؤلاء الكفار الذين انكروا إهلاك الله الامم الماضية. أما ساروا في الارض " فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا " أولئك " اشد منهم " من هؤلاء " قوة وما كان الله ليعجزه من شئ " إذ لم يكن يفوته شئ " في السموات ولا في الارض انه كان عليما " عالما بجميع الاشياء * (قدير) * قادرا على مالا نهاية له، ويقدر على اجناس لا يقدرون عليها.

ثم اخبر تعالى ممننا على الناس بتأخير عقابهم بان قال * (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) * أي جزاء على معاصيهم عاجلا * (ما ترك على ظهرها) * ظهر الارض * (من دابة) * نذب على رجليها * (ولكن يؤخرهم إلى أجل) * يعني إلى الوقت المعلوم الذي قدره لتعذيبهم * (فاذا جاء أجلهم) * يعني الوقت المقدر المعلوم * (فان الله) * تعالى * (كان بعباده بصيرا) * أي عالما بأحوالهم لا يخفى عليه شئ منها فيجازي كل انسان على قدر فعله من طاعة او معصية، والضمير في قوله * (على ظهرها) * عائد إلى الارض وإن لم يجر لها ذكر لدلالة الكلام عليه، لانه معلوم أنهم على ظهر الارض دون غيرها، على أنه قد تقدم قوله * (أو لم

يسيروا في الارض) * وفي قوله * (إن الله يمسك السموات والارض) * فيجوز أن يرد
الكناية اليها.

(٤٤٠)

٣٦ - سورة يس في قول مجاهد وقتادة والحسن: ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وقال ابن عباس: آية منها مدنية وهي قوله * (وإذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله) * وهي ثلاث وثمانون آية كوفي. واثنان وثمانون آية في ما عداه.

بسم الله الرحمن الرحيم * (يس (١) والقرآن الحكيم (٢) إنك لمن المرسلين (٣) على صراط مستقيم (٤) تنزيل العزيز الرحيم (٥) لتتذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون (٦) لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون (٧) إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون (٨) وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون (٩) وسواء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) * (١٠) عشر آيات كوفي وتسع في ما عداه عد الكوفي (يس) ولم يعده الباقر.

(٤٤١)

قرأ الكسائي بامالة الالف من (ياسين) وكذلك حمزة إلا انه أقل إمالة الباقر بغير امالة. وقرأ ابن كثير ونافع وابوعمر و ابوبكر عن عاصم * (تنزيل العزيز الرحيم) * بالرفع الباقر بالنصب. فمن رفع، فعلى تقدير (ذلك) تنزيل العزيز، ومن نصب، فعلى تقدير (نزل) تنزيل العزيز الرحيم.

وقرأ اهل الكوفة إلا ابا بكر * (سدا) * بفتح السين في الموضعين. الباقر بضمها، وهما لغتان، وقال ابو عمرو: وما كان من فعل الله، فهو بالفتح.

وعد أهل الكوفة (يس) آية ولم يعدوا (طس) لان (طاسين) أشبه قابيل وهابيل في الوزن، والحروف الصحاح، ولم يشبهها (ياسين) لان أوله حرف من حروف العلة وليس مثل ذلك في الاسماء المفردة، فاشبهه الجملة والكلام التام وشاكل ما بعده من رؤس الآي. وقد مضى في ما تقدم أن افتتاح أوائل السور بأمثال هذه الحروف الاقوى فيها أنها اسماء للسور. وقيل: إنها اسماء القرآن، وقيل إنها حروف إذا جمعت انبأت عن اسم الله الاعظم، وغير ذلك من الاقويل لا تطول بذكره. وقال الحسن: معناه يا رجل. وقال محمد بن الحنفية (يس) معناه يا إنسان يا محمد، وروي عن علي (عليه السلام) أنه قال سمى الله تعالى النبي (صلى الله عليه وآله) في القرآن بسبعة اسماء: محمد، وأحمد، وطه، ويس، والمزمل، والمدثر، وعبدالله، وقيل: معناه بالسرانية يا إنسان. وقيل: معناه يا سيد الاولين والآخرين. وأخفى النون من (ياسين) الكسائي وابوبكر عن عاصم. الباقر ببيان النون، وهو الاجود لان حروف الهجاء ينوى بها السكت والانقطاع عما بعدها. ومن قال بالاول قال لان النون والتتوين إنما يظهران عند حروف الحلق

(٤٤٢)

وليس ههنا شئ منها.

وقوله * (والقرآن الحكيم) * قسم من الله تعالى بهذا القرآن وصفه بأنه حكيم من حيث أن فيه الحكمة، فصار ذلك بمنزلة الناطق به للبيان عن الحق الذي يعمل به. والحكمة قد تكون المعرفة، وقد تكون ما يدعو إلى المعرفة، وأصله المنع من الخلل والفساد، فالمعرفة تدعو إلى ما أدى إلى الحق من برهان أو بيان قال الشاعر:

أبني حنفية احكموا سفهاءكم * إنني اخاف عليكم أن اغضبا (١)

أي امنعوهم. وقال قوم: إنما أقسم الله بالقرآن الحكيم لعظم شأنه وموضع العبرة به والفائدة فيه، والمقسم عليه قوله * (إنك لمن المرسلين) * أقسم تعالى أن النبي (صلى الله عليه وآله) ممن أرسله الله بالنبوة والرسالة، وأنه * (على صراط مستقيم) * وهو طريق الحق المستقيم الذي يؤدي إلى الجنة * (تنزيل العزيز الرحيم) * من رفع فعلى تقدير ذلك تنزيل، ومن نصب فعلى تقدير نزل تنزيل. وموضع * (على صراط مستقيم) * يجوز أن يكون رفعا على أنه خبر، كأنه قال إنك على صراط مستقيم، ويجوز أن يكون نصبا على الحال للارسال، كأنه قال: أرسلوا مستقيما طريقتهم.

وقوله * (لتتذر قوما) * معناه إنه أنزل القرآن لتخوف به من معاصي الله قوما * (ما أنذر آباؤهم) * من قبل اراد به قريشا أنذروا بنبوة محمد، وقيل:

في معناه قولان:

أحدهما - قال عكرمة: معناه لتتذر قوما مثل الذي أنذر آباؤهم.

الثاني - قال قتادة: معناه لتتذر قوما لم ينذر آباؤهم قبلهم - يعني في

(١) مرفي ١ / ١٤٢ و ٢ / ١٨٨ و ٤ / ٤٩٦ و ٥ / ٥١٢ و ٦ / ٤٤٠ (*)

(٤٤٣)

زمان الفترة بين عيسى ومحمد (عليهما السلام) * (فهم غافلون) * عما تضمنه القرآن وعما أنذر الله من نزول العذاب. ومثل الغفلة السهو، وهو ذهاب المعنى عن النفس ومثله النسيان وهو ذهاب الشئ عن النفس بعد حضوره فيها.

ثم اخبر تعالى مقسما انه * (لقد حق القول على اكثرهم) * اي وجب باستحقاق العقاب بادخالهم النار * (فهم لا يؤمنون) * لذلك، وقد سبق في علم الله. ثم اخبر تعالى فقال * (إننا جعلنا في أعناقهم أغلالا) * أي جعل الغل في اعناقهم وهو جمع عنق * (فهي إلى الاذقان) *

والاذقان جمع ذقن وهو مجمع اللحيين. وقيل بأيمانهم إلى اذقانهم، فكنى عنها، لانها معلومة. وقيل:

التقدير بالاغلال بالايمان إلى الاذقان فهو محذوف، قال الشاعر:
وما أدري إذا يمت أرضا * أريد الخير أيهما يليني أأخير الذي أنا ابتغيه * أم الشر الذي لا
يأتليني (١)

* (فهم مقمchon) * فالمقمح الغاض بصره بعد رفع رأسه، وقيل هو المقنع وهو الذي يجذب
ذقنه حتى تصير في صدره ثم يرفع. والقمح من هذا وهو رفع الشيء إلى الفم، والبعير القامح
الذي إذا أورد الماء في الشتاء رفع رأسه وشال به نصبا لشدة البرد، قال الشاعر:
ونحن على جانبها قعود * نغض الطرف كالابل القماح (٢)

وقيل: قد رفعوا رؤسهم وشخصوا بأبصارهم - ذكره مجاهد - ثم قال * (وجعلنا من بين
أيديهم سدا ومن خلفهم سدا) * ومعناه سدا عن الحق - في قول مجاهد وقتادة - أي على جهة
الذم لهم، وصفهم بذلك لا أنهم منعوا منه وكذلك ذكر الاغلال كما قال الافوه الازدي:

(١) مر في ٢ / ١١٣ و ٥ / ٥٢٩ و ٦ / ٣٩١ (٢) اللسان (قح) *

(٤٤٤)

كيف الرشاد إذا ما كنت في نفر * لهم عن الرشاد اغلال واقباد وفي تأويل الآيات قولان:
احدهما - انه جعل جهلهم وذهابهم عن معرفة الحق غلا وسدا إذ كان المغلول الممنوع من
التصرف امامه ووراءه ذاهب عما قد منع منه وحيل بينه وبين الدليل عليه إن الله تعالى لم
يجعل الكافر مغلولا في الحقيقة ولا مسدودا بين يديه ومن خلفه ولا في عينه غشاوة، كقوله
تعالى * (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في اذنيه وقرا) * (١) شبهه
بمن في اذنيه وقر، فعلمنا بهذا التشبيه أنه إنما يريد بوصف الكفار بالوقر والكن والغل والسد
التشبيه الذي عناه - ههنا - ولو كان في إذن الكافر وقر على الحقيقة لم يجز تشبيهه بمن في
اذنيه وقر، وهو كقولهم للجاهل: حمار وثور، وإنما يريدون المبالغة في وصفه بالجهل،
ومعنى (جعلنا) يحتمل وجهين احدهما - انه كما شبههم بمن جعله مغلولا مقيدا أجرى عليه
صفة الجعل بأنه مشبه للمجعول مغلولا مقيدا. والثاني - انه اراد البيان عن الحالة التي شبه
بها المغلول المقيد، كما يقول القائل: جعلني فلان حمارا وجعلني ميتا إذا وصفه بالحمارية
والموت وشبهه بالحمار والميت وهذا واضح.

والوجه الثاني - في تأويل الآيات انه أراد وصف حالهم في الآخرة، لانه تعالى يوثقهم في
الاعلال والسلاسل، ما قال تعالى * (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه) * (٢)

وقال * (إذ الاغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون) * (٣)
وقال في السد الذي جعله لهم: فلا يبصرون كما قال * (يوم

(١) سورة لقمان آية ٧ (٢) سورة ٦٩ الحاقة آية ٣٠ - ٣١ (٣) سورة ٤٠ المؤمن آية ٧١ - ٧٢ (*)

(٤٤٥)

يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهرة من قبله العذاب) * (١)
وقال * (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصماما مأواهم جهنم) * (٢) فلما كانت هذه حال الكفار في الآخرة، وصف حالهم في الدنيا.

وقوله * (فهم مقمحون) * فقد فسرناه في آية اخرى وهي قوله * (مهطعين مقنعي رؤسهم) * (٣) والاقناع هو رفع الرأس واشخاصه فقد صح بما بيناه كلا الوجهين في الآية وزالت الشبهة بحمد الله. وقال السدي: إن ناسا من قريش ائتمروا على قتل النبي (صلى الله عليه وآله) فلما جاءوه جعلت ايديهم إلى اعناقهم فلم يستطيعوا ان يبسطوا اليه يدا. وقال قوم: حال الله بينهم وبين ما أرادوا فعبر عن ذلك بأنه غلت ايديهم. وقال البلخي: يجوز ان يكون المراد * (جعلنا في اعناقهم اغلالا) * من الآيات والبيانات * (وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا) * منها * (فاغشيناهم) * بها * (فهم) * مع ذلك * (لا يبصرون) * بدليل قوله * (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض) * (٤)

وقرأ ابن مسعود وابن عباس * (انا جعلنا في ايمانهم اغلالا) * لان الغل لا يكون في العنق دون اليد، ولا في اليد دون العنق، والمعنى إنا جعلنا في اعناقهم وفي أيانهم اغلالا وقوله * (فهى) * كناية عن الايدي لا عن الاعناق، لان الغل يجعل اليد تلي الذقن، والعنق والعنق هو مقارب الذقن، لان الغ يجعل العنق إلى الذقن.

(١) سورة الحديد آية ١٣ (٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٩٧ (٣) سورة ١٤ ابراهيم آية ٤٣ (٤) سورة ٣٤ سبأ آية ٩ (*)

(٤٤٦)

وقرأ الحسن * (فاغشيناهم) * بالعين المهملة، وهو ما يلحق من ضعف البصر وقيل: الآية نزلت في ابي جهل، لانه هم بقتل النبي (صلى الله عليه وآله) فكان إذا خرج بالليل لا يراه، ويحول الله بينه وبينه. وقيل: السد فعل الانسان، والسد بالضم خلقه تعالى * (فاغشيناهم فهم لا

يبصرون) * أي حكمنا عليهم بأنهم كمن غشي بصره فهم لا يبصرون لذلك. وقيل: اغشيناهم بظلمة الكفر فهم لا يبصرون الهدى. وقيل: بظلمة الليل فهم لا يبصرون النبي (صلى الله عليه وآله). ثم قال * (سواء عليهم أنذرتهم) * يا محمد وخوفتهم * (أم لم تنذرهم) * وتخوفهم بالعقاب * (فهم لا يؤمنون) * للعناد وترك الالتفات والفكر في ما يخوفهم منه، فاستوى علمه تعالى في تركهم الايمان وعدولهم عنه إلى الكفر بسوء اختيارهم. قوله تعالى:

* (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم (١١) إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين (١٢) واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون (١٣) إذا أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون (١٤) قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون) * (١٥) خمس آيات.

(٤٤٧)

قرأ أبو بكر عن عاصم * (فعززنا) * مخففا بمعنى فقهنا من قولهم: من عزيز الباقون بالتشديد يعني قوينا الاثنين بثالث معيناً، لما قال الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) إن هؤلاء الكفار لا يؤمنون أبداً واخبره بأنه سواء عليهم الإنذار وترك الإنذار بين ههنا حال من ينتفع بالإنذار فقال * (إنما تنذر من اتبع الذكر) * ومعناه إنما ينتفع بالإنذارك وتخويفك من اتبع الذكر، لأن نفس الإنذار قد حصل للجميع وأضافه - ههنا - إلى من اتبع الذكر لما كانوا المنتفعين به، كما قال * (هدى للمتقين) *. والذكر المذكور - ههنا - القرآن - في قول قتادة - * (وخشي الرحمن بالغيب) * قيل في معناه قولان:

أحدهما - وخشي الرحمن وخاف ارتكاب معاصيه في غيبه عن الناس.

والثاني - وخشي الرحمن في ما غاب عنه من الآخرة وأمرها.

ثم قال لنبيه من هذه صفة * (فبشره بمغفرة) * من الله لذنوبه * (واجر) * أي ثواب * (كريم) * وهو ما يفعله الله على وجه الاجلال والاكرام. وقيل: الاجر الكريم الجنة.

ثم اخبر تعالى عن نفسه فقال * (إنا نحن نحي الموتى) * بعد أن افنيناهم * (ونكتب ما قدموا) * من طاعاتهم ومعاصيهم في دار الدنيا، وهو قول مجاهد وقاتدة * (وآثارهم) * قال مجاهد: يعني خطاهم إلى المساجد، لأن نبي سلمة من الانصار شكوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعد منازلهم من المسجد والصلاة مع رسول الله، فنزلت فيهم الآية وقيل: معناه وآثارهم التي تبقى بعدهم ويقتدى بهم فيها.

ثم قال * (وكل شئ أحصيناه في إمام مبین) * ومعناه أحصيناه في كتاب ظاهر، وهو اللوح المحفوظ. والوجه في احصاء ذلك في إمام مبین اعتبار

(٤٤٨)

الملائكة به إذا قابلوا به ما يحدث من الامور، وكان فيه دليل على معلومات الله على التفصيل. ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) * (واضرب لهم مثلاً) * معناه اذكر لهم مثلاً. وقيل: معناه مثل لهم مثلاً، من قولهم: هؤلاء اضراب أي امثال. وقوله * (اصحاب القرية) * قال عكرمة والفراء: هي انطاكية * (إذ جاءها المرسلون) * أي حيث بعث الله اليهم بالرسول * (إذ ارسلنا اليهم اثنين) * يعني رسولين. وقال قوم: كانا رسولي عيسى من حواريه. وقال آخرون: كانا رسولين من رسل الله وهو الظاهر * (فكذبوهما) * أي جحدوا نبوتهما * (فعززنا بثالث) * أي فعززهما الله بثالث فيمن قرأ بالتشديد وشد ظهرهما به - في قول مجاهد وابن زيد - ومن خفف أراد فغلب الله بثالث أرسله اليهم * (فقالوا) * لهم يا اهل القرية * (إنا اليكم مرسلون) * ارسلنا الله اليكم * (قالوا) * لهم * (ما أنتم إلا بشر مثلنا) * أي ليس أنتم إلا بشر أمثالنا، فدخلت عليهم الشبهة فاعتقدوا أنه من حيث انهم امثالهم في البشرية لا يصلح ان يكونوا رسلاً كمالاً يصلحون هم لذلك * (وما انزل الرحمن من شئ) * مما تذكرونه وتدعوننا اليه * (ان انتم إلا تكذبون) * أي ليس انتم إلا كاذبون على الله ومتخرون عليه في ادعائكم الرسالة، وذهب عنهم معنى * (اخترناهم على علم على العالمين) * (١) وأنه تعالى علم من حال هؤلاء صلاحهم للرسالة وتحملهم لآعبائها ولم يعلم ذلك من حالهم بل على خلاف ذلك.

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٣٢ *

(٤٤٩)

قوله تعالى:

* (قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون (١٦) وما علينا إلا البلاغ المبين (١٧) قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم (١٨) قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون (١٩) وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين) * (٢٠) خمس آيات لما حكى الله تعالى عن اهل القرية انهم قالوا للرسول * (إن انتم إلا تكذبون) * في ادعائكم الرسالة على الله حكى ما اجابهم به الرسول فانهم * (قالوا ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون) * ووجه الاحتجاج بذلك انه يلزمهم بقولهم الحذر من مخالفتهم والنظر في

معجزاتهم ليعلموا انهم صادقون على الله، ففي ذلك تحذير شديد. ثم قال الرسل لهم أيضا * (وما علينا إلا البلاغ المبين) * أي ليس يلزمنا اكثر من البلاغ المبين، والمعنى انه لو جاءكم رسول غيرنا هل كان عليه إلا البلاغ؟ على حد ما بلغنا. والبلاغ مجئ الشيء إلى حد يقف عنده، بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا، فهو بالغ. ومنه البلاغة، ومثل الابلاغ الافهام والايصال. والمبين صفة للبلاغ، وهو الظاهر الذي لا شبهة فيه، فقالوا لهم في الجواب عن ذلك حين عجزوا عن إيراد شبهتهم، وعدلوا عن النظر في معجزهم * (انا تطيرنا بكم) * أي تشاءمنا بكم، والتطير التشاؤم. ثم هددوهم فقالوا * (لئن لم تنتهوا) * عن

(٤٥٠)

ما تدعونه من النبوة والرسالة * (لنرجمنكم) * بالحجارة - في قول قتادة - وقال مجاهد: معناه لنشتمنكم: فالرجم الرمي بالحجارة، يقال: رجم يرحم رجما، ورجم بالغيب ترجيما * (وليمسنكم منا عذاب اليم) * عند ذلك، فقال لهم الرسل * (طائركم معكم) * أي الشؤم كله معكم باقامتكم على الكفر بالله. وقال الفراء:

معنى * (طائركم معكم) * أي اعمالكم في رقابكم تجازون عليها. وقال المبرد: معنى (طائركم) حظكم ونصيبيكم من الخير والشر. وهو قول ابي عبيدة. والطيحة الشؤم. ومنه قوله (صلى الله عليه وآله) * (لا عدوى ولا هامة ولا صقر ولا غلول) * وفلان لا يطير غرابه، وهو ساكن الطائر، إذا كان ساكنا وقورا، وفلان لا يطور بنا أي لا يقربنا، وما في الدار طوري ولا طوراني أي لا أحد. وعدا فلان طوره إذا جاوز قدره.

وقوله * (أئن ذكرتم) * قرأه ابن كثير ونافع وابوعمره والمفضل عن عاصم - بهمزة بعدها ياء - وهي همزة بين بين. والباقون بهمزتين مخففتين: احداهما همزة الاستفهام، والآخرى - همزة (إن) وجواب (أئن ذكرتم) محذوف وتقديره أئن ذكرتم هذا القول. وقال قوم: معناه أئن ذكرتم طائركم معكم وقال قوم: جعله جزاء قدم خبره عليه لما كان غير مجزوم اللفظ. وقيل: أئن ذكرتم تطيركم قلتم ما قلتم، * (بل انتم قوم مسرفون) * على نفوسكم، لانكم تجاوزتم حد العصيان حين كفرتم بالله وبوحدانيته. وقيل: كان اسم صاحب (يس) الذي قتلته قومه حبيب بن مرى.

حكى الله تعالى انه * (جاء من اقصى المدينة رجل يسعى) * أي رجل من أبعد المدينة جاء يعدوا ويشتد * (فقال يا قوم اتبعوا المرسلين) * الذين أرسلهم الله اليكم واقروا بنبوتهم وبرسالتهم. وقرأ ابو جعفر (أئن) بفتح الهمزة الثانية.

(٤٥١)

وبه قال زوين بن حبيش. ومعناه لان ذكرتم. الباقرن بكسرهما. وقرأ ابوجعفر (ذكرتم) بالتخفيف. الباقرن بتشديدها.

قوله تعالى:

* (إتبعوا من لا يسئلكم أجرا وهم مهتدون (٢١) ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون (٢٢) أتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون (٢٣) إني إذا لفي ضلال مبين (٢٤) إني آمنت بربكم فاسمعون (٢٥) قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون (٢٦) بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين (٢٧) وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين (٢٨) إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون (٢٩) يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن (٣٠) عشر آيات.

قرأ ابوا جعفر * (ان كانت إلا صيحة) * بالرفع في الموضعين جعلها اسم (كان). الباقرن بالنصب على انها خبر كان.

لما حكى الله تعالى ما قال لهؤلاء الكفار الرجل الذي جاءهم من اقصى المدينة وأمرهم بأن يتبعوا الرسل قال لهم ايضا * (اتبعوا) * معاشر الكفار * (من)

(٤٥٢)

لا يسألكم أجرا) * أي لا يطلب الاجر والجزاء والمكافأة على ما يدعوكم اليه ويحثكم عليه، وإنما يدعوكم نصيحة لكم * (وهم) * مع ذلك * (مهتدون) * إلى طريق الحق سالكون سبيله. ثم قال لهم الذي وعظهم وحثهم على طاعة الله واتباع رسله * (ومالي لا أعبد الذي فطرني) * ومعناه ولم لا أعبده الله واتبع رسله، ومالي لا أعبد الذي فطرني، ومعناه ولم لا أعبده الله الذي خلقني وابتداني وهداني * (واليه ترجعون) * أي الذي تردون اليه يوم القيامة حيث لا يملك الامر والنهي غيره. ثم قال لهم منكرا على قومه عبادتهم غير الله * (أتخذ) * أنا على قولكم * (من دون الله) * الذي فطرني وأنعم علي * (آلهة) * اعبدهم؟! فهذه همزة الاستفهام والمراد بها الانكار، لانه لا جواب لها على اصلهم إلا ما هو منكر في العقول ثم قال * (إن يردني الرحمن بضر) * معناه ان أراد الله إهلاكى والاضرار بي لا ينفعني شفاعاة هذه الآلهة شيئا، ولا يقدرن على انقاذي من ذلك الضرر.

ولا يغنون عني شيئا في هذا الباب. وإذا كانوا بهذه الصفة كيف يستحقون العبادة؟! ثم قال * (إني إذا لفي ضلال مبين) * أي إذا لو فعلت ما تفعلونه وتدعون اليه من عبادة غير الله أكن في عدول عن الحق. والوجه في هذا الاحتجاج أن العبادة لا يستحقها إلا من أنعم بأصول النعم ويفعل من التفضل مالا يوازيه نعم منعم، فإذا كانت هذه الاصنام لا يصح فيها ذلك كيف

تستحق العبادة؟! ثم قال مخبراً عن نفسه مخاطباً لقومه * (إني آمنت) * أي صدقت * (بربكم) * الذي خلقكم وأخرجكم من العدم إلى الوجود * (فاسمعون) * مني هذا القول. وقيل: انه خاطب الرسل بهذا القول ليشهدوا له بذلك عند الله. وقال ابن مسعود: إن قومه لما سمعوا منه هذا القول وطؤوه بأرجلهم حتى مات. وقال

(٤٥٣)

قتادة: رجموه حتى قتلوه. وقال الحسن: لما أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله اليه فهو في الجنة، ولا يموت إلا بفناء السماء وهلاك الجنة. قال مجاهد: مثل ذلك. وقالوا الجنة التي دخلها يجوز هلاكها. وقال قوم: إنهم قتلوه إلا أن الله أحياه وادخله الجنة وقال الحسن * (من بعده) * يعني من بعد رفعه. وقال غيره: من بعد قتله.

ثم حكى الله تعالى ما يقول الملائكة لهذا الداعي من البشارة له بعد موته فانهم يقولون له * (ادخل الجنة) * مثاباً مستحقاً للثواب الجزيل على إيمانك بالله فيقول حينئذ * (يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي) * من الذنوب * (وجعلني من المكرمين) * عنده. فهذا المؤمن تمنى أن يعلم قومه بما أعطاه الله تعالى فيرغبوا فيه ويؤمنوا به لينالوا مثله. والاكرام هو اعطاء المنزلة الرفيعة على وجه التعظيم والتبجيل. وقد فاز من أكرمه الله بالرضوان، كما قال تعالى * (ورضوان من الله اكبر) * () لانه سبب يؤدي إلى الجنة.

ثم حكى ما قال وانزل بهؤلاء الكفار من العذاب والاستئصال، فقال * (وما انزلنا على قومه من بعده من جند من السماء) * أي كان إهلاكهم عن آخرهم بأيسر أمر: صيحة واحدة حتى صاروا خامدين ذكره ابن مسعود ومعنى "خامدين" هالكين بتلف أنفسهم، والمعنى إن لم نستعن على إهلاكهم بانزال الجند من السماء "وما كنا منزلين" لهم ليهلكوهم، وما كان إهلاكهم "إلا صيحة واحدة" عظيمة فحين سمعوها هلكوا من عظمها، وماتوا من فزعها. وقوله "يا حسرة على العباد" قيل: هو قول الذي جاء من أقصى المدينة

(١) سورة ٩ التوبة آية ٧٣ (*)

(٤٥٤)

- ذكره البلخي - وقال غيره: معناه يحتمل شيئين: احدهما - يا حسرة من العباد على أنفسهم - ذكره قتادة ومجاهد - . الثاني - انهم قد حلوا محل من يتحسر عليه. وقال ابن عباس: معناه يا ويل للعباد "ما يأتيهم من رسول" أي ليس يأتيهم من رسول من عند الله "إلا كماوا به يستهزؤون" أي يسخرون منه

ويهزؤون به، والذي حكى الله تعالى عنه مخاطبا قومه هو ما قدمنا ذكره: حبيب بن مري -
في اقوال المفسرين.

قوله تعالى:

* (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون (٣١) وإن كل لما جميع لدينا
محضرون (٣٢)

وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون (٣٣) وجعلنا فيها جنات من
نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون (٣٤) ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون
* (٣٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة " لما " بتشديد الميم، الباقون بتخفيفها.

وقرأ اهل المدينة " الميتة " بالتشديد، لانه يقال: لما كان حيا ومات ميت بالتشديد، ولما لم يكن
حيا بالتخفيف - ذكره الفراء - وقرأ اهل الكوفة إلا حفصا " وما عملت " بغير هاء. الباقون
بالهاء. من قرأ (لما) بالتخفيف فانه يكون (ما) في قوله (لما) صلة مؤكدة، وتكون (ان) هي
المخففة من الثقيلة

(٤٥٥)

وتقديره، وإن كل لجميع لدينا محضرون، ومن قرأ بالتشديد يحتمل شيئين:

احدهما - ان يكون بمعنى (إلا) وتقديره وان كل إلا لجميع لدينا محضرون وتكون (إن)
بمعنى الجحد، وكأنه جحد دخل على جحد، فخرج إلى معنى الاثبات. ومثله في الاستعمال
سألتك لما فعلت، بمعنى الا فعلت.

والوجه الثاني - أن يكون معنى (لما) بمعنى (لمن ما) فحذفت احدى الميمات، لاجل التضعيف
كما قال الشاعر:

غداة طفت علماء بكر بن وائل * وعجنا صدور الخيل نحو تميم اراد على الماء، فحذف
لالتقاء المضاعف، وأما (ما) في قوله " وما عملت أيديهم " يحتمل ثلاثة اوجه:

احدها - ان يكون بمعنى الجحد. وتقديره ليأكلوا من ثمره، ولم تعمله أيديهم، ويقوى ذلك قوله
" أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون " (١).

والثاني - ان يكون بمعنى الذي.

والثالث - ان يكون مع ما بعده بمعنى المصدر، فعلى هذا يكون في موضع جر، وتقديره
ليأكلوا من ثمره ومن الذي عملته او من عمل ايديهم من انواع الطعوم الذي أنبتوه، والذي
غرسوه، ومن الذي يطحنونه ويخبزونه، فمن أثبت الهاء او حذفها تبع المصاحف، لان

المصاحف مختلفة. والهاء عائدة على (ما) و (عملت) صلتها. ومن حذف اختصر، لأنها للمفعول به، وكل مفعول يجوز حذفه، كقوله " ما ودعك ربك وما قلى " (٢) يريد وما قلاك

(١) سورة ٥٦ الواقعة آية ٦٣ - ٦٤ (٢) سورة ٩٣ الضحى آية ٣ (*)

(٤٥٦)

ومثله " منهم من كلم الله " (١) يريد كلمه الله، وكقوله " أهذا الذى بعث الله رسولا " (٢) يريد بعثه الله.

يقول الله تعالى منبها للكفار على وجه الاستدلال على وحدانيته بأن يقول " ألم يروا " ومعناه ألم يعلم هؤلاء الكفار " كم اهلكنا قبلهم من القرون " فمعنى (كم) ههنا للتكثير، ويفسرها (من القرون) وتقديره ألم يروا كم قرنا اهلكنا قبلهم من القرون، وموضع (كم) نصب ب (يروا) - في قول الكوفيين، وعند البصريين ب (أهلكنا) على تقدير القرون اهلكنا او اكثر " انهم اليهم لا يرجعون " ونصب (انهم) لانه مفعول (الم يروا) وكسره الحسن على وجه الاستئناف، ووجه الاحتجاج بذلك هو انه قيل لهم: انظروا لم لا يرجعون فانكم تجدون ذلك في قبضة مالكم يردهم في الآخرة إذا شاء ردهم، لانه لا يخلو اهلاكهم اما بالاتفاق من غير اضافة او بالطبيعة او بحى قادر، ولو كان بالاتفاق او بالطبيعة لم يمتنع ان يرجعوا إلى الدنيا، فاذا بطل ذلك، ثبت أن إهلاكهم بحى قادر إذا شاء ردهم وإذا شاء لم يردهم. ووجه التذکر بكثره المهلكين أى انكم ستصيرون إلى مثل حالهم، فانظروا لانفسكم واحذروا أن يأتىكم الا هلاك، وانتم في غفلة عما يراد بكم.

والقرون جمع (قرن) وأهل كل عصر يسمى قرنا، لاقترانهم في الوجود والقرن - بكسر القاف - هو المقاوم في الحرب، ومنه قرن الشاة لمقارنته القرن الآخر، وكذلك كل ذى قرنين. وقال قتادة " انهم اليهم لا يرجعون " عاد وثمود، وقرون بين ذلك كثيرة. ثم قال وهؤلاء الذين لا يرجعون كلهم " لدينا محضرون " يوم القيامة يحضرهم الله ويبعثهم ليجازيهم على اعمالهم.

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٣ (٢) سورة ٢٥ الفرقان آية ٤١ (*)

(٤٥٧)

وقوله * (وآية لهم) * على ذلك أي دلالة وحجة قاطعة * (الارض) * يعني هي الارض * (الميتة) * القحطة المجذبة وهي التي لا تنبت * (احييناها) * بالنبات * (واخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) * من انواع ما يأكلون * (وجعلنا فيها) * أي وخلقنا في الارض * (جنات) *

يعني بساتين * (من نخيل) * جمع نخل * (واعناب) * جمع عنب * (وفجرنا فيها) * في تلك الجنات * (من العيون) * وهي عيون الماء تتبع فيها وتجري ثم بين انه إنما خلق ذلك * (ليأكلوا من ثمره) * أي غرضنا نفعهم بذلك وانتفاعهم بأكل ثمار تلك الجنات * (وما عملته ايديهم) * أي ولم تعمل تلك الثمار ايديهم إذا (ما) كانت بمعنى النفي، وإذا كانت معناها معنى الذي يكون تقديره، والذي عملته ايديهم من انواع الاشياء المتخذة من النخل والعنب وكثرة منافعه. وقوله * (من ثمره) * رد الكناية إلى احدهما كما قال * (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) * (١) كما قال الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما * عندك راض والرأي مختلف (٢)

وقوله * (افلا تشكرون) * معناه هلا تشكرونه على هذه النعم التي عدتها. قوله تعالى:

* (سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (٣٦) وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون (٣٧) والشمس تجري لمستقر لها ذلك

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣٥ (٢) مر في ١ / ١١٧، ٢٢٠، ٢٦٣ و ٥ / ٢٤٦، ٢٨٩ (*)

(٤٥٨)

تقدير العزيز العليم (٣٨) والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم (٣٩) لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) * (٤٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير ونافع وابوعمر وروح " والقمر قدرناه " رفعا على الاستئناف لان الفعل مشغول بالضمير العائد إلى القمر. وقال ابو علي: الاجود أن يكون رفعا على تقدير وآية لهم القمر قدرناه، لانه اشبه بالجمل قبلها. ومن رفعه بالابتداء جعل (لهم) صفة للنكرة والخبر مضمرة، وتقديره " وآية لهم " في المشاهدة او الوجود، ويكون قوله " الليل نسلخ منه النهار " تفسير للآية. الباقي بالنصب بتقدير فعل مضمرة، ما بعده تفسيره، وتقديره: وقد رنا القمر قدرناه.

يقول الله تعالى منزها نفسه ومعظما لها ودالا بأنه هو الذي يستحق الحمد بما نبه بقوله " سبحان الذي " أي تنزيها للذي " خلق الأزواج كلها " أي تعظيما وتجيلا له بجميع ما خلق من الأزواج، وهي الأشكال، والحيوان على مشكلة الذكر للانثى، وكذلك النخل والحبوب اشكال، والنين والكرم ونحوه اشكال، فلذلك قال " مما تنبت الارض " يعني من سائر النباتات " ومن أنفسهم " من الذكر والانثى " ومما لا يعلمون " مما لم يشاهدوه ولم يصل خبره اليهم.

ثم قال " وآية لهم " يعني دلالة وحجة على صحة ذلك " الليل نسلخ منه النار " أي نخرج منه النهار " فاذا هم مظلومون " أي داخلون في الظلمة لا ضياء

(٤٥٩)

لهم فيه بالشمس، فالسلخ إخراج الشئ من لباسه، ومنه إخراج الحيوان من جلده، يقال سلخ يسلخ سلخا فهو سالخ، ومنه قوله * (فانسلخ منها) * (١) أي فخرج منها خروج الشئ مما لابسها، ثم قال * (والشمس تجري لمستقر لها) * آية اخرى. وقيل في معنى المستقر ثلاثة اقوال:

احدها - لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا.

الثاني - قال قتادة: لوقت واحد لها لا تعود ولا تختلف.

الثالث - إلى ابعاد منازلها في الغروب. وقال المبرد معنى * (المستقر لها) * أي إلى. ومن قال الشمس لا تستقر بل تتحرك أبدا قال معنى * (المستقر لها) * أنها كلما انتهت إلى منقلب الصيف عادت في الرجوع وإذا بلغت منقلب الشتاء عادت إلى الصعود. ثم قال * (ذلك تقدير العزيز العليم) * أي من قدر الشمس على ذلك إلا القادر الذي لا يضام، العالم بما يفعله؟، ثم قال * (والقمر قدرناه) * فمن رفع عطف على قوله * (والشمس تجري) * ومن نصب قدر له فعلا يفسره وقوله * (قدرناه منازل) * كل يوم ينزل منزلا غير المنزل الاول لا يختلف حاله إلى ان يقطع الفلك * (حتى عاد كالعرجون القديم) * فالعرجون العذق الذي فيه الشماريخ، فاذا تقادم عهده يبس وتقوس، فشبه به. وقال الفراء: العرجون ما بين الشماريخ إلى المنابت في النخلة من العذق، والقديم الذي اشرف على حول.

وقوله * (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) * حتى يكون نقصان ضوءها كنقصان القمر، وقال ابوصالح: معناه لا يدرك احدهما ضوء الآخر، وقيل معناه: * (لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر) * في سرعة سيره * (ولا الليل سابق النهار) * اي ولا يسبق الليل النهار. وقيل: إن احدهما لا يذهب إلى معنى

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٤ *

(٤٦٠)

الآخر وكل له مقادير قدرها الله عليه. ثم قال * (وكل في فلك يسبحون) * يعني الشمس والقمر والكواكب يسبحون في الفلك. وإنما جمعها بالواو والنون لها أضاف إليها افعال آدميين. وقيل: الفلك مواضع النجوم من الهواء الذي يجري فيه. ومعنى يسبحون يسبيرون فيه بانبساط، وكل ما انبسط في شئ فقد سبح فيه، ومنه السباحة في الماء.

قوله تعالى:

* (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون (٤١)

وخلقنا لهم من مثله ما يركبون (٤٢) وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون (٤٣) إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين (٤٤) وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون (٤٥)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب * (ذرياتهم) * على الجمع. الباقون * (ذريتهم) * على التوحيد.

يقول الله تعالى ممثلا على خلقه بضروب نعمه، ودالا لهم على وحدانيته بأن حمل ذريتهم في الفلك المشحون. وقيل: معنى * (حملنا ذريتهم) * أي قويناهم وهديناهم، كما يقول القائل: حملني فلان إذا اعطاه ما يحمل عليه أو هداه إلى ما يحمل عليه. ومن جمع (ذرياتهم) فلان كل واحد له ذرية. ومن وحد فلانه لفظ جنس يدل على القليل والكثير، فالحمل منع الشيء أن يذهب إلي

(٤٦١)

جهة السفلى، يقال: حملة حملا، فهو حامل والشيء محمول. و (الذرية) فعلية من الذر. وقيل: هو مشتق من (الذرة) الذي هو الخلق. وقد بيناه في ما مضى (١) والفلك السفن، لأنها تدور في الماء، ومنه الفلكة لأنها تدور بالمغزل والفلك لأنه يدور بالنجوم، وفلك ثدي المرأة إذا استدار و (المشحون)

المملؤ يقال: شحنت الثغر بالرجال أشحنه شحنا إذا ملأته، ومنه الشحنة، لأنه يملأ بهم البلد، وإنما خص الذرية - وهم الصبيان والنساء - باللفظ، لأنهم لا قوة لهم على السفر كما يقوى الرجال، فسخر الله لهم السفن بما جعلها على الماء وعدل الريح ليتمكن الحمل في البحر، وجعل الأبل في البر. وقال قتادة والضحاك: المعنى بقوله " حملنا ذريتهم في الفلك المشحون " سفينة نوح.

و " خلقنا لهم من مثله ما يركبون " قال ابن عباس، وهو قول مجاهد: ان المراد به الأبل وهي سفن البر.

وقوله " وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم " معناه إنا لو شئنا إذا حملناهم في السفن أن نغرقهم فعلنا " فلا صريخ لهم " أي لا مغيث لهم ولا صارخ بالاستغاثة قال الشاعر:

كنا إذا ما اتانا صارخ فزع * كان الصراخ له قرع الطنابيب أي لا شيء اعانته إلا الجد في نصرته، والطنبوب عظم الساق. وقيل:

معنى الصريخ المعين عند الصراخ بالاستغاثة، وكأنه قال: لا معين لهم يعينهم عند ذلك " ولا هم ينفذون " أي ولا يخلصون ايضاً من الغرق إذا اردناه.
وقوله " إلا رحمة منا " معناه إلا أن نرحمهم رحمة منا و نمتعهم " متاعاً " ويحتمل إلا لرحمة منا، فيكون مفعولاً له، و " إلى حين " أي إلى وقت ما قدرناه

(١) انظر ٢ / ٤٤١ و ٣ / ١٢٤ و ٤ / ٣٠٣ و ٥ / ٣٢، ٤٨ (*)

(٤٦٢)

لا هلاكهم وتقضي آجالهم، ونخلصهم في الحال من احوال البحر.
وقوله " وإذا قيل لهم اتقوا ما بين ايديكم " قال قتادة: معناه ما بين ايديكم من عذاب الله لمن خلا قبلكم اتقوا مثله باجتتاب معاصيه " وما خلفكم " من أمر الساعة " لعلمكم ترحمون " لكي ترحموا عند ذلك وحذف الجواب، كأنه إذا قيل: لهم هذا اعرضوا. وقال مجاهد: معنى " ما بين ايديكم " هو ما يأتي من الذنوب اجتنبوه في المستقبل " وما خلفكم " يعني ما مضى من ذنوبكم تلافوه بالتوبة لترحموا.

قوله تعالى:

* (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين (٤٦) وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين (٤٧) ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٤٨)
ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخضمون (٤٩) فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) * (٥٠) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وابوعمر و " يخضمون " بفتح الخاء وتشديد الصاد إلا أن أبا عمرو يختلس حركة الخاء. وقرأ نافع - بفتح الياء وتسكين الخاء مشدد الصاد - يجمع بين ساكنين. وقرأ ابن عامر وعاصم والكسائي - بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصاد - وقرأ حمزة - بفتح الياء وتسكين الخاء وتخفيف الصاد -

(٤٦٣)

فمعنى هذه القراءة: وهم يخضمون عند انفسهم في دفع النشأة الثانية والقراءتان الاولييتان بمعنى يخضمون، فأدغمت الياء في الصاد بعد أن اسكنت. فمن أسكن الخاء، فلانها في الاصل ساكنة، ومن فتحها نقل حركة الياء اليها.

ومن كسر الخاء اتبع كسرتها كسرة الصاد. وفي القراء من كسر الياء اتباعاً لكسرة الخاء، كما قالوا يهدي، وهو يجئ عن أبي بكر.

يقول: الله تعالى مخبرا عن عناد هؤلاء الكفار وشدة جهلهم بأنه * (ما تأتيهم من آية) * أى دلالة وحجة من حجج الله و (من) تزداد في النفي إذا أريد بها الاستغراق، كقولهم: ما جاعني من احد ومعناه ما جاعني احد. و (من)

الثانية للتبعض، لانه ليس كل آيات الله جاعتهم، غير انه تعالى قال ليس تأتيهم من آية أى أي آية كانت * (من آيات ربهم إلا كانوا) * هؤلاء الكفار * (عنها معرضين) * أى ذاهبين عنها وتاركين لها ومعرضين عن النظر فيها، وكل من اعرض عن الداعي إلى كتاب الله وآياته التي نصبها لعباده ليعرفوه بها فقد ضل عن الهدى وخسر الدنيا والآخرة.

ثم اخبر تعالى انه إذا قيل لهم: ايضا * (انفقوا مما رزقكم الله) * في طاعته واخرجوا ما اوجب الله عليكم في أموالكم - من الزكوات وغيرها وضعوها في مواضعها * (قال الذين كفروا) * بوحداية الله وجدوا ربوبيته وكذبوا بنبوة نبيه * (انطمع من لو يشاء الله أطعمه) * احتجاجا منهم في منع الحقوق، بأن يقولوا كيف نطمع من الله قادر على أطعمه؟! ولو شاء إطعمه أطعمه، فاذا لم يطعمه دل على انه لم يشأ إطعمه فنحن إذا أحق بذلك. وذهب عليهم أن الله تعبدهم بذلك، لما فيه من المصلحة واللطف في فعل الواجبات وترك المقبحات، فلذلك كلفهم إطعام غيرهم. و (الرزق) هو ما خلق الله لخلقه لينتفعوا به على وجه

(٤٦٤)

لا يكون لاحد منعه منه فعلى هذا الوجه لا يكون الحرام رزقا، فان الله تعالى قد منع منه بالنهاي وقد سمي رزقا ما يصلح للانتفاع به مجازا، فعلى هذا ليس كل ما رزقه الله العبد جعل له الانفاق منه والتصرف فيه، وعلى الاول - وهو الاصح - جعل له ذلك. ثم قال لنبينه (صلى الله عليه وآله) قل لهم يا محمد * (إن انتم إلا في ضلال مبين) * أى ليس لكم هداية وما انتم إلا في ذهاب عن الحق وعدول عنه بين، فعلى هذا قول من قال: هو من قول الله تعالى صحيح. وقال قوم:

هو من قول المشركين كأنهم لما قالوا: انطمع من لو يشاء الله اطعمه؟ قالوا لرسله ليس انتم إلا في ضلال مبين في ما تدعونا اليه.

ثم اخبر تعالى عن الكفار انهم * (يقولون متى هذا الوعد) * الذي تعدنا به من نزول العذاب بنا استهزاء بخبره (صلى الله عليه وآله) وخبر المؤمنين وتجريا على الله * (إن كنتم صادقين) * في ما تدعونا اليه وتخوفونا منه. فقال الله تعالى في جوابهم * (ما ينظرون) * أى لا ينتظرون * (إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخضمون) * في هل ينزل العذاب بهم أم لا؟ وإنما جعلهم منتظرين لما قالوا: متى هذا الوعد، لان من يلتمس الوعد يكون منتظرا لما وعد

به * (تأخذهم) * في حال خصامهم * (فلا يستطيعون توصية) * أي لا يقدر بعضهم على ان يوصي إلى بعض * (ولا إلى اهلهم يرجعون) * أي لا يردون إلى اهلهم فيوصون اليهم. والصيحة التي تأخذهم هي الصيحة الاولى في الدنيا عند قيام الساعة * (تأتيهم بغتة) * والرجل يسقي أبله وآخر يبيع سلعته على عادتهم في تصرفاتهم، فاذا اخذتهم ونزلت بهم لم يستطيعوا توصية ولم يرجعوا إلى اهلهم للمعاجلة، وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال (هي ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين).

(٤٦٥)

قوله تعالى:

* (ونفخ في الصور فاذهب من الاجداث إلى ربهم ينسلون (٥١) قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون (٥٢) إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون (٥٣) فالיום لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون (٥٤) إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون (٥٥) هم وأزواجهم في ظلال على الارائك متكئون (٥٦) لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون (٥٧) سلام قولا من رب رحيم (٥٨) وامتازوا اليوم أيها المجرمون (٥٩) ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) * (٦٠) عشر آيات بلا خلاف قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو " في شغل " خفيفة. الباقر بضم الغين مثقلة " وهما لغتان. وقرأ أبو جعفر " فكهون " بغير ألف حيث وقع، وافقه حفص والداحوني عن ابن ذكوان في (المطففين). وقرأ اهل الكوفة إلا عاصما " في ضلل " على انه جمع ظلة مثل ظلمة وظلم وتحفة وتحف، الباقر " في ظلال " مثل برمة وبرام، وقلة وقلال. وقيل: هو جمع ظل وضلال، وهو الكن، كما

(٤٦٦)

قال * (يتقيروا ظلاله) * (١) وقال أبو عبيدة: هو جمع الظل أظلال. يقول الله تعالى مخبرا * (ونفخ في الصور) * وقيل: إن الصور قرن ينفخ فيه إسرافيل فيخرج من جوفه صوت عظيم يميل العباد اليه، لانه كالداعي لهم إلى نفسه. وقال أبو عبيدة: الصور جمع صورة مثل بسرة وبسر، ولو جعلوه مثل (ظلمة، وظلم) لقالوا: صور بفتح الواو، وهو مشتق من الميل، صاره يصوره صورا إذا أماله ومنه قوله * (فصرهن اليك) * (٢) أي أمهّن اليك ومنه الصورة، لانها تميل إلى مثلها بالمشاكلة. وقوله * (فاذا هم من الاجداث) *

وهو جمع جدث، وهو القبر، فلغة اهل العالية بالثاء، ولغة اهل السافلة بالفاء يقولون: جدف إلى ربهم ينسلون أي يسرعون والنسول الاسراع في الخروج كما قال الشاعر:

عسلان الذئب أمسى قاربا * برد الليل عليه فنسل (٣)

يقال: نسل ينسل وينسل نسولا، قال امرؤ القيس:

وإن تك قد ساعتك مني خليفة * فسلي ثيابي من ثيابك تنسل (٤)

وقال قتادة: الموتة بين النفختين. ثم حكى ما يقول الخلائق إذا حشروا، فانهم * (يقولون يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) * أي من حشرنا من منامنا الذي كنا فيه نياما، ثم يقولون * (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) * في ما أخبرونا عن هذا المقام وعن هذا البعث. فان قيل: هذا ينافي قول المسلمين الذين يقولون: الكافر يعذب في قبره، لانه لو كان معذبا لما كان في المنام!.

قيل: يحتمل ان يكون العذاب في القبر ولا يتصل إلى يوم البعث، فتكون النومة

(١) سورة ١٦ النحل آية ٤٨ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٦٠ (٣ و ٤) مرفي ٧ / ٢٧٩ (*)

(٤٦٧)

بين الحاليين. يحتمل لو كان متصلا أن يكون ذلك عبارة عن عظم ما يشاهدونه ويحضرون فيه يوم القيامة، فكأنهم كانوا قبل ذلك في مرقد، وإن كانوا في عذاب لما كان قليلا بالاضافة إلى الحاضر. وقال قتادة: قوله * (هذا ما وعد الرحمن) * حكاية قول المؤمن. وقال ابن زيد والجبائي: هو قول الكفار، وهو أشبه بالظاهر، لانه تعالى حكى عنهم انهم يقولون: يا ويلنا، والمؤمن لا يدعو بالويل لعلمه بماله من نعيم الجنة. وقال الفراء: هو من قول الملائكة.

وقال تعالى مخبرا عن سرعة بعثهم وسرعة اجتماعهم * (إن كانت إلا صيحة واحدة) * والمعنى ليست المدة إلا مدة صيحة واحدة * (فاذا هم جميع لدينا محضرون) * ثم حكى تعالى ما يقوله - عزل وجل - يومئذ للخلائق فانه يقول لهم * (فاليوم لا تظلم نفس شيئا) * أي لا ينقص من له حق من حقه شيئا من ثواب او عوض او غير ذلك، ولا يفعل به مالا يستحقه من العقاب بل الامور جارية على العدل * (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) * ومعناه لا يجازى الانسان إلا على قدر عمله، إن كان عاملا بالطاعة جوزي بالثواب. وإن كان عاصيا جوزي بالعقاب على قدر عمله من غير زيادة عليه ولا نقصان، إلا أن يتفضل الله باسقاط عقابه.

ثم قال تعالى * (إن اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون) * يعني يشغلهم النعيم الذي يغمرهم بسرورهم به عن غيره. وقال ابن مسعود وابن عباس:

الشغل كناية عن افتضاض الابكار. وقيل استماع الالحان * (فاكهون) * قال ابن عباس: معناه فرحون. وقال مجاهد: عجبون، وقيل: ذو فاكهة، كما يقال لاحم شاحم أي ذو لحم وشحم، وعاسل ذو عسل، قال الحطيئة:

(٤٦٨)

وعزرتي وزعمت انك لابن في الصيف تامر (١)
أي ذو لبن وتمر. وقيل: فاكه وفكه مثل حاذر وحذر. والفكه الذي يتمرى بالشئ.
ثم اخبر عن حال أهل الجنة فقال * (هم وأزواجهم في ظلال على الارائك) * فالازواج جمع زوجة وهي حرة الرجل الذي يحل له وطؤها. ويقال للمرأة زوج ايضا بغير هاء في الموضع الذي لا يلتبس بالذكر، والظلال الستار عن وهج الشمس وسمومها، فاهل الجنة في مثل ذلك الحال في الطيبة من الظلال الذي لا حر فيه ولا برد. وقيل: الظل الكن وجمعه ظلال. وقيل هو جمع ظلة وظلال، مثل قلة وقلال، ومن قرأ ظلل، فعلى وزن ظلمة وظلم، وقلة وقلال. والارائك جمع أريكة وهي الوسادة، وجمعها وسائد، ويجمع أيضا أرك كقولهم سفينة وسفن وسفائن، وهذه جلسة الملوك العظماء من الناس. وقيل الارائك الفرش، قال ذو الرمة:

خودا جفت في السير حتى كأنما * يباشرن بالمعزاء مس الارائك (٢)

وقال عكرمة وقتادة: الارائك الحجال على السرر * (منكئون) * فمتكى مفتعل من توكأت، إلا أن الواو أبدلت تاء. ثم قال * (لهم فيها) * في الجنة * (فاكهة، ولهم ما يدعون) * أي ما يتمنون، وقال ابو عبيدة: يقول العرب:

ادع على ما شئت أي تمن ما شئت، وقيل: معناه إن من ادعى شيئاً فهو له بحكم الله تعالى، لأنه قد هذبت طباعهم، فلا يدعون إلا ما يحسن منهم.

وقوله * (سلام قولا من رب رحيم) * معناه ولهم سلام قولا من رب رحيم

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٦٤ (٢) مجاز القرآن ١ / ٤٠١ و ٢ / ١٦٤ (*)

(٤٦٩)

يسمعونه من الله تعالى ويؤذنه بدوام الامن والسلامة ودوامهما مع سبوغ النعمة والكرامة. ثم يقول للعصاة * (أمتازوا اليوم أيها المجرمون) * ومعناه انفصلوا معاشر العصاة وامتازوا، الذين اجترموا وارتكبوا من المعاصي من جملة المؤمنين، وقال قتادة: معناه اعتزلوا معاشر العصاة عن كل خير، يقال تميز الشئ تميزاً، وميزته تمييزاً، وأنماز انميازاً.

ثم حكى ما يقول تعالى لهم فانه يقول لهم * (ألم اعهد اليكم يا بني آدم) * يعني على لسان أنبيائه * (ان لا تعبدوا الشيطان) * فجعل عبادتهم للاوثان بأمر الشيطان عبادة له * (إنه لكم عدو مبين) * أي، وقلت لكم أن الشيطان لكم عدو مبين أي ظاهرة عداوته لكم. قوله تعالى:

* (وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم (٦١) ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون (٦٢) هذه جهنم التي كنتم توعدون (٦٣) اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون (٦٤) اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) * (٦٥) خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ورويس * (جبلا) * بضم الجيم والباء خفيفة اللام. وقرأ نافع وابوجعفر وعاصم بكسر الجيم والباء مشددة. وقرأ ابو عمرو وابن عامر بضم الجيم ساكنة الباء خفيفة. هذه كلها لغات

(٤٧٠)

والمعنى واحد. قال النوري يقال: جبلا و جبلا و جبلا و جبلا. وحكى غيره التشديد. لما حكى الله تعالى ما يقوله الكفار يوم القيامة ويوافقهم عليه من انه عهد اليهم أن لا تعبدوا الشيطان وانه عدوهم، حكى انه كان أمرهم أيضا بأن يعبدوا الله وأن عبادته صراط مستقيم، فوضف عبادته تعالى بأنه طريق مستقيم من حيث كان طريقا مستقيما إلى الجنة. وانه لا تخليط فيه ولا تعريج. ثم قال * (ولقد أضل منكم) * يعني أضل عن الدين الشيطان منكم * (جبلا كثيرا) * أي خلقا كثيرا وإضلاله إياهم هو إغواؤه لهم، كما أضل السامري قوم موسى لما دعاهم إلى عبادة العجل، فكان الاضلال على هذا الوجه قبيحا، فأما إضلال الله تعالى للكفار عن طريق الجنة إلى طريق النار او إضلالهم بمعنى الحكم عليهم بالاضلال، فهو حسن. وأمر الشيطان بالاضلال الذي يقع معه القبول إضلال كما يسمى الامر بالاهتداء الذي يقع عنده القبول هدى.

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة في إرادة الله اضلالهم، لان ذلك اضر عليهم من إرادة الشيطان واشد عليهم في إيجاد العداوة قبل أن يكفروا. و (الجبلى) الجمع الذين جبلوا على خليقة، وجبلوا أى طبعوا.

وأصل الجبل الطبع ومنه جبلت التراب بالماء إذا صيرته طينا يصلح أن يطبع فيه، ومنه الجبل لانه مطبوع على الثبات * (أفلم تكونوا تعقلون) * أنه يغويكم ويصدكم عن دين الحق فتنتهون عليه، فهو بصورة الاستفهام ومعناه الإنكار عليهم والتبكييت لهم.

ثم يقول الله لهم * (هذه جهنم التي كنتم توعدون) * بها في دار التكليف حاضرة تشاهدونها *
(اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) * معناه الزموا العذاب

(٤٧١)

بها، وأصل الصلو اللزوم فمنه المصلي الذي يجئ في أثر السابق للزومه أثره والصلوان
مكتتفا ذنب الفرس للزومها وموضعها. وقولهم: صلى على عاداتها للزومه الدعاء، وسميت
الصلاة صلاة للزوم الدعاء فيها. وقوله * (بما كنتم تكفرون) * أي جزاء على كفركم بالله
وجحدكم لوحداثيته وتكذيبكم انبياءه.

ثم اخبر تعالى بأنه يختم على افواه الكفار يوم القيامة فلا يقدرّون على الكلام والنطق " وتكلّمنا
أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون " قيل:
في معنى شهادة الايدي قولان:

احدهما - إن الله تعالى يخلقها خلقة يمكنها أن تتكلم وتتطق وتعترف بذنوبها والثاني - انه
يجعل الله فيها كلاما ونسبه اليها لما ظهر من جهتها، وقال قوم: انه يظهر فيها من الامارات
ما تدل على ان اصحابها عصوا وجنوا بها أفبح الجنايات فسمى ذلك شهادة، كما يقال: عيناك
تشهد لسهرك، وقال الشاعر:

امتلا الحوض وقال قطني * مهلا رويدا قد ملات بطني (١)

وغير ذلك مما قد بيناه في ما تقدم، وكل ذلك جائز، وقال آخر:

وقالت له العينان سمعا وطاعة * وحدرتا كالدّر لما يتقب (٢)

قوله تعالى:

* (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستقبوا الصراط فأنى يبصرون (٦٦) ولو نشاء لمسخناهم
على مكانتهم فما استطاعوا

(١) مر في ١ / ٤٣١ (٢) مر في ١ / ٤٣ و ٦ / ٤٥ (*)

(٤٧٢)

مضيا ولا يرجعون (٦٧) ومن نعمده ننكسه في الخلق أفلا يعقلون (٦٨) وما علمناه الشعر
وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين (٦٩) لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين
(٧٠)

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو بكر عن عاصم * (مكاناتهم) * على الجمع. الباقر على التوحيد، لانه يدل على القليل
والكثير. وقرأ عاصم وحمزة * (ننكسه) * بضم النون الاولى وفتح الثانية وتشديد الكاف.

الباقون بفتح النون الاولى وتخفيف الثانية وتخفيف الكاف، وهما لغتان تقول: نكست ونكست مثل رددت ورددت غير ان التشديد للتكثير، والتخفيف يحتمل القليل والكثير، وقال ابو عمرو بالتشديد ان ترك الرجل من دأبه، وبالتخفيف ان يرده إلى ارضه العمر، ففرق بينهما. وقرأ نافع وابو جعفر والداحوني عن هشام والنقار ويعقوب * (أفلا تعقلون) * بالتاء. الباكون بالياء، والاول على الخطاب، والثاني على الخبر عن الغائب. وقرأ اهل المدينة وابن عامر " لتندر " بالتاء. الباكون بالياء.

يقول الله تعالى مخبرا عن قدرته على إهلاك هؤلاء الكفار الذين جحدوا وحدانيته وعبدوا سواه وجدوا رسله إنا * (لو نشاء لطمسنا على أعينهم) * قال ابن عباس: معناه إننا لو شئنا أعميناهم عن الهدى. وقال الحسن وقتادة:

معناه لتركناهم عميا يترددون والطمس محو الشئ حتى يذهب أثره، فالطمس على العين كالطمس على الكتاب، ومثله الطمس على المال: إذهابه حتى لا يقع على إدراكه * (فاستبقوا الصراط) * ومعناه طلبوا النجاة. والسبق اليها ولا بصر

(٤٧٣)

لهم * (فانى تبصرون) وقيل: معناه فاستبقوا الطريق إلى منازلهم فلم يهتدوا اليها. وقال ابن عباس: معناه طلبوا طريق الحق وقد عموا عنها.

والطمس على العين إذهاب الشق الذي بين الجفنتين، كما تطمس الريح الاثر يقال أعمى مطموس، وطمس أي عمي * (فاستبقوا) * معناه فابتدروا، وهذا بيان من الله أنهم في قبضته، وهو قادر على ما يريد بهم، فليحذروا تنكيهه بهم. ثم قال زيادة في التحذير والارهاب * (ولو نشاء لمسخناهم على مكائهم) * والمسخ قلب الصورة إلى خلقة مشوهة كما مسخ قوما قردة وخنزير، والمسخ نهاية التكييل. وقال الحسن وقتادة: معناه لمسخناهم على مقعدهم على أرجلهم والمكانة والمكان واحد، ولو فعلنا بهم ذلك * (فما استطاعوا مضيا) * أي لما قدروا أن يذهبوا أصلا ولا أن يجيئوا ثم قال * (ومن نعمه ننكسه في الخلق) * معناه إن من طولنا عمره نصيره بعد القوة إلى الضعف وبعد زيادة الجسم إلى النقصان وبعد الجدة والطرارة إلى البلى والخلافة. وقيل معناه: نصيره ونرده إلى حال الهرم التي تشبه حال الصبي وغروب العلم وضعف القوى ذكره قتادة.

وقوله * (افلا تعقلون) * يعني ما ذكرناه بأن تفكروا فيه فتعرفوا صحة ما قلناه.

ثم اخبر تعالى عن نبيه (صلى الله عليه وآله) فقال * (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) * ومعناه ما علمناه الشعر لاننا لو علمناه ذلك لدخلت به الشبهة على قوم في ما اتى به من القرآن وأنه قدر على ذلك لما في طبعه من الفطنة للشعر. وقيل:

لما لم يعط الله نبيه العلم بالشعر وإنشائه لم يكن قد علمه الشعر، لانه الذي

(٤٧٤)

يعطي فطنة ذلك من يشاء من عباده. ثم قال * (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) * يعنى ليس الذي أنزلناه عليه شعرا بل ليس إلا ذكر من الله * (وقرآن مبين لتتذر به) * يعنى واضح، وفعلنا ذلك وغرضنا أن تتذر به أي تخوف به من معاصي الله * (من كان حيا) * قيل: معناه من كان مؤمنا، لان الكافر شبيهه ومثله بالاموات في قوله * (أموات غير أحياء) * (١) ويقويه قوله * (ويحق القول على الكافرين) * ويجوز أن يكون أراد من كان حيا عاقلا دون من كل جمادا لا يعقل، ويحق القول على الكافرين إذا لم يقبلوه وخالفوا فيه. ومن قرأ بالتساء وجه الخطاب إلى النبي (صلى الله عليه وآله) لانه الذي يخوف. ومن قرأ بالياء معناه إن الله الذي يخوفهم ويرهبهم بالقرآن، لانه الذي أنشأه، ويجوز أن يكون القرآن هو الذي ينذر من حيث تضمن الانذار. قوله تعالى:

* (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون (٧١) وذللناها لهم فمناها ركوبهم ومنها يأكلون (٧٢) ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون (٧٣) واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون (٧٤) لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) * (٧٦) خمس آيات بلا خلاف. يقول الله تعالى منبها لخلقه على الاستدلال على معرفته * (اولم يروا) *

(١) سورة ١٦ النحل آية ٢١ (*)

(٤٧٥)

ومعناه او لم يعلموا * (أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاما) * ومعناه إنا عملناه من غير أن نكله إلى غيرنا، فهو بمنزلة ما يعمله العباد بأيديهم في انهم تولوا فعله ولم يكلوه إلى غيرهم، وتقديره انا تولينا خلق الانعام لهم بأنفسنا. والانعام جمع النعم، وهي الابل والبقر والغنم * (فهم لها مالكون) * معناه. لو لم يخلق ذلك لما صح ملكهم لها، وكذلك سائر أملاك العباد بهذه الصفة فهو المنعم على عباده بكل ما ملكوه، وبحسب ما ينتفعون به يكون حاله حال المنعم. واليد في اللغة على أربعة أقسام: احدهما - الجارحة. والثاني - النعمة. والثالث - القوة. والرابع - بمعنى تحقيق الاضافة. تقول: له عندي يد بيضاء أي نعمة، وتلقى قولي باليدين أي بالقوة والتقبل، وقول الشاعر:

دعوت لما نابني مسورا * فلبى فلبى يدي مسور

فهذا بمعنى تحقيق الاضافة. وتقول هذا ما جنت يدك، وما كسبت يدك أي ما كسبت أنت. وقوله * (وذللناها لهم) فتذليل الانعام تسخيرها بالانقياد ورفع النفور لان الوحشي من الحيوان نفور، والانسي مذلل بما جعله الله فيه من الانس والسكون، ورفع عنه من الاستيحاش والنفور. وقوله * (فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) * قسمة الانعام، فان الله تعالى جعل منها ما يركب ومنها ما يذبح وينتفع بلحمه ويؤكل، فالركوب - بفتح الراء - صفة. يقال: دابة ركوب أي تصلح للركوب، والركوب - بضم الراء - مصدر ركبت. وقرأت عائشة * (فمنها ركوبتهم) * مثل الحلوبة. وقوله * (ولهم فيها منافع ومشارب) * فمن منافعها لبس اصوافها وشرب ألبانها واكل لحومها وركوب ظهورها إلى غير ذلك من انواع المنافع الكثيرة فيها. ثم قال * (أفلا تشكرون) * الله على هذه

(٤٧٦)

النعم المختلفة المتقنة.

ثم اخبر عن حال الكفار فقال * (واتخذوا من دون الله آلهة لعلمهم ينصرون) * يعبدونها لكي ينصروهم. ثم قال تعالى * (فلا يستطيعون نصرهم) * يعني هذه الآلهة التي اتخذوها وعبدوها لا تقدر على نصرهم والدفع عنهم ما ينزل بهم من عذاب الله * (وهم لهم جند محضرون) * ومعناه إن هذه الآلهة معهم في النار محضرون، لان كل حزب مع ما عبد من الاوثان في النار، كما قال * (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) * إلا من استثناه بقوله * (إن الذين سبقت لهم منا الحسنی أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسیسها وهم في ما اشتتهت أنفسهم خالدون) * (١) فاما الاصنام فان الله تعالى يجعلها مع من عبدها في النار، فلا الجند يدفعون عنها الاحراق بالنار ولا هم يدفع عنهم العذاب. وقال قتادة: يعني وهم لهم جند محضرون أي وهم يغضبون للاوثان في الدنيا.

قوله تعالى:

* (فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) (٧٦)

أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين (٧٧)

وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم (٧٨) قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم (٧٩) الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٩٨ - ١٠١ - ١٠٢ *

(٤٧٧)

أنتم منه توقدون (٨٠) أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم (٨١) إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (٨٢) فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون) * (٨٣) ثمان آيات بلا خلاف.

قرأ رويس * (يقدر) * بالياء وجعله فعلا مستقبلا. وقرأ الكسائي وابن عباس * (فيكون) * نصبا عطا على * (أن نقول.... فيكون) * الباقون بالرفع بتقدير، فهو يكون.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) على وجه التسلية له عن تكذيب قومه إياه، فقال * (فلا يحزنك قولهم) * وضم الياء نافع، وحزن وأحزن لغتان. والحزن ألم القلب بما يرد عليه مما ينافي الطبع، ومثله الغم، وضده السرور والفرح والمعني في صرف الحزن عن النبي (صلى الله عليه وآله) في كفر قومه هو أن ضرر كفرهم عائد عليهم، لانهم يعاقبون به دون غيرهم. ثم قال * (انا نعلم ما يسرون وما يعلنون) * أي ما يظهرونه وما يبطنونه فنجازي كلا منهم على قدره لا يخفى علينا شئ منها. ثم قال منبها لخلقه على الاستدلال على صحة الاعادة والنشأة الثانية، فقال * (أولم ير الانسان) * ومعناه أولم يعلم * (أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين) * ومعناه إنا نقلناه من النطفة إلى العلقة ومن العلقة إلى المضغة ومن المضغة إلى العظم ومن العظم إلى أن جعلناه خلقا سويا وجعلنا فيه الروح وأخرجناه من بطن أمه ورببناه ونقلناه من حال إلى حال إلى أن كمل عقله وصار متكلمنا خصيما عليما،

(٤٧٨)

فمن قدر على جميع ذلك كيف لا يقدر على الاعادة، وهي أسهل من جميع ذلك؟! ولا يجوز أن يكون خلق الانسان ولا خالق له، ولا أن يكون واقعا بالطبيعة، لانها في حكم الموات في أنها ليست حية قادرة، ومن كان كذلك لا يصح منه الفعل ولا أن يكون كذلك بالاتفاق لان المحدث لا بد له من محدث قادر وإذا كان محكما فلا بد من كونه عالما.

وفي الآية دلالة على صحة استعمال النظر، لان الله تعالى أقام الحجة على المشركين بقياس النشأة الثانية على النشأة الاولى، وأنه يلزم من أقر بالاولى أن يقر بالثانية.

ثم حكى تعالى عن بعض الكفار انه * (ضرب لنا) * أي ضرب الله * (مثلا ونسي خلقه) * كيف كان في الابتداء * (فقال من يحيي العظام وهي رميم) * فقال قتادة، ومجاهد: كان القائل ابي بن خلف. وقال سعيد بن جبير:

هو العاص بن وابل السهمي. وقال ابن عباس: هو عبدالله بن أبي ابن سلول. وقال الحسن: جاء أمية إلى النبي (صلى الله عليه وآله) بعظم بال قد بلي، فقال يا محمد أتزعم ان الله يبعث هذا بعدما بلي!. قال: نعم، فنزلت الآية.

والرميم هو البالي، فقال الله تعالى في الرد عليه * (قل) * يا محمد لهذا المتعجب من الاعداء * (يحييها الذي انشأها أول مرة) * لان من قدر على الاختراع لما يبقى من غير تغيير عن صفة القادر، فهو على اعدائه قادر لا محالة * (وهو بكل خلق عليم) * أي عالم بكل جنس من أجناس الخلق. ثم وصف نفسه فقال * (الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون) * فبين أن من قدر على ان يجعل في الشجر الاحضر الذي هو في غاية الرطوبة نارا حامية مع تضاد النار للرطوبة حتى إذا احتاج الانسان حك بعضه ببعض وهو

(٤٧٩)

المزح والعفرار وغير ذلك من انواع الشجر فيخرج منه النار وينقذ، فمن قدر على ذلك لا يقدر الاعداء؟! ثم نبههم على دليل آخر فقال * (او ليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم) * ومعناه من قدر على اختراع السموات والارض كيف لا يقدر على أمثاله؟! وقد ثبت أن من شأن القادر على الشئ أن يكون قادرا على جنس مثله وجنس ضده. ودخول الباء في خبر (ليس) لتأكيد النفي.

ثم قال تعالى مجيبا عن هذا النفي فقال * (بلى وهو الخلاق العليم) * أي هو خالق لذلك عالم بكيفية الاعداء.

ثم قال تعالى * (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) * والمعنى بذلك الاخبار عن سهولة الفعل عليه وانه إذا اراد فعل شئ فعله بمنزلة ما يقول للشئ كن فيكون في الحال، وهو مثل قول الشاعر:

وقالت له العينان سمعا وطاعة * وحدثنا كالدرا لما يتقرب (١)

وإنما اخبر عن سرعة دمه دون ان يكون قبولا على الحقيقة. * (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ) * ومعناه تنزيها له عن نفي القدرة على الاعداء وغير ذلك مما لا يليق به الذي يقدر على الملك، وفيه مبالغة * (واليه ترجعون) * يوم القيامة الذي لا يملك فيه الامر والنهي سواء، فيجازيكم على قدر اعمالكم من الطاعات والمعاصي بالثواب والعقاب.

(١) مر في ١ / ٤٣١ و ٦ / ٤٥ و ٨ / ٤٧١ (*)

(٤٨٠)

٣٧ - سورة الصافات مكية في قول مجاهد وقتادة والحسن وهي مئة واثنان وثمانون آية في المدنيين وإحدى وثمانون في البصري وليس فيها ناسخ ومنسوخ.

بسم الله الرحمن الرحيم * (والصافات صفا (١) فالزاجرات زجرا (٢) فالتاليات ذكرا (٣) إن إلهكم لواحد (٤) رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق (٥) إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (٦) وحفظا من كل شيطان مارد (٧) لا يسمعون إلى الملاء الأعلى ويقذفون من كل جانب (٨) دحورا ولهم عذاب واصب (٩) إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) * (١٠)

عشر آيات بلا خلاف.

ادغم ابوعمر - إذا أدرج - التاء في الصاد، والتاء في الزاي، والتاء في الذال في قوله * (والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا) * لقرب

(٤٨١)

مخرجهما إذا كانا من كلمتين، وافقه حمزة في جميع ذلك. الباقي بالاظهار لان قبل التاء حرفا ساكنا، وهو الالف، لان مخرجها متغايرة. وقرأ ابن كثير ونافع وابوعمر و ابن عامر * (بزينة الكواكب) * ولذلك كان يجوز أن يقرأ برفع الكواكب غير أنه لم يقرأ به أحد، ولو قرئ به لجاز. وقرأ ابوبكر عن عاصم * (بزينة) * منونا * (الكواكب) * نصبا على معنى تزيينا الكواكب. الباقيون * (بزينة) * منونا * (الكواكب) * خفضا على البدل، وهو بدل الشئ من غيره، وهو بعينه، لان الزينة هي الكواكب، وهو بدل المعرفة من النكرة، ومثله قوله * (لنسفا بالناصية ناصية) * (١) فابدل النكرة من المعرفة. وقرأ الكسائي وحمزة وخلف وحفص عن عاصم * (لا يسمعون) * بالتشديد، وأصله لا يتسمعون، فأدغم التاء في السين. الباقيون بالتخفيف لان معنى سمعت إلى فلان وتسمعت إلى فلان واحد. وإنما يقولون تسمعت فلانا بمعنى أدركت كلامه بغير (إلى). ومن شدد كرر، لئلا يشتبه. قال ابن عباس: كانوا لا يتسمعون ولا يسمعون.

هذه اقسام من الله تعالى بالاشياء التي ذكرها، وقد بينا أن له تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لخلقه أن يحلفوا إلا بالله. وقيل إنما جاز أن يقسم تعالى بهذه الاشياء، لانها تنبئ عن تعظيمه بما فيها من القدرة الدالة على ربها. وقال قوم: التقدير: ورب الصافات، وحذف لما ثبت من أن التعظيم بالقسم لله. وجواب القسم قوله * (إن إلهكم لواحد) * وقال مسروق وقتادة والسدي: إن الصافات هم الملائكة مصطفون في السماء

(٤٨٢)

يسبحون الله. وقيل: صفوف الملائكة في صلاتهم عند ربهم - ذكره الحسن - وقيل: هم الملائكة تصف أجنحتها في الهواء واقفة حتى يأمرها الله بما يريد، كما قال * (وإننا لنحن الصافون) * (١) وقال ابو عبيدة: كل شئ من السماء والارض لم يضم قطريه فهو صاف، ومنه قوله * (والطير صافات) * (٢) إذا نشرت أجنحتها، والصفات جمع الجمع، لأنه جمع صافة.

وقوله * (فالزاجرات زجرا) * قال السدي ومجاهد: هم الملائكة يزجرون الخلق عن المعاصي زجرا يوصل الله مفهومه إلى قلوب العباد، كما يوصل مفهوم اغواء الشيطان إلى قلوبهم ليصح التكليف، وقيل: إنها تزجر السحاب في سوقها. وقال قتادة: * (الزاجرات زجرا) * آيات القرآن تزجر عن معاصي الله تعالى، والزجر الصرف عن الشئ لخوف الذم والعقاب، وقد يكون الصرف عن الشئ بالذم فقط على معنى انه من فعله استحق الذم.

وقوله * (فالتاليات ذكرا) * قيل فيه ثلاثة اقوال:

احدها - قال مجاهد والسدي: هم الملائكة تقرأ كتب الله.

وقال قتادة: هو ما يتلى في القرآن. وقال قوم: يجوز أن يكون جماعة الذين يتلون القرآن. وإنما قال * (فالتاليات ذكرا) * ولم يقل تلوا، كما قال * (فالزاجرات زجرا) * لان التالي قد يكون بمعنى التابع تقول:

تلوت فلانا إذا تبعته بمعنى جئت بعده، ومنه قوله * (والقمر إذا تلاها) * (٣)

فلما كان مشتركاً، بينه بما يزيل الابهام، وكل هذه اقسام على أن الآله الذي يستحق العبادة واحد لا شريك له. وقوله * (رب السموات والارض وما

(١) آية ١٦٥ من هذا السورة (٢) سورة ٢٤ النور آية ٤١

(٣) سورة ٩١ الشمس آية ٢ (*)

(٤٨٣)

بينهما ورب المشارق) * معناه إن إلهكم الذي يستحق العبادة واحد وهو الذي خلق السموات والارض وما بينهما من سائر الاجناس من الحيوان والنبات والجماد * (ورب المشارق) * ومعناه ويملك التصرف فيها، والمشارق هي مشارق الشمس، وهي مطالعها بعدد ايام السنة ثلاثمائة وستون مشرقاً وثلاثمائة وستون مغرباً، ذكره السدي.

ثم اخبر تعالى عن نفسه، فقال * (إنا زينا السماء الدنيا) * والتزيين التحسين للشئ وجعله صورة تميل اليها النفس، فالله تعالى زين السماء الدنيا على وجه يمتع الرائي لها، وفي ذلك النعمة على العباد مع ما لهم فيها من المنفعة بالفكر فيها والاستدلال على صانعها. والكواكب هي النجوم كالقدر والسماء بها زينة قال النابغة.

بانك شمس والملوك كواكب * إذا طلعت لم يبق منهن كوكب وقوله * (وحفظا من كل شيطان مارد) * معناه وحفظناها حفظا.

والحفظ المنع من ذهاب الشئ، ومنه حفظ القرآن بالدرس المانع من ذهابه.

والمارد الخارج إلى الفساد العظيم، وهو وصف للشياطين وهم المردة، واصله الانجراد، ومنه الامرء، والمارد المتجرد من الخير، وقوله * (لا يسمعون) * من شدد أراد لا يتسمعون وأدغم التاء في السين، ومن خفف أراد ايضا لا يتسمعون في المعنى * (إلى الملا الاعلى) * يعني الملائكة الذين هم في السماء وقوله * (ويقذفون من كل جانب) * معناه يرمون بالشهب من كل جانب إذا ارادوا الصعود إلى السماء للاستماع * (دحورا) * أي دفعا لهم بعنف، يقال: دحرت دحرا ودحورا، وانما جاز أن يريدوا استراق السمع مع علمهم بأنهم لا يصلون، وانهم يحرقون بالشهب، لانهم تارة يسلمون إذا لم يكن من

(٤٨٤)

الملائكة هناك شئ لا يجوز أن يقفوا عليه، وتارة يهلكون كراكب البحر في وقت يطمع في السلامة.

وقوله * (ولهم عذاب واصب) * قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد: معناه إن لهم مع ذلك ايضا عذابا دائما يوم القيامة، ومنه قوله تعالى * (وله الدين واصبا) * (١) أي دائما قال ابو الاسود:

لا ابتغي الحمد القليل بقاؤه * يوما بدم الدهر اجمع واصبا (٢)

اي دائما. وقوله * (إلا من خطف الخطفة) * لما اخبر الله تعالى أن الشياطين لا يستمعون إلى الملا الاعلى ولا يصغون اليهم أخبر انهم متى راموا رموا من كل جانب دفعا لهم على اشد الوجوه. ثم قال * (إلا من خطف الخطفة) * أي استلب السماع استلابا، والخطفة الاستلاب بسرعة، فمتى فعل أحدهم ذلك * (اتبعه شهاب ثاقب) * قال قتادة: والشهاب كالعمود من نار، وثاقب مضى كأنه يتقب بضوئه يقال أتقب نارك واستتقتب النار إذا استوقدت وأضاءت، ومنه قولهم: حسب ثاقب أي مضى شريف، قال ابو الاسود:

أذاع به في الناس حتى كأنه * بعلياء نار أوقدت بتقوب (٣)

أي بحيث يضيء ويعلو.

قوله تعالى:

* (فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من

(١) سورة النحل آية ٥٢ (٢) مرفي ٦ / ٣٩٠

(٣) مجاز القرآن ١ / ١٣٣ و ٢ / ١٦٧ (*)

(٤٨٥)

طين لازب (١١) بل عجبت ويسخرون (١٢) وإذا ذكروا لا يذكرون (١٣) وإذا رأوا آية يستسخرون (٤) وقالوا إن هذا إلا سحر مبين (١٥) إذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون (١٦) أو آباؤنا الاولون (١٧) قل نعم وأنتم داخرون (١٨) فانما هي زجرة واحدة فاذا هم ينظرون (١٩)

وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين) * (٢٠) عشر آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلا عاصما * (بل عجبت) * بضم التاء. الباقيون بفتحها.

قال ابو علي: من فتح التاء أراد: بل عجبت يا محمد من إنكارهم البعث او من نزول السوحي على قلبك وهم يسخرون، ومن ضم قال: معناه إن إنكار البعث مع بيان القدرة على الابتداء وظهور ذلك من غير استدلال عجيب عندك. وقال قوم: إن ذلك اخبار من الله عن نفسه بأنه عجيب، وذلك كما قال * (وإن تعجب فعجب قولهم) * (١). وهذا غير صحيح، لأن الله تعالى عالم بالاشياء كلها على تفاصيلها، وإنما يعجب من خفي عليه اسباب الاشياء، وقوله * (فعجب قولهم) * معناه عندكم. وقرأ ابن عامر * (إذا) * على الخبر. الباقيون على الاستفهام على أصولهم في التحقيق والتخفيف والفصل وقرأ * (إنا) * على الخبر أهل المدينة والكسائي ويعقوب. وقرأ الباقيون بهزتين على أصولهم في التحقيق والتليين والفصل. وقرأ أهل المدينة وابن

(١) سورة الرعد آية ٥ (*)

(٤٨٦)

عامر * (او آباؤنا) * بسكون الواو - هنا وفي الواقعة - إلا أن ورشا على اصله في إلقاء حركة الهمزة على الواو. الباقيون بفتح الواو.

وهذا خطاب من الله تعالى لنبيه يأمره بأن يستفتي هؤلاء الكفار وهو أن يسألهم أن يحكموا بما تقتضيه عقولهم، ويعدلوا عن الهوى واتباعه، فالاستفتاء طلب الحكم * (أهم أشد خلقاً أم من

خلقنا) * يعني من قبلهم من الامم الماضية والقرون الخالية، فانه تعالى قد أهلك الامم الماضية الذين هم اشد خلقا منهم لكفرهم، ولهم مثل ذلك إن أقاموا على الكفر. وقيل: المعنى أهم اشد خلقا منهم بكفرهم، وهم مثل ذلك أم من خلقنا من الملائكة والسموات والارضين، فقال: أم من خلقنا، لان الملائكة تعقل، فغلب ذلك على ما لا يعقل من السموات، والشدة قوة القتل وهو بخلاف القدرة والقوة. وكل شدة قوة، وليس كل قوة شدة، واشد خلقا ما كان فيه قوة يمنع بها فنتله إلى المراد به.

ثم اخبر تعالى انه خلقهم من طين لازب. والمراد انه خلق آدم من طين، وإن هؤلاء نسله وذريته، فكأنهم خلقوا من طين، ومعنى * (لازب) * لازم فأبدلت الميم بباء، لانها من مخرجها، يقولون: طين لازب وطين لازم قال النابغة:

ولا يحسبون الخير لا شر بعده * ولا يحسبون الشر ضربة لازب (١)

وبعض بني عقيل يبدلون من الزاي تاء. فيقولون: لاتب، ويقولون: لزب، ولتب، ويقال: لزب يلزب لزوبا. وقال ابن عباس: اللازب الملتصق من الطين الحر الجيد. وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد. وقال مجاهد: معناه لازق: وقيل:

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٦٧ القرطبي ١٥ / ٦٩ (*)

(٤٨٧)

معناه من طين علك خلق آدم منه ونسب ولده اليه. وقوله * (بل عجبت ويسخرون) * فمن ضم التاء اراد أن النبي (صلى الله عليه وآله) أمره الله أن يخبر عن نفسه انه عجب من هذا القرآن حين أعطيه، وسخر منه أهل الضلالة. قال المبرد:

وتقديره قل بل عجبت. ومن فتح التاء اراد ان الله تعالى خاطبه بذلك.

والعجب تغير النفس بما خفي فيه السبب في: ما لم تجر به العادة، يقال: عجب يعجب عجا وتعجب تعجبا. والمعنى في الضم على ما روي عن علي (عليه السلام) وابن مسعود ليس على انه بعجيب كما يعجب، لان الله تعالى عالم بالاشياء على حقائقها، وإنما المعنى انه يجازي على العجب كما قال * (فيسخرون منهم سخر الله منهم) * (١) (ومكروا ومكر الله) * (٢) ويجوز أن يكون المعنى قد حلوا محل من يعجب منهم. والفتح على عجب النبي (صلى الله عليه وآله) * (ويسخرون) * معناه يهزؤون بدعائك إياهم إلى الله. والنظر في دلائله وآياته. * (وإذا ذكروا) * بآيات الله وحججه وخوفوا بها * (لا يذكرون) * أي لا يتفكرون، ولا ينتفعون بها * (وإذا رأوا آية) * من آيات الله تعالى * (يستسخرون) * أي يسخرون وهما لغتان. وقيل:

معناه يطلب بعضهم من بعض أن يسخروا ويهزؤا بآيات الله، فيقولون ليس هذا الذي تدعوننا اليه من القرآن وتدعيه أنه من عند الله * (إلا سحر مبين) * أي ظاهر بين. وحكى انهم يقولون ايضا * (أثذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) * بعد ذلك ومحشورون ومجازون؟! * (او آباؤنا الاولون) * الذين تقدمونا بهاه الصفة، واللفظ لفظ الاستفهام والمراد بذلك التهزي والاستبعاد لان يكون

(١) سورة ٩ التوبة آية ٨٠ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤ (*)

(٤٨٨)

هذا حقيقة وصحيحا. فمن فتح الواو فلانها واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام، فقال الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) * (قل) * لهم * (نعم) * الامر على ذلك، فانكم تحشرون وتسالون وتجازون على اعمالكم من الطاعات بالجنة والثواب، وعلى المعاصي بالنار والعقاب فيها * (وانتم داخرون) * أي صاغرون أذلاء - وهو قول الحسن وقتادة والسدي - وقيل: الداخر الصاغر الذليل اشد الصغر والصاغر الذليل لصغر قدره.

ثم قال ايضا وقل لهم * (فانما هي زجرة واحدة) * فقال الحسن: يعني النفخة الثانية. والزجرة الصرفة عن الشئ بالمخافة، فكأنهم زجروا عن الحال التي هم عليها إلى المصير إلى الموقف للجزاء والحساب * (فاذا هم ينظرون) * أي يشاهدون ذلك ويرونه. وقيل: معناه فاذا هم أحياء ينتظرون ما ينزل بهم من عذاب الله وعقابه، ويقولون معترفين على نفوسهم بالعصيان * (يا ويلنا هذا يوم الدين) * اي يوم الجزاء والحساب. و (الويل)

كلمة يقولها القائل إذا وقع في الهلكة، ومثله يا ويلنى، ويا حسرتى، ويا عجباً.

وقال الزجاج: والمعنى في جميع ذلك ان هذه الاشياء حسن نداؤها على وجه التنبيه والتعظيم على عظم الحال، والمعنى يا عجب اقبل ويا حسرة اقبلي فانه من اوانك واوقاتك، ومثله قوله * (يا ويلتى الد وانا عجوز) * (١) وقوله * (يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله) * (٢).

قوله تعالى:

* (هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون (٢١) أحشروا

(١) سورة ١١ هود آية ٧٢ (٢) سورة ٣٩ الزمر آية ٥٦ (*)

(٤٨٩)

الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون (٢٢) من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم (٢٣) وقفوهم إنهم مسؤولون (٢٤)

ما لكم لا تتاصرون (٢٥) بل هم اليوم مستسلمون (٢٦) وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون (٢٧) قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين (٢٨) قالوا بل لم تكونوا مؤمنين (٢٩) وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاعين) * (٣٠) عشر آيات في الكوفي والمدنيين عدوا قوله * (وما كانوا يعبدون) * رأس آية. والبصريون لم يعدوها، فهي عندهم تسع آيات.

لما اخبر الله تعالى عن الكفار انهم إذا حشروا وشاهدوا القيامة وقالوا * (يا ويلنا هذا يوم الدين) * يعني الجزاء حكى ما يقول الله لهم فانه تعالى يقول لهم * (هذا يوم الفصل) * بين الخلائق والحكم وتميز الحق من الباطل على وجه يظهر لجميعهم الحال فيه. وانه تعالى يدخل المطيعين الجنة على وجه الاكرام والاعظام، ويدخل العصاة النار على وجه الالهانة والاذلال * (هذا هو يوم الفصل) * وهو اليوم * (الذي كنتم) * معاشر الكفار * (به تكذبون) * وتجحدونه وتقابلون من اخبر عنه بالتكذيب وتتسبونته إلى ضد الصدق ثم حكى ما يقول الله للملائكة المتولين لسوق الكفار إلى النار، فانه

(٤٩٠)

يقول لهم " أحشروا الذين ظلموا " انفسهم بارتكاب المعاصي بمعنى اجمعوهم من كل جهة، فالكفار يحشرون من قبورهم إلى أرض الموقف للجزاء والحساب، ثم يساق الظالمون مع ما كانوا يعبدون من الاوثان والطواغيت إلى النار وكذلك أزواجهم الذين كانوا على مثل حالهم من الكفر والضلال وقال ابن عباس ومجاهد وابن زيد: معنى " وأزواجهم " اشباههم، وهو من قوله " وكنتم أزواجا ثلاثة " (١) أي اشكالا واشباها. وقال قتادة:

معناه وأشياهم من الكفار. وقيل: من الاتباع. وقال الحسن: يعني " وأزواجهم " المشركات. وقيل: اتباعهم على الكفر من نسائهم.

وقوله " فاهدوهم إلى صراط الجحيم " إنما عبر عن ذلك بالهداية من حيث كان بدلا من الهداية إلى الجنة، كما قال " فبشرهم بعذاب اليم " (٢)

لهذه العلة من حيث ان البشارة بالعذاب الاليم وقعت لهم بدلا من البشارة بالنعيم، يقال: هديته الطريق أي دللته عليها وأهديت الهدية.

ثم حكى الله تعالى ما يقوله للملائكة الموكلين بهم فانه يقول لهم " وقفوهم " أي قفوا هؤلاء الكفار أي احبسوهم " انهم مسؤولون " عما كلفهم الله في الدنيا من عمل الطاعات واجتناب المعاصي هل فعلوا ما أمروا به أم لا؟ على وجه التقرير لهم والتبكييت دون الاستعلام، يقال:

وقفت انا ووقفت الدابة بغير الف. وبعض بني تميم يقولون: اوقفت الدابة والدار. وزعم الكسائي انه سمع ما اوقفك ههنا، وانشد الفراء:
تري الناس ماسرنا يسيرون خلفنا * وإن نحن اومأنا إلى الناس اوقفوا بالف. ويقال لهم ايضا على وجه التبكيت " ما لكم " معاشر الكفار

(١) سورة ٥٦ الواقعة آية ٧ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٢١ (*)

(٤٩١)

" لا تتاصرون " بمعنى لا تتناصرون، ولذلك شدد بعضهم التاء، ومن لم يشدد حذف إحداهما، والمعنى لم لا يدفع بعضكم عن بعض ان قدرتم عليه.
ثم قال تعالى انهم لا يقدرّون على التناصر والتدافع لكن " هم اليوم مستسلمون " ومعنا مسترسلون مستحدثون يقال: استسلم استسلاما إذا القي بيده غير منازع في ما يراد منه. وقيل: معناه مسترسلون لما لا يستطيعون له دفعا ولا منه امتناعا.
وقوله " واقبل بعضهم على بعض يتساءلون " اخبار منه تعالى إن كل واحد من الكفار يقبل على صاحبه الذي اغواه على وجه التأنيب والتضعيف له يسأله لم غررتني؟ ويقول ذاك لم قبلت مني.

وقوله " قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين " حكاية ما يقول الكفار لمن قبلوا منهم إنكم: كنتم تأتوننا من جهة النصيحة واليمن والبركة، فلذلك اغتررنا بكم والعرب تتيمين بما جاء من جهة اليمين. وقال الفراء: معناه إنكم كنتم تأتوننا من قبل اليمين، فتخدعوننا من اقوى الوجوه. واليمين القوة ومنه قوله " فراغ عليهم ضربا باليمين " (١) أي بالقوة ثم حكى ما يقول اولئك لهم في جواب ذلك: ليس الامر على ما قلتم بل لم تكونوا مصدقين بالله ولم يكن لنا عليكم في ترك الحق من سلطان ولا قدرة فلا تسقطوا اللوم عن أنفسكم فانه لازم لكم ولا حق بكم. وقال قتادة: أقبل الانس على الجن يتساءلون بأن كنتم أنتم معاشر الكفار قوما طاغين أي باغين، تجاوزتم الحد إلى افحش الظلم، واصله تجاوز الحد في العظم ومنه قوله " إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية " (٢) وطغيانهم كفرهم بالله، لانهم تجاوزوا في ذلك الحد.

(١) آية ٩٣ من هذه السورة (٢) سورة ٦٩ الحاقة آية ١١ (*)

(٤٩٢)

إلى أعظم المعاصي، وقال الزجاج: معنى لا تتاصرون ما لكم غير متناصرين فهو نصب بانه حال.

قوله تعالى:

* (فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون (٣١) فأغويناكم إنا كنا غاوين (٣٢) فانهم يومئذ في العذاب مشتركون (٣٣) إنا كذلك نعمل بالمجرمين (٣٤) إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون (٣٥) ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون (٣٦) بل جاء بالحق وصدق المرسلين (٣٧) إنكم لذائقوا العذاب الاليم (٣٨) وما تجزون إلا ما كنتم تعملون (٣٩) إلا عباد الله المخلصين) * (٤٠) عشر آيات.

هذا تمام ما حكى الله عن المغاوين للكفار يوم القيامة بأنهم إذا قالوا لهم لم يكن لنا عليكم من سلطان، وإنما أنتم كنتم قوما طاغين، اخبروا أيضا وقالوا " فحق علينا " أي وجب علينا " قول ربنا " بأننا لا نؤمن، ونموت على الكفر او وجب علينا قول ربنا بالعذاب الذي يستحق على الكفر والاعواء " إنا لذائقون " العذاب يعني إنا ندركه كما ندرك المطعم بالذوق، ثم يعترفون على انفسهم بأنهم كانوا غاوين، أي دعوناكم إلى الغي وقيل: معناه خيبتناكم طرق الرشاد فغوينا نحن ايضا وخيبتنا، فالاعواء الدعاء

(٤٩٣)

إلى الغي، والغى نقيض الرشد، وأصله الخيبة من قول الشاعر:

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغو لا يعدم على الغي لائما (١)

ويكون (أغوى) بمعنى خيب، ومنه قوله " رب بما أغويتني " (٢) أي خيبتني.

ثم اخبر تعالى انهم في ذلك اليوم مشتركون في العذاب، ومعنى اشتراكهم اجتماعهم في العذاب الذي هو يجمعهم.

ثم اخبر تعالى فقال إن مثل فعلنا بهؤلاء نعمل بجميع المجرمين، وبين أنه إنما فعل بهم ذلك، لانهم " كانوا إذا قيل لا إله " معبود يستحق العبادة " إلا الله يستكبرون " عن قبول ذلك، وطلبوا التكبر، وهذه لفظة ذم من حيث استكبروا عن قول الحق. وحكى ما كانوا يقولون إذا دعوا إلى عبادة الله وحده فانهم كانوا " يقولون أننا لتاركوا آلهتنا " ومعنى ذلك إنا نترك عبادة آلهتنا " لشاعر مجنون " يدعونا إلى خلافه، يعنون بذلك النبي (صلى الله عليه وآله) يرمونه بالجنون تارة وبالشعر أخرى - وهو قول الحسن وقتادة - لفرط جهلهم حتى قالوا هذا القول الفاحش الذي يفضح قائله، لان المعلوم انه (صلى الله عليه وآله) كان بخلاف هذا الوصف، والجنون آفة تغطي على العقل حتى يظهر التخليط في فعله، وأصله تغطية الشيء: جن عليه الليل إذا غطاه، ومنه

المجن لانه يستر صاحبه، ومنه الجنان الروح، لانه مستورة بالبدن، ومنه الجنة لانه تحت الشجر.

ثم اخبر تعالى تكذيبا لهم بأن قال ليس الامر على ما قالوه " بل "

(١) مر في ٢ / ٣١٢ و ٤ / ٣٩١ و ٥ / ٥٤٨ و ٦ / ٣٣٦ و ٧ / ١٣٦، ٢١٨ و ٨ / ٣٦ (٢) سورة ١٥ الحجر آية ٣٩ (*)

(٤٩٤)

النبي (صلى الله عليه وآله) " جاء بالحق " من عند الله وهو ما يجب العمل به " وصدق " مع ذلك " المرسلين " جميع من أرسله الله قبله، ثم خاطب الكفار، فقال " إنكم لذائقوا العذاب الاليم " يعني المؤلم الموجه جزاء على تكذيبكم بآياتنا وليس " تجزون إلا " على قدر " ما كنتم تعملون " من المعاصي ثم استثنى من جملة المخاطبين " عباد الله المخلصين " وهم الذين أخلصوا العبادة لله واطاعوه في كل ما أمرهم به، فانهم لا يذوقون العذاب وإنما ينالون الثواب الجزيل. قوله تعالى:

* (أولئك لهم رزق معلوم (٤١) فواكه وهم مكرمون (٤٢)

في جنات النعيم (٤٣) على سرر متقابلين (٤٤) يطاف عليهم بكأس من معين (٤٥) بيضاء لذة للشاربين (٤٦) لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون (٤٧) وعندهم قاصرات الطرف عين (٤٨)

كانهن بيض مكنون (٤٩) فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) * (٥٠) عشر آيات. قرأ حمزة والكسائي وخلف " ينزفون " بكسر الزاي على اسناد الفعل اليهم الباقيون بفتح الزاي - على ما لم يسم فاعله - ومن فتح فانه مأخوذ من نزع الرجل، فهو منزوف ونزيف، إذا ذهب عقله بالسكر، وانزف فهو منزف به إذا فنيته خمره، ويقال أنزف أيضا إذا سكر لما استثنى الله تعالى من جملة من يعاقبهم من الكفار المخلصين الذين

(٤٩٥)

أخلصوا عبادتهم لله وحده، بين ما اعد لهم من انواع الثواب، فقال " أولئك لهم رزق معلوم " يعني عطاء جعل لهم التصرف فيه وحكم لهم به في الاوقات المستأنفة في كل وقت شيئا معلوما مقدرا. ثم فسر ذلك الرزق، فقال ذلك الرزق " فواكه " وهي جمع فاكهة وهي تكون رطبا ويابساً يتفكهون.

بها وينتفعون بالتصرف فيها " وهم " مع ذلك " مكرمون " أي معظمون مبجلون، وضد الاكرام الالهانة وهي الانتقام وهم مع ذلك " في جنات النعيم " أي بساتين فيها انواع النعيم التي

يتنعمون بها " على سرر " وهو جمع سرير " متقابلين " يستمتع بعضهم بالنظر إلى وجوه بعض " يطاف عليهم بكأس من معين " أي بكأس من خمر جارية في أنهار ظاهرة للعيون - في قول الحسن وقتادة والضحاك والسدي - والكأس اناء فيه شراب. وقيل: لا يسمى كأسا إلا إذا كان فيه شراب وإلا فهو اناء.

وقوله " معين " يحتمل ان يكون (فعيلا) من العين، وهو الماء الشديد الجري من أمعن في الامر إذا اشتد دخوله فيه ويحتمل ان يكون وزله (مفعولا) من عين الماء لانه يجري ظاهرا للعين.

ثم وصف الخمر الذي في الكأس، فقال " بيضاء " ووصفها بالبياض لانها تجري في انهار كاشرف الشراب. وهي خمر فيها اللذة والامتاع فترى بيضاء صافية في نهاية الرقة واللطافة مع النورية التي لها والشفافة، لانها على احسن منظر. مخبر. وقال قوم: بيضاء صفة للكأس، وهي مؤنثة. واللذة نيل المشتهى بوجود ما يكون به صاحبه ملتذا. والشراب مأخوذ من الشرب.

وقوله " لا فيها غول " معناه لا يكون في ذلك الشراب غول أي فساد يلحق العقل خفيا، يقال: اغتاله اغتالا إذا أفسد عليه أمره، ومنه الغيلة

(٤٩٦)

وهي القتل سرا. وقال ابن عباس " لا فيها غول " معناه لا يكون فيها صداع ولا أذى، كما يكون في خمر الدنيا، وقال الشاعر:

وما زالت الكأس تغتالنا * ونذهب بالاول الاول (١)

هذا من الغيلة أي نصرع واحد بعد واحد " ولا هم عنها ينزفون " أي لا يسكرون والنزيف السكران، لانه ينزف عقله، قال الابرذ الرياحي:

لعمري لئن انزفتم او ضحوتم * لبئس التذاني كنتم آل ابجرا (٢)

فالبيت يدل على ان أنزف لغة في نزف إذا سكر، لانه جعله في مقابلة الصحو. ومن قرأ بالسكر فعلى معنى: إنهم لا ينزفون خمرهم أي لا يفنى عندهم.

وقوله " وعندهم قاصرات الطرف عين " معنى قاصرات الطرف تقصر طرفهن على أزواجهن - في قول الحسن وغيره - وقال بعضهم: معنى قاصرات راضيات من قولهم: اقتصرت على كذا، ومعنى " عين " الشديدة كبياض العين الشديدة سوادها - في قول الحسن - والعين النجل وهي الواسعة العين.

وقوله " كأنهن بيض مكنون " شبههن ببيض النعام يكن بالريش من الريح والغبار - في قول الحسن وابن زيد - وقال سعيد بن جبير والسدي:

شبههن ببطن البيض قبل ان يقشر وقبل أن تمسه الايدي، والمكنون المصون يقال: كئنت الشيء إذا صنته، واكئنته إذا سترته من كل شيء قال الشاعر:
وهي زهراء مثل لؤلؤة الغ * واص ميزت من جوهر مكنون (٣)

(١) مجاز القرآن ٢ / ١٦٩ (٢) اللسان (نزف) وتفسير القرطبي ١٥ / ٧٩ والطبرى ٢٣ / ٣١ ومجاز القرآن ٢ / ١٦٩ (٣) مجاز القرآن ٢ / ١٧٠ وتفسير القرطبي ١٥ / ٨١ والطبرى ٢٣ / ٣٤ (*)

(٤٩٧)

ثم قال " فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون " يعني ان اهل الجنة يقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن احوالهم وما تفضل الله عليهم من انواع الكرامات قوله تعالى:
* (قال قائل منهم إني كان لي قرين (٥١) يقول أنك لمن المصدقين (٥٢) إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون (٥٣))

قال هل أنتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه في سواء الجحيم (٥٥)
قال تالله إن كدت لتردين (٥٦) ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بميتين (٥٨) إلا موتتنا الاولى وما نحن بمعذبين (٥٩) إن هذا لهو الفوز العظيم * (٦٠) عشر آيات لما حكى الله تعالى أن اهل الجنة يقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن اخبارهم وأحوالهم، ذكر أن قائلهم يقول " إني كان لي قرين " في دار الدنيا أي صاحب يختص بي إما من الانس - على ما قال ابن عباس - او من الجن - على ما قال مجاهد - " يقول " لي على وجه الانكار علي والتهجين لفعلي " ائتك لمن المصدقين " بيوم الدين بان الله يبعث الخلق بعد أن يصيروا ترابا وعظاما وانهم يحشرون بعد ذلك ويحاسبون ويجازون إن هذا لبعيد، فألف الاستفهام دخلت - ههنا - على وجه الانكار، وإنما دخلت ألف الاستفهام للانكار من حيث أنه لا جواب لقائله إلا ما يفتضح به، وهؤلاء

(٤٩٨)

الكفار غلطوا في هذه الانكار وتوهموا أن من يقول في جواب ذلك نعم يأتي بقبيح من القول. وقوله " أئنا لمدينون " معناه لمجزيون مشتق من قولهم: كما تدين تدان. أي كما تجزي تجزى، والدين الجزاء، والدين الحساب، ومنه الدين، لان جزاءه القضاء، وقال ابن عباس: القرين الذي كان له شريكا من الناس. وقال مجاهد: كان شيطاناً.

ثم حكى انه يقال لهذا القائل على وجه العرض عليه " هل أنتم مطلعون " أي يؤمرون أن يروا مكان هذا القرين في النار، فيقول: نعم، فيقال له: اطلع في النار، فيطلع في الجحيم فيراه في سوائه أي وسطه - في قول ابن عباس والحسن وقتادة - وإنما قيل للوسط: سواء لاستوائه في مكانه بأن صار بدلا منه، وقد كثر حتى صار بمعنى غير، وروى حسين عن أبي عمرو " مطلعوني فاطلع " بكسر النون وقطع الالف، وهو شاذ، لان الاسم إذا أضيف حذف منه النون، كقولك: مطلعي، وإنما يجوز في الفعل على حذف احدى النونين، وقد انشد الفراء على شذوذه قول الشاعر:

وما أدرى وظني كل ظن * أسلمني إلى قوم شراح (١)

يريد شراح، وانشده المبرد (أسلمني) وانشد الزجاج:

هم القائلون الخير والامر دونه * إذا ما خشوا من محدث الامر معظما (٢)

وقيل: ان لاهل الجنة في توبيخ أهل النار لذة وسرورا. وقال الحسن:

الجنة في السماء والنار في الارض، فلذلك صح منهم، الاطلاع.

ثم حكى تعالى ما يقوله المؤمن إذا اطلع عليه ورآه في وسط الجحيم

(١) تفسير الطبري ٢٣ / ٣٦ (٢) تفسير القرطبي ١٥ / ٨٣ (*)

(٤٩٩)

فانه يقول " تالله إن كدت لتردين " ومعنى (تالله) القسم على وجه التعجب وإنما كان كذلك، لان التاء بدل من الواو في القسم على وجه النادر، ولذلك اختصت باسم الله ليبدل على المعنى النادر.

وقوله " إن كدت لتردين " وهي التي في قوله " إن كل نفس لما عليها حافظ " (١) إلا أنها دخلت في هذا على (فعل) ومعنى " لتردين " لتهلكني كهلاك المتردي من شاهق، ومنه قوله " وما يغني عنه ماله إذا تردى " (٢) في النار، وتقول ردي يردى إذا هلك وأرداه غيره إرداء إذا أهلكه ثم يقول " فلو لا نعمة ربي " علي ورحمته لي بأن لطف لي في ترك متابعتك والقبول منك " لكنك " أنا ايضا " من المحضرين " معك في النار فالاحضار الاتيان بالشئ إلى حضرة غيره، وقال الشاعر:

افي الطوف خفت علي الردى * وكم من رد أهله ولم يرم (٣)

أي من هالك، وقوله " أفما نحن بميتين إلا موتتنا الاولى وما نحن بمعذبين " هذا تقرير لهم وتوبيخ، لان هذا الكافر كان يقول كثيرا ذلك في دار الدنيا، ومثله قول الشاعر:

قالت له ويضيق ضنك * لا تكثري لومي اخلي عنك ومعناه إنها كانت تلومه على الانفاق، فكان يقول لا تكثري لومي فاطلقك فلما انفق عبرته بذلك ووبخته وحكت ما كان يقول عند توبيخها وعذلتها.

وقال الجبائي: هذا يقوله المؤمن على وجه الاخبار بأنه لا يموت بعد هذا النعيم لكن الموتة الاولى قد مضت، فتلخيص معنى الآية قولان:

(١) سورة ٨٦ الطارق آية ٤ (٢) سورة ٩٢ الليل آية ١١ (٣) الطبرى ٢٣ / ٣٦ (*)

(٥٠٠)

أحدهما - انه يقوله المؤمن على وجه السرور بنعم الله في أنه لا يموت ولا يعذب.

الثاني - أن المؤمن يقوله على وجه التوبيخ لقرينة بما كان ينكره.

وقوله " إن هذا لهو الفوز العظيم " إخبار منه تعالى بأن هذا الثواب الذي حصل له لهو الفلاح العظيم.

قوله تعالى:

* (لمثل هذا فليعمل العاملون (٦١) أذ لك خير نزلا أم شجرة الزقوم (٦٢) إنا جعلناها فتنة

لللظالمين (٦٣) إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم (٦٤) طلعتها كأنه رؤس الشياطين (٦٥)

فانهم لآكلون منها فمالؤن منها البطون (٦٦) ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم (٦٧) ثم إن

مرجعهم لالى الجحيم (٦٨)

إنهم ألفوا آباءهم ضالين (٦٩) فهم على آثارهم يهرعون) * (٧٠)

عشر آيات.

يقول الله تعالى في تمام الحكاية عن قول المؤمن للكافر " لمثل هذا " يعني لمثل ثواب الجنة

ونعيمها " فليعمل العاملون " في دار التكليف، ويحسن من العامل أن يعمل العمل للثواب إذا

أوقعه على الوجه الذي تدعو اليه الحكمة من وجوب او ندب، قال الرماني: ألا ترى أنه لو

عمل القبيح ليثاب على ما تدعو اليه الحكمة لاستحق الثواب إذا خلص من الاحباط. وهذا الذي

(٥٠١)

ذكره غير صحيح، لان القبيح لا يجوز أن يستحق عليه الثواب على وجه وإن عرض في

القبيح وجوه كثيرة من وجوه الحسن، فانه لا يعتد بها، فان علمنا في ما ظاهره القبيح أنه وقع

على وجه يستحق فيه الثواب، علمنا انه خرج من كونه قبيحا. ومثال ذلك إظهار كلمة الكفر

عند الاكراه عليها او الانكار لكون نبي بحضرته لمن يطلبه ليقتله فان هذا وإن كان كذبا في

الظاهر فلا بد أن يوري المظهر بما يخرج به عن كونه كاذبا، ومتى لم يحسن التورية منع الله من إكراهه عليه. وفي الناس من يقول: يجب عليه الصبر على القتل، ولا يحسن منه الكذب، ومتى كان من يحسن التورية، ولم يور كان القول منه كذبا وقبيحا ولا يستحق به الثواب، فاما الاكراه على أخذ مال الغير وإدخال ضرر عليه دون القتل، متى كان قد علمنا بالشرع وجوب فعل ذلك عند الاكراه أو حسنه علمنا انه خرج بذلك عن كونه قبيحا وإن الله تعالى ضمن من العوض عليه ما يخرج به عن كونه قبيحا، كما تقول:

في ذبح البهائم، ومتى لم يعلم بالشرع ذلك، فانه يقبح إدخال الضرر على الغير واخذ ماله، فأما إدخال الضرر على الغير ونفسه ببذل مال او تحمل خراج ليدفع بذلك عن نفسه ضررا أعظم منه، فانه يحسن، لانه وجه يقع على الاثم فيصير حسنا، وهذا باب احكامنا في كتاب الاصول. لا يحتمل هذا الموضوع أكثر من هذا.

وقوله " أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم " إنما جاز ذلك مع انه لا خير في شجرة الزقوم لأميرين:

أحدهما - على الحذف بتقدير أسباب هذا الذي أدى اليه خير أم سبب أدى. لى النار، كأنهم قالوا هو فيه خير، لما عملوا ما أدى اليه. والنزل

(٥٠٢)

الفضل طعام له نزل، ونزل أي فضل وريع. وقيل: معناه خير نزلا من الانزال التي تقويم الابدان وتبقى عليها الارواح و (الزقوم) قيل: هو ثمر شجرة منكرة جدا من قولهم يزقم هذا الطعام إذا تناوله على تكره ومشقة شديدة. وقيل: شجرة الزقوم ثمرة مرة خشنة منتنة الرائحة. وقوله " إنا جعلناها فتنة لظالمين " معناه إنا جعلنا شجرة الزقوم محنة لشدة التعبد، وقال قتادة: لما نزلت هذه الآية قال المشركون: النار تحرق الشجرة، وكيف تنبت هذه في النار، فكان ذلك تغليظا للمحنة، لانه يحتاج إلى الاستدلال على انه قادر لا يمتنع عليه أن يمنع النار من احراقها حتى تنبت الشجرة فيها. وقيل: معناه إنها عذاب للظالمين من قوله " يومهم على النار يفتنون " (١) أي يعذبون، وقيل: هو قول أبي جهل في التمر والزبد انه يتزقمه. روى أنه لما سمع هذه الآية دعا الكفار واحضر التمر والزبد وقال تعالوا نتزقم هذا بخلاف ما يهددنا به محمد. ثم قال تعالى " إنها شجرة " يعني الزقوم " تخرج في أصل الجحيم " أي تنبت في قعر جهنم " طلعها كأنه رؤس الشياطين " قيل: في تشبيه ذلك برؤس الشياطين مع أن رؤس الشياطين لم ترقط ثلاثة أفعال:

أحدها - ان قبح صورة الشياطين متصور في النفس ولذلك يقولون لشيء يستقبحونه جدا كأنه شيطان. وقال امرؤ القيس:

أيقنتني والمشرقي مضاجعي * ومسنونة زرق كأنياب اغوال (٢)
فشبه النصول بأنياب الاغوال، وهي لم تر، ويقولون: كأنه رأس شيطان وانقلب علي كأنه
شيطان.

(١) سورة ٥١ الذاريات آية ١٣ (٢) ديوانه ١٦٢ وتفسير القرطبي ١٥ / ٨٦ (*)

(٥٠٣)

الثاني - انه شبه برأس حية يسميها العرب شيطاننا، قال الراجز:
منجرد يحلف حين أحلف * كمثل شيطان الحماط أعرف (١)
الثالث - انه شبه بنبت معروف برؤس الشياطين. وقيل: قد دل الله أنه يشوه خلق الشياطين
في النار حتى لو رآهم راء من العباد لاستوحش منهم غاية الاستيحاش، فلذلك يشبه برؤسهم.
ثم أخبر تعالى أن اهل النار ليأكلون من تلك الشجرة ويملئون بطونهم منها لشدة ما يلحقهم من
ألم الجوع، والملا الطرح في الوعاء ما لا يحتمل الزيادة عليه، فهو لاء حشيت بطونهم من
الزقوم بما لا يحتمل زيادة عليه.

ثم قال " إن لهم عليها " يعني الزيادة على شجرة الزقوم " لشوبا من حميم " فالشوب خلط الشئ
بما ليس منه مما هو شر منه، ويقال هذا الطعام مشوب، وقد شابه شئ من الفساد، والحميم إذا
شاب الزقوم اجتمعت المكاره فيه من المرارة والخسونة وبتن الرائحة، والحرارة المحرقة -
نعوذ بالله منها - والحميم الحار الذي له من الاحراق المهلك أدناه قال الشاعر:

احم الله ذلك من لقاء * أحاد أحاد في الشهر الحلال (٢)

أي ادناه وحمم ريش الفرخ إذا نبت، حتى يدنو من الطيران والمحموم المقترب من حال
الاحراق. وقال ابن عباس: يشربون الحميم المشروب من الزقوم أي قد شيب مع حرارته بما
يشند تكرهه. والحميم الصديق القريب أي الداني من القلب.

وقوله " ثم ان مرجعهم لالى الجحيم " معناه أنهم يردون بعد ذلك إلى النار الموقدة. وفي ذلك
دلالة على أنهم في وقت ما يطعمون للزقوم

(١) تفسير القرطبي ١٥ / ٨٧ (٢) اللسان (حمم) (*)

(٥٠٤)

بمعزل عنها، كما قال " يطوفون بينها وبين حميم أن " (١)

ثم حكى تعالى ان هؤلاء الكفار " الفوا " يعني صادفوا " آباءهم ضالين " عن الطريق المستقيم الذي هو طريق الحق " فهم على آثارهم يهرعون " في الضلال أي يقلدونهم ويتبعونهم، قال ابو عبيدة: معنى يهرعون يستحثون من خلفهم. وقيل: معناه يزعجون إلى الاسراع، هرع وأهرع لغتان.

قوله تعالى:

* (ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين (٧١) ولقد أرسلنا فيهم منذرين (٧٢) فانظر كيف كان عاقبة المنذرين (٧٣) إلا عباد الله المخلصين (٧٤) ولقد نادينا نوح فلنعم المجيبون (٧٥) ونجيناه وأهله من الكرب العظيم (٧٦) وجعلنا ذريته هم الباقين (٧٧) وتركنا عليه في الآخرين (٧٨) سلام على نوح في العالمين (٧٩) إن كذلك نجزي المحسنين) * (٨٠) عشر آيات.

اقسم الله تعالى انه " لقد ضل قبلهم " قبل هؤلاء الكفار الذين هم في عصر النبي (صلى الله عليه وآله) عن طريق الحق واتباع الهدى " أكثر الاولين " من كان قبلهم لان اللام في (لقد) هي لام القسم وتدخل على الجواب لقولك:

والله لقد كان كذا، وقد تدخل للتأكيد. والضلال الذهاب عن الحق إلى طريق الباطل، تقول: ضل عن الحق يضل ضلالا. والاضلال قد يكون

(١) سورة ٥٥ الرحمن آية ٤٤ (*)

(٥٠٥)

بمعنى الذم بالضلال والحكم عليه به، وقد يكون بمعنى الامر به والاغراء كقوله " وأضلهم السامري " (١). والاكثر هو الاعظم في العدد، والاول الكائن قبل غيره. وأول كل شئ هو الله تعالى، لان كل ما سواه فهو موجود بعده.

ثم أقسم انه أرسل فيهم منذرين من الانبياء والرسل يخوفونهم بالله ويحذرونهم معاصيه. ثم قال " فانظر " يا محمد " كيف كان عاقبة المنذرين " والتقدير ان الانبياء المرسلين لما خوفوا قومهم فعصوهم ولم يقبلوا منهم أهلكتهم وأنزل عليهم العذاب، فانظر كيف كان عاقبتهم.

ثم استثنى من المنذرين في الاهلاك عباده المخلصين الذين قبلوا من الانبياء، وأخلصوا عبادتهم لله تعالى، فان الله تعالى خلصهم من ذلك العذاب ووعدهم بالثواب.

ثم أخبر ان نوحا نادى الله ودعاه واستنصره على قومه، وأنه تعالى أجابه، وانه - عزوجل نعم المجيب لمن دعاه وتقديره فلنعم المجيبون نحن له ولما أجابه نجاه وخلصه وأهله من

الكرب العظيم، فالنجاة هي الرفع من الهلاك واصله الرفع، فمنه النجوة المرتفع من المكان ومنه النجا النجا كقولهم الوحا الوحا.

والاستنجاء رفع الحدث. والكرب الحزن الثقيل على القلب، قال الشاعر:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه * يكون وراءه فرج قريب (٢)

والكرب تحرير الارض باصلاحها للزراعة. والكرب هو الذي يحمي قلب النخلة باحاطته بها وصيانته لها. والعظيم الذي يصغر مقدار غيره عنه. وقد

(١) سورة ٢٠ طه آية ٨٥ (٢) مر في ٦ / ٢٨٣ (*)

(٥٠٦)

يكون التعظيم في الخير والعظم في الشر والعظم في النفس. وقال السدي: معناه نجيناه وأهله من الغرق. وقال غيره: بل نجاهم من الأذى والمكروه الذي كان ينزل بهم من قومه، لانه بذلك دعا ربه فأجابه. وقيل:

الذين نجوا مع نوح شيعته.

وقوله * (وجعلنا ذريته هم الباقيين) * قال ابن عباس وقتادة: الناس كلهم من ذرية نوح بعد نوح. وقال قوم: العجم والعرب أولاد سام بن نوح والترك والصقالبة والخزر أولاد يافث بن نوح، والسودان أولاد حام ابن نوح.

وقوله * (وتركنا عليه في الآخرين) * قيل في معناه قولان:

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: * (وتركنا عليه في الآخرين) * يعني ذكرا جميلا، وأثنينا عليه في أمة محمد. ومعنى * (تركنا) * أبقينا، فحذف، فيكون * (سلام على نوح في العالمين) * من قول الله على غير جهة الحكاية.

الثاني - قال الفراء: تركنا عليه قولا هو أن يقال في آخر الامم: سلام على نوح في العالمين. ثم قال * (إنا كذلك نجزي المحسنين) * كما فعلنا بنوح من الثناء الجميل، مثل ذلك نجزي من احسن أفعاله وتجنب المعاصي.

قوله تعالى:

* (إنه من عبادنا المؤمنين (٨١) ثم أغرقنا الآخرين (٨٢)

وإن من شيعته لابرهيم (٨٣) إذ جاء ربه بقلب سليم (٨٤)

(٥٠٧)

إذ قال لآبيه وقومه ماذا تعبدون (٨٥) أنفكا آلهة دون الله تريدون (٨٦) فما ظنكم برب العالمين (٨٧) فنظر نظرة في النجوم (٨٨) فقال إني سقيم (٨٩) فتولوا عنه مدبرين * (٩٠)

عشر آيات.

هذا رجوع من الله تعالى إلى ذكر وصف نوح بأنه كان * (من عبادنا المؤمنين) * الذين يصدقون بتوحيد الله ووعده ووعيده وجميع أخباره. والعباد جمع عبد، وهو الذليل لملكه بالعبودية. والخلق كلهم عباد الله فمنهم عابد له ومنهم عابد لغيره تضييعاً منهم لحق نعمه وجهلاً بما يجب له عليهم. والمؤمن هو المصدق بجميع ما أوجب الله عليه أو نذبه إليه. وقال قوم: هو العامل بجميع ما أوجب الله عليه العامل بما يؤمنه من العقاب.

ثم أخبر تعالى أنه أغرق الباقين من قوم نوح بعد إخلاصه نوحاً وأهله المؤمنين. ثم قال * (وإن من شيعته لإبراهيم) * فالشيعة الجماعة التابعة لرئيس لهم، وصاروا بالعرف عبارة عن شيعة علي (عليه السلام) الذين معه على أعدائه.

وقيل من شيعة نوح إبراهيم يعني إنه على منهاجه وسنته في التوحيد والعدل واتباع الحق. وقال الفراء: معناه وإن من شيعة محمد (صلى الله عليه وآله) لإبراهيم، كما قال * (أنا حملنا ذريتهم) * (١) أي ذرية من هو أب لهم، فجعلهم ذرية لهم وقد سبقوهم، وقال الحسن: معناه على دينه وشريعته ومنهاجه، قال الرماني:

هذا لا يجوز، لأنه لم يجر لمحمد ذكر، فهو ترك الظاهر، وقد روي عن أهل

(١) سورة ٣٦ يس آية ٤١ (*)

(٥٠٨)

البيت (عليهم السلام) إن من شيعته علي لإبراهيم. وهذا جائز إن صح الخبر المروي في هذا الباب، لأن الكناية عن لم يجر له ذكر جائزة إذا اقترن بذلك دليل، كما قال * (حتى توارث بالحجاب) * (١) ولم يجر للشمس ذكر ويكون المعنى أنه على منهاجه وطريقته في اتباع الحق والعدول عن الباطل، وكان إبراهيم وعلي (عليهما السلام) بهذه المنزلة.

وقوله * (إذ جاء ربه بقلب سليم) * معناه حين جاء إلى الموضع الذي أمره الله بالرجوع إليه بقلب سليم عن الشرك برئ من المعاصي في الوقت الذي قال لابيه وقومه حين رأهم يعبدون الاصنام من دون الله على وجه التهجين لفعلهم والتقريب لهم * (ماذا تعبدون) * أي أي شيء تعبدون من هذه الاصنام التي لا تنفع ولا تضر، وقال لهم * (أنفكا آلهة دون الله تريدون) * فالإفك هو اشنع الكذب وأفظعه، والإفك قلب الشيء عن جهته التي هي له، فلذلك كان الإفك كذباً، وإنما جمع الآلهة مع أنه لا إله إلا إله واحد. على اعتقادهم في الإلهية. وإن كان توهمهم فاسداً، لما اعتقدوا أنها تستحق العبادة، وكان المشركون قد اوغروا باتخاذ الآلهة إلى أن جاء دين الإسلام وبين الحق فيه وعظم الزجر.

وقوله * (دون الله تريدون) * معناه إنكم أتريدون عبادة آلهة دون عبادة الله، فخذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، كما قال * (واسأل القرية) * (٢) أي أهلها، لان الارادة لا تتعلق إلا بما يصح حدوثه. وهذه الاجسام ليست مما يحدث، فلا يصح إرادتها. وقوله * (فما ظنكم برب العالمين) * قيل: معناه أي شئ ظنكم به أسوء

(١) سورة ٣٨ ص آية ٣٢ (٢) سورة ١٢ يوسف آية ٨٢ (*)

(٥٠٩)

ظن؟! وقيل معنى * (فنظر نظرة في النجوم) * أي انه استدل بها على وقت حمى كانت تعتاده * (فقال أني سقيم) * ومن أشرف على شئ جاز أن يقال انه فيه، كما قال تعالى * (إنك ميت وإنهم ميتون) * (١) ولم يكن نظره في النجوم على حسب المنجمين طلبا للاحكام، لان ذلك فاسد، ومثله قول الشاعر:

اسهري ما سهرت أم حكيم * واقعدي مرة لذاك وقومي

وافتحى الباب فانظري في النجوم * كم علينا من قطع ليل بهيم

وقال الزجاج نظره في النجوم كنظرهم، لانهم كانوا يتعاطون علم النجوم فتوهموا هم أنه يقول مثل قولهم، فقال عند ذلك * (إني سقيم) * فتركوه ظنا منهم أن نجمه يدل على سقمه. وقال ابومسلم: معناه إنه نظر فيها نظر مفكر فاستدل بها على أنها ليست آلهة له، كما قال تعالى في سورة الانعام * (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي...*) * تمام الآيات (٢) وكان هذا منه في زمان مهلة النظر. وهذا الذي ذكره يمنع منه سياق الآية، لان الله تعالى حكى عن ابراهيم أنه * (جاء ربه بقلب سليم) * يعني سليم من الشرك، وذلك لا يليق بزمان مهلة النظر. ثم أنه قال لقومه على وجه التقبيح لفعلمهم * (ماذا تعبدون أنفكا آلهة دون الله تريدون). فما ظنكم برب العالمين) * وهذا كلام عارف بالله مستبصر، وكيف يحمل على زمان مهلة النظر. وقيل: في معنى قوله * (إني سقيم) * إني سقيم القلب مما أرى من أحوالكم القبيحة من عبادة غير الله وعدو لكم عن عبادته مع وضوح الادلة الدالة على توحيده واستحقاقه للعبادة منفردا بها. وقيل: إنه كان عرضت له

(١) سورة ٣٩ المزملة آية ٣٠ (٢) سورة ٦ الانعام آية ٧٦ (*)

(٥١٠)

علة في الحال، وكان صادقا في ذلك. وقيل: معناه إن عاقبتي الموت، ومن كان عاقبته الموت جاز أن يعبر عن حال حياته بأنه مريض. وقيل: معناه إني سأسقم في المستقبل، وقيل: إنه أراد بقوله: سقيم مطعون، فلذلك تركوه خوفا من أن يتعدى اليهم الطاعون. فأما من قال: إنه لم يكن سقيما وإنما كذب فيه ليتأخر عن الخروج معهم إلى عيدهم لتكسير أصنامهم وانه يجوز الكذب في المكيدة والتقية، فقوله باطل، لان الكذب قبيح لا يحسن على وجه.

فأما ما يروونه من أن النبي (صلى الله عليه وآله) قال (ما كذب أبي إبراهيم الا ثلاث كذبات يحاجز بها عن ربه: قوله إني سقيم ولم يكن كذلك، وقوله * (بل فعله كبيرهم هذا) * وقوله في سارة انها أختي وكانت زوجته) *.

فأول ما فيه أنه خبر واحد لا يعول عليه. والنبي (صلى الله عليه وآله) أعرف بما يجوز على الانبياء ومالا يجوز من كل واحد، وقد دلت الادلة العقلية على أن الانبياء لا يجوز أن يكذبوا في ما يؤدونه عن الله من حيث أنه كان يؤدي إلى ان لا يوثق بشئ من اخبارهم وإلى أن لا ينزاح علة المكلفين، ولا في غير ما يؤدونه عن الله من حيث أن تجويز ذلك ينفر عن قبول قولهم، فاذا يجب ان يقطع على ان الخبر لا أصل له. ولو سلم لجاز أن يكون المعنى مع ظاهره مظاهر للكذب، وإن لم يكن في الحقيقة كذلك، لان قوله * (إني سقيم) * قد بينا الوجه فيه. وقوله * (بل فعله كبيرهم) * بيناه في موضعه. وقوله في سارة انها أختي معناه إنها أختي في الدين، وقد قال الله تعالى إنما المؤمنون أخوة، وإن لم يكونوا بني أب واحد. وقوله * (فتولوا عنه مدبرين) * اخبار منه تعالى أنه حين قال لهم إني

(٥١١)

سقيم أعرضوا عنه وتركوه وخرجوا إلى عيدهم وهو متخلف عنهم، قوله تعالى: * (فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون (٩١) مالكم لا تنطقون (٩٢) فراغ عليهم ضربا باليمين (٩٣) فأقبلوا إليه يزفون (٩٤) قال أتعبدون ما تتحتون (٩٥) والله خلقكم وما تعملون (٩٦) قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم (٩٧) فأرادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين (٩٨) وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين (٩٩) رب هب لي من الصالحين (١٠٠) فبشرناه بغلام حليم) * (١٠١) احدى عشر آية. قرأ حمزة والمفضل عن عاصم * (يزفون) * بضم الياء. الباقون بفتحها، وهما لغتان. وزففت أكثر. ويجوز أن يكون المراد زف الرجل في نفسه وأزف غيره، والتقدير فأقبلوا إليه يزفون أنفسهم.

قوله * (فراغ إلى آلهتهم) * معناه مال إليها بحدة، تقول: راغ يروغ روغا وروغانا مثل حاد
يحيد حيدا وحيدانا، والرواغ الحياذ، قال عدي ابن زيد:
حين لا ينفع الرواغ ولا * ينفع إلا الصادق النحرير (١).

(١) تفسير الطبري ٢٣ / ٤١ (*)

(٥١٢)

وإنما مال إليها بحدة غضبا على عابديها، وقوله * (إلى آلهتهم) * معناه إلى ما يدعون أنها
آلهتهم أي إلى ما اتخذوها آلهة لهم، كما تقول. للمبطل: هات حجتك مع علمك انه لا حجة له.
وقوله * (فقال ألا تأكلون) * إنما جاز ان يخاطب الجماد بذلك تهجينا لعابديها وتنبئها على أن
من لا يتكلم ولا يقدر على الجواب كيف تصح عبادتها، فاجراها مجرى من يفهم الكلام
ويحسن ذكر الجواب استظهارا في الحجة وإيضاحا للبرهان، لكل من سمع ذلك ويبلغه. وقوله
* (مالكم لا تتطقون) * معناه تهجينا لعابديها كأنهم حاضرون بها. وقوله * (فراغ عليهم
ضربا باليمين) * قيل في معناه قولان:

أحدهما - انه مال عليهم بيده اليمنى، لانها اقوى على العمل من الشمال.

الثاني - بالقسم ليكسرنها، لانه كان قال * (وتالله لاكيدين أصنامكم) * (١)
وقال الفراء: اليمين القوة، ومنه قول الشاعر:

— إذ ما راية رفعت لمجد — * تلقاها عرابة باليمين (٢)

أي بالقوة. وقوله * (فاقبلوا اليه يزفون) * قال ابن زيد: معناه يسرعون.

وقال السدي: يمشون. وقيل: يتسللون بحال بين المشي والعدو، ومنه زفت النعامة، وذلك أول
عدوها، وهو بين العدو والمشي، وقال الفرزدق:

وجاء فزيع الشول قبل أوانها * تزف وجاءت خلفه وهي زفف (٣)

ومنه زففت العروس إلى زوجها، ومعنى يزفون يمشون على مهل، قال الفراء: لم أسمع إلا
زففت، قال ولعل من قرأ بالضم اراد من قولهم طردت الرجل إذا أحسأته

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٥٧ (٢) تفسير القرطبي ١٥ / ٧٥ (٣) تفسير الطبري ٢٣ / ٤٢ والقرطبي ١٥ / ٩٥
(*)

(٥١٣)

واطرده جعلته طريدا. وقرأ بعضهم (يزفون) يفتح الياء وتخفيف الفاء من (وزف، يزف) قال الكسائي والفراء: لا اعرف هذه إلا أن يكون احدهم سمعها. فلما رأهم ابراهيم (صلى الله عليه وآله) اقبلوا عليه قال لهم على وجه الانكار عليهم والتبكييت لهم بفعلهم * (اتعبدون ما تتحتون) * فالالف ألف الاستفهام ومعناها الانكار ووجه التوبيخ انه كيف يصح أن يعبد الانسان ما يعمله بيده ! فانهم كانوا ينحتون الاصنام بأيديهم، فكيف تصح عبادة من هذه حاله مضافا إلى كونها جمادا !. ثم نبههم فقال * (والله) * تعالى هو الذي * (خلقكم) * وخلق الذي * (تعملون) * فيه من الاصنام، لانها اجسام والله تعالى هو المحدث لها، وليس للمجبرة أن تتعلق بقوله * (والله خلقكم وما تعملون) * فنقول: ذلك يدل على ان الله خالق لافعالنا، لامور:

احدها - ان موضوع كلام ابراهيم لهم بني على التقريع لهم لعبادتهم الاصنام، ولو كان ذلك من فعله تعالى لما توجه عليهم العيب، بل كان لهم ان يقولوا: لم توبخنا على عبادتنا للاصنام والله الفاعل لذلك، فكانت تكون الحجة لهم لا عليهم.

الثاني - انه قال لهم * (اتعبدون ما تتحتون) * ونحن نعلم أنهم لم يكونوا يعبدون نحتهم الذي هو فعلهم، وإنما كانوا يعبدون الاصنام التي هي الاجسام وهي فعل الله بلا شك. فقال لهم * (والله خلقكم) * وخلق هذه الاجسام.

ومثله قوله * (فاذا هي تلقف ما يأفكون) * (١) ومثله قوله * (وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا) * (٢) وعصا موسى لم تكن تلقف افكهم، وإنما

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١١٦ (٢) سورة ٢٠ طه آية ٦٩ (*)

(٥١٤)

كانت تتلقف الاجسام التي هي العصا والحبال. ومنها ان (ما) في قوله * (وما تعملون) * لا يخلو من ان تكون بمعنى (الذي) او تقع مع بعدها بمنزلة المصدر، فان كانت بمعنى (الذي) ف (تعملون) صلتها، ولا بد لها من عائد يعود اليها، فليس لهم أن يقدروا فيها ضميرا لها ليصح ما قالوه، لان لنا أن نقدر ضميرا فيه فيصح ما نقوله، ويكون التقدير: وما يعملون فيه، والذي يعملون فيه هي الاجسام وإن كانت مصدرية فانه يكون تقديره: والله خلقكم وعملكم، ونفس العمل يعبر به عن المعمول فيه بل لا يفهم في العرف إلا ذلك، يقال فلان يعمل الخوص، وفلان يعمل السروج، وهذا الباب من عمل النجار، والخاتم من عمل الصانع، ويريدون بذلك كله ما يعملون فيه، فعلى هذا تكون الاوثان عملا لهم بما يحدثون فيها من

النحت والنجر، على أنه تعالى اضاف العمل اليهم بقوله * (وما تعملون) * فكيف يكون ما هو مضاف اليهم مضافا إلى الله تعالى وهل يكون ذلك إلا متناقضا.
ومنها أن الخلق في أصل اللغة هو التقدير للشئ وترتيبه، فعلى هذا لا يمتنع أن نقول: إن الله خالق افعالنا بمعنى أنه قدرها للثواب والعقاب، فلا تعلق للقوم على حال.
ثم حكى تعالى ما قال قوم ابراهيم بعضهم لبعض فانهم * (قالوا إبنوا له بنيانا) * قيل: انهم بنوا له شبه الحظيرة. وقيل مثل التنور وأججوا نارا ليلقوه فيها. والبناء وضع الشئ على غيره على وجه مخصوص، ويقال لمن رد الفرع إلى الاصل بناء عليه. * (فالقوه في الجحيم) *
بمعنى اطرحوه في النار التي اججوها له. والجحيم عند العرب النار التي تجتمع بعضها على بعض.

(٥١٥)

ثم اخبر تعالى ان كفار قوم ابراهيم انهم * (ارادوا به كيدا) * وحيلة وهو وما ارادوا من إحراقه بالنار * (فجعلناهم الاسفلين) * بأن اهلكهم الله ونجا ابراهيم وقيل منع الله - عزوجل - النار منه بل صرفها في خلاف جهته، فلما أشرفوا على ذلك علموا انهم لا طاقة لهم به.
ثم حكى ما قال ابراهيم حين ارادوا كيده، فانه قال * (إني ذاهب إلى ربي) * ومعناه إلى مرضات الله ربي بالمصير إلى المكان الذي أمرني ربي بالذهاب اليه. وقيل: إلى الارض المقدسة وقيل إلى ارض الشام. وقال قتادة: معناه * (إني ذاهب إلى ربي) * أي بعلمي ونيتي، ومعنى * (سيهدين) * يعني يهديني في ما بعد إلى الطريق الذي امرني بالمصير اليه أو إلى الجنة بطاعتي إياه.
ثم دعا ابراهيم ربه فقال * (ربي هب لي من الصالحين) * يعني ولدا صالحا من الصالحين، كما نقول: اكلت من الطعام، وحذف لدلالة الكلام عليه، فأجابه الله تعالى إلى ذلك وبشره بسلام حليم اي حليما لا يعجل في الامور قبل وقتها، وفي ذلك بشارة له على بقاء الغلام حتى يصير حليما.

وقال قوم: المبشر به اسحاق وقال آخرون اسماعيل، ونذكر خلافهم في ذلك في ما بعد.
قوله تعالى:

* (فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام إني أدبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين (١٠٢) فلما أسلما وتله للجبين (١٠٣)

(٥١٦)

وناديناہ أن يا إبراهيم (١٠٤) قد صدقت الرعيا إنا كذلك نجزي المحسنين (١٠٥) إن هذا لهو
 البؤء المبين (١٠٦) وفديناه بذبح عظيم (١٠٧) وتركنا عليه في الآخريين (١٠٨) سلام على
 إبراهيم (١٠٩) كذلك نجزي المحسنين (١١٠) إنه من عبادنا المؤمنين * (١١١) عشر آيات.
 قرأ أهل الكوفة إلا عاصما * (ماذا ترى) * بضم التاء وكسر الراء.
 الباقر بفتح التاء. من ضم التاء اراد ماذا تشير، وقال الفراء: يجوز ان يكون المراد ماذا
 ترى من صبرك وجلدك، لانه لا يستشير في أمر الله.
 واصله ترى فنقلوا كسرة الهمزة إلى الراء، وحذفت الهمزة لسكونها وسكون الياء. ومن فتح
 جعله من رأى والرؤية، لا من المشورة.
 لما اخبر الله تعالى انه اجاب دعوة إبراهيم في طلب الولد وبشره بولد حلیم اخبر ان من وعده
 به ولد له وكبر وترعرع، فلما بلغ مع ابيه السعي يعني في طاعة الله، قال الحسن سعى للعمل
 الذي تقوم به الحجة. وقال مجاهد:
 بلغ معه السعي. معناه أطاق ان يسعى معه ويعينه على أمورہ، وهو قول الفراء قال: وكان له
 ثلاث عشرة سنة، وقال ابن زيد: السعي في العبادة * (قال يا بني اني أرى في المنام اني
 اذبحك فانظر ماذا ترى) * وكان الله تعالى أوحى إلى إبراهيم في حال اليقظة، وتعبده أن
 يمضي ما يأمره في حال نومه من حيث ان منامات الانبياء لا تكون إلا صحيحة، ولو لم
 يأمره

(٥١٧)

به في اليقظة لما جاز أن يعمل على المنامات، أحب ان يعلم حال ابنه في صبره على أمر الله
 وعزيمته على طاعته. فلذلك قال له ماذا ترى، وإلا فلا يجوز أن يوامر في المضي في امر
 الله ابنه، لانه واجب على كل حال.
 ولا يمتنع أيضا أن يكون فعل ذلك بأمر الله أيضا، فوجده عند ذلك صابرا مسلما لامر الله. *
 (وقال يا ابت افعل ما تؤمر) * اي ما امرت به * (ستجدني انشاء الله من الصابرين) * ممن
 يصبر على الشدائد في حب الله ويسلم أمره اليه * (فلما اسلما) * يعني إبراهيم وابنه اي
 استسلما لامر الله ورضيا به اخذ ابنه * (وتله للجبين) * معنى تله صرعه. والجبين ما عن
 يمين الجبهة او شمالها وللوجه جبينان الجبهة بينهما. وقال الحسن: معنى وتله اضجعه للجبين.
 ومنه التل من التراب وجمعه تلول. والتليل العنق، لانه يتل له، * (وناديناہ ان يا إبراهيم) * و
 (ناديناہ) هو جواب (فلما) قال الفراء: العرب تدخل الواو في جواب (فلما) و (حتى) و (إذا)
 كما قال * (حتى إذا جاؤها فتحت ابوابها) * (١) وفي موضع آخر * (وفتحت) * (٢) وفي
 قراءة عبدالله * (فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية) * (٣) وفي المصاحف (جعل) بلا واو

وموضع ان نصب بوقوع النداء عليه وتقديره وناديناہ بأَن يا ابراهيم أي هذا الضرب من القول فلما حذف الباء نصب. وعند الخليل انه في موضع الجر * (قد صدقت الرؤيا) * ومعناه فعلت ما امرت به في الرؤيا واختلفوا في الذبيح. فقال ابن عباس وعبدالله بن عمر ومحمد بن كعب القرظي وسعيد ابن المسيب والحسن في احدى الروايتين عنه والشعبي: انه كان اسماعيل وهو الظاهر في روايات اصحابنا ويقويه قوله بعد هذه القصة وتامها

(١، ٢) سورة ٣٩ الزمر آية ٧١، ٧٣ (٣) سورة ١٢ يوسف آية ٧٠ (*)

(٥١٨)

* (وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين) * فدل على ان الذبيح كان اسماعيل. ومن قال: إنه بشر بنبوة اسحاق دون مولده، فقد ترك الظاهر لان الظاهر يقتضي البشارة باسحاق دون نبوته، ويدل ايضا عليه قوله * (فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب) * ولم يذكر اسماعيل، فدل على انه كان مولودا قبله وايضا فانه بشره باسحاق وانه سيولد له يعقوب، فكيف يأمره بذبحه مع ذلك. واجابوا عن ذلك بأن الله لم يقل إن يعقوب يكون من ولد اسحاق. وقالوا ايضا يجوز أن يكون أمره بذبحه بعد ولادة يعقوب، والاول هو الاقوى على ما بيناه. وقد روى عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال: انا ابن الذبيحين، ولا خلاف انه كان من ولد اسماعيل والذبيح الآخر عبدالله ابوه. وروي عن ابن عباس وعلي وابن مسعود وكعب الاحبار انه كان اسحاق. وروي ذلك ايضا في اخبارنا.

وفى الناس من استدل بهذه الآية على جواز النسخ قبل وقت فعله من حيث ان الله تعالى كان قد امره بذبح ولده ثم نسخ عنه قبل ان يفعله، ولا يمكننا ان نقول ان الوقت كان قد مضى، لانه لو أخره عن الوقت الذي امره به فيه لكان عاصيا، ولا خلاف أن ابراهيم لم يعص بذلك. فدل على انه نسخ عنه قبل وقت فعله.

ومن لم يجز النسخ قبل وقت فعله اجاب عن ذلك بثلاثة أجوبة:

احدها - ان الله تعالى أمر ابراهيم ان يقعد منه مقعد الذابح ويشد يديه ورجليه ويأخذ المدينة ويتركها على حلقه وينتظر الامر بامضاء الذبح على ما رأى في منامه وكل ذلك فعله، ولم يكن أمره بالذبح، وإنما سمي مقدمات الذبح بالذبح لقربه منه وغلبة الظن انه سيؤمر بذلك على ضرب من المجاز.

(٥١٩)

الثاني - انه إنما أمره بالذبح وذبح، وكل ما فرى جزء من حلقه وصله الله بلا فصل حتى انتهى إلى آخره فاتصل به، وصله الله تعالى، فقد فعل ما أمر به ولم يبين الرأس ولا انتفى الروح.

الثالث - انه امر بالذبح بشرط التخلية والتمكين، فكان كما روي انه كلما أعمد بالشفرة انقلبت وجعل على حلقه صفحة من نحاس، وهذا الوجه ضعيف، لان الله تعالى لا يجوز ان يأمر بشرط، لانه عالم بالعواقب، وإنما يأمر الواحد منا بشرط ذلك لانه لا يعلم العواقب، ولان فيه انه أمر بما منع منه وهذا عيب فاما قول من قال: انه فداه بذبح، فدل ذلك على انه كان مأمورا بالذبح على الحقيقة، اعتراضا على الوجه الاول، لان من شأن الفداء أن يكون من جنس المفدي، فليس بشئ، لانه لا يلزم ذلك الا ترى ان من حلق رأسه وهو محرم يلزمه ذلك، وكذلك إذا لبس ثوبا مخيطا او شم طيبا او جامع. وإن لم يكن جميع ذلك من جنس المفدي. وقوله * (إنا كذلك نجزي المحسنين) * معناه إنا جازينا ابراهيم على فعله بأحسن الجزاء. ومثل ذلك نجزي كل من فعل طاعة، فانا نجازيه على فعله بأحسن الجزاء.

ثم اخبر تعالى بأن هذا الذي تعبد به ابراهيم هو البلاء المبين أي الاختبار الظاهر وقيل: هو النعمة البينة الظاهرة، وتسمى النعمة بلاء والنقمة ايضا بلاء من حيث انها سميت بسببها المؤدي اليها، كما يقال لاسباب الموت هو الموت بعينه * (والمبين) * هو البين في نفسه الظاهر، ويكون بمعنى الظاهر، ويكون بمعنى المظهر ما في الامر من خير او شر. ثم قال تعالى * (وفديناه) * يعني ولد ابراهيم * (بذبح عظيم) * فالفداء جعل

(٥٢٠)

الشيء مكان غيره لدفع الضرر عنه، ومنه فداء المسلمين بالمشركين لدفع ضرر الاشد عنهم، فكذلك فداء الله ولد ابراهيم بالكبش لدفع ضرر الذبح عنه. والعظيم هو الكبير. وقيل: لان الكبش الذي فدي به يصغر مقدار غيره من الكباش عنه بالاضافة اليه. وقال ابن عباس: فدي بكبش من الغنم. وهو قول مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير. وقال الحسن: فدي بوعل أهبط به عليه جبرائيل. وقيل: إنه لا خلاف انه لم يكن من الماشية التي كانت لابراهيم او غيره في الدنيا. وقيل: إنه رعى في الجنة أربعين خريفا. وقال مجاهد:

وصفه بأنه عظيم، لانه متقبل. والذبح بكسر الهمياء، لان يذبح. وبفتح الذاال المصدر. وقوله * (وتركنا عليه في الآخرين) * يعني على ابراهيم في الآخرين يعني اثبتنا عليه الثناء الحسن في أمة محمد لانهم آخهر الامم بأن قلنا * (سلام على ابراهيم) * وقد بينا ما في ذلك ثم قال مثل ذلك نجزي كل محسن، فاعل لما أمر الله به كما جازينا ابراهيم (صلى الله عليه وآله).

ثم أخبر تعالى ان إبراهيم كان من جملة عباده الذين يصدقون بتوحيد الله وبجميع ما اوجبه عليهم، ومن جملة المصدقين بوعد الله ووعيده والبعث والنشور والجنة والنار. وانما قال * (انه من عبادنا المؤمنين) * مع انه افضل المؤمنين ترغيبا في الايمان بأن مدح مثله في جلالته بأنه من المؤمنين، كما يقال هو من الكرماء وكذلك قوله * (ونبيا من الصالحين) * (١) وإذا مدح بأنه يصلح وحده فلانه لا يقوم غيره مقامه ويستغنى به عنه.

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٣٩ (*)

(٥٢١)

قوله تعالى:

* (وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين (١١٢) وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين (١١٣) ولقد مننا على موسى وهرون (١١٤) ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم (١١٥) ونصرناهم فكانوا هم الغالبين (١١٦) وآتيناهما الكتاب المستبين (١١٧) وهديناهما الصراط المستقيم (١١٨) وتركنا عليهما في الآخرين (١١٩) سلام على موسى وهرون (١٢٠) إنا كذلك نجزي المحسنين (١٢١) إنيهما من عبادنا المؤمنين (١٢٢) احدى عشرة آية.

يقول الله تعالى بعد ان ذكر قصة ابراهيم وولده الذي اخبر الله بذبحه على ما فسرناه، بشره باسحاق ولدا له آخر، نعمة عليه مجددة لما فعل من المسارعة إلى ما أمره الله به وصبره على احتمال المشقة فيه، وبين انه نبيا من الصالحين، وأنه بارك عليه يعني على يعقوب وعلى إسحاق وخلق من ذريتهما الخلق الكثير، فمنهم محسن بفعل الطاعات ومنهم ظالم لنفسه بارتكاب المعاصي بسوء اختياره، مبين أي بين ظاهر.

ثم اقسام تعالى بأنه من على موسى وهارون أي انعم عليهما نعمة قطعت عنهما

(٥٢٢)

كل اذبة، فأصل المن القطع من قوله * (فلهم أجر غير ممنون) * (١) أي غير مقطوع، وحل منين منقطع والمنية الموت، لانها قاطعة عن تصرف الحي والبركة ثبوت الخير النامي على مرور الاوقات فبركته على إبراهيم واسحاق باللطف في دعائهما إلى الحق، وبالخير عن أحوال جلييلة في التمسك بطاعة الله * (ونجيناهما وقومهما) * ومعناه إنا خلصنا موسى

وهارون، ومن كان آمن بهما * (من الكرب العظيم) * أي الاذى الذي كان يؤذونهم بأن أهلك الله فرعون وقومه وغرقهم * (ونصرناهم) * يعني موسى وهارون وقومهما، * (فكانوا هم الغالبيين) * لاعدائهم بالحجج الظاهرة وبالقهر، من حيث أن الله غرق أعداءهم * (وآتيناهما) * يعني موسى وهارون * (الكتاب المستبين) * يعني التوراة الداعي إلى ما فيه من البيان بالمحاسن التي تظهر منه في الاستماع، فكل كتاب لله بهذه الصفة من ظهور الحكمة فيه * (وهديناهما الصراط المستقيم) * يعني أرسلنا موسى وهارون ودللناهما على الطريق المؤدي إلى الحق الموصل إلى الجنة باخلاص الطاعة لله تعالى. وقال قتادة: الطريق المستقيم الاسلام * (وتركنا عليهما في الآخرين) * أي الثناء الجميل. بأن قلنا * (سلام على موسى وهارون) * كما قلنا * (سلام على نوح في العالمين) * (٢).

ثم اخبر تعالى ان مثل ما فعل لهما يفعل بالمحسنين المطيعين ويجزيهم بمثل ذلك على طاعتهم، ودل ذلك على ان ما ذكره الله كان على وجه الثواب على الطاعات لموسى وهارون ومن تقدم ذكره، لان لفظ الجزاء يفيد ذلك. ثم اخبر ان موسى من جملة عباده المصدقين بجميع ما اوجبه الله عليهم العالمين بذلك.

(١) سورة ٩٥ التين آية ٦ (٢) آية ٧٩ من هذه السورة (*)

(٥٢٣)

قوله تعالى:

* (وإن إلياس لمن المرسلين (١٢٣) إذ قال لقومه ألا تتقون (١٢٤) أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين (١٢٥) الله ربكم ورب آبائكم الاولين (١٢٦) فكذبوه فانهم لمحضرون (١٢٧) إلا عباد الله المخلصين (١٢٨) وتركنا عليه في الآخرين (١٢٩) سلام على آل ياسين (١٣٠) إنا كذلك نجزي المحسنين (١٣١) إنه من عبادنا المؤمنين) * (١٣٢) عشر آيات.

قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر * (الله ربكم ورب آبائكم) * نصبا. الباقر بالرفع. من نصب جعله بدلا من قوله * (أحسن الخالقين) * ومن رفع استأنف الكلام، وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب * (سلام على آل ياسين) * على إضافة (آل) إلى (ياسين). الباقر * (على ألياسين) * موصولة. من أضاف اراد به على آل محمد (صلى الله عليه وآله) لان (يس) اسم من اسماء محمد على ما حكيناه. وقال بعضهم: أراد آل الياس (عليه السلام). وقال الجبائي اراد أهل القرآن، ومن لم يصف أراد الياس. وقال: الياسين، لان العرب تغير الاسماء العجمية بالزيادة كما يقولون: ميكائيل وميكائين، وميكال وميكايل، وفي اسماعيل اسماعين قال الشاعر:

يقول أهل السوق لما جينا * هذا ورب البيت اسرائينا (١)

(٥٢٤)

وفي قراءة عبدالله * (وإن إدريس لمن المرسلين سلام على إدراسين) * وقيل أيضا إنه جمع،
لأنه أراد الياس ومن آمن معه من قومه، وقال الشاعر:

قدني من نصر الخبيبين قدي (١)

فجعل ابن الزبير أبا خبيبا ومن كان على رأيه عددا ولم يضيفهم بالياء فيقول: خبيبين، فخفف
في الشعر مثل الأشعرين، وكما قالوا: سيرة العمرين وخير الزهديمين، وإنما أحدهما زهدم
والآخر كردم. وقال قوم: تقديره على * (آل ياسين) * فخفف، لأنه أراد الياسا وقومه، كما
قالوا: الأشعرون والمهلون. قال الشاعر:

انا ابن سعد اكرم السعدينا.

وكلهم قرأ * (وإن الياس) * بقطع الهمزة إلا ان أبا عامر، فإنه فصل الهمزة وأسقطها في
الدرج، فإذا ابتدأ فتحها، قال ابو علي النحوي: يجوز أن يكون حذف الهمزة حذفاً، كما حذفها
ابوجعفر في قوله * (إنها لاحدى الكبر) * (٢) ويحتمل أن تكون الهمزة التي تصحب لام
التعريف، وهي تسقط في الدرج، وأصله (ياس).

أخبر الله تعالى أن الياس من جملة من أرسله الله إلى خلقه نبيا داعيا إلى توحيده وطاعته حين
* (قال لقومه ألا تتقون) * الله بترك معاصيه وفعل طاعته، فاللفظ لفظ الاستفهام والمراد به
الانكار، كما يقول القائل ألا تتقي الله يا فلان في أن تظلم أو تزني، وما اشبه ذلك، وإنما يريد
بذلك الانكار. ثم قال لهم * (أتدعون بعلا) * قال الحسن والضحاك وابن زيد:

المراد بالبعل - ههنا - صنم كانوا يعبدونه، والبعل في لغة اهل اليمن هو

(٥٢٥)

الرب، يقولون من بعل هذا الثوب أي من ربه - وهو قول عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي -
ويقولون: هو بعل هذه الدابة أي ربها، كما يقولون:

رب الدار ورب الفرس، وزوج المرأة بعلها، والنخل والزرع إذا استقى بماء السماء فهو بعل،
وهو العذي، خلاف السقي. والأصل في الرب المالك فالزوج رب البضع، لأنه مالكة.

ومعنى الآية أتدعون بالالهية صنما عادلين عن أحسن الخالقين، وهذا إنكار عليهم أن يعتقدوا أن غير الله إله أو يقولون لغيره يا إلهي. وقال قتادة: الياس وهو إدريس، وقال ابن اسحاق: هو من ولد هارون، وهو اسم نبي وهو أعجمي، فلذلك لم ينصرف، ولو جعل (أفعالا) من الاليس وهو الشجاع الجري لجاز.

ثم بين لهم الذي هو أحسن الخالقين، فقال * (الله ربكم الذي خلقكم ورب آبائكم) * أي الذي دبركم وخلقكم، وخلق آبائكم * (الاولين) * يعني من مضى من آبائكم وأجدادكم. ثم حكى ان قومه كذبوه ولم يصدقوه، وأن الله أهلكتهم وأنهم لمحضرون عذاب النار. ثم استثنى من جملتهم عباده الذين اخلصوا عبادتهم لله وبين انه أثنى عليهم في آخر الامم بأن قال * (سلام على ألياسين) * وآل محمد (صلى الله عليه وآله) هم كل من آل اليه بحسب او بقرابة، وقال قوم: آل محمد كل من كان على دينه، ولا خلاف بين النحويين أن اصل (آل) اهل فغلبوا الهاء همزة وجعلوها مدة لثلا يجتمع ساكنان، ألا ترى أنك اذا صغرت قلت أهيل ولا يجوز أويل، لانه رد إلى الاصل لا إلى اللفظ. وقوله * (افلا تعقلون) * معناه تتدبرون وتفكرون في ما نزل بهؤلاء

(٥٢٦)

القوم وتعتبرون به لتجنبوا ما كانوا يفعلونه من الكفر والضلال. وفي قوله * (لمحضرون) * حذف، لان تقديره فانهم لمحضرون العقاب واليم العذاب لتكذيبهم والجزاء بما تقتضيه الحكمة فيهم. وهذا الابهام تغليظ في الوعيد بالعذاب، لانه لعظمه معلوم لا يخفى أمره، ووجه الحجة عليهم في قوله * (ورب آبائكم الاولين) * انه اذا كان الرب واحدا وجب اخلاص العبادة لواحد، لانه الذي يملك الضر والنفع في جميع الامور، وذلك يبطل عبادة الاوثان. ثم قال كما جازينا هؤلاء بهذا الجزاء وهو ان أثينا عليهم في آخر الامم مثل ذلك نجزي من فعل الطاعات واجتنب المعاصي. ثم اخبر ان الياس كان جملة عباده المصدقين بجميع ما اخبر الله به من وعد ووعيد وغير ذلك، العاملين بما اوجب الله عليهم. قوله تعالى:

* (وإن لوطا لمن المرسلين (١٣٣) إذ نجينا وأهله أجمعين (١٣٤) إلا عجوزا في الغابرين (١٣٥) ثم دمرنا الآخرين (١٣٦) وإنكم لتمرون عليهم مصبحين (١٣٧) وبالليل أفلا تعقلون (١٣٨) وإن يونس لمن المرسلين (١٣٩) إذ أبق إلى الفلك المشحون (١٤٠) فساهم فكان من المدحضين (١٤١) فالتقمه الحوت وهو مليم (١٤٢) فلولا أنه كان من المسبحين (١٤٣)

(٥٢٧)

للبث في بطنه إلى يوم يبعثون (١٤٤) فنبذناه بالعراء وهو سقيم (١٤٥) وأنبتنا عليه شجرة من يقطين (١٤٦) وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون (١٤٧) فأمنوا فمتعنناهم إلى حين) * (١٤٨) ست عشرة آية.

أخبر الله تعالى أن لوطا كان من جملة من أرسله الله نبيا إلى خلقه داعيا لهم إلى طاعة الله ومنبها لهم على وجه وحدانيته، وإن قومه كذبوه وجدوا نبوته فأهلكهم الله ونجا لوطا وأهله اجمعين، واستثنى من جملة اهله الناجين (عجوزا) أهلكها الله، لكونها على مثل ما كان قومه عليه * (في الغابرين) * أي في الباقين الذين اهلكوا، فالغابر الباقي قليلا بعد ما مضى، ومنه الغبار، لانه يبقى بعد ذهاب التراب قليلا. والتعبير التلحين لانه يبقى الصوت فيه بالترديد قليلا، ومنه قول الشاعر:

به غير من دأبه وهو صالح ثم انه لما نجى لوطا وأهله وخلصهم، دمر الآخرين من قومه. والتدمير الاهلاك على وجه التنكيل دمر عليهم إذا غير حالهم إلى حال التشويه، فالله تعالى اهلك قوم لوط بما أرسل عليهم من الحجارة، وبما فعل بهم من انقلاب قراهم. وقوله * (وإنكم لتمررون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون) * توبيخ من الله للكفار الذين عاصروا النبي (صلى الله عليه وآله) وتعنيف لهم على ترك اعتبارهم وإيقاظهم بمواضع هؤلاء الذين أهلكهم الله ودمر عليهم مع كثرة مرورهم

(٥٢٨)

عليها صباحا ومساء وليلا ونهارا. وفي كل وقت. ومن كثر مرورهم بمواضع العبرة فلم يعتبر كان الوم ممن قل ذلك منه.

وقوله * (أفلا تعقلون) * معناه أفلا تتدبرون فتتفكرون في ما نزل بهؤلاء القوم من الكفر والضلال. وقيل: وجه القصص وتكريرها، كتشويق إلى مثل ما كانوا عليه من مكارم الاخلاق ومحاسن الافعال وصرف الناس عن مساوي الاخلاق وقبائح الافعال قال الشاعر:

تلك المكارم لاقعبان من لبن * شيبا بماء فعادا بعد ابوالا ثم قال تعالى مخبرا عن يونس (عليه السلام) انه كان من جملة من أرسل الله إلى خلقه وجعله نبيا يدعو إلى توحيده وخلع الانداد دونه.

وقوله * (إذ أبق إلى الفلك المشحون) * معناه حين هرب إلى السفن المملوءة، فالأباق الفرار، فالأبق الفار إلى حيث لا يهتدي اليه طالبيه يقال:

أبق العبد بأبق أباقا فهو أبق إذا فر من مولاه. والآبق والهارب والفار واحد. قال الحسن: فر من قومه * (إلى الفلك المستحون) * أي المحمل الموقر. وقوله * (فساهم) * قال ابن عباس معناه قارع، وهو قول السدي * (فكان من المدحضين) * قال مجاهد: يعني من المسهومين، والمساهمة المقارعة، فلما ساهم يونس قومه وقع السهم عليه، فالقي في البحر، فالتقمه الحوت، فكان من المدحضين، قال الحسن كان من المقروعين. وقيل:

معناه فكان من الملقين في البحر، والدحض الزلق لانه يسقط عنه المار فيه. ومنه قوله * (حجتهم داحضة) * (١) أي ساقطة، ودحض يدحض دحضا فهو داحض، وأدحضته ادحاضا، وقيل: كان يونس (عليه السلام) قد توعدهم بالعذاب

(١) سورة ٤٢ الشوري آية ١٦ (*)

(٥٢٩)

ان أقاموا على ما هم عليه، فلما رأوا مخايل العذاب واماراته دعوا الله أن يكشف عنهم وتابوا اليه، فكشفه. وكان يونس قد خرج قبل ان يأمره الله - عزوجل - بالخروج من بين قومه استظهارا، فلما كشف الله عنهم لام نفسه على الخروج ومضى على وجهه إلى ان ركب البحر. وقيل: إنما تساهموا لانهم أشرفوا على الغرق فرأوا ان طرح واحد أيسر من غرق الجميع. وقيل:

لا بل لما رأوا الحوت قد تعرضت لهم، قالوا فينا مذنب مطلوب فتقارعوا فلما خرج على يونس رموا به في البحر فالتقمه الحوت. ومعناه ابتلعه يقال التقمه التقاما ولقم يلقم لقميا وتلقم تلقما.

وقوله * (وهو مليم؟ معناه أتى بما يلام عليه، وإن وقع مكفرا عند من قال بتجويز الصغائر على الانبياء، وعندنا قد يلام على ترك النذب، يقال ألام الرجل الأمة فهو مليم، وقال مجاهد وابن زيد: المليم المذنب قال لبيد:

سفها عدلت ولمت غير مليم * وهداك قبل اليوم غير حكيم (١)

ثم قال * (فلولا أنه كان من المسبحين) * قال قتادة: كان من المصلين في حال الرخاء فنجاه الله من البلاء. وقال سعيد بن جبير: كان يقول لا إله إلا انت سبحانك إني كنت من الظالمين، والتسييح التنزيه عما لا يليق ولا يجوز في صفته، ويقال: سبح الله يسبح تسبيحا إذا قال: سبحان الله معظما له بما هو عليه من صفات التعظيم نافيا عنه مالا يليق به ولا يجوز عليه من صفات المخلوقين والمحتاجين.

(٥٣٠)

وقوله * (للث في بطنه إلى يوم يبعثون) * إخبار منه تعالى انه لو لا تسبيح يونس لتركه اليه أي كان يبقى في بطنه إلى يوم القيامة الذي يحشر الله فيه الخلائق، وقوله * (فنبذناه بالعراء وهو سقيم) * إخبار منه تعالى انه لما اراد تخليصه طرحه بالعراء وهو الفضاء الذي لا يواريه شجر ولا غيره. قال الشاعر:

فرفعت رجلا لا اخاف عثارها * ونبذت بالبلد العراء ثيابي (١)

وقال السدي: لبث في بطن الحوت اربعين يوما * (وهو سقيم) * أي هو مريض حين القاه الحوت.

ثم اخبر تعالى انه انبت عليه شجرة من يقطين تكنه من حر الشمس.

اليقطين كل شجرة ليس لها ساق يبقى من الشتاء إلى الصيف، فهي يقطين وقال ابن عباس وقتادة: هو القرع. وقال مجاهد وسعيد بن جبير كل شجر لا يقوم على ساق كالبطيخ والدبا والقرع فهو يقطين. وهو تفعيل من قطن بالمكان إذا اقام إقامة زائل لا إقامة راسخ كالنخل والزيتون ونحوه والقطاني من الحبوب التي تقيم في البيت، قال أمية بن ابي الصلت.

فانبت يقطينا عليه برحمة * من الله لولا الله القى ضاحيا (٢)

وروي عن ابن عباس ان اليقطين كل شجرة لها ورق عريض. وقوله * (وأرسلناه إلى مئة الف او يزيدون) * قيل: أرسل الله يونس إلى أهل نينوى من أرض الموصل - في قول قتادة - وقال ابن عباس: كانت رسالته بعدما نبذ الحوت، فيجوز على هذا انه أرسل إلى قوم بعد قوم ويجوز أن يكون ارسل إلى الاولين بشريعة فأمنوا بها. وقيل: إن قوم يونس لما رأوا إمارات العذاب ولم يكونوا قد بلغوا حد الاجبار واليأس من البقاء

(٥٣١)

آمنوا، وقبل الله إيمانهم، لانهم لو كانوا حصلوا في العذاب لكانوا ملجئين ولما صح إيمانهم على وجه يستحق به الثواب.

وقوله * (او يزيدون) * قيل في معنى * (او) * ثلاثة اقوال:

احدها - ان تكون بمعنى الواو، وتقديره إلى مئة الف وزيادة عليهم.

الثاني - ان تكون بمعنى (بل) على ما قال ابن عباس.

الثالث - ان تكون بمعنى الابهام على المخاطبين، كأنه قال أرسلناه إلى احدى العديتين. ثم حكى تعالى عنهم أنهم آمنوا بالله وأقروا له بالوحدانية وراجعوا التوبة، وكشف الله عنهم العذاب ومتعهم إلى وقت فناء آجالهم، فالتمتع والامتناع هو التعريض للمنافع الحاصلة كالامتناع بالبساتين والرياض وشهي الطعام والشراب.
قوله تعالى:

* (فاستفتهم أربك البنات ولهم البنون (١٤٩) أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون (١٥٠) ألا إنهم من إفكهم ليقولون (١٥١)
ولد الله وإنهم لكاذبون (١٥٢) أصطفى البنات على البنين (١٥٣)
مالككم كيف تحكمون (١٥٤) أفلا تذكرون (١٥٥) أم لكم سلطان مبين (١٥٦) فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين (١٥٧) وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون (١٥٨)
سبحان الله عما يصفون (١٥٩) إلا عباد الله المخلصين) * (١٦٠)

(٥٣٢)

اثنتا عشرة آية.

كلهم قرأ * (أصطفى) * بفتح الهمزة إلا ورشا واسماعيل عن نافع، فانهما وصلاه على الخبر. وبه قرأ ابو جعفر قال ابو علي الفارسي: يجوز أن يكون على تقدير لكاذبون في قولهم قالوا: اصطفى، ويجوز ان يكون اصطفى البنات على ما يقولونه، والوجه قطع الهمزة، لانه على وجه التقريع، ويقويه قوله * (أم اتخذ مما يخلق بنات) * قال قتادة والسدي: ان قريشا كانت تقول: الملائكة بنات الله تعالى، فأمر الله نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يستفتهم بمعنى ان يطلب الحكم منهم في هذه القضية على وجه التقريع لهم والتوبيخ على قولهم بأن يقول لهم أربكم البنات؟! يعني كيف يقولوا لربك البنات يا محمد ولهم البنون؟ ومن أين علموا ان الملائكة إناثا اشاهدوا خلق الله لهم؟! فرأوهم اناثا؟ فانهم لا يمكنهم ادعاء ذلك.

ثم اخبر تعالى فقال * (ألا انهم من إفكهم) * أي من كذبهم - في قول قتادة والسدي - هذا القول، وهو ان يقولوا * (ولد الله. وإنهم لكاذبون) * في هذا القول. ثم قال * (أصطفى البنات على البنين) * من قطع الهمزة أراد الانكار بلفظ الاستفهام، والمعنى كيف يكون هذا، وكيف يختار البنات على البنين، ومن وصل الهمزة اراد الاخبار بذلك، فالاصطفاء إخراج الصفوة من الشيء، وهي خالصه. وإنما يصطفى الله تعالى افضل الاشياء، ومن اصطفى الادون على الافضل مع القدرة على الاعلى كان ناقصا. والله تعالى لا يليق بصفات النقص في اصطفاء البنات على البنين مع استحالة اتخاذ الولد عليه، لما في ذلك من معنى التشبيه، لانه إنما يتخذ

(٥٣٣)

الولد من يجوز أن يكون مثل ذلك ولد له، ولذلك لا يجوز أن يتخذ الشاب شيخا ولدا، ولا أن يتخذ الانسان بعض البهائم ولدا، لما لم يكن ذلك ممكنا، فاذا أستحال الولد عليه تعالى، فما هو مشبه به أولى بأن يستحيل عليه.

وأصل (اصطفى) (اصطفى) فقلبت التاء طاء لتعدل الحروف في الاطباق والاستعلاء بما هو من مخرج التاء، فالطاء وسط بين الحرفين لمناسبتها التاء بالمخرج، والصاد بالاستعلاء والاطباق.

قوله * (مالككم كيف تحكمون) * تهجين لهم بوضعهم الشئ في غير موضعه لانهم وضعوه موضع الحكمة، وليس الامر كذلك إذ انتم على فاحش الخطأ الذي يدعو اليه الجهل. وقوله * (أم لكم سلطان مبين) * معناه هل لكم حجة ظاهرة وبرهان بين في ما تدعونه وتحكمون به. وسمي البرهان سلطانا، لانه يتسلط به على الانكار لمخالفة الحق والصواب. والبيان إظهار المعنى للنفس.

ثم قال على وجه الانكار عليهم * (فأتوا بكتابتكم) * إن كان معكم حجة من كتاب انزله الله اليكم فهاتوه * (إن كنتم صادقين) * في هذا القول، فانهم لا يقدرّون على ذلك ابدأ. ثم اخبر تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم * (جعلوا بينه وبين الجنة نسبا) * قال الحسن: اشركوا الشيطان في عبادة الله، فهو النسب الذي جعلوه.

وقال قوم: بل لانهم قالوا: إنه تعالى تزوج من الجن - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - وقيل: سميت الملائكة جنة لاستنارهم عن العيون. ومعنى الآية أن هؤلاء الكفار جعلهم الملائكة بنات الله جعلوا بينه وبينهم نسبا، وهو قول مجاهد وقتادة.

ثم قال تعالى على وجه الرد عليهم * (ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون) *

(٥٣٤)

وقال مجاهد وقتادة: قال ذلك لانهم علموا أنهم يحضرون الحساب. وقال السدي: علموا أن قائل هذا القول يحضر الحساب والعذاب. ثم نزه تعالى نفسه عن قولهم وصفتهم، فقال * (سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين) * استثنى عباده الذين أخلصوا نفوسهم فوجهوا العبادة اليه تعالى ووصفوه بما يليق به من جملة الكفار القائلين بما لا يليق به. قوله تعالى:

* (فانكم وما تعبدون (١٦١) ما أنتم عليه بفاتنين (١٦٢))

إلا من هو صال الجحيم (١٦٣) وما منا إلا له مقام معلوم (١٦٤)

وإننا لنحن الصافون (١٦٥) وإننا لنحن المسبحون (١٦٦) وإن كانوا ليقولون (١٦٧) لو أن
عندنا ذكرا من الأولين (١٦٨)

لكننا عباد الله المخلصين (١٦٩) فكفروا به فسوف يعلمون) * (١٧٠)
عشر آيات.

قرأ الحسن * (صائل الجحيم) * بالرفع وهي تحتل شيئين: أحدهما.

الجمع. والثاني - القلب، كقولهم: شك، وشائك في السلاح، وهار وهائر.

الباقون * (صال) * بكسر اللام على وزن (فاعل).

هذا خطاب من الله تعالى للكفار الذين كانوا يعبدون الاصنام بأن قال لهم * (فانكم وما
تعبدون) * فموضع (ما) نصب عطفا على الكاف والميم، وهو في موضع نصب ب (أن)
والنقدير إنكم يا معشر الكفار والذين تعبدونه

(٥٣٥)

* (ما انتم عليه بفاتنين) * وقال الفراء: تقديره، وإنكم وآلهتكم ما أنتم عليه بفاتنين أي بمفتنين
* (وما انتم عليه) * أي وما أنتم على ذلك الدين بمصلين عليه وبه وله سواء في المعنى.
وأهل نجد يقولون: أفتنت، وأهل الحجاز فتنت أي لستم عليه بفاتنين، والفاتن الداعي إلى
الضلالة بتزيينه له، فكل من دعا إلى عبادة غير الله بالاغواء والتزيين فاتن، لأنه يخرج إلى
الهلاك، وأصل الفتنة من قولهم: فتنت الذهب بالنار إذا أخرجه إلى حال الخالص * (وفنتاك
فتونا) * (١) أي أخرجناك بالامر الحق إلى حال الخالص.

وقوله * (إلا من هو صال الجحيم) * أي لستم تفتنون إلا من يصلى الجحيم، ومعناه إلا من
يلزم النار ويحترق بها، ومنه المصطلح، وهو المستدفئ بالنار، ومنه الصلاة للزوم الدعاء
فيها، والمصلي الذي يجيء بعد السابق للزومه أثره. والمعنى ان من يقبل من هذا الفاتن وينقاد
له، فهو يصلى الجحيم وقوله * (وما منا إلا له مقام معلوم) * معناه ما منا ملك إلا له مقام،
فحذف ومعناه لا يتجاوز ما أمر به ورتب له، كما لا يتجاوز صاحب المقام مقامه الذي حد له،
فكيف يجوز ان يعبد من هو بهذه الصفة، وهو عبد مربوب ووصف المقام بأنه معلوم، لأنه
معلوم لله على ما تقتضيه الحكمة، وهو محدود لا يتجاوز ما علم منه ولا يخرج منه.

وقوله * (وإننا لنحن الصافون) * قيل: صافون حول العرش ينتظرون الامر والنهي من الله
تعالى، وقيل: الصافون في الصلاة: وقوله * (وإننا لنحن المسبحون) * معناه المصلون من
قولهم: فرغت من سبحتي أي من

(٥٣٦)

صلاتي، وسميت الصلاة تسبيحا لما فيها من تسبيح الله وتعظيم عبادته.
و (المسبحون) القائلون سبحان الله على وجه التعظيم له تعظيم العبادة، وقوله * (وإن كانوا ليقولون) * ف (إن) هذه المخففة من الثقيلة بدلالة دخول اللام في خبرها، كما قال * (وإن ربك ليحكم بينهم) * (١) ويلزمها هذه اللام ليفرق بين (إن) الثقيلة والخفيفة التي للجحد في مثل قوله * (إن الكافرون إلا في غرور) * (٢) والمعنى إن هؤلاء الكفار كانوا يقولون * (لو إن عندنا ذكرا) * أي كتابا فيه ذكر من كتب الاولين الذي أنزله على انبيائه. وقيل:
يعني علما يسمى العلم ذكرا، لان الذكر من اسبابه، فسمى بأسمه * (من الاولين) * الذين تقدمونا وما فعل الله بهم * (لكننا) * نحن ايضا من * (عباد الله المخلصين) * الذين أخلصوا العبادة له، فجعلوا العذر في امتناعهم من الايمان أنهم لا يعرفون اخبار من تقدمهم، وهل حصلوا في جنة او نار، فقال الله تعالى * (فكفروا به) * يعني بالذکر، لانهم طلبوا كتابا كما للاولين التوراة دالا على توحيد الله، فلما جاءهم القرآن كفروا به، وبمن جاء بالقرآن - في قول ابن عباس والسدي - فهدهم الله على هذا، الكفر فقال * (فسوف يعلمون) * في ما بعد إذا عاقبناهم بعقاب النيران.
قوله تعالى:

* (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين (١٧١) إنهم لهم المنصورون (١٧٢) وإن جندنا لهم الغالبون (١٧٣) فتول عنهم

(١) سورة ١٦ النحل آية ١٢٤ (٢) سورة ٦٧ الملك آية ٢٠ (*)

(٥٣٧)

حتى حين (١٧٤) وأبصرهم فسوف يبصرون (١٧٥) أفبعذابنا يستعجلون (١٧٦) فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين (١٧٧)
وتول عنهم حتى حين (١٧٨) وأبصر فسوف يبصرون (١٧٩) سبحان رب العزة عما يصفون (١٨٠) وسلام على المرسلين (١٨١)
والحمد لله رب العالمين) * (١٨٢) اثنتا عشرة آية بلا خلاف.
اقسم الله تعالى، لان هذه اللام لام القسم بأنه * (سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) * الذين بعثهم الله إلى خلقه * (أنهم هم المنصرون) * سينصرون بنصرهم على أقوامهم بالحجج وإنما قدم الله تعالى الكلمة للمرسلين بأنهم سينصرون، لما في ذلك من اللطائف للملائكة والسماعين لها، وسميت جملة من الكلام بانها كلمة لانعقاد بعض معانيه ببعض حتى صار يلحقه صفة التوحيد

كخبر واحد وقضية واحدة. وقال السدي: النصر للمرسلين بالحجة لان منهم من قتل. وقال الحسن: ما غلب نبي في حرب، ولا قتل قط.

ثم اخبر تعالى أن جنود الله للكفار لغالبون أي يقهرونهم تارة بالحجة واخرى بالقتل. ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) * (فتول عنهم) * يعني اعرض عن هؤلاء الكفار * (حتى حين) * إلى ان أمرك بقتالهم، يعني يوم بدر - في قول السدي - وقال قتادة: إلى الموت. وقال قوم: إلى يوم القيامة. وقال قوم: إلى انقضاء مدة الامهال.

(٥٣٨)

وقوله * (وابصرهم فسوف يبصرون) معناه انظرهم فسوف يرون العذاب - في قول ابن زيد - وقال غيره أبصر حالهم بقليل. وقيل: ابصرهم في وقت البصر، وفي الآية دلالة على المعجز، لانه تعالى وعد نبيه بالنصر، فكان الامر على ما قال.

وقوله * (أفبعذابنا يستعجلون) * معناه الانكار عليهم بأنهم يطلبون العذاب عاجلا قبل وقته. ثم قال * (فاذا نزل) * يعني العذاب * (بساحتهم) * أي بفنائهم فساء صباح المنذرين أي بسئ الصباح صباح من خوف وحذر، فلم يحذر، ولم يخف، فالساحة ناحية الدار، وهو فناؤها، وهو الفناء الواسع فلذلك وصف بأنه نازل به العذاب لعظمه ولا يسعه إلا الساحة ذات الفناء الواسع. وقال السدي: نزل بساحتهم أي بدارهم وساء إذا كانت بمعنى بسئ لا تتصرف مثل هذه. ومثل قوله * (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) * (١)

ولو كان بمعنى الاخبار المحض لجاز أن يقال: ساءه يسوءه سوءا أي اوقع به ما يسوءه. ثم قال لنبيه (صلى الله عليه وآله) * (فتول عنهم حتى حين) * أي اعرض عنهم إلى حين وقد فسرناه. و * (ابصر فسوف يبصرون) * وقد مضى معناه، وإنما كرر لانهما عذابان عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فكأنه قال و ابصرهم في عذاب الآخرة و ابصرهم في عذاب الدنيا. ثم قال " سبحان ربك رب الغرة عما يصفون " أي التنزيه لربك عما لا يليق به من الصفات، ربك الذي خلقك ويملك التصرف فيك رب العزة يعني العزة التي يعز الله بها الانبياء والمرسلين، وهي صفة القادر الذي

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٦ *

(٥٣٩)

لا يضام ولا يرام، فالعزة لله - جل عز - وهو ربها، لانه القادر الذي لا يعجزه شئ منها، ولا من غيرها جل وعلا " عما يصفون " يعني ما يصفه به الكفار من اتخاذ الاولاد واتخاذ

الشريك " وسلام على المرسلين " الذين أرسلهم الله إلى عباده " والحمد لله رب العالمين " أي
والشكر والحمد لله الذي خلق جميع العالم وملك التصرف فيهم.

(٥٤٠)

٣٨ - سورة ص هي مكية في قول مجاهد وقتادة والحسن ليس فيها ناسخ ولا منسوخ وهي ثمان وثمانون آية في الكوفي وخمس وثمانون في البصري وست في المدني.
بسم الله الرحمن الرحيم * (ص والقرآن ذي الذكر (١) بل الذين كفروا في عزة وشقاق (٢) كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص (٣) وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب (٤) أجعل الآلهة إليها واحدا إن هذا لشيء عجاب) * (٥) خمس آيات.

قرأ الحسن (صاد) بكسر الدال. وقال عيسى بن عمر بفتحها. الباقي بالوقف، وهو الصحيح، لأن حروف الهجاء يوقف عليها. ومن كسر

(٥٤١)

فلاجتمع الساكنين. وقيل: إنه جعل من المصاداة وهي المعارضة. ومن فتح فلان الفتحة أخف من الكسرة، ولم يعدوا (صاد) آية، لأنه يشبه الاسم المفرد في أنه على ثلاثة أحرف في هجاء حروف المعجم، نحو (باب، وذات، وناب) وإنما يعد آية ما يشبه الجملة وشاكل آخره رؤس الآي التي بعده بالردف ومخرج الحروف. وليس - ههنا - شيء من ذلك.
واختلفوا في معنى (صاد) فقال قوم: هو اسم السورة على ما أخبرناه في ما مضى. وقال ابن عباس: هو اسم من أسماء الله أقسم به. وقال السدي: هو من حروف المعجم. وقال الضحاك: معناه صدق، وقال قتادة:

هو اسم من أسماء القرآن أقسم الله تعالى به. وقال الحسن: هو من المصاداة وهو (صاد) بالكسر أمر للنبي (صلى الله عليه وآله) أي عارض القرآن بعملك (والقرآن) قسم. فلذلك جر " ذي الذكر " قال ابن عباس: ذي الشرف، وقال الضحاك وقتادة: ذي التذكر. وقيل: معناه ذي الذكر للبيان والبرهان، المؤدي إلى الحق الهادي إلى الرشيد الرادع عن الغي، وفيه ذكر الأدلة التي من تمسك بها سعد. ومن عدل عنها شقي. ومن عمل بها نجا. ومن ترك العمل بها هلك.

واختلفوا في جواب القسم، فقال قوم: هو محذوف وتقديره لجااء الحق وظهر، لأن حذف الجواب في مثل هذا أبلغ، لأن الذكر يقصر المعنى على وجه. والحذف يصرف إلى كل وجه فيعم. وقال قوم: جوابه ما دل عليه قوله " بل الذين كفروا " كأنه قال: والقرآن ذي الذكر ما الأمر على ما قالوا - ذكر ذلك قتادة - وقال الفراء والزجاج: الجواب (كم) وتقديره لكم أهلكناه، فلما طال الكلام حذف اللام وصارت (كم) جوابا للقسم

(٥٤٢)

واليمين. ومثله قوله " ونفس وما سواها فألهمها " (١) فصارت " قد افلح " تابعة لقوله " فألهمها " وكفى عن جواب القسم، وكأنه قال: والشمس وضحاها. لقد افلح، وقال قوم: الجواب قوله " إن ذلك لحق تخاصم أهل النار " إلا انه قد بعد عن أول الكلام.

وقوله " بل الذين كفروا في عزة وشقاق " اخبار منه تعالى أن هؤلاء الكفار قد مكنهم واعطاهم القوة ليقوموا بها على الطاعات، فتقووا - بسوء اختيارهم - بها على المعاصي وعلى دفع الحق الذي اتاهم وصاروا في شق غير شق رسولهم الذي من قبل ربهم. ثم اخبر تعالى انه اهلك أمما كثيرة قبل هؤلاء الكفار حين عصاه الذين كفروا، فلما نزل بهم العذاب نادوا واستغاثوا " ولات حين مناص " معناه لات حين فرار من العذاب. وقيل: المناص المنجاة يقال: ناص ينوص نوصا إذا تأخر وباص يبوص بوصا إذا تقدم قال امرؤ القيس:

أمن ذكر ليلى ان نائك تنوص * فتقصر عنها خطوة وتبوص (٢)

ونصب (لات حين) لانها مشبهة ب (ليس) من جهة أنها نفي ولا تعمل إلا في (الحين) خاصة لضعف الشبه عن منزلة (ما) إذ كانت (ما) تشبه (ليس) من جهة النفي والحال قال الشاعر:

تذكر حب ليلى لات حيناً * واضحى الشيب قد قطع القرينا (٣)

والوقف على (لات) بالتاء على قياس نظيرها من (ثمت، وربت)

لان ما قبلها ساكن - وهو قول الفراء - والكسائي يقف بالهاء (لاه) يجعل الالف

(١) سورة ٩١ الشمس آية ٧ (٢) تفسير القرطبي ١٥ / ١٤٦ (٣) تفسير القرطبي ١٥ / ١٤٧ (*)

(٥٤٣)

في نية الحركة. ومن زعم انه (لا تحين) موصوله، فقد غلط، لانها في المصحف وتأويل العلماء مفصولة. وقيل: ان (مناص) جر ب (لات) وانشدوا لابي زيد.

طلبوا صلحنا ولات اوان * فاجبنا أن ليس حين بقاء (١)

وقال الزجاج: انشده ابوالعباس بالرفع، وقد روي بالكسر. وقال الزجاج: من كسر رأى ان يجعله مبنيا بمنزلة نداء ذلك الاقوام وبنائه، فحذف المضاف اليه وكسر دون ان يضم، لانه نونه، فأجراه على نظائره من المنون المبني وأراد ولات اوانا.

ثم اخبر تعالى ان الكفار عجبوا " حين جاءهم منذر " أي مخوف من جهة الله يحذرهم معاصيه ويدعوهم إلى طاعته، وقالوا: هذا شئ عجاب، وعجيب وعجاب بمعنى واحد، مثل كريم وكرام، فعجب هؤلاء الكفار من أن الله بعث نبيهم وهو منهم، وقالوا: كيف خص بذلك، وليس باشرافنا ولا اغنانا. وقيل: إن أبا جهل وجماعة من أشراف قريش مشوا إلى أبي طالب

وشكوا اليه النبي (صلى الله عليه وآله) وقالوا له: قد سفه احلامنا وشتم الالهة، فدعاه ابوطالب وقال له: ما لاهلك يشكونك، فقال النبي (صلى الله عليه وآله) أدعوهم إلى كلمتين حقيقتين يسودون على العرب بها، ويؤدى الخراج اليهم بها العجم، فقال ابوجهل وغيره: ما هما فقال (صلى الله عليه وآله): تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله: فقال ابوجهل: أتجعل الالهة إلها واحدا؟ ! فانزل الله الآية.

(١) تفسير القرطبي ١٥ / ١٤٧ (*)

(٥٤٤)

قوله تعالى:

* (وانطلق الملا منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد (٦) ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق (٧) أنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب (٨) أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب (٩) أم لهم ملك السموات والارض وما بينهما فليرتقوا في الاسباب) * (١٠) خمس آيات في الكوفي واربع في الباقي.

اخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار الذين ذكرهم انهم انطلقوا اي ذهبوا فالانطلاق ذهاب بسهولة، ومنه طلاقة الوجه وهي سهولة وبشر خلاف العبوس وقوله " أن امشوا " قال الزجاج: أى بهذا القول، وتقديره بأن امشوا وقال قوم: معنى (أن) أي التي للتفسير لانه صار انطلاقهم لدلالته على هذا المعنى بمنزلة الناطق به، كما يقولون: قام يصلي أي أنا رجل صالح.

وقال بعضهم: معناه الدعاء لهم بأن يكثروا ماشيتكم، وهذا باطل لفظا ومعنى فاللفظ لانه لو كان كما قالوه لكانت الهمزة من (أن امشوا) إذا أمر منها مفتوحة، لانه من امشى يمشي إذا كثرت ماشيته والامر منه امشوا بقطع الهمزة، والقراءة بكسرهما، قال الشاعر:

(٥٤٥)

وكل فتى وإن أثرى وامشى * ستسلخه من الدنيا المنون (١)

واما المعنى، فلانه لا يشاكل ما قبله ولا ما بعده.

وقوله " واصبروا على آلهتكم " أمر منهم بعضهم لبعض أن يصبروا على عبادة آلهتهم وتحمل المشاق لاجلها. وقال مجاهد: القاتل لذلك عقبة بن أبي معيط فالصبر محمود إذا كان في حبس النفس عن المحارم، فهؤلاء الجهال اعتقدوا أن الحق في الصبر على آلهتهم، ولم يعلموا ان

ذلك كفر. وفي ذلك دلالة على فساد قول من يقول: إن المعارف ضرورة، قال الحسن: إن هذا يكون في آخر الزمان.

وقوله " إن هذا لشيء يراد " معناه هذا الذي يدعيه محمد ويدعوهم اليه لشيء يراد به أمر ما من الاستعلاء علينا والرياسة فينا والقهر لنا.

ثم حكى ما قالوه فانهم قالوا " ما سمعنا بهذا " يعنون ما يدعوهم اليه النبي (صلى الله عليه وآله) من التوحيد وخلع الانداد من دون الله " في الملة الآخرة " قال

ابن عباس يعنون في النصرانية، لانها آخر الملل. وقال مجاهد: يعنون في مكة وقريش. ثم قالوا " إن هذا إلا اختلاق " قال ابن عباس ومجاهد:

معناه ليس هذا إلا تخرص وكذب. ثم تعجبوا فقالوا " أنزل عليه الذكر من بيننا " يعنون كيف خص محمد بانزال القرآن دوننا؟ ! فقال الله تعالى " بل هم في شك من ذكري " معناه ليس

يحملهم على هذا القول إلا الشك في الذكر الذي أنزلت على رسولي " بل لما يذوقوا عذاب " ثم قال " أم عندهم خزائن رحمة ربك "؟ قال الفراء: الاستفهام إذا توسط الكلام

(١) قائله النابغة الذبياني. اللسان (مشى) (*)

(٥٤٦)

ابتدئ بألف وب (أم)، وإذا لم يسبق كلام لم يكن إلا بألف او ب (هل).

ووجه اتصال هذا القول بما تقدم هو اتصال الإنكار لما قالوا فيه، أي ذلك ليس اليهم، وإنما هو إلى من يملك هذه الامور. و (خزائن رحمة ربك) معناه مقدراته التي يقدر بها على أن ينعم بها عليهم. وقوله " العزيز " يعني القادر الذي لا يغالب ولا يقهر " الوهاب " لضروب النعم " أم لهم ملك السموات والارض وما بينهما " فان كان لهم ذلك " فليرتقوا في الاسباب " وهي جمع سبب وكل ما يتوصل به إلى المطلوب - من حبل أو سلم أو وسيلة أو رحم أو قرابة أو

طريق أو جهة - فهو سبب، ومنه قيل:

تسببت بكذا إلى كذا أي توصلت به اليه.

قوله تعالى:

* (جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب (١١) كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد

(١٢) وثمود وقوم لوط وأصحاب الايكة أولئك الاحزاب (١٣) إن كل إلا كذب الرسل فحق

عقاب (١٤) وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق (١٥)

خمس آيات.

قرأ حمزة والكسائي " فواق " بضم الفاء. الباقون بفتحها. فالفواق بفتح الفاء معناه مالها من راحة، وإذا ضمنت الفاء، فالمعنى مالها من فواق ناقة وهو قدر ما بين الحبلتين. وقيل: هو ما بين الرضعتين. وقيل: هما لغتان

(٥٤٧)

مثل قصاص الشعر وقصاصه، وحمام الماء وحمامه، وهو الآفة، وهو الابانة بعد الفترة و (ما) في قوله " جند ما " صلة، وتقديره: جند هنالك، و (هنالك) للمكان البعيد و (هنالك) للمتوسط بين القرب والبعد و (هنا) للقريب ونظيره (ذا) و (ذاك) و (ذلك) ومثل (ما) في كونها صلة قولهم: لامر ما جده قصير أنفه. وعندى طعام ما، قال الاعشى:

فاذهبي ما اليك أدركني الح * لم عداني عن ذكركم اشغالي (١)

وقيل: إنها تقوية للنكرة المبتدأة في (ما) والجند جمع معد للحرب جمعه اجناد وجنود، وجند الاجناد أي جيش الجيوش. ومنه قوله (صلى الله عليه وآله) (الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)، وقوله " مهزوم " يعني مغلوب عن أن يصعدوا إلى السماء، والمهزوم من وقعت بهم الهزيمة، وهي الفرار من الحرب، ولو فر انسان من ضرب لم يكن ذلك هزيمة، وكذلك من فر من الحبس. وقوله " من الاحزاب " معناه من حزب إبليس وإتباعه.

ثم اخبر تعالى انه كذب مثل هؤلاء الكفار، فأنت لانه أراد العشيرة " قوم نوح " فأغرقهم الله، وقوم " عاد " فاهلكهم الله " وفرعون " وقوم فرعون " ذا الاوتاد " وقيل: في معناه أقوال: منها - انه كانت له ملاعب من اوتاد يلعب له عليها، وهو قول ابن عباس وقتادة. وقال السدي والربيع بن أنس: انه كانت له أوتاد يعذب الناس بها. وقال الضحاك: معناه ذو البنيان، والبنيان اوتاد، ثم قال " وثمرود وقوم لوط وأصحاب الايكة " أيضا هم الاحزاب يعني

(١) ديوانه ١٦٤ (*)

(٥٤٨)

احزاب إبليس: و (الايكة) الغيضة. وقال ابو عمرو بن العلاء: هي الملتفت من النبع والسدر. وقال السدي: هي الحرجة، قال الشاعر:

افمن بكاء حمامة في أيكة * يرفض دمك فوق ظهر المحمل يعني محمل السيف. وقوله " إن كل الاكذب الرسل " معناه ليس كلهم إلا كذبوا أنبياء الله وجدوا نبوتهم فاستحقوا عقابي. ثم قال " وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة " أي ليس ينظر هؤلاء إلا صيحة عذاب لا يكون لتلك

الصيحة " من فواق " أي مالها من افاقة بالرجوع إلى الدنيا وهو قول قتادة، والسدي وقال ابن زيد " مالها من فواق " أي من فتور كما يفوق المريض.
قوله تعالى:

* (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب (١٦)

إصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الايد إنه أواب (١٧)
إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق (١٨) والطير محشورة كل له أواب (١٩)
وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) * (٢٠) خمس آيات.
يقول الله مخبرا عن هؤلاء الكفار الذين وصفهم بأنهم يقولون على وجه الاستهزاء بعذاب الله
يا " ربنا عجل لنا قطنا " أي قدم لنا نصيبنا من العذاب، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة:، طلبوا
حظهم من العذاب تهزءا

(٥٤٩)

بخبر الله وشكا فيه. وقال السدي: إنما سألوا أن يريهم حظهم من النعيم في الجنة حتى يؤمنوا.
وقيل: إنما سألوا أن يعجل كتبهم التي يقرؤونها في الآخرة استهزاء منهم بهذا الوعيد. والقط
الكتاب قال الاعشى:

ولا الملك النعمان يوم لقيته * بأتمه يعطي القطوط ويأفق (١)

أي كتب الجوائز، لأنها قطع نصيب لكل واحد بما كتب. والتعجيل فعل الشئ قبل وقته الذي
ينبغي أن يفعل فيه. والقط النصيب وأصله القطع من قولك قطه يقطه قطا مثل قده يقده قدا،
ومنه قولهم: ما رأيته قط أي قطع الدهر الذي مضى " قبل يوم الحساب " أي قبل اليوم الذي
يحاسب فيه الخلق ويجازون فيه على أعمالهم على ما يقولونه فقال الله تعالى لنبيه (صلى الله
عليه وآله) " اصبر على ما يقولون " أي احبس نفسك على اذاهم وصبرها على أقوالهم " واذكر
عبدنا داود ذا الايد " ترغيبا له في الصبر المأمور به وإن لك يا محمد فيه من إحسان الله اليك
على نحو إحسانه إلى داود قبلك، وأنه لو شاء لاعطاك في الدنيا مثل ما أعطى داود ولكنه دبر
لك ما هو أعودلك.

وقوله " ذا الايد " قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: معناه ذا القوة، ومنه قوله " والسماء بنيناها
بأيد " (٢) أي بقوة، وقوله " إنه اواب " قال ابن زيد: معناه تواب وبه قال مجاهد، وهو من
آب يؤب أي رجع إلى الله فلذلك مدحه.

ثم اخبر تعالى عن نعمه التي أنعم بها على داود، فقال " إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي
والاشراق " ومعناه إنها كانت تسير بأمر الله معه حيث سار بالعادة والعشي فسمى الله ذلك
تسبيحا لما في ذلك من

(٥٥٠)

دلالته على قدرته وغناء من خلقه وصفاته التي لا يشاركه فيها غيره، والاشراق وقت طلوع الشمس يقال: شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا اضاءت " والطير محشورة " وتقديره وسخرنا الطير محشورة أي مجموعة من كل ناحية إليه يعني الطير والجبال " له أبواب " أي رجاء إلى ما يريد. وقيل: مسخرة - ذكره قتادة - وقال الجبائي لا يمتنع أن يكون الله خلق في الطيور من المعارف ما تفهم به مراده وأمره من نهيه فتطيعه في ما يريده منها. وإن لم تكن كاملة العقل، ولا مكلفة.

ثم قال " وشددنا ملكه " يعني قوينا ملكه بالجنود والهيبة " وآتينا الحكمة " أي علمناه الحكمة " وفصل الخطاب " ومثله قول البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه أي إصابة الحكم بالحق. وقال البلخي: يجوز أن يكون المراد بتسييح الجبال معه هو ما أعطى الله تعالى داود من حسن الصوت بقراءة الزبور، فكان إذا قرأ الزبور أو ذكر ما هو تسييح لله ورفع صوته بين الجبال رد الجبال عليه مثله كما يرد الصدى، فسمى الله ذلك تسييحاً لما تضمنه من الدلالة والاول أحسن.

قوله تعالى:

* (وهل أتيتك نبؤ الخصم إذ تسوروا المحراب (٢١)

إذ دخلوا على داود ففرع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط (٢٢) إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب (٢٣) قال لقد ظلمك

(٥٥١)

بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب (٢٤) فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) * (٢٥) خمس آيات.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيه وصورته صورة الاستفهام والمراد اخباره بما كان من قصة داود من الحكم بين الخصمين وتنبئيه على موضع إخلاله ببعض ما كان ينبغي أن يفعله فقال " وهل أتاك نبؤ الخصم " يعني خبره فالنبأ الخبر بما يعظم حاله " إذ تسوروا المحراب " يعني حين سعدوا اليه.

والخصم هو المدعي على غيره حقا من الحقوق المنازع له فيه، ويعبر به عن الواحد والاثنين والجماعة بلفظ واحد، لان أصله المصدر، فنقول: رجل خصم، ورجلان خصم، ورجال خصم، ولذلك قال " إذ تسوروا المحراب " لانه أراد المدعي والمدعى عليه ومن أتبعهما، فلا يمكن أن يتعلق به في أن أقل الجمع اثنان، لما قال " خصمان بغى بعضنا على بعض " لانه أراد بذلك الفريقين، والخصم من خصمته اخصمه خصما. والتسور الاثنيان من جهة السور، يقال تسور فلان الدار إذا أتاهما من قبل سورها، وكانوا أتوه من اعلى المحراب، فلذلك فزع منهم، والمحراب مجلس الاشراف الذى يحارب دونه لشرف صاحبه، ومنه سمي المصلي محرابا وموضع القبلة ايضا محراب وقوله " إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض " معناه إن هؤلاء حين دخلوا على داود من غير الجهة التي اعتاد

(٥٥٢)

الدخول عليه منها فزع منهم، لانه ظنهم أعداء يريدون به سوء فقالوا له (خصمان) ولم يقولوا: نحن خصمان يعني فريقان لانهما كانا ملكين ولم يكونا خصمين ولا بغى احدهما على الآخر، وإنما هو على المثل " فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط " معناه ولا تجاوز الحق ولا تجر ولا تسرف في حكمك بالميل مع أحدهما - على الآخر، يقال أشط في حكمه إذا جار يشط فهو مشط وشططت علي في السوم تشط شططا قال الشاعر:

ألا يا لقومي قد اشطت عواذلي * ويزعمن أن اودى بحقي باطلاي (١)
وقال آخر:

يشط غدا دار جيراننا * وللدار بعد غد بعد وقوله " وأهدنا إلى سواء الصراط " معناه أرشدنا إلى قصد الطريق الذي هو طريق الحق ووسطه، كما قال " فاطع فرآه في سوء الجحيم " (٢)
ثم حكى تعالى ما مكان أحد الخصمين لصاحبه، فقال " إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة " قال وهب بن منية: يعني أخي في ديني وقال اكثر المفسرين انه كنى بالنعاج عن تسع وتسعين امرأة كانت له وان الآخر له نعجة واحدة يعني امرأة واحدة. وقال الحسن: لم يكن له تسع وتسعون امرأة وإنما هو على وجه المثل. وقال أبو مسلم محمد بن بحر الاصفهاني:

أراد النعاج باعيانها، وهو الظاهر غير انه خالف أقوال المفسرين. وقال هما من ولد آدم، ولم يكونا ملكين وإنما فزع منهما لانهما دخلا عليه في غير الوقت المعتاد، وهو الظاهر غير انه خلاف أقوال المفسرين على ما قلناه.

وقوله " فقال اكفلنيها " معناه اجعلني كفيلا بها أي ضامنا لامرها.

(١) مر في ٧ / ١٥ (٢) سورة ٣٧ الصافات آية ٥٥ (*)

(٥٥٣)

ومنه قوله " وكفلها زكريا " (١) وقال ابو عبيدة معناه ضمها اليها، وقال ابن عباس وابن مسعود معنى اكفلنيها انزل لي عنها " وعزني في الخطاب " أي غلبي في المخاطبة من قولهم: من عز بز أي من غلب سلب. وقال ابن زيد: معناه قهرني. وقال ابو عبيدة: معناه صار أعز مني، فقال له داود " لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه. وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض " ومعناه إن كان الامر على ما تدعيه لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، فاضاف السؤال إلى المفعول به وهي النعجة وإن أضيف إليها.

ثم اخبر ان كثيرا من الشركاء والخلطاء ليبغي بعضهم على بعض فيظلمه.

وقال أصحابنا: كان موضع الخطيئة أنه قال للخصم لقد ظلمك من غير ان يسأل خصمه عن دعواه وفي آداب القضاء ألا يحكم بشئ ولا يقول حتى يسأل خصمه عن دعوى خصمه، فما أجاب به حكم به. وهذا ترك النذب في ذلك، وفي ذلك قول آخر، وهو إن في الناس من قال: إن ذلك كان صغيرة منه وقعت مكفرة، والشرط الذي ذكرناه لابد فيه، لانه لا يجوز ان يخبر النبي ان الخصم ظلم صاحبه قبل العلم بذلك على وجه القطع، وإنما يجوز مع تقرير الشرط الذي ذكرناه. ثم استثنى من جملة الخلطاء الذين بعضهم يبغي على بعض الذين آمنوا بالله وعملوا بما يوجب عليهم، فانهم لا يفعلون ذلك. ثم قال وقليل الذين كذلك، فروي أن الملكين غابا من بين يديه فظن عند ذلك أن الله اختبره بهذه الحكومة وابتلاه. وقرئ (فتناه) بالتخفيف بمعنى أن الملكين فتناه بها. وقال قوم الظن العلم كأنه قال: وعلم داود ذلك

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٣٧ (*)

(٥٥٤)

وقال آخرون: إنما ظن ظنا قويا وهو الظاهر. وقوله " فاستغفر ربه " معناه سأل الله المغفرة والستر عليه " وخر راکعا وأناب اليه " أي رجع اليه بالتوبة.

ثم اخبر تعالى انه أجاب دعوته وغفر له ذلك، وأخبر ان له مع المغفرة عند الله لزلفى، والزلفى القربة من رحمة الله، وثوابه في جنته " وحسن مآب " فالمآب والمرجع والمصير والمآل واحد. ومن قال ان ذلك كان صغيرة وقعت مكفرة يقول: معنى قوله " فغفرنا له " بعد الانابة، وإن كانت الخطيئة غفرت في الدنيا. وقيل: انه خطب امرأة كان اوريا ابن حيان قد

خطبها فدخل في سومه، فاختروه عليه فعاتبه الله على ذلك، لان الانبياء يتزهون عن ذلك، وإن كان مباحا لانه مما ينفر على بعض الوجوه. وقيل: بل انفذ به إلى غزوة، وكان يحب ان يستشهد ليتزوج امرأته لانهما كانا تحاكما اليه فوقعت امرأته في قلبه واشتهاها شهوة الطباع من غير أن يحدث أمرا قبيحا. وأولى الوجوه ما قدمناه انه ترك الندب في ما يتعلق بأدب القضاء.

لان باقي الوجوه ينبغي ان ينزه الانبياء عنها لانها تنفر في العادة عن قبول أقوالهم، فأما ما يقول بعض الجهال من القصاص أن داود عشق امرأة أوريا، وأنه امره بأن يخرج إلى الغزو، وأن يتقدم امام التابوت وكان من يتقدم التابوت من شرطه ألا يرجع إلى أن يغلب او يقتل، فخير باطل موضوع، وهو مع ذلك خبر واحد لا أصل له ولا يجوز أن تقبل اخبار الآحاد في ما يتضمن في الانبياء ما لا يجوز على ادون الناس، فان الله نزههم عن هذه المنزلة واعلى قدرهم عنها. وقد قال الله تعالى " الله يصطفي من

(٥٥٥)

الملائكة رسلا ومن الناس " (١) وقال " ولقد اخترناهم على علم على العالمين " (٢) فكيف يختار تعالى من يتعشق نساء اصحابه ويعرضهم للقتل من غير استحقاق ولا يجوز مثل هذا على الانبياء إلا من لا يعرف مقدارهم ولا يعتقد منزلتهم التي خصهم الله فيها نعوذ بالله من سوء التوفيق.

وقد روي عن علي (عليه السلام) انه قال: لا أوتى برجل يقول إن داود ارتكب فاحشة إلا ضربته حدين احدهما للذنب والآخر لاجل النبوة. وقرأ ابن مسعود " تسع وتسعون نعجة " انثى، قال النحويون: هذا تأكيد، كما قال النبي: ابن لبون ذكر، وكما قال " طائر يطير بجناحية " وقال ابن جرير:

معناه تسع وتسعون نعجة انثى أي حسناء، قال ابن خالويه هذا حسن جدا. قوله تعالى:

* (يا داود إنا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب (٢٦) وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار (٢٧) أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٧٥ (٢) سورة ٤٤ الدخان آية ٣٢ (*)

(٥٥٦)

المتقين كالفجار (٢٨) كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الالباب) * (٢٩) أربع آيات.

قرأ يحيى عن ابي بكر " لتدبروا " بالتاء وتقديره لتتدبروا من التدبر فحذف تاء الفعل وبقي تاء المضارعة، وتقديره: لتتدبر انت يا محمد والمسلمون ومن قرأ بالياء، فعلى ليتدبر المسلمون فيتقرر عندهم صحتها وتسكن أنفسهم إلى العلم بها.

لما اخبر الله تعالى عن داود انه رجع اليه وتاب واستغفر ربه عن التقصير الذي وقع منه في الحكم، وانه تعالى غفر له ذلك وأجاب دعوته، ووعد بالزلفى عنده والقربة من ثوابه ناداه ايضا فقال له " يا داود إنا جعلناك خليفة في الارض " والخليفة هو المدير للامور من قبل غيره بدلا من تدبيره، فداود لما جعل الله اليه تدبير الخلق فكان بذلك خليفة، ولذلك يقال: فلان خليفة الله في أرضه إذا جعل اليه تدبير عباده بأمره. وقيل:

معناه جعلناك خليفة لمن كان قبلك من رسلنا. ثم أمره فقال " فاحكم بين الناس " ومعناه افصل بين المختلفين من الناس والمنتازعين " بالحق " بوضع الاشياء مواضعها على ما أمرك الله " ولا تتبع الهوى " أي ما يميل طبعك اليه ويدعوك هواك اليه إذا كان مخالفا للحق، فلا تمل اليه " فيضلك عن سبيل الله " ومعناه انك متى اتبعت الهوى في ذلك عدل بك الهوى عن سبيل الله الذي هو سبيل الحق.

ثم اخبر تعالى " ان الذين يضلون عن سبيل الله " يعنى يعدلون عن العمل بما أمرهم الله به " لهم عذاب شديد " يعنى شديد ألمه " بما نسوا يوم الحساب "

(٥٥٧)

وقيل في معناه قولان:

احدهما - لهم عذاب شديد يوم الحساب بما تركوا طاعاته في الدنيا، فعلى هذا يكون يوم الحساب متعلقا ب (عذاب شديد) وهو قول عكرمة والسدي:

الثاني - قال الحسن " لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب " أي بما عرضوا عنه، صاروا بمنزلة الناسي، فيكون على هذا العامل في (يوم)

قوله " نسوا " .

ثم اخبر تعالى انه لم يخلق السماء والارض وما بينهما باطلا، بل خلقهما وما بينهما بالحق لغرض حكيم، وهو ما في ذلك من إظهار الحكمة وتعريض انواع الحيوان للمنافع الجليلة وتعويض العقلاء لمنافع الثواب، وذلك يفسد قول المجبرة الذين قالوا: إن كل باطل وضلال من فعل الله. وقوله " ذلك ظن الذين كفروا " معناه إن خلق السماء والارض وما بينهما باطلا ظن من يكفر بالله ويجحد وحدانيته وحكمته، ثم توعد من هذه صفة فقال " فويل للذين كفروا

من النار " ثم قال على وجه التوبيخ والتقريع للكفار بلفظ الاستفهام " أم نجعل الذين آمنوا... " معناه هل نجعل الذين صدقوا بالله وأقروا برسله وعملوا الصالحات مثل الذين أفسدوا في الارض وعملوا بالمعاصي؟! ! ام هل نجعل الذين اتقوا معاصي الله خوفا من عقابه كالفجار الذين عملوا بمعاصيه وتركوا طاعته؟! ! فهذا لا يكون ابداء. وكيف يكون كذلك وهؤلاء يستحقون الثواب بطاعتهم وأولئك يستحقون العقاب بمعاصيهم. وقال ابو عبيدة: ليس لها جواب استفهام فخرجت مخرج الوعيد. وقال الزجاج: تقديره، أنجعل الذين آمنوا وعموا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار، فهو استفهام بمعنى التقرير.

(٥٥٨)

ثم خاطب نبيه (صلى الله عليه وآله) فقال " كتاب انزلناه اليك مبارك " أي هذا كتاب انزلناه، يعني القرآن الذي أنزله الله عليه، ووصفه بأنه مبارك، لان به يستديم الناس ما أنعم الله عليهم به، وبين أن غرضه تعالى بانزال هذا القرآن " ليدبروا آياته " بأن يتفكروا في أدلته " وليتذكر أولو الالباب " يعني أولو العقول. وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبرة في خلق القبائح من حيث بين الله انه يعاقبهم جزاء بما نسوا طاعاته في الدنيا. وقوله " ذلك ظن الذين كفروا " يدل على فساد قول من يقول: ان المعارف ضرورة، لانهم لو كانوا عارفين ضرورة لما كانوا ظانين. قوله تعالى:

* (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب (٣٠) إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد (٣١) فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب (٣٢) ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والاعناق (٣٣) ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب (٣٤) قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي إنك أنت الوهاب (٣٥) فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب (٣٦) والشياطين كل

(٥٥٩)

بناء وغواص (٣٧) وآخرين مقرنين في الاصفاد (٣٨) هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب (٣٩) وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) * (٤٠) احدى عشرة آية. قرأ ابن كثير وحده " بالسوق " مهموزة. وقال ابن مجاهد: الرواية الصحيحة عنه " بالسوق " على فعول، ولما ضمنت الواو همزها، مثل وفيت وأفيت، فهذه رواية قنبل. وقرأ البزي "

بالسوق " مثل أبي عمرو، جمع ساق مثل باح وبوح. والباحة والصرح والعرصة والفناء واحد. ومثله قارة وقور للخيل الصغير. ومن همز سوق فعلى لغة من قال: (أحب المؤفدين إلى موسى)، فهمز انشده ابو الحسن لابي حبة النميري، ولانه لما لم يكن بينها وبين الضمة حاجز صار كأن الضمة عليه فهمز.

اخبر الله تعالى انه وهب لداود سليمان. فقال " نعم العبد " كان سليمان " انه اواب " أي رجاع إلى طاعة الله وطلب ثوابه. وقوله " إذ غرض " يجوز أن يتعلق بقوله " نعم العبد " أي نعم العبد حين عرض عليه، ويجوز ان يكون العامل فيه واذكر يا محمد إذ عرض على سليمان " بالعشي " يعني آخر النهار * (الصافنات الجياد) * والصافنات جمع صافنة، قال ابن زيد: صفن الخيل قيامها على ثلاث مع رفع رجل واحدة. يكون طرف الحافر على الارض وقال مجاهد: صفون الفرس رفع احدى يديه حتى يكون على طرف الحافر صفتت الخيل تصفن صفونا إذا وقفت كذلك قال الشاعر:

الف الصفون فما يزال كأنه * مما يقوم على الثلاث كسيرا (١)

(١) مرفي ٧ / ٣١٩ (*)

(٥٦٠)

وقال الزجاج والفراء وغيرهما: كل قائم على ثلاث صافن. والجياد السراع من الخيل فرس جواد كأنه يجود بالركض، كأنه جمع جود كما يقال: مطر جود إذا كان مدرارا ونظيره سوط وسياط. والعرض إظهار الشيء بحيث يرى ليميز من غيره، ومنه قوله * (وعرضوا على ربك صفا) * واصله الاظهار قال عمرو بن كلثوم:

واعرضت اليمامة واشمخرت * كأسياف بأيدي مصلتنا (١)

أي ظهرت وأعرض عني معناه أظهر جفوة بتولييه عني، وعرض الشيء إذا صار عريضا. وقوله تعالى * (إني أحببت حب الخير) * قال قتادة والسدي المراد بالخير - ههنا - الخيل والعرب تسمي الخيل الخير، وبذلك سمي (زيد الخيل) أي زيد الخير، وقيل في ذلك وجهان: احدهما - انه أراد احببت الخير، ثم اضاف الحب إلى الخير.

والثاني - انه أراد احببت اتخاذ الخير، لان ذوات الخير لا تتراد ولا تحب فلا بد من شيء يتعلق بها، والمعنى آثرت حب الخيل على ذكر ربي ويوضع الاستحباب موضع الايثار. كما قال تعالى * (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) * (٢) أي يؤثرون، وقوله * (عن ذكر ربي) * معناه إن هذا الخيل شغلني عن صلاة العصر حتى فات وقتها، وهو قول علي (عليه السلام) وفتادة والسدي، وروي أصحابنا انه فاته الوقت الاول، وقال الجبائي:

انه لم يفته الفرض، وإنما فاتته نفل كان يفعله آخر النهار ففاته لاشتغاله بالخيل.
وقوله * (حتى توارت بالحجاب) * معناه توارت الشمس بالحجاب يعنى بالغيوبية

(١) مر في ٧ / ٩٦ (٢) سورة ١٤ ابراهيم آية ٣ (*)

(٥٦١)

وجاز الاضمار قبل الذكر، لانه معلوم قال لبيد:
حتى إذا القت يدا في كافر * وأجن عورات الثغور ظلامها (١)
وقال ابومسلم محمد بن بحر وغيره: وذكر الرماني أن الكناية عن الخيل وتقديره حتى توارت
الخيل بالحجاب بمعنى أنها شغلت فكره إلى تلك الحال.
ثم قال لاصحابه * (ردوها علي) * يعني الخيل فلما ردت عليه * (طفق مسحاً بالسوق
والاعناق) * وقيل: ان الخيل هذه حربها من غنيمة جيش فتشاغل باعتراضها حتى غابت
الشمس وفاتته العصر، قال الحسن: كشف عراقبيها وضرب اعناقها، وقال لا تشغلني عن
عبادة ربي مرة اخرى. وقيل:
انه إنما فعل ذلك على وجه القربة إلى الله تعالى بأن ذبحها ليتصدق بلحومها لا لعقوبتها بذلك.
وإنما فعل ذلك لانها كانت أعز ماله فاراد بذلك ما قال الله تعالى * (لن تتالوا البر حتى تنفقوا
مما تحبون) * (٢) وقال ابو عبيدة:
يقولون: مسح علاوته أي ضربها. وقال ابن عباس: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقبيها حبا
لها. وقال ابومسلم محمد بن بحر: غسل اعرافها وعراقبيها إكراماً لها، قال: لان المسح يعبر
به عن الغسل من قولهم: تمسحت للصلاة.
ثم قال تعالى على وجه القسم * (ولقد فتنا سليمان) * ومعناه اختبرناه وابتليناه وشددنا المحنة
عليه * (والقينا على كرسیه جسدا) * قال ابن عباس:
القي شيطاناً اسمه صخر على كرسیه. وقال مجاهد: كان اسمه أصف. وقال السدي: كان اسمه
خنفيق وكان ملكه في خاتمه يخدمه الجن والشياطين مادام في يده، فلما أذنب سليمان نزع الله
منه الخاتم، وجعل مع الجنى فاجتمعت

(١) اللسان (كفر) (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٩٢ (*)

(٥٦٢)

عليه الجن والشياطين. وقيل: انه كان ذنبه انه وطئ في ليلة عدة كثيرة من جواريه حرصاً
على كثرة الولد. وقيل: كان ذنبه انه وطئ امرأته في الحيض.

وقوله * (ثم اناب) * يعني تاب إلى الله من خطيئته، فرد الله عليه الملك لان الجنى لما اخذ خاتمه رمى به في البحر فرده عليه من بطن سمكة - ذكر ما قلناه المفسرون - والذي قاله المفسرون من أهل الحق ومن نزه الانبياء عن القبائح ونزه الله تعالى عن مثل ذلك هو انه لا يجوز أن يمكن الله تعالى جنيا ليتمثل في صورة نبي لما في ذلك من الاستبعاد. وإن النبوة لا تكون في الخاتم وانه تعالى لا يسلب النبي نبوته، وليس في الآية شئ من ذلك، وإنما قال فيها انه ألقى على كرسيه جسدا. وقيل في معنى ذلك الجسد اقوال:

منها - إن سليمان قال يوما في مجلسه وفيه جمع كثير لاطوفن الليلة على مئة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاما يضرب بالسيف في سبيل الله، وكان له في ما يروى عدد كثير من السراري، فاخرج الكلام على سبيل المحبة لهذا الحال، فنزله الله عما ظاهره الحرص على الدنيا، لئلا يقتدى به في ذلك، فلم يحمل من نسائه إلا امرأة واحدة ولدا ميتا، فحمل حتى وضع على كرسيه جسدا بلا روح، تنبئها له على انه ما كان يجب ان يظهر منه ما ظهر، فاستغفر الله وفزع إلى الصلاة والدعاء على وجه الانقطاع، لا على أن ذلك كان صغيرة، ومن قال من حيث انه لم يستثن مشيئة الله في ذلك، فقله فاسد، لانه وإن لم يذكر مشيئة الله لفظا فلا بد من تقديرها في المعنى وإلا لم يأمن أن يكون خبره كذبا، وذلك لا يجوز على الانبياء عند من جوز الصغائر عليهم. قال الحسن وغيره لا يجوز على الانبياء.

(٥٦٣)

ومنها - انه روي ان الجن لما ولد لسليمان ولد قالوا: لنلقين منه ما لقينا من سليمان، فلما ولد له ولد اشفق منهم، فاسترضعه في المزن، فلم يشعر إلا وقد وضع على كرسيه ميتا تنبئها على ان الحذر لا ينفع مع القدر.

ومنها - انه ذكر انه ولد لسليمان ولد ابتلاه بصبره في إماتة ولده على كرسيه. وقيل: انه أماته في حجره، وهو على كرسيه، فوضعه من حجره.

ومنها - ما ذكره ابومسلم فإنه قال: يجوز ان يكون الجسد جسدا لسليمان وأن يكون ذلك لمرض امتحنه الله به، وتقديره والقينا منه على كرسيه جسدا لشدة المرض، كما يقولون: فلان لحم على وضم إذا كان ضعيفا، وجسد بلا روح تغليظا للعة، وقوة الضعف.

ثم حكى ما قاله سليمان حين أناب إلى الله، فانه سأل الله تعالى وقال * (رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي) * أي لا تسلبه كما سلبته في الدفعة الاولى، وقال ابو عبيدة معنى (لا ينبغي) لا يكون، وانشد لابن احمر:

ما ام غفر على دعاء ذي علق * تنفي القراميد عنها الاعصم الوقل في رأس خلقاء من عنقاء مشرفة * لا ينبغي دونها سهل ولا جبل (١)

وقال ابو عبيدة: أي لا يكون فوقها سهل ولا جبل احصن منها.
فان قيل: أليس ظاهر هذه الآية يقتضي الشح والظن لانه لم يرض بأن سأل الملك، حتى
اضاف إلى ذلك ألا يكون لاحد بعده مثله؟ ! قلنا قد ثبت أن الانبياء لا يجوز أن يسألوا
بحضرة قومهم ما لم يأذن الله لهم في ذلك، فعلى هذا لم لا يجوز ان يكون الله تعالى أعلم
سليمان أنه إن سأل ملكا لا يكون

(١) مر في ٧ / ١٥٣ (*)

(٥٦٤)

لغيره كان لطفاً له في الدين، وأعلمه أن غيره لو سأل ذلك لم يجب اليه، لانه يكون مفسدة
لغيره ولا صلاح له فيه، ولو أن احدنا صرح بمسألة بهذا الشرط بأن يقول: اللهم اجعلني ايسر
اهل زماني وارزقني مالا يساويني فيه احد إذا كانت المصلحة لي في ذلك لكان هذا جائزاً
حسناً، ولم يكن منسوباً إلى بخل، فلا يمتنع أن يسأل النبي ايضاً مثل ذلك.
وقيل: انه لا يمتنع أن يسأل النبي مثل هذه المسألة من غير إذن إذا لم يكن بمحضر من قومه
بعد ان يكون الشرط فيه مقدرًا.

وقيل فيه وجه آخر، وهو انه (عليه السلام) إنما سأل ان يكون ملكه معجزة لنبوته يبين بها من
غيره ممن ليس بنبي. وقوله * (لا ينبغي لاحد من بعدي) * معناه لا ينبغي لاحد غيري ممن
أنا مبعوث اليه، ولم يرد من بعدي إلى يوم القيامة من النبيين.

وقيل: انه لا يمتنع ان يكون المراد انه سأل ملك الآخرة وثواب الجنة الذي لا يناله المستحق
إلا بعد أنقطاع التكليف. ومعنى * (لا ينبغي لاحد من بعدي) * لا يستحقه بعد وصولي اليه
أحد من حيث لا يصح أن يعمل ما يستحق به الثواب لانقطاع التكليف.

ثم بين بعد ذلك انه اعطاه ما سأله فقال * (فسخرنا له الريح) * أي ذللناها له، والتسخير
التذليل * (تجري بأمره) * يعني الريح تتوجه إلى حيث شاء * (رخاء) * قال قتادة معناه
طيبة سريعة، وقال ابن زيد: لينة. وقال ابن عباس: مطيعة، وبه قال الضحاك والسدي
والرخاء الريح: اللينة وهو رخاوة المرور سهولته ووصفت باللين، لانها إذا عصفت لم يتمكن
منها، وإذا لانت أمكنت.

(٥٦٥)

وقوله * (حيث أصاب) * قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي:
معناه حيث أرا، يقول القائل: اصاب الله بك الرشاد أي اراد الله، والمعنى انها تتطاع له كيف
أراد، وقال الحسن: كان يغدو من أبله، ويقيل بغزوين ويبيت بكابل. والاصابة لحاق البغيّة،

يقال اصاب الهدف بالسهم يصيبه إصابة. ومنه الصواب إدراك الحق بالميل اليه، وقوله * (والشياطين) * نصبه بالعطف على مفعول * (فسخرنا) * وتقديره وسخرنا له الشياطين كل بناء وغواص ونصب (كل) على البدل من الشياطين وهو بعضه فالغواص هو الذي يغوص في الماء أي ينزل فيه تقول: غاص يغوص غوصا فهو غائص وغوصه تغويصا وكل الشياطين يغوصون له في البحار وغيرها من الأنهار بحسب ما يريد منهم ويبنون له الابنية العجيبة التي يعجز الناس عن مثلها. وقال قتادة: كانوا يغوصون في البحار يستخرجون له الحلي منها، وغير ذلك * (وآخرين مقرنين في الاصفاد) * الاصفاد واحدا صفاد، وهو الغل وجمعه اغلال. وقال السدي: السلاسل تجمع اليدين إلى العنق والصفد الغل. والصفد العطاء، وبعضهم يقول: اصفدني قال الاعشى:

(تضيفته يوما ف قرب مقدي - * واصفدني على الزمانه قائدا (١))

وذلك انه ارتبط من شكره بمثل الغل، و * (مقرنين) * هم الذين قرن بعضهم إلى بعض بالسلاسل.

ثم قال تعالى * (هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب) * قال الحسن: معناه هذا الملك الذي اعطيناك، فاعط ما شئت وامنع ما شئت. وقال قتادة والضحاك: معناه لا تحاسب على ما تعطي وتمنع منه يوم القيامة ليكون اهنأ لك

(١) ديوانه ٤٤ وقد مر في ٦ / ٣١٠ (*)

(٥٦٦)

ومعناه ليس عليك تبعة. وقيل: معناه بغير مقدار يجب عليك إخراج من يدك، ويكون بغير حساب، فامنن او أمسك وقال الزجاج: المعنى سخرنا لك الشياطين عطاء لك منا فاطلق منهم من شئت واحبس من شئت فلا حساب عليك منه.

ثم قال تعالى * (واين له) * يعني سليمان * (عندنا لزلفى) * أي لقربى زيادة على ما أعطيناه في الدنيا * (وحسن مآب) * أي وحسن مآل في العاقبة. قوله تعالى:

* (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب (٤١) أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب (٤٢) ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الالباب (٤٣) وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنت لنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب) * (٤٤) أربع آيات.

قرأ أبو جعفر * (بنصب) * بضم النون والصاد. وقراءة يعقوب بفتحهما.

الباقون بضم النون وإسكان الصاد، وهي لغات أربع. وقراءة هبيرة بفتح النون وإسكان الصاد. يقول الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) * (واذكر) * يا محمد * (عبدنا أيوب إذ نادى ربه) * فقال يا رب، لأن النداء هو الدعاء بطريقة يا فلان ومتى قال اللهم افعل بي وارزقني وعافني كان داعيا ولا يكون مناديا * (اني مسني

(٥٦٧)

الشیطان) * (اني) في موضع نصب لان تقديره، انه نادى بهذا القول، وتقديره بأني مسني فلما حذف الياء نصب (أني) و * (مسنى الشيطان) * أي وسوسني وذكرني ما كنت فبه من نعم الله في الالهل والولد والمال، وكيف زال ذلك كله وما حصل فيه من البلية طمعا فيه ليزله بذلك ويجد طريقا إلى اضلاله وتضجره وتبرمه، فوجده صابرا عند ذلك مسلما لامر الله تعالى. وقيل:

انه كان وسوس إلى قومه أن يستقذروه ويخرجوه من بيتهم ولا يتركوا امرأته التي تخدمه أن تدخل عليهم، لان فيه برصا وجزاما ربما عدا اليهم وكان أيوب ينادى بذلك ويألم به. والنصب والوصب والتعب نظائر، وفيه لغات اربع على ما حكيناها نصب ونصب مثل حزن وحزن ورشد ورشد ورشد، وعدم وعدم، ثم تسكن الصاد مع فتح النون تخفيفا وتضم النون والصاد اتباعا لما قبله. ونقيض النصب الراحة وأصله ألا نصاب يقال انصبني أي عذبني، وبرح بي، ومنهم من يقول: نصبني قال بشر بن أبي حازم:

تعنك نصب من أميمة منصب وقال النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب * وليل أقاسية بطئ الكواكب (١)

و * (عذاب) * اراد به ماكا يدخل عليه من ألم الوسوسة، فاجاب الله تعالى دعاه وقال * (اركض برجلك) * أي ادفع برجلك الارض، فالركض الدفع بالرجل على جهة الاسراع، ومنه ركض الفرس لاسراعه ذا دفعه برجله.

يقال: ركضت الدابة وركضتها أنا مثل جبر العظم وجبرته أنا، وحزن وحزنته أنا، وفي الكلام حذف وتقديره فركض برجله وظهر عين ماء، فقال الله

(١) مرفي ٥ / ٣٦٨ و ٦ / ٩٥، ٣٢٩ (*)

(٥٦٨)

له * (هذا مغتسل) * أي ماء مغتسل * (بارد وشراب) * وقال الحسن وقتادة: نبعث له عينان، فاغتسل من احدهما وشرب من الاخرى، فالمغتسل موضع الاغتسال. وقيل: كل ماء

يغتسل فيه فهو مغتسل وغسول - ذكره ابو عبيدة - وفي الكلام حذف، وتقديره إن أيوب اغتسل من تلك العين، فأزال الله تعالى عنه جميع ما كان فيه من الامراض.
ثم اخبر بما من عليه زيادة على صلاح جسمه، وزوال ألمه فقال * (ووهبنا له أهله) * لانه لما رد عليه أهله كان ذلك هبة منه مجددة * (ومثلهم معهم) * وتقديره ووهبنا له مثل أهله دفعة اخرى. وقد ذكرنا اختلاف المفسرين في ذلك - في سورة الانبياء - ون فيهم من قال اعطاه بكل امرأة امرأتين وبكل ولد ولدين في دار الدنيا. ومنهم من قال ذلك اخبار عما يهبه الله له في الآخرة. وقيل: إن الله تعالى أمطر عليه جرادا من ذهب وقوله * (رحمة منا) * معناه فعلنا ذلك لرحمتنا إياه، فهو نصب على انه مفعول له، ويجوز أن يكون نصبا على المصدر * (وذكرى لاولى الالباب) * أي وليتذكر به ويعتبر ذوا العقول فيصبروا كما صبر.

ثم حكى ما قال له فانه قال له * (خذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث) * فالضغث ملء الكف من الحشيش او الشماريخ وما أشبه ذلك قال عوف بن الجزع:
وأسفل مني فهدة قدر بطنها * والقيت ضغثا من حلا متطيب أي تطيبت لها. وقيل إنه كان حلف على امرأته لامر أنكره من قولها لئن عوفي ليضربنها مئة، فقليل له * (خذ ضغثا) * بعدد ما حلفت، فاضرب به دفعة واحدة، فانك إذا فعلت ذلك، فقد بررت قسمك، ولم تحنث، وهو قول قتادة والضحاك.

(٥٦٩)

وقوله * (ولا تحنث) نهي له عن الحنث.
ثم اخبر تعالى عن حال ايوب وعظم منزلته، فقال * (انا وجدناه صابرا) * لبلائنا مسلما لامرنا. ثم أتى عليه فقال * (نعم العبد انه أواب) * أي رجاع إلى الله منقطع اليه، وعندنا ان من حلف ان يضرب غيره مئة فضربه بشمراخ فيه مئة طاقة، فقد بر في يمينه، وفيه خلاف بين الفقهاء.
قوله تعالى:

* (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الايدي والابصار (٤٥) إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار (٤٦) وإنهم عندنا لمن المصطفين الاخير (٤٧) واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخير (٤٨) هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب (٤٩) جنات عدن مفتحة لهم الابواب (٥٠) متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب (٥١) وعندهم قاصرات الطرف أتراب (٥٢) هذا ما توعدون ليوم الحساب (٥٣) إن هذا لرزقنا ماله من نفاد) * (٥٤) عشر آيات.

قرأ ابن كثير * (واذكر عبدنا ابراهيم) * على التوحيد. والباقون على الجمع. وقرأ نافع *
(بخالصة ذكرى الدار) * مضافا. الباقون بالتثوين. من

(٥٧٠)

نون جعل * (ذكرى) * بدلا من (خالصة) وموضعه جر، ويجوز أن يكون نصبا باضمار
(اعني) او يكون معمول خالصة - في قول ابي عبيدة - ويجوز أن يكون رفعا باضمار هي
ذكرى، كما قال * (قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار) * (١) اي هي النار، قال ابو علي: (الدار)
يحتمل ان يكون الدنيا ويحتمل أن يكون الآخرة اي باخلاصهم ذكرى في الدنيا، فاذا حملت
على دار الآخرة، فعلى تقدير إخلاصهم ذكرى الدار. ويكون ذكرهم لها وجل قلوبهم منها ومن
حسابها، كما قال * (وهم من الساعة مشفقون) * (٢) فالدار عندهم على هذا مفعول به،
وليست كالوجه المتقدم. فأما من اضاف فانه يكون قد اضاف إلى المفعول، كأنهم باخلاصهم
ذكرى الدار والخوف منها اخلصوا ذكرها والخوف منها لله تعالى، ويكون على اضافة
المصدر إلى الفاعل وتقديره بأن خلصت لهم ذكرى الدار.

وقرأ اهل الكوفة إلا عاصما * (والليسع) * بلامين. الباقون بلام واحدة من قرأ بلامين ادخل
على اللام الالف واللام، ثم ادغم احدهما في الاخرى كما قال الشاعر:

وجدنا الوليد بن اليزيد مباركا * شديدا بأعباء الخلافة كاهله (٣)

لانه قدره تقدير النكرة، وقرأ * (هذا ما يوعدون) * بالياء ابن كثير وابوعمر، وفي سورة ق
ابن كثير وحده. الباقون بالتاء. من قرأ بالياء فللغبية، ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب، ومن قرأ
(عبدنا) على التوحيد يجوز ان يكون خص به ابراهيم بكونه عبدا له كما خصه بالخلة، ويجوز
أن يكون

(١) سورة ٢٣ الحج آية ٧٢ (٢) سورة ٢١ الانبياء آية ٤٩ (٣) مر في ٤ / ٢٠٨ و ٧ / ٣٥ (*)

(٥٧١)

لان لفظه يدل على القليل والكثير. ومن جمع فلانه ذكر جماعة.

يقول الله تعالى مخاطبا لنبيه * (واذكر) * يا محمد * (عبدنا ابراهيم واسحاق ويعقوب) *
فمن قرأ بالجمع فلانه ذكر جماعة. ومن قرأ بالتوحيد فلان لفظة (عبد) لفظ جنس يقع على
القليل والكثير، ثم وصفهم فقال * (اولي الايدي) * يعني اولي القوة على العبادة *
(والابصار) * الفقه في الدين - في قول ابن عباس ومجاهد وقتادة - وقيل: * (اولي الايدي)
* معناه اولي الاعمال الصالحة، وقيل معناه اولي النعم في الدين، قال الشاعر:

فاعمل لما يعلو فمالك بال * ذي لا تستطيع من الامور تدان ثم اخبر تعالى عن حال هؤلاء الذين وصفهم، فقال * (انا أخلصناهم) * فالاخلاص إخراج كل شائب من الشئ ليس من شكله، فهؤلاء الابرار قد اخلصهم الله لنعيم الجنان بلطفه في ما لازموه من الاحسان. وقوله * (بخالصة ذكرى الدار) * معناه انا اخلصنا ابراهيم واسحاق ويعقوب بخلة خلصت لهم. ثم قال * (ذكرى الدار) * بدلا من * (خالصة) * اي يذكرون بدار الآخرة ويزهدون في الدنيا، ويجوز ان يكون المعنى انهم يكثررون ذكر الآخرة والرجوع إلى الله، ومعنى * (أخلصناهم) * اصفيناهم، قال الطبري: معناه اخلصناهم بأفضل ما في الآخرة، هذا على قول من اضاف، وهو قول ابن زيد. ومن نون فالمعنى الخالصة التي اخلصناهم بها هي ذكرى الدار للعمل لها فناهيك بها من خالصة ادت اليها وهي الجنة.

ثم قال * (وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار) * والاصطفاء إخراج الصفوة من كل شئ فهم صفوة وغيرهم كدر، فالله تعالى اصطفى هؤلاء الانبياء بأن اختارهم لنبوته بحسب ما سبق في علمه انه يكون منهم من القيام باعباء

(٥٧٢)

النبوّة والمسارعة إلى الخير والتبرز في الفضل. والذكر الذي يحتاج اليه على وجهين: ذكر ما يجب بالرغبة فيه والدعاء اليه وذكر ما يتقى بالرهبة منه والتحذير منه. وفي ذلك تمام الداعي والصارف للذين تقتضيهما الحكمة.

و * (الاخيار) * جمع خير على وزن (أموات) جمع (ميت) وهو من يفعل الافعال الكثيرة الحسنة. وقيل هو جمع (خير) ومثله (الابرار) جمع (بر) وصفوا بالمصدر. وقال مجاهد وقتادة: * (ذكرى الدار) * دار الآخرة وقال ابن زيد: هي دار الجنة. كما قال تعالى * (ولنعم دار المتقين) * (١) قيل: إنهم كانوا يذكرونها للعمل لها ودعاء الناس اليها. وقيل: ذكرى الدار بالثناء الذي ليس لغيرهم من اجل قيامهم بالنبوّة. وقيل: الاصطفاء الاختصاص بمدحهم بأنهم هم الصفوة. وقيل: إنما خاطب الله النبي (صلى الله عليه وآله) أن يذكرهم بصبرهم وفضلهم ليسلك طريقهم ثم قال له (صلى الله عليه وآله) * (واذكر) * أيضا * (اسماعيل واليسع وذا الكفل) * بمثل ذلك. ثم اخبر عنهم بأنهم كلهم من الاخيار. وقيل ذو الكفل ذو الضعف من الثواب. وقيل كان اسمه ذلك. وقيل: سمي بذلك لانه تكفل بأمر انبياء خالصهم الله من القتل به. وقيل تكفل بعمل صالح فسمي به.

ثم قال تعالى * (هذا ذكر) * ومعناه إن ما اخبرنا عنهم ذكر أي شرف لهم وذكر جميل وثناء حسن يذكرون به في الدنيا * (وإن للمتقين لحسن مآب) * يعني حسن المرجع في الآخرة، لانهم يرجعون إلى الجنة. ثم بين ذلك المآب، فقال * (جنات عدن) * وهو في موضع جر

على البدل من (مآب) والجنت جمع جنة وهي البستان التي يجنّها الشجر * (عدن) * يعني موضع إقامة وخلود * (مفتحة لهم الابواب) * قيل تفتّح من غير كلفة، قال الحسن تكلم: انفتحي

(١) سورة النحل آية ٣٠ (*)

(٥٧٣)

انغلقى، ورفعت (الابواب) لان تقديره مفتحة لهم ابوابها، فدخلت الالف واللام بدلا من الاضافة، كما يقولون: مررت برجل حسنة عينه قبيح أنفه يريدون قبيح الانف - ذكره الفراء - وقال الزجاج: تقديره مفتحة لهم الابواب منها، ولو نصب (الابواب) لجاز، كقول الشاعر: فما قومي بتغلبة بن سعد * ولا بفزارة الشعث الرقابا هذا على شبه المفعول. ثم وصف تعالى الذين يحصلون في الجنة فقال * (متكئين فيها على الارائك) * فالالتكاء الاستناد إلى المساند، ومنه الوكاء لانه يستمسك به ما في الوعاء * (يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب) * أي يستدعون الفواكه للاكل والشراب للشرب * (وعندهم قاصرات الطرف اتراب) * يعني قصرن على ازواجهن فمالهن في غيرهم بغية، فالقاصر نقيض الماد، يقال هو قاصر طرفه عن فلان وماد عينه إلى فلان قال امرؤ القيس:

من القاصرات الطرف لودب محول * من الذر فوق الاتب منها لاثرا (٢)

والاثراب الاقران على سن واحد ليس فيهن هرمة ولا عجوز. قال الفراء: لا يقال الاثراب إلا في الاناث، ولا يقال في الذكران قال ابن أبي ربيعة:

ابرزوها مثل المهاة تهادي * بين عشر كواعب اتراب (١)

والتراب اللذة وهو مأخوذ من اللعب بالتراب. وقيل: اتراب على مقدار سن الأزواج من غير زيادة ولا نقصان. ثم قال تعالى * (هذا ما توعدون) * فمن قرأ بالتاء فعلى انه يقال لهم ويخاطبون بهذا القول. ومن قرأ بالياء فعلى الخبر عن حالهم * (ليوم الحساب) * يعني يوم الجزاء. ثم قال تعالى * (إن

(١) ديوانه ٩١ * (شرح السندوسي) * (٢) ديوانه ٥٩ * (دار بيروت) * (*)

(٥٧٤)

هذا) * يعني الذي وصفته من الجنة وما فيها من نواع اللذات * (لرزقنا ماله من نفاذ) * يعني من انقطاع لانه على سبيل الدوام، وهو قول قتادة. قوله تعالى:

* (هذا وإن للطاغين لشر ماب (٥٥) جهنم يصلونها فبئس المهاد (٥٦) هذا فليذوقوه حميم وغساق (٥٧) وآخر من شكله أزواج (٥٨) هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار (٥٩) قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار) * (٦٠) ست آيات بلا خلاف.

لما وصف الله تعالى أهل الجنة وما أعد لهم من أنواع النعيم فيها وصف ما أعد لاهل النار والعصاة من انواع العقاب، فقال * (هذا) * يعني هذا ما ذكرنا لاهل الجنة. ثم ابتداءً فقال * (وإن للطاغين) * وهم الذين طغوا في معاصي الله * (لشر مآب) * يعني شر مرجع. ثم بين ذلك المرجع فقال * (جهنم يصلونها فبئس المهاد) * وإنما وصف جهنم بأنها مهاد لما كانت عوضاً لهم عن المهاد، فسميت باسمه، كما قال * (فبشرهم بعذاب اليم) * (١) وقال قوم: هو على تقدير بئس موضع المهاد، والمهاد الفراش الموطأة تقول: مهدت له تمهيداً كقولك وطأت له توطئة، ومه مهد الصبي، لأنه يوطأ له. ثم قال * (هذا فليذوقوه حميم وغساق) * وتقديره هذا عذاب جهنم

(١) سورة آل عمران آية ٢١ (*)

(٥٧٥)

فليذوقوه حميم وغساق. ويجوز أن تجعله مستأنفاً كأنك قلت هذا فليذوقوه. ثم قلت منه حميم وغساق. أمرهم الله بذواق الحميم، لأن الذواق ابتداء إدراك الطعم على طلبه بالفم، ولذلك يقال: ذقته فلم أجد له طعماً لما فيه من طلب إدراك الطعم بالفم. ومن طلب إدراك الشيء كان أشد احساساً به. والحميم الحار الشديد الحرارة، ومنه الحمى لشدة حرارتها وحم الشيء إذا دنا وأحمه لهذا أي ادناه قال الشاعر:
احم الله ذلك من لقاء * احاد احاد في الشهر الحلال (١)
والغساق ما يسيل من صديد أهل النار. وقال ابن عمر: هو القيح الذي يسيل منهم يجمع فيسقونه، وقال كعب الاحبار: الغساق عين في جهنم يسيل اليها سم كل ذات حمة من عقرب وحية. وقيل: هو قيح شديد التن، يقال: غسقت القرحة تغسق غسوقاً. والتشديد والتخفيف لغتان. وقيل:

الغساق الزمهرير - في قول ابن مسعود - فلبرده يحرق كما تحرق النار. ثم قال * (وآخر من شكله أزواج) * معناه انواع أخر من شكل العذاب أزواج اي امثال. وقال الحسن: ذكر السلاسل والاعلال ونحوه، ثم قال * (وآخر من شكله) * مما لم ير في الدنيا.

والشكل - بفتح الشين - الضرب المشابه. والشكل - بكسر الشين - النظير في الحسن، ومن قرأ * (وآخر) * أراد الواحد. ومن قرأ * (وآخر) * أراد الجمع * (ازواج) * معناه اشكال. ثم قال * (هذا فوج مقتحم معكم) * قال الحسن يعني به بني إبليس، والآخر بنو آدم يقتحمون معكم النار وعذابها * (لا مرحبا بهم) * أي لا اتسعت لهم أماكنهم * (إنهم صالوا النار) * أي لازموها. قال الفراء:

(١) اللسان * (حمم) *

(٥٧٦)

هي الامة بعد الامة تدخل النار. وقوله * (لا مرحبا بهم) * من قول أهل النار، كما قال * (كلما دخلت أمة لعنت اختها) * (١) وقيل هم اتباع الرؤساء في الضلالة قيل لهم لا مرحبا بهم، وهو نصب على المصدر * (قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم انتم قدمتموه لنا فبئس القرار) * حكاية ما يردون عليهم من الجواب فانهم يقولون: بل انتم لا اتسعت عليكم أماكنكم قدمتموه لنا فبئس القرار الذي استقررنا عليه، وهو مثل قوله " ربنا إنا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا " (٢) وقرأ حمزة والكسائي وخلف (غساق) - بالتشديد - الباقون بالتخفيف وهما لغتان. وقرأ ابو عمرو وابن كثير * (واخر) * مضمومة الالف على الجمع. الباقون * (وآخر) * بفتح الالف ممدودة على التوحيد. ومن قرأ على الجمع، فلقوله * (ازواج) * وهما لا ينصرفان، لان (آخر) وزنه افعل واما آخر فلانه معدول عن الالف والام، لانه لا يستعمل في الجارية الكبرى والمرأة الاخرى إلا بالالف واللام، فلما عدلوه وعرفوه تركوا صرفه مثل (سحر)

إذا أردت سحر يوم بعينه تركت صرفه لانه معدول عن الالف واللام في السحر. قوله تعالى:

* (قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار) (٦١)
وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار (٦٢) أتخذناهم

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٣٧ (٢) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٦٨ (*)

(٥٧٧)

سخريا أم زاغت عنهم الابصار (٦٣) إن ذلك لحق تخاصم أهل النار (٦٤) قل إنما أنا منذر
وما من إله إلا الله الواحد القهار) * (٦٥) خمس آيات.
قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي اتخذناهم موصولة على وجه الاخبار. الباقرن بقطع الهمزة
على الاستفهام. وقرأ نافع وحمزة والكسائي * (سخريا) * بضم السين.
الباقرن بكسرهما.

حكى الله تعالى عن الكفار الذين اتبعوا غيرهم في الضلال وانقادوا لرؤسائهم فيه انهم يقولون
يوم القيامة إذا حصلوا في عذاب جهنم يا * (ربنا من قدم لنا هذا) * أي من سبب لنا هذا
العذاب ودعانا إلى ما قد استوجبنا به ذلك " فزده عذابا ضعفا " أي مثلا مضاعفا إلى مثل ما
يستحقه " في النار " احد الضعفين لكفرهم بالله تعالى والضعف الآخر لدعائهم إيانا إلى الكفر،
ثم حكى عنهم أيضا انهم يقولون " مالنا لا نرى رجالا كنا نعددهم من الاشرار " قال مجاهد
نزلت في أبي جهل والوليد بن المغيرة وذويهما انهم يقولون مع قرنائهم: ما لنا لا نرى عمارا
وخبابا وصهيبا وبلالا الذين كنا نعددهم في الدنيا من جملة الاشرار الذين يفعلون الشر والقبيح
ولا يفعلون الخير. وفي تفسير اهل البيت إن هذا حكاية عما يقوله اعداء أهل الحق، فانهم لا
يرون أهل الحق يوم القيامة لكونهم في الجنة وكون اعدائهم في النار وكانوا يعدونهم في الدنيا
من الاشرار.

ثم حكى انهم يقولون أيضا " اتخذناهم سخريا " فمن قطع الهمزة أراد

(٥٧٨)

الاستفهام الذي معناه التعجب والتوبيخ، ومن وصل أراد الاخبار، يعنون الذين كنا نعددهم من
الاشرار " اتخذناهم سخريا " فمن كسر السين جعله من الهزاء أي كنا نسخر منهم في الدنيا،
ومن ضم السين جعله من السخرة أي كنا نسخرهم ونستذلهم " أم زاغت عنهم الابصار " ومن
قطع الهمزة جعل (أم) معادلة ومن وصلها جعل (أم) بمعنى بل، قال مجاهد والضحاك " أم
زاغت عنهم الابصار " أي ابصارنا، فلا ندري اين هم. وقال الحسن:
كل ذلك قد مثلوا بهم اتخذوها سخريا وزاغت عنهم ابصارهم محقرة لهم.
ثم اقسام تعالى ان الذي حكاها من تخاصم اهل النار ومجادلة بعضهم لبعض " لحق " أي كائن
لامحالة.

ثم أمر نبيه (صلى الله عليه وآله) فقال " قل " يا محمد " إنما أنا منذر " أي مخوف من معاصي
الله ومحذر من عقابه " وما من إله " أي وليس من يحق له العبادة " إلا الله الواحد " الفرد "
القهار " لجميع خلقه المستعلي عليهم بسعة مقدوره لا يقدر احد على الخلاص من عقوبته إذا
اراد عقابه، ومن اختار وصل الهمزة في قوله " اتخذناهم " قال لانهم علموا انهم اتخذوهم

سخريا في دار الدنيا وإنما اعترفوا بذلك يوم القيامة، يقولون اتخذناهم سخريا بل زاغت عنهم ابصارنا محقرة لهم. ومن قطع الهمزة قال: هذا على وجه التوبيخ لنفوسهم والتبكييت لها. ثم قال ذلك أي ثم يقولون بل زاغت عنهم ابصارنا فلا نراهم.
قوله تعالى:

* (رب السموات والارض وما بينهما العزيز الغفار (٦٦)
قل هو نبؤ عظيم (٦٧) أنتم عنه معرضون (٦٨) ما كان لي من

(٥٧٩)

علم بالملاء الاعلى إذ يختصمون (٦٩) إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين) * (٧٠) أربع آيات.

قرأ أبو جعفر " إنما أنا نذير مبين " بكسر الهمزة. الباقيون بفتحها.
لما وصف الله تعالى نفسه بأنه الواحد القهار وصفها أيضا بأنه " رب السموات والارض " أي مالكها ومدبرهما ومدبر ما بينهما " العزيز " الذي لا يغالب لسعة مقدراته " الغفار " لذنوب عباده إذا تابوا.

ثم قال قل لهم يا محمد " هو نبأ عظيم " قال مجاهد والسدي يعني القرآن " هو نبأ عظيم " أي الخبر العظيم وقال الحسن: هو يوم القيامة.

ثم خاطب الكفار فقال " انتم " معاشر الكفار " عنه معرضون " عن هذا النبأ العظيم لا تعلمون بما يوجب مثله من اجتناب المعاصي وفعل الطاعات.

ثم أمر نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول أيضا " ما كان لي من علم بالمالا الاعلى إذ يختصمون " يعني بالمالا الاعلى الملائكة اختصموا في آدم حين قيل: لهم " إني جاعل في الارض خليفة " في قول ابن عباس وقتادة والسدي، فما علمت ما كانوا فيه إلا بوحي من الله تعالى. وقيل: كان اختصام الملائكة في ما كان طريقه الاجتهاد. وقيل: بل طريقه استخراج الفائدة، ولا يجوز ان يختصموا في دفع الحق.

وقوله " إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين " قيل في معناه قولان:

احدهما - ليس يوحى إلي إلا لاني أنا نذير مبين أي مخوف من المعاصي مظهر للحق.

الثاني - ليس يوحى الي إلا الانذار البين الواضح.

(٥٨٠)

قوله تعالى:

* (إذ قال ربك للملكة إني خالق بشرا من طين (٧١)

فاذا سويته ونفخت فيه من روعي فقعوا له ساجدين (٧٢)
فسجد الملكة كلهم أجمعون (٧٣) إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين (٧٤) قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين) * (٧٥) خمس آيات.
يقول الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) قل يا محمد " ما كان لي من علم بالملا الاعلى " من الملائكة " إذ يختصمون.... إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين " يعني آدم (عليه السلام)، لان الله تعالى خلقه من طين، فالخلق فعل الشئ على تقدير وترتيب وكان جعل آدم على مقدار ما تقتضيه الحكمة واصل الخلق التقدير. والبشر مأخوذ من البشرة، وهي الجلدة الظاهرة، والانسان مأخوذ من الانس، لانه يأنس بمثله في ما يؤنس به، فجرى عليه الاسم، لان هذا من شأنه " فاذا سويته " أي سويت خلق هذا البشر وتممت أعضاه وصورته " فقعوا له ساجدين " أي اسجدوا له. وقد بينا في ما مضى أن السجود كان لله تعالى وعبادة له وفيه تفضيلا لآدم على الملائكة وقوله " ونفخت فيه من روعي " فالروح جسم رقيق هوائي بها يتم كون الحي حيا لتخرقه في مخارق الانسان وهو مشتق من الريح، ومنه الراحة والاستراحة من الكد للخفة على النفس كالريح، ومنه الاريحة، والراحة كف

(٥٨١)

الانسان لما يتراوح الناس اليها في العمل، ومنه الرواح إلى المنزل للاستراحة ومعنى " ونفخت فيه من روعي " أي توليت خلقها من غير سبب كالولادة التي تؤدى اليها، لان الله تعالى شرف آدم بهذه الحال وكرمه. وفي الكلام حذف وتقديره إن الله خلق آدم الذي وعدهم بخلقه ثم إن الملائكة سجدت بأجمعها له إلا إبليس الذي أمتنع، وقد بينا اختلاف الناس في أن إبليس هل كان من جملة الملائكة، ومن قبلهم او كان في جملتهم يتناول الامر له بالسجود فلا تطول باعادته فمن قال لم يكن منهم، قال (إلا) بمعنى (لكن) وتقديره:
لكن إبليس استكبر وتجبر وامتنع من السجود له، وكان بذلك الاباء والمخالفة من جملة الكافرين.

ثم حكى ما خاطب الله تعالى إبليس به حين امتنع من السجود لآدم " ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي " على وجه التقريع له والتهجين لفعله، وإنما قال " بيدي " على وجه تحقيق الاضافة لخلقة الله تعالى، لانه أمر به او كان على سبب أدى اليه تعالى، والتننية أشد مبالغة، كما قال الشاعر:

دعوت لما نابني مسورا * فلي فلي يدي مسورا (١)

لتحقيق اضافة المبالغة إلى مسورا، ومثله قولهم: هذا ما كسبت يدك أى ما كسبته أنت قال الشاعر:

أيها المبتغي فناء قريش * بيد الله عمرها وفناء فوحد لتحقيق الاضافة. ثم قال له بلفظ الاستفهام والمراد به الانكار " استكبرت " يا إبليس أى طلبت التكبر بامتناعك من السجود له " أم كنت من العالين " الذين يعلنون على الخلق تجبرا وتكبيرا. وقرئ في الشواذ " بيدي

(١) اللسان (سور، لبيب) (*)

(٥٨٢)

أستكبرت " على وصل الهمزة. وروي ذلك عن مجاهد عن شبل ابن كثير اجتزاء ب (أم) عن الف الاستفهام. ويحتمل أن يكون على اليمين، كأنه أقسم فقال بنعمتي الدينية والدنيوية تكبرت بل كنت من العالين بهذا الفعل فتكون على هذا (أم) منقطعة وعلى الاول وهو المعروف تكون معادلة لهمزة الاستفهام:
قوله تعالى:

* (قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (٧٦)

قال فأخرج منها فانك رجيم (٧٧) وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين (٧٨) قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون (٧٩) قال فانك من المنظرين (٨٠) إلى يوم الوقت المعلوم (٨١) فبعزتكم لاغوينهم أجمعين (٨٢) إلا عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحق والحق أقول (٨٤) لاملان جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٨٥) قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين (٨٧) ولتعلمن نبأه بعد حين) * (٨٨).
ثلاث عشرة آية في الكوفي واثننا عشرة آية في ما عداه عد الكوفي " فالحق أقول " ولم يعده الباقون.

(٥٨٣)

قرأ عاصم إلا هبيرة وخلف وحمزة " قال فالحق " بالرفع " والحق " بالنصب.
الباقون بالنصب فيهما، من رفع تقديره فأنا الحق، ويجوز على تقدير فالحق لاملان كما تقول: عزيمة صادقة لآتينك، ويجوز على تقدير حذف الخبر، وتقديره:
فالحق مني لاملان. ومن نصب فعلى فالحق لاملان على القسم، كما تقول: والله لأفعلن، ويجوز في مثله حقا لاملان، ويكون (والحق أقول) اعتراضا بين الكلامين، ويجوز أن يكون النصب على تقدير اتبعوا الحق، أو أقول الحق. وقال ابو علي: من نصب (الحق) الاول فعلى اضمار (فعل) نحو ما ظهر في قوله " ليحق الحق " (١) وفي قوله " ويحق الله الحق " (٢).
لما حكى تعالى ما قال لابليس على وجه الانكار عليه " استكبرت أم كنت من العالين " حكى ما أجاب به إبليس، فانه قال " أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين " وقيل إن الله

تعالى خلق الملائكة من الريح فسموا بذلك روحانيين، وخلق آدم من الطين وخلق إبليس من النار، فظن إبليس إن النار أشرف من الطين لما فيها من النور، ولما يكون بها من الانضاح لاكثر ما يحتاج اليه ومن الاحراق الذي يقع به الزجر من العقاب فدخلت عليه الشبهة بهذا، وظن أنه افضل منه من حيث كان أصله افضل من اصل آدم، وكيف يجوز أن يفضل آدم **(عليه السلام)** عليه. وهذا يدل على ان السجود لآدم كان على وجه التفضيل له على جميع من أمر بالسجود له، وإلا لم يكن يمتنع من ذلك، ولم يعلم إبليس أن الله تعالى إنما امرهم بالسجود لآدم عبادة له، وإن كان تفضيلا لآدم وإن لهم في ذلك لطفًا في تكليفهم فلذلك أمرهم الله بالسجود له، ولو أنعم النظر في ذلك لزال شبهته. فقال

(١) سورة ٨ الانفال آية ٨ (٢) سورة ١٠ يونس آية ٨٢ (*)

(٥٨٤)

الله تعالى له " فاخرج منها " قال الحسن: يعني من السماء. وقال غيره:
من الجنة " فانك رجيم " أي مرجوم إن رجعت اليها بمثل الشهب التي ترحم به الشياطين.
وأصل الرجيم المرجوم، وهو المرمي بالحجر " وإن عليك لعنتي " يا إبليس ابعادي لك من
رحمتي " إلى يوم الدين " يعني يوم القيامة الذي هو يوم الجزاء. فقال إبليس عند ذلك يا " رب
فانظرنى " أي اخرنى " إلى يوم يبعثون " أي يوم يحشرون للحساب، وهو يوم القيامة فقال الله
تعالى له " فانك من المنظرين " أي من المؤخرين " إلى يوم الوقت المعلوم " أي اليوم الذي
قدر الله فيه امانتك، فعلى هذا لا يلزم أن يكون إبليس مغرى بالقبائح لعلمه بأنه يبقى، لانه لا
وقت إلا وهو يجوز أن يخترم فيه، ولا يقدر على التوبة فالزجر حاصل له. ومن قال إنه
اجابه إلى يوم القيامة يقول: كما أعلمه انه يبقى إلى يوم يبعثون، اعلمه ايضا انه من أهل النار
لا محالة، وانه لا يتوب وضح مع ذلك تكليفه، لانه يلزمه بحكم العقل أن لا يفعل القبيح من
حيث انه متى فعله زاد عقابه، ويضاعف على ما يستحق له وتخفيف العقاب عن النفس واجب
بحكم العقل، كما يجب اسقاط العقاب جملة.

ثم حكى تعالى ما قال إبليس فانه اقسم وقال " فبعزتك " يا الهي " لاغوينهم أجمعين " فالعزة
القدرة التي يقهر بها غيره من القادرين، و (الاغواء) التخييب، وإبليس يغوي الخلق بأن يزين
لهم القبيح ويرغبهم فيه. والغي خلاف الرشد، وهو الخيبة، يقال: أغواه يغويه إغواء، فهو
مغوي إذا دعاه إلى ما فيه الخيبة.

ثم استثنى من جملة من يغويهم " عباد الله المخلصين " مع حرصه على اغواء الجميع من
حيث أنه يئس منهم من حيث علم انهم لا يقبلون منه ولا

(٥٨٥)

ينقادون لاغوائه، وانه ليس له عليهم سلطان إلا بالاغواء، فاذا علم أن منهم من لا يقبل منه عرف ذلك عنه ليأسه منه. ومن فتح اللام من " المخلصين " أراد إن الله تعالى اخلصهم بما فعل لهم من اللطف الذي امتنعوا عنده من القبائح، ومن كسر اللام أراد انهم اخلصوا عبادتهم لله، لم يشركوا معه غيره.

ثم حكى تعالى ما أجاب به - عزوجل - لابليس، فانه قال له " فالحق والحق اقول لاملان " فمن رفع الاول اراد، فأنا الحق او فالحق لاملان واقول الحق. ومن نصب فعلى تقدير. فالحق لاملان، كما تقول حقا لاملان، ويكون " والحق اقول " اعتراض بين الكلامين ويكون العامل في (الحق) الثاني قوله " اقول " لاملان جهنم منك " يا إبليس " وممن تبعك منهم اجمعين " أي من تابعك على دعائك إلى المعاصي.

ثم خاطب النبي (صلى الله عليه وآله) فقال " قل " يا محمد " ما أسألكم عليه من اجر " أي ليس أسألكم أجرا على دعائكم إلى الله " وما أنا من المتكلفين " أي ولست ممن يتعسف في طلب الامر الذي لا يقتضيه العقل، وصفة (متكلف)

صفة تجري مجرى الذم، فلذلك قال " وما أنا من المتكلفين "، لانه لا يدعو إلا إلى الامر الجميل الذي يقتضيه الحق.

ثم قال " إن هو الا ذكر للعالمين " أي ليس هذا القرآن إلا شرف للعالمين " ولتعلمن نبأه بعد حين " قال الفراء: معناه ولتعلمن خبر القرآن وانه حق او خبر محمد أنه صادق بعد حين، قال الحسن: عند الموت يأتيك الخبر

(٥٨٦)

القين. وقال ابن زيد: يوم القيامة، والحين الوقت، وقال عكرمة: هو كقوله " تؤتي أكلها كل حين باذن ربها " (١) وذلك حين تصرم النخلة إلى حين تطلع ستة أشهر وهو مثل ما رواه أصحابنا سواء.

(١) سورة ١٤ ابراهيم ٢٥ آية تم المجلد الثامن من التبيان ويليهِ المجلد التاسع وأوله اول سورة الزمر طبع في مطابع النعمان في النجف الاشرف في شعبان سنة ١٣٨٢ هـ وفي كانون الثاني سنة ١٩٦٣ م